المقتطف ٧

الجزء الاول من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ يناير سنة ١٩٤٩ — ١ ربيع أول سنة ١٣٦٨

الروحانية وتطورها

عند البدائيين وفي العصر القديم

— ٣ —

إن تعاليم أفلاطون في النفس وعلاقتها بالبدن، قد تناثرت في خلال عدد من محاوراته، كتبت في خلال أوقات متفرقة. وفي أثناء الطور الطويل الذي مارس فيه نشاطه الفلسفي، جرى على آرائه كثير من التغير والتحوير. ومن أجل هذا، ومن أجل أن كثيراً مما كتب في النفس، قد صبّ في قالب «رَمْزيّة» استمدت من الروايات الأسطورية التي كان غرضها أدبيّ جماليّ أكثر منه علمي صرف، يصعب بل يتعذر أن نلخص مذهبه ونصبّه في قالب بين القسمات، أو نجلوه في عبارات محدودة المعاني جامعة التعريف.

إنّ نظرة أفلاطون في النفس كما صيغت مراميها في محاوراته الأولى، كانت جزءاً من نظرة له في «الوجوديّة» Ontological، كان للاخلاق فيها الأثر الرئيس. فأول شيء تأنسه من ذلك أنه فرّق بين عالمين: عالم المجهول وهو الوجود الحقيقي الذي يتألف من أفكار لا زمانيــة ثابتة، وعالم الايجاد وإليه ينسب أشياء الادراك الحسّي ويتضمن بالضرورة جسم الانسان.

أما الأرواح فوجودات من طبقــة ثالثة، مهمتها أن تتوسط بين ذينك العالمين. أما مكانها في ذلك المذهب الوجوديّ، فكان ذي صفة خاصة. فبمعنى مّا تتبع الأرواح العالمين معاً، لأنها تظل ناشطة فيهما. وللارواح علاقة بالأفكار، ومن طريق هـذه العلاقة

أو الصلة ، تأتي قدرتها على التأمل في الأفكار أو معرفتها . وهي كالأفكار لا ماديّة وحقيقية معاً . ولكنها بالضرورة مختلفة عن العالمين كليهما ، بحكم إنها تدركهما . وفضلاً عن ذلك فان الأرواح أكثر اختلافاً مع الأبدان ، إذ ليس في جوهرها شيء يتفق مع طبيعة الأجسام . أما نشاط الأرواح فمن ضربين : قدرتها على أن تعرف ، وقدرتها على أن تتحرّك أو أن تحدث الحركة . أما القدرة العرفانية فتمارس بطريقين مختلفين : فانها بطريق التأمل المباشر في الفكرات تحصل على المعرفة الحقيقية . ومن طريق مساعدة الكفايات البدنية تحصل على إدراك أشياء العالم الخارجيّ . وهذان الطريقان من النشاط العرفانيّ يفرّق بينهما في العادة بأنهما العقل والحسّ ، ولقد أشار إليهما أفلاطون فقال بأنهما من وظائف أجزاء الروح المختلفة . فكأنه اعتبرهما مصدراً لضربين مختلفين من المعرفة تختلف قيمتهما كل الاختلاف ، فأحدهما مصدر للمعرفة الحقيقية ، والآخر مصدر للآراء السائجة .

وفيما يتعلق بوظيفة الروح من حيث أنها مصدر الحركة أو عنصر الحركة ، فانه ينبغي لنا أن نلحظ أنه بينما يذهب الفلاسفة السابقون لأفلاطون الى أن الروح (أو الجواهر الروحية) إنما تتحرك حركة ذاتية في الفراغ، وانها ذات قدرة على نقل حركتها الى أشياء أخرى ، فان أفلاطون لم يعتبر الروح متحركة أو أنها في حركة ، بل إنها المصدر الذي يولد الحركة . هذا على الأقل ما يلوح للنقاد أنه رأيه في الروح . ذلك بالرغم من أن ارسطوطاليس قد نسب إليه اعتناقه للمذهب القديم ، وأخذ يفنده بطريقته المنطقية المعروفة .

هذا الموقف الوسط بين عالمي الوجود ، وهو الموقف الذي أنزلها فيه أفلاطون بين عالم الفكرات ، وعالم الأشياء المحسوسة، لم يرض الكثيرين من شرّاح أفلاطون ، حتى ان بعضهم قد قال بأن أفلاطون في أوائل أمره إذ بدأ بالتفريق بين ذينك العالمين ، قد استعصى عليه بعد ذلك ان يضع تفسيراً صالحاً لمشكلة النفس يلائم مذهب الوجوديّة الذي اتخذه أساساً لنظريته ، وان نظرته الثانية لم تكن غير تكييف نظري لمذهبه في الروح اضطره اليه موقفه الأوّل ، فعادت الروح عند أفلاطون فاحتلت المقام الأول والقيمة العليا ، بعد ان كانت في أول الأمر تذييلاً لنظرة وجوديّة أو تفريعاً عليها .

ومهما يكن من أمر النظرية الأفلاطونية في الروح ، فان علاقة الروح بالأفكار وتعاليم

أفلاطون في أنها لا مادية صرفاً وإنها خالدة لا تفنى ، أمور واضحة كل الوضوح في كتاباته الكثيرة . فروح الانسان ، ولو أنها مستمدة بصورة ما من الروح الأكبر أو الروح الكوني ، فانها ليست ظلاً أو أثراً من آثار الطاقة الكلية أو الحياة أو العقل ، على ما صوِّرت في فلسفة الأيونيين من قبل . إنها موجود فردي كامل الصفات ، وإنها أساس الشخصية . على هذه الصورة تكون الروح في عالم الوجود الكلي قبل ان تتجسد . ومن ذلك العالم تستمد الروح المعرفة بالآراء من طريق التذكُّر .وهكذا يكون شأنها في كل ما يقع لها من تجسدات تالية .

والنفس أو الروح ، بصرف النظر عن اتصالها بهذا الجسم أو ذاك من الأجسام العضوية، فان نشاطها نشاط عقلي صرف ، وارادتها هي إرادة الشيء الذي يفهمه العقل . ولكن إذا انفصلت عن عالمها الروحاني المحض، واتصلت بعالم المادة لحلت في جسم عضوي، فان الروح أو النفس تمارس فضلاً عما يقتضيه الاتصال بالبدن العضوي ، بعض وظائف سفلى كالانفعالات الصارخة والشهوات الجسمانية . وهذه الصور الثلاث التي تلابس النشاط النفسي، ترجع الى ثلاثة أجزاء تتركب منها النفس . وفي كتاب «طيماوس»: Trimaeus عينت بثلاث نفوس مستقلة ، لا ثلاثة أجزاء لنفس واحدة : النفس العاقلة ومقرها الرأس أو الدماغ ، والنفس الروحانية ومقرها القلب ، والنفس الحيوانية أو الشهوانية ومقرها الأحشاء . ولكن الظاهر من عبارات أفلاطون أن هذه المعاني لا ينبغي أن تؤخذ على ظاهرها، ذلك بالرغم من أن أفلاطون قد يتكلم بعض الأحيان عن الوظيفتين السفليين للروح كأنهما من خصائص نفس فانية ، ويصمت صمتاً كلياً عن التعريف بالمدى الذى يصل تينك الوظيفتين بالروح بعد ان تخلص من قيد البدن . على ان هذه الأجزاء الثلاثة التي تتألف منها النفس يمكن أن تعتبر ثلاث مدارج تلابس الوظيفة العقلية، لا مظاهر نشاط تصدر عن ثلاثة نفوس أو ثلاث كفايات . أما العليا من هذه الكفايات فهي وحدها التي يمكن أن تمارس بعيداً عن الجسم ، أي بعد الانفصال عنه .

* * *

العقل يحكم الكفايات الدنيا ، ولكنه لا ينجح في ذلك في جميع الظروف والحالات . فاذا أفلتت هذه الكفايات الدنيا من حكم العقل ، متخذة البدن مطية وطريقاً الى الاسفاف،

فان النفس تعاني التنكس والاتضاع ، وينبغي لها حينئذٍ أن تتجسد ثانية في قوالب بدنية أحط من تلك التي تجسدت فيها ، وقد تكون أبدان حيوانات . من طريق هذه التجسدات المتتالية تتمكن الروح من التحرر من ربقة السفالات بالاستقواء على النزعات السفلية التي يجبرها البدن على الخضوع لها . فاذا تمّ لها ذلك عادت الى محلها الحقيقي ، عالم الوجود الأبدي الذي لا شيء فيه من متاعب هذا العالم .

لا شك في أن تعاليم أفلاطون في النفس وتقمصاتها أي تجسداتها ، قد استمدّت في أكثر الأمر من المذهب « الأورفي » اللاهوتي : Orphic Theology . ولقد رفعت تعاليمه تلك العقيدة الدينية وأضفت عليها من جلال الفلسفة ، فكسب أنصاراً وزادت انتشاراً. والحقيقة ان مذهب أفلاطون في النفس آخر ما تطورت فيه فلسفة الروحانية في العالم الاغريقي ، ولو انها استمدّت أصلاً من مبادىء شاعت في مذهبين لاهوتيين : هما المذهب الأورفي والمذهب الديونيسي . فان أفلاطون استطاع أن يخلص الفكرة في النفس من تلك الازدواجية المادية التي شاعت في العقائد البدائية التي كانت ما زالت حتى عصره شائعة في المذهب الأورفي ، ومن طريق اصراره على التفرقة بين النفس والجسد ، استطاع لأول مرة في تاريخ الفكر ، أن يصور مذهب الازدواجية النفسيطبيعية ، ويوثق له بفكرة التبادل التأثيري بين النفس والبدن .

* * *

بالرغم من ذلك الصيت الضخم الذي اختصّ به اسم أفلاطون في عالم الفلسفة والتأمل ، فان مذهبه في الازدواجية النفسيطبيعية لم ينل كثيراً من الأنصار في خلال الأزمان التي عقبت انتشار مذهبه . بل قد لاح في بعض الأحيان كما لو أن هذا المذهب قد فقد كل تأثير له في عالم الفكر . فان الاتجاه العقلي عاد بُعَيْد أفلاطون الى التأمل المادي الذي وضعه الفلاسفة الأيونيون . فأنت قلما تعثر على بحوث في النفس شاعت بعد أفلاطون مباشرة فأخذت الفكرة الروحانية تفقد أهميتها وقيمتها في عالم الفلسفة . فما أشبه تلك الفترة بفترات نعهدها في تاريخ الفكر في خلال القرن التاسع عشر . ولكن عند ذاك ظهر المعلم الأول أرسطوطاليس ، فوقف بهامة الجبار على المدخل الأعلى لعالم الفلسفة .

١٠م .

نظرات في النفس والحياة

— ١١ —

نظرات لابرويير

لا تتم النظرات التي اقتبسناها من الأدب الفرنسي من غير اقتباس بعض نظرات لابروبير والتعليق عليها بما يناسبها من الآراء . وقد ترجم حياته ونقده الكاتب المطلع جورج نيقولاوس في عدد ماضٍ من أعداد المقتطف ، ولكنه لم يكثر من الاقتباس منه . وكنت قد اطلعت على إعلان عن ترجمة كتابه الأخلاق ولكني لم أره . وفي بعض التعليق الذي نضيفه الى نظراته ما يجلوها بذكر ما يوافقها أو يخالفها من آراء المفكرين. وقد كان لابروبير معاصراً للاروشفوكولد وهو ينحو نحوه وتارة يرتفع الى مستواه ، وتارة ينخفض عنه . ونجده في بعض نظراته يتردد في رد فضائل الانسان كلها وعيوبه الى الأثرة وحب الذات كما ردها لاروشفوكولد . والمفكرون مختلفون في هذا الرد كما سيتضح وقد درس لابروبير القضاء وزاول منصباً ادارياً في نورماندیا . ثم عين مربياً ومعلماً لدوق بوربون حفيد امير كوندي ، وانتخب عضواً في المعهد العلمي الفرنسي . وعندما أدركته المنية كان قد ألَّف من هذه النظرات ألفاً ومئة. فلعلَّ اكثاره سبب تفاوته فيها. وقد وصف الفلاح الفرنسي وصفاً ينذر بالثورة الفرنسية قبل أوانها . وهذه بعض نظراته وأفكاره :

(١) اذا صحَّ ما يقولون من أننا نشفق على التعساء إشفاقاً على أنفسنا أن نصير يوماً مثلهم تعساء ، فلماذا لا نعطف عليهم ولا نحسن إليهم ولا نشاركهم فيما ننال من النعمة إلا بهذا القدر الزهيد التافه ؟؟ . ولهذا أسباب منها : أنه اذا كان جانب من النفس يعطف ويحسن خشية أن تصير مثل من تحسن إليه، فان للأثرة جوانب أخرى تدفعها الى الاستئثار بخيرات الحياة . ثم ان الاحسان الزهيد التافه قد يُرضي ضمير المحسن فلا يُحسُّ ألماً، بل إن

الرحمة من غير إحسان ومعونة قد يعدها من يشعر بها تكفيراً عن كثير من وسائل الاستئثار بالخير، وان لم يصحب الرحمة برّ فتعيد الى نفس صاحبها الاطمئنان، وتدعوه الى استئناف الكفاح والمنافسة في خيرات الحياة . ومن عوامل الزهد في البر والاحسان الخوف اذا بذل المرء ما عنده أن يصير [مثل] من يحسن إليه . وكل هذا لا ينافي أن المرء قد يحسن احساناً زهيداً تافهاً خشية أن يصير مثل من أحسن إليه. وان الاحسان هنا من الأثرة وباعثه حب الذات . والتكفير عن وسائل الاستئثار أو عن السعادة .

على أن كثيراً من المفكرين ينكرون أن تكون كل دوافع النفس أساسها واحداً. وينكرون أن تكون كلها مردودة الى عامل الأثرة وحب الذات . قال هازليت إن أحاسيس النفس المتضاربة وأهواءها المتباينة وهواجسها المتنافرة تُبطِل أن يكون للنفس أساس واحد وهو حبُّ الذات، اذ كثيراً ما يتعس المرء نفسه لأسباب تافهة لا تفيده بل تضره. على أن هذا لا يمنع أن يكون مَرَدُّ كثير من الأمور التي تتعس المرء الى الأثرة الخرقاء الحمقاء التي تتعس المرء وهو يظن انها تسعده ، كما لا يمنع أن يكون الايثار نوعاً من الأثرة كأن ترجو به النفس العلاء والحمد وطيب الذكر والظفر بالايثار،فهي تتجنب الأثرة وتختار الايثار لأوجهٍ من النفع. واذا أخذ الانسان برأي شوبنهور في وحدة الحياة وانه مظهر من مظاهرها فحسب،وان اعتبار نفسه وحدة مستقلة من خطأ الحواس والاحساس استطاع أن يتخلص من بعض إثرته إلاَّ إذا عدَّ نفسه الممثِّل الأعظم لوحدة الحياة وإرادتها ، وإنه من أجل ذلك أحق بالخيرات والاستئثار بها . وكان (كانت) الفيلسوف الألماني يعد الواجب المفروض فكرة أولية في النفس . وقال ينبغي أن يعمل الانسان بحيث يصح أن يكون عمله وخلقه مبدأً عامًّا.وهذا مشتق من قول جان جاك روسو: ان كل انسان ينبغي أن تكون ارادته الخاصة مطابقة للإرادة العامة للأمة. وأعتقد أن كل هذه الآراء مشتقة من الفكرة القديمة التي توجد في كتب الأدب العربية كما توجد في الانجيل على لسان عيسى عليه السلام وهي: ينبغي للمرء أن يعامل الناس كما يود أن يعامله الناس، أي حب للناس ما تحب لنفسك . ومن الغريب أن الأستاذ توماس هوكسلي (أي هوكسلي الكبير) في مجموعة رسائله يرفض هذا المبدأ بدعوى أن كل إنسان يود أن يغتفر الناس قسوته وجرائمه

وآثامه، فلو اغتفرت كل الآثام والجرائم أصبح العالم فوضى وانتشر الشر . وبديهي أن هوكسلي فسرها على غير معناها ، إذ أن معناها : عامل الناس بمثل ما تود أن يعاملوك به من التعاون التام والامتناع عن القسوة والآثام في معاملتهم لك . على أن أداء الواجب ليس فكرة أولية كما زعم (كانت) بل هي فكرة مكتسبة ولا هي راسخة في النفوس ، بل كثيراً ما تنتفي في النفس وتحل محلها الأثرة الجامحة القاسية . ولكن مما لا شك فيه أن الانسان قد تتأصل فيه روح التضحية حتى يكون عمله بباعث نفسي عكس قوله ورأيه ، كما في قصة روبرت جرانت الكاتب الأمريكي المسماة (عمله ضد رأيه) وهي قصة رجل مفكر أبى أن يحبذ عمل انسان أودى بحياته في انقاذه طفلاً صغيراً لأن هذا المضحي الذي أنقذ الطفل ومات في أثناء انقاذه قد خلف زوجة وسبعة أطفال وهو كاسب رزقهم وتحمل المنكر عليه عمله اشمئزاز أصدقائه من رأيه ، ولكنه بعد زمن فعل مثل الفعل الذي أنكر تحبيذه بدافع خفي من نفسه فأنقذ طفلاً من الهلاك وهلك بسبب ذلك، وهذا يذكرني قصة (على الحدود) لموريس لي بلان وبها مفكر يرى أن الحروب لا تبطل الا إذا امتنع كل انسان عن القتال حتى ولو غزيت أمته في عقر دارها . ولكنه لما رأى الألمان أغاروا على الحدود حمل سلاحه بدافع غريزي من نفسه وذهب ليقاتلهم وليدافع عنها . وهذا غير ما فعل رومان رولان الكاتب الفرنسي الذي أبى الحرب وأبى القتال ورفض حمل السلاح وترك فرنسا وذهب الى سويسرا فسقط في نظر كثير من الفرنسيين. وقد قال «كانت» أن المرء لا يستطيع أن يحكم أن الواجب هو الذي يدفعه الى عمل من الأعمال إلا اذا كان هذا العمل يخالف رغباته المحبوبة السارة، وليس معنى ذلك أن الواجب لا يكون واجباً الا إذا كان كريهاً بغيضاً مخيفاً، وانما هذه فكاهة من شيلر الشاعر الألماني يداعب بها «كانت» وقد كان معجباً به . وبعد كل هذه الجولة في التفكير فاننا لم نقطع برأي بات في تساؤل لابروبير .

(٢) قلما يلتذ المرء أن يرى نفسه مكلفاً بمعاونة انسان في حاجة اليه. ولكن من الغريب أن الحظ السعيد اذا جعل هذا الانسان في غنى عنه وعن مساعدته فانه قد يسر لرفع العبء عنه، ولكن سروره لا يكون تامًا بل قد يمازجه شيء من الامتعاض كأنما ذلك الحظ السعيد الذي أغنى ذلك الانسان عنه قد انتقص من قدره ، لأن احتياج المحتاج اليه يشبع

غروره وزهوه بالرغم من عبثه . واشباع زهوه يدعو اطمئنانه الى قدر نفسه وعظمتها ، أو قل إن الأثرة في باطن نفسه كانت تفضل أن يزاد سعداً على سعد بأن ينال الحظ السعيد الذي ناله المحتاج اليه،ثم يظل ذلك المحتاج اليه محتاجاً اليه . وكذلك اذا نال صديق نعمة أو منزلة أو جاهاً فان المرء يبتهج بما نال صديقه ويسر له، ولكن سروره كثيراً ما يمازجه امتعاض خفي ، فالسرور بنعمة الصديق لا ينفي وجود عكسه من حسد أو تنغيص أو ألم، لأنه لم يزد حظّـا على حظ بدل أن ينال الحظ صديقه.وهذا من اجتماع الأضداد في النفس وقد تجتمع .

(٣) ان الذي يستطيع أن يصبر صبراً طويلاً قبل نيل ما يريد لا ييأس كل اليأس إذا لم ينله.أما الذي يترقب نيله بشغف ولهفةٍ لا صبر فيهما فانه أكثر تعرضاً لليأس. ثم هو إذا نال ما يريد لا يرى ما ناله بعد آلام اللهفة كفاء لما قاسى في سبيل توقع نيله وارتقابه من عنت الشغف واللهفة ، فكأنه لم ينله كله أو بعضه :—

وهذا اذا كان الشغف به لا يزال في نفسه كله أو بعضه أما اذا كان قد زال أكثره فان مارسيل بروست صادق في قوله إنه اذا تحققت الرغائب بعد زوال الشغف بها قنعنا منها بأقل مما كنا نقنع من قبل اذ الشغف لا يزال قاهراً حادًا .

(٤) الانسان يزداد مع الزمن ألفة لمن صنع معهم جميلاً وأحسن إليهم، ولكنه يزداد نفوراً ممن أساء إليهم.وذلك لأن رؤية الطائفة الأولى تزيد حسن رأيه في نفسه. أما الطائفة الثانية فان رؤيتها تذكره إساءته إليهم فتقلل من حسن رأيه في نفسه حتى ولو كان جانب من نفسه يباهي بقدرته على الإساءة فان جانباً آخر من نفسه يبصره بعيوب نفسه ولو كان ذلك عن طريق الوعي الباطن الخفي .

(٥) الناس يذمون الاسراف في كل الأمور إلا الإسراف في شكر نعمتهم عليهم، فانهم قلما يذمون الاسراف في شكر نعمتهم — الا اذا فطنوا الى أنه يراد به المزيد من النعم التي لا يريدون أن يجودوا بها — ولكن الناس في أكثر الأحوال يطلبون المزيد من شكر نعمتهم مهما بالغ الشاكر في شكرها ، ولا يرون شكره كفاء لما أولوه من النعمة ، بل يرون أنه دائماً مدين لهم بالشكر .

(٦) الحديث المحبوب لدى القلب أطيب من الحديث المقنع للعقل بحججه . ومن أجل ذلك تصغي النفس الى ما تود أن تسمعه أكثر من اصغائها الى ما يقنعها — بل هي تصنع أكثر من ذلك فتستنبط للحديث الذي تود أن تسمعه براهين وأدلة كي تقنع نفسها أنه أقنعها، وإنها لم تصغ إليه لأنه محبوب تود سماعه، بل أصغت إليه لأنه يدلي بالمنطق الحق والبرهان الصادق، وأحياناً لا تكلف نفسها مؤونة ذلك وتكتفي بأنه حديث شائق محبوب تود سماعه .

(٧) الرجل يصعب عليه، لا سيما اذا كان على شيء من الكبر، أن يغتفر لآخر اطلاعه على سقطة أو زلة أو سيئة بدرت منه ، وخاصة ان كان عند المطلع على زلته أسباب وجيهة تدعوه الى مؤاخذته أو لومه ، ولا يهدأ غضب صاحب السقطة أو الزلة أو السيئة إلا إذا ألزم الآخر مثلها وأظهره في مظهر شبيه بها فكأنه بذلك يمحو أو يخفي أو يهون من أمر زلته أو عيبه ، ويزداد قدراً لدى نفسه . ولما كانت العيوب والسيئات شائعة بين الناس كثيراً ما يتعاونون لتهوين زلاتهم بالزام غيرهم سيئات مثلها .

(٨) كثيراً ما تصدر من المرء أعمال عظيمة واحساسات نبيلة فتنسب الى حب الخير الغريزي في النفس البشرية. والحقيقة انها بسبب ما اكتسبه بالعادة والمراس والمحاكاة للخلق السائد الممدوح لدى الناس، فان هذه الأمور تكسب المرء قوة خلقية. أما غريزة الخير فانها تضعف لولا العادة والقدوة وهما يزيدانها تمكناً .

(٩) كثيراً ما يكون ضعف المرء وعجزه باعثين له على البغض والكره والمقت، إذ لو كان قادراً غير عاجز للجأ الى وسائل أخرى . والرغبة في الانتقام وطول التفكير فيه هما بسبب هذا الضعف لأنه لم تتم له بعد أسباب القدرة عليه ، فضعف المرء يدعوه الى كره الناس. ولكن كسله وحبه الراحة والدعة والاطمئنان والسكينة أمور قد تدعوه الى التخلي عن كرهه وعن محاولة التشفي . ومن أجل ذلك كان من الصعب ان يقهر المرء غضبه في أول الأمر إذا غضب على انسان ، ولكن اذا تراخى به الزمن كان من الصعب أن يعاني شعور الغضب والبغض على الدوام لأنه يقلل من راحته وهناءته، إلا اذا جعل للسخط والرضا تداولاً وتعاقباً على نفسه .

(١٠) من الصعب محاولة إغراء المرء باتباع رأيك في الأمور الكبيرة قبل ان تتمكن من أن تعوّده على اتباعه في الأمور الصغيرة التافهة. فان المرء يأنف ان يعمل حسب ما يوحي به غيره — حتى ولو كان صواباً — إلاّ إذا كان الموحي المغري صاحب لباقة تمنع الموحى اليه من الشعور بالأنفة والغضاضة والهوان اذا اتبع رأيه، وتنيم إباء نفسه ان ينقاد لرأي غيره، فاذا لم يكن المغري بالرأي الموحى به صاحب لباقة كهذه اللباقة دفع المرء الاستحياء أو الكبر أو هوى النفس الى رفض ذلك الاغراء والتحكم، ولكنه اذا تعوّد أن ينقاد في الأمور الصغيرة التي لا يرى أنفة في الموافقة عليها بسبب زهادتها وتفاهتها، انزلق واسترسل به التعود فينقاد في الأمور الكبيرة. وهذه حقيقة يعرفها الناجحون في الحياة الذين يحملون الناس على قضاء ما يريدون وقد يحملون من هم أكبر عقلاً منهم، ومن تظن انهم لا ينقادون لأمثالهم وانما يفعلون ذلك باتباع هذه الحقيقة النفسية السيكولوجية. وكثيراً ما يكون الضعف سبب انقياد المرء لرأي غيره. ولكن الكسل وحب الراحة من أسباب هذا الانقياد. وهي حقيقة يستغلها ويستثمرها ذوو الالحاح لنيل مطالبهم، وكأنهم ينتهزون فرص استرخاء الكسل والدعة ومحبة الراحة ويعرفون صفاتها وأوقاتها فيهجمون في حالاتها على من يريدون الالحاح معه باللباقة كتلك التي وصفت.

(١١) قد يكون من الدهاء أن نعامل أعداءنا على أمل أن يكونوا يوماً أصدقاءنا، وان نعيش مع أصدقائنا على حذر من أن يصيروا يوماً أعداءنا. ولكن هذا يجافي أصول المودة والعداوة. وقد يدعو الى أخلاق غير فاضلة والى تكلف ما ليس من الصدق والنبل، والى استخدام الكذب والرياء. وأفضل من ذلك أن لا يصاحب المرء الاّ ذوي العقل والأمانة والشهامة الذين اذا صاروا أعداءه عادوه من غير أن يتعدوا حدود العقل والأمانة والشهامة — ولكن هل يستطيع دائماً أن يميز من لا يتعدون حدود العقل والأمانة والشهامة في عداوتهم ؟ . في بعض الأحايين يستطيع تمييزهم بأن يفحص معاملتهم لأعدائهم قبل أن يصادقهم . فاذا وجد انهم يعاملون أعداءهم بالخيانة وقلة الشهامة والرعونة، استطاع أن يعرف انهم لو صاحبوه ثم عادوه، عاملوه بمثل تلك المعاملة التي تدل على لؤم العداوة وخستها وغدرها وحماقتها .

(١٢) لو اننا لم نسر وتأنينا فلم نضحك إلاً بعد زوال جميع منغصات حياتنا ، وبعد كمال سعادتنا ، لكان من المخوف أن نموت قبل أن نضحك . والحقيقة ان الضحك أو حتى تكلف الضحك ، قد يقلل من متاعب الحياة . ولكن كثيراً من الناس يتشبثون بمنغصات حياتهم ومتاعبها ، بأن لا يبيحوا لأنفسهم الضحك إلاّ بعد زوالها فيكون تشبثهم بها بحرمان أنفسهم من الضحك باعثاً على بقاء متاعبهم وثقل عبئها .

(١٣) أحب الرغبات الى الانسان التي لا تتحقق ، لأنها متى تحققت وفاز بها ألفها واعتادها ووجد بعض الملل في نفسه إليها سبيلاً في بعض الأحايين فتقل قيمتها . وكثيراً ما نرى الرغبات التي تتحقق ويفوز بها الراغب تواتيه في غير أوانها الذي يسعد بها فيه أو توافيه في حالات من حالات نفسه . وفي ظروف من الحياة تقلل من المتعة بها . ولهذه الأسباب كلها تقل قيمة الرغبات اذا تحققت مهما كانت عزيزة محبوبة قبل الوصول إليها . فلا تقنع الفائز بها ، ولا ترتاح نفسه ، ولا تهدأ ، وهو كذلك لا ترتاح نفسه ، ولا تهدأ ، اذا لم تتحقق الرغبات بسبب ألم اللهفة . فالانسان قلما يرضى سواء تحققت رغباته أو لم تتحقق . وفي هذا عظة له وعبرة لو يعتبر .

(١٤) إنّ ألم الحزن لفقد من نحب أقل ثقلاً على النفس من نكد العيش مع من نكره . ومن منغّصات الحياة مع من نبغض ، لأن ألم الحزن على الفقيد المحبوب يصقله مرور الأيام ، ويكتسي وشياً من الذكريات الجميلة التي تكسب الحزن شيئاً من مباهج الجمال . أما العيش مع البغيض المكروه فانه يزداد ثقلاً على النفس فتزداد به غمًّا ما دام دائماً لم يزل .

(١٥) المودة المستكملة الصادقة في كل بواطنها ومظاهرها ، أندر وأقل حدوثاً من العشق الشديد . وفي المودة نأمن الصديق على أسرارنا بمحض إرادتنا . أما في الحب فلا إرادة فيه ، بل قد تذيع أسرارنا بالرغم منا . وقلما تزول الصداقة إلاّ لأسباب تدعو الى نقضها كالغدر أو الاساءة التي لا تقبل ، أو الجفاء الذي يدل على الغلظة . أما الحب فقد يوجد كأشد ما يكون بالرغم من هذه الأسباب . فاذا زال فقد يزول من غير ما سبب ، بل يفيق المحب الى أنه قد صار لا يحب حبيبه وهو هو لم يتغير . وقد يولد الحب بغتة من غير ارادة أو تفكير . أما المودّة فانها في حاجة الى العشرة والألفة والزمن كي تنضج ثمراتها . وقد يكون أشد الحب الحب المباغت من أول نظرة . وربّ نظرة الى وجه جميل أو يد رشيقة قد تصنع بالقلب في طرفة عين ، ما لا تصنعه أعوام طويلة زاخرة بالعطف والمودة وأداء المعروف .

(البحث بقية) ع . ش

مضاعفة شحنة النواة

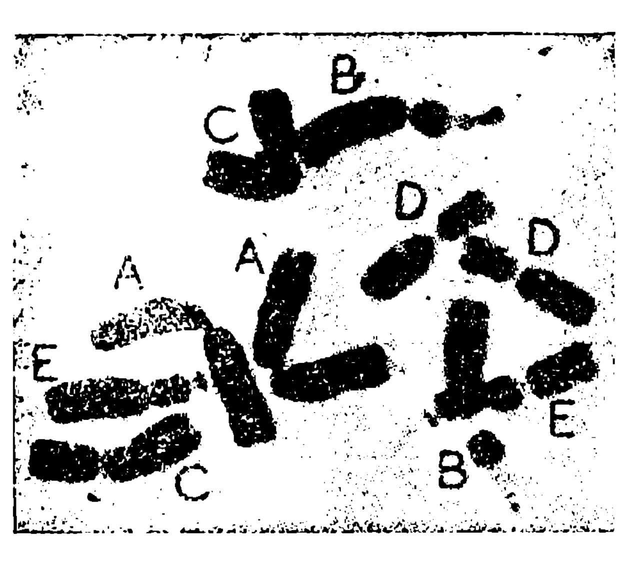
وأثر ذلك في النبات والغلات الزراعية

تنشأ النباتات والحيوانات من خلايا فردية ، هي في أغلب المتعضيات بييضات مخصبة . ويحدث التنشؤ الذي يتم بانقسام هذه الخلايا المتتابع ، ازدياداً مطرداً في عددها . فالكائن العضوي البالغ هو في الحقيقة ركام معقد التركيب ، يتألف من ملايين الخلايا . وقد تتغيّر هذه الخلايا شكلاً وبناء في اثناء عملية التنشؤ بطرق شتى ، وفقاً للوظائف الخاصة التي تؤديها الخلايا في الأنسجة المختلفة المقوّمة للكائن العضوي . فخلايا الجذور في النبات تختص بامتصاص الماء والأغذية المعدنية . وخلايا الورق تتهيأ تهيئة خاصة لتركيب الفحماويات (الكربوهدريتات) من ثاني اكسيد الكربون المنتشر في الجوّ .

والانقسام والتخلق ، اللذان يصيبان الخليّة ، كلاهما من عمليات الحياة الجوهرية ، وعلى فهمهما ومعرفة أسرارهما والاحتكام فيهما ، يتوقف كثير من الممكنات العملية ذوات الآثار البالغة ، بل إن لنا أن نقول إنه كما وجهت دراسة الذرّة (الجوهر الفرد عند القدماء) خطى التقدم في الكيمياء والفوزيقي ، كذلك سوف يؤدي درس الخلية الى تقدم ذي بال في علوم الأحياء والطب والزراعة .

ان الجسم الرئيس الذي يحتكم في الخليّة الحية هو النواة ، والذي من شأنه أن يتحول الى عناصر شبهعصوية ، تسمى الصبغيات ، قبيل أن تأخذ الخلية في الانقسام مباشرة . (أنظر الشكل ١) . وفي كل النباتات تقريباً تزود الخليتان الجرثوميتان : الذكرية والأنثوية: البيضية المخصبة بعدد متساوٍ من الصبغيات . وفي الأنواع التي تعتبر أبسط صور النباتات من الحيثية الوراثية ، يقابل كل صبغي في خلية اللقح الذكرية ، ندٌّ له يكون في الخلية

الجرثومية الأنثوية. وتعرف مثل هـذه النباتات التي يكون لها مجموعتين متناظرتين من الصبغيات باسم النباتات « ثنائية الأنداد » . وفي الشكل الأول صبغيات من نوع ثنائي الأنداد (Trillium) وقد يلاحظ أنه من الممكن ترتيبها أزواجاً وفقاً لحجمها وهيئتها . فصبغي من كل زوج قد استمد من بييضة ، والآخر من حبيبة لقح . وهكذا الحال في المجموعات الخمس E. , D , C, B, A (الشكل ١) .



شكل (١)

هذا على وجه الضبط ، هو الأسلوب الذي يتم به انتقال الوحدات الناشطة ، التي تسمى المورثات ، من الآباء الى الأبناء — وانما تنقلها الصبغيات من هؤلاء الى أولاء . والى هـذه المورثات تعود كل الخصيات الوراثية في النبات، كزمن البلوغ ومقدار الغلة وطرق النماء ومقاومة الأمراض ولون الأزهار والثمار ، وعلى الجملة كل ما يتعلق بفطرتها التي تجعل النبات ما هو في الحقيقة .

هذه الصبغيات المتقابلة في خليتي الذكر والأنثى ، يحمل كل منها مجموعة من المورثات لها خصيات معينة . ومعنى هذا علمياً أن النبات تحتكم فيه أفعال موحدة تصدر عن عدد متساو من المورثات تستمد من كلا الأبوين .

وفضلاً عن هذا فان هذه الصبغيات تتحكم في عملية انقسام الخلية في اثناء التنشؤ ، حتى أن كل خلية مولودة بالانقسام تكون حاوية عدداً من الصبغيات مساوٍ لعدد الصبغيات التي تكون في البييضة الملقحة الأصلية . ومن هنا نجد أنه بينما تختلف المتعضيات في عدد الصبغيات وطرازها ، بحكم أنها تحمل مورثات مختلفة ، فان كل خلية من خلايا الجسم في

كل نوع بعينه ، يكون فيها من الصبغيات نفس العدد الذي يكون في بقية الخلايا . ومثل ذلك أن كل خلية من خلايا الجسم في توت العليق (الفرمبواز) تحتوي على ١٤ صبغياً (أي مجموعتين كل منهما سبع)، والكرنب ١٨ ، واللفت ٢٠ ، والحصان ٧٨ ، والانسان ٤٨ ، وهكذا .

ففي أثناء الانقسام الفتيلي ، ويقصد به علمياً النمط الذي يجري عليه تولد الخلية والنواة في الأحياء ، تنقسم الصبغيات طولياً قسمين متساويين ، ثم تعود فتنتظم نفسها في مستوى واحد لتصبح صفحة مبسوطة عبر الخلية . وهذا هو المدرج الذي يظهر في الشكل (١) ، ويرى تحت المجهر اذا نظرت الى الخلية من طرف بعينه منها . (أما في الأشكال ٢ الى ٥ فتظهر في الخلايا منظورة جنبياً) . تأخذ الصبغيات المتولدة بعد ذلك في التحرك نحو طرفين متناظرين من الخليّة (شكل ٢) ، ومن ثمّ يتكوّن فاصل «أو جدار» بين تينكما المجموعتين المتوافقتين من الصّبغيات ، فينتج بذلك خليتين متولدتين تماثلان في كل شيء الخلية الأصلية التي عنها تنشأتا .

هذا المظهر الآلي للانقسام الفتيلي ، كان معروفاً منذ زمان مضى . ولكن المعلومات الجديدة قد مكنتنا من أن نفقه بصورة أكثر جلاء ودقة ، كيف أن التغيرات التي تصيب الخليــة ، تؤدي الى مظاهر من النماء والتنشؤ شاذة لاسوية . وإنا لنرى الآن أن التنشؤ السويّ يتضمن سلسلة معقدة

شكل (٢)

شكل (٣)

من الأفعال الفوزيكيميائية تجري في داخل الخلية على نمط من الدقة والضبط يبلغ مبلغ الاعجاز المطلق، وفضلاً عن هذا، فانه أصبح من الممكن أن نميز الحلقات النشوئية الأساسية في تلك السلسلة [1] وأن نرد أي انحراف يصيب سلوكها السوي، الى حلقة معينة منها.

فالشواهد التي استجمعت حتى الآن، تؤيد، مثلاً، نظرية أن أحد العوامل الجوهرية في التنشؤ السوي هو مقدار المدد الذي يصل الخلية من الحامض النووي — وأن تولد الصبغيات وتركيب البروتين، يتوقفان على هذه المادة. فاذا ندر المدد الذي يصل الخلية من هذا الحامض النووي، فان انقسام الخلية قد تتوانى نسبته، كما ان التنشؤ قد يقف البتة. فاذا فاض المدد الذي يصل الخلية من الحامض النووي، فان الانقسام الفتيلي تزداد نسبته تبعاً لذلك، حتى لقد يبلغ مبلغاً يصبح عنده النماء أو التنشؤ شاذاً أو خبيثاً. وعلى الجملة نقول إن التنشؤ، سوياً أو غير سوي، إنما يتوقف على الكمية المقدورة التي تصل من الحامض النووي لتوليد الصبغيات.

إن الأحداث التي تقع في داخل الخلية إنما تقع بتوافق تام، حتى ان أي خلل يصيب عاملاً من العوامل المحدثة لها، لا بد من أن يفسد الميزان الذي يحتفظ بالحالة السوية فيها. فقد نشهد في الأورام الخبيثة تكاثف الحامض اللبني في داخل الخلايا، والبحوث الحديثة التي تناولت فعل هذا الحامض في انقسام خلايا النبات، قد أوحى للبحاث بأنه ربما كان ذا أثر في إحداث ذلك الطور التنكسي في تلك الأورام. إنه يحدث خللاً في الانقسام الفتيلي إذ يتدخل في توزيع الصبغيات توزيعاً منظماً في الخلايا المتولدة، وتكون النتيجة حدوث اضطراب في تعيين عدد الصبغيات في الخلايا المتفرقة، على نفس الصورة التي نشهدها في المدارج الأخيرة من نماء الأورام الخبيثة.

هذه البحوث لم تمدنا في أن نفقه طريقة الانقسام الخلوي على صورة أوضح فحسب، بل كشفت لنا عن الأساليب التي بها نستطيع أن نحتكم فيها. وبينما نرى أن البحث في الكيميائيات التي تحد نماء الأورام لم ينجح حتى الآن غير نجاح جزئي، فانه أدى، من ناحية أخرى، إلى الكشف عن جواهر يمكن بها الاحتكام في انقسام الخلية في النبات بحيث يمكننا أن نحور بانتظام عدد الصبغيات.

(١) أي سلسلة الافعال الفوزيكيميائية.

أحد هذه الجواهر هو الكُلْشيسين (الزعفرين)،وكان الأستاذان « دستن ولِتز» من مدرسة الطب في بروكسل ، أول من كشفا عن فعله . وهو قلواني سام يستخلص من نبات اسمه « زعفران الخريف » ، وقد استعمل في الطب عقاراً لعلاج النقرس . والأشكال ٣ — ٥ تبين فعل هذا العقار في الصبغيات عند الانقسام الفتيلي . إن فعله ينحصر في أنه يمنع من تنسيق الصبغيات تنسيقاً منتظماً سويًّا في صفحة مبسوطة عبر الخلية،على ما نشاهد في الشكل (١) ، وبدلاً من ذلك تتوزع الصبغيات في الخليــة خبط عشواء على ما نشاهد في الشكل ٣ ، أما الصبغيات المتولدة من هذه وان كانت



شكل (٥) شكل (٤)

تنقسم وتنفصل على صورة سوية (الشكل ٤) ، فانها ما دامت لم تنسق على صورة منتظمة فانها تنفصل في اتجاهات شاذة ، وتختنق في تأليف مجموعتين متساويتين ، على ما يشاهد في (الشكل ٢) وتحت تأثير هذه الحالات ، لا يتكوّن جدار خلوي ليحدث بتكوّنه خليتان، وبذلك تحصل على خلية واحدة تتضمن من الصبغيات ضعف العدد السوي . فاذا عنينا بتنظيم استعمال هذا العقار بحيث لا يحدث هذا التضعيف في عدد الصبغيات غير مرّة واحدة في كل خلية بعينها ، أمكن توليد نباتات تحمل خلاياها من الصبغيات ضعف العدد السوي في خليــة عادية . وقد نجح كثير من علماء التوريث (التوريثيون) في أمريكا في استحداث نباتات تحمل خلاياها ضعف عدد الصبغيات في الحالة العادية، وقد سميت هذه النباتات « كثيرة الأنداد ». ومنذ ذلك الحين تحسنت طريقة استعمال ذلك العقار، وقد كشف عن عقاقير أخرى لها من الأثر بحيث يمكن باستخدامها استحداث صور « كثيرة الأنداد» من أي نبات نختار.[1]

(١) ننشر في العدد القادم من المقتطف بقية هذا البحث الطريف وسنشرح فيه طريقة استعمال هذه العقاقير

مفردات اصطلاحية

Glossary in Alphabetical Order

Active units	الوحدات الناشطة
Atom	الذرة.الجوهر الفرد عند القدماء
Autumn Crocus =Colchicum autumnale	زعفران الخريف
Biology	علم الأحياء
Carbohydrates	الفحماويات
Chrómosome-s	الصبغي — الصبغيات
Colchicine	الزعفرين : قلواني سام يستخرج من زعفران الخريف
Degenerative	التنكسي
Development	النشوء—التطور—النماء
Differentiation	التخلق
Diploid	ثنائي الأنداد (في النبات)
Division	الانقسام
Drug	العقار
Egg	البيضة أو البييضة
Female gem-cell	الجرثومة الخلوية الأنثوية
Fertilised Egg	البييضة الملقحة
Gene-s	المورثة — المورثات
Geneticists	التوريثي—التوريثيون
Genetics	علم التوريث
Germ-cell	الخلية الجرثومية
Gout	النقرس
Implications	الممكنات
Lactic Acid	الحامض اللبني
Male germ-cell	الجرثومة الخلوية الذكرية
Malignant	الخبيث
" tumours	الأورام الخبيثة
Mitosis	الانقسام الفتيلي
Nucleus	النواة
Nucleic Acid	الحامض النووي
Orientation	التنسيق—التنظيم
Partition	الانفصال
Physico-chemical	الفوزيكيميائي
Poisonous Alkaloid	القلواني السام
Pollen Grain	حبيبة اللقح
Polyploid	كثير الأنداد (في النبات)
Protein	البروتين
Rod-like	الشبهعصوي—العصواني
Supply	المدد
Triploid	ثلاثي الأنداد (في النبات)
Wall	الجدار

الشلال

بعثت شجوك ألحاناً تهيج بها … غافي الشجون من المحزون نيرانا
ما كنت تقصر عن شكوى ترددها … في الصبح شجواً وفي الامساء ارنانا
وشهقة تلو أخرى رحت ترسلها … من صبوة فلأت الليل احزانا
لما شدوت بمزمار الأسى اصطفقت … لك القلوب وحلت الكون آذانا
وناحت الطير كالولهان أجهده … عبء الأسى فبكى وجداً وتحنانا

*
* *

تساقط الماء من مجراك منهمراً … كديمة هطلت سحّاً وتهتانا
أكان ماؤك هذا مزنة خلصت … لمن أتى وردك اللجي ظمآنا
أم دمعة الوجد تهديها لمبتئس … أتاك ينشد أحباباً وخلانا
ترغي وتزبد في مجراك من صلف … معربداً وتجوب السهل سكرانا
وتقذف الماء أرماحاً مثقفة … ترمي بها كبد البيداء غضبانا
يبكي المتيّم ما هاج الحنين به … في ظلمة الليل أحباباً وأوطانا
وأنت تقضي الليالي دون ما سبب … كالمستهام شتيت اللب ولهانا

*
* *

كأن ماءك ذوب النور منسكباً … من يانع الفجر اشراقاً واحسانا
يبدل النور صمت الليل أغنية … ترن في مسمع الجوزاء ألحانا
وأنت تخلق من جدب الصعيد اذا … لمست تربته الكأداء بستانا
كم من يد لك عند الأرض صالحة … تفوح بالطيب كافوراً وريحانا
بسطت كفك للعافين من كرم … كأنك الغيث إغداقاً وتهتانا
وما مننت على عاف شفيت له … أواره أو رددت العمر انسانا
تفيض بالبذل والاحسان مستبقاً … سؤال كل لجوج رام احسانا
وغاية الجود بذل دون ما طلب … ينـدي الجبين له ذلاً وأشجانا

دمشق … عدنان مردم بك

دماء الذبائح
غذاء للانسان صالح

(١) مسحوق دموي حيواني يقوي لذة الاغذية ويغني آكله عن تناول اللحوم الفادحة الاثمان (٢) طريقة تحويل دماء الحيوان الطازجة غذاء سائغاً للانسان (٣) كيف يتاح تموين الملايين من الناس المحتاجين يومياً ببروتينات اللحوم الفاخرة بدراهم معدودات (٤) منافع الاحماض الامينية المركبة في علاج الامراض الناجمة عن سوء التغذية (٥) استعمال مساحيق أكباد الحيوانات ورئاتها وكلياتها وأطحلتها وقلوبها وغددها المختلفة الطازجة غذاء ودواء للمرضى والناقهين والنساء الحوامل (٦) استعمال خلاصات المعى الاثنى عشري الحيواني ومسحوق الكلاوة علاجاً لالتهاب القولون وتخفيف ضغط الدم :

سيظهر في السوق قريباً مسحوق لاطعم له ، محتوٍ على بروتينات[1] تعادل خمسة أمثال ما يوجد منها في أجود اللحوم ، يذاب في الحساء المعبأ في العلب ، فيزيده دسماً ، ويضاف الى طعام الفطور « بفتح الفاء » فيجعله ألذ طعماً ، ويخلط بالدقيق فيزخر إداماً ، ويُمزج بأعواد الحلوى فيصيرها أعظم مذاقاً .

وقد آن الأوان لتفريج أزمة اللحوم تفريجاً رائعاً ، بعد أن استحكمت حلقاتها في العالم قاطبة . إذ قام حديثاً عالم أمريكي من علماء الكيمياء الحيوية فجعل يوضح لأهل بلاده خاصة ، والعالم عامة ، كيف يتاح تموين ملايين الخلق ببروتينات اللحوم الفاخرة التي يفتقرون إليها كلَّ يوم ، وذلك بسعر لا يزيد على نصف قرش لكل فرد ! .

وقال إن في وسعه تزويد الملأ بمقادير ضخمة من المنتجات اللحمية المشار إليها ، بمثل هذا الثمن الزهيد . ولكن مما يستوجب أشد الأسف ، كون الناس ، ما برحوا يشمئزون من مصدر البروتين اللحمي الذي يصفه لهم هذا المخترع العصري (مع كون ذلك المورد ، مصدراً يزخر بالعناصر الشحمية) لزعمهم أنه غير صالح لتغذية الانسان ، فينبذونه كأنه من سقط المتاع . ثم هم لا ينتفعون به إلاّ سماداً « للأطيان » . على حين يستطاع بالوسيلة التي اخترعت لأجله حديثاً ، تحويل ذاك السقط الكريه المحتقر ، موادَّ جديدة ،

---

(١) راجع مقالنا على (البروتينات المصنوعة) وذلك في باب الاخبار العلمية المنشورة في مقتطف فبراير ١٩٤٨

عجيبة ، تصلح كل الصلاحية، غذاء للبشر. وما من شك أن كل امرىء ، ممن في وسعهم ابتياع أحسن ما يروقهم من شرائح اللحم اللذيذ ، لايتردد في الاقبال على شراء هاتيك المنتجات اللحمية العتيدة ، وذلك لما تتميز به من المزايا الغذائية الفريدة في نوعها .

وقد تدهش إذ تعلم أن أول مصدر لهذا اللحم الجديد «هو الدم الحيواني الجسيد [1] » ذلك الذي تتخلف منه مقادير ضخمة في المصانع الغذائية الكبرى التي تقوم بتعبئة منتجاتها في العلب . وقد فطن علماء الكيمياء الحيوية ، منذ حقب مديدة ، الى كون هذا السائل الحيوي ، يغص بالبروتينات والفيتامينات ، وسائر العناصر الغذائية الضرورية للحياة البشرية . بيد أن الشعوب المتحضرة تشمئز من طعم الدم ، وتكره رائحته وشكله . وهذا فضلاً عن صعوبة وقايته من الفساد .

وسرُّ تحويل الدم العبيط [2]، غذاء سائغاً ، يقوم بتجريده مما يحويه من الماء والمواد الشحمية تجريداً تامًّا والعالم الأمريكي الذي أسس هذه الصناعة الحديثة في مدينة مونتيشلّو في إقليم اللّينوي بالولايات المتحدة الأمريكية،سماها (منتجات ڤايوبين Viobin) وهي نتيجة مباحث مسهبة له في هذا الصدد .

وعندما يقوم هذا المخترع بتجفيف الدم ، ينقص وزنه الى مقدار ضئيل جدًّا من حجمه الأصلي . فيسهل عليه حينئذٍ تحويله مسحوقاً جافاً كل الجفاف ، خالياً من المواد الشحمية ، إذ يغدو مادة غريبة لم تكن معروفة من قبل .

وليس لهذه المادة الطريفة رائحة أو طعم . ويمكن تركها بلا تبريد وبغير تعبئة في العلب ، وذلك في مواضع مدفأة بالحرارة . أما منفعتها البيولوجية بصفة كونها طعاماً، فعظيمة جدًّا لأنها تظل في غضون طريقة صنعها من بدئها الى نهايتها ، في حالة جيدة ، وفي درجة حرارة تقل عما تقتضيها درجات حرارة الطبخ . فيصبح هذا الدم من الوجهة الغذائية ، قريباً من العبيط في خواصه الغذائية .

والدم الذي يدخر على هذا النمط ، سيعبد الطريق لانشاء صناعة لحمية حديثة لا يتسنى الآن تحديد مبلغها من الضخامة . ولا عجب ففي الحقب الأخيرة كان متوسط ما تخلف في مصانع كبس المأكولات في اقليم الينوي ، من هذا الدم ، بليوناً ونصف بليون رطل في السنة . وهذه الكمية تكفي للحصول على مقدار يزيد على ١٧٠ بليون جرام من ذلك الدم المصنوع . وبما أن ٣٠ جراماً من هذه المادة تكفي لوجبة تقتضي ½ رطل من اللحم ، فالمورد السنوي السابق الذكر يكفي إذن لخمسة بلايين وستمائة مليون وجبة غذائية .

---

(١) اليابس (٢) العبيط من الدم الخالص الطري

وهذه الكمية كافية لاشباع أكثر من ١٥ مليوناً من الأنفس ، بالبروتينات اللحمية. وحسب المرء هنيهة يتناول فيها قلم رصاص وقصاصة ورق،فيتاح له إحصاء مبلغ ما يستطيع توفيره بهذه الوسيلة ، من نفقات غذائه اللحمي.

فاذا فرضنا أن ثمن خمسة أرطال من الدم العبيط ١٥ سنتاً ، وهذه الكمية تكفي لصنع رطل واحد من ذلك النتاج العظيم ، فتكون النفقات اللازمة لانتاج هذا المسحوق ، على نطاق واسع مضافاً اليها الربح المعقول ، وقدره ١٥ سنتاً أخرى للرطل ، فيصير ثمن الرطل منه ٣٠ سنتاً أي ستة قروش .

والدم المجفف المجرد من شحمه ينتج ٨٥ ٪ من البروتين . وهذا المقدار يزيد أكثر من خمس مرات ، على ما يحصل عليه الآكل ، من البروتين ، عند تناوله اللحم الفاخر. فالرطل من الدم المصنوع إذن ، يعدل خمسة أرطال من اللحم . فاذا قابلنا البروتين الموجود في ذينك النوعين ، بعضه ببعض ، تبين لنا أن اللحم في الدم المسحوق يساوي الرطل منه ستة سنتات .

ولما كانت الوجبة اليومية التي يحتاج اليها الآكل من هذه المادة الجديدة ، يجب أن تساوي ما يوجد من البروتين في ½ رطل لحم ، فيقتضي لذلك الغرض إعطاؤه ١/١٥ من الرطل من الدم المصنوع . وهذا القدر لا يزيد ثمنه على سنتين أي نصف قرش . وهي قيمة زهيدة جداً ولكن لها أعظم الأهمية من الوجهة الاقتصادية . إذ لا يوجد في أنحاء العالم العصري أي بلد يستطيع المرء فيه التغذي باللحم يومياً بمثل هذا السعر الضئيل . ولهذا السبب يتوقع الخبراء كون هذه الطريقة الجديدة ستفتح أسواقاً كبيرة للبروتين اللحمي . وذلك بين الشعوب التي تعدُّ بعشرات الملايين ، الذين قلما يرون اللحم الآن . وليس رخص الثمن وحده هو العنصر المهم في هذا الموضوع . بل ثمة سبب آخر جوهري ، هو إمكان نقل هذا الغذاء الجديد ، بالسفن الى أرجاء العالم ، ثم خزنه وتوزيعه واستعماله بلا حاجة الى نفقات التبريد ، حيث يتاح بيعه في الأسواق ، في مناطق كبيرة حيث لا يتيسر الحصول على اللحوم.

وربَّ معترض يقول « ومَن ذا الذي سيشتري هذا الدم المسحوق؟ ومن مَن الناس مثلاً يؤثر مسحوقاً دموياً جافاً تافه الطعم ، عادم الرائحة ، على شريحة لذيذة من لحم البقر؟ فيجيب المخترع عن هذا الاعتراض بقوله « إن هذا الغذاء البروتيني الموضوع في علب من الورق المقوَّى ، يكاد يشبه اللحم المسحوق سحقاً ناعماً ، المقلوَّ « المحمر » المتبل بالتوابل المختلفة ، الذي اعتاد الأمريكان ، تناوله شطائر ، في كل مكان !! » .

أجل إن هذا الأمر لا يخلو من مجال رحب للتهكم ، فلنغض الطرف إذن عن المجون إذ الواقع أن هذه المواد اللحمية الجديدة تغاير شرائح اللحوم وضلوعها « الكستليتة »

المنتقاة، من كل الوجوه . لأنها تختلف عنها كل الاختلاف في اللذة والطعم ، إذ هي لم تزد على كونها مسحوقاً تافه الطعم ، صالحاً للادخار بلا تبريد ، يكاد يشبه الدقيق بيد أنه يعد مادة مثلى للخلط بالأغذية الأخرى .

وهو الأمنية التي تنشدها ملايين من الأمريكيين ، بل مئات الملايين من الشعوب التعسة في سائر أقطار العالم ، لأنهم في أمس حاجة اليها لأنها غاصة بأنخر البروتينات

ولا مشاحة في القول ان أزمة الأحماض الأمينية قد أخذت تسود العالم ، وأن البروتينات اللحمية من أنخر مصادر الأحماض الأمينية . ولا جرم أن الأطباء يصفون في الظروف الحالية ،هذه الأحماض المركبة تركيباً متقناً لمرضاهم ، ولاسيما الذين تكون أمراضهم ناشئة عن سوء التغذية ، فينفقون في شرائها نفقات أكثر من أثمان اللحوم . على حين أن في وسعهم ، بهذه الوسيلة المستحدثة ، الحصول على تلك الأطعمة الحيوية بمقادير ضخمة بسعر يقل كثيراً عنه في اللحوم .

ولما كانت هذه المساحيق البروتينية تافهة الطعم ، فقد أصبحت أنفع مادة تضاف الى الأغذية اللذيذة التي تكون عناصرها الغذائية ضئيلة ، فتقويها ، فتمزج بالحساء المعبأ في العلب ، كما تضاف الى اللحوم والمواد الغذائية الأخرى المحفوظة المستعملة في الفطور ، وتخلط بالدقيق وأمثاله من منتجات المخابز وخاصة الحلوى مثل الفواكه المسكرة .

وقد عرض علماء الكيمياء في شركة ڤايوبين «عينة » من هذه (المسكرات اللحمية) إذ صنعوا أعواداً من السكر المبلور تحتوي على ١٠ ٪ من المساحيق البروتينية . فلم يطرأ تغيير على طعمها الأصلي المعتاد، وان أصبحت تغص بالأحماض الأمينية فضلاً عن صيرورتها تكاد تكون مغذية كأطيب ضلوع الحيوان !

وتوجد عشرات من الأغذية الأخرى مشهورة بلذة طعومها ولكن تنقصها العناصر الغذائية الضرورية ، فيقبل الناس على شرائها ، مخدوعين بالاعلانات المشفوعة بها التي تحمل هذه العبارة (مقواة باللحم المحض) ويؤسفنا تمادي مروجيها في نشر أمثال هذه المزاعم. أما هذه المنتجات العتيدة ، فيتوقع العارفون كونها ستفضي الى تقدم جليل الشأن، في التغذية العامة . ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن شركة ڤايوبين السالفة الذكر التي تقوم بصنع مسحوق الدم ، تنتج تسعة مساحيق لحمية أخرى ، لم يكن لها وجود قبلاً . وهي تصنع من أكباد الحيوانات ورئاتها وكلياتها وأطحلتها وقلوبها وغددها المختلفة الطازجة . وهذه المساحيق جميعها هي حقيقة نسج تلك الأعضاء البدنية للحيوانات نفسها مجردة من مياهها وشحومها .

ولكن التفصيلات الخاصة بطريقة صنعها ما زالت سرية. وكل ما عرف في شأنها، كونها تشمل وسائل هندسية مستحدثة. وبما أن هذه المنتجات يختلف بعضها عن بعض اختلافاً أساسيًّا، فتقتضي من الباحثين فيها عناية فائقة. إذ المعروف للعلماء من أزمان مديدة أن النسج الحيوانية الخالصة الثابتة، تعد من أفضل المواد الغذائية، فمن الميسور اذاً الوقوف على كنه هذا الاعتقاد.

وفي هذا الصدد يقول علماء الكيمياء الحيوية، إن هذه المساحيق المصنوعة من الأعضاء البدنية الحيوانية، تحضر بطريقة تحول دون استهدافها لهضم بعضها[1] بعضاً وتقيها من عوامل الفساد في أثناء التصرف في نسجها. وذلك من دون الاستعانة بالمواد الواقية، قصد صونها. فلا يضاف اليها شيء البتة مثل الكحول أو الأسيتون. وانما تجرد من مياهها وشحومها فتظل على حالها، مساحيق طازجة مستوعبة لفيتاميناتها وأحماضها الأمينية الأصلية بلا أي تغيير كان.

فتنزع الكبد مثلاً طازجة من الذبائح ثم تجفف وتسحق. وكل أربعة أرطال ونصف رطل منها، وهي طازجة تنتج رطلاً واحداً من المسحوق الكبدي. فيصير هذا المسحوق إذن مصدراً مركزاً للعناصر الغذائية التي تحويها الكبد الطازجة. وهي العناصر التي تشمل فيتامينات (ب) B والبيوتين والكولين وفيتامين (ث) C

وقد تبين أن الناقهين والمرضى المحرومين من التغذية الكافية لأجسامهم، يستطيبون جداً، مسحوق الكبد، لخلوه كل الخلو من الرائحة البغيضة المألوفة. ويتاح مزج هذا المسحوق بالأغذية الأخرى، فيتيسر اعطاؤه للسيدات الحوامل بصفة كونه حلوى مسكّرة مضادّة لفقر دمائهنّ. ويمكن أيضاً مزجه بالسوائل التي تصنع قصد تقوية الشهوة للطعام. وكذلك جعله أقراصاً دوائية كبدية خالية من الرائحة الممقوتة، وذلك بلا واسطة.

وحينئذٍ يسهل على أفواج كبيرة من الشعوب المحرومة حالياً من التغذية بالكبد، لنفورهم من رائحتها الفوّاحة التي تتقزز منها نفوسهم، تناول هذه المركبات على شكل أقراص أو غيرها من المستحضرات الكبدية كملحق لغذائهم المألوف.

ويسوغ صنع مزيج من هذه المساحيق الجديدة المستخرجة، من الأعضاء البدنية الحيوانية، يصلح ملحقاً للمأكولات المعتادة. لأن مساحيق الكبد والكلية والقلب والطحال[2] والمعدة والدم جميعها، تمدّ الانسان بمقدار كبير من البروتينات اللحمية

(١) ومثال ذلك — تتفكك الخلية بتأثير الاحماض والخمائر التي تنتجها انتاجاً ذاتياً
(٢) الطحال — بكسر الطاء أما الطحال بضم الطاء فهو داء يصيب الطحال.

والفيتامينات والخمائر العضوية وسائر العناصر الحيوية . أما مساحيق البنكرياس والغدة النخامية والمعدة والمعى الاثني عشري ، والكظرين فيستعمل كل منها على حدته ، على الأرجح ، لما يستوعبه كل عضو فيها، من الخمائر العضوية والهرمونات[1] الفعالة .

ويعن لنا أن بعض هذه المركبات المستحدثة ، يحتوي على عناصر كيميائية حيوية، ما زالت علينا خفية . ومنها المعى الاثنا عشري المجفف المجرد من الشحم فانه يحتوي على خمسة هرمونات وست خمائر عضوية . ومن تلك الهرمونات واحد اسمه انترجاسترون Entergastron زعم العلماء منذ سنوات أنه يؤثر تأثيراً صحيًا فعالاً في الجهاز الهضمي .

وأذاع أطباء سويسرا أنه أسفر لديهم عن نجاح باهر في علاج القرح المعدية . وجاء في أحدث الأنباء من انكلترا أن الطبيبين الدكتور أ . م . جيل الانكليزي وزميله الدكتور ر . إرليخ الأمريكي ، قد استعملا خلاصات المعى الاثني عشري الحيواني في علاج التهاب القولون المقرّح .

وفي سنة ١٩٤٧ شرع مستشفى مؤسسة برماننت في مدينة أوكلند باقليم كليفورنيا في استعمال الاثني عشري بأجمعه لعلاج القرح المعدية . ثم وضع المختصون أكثر من ١٥٠ مريضاً تحت العلاج، بغية الدراسة والرقابة ، حتى إذا انقضت عليهم سبعة أشهر ، تسنى لهم الوقوف على نتيجة هذه المعالجة الجديدة في تقدم مرضاهم صحيًا .

فمن الميسور إذن كل اليسر تخفيف وطأة أسوأ أمراض المعدة ، بهذه الوسيلة . وربما يغدو في الامكان أيضاً منع بعض أخطر الأمراض عينها . وذلك بتناول الأطعمة الشهية المحتوية أصلاً على الأنواع الجديدة من المواد (الطبيعية) المشار اليها .

وربما ينتج عن هذا البحث ، جواز أكل أعضاء الحيوان الأخرى مسحوقة ، كالكلوة مثلاً إذ هي تحتوي على مادة الرنين renin وهي خلاصتها المشهورة بكونها تضعف من ارتفاع ضغط الدم ، قصد الانتفاع بنتائجها العلاجية . وقصارى القول إنه ليس في موضوع المخترعات الغذائية الحديثة شيء من النظريات ، عسير التحقيق . إذ هي طرق صناعية جديدة يسيرة الادراك . لأننا ما دمنا نستهلك بروتينات اللحوم الطازجة استهلاكاً يفوق التقدير، فلا يبعد أن يحل زمن قريب جداً يتاح فيه لعلماء الكيمياء الحيوية تحويل هذا الغذاء لحماً غضًا ، يقدم على المائدة . وسيكون في وسعهم كذلك تقديم «عينة» من اللحم الجديد يوميًا لكل امرىء محروم من البروتين ، بثمن يقل عن عشرة ريالات طيلة العام .

عوض جندي

---

(١) الهرمونات : هي المفرزات الداخلية التي تفرز في الدم من الغدد الصم فتنبه الاعضاء الباطنية الاخرى

الشخصية الموسيقية المصرية

لا شبهة في أن الموسيقى ركن من أركان النهضة . ورحم الله من ربط نهضة أمة من الأمم بنهضة الفن فيها . وهـذا يصدق على مصر كما يصدق على غيرها ، فالموسيقى صاحبت نهضة البلاد في كل عصر من عصورها .

في عصر اسماعيل بدأت تظهر نهضة غنية بفنانيها وقادها المرحوم عبده الحمولي الذي ألحقه اسماعيل العظيم بحاشيته واصطحبـه في رحلته الى الاستانة حيث اجتمع هنـاك بالموسيقيين الأتراك فأخذ عنهم أنغاماً طريفة وتعلم منهم ضروباً جديدة في التلحين والتنغيم وعن الحمولي أخذ الموسيقيون المصريون وقتئذ ، وطبعوا الأسلوب التركي بالأسلوب المصري . وبعده ظهرت شخصيات موسيقية مصرية سارت على طريقته ونهجه .

وحافظت موسيقى عبده الحمولي أو بعبارة أدق مدرسته على أساس الموسيقى الشرقية أي « التخت » وطرائقه المقررة . ولم تكن للموسيقى المسرحية أي أثر اللهم إلا إذا اعتبرنا ما كان ينشد خلال الفصول أو في أثنائها في فرقتي أبي خليل القبـاني وسليمان القرداحي موسيقى مسرحية. ثم ظهر الشيخ سلامه حجازي وكان لصوته القوي أعظم الأثر في اجتذاب الجمهور اليه وفي اقباله على الموسيقى المسرحيـة ، إن جاز لنـا أن ندعوها كذلك مع التجاوز الـكبير ، إذ أن الموسيقى المسرحية وقتئـذ كانت عبارة عن موسيقى تخت ليس إلا ، إلا أنها بدلاً من أن تعزف على العود والقانون والناي أصبحت تعزف على البيانو والفلوت والترمبون ، أما تصوير المعاني وإعطاء الألفاظ ما يناسبها من الموسيقى فكان غير معروف تقريباً .

ولقد كانت عناية المغفور له الخديوي اسماعيل بالموسيقى وتشجيعه الموسيقيين ما هيأ لها التقدم ولـكن في حدود خاصة هي تأثرها بأسلوب الموسيقى التركية أولاً وبأوضاع التخت ثانياً، ولأن الفن كان يرنو الى ارضاء الطبقة الخاصة ثالثاً .

وإذا كانت الشخصية المصرية قد ظهرت إبان مقاومة الاحتلال الفرنسي وبرزت في عصر محمد علي الكبير وازدهرت في عصر اسماعيل ، فانها اكتملت في عصر الملك فؤاد رحمه الله وجلالة الفاروق العظيم .

وهذه الشخصية المصرية بدأ أثرها واضحاً في الموسيقى منذ عام ١٩١٨ حتى الآن . وتكوّنت أسسها وتكاملت مقوماتها في سني الثورة من عام ١٩١٨ — ١٩٢٣ . وعاون على استكمال أسبابها ظهور فنان عظيم هو المرحوم سيد درويش الذي تأثرت موسيقاه بالنهضة الوطنية تأثراً بليغاً .

والواقع أنه في الفترة ١٩١٨ وما بعدها ، ظهرت القومية المصرية جارفة في كل جانب من جوانب الحياة المصرية . وظهر روّاد مصريون في كل فنّ وعلم وعمل .

ولظهور سيد درويش في عالم الموسيقى أهمية قصوى في خلق الشخصية الموسيقية المصرية الصميمة . الأمر الذي يحدو بي الى أن أعرض المامة عاجلة بفن سيد درويش من ناحية صبغته القومية .

لم يحدث سيد درويش في موسيقى التخت ما أحدثه من تغيير وانقلاب عظيم في موسيقى المسرح ، تغيير يبلغ حدّ الخلق والانشاء . فالشيخ سيد إذاً أبقى على روح التخت التقليدية ولكنه وضع أساس التجديد فيه ، هذا التجديد الذي سار رويداً حتى أصبح التخت على ما هو عليه الآن من سيطرة المنولوج والاكثار من عنصر الآلات الموسيقية الصامتة والاتجاه نحو الألحان المعبرة ، أي على نحو ما هو متبع في المسرح ولكن في نطاق محدود.

أما في المسرح فقد ظهر نبوغ سيد درويش الفطري وبدت عبقريته الفذّة فهو المجدد الحقيقي الذي خلق الموسيقى المسرحية المصرية خلقاً ، وتمتاز ألحان سيد درويش ويتسم فنه على العموم بميزات كثيرة أهمها :

﴿ أولا — التنوع ﴾ فانك لتسمع ألحان الشيخ سيد على كثرتها وعددها الوفير فلا تلمح ثمة تشابهاً بينها . وهذه الميزة جليلة لسيد درويش فاننا لنسمع الآن ألحاناً هي في الواقع عبارة عن ألحان قديمة مع تغيير الألفاظ وعبارات موسيقية وردت في ألحان معروفة وعلى تنوع ألحان الشيخ سيد وعدم تشابهها فان لها طابعاً خاصًا وذلك بسبب قوّة شخصية الشيخ سيد .

﴿ ثانياً — القوة ﴾ وتلك من ميزات الشيخ سيد النادرة . فانك لتتبين من عبارات ألحانه سواء الغرامية أم الهزلية أم الوطنية تلك القوة التي تهز المشاعر وتملأ النفوس طرباً

مصدرة الحياة والقوة . ولقد لحن سيد درويش عدداً عظيماً من الأناشيد والألحان الوطنية أخصها بالذكر . قوم يا مصري ، بلادي بلادي ، لك حبي وفؤادي،و بني مصر مكانكمو تهيا. وغير هذا من القطع التي اشتملت عليها كثير من رواياته المسرحية الغنائية مثل ألحان اليوم يومك يا جنود ، واحنا الجنود زي الأسود ، وأحسن جيوش في الأمم جيوشنا . الخ .

﴿ ثالثاً — التلاؤم مع الذوق المصري ﴾ ولست أعني بهذا أن سيد درويش لم يتأثر بالموسيقى الغربيــة . فقد تأثر بها كثيراً إلاّ أنه هضمها هضماً كافياً فأخرج للناس هذه الموسيقى الجميلة الجامعة لحنان الموسيقى الشرقية وقوّة الغربية . ولقد كان الشيخ سيد يقدر الموسيقى الغربية حق قدرها كلفاً بسماعها ، حتى لقد حاول في كثير من الأحوال مزج الفنين فكانت قوّة فنه تمكنه من صياغة ما يريد فنـًا شرقيـًا مصريـًا لا أثر فيه للعجمة . ومن مفاخر سيد درويش نقاء حسه وسرعة تأثره بما يسمعه من موسيقى ولكنه احتفظ في جميع ألحانه بطابعه العربي المصري وشخصيته القوية .

﴿ رابعاً — مراعاة المعنى والوسط ﴾ تلك هي أهم ميزات موسيقى الشيخ سيد وأعظمها وأروعها ، وهي التي أثارت اهتمام النـاس وإعجاب النقاد ، وجعلته بحق خالق الموسيقى المسرحية المصرية . ولقد نجح الشيخ سيد في هذا المضمار نجاحاً يثير الإعجاب حقـًا . . . ولا شبهة في أن سماع بعض مقطوعات سيد درويش التي تزخر بها موسيقاه المسرحية تجعل المرء يدرك الى أي حد بعيـد وصل رحمه الله الى جعل الموسيقى والمعنى متلازمين متآلفين، والى ربط الموسيقى باللفظ حتى كأن الموسيقى خلقت ، له وكأنه خلق لها . ولقد كان سيد درويش يبذل في سبيل اخراج المعنى اللفظي في ثوب موسيقي جهداً جباراً . ولم يكن يتعمل التطريب ، بل كان مقصده الأسمى ابراز المعنى في حلة موسيقية . أما الطرب فيأتي متى ساير روح الموسيقى والشعر .

فالشيخ سيد إذاً قدم الى المسرح الغنائي ألواناً كان يجهلها من قبل هي من صميم الحياة المصرية الأصيلة . إذ كان يختلط بكافة طبقات الشعب فأمكنه أن يضع لكل منها ما يناسبها من النغم . وكان يحيط نفسه بالجوّ المناسب للقطعة التي يلحنها . ومن ثمّ لم تعرف الموسيقى في مصر حتى اليوم موسيقيـًا يمكننا أن نصفه بالشعبي بحق ، خلاف سيد

درويش . وكان سيد درويش ينشد السهولة والتيسير في ألحانه الشعبية . وكان يقول إن خير الألحان ، ما كان طبيعياً بعيداً عن التكلف، لذلك كان شديد الاعجاب بالألحان التي ينظمها ويلحنها الشعب نفسه . وسيد درويش في تعبيره وتصويره لبلاده لا يقل في هذا السبيل عن أي موسيقي عالمي ، وهو ان اختلف مع غيره من الموسيقيين العالميين فالاختلاف في الاطار الذي يحيط بالصورة اللحنية ، أما الصورة نفسها فواحدة وقوامها صدق التعبير والتصوير .

اقتبس سيد درويش موسيقاه من روح الشعب المصري نفسه . ولقد تأثر — كما تأثر غيره من الفنانين والأدباء والساسة بثورة عام ١٩١٩ ، وما بدا فيها من قوة القومية المصرية الصميمة ، فلجأ الى الشعب يستوحيه ألحانه ، وكانت نهضة المسرح الغنائي مما أسعفه في ابراز مواهبه . إذ انطلق يلحن لكل مناسبة ولكل معنى ولكل فكرة ، دون أن يتقيد بقيود التخت الغنائي وأوضاعه القائمة على الموسيقى الغرامية وعلى عدد محدود من الآلات الموسيقية .

فمن هذه الفترة أي ١٩١٨ — ١٩٢٣ بدا ظهور الموسيقى المصرية الأصيلة التي تستمد كيانها وقوتها من حيوية الشعب المصري ويقظته .

وكان لزاماً أن تصاحب النهضة في التلحين نهضة أخرى في التنظيم العلمي للموسيقى . وهذا ما أولاه عنايته الكريمة المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول . ففي عام ١٩٣٢ افتتح رحمه الله المؤتمر الأول للموسيقى الشرقية بغية تنظيم الموسيقى الشرقية ووضع قواعد ثابتة للسلم الموسيقي . ولم ينجح المؤتمر في مهمته الأصلية بسبب اختلاف آراء مندوبي البلاد الممثلة في المؤتمر على نسبة صوت الربع في السلم الموسيقي الشرقي ، اختلاف مرجعه تأثر كل مندوب بموسيقى بلاده . وفي رأيي أنه يحسن وضع نسبة لربع الصوت تقرها البيئات المصرية وحدها . ولا ريب أن الموسيقيين في البلاد العربية سيتبعوننا في هذا المضمار لتأثرهم الشديد بالموسيقى المصرية في الوقت الحاضر . ولتثبيت السلم الموسيقي أهمية قصوى في ارتقاء الموسيقى الشرقية .

والواقع انه كان لزاماً أن تتطور الموسيقى المسرحية المصرية تطورها الطبيعي وينتهي

المطاف بها الى نشوء الأوبرا (كما حدث للموسيقى الغربية من قبل) بيد أن وفاة سيد درويش عام ١٩٢٣ حالت دون ذلك ، فما لبثت الموسيقى المسرحية أن اضمحلت إذ لم تجد من الملحنين الآخرين ما يغذيها من الألحان المسرحية الحقة ، يضاف الى ذلك عامل هام هو طغيان السينما على الفن المسرحي ، وانه وان أصبح الغناء ولا سيما الوارد في الأفلام والتمثيليات الموسيقية الصغيرة قد أصبح أقرب الى الصدق في التعبير إلاّ أنه يلاحظ شدة الاقتباس من الموسيقى الغربية ، ولعلَّ هذا مرجعه ضعف الشخصية الموسيقية عند كثير من الملحنين من جهة ، والى الاقبال على الانتاج الموسيقي على نطاق واسع جداً لرواج الأفلام والراديو .

وأيًّا ما كان الحال فان الشخصية الموسيقية المصرية التي خلقتها ثورة ١٩١٩ وكان ترجمانها سيد درويش قد ثبتت أركانها وتوطدت دعائمها ، فأصبح لها لونها المميز وطابعها الخاص . ولقد بلغ من قوتها أن أثرت على الموسيقى في أنحاء الشرقين الأوسط والأدنى ولا سيما في البلاد العربية حيث يكاد الملحنون يجمعون على احتذاء الأسلوب المصري في التلحين والغناء ، وهكذا فرضت مصر شخصيتها الموسيقية القوية على الأمم المحيطة بها .

وللنهضة الموسيقية الحديثة في مصر مظهران فريدان :

الأول — انشاء المعاهد الموسيقية على النسق العلمي وأخص بالذكر معهد الموسيقى المسرحية وادخال الموسيقى مادة أساسية في المدارس . وهذا ولا ريب له أثره في مقاومة الأمية الموسيقية التي ما برحت عائقاً لتقدم الموسيقى المصرية على أسس علمية وفنية سليمة

الثاني — اعلاء شأن الفنان . وتلك هي أحدث مآثر جلالة الفاروق العديدة على أمته وبلاده . ففي عهد جلالته السعيد أنعم على عدد كبير من الفنانين بالأوسمة والألقاب . وبذلك أصبح للفنان في مصر كرامة واعتبار لا يقلان عما هو معروف في أرقى بلاد العالم . ولم يعد ينظر الى الفنان في مصر على أنه ماجن من المجان ، ولكن على أنه صاحب رسالة في خدمة الوطن والمجتمع لا تقل عن رسالة غيره من المبرزين في العلوم والآداب والسياسة .

نسأل الله للفن مزيداً من رفعة الشأن في ظل مولانا الفاروق .

فؤاد محمد شبل

الغلال المعمرة

كل الغلال نباتات أو بالحري حشائش سنوية . ونقصد بالغلال الحشائش التي تنتج غلة من الحنطة أو الشعير أو الشوفان أو الدخن وما إليها، فدلالة اللفظ واسعة جداً، قد تدل على فصائل مختلفة ، بله أجناس وأنواع .

اما انها سنوية فمعناه انها تزرع كل سنة ، ولا تعمر سنتين أو أكثر . وقد استطاع عالم فذ من علماء الاقادمية الروسية أن يهجّن ضروباً من الغلال بأن أشّبها مع نباتات بريّة قريبة منها في الفصيلة أو الجنس ، فأخرج صوراً من الغلال معمِّرة، إذا زرعت أغلّت أكثر من محصولين في زرعة واحدة ، وزادت غلتها حتى لقد تبلغ عشرة أضعاف الضروب المزروعة.

ولقد يظهر مما سننقل هنا عن هذا الموضوع ان ذلك الاقادمي الروسي ، نيقولاي تسيتسين ، قد بنى فكرته الاساسية على موضوعين علميين تناولهما العلامة داروين بالبحث في كتابه « أصل الأنواع » هما « التناحر على الحياة » و « التأشيب » أو « التنغيل » كما ترجمت الاصلاح في ترجمتي العربية لأصل الأنواع .

فمنذ خمس عشرة سنة بمقربة من « جيفنت » حيث يوجد مزرعة حكومية في شمالي القوقاس ، حصل الباحثون على أول ضرب من الغلال المؤشبة أو المنغلة ، بتأشيب ضرب من الحنطة بحشيشة بريّة تسمى النجير أو الخافور ، وتعرف في مصر باسم « عرق النجيل » وكان هذا النجاح بداية عمل عظيم قام به ذلك الأقادميّ الفذ ، اذ استطاع أن يولّد ضروباً مؤشبة بتخليط نباتات مزروعة بضروب برية .

في خلال آلاف مؤلفة من السنين ظلّ الانسان ينشىء نباتات يزرعها ، مستجمعاً فيها من الصفات والخصائص ما يكون ذا قيمة للانسان وحده ، ولا غناء فيه للنبات ذاته . وتبعاً لذلك ضعفت النباتات المزروعة وأصبحت من العجز بحيث لا تستطيع أن تحيا حياة مستقلة بعيدة عن عناية الانسان . أما تطور النباتات البرية وتنشئها فقد اختلف عن ذلك كل الاختلاف . فقد مرّ بهذه النباتات أحقاب تلو أحقاب والطبيعة تنمي فيها تلك الخصائص التي ساعدتها على التفوق في معمعة التناحر على الحياة والاحتفاظ بالذات .

فالغرض من البحوث التي قام بها ذلك الأقادمِيّ النابه هو الانتفاع بتلك الخصيات

المتناقضة والصفات المتباينة التي اختصت بها تلك النباتات المتآصرة ، أي المتصلة النسب .

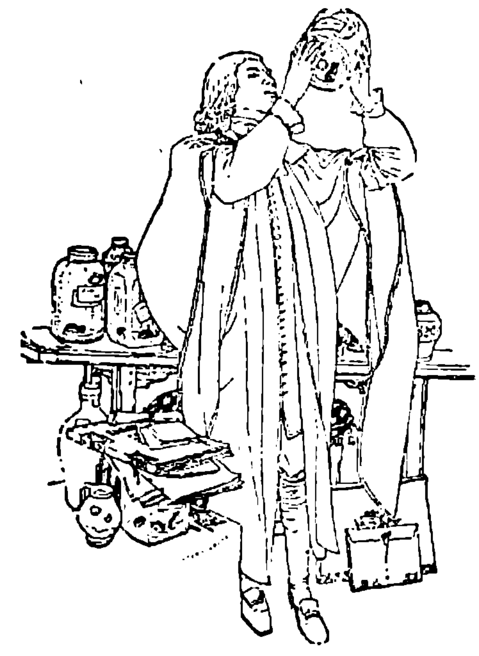
ومن أجل أن يصل الى هذا الغرض عمد إلى الخلط أو المزج بطريقة التأشيب أو التنغيل ، بين تلك الخصيات التي تكون في الحنطة ، وحشيشة النجير أو الخافور (عرق النجيل في مصر) فأخرج بذلك صوراً جديدة ، بل أنواعاً من النباتات الزراعية المفيدة . وكانت هذه النتيجة العملية ، هي الغرض الذي عمل الأستاذ نيقولاي في سبيل الوصول اليه ، وقد وصل فعلاً الى نتائج ايجابية ذات بال .

استكشف الأستاذ نيقولاي خمسة ضروب من النجير يمكن تهجينها أو تخليطها مع أية شئت من ضروب الحنطة الزراعية ، بل يمكن تخليطها أيضاً مع الجويدار ، ومع نوع معين من الحنطة البرية اسمها العلمي Iriticum aegilops . فكان من نتائج هذا التأشيب أو التنغيل وما تبعه من الجري على قواعد الانتخاب الصناعي ، استحداث عدد من ضروب جديدة من الحنطة بعضها شتائي وبعضها صيفي . وبمقابلة هذه الضروب بالحنطة المعروفة نجد أن هذه الضروب المستحدثة لها خصيات معقدة ذات شأن كبير في الزراعة .

ونخص بالذكر منها الحنطة المعمّرة — وهي ضرب من الحنطة الزراعية استحدثت بالتهجين من الحنطة العادية والنجير . استحدثت هذه الحنطة منذ عشر سنوات خلونَ — فلما زرعت غلت ثلاثة محصولات أو أربعةً . ولكن لما ظهر فيها من نقائص أمسك المجربون عن التوسع في زراعتها . وقد استبدلت بضروب أخر يمكن أن يوصى بزراعتها في كل منطقة من مناطق الأرض الزراعية .

ولقد انصرف الأستاذ نيقولاي الآن الى معالجة ضروب من الحنطة المعمرة ، حتى يفوز بصنوف منها نادرة القيمة عظيمة الفائدة وفيرة الغلة .

وفي خلال الثلاث السنوات المنصرمة نال الأستاذ نيقولاي نصراً جديداً لا نظير له في تاريخ الانتاج الزراعي . فقد استطاع أن يخضع الحنطة والشعير لقبول التأشب مع نبات برّي تابع لجنس اليم . ويعرف هذا النبات في بريطانيا باسم حشيشة اليم . والضروب التي حصل عليها بهذا التأشيب (حنطة اليم وشعير اليم) قد بلغت أهميتها من الحيثية الزراعية أبعد مبلغ . فقد أدت التجارب الى زراعة ضروب تحوي السنبلة الواحدة من سنابلها من ٢٠٠ الى ٣٠٠ حبة أو يزيد ، بدلاً من ٣٠ الى اربعين في الضروب المعروفة . وسوف يؤدي ذلك الى زيادة الغلات أضعافاً مضاعفة . كذلك يمكن الانتفاع بالأرض المهملة والأرض البور . ذلك بأن هذه الضروب تنبت وتغل في مثل هذه الأرضين ، كما لو زرعت في أرض شديدة الخصب جيدة التربة .



يوحنا مايو

John Mayow

الهواء ضروري لاشعال النار ، كما هو ضروري للاحتفاظ بالحياة ، وبالرغم من أن هذه الحقيقة كانت معروفة آلافاً من السنين، فقد كان من حظ طبيب بريطاني أغرم بالكيمياء ان يكون اول من يبرهن بتجارب عملية ، على ان جزءا من الهواء هو الذي تقوم به الحياة ، وان هنالك مشابهة كبيرة بين التنفس والاحتراق

ذلك الجزء من الهواء الذي تقوم به الحياة ، والذي نعرف اليوم أنه الاكسجين سماه يوحنا مايو « الخلاصة النتروهوائية » nitro-aerial spirit

وضع فأراً في إناء وأغلقه برق من أدم ، فرأى بعد قليل ان الرق أخذ يتقعر متقلصاً نحو داخل الاناء ، وان السبب الغالب في ذلك هو انقباض الهواء الذي في الاناء ، عند ما يستهلك الفأر كميات من الاكسجين

كذلك لاحظ ان فأراً في أناء محكم الغلق ، يعيش زمناً أطول من الزمن الذي يحياه فأر آخر في مثل ذلك الاناء ومعه شمعة مشتعلة ، لان كلا من الفأر والشمعة يستهلكان نفس العنصر الذي في الهواء

وبالرغم من أن « مايو » قد وصل الى مستكشفات كيميائية ذات بال ، فان شهرته تقوم على أنه مجرب عملي نافذ البصيرة

ولد في لندن سنة ١٦٤٣ ، والتحق بكلية « ودهام » في جامعة اكسفورد سنة ١٦٥٨ ومات في « باث » في سن الخامسة بعد الثلاثين ، بعد انتخابه زميلا في الجمعية الملكية بعهد قصير

ويعتبر مايو حلقة في سلسلة الافذاذ الذين بحثوا سر الاحتراق . وهو سر كان استجلاؤه نقطة تحول عظمى في تاريخ الكيمياء

الاسكوريال

El Escorial

على بضع غلوات الى الشمال والغرب من « مدريد » تقوم تلك الجبال الشامخة في وادي الرامة ، ذلك الوادي الذي تنتهي عنده سلسلة الجبال الفاصلة بين قشطالة القديمة ، وقشطالة الحديثة . انه لصقع من أصقاع الأرض عجيب التكوين ، فهو أجرد موحش ، يكاد يكون خلواً من الزروع ، ويلوح كأنه بمعزل عن بقية العالم .

إن لتلك الجبال أسرارها . فان كثيراً من السياح قد طوّفوا بأنحائها من غير أن يصلوا الى غاية ، وقدّر لهم أن يغيبوا في النهاية في مهاويها الأخيضرات الغبر . ناهيك بما نسج الخيال عن بركها العميقة البعيدة الأغوار ، ومخلوقاتها العجيبة والهول المخيفة ، وأفاعيها الضخام التي تبلغ من ثقل الجثة مبلغ دوحات الصنوبر الباسقة .

عند قدمي وادي الرامة ، الذي تهب عليه العواصف الهوج من خلال الجبال المحيطة به ، تقع على ذلك الأثر الذي شيدته العبقرية البشرية . تجد ذلك البناء المنفرد المعزول عن عالم اللغب والضجيج ، وكأنه العجيبة الثامنة من عجائب الدنيا . وهو ككل ما تخلق العبقرية رهن بحكمين ، فالى جانب الذين يعتقدون انه عجيبة الدنيا الثامنة ، أولئك الذين يرمونه بأنه مثال الوحشة ، وانه صحراء مجرودة من الصوان الصلد ، وانه كابوس صبّ في قالب هندسي ، وان ما فيه من إثارات الفن ، قد جاءت بلا طعم ولا ذوق ولا حياة .

اسمه الكامل «إل سيتيو دي سان لورنزو إل ريال» El Sitio de San Lorenzo el Real ولكنه معروف عند الكافة باسم « الاسكوريال » ، نسبة الى دسكرة قريبة منه تسمى بذلك الاسم . أما إذا أردنا أن نعرف شيئاً من تاريخه وأصله ، فلا بدّ لنا من أن نعود رجعاً أربعة قرون من الزمان الى الوراء ، الى عصر فيليب الثاني ملك أسبانيا ، ذلك الملك الكفء ذو الآبلية الفائقة ، الذي غازلت أوهامه كثيراً من الأعمال الرائعة ، في عصر

قلّت فيه الروائع ، وقلت فيه العقول التي تداعبها روائع الحياة .

يفكر الناس في هذا الملك اذا فكروا ، فتدور في عقولهم أنه صاحب « الأرمادا » الاسبانية، ذلك الأسطول الحربي العجيب الذي أراد أن يغزو به انجلترا ويستذلها، فقضى عليه قليل من الشجاعة وكثير من غضب الطبيعة ، فهوى في اليمّ كسير الجناح ، وأنقذت الطبيعة بريطانيا . يذكره الناس فيخيل اليهم أنه صانع تلك « الرائعة» الحربية التي تمثل الفشل يبرز من خلال الأمل الكامل في النجاح . ولكنهم لا يذكرون أنه صاحب الرائعة الخالدة : « الأسكوريال ».

لا حاجة بنا أن ندلف في مطاوي السياسة في القرن السادس عشر . ولكن يكفي أن نذكر أنه في سنة ١٥٥٧ كان الملك فيليب الثاني الاسباني في حرب مع فرنسا ، وانه في العاشر من شهر اغسطس من تلك السنة ، وهو يوم القديس « لورنس » : St. Laurence أحرز نصراً مبيناً في موقعة « سان كنتان » St. Quentin . لقد كان فيليب من غلاة الكثلكة ، ولكنه اضطرّ في أثناء تلك الوقعة أن يضرب بقنابل مدافعه كنيسة مقامة للقديس « لورنس » وأن يهدمها فيتركها أنقاضاً . وبالرغم من أنه انتصر، ترك ذلك العمل في نفسه أثراً من التبكيت زلزلت له نفسه ، وحزن له قلبه . وفي ساحة المعركة قطع على نفسه عهداً أن يكفّر عن هذه السيئة ، فيشيد للقدّيس كنيسة أفخم وأروع من تلك التي هدمها ، فتكون للقديس عوضاً ، ولانتصاره رمزاً وتنويهاً .

ذلك ما يقوله المؤرخون . ولكن كان من آمال فيليب التي داعبت خياله، الى جانب ذلك ، أن يقيم له ولآبائه ولأخلافه مدفناً يليق بمقام الملوكية . كذلك لا ينبغي أن نغفل عن أن ذلك الملك كان به نزعة الى التحفظ من الناس ومن المجتمع ، فكان محبًّا للعزلة والانفراد بصورة شاذة . ، ولم يفق رغبتــه في أن يحكم العالم ، إلاّ رغبته في أن يعيش عنه بمعزل ، فلا عجب اذا اختار ذلك المعزل البعيــد بين جبال وادي الرامة ، ليقيم ذلك الأثر الباقي تحقيقاً لثلاثة أغراض معاً : فيكون منه دير ومدفن وقصر . ثلاثة أغراض ! كيف يوفق بينها المهندس والفنان ؟

وقع اختيــار فيليب الثــاني على المهندس « جوان بوتستا دي توليــدو » :

Juan Bautista de Toledo فوفق في اختياره لأنه أدرك كيف يرضي الملك ، فيقيم له الصرح الذي داعب خياله . ولد هذا الرجل في اسبانيا ودرس هندسة البناء في ايطاليا ، ولكن عبقريته جعلته ينفلت من الأفق الذي عاش فيه معاصروه من المهندسين فلم يحتذ الأنماط الأسبانية ، بل اختار النماذج الساذجة البسيطة ، التي تؤدي على بساطتها معنى الفخامة والقوة والصلابة . فكان خير من يعهد اليه ببناء الاسكوريال ، الذي اقتطعت لبناته الصخرية من محاجر وادي الرامة ، وهنالك من صخر يسمى « بِرُّوكينا » Berroquena يشبه الصوان شكلاً ، ولكن لا يدانيه صلابة ، صوّر ذلك الصّرح العظيم .

* * *

قبل أن يبدأ البناء اختار فيليب الثاني الرهبان الذين يشغلوه بعد أن يتم ، فوقع اختياره على طائفة منهم تعرف باسم « البرونيم » ، عرفوا بالتقوى والصلاح والعكوف على العبادة ، وكانوا مقربين من أبيه الذي قضى قليلاً من أخريات أيامه في دير من أديرتهم . اتخذ خمسون منهم قرية « الاسكوريال » مقرًا لهم ، حتى يتم بناء الدير الجديد ، فعاشوا في أشد حالات الشظف والجهد . ولكنهم أقاموا وجاهدوا وصبروا وصابروا حتى ضمهم الصّرح الأعظم .

* * *

بعد ست سنوات من موقعة « سان كنتان » وضع حجر الأساس للبناء الذي سيقوم عليه الدير ، حيث أرساه فيليب الثاني في العشرين من أغسطس سنة ١٥٦٣ ، ذلك الدير أو المعبد الذي أصبح فيما بعد قطعة من أروع القطع التي خلفها عصر النهضة في أوروبا .

عجّت تلك الأصقاع الموحشة بالحياة ، إذ أمها صنّاع وعمال من انحاء المملكة الأسبانية ، وظلّ الملك بينهم يتنقل من مكان الى مكان ، آمراً ناهياً ناقداً موجهاً ، حتى ليقال بأنه أشار بتنفيذ أشياء وتصميمات وجهت عبقرية المهندس ومهارة البنّاء . ويقول المؤرخون إن الملك وجه من عنايته لاقامة هذا البناء ، قدراً لا يقل عما كان يوجه من عنايته لأخص حاجات المملكة وشئونها . ومن وادي الرامة كان يدير المملكة ويشرف على البناء ، فخوراً مزهوًّا بأنه يحكم شقيّ الأرض ، وهو بمعزل عن الناس .

وأخذ البناء يشبّ من فوق الأرض شيئاً بعد شيء ، فكان أشبه بالمِسَجّة يدها سكن الملك ووسطها الكنيسة وجانباها القصر والدير ، ولقد كان في إقامة البناء على هذه الصورة صعوبات ذللها المهندس « بوتستا » بعبقريته النادرة . ولكنه لم يعش ليرى ثمرة جهوده هيكلاً كاملاً . فلما مات في سنة ١٥٦٧ ، قام بالعمل « جوان دي هرّيرا » وهو مهندس نمساوي من تلاميذ « بوتستا » ، فلم يلبث أن يصبح من المقرّبين من الملك الحائزين ثقته التامة ، حتى لقد جعل له الملك مرتباً سنويّاً ألفاً من الدوقات ، ومكتباً في السكن الملكي ، وكرّم بأن منح وساماً رفيعاً يعرف باسم « صليب سان ياجو » : Cross of St. Jago . ولقد حفر اسمه واسم بوتستا على أحد أحجار الأسكوريال تنويهاً بهما عند الأخلاف ، وانهما أعظم مهندسي اسبانيا في عصرهما .

* * *

بعد واحد وعشرين سنة من وضع الحجر الأول لهذا البناء ، احتفل بإتمامه . ولا شك في أن هذه الفترة من الزمن تعد وجيزة الى جانب العظمة والاتساع اللذين اختصّ بهما « الإسكوريال » .

بدأ البناء وتمّ في حكم الملك فيليب الثاني . ولكن إقامة البناء كان بداية العمل في الزخرفة الداخلية والتأثيث . فلم يقتصر في ذلك على موارد إسبانيا وحدها ، بل اشترك في ذلك جميع أطراف امبراطوريتها الواسعة . فالدمقس والحرير والقطيفة كانت من صنع غرناطة ، وتنافس صناع المعادن في مدريد وطليطلة وسرقسطة في صناعة أدق التحف والزينات . واشتركت «ميلان» في تزويد القصر بما يحتاج إليه من صناعات الصلب والذهب والأحجار الكريمة . وجيء باليشب من « بورجو دي أوزما » والطنافس من الفلندر ، وخشب الأرز من أمريكا ، ناهيك بالآبنوس وغيره من نوادر الأخشاب . أما ستائر المذابح فقد اشترك في صنعها جميع أديرة اسبانيا . وفوق كل هذا جاءت الايدي الصُّنَّاع التي أخرجت روائع التصوير والنحت لتضفي من جمالها على ذلك الصرح العظيم . فوفد من إيطاليا الغريكو ، وانجويسكولا ، وزكارو ، ليمرّوا بأيديهم على قطع الفنّ فيصبونها في قالبها النهائيّ الرائع . ومن الفلندر وفد بوش ، وميشيل كوكسي ، ويقال إن تمثال المسيح

الذي نحت بالحجم الطبيعي من المرمر الأبيض كان من صنع بنفينوتو سكي . أما المقدس فصوره لوكاجيو ردانو ، فمثل فيه العهد الذي قطعه الملك فيليب الثاني في « سان كنتان » عند ما هدم كنيسة القديس لورنس .

***

إن محيط بناء الأسكوريال ٢٩٨٠ قدماً ، وبه سبعة أبراج وخمسة عشر باباً . وتحوي ردهاته ثمان وستين نافورة ومنبعاً، وبلغ وزن المفاتيح ١٢٥٠ رطلاً ، وعدد الأبواب والنوافذ اثنى عشر ألفاً .

قد يتفق أن لا يحوي بناء آخر في العالم تحفاً مثل تلك التي يحويها الأسكوريال . ولقد أنفق فيليب مبالغ طائلة في الحصول على بضع مئات من المخلفات المقدسة كعظام القديسين والشهداء لتكون من محفوظات الأسكوريال في محاريب غنية بالزخارف مرصعة بالفضة .

أما أعظم ما حوى الأسكوريال من الآثار فتلك المكتبة النادرة، التي كانت في عهد ما أغنى المكتبات الأوربية ، وكانت نواتها الأولى مجموعة من الكتب تبلغ أربعة آلاف مجلد ، كثير منها كان في مكتبة الملك الخاصة ، ومن بينها نسخة من أشعار فرجيل ترجع الى القرن العاشر، ونسخة قديمة من القرآن، ونسخة من سفر الجامعة تاريخها القرن الرابع عشر

على أن العناية التي صرفها فيليب نحو الموسيقى في ذلك القصر ، قد بلغت حداً يثير الاعجاب بمزايا هذا الملك العظيم . ففي سنة ١٥٧٢ أي قبل أن يتم تشييد البناء بأكثر من اثنى عشر عاماً ، أمر بنقل كتب التراتيل التي ستكون في الدير ، وهي مهمة استغرقت سبعة عشرة سنة ، حتى جمع منها ٢٦٠ مجلداً ، مجموع صفحاتها ١٥٫٠٠٠ صحيفة مغشاة بالجلد الثمين والخشب الملبس بالنحاس المغشى بالذهب . وقد أنفق في هذا وحده أربعين رطلاً من الذهب وخمسة آلاف وخمسمئة رطل من البرونز . ولم يكد نقل هذه المجلدات يتم، حتى بدأ العمل في مراجعتها واصلاحها ، بعد أن نسخت عن أصول كانت في كاتدرائية طليطلة

ومن أعجب العجب أن بعض الكتاب ينعون على الملك فيليب إسرافه . والواقع أن نفقات هذا الصرح قد بلغت ستة ملايين من الدوقات الذهبية . ولكن بأي شيء يقوم الآن ؟

قصة مترجمة:

ڤيتالي

تأليف : جوتفريد كيلر

عاش في الاسكندرية في بداءة القرن الثامن عشر قس عجيب يجري وراء الغواني اللواتي يبعن أعراضهن كل يوم ولكل شار ولا يزال بهن حتى يعيدهن سواء السبيل ويدلهن على وسائل كسب العيش الشريف وكان يعرض نفسه للمهانة والتحقير والانتقاد المرير ولكنه لم يكن يعبأ بشيء من ذلك .

وكان يحفظ سجلا يقيد به اسم كل غانية جديدة تهبط المدينة أو ضواحيها حالما يخبره بها شاب من شباب المدينة المستهترين الذين ما كانوا ليشكوا قط في أنه على غرارهم فاسق عربيد ماجن . ثم يجري الى الغانية الجديدة فاذا لقيها قال لها « احتفظي لي بالليلة التي تتلو التالية فلا تعدي بها أحداً » فاذا ما وافاها في الموعد المنتظر تركها واقفة وانزوى في ركن قصي من حجرتها وقضى ليلته مصلياً متعبداً حتى الصباح المبكر فيتركها بعد أن يأخذ منها موثقاً ألا تبوح لأحد بما حدث بينهما .

وسار القس على هذه الوتيرة زماناً كان يعظ ويرشد ويصلي ويتهجد حتى يثير الخير الكامن في نفوس أولياء البغايا ، ويغلبه على الشر الطاغي على طباعهن ويقتلع من قلوبهن الاثم والخطيئة ويضيئها بنور الايمان والتوبة ويقدمهن الى المجتمع عضوات نافعات صالحات. كان يفعل ذلك سراً ، بينما كانت المدينة تتحدث عن القس الفاسق الذي انغمس في ملاذ الدنيا .

فاذا ما فوتح فيما يقال عنه لم ينكر ولم يبرىء نفسه من التهم ، بل كان يقول « أو تظنونني حجراً ، أم أن الله لم يخلق امرأة ما لقس ؟ واذا ما سئل لم لا يخلع ثوب الرهبنة ويتزوج فلا يغضب الناس .قال: « فليغضب من شاء أن يغضب ، من ذا الذي يحاسبني ؟ ويقطع الحديث بقوله » كيف نسيت تلك السمراء الفاتنة « دوريس » ؟ ! انها تنتظرني لشد ما يعز علي أن أدعها تنتظر . فلأذهبن اليها تواً ! »

وكان يزاحم الشباب على أبواب البغايا، بل كان يصل به الأمر أحياناً الى العراك والقتال وكثيراً ما كان ينتصر ويدلف داخلاً الى وكر البغي قبل أن يفيق المتزاحمون من دهشتهم من ذلك القس الذي يزاحمهم في أشد الخطايا إغضاباً لله .

وكان سعيداً في أداء رسالته على النحو الذي اختاره لها .

وسمع يوماً عن غانية فتنت القلوب بجمالها وجاذبيتها . ووقف ببابها جنديّ أنيق بالغ الفتوّة والقوة يذود الناس عنها كأنما كان يرى فيها متاعاً خاصّاً به لا يجوز للعيون أن تتطلع اليه أو ترنو اليه . فقرر القس فيتالي أن يهجم على ذلك الحصن الحصين . وكما كان يفعل على أبواب البغايا الأخر فعل بباب هذه الغانية . فاشتبك في عراك حامي الوطيس مع الجندي الأنيق حتى اضطرّ هذا الى أن يخلي له الطريق، فدخل الدار ورأى المرأة واقفة عند غاية السلم منصتة الى الضوضاء . وكانت جميلة لا يحيط بجمالها وصف ، فاتنة لا حدّ لفتنتها. وكان شعرها الأحمر منثوراً كلبدة الأسد، وما ان رأته صاعداً اليها حتى صاحت به .

— إلى أين ؟

— اليكِ ياعصفوري ! أما سمعتِ عن فيتالي الرقيق اللطيف ؟

فسدّت عليه الطريق بجسمها الممتلىء صحة وقوة وقالت :

— أتحمل مالاً أيها القس ؟

— إن القسس لا يحملون مالاً

— إذن فاذهب ياحضرة المحترم وإلاّ أمرت بك فضربت بالعصي .

ولما لم يكن فيتالي قد خطر بباله أن يقابل مثل هذه المقابلة التي لم يصادفها في تجاربه الماضية ، تولته الحيرة وأخذ يفكر في طريقة يخرج بها من مأزقه ، فأخذ يبحث في ثنايا مسوحه حتى عثر بعلبة فضية مرصعة بالحجارة الكريمة فأبداها للغانية قائلاً .

— لا أمتلك غير هذه فاقبليها مني.

فأخذتها منه وفحصتها بعناية ولما قنعت بها سمحت له بالدخول الى غرفتها .فلم يلق عليها نظرة أخرى، وبدأ صلاته على النحو الذي تعوّده .

فظنت العاهرة أن القس بحكم عادته قد بدأ بصلاته قبل أن يقاربها ، فانطلقت ضاحكة وهي تجلس على فراشها تنظر اليه، ولاح لها الأمر مسلياً أول شيء ، ولما طال بها برمت به فكشفت عن كتفيها وذهبت اليه واحتوته بين ذراعيها البيضاوين القويتين، وضمت رأسه الى صدرها في قوة حتى كاد يختنق وظنت أنها قد أثارت بهذا العمل حيوانيته . ولكن الأمر لم يطل غير لحظة حتى أخذ يعمل جاهداً على التخلص من قبضتها الى أن تمّ له ذلك

بعد جهد ، ونزع عنه الحبل الذي يربط به وسطه وأخذ يصارع المرأة بكل قوة حتى استطاع أن يوثقها : يدين وساقين ، وألقاها بحالها تلك على فراشها ، وعاد الى صلاته

وأخذت تحاول الفكاك من قيدها كاللبؤة الثائرة ولكنه لم يعبأ بها . وأضناها الجهد فظلت هادئة ترقبه في صلاته حتى انبثق الفجر . فحل وثاقها وكانت قد تأثرت بما رأت وبما سمعت فجثت بين يديه تائبة مستغفرة باكية فربت عليها في حنان ووعدها بزيارة ثانية ليدلها على سبيل شريف تعيش منه . وتركها بعد أن أوصاها بكتمان ما حدث بينهما وبأن تذكر إذا ما سئلت أنه كان مرحاً معها كل المرح .

وجاء في موعده الذي ضربه لها فوجد الباب مغلقاً والمرأة مطلة من نافذتها في كامل زينتها وبهرجها تسأله عما يريد . فقال لها في حيرة بالغة .

— ما معنى هذا يا غزالي ؟

— أتريدني أيها القس الفاسق ؟ أمعك مال أو ما يقوم بمال ؟

ولم يطق صبراً فاندفع نحو الباب هائجاً يدفعه في عنف ولكن الباب كان محكم الرتاج فنظر الى النافذة ورأى المرأة قد اختفت .

واضطر فيتالي وقد رأى الناس يجتمعون من حوله ويضحكون منه الى ترك الباب ليبحث عن وسيلة تمكنه من معاودة اقتحام ذلك الوكر : وقادته قدماه الى كنيسة فارتقى درجها وذهب الى صندوق النذور واستولى على ما به ، وعاد الى بيت البغي كأي مغرم برح به الشوق وأتلفه الصبر .

ولما بلغ الباب وجد أحد المعجبين على وشك الدخول فأمسك بتلابيبه ودفعه خارجاً وأسرع فأغلق الباب وصعد في خفة وسرعة الى حيث المرأة التي ساءها أن تراه بدلاً من ذلك المعجب المدنف ، وألقى المال على مائدتها قائلاً :

أيكفيك هذا لأقضي الليلة معك ؟

وأخذت تعد النقود فلما انتهت قالت :

— إنه يكفي

وأخذت تعد نفسها للاغراء والفتنة ، ضاحكة متثنية واقتربت من فيتالي وأخذت تعبث بلحيته وتقابل نظراته الثابتة المستطلعة بنظراتها الفاتنة الساحرة ، فثارت فيه مبادئه وطهره وأمسك ذراعيها بيديه القويتين وألقاها على فراشها،وظل جاثماً عليها ، وهي تحاول التخلص منه حتى تعبت وأجهدها الأمر فبكت وبللت دموعها خديها المتوردين، وأظهرت ندمها وتوبتها ، فأطلق سراحها،وجلس إلى جوارها ، بعد أن جلست وأخذ يعظها بفصاحة

وذلاقة لسان في شدة وصرامة ، ثم أخذ يلين لها القول حتى انتهى بالصفح والمغفرة . ولما اطمأنّ الى نتيجة عمله غادرها من الفسق وذهب الى بيته .

وما إن أضحى النهار حتى ذهب اليها ثانية ليرى ما هي فاعلة بعد الذي حدث بينهما في الليلة الماضية وليطمئن الى انها لن تعاود الزلل . وما قارب باب البيت حتى رأى ذلك الجندي يحاول الوصول اليه قبله، ولكن الجندي التى حربة كانت معه كادت تخترق رأس القس لولا أن مال عنها فغرست في الباب ، واستطاع فيتالي أن يخلعها وأن يوجهها الى صدر الجندي فاخترقته وسقط مضرجاً بدمه فأحاط بالقس جمع من الجنود كانوا مارين بمقربة من المكان واقتادوه الى المخفر محقراً مهاناً .

وظلّ فيتالي رهين محبسه أياماً ثم أفرج عنه ، لأن قتله الجندي كان دفاعاً عن النفس ولكنه خرج من السجن موصوماً بوصمة عار جعلت الناس يطالبون بأن ينزع عنه لباسه وأن يجرّد من درجته ، ولكن رئيس أساقفة الاسكندرية ، وكان على علم بحقيقة نواياه لم يستمع الى شيء من ذلك ، بل سمح لفيتالي بمتابعة هوايته .

فأسرع الى العاهرة التي لم تستمع إليه إلاّ بعد أن دفع لها أجر المبيت عندها . وتابت للمرة الثالثة، ثمّ عادت ثمّ تابت، وأنابت ، وأخيراً عوّلت على أن تتأرجح بين الاثم والتوبة لأنها رأت في ذلك فائدة قد لا تحصل عليها لو أنها سارت على نسق واحد من الاثم أو التوبة، وهي في كل مرة تختلق له عذراً جديداً ، لنكث العهد وخلف الميثاق .

وتعذّب فيتالي نفسيّا وجسديا فيما كان يلقاه من تلك العاهرة . وكان يحس كلما أمعنت هي في خداعه رغبة أكبر في محاولة اصلاحها ، كأنما قد خيل إليه أن رسالته لن تتم إلاّ إذا فاءت الى ربها، وأقلعت عن غيها . ولشد ما كان يؤلمه ما صار إليه أمره ، فقد أصبح لصّا وقاتلاً ومرتكباً لكثير من الذنوب من أجل تلك المرأة، ولكن هذا الألم الذي نال من صحته ومن قوته ومن تفكيره ، حتى أضحى يسير كالخيال ، وإن لم تفارقه ابتسامته ، كان عذباً عنده مقبولاً .

قبالة بيت آلام « فيتالي » قطنت أسرة يونانية كان ربها من الأثرياء ، لم يكن له سوى ابنة وحيدة اسمها « يول » كانت في حل من أن تفعل كل ما يروق لها ، ولكنها لم تكن تستطيع شيئاً . فأبوها كان يجهد نفسه بالمطالعة والانشاء . أما يول فلم تكن لها هوية سوى الموسيقى فاذا برمت بها وضاق خيالها بذلك الجو الضيق الذي كانت تعيش فيه شغلت نفسها بالتطلع الى السماء والى الأفق البعيد .

وبهذا وقفت على أمر تردد القس على ذلك البيت ، وكذلك وقفت على الدافع الظاهري

الذي يدفعه لذلك التردد وخجلت من مسلك رجل الدين . وكانت ترقبه خلسة ، منكرة عليه أن يهوى الى درك اقتراف مثل ذلك الاثم . وعلمت من احدى خادماتها التي كانت صديقة لاحدى بنات الهوى ، كيف كان عبث العاهرة ، وماذا كان يرمي إليه من وراء مغامراته معها . دهشت وعجبت كل العجب من مسلك القس ، ولم تره على حق في السبيل التي اتبعها لتحقيق غرضه ، ولكثرة ما فكرت في شأن فيتالي صارت تراه في أحلامها . وكلما تكررت الرؤى زاد استياؤها منه ، وزاد في نفس الوقت حبها له !

وقررت يول أنه ما دامت السماء لا تريد أن ترد على القس احترامه ومكانته بهداية تلك العاهرة ، فلتأخذن على عاتقها اتمام هذا العمل وذهبت الى أبيها وطلبت منه أن يستغل نفوذه في إبعاد تلك البغي عن الحي .

وذهب أبوها الثري وبيده سلاح لا يقهر وقابل البغي وأغراها بالمال وطلب منها أن تغادر الحي بعد ما قبضت منه ما أرضاها فغادرته بعد ظهر ذلك اليوم . وبهذا حقق لابنته ما رجته فيه ، واعتبر الأمر منتهياً وعاد الى دراساته ومطالعاته .

أما يول فلم تعتبر الأمر منتهياً بل أمرت بمسكن تلك البغي فأزيلت منه كل آثارها وغيرت هيئته ، ونظف ورتب وأطلق فيه البخور والعطور . وأثثت غرفة العاهرة بسجاد ومصباح وغصن ورد . ولما آوى أبوها الى فراشه أخذت هي زخرفها وازينت وذهبت الى ذلك المسكن وجلست على السجاد وجعلت بباب البيت خادمين تثق بهما للمراقبة والحراسة

وجاء الى الباب الرواد الذين تعوّدوا أن يلجوه ولكن الخادمين صداهم وردّاهم على أعقابهم . وأخيراً جاء فيتالي فتنحى له الخادمان عن الباب وأفسحا له الطريق فعبر الباب وهو يتنهد وصعد السلم وهو يخشى أن تعاود المرأة السخرية به ، ويأمل أن ينجح في هذه المرة في اعادتها الى حظيرة الفضيلة والشرف ليتابع أداء رسالته مع زميلاتها الضالات . ولشد ما كانت دهشته حين رأى بدلاً من تلك المرأة الصاخبة ذات الشعر الأحمر ، فتاة وديعة جالسة على السجاد وأمامها غصن ورد . فأخذ يتلفت يمنة ويسرة ، حتى استقرّ بصره على الفتاة فسألها عن المرأة . وقالت يول :

— ذهبت الى الصحراء تائبة لتكفر عن خطيئتها . وقد جئتها صباح اليوم واستطعت أن أنزع من قلبها الشيطان ففضلت التوبة وباعت متاعها وأخذت سبيلها الى الصحراء بعد أن تبرعت بثمن هذا المتاع للفقراء . وكانت تذكر اسم فيتالي وكانت ترجو أن يكون موجوداً ليعينها . فحمد القس الله على أن رسالته قد انتهت . ثم وردت لخاطره فكرة فسأل الفتاة وهو ينظر الى غصن الورد .

— من أنت ومن أين قدمت وما شأنك هنا ؟

فأطرقت بول الحسناء الى الأرض وأخذت عيناها السوداوان تنظران الى الطنفسة ثم رفعت رأسها وقد علت وجهها حمرة الخجل مما كانت بسبيل الافضاء به إليه .

— أنا يتيمة لا أب لي ولا أم . فقدتهما ولم يتركا لي سوى ما ترى من متاع قليل . ولقد أردت أن أنزل هذا المكان لأتخذ نفس النهج الذي كانت تنهجه سابقتي .

— أو هذا زعمك ؟ يكاد الشيطان لا يفرغ من عمله . أتقولين هذا كما لو كنت لا تخاطبين فيتالي ؟ ماذا تظنين سابقتك كانت تفعل فتريدين أن تنهجي نهجها ؟ أخبريني !

— أريد أن أكون متعة للرجال ما دام العود أخضر .

وأشارت الى عود الورد وكلماتها لا تكاد تخرج من فمها وما أتمت حديثها حتى وقعت على الأرض خجلاً . فرأى القس أن الفتاة ما زالت بريئة وأن رسالته معها لن تستغرق منه وقتاً ولا جهداً . وأخذ يعبث بلحيته مفكراً في تلك الطفلة التي كانت على حافة الهاوية ، وحمد الله على أنه قد وصل في الوقت المناسب وسألها قائلاً : — وبعدئذ ؟

— وبعدئذ أظل امرأة فاسدة أحمل أوزاري الى أن يحين حيني أو أجد من يهديني ويؤويني في ملجأ أمين

— هذا حسن وترتيب معقول . والمرشد موجود والملجأ ميسور فتذهبين إليه طاهرة لم تدنسي بعد إلا بالفكرة وهي داع لا بد منه للتوبة والاستغفار بقية حياتك المقبلة . والآن حطمي غصن الورد واصغي إلي .

— كلا . . سأصغي أولاً ثم أرى إن كنت أحطم الورد أم لا . لأن العظة لن تنفعني ما لم أقترف الأثم وأذوق لذته ، وما لم توجد الجريرة فلا محل للتوبة والاستغفار . أقول لك هذا قبل أن تبدأ كلامك لتفكر فيه ومع هذا فإن بي رغبة شديدة لسماع نصحك

وأخذ القس يتدفق مواعظ بالغة ومنطقاً سلساً مستساغاً ونغماً حنوناً جميلاً ، ولكن لم يبلغ قلبها ، إذ انفلتت من شفتيها الجميلتين ضحكة مغرية ، فلما انتهى من عظته وقد تصبب جبينه عرقاً قالت :

— لقد تأثرت بعض التأثر وما زالت تجتاح قلبي رغبة ملحة في الأثم ولذته ، ووقف الرجل مشدوهاً ، فقد خابت فراسته لأول مرة ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً متنهداً مفكراً ، ينظر من حين لآخر الى تلك الفتاة التي تعد نفسها للجهنم وقوداً . وتعجب من اجتماع البراءة مع قوة الشيطان في تلك الطفلة إلا أنه ود جاهداً لو استطاع تخليصها مما هي مقدمة عليه . وأخيراً قال :

— لن أبرح مكاني حتى تتوبي ولو قضيت به ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ سويًّا .

— ذلك يزيدني اصراراً على اصرار فاترك لي فرصة للتفكير . وعد إليَّ غداً فان النهار يوشك أن يطلع . وأعدك بأني لن يمسني بشر. فعدني بألاّ تذكرني لانسان، وأن يكون مجيئك تحت جنح الظلام .

ووافق فيتالي ورحل . وانفلتت هي عقب رحيله الى بيت أبيها ولم تنم يومها كثيراً إذ كانت تفكر في المساء القادم وفيما قد يحمله من تجارب في طياته . وسرُّها أن قضت ليلة بطولها مع ذلك القس ورأت نار الحماسة تتألق في عينيه وقوة عزيمته في حركاته رغم ثيابه الكهنوتية . كانت ترجو أن يصبح لها زوجاً .

وجاء المساء وجاء القس ، فوجد يول جالسة على السجادة تنتظره . فبدأ يتكلم ويعظ ويمعن في الارشاد ويصلي ويتفانى في الصلاة ، وكانت اذا تكلم أنصتت واذا صلى اضطجعت وتظاهرت بالنوم أو بالرغبة فيه ، فيدفعها بقدمه كما كان يفعل مع المذنبات الآثمات. ولكن قدمه ما كانت لتصل الى جنبها حتى تكون قد نفدت قوتها ووصلت هينة رخاء كاللمس أو كالهمس ، ولم يكن قد عهد لنفسه هذا الذي أحسه نحو تلك الفتاة .

وعند ما اقترب الصبح أخذ رأسها يميل يمنة أو يسرة إعياءً وجهداً ، فقال فيتالي :

— من العبث أن أحدثك فانك تنامين

ففتحت عينيها فجأة وابتسمت ابتسامة حلوة تحكي حلاوة الفجر وينعكس عليها اشراق الشمس وقالت :

كلاّ لست بنائمة بل منتبهة كل الانتباه . ولقد بدأت أشعر بفظاعة الاثم من مبلغ اهتمامك بأمري ، فما يرضيك يرضيني ، وما يغضبك أمقته كل المقت

فرح القس واستخفه الفرح فقال :

— أحقاً تقولين ؟ أقدّر لي أن أنجح ؟ هامي بنا الى الدير حالاً قبل أن يعود اليك الشيطان . — انك لم تفهمني وطأطأت رأسها قائلة : — اني أحبك !

ففغر فاه وجحظت عيناه دهشة مما سمع . وتابعت هي حديثها وقد زادت حمرة خديها :

— فمن واجبك أن توالي وعظك ونصحك لتخلصني تماماً من مرضي وأرجو أن تنجح

ولم ينطق فيتالي ببنت شفة بل جرى مسرعاً مغادراً البيت وبدلاً من أن يلجأ الى فراشه سار في العراء يستقبل الصبح السافر ، وهو نهبة الأفكار المتضاربة ، أيترك تلك الفتاة الخطرة لمصيرها المقدر لها ، أم يواصل أداء رسالته معها حتى يخلصها مما هي واقفة له . وشعر أن منطقه قد بدأ يخونه ، وانه أصبح في حال جديدة ليس له بها من عهد

وساقته قدماه إلى تمثال الالـهة « يونو » فوقف حياله كأنما يسألها أن تخرجه من مأزقه. وقال يحدث نفسه « إذا أومأ التمثال أتم رسالته مع « يول » ، واذا هز رأسه نفض يده من أمرها » . ولكن التمثال لم يومىء ولم يهز رأسه . ولكن حدث أن قطعاً من السحاب مرت وقتئذ فألقت ظلالاً على وجه التمثال جعلته يبدو مبتسماً . وتلك طبيعة المرأة اذا ما ذكر في حضرتها الحب ابتسمت ولم يحل دون ابتسامتها حائل مهما كان أمره ! وزادت الابتسامة التي تخيلها ڤيتالي على وجه إلـهة الحب القديمة من شجاعته كما زاد من عجبه ذلك الشبه الكبير بين تلك الالـهة والفتاة « يول »

وفي نفس اللحظة كان والد يول يتريض في حديقته ليلقي نظرة على تلك التماثيل القديمة التي اشتراها حديثاً . كان أحدها يمثل « لونا » تسوق عربتها فوق السحاب وقد تبدد الحب خلفها دون أن تعبأ به . وآخر كان يمثل « مينرڤا » ساهمة والحب على ركبتها يداعب صدرها بيده ليرى أثر ذلك فيها . وهكذا كانت التماثيل لا تتحدث إلا عن الحب ، فأثارت في الرجل الهرم كوامن الشجن ، وشاء أن يقول شعراً يعبر به عما كان يحسه وقتئذ ولكن « يول » ظهرت أمامه شاحبة اللون إذ كانت قد أمضها الأرق فقلق خاطره وسألها عما أرقها ولم ينتظر جوابها ، بل أخذ يشرح لها قصة كل تمثال من تلك التماثيل . وتنهدت الفتاة قائلةً :

— أعجزت كل هذه القوى التي تمثل الطهر والحكمة والدين عن أن تقاوم سلطان الحب ! فكيف لمخلوقة ضعيفة مثلي أن تتحصن منه ؟ فاندهش الشيخ وقال :

— ماذا أسمع ؟ أطعنك الاله « إيروس » بحرابه ؟

— وبلغت طعنته قلبي . وإذا لم أنل الرجل الذي أحببته بين يوم وليلة مت حباً ،

ورغماً من أن الرجل كان يسمح لفتاته بنيل ما تطلبه وتحقيق ما ترجوه ، فان هذه العجلة وفي مثل هذا الأمر جعلته يتريث ويطلب من يول أن تتريث هي الأخرى ولكنها أصرت على نيل مأربها مما دعا الرجل الى أن يبدي عجبه قائلاً

— أتريدين مني أن أذهب الى الرجل الذي تبغين فأجره من أنفه إليك وأرجوه أن يتزوج منك وأقول له : هاك فتاة بديعة أرجو ألا تحتقرها ولقد أستطيع أن أضربك إذا لم تذعن لرغبتها ، ولكني أخشى أن أغضبها بهذا العمل فتموت ، ولهذا فليس لي إلا أن أرجوك بحق السماء أن تذوق الحلوى المعروضة عليك فقد أجيد طهيها وستذوب في فمك !

فقالت الفتاة

— بل أنا التي آتيك به اذا سمحت وهو الذي سيرجوك أن تحسن بي عليه !

— وإذا اتضح أن هذا الرجل تافه حقير ؟!

— اذن فاطرده . ولن تفعل فهو قديس

— أسرعي إذن ودعيني مع تحفي وتماثيلي .

وأقبل المساء ولم يكن الليل قد أظلم ، بعد حين دخل ڤيتالي في أعقاب يول في ذلك المنزل المعروف ، وكان دخوله هـذه المرة مخالفاً لدخوله في المرات السابقة ، فقد كان قلبه ينبض في قوة وسرعة . كان ڤيتالي هـذا غير ڤيتالي الذي غادر البيت مع مولد اليوم فلم يعد يميز ابتسامة العاهرة من ابتسامة العـذراء الطاهرة . ولقد عوَّل على أن تكون تلك الزيارة هي الأخيرة .

ولقد رأى في هذه المرة غير ما كان يراه في الزيارات السابقة . رأى الأثاث كاملاً وقيـماً لا يوجد مثله إلاّ عند ذوي اليسار وموفوري النعمة ، ورأى « يول » جالسة على فراش وثير وفي ثياب أنيقة وبدا له جمال الفتاة في تلك الليلة كأروع ما يكون الجمال . لا مأخذ عليه ولا موضع للنقد فيه . وأخذ ڤيتالي يبحث عن فصاحته فلم يجد لها أثراً ، وحرّك لسانه في فمه فوجده في مكانه ، ولـكنه كان قد فارقته القدرة على النطق . وقالت يول :

— أأنت في دهشة أيها القس الجميل من أمر ما ترى من زخرف وزينة ؟ انها حفلة الوداع للجو الذي كنت أرجو أن أعيش فيـه . وسأتخلى عن عاطفتي نحوك بالرغم مني فأرجو أن تعينني على بلوغ هذه الغاية الـكريمـة وطلبي يسير وتنفيذه أيسر . فأنت تعلم أن النصح ثقيل على النفس مرّ المذاق ، فما بالك به إذا صدر عن قس لا يكاد المرء يراه حتى يعد نفسه لسماع عظة أو نصيحة ؟ والقس لا يدري ما هو الحب بحكم وظيفته ، فوعظـه في هذه الناحية ضعيف غير مقبول لا يؤتي ثمرته المرجوة ، وأنا فتاة من فتيات المجتمع فانزل من سمائك الى أرضي وخاطبني بلغتي أستمع اليك واني لعلى استعداد للائتمار بأمرك

ولم يتكلم القس بل رأى أن ما أشارت به يول وجيـه ، وأنه قد يؤدي الى نزع الشيطان من قلبها ونفسها بضربة واحدة .

فانتحى ناحية وجد فيها خادمين ينتظرانه بثياب أنيقـة ، وعاد إلى « يول » التي ما رأته في هيئته الجديدة حتى صفقت طرباً

وحدثت المعجزة ولم يتنـاول التغيير مظهر القس فقط ، بل تناول كذلك نفسه فما أن جلس الى جوار تلك الفاتنة حتى تبخّـر ماضيه كما تتبدد الأحلام ، بل نسي الغـرض الذي كان يرمي اليه . ولم ينطق حرفاً من العظـات التي كان قد أعدها واكتفى بالانصات الى « يول » وهي تتحدث ممسكة بيده تقص عليه قصتها كما هي، فقالت له : من هي وأين تعيش وكيف كانت رغبتها أن يقلع عما كان عليه وأن يتقدم الى أبيها طالباً يدها فيصبح زوجاً

لها إرضاء لله. وانساب حديثها حلواً دفاقاً وهي تذكره قصة حب قديم ، وختمت حديثها بأن تنهدت قائلة إن آمالها قد انهارت وأمانيها قد تحطمت إن لم يسمح هو بالابقاء على هذه الأماني وتلك الآمال . وطلبت منه ألاَّ يصدر حكمه إلاَّ بعد أن يأكلا معاً الطعام الذي أعدته لهما ، وكان قوامه اللبن واللحم .

وباشارة من يدها أتى الخدم بمائدة عليها أصناف الطعام الشهي وأخذت تقدم له بيدها مما كان على المائدة وهو ممسك عن الكلام

وما أن انتهى من طعامه وشرابه ، وكان قد تمكن منه التعب والجهد حتى مال برأسه نحو بول وراح في سبات عميق حتى مشرق الشمس .

ولما استيقظ لم يجد معه أحداً فوقف على قدميه مسرعاً وأفزعه الثوب الأنيق الذي كان عليه، فجاب جنبات البيت بحثاً عن ثياب الكهنوت ولكنه لم يعثر لها على أثر. وأخيراً رأى كومة من الرماد وفي وسطها بقايا ذلك الثوب الديني المحترق .

وسار من نافذة الى أخرى يرقب الشارع . وأخيراً أوى الى الفراش فوجده لينًا لطيفاً على غير ما ألف من فراشه الخشن الجاف..

وقام من الفراش ثانية وأصلح من هيئته ونزل من الباب حيث وقف متردداً بعض الوقت ، ثم فتح الباب على مصراعيه وخرج كأكثر ما يكون رجل أناقة ووسامة لا يستطيع أحد أن يقول عنه إنه القس قيتالي ، بل سائح غريب جاء يقضي بضعة أيام، في الاسكندرية .

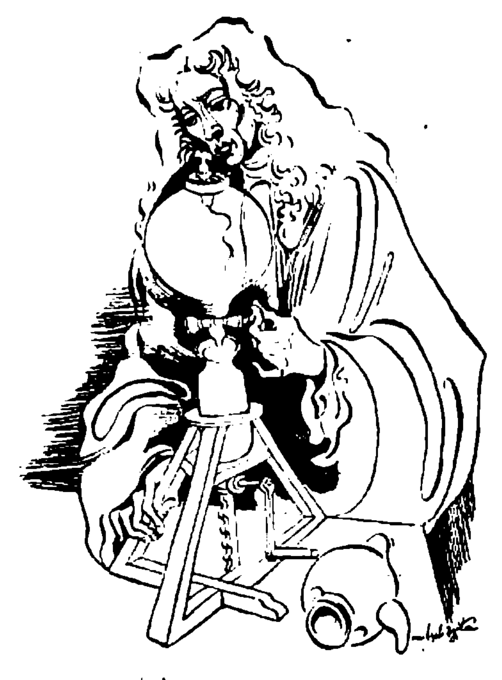
ولو تطلع فيما حوله لرأى « بول » على سطح بيتها ترقبه . ولكنه سار قدماً نحو ديره وهناك قرر زملاؤه ورئيسهم طرده من زمرتهم لسوء مسلكه، لا سيما بعد أن ظهر بينهم بهذه الثياب وثبت لديهم ما كان يشكون فيه ، فانقضوا عليه وأخرجوه الى خارج الدير

وكان تصرف القساوسة معه قاسياً فأتى على ما كان في قلبه من حب للكنيسة وخدمتها فسار جاداً الى حيث كانت « بول » تقيم مع أبيها ونفذ ما رسمته له

وأصبح قيتالي الزوج الكامل لبول كما كان الرجل الطاهر خلال التجارب العنيفة التي مرت به حين كان يتشح بثياب الكهنوت .

لم تدرك الكنيسة إنها أخطأت ، إلاَّ بعد أن خرج « قيتالي » من عالم الآخرة الى عالم الدنيا .

عبد المنعم صادق



روبرت بويل

The Hon. Robert Boyle

كان روبرت بويل أول من وضع النظرية التي قام عليها أساس الكيمياء عملاً وفكراً . ومحصل تلك النظرية أن العنصر في الكيمياء هو أبسط كل المواد

كان أول ما اذاع نظريته هذه في مقال عنوانه الكيميائي الشاك نشرت في سنة ١٦٦١ وقبل أن يضع « بويل » نظريته ، استمسك العلماء بفرض فرضه أرسطوطاليس في القرن الرابع قبل الميلاد إذ قال ان العناصر اربعة هي النار والماء والتراب والهواء ، وان كل المواد تتركب من هذه العناصر بنسب مختلفة . وكان استكشاف بويل حقيقة العنصر الكيميائي اكبر انقلاب أصاب الفكرة العلمية في جميع العصور .

هو ابن آرل كورك ، ولد بقصر « لسمور » : Lismore Castel في ارلندة سنة ١٦٢٧ وفي الثامنة من عمره ذهب الى مدرسة في إيتون ، ومن ثمت الى اكسفورد ، وأمضى بقية عمره بين جدران تلك الجامعة مكرسا كل وقته وجهده لبحث العلمي .

من الاشياء التي اخترعها « المضخة الهوائية » ، واستخلاص مثيل الكحول من الخشب ، ثم « قانون بويل » الذي لا يزال مجرباً في دور العلم لاثبات أن حجم الغاز يختلف بالضغط .

« قبل عصر « بويل » كانت الكيمياء شبكة الصيد التي باشرها مدعو الطب والسيمياؤون . لكن عمله العلمي في جامعة اكسفورد قد رفع علم الكيمياء الى مرتبة العلوم الطبيعية الثابتة فلا عجب إذن اذا أعتبر « بويل » الاب الاول لذلك العلم .

برشلونة

أول مدينة ساحلية على ساحل البحر الأبيض المتوسط وفي الشمال الشرقي من اسبانيا والعاصمة الثانية لها والمنفذ الطبعي للاقاليم الداخلية، أقيمت عند مصب نهر Llobregat في منطقة خصبة غنية بثرواتها الزراعية والصناعية كصناعة المنسوجات والفلين والورق وغيرها .

ونظرة بسيطة الى برشلونة تدلنا على أن التأثير العربي فيها لا يكاد يذكر ، إذ كانت عاصمة إقليم قطالونيا في عهد الرومان . ثم استولى عليها العرب عام ٧١٣ عند ما غزاها موسى بن نصير لأول مرة وأطلقوا عليها اسم (برشينونا) ثم شاعت (برشلونة)

لكن لم يلبث أن انتزعها شارلمان من العرب عام ٨٠١ ثم آلت اليهم ثانياً عام ٨٥٦ وظلت في أيديهم حتى أغار الفرنجة عليها لآخر مرة عام ٩٨٥ .

لذلك كانت أبنيتها القديمة قوطية الطراز ، وخاصة في الحي القديم منها ، حيث الكاتدرائية الشامخة التي يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر . أما باقي المدينة فحديثة البناء متسعة الطرقات تزينها الحدائق المنسقة ، وتماثيل آية في فن النحت .

هكذا وجدنا برشلونة وسنعرض لأهم ما استرعى نظرنا فيها من تقاليد ومعالم وآثار .

تصادف أن أقيمت مصارعة للثيران (Corrida) كوريدا عصر ثاني يوم وصولنا الى برشلونة . فهرعنا لمشاهدتها بدعوة من محافظ المدينة . وقد أقيمت المصارعة في مدرج دائري يشبه « الانفتياتر » الروماني ، يتوسطه ملعب مستدير له أبواب يفتح إحداها لحظيرة الثيران الثائرة ، وآخر لأبطال المصارعة ومساعديهم .

ويظهر أن هذه الرياضة المحببة للأسبانيين ، المتأصلة في دمهم لم تكن من اختراعهم وابتكارهم وإنما توارثوها عن الرومان أثناء حكمهم لهم خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي، إذ كانوا يعذبون أعداءهم بوضعهم في وسط (الانفتياتر) ويطلقون عليهم ما جمعوه من الحيوان الكاسر كالأسود والنمور، فتنقض على أعدائهم ، وتفتك بهم تحت بصر الرومان . واستمرت هذه الظاهرة الى ما بعد الحكم الروماني ولكن بصورة أخرى ، فتهذب هذا الصراع بين الانسان والحيوان ، وأصبح رياضة ممتعة ، طرفا النزاع فيها الانسان والثور كما سنرى بعد .

كانت الموسيقى تصدح بأنغامها الشجية لاستقبال آلاف النظارة الذين وفدوا من كل حدب وصوب من أنحاء برشلونة وغيرها من المدن الاسبانية لرؤية هذه المصارعة المحببة لديهم . وأخذت هذه الوفود ترد وحداناً وزرافات فاحتشدت بهم الدروب والدرج المؤدية الى أماكن اللعب ، ولولا دقة الاشراف على دخول وخروج هذه الآلاف المؤلفة التي تبلغ نحو الأربعين ألفاً ، لما مرَّ اليوم بسلام دون حادثة من تلاطم تلك الأمواج البشرية .

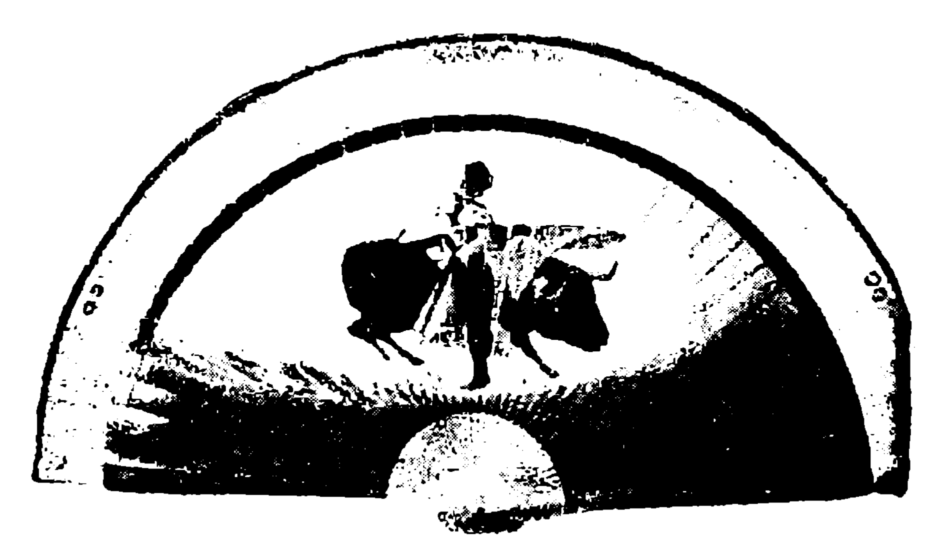
وأفضل الأماكن لرؤية المصارعة ، تلك التي في الطباق العليا من المدرج إذ يستطيع الجالس بها الاشراف على كل صغيرة وكبيرة في الملعب ، واذا أجلت البصر في أنحائه لا ترى إلاَّ حركة واحدة تمايل يميناً ويساراً كأمواج تداعبها الرياح على صفحة الماء ، ألا وهي حركة اهتزاز آلاف مراوح النساء — التي تعد لازمة من مستلزمات كل فتاة وامرأة أسبانية تروّح بها عن نفسها من قيظ الصيف المرتفع الحرارة، كما تعبّر بحركتها عن كل ما يجول في خاطرها من مشاعر واحساسات .

وسرعان ما ابتدأ الشوط الأول من المصارعة — وهو أحد ثلاثة أشواط يتكوّن منها اللعب — وانفرج باب حظيرة الثيران عن فرجة انطلق منها كالسهم ثور toro متوسط الارتفاع قاتم اللون ، له قرون طويلة مدببة ، يتدفق قوة وحيوية ، يشع من عينه غيظ وشرر مستطر ، لينتقم من القوى البشرية الغاشمة التي لا تشفق بالحيوان ولا ترأف به .

يقف الثور وسط الملعب ، زائغ البصر ، باحثاً عن خصمه الذي أجبره على نزاله ، ويتقطر من فوق عنقه بعض قطرات دم نتيجة ضربة حربة في حظيرته قبل خروجه للمصارعة لتزيده شراسة وإمعاناً في عناده في المقاتلة ، ولولا قصر نظره لاندفع نحو حاجز الملعب وهاجم الجمهور ونكل بهم جزاء لهم على سخريتهم به ، وتضامنهم مع ممثلهم « البطل » متادور Matador المصارع . وقد أراد الله أن يحد من حركاته إلاَّ في حيز محدود ، في منتهى بصره ، وأضفى بطء الحركات على المصارعة نوعاً من الهدوء مع خفة الحركة ، مصحوبة بتؤدة وحذر من جانب المصارع .

وسرعان ما توسط الملعب مساعدو البطل بملابسهم الوطنية التقليدية المزركشة بألوان زاهية يغلب عليها إما اللون الأصفر أو الأحمر ، وبيد كل منهم « ملاءة » غالباً ما تكون حمراء كلون الدم لتثير الثور الذي يأبى أن يرى تلك الدماء لأنها نذير شؤم عليه كما يبعث في نفسه الخوف من الموت المحقق الذي يدافع ضده لينقذ حياته بكل ما أوتي من قوة .

يداعب كل من المساعدين الثور بملاءته ساخرين منه ، وكلما ازدادوا به استهزاء ومداعبة وكلما ذهبت هجوم الثور سدًى كلما ازداد الثور حدّة وغيظاً . وكلما ارتفعت



بلغ من شدة ولع النساء أن رسمت مشاهد المصارعة على مراوحهن



احدى قاعات المتحف البحري المستصلحة عام ١٩٤٣ تعرض نموذجاً للمراكب الشراعية في العصور الوسطى

درجة غليان دمه ، وكبتت في نفسه دون أن تجد منفساً كلما ازداد جنونه وتخبط خبط عشواء، واشتدت حركاته عنفاً واقداماً . وكلما كثرت مداعبة المصارعين للثور واتزانهم في هجومهم دون أن يصيبهم بأذًى ، كلما اشتدت صيحات الجمهور إعجاباً بهم. وهكذا ينتهي هذا الشوط بين أنغام الموسيقى .

يبدأ الشوط الثاني بدخول مصارعين آخرين على ظهور الخيل، وقيت بطونها بدروع من حديد ، وبيد كل فارس حربة كبيرة مدببة الطرف ، يتقدم الفارس رويداً رويداً نحو الثور الذي يبدأ بهجومه ويقابله برمحه الذي يندفع في عنق الثور الذي لا يلبث أن يشعر به ، فيتقهقر الى الوراء ليتخلص مما أصابه ، ثم يعاود الكرة مرة ثانية وثالثة ، وفي كل مرة يزداد فيها هجوم الثور على الفارس يزداد اندفاع الحربة في جسمه .

أما إذا أخطأ الفارس في ضرب خصمه فقد يعرضه لهجوم الثور عليه وطرحه أرضاً بفرسه ، وهنا تكون الطامة والموت المحقق إذا لم يدركه المصارعون المساعدون بملاءاتهم الحمر لصرف نظر الثور عن الفارس .

وقد كان في الزمن الماضي لا تقي الخيل درعاً واقياً أسفل بطنه . وكان كثيراً ما يصاب بقرون الثور فتشج بطنه وتتدلى أحشاؤه والفارس ممتطياً صهوته حتى آخر رمق في فرسه. وينتهي هذا الشوط بعد مصارعة ثلاثة أو أربع فرسان وبعد ان يجهد الثور وتخور قواه.

أما الشوط الثالث والأخير ، فهو المرحلة النهائية التي يظهر فيها بطل المصارعة مختالاً بجماله، وانعكاس أشعة الشمس على ملابسه ، فترتد الى عيون الجمهور، فيعجبون به ويزداد هتافهم وتلويحهم بما في أيديهم عندما يخفض من هامته محيياً إياهم ، ويقوم البطل بالدور الرئيسي الذي تنتهي بقتل الثور بأقسى ما يتصور . العقل البشري كما سترى بعد .

يداعب البطل الثور حتى يجهد ، ثم يقوم بمرحلة من أخطر المراحل التي سيتعرض فيها للموت المحقق — كما حدث فعلاً قبل وصولنا لبرشلونة بعدة أشهر للبطل Manoletto [1] الذي توفى بعد اصابات مميتة — لتهاونه لحظة التفت فيها للجمهور دون حذر من الثور . وعلى البطل في تلك المرحلة أن يتسم بالجرأة والشجاعة ورباطة الجأش ، والقدرة على تسديد ضربات حرابه في موضع معين فوق ظهر الثور عند اتصال عنقه بجسمه ، وعليه أن يضربه ثلاث مرات بثلاثة أزواج من الحراب ذات أيدٍ قصيرة يمتاز كل زوج منها بلون معين كالأخضر والأصفر والأحمر .

أما الخطوة الأخيرة ، فينتهز البطل فرصة هجوم الثور عليه ، وفي لفتة معينة من لفتاته وانحناءة بسيطة لرأسه نحو الأرض ، ويضربه بسيفه ضربة قاضية ينفذ فيها السهم الى قلبه

فيرديه قتيلاً ، ويخر الثور على الأرض صريعاً مدرجاً في دمائه مسلماً روحه الى بارئها بعد نضال يائس للدفاع عن نفسه . تجره الخيول بسلاسل الى الخارج وسط دوي هائل من الهتاف بحياة البطل وشجاعته واقدامه . ويصعد الى عنان السماء صيحة الفرح والاعجاب يا ألله « أولى » مختلطة بأصداح الموسيقى . ولا ترى إلاّ آلاف مراوح النساء وقبعات الرجال وباقات الزهور تقذف الى البطل تقديراً لبسالته وتمجيداً لشجاعته .

أما الثور[٢] الشهيد ، فقد يحتفظ البطل بقرونه ورأسه لتحنيطها وتعليقها في بيته مع غيرها من الرؤوس الأخرى دليلاً على عدد انتصاراته ، كما يهدي لحم الثور الى أصدقائه أو الجمعيات الخيرية أو يباع للجمهور لطهيه .

وتتكرر هذه المأساة ثلاث مرات يقتل في كل منها ثور ، وبذلك ينتهي حفل اليوم.

لقد كان لهذه المصارعة أثر فعال في نفوسنا لأنها محاولة قاسية من الانسان لاظهار قوته في قتل حيوان بريء بأبشع صورة ، مستعملاً أشد وسائل التعذيب للتخلص منه بطريقة منظمة ، فاستنكف بعضنا هذه المحاولة من جانب الانسان المتحضر . واستنكر هذا العمل لقتل حيوان لاجرم ارتكبه ولا إثم اقترفه .

إذاً ما فائدة هذه الرياضة المقصورة على نفر قليل من الناس ، ولم يهتم باقي الشعب بها كل الاهتمام . ولِمَ هذا الاقبال المنقطع النظير من الجمهور وحرصه على مشاهدتها ، وبذل أجور مرتفعة لا تقل عن جنيه مصري لكل متفرج .

ـ هل الغرض منها جمع مال للدولة والقائمين بهذه المصارعة التي بلغت خلال عام ١٩٤٧ ما يقرب من ٧٥ مليون بزيتة (الجنيه المصري = ٤٤ بزيتة).

قيل لنا أن هذا المال يصرف جميعه على إقامة المصارعة ، إذ بلغ ثمن الثيران ٢٨ مليون بزيتة ، وما أخذه المصارعون ٣٤٫٥ مليون بزيتة .

انما هناك معاني سامية خفية تشع من هذه المصارعة ، فالأسبانيون يمجدون كل ما يحفظ قوميتهم ، ويبعث فيهم روح الجلد والصبر والشجاعة والاقدام والجرأة والاستماتة للدفاع عن النفس مهما قابلهم من صعاب ومخاطر . ولا يجد الاسبانيون وسيلة تحقق كل هذه الغايات السامية مجتمعة سوى هذه المصارعة ، فتأصلت في دمائهم على مدى الاجيال . ويكفي رؤية حفلة واحدة من حفلات المصارعة لترى الحماس والاعجاب يجري في دمائهم وسيظل يتدفق في عروقهم ما دامت هذه المصارعة قائمة .

وقبل ظهر اليوم الثالث وصلنا الى ميدان فسيح يتوسطه قاعدة تمثال شاهق يرتفع الى عنان السماء ، يعلوه تمثال كريستوف كولمبوس الرحالة العظيم ، موليًا وجهه شطر المحيط



في الصف الأعلى من اليسار : (١) مرعى الثيران البرية بأندلوسيا (٢) هجوم الثور من حظيرته في بدء الشوط الأول (٣) المصارعون الفرسان وخلفهم المساعدون

في الصف الأسفل من اليسار: (٤) المصارع مانوليتو وهو يدفع حربتيه في عنق الثور (٥) المصارع مانوليتو بيده سيفه وبالثانية وشاحه يحاور به الثور بعد ان دفع في عنقه الحراب الست (٦) مصرع الثور بعد ضربه بالسيف

الاطلسي وجزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية التي اكتشفها ١٤٩٨ لأول مرة ، كأنه يذكر الاسبانيين بالجهود الجبارة وفضلهم على العالم باكتشاف آفاق جديدة من عالمنا الحاضر هي أمريكا التي اكتسبت اسم الرحالة أمريجو الذي تتبع طريق سلفه كولمب ١٥٠١ باكتشاف ما لم تسنح به الفرصة لكولمب .

وفي أحد أركان ذلك الميدان المطل على ساحل البحر الأبيض ، حافظ الاسبان على أثر خالد أسس على مجد تليد قاوم صروف الدهر وأحداث الزمان ، فلم ينل منه إلا البلى الذي لا يتناسب مع ما يحيط به من عمائر العصر الحديث . ذلك البناء هو بقية من دار الصناعات البحرية Atarazanas التي كانت قائمة في الفترة ما بين القرنين ١٣، ١٨ الميلادي ، وهي تقابل عندنا «الترسانة» المخصصة لبناء واصلاح السفن البحرية . أما اليوم فقد استخدم الاسبانيون هذا البناء القديم في حفظ ما تبقى لديهم من مخلفات تلك الدار، مع نماذج ما كانت تصنعه من السفن الأسبانية الأولى التي خاضت غمار بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) لاكتشاف أمريكا، كما أعد به نماذج وصور السفن والمعدات البحرية كالخرط الجغرافية والبوصلة التي لم يستطع الحصول عليها ولا الابقاء عليها لليوم . ولذلك عدت هذه الدار أعظم متحف بحري Museo Martimo لتطور بناء السفن حتى اليوم .

كما يضم هذا المتحف بين أروقته التسعة الشاهقة الارتفاع نماذج لتطور بناء السفن البخارية . ولذلك يعد هذا المتحف صورة حقيقية لتطور بناء السفن الشراعية والبخارية خلال الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر .

فقد جمع به من السفن بين الماضي والحديث كما جمع في بناءه من الداخل بين الأطلال والخرائب وصالات العرض الحديثة المنسقة لعرض التحف والنماذج على أحسن نظام .

وفي نفس اليوم رأينا تراثاً آخر من التراث الأسباني لكنه لم يكن تراثاً عاماً بل كان تراثاً إقليمياً يخص مدينة برشلونة وحدها يرجع تاريخه الى ألفي سنة الى الوراء . ونراه اليوم بين ظهرانينا في المتحف الأثري في منزل حديث بالقرب من كاتدرائية برشلونه لا يبدو عليه من الخارج القدم، ولا أثر من آثار الماضي، ذلك ما تراه عند دخولك ، إذ تجد نفسك في قاعة فخمة حديثة ضمت كل المؤلفات التاريخية لمدينة برشلونة . تفتح هذه القاعة الى دهليز ضيق يؤدي بك الى الطابق الأول من البناء ، فتجد نفسك بين خرائب وأطلال مدينة برشلونة الرومانية ، نقلت بعض اجزائها الى ذلك المتحف لتعطيك صورة واضحة عن نظم العمارة وتخطيط المنازل بمرافقها العامة كالحمامات ونظام تصريف مياه دوراتها في ذلك الوقت السحيق .

وفي جانب آخر من هذه المدينة اصطفت أواني الطبخ الفخارية والرحى والمسارج والمواقد التي كانت مستعملة حينئذٍ ، كل ذلك وضع بنظام تام بين دعائم من الأسمنت المسلح أقيم عليها ذلك المبنى الحديث لحفظ محلات ومكاتب موظفيه .

* * *

وبعد العصر طفنا بأرجاء جامعة برشلونة التي يرجع تاريخها الى القرن ١٥. وبعد زيارة قاعات المحاضرات والمكتبات استقرّ بنا المقام للاستراحة بعض الوقت في إحدى قاعات الاستقبال لنتجاذب أطراف الحديث مع زملائنا الجامعيين من الأسبان ، وخاصة الشئون الثقافية التي منها نظم التعليم في أسبانيا ، ويظهر أن التعليم عندهم يشبه الى حدّ كبير التعليم عندنا في مراحله الأساسية الآتية : —

١ — مرحلة التعليم الابتدائية:وهي مرحلة اجبارية لتعليم كل طبقات الشعب ويلحق بها الأطفال في سن السابعة الى سن الرابعة عشر،وهي تقابل مرحلة التعليم الأولي والابتدائي عندنا.وقد رأت وزارة المعارف المصرية ضرورة توحيد التعليم في مراحله الأولى في مرحلة واحدة هي المدارس الأولية النموذجية .

٢ — مرحلة التعليم المتوسط : ويكتفي لمن يريد الالتحاق بهذه المرحلة ومرحلة التعليم الثانوي ان يقضي ثلاث سنوات بالتعليم الابتدائي.وتختلف سني الدراسة بالتعليم المتوسط حسب نوع التعليم كما يلي :

(١) مدارس النوتية ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات يضاف اليها سنتان أخريان يتمرّن خلالهما الطالب على ركوب البحر ويمنح بعدها شهادة معلمّ نوتي .

(٢) مدارس المعلمين الابتدائي ، ومدة دراستها ثلاث سنوات .

(٣) مدارس التجارة المتوسطة ومدتها خمس سنوات .

ومن يريد الالتحاق بالتعليم الجامعي، فعليه أن يقضي سبع سنوات بالتعليم الثانوي ويلتحق به التلاميذ من سن العاشرة حتى السابعة عشرة،يتعلم فيها اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والانكليزية وأدب الاندلس والأدب العالمي وتاريخ الاندلس والتاريخ العالمي والفلسفة والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة يمتحن بعدها امتحان القبول بالجامعة .

﴿ الجامعة ﴾ يبلغ عدد الجامعات الاسبانية اثنتي عشرة جامعة لا يزيد عدد كليات كل منها على سبع ، ولا تقل عن ثلاثة ، وجميعها يضم كليات (الفلسفة : الآداب) والعلوم والحقوق. وقد بلغ عدد طلبة هذه الجامعات حسب احصاءات ٤٥/٤٦ ما يقرب من ٤٣ الف

نسمة ، ثلثهم من الآنسات . بينما تعداد اسبانيا كلها ٢٧ مليون نسمة. ويظهر أن اقبال الفتيات على التعليم الجامعي لم يكن كثيراً بالرغم من حرية الفتاة التامة في أن تتعلم ما تشاء وتلتحق بما اختارته من كليات الجامعة ويلتحق أغلبهن بالكليات النظرية كما هو الحال في مصر لملائمتها لاستعدادهن الطبيعي . أما أقل الكليات اقبالاً عليها فهي كلية الطب والحقوق والطب البيطري لأنها كليات لا تتفق وما خلقن له من الحياة . فكلية الطب وما فيها من تشريح يحرج احساساتها الرقيقة ، كما لا يتحمل خريجات الحقوق مشاق النيابة أو القضاء وغير ذلك .

إذا قارنا تلك الحال في أسبانيا بنظيرها في مصر ، وجدنا أن جامعاتنا لا تزيد على اثنتين وعدد طلابها لا يزيد على العشرين الفاً بينما تعدادنا يقل سبعة ملايين نسمة فقط ، يضن أولو الأمر باقامة جامعتين في كل من عاصمة الوجهين القبلي والبحري ، ويجب ألاّ يحرم الشعب من التعليم الجامعي وخصوصاً بعد أن تجلت رغبة الشباب وتشوقه الى التعليم ولا ضير من ذلك التوسع في التعليم ما دمنا قد احتفظنا بمستوانا العلمي. وليس معنى ذلك اننا نطالب بانشاء اثنتى عشر جامعة كأسبانيا ، بل نطالب بتحقيق ما فكرت فيه الحكومة جديا بانشاء جامعة أسيوط ، وأخرى في طنطا، فيتوفر لطلبة تلك المناطق مشاق النفر والغربة ومطالب الحياة، كما يقل الضغط على جامعتي فؤاد وفاروق. ويستطيع طلبتهما التفرغ لدراستهم بالبحث والتروي والتمحيص في جو هادىء لا تقلقه كثرة الطلبة ، ولا تستلزم جهداً من الأساتذة في إبلاغ ما يريدونه الى أذهان طلبتهم فيرتفع مستوانا العلمي .

وإذا نظرنا الى نسبة الأمية في كل من القطرين نجدها في أسبانيا ٣ ر ٤١ ٪ بينما في مصر لا تقل عن ضعف هذه النسبة في اسبانيا . وقد أخذت الحكومة الاسبانية تعمل جاهدة على مكافحة الأمية بشتى الطرق التي منها عدم اطلاق سراح أي جندي في الجيش إلاّ بعد أن يتعلم القراءة والكتابة .

ونحمد الله على عناية حكومتنا في هذه الناحية في السنوات الأخيرة لتنفيذها مشروع السنوات الخمس لمكافحة الأمية متمنين لها التوفيق في مهمتها .

تخللت تلك المحادثات بيننا وبين زملائنا الاسبانيين بعض ما سمح به كرمهم من تقديم بعض المرطبات التى أهمها ، على سبيل المثال شراب شعبي أبيض اللون، حلو المذاق والرائحة، غريب عنا في طعمه ، بالرغم من أنه في متناول يدنا ، فهو شراب من عصير حب العزيز ويطلقون عليه «ارتشاتا» ويصنعه الأسبان كما نصنع نحن المصريين شراب عصير الشعير (سوبيا) .

وقد أتيحت لنا فرصة أخرى للرد على جميلهم في مناسبة الاحتفال بعيد ميلاد زميلة

اسبانية تدعى « انبارة » وكان من حسن الصدف أن كان مع أحد أعضاء الرحلة بعضاً من « القمر الدين » جلبه معه من مصر . وقد أحسنت زميلاتنا المصريات صنعه فاستساغه الاسبانيون وأعجبوا به .

* * *

وفي اليوم الثالث تركنا مدينة برشلونة لنقضي نزهة خلوية في أحد ضواحي المدينة الجنوبية « مونتسرات Montserrat » وهي منطقة جبلية متنوعة المناظر بين الوهاد والهضاب وسفوح الجبال ، مغطاة بأنواع شتى من الأشجار كالصنوبر والبلوط وأشجار الفاكهة. وقد استغلَّ الفلاحون سفوح هذه الجبال وتربتها الحمراء الخصبة ، وأعدُّوا سفوحها على شكل مدرجات لزراعتها ، يساعدهم على ذلك تعرض سفوحها ، وخاصة الجنوبية لأشعة الشمس وسقوط الأمطار عليها .

وسط تلك المروج والسفوح الخضر صعدنا طريقاً ملتوياً أخذ في الارتفاع تدريجيًّا ، حتى وقفنا أمام حافة جبل شاهقة الارتفاع من الصخور الصلدة التي لا سبيل لتسلقها لشدة انحدارها . قيل لنا هذه قمة مونتسرات التي تعلو بمقدار ١٢٦٣ متراً عن سطح البحر اليها. أقيم في سفح ذلك الجبل فندق صغير لراحة السائحين ، ويتصل بقمة الجبل بسلكين كهربائيين تنزلق عليه عربتان صغيرتان تتبادلان الصعود والهبوط في دقائق معدودات يسع الواحدة منهما نحو عشرين شخصاً .

واستغلت مصلحة السياحة هذه القمة فجعلتها جنة وارفة ويسرت للسائحين كل أسباب الراحة في ذلك الجو الهادىء الخلاب ، ذي المشاعر الساحرية ، فأقامت بها المطاعم والفنادق وأمدتها بالماء اللازم ، كما أعدت أماكن ساحرة للاستمتاع بها تشرف على هوَّة ساحقة أو وهاد عميقة.

وفي أعلى نقطة من القمة أقيمت قبة تلسكوب للرصد يصعد اليها بدرج ضيق طويل.

وكان الأجدر بمصلحة السياحة المصرية أن تستغل المرتفعات المحيطة بالقاهرة كتلال المقطم ، وتحيلها الى رياض غناء وارفة الظلال ، وتيسر لها سبل الانتقال المغرية كالعربات الكهربائية المعلقة ، وانشاء المطاعم والفنادق كما فعلت أسبانيا بمرتفعاتها .

محمد رجب البيلي

(١) مانوليتو من المصارعين الاسبانيين في الوقت الحاضر وقد ارتفع أجره الى رقم استثنائي اذ بلغ ٢٥٠٠ جنيه عن كل مصارعة وهو من قرطبة ويبلغ من العمر ٢٠ عاماً

(٢) تربى هذه الثيران البرية في مراعي أندلوسيا وينتخب للمصارعة أشدها قوة وتحدد الحكومة طول قرونها وتحرم مصارعة الثيران التي سبق لها ان نازلت مصارعاً أو رأت وشاحاً



جمجمة من العصر الجيولوجي الاوسط

كشف علمي جديد

A Skull from the miocene age.

العصر الجيولوجي الأوسط معروف عند أهل أوربا باسم miocene age وهو من العصور التي كثر فيها الظهار بقايا الحيوانات الثدية وبخاصة الرئيسات Primata وهي الحيوانات العليا التي تتقدم في حلقات النشوء ظهور البشر .

وقد عنيت الجمعية الملكية البريطانية بالبحث عن هذه الطبقات فأرسلت بعثة علمية باسم بعثة كينيا البريطانية ، وخصت البعثة بالبحث اقليماً اسمه اقليم « كافيروندو » بمقربة من بحيرة فيكتوريا ، فعثرت في موسمها الثاني على أثر مستحجر من أهم الآثار التي خلفتها الرئيسات في طبقات الأرض . فقد أعلن دكتور ل . س . ب . ليكي Dr. L. S. B. Leakey مدير الحفريات في ذلك البعث خبر العثور في جزيرة روسنجا : Rusinga في الثاني من شهر اكتوبر الماضي على الجزء الاكبر من جمجمة لقرد من نوع من القردة عاش في العصر الجيولوجي الأوسط يتبع جنساً يعرف في العرف العلمي باسم فروكنصول Froconsul . ويرجح أنه من النوع الذي وصفه العلامة هوبوود : Hopwood وأطلق عليه فروكنصول الأفريقي : P. africanus

وطرافة هذا الكشف تنحصر في أن كل البقايا الحفرية التي عثر عليها في افريقية من مخلفات العصرين الأوسط والأجد Pliocene (أي العصر الثلثي الحديث) قد اقتصرت على بضع أسنان وقطع من فكوك غير كاملة . أما هذا الكشف فعبارة عن الجزء الأكبر من هيكل وجهي وباحة كبيرة من الحقف: Brain case . ولقد يرى من الصورة التي ننشرها مع هذا الكلام أن الفكين والهيكل الوجهي كاملة تقريباً ، ولو أنها غير مستقرة تماماً في وضعها الطبيعي لتشويه أصاب الجزء الأيسر .

وأهم ما في هذه الجمجمة من المجالي التشريحية ظاهر في منطقة الجبهة ، فانها خالية تماماً من الحيد النوقيحجاجي : Subra-orbital torus ، وهذا الحيد من الظواهر التشريحية المبينة في القردة البشرية الأفريقية التي تعاصرنا . والمظهر الثاني الذي يلفت نظر المشرحين ، هو رقة الجدار الحقني : Cranial Wall . وهذه البقايا هاشة كل الهشاشة ، وأجزاؤها ضعيفة التماسك ، بحيث احتاجت الى عناية تامة ومهارة فائقة لاستخلاصها من المحيط الذي انطمرت فيه .

ومسز ليكي أول من وقع نظرها من افراد البعثة على هذا الركاز العلمي الفذ ، وكان أول ما ظهر لها منه بعض أجزاء من هذه الجمجمة ، انحسر عنها الرماد في منحدر كانت تعمل فيه البعثة ، فنبهت زوجها الى ما ظهر من هذه الأجزاء ، فاستدار بالحفر من وراء المكان الذي استقرت فيه ، وما زال يعالج الموقف بعناية العالم الخبير ، حتى استخلص هذا الأثر الحفري الثمين .

وقد نقلت هذه الجمجمة الى انجلترا بالطائرة حيث رافقتها مسز ليكي فوصلت هنالك في ٣١ اكتوبر من السنة الماضية (١٩٤٨) وأودعت في المتحف الخاص بقسم التشريح البشري في جامعة اكسفورد ، ليكب العلماء على دراستها دراسة كاملة ، وتقارن بما يقرب من مئة أثر حفري . عثرت عليها بعثة كينيا العلمية البريطانية في بقايا رواسب العصر الأوسط الجيولوجي في خلال العامين الماضيين . والى جانب ما عثرت عليه البعثة من بقايا الرئيسات المستحجرة في طبقات ذلك العصر ، جمعت كثيراً من بقايا الفقاريات Verteprata ، فكانت من أكثر البعوث العلمية توفيقاً في خدمة العلم .

أين المفر

ديوان شعر جديد للشاعر : محمود حسن اسماعيل

« فيأيتها الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق

شقي حجاب السر المختم على جراح الوجود

« والطمي ظلام الحياة الشقيـة بعويلك الجبار علها تهتك قنـاع الرق عن و-

الجاثي على رياء الزمن

ومرّي بترنيمك السماوي على أسوار هذه الأرض المحروقـة من النـور .... ا

سحرها يصحو من غطيطه الطويل على دف هذه المزامير ، ويقتات باشراقة من

الغناء الجديد .

«واجرفي بنارك الحرة الوائبة هشيم الواقفين بتوابيت الماضي في طريقك الطو

وأيقظي الغاب والرعيان . . . . محمود حسن اسماعيل

«وانفضي عنك غبار الذل والعبودية ، واطلقي الفكر في ظلمات وجودك ينب

ويصهر جلاميدها ، فيحولها شعلة قدسية تتلألأ كأنها كوكب دري توقد من ش

مباركة أصلها ثابت في أغوار الماضي ، وفرعها ينبثق في الأزل

«ورفرفي بأجنحتك السماوية ،ضاربة في أجواز هذا الـكون نحو اللانهاية ،

موقظ الأرواح

«وحطمي الحجب ومزقي الأستـار ، وتوجهي نحـو المجهول الذي يتوسل

المتوسلون بدعائهم صارخة : جد علي بشعاع منج من بسمات غفرانك وأيقظ روحي

«وثوري على الزمن وعلى الأقدار ، وانسي شقاء الماضي ، واستقبلي أشعة الا

يضفيها عليك المستقبل الباسم ، وأذلي أعناق أعدائك وضعيها تحت ثقل أقدامك

الرغام ، وارسلي الصيحة الداوية تزلزل منها الأرض ، وتهتز لها الجبال ، واقذفي وجوه الجبابرة العتاة بحمم من إيمانك

«أنت أيتها الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق

«ارسلي رياحك الهوج على ذلك الضباب فبدديه ، وتنسمي الشمس والدفء والحياة ، وادرجي بقدم ثابتة وجنان وثاب : فان المجهول الذي يوقظ الأرواح قد تنفس لك نوره . إنه مس آلامك . انه رآك ......

* * *

هنا في ديوان هذا الشاعر الذي يبحث عن مفر تفلت منه تلك الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق ، تكمن هذه الروح . الروح التي تحلق في آفاق الشعر البعيدة ، فتلهم المعنى الفذ ، والخيال الرائع ، والعبرة التي تعظ والحكمة التي تبقى ، وتسقيك الخمر التي توقظ ، وتريك الحياة التي لا تموت .

هذا الشاعر أنشودة متصلة الترانيم ، متسقة النغم ، كأنه القيثارة التي لا تضرب عليها أصابع فانية ، بل تحركها مشاعر تستمد من أعمق أغوار النفس ، ومن أبعد غمرات الوجدان ، فتخرج هفافة كأنها النسيم ، ريانة كأنها ضفاف النيل الندية ، تلك الضفاف التي اختلبت الشاعر وأوحت بالشعر ، أو كأنها قطرات الندى الصافية على ورق الصفصاف التي تتدلى أماليده الطويلة على الضفاف فتوحي بالنيل وبمصر ، وبالقرية والشمس وبالجزيرة ، وعبيد الرياح الذين تستعبدهم رياح النيل وموجه الباسم الغضوب ، وحصاد القمر وصلاة العشب والبعث والشك والطريق الى الله وخمر الزوال ونار الغروب والنبي الجائع ، تلك القصائد التي تنشق من خلالها نسمات الحب والثورة والجمال والحلاوة والعنف والغضب والعفو والسخط والرضى والأمل واليأس ؛ كل هذه أشياء تعتلج في نفسك اعتلاجها في نفس هذا الشاعر ، فتنقلك من أفق الى أفق ، ومن سماء الى سماء ، ومن طيف الى طيف ، ومن أرض الى أرض ، فلا تلبث أن تأنس من روحك أنها مأسورة في أغلال تلك المعاني الفائضة ، فلا تنكر على الشاعر أن يسمي ديوانه « أين المفر » ؟ كلا . لا مفر . . . إن لم يكن في نفسك الحمى والمستقر .

لعلّي أكون مشغوفاً بمصرية هذا الشاعر ! ولعلي أكون قد بالغت في وصف شغفي هذا ! ولعلي كتبت ومصر من ورائي تهمس في وجداني : إني أطالعك من خلال هذه القصائد ! لعلّ مصر الأبدية التي تحلق بأجنحتها القوية في ضباب هذا الشرق ، قد هس هسيسها الخفي في نفسي فأفعمني بتلك المعاني ، فأجرى ذلك الذي كتبت على قلمي ! لعل ذكرياتي التي انطبعت في نفسي عن مصر وريف مصر ، وغدرانها الوارفة الظلال المنسابة انسياب الأفاعي بين الخمائل الخضر ، ونسمات السحر التي تطالعك مع الخيط الأبيض من الفجر بين الحقول المطمئنة الساكنة الهادئة ، أو ضفاف النيل المنساب حفافيها بشدة الجبار وكأنها تغالبه أن يجرفها معه ، أو غناء القبّرة عند الصباح ، أو صياح الكروان في سكون الليل والقمر نائم بين السحب كأنه قرصاً من الفضة سابحاً في بحر يعلوه الزبد . لعلّ تلك الذكريات المصرية الفاتنة هي التي أجرت قلمي بتلك العبارات ! عجباً . ألا يكفي الشاعر أن يستلّ من قلم ناقدٍ ما استلّ ، بما أيقظ في وجدانه من معانٍ ، وبما حرّك في نفسه من ذكريات كلها صدق وكلها حق ، وكلها مصر : أمّنا الخالدة !!! .

* * *

إن مصرية هذا الشاعر مصرية عميقة ، تضرب في صميم الوطن الى أعماق بعيدة من الأحاسيس الحية . لا تقتصر مصريته على أن يصف منظراً مصريًا أو يتغنى بمجد مصري . وإنما هو في شعره قطعة من مصر ، وعنصر من ترابها ، وجوهر من جوّها . فاذا وصف « عبيد الرياح » مثلاً ، لا تشعر بأنه يصف العبد أو الريح أو النيل أو الشاطىء ، بل يصف مصر منذ أبعد أيام تاريخها الى يوم كتب تلك القصيدة الفذّة . أما « عبيد الرياح » فأولئك الملاحون الذين يرون على شاطىء النيل أو على غدرانه يجرون سفنهم مغالبين التيار بحبال يشدونها الى صدورهم وعلى كواهلهم . أولئك الذين استعبدتهم الرياح والتيار فألقت بهم في تلك المحنة التي يغالبون فيها الطبيعة وذلك الجبار الأبدي ، معبود قدمائنا منذ أبعد العصور ، وهم :

جبابرة عوّذوا للهواء وبثوا رقاهم لريح المغيب
يلوحون صفًا وئيد الحراك كأنهم صلبوا في الكثيب



يسيرون سير الهوان المريب ويمشون مشي الزمان الكئيب
فتحسبهم أوغلوا في الخيال وعينك تأخذهم من قريب
على صدرهم في غضون الكفاح أفاعي حبال تلف الجنوب
تجاذبهم خطوهم للوراء فهم من عناد بقايا حروب
سواعدهم موثقات الزنود ولكنها عدة للهبوب

تشق الفضاء بأصفادها فتنشق أجوازها أو تذوب
وأجسادهم حانيات لها ركوع المحمل ثقل الذنوب

***

شدَوْا واستجاروا وخاب النداء فغاصت خطاهم وشقوا الجيوب
ومرُّوا حفاة عراة لهم شهيق الثكالى وزفر الغريب
على الأرض خُرْسٌ وان همهموا فهذي صلاة تذيب القلوب
يجرون أيامهم خلفهم وذكرى شقاواتهم والكروب

***

عبيد الرياح : كلانا رقيق ! فغنوا وسلوا عبيد الخطوب

***

هذا مشهد واحد من مشاهد مصر، ولكنه مصر كلها ، منذ أقدم الأزمان الى اليوم.
ي هذا الشعر لمحات بل ومضات تردك حيناً الى أبعد أزمان تاريخنا القديم ، ثم تثب بك
ة واحدة ، فاذا بك قد قطعت القرون الى يومك هذا . هذا والمشهد هو المشهد، والرجل
الرجل ، والنيل بذاته ، والسفينة بعينها ، والتيار والرمال والحبل المشدود ، والزمن
يد الذي يجرُّونه من وراءهم وراثة منذ فجر التاريخ ، والكروب التي نزلت بهم
لخطوب التي تتلقاهم الآن . أليست هذه مصر الخالدة ، التي أخذت الآن تضرب
بنحتها في ضباب الشرق ؟

***

كذلك هو اذا تكلم عن « الجزيرة » ، فانه يرمز بها الى مصر . يطالعك بقصيدته
ه شجواً لين الأوتار ونغماً يخرق آذان الصم ، وأشعة تخترق صميم القلب ، وتظل
ئة حتى تستقر في أعماق الوجدان .
لم يلتفت الى العذارى اللواتي يدرن في الجزيرة أمثال الشموس ، أو الأوانس النُفَّر
ظل الشجر على الأرض إذ يلوح مدرهماً ومدنّراً ، كما فعل غيره من الشعراء الذين اقتصر
بالهم على الجزيرة التي تقع حيال القاهرة على شاطىء النيل ، وانما تمثل مصر في الجزيرة .
يست كل قطعة من مصر هي مصر ؟

قال: «وأومأ النوتي بنايه الى اشراقة الشمس، فهمنا مع الجزيرة نشرب من هذه الصلاة»

سبقت الى النيل خطو الصباح فتيَّمته بالصبا والفتون
وخمر الهتية في يديك وكأس من الحب ملأى جنون
وثغرك تغريدة ما وعى ترانيمها غير قلبي الحزين
عشقت صداها فغنيتها ولقنتها لشفاه السنين

وما كنت أدري ما الهوى والحياه
ولا السحر في أغنيات الشفاه
ولا كنت أعلم سر الإله

سوى بعد ما لحت لي فتنة
وأقبلت لي مرة تبسمين

وعيناك علمتاني السجود وكيف أخر مع الساجدين
لهم دينهم في زحام الصلاة وديني الضياء الذي تنشرين
عبدت بك الله ... ما في دمي ولا في فمي غير هذا الرنين
فياولها ناعساً في الجفون ويا سجدتان بدير الجبين

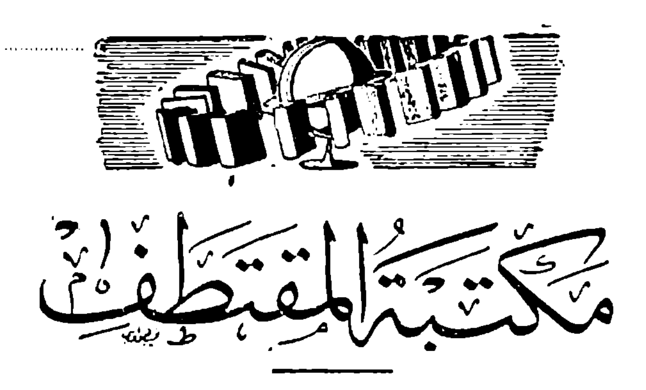
ويا قبلتان بخد الصباح
ويا بسمتان بثغر الأقاح
طغت بين جنبي نار الجراح

فردي لبلواي سحر المنى
وبثي حديث الهوى ياعيون !

***

أليست هذه أبعد آفاق الشعر ، تنزل منها هذه الترانيم الشجية ، فتثير في النفس ما نام من كوامنها ، وتبعث في العقل ما بعد وانطوى من احداث القرون ؟

اسماعيل مظهر



تاريخ العالم

The Universal History of the World

كتاب نشر أصله الانجليزي في ثمانية مجلدات ضخام ، وحلي بآلاف الصور النادرة ، وكتبه عشرات من كبار رجال الاختصاص في العلم والادب والفنون والتاريخ ، وعهدت ادارة الترجمة في وزارة المعارف بترجمته لفئة من رجالها صبروا وصابروا على نقله الى لغة الضاد في أسلوب سهل المأخذ قدر ما يستطيع المترجم أن ينقل عن جهابذة من أهل الاختصاص في مختلف فروع المعرفة ، واضطلعت بنشره مكتبة النهضة المصرية ، فأخرجت العدد الاول منه في أربعة وستين صفحة من القطع الكبير ، فجاء صورة كاملة للاصل الانجليزي ، وسينشر الكتاب أعداداً متلاحقة .

وأزاء هذا العمل العلمي الكبير لا يسعنا إلاّ أن نحيي كل من اشترك في إخراجه بالرأي أو العمل أو الجهد ، تحية خالصة لوجه العلم ونخص بجزء عاطر منها ناشري هذا الكتاب أصحاب مكتبة النهضة المصرية ، فليس في هذه البلاد نقص في القدرة على الترجمة والنقل ، ولا نقص في أصحاب الرأي أو الفن ، ولكن النقص فيمن يقدم على نشر مثل هذه الموسوعات الكبيرة التي تعدّ من مراجع فروع المعرفة ، ولا شك أن ظهور العدد الأول من هذا الكتاب في العربية يعد حادثاً تاريخيًّا في هذه البلاد خاصة وفي العالم العربي جملة .

بدأ علم التاريخ يتألف منذ أقدم العصور ، وقبل أن يخترع الانسان الكتابة فقد خلف الانسان آثاره الباقية في سطح الأرض وعلى صخورها وفي جوفها ، وانقضت القرون تلو القرون ، فضاع من معالم ذلك التاريخ ما ضاع وبقي منها ما بقي ، فلما بدأ الانسان يرمز بالنقوش للمعاني المختلفة ، عني في أول ما عُني به أن يخلف أخباره منقوشة في الصخور

أو على الألواح المطبوخة وبدأ يدوّن عند ما ترك الازميل وأمسك بالقلم الذي علّم الانسان ما لم يعلم .

وجرى علماء التاريخ في عصور متطاولة على تخليف المدوّنات يروون فيها الحوادث ويسجلون أسماء الملوك والعظماء وأعمالهم وعلاقة الدول والحضارات ، على وجه كان فيه من الاقتضاب والابتسار ، ما حمل العلماء على أن يعيدوا كتابة التاريخ عصراً بعد عصر ، ودهراً بعد دهر ، ليسدوا ما ترك المدوّنون الذين سبقوهم من ثغرات ، وليدلوا بآرائهم واستنتاجاتهم التي يستقرئونها من الحوادث ، فأخذ التاريخ الانساني يشب وينمو ، حتى اتخذ من العلوم الصرفة ومن العلوم النظرية أداة يكمل بها أطوار المأساة الانسانية فوق هذه الأرض ، ومضى يربط بين ما كشفت العلوم من حقائق هذا العالم وبين الانسان سيد أهل الأرض ، فاذا بالتاريخ يخرج بتطوره من عالم الإزميل يجري على الصخر الى عالم ما فوق الطبيعة ، فيُشرف بهامة الجبار على فروع المعرفة جميعاً . وما يظهرك على ذلك قدر ما يظهرك كتاب تاريخ العالم الذي نحدّثك عنه في هذه العجالة القصيرة .

نظر التاريخ الى عالم الحياة والى عالم الانسان نظرة أضيق ما يكون في أول تخلّقه . ثم أخذت هذه النظرة تمتد ثم تمتد ، متبعة في ذلك تطور الفكر والعقل البشري ، ومضى يزيح عنه غبار الجهل بحقائق الكون وحقائق الحياة ، فاذا بمصراعي الباب الذي غشى عليه الصدأ ينفتح رويداً رويداً ، فتظهر من خلاله تلك العوالم الشاسعة التي تدخل في نطاق التاريخ ، عوالم الحيوان والنبات والانسان والجماد ، وعوالم الفكر والفن والعقل ، وعوالم المجرّات والكوكبات والسدم ، وعوالم الأشعة الكونية والذرات وعوالم الشعور والانفعال والشهوات ، وإذا بالتاريخ يحتضن هؤلاء جميعاً ، ويمسك بيده القوية مشعل المعرفة يضيء به ظلمات الماضي ، ولكنه يقف أمام المستقبل المجهول وظهره الى هاوية .

هذا تصور التاريخ على ما يفصل لك هذا الكتاب . واني لشديد الاعتقاد بأن درس هذا التاريخ سيكون له الأثر الأكبر في تحويل الفكر الشرقي ، وبث روح التوثب الى المعرفة الشاملة ، التي اكتفينا منها حتى الآن بنتف وأقساط . ولئن كنا في هذا العصر

أحوج الشعوب الى حملة ثقافية ، بل حملات تقضي بها على ما خلفت الصحافة الصفراء والصحافة الاخبارية من مظاهر العجز الفكري الذي تجلى في جميع مرافق حياتنا العقلية ، فان هذا الكتاب وحده كفيل بأن يكون من أعظم أدوات البناء .

اسماعيل مظهر

بين العلم والأدب

للاستاذ قدري حافظ طوقان — مكتبة فلسطين العلمية — ٣١٠ صفحات من حجم المقتطف

قرّاء المقتطف يعرفون جيداً العالم الفلسطيني الجليل الأستاذ قدري حافظ طوقان ، فقد تمهد في مدرسة هذه المجلة ، وتتلمذ على أساتذتها ودرج فيها حتى صار إماماً وحجة وثقة ونشر بحوثه على صفحاتها فعرف كيف يخضع جموح التعبيرات العلمية لسلاسة البيان العربي وكيف ينتقي الموضوعات العلمية ذات الاتصال بحياة المرء اليومية ليبسطها ويجلو خوافيها ويميط عنها حُجب الجهالة .

وقد أصدر الأستاذ طوقان أخيراً كتاباً بعنوان « بين العلم والأدب » نشر في فلسطين — وهي بلاد توزعتها القلاقل والحروب — يضم فيه بحوثه ومساجلاته وخطبه ومحاضراته التي أذاعها بوسائل النشر والمذياع والمنبر ، ليكون سجلاً لنشاطه في بضعة عشر عاماً .

والأستاذ قدري طوقان عالم بفطرته متشبع من العلم بسليقته ، فاذا ما تعرّض لمبحث علمي كان فارس الحلبة بغير نزال . ولكنه حين يتعرّض للموضوعات غير العلمية وحين يطرق الأبواب التي تمليها عليه « المناسبة » تراه يجنح الى الأسلوب الانشائي ويغلّبه على الاسلوب « الحقائقي » مما ينشىء في كتابه فجوات يحسّ بها القارىء الذي حزم أمره على تلاوة موضوعات علمية مجرّدة ، فشتّان بين فصل دسم كفصل « حول القنبلة الذرية » ، وفصل هزيل سابق له كفصل « الاحسان » ، وما أبعد الشقّة بين فصل مشتمل بالحقائق كفصل « المكتشفات العظيمة من الوسائل البسيطة » ، وفصل بادي القصور مثل « من هو المثقف » ، وهذا التفاوت في مرتبة فصول الكتاب — وهو تفاوت مبعثه تباين موضوعاته وتنافرها — يعدّ في عرفي نقصاً ليت المؤلف الفاضل جانبه وتلافاه .

ومن المآخذ التي يعن للناقد أن يقتنصها للأستاذ طوقان أنه نشر أحاديثه ومقالاته وبحوثه كما هي ، فلم يمهد لها أو يوطىء لها ببيان أو يبسط مناسبتها وملابساتها مما يعين القارىء على متابعتها تتبعاً كاملاً . فهو يقول في مستهل مقال له :

« سرّني اهتمام الريحاني بالفلك وما يحويه من أرقام ... الخ » ، ثم يأخذ في الرد على مقال الأستاذ الريحاني دون أن يشير الى اسم الكاتب كاملاً ، ودون أن يشير الى المكان الذي نشر فيه مقاله ودون أن يطلعنا على نص هـذا المقال . فالقارىء يرى ردّاً ولا يرى المقال الذي حفز على هذا الرد ، فيصبح في شبه ضلال كان يمكن اجتنابه لو أن الأستاذ طوقان أضاف مذكرات تفسيرية إلى كل مبحث من مباحثه ليستعين بها الدارس في درسه.

هذا عن عورات الكتاب ، أما حسناته فهي كثار وفيرة لأن للاستاذ طوقان اسلوباً فريداً في تبسيط المعميات العلميـة وتوضيح خفايا العقد المستعصية . وله طريقة فذة في انتقاء موضوعاته بحيث يختار منها ما يشوّق ويرغب . فهو يبدأ كتاب « بين العلم والأدب » بفصل عنوانه « فضل الصفر على المدنية » وهو موضوع طريف طليّ جذاب عامر بالمعلومات العلمية الممتعة. ويحدّثك الأستاذ طوقان بعد هنيهة عن « غرائب الاعداد وعجائب المعادلات » فينقلك معه الى موضوع آخر لا يقل طرافة ولا روعة عن سابقه ، وهو كذلك ينطوي على زاد علمي مكدّس . ثم يحدثك عن أمراء العلم من الشرقيين أمثال ابن الهيثم وابن ماجد ومن الغربيين أمثال السر جيمس جينز ومكسويل وفاراداي وادنجتن فيكون حديثـه تساوقاً بين العلم والأدب وتآلفاً بين فن كتابة السير وفن تبسيط العلوم .

ولولا نكبة فلسطين — بل نكباتها — لكان الأستاذ قدري طوقان يتصدر اليوم رعيلاً كبيراً من العلماء العرب ، ولـكن هذه المأساة حالت دون أن يبزغ الى جانب الأستاذ طوقان نجوم أخرى من تلامذته ورفقائه . فلطفاً اللهمّ بأرضك المقدسة لأن العلم والأدب فيها يكادان يختنقان بمعل الثورات والاضطـرابات والحروب التي ما فتئت تصلى فلسطين نارها حامية .

وديع فلسطين

باب الأخبار العلمية

الفيتامينات وعمر الانسان

تعيش ملكات النحل مدة أطول مما تعيشه الذكور فمتوسط عمر الملكة يبلغ حوالي خمسة سنوات بينما الذكر يعيش في المتوسط صيف واحد. والأسباب المحتملة هي أن الملكات تتغذى على مزيج من العسل وحبوب التلقيح وهو الطعام الذي يعرف باسم الغذاء الملكي . بينما الذكور محرومة منه .

وبعد عدة أبحاث وجد الدكتور توماس س . جاردنر أن التفسير يقع في الغذاء الملكي « لحامض البانتوثينك » الموجود في الغذاء الملكي يزيد متوسط الحياة لحشرات الفاكهة من ١٣٫٣ يوماً الى ١٧ يوماً ويكون هذا الحامض في صورة مركزة أحد أنواع فيتامين ب المركب .

***

وبعد أن أثبت الدكتور جاردنر تأثير هذا الحامض رجع الى أبحاث أجراها قبل سنة ١٩٤٦ على الفيران . ففي ذلك الحين وجد أن العمر المتوسط للفيران يزداد حين تعطى بعض الفيتامينات الأخرى الموجودة في الخميرة .

وبدأ يجرب ليرى تأثير هذه الفيتامينات الأخيرة مع حامض « البانتوثينك » على إطالة عمر حشرات الفاكهة فوجد أن عمرها المتوسط قد ازداد من ٣ ر ١٣ يوماً الى تسعة عشر يوماً أي زاد بنسبة ٦ر٤٦ في المائة . فإذا كان لهذا المزيج نفس الأثر على الانسان إذن لازداد متوسط سنين حياته حوالي ثلاثين سنة .

ولكن ليس هناك الآن من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هذا المزيج من الفيتامينات سيكون له نفس الأثر في الإنسان ولكن على أية حال فان تقرير الدكتور جاردنر المتضمن لنتائج أبحاثه والذي قدمه الى الجمعية الكيميائية الأمريكية سيثير الاهتمام بالفيتامينات من زاوية جديدة . إذ سيحاول علماء الكيمياء الحيوية كشف ومعرفة الناحية الايجابية لعمل الفيتامينات عوضاً عن قصر اهتمامهم على رؤية آثار نقصها كما هو الحال الآن .

إن الفأر عدوٌ قديم للانسان وقد حاول العلماء القضاء على هذا العدو المخيف وإصابته في الصميم . واليوم نجد بين ظهرانينا ثلاثة مواد ألفها الكيميائي في المعمل لإبادة هذا المخلوق الضار سيكون لها فضل كبير على النوع الانساني .

ففي دولة كالولايات المتحدة نجد أن الفيران يبلغ عددها حوالي مائة وعشرين مليوناً ونلقى قائمة طعامها السنوية ، التي لا يتكفل بدفعها غير الانسان ، عامرة بكل ما لذَّ وطاب وبما يقدر ثمنه بحوالي مائة وخمس وعشرين مليوناً من الجنيهات إذ تمثل حوالي مائتي مليون أردب من القمح وكميات هائلة من الجبن والسكر وبيض الدجاج . الخ .

* * *

وليست الفيران كاللصوص تسرق طعامنا وتكتفي بذلك ، بل هي أضل سبيلاً فهي من القتلة السفاكين . إذ تنقل جراثيم أمراض مميتة يربو عددها على العشرين ، منها الطاعون والتيفوس وتقدر الاحصائيات أن الفيران سببت من الوفيات ما يفوق ما سببته جميع الحروب التي شهدها التاريخ .

وقد ضايقت الفيران الانسان من قديم العصور ولكن الانسان العصري يواجه اليوم فأراً أشد وأقوى من أجداده الأقدمين التي واجهها الرومان والمصريون القدماء ... فالقدماء حاربوا الفأر الأسود بينما ظهر في القرون الحديثة نوع جديد هو الفأر البني ، تخاف منه القطط والفيران السوداء .. فهو فأر محارب مخيف . ويفوق في عدوه اليوم الفأر الأسود والأنواع الأخرى من الفيران .

***

والآن قد بدأنا نتغلب على هذا العدو فقد ظهرت في السوق ثلاثة مبيدات للفيران أحدها هو الأحسن للاستعمال في المنازل [ويرمز إليه بالرمز « ا . ن . ت . ى »] لأنه غير ضار بالانسان .. وهناك دواء آخر وهو « كاستركس » أشد في أثره خمس مرات من الأول ولكنه سام للانسان . ومع ذلك فهناك مواد يمكن بها وقف فعله السام في الانسان .

أما المادة الكيميائية الثالثة (الفائقة القوة في إبادة الفيران) فهي « ١٠٨٠ » (تركيبها الكيميائي هو فلورو خلات الصوديوم) وهي مادة جد سامة عديمة الطعم واللون والرائحة ومميتة الى حدٍ بعيد . ولا يجب أن يزاول استعمالها إلاّ الاخصائيين إذ لا يمكن وقف أثرها السام بأية حال ...

البيفاترون

أعظم « سيكلترون » يستخدم اليوم في العالم هو الجهاز الموجود في جامعة كاليفورنيا والذي تبلغ قوته أربعمائة مليون ألكترون فولت . ويزن أربعة آلاف طن . ويزيد قطره على خمسة عشر قدم وبدأ عمله في سنة ١٩٤٧ .

* * *

وقد أثبت العلماء باستخدامه أن البروتونات والنيترونات [1] يمكن تحويل أحدهما إلى الآخر . وكان لقوته العالية أثر كبير في مساعدة العلماء في الكشف والبحث حتى أن الدكتور ارنست س . لورانس وهو الذي وضع تصميمه أعلن عن تصميم جهاز جديد هو « محطم ذري » ضخم يعمل بقوة تتراوح بين ستة وعشرة بليون إلكترون فولت . وسيكون للجهاز الجديد مغناطيس دائري يبلغ قطره مائة قدم ويزن حوالي ألف وثلاثمائة طن ... والاسم الذي أطلق عليه هو « بيفاترون » Bevatron — (وهو مشتق من بليون إلكترون فولت) .

والى الآن لم تبحث لجنة الطاقة الذرية في أمريكا تكاليف إنشائه التي تبلغ حوالي مليون ونصف مليون من الجنيهات ولا المكان الذي سينشأ فيه .

* * *

وفيما يلي بعض ما ساعد سيكلترون جامعة كاليفورنيا في إتمامه من أعمال رائعة خلال عمره القصير الذي لم يتعد السنة .

(١) تحطيم نواة الذرة الى حوالي ثلاثين من الدقائق. أي عشرة أضعاف عدد الدقائق التي كانت معروفة قبل الحرب .

(٢) كشف العلماء به عمليات ذرية جديدة وأكثر تعقيداً من العمليات التي شوهدت من قبل في تحطيم نواة الذرة

(٣) أبان الطريق لصنع مائة من النظائر الاشعاعية الجديدة التي لا يمكن إنتاجها في المصانع الذرية

(٤) أكد لأول مرة نظرية هيزبرج التي تقول بامكان تحويل النيترونات الى بروتونات ثم ثانية الى نيترونات

(٥) أنتج بمساعدة « غرفة ويلسون » الصورة العلمية الأولى لسنة ١٩٤٨ وهي صورة أكمل تحطيم للذرة توصل اليه الانسان

جمال الدين محمد موسى

---

(١) البروتونات دقائق ذرية موجبة الكهرب في حين أن النيترونات دقائق ذرية متعادلة كهربا ووزن النيترون يساوي تقريباً وزن البروتون وهذين النوعين من الدقائق الذرية توجدان في نواة الذرة

فهرس الجزء الاول

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

لحق المقتطف

رسالة الشاعر : ابراهيم الابياري

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ فبراير سنة ١٩٤٩ — ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٦٨

الروحانية وتطورها

عند البدائيين وفي العصر القديم

— ٤ —

(تتمة البحث)

عالج ارسطوطاليس علم النفس منتحياً الوجهة الاحيائية (Biological) ، فجعل النفس أو الرّوح —(psuchy) پسوخي في اليونانية— من نصيب كل الأشياء الماديّة التي لها قُدرات مختلفة على الحركة الذاتية والنموّ ، أي لكل المتعضيات الحيّة . وكان مرماه من ذلك أن يفرق بين ما يتصف بالحياة وبين اللاعضويات أو العالم اللاعضوي أي الذي لا حياة فيه ، فقال بأنّ ما فيه حياة « حيوان »[1] أي حيّ أو « ذو نفس » أو « ذو روح » . أمّا كلمة « پسوخي » اليونانية كما فهمها أرسطوطاليس فأقرب ترجمة عربية لها هي « الحياة » : Life أو « المبدأ الحيوي » ، وأبعد ما نكون فهماً للمعنى الذي عناه ارسطو اذا ترجمناها « بروح » أو « نفس » . فالحياة أو « المبدأ الحيوي » عند المعلم الأول هو الذي يميز بين المتعضي الحي وبين الأشياء اللاعضوية ، وينطوي تحت هذا

(١) وإن الدار الآخرة لهي الحيوان (قرآن كريم)

المعنى كل الخصيَّات التي للأحياء ، بما فيها القدرات العقلية . ولقد نكون أكثر افصاحاً عن المعنى الذي عناه ارسطوطاليس اذا قلنا إنه قصد « بالروح » أو « النفس » مجموع الوظائف الحيويَّة .

من مجموع القدرات الحيويَّة أو بالحري « القوى النفسيَّة » للمتعضيَّات ، استطاع ارسطوطاليس أن يفرق بين خمس صور مختلفة :

(١) مجموع القوَّة النباتية : كالإستمراء والنموّ والتوالد

(٢) الشهوة والرغبة أو الدافع

(٣) الإحساس

(٤) الحركة الذاتية في خلال المكان

(٥) التفكير العقلي .

لا يشارك النبات الحيوان في شيء من ذلك إلاَّ في الأولى دون الباقيات . أما الحيوان فله الأربعة الأُوَل ، لأن اختصاصه بالوُسْطَيَات الثلاث يتضمن الأولى استتباعاً . أما الانسان فيختص بهؤلاء جميعاً ، وينفرد بقوة العقل .

ليست هذه القدرات وظائف تقوم بها « نفوس » مختلفة ، ولا هي مجالي مختلفة لأجزاء النفس . ذلك بأن النفس « وحْدَة » وكل كائن حي إنما هو توليف من نفس وجسم . ومع هذا فان النفس والجسم ليسا شيئين مستقلين ، لأنه يتعذر على أحدهما أن يبقى بدون صاحبه ، وأنه لا يمكن الفصل بينهما إلاَّ في « الفكر » والنفس لا يمكن اعتبارها شيئاً ماديًّا ، ولكن يتعذَّر انفصالها عن المادَّة : أما الجسم فهو « السبب الماديّ » للكائن المتعضي ، في حين أن النفس هي « السبب الفاعلي » بحكم انها تحدث حركاته . وهي فوق ذلك « السبب الصوريّ » للمتعضي بحكم أنها هي التي تحدد صورة الفرد العضوي . وفوق هذا وذاك هي « السبب الغائي » لأنها هي الغرض الذي من أجله يوجد الجسم .

* * *

هذه هي الخطوط الرئيسة في مذهب أرسطوطاليس . أما ما يتفرع عنها كانفصالية النفس والجسد ، أو علاقة النفس بالحياة والعقل ، فتلك تفاصيل لا نعرض لها هنا ، لأنها

بعيدة عما نرمي إليه من تلخيص الفكرة في الروح أو النفس .

ومن مجمل البحوث التي سقنا فيها القول في مذهب الروحانية ، نجد أن هنالك فكرة شاملة ثابتة في التفريق بين النفس والجسم أو بين الروح والمادة ، تلك الفكرة التي ثبتها أفلاطون في تقاليد الدنيا الثقافية ، وان هذه الفكرة لم تضعف ولم تهن في زمن من الأزمان. ولكن العصر الذهبي لهذه الفكرة ونعني به العصر الذي ظهر فيه سقراط وأفلاطون وإرسطوطاليس ، قد عقبه عصر غلبت فيه ظواهر الشك فذاعت فيه المذاهب الشكية وبرزت الآراء المادية التي حاولت أن تقضي على الثنائية التي قال بها أفلاطون . فإن ابيقور وقد اعتنق مذهب ديمقريطس في الذرات (الجواهر الفردة) قد بشر بأن الروح عبارة عن مادة لطيفة تنتشر في جميع أبعاد الجسم ، وهي أشبه ما تكون بالهواء المشبع بقليل من الدفء ؛ وقال بأنها من أجزاء الجسم ، يستطيع الجسم بها أن يشارك في الاحساس وانها تندثر باندثار الجسم . فاذا حدث الموت تناثرت ذرات الروح في الهواء . وفرق أبيقور بين مظهرين من مظاهر النفس أو الروح . الأول المظهر اللاعقلي أو القوة الحيوية التي تستحكم في كل أجزاء الجسم ، والمظهر العقلي ومستقره الصدر وهو عضو الفهم والارادة . وفي هذا جاراه لوكريشيوس .

ولقد عقب على ذلك الرواقيون فكان لهم مذهب جديد يقول بأن النفس أو الروح لها أساس مادي يتألف من الهواء والنار ، وان هذا الأساس هو الذي يحتكم في الجسم نماء وشعوراً وتفكيراً .

* * *

وعلى هذا ظل الفكر الانساني متراوحاً بين مادية ابيقور والشكية وبين المذهب الرواقي ، حتى ظهور الأفلاطونية الجديدة في الاسكندرية والمذاهب النصرانية ، فكانت الأفلاطونية الجديدة مثالاً لما تطور اليه الفكر الأغريقي ، والنصرانية مثالاً لما تطورت إليه المذاهب العبرانية .

اسماعيل مظهر

بترول الشرق
الاوسط
يزداد مقامه في خارطة البترول العالمي

تدفق البترول من منطقة عسل في صحراء سيناء وفيراً وقبل ذلك انساب هـذا السائل «المبارك» من ينابيع أخرى في مصر وفي الشرق الأوسط،وكل يوم يمضي يميط اللثام عن مستودعات جديدة غنيـّة بالنفط اهتدى إليها مهندسو الزيت وخبراء التنقيب عنه.

وقد عرض لنا في مجلة «ويرلد أويل» الأميركية مقال طيب عن منطقة بكر تستغل في استنباط النفط في الشرق الأوسط فعنّ لنا أن ننقله ملخصاً إيضاحاً لجانب من جوانب صورة البترول العامة في هذه المنطقة الإستراتيجية.

فتعتزم شركة البترول الأميركية المستقلة الشروع قريباً في التنقيب عن البترول وفي استخراجه تطبيقاً لما ظفرت به من امتياز يبيح لها العمل في المنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة العربية السعودية في قلب الرقعة التي تعد أغنى منطقة بالزيت في الشرق الأوسط.

وقد أنشئت هذه الشركة في شهر أغسطس من عام ١٩٤٧ واشتركت فيها عشر شركات بما تملكه من موارد وتجربة للعمل في خارج الولايات المتحدة

والمفهوم أن شروط الامتياز التي فاوضت الشركة فيها الشيخ احمد الجابر الصباح حاكم الكويت تتضمن ما يلي:

أولاً — يدفع نقداً وعداً مبلغ ٧ ملايين وربع مليون دولار من مال الشركة الى شيخ الكويت.

ثانياً — يدفع رسم اكتراء (إيجار) سنوي قدره ست مئة ألف وخمسون ألف دولار

ثالثاً — تدفع للكويت حصيلة قدرها دولاران ونصف دولار عن كل طن أي نحو ٣٤ سنتاً عن كل برميل.

رابعاً - ربما اشترك حاكم الكويت في أعمال الشركة المزمع انشاؤها وقد يساهم فيها بنحو ١٥ في المئة . وقد قيل إن هـذا البند من العقد في حاجة الى توضيح وتفسير . ويحتمل أن يقتضي الأمر إنشاء شركة أخرى تتعهد مصالح حاكم الكويت في هذا المشروع .

خامساً - تمنح الشركة الأميركيـة المستقلة حقوقاً بترولية كاملة في نصف المنطقة المحايدة على ساحل الخليج الفارسي وهي منطقة يملك الشيخ نصفها ويملك الملك عبد العزيز نصفها الآخر .

وتتمتع شركة البترول العربيـة الأميركية الآن بحقوق الأفضلية في الظفر بامتياز في النصف الآخر من تلك المنطقة وهو المملوك للمملكة العربية السعودية (مما يذكر ان الشركة نزلت عن هذا الحق لانشغالها بالمنطقة الواسعة التي يشملها امتيازها في المملكة العربية السعودية) .

وتتألف منطقة الامتياز من أرض صحراوية طولها خمسون ميلاً على أكبر تقدير تمتد من الشرق الى الغرب ، وعرضها معدله ٥ : ميلاً . ومع أن الجيولوجيين فحصوا المنطقـة المحايدة لم يستنبط البترول منها بعد . وتعمل الشركة على إيفاد جيولوجيين وسواهم من الخبراء الى تلك المنطقة ليعجلوا بتنفيذ المشروع .

***

وقد قال المستر رالف ديفيز وهو الذي أذاع في لنـدن نبأ الظفر بعقد استغلال هـذه المنطقة لحساب الشركة الأميركية المستقلة - « إن الشركة الأميركية المستقلة عند مفاوضتها لعقد هذا الامتياز ترى انها كتبت فصلاً سيكون له شأن كبير في المستقبل في تاريخ صناعة الزيت في الشرق الأوسط . فهذه أول مرة يجري فيها رجال مستقلون أعمالاً واسعة النطاق تعززها مالية كافية لاستنباط الزيت في الشرق الأوسط . ففي إيران والعراق والمملكة العربية السعودية وامارات الكويت والبحرين والقطر مستودعات للبترول تضم ملايين من براميل الزيت ولها امكانيات من حيث الإنتاج في المستقبل تزيد حتى على ذلك

المقدار . وهذه الينابيع إما مملوكة أو خاضعة لإشراف عدد من الدول أو مجموعة من الشركات الكبيرة في بريطانيا وأميركا وفرنسا وهولندا وامتيازات بعضها تشمل مناطق فسيحة جدًّا بحيث أنه لم يستطع حتى الآن سوى كشف جزء يسير منها » .

واستطرد المستر ديفيز قائلاً : « ولعلَّ هذا الموقف لا يثير قلقاً شديداً ما دام الزيت موفوراً في جميع انحاء العالم ولا سيما في الولايات المتحدة بيد أنه بالتحول في الولايات المتحدة من عصر عرف بوفرة بتروله إلى عصر يشح فيه مورده وبجنوح الولايات المتحدة الى الاعتماد على البترول الخارجي ترتب على عدم وجود عنصر مستقل قوي في الخارج مشكلة ملحة مباشرة تهم كلاًّ من شركات البترول والشعب عامة

« وفي العصر الجديد للبترول في العالم نرى أن من مصلحة الحركة الصناعية بأسرها أن تتكيف مع الحقائق الماثلة . ولا يصح للرجل المشتغل بالبترول أن يعد عبارات « المزاحمة » و « الشركات الحرة » وما الى ذلك مجرد عبارات . فاذا كان لصناعة البترول التي طالما ألفناها أن تزدهر وتعيش يجب على المستقلين أن يبذلوا كل ما في طاقتهم ليجدوا لهم مكاناً في إنتاج البترول في العالم » .

وأشار المستر ديفيز الى أن في الكويت ـ اذاغضُّ الطرف عن المنطقة المحايدة ـ شركة للبترول اسمها « شركة بترول الكويت » تملكها بالتساوي « شركة الزيت الانجلو ـ إيرانية » وهي انجليزية و « شركة التنقيب في الخليج » وهي شركة أميركية وهاتان الشركتان تعملان في منطقة لعلَّها أغنى بقعة في العالم بالبترول ، فيقدر رصيد البترول المختزن في باطنها بنحو ٩ بلايين برميل . وهذه الحقول البترولية تتاخم في الشمال المنطقة التي منحت الامتيازات الجديدة لاستغلالها .

***

ونرى في مناطق أخرى من خارطة البترول في الشرق الأوسط سحباً مرجعها الى استمرار الحرب بين العرب واليهود في فلسطين . وقد نفت السفارة البريطانية في وشنطن ما قيل من أن لندن تسعى لمساعدة العرب بأن تبقي على معامل تكرير البترول في حيفا موصدة الأبواب . وأشارت السفارة الى أن شركة بترول العراق التي تشرف على المعامل

لا تملكها الحكومة البريطانية وقالت إن معامل حيفا أوصدت أبوابها بسبب عدم وجود يد عاملة نظراً لنشوب الحرب ويقول اليهود انهم لا يستطيعون توفير عدد كاف من العمال للعمل في المعامل وحتى إذا استطاعوا ذلك لا يسعهم أن يضمنوا اعادة فتح المعامل لأن انسياب البترول عبر خطوط الأنابيب الى حيفا يمكن وقفه في كل وقت من جانب الحكومة العراقية .

وينقل البترول الخام الآن الى طرابلس في لبنان ثم يشحن الى خارج الشرق الأوسط لتكريره .

والبترول الذي يكرر في معامل طرابلس الصغيرة هو البترول الذي ينساب اليها مباشرة من كير كوك .

* * *

أما أنابيب البترول التي كان يراد استخدامها في مد الخط عبر الجزيرة العربية من الظهران الى صيدا في لبنان فقد سلمت لشركة للغاز في ولاية تنيسي الأميركية .

وسبب العدول عن اتاحة هذه الأنابيب للاستعمال في الأراضي السعودية وما يليها هو أن « شركة الخطوط عبر الأراضي العربية » وهي منتسبة لشركة البترول العربية الأميركية لم تظفر برخصة اصدار من المسؤولين في أميركا بسبب بعض العقبات السياسية ؛ ولم تظفر بابرام سوريا لاتفاق مرور الأنابيب عبر أراضيها.

وقيل إن الشركة تفكر في تعديل اتجاه خطوط الأنابيب بحيث تصب في ميناء العقبة الى الناحية الشرقية من شبه الجزيرة العربيـة . وهذا المصب يقتضي بدوره الشحن في قنال السويس الا اذا استطـاعت الشركة أن تمد الأنابيب عبر صحراء سيناء الى البحر المتوسط . وقد يستطاع تحقيق ذلك بمد أنابيب تحت سطح الماء في العقبة وان كان من الصعوبة بمكان تنفيذ هذا المشروع لأن عمق الماء في تلك المنطقة يبلغ الفي قدم .

وإذا كان من المستطاع مرور أنابيب البترول عبر منطقـة النقب الى ساحل البحر المتوسط حلت المشكلة على وجه مرض ولـكن هناك عقبات تعترض ذلك .

وديع فلسطين

مغنية

لبشار بن برد

وذاتِ دلٍّ كأن البدرَ صورتها ... باتت تغني عميدَ[1] القلبِ سكرانا:

(إن العيونَ التي في طرفها حورٌ ... قتلننـا ثم لم يُحيينَ قتلانا)

فقلتُ أحسنتِ يا سؤلي ويا أملي ... فاسمعيني جزاكِ اللهُ احسانا :

(يا حبذا جبلُ الريّان[2] من جبلٍ ... وحبذا ساكنُ الريانِ من كانا)

قالت فهلاّ ،فدتك النفس،أحسن من ... هذا لمن كان صبَّ القلبِ حيرانا :

(يا قوم أذني لبعض الحيِّ عاشقةٌ ... والأذن تعشقُ قبل العين أحيانا)

فقلت أحسنت أنت الشمس طالعةً ... أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا

فاسمعيني صوتاً مطرباً هزجاً[3] ... يزيدُ صبّا محبّا فيكِ أشجانا

يا ليتني كنتُ تفاحاً مفلجةً[4] ... أو كنتُ من قضبِ الريحان ريحانا

حتى إذا وجدتْ ريحي فأعجبها ... ونحن في خلوةٍ مثلتُ إنسانا

فحركتْ عودها ثم انثنت طرباً ... تشدو به ثم لا تُخفيه كتمانا :

(أصبحتُ أطوعَ خلقِ الله كلهم ... لأكثرِ الخلق لي في الحبِّ عصيانا)

فقلتُ أطربتِنا يا زينَ مجلسنا ... فهاتِ إنكِ بالاحسانِ أولانا

لو كنتُ أعلمُ ان الحبَّ يقتُلني ... أعددت لي قبل أن ألقاكِ أكفانا

فغنّتِ الشربَ صوتاً مؤنقاً[1] رملاً ... يذكي السرورَ ويبكي العينَ ألوانا

(لا يقتلُ اللهُ من دامتْ مودتهُ ... واللهُ يقتلُ أهلَ الغدرِ أحيانا)

(١) عميد القلب : مريضه ، يقال : قلب عميد إذا هدّه العشق وكسره . (٢) الريان : جبل في ديار طيء لا يزال يسيل منه الماء ، وهو في مواضع كثيرة منها . (٣) الهزج : ضرب من ضروب الاغاني فيه تطريب بتدارك الصوت وتقاربه (٤) مفلجة مقسمة ويريد بذلك أنها إذا قسمت كانت أسطع نفحاً وأضوع شذاً وطيبا .

الشيخوخة وطول العمر

هل من الضروري أن يهرم الانسان في سن الستين أو السبعين ؟

يقدّرون عادةً بداية الشيخوخة وما يطرأ على الانسان في هـذا الدور من الحياة من التغيرات الجثمانية الكبيرة في سن الستين . غير أن هذه الأعراض أو العلامات تختلف كما لا يخفى اختلافاً كبيراً بحسب طبيعة الأشخاص،وبحسب طريقة معيشة كل واحد منهم ، وعاداته وأمياله وشهواته والعمل الذي يزاوله والأمراض التى انتابته ، ولا سيما الوراثة . أوَما علمنا الاختبار أن السر الحقيقي في اطالة الحياة هو المحافظة على القوى الجسمية والعقلية سليمة من كل شائبة ، والمعيشة الصحيّة والتغذية الصحيحة والاعتدال في كل الأمور ؟

بماذا تتميز الشيخوخة

والتغيرات التي تعتري المرء في دور الشيخوخة كثيرة متنوعة ، فنهـا جسمية ومنها نفسية وأخرى عقلية ، والأولى من هـذه التغيرات يكون ظهورها أبكر من النوعين الأخيرين . فحماسته كما هو معلوم تفتر ، وجذوة الشباب فيـه تنطفىء ويعود غير قادر على العمل أو بذل الجهود التي كانت تساعده عليها فتوته وشبابه . ويلاحظ أحياناً عند بعضهم ، حتى في سنّ مبكرة ، (٣٠ أو ٣٥ سنة) : نقص في لدونة الجلد نتيجة اختراق الأملاح الكلسية لبعض الأنسجة ، وتكوُّن الغضون في الجبهة والصدغين ، وزوال قسم من الشعر وابيضاضه قبل الأوان (حوالي سن الأربعين) ثم سقوطه تدريجاً بعد ذلك .

وهكذا قل عن الأسنان فانها تهترىء ويتطرق إليها التلف والفساد عند الهرمين قبل أوانهم — ومثلها العيون التي تصاب بطول البصر Presbyte . فصاحب هذا البصر لا يرى إلا من بعيد وإذا أراد أن يرى الأشياء أو الأشباح من قرب فلا يمكنه ذلك بدون استعمال النظارات . ويشاهد أيضاً عدا ذلك : قوساً حول القرنية يسمى بـ « قوس الشيخوخة » Arc sénile كما أن الصوت يضعف والأذن يغدو سمعها ثقيلاً ، و يكون التنفس أقل نشاطاً

أو الحويصلات الرئوية تفقد مرونتها ، والعظام تمسي أشد صلابة ، والغضاريف التي بين فقرات الظهر تستدق فيؤدي ذلك الى نقص محسوس في طول الانسان . أضف الى ما تقدم: تكوُّن نسيج خلوي في الأحشاء كالكبد والكليتين والمخ والأعصاب والشرايين فيعوقها عن القيام بوظائفها ، وينشأ هذا النسيج نفسه من اهمال الجسم سواء تغذيته والحط من مستواه الصحي . وأخيراً درجة الحرارة الطبيعية ، فهذه تكون بوجهٍ عام عند ابن الستين ٣٦ مئوية ، وعند ابن الثمانين ٣٥ مئوية في غالب الأحيان .

وبتقدم الانسان في السن تقل حاجته الى النوم . فابن الخمسين أو الخامسة والخمسين مثلاً يكتفي بست ساعات من النوم ليلاً دون أن يشعر بتعب ما . وبعد هذه السن نراه يكتفي بخمس ساعات فقط : هذا للقاطنين في المدن . أما سكان القرى والأرياف أولئك الذين يحرثون الأراضي ويقومون بأشغال مضنية متعبة فيحتاجون طبعاً الى ساعات أكثر من النوم . ولننظر الآن من ناحية الطول والوزن ، فالمشاهد أن الطول يقل شيئاً فشيئاً بتقدم الانسان في السن وذلك اعتباراً من سن الخمسين بسبب خسف الأقراص الغضروفية بين العظام ، ولا سيما بين الفقرات الظهرية ، ومن بعض الانحناء الذي يحدث في العمود الفقري

والوزن بدوره يقلّ أيضاً بتقدم الانسان في السن في سن الخمسين أيضاً عند الرجل بعكس المرأة التي يزداد وزنها في هذه السن ، حتى اذا ما بلغت الستين من العمر يأخذ أن يقلّ حينئذٍ وزنها . ويبلغ مجموع ما يفقده الرجل من الوزن في سن الشيخوخة ٩ كيلوغرامات ، والمرأة ٨ كيلوغرامات ونصف .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فالقوى العقلية يطرأ عليها نقص وانحطاط في ذات السن . فعند البعض يكون هذا النقص مبكراً ، وعند البعض الآخر متأخراً . ومهما يكن في الأمر فالقوى العقلية تضعف بضعف القوى الجسدية وتقوى بقوتها . فكلاهما يسيران جنباً الى جنب من حيث القوة والنشاط أو الضعف والانحطاط .

وأول ما يضعف من القوى العقلية هو الذاكرة ، ويليها الحكم بالأشياء ، وأعني بذلك تلك الخاصة العقلية المميزة التي تقابل وتقايس الأمور وتحكم في صحتها أو خطأها .

وهنالك أيضاً قضية الشعور والحس والعواطف ، وهذه أيضاً تتبدل بدورها عند كبار السن . فالشعور بالفرح أو الألم ، أو بعاطفة الحنو والشفقة والرفق ، أو الحساسية تجاه شعور الآخرين ، تغدو عندهم ، وفي محيي ذواتهم أيضاً ، ضعيفة ان لم نقل معدومة غالباً ، لأن أولئك الشيوخ والمسنين لا يتأثرون إلاّ بالأعمال التي تعود اليهم أو التي هم فيها نصيب مباشر .

وأخيراً الاضطرابات النفسية ، وهذه لا تحدث لحسن الحظ إلاّ متأخرة . ذلك لأن الذي يبلغ سن الهرم يفقد أحياناً الحس الأدبي الذي يجعله أن يميز بين الخير والشر ، وما يجب أن يعمله أو لا يعمله ، ولهذا يكون عادم الشعور أحياناً بما يأتيه في الأعمال دون أن يدرك عواقبها وما يترتب عليها من المسؤولية .

ولا بد من التنويه هنا أيضاً بأن عقلية كبير السن تختلف اختلافاً جوهريًّا فيما إذا كان عزباً أو متزوجاً أو له أولاد أيضاً . فاذا كان عزباً ، وهو الذي عاش دائماً منفرداً منعزلا ، وحصر كل جهوده في محبة نفسه ، نرى ان كل ما يزعجهُ أو يعاكسهُ أو يبدل من عاداته الصغيرة — يكون مكروهاً ممقوتاً في نظره . وبما أنه قد تجنب طوعاً اعباء الحياة وتبعات الزواج والأولاد فحبة الذات تنمو وتزداد فيه أكثر فأكثر بتقدم السن ولذا نراه يكره غالباً الأولاد الصغار وحركاتهم وضجيجهم ، ويسيء الظن في من كانوا أعزاء لديه في شبابه وينظر اليهم بالحذر والاحتراس . وعلى نقيض ذلك يكون الرجل المتزوج المحاط بالعائلة والأولاد ، فإن الهرم لا يدركه بالسرعة كما يدرك الرجل الأعزب ، بل يأتيه بعد أوانه ، كما أن قواه لا تميل الى الانحطاط بل تأتي بطيئة وفقاً للمحيط الذي يعيش فيه أو يفتكر به في كل لحظة ، والذي يضطره غالباً الى أن ينسى نفسه أو يضحي بها لأجله .

تلك هي أهم التغيرات الجثمانية والعقلية والنفسية التي تصيب الانسان في سن الشيخوخة. ولكن هل يجب أن تكون هذه الحالة عامة لأن البعض تكون حالهم هكذا حينما يشيخون ؟ ، وهل من الضروري أن يهرم الانسان في سن الستين أو السبعين ؟ كلاّ ليس من الضروري ذلك وفي يده مفتاح الشباب الدائم ، فالمحافظة على القوة والنشاط الجسماني وكيان القوى العقلية والنفسية في حالة جيدة حتى سن متأخرة تتوقف ولا ريب على كيفية معيشة الانسان في حياته ، فكم من المرّات مثلاً نرى أشخاصاً في شرخ الشباب وهم منهكو القوى خائرو العزيمة سريعي العجز ، والهرم أدركهم قبل الأوان ، وآخرون بالعكس من ذوي البنية القوية ، نشيطي الحركة والأعمال ، وهم من أبناء السّتين والسبعين ؟ فمجرد السن اذاً لا يكون دليلاً قاطعاً على عجز المرء وضعفه . ولدينا أمثلة تحتذى عن أشخاص كثيرين بلغوا عتيًّا من العمر ، وبقيوا محافظين على قوتهم الجسمية والعقلية . ويضربون المثل بروكفلر الكبير الذي حتم أن لا يرحل عن الدنيا قبل أن يبلغ عمره مائة عام . وقد احتفل بميلاده السادس والتسعين . وللويد جورج السياسي المعروف ورئيس الوزارة البريطانية ابان الحرب العالمية الأولى ، كان يذهب الى ساحات القتال على ما عهده الناس فيه من بأس وقوة وعمره ٧٢ سنة ، فالسنون لم تؤثر فيه وكأنه كان شابًّا في جسمه وعقله .

وهكذا قل عن فردي الموسيقي الايطالي العظيم الذي ألف أنواعاً كثيرة في الأوبرا وهو في الرابعة والسبعين والثمانين والخامسة والثمانين . ومثله الفيلد مارشال هندنبرغ الذي مات في الرابعة والثمانين من عمره بعد ان بقي يقود أزمة الأمور في بلاده في أحرج الأوقات حتى آخر نسمة من حياته .

وهنالك أيضاً فاندربلت المالي الأميركي الشهير الذي أضاف الى ثروته الطائلة مائة مليون دولار وهو بين السبعين والثالثة والثمانين من عمره — مما يدل على انه ظلّ محتفظاً بقواه العقلية ومواهبه وهو شيخ مسن ، وإلاّ لما تمكن من جمع هذه الثروة العظيمة

ولا ننسى كذلك أحد معاصرينا المشهورين ألا وهو الكاتب الارلندي الكبير برنارد شو الذي بلغ العقد الثامن من العمر وهو لا يزال في أوج مجده الأدبي يؤلف الروايات التمثيلية المختلفة .

وقد دلت احصاءات عام ١٩٣٣ في بريطانيا على انه توفي هذا العام ١٠٩ أشخاص كلهم بلغ مائة عام أو تزيد . والثابت اليوم ان نسبة المعمرين في أيامنا هذه قد ارتفعت بمقدار ١٥ عاماً بفضل تقدم العلاج وتنظيم الصحة الشخصية والوقاية من الأمراض المتوطنة وغيرها . وفي استطاعة الانسان أن يعيش قرناً من الزمن اذا عاش عيشة صحية معتدلة ، وحافظ على قواه الجسدية والعقلية،وتجنب الأسباب المضعفة للجسم والمنهكة للاعصاب . أما اذا أطلق لاهوائه وأمياله وعواطفه العنان ، وأسرف في بذل جهوده العقلية والجسدية وتفنن بألوان الطعام والشراب ، وحرم نفسه من الراحة والرياضة والتنزه والهواء الطلق، واستسلم الى الهواجس والاضطرابات الفكرية ، فلا غرابة بعد ذلك اذا اعتلّ جسمه وتهدّمت قواه ، وانتابته العلل والأمراض، وغلب في ميدان الكفاح .

ولا يجب أن يغرب عن البال ان الوراثة تلعب أيضاً دوراً هاماً في اطالة أمد الحياة . فكثيرون منهم الذين بلغوا مائة عام أو أكثر كانوا من عيال بلغ أفرادها هذه السن تقريباً . وتدل الاحصاءات الفرنسية الرسمية ان النسبة المتوسطة للحياة تزداد بصورة محسوسة مع الزمن . فبينما كانت في فرنسا ، في القرن الثامن عشر ، تسعة وعشرين عاماً فقط ، تراها تبلغ فيها في عام ١٩١١ تسعة وأربعون عاماً . أما في انكلترا فقد بلغت النسبة المتوسطة للحياة في عام ١٩١٢ خمسين سنة ، وفي أسوج واحد وخمسين ، وفي الولايات المتحدة خمسة وخمسين .

ومما تقدم يظهر لنا أن مدة الحياة تزداد الآن سنة واحدة كل عشر سنوات . واذا فرضنا أن هذه النسبة تستمر في الزيادة بفضل تقدم الصحة العمومية والشخصية ، والطب

الوقائي، وتحسين شروط المعيشة ، فمن السهل أن نحسب أنه بعد خمسمائة أو ستمائة عام تكون النسبة المتوسطة للحياة مائة عام تقريباً .

العوامل المساعدة على بلوغ الهرم المبكر

ان بلوغ الهرم في أوانه أو قبل أوانه يتوقف كما قلنا على سلامة القوى العقلية والجسدية ، وقديماً قالوا العقل السليم في الجسم السليم . ولكننا نتساءل هنا : هل أن كل الناس يعيشون الآن عيشة صحية ، وأجسامهم سليمة من العلل والأمراض ويسيرون سيراً حكيماً معتدلاً في أمورهم ؟ كلا . فكثيرون منهم يعتقدون في الغالب أنه ما دام الانسان متمتعاً بصحة جيدة فليس في حاجة الى التقيد بالقواعد الصحية . ذلك هو السبب في أن أمراضاً شتى تصيب الانسان في عصرنا هذا نتيجة الافراط في كل شيء ، فيندفع المرء في تيار المدنية الحديثة ، والحياة في ظل حضارتنا هذه تغري بالاسراف في بذل الجهود والقوى الجسدية والعقلية ، والتفنن بألوان الطعام والشراب ، والسهر الطويل ، واطلاق العنان للأميال والأهواء ، والحرمان من راحة الجسد والعقل — وهذا كله لا يستعجل الشيخوخة فقط ، بل يقضي على الانسان قضاء مبيناً عاجلاً أو آجلاً .

ويزيد الطين بلة انحراف بعضهم عن جادة العقل والصواب بسبب ادمان المسكرات ، والافراط في التدخين وتعاطي القهوة والشاي بمقادير زائدة ، والتسمم بالأفيون والمورفين والكوكائين والحشيش الخ . وهذه كلها سموم قتالة تدك أركان الجسم وتضعف قواه ، وتقود حتماً الى الهرم والسقام ، والعلل المختلفة من حيث لا ندري . وتزداد الحالة شؤماً ووبالاً انغماس الكثيرون منهم في حمأة الرذيلة وتفشي الأمراض السرية (الزهري والسيلان) التي جنته علينا المدنية الحديثة . ولا يقتصر ضرر هذه الأمراض على المصاب فحسب ، بل يتعداه الى نسله والى المجتمع أيضاً .

اننا لا ننكر طبعاً حسنات المدنية الحديثة ، وما أفادته من بعض الوجوه ، لكنها بالعكس أضرت من وجوه أخرى . والانسان هو الذي يجني ثمار الأغلاط التي يرتكبها غالباً عن جهل أو عن اهمال لاختلاله بالتوازن الذي قضت به سنن الطبيعة بين قواه ومواهبه العقلية والجسدية من جهة ، ولعدم معرفته معرفة تامة كيف يتدبر العوامل الجديدة التي جلبته اليه المدنية الحديثة وتلافي أخطارها .

فاذا أردنا ابعاد الشيخوخة ما أمكن ، علينا أن نقتبس حسنات مدنيتنا هذه لاصلاح ما أفسدته من حالتنا الصحية ، ثم جعل موازنة بين أوقات العمل والراحة . فوقت العمل يجب أن يصرف في العمل كي يوفر الانسان لنفسه مقداراً كبيراً من أوقات الفراغ ، وكلما

تقدّم الانسان في السن يقلل عدد ساعات العمل . فعند ابن الأربعين يكون عدد ساعات العمل ساعة واحدة لكل خمس سنوات يتقدمها في العمر لغاية سن الثمانين أو التسعين .

ولا بدّ كذلك من اعطاء الجسم حقه من الراحة ، ولا سيما النوم . فالنوم الباكر والنهوض الباكر من أفيد الأشياء لصحة العقل والجسم ولراحة الأعصاب . والراحة التي يتطلبها الجسم ليلاً لا تتوقف على الوقت الذي يقضيه الانسان في النوم بل على النوم نفسه، لأن نوم ساعات قلائل براحة تامة أفضل بكثير من الاضطجاع ساعات كثيرة في حالة سهاد متقطع ، أو أرق مضن ينهك الجسم بدلاً من أن ينيله حاجته الضرورية في الراحة فليس كالنوم الهادىء معوان على اكتمال الصحة وتمام العافية .

ويقتضي أيضاً على من يريد الاحتفاظ بصحته أن يكون طعامه صحيًّا منوّعاً موافقاً لحاجات جسمه ، ويكون بنوع خاص قنوعاً في أكله وشربه لأن الاكثار من الطعام يجلب السمنة وأخطارها كالاصابة بالبول السكري ، وارتفاع ضغط الدم ، واضطرابات القلب ، وتصلب الشرايين وحصى المرارة وغيرها . وطبيعي أنه كلما تقدّم الانسان في السن تقل كفاءة أعضائه في تأدية وظائفها ، خصوصاً اذا كانت الأسنان مسوسة فاسدة ، وفي هذه الحالة يكون المضغ سيئاً فيؤدي ذلك الى إجهاد المعدة وسوء الهضم وبالتالي الى تعب الكلى وأمراضها والى التسمم البطيء المزمن .

والرياضة البدنية كما لا يخفى هي أيضاً من أهم الأمور ، ولا سيما السير على الأقدام في الشمس والهواء الطلق . ومن أنواع الرياضة النافعة لمتوسطي السن المشي والسباحة والتجذيف والصيد وركوب الخيل الخ التي اذا عُملت في أوقات النزهة والراحة ، تساعد كثيراً على تنمية الجسم ونشاطه ، وعلى تنمية الصحة النفسية من حيث الاتزان ورباطة الجأش وازالة الكرب وإبعاد الحزن والهم وتخفيف أعباء الحياة عن الأجسام المتعبة والنفوس المكتئبة .

نصائح وارشادات لابن الستين وما بعد هذه السن

١ — ﴿ الطعام والشراب ﴾ : القناعة في الطعام والشراب من أهم القواعد الصحية الواجب على المرء اتباعها ولا سيما لكبار السن ، لأن الشراهة في الأكل ، كما قال الطبيب الافرنسي غاستون دورفيل Gaston Durville « احدى جروح الانسانية الكبيرة لأنها تهلك اليوم من معاصرينا أكثر مما يهلكه السل والسرطان معاً » .

ويقول أيضاً المفكر الكبير تولستوي بشأن ذلك اننا نأكل في عصرنا هذا ثلاث مرات أكثر مما يتطلبه جسمنا . وهذا ما يؤدي الى أمراض شتى تعمل على تقصير أمد

الحياة قبل الأوان، فالحياة ليست قصيرة ، ولكننا نحن الذين نعمل على تقصيرها .

فأهم ما يجب عمله على الذين بلغوا تلك السن أن لا يأكلوا أكثر مما تسمح لهم به شهيتهم، وإذا كانت هذه الشهية زائدة عندهم فعليهم أن يكونوا معتدلين بها ، إذ لا شيء أضر لكبار السن من الاعتقاد بأن الاكثار من الطعام يزيد في قوتهم ونشاطهم .

ولا بدَّ من الاقلال بنوع خاص من تعاطي اللحوم ، ويكفي لذلك مرة واحدة في اليوم بكمية قليلة . والأفضل مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع . ويفرم اللحم عند اللزوم في حالة تسوس الأسنان أو سقوطها ، وكلما قلل كبير السن من المواد الزلالية والدهنية في طعامه كان هضمه أسهل . أما من ناحيــة السمك والبيض فيجب اعتبارهما كاللحم تماماً من جهة خواصهما الغذائية . فمرة يعطى اللحم ، ومرة أخرى السمك أو البيض ، وليس كلها في وجبة واحدة . والسمك البحري أو النهري يعتبر أسهل اللحوم هضماً ، وهو أيضاً أكثرها احتواء على الفوسفور واليودين . انمـا يحسن بالانسان ألاَّ يتناول السمك في وجبتين متواليتين إلاَّ بمقدار قليل، لأن الاكثار من الأسماك واللحوم ينتج عنه تراكم العمل على الكلى والكبد فوق طاقتها مما يجعل صحتها في خطر — هذا فضلاً عن تعرض المأكولات المذكورة لسرعة التعفن وتوليدها للخوامض .

ويقلل أيضاً كبير السن من تناول أنواع الخضار الكثيرة البروتين كالحمص والفاصوليا والفول والبزلة والعدس لأنها عسرة الهضم وعرضة أيضاً للتعفن . ويعتمد بالعكس في طعامه على أكل البقـول الخضراء الطازجة والمسلوقة ، والبطاطس والألبـان والزبدة والفواكه الناضجة والأثمار المطبوخة Compote ، والحليب الساخن وحساء الخضر الساخن والمهلبية والحليب المطبوخ بالأرز والسكر والمربيات . ولا بأس من تناول الشاي والقهوة بمقادير قليلة . وبالاختصار نقول أن أوفق غذاء له هو غذاء الطفولة . والمهم تجنب الأطعمة الصلبة العسرة الهضم لأنها تهيج الامعاء ، واختيار أبسط الأطعمة في الغذاء .

٢ — ﴿ الرياضــة البدنية والاستحمام ﴾ : أحسن ضروب الرياضة ، وعلى الخصوص لكبار السن ، المشي ميلاً أو ميلين في اليوم . ويحترس هؤلاء من الرياضيات الجسمية المتعبة مثل ركوب الدراجة وصعود الجبال والسباحة والسير الطويل على الاقدام الخ ، ولا ينكر أن مثل هاته الرياضات تنشط الجسم وتنبه القلب والرئتين ، غير أن فائدتها هذه تكون بالأحرى لأشداء البنية وليس لأبناء الستين وما بعدهـا لأنها تكون عليهم عبئاً ثقيلاً .

ومن فوائد الرياضة البدنية الخروج للنزهة بعد الطعام ولو لمدة قصيرة فقط ، إذ لا شيء

أضر من الحياة الجلوسية والمكث في البيوت والحوانيت بلا حركة ، ان الصحة لا تقوم الا بترويض وظائف الجسم ، والأعضاء ، اذا لم تروّض ، تضعف قوتها ، هذا فضلاً عما تجلبه الرياضات للجسم من انشراح الصدر ، وتنبيه شهوة الطعام وتقوية الهضم ، وان رافقها ملل أحياناً

وبين الرياضات الأخرى المسلية لأبناء الستين أيضاً : صرف جزء كبيراً من أوقات الفراغ في زراعة الأزهار في الحدائق والبساتين ، والنجارة والتصوير الخ . فكثيرون من الرجال العظام كانوا يصرفون أوقات فراغهم بمثل هذه الأمور المسلية ، ولكن يوجد هنا نقطة أخرى هامة يقف عندها حائراً كبير السن عند ما يحال مثلاً على التقاعد ، أو حينما ينسحب من العمل من تلقاء نفسه — بعد أن اشتغل كثيراً في حياته على أمل أن يستريح في شيخوخته هو أنه يجد نفسه بعد الانسحاب من شغله كأنه ضالاً . فمكتبه وشغله وأعماله الاعتيادية تنقصه فجأة ، ولا يدري ماذا يعمل وكيف يقضي وقته ، فيعتريه الملل والضجر ، ولا شيء أضر للانسان فعلاً من الملل والضجر ! فالأشخاص الذين ظلوا محافظين على قواهم ومواهبهم الى سن متأخرة تكون حياتهم نشيطة عادة ، والنشاط ضروري لكبير السن كما للبالغ ، والمهم معرفة أشغال وقت الفراغ ولكن ليس في سن الستين أو السبعين يجب أن نفتكر بخلق أشغال جديدة توافق هذه السن ، بل يجب الافتكار بذلك قبل الانسحاب من العمل (أي قبل الستين) والاستعداد للحياة الجديدة التي سيعيشها المرء بعد هذه السن ، فهذا يحب مثلاً أن يكون بستانياً ويحرث الأراضي والبساتين ، والآخر يميل الى تربية النحل ، وغيره الى النجارة وما شاكل ذلك

أما من ناحية الاستحمام ، فكبار السن يفيدهم خصوصاً الحمام الفاتر ، ولا سيما الفرك الناشف للجلد بكفوف الشعر ، والاستحمام بالماء الفاتر يفيد بنوع خاص في مدة الحر ومدة الشتاء لما يكون الجسم بارداً لأنه ينعش القوى ويزيد التهيج العصبي

٣ — ﴿ الملبس ﴾ لا شيء خصوصي يمكن ذكره عن الملابس لكبار السن ، فهؤلاء يكونوا كما لا يخفى سريعي التأثر بالبرد ، ولذا يجب أن تكون ملابسهم حارة خفيفة ، وألا تضغط على الجسم لئلا تعوق الأعضاء عن تأدية وظائفها الحيوية ، وتكون أيضاً واسعة ، كثيرة الخلايا بحيث يخترقها الهواء بسهولة لصحة البشرة وتنفس الجلد . فالهواء ضروري للبشرة بمقدار ما هو ضروري للرئتين ، فينبغي ألا تحول الملابس دون وصوله إليها .

بيروت — لبنان الدكتور عبده رزق

نظرات في النفس والحياة

— ١٢ —

نظرات لورد بيكون

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الانجليز الذين أُولع أهل الخيال والأهواء بهم فتارةً يزعمون كما قرأت في مقال إنه ادوارد السادس مع أنَّ بين ميلاديهما فرق يقرب من الجيل، ومات إدوارد السادس بعد ضعفٍ ومرض وحضر موته الأطباء وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يصطحبه أبوه السير نيكولاس بيكون الى قصر الملكة اليصابات وكان من أعوانها وكانت الملكة تداعبه فتسميه كاتبها أو وزيرها الصغير وأسرته معروفة والبيت الذي ولد فيه غير مجهول وكل حوادث حياته حقائق معلومة فليس في حياته أي غموض . وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون انه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمي ولكن شكسبير كان مكثراً من العمل وبيكون كان مكثراً من العمل ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معاً مهما كانت قدرته . وبالرغم من أن بيكون كان أديباً فانه كان يعد البحث العلمي العملي أهم من الأدب وقد مات بسبب أنه خرج في يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة علمية عملية نافعة وهي حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن . وقد كان ينعي على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العملي العلمي وله مؤلفات كثيرة فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء في أساطيرهم وكتاب أقوال مشاهير الرجال وكتاب اطلنطيس الجديدة وكتاب تاريخ حياة هنري السابع وكتاب (نوفام أُرجانوم) أي الأداة الجديدة في العلم والتعليم وكتاب تقدم العرفان ؛ وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله في البرلمان وفي المحاكم في سماع القضايا والحكم فيها وكتابة أسباب حكمه بعد التفكير فيها وكان مستشاراً لبعض وزراء الملك جيمس الأوّل يكتب لهم التقارير ولم يشتهر بشيء من الشعر مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر في عهده حطة لهم ، فكيف كان يستطيع

مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة ؟ على أن في قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية ما لا تقلل من عظمة عبقريته كشاعر ولكنها هي والأغلاط الجغرافية ماكان يقع فيها مؤرخ مثل بيكون وشكسبير في بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو نكاية زملائه وهذا لا ينطبق على بيكون كما أن شكسبير كان في بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء . وهذا أيضاً يستبعد من بيكون الذي كما يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وان كان أكبرهم فنسب قصصه الى غيره . أما بحوثه العلمية التي كان يقضي بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماءِ هـذا العصر ولا غرابة في ذلك . ولم يكن مبتكراً فكرة تقديم الخبرة والتجربة في العلم والوصول من الشواهد الخاصة الى القاعدة العامة ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأً عامًّا واشترطها في البحث العلمي العملي في كتابه عن العلم والتعلم . ولا شك أن عقله كان أكبر من قلبه ولا داعي للخوض فيما اتهم به من العيوب إلاّ أنه من الضروري أن نقول إنه حوكم لقبوله الرشوة في القضاء واعترف بذلك قائلاً إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل . وقد ندم على ما فعل.وقد عومل بالرفق في محاكمته ثمَّ ما لبث أن أطلق صراحه وأسقطت عنه الغرامة التي فرضت عليه . وهذه النظرات من رسائله تدل على كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية : —

(١) الحق كضوء النهار لا يزين قناع زخارف الحياة المموَّهة وأباطيلها وبهارجها وآمال الناس فيها وأعمالهم ونزعات نفوسهم اذاكان الحق خالصاً من شائبة الخداع للنفس ، كما يزينها إذاكان مشوباً بشيء من الخداع للنفس بالباطل خداعاً قد يكون غير مُدْرَكٍ وضوء هذا الحق، الحق المشوب بخداع النفس ، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع في المراقص المُقَنَّعة ليلاً يخفي نقائص ألوانها وبهارجها وحقيقتها ويكسبها شيئاً من الجمال المصطنع ويزين لباسها المستعار ويخفي بعض ما بها من ادعاء . ومن أجل ذلك كثيراً ما يخالط الحق حتى من غير تعمد للخلط شيء من الباطل كي يقلل من نور الحق فلا ينمُّ على أكاذيب الحياة وهي كثيرة ، وهل من شك في أنك اذا سلبت من انسان كل ما في عقله من آراء لا أساس لها من الحق، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التي تملقه وتزين له أمره وعيشه وتحثه على استئنافه

والاطمئنان إليه وحرمته من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازين يتشبث بها ومن أحلام في الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها إذا نزعت من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائبة . فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدنُ الخسيس الأشد صلابة الذهبَ الابريزَ كي يزيده صلابة ويجعله أصلح كنقودٍ في المعاملات وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط .

(٢) جلال الموت وما يحاط به أشد رهبة من الموت . وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس ما في الموت وهو تلف الجسم كله بما في تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم . وهو قياس غير صحيح لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثراً بالألم والألم فيها أسرع مفعولاً . فكثيراً ما يموت الناس من غير إحساس كبير بالألم . وليس في النفس احساس قوي يعجز عن التغلب على الخوف من الموت . فالغيظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والاحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الاشفاق والرحمة وهي أرق الطباع ، كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت وحتى الملل من الأمر المعتاد المكرر قد يتغلب على الخوف من الموت فالموت إذاً أقل شدة وبأساً وهولاً مما يصوره بعض القائلين .

(٣) من الحماقة والغفلة أن يريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه وقسوته أن يحقق إرادة الله ، فيؤدي ذلك الى الاجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو . لقد كان من الكفر والاجرام قول ابليس إني أريد أن أصعد الى عرش الله . أليس مما هو أشد كفراً وإجراماً أن يريد المرء انزال الله من عليٍّ عرشه كي يشركه في قسوة الانسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر .

(٤) إن من أعظم العظمة التي هي في منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر . ويعجبني قول سنكا الفيلسوف الروماني في هذا الموضوع (أسمى ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى باطمئنان الرب) .

(٥) إن الحزن الذي تزينه أسباب الأمل والاطمئنان والايمان كالثوب القاتم اللون

المطرز بالخيوط الزاهية البهجة . فهو املأ للعين وأشرح للصدر من السعادة التي تحيط بها المكاره والمخاوف المقلقة والتي تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد .

(٦) مهما كان الرياء لازماً فهو مظهر من مظاهر العجز في الأمر الذي لجأ اليه المرائي إذ لولا العجز فيه ما لجأ الى الرياء .

(٧) من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها ، فاذا لجأوا الى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد انهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون في مكرهم عن أبصار الناس . وهذا يذكرني قول أبي تمام الطائي :

سكنَ الكيدُ فيهمُ إن من أعظم إربٍ أن لا تُسمى أريبا

(٨) الرجل الذي يقول كل ما يعرف كثيراً ما يسوقه طبع الكلام وعادته حتى يقول ما لا يعرف ويدّعي انه شاهد ما لم يشاهد وحضر ما لم يحضر . والناس يأتمنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم . والثرثار مكشوف العورة كالرجل العريان . وكما أن الثياب تزيد المرء وقاراً فالكتمان يزيده هيبة ووقاراً . ومن أغرى أهل الفضول بمعرفة سر ما يكتم في صمته . وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجهه وحكم تقاطيعها حتى لا تنم على ما يكتم لأن الناس يصدقون ما تنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وان نمقه وزينه . ومن مزايا الكتمان أنه يدعو الى استنامة أعدائه والى مباغتة مناضليه وانه يدع لنفسه طريقاً للتراجع إذا اضطره الأمر إذ لو أعلن أمره اضطر الى المضي فيه أو الى إظهار العجز والخيبة . وهو بكتمانه وسكوته وإصغائه بدل الكلام، يستطلع ما يريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم لكن المبالغة في الصمت والكتمان قد تغري الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل . ثم إن صمت مثل هذا المبالغ قد يحير من يريد أن يعاونه وأن يشركه في أمره فيفقد ثقة بعض الناس . ولعلَّ هذا من أسباب شك الناس فيمن لا يعاشرهم ولا يحادثهم .

(٩) يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء في تنمية روح المنافسة فينمو التحاسد والتباغض في نفوس الأطفال الصغار من حيث لا يشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة الفانية ولا يفطنون الى ما يكمنونه في النفوس البشرية

من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها في الحياة كثير وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة . وانما يلجأون الى هذه الخطة لأنها في نظرهم أسهل خطة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه الأطفال .

(١٠) في النفوس صفة لؤم ذائعة وهي أن كل من لم يستطع إصلاح حاله يحاول إفساد حال غيره ومن أجل ذلك كان ذوو العاهات والخصيان والشيوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسداً إلاّ إذا صادف نقصهم نفساً كبيرة تجعل نقصها زائداً في شرفها وشفيعها ولمدحها، إذ يقال إن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه . والحسد داء الأمم والدول ومضعفها ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم اذا خشوا عاقبته. والحسد كالوباء فمن خشي الوباء كثيراً وذعر منه أصابته غائلته من الرعب. وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء . وإذا فشا الحسد في أمة أصاب السليم الصفات الكريم الأخلاق الفاضل النفس، كما يصيب الوباء السليم الجسم فيمرضه . وفي أمثال هذه البيئة التي فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصاً والرأي السديد خرقاً والعمل الصادق عملاً كاذباً في دعوى ذوي الحسد الذين يرون في انقلاب الأمور وحقائقها إخفاء لحسدهم ونقصهم وهم مثل الزارع الذي يزرع الشوك والحسك في الظلام بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو .

(١١) قال ديموستنيس الخطيب الأثيني أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة في الحركة والفعل . وكذلك ألزم صفات النجاح في الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة . مع أن الجرأة تدل على أن تفكير صاحبها محدود لأنه إذا تشعب منه الفكر تردد في شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها فالجرأة أحط من غيرها من الصفات الفاضلة . ومع ذلك فهي من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها .

(١٢) قد يكون المرء صالحاً جداً حتى أنه من شدة صلاحه لا يصلح لمباشرة أي عمل من أعمال الدنيا بنجاح . والحقيقة هي أن النجاح في الحياة قد يتطلب — إلاّ إذا جاء عفواً — شيئاً ولو قليلاً من المكر والاحتيال يخالط فضله وصلاحه . وقد يخفيه ذلك

الفضل ولكنه موجود يخفي حتى على بعض من يتفكه ساخراً بغباوة أغنياء الحرب إما حسداً لهم، واما دعابة يخالطها بعض الحسد ولو القليل منه ، واما جهلاً بأن الغباوة لا تجافي المكر والاحتيال . وان المكر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح وكثيراً ما يلجأ إليه الغبي كي يجعله عوضاً عما حُرِمَه من الذكاء والفكر

(١٣) قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الاسراف (وبعضهم يسرف من غير شعور في أمور لا حاجة إليها وأن توهم غير ذلك) ان الاسراف في أمر من الأمور يقتضي الاقتصاد أو التقتير في أمور أخرى — وهذا يذكرني قول معاوية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ : — ما رأيت إسرافاً قط إلاّ والى جنبه حق مُضيَّع .

(١٤) سوء الظن يكثر في ظلام العقل كالخفافيش تكثر في الظلام واذا عظم سوء الظن عطّل العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا الى الظلم والغيرة والتردد والحزن والى فقد الأصدقاء . واذا كان سيء الظن جباناً هلوعاً يتملكه الذعر والرعب اذا فكر فيما يسيء به الظن فإن رعبه قد يدفعه الى عدم التثبت ظنّا انه اذا تعجّل بادر ما يخشاه قبل وقوعه . واتقاء ما يساء به الظن كأنه أمر حقيقي لا خطر منه ، بل هو لازم اذا لم ينزله المرء في نفسه منزلة اليقين ويتعجل بالحمق لمعاقبة من يسيء به الظن وكذلك الذي يساء به الظن وهو بريء أو يخشى ان يساء به الظن ينبغي أن لا يظهر في ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يساء به الظن وإلاّ أسيء به الظن ريبة وان كان بريئاً كما قال الطغرائي الشاعر (إن الهَيُوبَ مُريبُ) في بيته الآتي :

تخفى بسالتُهُ مَطارح هَمّهِ وَمَرامهُ إنّ الهَيُوبَ مُريب

(١٥) إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به ، وقد تمحوه الصراحة وتبطل الوساوس التي تنمو بسبب سوء ظنك به ،ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبداً — وهذ يذكرني قول البحتري

أدعُ الصاحب لا أعذله لا يُسمَّى بعقُوق فيُعَقّ

(١٦) ينبغي لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخر، أن يتذكر دائماً أن هذه القدرة

تبعث الشك وسوء الظن به وبمقاصده حتى يحمل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخر بهم والاحتقار لهم وإن لم يكن يريد ذلك وقد يذكر المرء قولاً بريئاً لا سخر به فيحمل الناس معناه على ما بدر منه في أوقاتٍ أخرى من السخر (وهذا يذكرني قول لورد تشسترفيلد : ينبغي لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلدها مغمدة كما يتقلد السيف، لا مُصلتاً لها وأن يتخذها عدة للدفاع اذا لزم لا للاعتداء) وأبغض الفكاهة في نظر لورد بيكون ما تناول بالتنادر والسخر الأمور الخليقة بالخشوع والاجلال .

(١٧) كل من كان في نفسه شيء يدعو الى احتقاره مُزَوَّدٌ بدافع نفسي يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذي يدعو الى الاعجاب أو بالظهور بين الناس اما بالفضل واما بالشر كي يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الاعجاب بفضله فكم من عاهة أو نقيصة في حياة المرء حثَّتْ على العظمة أو على الاجرام . واذا كان صاحب النقيصة عاجزاً كان شديد الحسد

(١٨) المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العويصة العظيمة النادرة لأن الحياة اليومية أحوج الى الأولى كما انها أحوج الى النقود القليلة القيمة في التعامل اليومي — ولأنها أقرب الى فهم جمهور الناس وأقل هدفاً للحسد .

(١٩) أكثر الناس تغاضباً الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدللون الذين هم أشبه بهؤلاء . ومن أجل ذلك ينبغي أن يستحي العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب ظناً أن الغضب من مظاهر العظمة وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس فهو اعتراف بالنقص، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله .

(٢٠) بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخَيَّل للناس فيهم من العقل . وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبهم منه . فلامح الوجه قد لا تدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل وقد يستر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة وبعض الناس له مهارة في إلباس الأفكار التافهة لباس الحكمة وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت إنهم يعرفون

أكثر مما يريدون أن يقولوا وبعضهم يوهم ذلك باشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر المتأمل المفكر وهو لا يتأمل ولا يفكر وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل —(وهذا يذكرني قول شيرير الناقد الفرنسي: ان بعض الناس كالمنازل الضيقة التي تكاد تكون لا عرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسي البارز فيحسب الرأي انها منازل كبيرة وهي صغيرة جداً) .

(٢١) بعض الناس لإخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذي يريد أن يقنع الناس أنه غني كي يجد من يقرضه مالاً ليتلافى أمر إفلاسه وكي يعود الى الكسب والى الارتزاق . وهؤلاء اذا عنَّ موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأي فيها .

(٢٢) قد يكون الرجل ذا إثرة محبّاً لنفسه ومع ذلك يكون في حاجة شديدة الى صديق فليست الحاجة الى المصادقة والمودّة من سلامة الطويّة وطيب القلب وإنما هي ضرورة كضرورة من يأخذ الدّواء كي يجري به المرارة في جسمه ويُدِرَّها . وأمثال هذا إذا افتقدوا الجليس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم — ولعلّ هذا هو السبب في غيظ ذوي الأثرة ممن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعلّه سبب من أسبابه — وبعض الناس لا تتم متعتهم بالسرور إلاّ بإعلانه لصديق أو جليس ولا يسهل تحملهم للشقاء إلاّ بالشكوى لعشير أو جليس أو صديق ومكاشفته وهذا يذكرني قول الشاعر العربي .

ولا بدّ من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

(٢٣) تزداد آراء المرء صحة ووضوحاً بالمحادثة لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حدّ لمعناها وأسبابها فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خالياً بنفسه منفرداً . فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لا يستطيع أن يجيد مبادلة الرأي ونقده ويستثنى من ذلك الحديث الذي لا يراد به هذا الأمر بل يراد به الضجة وتعطيل الفكر والمهاترة .

(٢٤) اختلال الأمن أكثر ما يكون بسبب الحاجة والفقر ولا يداوى ولا يكبح إلاّ بعداواتهما . وقد قال تاسيتوس المؤرخ الروماني في وصف أمثال هذه البيئة المختلة :

بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون في أن يعمل غيرهم الشر وأكثر من هؤلاء وأولئك الذين يسمحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولا يحاولون منعهم . فان رأيت أمة اجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأنذرها بالتدهور في نظامها وحياتها التي تحياها ولاسيما اذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كي يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم وإذا كثر في مثل هذه الأمة الذين يسرفون في الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهي أمة معرضة دائماً للتدهور مهما غرّت ظواهرها .

(٢٥) مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان فالذي يحاول منعها اذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذي يجمل جروحه تدمي في داخل جسمه بدل أن تدمي على ظاهره وعلى جلده فيعالجها وهي إذا دميت في داخل جسمه سببت التقيح والتسمم في بدنه وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولا ينفس عنها بعض التنفس بالعمل أو القول أو الكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها .

(٢٦) إذا لم تجد النفس منفذاً الى النجاح والتبريز في الأمور العظيمة فلا تنتعش إلاً بالنجاح والتبريز في الأمور الصغيرة وقلما تنتعش وتطمئن الى السكينة التامة الخالية من أي مظهر من مظاهر النجاح فانها حينئذٍ تنطوي على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ما تتلهى به مما يؤدي الى النجاح والتبريز في أي أمر من الأمور صغيرها وكبيرها .

(٢٧) أشد الناس إثرة وأنانية لا يتورعون من احراق مدينة كي يقلوا بيضة أي لا يتورعون من تسبيب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة ومع ذلك لا يغتر الناس كما يغترون بذوي الاثرة والأنانية لأن مطالب اثرتهم والرغبة في الفوز بها قد تدعوهم الى ملاطفة الناس واسترضائهم فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم فيأنس اليهم الناس ويثقون بهم وبهذا الائتناس بهم وبتلك الثقة ينالون ما تتطلبه اثرتهم إلاً إذا كان صاحب الاثرة أحمق لا يعرف كيف يستدني مأربها بملاطفة الناس واظهار غير ما يبطن .

(٢٨) خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول الناس ونزعاتهم أما آراؤهم فحسب

ما تعلموا ولكن أعمال الناس حسب العادات التي تعودوها ومن أجل ذلك لا يصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لا يصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه ففي النفوس طباع متناقضة ولا يصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلاَّ إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلاَّ كان عمله ضد رأيه في بعض الأحايين فكثيراً ما تسمع الرجل ينصح عن رأي أو عقيدة ويعطي المواثيق على أن يعمل وفقها ثمَّ لا يعمل بل يفعل ما تقتضيه عاداته فكأنما الانسان آلة مسيَّرة يديرها لولب العادة كما تدار الآلة في المصنع .

(٢٩) للانسان مزايا ظاهرة تجلب المدح ولا ينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحاً خائباً فكأنه مدحٌ عقيم وللانسان مزايا أقل ظهوراً من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ومثل هذا الانسان الذي نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقة ومحركات الحظوظ كما تتفق عجلات الساعة في سيرها أو عجلات الآلة ومثل هذا الرجل قلما يخطِّئه الناس أو يذمونه أو يسببون له الخيبة ومثل هذا لا يشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل بل قد يكون نقصه فيهما معيناً له على النجاح وبعكس ذلك تجد أناساً لا يستطيعون تجنب مؤاخذة الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا في القول والعمل .

(٣٠) المتملق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتملق الماهر يمدح كل انسان بما يود ذلك الانسان أن يُمدَح به وبما يمدحُ به نفسه والشرير هو الذي يمدح انساناً بما يضره ويؤذيه واذا مدحت من كان في مثل فضلك أوجبتَ لنفسك المدح وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلاً أنكر الناس فضلك بالقياس .

(٣١) بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذي يريده على غفلة منهم واستئناس كمن ينادي انساناً أخفى وغيَّر اسمه فيناديه باسمه على حين غفلة منه أو يعرِّض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلسة . وقد يصح رأي هذا الباحث الأ إذا كان جليسه هيوباً فيصدق فيه قول الطغرائي (إنَّ الهيوب مريب)

(٣٢) ينبغي للقاضي أن يذكر دائماً أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كي تكون أحبولة صيد ونخاخاً وشباكاً يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة .

(للبحث بقية) ع . ش .

قصة

أسف !...

للكاتب الفرنسي «جي دي موپاسان

ترجمة الآنسة : نعمت حسني

استيقظ السيد « سافال » ويسمونه في (مانت) « الأب سافال » . . . من نومه في الصباح المبكر . ثم ارتدى جلباباً يستر به ثياب النوم . وكان اليوم من أيام الخريف الحزينة . . فقد أظلمت السماء وتهاطلت الأمطار . . وأخذت أوراق الشجر تتساقط على مهل . . وكأنها أمطار أخرى ، أكثر غزارة وأكثر تؤدة . ولم يكن السيد سافال ، مرحاً في ذلك اليوم .. فجعل يقطع المسافة ، فيما بين النافذة والمدفأة ، ذهاباً وإياباً.

الحياة تتخللها أيام عابسة مظلمة . ولسوف تكون من الآن فصاعداً ، سلسلة أيام مظلمة عند سافال .. فقد بلغ الثانية والستين من عمره ولم يتزوج بعد .. فهو فتى عجوز . . وليس من يحيط به ! يا لله ! محزن ولا شك ، أن يموت الإنسان هكذا ، وحيداً . . وليس من يحبه أو يحنو عليه !

وفكّر سافال ، في حياته العارية الجوفاء التافهة . وتذكر الماضي القديم . . تذكر أيام طفولته ، والبيت الذي كان يضم الأسرة . . والكلية التي تعلم فيها . . . ثم التخرج فيها . . ودراسة القانون في باريس . ثم مرض أبيه ، الذي أعقبه الموت .

إنه أقام بعد ذلك مع والدته . . وعاش الاثنان معاً ، في هدوء وسكون . . الشاب والمرأة العجوز . . ولا يطلبان شيئاً من لذائذ الحياة ونعيمها ، غير ما قدر لهما . ولكن ماتت أمه أيضاً ، وتركته وحيداً . فكم هي حزينة هذه الحياة !

وهكذا عاش سافال وحيداً . والآن ، سوف يموت بدوره في وقت قريب . . سوف يختفي من هذا الوجود ، وقد انتهى كل شيء . . فلا سيد بول سافال ، فوق وجه الأرض .

إنه حقاً ، لشيء بغيض ، إن أناساً آخرين ، سوف يعيشون بعد ذلك ، ويتحابون ، وسوف يضحكون ويلهون . . بينما هو ، لا يكون له وجود بالمرة . . . لعله عجيب ، إننا نضحك ونلهو ونمرح ، ونحن نعلم يقيناً ، إن الموت مصيرنا الأخير . لو كان هذا الموت أمراً يشك فيه ، لأمكن لنا أيضاً ، أن نأمل النجاة منه . . ولكن لا ، إنه شيء لا مفرّ منه . . كما انه لا مفرّ من أن يعقب الليل النهار .

* * *

لو أن حياته قد ملئت ! لو أنه أتى بعمل ما . . لو كانت له حوادث . لو أنه تذوّق حلاوة المسرات ، والنجاح . . والرضى بأنواعه . ولكن لا ، لاشيء من هذا كله ، إنه لم يصنع شيئاً ، لم يصنع شيئاً البتة ، سوى أنه يصحو من نومه ، ويأكل في ساعات محدّدة ثمّ تأتي ساعة النوم فينام . وواصل أيامه على هذه الطريقة ، الى الثانية والستين من عمره .. حتى ولم يكن قد تزوّج ، كبقية الرجال . ولماذا ؟ أجل ، لماذا لم يتزوج ؟ وقد كان في امكانه أن يتزوّج . . فهو يملك ثروة لا بأس بها . أهي الفرصة لم تواته ؟ ربما ! على إنه يمكن ايجاد هذه الفرص ! لقد كان كسولاً متهاوناً . . هذا كل ما في الأمر . كان الكسل مرضه العضال . وكان عيبه ونقيصته . كم من الناس خاب أملهم في الحياة ، بسبب تهاونهم هذا . . فهناك بعض الطبائع ، من الصعب عليها ، أن تنهض أو تتحرك ، من تلقاء نفسها.. أو تتكلم ، أو تسلك بعض المسالك ، أو تدرس المسائل ، أو تريد شيئاً ، بغير حاجة الى الآخرين !

يا لله ! بل ولم يكن سافال ، محبوباً . فما من امرأة واحدة ، ألقت برأسها على صدره في غمرة من الغرام ، ولم يعرف عذب الانتظار اللذيذ . . وتلك الرعشة السماوية ، التي تنشأ عن ضغطة يد الحبيب . . ثم ذهول الغرام الحلو ، الذي يطغى على كيان المحبّ !

إنها لاريب سعادة فوق احتمال الانسان . . تلك التي تغمر القلب ، عند ما تتقابل الشفاه للمرة الأولى . . بينما تكون الأذرع الأربعة ، قد ضمت بين كائنين ، وقد جنّ أحدهما بالآخر غراماً وجعلت منهما كائناً واحداً . . كائناً سعيداً ، في منتهى السعادة .

وأخيراً ، جلس السيد سافال ، بالقرب من الموقد . . وجعل يدفىء قدميه على النار ، ولم يزل غارقاً في التفكير .

لا شك في أن حياته كانت فاشلة ، فاشلة كل الفشل . ومع ذلك ، فانه أحب . إنه أحب سرًّا .. وكان في حبه كسولاً معذباً ، بسبب تمهله المميت ، كحاله في كل شيء .. أجل ، فقد أحب فيما مضى . . أحب صديقته العجوز ، مدام ساندر . زميله القديم ، ساندر . آه ! لو أنه عرفها فتاة لم تتزوج ! ولكنه قابلها متأخراً جدًّا . . وقد تزوجت رفيق صباه ! لو أنه رأى تلك الفتاة ، لتزوج منها . ليس في ذلك من شك ! فكم أحبها ، وأفرط في حبها للنهاية لقد أحبها يوم أن رآها للمرة الأولى .

انه يستذكر الآن ، تأثره كلما كان يراها . . وجزعه وحزنه ، عندما كان يتركها . ثم تلك الليالي التي كان يقضيها مسهداً يفكر فيمن أحبها قلبه .

كان دواماً يستيقظ في الصباح ، وهو أقل هياماً بها منه في المساء ، وقد اشتدت جذوة غرامها وهيجاً في فؤاده . ولماذا ؟ لا يدري !

كم كانت مدام ساندر ، جميلة فيما مضى . . . كانت لطيفة ضاحكة . . شقراء ذات شعر جعد ! أما ساندر ، فلم يكن بالرجل الذي يستحقها ! ... انها الآن ، في الثامنة والخمسين من عمرها .. تبدو عليها السعادة . آه ! لو كانت هذه قد أحبته فيما مضى ! أجل ، لو كانت أحبته ! ولم لا تكون قد أحبته ، فانه أحبها . لمَ لا تكون مدام ساندر ، قد أحبت سافل ، الذي أحبها حبًّا جمًّا ؟

ألا ليتها فقط ، حزرت شيئاً ! ... ترى ، ألم تلحظ شيئاً بالمرة .. ألم تفهم أنه يكنّ لها كل هذا الحب ، الذي استأثر بقلبه وعقله ؟

إذن ، فماذا كان يتبادر الى تفكيرها ، لو أنه باح لها بحبه ؟ وبماذا كانت تجيبه ؟

وكان سافل ، يسأل نفسه عن آلاف الأشياء الأخرى ، فهو في هذه اللحظة ، يعيش حياته مرة ثانية ، ويحاول أن يحظى بالكثير من التفصيلات ، التي أشكلت عليه من قبل ، وتعذب في تفهمها !

كان يستذكر تلك السهرات الطويلة ، التي كان يقضيها عند ساندر ، في لعب الورق ،

حينما كانت زوجته صغيرة فاتنة . كان يستذكر كلماتها . . وابتساماتها الصامتة ، التي تومي الى أفكار كثيرة !

كان يستذكر تلك النزهات الجميلة ، عند ما كان يذهب ثلاثتهم — الزوج والزوجة والصديق — في رياضة على شاطىء السين . وعند ما كانوا يتناولون طعامهم ، فوق العشب الأخضر في يوم الأحد . وكان ساندر حينذاك موظفاً ، في ديوان المضبطة. وفجأة ، عاودته ذكرى ، تراءت له صافية . ذكرى يوم أمضى شطره الأخير في صحبتها . صحبة من أحبها قلبه ، في غابة صغيرة ، تمتد على شاطىء النهر .

كانوا قد توجهوا صباحاً ومعهم طعامهم في حزم ، تأبقت الزوجة الصغيرة ، في لفها وحزمها . وكان يوماً ضاحياً من أيام الربيع . يوماً من تلك الأيام التي تثمل الحواس وتبهر العقول بسحرها ، وتتفتح فيها القلوب ، للحب والجمال . كل شيء له أريج طيب . وقد بدا مرحاً سعيداً . كانت العصافير تغرد على الأفنان ، فرحة طروبة ، وتصفق بأجنحتها في حبور ومرح . وتذكر ، ثم تذكر . . . تذكر وهم يتناولون طعامهم ، على العشب الأخضر تحت أشجار الصفصاف ، بالقرب من المياه التي التحفت صفحتها المتماوجة، ببريق الشمس كان الهواء دافئاً ، مليئاً برائحة العصارة النباتية . وكانوا ينشقونه مستمتعين بالسعادة . آه ! لكم كان جميلاً ، ذلك اليوم !

كان ساندر ، قد نام بعد الأكل ، فوق العشب . . وقال عند ما استيقظ : « انها أجمل غفوة تذوقتها في حياتي ».

كان ساندر الشاب ، قد استلقى على ظهره ، فوق العشب اللين ، يطلب النوم ، في ذلك النسيم الساحر . واستندت مدام ساندر ، الى ذراع سافال ، وأخذا يمشيان هوينا ، على شاطىء النهر .

كانت تضحك في سرور . وكانت تقول : « اني سكرى يا صديقي . . سكرى بهذا الجمال . سكرى للغاية » فكان ينظر اليها ، وهو يرتعد حتى القلب . وأحس أنه قد شحب ونه . وداخله الشك ، أن تكون عيناه قد أفصحتا عما يعانيه فؤاده من لوعة الهوى . أو ن رعدة من ذراعه ، قد فضحت سره .

كانت مدام ساندر الشابة ، قد صنعت تاجاً من الحشائش الطويلة ونرجس الماء . زينت به رأسها البديع . وسألته : « أتحبني هكذا ؟ » . يالله ! كيف احتمل هذه الكلمة ، ولم يفتضح أمر حبه الدفين ! أما كان أحرى به أن يقع على ركبتيه عند قدميها ! أما كان أحرى به أن يبوح لها بالحب ، الذي ملك عليه مشاعره ، وتغلغل في كل قطرة من دمه ؟ .

ولما ألفته ساكتاً ، ولم يجبها بشيء . جعلت تضحك . وكان الكدر ظاهراً في ضحكتها ، وهي تقذفه بالشتم : «أيها الحيوان الكبير . هيا ! ألا تتكلم على الأقل !» . أما هو ، فكان على وشك أن يبكي ، ولا زال متعذراً عليه الكلام !

كلّ هذا ، مرّ الآن بذاكرته ، واضحاً كل الوضوح . كما لو أنه حدث في هذا اليوم. لماذا قالت له ذلك : « أيها الحيوان الكبير ، هيا ! ألا تتكلم على الأقل ! »

وتذكر أيضاً ، كيف كانت تستند إليه في حنان . وبينما كانا يمرّان تحت شجرة تقوّس جزعها . فانه أحسّ أن أذنها ، قد لمست خده . فتقهقر فجأة خوف أن تظنه متعمداً هذه الملامسة ، وتذكر

وتذكر أيضاً ، عندما قال لها : « أما آن لنا أن نعود ؟ » فانها أرسلت إليه نظرة عجيبة. مؤكد ، أنها نظرت إليه نظرة فاحصة . لم يعرها إذ ذاك أي تفكير . ولكن ، هاهو الآن يفكر في تلك النظرة . وفيما كانت ترمي إليه ! وتذكر مدام ساندر ، وقد قالت له في وجوم: كما تريد يا صديقي . فلنعد لو كنت تعباً . فأجابها قائلاً :

— ليس هذا معناه أني تعب . ولكن ربما يكون ساندر قد استيقظ الآن من نومه. فقالت له وهي تهز كتفيها :

— اذا كنت تخشى أن يكون زوجي ، قد استيقظ . فهذا شيء آخر . فلنعد !

وفي العودة ، كانت تلزم الصمت . ولم تستند الى ذراعه قط . فلماذا ؟

وكلمة « لماذا » هذه ، لم تخطر بباله قبل الآن . أما اليوم ، فيخيل إليه انه يلحظ شيئاً لم يكن قد فهمه من قبل ... فهل ؟ ...

وأحس سافال ، ان احمرار الخجل يكسو وجهه .. ونهض واقفاً ، وكأنما انقلب كيانه رأساً على عقب . وعاد ثلاثين عاماً الى الوراء . حيث كان في سنّ الشباب . وخيل إليه إنه يسمع مدام ساندر ، تقول له : « أحبك » وانه . وانه .....

هل من الممكن ، إنها كانت تكنّ له حبّاً . ولكنه لم ير شيئاً . . ولم يفهم شيئاً ؟ . إن هذا الوهم ، الذي أتى يتسرب الآن الى روحه ، قد جعل يعذبه !

آوه ! لو كان هذا الوهم ، هو الحقيقة . لو كانت مدام ساندر ، أحبته فعلاً . لو أن

هـذه السعادة ، قد مرت به ، وتركها، تفلت منه ، دون أن يمسك بها ! وقال وقد أهاجت لواعجه الذكرى :

« أريد أن أعرف . فليس في مقدوري أن أستمر في هذا الشك . أريد أن أعرف » .

« إنني الآن في الثانية والستين من عمري . كما انها في الثامنة والخمسين . فيمكن لي اذن أن أسألها هذا السؤال ، دون خجل . حتى أفهم ، ما أشكل عليَّ فهمه فيما مضى . وعلى هذا خرج سافال من بيته .

كان منزل ساندر ، في نفس الشارع ، وفي مواجهة بيته تقريباً . قصد إليه سافال . وفتحت له الخادمة الصغيرة ، وقد وصل الى سمعها ، دقات مطرقة الباب المتواترة . ودهشت لرؤيته ، في هذه الساعة المبكرة وقالت له :

— أهو أنت ، يا سيد سافال ! هل جدَّ حادث ما ؟ . فأجاب سافال :

— لا ، يا بنيتي .. ولكن اذهبي الى سيدتك ، وقولي لها اني أريد أن أكلمها في الحال

— ولكن ، سيدتي تصنع حلوى الفلفل ، من أجل الشتاء الذي أقبل . وهي الآن في حجرة الفرن ، وفي ثياب لا تسمح لها بمقابلة الزوار . أفهمت ؟

— أجل ، ولكن قولي لها ، إني أريد أن أكلمها في شيء مهم .

وذهبت الخادمة الصغيرة . وجعل سافال ، يتمشى بخطوات عصبية . غير أنه لم يحسَّ ارتباكاً أو اضطراباً . آوه ! إنه سوف يسألها عن هـذا . كما لو كان يريد أن يسألها عن شيء يختص بالمطبخ . فقد أصبح في الثانية والستين من عمره !

وفتح الباب . وظهرت فيه مدام ساندر . انها الآن ، امرأة سمينة ، عريضة مستديرة ، بخدين ممتلئين ، وضحكة رنانة .

وكانت تمشي ، وقد ابتعدت يداها عن جسمها . وكشفت ذراعيها العاريتين وقد تلوثتا بسائل السكر . وسألته في قلق :

— ماذا بك يا صديقي .. أمريض أنت ؟ . وأجابها على الفور :

— لا ، يا صديقتي العزيزة . ولكني أريد أن أسألك عن شيء يهمني للغاية ، شيء يعذب قلبي . فهل تعدينني ، أن تصدقيني القول ؟ . فابتسمت قائلة :

— أنا دواماً صريحة . فسل ما تريد .

— ها أنا أقول لك ، إني أحببتك ، يوم أن رأيتك للمرة الأولى . فهل شككت في ذلك ؟ . وضحكت . ثم قالت تلك الجملة القديمة :

— أيها الحيوان الكبير . هيا ! لقد لحظت ذلك ، يوم أن رأيتك للمرة الأولى !

وسرت الرعدة في بدن سافال . وجعل يتمتم قائلاً :
— أكنت تعرفين ؟ . إذن ما ذا ؟ . فعاد سافال ، يقول :
— اذن ، . فاذا كنت تفكرين ؟ . . ما . ما . ما ذا كنت تجيبين ، لو أني فاتحتك . لو أني بحت لك بالحب ؟ .
وضحكت ضحكة قوية . وتساقطت قطرات العسل من أطراف أصابعها الى الارض . وقالت:
— أنا ؟ . ولكنك لم تسألني عن شيء . ولم يكن من شأني أنا ، أن أجعلك تبوح !
وخطا سافال ، خطوة اليها . وقال لها :
— إذن ، هلاّ قلت لي . أتذكرين ذلك اليوم . حيث كان ساندر ، نائماً على العشب الأخضر ، بعد تناول الطعام . وحيث كنا معاً ، الى أن عدنا اليه ؟ .
وسكت ينتظر الجواب . وكفت هي عن الضحك . وجعلت تنظر في عينيه . ثم قالت :
— حقًا ، اني أذكر ذلك اليوم . وعاد يقول مرتعداً :
— هذا حسن . في ذلك اليوم . لو كنت أنا . لو كنت جسوراً في ذلك اليوم. وبحت لك بغرامي . فاذا كنت تصنعين ؟
وابتسمت مدام ساندر ، ابتسامة امرأة يعذبها الأسف . وأجابت دون تردد وبصوت واضح النبرات . وفي لهجة جدية :
— إذن ، لتقبلت كلامك بالرضى ، يا صديقي .
ثم دارت على كعبيها . وهربت الى حيث كانت تصنع الحلوى .
وخرج سافال ، الى الشارع ، حزيناً مهموماً . كأنما حلت به كارثة . وكان يسير متسللاً تحت المطر ، بخطى كبيرة ، وفي خط مستقيم ، الى الأمام . هابطاً نحو النهر ، لا يفكر الى أين يقصد .

وعندما وصل الى ضفة النهر ، التفت يميناً . ثم أخذ طريقه ، متتبعاً الشاطىء ومشى وقتاً طويلاً ، كأنه مدفوع بغريزة فيه . وأصبحت ثيابه تقطر ماء . وتلفت قبعته ، وبدت وكأنها خرقة لا هيئة لها يتسرب منها الماء ، كما يتسرب من غربال . هذا ، وما زال سافال ، يسير أيضاً ، الى الأمام . الى أن وجد نفسه في ذلك المكان ، الذي تناول فيه طعام الغداء ، صحبة ساندر ، وزوجته . في يوم بعيد مضى . ولا زالت ذكراه ، تعذب قلبه !
ثم جلس تحت الأشجار العارية . . وبكى ... بكاء مرًا .

بعث

أسعدتني يا قاهرَ الأتراحِ ومُحيلَ أرزائي الى أفراح
لما اجتليتك رفَّ قلبي بهجة وافترّ ثغري بعد طول نواحي
ونسيتُ ماكابدته في حاضري وذكرتُ عهد بشاشتي ومراحي
يا حسن وجهك وهو يبسم ناضحاً بعذوبة خلابة وسماح
لما تجلّى فجره انجاب الدجى وعلا غناءُ فؤاديَ الصدّاح

***

رانَ القنوط عليَّ حتى لحتَ لي فتبدّلت بعد التجهُّم حالي
وأضأتَ بالبشر المشيعِ غيابتي وبعثتَ فيَّ محبَّبَ الآمال
وبدا جمالكَ ضاحياً فإذا به يُضفي على دنيايَ أيَّ جمالِ
وغزوتَ معقلَ قبحها وضلالها قبح تغشى حسنها وضلالِ
أشبهتَ إقبال الربيع كسا الرُّبى زهراً يهشّ لذلك الإقبالِ

***

مثّلتَ أبدع ما حواه وجودنا من حسن سيماء وحسن صفاتِ
ونهضتَ رمزاً للطهارة داعياً أهلَ الجحود الى هدى وتقاةِ
ونصرت روح الخير بعد قنوطنا منه على روح الشرور العاتي
فتبدّت الدنيا الذميمة جنة في ناظري مخضلة الزهرات
يا مبدع الدنيا السعيدة هذه روحي تعود فتحتفي بحياتي

***

لما سمعت حديثك العذب انتشت روحي بأرخم ما تعي أذنانِ
واهتزَّ مني كلُّ عرق وانبرى وتراً يرجّع أعذبَ الألحانِ
وحوت ضلوعيَ مهرجاناً راقصاً يحييه رجعُ مثالثٍ ومثانِ
وتجاوبت أصداؤه خفاقةً حولي وعم اللحنُ كلَّ مكانِ
فإذا الوجودُ يميد منتشياً معي لهجاً بحمد جمالك الروحاني

محمد منير الشورباشي

نظرات

في الألحان والشروق
للأستاذ حسن كامل الصيرفي

بعد ريادة الأستاذ خليل بك مطران للشعر الشرقي الحديث وما أدخله عليه من نهج جديد، وتجارب منوّعة، ومعاني مبتكرة، وأخيلة طريفة.

قامت في مصر مدرسة أدبية تشق للشعر الفني جادة جديدة، متأثرة مطران تأثراً توجيهيًّا، وكانت تضم هـذه المدرسة قلة مصطفاة من شباب الشعراء وكهولهم، وعلى رأسهم الدكتور أبو شادي وناجي وغيرهما، وقد اعتمدت هذه المدرسة القوة الشعرية في ذاتها، محتفظة باستقلالها وشخصيتها الأدبيـة، ثائرة على القوالب الشعرية القديمة، والمنظومات التقليدية المعاصرة — فاستطاعت بجهادها وجهودها، أن تتحف البيئـة الادبية بآثار قيِّـمة حوَتْ ألواناً من الشعر طليقة، وصوراً مضيئة، ومعاني جديدة، وأنغاماً عذبة، لم يكُ للناظمين الحفريين عهدٌ بها.

ومن نوابغ هذه القـلـَّة، الشاعر «حسن كامل الصيرفي»، شاعر رومانتيكي النزعة في أغلب شعره، مجنـَّح الخيال، شفـّاف الأنغام، جمعت شخصيته بين كنزيـْن: طبيعةٌ فنيَّة، ونفسيةٌ طيِّـبةٌ تلمح مظاهرها في لمحات وجهه المعروق الحساس، وعينيه اللامعتين الذكيتين. ولقـد هيأت له طبيعة بلده — دمياط — إلهامات منوَّعة، انسابت إليه من البحر الجيَّاش، والنهر الهادىء المقدّس حيث يلتقيان هناك قريباً من بلده، وفجَّرَ الألم في نفسه ينابيع الشاعرية، ونقلتهـا أعصابه المتجاوبة المرهفة، فأثمرت شعراً جديداً، فنّان النغم، لا عهد للبيئة الأدبية المصرية به.

* * *

وكان ديوانه «الألحان الضائعة» أول ديوان مطبوع للشاعر وهو يعدُّ فتحاً جديداً

في الحقل الأدبي ، وتتمثل فيه روحه الثائرة على الحياة ، وعلى الرواسم الشعرية المألوفة ، والأهداف التقليدية ، إذ قد وعى تجارب فنية خالصة ، وازدهر بخيالات مجنحة ، ونغمات أثيرية ، أثملت قلوب الخاصة ، ورنت بعض أصدائها في القلوب الصافية المتصوفة من أبناء البلاد العربية ، وهذه النغمات وإنْ تضوَّع عبقها في قلة من الناس ، فانها لم تلقَ أيَّ تقدير من غالبية العاديين من سكان هذه الأرض ، وهم الذين عناهم الشاعر بقوله في إحدى قصائده بديوان الألحان ، حيث قال :

بَنَيتُ لهم من جنان الخيالِ . فراديسَ ترقصُ فيها الفنونْ
فراحوا بجنَّتِهم يهزأون ومالوا على سُورها يهدمون
وأنْشدتهم من أغاني السماءِ أناشيد تُمزِّقُ للخالدين
فضاع الصدى في فضاءِ الحياة وذاب النشيد وهم يصخبون
وحدَّثتهم عن جنان الخلود فكانوا بقصَّتها ساخرين !

* * *

ومثل هذه الألحان المتمردة كثيرة في ديوان « الألحان » وأكثر منها ألحان الألم ، وهي تفسير نفسه القلقة المتجهمة في حقبة من عمره ، وستظلُّ هذه الألحان نبعاً ثراً لقلوب الرومانتيكيين ، وللأرواح التوّاقة للأُنس الروحي المفقود في دنيا الناس . ومن نماذج هذه الألحان ما جاء في قصيدته « ربيع كالخريف » التي يقول فيها :

هو الربيع .. ولكن أين بهجته وأين ما كنت ألقى في مغانيهِ
هو الربيع .. ولكن لا أحسُّ به ولست أشعر شيئاً من معانيهِ
هو الربيع .. ولكن عند مبتهج هو الربيع . ولكن عند أهليه
لكنني في خريفي بتُّ منتظراً سقوط أوراق عمري في تلاشيه !

* * *

ومع وفرة هذه الألحان المشجية ، فلم يخلُ الديوان من خواطر تأثرية واقعية خفيفة مثل قصائده « المنديل » و« عقب السيجارة » . وقد جمع في هذه الأخيرة خواطر وجدانية

منوّعة ، وقد استهلها بقوله :

في الأرض ملقاةً مذهَّبةً هذي البتية من سجارتها
منبوذة كانت مقرَّبةً من ثغرها تغنى لسلوتها

* * *

كانت تؤانسها فتخلق من موج الدخان عوالماً شتى
كانت تؤانسها فتبعث من قبر الحياة حوادثاً موتى

* * *

كانت تشارك قلبها الوجدا وتظلُّ تكتم شجوها عنها
أنفاسها معدودة عدًّا وحياتها مسلوبة منها

* * *

وتطيل في الأنفاس ما شاءت فتظلُّ صابرة على البلوى
حتى تذوب كأنما كانت حلماً ولم يخلف سوى الذكرى

ولم يقتصر الصيرفي على النواحي التي ألمعنا اليها ولكن له لفتات غزلية متصوفةً ، ونفثات في شعر الطبيعة ممتزجةً بالخواطر الوجدانية آناً ، وبالفلسفة الحزينة آناً آخر ، فضلاً عن اتجاهات رمزيةٍ قليلة ولمسات إنسانية مثالية نادرة نمثل لها بمقطوعة « التضحية » وهي ختام ديوان « الألحان » — وقد جرت كالآتي ، في أسلوب مباشر جميل :

هنا في هيكل الحبِّ أُحقِّرُ مبدأ الفردِ
وأحرق عنده قلبي بخوراً طيِّب الندِّ

* * *

ولست بنادمٍ يوما على قرباني الضائعْ
أجلُّ الناسِ منْ يفنى ليرضي الظامىء الجائعْ

هذه اللمسات العابرة تكشف — إلى حدٍّ كبير — عن شعرٍ مستقل نابغ ، وتنمُّ على شاعر متحرر أبى أن يرسف أدبه في الأغلال ، وتتنفس أنغاماً فريدة لذَّة ، أنغام الأسى الحنون التي تعيش في الوجدان وتدوم... وكأيٍّ من لذة في الأنغام الحزينة أعذب من اللذة نفسها، كما يقول كليرانس دارو Clarence Darrow في كتابه «الواقعية في الأدب والفن»

* * *

وإذا كان ديوان الألحان قد أطرفنا بمثل هذه الأنغام وأتحفنا بتجارب شعرية خالصة جلّها خواطر تأثرية وجدانية حزينة فان ديوان « الشروق » يسجل نقلةً شعرية مغايرة بانتقال الشاعر نقلة نفسية مشرقة. إنه ديوان غمرت أضواءه الظلال ، وأطلَّ في ثناياه وجه المرأة الجاذب ، ونبض فيه قلبها العاطف ، فوجَّه روح الشاعر وجهة جديدة ، وأضفى على شعره إشراقاً ، وأضاف إلى تجاريبه تجاريب ، ونوَّع انفعالاته ، وبدَّل قليلاً من موسيقاه ، وقاده من عالم الضباب والسحاب إلى عالم الحياة والأضواء .

وأثر هذا الوجه الجاذب ، ملموس في قصيدتيه « النور الجديد » — ص ١٠ — و« النظرة الأولى » — ص ١٦ —

في النظرة الأولى رأيتُ الحياه تفتح لي باباً الى عالَمِ
تصدُق عيني اليوم فيما تراه أمْ لا ترَى إلاَّ رؤَى حالِمِ

* * *

في النظرة الاولى جمعتُ البعيدْ من عالَمِ الحبِّ وألوانهِ
في النظرة الأولى سمعت النشيدْ فرحُ مغموراً بألحانهِ

* * *

في النظرة الأولى رأيت الشبابْ يُحطِّمُ الأغلالَ عن ساقهِ
ويجهل الماضي وينسَى العذاب فيخفقُ الكون لخفَّاقه

* * *

قد كحّل النورُ جفوني فلم يَدَعْ لطيْفِ النوم فيها أملْ
سيُنكر القلبُ معانيْ الألم ويفهم الكونَ بفكرِ النّحِل

* * *

فهذا نزوعٌ وجدانيٌّ مُشْرِق جديد وتبدّلٌ نفسانيٌّ عجيب ، جعل الشاعرَ، من النظرة الأولى ، ينسى العذاب، وينكر الألم، ويودّع الماضي، ويفهم الكون فهماً جديداً، ويرى جماله بالنظرة الأولى ، ويحسُّ في جمال هـذه الحبيبة بدفقات النور تدفيء جوانحه ، ويرى مرائي الطبيعة وبناتها بمنظار وردي ، فيقول في قصيدته « النور الجديد » معبّراً عن أنس نفسه وإشراقها :

وصلتِ ما مرَّ من عمري بآتيهِ فرُحتُ أُكْحِلُ عيني من مرائيهِ
مجلّى من النُّور لم أبلغ مطالعَه أنى اتجهتُ ولم أدْرِكْ تناهيهِ
الصبح يبلج تيّاهاً بصادحِهِ في مسمعيَّ جديدٌ من أغانيهِ
والفجر، قبل ارتحال الفجر، لمّح لي عما يضمّنُ صبحي في معانيهِ
والطير تهتف والأزهار رانيةٌ كأنها تتحرّى مَن تُناجيه

* * *

ويبدو لنا أن فرحته الجديدة كان يشوبها كثيرٌ من التفكير . ودلالة هذا ظاهرة في القصيدتين سالفتي الذكر ، حيث نجد فيهما توزّعاً موسيقيّا ، وضوءا قليلاً ، وحركة قليلة السرعة .والعهد بالشعر المرح، أن يكون عالي الموسيقى ، قصيراً في مسافاته الصوتية، مليئاً بالنبض .

وحالما انقشع ماكان يهوّم حوله من تفكير في بداية حبّه ، انبرى الشاعر يصف أثر الحبيبة فيه حسيّا ، ومعنويّا ، فأخذ يصف أثر عينيها وشفتيها في مشاعره في قصيدتيه « عيناكِ » — ص ٤١ — و« بشفتاكِ » — ص ٤٢ — وأثرها المعنوي في مثل قصيدتيه « الرضا » — ص ٤٠ — و« تنهّداتي » — ص ٥٠ — وفي هذه القصائد الأربع ، نجد تفاوتاً في تجاربه ، وفي حالته النفسية ، وفي موسيقاه . . . ففي قصيدتيْ « عيناكِ » ،

و «شفتاكِ» تعلو موسيقاه قليلاً، ويخفُّ توزُّعه النفسي، وتتواصل وحدته الأسلوبية، وتتجرد معانيه. وفي قصيدته «الرضا» تعلو موسيقاه قليلاً، وتهدأ نفسه وتضوي صوره، وتقلُّ فكراته .. وفي قصيدة «تنهداتي» تتوحد نفسه، وتتوحد موسيقاه، وتعلو درجات، وتتنوع انفعالاته، فلا يكتفي بالتعبير عن عاطفة الحب وحدها، والتلاعب بالألفاظ والصور حولها، ولكنه يضيف في هذا القصيد، انفعالات أخرى تلابس عاطفة الحب أحياناً. واعتقادي أن هذا القصيد خير ما في الديوان، وفي الفقرتين الأولين منه يقول:

قالت:

علامَ تنهُّداتك في سكونكَ يا حبيبي
هل أنت في فردوس حبِّك حاملٌ عبء الغريبِ
تمضي كما يمضي شعاعُ الشمس في مهوى الغروبِ
أوَلَمْ تجد في ظليَ الوافي هناءاتِ القلوبِ
فظللتَ تزفرُ زفرةَ المحزونِ والعاني الكئيبِ؟!

*

لا تحسبي زفراتيَ الحرَّى شجوناً لم تولْ
فهي التحرُّقُ في هواكِ وإن حييتُ بخير ظلْ
وهي التأمُّلُ في هواكِ وحيرتي ما بين جهلي
وهي التجرُّد في عناقك والتنعُّمُ والتملّي
وهي اختلاج الوحي في نفسي بآيات التجلي

— ٣ —

والملحوظ في ديوان «الشروق» جنوح الشاعر، غالباً، الى التجريد في المعاني، كما هو الحال في ديوان الألحان، وميله الى الإبهام في أحيان، كما نلحظ ذلك في قصيدته البديعة «المعنى المبهم» ـ ص ٥٧ ـ وفي مطوَّلته المهموسة «وحدة العمر» ـ ص ٦١ ـ

كثيرٌ من التأملات والمعاني الغامضة ، ومن أعذب ما جاء فيها :

ستختلف الحياة أمام عيني
تمرُّ طيوفها وتغيب عني
وتفنى في محيط من تمَنٍّ
وأحلامٍ تلوح بكل لون

ويختتمها بقوله :

تعالَ فقد بلغتُ حدودَ نفسي
وأطمع أن أحقِّق طيفَ حدْسي
فهل لك أن تذيب ثلوجَ يأسي
وتمزج حاضري بغدي وأمسي ؟

وهـذا القصيد قد يمتعنا بأصداء شعورية بديعة ، إلاَّ أنه يضع الذهن في حيرة وتلدُّد . ويماثله في هـذا المنحى قصيد « الحرمان » — ص ٢٣ — ذو المعاني المطلقة المجرَّدة والخواطر المبهمة التي يهيم بها الشعراء الشرقيون وبعض شعراء الغرب الرمزيين والمحدثين .

* * *

ويضاف الى ما تقدم أن ديوان « الشروق » امتاز في موسيقى بعض قصائده بأنغام ارتكازية لا عهد لديوان الألحان بها ، وآية ذلك قصيدته « القبلة » — ص ٣٨ — فأنغامها تتراوح بين العلوِّ والهبوط . وهذا النوع من الموسيقى نادر في الشعر العربي ، المنخفض القرار في الغالب ، وقد جاء في مقدَّمتها الأولى قوله :

خمرُ شبابٍ رطيبْ معصورة من قلوبْ
على الشِّفاه تذوبْ
في القبلتين ، وآه
من طعمها ! أسكريني !

وفي قصيدته « نشيد الثورة » تعلو موسيقاه درجات . وليس في ديوان « الألحان »

هذه الموسيقى العالية . ومما جاء في نشيد الثورة قوله :

تحرّكْ يا أبيّ الضيمِ وانهضْ
لحقك في بلادك بات يُرفَضْ
وأيُّ جفون مسلوبين تغمض
إذا ما الأُسدُ ديس على حِماها !

* * *

بلادك لُقمةٌ في عين جائعْ
وحقك نُهْبَةٌ في كفّ طامع
وأنت مع المذلة جِدُّ قانعْ
فقم وأزِح عن النيل السَّفاها

* * *

والملحوظ ، أن الصيرفيّ في موسيقاه العالية لم يبلغ الأوج ، ولعلّ ذلك راجعٌ الى طبيعته المنطوية ، الميّالة الى كبح انفعالاتها . ولهذا نجده في ألحان الألم يجيد كلّ الإجادة لأنها ألحانٌ تتطلب موسيقى هادئة منخفضة القرار ، وهي تحتاج في الإعراب عنها الى جهد كبير .

وفي ديوان « الشروق » طائفة من القصائد ذات الأنغام الهادئة المشجية مثل قصيدته « الشاعر والسحاب » — ص ٨٣ — التي أزجاها الى روح الشاعر النابغة « فوزي المعلوف » وقصيدته « الصباح الجديد » — ص ٨٦ — التي أهداها لشاعر الخضراء « أبو القاسم الشابي » وهاتان القصيدتان رائعتان من روائعه في تجربة موسيقاها ، وخيالها ووحدتها

ومما جاء في القصيدة الثانية قوله :

أيها المتعَبُ الذي حطّم النايَ واستراحْ
نمْ قريراً فقد سَرى لحنُكَ العذبُ في البطاحْ
فجرُكَ الحلوُ لم يَضعْ بين أيامك الشِّحاحْ

فهو ما زال سابحاً هاتفاً خافق الجناحْ

* * *

في مثل هذه النواحي الحزينة ، تتوحد تجربة هذا الشاعر وتشفُّ موسيقاه ، وتعمق تأملاته ، ولعل مرجع هذا الى أن النفس في الألم تكون أكثر توحُّداً ، وأشدَّ استيحاءً لأروع ما فيها ، على حين انها قد تتوزع في قصائد المرح أو القصائد التفكيرية ، ولم يسلم ديوان « الشروق » وقد طافت به شعاعات الفرحة ، ولمست به خواطر الفكر - من تخلخل وإن راقت فكراتها . وهذا ما تلحظه في مثل قصيدته « خمرة الفن » - ص ٣١ - و « الأفق » - ص ٤٧ - و « أنا » - ص ٦٨ . فهذه القصائد ليست على ما نرى في مستوى شعره النابغ

— ٤ —

ومن هذه اللمحات الخاطفة تظهر لنا بعض سمات شعر « الصيرفي » ومناحيه ، وإنه لشعرٌ رومانتيكيٌّ مجنَّحٌ في عهد الفِتاء ، وشعرٌ غزليٌّ في عهد الشباب ، مازجته بذور قليلة من بذور الواقعية . وشعره ترجمة لحياته ونفسه المنطوية غالباً ، المنبسطة نادراً ، وتعبير لمزاجه المكتئب كثيراً ، المشرق قليلاً . فهو شاعر صادق لا أثر للتصنع فيه ، وهو من أبناء « أبولُّو » العاكفين على محرابه ، العاملين على رفع لوائه . ومصداق ذلك نجده في أول قصيدة له بديوان « الشروق » الموسومة « بخلود الشعر » التي فيها يذبُّ عن الشعر ويؤكد خلوده لأنه المعبِّر عن آلامنا وأفراحنا وأشواقنا وخفقات قلوبنا ، النامُّ عما في الكون من سحرٍ وجمال . وهو بهذا القصيد يذكِّرنا بكلمات «فيكتور هيجو» عن الشعر وضرورته في قوله :

«بعض الناس يقولون في أيامنا هذه ، إن زمن الشعر قد مضى وانقضى ، وكأني بهم يقولون لا ورود بعد اليوم فقد قضى الربيع نحبه ، ولا أوبة . وإن الشمس لن تشرق بعد ، وإنك لو جُلت في الفضاء لن تجد فراشة ، ولا ترى للقمر ضوءاً ، وإنك لن تسمع زأرة

الأسد، ولا صيحة النسر، وان القلب البشري قد مات» .

* * *

وعلى غرار هذه الكلمات الشعرية، جرت صيحة الشاعر الانجليزي الموهوب «برسي شيلي» في سفره البديع «دفاع عن الشعر»

* * *

ولقد صار لزاماً على الأرواح المرهفة في الشرق أن تضم أصواتها الى صيحات هؤلاء الشعراء، وترفرف بأجنحتها النورانية على دنيانا العاكفة على المادة القانعة بشرورها وسيئاتها .

وصار واجباً على الشاعر الذي نتحدث عنه وقد جاوز سنّ الأربعين بأشهر، أن يخرج دواوينه التي لم تطبع، وفيها قصائد فريدة معجبة، وعليه بعد ذلك أن يودّع نزعته الرومانتيكية الغالبة، ويهبط دنيا الناس، ناظراً الى المجتمع الذي يعجّ بالآلام، والمآسي والمظالم، وليَذكُرْ دائماً قوله في قصيدته «وحدتي» :

شقاء الناس يؤلمني فأُسعِدهُمْ بأشعاري
ونار الناس تحرقني ولا تحرقهم ناري

* * *

فليُقبِلْ إذنْ شاعرنا على العزف على قيثارة الحياة لا ليشجي الناس بأنغامه، ولا ليسعدهم بأشعاره فقط بل ليصورَ آلامهم وآمالهم ويثور على أسوائهم وأهوائهم، ويحمل على ظالميهم كما فعل في مثل قصيدته «السحابة المغترّة» التي رمز بها الى أحد الحكام المتعجرفين في زمن مضى — وما ريبَ أن شعره المطبوع منه وغير المطبوع سوف يلقى من أدباء الشرق ما هو جديرٌ به من إعزاز وتقدير .

القاهرة مصطفى عبد اللطيف السحرتي

العاشق الاسير

أنا الظامىء الهيمان في لجّة البحر ويذبل عمري كالسراج ولا أدري

وما بي قيود غير أني مكبل بحبي فمن لي بالخلاص من الأسر

أخال لوجدي ساعة العمر حقبة فإن مرّ يوم خلته مرّ كالدهر

جزيت على حبي عناء وغربةً فيا بئس ما ألقاه في الحب من أجر

فيارب رفقاً بي وخفف عقوبتي إذا كنت قد حُمّلت في الحب من وزر

على أن حبي عبقريٌّ مشرّف نبيل المعاني من عفاف ومن طهر

سيخلد حبي في الزمان وإنه ليصحبني أثناء عيشى وفي قبري !

كلية العلوم عفيفى محمود

لحن أرجنتينا

وحي فيلم أمريكي معروف

عشاقُكِ يا « أرجنتينا » طلعُوا بالخيلِ على الأفُقِ
ملأوا الوديانَ أراجينا من سحرِ الخضرةِ والشَّفَقِ

*

دَفعوا بالخيلِ الى النهرِ و « رِيو » باللحنِ تناديهمْ
طلعُوا يمشونَ على الزهرِ وعبيرُ نسائكِ هاديهِم

*

يهوونَ السيرَ على النغمِ يروونَ غريبَ أساطيركْ
ما اللهفةُ في رُوحي ودَمي إلاّ من وَحيِ قياثيركْ

*

ماذا أعددتِ لأشباهي من سحركِ يا « أرجنتينا » ؟
القمرُ الفضيُّ الزاهي حلمُ العشاقِ السارينا

*

زَفُّوا الأخبارَ الى « رِيتا » وأنا منطلقٌ بجوَادي
معشوقكِ يا « سنيوريتا » سيقيمُ الليلةَ في الوادي

*

نورٌ قد لاحَ لأنظاري كالنجمة في سفحِ التلِّ
كوخٌ قد حُفَّ بأشجارِ في حضنِ الزنبقِ والفلِّ

*

ودخلنا الجنةَ في الليلِ نختالُ ثناءً وفرادَى
والنسمةُ عاطرةَ الذيل تهفو بلحونِ « السرَنادا »

*

أيَّانَ أداعبُ « جيتاري » والحلوُ الفاتنُ يُصغي لي
وأغني أحلى أشعاري مِنْ قبلِ وَداعي ورَحيلي

القاهرة

يوسف حبرا

آراء

في العظماء والعظمة

لأميل لودفج

العظماء من الرجال إنما هم عظماء في الحجم والشكل . ذلك لأن لهم من الخامة والقدام ما للرجال العاديين مع فارق واحد هو زيادة الحد في كل محدة ومقدمة . فاذا روعيت النسبة كانوا هم والرجال العاديون بمنزلة سواء . (جوته)

كانوا أربعة يفترشون الرمال . وقد وقفوا عربتهم فوق كثيب من الرمل يشرف على الساحل . واستقرّ الرأي فيما بينهم أن يقضوا ساعة ينظرون الى الأمواج والى زرقة الماء والسماء قبل أن تغرب الشمس .

ومع الجلال الذي ينبعث من العناصر الصامتة حولهم فان الحادث الجلل ، حادث غروب الشمس ، قد كان له أبلغ الأثر في نفوسهم . حتى لقد نسي هؤلاء الأربعة المتنزهون - الى حين - صنوف كفاحهم . وألوان فشلهم ونجاحهم . وحتى لقد بدا لهم أن الحرب كانت بعيدة عن هذه الدنيا . وحتى لقد غاب عنهم جميعاً أن الماء الذي ينظرون اليه ، هو ماء المحيط الهادي الذي كان يحمل في تلك اللحظة مئات من السفن تحمل الجنود . وقد حفت بهم المكاره . فقد يبتلعها ويبتلعهم الماء بعد حين .

وصاح أحدهم — وكان تاجراً — قائلاً : أيها الإله القادر على كل شيء ! ثم وكز بكوعه الشابة التي تفترش الرمل الى جانبه . وكانت هذه المرأة عازفةً من العازفات « على الكمان » فرفعت يديها الى عينيها لتقيهما الضوء المتوهج . ضوء الشمس الغاربة . ثم قالت في رفق ولين : ما أبدع المنظر وما أجمله !

أما صاحبتها الكبرى — وهي مدرّسة — والتي كانت الى تلك اللحظة راقدة فوق صدر زميلتها ، فقد دارت دورة ونظرت الى المنظر كله نظرة المتطلع ، لا نظرة الخائف

ثم قالت بصوت جهوري : إنه ليس منظراً . إنما هي الطبيعة !

وقالت الصغرى : هذا يتوقف ... ثم أمسكت عن القول . ذلك لأنها لم تشأ أن تثير جدالاً . ولكن الأخرى — وكانت أكثر اصراراً — ولت وجهها نحو الفيلسوف الذي كان قد انتحى ناحية يلعب مع الطفل . والذي كان جبينه المستدير — وهو متوهج بطبيعته قد احتواه ضوء الشفق وقد رمى هو ما وسعه الجهد — جهد رجل تقدمت به السنّ صدفةً من الصدَف الى مكان بعيد . حتى يستطيع الطفل أن يجري ليعود بها .

ثم سألته قائلة : نريد رأيك يا أستاذ . ونريد أن تفتينا : أكل المناظر التي حولنا فن أم طبيعة ؟ فتبسم الفيلسوف وأدار وجهه نحو الجماعة وتكلم بصوت هادىء منغم وهو يقول : على أية حال انه شيء عظيم ! أليس كذلك ؟

ثم ساد سكون . ففكر التاجر لحظةً . ثم وقف كأنه يريد أن يبدأ توجيه الأسئلة . ثم جلس بين السائلة والمسئول فاجتمع الأربعة في حلقة أشبه بنصف الدائرة .

وجاء الطفل في تلك اللحظة وجلس على الرمل الى جانب أمه ليقارن بين صدفته الجديدة وبين ما اجتمع لديه من الصدف . وظلّ الطفل يهمهم فيما بينه وبين نفسه . بينما خلا الكبار الأربعة الى حديثهم الغريب .

قال التاجر : وهكذا أنت يا جون تسمي هذا المنظر منظراً عظيماً . فهل لك أن تقارن بين الشمس الغاربة وبين رجل من العظماء ؟

فقالت عازفة الكمان : بين الشمس الغاربة وبين رجل من العظماء الذين مضوا وارتحلوا . فالشمس عظيمة حتى في موتها .

قال الفيلسوف : وكذلك الشأن لدى عظماء الرجال . فالرجل الذي يموت موتة غير مشرفة يقيم الدليل على أنه لم يكن في حياته رجلاً عظيماً .

المدرّسة : إذاً فالأمر متوقف على الساعة الأخيرة ! إنك لن تستطيع أن تقنعني بهذا الرأي . أنظر الى « نابليون » مثلاً فان نهايته كانت نهاية تعسة .

الفيلسوف : بل العكس هو الصحيح . فان « نابليون » مات كما يموت البطل الحق، وقد مات كريماً كما عاش كريماً .

قالت المدرّسة : بل اصبر : ثم اصبر ! أتقول البطل ! فمن هو البطل؟ وهل الأبطال كلهم عظماء ؟ وهل تقول إنّ أولئك الذين يسميهم الناس أبطالاً هم عظماء . ولا عظماء سواهم؟ أمّا أنا فلست ضالعة مع الأبطال !

فقال التاجر وكان زوجها : رويدك يا دوللي ولا تخلطي بين الأشياء .

قالت الزوجة : إنّ « جاك » لينزعج عند ما أبدأ بقول ما أظنه حقّاً !

ثم جلجل صوت الطفل وهو يُري أمّه صدفةً ويقول لها انظري الى تلك الصدفة !

قالت أمّه وهي تنهاه : إلزم الصمت فان الأستاذ سينبئنا بأسراره . فضحك الفيلسوف وقال :

إني أعلن أولاً أن لا أسرار عندي . ثم اني أريد أن أعرف أيّة أسرار تريدين أن تكون مدار الحديث ؟

قال التاجر : إن آخر شيء كنّا نتحدث عنه هو الشمس

قالت الزوجة : بل نابليون !

وقالت عازفة الكمان : أظن الحديث كان يدور على العظمة .

قالت المدرّسة : هو كذلك ! فامض إذاً يا أستاذ وقل لنا ما هي العظمة ؟

فتبسم الفيلسوف وقال : يا فتاتي إنك تسألين كأنك واحد من مذيعي الراديو يسأل ما هو الفيتامين ؟ أو ما معنى كلمة زعيم بالأسبانية ؟

ولست أستطيع أن أضع تعريفاً للعظمة في جملة واحدة . فانّ العظمة كالجمال لا تستطيع جملة واحدة أن تحدّد معناه .

قالت دوللي متعجبة : ولماذا لا تستطيع أن تعرف الجمال ؟ إن تعريف الجمال ليس بالشيء العسير . ان الجمال هو ... إن الجمال هو ... ولكن دعنا من تعريف الجمال فكلنا نعرف وصفه !

فضحك القوم كلهم . ولزم الطفل أمّه كأنه يحميها لما رأى ما بها من حيرة واضطراب .

قالت العازفة : ان « جون على حق . فانّ التعريفات لا تقرب المعنى ولا تساعد على تقريبه . إنها تشلّ الفكر .

قال الفيلسوف : قد لا يصحّ هذا القول في مثل هذه الظواهر العظمى . والدليل على ذلك ـ إذا شئت ـ أن تراجعي دائرة من دوائر المعارف . وهناك تجدين في مثل لمح البصر قياساً لقطر الشمس . وقياساً لدرجة الحرارة فيها . وبياناً لبعدها من الأرض الى غير ذلك من عشرات الحقائق . ولكنك لن تجدي في واحدة من دوائر المعارف شيئاً يفيدك فيما نراه الآن بأعيننا .

وقد تجدين هناك حقائق عن عظماء الرجال . ومع هذا فان العظمة مختلفة النواحي متعددة الوجوه . فلها أشكال كثيرة . ولها ألوان كثيرة . وهي تستعصي على التعريف .

وقد شبّه « جوته »العبقرية مرّة بالآلة الحاسبة : يدار الذراع منها فتعطيك الجواب الصحيح . ولكن تلك الآلة لا تعرف لماذا جاءت بهذا الجواب . ولا كيف جاء هذا الجواب

قالت « دوللي » (وهي تريد أن توقع الفيلسوف في الفخ) : إذاً أنت ترى أنّ العظمة إنما هي شعور وحسّ ؟

قال الفيلسوف : إنّ العظمة هي أعظم من ذلك . وهي أقلّ من ذلك . ذلك لأنها توجد خارج دائرة حسّنا وشعورنا . وإنه لأمر محقق أنها قلّما تصل الى أعمق مواطن حسّنا وشعورنا .

قال التاجر : إذاً أنبئنا : من تسميه عظيماً ؟ نابليون ؟ أم هتلر ؟

الفيلسوف : من المؤكد أنّ نابليون عظيم. ومن المؤكد جدًّا أن هتلر ليس عظيماً.

دوللي : قد يكون الباعث لهذا الشعور عندنا أن هتلر عدونا . وأنه هو الذي شرّد أولادنا . ولكن ما هو دليلك على أن هتلر ليس عظيماً ؟ فنهض الفيلسوف وأخرج نظارته وبدأ يمسحها . ثم نظر الى الأفق البعيد كأنه يحاول أن يجمع أفكاره من بين أمواج المحيط . وكأنه يؤكد لنفسه جدية المسألة وجدية البحث فيها .

الفيلسوف : إن هتلر لا يستطيع الا الهدم والتخريب . وان الفكرة التي أوحت اليه أن يجعل شعباً واحداً سيداً على العالم كله لهي فكرة سخيفة .

وقد تملكت هتلر فكرة الرجل الجشع الذي يريد أن يفرض نفسه سيداً على العالم . وهو في ذلك كذلك المخلوق الضعيف الذي يريد أن يبدو أكبر مما هو على حقيقته فيظل

ينتفخ حتى يتمزق جلده . وحتى لا يبقى منه شيء .

التاجر : ألا تستطيع أن تقول أيضاً عن نابليون أنه إنما أراد التدمير والتخريب ؟

الفيلسوف : إن أول شيء صنعه نابليون ليلة نصره المؤزر هو تكوين لجنة من العلماء لوضع قانون جديد . يريد به إقامة الحدود . وصلاح أمور الناس . ولا يريد به الفساد .

ولا تزال قوانينه تلك بعد خمسين ومائة عام معمولاً بها في كثير من البلاد النائية .

قالت العازفة مستنكرة : إذن أنت تدعوه عظيماً من أجل قوانينه .

الفيلسوف : إنما أردت بقولي هذا أن أبين أن هتلر لا يخلف وراءه الا الفساد وسوء النظام . وانظري الى صورته . ثم انظري الى صورة نابليون تعرفين كل شيء .

دوللي : اذن أنت تؤمن بأن محيَّا الرجل يحدد مدى عظمته ؟

الفيلسوف : إنه يدل عليها . فالرأس والملامح لا تكذب أبداً .

فرأس نابليون . وكذلك رأس الاسكندر أو قيصر أو دانتي أو بيتهوفن قد تكون كافية عند العارف الخبير للكشف عن عبقرية أولئك العظماء .

التاجر : ولكن هب أن نابليون لم يقنن أي قانون : بل كان مدمراً هدّاماً كجنكيز خان أ كنت تقول أن آراء الرجل هي التي تقوده وتصنع منه رجلاً عظيماً ؟

— إنها ليست آراء الرجل وحدها . ولا القوانين وحدها . فاذا قصرنا وصف العظمة على أولئك الرجال الذين خلفوا أثراً دائماً استحال الأمر على كل سياسي أن يكون في زمرة العظماء . ذلك لأن كل الأعمال العظيمة التي يأتي بها السياسيون إنما هي عوار مستردة يوماً ما وكل أمبراطورياتهم الى انهيار . وكثيراً ما تكون قوانينهم عرضة للتغيير والتبديل . وكل آرائهم سوف تنقض أو تصبح مسائل عادية .

ثم ما هو مدى الزمن اللازم الذي يضمن بقاء حاكم من الحكام عظيماً بعد موته ؟ خمسون عاماً ؟ مائة من السنين أو الف ؟ إن العظمة لا علاقة لها بدوام عمل من الأعمال ذلك لأن الأعمال التي تبقى على الزمن ليس لها وجود .

العازفة : انظري الى البحر المحيط ! ألا ترينه جميلاً !

دوللي : نعم انه جميل ! ولكن ما عليك إلاَّ أن تنصتي لقول صاحبنا . وسترين انه سيقع في الفخ الذي نصبه لنفسه !

فضحك الفيلسوف وقال : لقد خرجت من الفخ مقدماً . وذلك باجتنابي للتعريفات !

التاجر: اذا اختفت أعمال الساسة . فاذا يبقى من أولئك الساسة ؟ ولماذا نسمي ملكاً من الملوك أو رئيساً من الرؤساء عظيماً بعد زوال الملك وفناء الجسد ؟

الزوجة : هذا حق لا ريب فيه ! ولماذا أيضاً نضفي لقب «العظيم» على حفنة من الملوك . ولا نضفي هذا اللقب على مئات من الملوك الآخرين . ما دام كل منهم قد شق طريقه في الحياة على طريقته . تدفعه الأنانية تارة ويدفعه الغرور تارةً أخرى ؟

الفيلسوف : ذلك لأن من سمَّيناهم عظماء قد تركوا في الدنيا دويّاً من أثر الشخصية القوية فهي التي غالبت الدهر وعاشت بعد موتهم . لا تلك المعارك التي كسبوها . ولا تلك البلاد التي دوَّخوها وفتحوها .

وإنه ليكون خليقاً بنا حقّاً أن نهزأ بهم وأن نمحو ذكراهم من نفوسنا لو قُدّر علينا أن نحارب اليوم خلفاءهم . .

فصرخت دوللي قائلة : هذا هو الرأي عندي !

العازفة : (في تحمس بالغ) : لن أومن بهذا الرأي أبداً ! .

الفيلسوف : ألا فانظري الى من يدافع عن أولئك الرجال أولي القوة والبأس : إنها فنانة فيها ظرف ورقَّة : وهي لا تربطها بأولئك الرجال أية رابطة . ولا تقوم بينها وبين أحد منهم أيَّة صلة . أتعرفين لماذا ؟ انها كامرأة تعجب بقوة الشخصية عند رجل من الرجال . فهي ترى في صور نابليون ما تنم عليه عيناه . وهي لا تزال تحفظ جملة أو جملتين من خطبه . وهي تذكر بضع حكايات من حكاياته . وهي تحس أن حياته كانت ملحمة كبرى كما قال هو عندما آذنت شمس حياته بالمغيب . وهي تنسى أن مليوناً من الرجال قد قتلوا في سبيل تنفيذ خططه . وهي تنسى أنه ترك فرنسا أصغر رقعة وأفقر شعباً منها يوم تسلم زمامها . وهو ما أثار حفيظة معاصريه وأحنقهم وأغاظهم .

ولكن هناك مائة من جلائل الأشياء تصور عظمة نابليون وتجعل منه بطلاً .

من تلك الأشياء الجليلة تلك الفكرة التي كانت تغازله وتلازمه، وهي فكرة «أوربا المتحدة» ومنها تلك الرؤى الجريئة. رؤى فتوحاته. ومنها سرعة البت فيما كان يعتزمه. ومنها الشجاعة التي خاض بها ستين معركة. كان هو قائدها بشخصه، ومنها اعتقاده بسعود نجمه ذلك الاعتقاد الذي قاده بزمامه عدداً من السنين. ومنها أسلوبه في كتب غرامه وحبه. ومنها لمحة العبقرية التي أوحت إليه أن ينزع التاج من يد « البابا » ويضعه على مفرقه بيده ومنها أشياء أخرى كثيرة.

***

وإننا لنميل الى التجاوز عن ذلك العنصر الذي خالط منه اللحم والدم. والذي لا تقرّه القوانين الخلقية. ذلك لأن رجلاً من هذا الطراز لا يمكن أن يلجم بلجام القواعد الخلقية كما لا يمكن أن تمسك أسداً في بيت من بيوت العناكب.

المدرّسة: ولماذا لا يسري هذا القول على هتلر؟

— ذلك لأنه لم تخرج من فيه أية كلمة. ولم تومض من أفقه أية ومضة تنبيء عن العظمة ولم يرو واحد من المعجبين به شيئاً من هذا عنه. ذلك لأنه كان ذا شخصية حقيرة تعسة. وذلك على العكس من نابليون فإنّ ألدّ أعدائه قد قالوا وأطالوا في موضوع عظمته فقد حكي عنه أنه لما مرَّ في يوم من أيام صيده بكوخ « شاتو بريان» — ذلك الشاعر الذي نقاده هو — قطع بيده غصناً من أغصان الغار ووضعه فوق باب عدوه ثم وضع على ذلك الغصن قفازه.

وقد حكي عنه انه لما حملت زوجته الثانية بوارث ملكه وولي عهده. وحان مولده قال الطبيب: اننا لا نستطيع انقاذ الأم إلاّ بتضحية المولود. فقال الأمبراطور من فوره: انقذوا الأم أولاً. تلك الأم التي انما تزوجها لتلد له هذا الوارث.

مثل هذه الدلالات تشهد بعظمة نابليون أكثر مما تشهد بها معاركه كلها. وذلك لصدورها من محارب وحاكم.

التاجر: ولكن هب أن « جنكيز خان » قد أوتي مثل تلك الرؤى. وكانت له آراء

كآراء نابليون وله حس كحسه . وشعور كشعوره في زمرة من كنت تسلكه ؟

الفيلسوف : إني لأحسب هذا من آيات سوء الحظ فان هذه السجايا لم ينقلها التاريخ إلينا . ولذلك فاننا لا نعرف عنه شيئاً — حتى ملامح وجهه — معرفة محقّقة .

وقد كان الاسكندر حصيفاً حكيماً الى حد كبير . ذلك لأنه كان يصحب معه في غزواته جيشاً من المؤرخين والقصاص . ولولا هذا لما سمي اسكندر الأكبر .

* * *

ولو كان قد أُتيح لقيصر أن يرى شريطاً من الأشرطة الحديثة للأخبار ورآها كيف تسجل للذراري المقبلة مشاهد رحلة لكبير الوزراء لجنّ جنونه من الحسد .

دوللي : أرأيت ! ان المسألة كلها قوامها الاذاعة والنشر .

الفيلسوف : بل إنه الصيت الذي يبقى على الزمن ! إن ما ينشر اليوم أو غداً يمكن أن يشتريه الناس كلهم . ولذلك فان عظمة هذه الأيام قد تنسى بعد بضع سنين .

ولكن إذا انقضت مائة أو ألف سنة ونشرت على الناس أسطورة رائعة منقولة من أوراق قد نال منها البلى . فعندئذٍ يتقرّر مصير الشهرة — عُلُوّاً وانخفاضاً — لذلك الرجل من الماضين .

التاجر : قد يحدد الانعطاف والميل مدى العظمة أكثر مما يحددها فعال العظيم وأعماله

الفيلسوف : إن الانعطاف ليس هو موجد العظمة . ولكنه يلفت أنظارنا الى منابع تلك العظمة كأنه القضيب الذي نسترشد به الى حيث يوجد المعدن النفيس .

والأمر يختلف بين الأشخاص . فمن الناس من أوتي جاذبية ولم يؤت عظمة . ولكنك لن تجد رجلاً عظيماً لم يؤت قدراً من الجاذبية . وكلمتا « الجاذبية » و « الشخصية » هما مسميان لمعنى واحد . وإذا أردت الدليل على هذا فاقرأ ما كتب عن « جيفرسون » (ثالث رئيس للولايات المتحدة الامريكية ١٧٤٣ — ١٨٢٦) أو لنكولن (الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة ١٨٠٩ — ١٨٦٥)

(للبحث بقية مبارك ابراهيم

راقصة البوليرو

طالع الناس فيك بدر السماءِ وفتون الاصباح والامساء
لك دَلٌّ الغصون باكرها الغيـ ـث فماست من نشوة الخيلاء
تتهادين مثلما يتهادى الطيف وهْناً في المقلة الكحلاء
أنت حلم الشباب يعبق بالطيـ ـب ودنيا تموج بالأضواء

*
* *

حمد الناس رقصةً لك جَلَّتْ وتسامت عن مدحة وثناء
كنت فيها أشهى مَن الأمل الحلـ ـو وأبهى من روضة غناء
للهوى لوعة الذبيح بعينيك ووجد الصادي لنغبة ماء
تتلوين كلما عصف الشوق بنار ، كالحية الرقطاء
ففتنت الورى بكل طريف من ضروب الاغواء والاغْراء
كنت حيناً كريشة تترامى في مهب الرياح بالظلماء
وفريق يراك عاصفة هو جاء تطوي مطارف الجوزاء
واذا رقت اللحون وبُحَّتْ غمغمات الأبواق من اعياء
سرت سير المنهوك يقعده الجهـ ـد وتحدو به طيوف الرجاء
كلما همَّ بالمسير ثنته عن مراد مرارة الأدواء

فترامى على الثرى كنزيف صرعته حزافة الصهباء

*
* *

أي شيء أبقيت للشعراء جلَّ هذا الاحسان عن اطراء
يا سماء الاحسان في كل عين كيف يوفي المديح حق السماء
عجز النطق أن يفي ببيان عن خفايا هواجس الأهواء
وأصبت المعنى الدقيق من النفس بوحي الايماء والاغواء
كم معانٍ للناظرين تبدت وتراءت في فتنة الأعضاء
وكأني أرى الطبيعة في جفنيك ماست بالحلة الخضراء
لست أدري وقد أتيت جليلا أي نار أججت في الأحشاء
هجت ميْت الهوى وأيقظت وجداً مستكنّاً بالدمعة الخرساء
ورسمت الأهواء في خفقة الصدر وخافي الأحلام بالايماء
وبوحي الجفون حققت نغماً لمعان عويصة في الاداء

*
* *

طالع الناس فيك بدر السماء وفتون الاصباح والامساء

دمشق عرنان مردم بك



صور شتى

فى شرق اسبانيا

قضينا خمسة عشر يوماً في اجتياز هضبة أسبانيا الوسطى (المزيتا) من شمالها الى جنوبها صاعدين سفوح سلاسل جبالها التي تعترض الهضبة من الشرق إلى الغرب كحواجز تقسمها إلى أحواض تمتد فيها وديان الأنهار التي تنحدر من سفوحها وتصب شرقاً في البحر الأبيض المتوسط كنهر الأبرو الذي يروي مدينة سراجوزا في الشمال ، ونهر التاجه الذي تقع عليه العاصمة (مدريد) في الوسط ونهر الوادي الكبير في الجنوب الذي يخترق سهول الأندلس [1] : تكبدنا مشاق صعود تلك الجبال لالتواء طرقها وشدة انحدارها مع كثرة تعاريجها وانحناءاتها الحادة التي تبلغ ست انحناءات على سفح الجبل الواحد ، وخاصة في الشمال ، مما يعرّض أمهر السائقين لانقلاب سياراتهم إذا تهاونوا في حذرهم هنيهة كما تعرضهم لأخطار أجسم عاقبة أثناء هبوطهم وديانها إذا لم يحكموا قيادة سياراتهم ويهدئوا من سرعتها.

ومع تلك المشاق التي لم نتعوّدها في ديارنا المصرية — التي أنعم الله عليها بانبساط سطحها - فقد اطمأننا لرباطة جأش سائقنا (ماريانو) وحسن قيادته واتزانه في سرعته ، وساعد على ذلك عناية الاسبانيين بتعبيد طرقهم الجبلية المتسعة ورصفها رصفاً جيداً ييسر للسائحين الراحة التامة في عبورها علاوة على المناظر الجبلية الطبيعية المتنوعة التي تجذب نظرهم .

استغرق اختراق الهضبة بالسيارة ما ينيف على الخمسين ساعة قطعناها على فترات طالت أو قصرت . حسب بعد المدن الاسبانية — التي نزلنا بها — وقربها ابتداء من مدينة

(١) الاندلس تعريب لونداوسيا أي بلاد الوندال نسبة الى الشعب الاسباني الذي زحف على اسبانيا من الشمال واستقر نهائياً في جنوب اسبانيا وشمال افريقيا ومد سيادته على حوض البحر المتوسط الغربي

ناربون على الحدود الفرنسية الاسبانية حتى غرناطة في أقصى الجنوب بالقرب من جبل طارق .

ولما كان موعد عودة الباخرة التي ستقلنا من مرسيليا إلى مصر لم يبق عليه سوى خمسة أيام فقط فقد اضطررنا للعودة سريعاً ، ولم تتح لنا الفرصة لزيارة بعض المدن الأثرية الهامة في الجنوب كأشبيلية ومالقة والميرية على ساحل أسبانيا الجنوبي اكتفاء بما زرناه من قبل .

وكم كنا نود زيارة الجيرالدا والكزار — (١١٧٢ — ٩٥) التي أسست بأشبيلية أثر فتح العرب لها في عهد الموحدين،كما أسسوا بها مسجداً كبيراً لا تزال مئذنته قائمة تعرف في أيامنا باسم برج الجيرالدا (برج لعبة الهواء) بها زخارف على شكل بوائك صغيرة بارزة تشبه زخارف العمارة القوطية وتؤذن بقرب ظهورها وجعل المهندس ارتفاع هذا البرج ١٧٢ قدماً تتوّجه كرة من حديد مذهبة — قدرت قيمتها بمائة الف دينار — وضعت هذه الكرة فوق قطب زنته وحده عشرة قناطير .

أما باقي المسجد فقد تحوّل الى كاتدرائية شاهقة البنيان، مدببة الأعمدة دفن بها كثير من ملوك اسبانيا وعلى رأسهم الملك فرديناند في تابوت من الفضة نقش عليه في دائرة مذهبة صورته على جواده وأمامه ملك العرب يقدم له مفاتيح المدينة وإلى يمينه قبر زوجته وإلى يساره قبر ابنته التي هدمت المسجد وعلى مقربة منه قبر خرستوف كولمبس الذي اكتشف أمريكا . وعلى مقربة من الكاتدرائية القصر (الكازار) وهو كقصر الحمراء في الفخامة والضخامة الى جانب الروعة والجمال والثروة الهندسية فتحيط به حدائق غناء تزخر بنافورات المياه وهو لا يزال كما كان وقت أن ترك العرب الاندلس ، كما لا يزال أحد أجنحة القصر الكبير قصر الجنرال فرانكو حينما يزور أشبيلية . وتعد الحدائق المرتفعة لنزهة الصيف والحدائق المنخفضة بها حمام الحريم قيل إنه كان يستحم بها من الجواري في الدفعة الواحدة مائة جارية .

عرجنا نحو الشرق هابطين المزيتا لاتباع الطريق الساحلي الذي يمتد وساحل البحر الأبيض المتوسط من أقصى الجنوب الى الحدود الاسبانية الفرنسية ، وهو أقصر

الطرق نحو الشمال وأحسنها وأبدعها منظراً ، وأكثرها تنوعاً إذ يجمع بين المناظر البحرية من جهة والسهلية والجبلية من جهة أخرى . وقد تمتعنا بعض الوقت بجو صحو مشمس ذكرنا بمناخ مصر ، في الأوقات الذي سافرنا بها نهاراً حيث كانت درجة الحرارة مناسبة لتأثير البحر .

وكان ذلك الطريق الساحلي ملازماً للساحل مباشرة ملازمة الظل لصاحبه اللهم إلا في القليل النادر حيث كان يبتعد قليلاً عنه في المواضع التي تقترب منه حافة الهضبة .

مررنا بمدن وموانىء هذا الساحل الهامة مروراً خاطفاً يربطها ذلك الطريق الساحلي فتبدو ليلاً كأنها لآلىء نظمت في عقد من جمان كمرسيه واليكانت وفلنسيه وتراجونه وبرشلونه وجيرونا كمن يستعرض صوراً في كتاب ، ويتوقف قليلاً أمام بعضها ليتحقق من معالمها ، ويستمتع بها على عجل لأخذ فكرة عابرة عنها . وطوينا البعض الآخر بسيارتنا طياً لضيق الوقت على عكس ما اتبعناه في المدن الاسبانية التي تتوسط الهضبة حيث سنحت الفرصة للاقامة ببعضها أربعة أيام أو خمسة تمكنا خلالها من رؤية معظم معالمها والوقوف على حياتها والاندماج مع سكانها على اختلاف طبقاتهم .

هكذا قطعنا ذلك الطريق الساحلي في ثلاثة أيام متخلفين في بعض مدنها للتزود من الزاد أيسره ثم استئناف السير أو النوم في البعض الآخر ورؤية بعض معالمها وآثارها كما سترى .

تركنا غرناطة في منتصف ليل اليوم السابع من أغسطس ١٩٤٧ بعد انقضاء يومين متواليين طفنا خلالها بقصور الحمراء وأبهائها مفخرة العالم الاسلامي وسجلاً حافلاً لفنونهم المعمارية والزخرفية التي لامثيل لها في أي جزء من أنحاء العالم اليوم . هبطنا الهضبة في بهيم الليل متجهين صوب الساحل للوصول الى مرسيه ظهر اليوم التالي ، وما أن أشرفنا عليها حتى تذكرت مسجد أبي العباس المرسي بالاسكندرية الذي افتتحه جلالة مولانا الملك في صيف عام ١٩٤٥ ، وينسب صاحب هذا المسجد — أحمد بن عمر محمد الأنصاري المرسي — الى مدينة مرسيه ، وليس هذا بمستغرب ، إذ ابتدأت علاقة مرسيه بمصر منذ بدء الفتح العربي لإسبانيا حيث كانوا يقاتلون جنباً الى جنب مع جند الشام . ومنعاً من حدوث

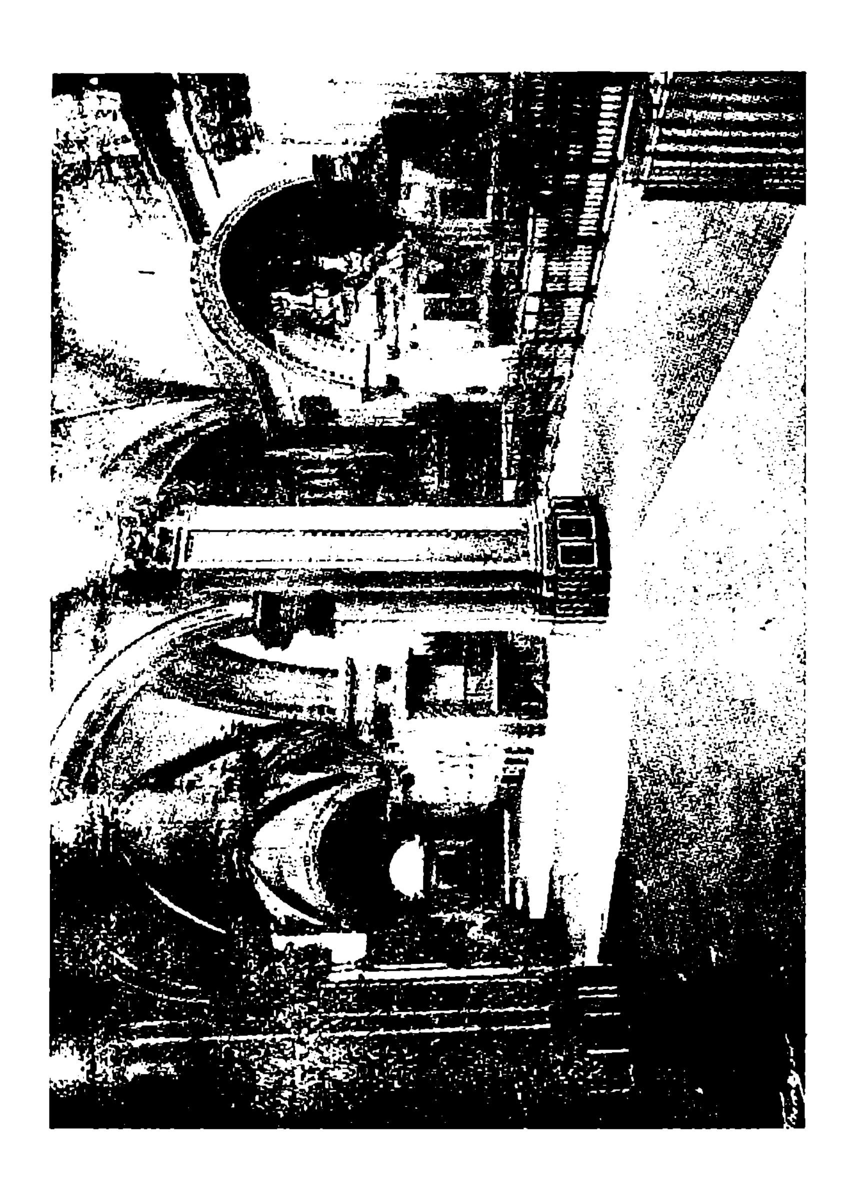
اضطرابات بين طوائف الجند الإسلامية اقتطع كل طائفة منها مدناً بعيدة عن الأخرى وكانت مرسية من نصيب الجنود المصرية التي سموها « مصر »

اخترقنا سهول مقاطعة مرسيه الخصبة الغنية بخيراتها النباتية كالحبوب والفاكهة وخاصة البرتقال والبرقوق ويرجع الفضل في نهضتها الزراعية الى مشروعات العرب المائية كالري والصرف المتبعة الآن ، فأحالت هذه المشروعات تلك السهول الى جنات وارفة ذات أكمام زاهرة يانعة

ويتوسط هذا السهل الخصب مدينة مرسيه نفسها ، عاصمة مقاطعة مرسيه التي تبعد عن ساحل البحر الابيض بخمسة وعشرين ميلاً اجتزنا شوارعها العريضة المستقيمة الحافلة بالأشجار حتى وصلنا الى فندق فكتوريا الذي يعد على جانب عظيم من الفخامة ، وطاب إلينا النزول فيه للإستراحة به وكان ذلك قبيل الظهر ، وإن نسيت لا أنس ذلك الرياش الفاخر الناعم الذي زوّد به الفندق ، فحشيت وسائده بريش النعام الذي لم تطأه أجسادنا أو جسدي أنا على الأقل من قبل ولا تتصوَّر شعوري عندما وجدت المكان الذي رقدت فيه قد هبط عن باقي الوسادة وأخذتني سنة من النوم كانت أسعد أوقات حياتي وخاصة بعد سفر طويل .

بعد تناول الغذاء ، أتيحت لنا فرصة زيارة كتدرائيتها التي بنيت في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر على الطراز القوطي ما عدا بعض زيادات أضيفت إليها في عصر النهضة كبرج الأجراس الذي يرتفع الى ٤٨٠ قدماً كما أضيفت الى واجهتها واجهة كورنثية في القرن الثامن عشر .

وفي الغروب اجتزنا باقي سهول مرسيه الشمالية الذي قطعتها جيوش المسلمين في عهد طارق بن زياد للاستيلاء على ولاية « تدمير » التي كانت تسمى حينئذٍ . وشهدت هذه السهول أعظم معركة انتصر فيها المسلمون على القائد الاسباني وقتل معظم رجاله . وأبى ذلك القائد التسليم إلاَّ بعد الحصول على شروط حسنة . فدبر في حيلة عرضِ فيها النساء بملابس الجند على الأسوار للتغرير بالمسلمين . وخضعت ولاية مرسيه للحكم العربي في قرطبة ثم للامراء المسلمين في المريه وطليطلة وأشبيلية . وأخيراً استولى عليها الموحدون ١١٧٢



حتى أغار الفونسو على حكم الزيريين بها في نهاية القرن الثالث وضمها الى مملكة كاستيل .

***

لم يستغرق السفر الى اليكانت وقتاً طويلاً لا يزيد على أربع ساعات . فوصلنا اليها في منتصف الليل حينما استقبلنا علية المدينة وعظماؤها أمام أحد أنديتها البحرية التي تشبه «الكازينور» بالاسكندرية ، ولم نمكث بهذه المدينة سوى ساعتين تناولنا خلالهما طعام العشاء ، وقد مدت على الموائد الى جانب ما تشتهي الأنفس مما لذ وطاب ، أحسن ما أخرجته اليكانت من أنواع خمورها الحلية المعتقة المستخرجة من كرومها التي تحتل ٤٠ ٪ من المساحة المنزرعة . ولا يصدر منها إلا أقلها نوعاً إلى أوربا وخاصة فرنسا

وقد يظن القارىء أننا قضينا ليلة «حمراء» دارت فيها رؤوسنا مع الكؤوس ، بل احتفظنا بتقاليدنا الاسلامية ، وقد زاد من دهشة الاسبانيين أن بعضنا بل الكثير منا لا يشرب الدخان . وقد استغل (المدخنون) منا هذه الفرصة وأقبلوا على سيجار هافانا بنهم الذي أهدي الينا في غير مناسبة واحدة

أبى محافظ المدينة وزملاؤه إلا أن يكرموا وفادتنا بأجلى معاني الاكرام وان يقضي معنا أطول وقت ممكن وأن نسير معه بعد العشاء على كورنيش المدينة الى نادي الضباط للتجذيف على مقربة من الكازينور» فسرنا على الأقدام تحقيقاً للمثل العامي «أتعشَّ واتمشَّ» .

وخلا استقبال الأسبانيون لنا في هذه المرة من كل المظاهر الرسمية واندمج محافظ المدينة وأعيانها معنا يضحكون ويغنون ويرقصون في حلقات دائرية غير عابئين بالمارَّة ولا بنظراتهم التي غصت بها الطريق في ذلك الوقت المتأخر طلباً لنسيم عليل يروِّحون به عن أنفسهم من حرِّ النهار ، وبالرغم من أن اليكانت مدينة ساحلية فانها كانت ولا تزال كغيرها من المدن الساحلية محرومة من الهواء البارد الذي نعرفه في مصر اللهمَّ إلاَّ في القليل النادر ، ويظهر أن سبب ذلك يرجع الى أن الرياح الشمالية التي تلطف حرارتها تسير موازية لساحل أسبانيا الشرقي ولا تتوغل داخله مما جعل الاسبانيين يلجأون الى الساحل دائماً طلباً للهواء البارد في تلك الساعات المتأخرة بعد منتصف الليل .

وفي صباح اليوم الثامن أشرفنا على سهول فلنسية فاخترقنا حدائقها الغناء المشهورة بأكواخها الناصعة البياض، تحيط بها أشجار الصنوبر الداكن الخضرة والنفض الكثيف التيجان مع نخيل في غاية الجمال. تشرف هذه الأكواخ على منحدرات ساحلية خضراء أحالتها مشاريع العرب المائية في القرون الوسطى الى مناطق تعدُّ من أعظم جهات العالم خصباً. وتدين فلنسيا في نهضتها الزراعية إلى العرب الذين ظلّوا حكاماً عليها زهاء الخمسة قرون حتى القرن الثالث عشر.

ولما كانت الأراضي الزراعية محدودة الانتاج لا تتفق والتقدم الاجتماعي الحالي لزيادة عدد السكان زيادة مطردة فقد هاجر عدد كبير من الريف الى المدن حيث الحياة أكثر رفاهية ونعيماً والمدينة الحديثة أكثر سحراً وجاذبية من جمال الريف الطبيعي.

انتهت الحكومة الجمهورية الحالية الى ذلك الخطر الذي يهدّد كيان الريف الأسباني فأخذت تعالج هذه المشكلة بشتى الوسائل فسارعت الى اصلاح مساحات كثيرة من الأراضي البكر بإقامة المشاريع المائية كالترع والمصارف وتشييد مزارع نموذجية مزوّدة بالمساكن الصحية الصالحة للسكن ووزعت تلك الأراضي على الفلاحين.

ولما لم يحقق ذلك المشروع الذي تشرف عليه الحكومة الغرض المنشود منه، ولم يوقف تيارات هجرة الفلاحين الى المدن للاشتغال بالصناعة فقد لجأت الحكومة الى مشروعات أوسع نطاقاً بإيجاد مؤسسة وطنية لتوزيع الأراضي ونزع ملكيتها والانتفاع بها على مزارعين ذي خبرة لإدارتها وكفاية استثمارها على أن تؤول ملكيتها في النهاية لهم نظير تقسيط ثمنها على آجال بعيدة المدى تبلغ الخمسة والعشرين عاماً بأرباح لا تزيد عن ٣٪

وقد وجد الفلاحون كل التسهيلات اللازمة للأراضي من هذه المؤسسة لإدارة الأراضي كشق الترع والمصارف ومدهم بالإرشادات الزراعية ومنحهم قروضاً تعينهم على اصلاحها فسارعوا الى تلبية رغبتها وتنافسوا في اقتناء هذه الإقطاعيات الزراعية حتى بلغ عددهم ١٣٫٢١٣ مالك دفعوا ما عليهم من الأرض قبل الموعد المحدد بوقت كثير وبلغ جملة ثمن ما حصلت عليه المؤسسة الوطنية ثمناً للاراضي المباعة ٣٠٠ مليون بزيتا. (الجنيه المصري = ٤٤ بزيتا)

وأهم آثارها كتدرائيتها التي شيدت على أنقاض المسجد الكبير ويرتفع برجها الى ٦٤ متراً في عنان السماء — وتشرف طنفه على أجمل ما حبته الطبيعة من المناظر الخلابة لمدينة وما يحيط بها من الحدائق الدائمة الخضرة والزهور لدوام فصل الربيع طول العام.

وقد بنيت الكاتدرائية على الطراز القوطي في القرن الرابع عشر. قد غيرت الاصلاحات والزيادات التي أضيفت إليها من طرازها القديم ـ ولم تحتفظ بحالتها القديمة سوى قبتها ـ أما باقي الكاتدرائية فطرازه من طراز الباروك، وأضيفت إلى أركانها الأربعة معابد صغيرة تعد من أروع ما أنتجه الفنانون الأسبانيون أمثال جويا ولانوس. وكانت فلنسية منذ القرن الخامس عشر أهم مراكز الانتاج الفني الأسباني فتطورت فيها الفنون على يد الرسامين جاكومارت وفينشيو ولانوس ويوحنا وريالتا واسبينوزا وأورندينا وغيرهم، كما كان بها مدرسة للنحت وأشهر أساتذتها مينوزا وفرجارا وستيف وجميعهم مثلت روائعهم في كنائس فلنسية ويضم متحفها نماذج تمثل تطور فن فلنسية منذ بدايته.

* * *

ورث الفلنسيون من العرب حبهم للعلم ونبوغهم فيه فأنشئت لهم جامعة في مدينة فلنسية نفسها تضم كليات العلوم والطب والحقوق والفلسفة (الآداب) وقد تمكنا من زيارة الكليتين الأخيرتين وتضم هذه الجامعة نحو ثلاثة آلاف نسمة لايتعدى عدد الآنسات بها عن الثمن.

وامتاز أهل فلنسية بالمرح وكثرة الحفلات والأعياد ولم تمض أعوام كثيرة فيها يوم واحد دون أن يحتفل فيه بعيد من الأعياد في شارع أو أكثر — وان قلت هذه الأعياد اليوم فإن الفلنسيون ينتهزون أعياد القديس يوسف والأعياد التي تقام في أواخر يوليه وأوائل أغسطس كحفلات معركة الزهور التي كان للفلنسيين قصب السبق في ادخالها الى اسبانيا، ويتفننون في شتى أنواع المرح والحبور الذي تأصل في دمهم من زمن بعيد. وقد ظهر ذلك في الحفل الذي أقامه لنا المحافظ في مصيف بلدية المدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

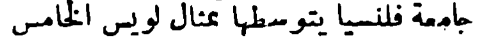
وفي الصباح الباكر من اليوم التاسع وقفت السيارة أمام أحد مستودعات البنزين في

برشلونه للتزود منها استعداداً للسفر إلى الحدود الاسبانية . انشغلت صاحبة المشروع في بيع بعض طعام الافطار للمارة فتأخرت قليلاً عن إجابة طلبنا . وتبودلت مناقشة حادة بين موظفي وزارة الخارجية الاسبانية المرافقين لنا وبين صاحبة البنزين علا فيها صوتها دون مبالاة لشخصياتهم الرسمية ، وغير خائفة من المتربعين على كراسي الحكم . وان دلَّ هذا على شيء فانما يدل على أن الشعب الاسباني يتمتع بكامل حريته للتعبير عما يراه دون أي ضغط أو نفوذ خارجي . وقد تبين لنا من هذا الحادث ومما لمسناه بأنفسنا في غير هذه المناسبة على أن حكم الدولة وعلى رأسها الجنرال فرانكو حكم دكتاتوري صالح مستنير — عكس ما نفهمه من معاني الدكتتورية كالنازية والفاشية وغيرها — ولذلك كان الجنرال فرانكو محبوباً بين قومه لما لمسه من جهوده الجبارة وحكمته وحسن سياسته في تجنب البلاد من ويلات الحرب العالمية الأخيرة وتفرغه للنهوض بها في خطوات سريعة في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وخاصة بعد الحرب الاسبانية الأهلية المنتهية عام ١٩٣٦ التي أوقفت سير الحياة وكل تقدم فيها .

ومما يدل على حكمه المستنير ، وبعد نظره ، وعدم استئثاره بالسلطة واحترامه للحريات الشخصية ، ومسايرته لرغبات الشعب ، أنه استهلَّ عهده باعترافه بأن اسبانيا كاثوليكية وأنها ملكية ولذلك أعاد جميع الحقوق المدنية إلى الملك الفونس الثالث عشر وسمح لابن ولي عهده «دنجوان» المطالب بعرش اسبانيا بالتعلم بمدارس اسبانيا — بل ذهب الى أبعد من ذلك فأراد أن يقوم حكمه على رغبة صادقة من الشعب فأجرى في عام ١٩٤٧ استفتاء عامًّا محايداً فاز فيه بأغلبية ٨٢ ٪ ممن لهم حق الاقتراع و ٩٢ ٪ ممن تقدموا فعلاً لاعطاء أصواتهم بالاعتراف كزعيم للشعب الاسباني مدة حياته ثم يخلفه على عرشها اسباني كاثوليكي من دم ملكي يختاره مجلس البلاط الملكي بأغلبية ثلثي أصواته .

هكذا غادرنا اسبانيا أثناء تقرير الشعب مصيره .

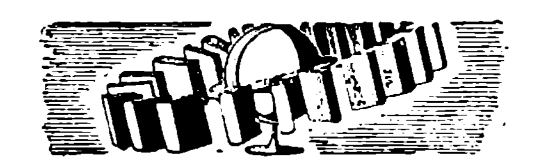
محمد رجب البيلي
دبلوم في الآثار الاسلامية



جامعة فلنسيا يتوسطها تمثال لويس الخامس



نساء فلنسية بملابسهن الوطنية



مكتبة المقتطف

كتابان وكتابان

بقلم حبيب الزحلاوي

(١) كتابان صدرا في شهر واحد ، طبع الأول في بيروت ، والثاني في القاهرة ، وقد اتجه مؤلفاهما الفاضلان اتجاهاً واحداً ، وصوّبا جهودهما صوباً واحداً ، ودعيا الشعوب الشرقية الى اليقظة والانتباه ، ووصفا كيف كان حالها في الماضي ، وقدّرا كيف ستصبح عليه إذا بقيت راضخة لحكم الأمر الواقع ، وذكرا ببيان واضح الوسائل التي توسلت بها تلك الحكومات المغتصبة المستعمرة وبأسلوب لا لبس فيه ولا عوَج الذرائع التي استحدثتها لابقاء سلطانها مبسوط الظل على القارات الشرقية الشاسعة وقطانها الأجراء ، وأهابا بأقوامهما أن استيقظوا وتدبروا مصائركم ، واعملوا الى دفع شرور أولئك الأقوام السلاّبين النهّابين عنكم ، ألاّ يكون مبعث هذا الاتفاق في الرأي والغرض والدعوة وفي الزمن أيضاً هو الوعي القومي ويقظة النفس ؟

(٢) يستمد الكاتب المصلح وحيه من شعوره المرهف ومن آلام موضوعية تتحوّل الى آلام ذاتية تفعل في النفس فعل الأولى ، فمن هذه الآلام تأثرت نفس الدكتور قسطنطين زريق وكيل رئيس الجامعة الأميركية في بيروت وأحست بالنكبة التي حلّت بالأمم العربية في فلسطين، فكتب في « معنى النكبة » كتيباً صغير الحجم ، كبير الفائدة . وهكذا أيضاً أحست نفس الأستاذ أحمد رمزي بك القنصل العام ثم ممثل مصر السياسي بسوريا ولبنان بالواقع من جور الاستعمار الظاهر ، وبالباطن من أسرار سياسة المستعمرين فكتب متخذاً من « الاستعمار الفرنسي في شمال افريقية » كتاباً كبير الحجم كبير الفائدة ، دعا فيه مثل دعوة زميله زريق ، وأهاب بقومه مثل ما أهاب الأول بقومه . ألا يكون هذا أن الكاتبين المصلحين رمزي وزريق قد استمدا وحيهما الاصلاحي من نفسيهما الحساسة ومن نموس أهالي بيئتهما الحساسة أيضاً ، وألا يكون مصدر هذا الاحساس هو يقظة النفس والوعي القومي ؟

(٣) لا يخلو مجلس من المجالس الاجتماعية ، خاصة كانت أو عامة ، من حديث عن حالنا الحاضر الكدر بالنسبة لغيرنا من الأمم التي تواكب قافلة الحياة ، وعن حالنا بالنسبة للحكومات التي تقف عثرة في سبيل تقدمنا ، ولا نسمع من هاتيك الأحاديث كلمة رضا واحدة عن أمرٍ واحد من أمورنا الاجتماعية ، بل بالعكس نسمع التذمر والشكوى والنقد والملامة بل السخط على أعمال رجالنا العاملين مبعثه الاستحثاث والاستعجال للسير قدماً في موكب حياة العصر ، ولو تدبرنا أعمال رجالنا العاملين لوجدنا فيها الخير والبركة بالنسبة الى ما كنا نستجديه من الحكام الأغراب عنا ، وبالنسبة الى أطماعنا . وقد كانت محدودة بحدود رضا المخلوق الخامل واستكانة الذليل القانع ، ولكن طبيعة نفسنا وقد أيقظتها الحرب تتطلب السرعة . ونحيزة وعينا وقد تحسست طريق الحياة تنشد بلوغ الأرب بأقرب مدى ، وأقصر سبيل

لذلك أقول وأؤكد للذين لا يؤمنون بتطور الأمم الشرقية ، والى الذين ينكرون عليها نهضتها ، أن مبعث حكمكم الجائر ، إنما هو حكم الشيوخ على الشباب ، وحكم الجيل الذي انقضت مهمته في الحياة على جيل يحمل رسالته لحياة جديدة وعصر جديد بوسائل غير وسائلكم وسلاح غير سلاحكم .

(٤) إتخذ رمزي بك من الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية وسيلة لإيقافنا على أصل الاستعمار ، وأطواره ، ومشاكله ، وتوسعه الجارف ، وشرح مبادىء المستعمرين وفلسفتهم الاستعمارية الحديثة ، وسرد طائفة من أخبار وأعمالٍ وقعت تحت سمعنا وبصرنا وحسنا في أمسنا القريب ويومنا الحاضر في الجزائر ومراكش وأورد الاحصائيات التي تظهر حال المستعمَر المسكين الذي يعيش مكتفياً بالفتات بالنسبة لحال المستعمِر السيد الذي يمتص دم الشرقي ولا يرتوي . ثم ذكر بجرأة وصدق الأسباب البعيدة والقريبة لانحطاط الشعوب الشرقية ، وقد تبسَّط في شرح ما حلَّ بالمراكشيين والجزائريين عن يد الفرنسيين شرحاً يدعو الى التساؤل هل للفرنسويين أفئدة وإحساسات مثل ما لكل الناس وهل لهم شعور انساني يعادل شعور الانسان المهذب ؟!!

وأوضح الكثير من المنافسات الاستعمارية ، وتدخل بعض الدول الكبيرة في شؤوننا وتغلغل النفوذ الأجنبي في مصالحنا وقال « إن كل دراسة لشؤون العالم بقصد الكفاح في سبيل تحرير الشعوب . يجب أن يسبقها تعرفٍ التوسع الاستعماري وأثره وأهميته ومداه . لكي نستخلص القواعد الأولية التي تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة ، وهي التي تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوربة لكي يركز على أساس منطقي

معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال، وما ترجو الوصول اليه من أهداف حتى تحرر نهائيًّا. وبعد أن استعرض الموقف الدولي الحاضر، وذكر المسكنات والمخدرات التي يخدر بها الغرب أعصاب الشرق قال «ليس لدينا للآن دليل قاطع على توجه العالم نحو المثل العليا، بل إن موقف مجلس الأمن إزاء قضايا مصر وفلسطين واندونيسيا ليس مشجعاً، ولعلَّ انقسام الكرة الأرضية الى معسكرين من نتائج هذه الرجعية القائمة في أنحاء الدنيا» ولكن على الشعوب مهما كانت الظروف قائمة أن تشقّ طريقها الى حياة النور، وأن تعمل لتتغلب على المصاعب القائمة حتى تفرض شخصيتها وآمالها وأهدافها على العصر الذي تعيش فيه.

ثم قال: «سيكون طريقنا وعراً أمامنا، والعقبات صعبة في صعودنا نحو الحرّية والعدالة، ولكننا لن نرجع عن طلب معاملة الند للند، وأن يعتبرنا العالم مجموعاً حيًّا راقياً، علك من حق الرعية والمعاملة ما يملكه أي مجموع أوروبي راقٍ يسير نحو التطور. إننا نفضل أن نفنى جميعاً من أن يحاول العالم إرضائنا بالعرض دون الجوهر أو يلهينا بالأقوال دون الحقائق. إننا نأخذ عقلية وأساليب أوربا لنتغلب على جبروت أوربا».

(٥) وقف الدكتور قسطنطين زريق من القضية الفلسطينية وقفة الطبيب وقد تكشفت له أعراض الداء فرأى أن الأمم العربية منيت على يد اليهود والاميركان والروس والانجليز بكارثة لامثيل لها في تاريخ العالم، وقال عنها أنها «نكبة» بكل ما في هذه الكلمة من معنى «ومحنة» من أشد ما ابتلي به العرب في تاريخهم «وقضية» لم يعرف التاريخ أعدل منها وأقرب الى الحق «واستعمار» صهيوني غايته إبدال وطن بوطن وإفناء قوم ليحل محلهم قوم آخرون. ثم أخذ يشرح معنى النكبة وفداحتها، ويذكر واجب المفكر، والمعالجة القريبة، والحل السياسي، والصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين، حلاًّ هادئاً معقولاً وقد ابتعد بالقارىء عن مواطن العاطفة ومثارات الوجدان، وارتأى آراء غاية في الاعتدال بعد ان استعرض جميع العوامل البعيدة والقريبة، الداخلية والخارجية أيضاً. قال: لا بد لرد الخطر الصهيوني من وضع قواعد لجهاد طويل الأمد تقوم على خمسة أركان (١) الاحساس بالخطر وارادة الكفاح (٢) التعبئة العامة (٣) التوحيد بين جهود الدول العربية (٤) اشتراك القوى الشعبية. ويرى أيضاً أن الغلبة لاتكتب للعرب إلاَّ إذا سلكوا سبيلها القويم، وسبيلها تبدل أساسي في الوضع العربي، وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا كلها، وان ارادة الكفاح لاتصد إلاَّ بارادة مثلها أو أقوى منها، ووحدة الولاء لاتقهر إلاَّ بوحدة أتم وولاء أشد، وان لا مهرب من اتحاد عربي ينتظم في دولة اتحادية

توحد فيهم سياستهم الخارجية والاقتصادية [١] وتطور اقتصادي واجتماعي وفكري، ثم كيان قومي متحد تقدمي»

ليس وضع القواعد الاساسية في رأيي، متطرفة كانت أو معتدلة هي كل شيء في كل عمل، إنما يجب لنجاح القواعد أن يكون واضعوها قادة حقيقيين وزعماء أصليين، أي أن نفوسهم مفطورة على التقدم، مطبوعة على قلب الأوضاع العتيقة البالية وإقامة أوضاع جديدة تساير روح العصر في كل شيء.

ثم وضع الدكتور زريق بعض قواعد للتقدم توائم أغراض البيئة والوسط الذي يعيش فيه يصلح بعضها لأكثر الأقطار العربية لأن مصر أدركت أكثرها وهي ما برحت مطردة التقدم وهي (١) اقتباس الآلة واستخدامها (٢) فصل الدولة عن التنظيم الديني (٣) تدريب العقل وتنظيمه بالاقبال على العلوم الوضعية والتجريبية (٤) فتح الصدور لاكتساب خير ما حققته الحضارات الانسانية من قيم عقلية وروحية.

ويختتم المؤلف البارع بحثه القيم باستنباط معنى لجهادنا في فلسطين فيقول « ليتعدى جهادنا الحاضر حدودنا الى العالم أجمع، ويمتد من الحاضر الى آفاق المستقبل البعيدة، ذلك أننا لا ندافع عن حقنا فحسب، بل عن مبادىء تهم كل شعب من شعوب الأرض، وتتخذ لدى الحكم العادل صبغة عالمية، ومغزى تاريخيًا. وبذلك يتصل جهادنا بالجهاد الانساني خلال العصور في سبيل الحفاظ على القيم الباقية، والحريات البشرية الأصيلة، ومن حقنا نحن العرب أن نكشف عن هذا المعنى لنبين للعالم خطورة جهادنا لنضع أنفسنا في الموكب الانساني المناضل عن الحق والمبدأ ». اهـ

(٦) عرف كل عربي مبلغ ما قاسيناه من نكبة فلسطين، وعرفنا أن ثلاث ممالك من أقوى ممالك العالم ناصرت اليهود وساندتهم في بناء دولتهم ومدتهم بقوات معنوية ومادية جعلتهم يتفوقون على العرب. ولكن هل من واجبنا الاكتفاء بما فعلناه أو الاستكانة لشذاذ اليهود ولمامات المتشردين؟

ليس تقارب أميركا وروسيا في الرأي وفي الاعتراف بدولة اسرائيل بالاتفاق الطويل العمر، ولا موقف الانجليز المذبذب ولا مراوغاتهم وألاعيبهم بالأسرار المكنونة التي لم تتضح بعد، وليس في العالم دولة تعيش على الاستجداء كما تعيش دولة اسرائيل المتهافتة ولكنها ستعيش حقًا إذا تخلى اليهودي الاميركي والانجليزي والروسي والألماني والفرنسي

---

(١) لدي من المعلومات ما يدعوني الى القول بأن أصابع السياسة تدل على توحيد السياسة الخارجية للعراق وسورية ولبنان وشرق الاردن، وان مسألة سورية الكبرى قد طويت الى حين بعيد.

وكل يهودي منتشر في أصقاع العالم عن جنسيته ووطنه ليستوطن فلسطين ويتجنس بالجنسية الاسرائيلية ، إذا حدث هذا فعندها يحق على العرب في فلسطين إما الاستسلام والرضوخ لليهود ، أو الهجرة الى ديار جيران اخوان لهم ، ولكن منطق العقل ، وقواعد الاقتصاد وعوامل الاجتماع تجعل أمر انضمام يهود العالم كلهم في صعيد واحد تحت راية اسرائيل في حكم المستحيل لسببين ، الأول : أنه ليس لليهود مزايا الأمة الموحدة ، والثاني: لأن لارابطة لهم إلا رابطة الدين وألم الاضطهاد ، لذلك يرى الدكتور زريق أن النكبة التي حلت بنا إنما هي محك لوضعنا الداخلي الحاضر ، فاذا كانت عوامل الرجعية والانحلال هي المسيطرة علينا فان هذه النكبة ستزيدنا ضعفاً وانحلالاً وتمزقاً ، أما إذا كان لعوامل التقدم والنمو فينا بعض القوة فان الصدمة التي تلقيناها خليقة أن تعزز فينا هذه العوامل وتمشي بها قدماً بمزيد همة وتراكم أثر » .

(٧) نرى مما اقتطفنا من مؤلفي الكاتبين البارعين أحمد رمزي بك والدكتور قسطنطين زريق ، ومما اتجها اليه في بيان واضح في العرض ، وصدق صحيح في تقدير الواقع ، ونقابة فكر في وضع القواعد وسن الخطط ، وإهابة أمنية في توجيهنا وجهة الغرب ، وجرأة محمودة في مخاطبة الزعماء والحكام والقادة ، والدوي الذي أحدثاه في كل مكان واستماع القراء الى دعوتهم وتناول بحثهم بالدرس والاستيعاب ، وتداولهم أركانه وقواعده في المجالس الخاصة والمنتديات الاجتماعية ، يضاف اليه ما ذكرته في مستهل كلامي أنه الدليل على أن الأمة المصرية بخير ، وكذلك الأمم العربية ، وان ليس في استطاعة أحد أن ينكر علينا يقظة نفسنا ووعينا القومي الحقيقي ، وتنبهنا الى ما يدبره الغرب لنا ، ودأبنا في تحصيل علوم الغرب واتقان شرور الغربيين لنقاتلهم في الغد القريب ، بعلومهم وشرورهم بيقظة ووعي ، وأخيراً أقول ليس في تقدمنا بطء نعاب عليه أو تقاعد نخشاه ونخافه ، انما أخشى ما نخشاه هو بث روح التخاذل فينا ، والاقلال من قيمة نهضتنا ، والحط من قدرتنا على فهم الحياة لأننا شرقيين .

حبيب الزحلاوي

في عالم الفلسفة

تأليف الدكتور أحمد فؤاد الاهواني صفحاته ١٧٠ صفحة من الحجم الكبير بمطبعة مصر الناشر مكتبة النهضة

هذا أحدث مؤلفات الدكتور أحمد فؤاد الأهواني أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد ، فقد أخرج قبل ذلك في العام الماضي كتاب « معاني الفلسفة » و « كتاب الكندي الى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى » .

والكتاب جديد حقاً في المكتبة العربية ، إذ يتناول مؤلفه موضوعات لم يسبق الحديث عنها في اللسان العربي ، أو كما يقول المؤلف في مقدمته « الفلسفة بحر لا يعرف له قرار يحتاج في معرفتها إلى العلم بما قاله القدماء ، وما ذكره المحدثون . وهو شيء لا تحيط به إلا المتون والمطولات . وليس غرضنا الإحاطة الشاملة بكل ما يقال في الفلسفة قديماً وحديثاً . وإنما رأيت أن أضيف الى الموجود في اللسان العربي فصولاً لم يلتفت إليها غيري من المؤلفين ، فتلقي الضوء على بعض الجوانب المجهولة ، أو تزيد الناس بها بياناً . لذلك كان هذا الكتاب جولة في عالم الفلسفة ، لا إحصاء لدقائق هذا العالم الفسيح . أو هو زهرات من بستان الفلسفة أقدمها للقراء باقة يشمون منها عبير الفكر » .

ولا ريب في أن فصول الكتاب مبتكرة . فهذا أول فصل في النحلة الاورفية التي أثرت أعظم الأثر في فيثاغورس وفي أفلاطون حتى لقد قال برتراند رسل في تاريخه للفلسفة « إن افلاطون يلبس مسوح النحلة الأورفية » . بل لقد أثرت الأورفية في المسيحية بما ذهبت إليه من التمييز بين النفس والبدن ، وأن النفس إلهية والبدن مصدر الشر . ويتحدث بعد ذلك عن مصدر هام من مصادر سقراط ، يغفله عادةً مؤرخو الفلسفة ذلك هو أرستوفان شاعر اليونان الهزلي الذي ألف تمثيلية السحب وسخر فيها من سقراط وأشاع عنه القول بانكار الآلهة مما كان سبباً في محاكمته فيما بعد . وهذا فصل عن أكاديمية أفلاطون ، وتاريخها مجهول كذلك ثم عن رأي أفلاطون في الله والعالم . ويختم القول في الفلسفة اليونانية بإله أرسطو المحرك الذي لا يتحرك

وفي عالم الفلسفة الإسلامية يتحدث المؤلف عن موضوعين كبيرين : أمواج الفكر الاسلامي فحقق القول في الخوارج والمجسمة والشيعة والقدرية والمرجئة بطريقة جديدة لم يسبقه اليها أحد . أما الموضوع الآخر فهو نظرية المعرفة عند اخوان الصفا ، والغزالي وابن سينا ، والفارابي ، وهل المعرفة فطرية في العقل أم مكتسبة ، مع التحقيق والتدقيق

وفي عالم الفلسفة الحديثة يبدأ بعرض فلسفة هيوم ومذهبه في نفي الأسباب والمسببات بما كان داعياً الى إثارة الفيلسوف الألماني كانت . ثم يتحدث عن تقدير الجمال أهو شخصي أم موضوعي ، وللمؤلف في ذلك رأي جديد . ويعرض بعد ذلك الى علم حديث يدعى الميتابسيشيك أو ما بعد النفس ، ويفصل موضوعه وهو الكلام عن الروح وانتقال الفكر والكشف وما إلى ذلك . وينتهي بفصل عن المنطق الرمزي الحديث الذي ينتقد منطق أرسطو ، ويهدمه من أساسه .

فأنت ترى أن موضوعات الكتاب طريفة جديدة ، تفتح آفاقاً للتفكير ، وتضيف الى القراء ثروة في المعرفة ، مع الاطلاع على أحدث ما وصل اليه الفكر في العصر الحاضر .

صوت العالم

تأليف الاستاذ ميخائيل نعيمة — نشر دار المعارف بمصر — القاهرة ١٩٤٨

ميخائيل نعيمة لقيته في « البيادر » يحاول أن ينظر الى مشكلات العالم والانسانية من زاوية شرقية خالصة ، وها أنذا ألقاه في صوت العالم « مرة ثانية ، نفس الشفافية التي يحيط بها إطار من الحس الصوفي الذي يسايره المنطق الذهني ، ونفس السمات العربية التي تنبض بروح الشرق ، ولكن ثمة اختلاف بين البيادر . و « صوت العالم » مرجعه الى الفوارق البادية بين النطاقين ، ففي « البيادر » يعرض لمشكلات الشرق العربي ، وفي « صوت العالم » يربط هذه المشكلات باتجاهات الفكر الانساني كليًّا ، ومن هنا تختلف وجهة النظر ، ومن ثمَّ يختلف تقدير الناقد ، فما هي تفاصيل الخلاف ؟ . .

تفاصيل الخلاف تنحصر أولاً في تسمية الكتاب فعنوانه ، يوحي للقارىء بأنه سيلقي حلا للقضايا الانسانية الكبرى التي يرتفع بها صوت العالم . فاذا ما قرأ الكتاب ، انتهى من ذلك بأن المؤلف يحاول أن يربط المستقبل بالماضي في أسلوب جميل ، دون ما نفاذ الى الحقائق الواقعة في الزمن الراهن ، ونعني بها وقوف الدول على مفرق طريق ، ينتهي بها الى خطين متوازيين ، أحدهما يقوم على نظرية المادية الجدلية Materialism Dialectique والآخر قائم على أساس من النظرة الانسانية التي تتفرَّع منها المذاهب السياسية المعاصرة التي تقف أمام الشيوعية وجهاً الى وجه . هل يلتقي الصنوان ؟ كيف يتفاقم الخلاف بينهما ؟ وما هو مصير الانسانية ؟ . هذه هي القضية الكبرى التي يرتفع بها صوت العالم ، ولكن الكاتب آثر أن يحصر صوت العالم في زوايا أخرى غير هذه ، فربط الماضي بالمستقبل ـ كما أسلفنا ـ وراح يعالج قضايا يمكن أن تضاف الى البيادر ليستكمل الكتاب بعض الحلقات الناقصة .

وهذا يبدو واضحاً في قضية الشرق والغرب وهل ثمة التقاء بينهما » وقد عرض فيه للقاح المستمر بينهما ، وما يستتبع ذلك من تبادل في أساس المعرفة والنقافة ، ثم في قضيته عن رسالة العالم العربي ، التي يعرض فيها للمستقبل الذي ينظر للعالم العربي أن يقوم به ، وما نحسبه — في رأينا — إلاَّ مهيأً لدور روحاني كبير . وثمة فصول عالجها في نفس الطابع الذي بيناه عن مستقبل الانسان ، وعن أزمة الضمير العالمي التي ستنتهي — في نظره — بارتباط كوني يوحي إليه الحاضر وتؤيده اتجاهات الفكر الانساني .

ويبقى بعد هذه العجالة السريعة أن نحدد قيمة كتابه ، وكل ما يقال فيه أنه صوت يرتفع لأحد اتجاهين في واقع البشرية ، طريق الانسان الروحي ، الذي يريد أن ينظر .. طريق الإنسان المادي ، وقد عرض فيه الكاتب لوجهة النظر الواحدة هذه ، وكل ما ينقصه شيء من الموازنة ، لتتعادل كفتا الميزان .

صبحي شفيق

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

لحق المقتطف

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ مارس سنة ١٩٤٩ — ١ جمادى الاولى سنة ١٣٦٨

طوفان القدم

صراع بين اللاهوت والعلم

إزاء علم الجيولوجيا

— ١ —

عقلية الجمود ونشوء التعليلات اللاهوتية

بدايات علم الجيولوجيا عند الاغارقة والرومان — موقف الكنيسة ازاء العلم — النظريات الجيولوجية عند أوائل اللاهوتيين — موقف رجال المدارس — ابتكارات المدارس العربية — نظريات أوائل رجال البروتستانت — تأثير احياء العلوم .

نقع عند فلاسفة الاغريق ، وفي زمان مبكّر ، على جراثيم من العلم الجيولوجي والحقائق الجيولوجية ، وقد نقع على ما هو أجدى من هذا وأنفع ، ونقصد بذلك جوًّا قد تنمو فيه هذه الجراثيم وتربى . انتقلت هذه الجراثيم إلى الفكر الروماني ، وانتعش جو التسمح واستمر أثره . فلم يقم من عامل يصد الفكر عن التأمل في طبقات الارض أو بقايا الأحياء التي توجد في تلك الطبقات . وفي ظل الامبراطورية الرومانية بدأ عهد مثمر من المشاهدة العامية .

وعند ما بسطت النصرانية سلطانها على العالم واحتكمت فيه ، استظل الناس بانقلاب جديد . كان موقف الكنيسة عند البداية إزاء علم الجيولوجيا وما يمت اليه من العلوم ، موقف التهاون ، بل الاحتقار والازدراء . والسبب في هذا أن المعتقد السائد كان منطوياً على أن الارض « عالم منبوذ » وانه عما قريب سوف يندثر ويتحطم . فلماذا نكب على درس حالاته ؟ ولأي سبب نفكر فيه ؟ ذلك بأن الازدراء الذي وجهه لاكتانتيوس والقديس أوغسطين إلى علم الفلك ، قد امتدّ إلى غيره من العلوم .

غير أن جراثيم المعرفة والفكرة العلمية التي فرخت في الدنيا القديمة ، لم يتسن للبلاغة ولا للمنطق أن يبدّداها ويذهبا بريحها . فانك ولاشك واقع على قليل من المشاهدات العلمية ومعترفٌ حتماً بوجودها ، بالرغم من أن كل تفكير جدّي فيها قد عصف به اللاهوت ، حتى أن القديس « ييروم » قد مضى مقتنعاً بأن تلك الصدوع والاعوجاجات التي نراها في قشرة الارض، إنما ترجع إلى الغضب الالٓهي من أثر المعصية، كما قال « ترتليان » إن الحفريات إنما هي أثر من آثار الطوفان .

* * *

ومن أجل أن تظل هذه المشاهدات وتلك الفكرات في حيز الارثوذكسية، بدأ القديس أوغسطين في بداية القرن الخامس يبذل أقصى الجهد في سبيل أن ينشّىء من هذه الجراثيم ضرباً من العلم ، قدسيّ الطابع سليم المأخذ . وبهذه الميول وضع تعليقه الكبير على طريقة الخلق بحسب ما رويت في سفر التكوين ، كما استعان على ذلك بكتابات أخرى . ولم يلبث أن يأخذ نفسه بهذا العمل

حتى انصرف بكليته اليه انصرافاً لم يباره فيه أي أب من آباء الكنيسة من قبل. ولكن كفاياته العليا في البحث وعمق فكرته في التأمل ، عامة اذا لم يتجه نحو المشاهدة الواقعية أو التفكير وفقاً لهذه المشاهدة . فان حجر الزاوية في أسلوبه التفكيري قد انحصر في عبارته المشهورة : « لا يمكن أن يقبل من شيء لا يتفق وولاية الأناجيل ، لأن هذه الولاية هي ولاشك أعظم من كل كفايات العقل الانساني » . وكذا توجه بفكره جميعاً إلى درس المتون المقدسة بحرفيتها ، وحاول أن يجعل هذه المتون مفسِّرة لظاهرات الطبيعة ، بأساليب لاهوتية صرفة .

وننقل هنا شيئاً من المسائل التي أثارها وناقش فيها : "" ما هو السبب في أن النجوم خلقت في اليوم الرابع؟ "" — "" أخُلقت الوحوش المفترسة والحيوانات السامة قبل هبوط آدم أم بعده ؟ "" — "" إذا كانت قد خلقت قبل هبوطه ، فكيف نوفق بين هذا وبين خَيْريّة الله ؟ وإذا كانت قد خلقت بعد هبوطه فكيف نوفق بين خلقها وبين نص كلمة الله ؟ — لماذا حشرت الوحوش والطيور أمام آدم لتسمّى ، ولم تحشر الأسماك والحيوانات البحرية ؟ — لماذا لم يقل الخالق للنباتات كوني مثمرة وتكاثري ، كما قال للحيوانات ؟

***

نسجت إجابات عشوائية لهذه الأسئلة ومثيلاتها، فكانت الابتكارات التي اهتدى اليها أعظم الآباء اللاتين تفسيراً للمعرفة الدنيوية ، بعد دراسة كاملة للمتون الانجيلية ، وتطبيق عميق شامل للفكرة اللاهوتية . أما النتائج التي ترتبت على هذه الابتكارات فكانت ذات بال . فان أوغسطين في هذا المجال العلمي ، وفي غيره ، قد وجّه تيار الفكر الرئيس في غربي أوربا ، سواء أكان في الكثلكة أم في البروتستانتية ، قرابة ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

في العصور التي تلت عصر أوغسطين ، اتبع العديد الأوفر من دارسي افكار خطواته من غير مناقشة أو بحث . ولا يفوتنا أن رجلاً قوي الشكيمة مثل البابا غريغوري الأكبر قد عني لسلطانه ، زعماء مفكرين وقادة علماء مثل سان إزيدور في القرن السابع ، والمحترم « بيده » — Bedé في القرن الثامن ، قد أسسا علمهما على مقدمات أوغسطين ، ولم يستطيعا أن يخرجا في شيء عن نتائجهما ، على الأسلوب الذي وضع أساسه وأقام قواعده .

لقد ائتمّ « إزيدور » في كتابه « الاشتقاقات » — Eytmologi s بما حاول أوغسطين من قبل إذ شاء أن يربط بين الخلق وبين عبارات سفر التكوين ، برباط مقنع . فاما نظر في الحفريات ، وهي بقايا المخلوقات البائدة المندفنة في باطن الارض ، ظن كما ظن « ترتيليان » من قبل ، انها من مخلفات طوفان نوح . وفي القرن التالي مضى "بيده" يرتب تلك المأثورات التقليدية .

* * *

إن أقوم تفسير يساير بعض الشيء المعنى الجيولوجي ، قد صدر عن أحد أتباع القديس أوغسطين ، وهو راهب إرلاندي من الدارسين ، أراد أن يقلل من الصعوبة التي تعترض الفكر اللاهوتي من ناحية استيطان الأحياء وتوزعها على سطح الأرض ، وبخاصة حقيقة أن الحيوانات التي هي في إرلاندا هي بذاتها التي في انجلترا ، فقال إن الأراضي التي هي منفصلة الآن ، كانت متصلة في سالف الأزمان . ولكن العوامل اللاهوتية ، مع الأسف ، قد أجبرته على أن يجعل انفصالها تالياً لحدوث الطوفان . من حسن حظه انه في عهده لم تكن قد عرفت حقائق كتلك التي تدلنا على أن "الكنغر" — Kangaroo لا يوجد إلاّ في جزيرة منعزلة في

المحيط الهادي ، وأنه بالتبعية لنظريته ، ينبغي أن يكون قد هاجر إلى موطنه الخالي ، مع كل ولائده ، منتحياً طريقاً خفياً لم يستطع أحد من الوحوش زملائه في سفينة نوح ، أن يشقه إلى حيث أقام !

* * *

هذه هي خطوط الفكر العامة التي اتبعها القديس أوغسطين في علم الجيولوجيا وما يتصل به من العلوم كعلم الحيوان ، وتبعه فيها كتلة لاهوتيي العصور الوسطى ، إذا ما توجه انتباههم إلى درس مثل هذه الأشياء .

* * *

الخطوة الثانية التي خطاها علم الجيولوجيا على يد الكنيسة ، تمت من طريق اللاهوت المدرسي . ولكن البحث الصحيح فيها قد خضع لتنميق العبارات . وفي خارج الكنيسة ، كما في داخلها ، استحدثت ابتكارات فذة طريفة . في القرن الحادي عشر عزى « ابن سينا » تكون الحفريات إلى قوة فيها قدرة على تخليق الصخور . وفي القرن الثالث عشر ، عزاها « ألبرت الكبير » إلى « خاصية تصويرية » . وفي القرون التالية جسر بعض الفلاسفة على القول انها نشأت من بزور ، كما اتخذت نظرية أرسطوطاليس في التولد الذاتي سبيلاً إلى القول بأن هذه الحفريات المستحجرة لها قدرة التوالد، كالنبات والحيوان .

برغم هذا نجد أن الآراء التي غرسها الفكر الاغريقي والفكر الروماني قد عادت إلى الحياة ، مرة هنا ، وأخرى هناك . فان رجال المدارس العربية لم يلتزموا حرفية القرآن ، كما التزم حرفية الأناجيل معاصروهم من رجال المدارس النصرانية . وإلى فيلسوفهم الكبير « ابن سينا » يرجع الفخر الاول في تصوير النظرية

الجيولوجية الحديثة تصويراً واقعيًّا ، نظرية التغايرات التي تصيب قشرة الارض[1] .

* * *

كان الأثر الذي أحدثه الاصلاح الديني أول الامر ، غير مُؤات للنقد العلمي. فانه لم يكن من شيء فيه روح المعاندة للنظرية العلمية في نشوء الكون ، من تلك الفكرات التي اعتنقها قادة البروتستانتية . فإن استمساك لوثر وميلانكتون كل الاستمساك بحرفية الاناجيل ، وبخاصة رفضهم فكرة ان السيارات تدور من حول الارض ، قد امتدَّ إلى كل المقررات العامية الاخرى التي تخالف النصوص المقدسة . وهنالك كثير من الحق في القول بأن العقبات التي أقيمت في سبيل العلم كانت عند أوالي البروتستانت ألزم وألصق بالتفسيرات المستمدة من الكتب المقدسة ، منها عند رجال الكنيسة القديمة . أما الروح الشامل بين رجال الاصلاح الديني ، فلا يظهرك عليه كما يظهرك تصريح بطرس مارتر ، أو بطرس الشهيد ، إذ قضى بأنه إذا انتشرت فكرة خاطئة في الخلق تخالف قصة سفر التكوين — „ فإن كل تبشيرات المسيح تنتهي إلى لا شيء ، ويقضي بذلك على حياة الدين النصراني " .

في العصور التي عقَّبت على حركة الاصلاح الديني ، سارت أحوال الفكر من سيء إلى أسوأ . فانه في ظل لوثر وصاحبه ميلانكتون، عاش قدر ضئيل من حرية التأمل ، ولكن في ظل أخلافهم تضيَّ على هذه الحرية قضاءً تامًّا . فإن الشك في أي تفسير من التفسيرات التي قال بها لوثر ، قد اعتبر معصية تعادل

(١) انظر كتابات سير شارلز ليل ومسيو دارشياك — Sir Charles Lyell and Mr. D'Archiac.

الشك في تفسير الكتب المقدسة ذاتها. والمثل الأكبر على هذا، ذلك الدعاء العنيف الذي قام به القائلون بأن الطيور خلقت من الماء خاصة، والقائلون بأنها خلقت من الماء والطين معاً. في مدينة «لوبيك» وهي المركز القديم «للعصبة الهنسية» وفي قرابة ابتداء القرن السابع عشر، نشر ,, بفيفر ،، المشرف العام أو الاسقف في تلك النواحي، كتابه المسمى ,, وحدة الحكمة الموسوية ،، — Pansophia Mosaica ظاناً انه بذلك الكتاب سوف يهزم العلم إلى الأبد. وفي منظومة من الحملات الطويلة، مضى يقول وباقتناع كامل إن النص الحرفي لسفر التكوين هو طريق الأمان، وانه يتضمن كل الحكمة وكل المعرفة، بشرية وإلاهية. وإذا كان الأمر كذلك، فمن ذا الذي يعنى بانفاق وقته في درس الاشياء المادية، ويفكر في تركيب العالم؟ وفوق هذا كله، وبعد تقرير ذلك الرأي من حاكم له سلطانه في الدنيا اللوثرية، لم يجرؤ أحد على أن يتكلم في «أيام» الخلق التي ذكرت في سفر التكوين على أنها «أحقاب متطاولة من الزمان»، أو في «القبة السماوية» على أنها ليست قبة سماء جامدة تظلل الكون، أو في «المياه التي هي فوق القبة السماوية» على انها ليست محوية في حوض عظيم يرتكز على هذه القبة، أو في «نوافذ السماء» على أنها ليست منصات للكلام والتحدث منها.

* * *

تجلت هذه الروح ذاتها في انجلترا وظلت متسلطة إلى زمان سير «ماثيو هيل». فقد نجد في كتابه المسمى ,, بأصل النوع الانساني ،، المنشور في سنة ١٦٨٥ نظرية حرفية نشئت بمقتضى ما جاء في المتون المقدسة، ظهر فيها العجز التام عن تكوين فكرة في أصل الأرض وتكوينها، مستمدة من أي مصدر آخر.

وبينما كان الاصلاحيون من لوثريين وكلفنيين وانجليكانيين يتشبثون

بالتفسيرات الحرفية للكتب المقدسة ، مشيحين بوجوههم عن البحث العلمي منصرفين عنه ، نشأ في بيئة من معاصريهم وفي بدء حركة « الاحياء العامي » فكرات مثمرة في تلك الناحية من العلم . ففي بداية القرن السادس عشر ، كوّن « ليوناردو دافنشي » وهو من أفذاذ العلماء كما هو من أفذاذ الفنانين ، الفكرة الحقة في أصل البقايا الحفرية ، ومضى معاصره « فراكاستورو » ينشّىء الفكرة ويربيها بمقتضى الأساليب التي رسمها الفكر الحديث . ذلك في حين أن غيرهما في أنحاء مختلفة من أوربا ، قالوا بفكرات إن امتزجت بكثير من الآراء الفجّة ، فإنها أمدّت العلم بحقيقة تلو أخرى . وعند أواخر القرن السادس عشر ، استوعب « برنارد باليسي » في فرنسا هذه الفكرة وغّاها بنبوغه الذي تجلى في قدرته على الخلق الفني ، فاستطاع أن يرفع صوتها ويسمعه الكثيرين . ومع هذا فقد ظلّ كثير من اللاهوتيين والفلاسفة ، بل وبعض رجال العلم ذوي الصيت ، يقولون ، متأثرين بسلطان العبارات المدرسية ، بأن الحفريات هي من آثار « مادة دهنية خثرتها الحرارة » أو هي من أثر « عصارة صوانية » أو نتيجة « حركات ثورية أحدثتها تنفّسات أرضية » . بل عمّ هنالك اعتقاد في أن البقايا الحفرية على وجه عام ، يمكن أن تكون في جملتها من « ألهيات الطبيعة » ، وعقب المؤمنون على ذلك بأن هذه « الألهيات » قد تكون نتيجة غرض غير مستبان من أغراض الله : القادر على كل شيء !

وظلّ هذا على أنه الأسلوب التفسيريّ للعقيدة الارثوذكسية في الكنيسة ، من بروتستانت وكاثوليك ، خلال عدة قرون متعاقبة .

(البقية في العدد القادم) اسماعيل مظهر

نظرات في النفس والحياة

— ١٣ —

نظرات جونوثان سويفت

كان سويفت انجليزيًّا ولد في ارلنده وعاش بها في صباه ثم عاد اليها في أواخر أيامه ومات بها وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظاً وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما نبغ وعاشر العظماء والوزراء وقد عاش مدة في انجلترا أشبه بكاتب للسير وليام تمبل السياسي الانجليزي وقد استشهد تاكري في رسالته عنه برسائل سويفت التي تذلل فيها للسير وليام وأظهر ان ضرورة هذا التذلل كانت تحز في نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص. ولكن ماكولي في رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف ان سويفت قد استفاد علماً من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلاً تقلب في مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس. وقارن ماكولي بين الدكتور صمويل جونسون الأديب الانجليزي والكاتب الشهير وبين سويفت فقال ان آراء الأول مكتسبة من الكتب أما آراء سويفت فهي مؤسسة على الخبرة بالحياة. وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولاً بقلمه وكان يأمل ان ينصّب أسقفاً في الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك لانه في بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينقد حزازاتهم واختلافهم في أمور تافهة. واشهر مؤلفات سويفت كتاب اسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس. وقد خولط في عقله في أواخر أيامه وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه. وبالرغم من تلك الحدة أحبته امرأتان وهما التي رمز للأولى باسم ستيلا والثانية باسم فانيسا وقد قال تاكري ان انهيار عقله في آخر حياته كان مثل انهيار دولة كبيرة. ويقول سير والتر سكوت ان فانيسا ماتت غمًّا بسبب زواجه سرًّا من ستيلا ولو انه من المعروف ان فانيسا ماتت من السل وقال ناقد ان سخر فولتير كان مثل وخز سلاح المبارز؛

أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل . وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدته في القول وسلاطة لسانه سلاحاً في السياسة لم يسبق له مثيل لجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة لأنه أكسبها رائع الأسلوب كما أكسبها الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة. ولكن شدة سخره كما تظهر في المقالات السياسية كمقالات دربير التي يقترح فيها على سبيل السخر بخصومه من الوزراء طهي أطفال الأرلنديين وأكلهم ويتفننّ في وصف طهيهم. كذلك تظهر شدة سخره في وصف ياهو المخلوق القذر في كتاب اسفار جاليفار وما رمز به الى الانسان وفي مواضع أخرى كثيرة وقد قارن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسي وبين سويفت فقال ان كليهما ذو بصيرة وفطنة ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس أما سويفت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس .

وحب رابليه للحياة سواء أكان حبّاً للذات الجسم أم كان حبّاً للذات الفكر، أمر مشهور تفيض به كتبه. وكان يحارب به الرهبنة في المسيحية ونظرها الى الحياة والفكر ويمتاز سويفت إذ انك لا تجد حرفاً أو كلمة يصح حذفها في قوله . أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهها فكأنه في غزارته السيل المتدفق أو النمو النباتي الغزير وكما ان كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق إتمام قراءة رابليه ما به من غزارة الكلام وكثرة الاشارات الى أمور غامضة كانت معروفة في ذلك العهد البعيد . إلاّ أن قراءة كتبه تحبب الحياة وتدعو الى الأمل والى الرغبة فيها . أما كتب سويفت فقد تدعو الى احتقار النفس البشرية واليأس من الناس . ولكن هذا لا يقلل من رصانة تفكيره كما يتضح في النظرات الآتية التي نوردها مع التعقيب عليها .

(١) قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها الى الوجيهة ظنّاً منهم ان كثرتها تزيد الراجحة الوجيهة رجاحة ووجاهة. وهم قلما يفطنون الى ان زيف الزائفة ينتقص من رجاحة الراجحة، ويدعو الى الشك فيها، وهذا أمر شائع يضعف الناس به حجتهم ويبطلون حقهم، وان كانوا على حق وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف اذا أضيفت اليه من الحجج القوية ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها، ولكنه اذا فطن الى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك في غيرها . وقد يحسب الناس قوة الأخيرة من بلا

صاحبها أو مكره واحتياله فاذا وثق السامع من بطلان بعض الأسباب أو ضعفها أبى الاقتناع كل الاقتناع بالسليمة وتحرز من قبولها كل التحرز. وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذي أضيف إليه

(٢) مهما عظمت المنافع التي استفادها المرء منك فانه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لانسان ولم تُعِنْهُ على ظلم ذلك الانسان أو على إيذائه أو انتقاصه ولم تساعده على التشفي منه، فانه يعدك ممالئاً له وإن لم تكن ممالئاً ويراك خاذلاً لنفسه كأنك خذلته في الخير والعدل . فان الشهوات لا تنصف ولا تتذكر خيراً استفاده منك صاحبها ولا تأبه لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم. فكأن ما أسديت إليه كان نعماً زائفاً وأمراً مدلساً - ويدهش الناس لو فطنوا الى حدٍّ ينقادون الى مثل هذا الإغراء بالشر والالحاح في الحث عليه وهم ينقادون إمّا خوفاً أو طمعاً أو كسلاً أو استهواء أو شهوةً أو جهلاً أو ما شابه ذلك . وبعضهم يحسب الانقياد الى الشر ضرورة لا مناص منها مع هذا الالحاح وإن كرهها أو ادّعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها وربما ينقاد إليها وهو لا يسوّغها فقنع نفسه بالباطل، إنه إنما انقاد الى ضرورة من ضرورات الحياة التي لامناص منها وربما غالط نفسه وعدّ انقياده الى الالحاح على عمل الشر والأذى من ضرورات الحياة التي لامخرج منها ولا مناص كي يطلق لنفسه العنان لاشباع نهمها الغريزية في عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه . والانسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بالحاح مغر أو بغير إغراء وإلحاح إلاّ وهو يعد لنفسه الأعذار كي يستريح إمّا من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير .

(٣) أكثر الناس عندهم من الإيمان والدين القدر الذي يغريهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم في أمر من الأمور وليس عندهم القدر الأعظم من الإيمان الذي يغريهم بحب الناس - فترى الناس يضطهد بعضهم بعضاً وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم وقد يدعون أنهم يضطهدونهم لأنهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الأذى . وهذا يذكرنا بقصة (العذاب بالأمل) لمؤلفها فيليير ده ليل آدم الفرنسي وفيها أحد رجال

الكنيسة من أعوان محكمة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه إشفاقاً عليهم ورحمة لهم إذ لم يعذبهم كي يطهرهم بالعذاب ولم يكتف بالعذاب المادي بل كان يعذب السجين بالأمل فيترك له باب سجنه غير موصد كي يطمعه في الهرب فاذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته في الهرب من التطهير بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب إشفاقاً عليه من تلك النجاة وهذا يذكرني قول الشاعر.

فكنت كذبّاح العصافير جاهداً وعيناه من وجدٍ عليهن تهمل

وهذه القسوة الموصوفة في القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة ولكن أكثر النفوس في قسوتها في الحياة لا تحتاج الى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة .

(٤) كثيراً ما يخطىء ويخيب ذوو الفكر في أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل عقله وفكره فإن شدة تصور ذوي الفكر وإدراكهم جوانب الأمور واحتمال ما يكون ، وحدة ذهنهم في بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو الى الحيرة والارتباك والتواني والى الشطط عن القصد في أثناء تلمسهم جوانب الفكر في الأمر بينما يمضي الرجل الذي لا يفكر كثيراً الى ما يكلف عمله فيعمله عملاً متقناً ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها رُواداً وإنما مَثل ذلك مثل المدية اذا شحذت شحذاً شديداً وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق كتاب فإنها ربما حادت وجنحت من حدتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعاً منتظماً بل قد تتلفها بينما لا تحيد المدية التي هي أقل منها شحذاً. ولعل سعة الفكر تدعو الى أن يعد صاحبها من الممكن عمليا ما هو من المحال ولقد رأينا نابليون بونابرت ينجح في تنظيم إدارة فرنسا وفي تنظيم معاركه بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحياناً الى طلب المحال ، ولقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحاً كبيراً في الحياة وكان يتنازعهم العاملان عامل الارادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤديان الى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام .

(٥) يلوم الناس الانسان لأنه لا يعرف حدود مقدرته ومقدار عجزه ونقصه ولكنهم قلما يعترفون انه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه وقد يبخسها وينتقص نصاب

نفسه منها لأنها تكون كامنة خافية عنه لا تظهرها إلاّ الحوادث المواتية المناسبة وإنما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه في بطن الأرض فانه يخفى على من هم على سطح الأرض ومثل هذا الانسان الذي يخفى عنه مقدار ملكاته كأنما يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذي في بطن الأرض ممن هم على سطحها — وقد يستنبط هذه الملكات الايحاء أو الحب أو المنافسة أو الضرورة، والضرورة التي تستنبط الحيلة والقدرة والملكة في بعض النفوس اذا صحبها ما يدعو الى الارتباك أو كان في جهاز جسم صاحبها ما يدعو الى الحيرة، أخلّ بملكاته ولم ينتفع بها كل الانتفاع كالذي لا تظهر كنوز نفسه إلاّ اذا ابتعد عن الضوضاء . فان ضوضاء الحياة قد تشردها كما يشرد لب المرء وكما تشرد افكاره اذا سمع جلبة وأصواتاً صاخبة. ولكن بعض الناس لا تظهر كل مقدرته وملكاته وكنوز نفسه إلاّ اذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعشرتهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان. وقد يفاجأ المرء ببروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ غيره مباغتة وقد كان لا يظن ان عنده تلك القدرة كما كان الناس لا يرونها في نفسه وبغتات النفوس متنوعة .

(٦) دعانا بعض الفلاسفة الى نبذ أكثر رغباتنا حتى اذا بلغت أقل حد مستطاع أمكننا ان نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير ان نشقى في الحياة. وهذه الدعوة مثل دعوة من هو في حاجة الى النعل ان يقطع رجليه قد يستغنى عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلاّ بالطلب كما لا يتقدم من هو في حاجة الى النعل إلاّ بقدميه. ومن قديم الزمن ما شحذ ذهن الانسان ونما عقله ومرن بدنه إلاّ لأنه خالف هذه الدعوة الى انتقاص الرغبات والحاجات واستن لنفسه سُنَّةَ الاقبال على طلب الدنيا .

(٧) لو ان انساناً كتب جميع آرائه في أمور الحياة المختلفة منذ صغره الى ان صار شيخاً لوجد اختلافاً وتناقضاً كبيراً في آرائه في كل أمر من الأمور في مراحل العمر المختلفة، ومع ذلك فان الناس كثيراً ما يلومون المرء لأنه غيّر وبدّل في آرائه وهم لا يفطنون الى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم . ولو أن انساناً لم يتغير رأيه في الأمور من عهد طفولته الى مماته لَدَلَّ ذلك على ان عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وان كانت

هذه يصيبها التغير أيضاً — ولعل السبب في ذلك ان الناس يخلطون بين تغير النفاق الذي سببه الاهواء وتغير النمو وهم يميلون الى سوء الظن فينسبون كل تغير الى النفاق الذي يجعل المرء شبيهاً بالآلة التي توضع في مَهَبّ الرياح فتعرف بها الجهة التي تهب منها. فتغير الرأي قد يكون تهدياً الى الصواب ونمواً في العقل وقد يكون طيشاً وعبثاً فيمن لا رأي له. وقد يكون مكراً واحتيالاً للكسب. وبالرغم من ان الناس يلومون من غيَّر رأيه فانهم اذا وجدوا أرَباً أو نيلاً منه أو قدحاً فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه.

(٨) عرفت أناساً كانوا ذوي مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تفدهم فهم كساعة الظل التي كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارَّة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت الذين نصبوها. وتلك المواهب النفيسة قد لا تنفع أهلها فحسب بل قد تضرهم فإن الفائدة المرجوّة للمرء في الحياة لا تكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر ما يستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا. فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولو أن نفوساً أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تنل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازنها ما بالت نفسه، وقلما تسخَّطت أو حاولت عبثاً أن تغير سنة الحياة إلا في حالتها.

(٩) رغبة بعض المفكرين في إبطال مطامح الناس التافهة ورغباتهم التي لا قيمة لها في ذاتها، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها، خطة تدل على نقص في الحكمة والخبرة بأمور الحياة إذ أن كثيراً من أمثال تلك المطامح اذا جعلت جزاء للعامل ومكافأة المجِد، ترغبة في الكدح والعمل وفي ارتياد سبل الفضائل والفضل. أما أن يقال إن الفضائل ينبغي أن تطلب لمحبتها والرغبة فيها لا لجزاء عليها فنظرة حسنة ولكن طباع الناس في الحياة تخالفها وتتطلب جزاء عليها ولا مناص مما تتطلبه الحياة، فالشهرة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لا قيمة لها في نفسها ولكن قيمتها فيما تؤدي إليه من العمل والجد. ولقد ترى الرجل الفقير الجاهل يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الحمد ما استطاع الى ذلك سبيلاً كي ينال رثاء حسناً اذا مات وكي يكتب بعضه على قبره — وهذا يذكرنا كلمة لنابليون

بونابرت في هذا المعنى وفي فائدة الرتب والأوسمة عند ما ليم على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية . ولكن سويفت بالرغم من فطنته الى أنها وأمثالها مدعاة الى العمل ومن محركات الحياة فانه يسخر بالمتهالكين عليها في كتاب أسفار جاليفار . اذا اتخذوا الائتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا في عمل الشر بسببها .

(١٠) بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجعل أراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يوماً الى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُشَذِّب بعضها بعضاً كما يشذِّب الحَصَا باحتكاكه ، فتتحوَّل الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة الى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب . ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر . فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو الى حرية الفكر ما دامت تضطهدها غيرها فاذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة في تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر — وقد تتَبَّع (فان لون) في كتابه (تحرير الانسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف الى عهد الجيلوتين . ولو كان الفكر غير باعث على العمل ربما استطاعت الفئة الغالبة إهماله . وما صنعه (فان لون) صنعه في صيغة أخرى برتران ده جوفنيل في كتاب (القوَّة) وقد قال جوفنيل إن كل من يستبد بالقوَّة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه ينوب عن الشعب والواقع كما أوضح أن في استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول وانما كان ينذر الشعوب من عواقب المستقبل . ومن الغريب أن جوفنيل وكان مندوب فرنسا في سوريا يقول في القوَّة قولاً قاله قبله شيلي الشاعر الانجليزي في صيغة أخرى فقد قال في بعض قصائده (إن القوة كالوباء الذي يتفشى فيصيب كل ما يقرب به والخنوع لها عدو للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة) ولكن كيف يستطيع الانسان أن يكون في غنى عن القوَّة أو أن يقيدها ؟؟

فالثورة الفرنسية التي كانت ثورة على القوة وأعطت في أول الأمر كل مدينة أو اقليم حق انتخاب حكامه كلهم ، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك، ما لبثت أن صارت في عهد مجلس أو لجنة السلامة مركزية شبه توتاليتارية . وبالرغم من أن جان جاك روسو في كتابه (العقد الاجتماعي) كان بشير الحريات الفردية فان به نزعة توتاليتارية تظهر في أمور كثيرة منها تقديس الدولة والقول بانعدام حق كل ارادة في الإرادة العامة. ومنها إباحة حكم الحاكم الدكتاتوري الفرد الذي ينوب عن الديموقراطية في بعض الأحايين. ومنها القول بنفي أو قهر من له ارادة لم تنعدم في الارادة العامة . ولما كانت الإرادة العامة كالديموقراطية أمراً تقريبيًّا فهي إرادة الكثرة أو ما يُسمَّى الكثرة ، وإن كانت كثرة ظاهرية . وبعض اليعقوبيين الديمقراطيين قالوا — عند ما كانوا قلة — إنهم كثرة لأنهم يمثلون مرافق الشعب الحقيقية وإرادة أجيال الشعب في العصور الطويلة المقبلة عند ما يتعلم كل آحاده أن يعدم إرادته في الإرادة العامة . فالعالم لا تزال تتنازع فيه القوة الطوائفُ والأحزاب المختلفة وكلٌّ يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأي غيره . ومن الطريف أن نابليون بونابرت وقف يوماً على قبر جان جاك روسو وقال — وقد كان في صغره يردد آراءه — لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد . فقال له جيراردين ان آراءه أفسحت لك الطريق يعني بأثرها في الثورة الفرنسية فقال نابليون : ربما كان من الصالح العام لو أنَّا كلينا لم نولد .

(١١) ربما خُيِّل لنا أن الكلام المواتي الكثير عن المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأي وهو كثيراً ما يكون دليلاً على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار ما يختار من الكلام من غير مشقة . فاذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأي قد يطول تردُّده قبل الكلام — ولعلَّ في هذا بعض العزاء لذوي العي إذ غاية ما تصل إليه غزارة المادَّة أن يكون المرء أشبه بالعَيِيّ في تردُّده قبل الكلام من وفرة المادة كما قال الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد

وكثرة الكلام مع قلة المادَّة أمر معروف . ولعلَّ أفكه مثل لهذه الثرثرة وإن كانت ثرثرة كسيَت من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكيلَة) أو الناموسية

والسرير وهي محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤنبه بعد ذهابهما الى الفراش وهي من تأليف دوجلاس جيرولد . وقلة المادّة لا تعوق تأثير الكلام الكثير في السامع فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد في السياسة وفي غيرها من مظاهر الحياة المختلفة . بل لعلّ قلة المادة تدعو الى أن يفضله كثير من الناس لقلة العنت في فهم مادته القليلة .

(١٢) قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعض كلامه شيء من الفكاهة العامة البريئة فيحسبها السامع انتقاصاً له وهي ليست انتقاصاً وإنما يفعل ذلك اذ يقول في نفسه إن هذا الرجل المفكر لا بدّ أن يكون وراء كلامه معنى مستتراً غير ظاهر معناه — ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدّث الفطن أو من كان من أهل الفكر من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم . فإن السامع إذا صادف كلامُ القائل صفةً يخشى أن يظنها الناس في نفسه عد كلامه تعريضاً به وربما تسرّع بالإساءة الى قائلها ومن أجل ذلك يُفترض على مؤلفي القصص أن يقولوا إنهم لا يعنون أحداً بأناس قصصهم وإنهم من صنع الخيال . والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادّة لفنه فيجعلها فنّا عامّا ولكن الناس كثيراً ما يحيلون الفن العام الى شخصيات معينة وذلك في قول المفكر أو القصصي أو الشاعر . وأكثر هذه الإحالة ترجع الى العقد النفسية وإحساس الناس بصدق قول فرويد في كتاب (العلل النفسية) إن كل نفس إنسانية تجمع في وعيها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ما هو إنساني في جميع النفوس بل كل ما هو حيواني في الحيوانات كلها فيجعلون كل ما في الوعي حقيقة كائنة في الحياة متى أرادوا وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعميم الى التخصيص يكون بالرغم من ميل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة الى التعميم في أحكامهم المخطئة . كتعميمهم في الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبيرة .

(١٣) في أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نيله والسعي والعمل له يفكر المرء في محاسنه وأطايبه ومسراته وفضائله فاذا ناله بدأ يفكر في أوجه النقص فيه وفيما قد يكون فيه من المساوىء والعيوب وإنما رُكّبت النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كي تستأنف مطالب الحياة وكي تطمع في المزيد من محاسن الأمور فتعمل وتكد وربما بخست

الأمر الذي نالته كي تستطيع تحقيق هذه السنة الحيوية التي هي قوام الحياة .

(١٤) اذا هاج البحر ورأى أهل سفينة ان تُخَفَّف أحمالها وأثقالها كي تنجو وينجون من الغرق بأن يقذفوا بعض أحمالها في البحر ، ربما حاول كل منهم ان يخفي متاعه ويعظ غيره كي يلقي متاعه في البحر وهذا مثل الذين يفضلون نفع أنفسهم على نفع الجماعة ونجاتها ، فتضيع أنفسهم وتضيع الجماعة التي هم منها وهذا التواكل يكثر عادة في الأمم التي فقد أحادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة .

(١٥) اذا أراد الانسان ان يتسلق ويعلو فلا بد ان يتسلق كما تفعل القِرَدة على قدميه ورجليه . والطمع في مناصب الجاه والسلطة قد يتطلب من المرء ما هو شبيه بالزحف على اليدين والرجلين ويعني التقرب بوسائل التملق والخنوع ومعاونة من يرجى نفعه على شهوات غضبه أو حسده أو محاباته الى آخر هذه الأمور فقد شبهها بالزحف على القدمين واليدين أو بالتسلق بهما كما تفعل القرود .

(١٦) السبب في خيبة كثير من الأزواج ان نساءهم بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصاً لأزواجهن كأقفاص العصافير المُدَلَّلة البيتية التي تزيِّن أقفاصها كي تأنس اليها، يتخذن من الزواج ما يراه الرجال أشبه بالفخاخ والشباك التي تصاد بها الحيوانات .

(١٧) كثيراً ما يذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشيئة القدر الغالبة النافذة . أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور ولا سيما الذين يثقون إن الجاه والثروة والسعادة لن تزول عنهم إذ ان هؤلاء ينسون حتى أثر الأقدار في توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح . وهذا يذكرنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير اختلسه من غير تعب ، فكان اذا طلب منه انسان صَدَقَة يقف ويلقي عليه محاضرة في فوائد الاجتهاد والجد في العمل ويقول له لو كنت اجتهدت لصرت مثلي .

(١٨) كثيراً ما يعلل المرء نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره وستشغل بما كان أهل دهره عنه في شغل. فينصفون عمله أو قوله كما أراد وينسى ان أهل العصور المقبلة تَستَجِدُّ لهُمْ فيها أقوال وأمورٌ هُمْ بها في شغل وهذا الوهم هو مما يزيد اقبال الناس على العمل والفكر والتضحية وان كان قلما يتحقق، ولكنه من سنة الحياة التي تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم . (البحث بقية) ع . ش

آراء
في العظماء والعظمة
— ٢ —
لأميل لودفج

العظماء من الرجال إنما هم عظماء في الحجم والشكل . ذلك لأن لهم من المحامد والمذام ما للرجال العاديين مع فارق واحد هو زيادة الحد في كل محمدة ومذمة . فاذا روعيت النسبة كانوا هم والرجال العاديون بمنزلة سواء (جوته)

فقاطعته « دوللي » قائلة بصوت عال : قل لي بحق السماء . لماذا لا يدور حديثك إلاّ حول هؤلاءِ الساسة القدماء كأن ليس بين رجال الفن أي عظيم ؟

— هذا ينقلنا الى ميدان آخر . إنّ المفكرين والمصورين والشعراء الذين يخلّفون وراءهم آثاراً باقية قد يسهل على المرء أن يعرف أقدارهم كأفراد من عظماء الفكر أكثر من معرفته بأولئك الذين يتقرّى المرء أقدارهم من ثنايا حوادث قد فنيت وزالت . فنحن لا نعرف شيئاً عن « هومير » سوى انه كان عبقريّاً « هذا إذا كان « هومير » هذا قد عاش يوماً ما على ظهر هذه الدنيا » .

ونحن إذا لم نكن قد عرفنا أبداً شيئاً عن « شكسبير » أو « موزار » فقد يبقى لنا طابع العظمة لرجلين مجهولين .

ولو أنّ ألحان « شوبير » أو « بيتهوفن » قد انحدرت إلينا مجهولة المولد والنسب لقلنا عن منشئيها إنهم عظماء . وذلك كما نسمي الجندي المجهول عظيماً دون أن نعرف من هو ذلك الجندي .

إنّ معرفة تفاصيل حياة أولئك الناس تكشف لنا عن أشياء كثيرة ، ولكنها لا تزيد أو تنقص في قدر أعمالهم وقيمتها .

والفنانون المبدعون يختلف مصيرهم الاختلاف كله عن مصير المقلدين المزيفين .

وحذّاق الموسيقيين والممثلين ومَهرة المصورين يعيشون ما بقيت أشخاصهم ويزولون بزوالها . فمن كل الموسيقيين الذين كاد قومهم يفتنون بهم لانجد إلاَّ واحداً منهم قد ظفر إسمه بالخلود . ذلك هو « با جانيني » (١٧٨٢ — ١٨٤٠) وهو عازف الكمان الذي طاف أوروبا يعزف ألحانه . ولقي نجاحاً في كل بلدٍ حلَّ به . ذلك لأنَّ صاحب هذا الاسم كان إذا عزف . سحر النساء بعزفه . وكان يغمى عليهنَّ إذا سمعنَ ألحانه.

قالت العازفة الشابَّـة : من ثمَّ يتبين أن ليس من مستلزمات العظمة أن يكون صاحبها من أولئك الذين يحيوْن حياة تتفق والخلق الكريم .

الفيلسوف : نعم إنَّ ذلك ليس من مستلزمات العظمة . فتنفست كلتا المرأتين الصعداء. وذلك على الرغم مما بينهما من تفاوت وتباين .

ثم استطرد الفيلسوف يقول : إن هناك بالطبع شيئاً اسمه « العظمة الخلقية » . ولكن العظمة ـ بادئ ذي بدء ـ ليس الخلق من شرائطها الأولى .

التاجر : إنك لن تستطيع أن تسمّي عظيماً رجلاً ذا خلق . لخلقه وحده . فإن عامل اللاسلكي الذي لا يغادر سفينته التي ضربت « بالطوربيد » حتى يقضي القضاء أمره لا يسمى عظيماً .

الفيلسوف : لك أن تسميه ـ ان شئت ـ بطلاً . ولكن لن يسمى ـ بأية حال ـ عظيماً فهناك أبطال كثيرون ليسوا ـ في الحقيقة ـ عظماء . وهناك عظماء كثيرون ليسوا أبطالاً . فالجندي الذي أنقذ بفضل شجاعته وذكائه حياة ثمانين من إخوانه في معركة « دنكرك» يستحق وساماً . ويستأهل أن تؤلف للاشادة باسمه أغنية . بل قد يستحق أن يقام له تمثال . ولكنه لن تظهر صورته أبداً في ساحة العظماء .

دوللي : وماذا تقول في عظمة الرجال ذوي الذكاء ؟

ـ إنهم بعيدون عن أن يسموا عظماء . واني أنكر ـ في قوّة وإصرار ـ هذه الدعوى. فالقول في عراكه مع العمل ليس دائماً منتصراً . فإنَّ القليل الذي نعرفه عن « الاسكندر » كرجل من رجال الفكر ليس السبب في كونه عظيماً .

قالت العازفة في صوت خريد : ولكنَّ الاسكندر كان فتىً جميلاً !

فقالت لها صاحبتها : جميل ؛ لقد أبعدت . ولقد بعد مرمى خيالك ! وعلى هذا فإن أي نجم من نجوم الشاشة البيضاء يمكن أن يسمى عظيماً !

الفيلسوف (ضاحكاً) : إن الناس على أية حال يظنون ذلك . ولكن إذا جاء فاتح من الفاتحين وكان له جمال « الاسكندر » فإن هذا الجمال يكون حتماً جزءاً من عظمته . فهو بجماله كأنه يقدم الأغاني والشعر الوجداني لكل القطع الموسيقية التي عزفها في حياته .

الطفل : ومن هو الاسكندر ؟

الفيلسوف : هل سمعتم ما يقوله الطفل ؟ إنه قد أنصت لأنه سمعنا نتحدث عن رجل جميل .

التاجر : إذن حق لي أن أفترض أن لك أن تقول : ان الرجل الدميم لا يمكن أن يكون رجلاً عظيماً .

الفيلسوف : لقد كان كثير من العظماء دميمي الخلقة أنظر الى صورتي فولتير ودانتي فقد كان لهذين الرجلين أمارات من النبوغ تبدو على وجهيهما . أمّا سقراط فقد كان في فرط دمامته يشبه بريكليس في فرط جماله .

ثم وقفوا جميعاً وبدأوا يمشون هوناً على الشاطىء مولّين وجوههم شطر الشمس الغاربة وكان الطفل يسبق القوم حيناً . وحيناً يمشي وراءهم . ولكنه يعود دائماً ليمسك بيد أمه .

الفيلسوف : إن الشمس صارعت العظماء كلهم فصرعتهم فماتوا وعاشت بعدهم . وهي تبدو كل يوم كأنها أوشكت على الفناء . وإذا بها تولد كل يوم مرة أخرى .

التاجر : دعني ألخص القضية : إنك قد بيّنت لنا إلى هذه اللحظة أنّ العظمة إنما تتمثل في الروح البانية لدى السياسي . وفي الروح المبدعة لدى الفنّان . وفي الحالة الأولى نرى ان الشخصية هي قوام العظمة وملاكها . وليس الأمر كذلك في الحالة الأخرى .

فما قوام العظمة وملاكها لدى الروّاد والمكتشفين والمخترعين ؟

فصاحت « دوللي » : هذا سؤال جدّ عسير . وقد أمسكنا أخيراً بخناقك !

فضحك القوم كلهم . وضحك الفيلسوف لضحكهم . ثم أجاب في هدوء وتؤدة : ما الذي أصار « كولومبس » شخصيةً عالمية . ولم يضف هذه الصفة على « فاسكودا جاما » ؟

فلو أنّ شخصاً مجهولاً كان أوّل نازل بأرض « سان دومنجو » لكان الظن به ـ أكبر الظن ـ أن يصيبه الزكام وأن يبنى له نُصُب ينقش عليه : « مكتشف أمريكا » .

وقد صار « كولومبس » الشخصية الحيّة التي يعرفها كل طفل في هذه الدنيا عن طريق قصته التي هي بالأساطير أشبه . فقد نشأ فقيراً يكسب بضع دراهم . ثم شبّ فصار شابًّا مغموراً يسافر إلى بلاد بعيدة تلازمه أحلامه الضخمة . ثم ظلّ بعد ذلك عشرين عاماً يطارد القوم ويلاحقهم ـ في إلحاح والحاف ـ بمشروعاته الخيالية . ثم اذا هو آخر الأمر يستطيع أن يسحر لبّ أقوى ملكةٍ في زمانه حتى لتنزل لهذا المغامر عن حليّها . وحتى لتستودع هذا المخاطر بواخرها وحتى لتمنيه بالثروة والجاه .

ثم يسافر هذا المغامر فوق متن البحر . ويكتشف أرضاً وهو لا يعرف أنه قد اكتشفها . ثم يعود فيصبح سيّداً من أولي المجد . ثم يوشى به ويفترى عليه . ثم يسلك في السلاسل والأغلال . ثم يموت يوم وافته منيّته مجهولاً من الناس كلهم . بل جاهلاً هو أنه قد اكتشف ما اكتشف .

إنها هذه الصورة التي تصوّر عظمته . وهي قصةٌ يتوجها الخطأ !

العازفة : ما أبدع هذا الوصف ؟ لكأنك شاعر من الشعراء !

فضحك الفيلسوف وقال : لتمنيت أن لا أكون شاعراً . ذلك لأني أنظر في الصفحة الأخرى التي تناقض الشعر . إني أنظر الى الصدق !

دوللي : نعم ! نعم ! ولكن ما قولك في الروّاد عندنا . هل تقول أنهم لم يكونوا عظماء ؟

— إنهم كانوا رجالاً بارزين . ومع ذلك فلم يشتهر منهم أحد .

التاجر : وعلى هذا فانك تجعل الشهرة صنواً للعظمة ؟

— إنما أقول أنّ الشهرة آخر الأمر أي في غضون أجيال تحدّد مكانة أعلام الرجال . إنّ نبوغ رجل من النوابغ قد يظل منكوراً لجيل أو جيلين . ثم إذا بهذا النبوغ يُعرف قدره ، ويشتهر بين الناس أمره . حدث هذا « لكوبرنيكوس » و « لجاليليلو » اللذين كانا عند الناس في عداد القوم الضالين المضلّين .

وكان هذا نصيب كثيرين من رجال الفنون بل من النبييّن .

إن كثيراً من الرجال أولي الفضل ينالون من قومهم فوق ما يستحقون من قدر ثم ينسون بعد حين . وإنّ آخرين منهم لا يقدرهم قومهم حق قدرهم . ثم يُرفع قدرهم بعد حين. وهذا ما يفسر لنا العزلة التي يسعى وراءها ذوو الفضل من الرجال . حتى أولئك الذين يقومون على خدمة الجمهور . بينما نرى أناساً هم في المقام الثاني يفرّون من العزلة ويهربون . ودليل هـذا قائم في المقارنة بين «شارل الخامس» . وكان أقوى ملك في زمانه . وبين «سيزار بورجيا» فان الأول كان خليف عزلة . بينما الآخر — وقد كان مدخول النسب — كان لا همّ له الا أن يرى الأيدي تصفق له . وألا أن يسمع الألسن تهتف باسمه وتمجده .

التاجر : وماذا تسمي أولئك الرجال الذين قدرت أعمالهم الجيدة حق قدرها وهم أحياء ثم لم يمجد فضلهم وقد غيّبتهم القبور ؟

الفيلسوف (مبتهجاً) : إني أسميهم رجالاً محظوظين . ولو أنك سألتني من هو الرجل العظيم الذي استمتع بالوجود الكامل في حياته . والذي ظلّ اسمه مذكوراً طوال الدهور لقلت . . .

قالت العازفة : انه لورد بيرون ؟

قالت المدرّسة : بل هو اوغسطس ؟

الفيلسوف : قد يمكن أن يكونا كذلك لولا ما غشى أيامهما الأخيرة من عتمة وظلام . والرأي عندي أن العبقريّ الكامل هو « تيتيان » (١٤٧٧ — ١٥٧٦)

التاجر : إننا لا نعرف من أمر صاحبك هذا شيئاً .

وقالت المدرسة (وقد بان عليها الغضب) : اذا كان الأمر كما تقول فلماذا لم تكتب تاريخ حياته ؟ .

الفيلسوف : ذلك لكي لا أفقده ! وعلى أية حال فقد كان هو واحداً من أولئك المصورين العظام . القلائل الذين أنجبهم العالم . بل قد يكون أعظمهم . وهو في الوقت نفسه قد عاش كواحد من الملوك . بل هو قد جعل الملوك تحس أنه أعلاهم مقاماً . فقد كان نابغاً في فنه . وقد كان نابغاً في حبه . وقد كان نابغاً في بعد صيته .

مثل هذا الرجل يذكرني بتلك الأشجار الهائلة الضخمة التي تقوم في الغابة كالحصون

وهي تَـطلّ من أعاليها على نجوم الغبراء التي لا تقوم على سوق .

ومن نجوم غابتنا ـ أي هذه الدنيا ـ ظللت طوال حياتي أرقب هذه الأشجار الهائلة الضخمة . وذلك منذ رأيتها أول مرّة في « أفريقيا » وهي شامخة الذرى . ومذ كنت أرى طائراً ضخماً يطير من شجرة الى أخرى حيناً بعد حين .

التاجر : ولماذا لم تفتش عنهم يوماً من الأيام فيما بيننا . وفي عقر دارنا ؟

الفيلسوف : لقد فعلت ووجدت أعظم رجل قابلته في حياتي .

دوللي : ومن كان ذلك الرجل : هل كان الرئيس ولسن ؟

العازفة : هل كان « بدروفسكي » ؟

التاجر : بل هل كان « هنري فورد » ؟

وعندئذٍ صاح الطفل وهو يردد إسم « هنري فورد » . ذلك لأنه كان يعرف الاسم .

الفيلسوف : لقد عرفت الثلاثة . ثمّ توقّف الفيلسوف عن القول ونظر إليه القوم آملين راجين .

وظلّ هو ساكتاً يستمتع بما أثار فيهم من تطلّع . ثمّ تكلم فقال : إنه كان « توماس إديسون »

قالت « دوللي » وقد خاب أملها : تقول من ؟ ولكن لماذا يكون اديسون ؟ ألأن إسمه يذكّرنا بالمصباح الكهربائي . وبالفونغراف . أو لأنه قد يكون لصاحب هذا الإسم بعض العلاقة بجهاز الصّور المتحركة . وربما بالراديو ؟

ـ كلاّ ! فلا دخل للمصباح الكهربائي أو الفونغراف . إنّ شخصية « إديسون » كانت من ذلك النوع القوي المتسلط الذي يخضع له كل من تربطه به صلة .

وهو كرجل تقدّمت به السن ـ يوم رأيته ـ كانت تلوح على ملامحه العظمة . فرأسه الوقور الذي اشتعل « شيباً » . والذي لم ينحني من أثر السنين . بل زاده تقدم السن رفعة واعتزازاً . وضحكته التي هي بضحكة الشباب أشبه . وصوته الجهوري الذي ينبئك عن صمم صاحبه . والتزامه للمألوف في كل شيء . وابتهاجه الذي يشعّ تلألؤاً وضياء . كل أولئك يكفي لو كنت رأيته جالساً على الرمل عند غروب الشمس دون أن أعرف من كان هو . حتى

لأرى نفسي مدفوعاً الى السؤال : من هو ذلك الرجل الكامل ؟

إنّ خيالنا يوجد تلازماً بين هذا الرجل العظيم وبين جميع الأعمال التي فكّر فيها . وكذلك بينه وبين صنوف الكفاح التي تغلّب فيها على خصومه . وكذلك بينه وبين ومضات الفكر الوضّاءة التي أضاءت العالم . ولن يجد الباحث شيئاً من هذا عند « هنري فورد » أو « بدروفسكي » أو « ولسن » وكلهم قد قاموا بأعمال جليلة في عصرنا هذا .

التاجر : وما رأيك في « باستور » ؟

العازفة : وما رأيك في « دارون » ؟

الفيلسوف : رجلان من العظماء . ومع هذا فإنّ مجدهما لا يرجع الى ما اكتشفه كلاهما أو اخترعه . فإنكِ لن تجدي الاّ رجلاً في كل عشرة آلاف قد قرأ شيئاً عن أعمالهما . ولكن اللبن المعقّم على طريقة « باستور » ، وتلك النظرية المزعومة التي تقول إنّ الانسان من سُلالة القردة قد تأثّر بهما خيال الملايين من الناس . بينما « كوخ » و « لامارك » اللذان يكادان يدانيهما عظمة لم يوهبا شهرتهما .

دولي (وهي تهزّ كتفيها) : كل هذا ظاهر عندي الى أبعد حد .

الفيلسوف : وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟ وقد نطق الفيلسوف هذا القول بلهجة التوكيد . ذلك لأنه كان يقصد الى كسب رضى المستمعين اذا لم يستطع إقناعهم الاقناع كله .

ثم استطرد يقول : إنّ الذي يهزّ مشاعرنا كلنا عند التحدث عن العظمة هي الأعمال الانسانية . إننا نرى صورة أنفسنا منعكسة في صورهم ذلك لأنّ كل واحد منّا يجدّ ويسعى لمثل ما جدّوا وسعوا . ولكن مع الفارق في القياس . فعامل المصعد عندما يقرأ كيف ارتقى « لنكولن » يحلم أنّه سوف يصير مدير فندق في بضع سنين

التاجر : إننا بصفة عامة نرى صورنا منعكسة في صور معاصرينا فمن من زعماء عصرنا نحسبه عظيماً ؟

الفيلسوف : لست أستطيع الجواب عن هذا قبل عام ٢٠٠٠ عندما نعود الى هذا الشاطىء ذلك لأن المحيط الهادىء لن يناله التغيير إلاّ قليلاً فتتشابك العقول اليوم يجهل

من الصعب أن تفسّر أعمال كل فرد تفسيراً نستريح اليه

دولي (ضاحكةً) : ولماذا تولاك الحرص والحذر بغتةً قلها كلمة صريحةً ولا تخف ! أتحسب « تشرتشل » رجلاً عظيماً ؟

الفيلسوف : لن يستطيع أحد الجواب قبل أن يعرف أولاً كل الأسانيد المدعمة التي لا تزال سرًّا غامضاً وأن يضمّ اليها أوراق « تشرتشل » الخاصة وكذلك قبل أن يعرف الموتة التي سوف يموتها

فإن حياةً بغير فصلٍ ختامي إنما هي جزء من حياة لا حياةٌ كاملة، مثلها في ذلك مثل تمثال لم يتمّ نحته أو مثل رواية لم تتم فصولها ، فمن يعرف كيف كان يسلك « ولسن » في عداد العظماء لو أنّه كان قد قتل في نوفمبر من عام ١٩١٨ ؟

العازفة : إذن أنت تعتبر الموت جزءًا من الحياة ؟

— بل اعتبر الموت أكثر من ذلك إنّه المفتاح لفهم حياة الرجل

التاجر : (في لهجة الشك) : إذن فالأمر عندك أن كل شهيد يمكن أن يكون رجلاً عظيماً

الفيلسوف : كلاّ ! إنّ المسيح لم يكن عظيماً بسبب صلبه وإلاّ ـ لو صحّ هذا ـ لكان ضحايا النازي الأبرياء كلهم عظماء

إنّ المسيح كان عظيماً ذلك لأنه كان يعظ الناس ويهديهم الى سواء السبيل، وليس ذلك فحسب ، بل لأنه كان يعمل بما يوصي به . وقد ضحّى في سبيل ذلك بحياته . وقد يكون سقراط أعظم تضحية ذلك لأنه مات بمحض ارادته . ليضرب لقومه الأمثال . وقد كان سقراط يستطيع أن ينجو . أما المسيح فلم يكن له خيار في الأمر . وكذلك كان قتل « الرئيس لنكولن » في الساعة التي كسب فيها الحرب سبباً في كسب قلوب قومه وقلوب ذراريهم .

التاجر : وماذا ترى في غاندي ؟ أليس هو أيضاً يشبه الى حدّ ما نبيًّا كعيسى ومحرراً « كلنكولن »

— نعم هو كذلك . ولكنه لا يزال حيًّا (كان ذلك بالطبع قبل قتل غاندي) فاذا قدر عليه أن يموت في أثناء نوبةٍ من نوبات اضرابه عن الطعام فان الجنود قد يتخذوه الهاً

ولكنه لو ساء حظه فتولى رئاسة الحكومة فانه سوف يكون باعثاً لخيبة الأمل عند كثير من أتباعه ومريديه · فغاندي يراه الناس في خارج الهند عظيماً ذلك لأنه ابتدع قاعدة تمت الى الدين بصلة قوية وهي قاعدة « عدم العنف » وهو بسبب هذه النظرية يسلك في عداد الرجال « العظماء »

دوللي : ولماذا لا تتكلم إلاَّ عن الرجال كأن ليس بين النساء عظيمات ؟

الفيلسوف : ذلك لأن العظمة بين النساء هي أقلّ وأندر وهي أكثر تعقيداً من العظمة عند الرجال . إن عظيمات النساء في التاريخ قد روعي في قدر عظمتهنَّ أنهنَّ نساء، فالجنس هو الذي أوحى بالحكم لهنّ بالعظمة وليس كذلك الحال ـ في الأعم الأغلب ـ مع العبقريين من الرجال، فالملكات وحظايا الملوك اللائي نعرفهنّ هنّ خير أمثلة على هذا القول « فكاترين » الكبرى قد تأثرت بحياتها الجنسية أكثر مما تأثر بها عدوّها « فردريك الأكبر » ولو أنه كان ذا شذوذ جنسي وكان لذلك أكثر تأثراً بالمسألة الجنسية أكثر من الرجل العادي

المدرّسة : ألا ترى أنه كانت هناك بضع نساء عظيمات من المجاهدات ؟

الفيلسوف : إنك تجدين منهنَّ في الأمم التي تغلب عليها العاطفة كالفرنسيين والروسيين وأنك لن تجدي بين الانجليز السكسونيين فتاة « كجان دارك » أو « شارلوت كورداي » وإني لتعجبني المرأة التي ترفع العَلَم · أو تحمل السيف دفاعاً عن الحرية أكثر مما يعجبني الرجل . ذلك لأن نصيبها من العذاب في ذلك يكون ضعفين · وذلك لأنّ حمل السلاح ليس من تقاليد النساء ·

وهذا القول يذكر القارئ العربي بقول الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جرّ الذيول

العازفة : وأولئك النسوة اللائي كنّ عظيمات في فنون الحب ؟

فتبسم الفيلسوف وقال : إن المرأتين اللتين قد فتنتا قومهما وذراريهما أكثر من غيرهما (وهما « كليوبطره » ـ وهي أشهر من أن تعرف ـ « ونينو دي لينكلو » ـ ١٦٧٠ ـ ١٧٠٥ ـ وهي التي فتنت « ريشيليو » بذكائها وجمالها) قد كان الحب الدافع لهما والموحي إليهما . وقد كان بين النساء بضع شاعرات وبضع مصورات · ولكنهنَّ لن يمكن

أن تصح المقارنة بينهن وبين معاصريهن من الرجال .

فقالت دوللي لصاحبتها : أرأيت كيف يجعلنا في المقام الثاني ؟

الفيلسوف (ضاحكاً) : بل بالعكس فإنكن في المقام الأول : ذلك لأن معظم النساء يعرفنَ الطريق التي تشعر الناس بقوّة نفوذهن وعظم سلطانهن . وهو ما لا يستطيعه إلاَّ القليل من الرجال . ولذلك فإنَّ النساء لسنَ بحاجة الى العظمة أكثر من حاجتهن الى الجمال والفتنة والجاذبية . ففي كل العصور كان النساء هن الملهمات للرجال . ولكننا لا نعرف إلاَّ القليل مما أوحينَ به . ذلك لأنهنَّ يعملنَ أعمالهن خلف أبوابٍ مقفلة . ولم يتسرب إلينا إلاَّ بضع قصاصات مما أفضينَ به — في ساعة من ساعات النزق — لأصحابهن . أو مما بحنَ به بدافع من غرورهن .

فيوم سمحت «كليوباطرة» لنفسها أن تُطوى في بساط . وأن تُحمل الى قيصر الذي غزا بلادها . وفتح عاصمة ملكها . وأن تخرج من بين طيّات البساط . إنما كان هذا منها لمحة من لمحات عبقريتها . وتلك اللمحة هي عندي بمنزلة اكتشاف «كولومبس» لأمريكا .

والمرأة لم تكن حقّـا عظيمة في يوم من الأيام إلاَّ في ميدان حياتها الخاصة . ولهذا كان من الصعب جدّاً أن تعدّ النساء العظيمات .

ولذلك فلست تجدهن عادةً إلاَّ في الروايات والصور حيث يقوم واحد من الفنانين — بوحي من عبقريته — فيخلّدهن .

إنَّ صوت المرأة الخريد الملهم لا يسمع إلاَّ في الخفاء .

* * *

ثمّ ما لبثت العازفة على الكمان أن مالت على وليدها - وهي تشير الى الشمس الغاربة وتقول : أنظر ! إنَّ المساء قد أقبل . وإنَّ الشمس العظيمة لتحيينا تحية الوداع .

فمدَّ الطفل ذراعيه نحو النور وهتف قائلاً : امنعوا الشمس أن تغيب ! .

(عن الانجليزية) مبارك ابراهيم

الكيمياء والطب

(هناك في تلك المعامل الحية العامرة بالنشاط والتوقد حيث يتابع صانع المعجزات تجاربه وبحوثه . . . يكمن البلسم الشافي لجروح البشر ؟ !)

﴿ من تاريخ الكيمياء ﴾ إذا نحن تصفحنا سجل الأيام لرأينا أن تاريخ الكيمياء يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل . . . فالمرحلة الأولى كانت عصر السيمياء « حين كان علم الكيمياء مرادفاً للسموم والشعوذة . . وقد بدأت السيمياء في مصر القديمة. وحين انتشر العرب الغزاة في أفريقيا الشمالية أخذوا عن مصر معرفتها ووسعوا آفاقها . . وفي القرنين العاشر والحادي عشر حين كانت معظم بلدان أوربا تغط في نوم عميق كان العرب ينشئون الجامعات في أسبانيا وأفريقيا .

وكانت المرحلة الثانية عبارة عن تطبيق الكيمياء في الطب فبإجراء التجارب للبحث عن أدوية وعقاقير جديدة ورؤية أثرها على الجسم الإنساني بدأت الكيمياء الحقيقية تأخذ مكانها في الظهور ؟ فالبحث عن الدواء والتطبيب كان له أثر وأي أثر في إنماء علم الكيمياء الحقيقي ومن تلك الآثار القديمة نجد الصيدلي يطلق على نفسه كيميائي .

أما الطور الثالث فهو دراسة الكيمياء كعلم مستقل بذاته .

﴿ الرهبان والطب ﴾ : وفي أوربا خلال العصور الوسطى كان أغلب العمل الطبي في أيدي الرهبان ما عدا الجراحة التي تركت مزاولتها للحلاقين .. وما كان للرهبان أن يقربوها فهي محرمة لما يراق فيها من دم .. وبذا فقد وجهوا عنايتهم الى تحضير أدوية من الأعشاب الطبية . وقد أنتج هذا أول فرق بين الجراح والطبيب الذي استمر حتى القرن التاسع عشر .

﴿ أول صيدلية ﴾ : وأول صيدلية بالمعنى القديم أنشئت في لندن سنة ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين وبدأت الأدوية الطبية المحضرة من الأعشاب تأخذ طريقها إلى

الظهور . وفي سنة ألف وخمسمائة وثلاثين ذاعت شهرة طبيب يدعى فيلبس أورالس نيوفراتس الذي كان مشهوراً باسم باراسيليس والذي ترك وصفات بالمدية جد غريبة في كتاباته ومذكراته .

وأعقب اكتشاف الأسبان والبرتغال لجنوبيّ أمريكا ظهور أدوية جديدة من أهمها الدواء الذي كان يطلق عليه اسم « قلف بيروفيان » . وفي سنة ألف وثمانمائة وأربعة وعشرين فصلت المادة الفعالة من هذا الدواء الطبيعي وسميت « كينين » التي استعملت في علاج الملاريا وقد حضرت اليوم هذه المادة في المعمل .

﴿ الـكيمياء كعلم مستقل ﴾ : وفي أوائل القرن التاسع عشر اكتشف أحد الـكيميائيين في باريس عنصر اليود وبذا قلبت الصورة وبدأت الـكيمياء كعلم مستقل تقدم للصيدلي أدوية جديدة . وما وافى الثلث الأول من هذا القرن على نهايته حتى كانت هنالك مصانع الأدوية تصنع النشادر وحامض الخليك والأثير وكلوريد الزئبقوز وأملاح البزموت واليود . ثم نجح العالم رونج في تحضير حامض الـكربوليك (الفنيك) وكان لهذا أهمية كبرى فيما بعد إذ كان أول مطهر استخدمه الطبيب الأشهر « ليستر » في الجراحة .

﴿ إصابات التسمم ﴾ : ولا يمكننا اليوم أن نتصوَّر الفزع الأكبر من إصابات التسمم في العمليات الجراحية في الأيام الأولى . حتى منتصف القرن التاسع عشر، إذ كان الموت من حمى التسمم هو النتيجة المحتومة للعمليات الجراحية الـكبيرة . ففي خلال الحروب كانت عشرون في المائة من عمليات البتر تصاب بالغنغرينة الغازية مسببة الموت . وأثناء حصار باريس في الحرب السبعينية كان كل جرح تقريباً يصاب بالتسمم، وما كان الجراح بعمله ليؤدي الى تحسين الحال لعدم توافر عوامل النظافة التامة .

ثمَّ حدث تطور . فان ليستر متتبعاً لخطوات باستير بدأ يستعمل المواد المطهرة فكان يضع في حجرة العمليات وعاء يحوي مزيجاً من حامض الـكربوليك والماء في حالة غليان فيتصاعد البخار في الجو ويطهره من الميكروبات مما كان له أثر في تقليل إصابات التسمم في جروح العمليات الى مدى بعيد .

﴿ مطهرات أخرى ﴾ : ولم يلبث أن ظهرت مطهرات جديدة مثل فوق اكسيد

الايدروجين ونترات الفضة وبرمنجات البوتاسيوم والفورمالين محلول مائي (للفورمالدهيد) والليسول (وهو مستحضر من حامض الكربوليك).

وظلت الكيمياء تعمل لخدمة الطب والبشرية . ففي سنة ألف وثمانمائة وست وثمانين وجد الباحثان كالن وهب وكانا يجربان مادة النفتالين أثر هذه المادة الأخيرة في تخفيض درجة حرارة الجسم فحضرا منها مركباً يسمى « فيناستين » استعمل لعلاج الحمى . كما ظهر الاسبرين أحد الأدوية الحديثة الواسعة الانتشار في نهاية القرن التاسع عشر .

﴿ قصة عقار السالفارسان ﴾ : وإن اكتشاف العالم إرليخ للعقار المعروف باسم « سالفارسان » ليعتبر مثلاً بيناً للبحث الكيمائي الموجه لخدمة الطب . فقد وجد ذلك الباحث الكبير أن ميكروبات المرض التي كان يريد التغلب عليها تمتص صبغة خاصة بدرجة فائقة . وبذا فكر في أن يدخل داخل التركيب الكيميائي للصبغة مادة سامة كالزرنيخ تمتصها الميكروبات فتسمم وتهلك ، وبعد بحث متواصل شاق ومئات من التجارب المضنية أمكنه في سنة ألف وتسعمائة وعشر أن يحضر مثل تلك المادة وأسماها كما أسلفنا « سالفارسان » وكان لها أثر رائع عظيم في العلاج

﴿ الأنسولين ﴾ : ومثل آخر لفائدة الكيمياء للطب هو إنتاج مادة الأنسولين التي يداوى بها مرضى السكر .

﴿ قصة السلفاناميد ﴾ : ثم هناك عقار السلفاناميد . ومن منا لم يسمع بهذا العقار أن قصته قريبة الشبه بقصة السالفارسان . وإن فصول قصته شائقة فيها من الطرافة والإبداع الشيء الكثير. وسأحاول فيما يلي أن أسردها على القارىء في كلمات قليلة

بدأت القصة في سنة ١٩٠٨ حين قدم العالم الشاب جيلمو رسالة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة فينا ، وكان موضوع رسالته عن تحضير مادة من مركبات القطران تسمى باسم « السلفاناميد » . ثم مضت سنة اكتشف بعدها أحد البحاثة الكيميائيين في مصنع من مصانع الأصباغ في ألمانيا أن هذا المركب السالف الذكر باتحاده مع مركبات كيميائية أخرى يمكننا الحصول على أصباغ تتحد بقوة مع جزيئات البروتينات التي يتكون منها الصوف والحرير. وبذا تعطى ألواناً ثابتة . وحدا هذا بعض العلماء إلى القول بأن السلفاناميد قد

تكون له نفس القوّة الاتحادية بالبروتينات التي تكوّن أجسام الطفيليات المسببة للأمراض ولكن هذا الرأي الجريء لم يخرج إلى حيز التجربة لسنين عديدة .

ثم كانت سنة ١٩٣٦ ، حين بدأ الدكتور ليونارد كوليروك الطبيب بمستشفى الملكة شارلوت بلندن يجرب هـذه المادة في علاج الحمى التي تصيب الأمهات غالباً بعد الولادة والتي كانت تؤدي الى الموت في خمس وعشرين في المائة من الحالات .

عالج الدكتور أربعة وستين حالة بالعقار الجديد فأنقذ حياة واحد وستين اماً ونقصت نسبة الوفيات إلى أقل من خمسة في المائة

وقد ألقى ليونارد تقريره عن العلاج الجديد في لندن في صيف تلك السنة في الاجتماع العالمي الذي خصص للبحوث الخاصة بميكروبات المرض .

واتجهت الأنظار الى « السلفاناميد » وبدأت التجارب تترى والبحوث تتتابع لرؤية أثره العلاجي في مختلف الأمراض تلك التجارب والبحوث التي أظهرت الأهمية الكبرى للعقار الجديد وخدماته الجليلة للانسانية فقد ثبت نجاحه في القضاء على ثلاثين مرضاً من أمراض الميكروبات .

ومن ثمّ خط لنفسه في السجل الخالد لحرب الانسان الكيميائية ضد المرض صفحات عديدة عامرة وكان له أثر وأي أثر في السير بركب الحضارة قدماً إلى الأمام تجاه عالم أسعد وأصح .

﴿ مشتقات السلفاناميد ﴾ : وتتابع البحث فوجد الكيميائيون أن للسلفاناميد تأثيرات سامة على المرضى وبذا حاله العلماء وأخذوا يعملون لانتاج مشتقات منه تقتل الميكروبات ولكنها في الوقت نفسه لا تؤذي الجسم . وتوّجت مجهوداتهم بالنجاح ونجحوا إلى مدى بعيد فيما رموا إليه .

ومن هذه المشتقات التي ابتكروها وحضروها مادة « السلفابيريدين » التي ثبت أن لها أثراً أقوى من المادة الأم في محاربة أنواع خاصة من مرض الالتهاب الرئوي والسيلان ورغم أن تأثيراتها السامة على الجسم كانت تماثل تأثير السلفاناميد إلاّ أن أثرها الأقوى والأسرع في العلاج يجعل خطرها على المريض أقل .

ثم ظهر السلفاديازول . السلاح القوي الذي كان له أثر فعّال ضد عديد من الأمراض والذي كان أثره السام على الجسم أقل بكثير من أثر أي من العقارين السالفين . وبظهوره لم يعد مرض التهاب البريتون ذلك الشبح المفزع المخيف الذي كانت تخشاه الانسانية .

ولم يلبث الكيميائي أن قدم للبشرية عقار « السلفاديازين » الذي رقأ كثيراً من جراحها نظراً لقوته الفائقة كقاتل للجراثيم ولأثره السام الجد هزيل على أجسامنا ، بل لقد أمكن به استخدامه التخلص من التسمم الناجم عن استخدام عقاقير السلفا الأخرى . ! !

وقد أبانت الأيام والسنين فضل السلفاديازين في الحياة الحربية والسلمية كعلاج للحروق إذ يمكن رشه على الحرق فيزول الألم وتنمو البشرة الجديدة على جناح السرعة .

وقصة مركبات السلفا قصة طويلة عامرة الفصول فهناك أيضاً مركب « السلفاجوانيدين » الذي ركبه العلماء لمحاربة أمراض الأمعاء التي لا قبل للمركبات الأربعة السالفة على القضاء عليها . وللعقار الجديد فائدة عظمى في علاج مرض « الدسنتاريا البكتيرية » ذلك المرض الذي حطم الجيوش خلال التاريخ . أما اليوم فيمكن بتناول هـذا العقار القضاء على أغلب حالاته في مدى يتراوح بين ثلاثة وخمسة أيام يغدو بعدها الجندي معافى قادراً على الجهاد في سبيل وطنه وبلاده .

وبعد .. إن آلافاً من الأفراد يرجع الفضل في تمتعهم بالحياة اليوم إلى مركبات السلفا التي حمتهم من ميكروبات أمراض كانت فاتكة قتالة منذ سنين . ففي مدى خمس سنوات أنقصت هذه العقاقير العجيبة الفائقة القوة نسبة الموتى في المصابين بالالتهاب الرئوي إلى الثلث ، وفي مرض التهاب الزائدة الدودية إلى النصف .

وخلال الحرب العالمية الأولى كان التهاب الأغشية المحيطة بالمخ والنخاع الشوكي أحد الأمراض الخطرة الهائلة الانتشار ولكنه ما عاد اليوم خطراً كما كان من قبل .

وإن مرض السيلان الذي يصيب كما تدل الاحصائيات حوالي اثنا عشر مليوناً من الأفراد في الولايات المتحدة وحدها والذي يؤدي إلى آلام خطيرة عديدة ، من الأمراض التي كان للسلفاديازول وغيره من مركبات السلفا نتائج باهرة في علاجه .

﴿ السر الأعظم ﴾ : والسر في الأثر الفعّال لهذه المركبات لم يفسر بعد . ويبدو لبعض

الأطباء أنها لا تقتل جراثيم الأمراض ولكنَّ لها فضلاً في وقف نمو البكتيريا المسببة للمرض وبذا تتيح لكريات الدم البيض أن تهاجم هذه الأعداء .

﴿ قصة البنسلين ﴾ : ورغماً عن الخطوات الواسعة التي خطتها البشرية في محاربة المرض بفضل مركبات السلفا فان البنسلين العقار الجديد القاتل للميكروبات الممرضة ، والذي شاع استعماله وذاع قد تفوَّق على أسلافه في نواحٍ عديدة . فهو مثلاً أبعد أثراً منها في مداواة الجروح والحروق . ولنقص على القراء قصة البنسلين في كلمات قليلة من بدايتها .

﴿ بدء القصة ﴾ : إنَّ البنسلين مادَّة مقاومة لنمو الميكروبات وتكاثرها وهي إفراز لفطر شائع يسمى « بنسليوم نوتاتم » مشابه للعفن الذي ينمو على الجبن والعيش . وقد اكتشفها مصادفة في سنة ١٩٢٩ الدكتور الكسندر فلمنغ ، وهو عالم انجليزي من علماء البكتريولوجيا ، إذ بينما هو يجري تجاربه وبحوثه الخاصة على إنماء الميكروبات وتكاثرها في أطباق زجاجية خاصة تحوي المواد الغذائية اللازمة ، إذا به يرى أحد المزارع البكتيرية التي أمامه وقد تسرَّب إليها فطر دخيل كان له أثر في إذابة ما حوله من ميكروبات .

أثارت هذه الحادثة عالمنا الباحث ففصل الفطر ونقاه تنقية تامة من الميكروبات المحيطة به ودرس تاريخ حياته وألفاه من النوع المسمى « بنسليوم نوتاتم » ثم رباه على أطباق من الزجاج في محلول غذائي خاص ، ولم تمض عدَّة أيام حتى بدأ الفطر يفرز مادَّة كيميائية صفراء أطلق عليها فلمنغ إسم « البنسلين » نسبة الى بنسيليوم . وقد وجد لهذه المادَّة أثر بعيد في قتل عديد من ميكروبات الأمراض التي تهز الانسان بويلات ضحاياها .

﴿ الأستاذ فلوري ﴾ : وقد بدأت المحاولات الأولية لاستخلاص البنسلين في حالة نقاء تام عام ١٩٣٢ ولكن كان نصيبها الفشل . ولم تلبث أن تركت هذه البحوث وأهملت حتى سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤١ حين بدأ جماعة من البحاثة في قسم الباثولوجيا الطبية بجامعة اكسفورد ـ وعلى رأسها العالم الفذ الأشهر « الأستاذ فلوري » ـ بإجراء تجارب دقيقة على هذه المادَّة الصفراء القاهرة العجيبة واستخلاصها وكشف فوائدها العلاجية العديدة .

وقد كللت تجارب الباحثين وبحوثهم بأكاليل النصر والنجاح فأخرجوا الى العالم أنجع عقار علاجي عرف حتى اليوم في الطب الوقائي . وانتخب الأستاذ فلوري بفضل هذا

الاكتشاف العظيم والعمل الباهر عضواً في الجمعية الملكية البريطانية عام ١٩٤١ تلك الجمعية التي لا ينال شرف الانتساب إليها إلا جهابذة العلماء الذين يقدمون للعلم خدمات فائقة جليلة ويفيدون الانسانية فائدة عظيمة متميزة .

وفي سنة ١٩٤٣ بدأت بعض مصانع الأدوية العلمية في إنتاج البنسلين وعرضه في السوق للاستعمال العام .

﴿ قوّة العقار الجديد ﴾ : وإن قوّة البنسلين في القضاء على الميكروبات قوّة فائقة رائعة إذ يمكنه أن يبيد ميكروبات المرض حتى ولو أذيب في مائة مليون جزء من الماء . !!

والى جانب قوّته التي تفوق قوّة مركبات السلفا فلم تنتج عنه أعراض تسممية حتى في حالات الجرعات الكبيرة .

وأول صفحة خطتها يد التاريخ لهذا العقار الحديث هي أثره الرائع في مداواة الجروح والقضاء على الميكروبات العديدة التي تجد طريقها من الجو الى هذه الاصابات ، فتسبب في الجروح العميقة مرض الغنغارين الغازي . وتعم تقارير الحرب العالمية الثانية بفضل البنسلين العميم في القضاء على هذا المرض الخطير المميت وفي تجنيب المرضى ويلات البتر في الحالات المستعصية منه إذ كان العلاج الوحيد من قبل في تلك الحالات هو بتر العضو المصاب .

والى جانب هذا يستعمل البنسلين في علاج أمراض عديدة مثل الالتهاب الرئوي والسحائي والدفتيريا والحمى المتقطعة والسيلان وغيرها وفي شفاء الحروق .

وفي منتصف سنة ١٩٤٤ أمكن بعد جهود عنيفة إنتاج البنسلين على نطاق واسع فأنشئ ٢١ مصنعاً للإنتاج في الولايات المتحدة وحدها وبذا توافر العقار الساحر للمجتمع البشري في كميات ضخمة تكفي لسد حاجة الجميع . ولم يعد على الأطباء أن يختاروا من بين مرضاهم من يعطى العقار المانح الحياة .. !!

* * *

ولم يتوقف ركب العلم بعد كل هذا الشوط الذي قطعه في القضاء على ويلات الانسانية وإبادة الميكروبات التي تعكر صفو الحياة بأضرارها وآلامها ، بل تابع تقدمه وتابع سيره . في سنة ١٩٤٠ أعلن الدكتور رين ديبو اكتشاف مادّة كيميائية قاتلة للميكروبات أسماها « جراميسيدين » وباختبارها ثبت أثرها الفعّال في علاج أمراض عديدة كإصابات المثانة

الخطرة التي عجزت مركبات السلفا عن شفائها .

وأظهرت معامل البحث أيضاً مادة « الستربتومايسين » التي كان لها أثر محدود في علاج المرضى بمرض تصلب الشرايين والتي يتنبأ لها بمستقبل في القضاء على مرض التيفويد .

﴿ علاج الملاريا ﴾ : وخلال الحرب الأخيرة حين زحفت القوات اليابانية على الشرق الأقصى أمكنها التحكم في خمسة وتسعين في المائة من موارد العالم في مادة الكينين . (أشجار الكينا) التي كانت تستعمل في علاج الملاريا . وهنا بدأ دور الكيمياء ودور جنودها المغاوير . فقد أخذ الكيميائيون في أمريكا يبحثون ويجربون في معاملهم حتى أمكنهم أن ينتجوا دواء حلّ محل الكينين القديم في العلاج وهو « الاتبرين » كما أمكن لأولئك البحاثة الأبطال الذين يقفون خلف أنابيب الاختبار إنتاج مادة كيميائية تسمى « بلاسموكين » تقتل الأطوار التناسلية لطفيليات الملاريا .

ويعلم القارىء أن ناموس الأنوفيلس هو الناقل للملاريا وهو يكثر في البرك والمستنقعات وبذا فإن قتل هذا الوسيط من أهم العوامل في القضاء على هذا المرض . . . وخلال الحرب العالمية الثانية أمكن للقسم الطبي بالجيش الأمريكي إنتاج « قنابل الصحة » وهي قنابل تحوي داخلها أقوى مبيد للحشرات أمكن انتاجه . . . وتتكوّن القنبلة من غلاف معدني يبلغ حجمه حوالي ست بوصات مكعبة بداخله المزيج القتال المجيد الذي يتكوّن من زيت السمسم ومادتين كيميائيتين هما « الفريون » « والبيريثرم » . وبمساعدة هذه القنابل كان في مقدور جيوش الحلفاء ابادة ناقلات الملاريا وغيرها من الحشرات المميتة في معسكراتهم وخنادقهم في مدى جد قصير ، وتجنبوا بذلك ما تعرضت له الجيوش في الحروب الماضية من ويلات الملاريا المميتة ومن أضرارها وآلامها . ذلك المرض الذي كانت ضحاياه لا تقل عن ضحايا القنابل والمقذوفات النارية . . .

وبعد فإن الإنسانية لتعلق آمالها وتعقد رجاءها في القضاء على آلامها ومتاعبها على تلك المعامل الحية العامرة بالنشاط والتوقد . حيث يتابع رسل الرحمة ومبعوثو العناية الإلهية جهودهم الرائعة وجهادهم العنيف ويجرون تجاربهم وبحوثهم في همة وحذق ونشاط . . .

جمال الدين محمد موسى

بين مصر والاندلس

اكتنف أسبانيا في الأعوام القليلة الماضيـة شيء من الغموض عن كنه مذهبها السياسي الذي تنتمي اليـه وسرعان ما كثرت الأقاويل وانتشرت الاشاعات بين الدول على لسان أصحاب الدعايات المغرضة نحو ارتمائها في أحضان الشيوعية . وقد نمت تلك الدعايات وانتشرت من بؤرة الشيوعية في موسكو لالتهام ذلك الحمل الوديع . وقد تكشفت تلك الحالة عن حقيقة واقعيـة كادت تودي بأسبانيا وتجرها الى عجلة الحزب الشيوعي ، كما هي الحال الآن في دول شرق أوربا لسرعة انتشار ذلك المذهب بين الطبقات الفقيرة ، كما هي عادة موسكو في السيطرة على شعب من الشعوب . ولولا يقظة الوعي القومي الذي بعث الاسبانيين الأحرار من سباتهم ليكبحوا جماح تلك الموجة الشيوعيـة التي كادت تطيح بنوع الحكم السياسي في اسبانيا لأصبحت ماركسية .

قضت الحرب الأهلية في اسبانيا التي نشبت بين الحمر « الشيوعيين » كما كانوا يسمون حينئذ ، وبين الوطنيين، والتي انتهت في ١٦ من يوليه ١٩٣٦ على آمال الشيوعيين وآخر ما تبقى لهم ، على يد أبطال أسبانيا الأمجاد من الحربيين ومعاونة رجال الجيش لهم وعلى رأسهم الجنرال فرانكو الذي جمع السلطة في يده ليسيطر على الحالة هنـاك ويقضي على كل ما يشتم منه رائحة الشيوعية في داخل بلاده .

ولم تكد أسبانيا تتفرغ بعد ذلك لإعادة ما قضت عليه الثورة الأهلية بها من ضروب الاصلاح والتعمير ،حتى أنتاب العالم نوع من القلق وعدم الاطمئنان عن نوع المساعدات التي تلقاها الجنرال فرانكو وأعوانه من الخارج لمساعدته في الحرب الأهلية . وكان للمحور بلا شك الفضل الأول في هـذا الانتصار ولولاه لمـا استطاع فرانكو أن يخضع الشعب الاسباني لحكمه .

وزاد من حدة التوتر والقلق أن نشبت الحرب العالمية الأخيرة بين الدول الديمقراطية والمحور دون أن تظهر أسبانيا بادرة يشتم منها روح التعاون مع الديمقراطية ، كما أجبرها موقعها الجغرافي على عدم الدخول في حرب مع المحور ضد الدول الديمقراطية لمواجهتها لسواحل أمريكا وانجلترا ولانتصارات الديمقراطيات أخيراً . فظلت أسبانيا على الحياد حتى لا تغضب كلا الفريقين المتحاربين ، فتكسب احترام الدول من جهة وتجنب البلاد ويلات الحرب من جهة أخرى ، ولولا ذلك لأحاطت بها الحرب من كل جانب وقضت على ما خلفته الحرب الأهلية من مخلفات البشرية .

وقد انتاب الدول الديمقراطية نوع من الشك عن موقف فرانكو تجاه المحور الذي كان له الفضل سابقاً في انتصاره على الشيوعية والذي انتظر المحور منه أن يرد الجميل إن لم يكن بمعاونته حربياً فبالوقوف سلبياً نحو أعدائه إلى أن تنتهي الحرب العالمية الأخيرة فخرجت اسبانيا منها ظافرة وتجنبت ويلات الحرب بفضل حيادها . ومع ذلك فقد اعتبرت الديمقراطية تلك الحيدة موالاة للمحور لالتجاء الألمان والغواصات والطائرات الألمانية إلى خلجان وموانى أسبانيا في أيام الحرب .

وما إن استقرت الأمور في نصابها وتكونت هيئة الأمم المتحدة حتى أخذت الدول الأعضاء بها تنظر في علاقتها مع الدول التي أيدتها والتي لم تؤيدها في الحرب الأخيرة ، فأ بعدت الهيئة في العام الماضي على اعتبار أن اسبانيا كانت متعاونة مع دول المحور وسحب رؤساء البعثات الدبلوماسية للدول الأعضاء في الهيئة من مدريد والاكتفاء على الأكثر بقائمين بأعمال .

وكادت تكون أسبانيا منعزلة سياسياً عن باقي العالم ، وشعرت بحرج موقفها وبحاجتها الملحة إليه ، فأخذت تحسن علاقتها مع الدول الديمقراطية بشتى الطرق الدبلوماسية والثقافية والتجارية ، وتهيء السبيل لتبادل زيارة البعثات والهيئات والأفراد بينها وبين الدول الأخرى وخاصة بعد أن أوضحت موقفها بالتغلب على الشيوعية بعد فشل جميع دول غربي أوروبا ، وبذلك صانت غربي أوربا من طغيان العناصر الشيوعية قبيل الحرب وبعدها .

وقد شهد عام ١٩٤٧ نشاطاً ملحوظاً في تلك الناحية ورقماً قياسيًّا بالنسبة للأعوام السابقة في عدد من زار أسبانيا من الأجانب إذ بلغ ١٢٧ر٦٨٢ جذبتهم شهرة أسبانيا العالميـة التي انتشرت في أرجاء العالم فعبروا آلاف الأميال على متن الهواء وصفحة الماء وبالسكك الحديدية . فعقد بمدريد في هـذا العام كثير من المؤتمرات السياسية والعلمية والدينية الى جانب زيارة الأفراد لها كسائحين أو حضور محاضراتها الجامعية وغير ذلك . فكان هؤلاء خير دعاة لأسبانيا لما لاقوه من راحة تامـّة في أثناء تنقلاتهم ولطف المعاملة وخاصة الماديـّة ، مما زاد حبهم لها ورغبتهم الشديدة في العودة إليها لزيارتها ثانياً وثالثاً إذا ما سنحت الفرصة .كما ودّ الآخرون البقاء بها .

وكانت أولى هذه الدول تلك التي ترتبط معها برباط الدم والتاريخ والتقاليد كمصر أو ترتبط معها علاوة على ذلك برباط الدين واللغـة، كدول أمريكا الجنوبية اللاتينية التي تعد المهجر والوطن الثاني للأسبانيين،ولم تقتصر العلاقة بينهما على إرسال البعوث من أسبانيا إلى أمريكا الجنوبية بل حصل العكس أيضاً . فأرسلت أمريكا الجنوبية البعوث الى أسبانيا ليردوا الجميل ولينهلوا من منهلها،فاستقبلتها الهيئات العلمية الجامعية والدينية أحسن استقبال، وأسفرت تلك العلاقات الطيبة عن إنشاء مراكز علمية للأبحاث الاسبانية في بوينوس ايرس بالأرجنتين وليمابيرو وسانتيا جوبشيلي وغيرها .

كما زارها من المصريين هذا العام ٧٧ عضو أكرمت وفادتهم مما ألهج ألسنتهم بالشكر والثناء على الأسبانيين قاطبة ـ ولا غرو فقـد أراد الأسبانيون من تلك الزيارات التي نظموها لتلك الدول، وخاصة التي تمت إليها بصلة، ألاّ تمضي دون أن يكون لها أبلغ الأثر الدائم في نفسية الشعوب التي تتبادل معها تلك العلاقات من جمهوريات أمريكا الجنوبية التي لا تزال تؤيدها لانضمامها لهيئة الأمم المتحدة .

وكان نتيجة لتوطيد علاقة أسبانيا بالدول الأجنبية ودعوة هيئاتها السياسية والعلمية والاقتصادية لزيارتها وعقـد المؤتمرات بها، أن أخذت هـذه الدول تغير من موقفها إزاء أسبانيا وميلها الى الرجوع في قرار هيئة الأمم المتحدة بإعادة علاقتها الدبلوماسية مع أسبانيا الى الوضع الطبيعي ومن بينها مصر التي عينت وزيراً مفوضاً لها بمدريد هذا العام

وكان من الهيئات العلمية التي حظيت بزيارة اسبانيا بعثة من جامعة فؤاد الأول إذ وجهت الحكومة الأسبانية إليها الدعوة على أثر زيارة السنيور جومت - المستشرق الأسباني ومدير معهد البحوث العلمية بغرناطة - لجامعة فؤاد وإلقائه عدة محاضرات بكلية الآداب .

فأثارت تلك الزيارة حمية المصريين ، ونبهت مشاعرهم وحركت الذكريات العربية عن مجدهم التليد الذي شادوه هناك .

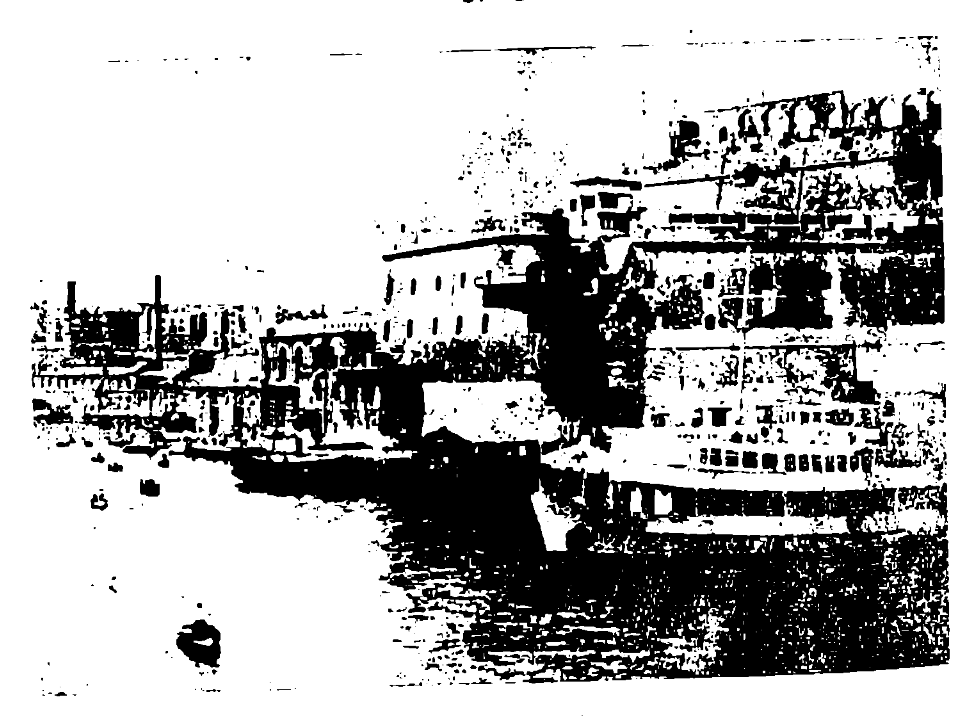
وتسابق من علم من أبناء كلية الآداب لاغتنام السبق لتسجيل إسمه ليحفظ لنفسه حق الأولية في اختياره عضواً بهذه البعثة الميمونة ، وكان التنافس شديداً لأنها أول رحلة جامعية الى أوربا عقب الحرب العالمية الأخيرة التي شغلت جميع العالم عن القيام بهذه الزيارات في خلال السنوات العشر الأخيرة . كما أنها ستتيح الفرصة لإشباع رغبة قوية لمعرفة ذلك الوطن الثاني للخلافة الاسلامية في الغرب إبان القرون الوسطى والذي تربع فيه المسلمون على عرش الرومان والقوط في أسبانيا زهاء ثمانية قرون من القرن الثامن حتى الخامس عشر الميلادي ، والوقوف على مدى ما تركه العرب هناك من الآثار في الدم والشكل والتقاليد والآثار العمرانية والاجتماعية ولم يستطع الأسبانيون التخلص منها رغم انقضاء خمسة قرون على حكم العرب فيها حتى اليوم ، ومن تلك الآثار ما سمعناه وما زلنا نقرؤه من شعراء الأندلس وأدبائها وعلمائها من العرب والذي كان لهم الفضل في وضع أسس الحضارة الأوربية الحديثة ، ونبوغهم في كثير من العلوم والفنون، منبع الحضارة الحديثة .

وحدد اليوم السادس عشر من شهر يوليه ١٩٤٧ موعداً للقيام بهذه الرحلة وأعلن شروط الإنتداب وحدد عدد الأعضاء المطلوبين باثنين وعشرين عضواً من الجنسين الناعم والخشن ، ثلثهم من أساتذة الكلية ومعيديها، والثلثان من خريجيها وطلبتها بالتساوي . كما حدد قيمة ما يدفعه كل منهم مع تفاوت قيمة المبالغ المطلوبة بالنسبة للأساتذة والخريجين والطلبة .

ومن فاز بتلك الرحلة فقد كان فرحاً منبسط الأسارير مبتهلاً لتلك الزيارة الكريمة مستبشراً بزيارة أهل غاب عنهم طويلاً ، وانصرف يعد العدة لسفر طويل



البعثة على ظهر الروضة



ميناء مالطة ويبدو عليه آثار التدمير والتخريب

وفي مساء اليوم السابق للرحيل اجتمع ذلك النفر - على غير معرفة من أكثرهم اللهم إلا من أقلية ضئيلة - للتعارف والتزود ببعض الإرشادات الضرورية لهذا السفر وتسلموا تراخيصهم بالسفر عبر حدود البلاد التي سيجتازونها . فجمع ذلك السفر شملهم ووحد بين غبطتهم وشعورهم وألف بين قلوبهم وجعل منهم كتلة واحدة تشعر بشعور واحد نحو هدف معين

وفي صباح اليوم الموعود التأم شمل اثنتين وعشرين عضواً في عقد قدر له ألا ينفرط إلا حين يعود ثانياً الى مصر بعد شهر ونصف . اجتمع ذلك العقد عند الرحيل وحوله أقارب اثنتين وعشرين عائلة وغيرهم من المودعين من أساتذة الجامعة ومن بينهم عميد كلية الآداب الحالي . فعج بهم رصيف محطة مصر واختلط صوتهم بصفير القطار يشاركهم في توديعنا ويحملوننا تحياتهم الحارة إلى أحفاد العرب من الأسبان

أذن الوقت بالرحيل وودع كل منا قريبه وصاحبه وسار القطار صوب الاسكندرية على بركة الله وعند الظهر انتقلنا من أرض مصرية إلى سفينة مصرية تديرها شركة مصرية (بواخر البوستة الخديوية) ويعمل بها موظفون مصريون ما عدا قبطانها ووكيله فهما انجليزيان .

مكثنا بها سبعة أيام في الذهاب وستة أيام في العودة . أي ما يقرب من ثلث مدة الرحلة جميعها ، لم نشعر خلالها بأننا انتقلنا إلى وسط غريب عنا بل كنا بين أهلنا وعشيرتنا يقدم لنا الطعام اخواننا من النوبة ويعد لنا الفراش زملاؤنا من المصريين ويشرف على الناحية الصحية طبيب مصري يسامر هذا ويسري عن ذاك . كما يعاون بحرية المركب ضباط حديثو التخرج من مدرسة البحرية بالاسكندرية ويستكملون تمرينهم العملي على ظهر البواخر المصرية يمارسون بأيديهم كل ما يوكل إليهم من أحقر الأعمال إلى أرقاها ليلموا بكل دقائق المركب فنالوا رضا جميع المسافرين من مصريين وأجانب لنشاطهم الجم وقدرتهم الحسنة وتفانيهم في خدمة الجميع . ويشمل النشاط الملحوظ كل موظفي ومستخدمي السفينة إذا ما أقلعت من ميناء أو قربت منه حيث يستلزم ذلك العمل تضافر الجهود لرسوها في مكانها المعد لها في الميناء منعاً من اصطدامها أو حدوث ما لا تحمد عقباه .

خرجت سفينة الروضة بعد الظهر من ثغر الاسكندرية تقل ما لا يقل عن الثمانماية راكب معظمهم من المصريين ، وقد اشرأبت رؤوسهم على ظهرها يودّعون الاسكندرية وساحل مصر الشمالي بكثبانه الرملية وخاصة تلك التي عند ساحل مريوط حتى غابت مصر عن الأنظار واكتنفتنا أمواج البحر من كل جانب واختلطت زرقتها بزرقة السماء .

دقّ ناقوس الغذاء فهبطنا إلى صالة الطعام وخصصت منضدتان كاملتان في جانب من القاعة عرفت باسم بعثة الجامعة تجتمع إليها أربع مرات كل يوم ، لا لتناول الطعام فحسب، وإنما لتواصل فرحها ومداعبة بعضهم الآخر بما عنّ له من نكات تناسب المقام . وكثيراً ما كانت تعلو صيحاتهم على أصوات الملاعق والصحون مما جذب أنظار بقية السُفْر من أول لقاء معهم .

هرعنا إلى سطح السفينة لنستمتع بمنظر البحر والسماء ومداعبة الموج للسفينة وتلاطم الحيتان على جنباتها . كان الجو عليلاً ، يهب علينا أولاً نقياً صافياً فتدخر منه السفر ما تسمح به رئتهم من الامتلاء ، ثم يهب على سواحل مصر فتشوبه الشوائب لاختلاطه بدخان المصانع ورمال الصحراء .

وبينما السفر في غمرتهم ساهون والبحر من حولنا يأخذ بالألباب ، فيشغل كل شاغل عن نفسه ، إذ بريح عاصفة قاصفة ، يتبعها موج مضطرب ينفر مما عليه وينوء بحمله ويريد أن يتخلص منه في أقرب وقت مستطاع ، فازدادت حركة السفينة في جميع الاتجاهات كلما ازدادت ضربات الموج لها ، وانتشر الهرج والمرج في السفينة بين السفر فأصيبوا من دوار البحر مرة واثنين وثلاثاً ألزمهم مضاجعهم وأوشكت الشمس على المغيب ، ترسل آخر أشعتها فتسخر في هدوء من السفينة والسفر والبحر . كأن الريح من حولها لا يعصف وكأن أمواج البحر لا تضطرب وكأن ألواح السفينة لا تبعث الأنين الذي لا يؤذي الناس ونحن ننفق أكثر الوقت من غضب الريح واضطراب البحر وسخرية الشمس الهادئة التي تعلوها الكبرياء مضطجعين في فراشنا حتى إذا دنا الأصيل وانحدرت الشمس نحو الأفق ، ازداد اضطراب السفينة وازداد خوفنا تبعاً لذلك ، فاضطررنا إلى ملازمة الفراش حتى تهدأ الريح ، وتستقر السفينة على صفحة الماء .

وفي الصباح عاد الأمن والنشاط الى النفوس واستقبل المسافرون اليوم الثاني بأمل باسم واستأنفوا مرحهم وفرحهم وكأن لم يحدث لهم شيء من قبل

انقضت بقية أيام السفر بحراً في هدوء تام وراحة منقطعة النظير كما انقضت في غير قلق ولا اضطراب ، وأقبل السفر على اللعب بأدوات الرياضة والتسلية الموفورة بالسفينة .

ومما يؤسف له إن إذاعتنا المصرية لم تسمع خارج مصر كأنها خلقت داخل حدود مصر لتسمع المصريين فقط رغم أهميتها البالغة في الدعاية لنا والعرب أجمعين . ولم يترك السفر وشأنه لا يعرف أين مقرّه بالنسبة للعالم الذي هو فيه ولا الموانى التي قربوا منها أو بعدوا عنها فأعدّت إدارة السفينة لهم خريطة ملاحية للبحر الأبيض المتوسط وضع على طريقها الملاحي علم صغير متحرك يثبت كل يوم في الوضع الذي تصل إليه السفينة في البحر .

وفي صباح اليوم الرابع كان العلم يؤذن بقربنا من جزيرة مالطة ، كما لاح لنا من بعد أول هاتف يدعونا الى البر إذ حلقت الطيور تدعونا لدخول مياه مالطة الأقليمية . فظهر في الأفق الشمالي الغربي أعلا قممها ثمّ ما لبثت أن ازداد حجمها فانبرت قاعدتها عن حافة طباشيرية تبلغ طولها ٩٠ ميلاً تمتد على طول ساحلها . وهي البقية الباقية التي ظهرت على سطح الماء من سلسلة جبال العصر الجيولوجي الثالث والتي كانت تصل شبه الجزيرة الإيطالية بجزيرة صقلية من جهة وجبال الأطلس الممتدّة في تونس والجزائر ومراكش بشمال أفريقيا من جهة أخرى ، فتقسم حوض البحر الأبيض المتوسط قسمين منفصلين .

وكان لموقع مالطة الممتاز في منتصف الطريق بين شرقي البحر المتوسط وغربيه أثر هام في تاريخها الطويل ، فاستولى عليها الفينيقيون ليؤمنوا تجارتهم من قراصنة البحر الذين كانوا يهدّدونهم على طول الطريق بين فلسطين وأسبانيا ــ ولا تزال آثار الفينيقيين بمالطة ممثلة في بعض قبورهم ومخلفاتهم من أواني فخارية وآلات حجرية ومنازل وغيرها .

كما لجأت إليها العناصر المسيحية الفارين من الإضطهاد الديني في أول عهدها في أثناء الحكم الروماني واعتصمت بمخابىء Catacombs تحت الأرض لإقامة الطقوس الدينية المسيحية ، ومن رفات من يستشهد في توابيت في جوانب المخابىء .

ورأى العرب أهمية مركزها الاستراتيجي فأغاروا عليها ثلاث مرات انتهت في المرة

الثالثة بالاستيلاء عليها عام ٨٧٠ ودانت لهم مالطة ما يقرب من القرنين حتى استردها الكونت روجر حاكم صقلية ، وقد منح العرب المالطيين حكماً ذاتياً تحت اشرافهم ولم يتدخلوا في حقوقهم إلاَّ بقدر ما تسمح به الحال لتأمين تجارتهم. ومع ذلك فقد ترك العرب آثاراً كثيرة ممثلة في الكتابة الكوفية واللغة العربية التي تحتل الآن ما يقرب من نصف اللغة المالطية . ولم يستطع الاستعمار الإنجليزي في العصر الحديث أن يغير من الأنماط العربية إلاَّ كتابتها بأحرف لاتينية . وكان ذلك واضحاً في أثناء حديثي مع أحد المالطيين الذين اصطحبوا سفينتنا الى انجلترا ومن بين الكلمات العربية مثلاً كلمة نجم وشمس وبحر وليل ونهار وغيرها .

مرت السفينة بين حاجزي الأمواج لترسو في داخل ميناء مالطة الشهير والذي يعد أكبر مرسى للأسطول الانجليزي في البحر الأبيض المتوسط . هبطنا أرضها أمام الجمرك الذي يقع في أسفل أحد قلاعها الشاهقة المبنية على ربوة عالية تشرف على البحر مباشرةً . اخترقنا أحد أبوابها الضخمة الى داخل الجزيرة لقضاء بضع ساعات بها ولتفقد معالمها فأسعفتنا إحدى سيارات الامنيبوس العامة وهي الوسيلة الوحيدة للانتقال بها من منطقة سليمة الى ڤاليتا العاصمة التي تتوسط الجزيرة وهو قسم حديث العمران تشغله المباني الفخمة الحديثة . لم تتناوله الحرب الأخيرة بأي أذى . بينما يمتاز القسم الساحلي على الميناء بالقدم وأبراجه العالية الشاهقة التي ترجع الى العصور الوسطى. وقد كانت هدف الطائرات النازية لتدمير الأسطول الانجليزي الراسي في الميناء واشعالها النار في مخازنه وأسلحته فنال ذلك القسم كثير من التخريب والتدمير ظهرت آثاره جلية في كثير من المنازل والكنائس والمصانع والمخازن المجاورة .

وأهم ما لاحظناه على المالطيين تلك الأنواع التي هرعت الى السفينة لركوبها - ولا يدل مظهرهم على سعة الجاه وعلو المقام ولا حتى قدرتهم على دفع أجور سفرهم . إذ كانت أغلب ملابسهم لا تزيد على قميص تكشف فتحته عن صدر خشن أسمر ظهرت عليه آلام الحياة ومتاعبها ونقشت عليه الهمجية والفوضى وحطة مركزهم الاجتماعي وشماً لا يمحى مدى الحياة — لقد اضطروا لركوب البحر لضيق جزرهم بهم فلفظتهم الى الخارج بحثاً

عن مورد رزق يوفر لهم القوت الضروري بدلاً من بقائهم في بؤس جزيرتهم مع ضيق يدهم يشاطرون بقية سكان الجزيرة البالغ عددهم ربع مليون نسمة والذين يعتمدون على الأسطول الانجليزي وحركة السفن التي ترسو في مينائهم . وكان من الطبيعي أن يلجأ هؤلاء الى الانجليز للانضمام الى بحريتها للعمل بأساطيلها وممتلكاتها .

وقد رافق هؤلاء العمال نفر قليل من الشباب المالطي الذين أكملوا تعليمهم الثانوي وسافروا لاستكمال التعليم الجامعي بانجلترا. ويمتاز هؤلاء المالطيون بطابع خاص يختلف عن صفات الشعوب الأخرى المحيطة بهم . فالمالطي متوسط القامة طويل قليلاً عن النساء ، أسود الشعر أدعج العينين ، أسمر البشرة وتكاد تظهر فيهم بعض الصفات الزنجية من العناصر التي استوردت اليهم في العصور التاريخية ، ويمتازون بسرعة التأثر والمكافحة في الحياة وحب الانتقال وراء الربح القليل .

لم تبزغ شمس اليوم السابع ، وترسل أشعتها على الأفق الشمالي والشمالي الغربي حتى بدت من بعد سحابة داكنة أخذت ترتفع في الأفق تدريجيًا ويزداد حجمها كلما اقتربنا منها ، ولم تستغرق وقتاً طويلاً حتى أشرفنا على خليج ليون حيث ميناء مرسيليا ، وتكشفت تلك السحب عن قمم بعض جبال الألب البحرية والتي يظهر بعضها فوق سطح الماء على شكل جزر صخرية شديدة الانحدار ، استغلها الفرنسيون للدفاع عن مينائهم ببناء القلاع عليها والفنارات لإرشاد السفن حتى لا تصطدم بها. وأشهر هذه الجزر جزيرة شاتونيف الشهيرة بقصر مونت كريستو .

كما حددت هذه الجزر الطريق نحو الساحل ويدل مظهرها وشدة انحدارها على شدة عمق المياه وصلاحية الميناء لرسو أكبر السفن بها .

وما إن اقتربنا من الميناء حتى ظهر برج كنيسة نوتردام ، وقد ظهرت حولها آثار تخريب قذائف الطائرات للميناء ومخازنه .

رست في الميناء مركب مصرية تحمل ركاباً مصريين . ما أحسن تلك الجملة وما أجملها على مسمع كل مصري وخاصة حينما ترسو سفينة في مواني أوربا ، ويرى منظر علمها الأخضر بنجومه الثلاث يرفرف على ساريتها على ملأ من الناس جميعاً ، يفخر بقوميته ويعتز بوطنه مزهوًا بألوانه بين أعلام السفن الأجنبية الأخرى المحيطة به .

كان الوقت العاشرة صباحاً حينما هبط السفر أرض أوربا ، وكان طريق جنوب فرنسا الطريق الوحيد المؤدي الى اسبانيا وأسهلها . أما الطريق الآخر عبر شمالي أفريقيا فكان متعذراً وكثير التكاليف ، أما الطريق البحري إلى مواني أسبانيا مباشرة فانه غير ميسر لعدم

انتظام ذلك الطريق بين مصر وإسبانيا ، لذلك اتبع السفر طريق جنوبي فرنسا بواسطة سكك الحديد الممتدَّة بين مرسيليا والحدود الفرنسية الأسبانية الذي استغرق ما ينيف عن الإثنتي عشرة ساعة متوالية — ويسير في ذلك الطريق قطار واحد يبدأ رحيله في التاسعة مساء من كل يوم عند ما تغرب الشمس بعد مغيبها في مصر بساعتين .

ماذا نصنع في أثناء هذا النهار الطويل الذي سننفقه في مارسيليا إلاَّ أن ننتقل من قهوة إلى مطعم ومن مطعم الى قهوة ونتسكع في شوارعها لاستطلاع غريبها — إن الحياة هناك فيها عناء وغناء ولا ينقطع ما يعرض عليك من الجهد ولا ما يثير في نفسك من المتاع وكلاهما يصحبانك بعد فراقها ، لأنك لاتتركها إلاَّ وقد تزوَّدت الشيء الكثير مما يثير الألم ويترك اللوعة ومما يتعلق به من الآمال وتحيا به القلوب .

لقد كانت آثار الحرب الاقتصادية ضاربة أطنابها في الحياة الفرنسية فالمواد الغذائية شحيحة ومرتفعة الثمن ، وتباع بالبطاقات . فمثلاً بلغ ثمن الرغيف (الفينو) الشديد السمرة حسب التسعيرة أربعة قروش وفي السوق السوداء تسعة قروش بينما كان ثمنه في مصر زمن الحرب . عشرة مليمات فقط . كما بلغ ثمن البيضة الواحدة سبعة قروش . أما السكر فقد بيع الكيلو منه في السوق السوداء بأربعين قرشاً .

وهكذا ارتفعت أثمان الحاجيات الغذائية بنسب مختلفة مما جعل حياة الغرباء فيها متعسرة ونفرنا من البقاء بها حتى لا نهلك جوعاً .

* * *

والناظر الى مدينة مرسيليا يجدها مبنية على سفوح مرتفعات تبدو شوارعها غير مستوية فهي إما منحدرة أو تنتهي بجبال كالشارع الذي تقع فيه نافورة كانتيني الشهيرة كما هو مبين بالشكل المرافق أو يصعد الى بعض الشوارع ، ومرافقها العامة كمحطة سكك حديد مرسيليا بدرج يبلغ الثمانين درجة . ومرسيليا كغيرها من مواني العالم تضم كثيراً من أجناسها لما تضمه من الشركات الملاحية المختلفة فجاءت غير متجانسة في عادات وأخلاق أهلها مما يدعو الى الحذر في معاملتهم .

وفي تمام الساعة التاسعة مساء تحرَّك القطار متجهاً صوب الجنوب ملازماً لساحل البحر المتوسط الغربي فبلغنا مدينة تاريون في منتصف الساعة الثانية صباحاً . وعند هذه المدينة يبتدىء الخط الحديدي الذي يتجه غرباً الى مدينة تولوز ثم الى بوردو على ساحل خليج بسكاي .

ولذلك اضطررنا الى التخلف بمدينة تاريون على رصيفها نعاني بردها وصقيعها حتى

الساعة السابعة صباحاً لنستقل القطار الذي يتجه مباشرةً الى الحدود .

سار ذلك القطار بمحاذاة الساحل مباشرةً بين حقول الكروم التي تشتهر بها فرنسا تارةً وبين المستنقعات تارةً أخرى حتى اقتربنا من منطقة البرينيه التي ظلت زمناً طويلاً حائلاً منيعاً بين فرنسا وأسبانيا وكانت تلك الجبال مناطق التجاء لكثير من العناصر والسلالات البشرية كسلالة البصك التي احتفظت بمميزاتها الجنسية منذ لجأت إلى تلك المنطقة في العصور القديمة فارة أمام الهجرات الأوربية التي استوطنت أوربا فيما بعد . كما التجأ حديثاً الجمهوريون والارهابيون الأحرار من الأسبان لمقاومة دكتاتورية فرانكو ، ولهم قوات مسلحة تبلغ الخمسين ألف رجل مسلح على الحدود في انتظار الوقت المناسب لدخول أسبانيا طوعاً أو كرهاً .

واستطاع الاسبان التغلب على الطبيعة فذللوا المواصلات عبر هذه الجبال وحفروا الأنفاق الطويلة الواحد تلو الآخر حتى بلغ جملة ما اخترقه القطار منها ثمانية استغرق اختراق الواحد منها نحواً من عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر بالرغم من سرعة القطار التي بلغت التسعين كيلومتراً في الساعة. ولم نلبث على هذه الحال حتى بلغنا مدينة سيربير على الحدود الفرنسية على سفح جبل تفصل قمته بين فرنسا واسبانيا ، بينما يقع على السفح الآخر مدينة بوربو الاسبانية وكانت الحدود بينهما مقفولة ، مما اضطر السفر الى تسلق سفح الجبل الفرنسي بإحدى السيارات حتى القمة حيث الحدود الفرنسية ، وعلى بعد بضعة أمتار منها تقع الحدود الاسبانية ، فترجلنا تلك المسافة لنستقل سيارة أخرى كانت في انتظارنا لتهبط بنا السفح الاسباني — تشبه تلك السيارة إلى حد كبير عربات « البولمان » الامريكية التي نراها في القاهرة وهي أحسن ما عندهم من هذا النوع كما سنبين بعد أن اسبانيا فقيرة جداً في السيارات الأمريكية الفخمة التي تزخر بها شوارع مصر وذلك لانقطاع التبادل التجاري بين اسبانيا وأمريكا . لذلك كانت أغلب سياراتها حتى الحكومية قديمة كتلك التي تراها من مخلفات الجيش .

هبطنا ذلك السفح الاسباني وهو لا يقل جلالاً وسحراً عن السفح الفرنسي (كما هو مبين بالشكل) إذ تنتشر في أسفل سفحه المباني المطلة على ساحل البحر المتوسط تحيط به خضرة متنوعة يعجز عن وصفها البيان وخيال كل فنان . فكانت تلك المناظر أول لوحة فنية طبيعية رائعة مما وهبها الله لاسبانيا على طول الساحل الشرقي حتى برشلونة .

محمد رجب البيلي

حياتي !...

حياتي ، وما تجدي عليَّ حياتي ... ولم يبقَ منها غير حلم سُبات !!
تكشّف عما قد توارى مغيّباً ... من العيش ، مطويّا مع الظلمات
وما عُمر الإنسان الا سحابة ... تمرّ بجدب في القفار مَوات
إذا أمطرت ، أحيت بريّق غيثها ... بقاع الروابي ، من حَياً ونبات[1]
وإن أمحلت ، أقوت وبدّد شملها ... هباء ، وأضحى جمعُها لشتات
كذاك أرى الأحياء بين منعّم ... يطيب بما يأتيه من ثمرات
وآخر في البأساء يكدح آملاً ... نجاحاً ، فما يجني سوى الحسرات!!

***

حياتي ، حياة الحائرين ، فصبحها ... شبابٌ ، تقضّى مُبهمَ الخطوات
ودبّ دبيب الشيب يثقل وطأه ... ويغتال قسراً مشرق البسمات
أتابع ذكراها الدفينة آسفاً ... على ما مضى في غمرة النزوات
وما كان من لهوٍ ومن صبواتٍ ... ومن لذةٍ أدّت الى عثرات !!
وأنظر خلفي لا أرى غير دارسٍ ... عفا ظله من صحبةٍ ولدات
فأين الليالي الصادقات وعودها ... تلين وتضفي عاطر النشوات ؟!
وأين الرياض الحو ، والزهر ضاحكٌ ... تنفس فيما هب من نسمات ! ؟
وأين الجمال الرحب ملء جوانحي ... طوائر تشدو أعذب النغمات ؟ !
وأين قرابيني ، وهيكل معبدي ... ومحراب ترتيلي ، وركن صلاتي ؟!
تناءت كآثار الأصيل ، وخلفت ... مرايا لأشباحٍ مضت وسمات
تعاودني منها مناقل صورة ... أطلّ إليها ساهم النظرات
وألمح أهوال الخطوب ، وقد محت ... نضارتها من صحةٍ وشذاة ،[2]
فتبدو بما خطّت على صفحاتها ... ضمور جبين ، وابيضاض شواة[3]

---

(١) الحيا هنا بمعنى الخصب (٢) الشذاة — القوة (٣) الشواة — جلدة الرأس

وقيل تجاريب السنين وعلمها | وليس تجاريبي سوى هفواتي
فيا دهر ، هات الرزء همًّا مبرّحاً | يصول على الجسم المهدَّم ، هات !!
فلست أبالي إذ أرثَّت شبيبتي | بغادٍ تولى بالسرور وآت !!

***

حياتي ، حياة الناس أدرج بينهم | على الظلم من طاغٍ يجور وعات
فما زال حكم الغاصبين يسودهم | وللبطش والإرهاب سوط أذاة
فلا عدل إلا أن يذلّ ضعيفهم | ويمشي على الأشواك والجمرات
ويلتي البلاء المرَّ يوهن سعيه | وفي روحه ماضٍ من العزمات
وما نقموا إلاَّ لصرخة صائح | يرى الحق فيهم واضح القسمات
يساوره من عقله وجنانه | مطاف خيالٍ أو منار حصاة [1]
علاه في أشعاره ونثاره | خواطر مثل النار مستعرات
تعبّر عما في القلوب من الأسى | وما في طوايا النفس من زفرات
فيرمى بإعراض الزمان ، ويبتلى | بكيد حسود ، واغتياب عداة ! !

***

حياتي ، حياة الغابرين كأنها | بريق تلاشى في سنا الومضات
ففي الذاهب العافي شبيهٌ بمقبل | وفي الحاضر الوافي مثال غداتي
نحلُّ على الدنيا كما حلَّ قبلنا | مواكب للأطماع مشتجرات
شخوص كأمواج الخضم تلاطمت | وعادت رماماً في بطون فلاةِ
فأعمار أقوام تجيء وتختفي | وما امتاز منهم عاصمٌ بنجاة
وأنقاض أجيال ، ومأساة عالَم | تدور بأصداء لها ورواة
وهل أنا إلاَّ في السُّرى متقاذفٌ | مع الركب مصفوداً بيوم وفاة
فإن كنت شيئاً في الوجود مجسَّماً | فسوف تردَّى في الرفات رفاتي ! !

(القاهرة) عبد السلام رستم

---

(١) الحصاة — الرأس والعقل

أنفس ضائعة

مقتبسة من ملحمة قصصية

للشاعر لونجفيلو

« قصة ايفانجلين واقعية ، وسيظل الضمير الانجليزي يحس وخزات التأنيب كلما ذكرها ويعاني من ألمها فوق ما يعانيه مما تجترمه السياسة البريطانية من غدر وعدوان . فقد تنازلت فرنسا لتلك الدولة عام ١٧١٣ عن مقاطعة أكاديا (المعروفة باسم نوفاسكوتشيا الآن) فاضطر قطانها الفرنسيون الى الاذعان للقوة،وحلفوا يمين الولاء قسراً للتاج البريطاني ، واحترفوا الزراعة بعد أن انتزع حكامهم الجدد أسلحتهم وعددهم . ومرّ بهم الزمان وهم قابعون في ظل الهدوء والأمان الى أن وقعت الحرب الفرنسية الانجليزية في كندا ، فوقعت خلالها فجائع هذه القصة المروعة . »

***

هذه هي الغابة على فطرتها الأزلية ، تطيف بها الريح ، فتهمهم أدواحها همهمة الوحي في صدور الأنبياء . وإذا ترامى اليها هدير المحيط متصاعداً الى أعلى صخور الشاطىء ، أجابه زفيرها ونواحها الرهيبان .

هذه هي الغابة على فطرتها الأزلية ، فأين قلبها الخافق ؟ ما لها موحشة كأن لم يتردد اليها صياح صائد ، أو وقع خطوات عابر ؟ أين المنازل المشرقة ذات الأسطح المخروطة ؟ وأين ما استطابه فلاحو أكاديا بين جدرانها من متع الحياة الآمنة الهادئة ؟ . . . عصفت يد الغاصب بتلك الدور ، وبعثرت سكانها في أصقاع نائية الأطراف ، وذرتهم كما تذرو الريح أوراق الشجر الذابلة ، وتقذف بها في طوايا الأبد . نعم ، لم يبق من مدينة « جران بريه » الفاتنة إلاّ ذكرى تملأ القلوب حسرةً وأسىً

إلى الذين يؤمنون بالحب المعتصم بالرجاء رغم تنمّر القضاء . . . إلى الذين يخشعون

لسطوة الجمال ، ويثقون بولاء المرأة متى أحبت ... إلى هؤلاء أسوق هـذه القصة التي مازالت أدواح أكاديا تبكيها متناوحة . قصة المدينة التي ذاقت نعيم الحياة حقبة من سالف الزمان ، ثم ...

عاش أهل « جران بريه » البسطاء في ظل الحب والإخاء ، لم يلوث طهر ضمائرهم طمع أو حقد أو جزع . فلم تعرف أبوابهم الأقفال ، ولا نوافذهم القضبان . كانت دورهم مفتحة الأبواب كقلوبهم ، وكان أغنى أغنيائهم فقيراً ، وأفقر فقرائهم في بسطة من عيشه .

وفي طرف المدينة بالقرب من خليج ميناس أقام الشيخ « بلوفنتين » في منزل أنيق مشرف على حقوله الخصبة وقامت على تدبير شؤون منزله ابنته ايفانجلين ، قبلة أنظار الشباب ومهبط أحلامهم . أما هو فقد حمل على كتفيه العريضتين سبعين عاماً من عمره فلم ينوء بها ، ولم ينحن تحت ثقلها ... كان كالدوحة الباسقة كللت الثلوج البيض أعاليها . أما هي فلم تتجاوز عامها السابع عشر . كانت تتنفس تنفس الجؤذر الجزوع ، وترنو بعينيها السوداوين رنوه ، وإذا خطرت في الطريق أنيقة الملبس رشيقة الخطوة ، أضرمت من لاعج الجوى في قلوب الفتيان قدر ما نمنمت من قارص الغيرة في قلوب الفتيات . ولم يزل لتناسق سماتها وعذوبة عباراتها ، وحلاوة اشاراتها تأثير الموسيقى في نفس كل من يتطلع اليها .

كانت تلك الدار الخشبية قائمة على سفح جبل وسط مناظر ساحرة ، يمتد طريق معبد من عتبة بابها الى الخميلة الخضراء القريبة منها ، ويتصل امتداده حتى تغيب معالمه في فسحة الغياض المترامية الأطراف . واستطالت أمام الدار شجرة جميز متجعدة الاحناء ، متوشحة الجذور البادية على سطح الأرض وانتشرت في الفضاء الحائل بين الدار والخميلة بيوت الدواجن وعشاش الطيور ، وبدت وراءها حظائر الدواب والنعم وتجاوب هناك صياح الديكة وهي تتبختر بارزة الصدور في عزة وخيلاء ، وامتزج بالخوار والصهيل .

هدأت الحياة وطابت في تلك البقعة المباركة ، وصفت القلوب وأخلصت لبارئها كما صفا وأخلص بعضها لبعض ، ونعم صاحب تلك الدار بما حباه الله من خيرات ، وبما أفاضته عليه ابنته ايفانجلين من عطف ورعاية . ولم تنقطع وفود الزائرين من شباب المدينة عن

غشيان تلك الدار ملتمسة متعة العين وغذاء الروح . ولم يعرف كل فتى منها حين كان يطرق الباب أهي دقات قلبه التي تملأ أذنيه أم طرق قبضة الباب الحديدية . فالسعيد السعيد من كان يتاح له لمس يد فاتنته الحسناء ، أو مسح طرف ثوبها الحريريّ . وأسعد السعداء من كان يحظى منها بابتسامة رضى يفترّ عنها ثغرها المشرق.

ولم يلبث « جبريل بن لاجينيس » الحدّاد أن فاز دون قرنائه بما تاق كافتهم إليه . فقد خصّته من دونهم بحبها النقيّ الطاهر . وقرأ في عينيها كما قرأت في عينيه معاني حب مكين متبادل . ووافى الربيع فغرّد قلبُ كل من العاشقين كما غرّدت الأطيار ، ورفّ كما رفّت غلائل الأزهار . ثم أعقب الربيع الصيف فزادت وقدته اللافحة وقدة حبهما المشبوب وتبادلا في لياليه الناعسة مناجاة أعذب من انسكاب أضواء نجومه ، وأرقّ من هبّات نسيمه المحمّل بعبير الياسمين ، ولم يعد هـذا الحب الذي تلألأ بشيره في لحاظ العاشقين وباحت بسرّه بسماتهما ، يخفى على أحـد . وراق للوالدين أن يكابد ولداهما لوعة الهوى ، واستقرّ رأيهما على أن يصلا شملهما برباط الزواج .

وسرعان ما حلّ الشتاء ، وقصر يومه ذو الغيوم ، وطال ليله ذو الشجون . وحدث في ذات أمسية من أمسياته أن جاء « لاجينيس » يزور صديقه بلوفونتين وجلس الشيخان الهرمان الى جانب المدفأة يفرك كل منهما يداً بيد وكانت الألفة المتصلة بينهما قد ازدادت توثّقاً منذ اتفقا على الارتباط بصلة المصاهرة ولـكن وجه الحدّاد كان في تلك الليلة مكفهرّاً على خلاف ما كان يبدو عليه عند لقاء صديقه من بشر و إيناس ، وسأله الفلاّح الموسر عما به ، فأجاب بصوت منبعث من سويدائه :

— إن قلبك العامر بالإيمان والاخلاص والأمل لا يعرف الهمّ واليأس اللذين ينفثان غيره من القلوب ، وينذران بالويل والثبور .

وصمت الحدّاد برهة حشا أثناءها غليومه تبغاً وأشعله ثمّ واصل حديثه وهو ينفخ دخانه في الفضاء :

— ألقت السفن الانجليزية مراسيها في مياهنا منذ أربعة أيام ، وصوّبت إلينا أفواه مدافعها التي لا تزال تهدّد أمننا وسلامتنا . وكم قاسى مواطنونا في هذه الأيام الأربعة

من مخاوف وآلام وأشجان ! وقد تضاعفت هـذه الليلة شدتهم على أثر ما أذيع من عزم قائد تلك السفن على تلاوة بيان غداً في ساحة الكنيسة يكشف فيه مقصده من هذه الزيارة المشؤومة .

وابتسم بلوفونتين ابتسامة هادئة وقال :

— لعل زوارنا الإنجليز أميل الى المسالمة مما نظن . . لعلهم جاءوا يلتمسون بعض قمحنا ليسدوا به حاجة أهل جزيرتهم الى الطعام .

وتنهد الحداد تنهداً عميقاً وأجاب :

— أهل المدينة لا يشاطرونك هذا الرأي . . . أنسيت ما حل ببلدتي « بوسيجور » و « بور رويال » ؟ . . . لقد نزع الغاصب سلاحنا فلم يبق لدينا إلا مطارق كمطرقتي ، ومناجل كمنجلك . وأصبح مصيرنا رهن مشيئته .

ورد الفلاح السليم الطوية :

أحسب أننا أمنع جانباً ، ونحن عزل ، من المعتصمين بالحصون والقلاع ، فما دمنا لا نملك الإيذاء فكيف يكون لنا أعداء ؟ دع هذا الوجوم وابسط أسارير وجهك . فما يجمل بك أن تكتئب وعرس ابنك وابنتي موعده غد

وسمع العاشقان هذه العبارة الأخيرة من الغرفة المجاورة . وكان الفتى الوسيم ممسكاً بيد فتاته الحسناء، فشد عليها ، ثم وشج أصابعه في أصابعها ، وحلق الخيال بكليهما في أجواء عالم مسحور . وتلاقت نظراتهما الطافحة بالعطف والحنان فتبادلت أرق معاني المحبة والولاء وطال تأمل كل منهما لأليفه في إعجاب وإعزاز ، ودار بينهما همس رقيق لا يعرف عذوبته إلا من صفت نفسه مثل صفاء نفسيهما ، وطهر حبه طهارة حبيهما .

وأقبل القس في هذه الأثناء يحمل تحت إبطه إضبارة ، ويمسك بدواة وقلم . وصبغ الحياء وجه الفتاة حال وقوع عينها عليه . ورحب به الفتى وهو لا يكاد يحتمل فيض النعيم الذي غمر نفسه . ودب في عروق الشيخين دبيب الحياة وهما يتسابقان الى تهيئة مقعد وثير له . وحملت إليه إيفانجلين منضدة وضعتها أمامه ، وقربت إليه المصباح الزيتي . وشرع القس يكتب وثيقة الزواج المشتهى . وما انتهى من مهمته حتى قدم إليه « جبريل » قدحاً

من الخمر ، وشرب الجميع نخب هـذا الحادث السعيد . ورفّ في جو الغرفة رفيف سعادة لا عهد لها بها .

وأوت العروس السعيدة الى مضجعها بعـد انصراف الضيوف ، وأطفأت المصباح مكتفية بلألاء القمر المترقرق من خلال نافذة الغرفة . . . وما كان أجملها وهي في ثوب نومها الشفاف عارية الساقين الناصعتي البياض! . ولم يدُر في تلك الساعة بخلدها أن حبيبها لم يرافق أباه الى داره ، بل بقي تحت ظلال الخميلة شاخص الطرف الى نافذتها ، طامعاً في اجتلاء طلعتها المحبوبة من وراء النافذة . لم تفطن الى وجوده قريباً منها ، ولـكنه كان مع ذلك أقرب اليها شقة . . . كان ملء قلبها وملء خاطرها .

وزخرفت لها أحلامها الذهبية صوراً خلاَّبة لحياتها المقبلة ، فبدا لها المستقبل كما تبدو جنة الخلد لعابد متبتل . ولـكن الظلام ران على الغرفة فجأة فانقبض صدرها وأسرعت الى النافذة فرأت القمر يخرج من وراء سحابة معتمة ، وسرعان ما ملأ نوره الغرفة ثانية فأعاد اليها البهجة من جديد . . .

اختار بلوفونتين الخميلة ليقيم تحت أغصانها المهدَّلة حفلة عرس ابنته . وتوافدت عليها في الصباح التالي جموع الأقارب والأصدقاء . وتعالى العزف ودار على وقعه الرقص . وخفَّ الطرب بالشيوخ مثلما خفَّ بالشباب . واهتزت الأعطاف وهفهفت الأقدام وهي تتبع رنات النغم المتسق . وبينما المهرجان في عنفوانه إذ بصوت مزعج فيغمر أنغام اللهو والطرب ، ويسمّر أقدام الراقصين ، ويكتم الضحكات في الأفواه . ويملأ القلوب فزعاً .

دقت طبول جند العدو في ساحة الـكنيسة ، فهرعت اليهـا الجماهير لتقف على المصير الذي اختاره لهـا الغاشم . وغصّت تلك الساحة على سعتها بالمجتمعين ، واعتلى القائد الانجليزي منصة عالية ، وواصل الى أعلاها شامخ الأنف مقطب الجبين . ووقف هنـاك في أنفة وإباء ، وتلا بيانه بصوتٍ نمّ عن الصلف والـكبرياء ، وطأطأ المستمعون رؤوسهم إذ سمعوه يقول :

« لقد وسعتكم رحمة مولاي الملك فلم تلق منكم غير نكران الجميل . على أن صاحب الجلالة لن يجازيكم الجزاء الوفاق على جحودكم بل شاء قلبه الرحيم أن يهب لـكم الحياة . . .

لكنه رأى أن يجرّدكم مما ملكت أيديكم من دور وأرض وحيوان ومتاع، وإن يشرّدكم في مختلف الأصقاع . . . واعلموا أنكم الآن أسرى في قبضة يدي ، فلا يحدّث أحدكم نفسه بالإفلات منها . وعليكم التوجه الى مرسى سفننا قبل ظهر غد استعداداً للرحيل ، ومن يتخلف منكم يتعرض لأقسى جزاء . . . هذه هي مشيئة مليكي ، ولا مردّ لمشيئته »

وارتعدت فرائص المستمعين ، وناءت أرجلهم بحملها . فقد عصفت تلك الكلمات بهم عصف الرياح الهوج حين تهبّ على غرّة ، وسادهم الوجوم برهة ، ثم تعالت الولولة على أثره من كل مكان . وملكت حدّة الغضب من نفس الحدّاد ، ورفع وجهه المصطبغ بدمه الفائر ، وصاح بصوت يتهدّج انفعالاً . « سحقاً للانجليز الطغاة . . . الموت لمغتصبي أملاكنا وأموالنا » وما كاد الشيخ يتمّ عبارته حتى انهالت عليه لطمات الجنود القساة . ولم تزل به حتى سقط على الأرض وعفّره التراب .

وعادت فلول الشعب التعس الى دورها ، وبكى بعضها وهو يمشي الهوينا مقوّس الهامة وأرغى بعضها الآخر وأزبد ، وظلّ وقد طاش صوابه يتوعّد ، أمّا إيفانجلين الوديعة فقد سارت في استسلام ممزوج بأمل غامض باهت ، وتسامح غير بشري .

ومرّت على القوم ليلة لم يمر أحلك منها على منكود . ليلة لم يذق فيها طعم النوم جفن . اللهمّ إلاّ جفون الأطفال الناعمي البال ، ولاحت تباشير الفجر بعد طول المطال ، وزخرفت سحب الأفق بشتى الألوان الزاهية ، وابتسم الكون ابتسامته الصباحية الخلاّبة فلم يتفتح له قلب ، ولم يفترّ لها ثغر . واشتدّت الحركة في مختلف الدور . وأخذ قطّان كل دار في إعداد ثيابهم وزادهم استعداداً للرحيل ، وذرعوا غرفهم جيئةً وذهاباً وكأنهم آلاتٌ صمٌّ تتنقل .

تناطرت طلائع القوم على الميناء ثمّ تدفقت وفودهم فاكتظت بها الرحاب . واحتشدت هناك أمة كتب عليها النفي والتشريد الى آخر فرد منها . وعلقت اللحاظ لا تتحوّل عن السفن التي جاءت للتنكيل بالمستسلمين المستكنين . وكادت القلوب تتمزّق وهي تحاول الافلات من أبدانها والعودة الى مغاني صباها ، ومسارح هواها . ولم تنج نفس من مخالب الألم المفترس إلاّ نفوس الأطفال الذين احتضن كلٌّ منهم لعبته ، وهشّ لفكرة الرحيل ،

ودهش لشبح الألم الذي رآه بادياً على وجوه أهله الكالحة .

وجلست إيفانجلين فوق حقيبتها متجلدة ساكنة ، ورأت جبريل مقبلاً عليها فوقفت لاستقباله . وما تبينت شحوب وجهه حتى خانها جلدها ، وانهمرت دموعها على خديها . ثم ابتسمت له ابتسامة تفرّ من إشراقها الأحزان . ثمَّ تباعدت عنه قليلاً لأنها رأت والدها قادماً . وانطفأت ابتسامتها إذ لاحظت التغيير الفاجع الذي طرأ عليه . لقد غاض رونقه وغار خدّاه ، وزاغ بصره ، وثقلت خطوته من عبء الهم الجاثم على كتفيه . وركضت إليه وارتمت بين ذراعيه وغمرته بعبارات التدليل والإعزاز حين أدركت أن عبارات التشجيع والمواساة لا تجدي .

وحلّت الساعة الرهيبة ، وأقبل البحّارة الإنجليز صوب الشاطئ في مراكب صغيرة لينقلوا أولئك الشهداءَ الى السفن التي أوشكت أنْ تقلع بهم الى منفاهم المجهول . ووقعت في هذه الأثناء فاجعة خلت من مثل فداحتها أفجع القصص الخيالية . فقد ساد القوم هرج ومرج على أثر وثوب البحارة الى الشاطئ واجتذاب من تصل إليه أيديهم ودفعه الى مراكبهم . وجمح الذعر بالنساء والأطفال فركضوا بين كرّ وفرّ صارخين مولولين . وانتزعت الزوجات وسط هذه الفوضى من أزواجهنَّ ورأت الأمهات أولادهنَّ في السفن ينادونهنَّ في توسل ، ويمدون اليهنَّ أيديهم في ضراعة . وهكذا فرّق القدر الأثيم بين الحبيبين ، فرمى بجبريل الى إحدى السفن المنشورة القلاع ، وغادر ايفانجلين على الشاطئ تجاهد مجاهدة من يقاوم التيار لتصل الى من تحب وأقلعت السفينة بفتاها وهي لا تزال على اليابس تناضل بغير جدوى .

بقيت إيفانجلين وأبوها مع من بقي بالشاطئ وأذعن كافتهم للأقدار ، ولم يقوَ أحدهم على الحركة ولم يجرؤ على الكلام ، وصمتوا صمت الموت ، وأنصتوا لهمهمة الأمواج وهي ترجّع دويَّها المثير للأشجان .

وبلغ من حزن بلوفنتين أن جمد خاطره ، ونضب معين نفسه ، فلم تعد تخطر له فكرة عابرة ، ولم تهتز نفسه لعاطفة طارئة ، ودللته ابنته فلم يهشّ لها ، وخاطبته فلم يجبها ، وقدّمت له الطعام فعافه . وجمد في مكانه لا يرفّ له جفن ، ولا تبدر منه بادرة تدل على أنه

على قيد الحياة . وجالت الفتاة بعينيها فيمن حولها فوجدت أنظار الاشفاق عالقة بها . وبلغ التأثر بها كل مبلغ ، فسالت الدموع على خديها في سكون فاجع .

وشاء العدوّ الغاشم ان يصيب أولئك المنكودين بمحنة جديدة بعد أن توهموا أنهم بلوا آخر ما في جعبة القدر من شقاء فقد بدت لهم ألسنة من النار تندلع من ناحية مدينتهم وتمكن الرعب من ايڤانچلين فأقبلت على أبيها لتطوّقه وتحتمي في أحضانه ، فرأت ما ضاعف رعبها ، رأته ملقىً على الأرض جثة هامدة ، فصرخت صرخة مدوية . وانتقلت الأنظار من منظر الحريق اليها ، فشغلتها الكارثة الطارقة عن سابقتها ، وسارع القوم الى الفتاة يهدئون من روعها وهم في مثل انفعالها ومضضها . واتجه بعض الفتيان الأشداء الى الساحل الرملي لحفروا للشهيد رمسه ، وعادوا اليه لحملوه الى مقره الأبدي ، وسار الجميع خلفه واجمين مهمومين . وأضاء الحريق المستفحل جنبات الصخور والتلال وخضّبها بلونه الدموي ، ووُريت الجثة التراب على ضوء المدينة الملتهبة . وما أشرق الصباح حتى أقلعت السفن الانجليزية ببقية أهل « جران بريه » لتلقي بكل جماعة منهم في ميناء . وخلفت وراءها رماد المدينة السعيدة ، وأشلاء شيخ أحسن ظنه بالضمير الانساني .

***

مرت سنوات عديدة على إقلاع السفن الانجليزية بقطان أكاديا وتشريدهم في بلاد مترامية الأطراف ، وتشتتهم هناك بغير مأوى ولا أصدقاء ولا أمل في الحياة . وقد هام هؤلاء المشرّدون طوال السنين على وجوههم ، وقطعوا فجاجاً من الأرض بعد فجاج في التماس نجعة يأوون اليها .

وكثيراً ما كانت العين تقع بين بعض فلول هؤلاء الضاربين في فضاء الله على فتاة لم تتجاوز سنّ الشباب ولكنها فقدت رونقه ، ولم تتجرد من الحسن ولكنها فقدت ريعانه . كانت وحيدة تمتد أمامها صحراء الحياة موحشة خالية إلا من صفائح رموس الشهداء .

كانت تنتقل مسرعة من بلد الى بلد ، منقبة عن ضالتها المنشودة ، فلا يكاد التعب

يقعدها في مكان حتى تضطرم في قلبها حمى الرغبة في لقاء حبيبها المفقود ، فتهب الى مطيتها وتعود فتبدأ رحلتها التي لا تنتهي . وكم من قولة عابرة أو همسة في أذن أو اشاعة واهية جددت في نفسها أعرض الآمال ونقلتها من مشرق تلك البلاد الى مغربها .

مضى ربيع في إثر ربيع وايڤانجلين الضاربة في كل فج لا تفرق بين فصول الحب والجمال وفصول الكآبة والذبول ..وفي إبان ربيع تبرجت الطبيعة خلاله مزدانة بأبهى حللها تهادى على صفحة فرع من فروع المسيسيبي العظيم مركب جمعت ألواحه من حطام سفينة من عابرات المحيط تحطمت على أحد الشواطىء الصخرية وحمل ذلك المركب حطام أمة كانت تسكن « جران بريه » في سالف الزمان . ووقفت الفتاة المقيمة على عهد حبها بين ركابه تخترق أقاصي النهر بنظراتها الفاحصة المتعطشة الى رؤية شاهد أو علم يبشرها بقرب لقاء من كرست له حياتها . ثم غلبها النوم فرأت في الكرى حلماً أزاح عن صدرها عبئاً جثم عليه زمناً وملأ قلبها الموحش الموجع غبطة واستبشاراً . رأت مركباً آخر مقبلاً صوب مركبها ولمحت على ظهره فتى أحلامها وآمالها يجول بطرفه باحثاً عنها مثل بحثها هي عنه ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فرقة طالت حتى كادا يقنطان لطولها من تلاقيهما ثانية .

ولم تكذب حواسها التي صورت لها هذا الحلم . فقد كان حبيبها قريباً منها في تلك الساعة حقاً . كان في مركب يتجه الى الشرق،وقد مر بمركب ايڤانجلين وهي نائمة . وتهدلت عليه أشجار الغابة فلم يره أحد ، كما فات ركابه أن يروا المركب الآخر . وهكذا تقابل الحبيبان وافترقا بعد ملاحقة شاقة مضنية دامت سنين ، ولم يفطن أحد منهما لهذا اللقاء العقيم .

سار المركب حتى خرج من ظلمة الغابة ، ورأى من فيه نور الشمس البهيج على حقول القمح الشاسعة . وسرحت ايڤانجلين طرفها في الفضاء الرحب وبادلت الأفق المنير إشراقاً بإشراق ، إذ كانت لا تزال وضاحة الجبين ، متفائلة بحلمها السعيد . وبلغ المركب المدينة المنشودة ، وسألت الزوجة العذراء مستقبليها عن زوجها قبل أن ترد تحيتهم . ووقفت منهم على الحقيقة المريرة ورنقت سحابة من الهم والأسى على وجهها الجميل ، فأشفق عليها رفقاؤها ، وهونوا عليها الخطب بقولهم إن زوجها لم يزل قريباً منها ، وإنهم سيرافقونها راجعين وراءه أدراجهم حتى يلحقوا به .

وبدأت المطاردة من جديد ، وعاد المطاردون فاجتازوا الاصقاع والأمصار التي جابوها من قبل ، ولكنهم كانوا هذه المرة في اعقاب الحبيب التائه ، وشاهدوا في نهاية

كل مرحلة قطعوها آثاره . وضاعفوا سرعة سيرهم دون سأم أو كلل ليلاحقوا تنقله السريع الخاطف . وكان الأمل الخلاب يخادعهم طيلة نهارهم ، ولا يكف عن مداعبتهم أثناء منامهم . وكم من مرة رأوا عن بعد دخاناً يتصاعد من جانب خيمة منصوبة في العراء فحسبوا أنهم شارفوا على نهاية شوطهم ، ولكنهم كانوا لا يجدون عند وصولهم الى مكان النار الموقدة إلاّ الرماد والدمن .

وكانت الفتاة الشقية تناجي حبيبها فتقول «أتكون يا حبيبي على هذا القرب ، ولا تستطيع عيناي أن تجتليا محياك ؟ . . . أتكون على هذا القرب ولا تستطيع أذناي أن تسمعا صوتك ؟ ! هأنذا أرى آثار أقدامك التي اجتازت هذا المكان منذ لحظات . وهأنذا أكاد أستنشق عبيرك الذي يملأ هذه الأرجاء ، ولكني لا أستطيع مع ذلك إن أنعم بلقياك » !

مرّوا أثناء طرادهم الشاق المضني بدير منفرد في جوف تلك البطاح الموحشة ، وسألت الزوجة الوفية كبير رهبان ذلك الدير عن زوجها ، فأنبأها بأنه مرّ به ، ولم يمكث إلاّ ريثما يتأهب لرحلة صيد قد تستغرق فصل الخريف ، وأنه لا بدّ عائد في الشتاء . ونصحها أن تبقى في بيت الله لتستريح حتى يعود إليها خليلها . وشايع رفقاؤها الكاهن رأيه حتى لم تجد مناصاً من قبول ما عرض عليها . وانتظرت حلول الشتاء بقلب واجف ونفس لهيفة ، وطالت عليها الساعات بله الأيام . وحلّ الشتاء ، وانتظرت فرجة الأمل بعد طول الشقاء . ولكن الشتاء انساخ بعضه في إثر بعض دون أن يعود إليها حبيبها . ثم انقضى شتاء بعد شتاء والحبيب لا يؤذن بالرجوع . وكثيراً ما التقطت أذنها في بحر هذه السنين الموحشة أساطير هندية كانت تملأ نفسها في بعض الأحايين قلقاً وجزعاً واشفاقاً ، وكانت تملؤها في أحايين أخرى هدوءاً واستسلاماً . سمعت قصة الفتى الوسيم « موويس » الذي التقى بفتاة فاتنة في ليلة قمراء ساحرة ، وتمكن الحب من قلبه وقلبها ، ولم تلاحظ الحبيبة وهي مأخوذة بسورة حبها أن حبيبها مخلوق من الجليد الخالص . وتبادل كلاهما مواثيق الحب والولاء ، وتعاهدا على الارتباط بالزواج . وقضيا الليلة سابحين في أجواء الآمال والأحلام . وعندما أشرق الصباح خرجا الى الحقول ليستمتعا بسحر مناظر الطبيعة ، ودفء الشمس الساطعة . وكانت خاتمة الأحلام والآمال قريبة ذريعة ، فقد لاحظت الحبيبة وهي ترتجف هلعاً أنّ حبيبها أخذ يذوب شيئاً فشيئاً ، وبدأ التقلص يشوّه وجهه ، ثمّ طمست تلك القسمات الجميلة طمساً ، وسرعان ما تبدّد الحبيب المرتجى ، وتوارى عن العيان .

ومن تلك الأساطير أيضاً أن الحسناء « ليتينو » هامت وجداً بطيف آسر الحسن كان يخرج من الغابة في أصيل كل يوم ، ويوافيها عند شاطيء غدير موسيقي الخرير ، ويبادلها

حبّا بحب ووفاء بوفاء ، ثم يغادرها بعد انقضاء الهزيع الأول من الليل ، ويعود أدراجه الى جوف الغابة الرهيبة . وكانت نفس الحسناء تنازعها الى تتبع خطاه واللحاق به في مأواه

وفي ليلة سطع بدرها ، وفاض سحرها ، عجزت الحسناء عن مغالبة هواها ، فاندفعت الى الغابة وراء طيفها المحبوب ، غابت طلعتها المشرقة بين ظلال الأشجار الكثيفة الباسقة ولم تقع عليها بعد ذلك عين إنسان .....

كانت إيڤانجلين تنصت في تهيب الى تلك الأساطير ، ويخيل إليها أن المكان المحيط بها يتحوّل الى بقعة مسحورة . وكانت تجد تارةً بعض العزاء فيما تسمع ، وكانت تستسلم تارة أخرى ليأس موحش أليم .

وطفق نهمها الروحي يحفزها ثانية الى استئناف البحث والتنقيب فهبت في لحظة ضيق من الركن الذي قبعت فيه تلك الحقبة الطويلة ، وهجرت الدير رغم إرادة من فيه . ورآها الناس تهيم من جديد في شتى المدن والكفور سائلة مستقصية عن سيد فتيان أكاديا . ودبّ الوهن الى جسمها ووخط المشيب شعرها وارتسمت آثار الغضون على جبينها وانقلب حبها الحارّ الملتهب الى حب هادىء مخلوط بالحزن الدفين . وخبا أملها إلاَّ انه كانت تنبثق خيوط منه بعد خيوط بين حين وحين .

وانتشر مرض الطاعون في سنة من السنين العصيبة وعظم بلاؤه ، فوجدت إيڤانجلين بعض العزاء في تمريض المصابين بذلك الداء الوبيل . والتحقت بأحد المستشفيات وقامت على العناية بالمرضى . وكان قلبها الرحيم يجود على أولئك المنكودين بكنوز عواطفه الكريمة فينشر بينهم بعض الطمأنينة الروحية والراحة الجسدية في حين أنها لم تعن هي بطمأنينتها وراحتها ، بل كانت تجدها في ذلك النصب والعناء .

وبينما كانت تطوف ذات صباح كعادتها بأسرّة المرضى رأت مريضاً مشرفاً على الموت جيء به منذ قليل وبينما هي تحدق في وجهه مشفقة اذ اكفهرّ وجهها وكاد قلبها يكف عن الخفوق . فقد لمحت من وراء جبينه المجعد وعينيه المنطفئتين ذلك الفتى الذي وقفت على حبه حياتها . . .

وانكفأت عليه مجهشة بالبكاء ونادته بصوت متهدج « جبريل » فلم يكن منه الاَّ أن ارتعشت رموش هدبيه ، وتساقطت دمعتان على خده الشاحب . وسرعان ما استسلم الى سكون عميق .

محمد منير الشوباشي

الشعر المعاصر

على ضوء النقد الحديث

عرض وتقييم : بقلم علي الراعي

أخرجت المطبعة العربية في الأيام الأخيرة كتاباً بالغ الأهمية للمشتغلين بالأدب العربي خاصة، وللمثقفين بوجه عام، هو كتاب «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» للأستاذ الباحث مصطفى عبد اللطيف السحرتي .

وترجع أهمية الكتاب — في المحل الأول — إلى أنه يستعرض للمرة الأولى في تاريخ الأدب العربي مدارس النقد المعروفة في الغرب فيعرف بها القارىء، ويدرسها معه، ثم يسعى الى تطبيقها على نماذج عديدة من الشعر العربي المعاصر، تطبيقاً أميناً عالياً، لا تحيز فيه ولا إجحاف، ثم هو بعد، تطبيق الشاعر المتذوق، والفنان الواعي، الى جانب الباحث المحايد، الذي يضع الأقيسة والمعايير أمامه، ويحب ألاً ينساها

والكتاب — من هذه الناحية — علامة كبرى مميزة من علامات الطريق في الأدب العربي على إطلاقه، وفي الأدب العربي المعاصر بوجه خاص. ذلك انه ليس خافياً أن النقد العربي— بالمعنى المفهوم المعاصر لكلمة « نقد » لم يكن له وجود قبل السنوات الخمس عشرة أو العشرين الأخيرة، وحتى في هذه السنوات، لم يكن هناك «نقد» بالمعنى الذي ينصرف اليه الذهن في اللغات الأجنبية الحية . . . . كان ثمَّ تشريح لفظي ونحوي، لأبيات الشعر ومحاولة لتسقط الأخطاء اللغوية والنحوية، ثم تقدير شخصي متعسف للقصيد، بقصد التقليل من شأن صاحبها، إذا كان المراد التهوين، والارتفاع به الى السماكين إذا كان المراد التهويل. وفي أحوال قليلة، وفي آخر تلك السنوات العشرين، ظهرت محاولات متناقضة تهدف الى تقييم الشعر بعيداً عن الهوى والغرض، ولكن هذه المحاولات كانت تصدر عن أساس شخصي أكثر مما تصدر عن مقاييس موضوعية، يمكن أن تتخذ محوراً

للبحث ، بحيث يكون للناقد والقارىء مفهوم واحد مشترك للمهمة التي هما بصددها فيستطيع الناقد أن يتكلم لغة مفهومة ، ويمكن للقارىء أن يفهم عنه هذه اللغة .

أهمية كتاب «الشعر المعاصر» إذن ، هي انه يقدم هذه المقاييس ، هذه اللغة الواحدة المشتركة ، بين الناقد والقارىء ، الى الأدب العربي . وهذا في حد ذاته عمل ضخم . ذلك أنه ليس من السهل على باحث في مثل مركز الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي أن ينهض بهذا العبء وحده ، فما بالك وهو لم ينهض به فقط ، بل سار به قدماً ، وأوغل في الطريق نحو صياغة عقلية علمية في النقد العربي ، عقلية ، لا تكتفي بأن تقرأ عن مدارس النقد المعروفة في الغرب ، بل تهضم هذه القراءة وتمثلها ، وتخرج منها نتاجاً جديداً ، هو هذا الروح العلمي المنصف الذي امتاز به تقدير الأستاذ السحرتي للنماذج الشعرية العديدة التي أوردها في كتابه الكبير .

ولنحاول أن نتفهم أكثر من هذا معنى عبارة «عقلية علمية في النقد العربي» وهي عبارة قد يجد فيها غير قليل من الأدباء ما يحتجون عليه . وذلك أن النقد في رأيهم لا يمكن أن يكون علماً ، بل هو عمل شخصي بحت ، يعتمد على صفات شخصية ، كتذوق الناقد واطلاعه ، ومكانته . وما الى هذا من رصيد خاص ، لا يمكن نقله للقارىء أو المشتغل بالأدب . هذه العقلية العلمية هي بالضبط المقابل للرصيد الخاص .. هي الرصيد العام للأدب وهي مجموعة الحقائق الموضوعية التي يمكن للناقد أن يحيل القارىء عليها في تقديره للعمل الفني ، فتكون بذلك القدر الثابت المشترك بين الناقد والقارىء ، وتصبح أساساً للتفاهم يمكن بناء النقد عليه باضافة الرصيد الخاص للناقد ، ومن ذوق وتجاربه واطلاع .. وبدون هذا القدر الثابت لا يمكن لأي نقد جدي أن يقوم ، بل تظهر كل محاولة لتقييم العمل الفني بمظهر الحكم الشخصي التعسفي عليه .

من هذا تتضح للقارىء أهمية كتاب الأستاذ السحرتي ، فهو يتصدى لتوفير هذا الرصيد العام في أدب لم يكن له مثل هذا الرصيد قط ، وهو بهذا لا يخرج كتاباً في النقد كما يخرج أي ناقد أجنبي كتاباً في النقد ، يعتمد فيه على مئات الكتب التي خرجت من قبل ، ويستخدم فيه أقيسة ومعايير مفهومة لديه ولدى قرائه ، بل هو في الواقع يشق ترعة أو

ينحت طريقاً في جبل ، وهو يستحق منا نفس المديح ونفس التهنئة التي يصح أن توجه الى كل من يختط سبيلاً جديدة .

وليس أدل على أهمية كتاب الأستاذ السحرتي ، من أنه وقد عرّف قراء العربية بالأقيسة النقدية الجديدة ، قد أتاح لنا أن نستخدم هذه الأقيسة بالذات في نقد كتابه دون خوف من أن يكون هذا النقد كمن يتحدث الى قوم بلغة لا يعرفونها ، فيصبح كلامه ضرباً من العبث .

***

بدأ الأستاذ السحرتي كتابه بمقدمة أوضح فيها حال النقد في النصف الأول من القرن العشرين ، كيف أنه « ساير المذهب الاتباعي » الجامد ، الذي سار عليه بعض القدامى من قرون وقرون ، فما كان الأدباء ينقدون على منهج قويم ، وانما كان يهدم بعضهم بعضاً .. وكان أكثر النقد — ولا يزال — زوراً وعبثاً ، هو في أغلب الأمر ، رأي يصدر عن مجاملة أو جهالة ، ثم ينتقل من فم الى فم .. وخلص الباحث من مقدمته هذه الى بحث مذاهب النقد كما هو معروف في الآداب الأجنبية ، فتحدّث عن المذهب الفني وهو المذهب الذي ينظر في العمل الفني الى روحه ، وصدقه ، واصالته وأسلوبه ، دون اعتبار يذكر لموضوعه أو لنحوه وصرفه . وبعد أن طبق هذا التعريف العام على الشعر ، وتحدّث عن التجربة الشعرية ومثّل لها من بعض شعراء المهجر ومصر والشرق العربي ، انتقل الى الحديث عن المذهب الواقعي وهو ثاني المقاييس التي تستخدم في تقدير العمل الفني في النقد الحديث .

يقول الأستاذ السحرتي إن « المذهب الواقعي في النقد لا يختلف مع المذهب الفني الأ في شيء واحد هو موضوع القصيد ، فهو لا ينظر ، كما ينظر المذهب الفني ، الى التجربة الشعرية والصياغة والانفعال والفكر والخيال فقط ، وانما يدخل في اعتباره الموضوع ، فان كان الموضوع لا يهتم بالحياة وأحداثها وآلام الناس وأشواقهم وآمالهم فهو فن رديء ، فن مخلخل للمواهب ، مخدّر للناس ، فن لا غاية من ورائه الا تسلية جماعة ضئيلة مترفة — والفن الجيد هو المعبر عن أشواق الناس وآمالهم ودنياهم .

ورجال المذهب الواقعي يضعون للفن منازل ، فالفن الذي يعبر عن الوقائع العابرة أقل

منزلة من الفن الذي يضم الحقائق المعمرة الباقيـة ، وهذا الفن الأخير يعدُّ في رأيهم فنّاً عظيماً اذا صيغ بأسلوب قوي مقنع » .

ويمضي المؤلف بعد هذا العرض الواضح للمذهب الواقعي في النقد ، فيطبق هذه الآراء على شعر بعض شعراء الشرق من أمثـال محمد رشاد راضي ، ونزار قباني وحافظ ابراهيم وغيرهم ، فيسمي ما يورده من شعر الأولين ، وما يذهب مذهبه من الشعر ، شعراً « مطبوعاً بطابع التدهور والانحلال » فإذا خلص من هـذا الى شعر حافظ ، فهو عنده — وعلى ضوء المذهب الواقعي ، شعر « يصف واقع المجتمع ، الذي تطل منه على حوادثه الجسام ، ونراها رأي العين » . وبعد أن يشـير الى شعر أبي القاسم الشابي وأبي شادي وبدوي الجبل . وبعض الأدباء الأحرار ممن يجد أنَّ شعرهم حافل « بواقعات الحياة وأناشيد الحرية والديموقراطية » يستطرد الى الحديث عن المذهب الفقهي في النقد فيقول :

« النقد الفقهي ، أو المدرسي أو الجامعي إن صحت التسمية . هو النقد الذي سار عليه أغلب النقّـاد القدامى ، وهو ينظر في الشعر الى نحوه ، وصرفه ، وعروضه ، وبيانه ، وبديعه ، وفي بعض الأحيان الى معانيـه ، وهو النقد الذي سار عليه جل نقّـاد العرب ، من قرون وقرون ، ولا يزال محوراً لنقدات كثير من نقّـاد اليوم » .

ولا ينكر المؤلف ضرورة هـذا النوع من النقد ، على أن يكون تابعاً للنقد الفني أو الواقعي ، لا أن يكون مفرداً ، إذ لا يجوز بحال أن يوضع الفن تحت مشرحة اللغوي والنحوي والعروضي ، ولا يجوز أن يكون نقّـاد اليوم أبواقاً لنقّـاد الأمس الغابر ، فيقتصروا في نقداتهم على النقدات الشكلية ، كما فعل الرافعي مثلاً في نقد العقّـاد ، أو كما فعل أحمد محرّم في نقد اسماعيل صبري وحافظ ابراهيم .

ثم يلمع الأستاذ السحرتي الى بعض نقّـاد العرب الأقدمين . كقدامة بن جعفر ونقدات ابن قتيبة ، من نقّـاد القرن الثالث الهجري ، وكان نقدهما « أعجف هزيلاً مملاً ، عليه مسحة من الصفرة والشحوب » . ومثل ابن الأعرابي وحماد ، وهما لغويان أقحما نفسيهما على الأدب ، وأغلب نقدهما كان يدور حول فقه اللغة . ومثل الآمدي ، من كبار نقّـاد العرب ، ونقده ذاتي في جملته ، وعبـد العزيز الجرجاني ، الذي كان يهتم كل الاهتمام بالناحية البيانية ، من

تشبيه أو استعارة ، أو مجاز ، أو كناية ، كما كان يعني بتتبع سرقات الشعراء ، ما كان «منسوخاً أو مسلوخاً أو ممسوخاً ».

وبعد أن بيّن المؤلف كيف أن هذا النقد الذاتي الشكلي كان سبباً في تضارب آراء نقّاد العرب القدامى في العمل الفني الواحد أنهى هذا البحث الأول من كتابه القيم بقوله :

«لهذا نجد النقد الأدبي في الشرق بين شدّ وجذب ، وبلبلة وتلدُّد ، كحال الأدب تماماً. ولقد آضَ في ذمة العاملين المخلصين للأدب أن يوجهوا النقد الى الطريق الأمثل ، وخير سبيل هو التوحيد بين المذاهب الثلاثة وذلك بمسايرة المذهب الفقهي في سلامة اللغة واحترام قواعدها ، ومتابعة المذهب الفني في النظر الى فنية العمل الأدبي ، ومجاراة المذهب الواقعي في موضوعه وغاياته الجدية »

وهذه في الواقع هي السياسة التي يسير عليها الأستاذ السحرتي في تحليله للنماذج الكثيرة التي يوردها من الشعر العربي المعاصر . وهو تحليل يمتاز — كما قلت من قبل — بالحيدة العلمية اللازمة ، وإن كان ما خفت من أنغام التحاليل يحدث عن نفس فنانة واعية تحس الجمال إحساساً ، في الوقت الذي تجعله موضع الدرس ، ولا تجد في الحالين تناقضاً ولا حرجاً .

* * *

وفيما يتلو من بحوث حتى البحث الخامس ، يتحدث الأستاذ السحرتي عن أشياء هي في صميم الصناعة الشعرية ، يتحدث عن التجربة الشعرية ويمثل لها ، وعن الصياغة الشعرية وعلاقتها بنوع التجربة الشعرية ثم ينتقل الى الحديث عن الألفاظ الشعرية وعلاقة الأسلوب الشعري من حيث موسيقيته أو تنافره الصوتي بشخصية الشاعر ، ويتناول عديداً من الشعراء بالبحث والتحليل ، ويخلص من هذا الى الكلام عن الوحدة الشعرية ، أو وحدة التجربة وعناصر هذه الوحدة من التسلسل المنطقي في السرد والصور الحية ، والموسيقى المتوائمة مع المعنى ، وحرية حركة الالفاظ من القصيد ويذكر ما جدّ من إعراض بعض شعراء الغرب المحدثين عن الاهتمام بالوحدة في القصيدة ممثلاً لهذا من شعر الشاعر الايرلندي المعاصر جيمز جويس .

ثم يترك المؤلف هذا الحديث ليتكلم عن الانفعالات الشعرية ، الموضوعية، ويُقسِّم الانفعالات المختلفة فيسمي بعضها انفعالات ذاتية وأخرى موضوعية، ويفرق بين الانفعال الرفيع الراقي ذي القيمة الايجابية ، والانفعال السيء النازل ذي القيمة السالبة أو السطحية ولعلَّ هذا الفصل ، من أمتع فصول الكتاب ، وسنعود للحديث عنه بعد الفراغ من استعراض البحث .

وفي البحث الرابع ، يتحدَّث الأستاذ السحرتي عن الفكر في الشعر ، ويُفَرِّقُ بين الشعر والنظم . يؤيد جانب الشعر ذي الفكرة في مقابلة الشعر الذي يضم فكرة عادية ، أو لا يضم فكرةً ما .

ثم يعود في البحث الخامس الى الحديث عن الموسيقى الشعرية ، فيرى أن الموسيقى الشعرية ليست كل شيء في القصيد ، كما يرى الكلاسيون من أمثال المنفلوطي ، ويضع الموسيقى الشعرية موضعها الصحيح بوصفها « جنديًّا من جنود التعبير الشعري » وبعد ما يفرق بين ألوان الموسيقى المختلفة وعلاقتها بالمعنى الذي يريد الشاعر التعبير عنه ، يتحدث حديثاً ممتعاً في البحث السادس عن الشعر الرمزي ، والسيريالية الشعرية ، فيؤيدهما تأييداً عامًّا بوصفهما مصدرين جديدين لزيادة ثروة الشعر العربي ، وإن كان ينكر على السيريالية خروجها على كل قواعد التأليف الشعري ، ولا ينكر مع ذلك الهزة المفيدة التي تحدثها في الجمد الشعري المتراكم على بعض تآليف شعرائنا .

وفي البحث السابع ، وهو أطول بحوث الكتاب ، يتحدَّث الأستاذ السحرتي عن نقد الشعر في مصر . ولعلَّ أروع ما جاء بهذا الفصل الصفحات التي تكلم فيها المؤلف عن شعر أبي شادي ، فجلَّى فيها نواحي كثيرة عظيمة من شعر هذا الأديب المغموط الحق ، وعرَّفه به أبناء الجيل الجديد من الأدباء والمتأدبين الذين لم يكن لهم حظ معاصرته ، قراءة ودراسة في سن تسمح لهم بصدق الحكم واصالة الرأي .

والبحث الثامن والأخير ، يخصصه الباحث للمذاهب الأدبية والنقدية . ويكاد هذا الفصل يكون استطراداً على بعض ما جاء في الفصول الأولى للكتاب ، لولا ما جاء فيه من عرض لنماذج من الشعر الواقعي في العالم . وهنا يتيح الأستاذ السحرتي لقراء العربية الـ

يقرأوا ترجمة أمينــة لأشعار : و . هـ . أودين الانجليزي وفاليرى بريسوف ، ونيكولاي نكراسوف ، وبوشكين ومايكوفسكي من الأدباء الروس ، وأحمد بيرا التركي .

وفي هـذا الفصل يفصح المؤلف إفصاحاً تامًّا عن آرائه ، فإذا هو يناصر المذهب الواقعي في النقد ، ويقف وقفة لا شك فيها إلى جانب الأدب الذي يخبر عن آمال النـاس وآلامهم ، ويدعو إلى الاصلاح والتغيير، ويدفع بالانسانية الى الأمام في نفس الوقت الذي لا ينكر فيه التعبير عن الفردية تعبيراً صادقاً خالصاً .

* * *

بعد هذا العرض السريع ، لبعض ما جاء في سفر الأستاذ السحرتي ، نحب ان نخلص إلى مناقشة ما استلفت نظر الناقد فأحب أن يقطع فيه برأي مع الأستاذ المؤلف في الفقرة الأولى من ص ٢٣ يقول الأستاذ السحرتي : « وإنا لنجد بعض القصـائد ذات الطاقة الشعرية القوية ، يندّ عنها بعض جمالهـا لاحتوائها على ألفاظ غير شعرية » ولا أحسب المؤلف يصرّ على هـذا التعبير « ألفاظ غير شعرية » فالألفاظ خارج نطاق المعنى العـام للقصيدة لا تكون شعرية ولا غير شعرية وإنما يضفي عليها القصيد الشاعرية أو لا يضفي ، حسب جودته صناعةً ومعنىً . وكان الأصوب إن يقال ألفاظ لم تتسق مع المعنى العام للقصيد ، فلم يسبغ عليهـا القصيد صفة الشاعرية (يراجع في هـذا الرأي كتاب الناقد الانجليزي ريتشاردز — فلسفة الخطابة) .

وفي ص ٦٢ — الفقرة الأولى يتحدّث الأستاذ السحرتي عن قصيدة للشاعر السوداني يوسف بشير التيجاني . فيقول : إنه بالرغم من أن التجربة في القصيدة غير واضحة . فان هينة الألفاظ وانسجامها تتحدّى التحليل ، وتقف في وجه الناقد فلا يملك إلاّ التـأثر بسحرها النافذ . هنا يكشف المؤلف عن بعض الايمان الراسب بالشعر كألفاظ موسيقيـة مستقلة عن التجربة وعن المعنى . ولما كان الكتاب كله يدل على انه في جانب الشعر المفهوم تجربة وألفاظاً ومعنىً ، فما أحسب هذا الاّ تناقضاً سها عنه المؤلف في غمرة المجهود الجبار الذي بذله في الكتاب .

على أن هذا يثير تعليقاً عارضاً. فالشعر، ككل الفنون الأخرى، له جذور ممتدة في السحر، وايمان بعض النقّاد موسيقية الألفاظ بوصفها أشياء في حد ذاتها، أو وحدات مغلقة تستعصى على الفهم وتتحدى التحليل، انما هو ايمان بدور بدائي للشعر كان القصيد فيه ترانيم سحرية وطلاسم مغلقة يرددها الساحر، أو المصلي، قصد استحداث تغيير خارجي في البيئة، عن طريق تغيير داخلي يحدث في نفس الساحر أو المصلي، ويجعله أقدر من ذي قبل على تغيير البيئة (راجع كتاب جورج طومسون في الشعر). وهذا الدور المقوي، أو العلاجي يشبه الى حدّ ما نظرية أرسطو في الأثر الذي تتركه المأساة في نفوس المتفرجين، فتخلصهم من همومهم الخاصة عن طريق عرض مآسي كبرى أمامهم. ومما لاشك فيه، أن الفنون لها ناحية علاجية واضحة تنبه لها العلماء من زمن، واستخدموها فعلاً في الأغراض العلاجية.

* * *

ونقطة أخرى لعلها أهم مما سبق هي نظرة المؤلف الى الانفعالات السيئة أو النازلة والانفعالات الرفيعة الراقية. هذه النظرة لا تبدو واضحة في الكتاب، وعرْض المؤلف لها خليق أن يثير شيئاً من الإختلاف في الرأي، يقول الأستاذ السحرتي في ص ٩٥ — « أما الانفعالات السيئة أو النازلة والتي ترمي الى الاثارة فقط، فهي مادة غير صالحة للأدب والشعر، ولا عبرة باجادة التعبير عنها لأن الفن مهما انفصل عن الأخلاق فهو لن يسمو باثارة الخواطر العابثة، والعواطف المنحرفة الشاذة » هذا حكم أخلاقي على الانفعالات وكان من الواجب الحكم عليها حكماً فنيًّا علميًّا.

والصحيح أن يقال إن كل الانفعالات مادة صالحة للأدب والفن ولكن تقيم هذه الانفعالات هو الذي يدمغ بعضها بطابع السطحية ويدمغ بعضها الآخر بطابع الخلود. لحديث الشاعر « نزار قباني » عن النهدي حديث فني، به جودة في التعبير وبه خيال وتأنق ولكن قيمة هذا الحديث قيمة مؤقتة، لأنه يتناول ناحية عابرة في تاريخ الفرد وتاريخ الانسانية، ولو انه اختار انفعالاً آخر كانفعال الفرح أو الحب أو الغيرة لكان

حظه من البقاء أكبر لأن حظ هذه الانفعالات نفسها من البقاء أكبر وأعم

أما عن انفصال الاخلاق عن الفن فهو انفصال عابر. والحقيقة أن الفن والأخلاق يلتقيان في أن كليهما تعبير عن الشخصية الانسانية، مع هذا الاحتراس، وهو أن الأخلاق تعبير مؤقت عن الشخصية الانسانية وحظه من التعبير أعظم من حظ الفن الجيد الذي يربط نفسه بالحقائق الأولى للحياة، ويدخل في حسابه ان هذه الحقائق تتطور على المدى.

* * *

الفن إذن لا يمكن ان يغض بعض الطرف عن الأخلاق، كما يذهب بعض النقاد والفنانين المنحلين، ولكنه ينظر اليها نظرة محللة فاحصة، ويعبر عنها على هذا الأساس المدقق.

بقيت ملاحظة أخيرة على الفصل المعنون «نقد الشعر في مصر» فقد أغفل فيه المؤلف كتابين هامين الأول «الشعراء وبيئاتهم في الجيل الماضي» للاستاذ عباس محمود العقاد، والثاني ديوان شعر للاستاذ لويس عوض بعنوان «بلوتولاند وقصائد أخرى»

وأهمية الكتاب الأول أن به محاولة لربط شعراء القرن التاسع عشر في مصر بالبيئات الاجتماعية والاقتصادية التي نشأوا فيها، وهذه خطوة متقدمة في النقد كان من الواجب الاشارة اليها.

أما الثاني، وهو ديوان الأستاذ لويس عوض ففيه مقدمة رائعة — وان كانت الناحية العاطفية تغلب عليها — عرض فيها المؤلف لحال الشعر العربي وأثار قضية الشعر العربي الكلاسي، والشعر المصري المكتوب باللغة الدارجة ثم اتبع المؤلف هذه المقدمة بمحاولات شعرية قصد فيها أن يصدم الجمود الشعري الذي نعاني منه بقصائد من تأليفه لا تخلو من جمال جديد غريب وهي خليقة بدراسة عميقة من النقاد.

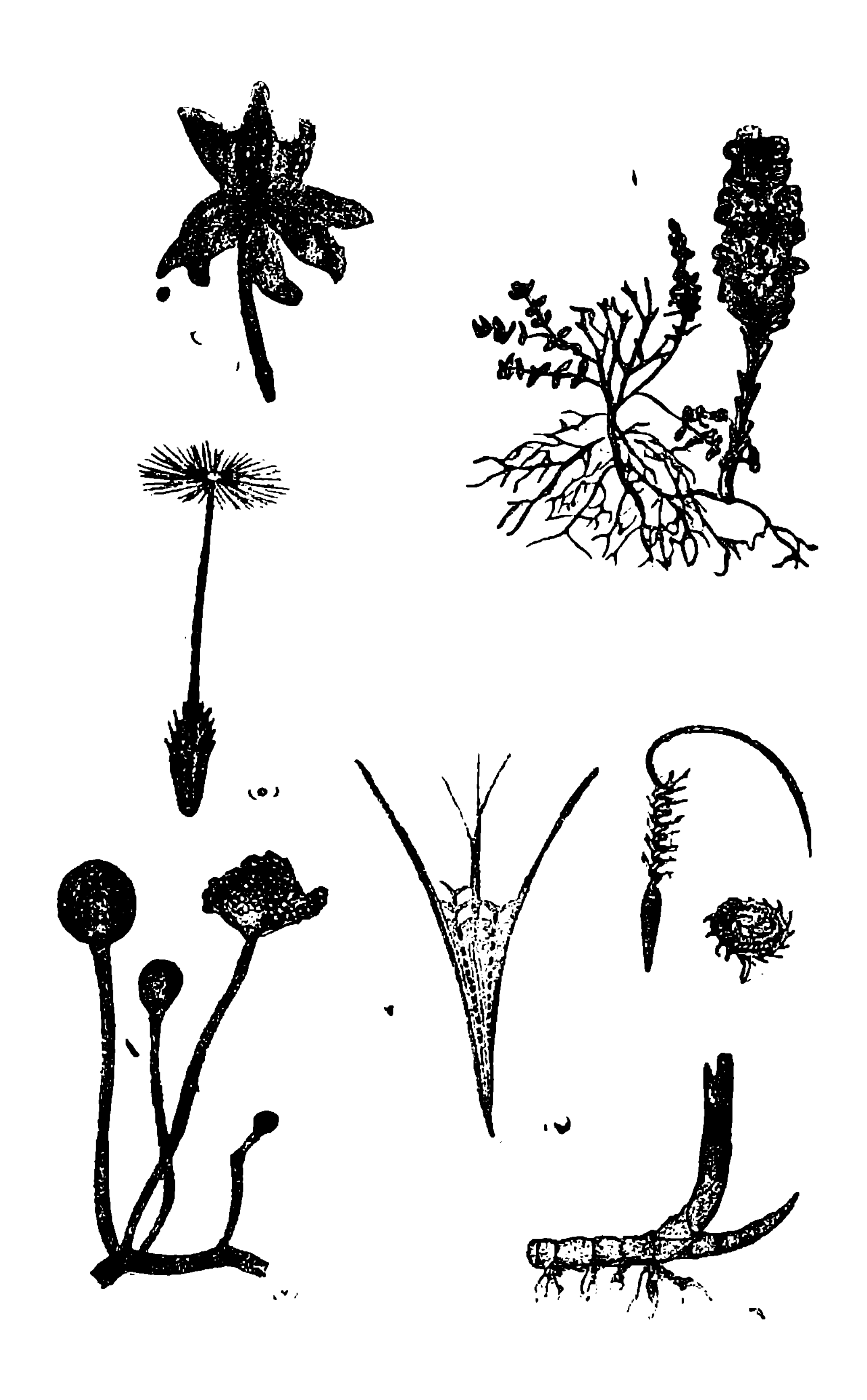
مرة أخرى نهنيء الأستاذ السحرتي ونرجو أن يأخذ كتابه المكان اللائق به في مكتبتنا العربية الحديثة».

علي الراعي



الحرب بين النباتات

استمدّ كثيرون من مشاهير القواد الأفذاذ خططهم الحربية ، من بعض المشاهدات التي تتكرّر يوميّـا أمام أعيننا ، دون أن نعيرها التفاتاً . . ففقيـد العروبة المرحوم أحمد عبد العزيز قائد قوات الفدائيين المصريين بفلسطين ، اقتبس أسلوبه الفذ ، وجرأته النادرة من هرّة حاصرها رهط من الأطفال وأوسعوها ضرباً بالعصي . . فوثبت على أكبرهم فاضطرب . وتزنحت العصا في يده ، وهنـا وجم بقية الأطفال فاستطاعت الهرّة النجـاة . وتيمورلنك الملقب بصاحب قران « أي ملك العالم » لما استبدّ به اليأس بعد حصار إحدى المدن عدة مرات ، ألهمته نملة أن نور الرجاء يجب أن يظل رائده الأول ، فقد كانت تحاول نقل حملها إلى جحرها وفشلت عدة مرات . ولـكن إصرارها على النجاح أتاح لها الفرصة أخيراً . وتزيد الأمثلة عن الحصر وكلها تنطق بالمثل العليا التي تضربها بعض الحيوانات أو الطيور للناس . . على أن هناك عالم آخر مليء بالعبر . وبالمثل العليا في الـكفاح . وأعني به عالم النبات . وقد يظن البعض أن هذه الـكائنات القعيدة المقيدة لا تقوى على الـكرّ والفرّ والهجوم والدفاع . ولـكن الحقيقة أن حياتها مليئة بالحروب الداميـة والصراع العنيف . وإنها تستخدم أنواعاً شتى من الأسلحة الخطيرة ، التي نعدها حديثة في حروبنا البشرية . بينما هي قديمة العهد جدّا في العالم النباتي . كالحرب الجوية والهبوط بالمظلات ـ الباراشوت ـ والطابور الخامس ، والحرب المائية . بل هناك أسلحة نباتية عجز فطاحل العلمـاء البشريين عن تقليدها . وفيها يستخدم في الغزو أسلحة تمرق كالسهم تحت الثرى ، وتهاجم الأعداء مما سيأتي بيانه . فمنـذ بردت القشرة الخارجية للـكرة الأرضية ، غمرها الخالق سبحانه وتعالى بتقاوي أزواج من نباتات شتى . وأفاض عليها من ماء المزن، فبعد أن كانت هامدة اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ووهب المولى العظيم كلاً منها أسلحة عديدة



للهجوم والدفاع ، كما اختص كلاً منها بمميزات علَّم الانسان بعضها ، وترك له الباقي ليكشف كنهه بما وهبه من عقل راجح وبصر كاشف وبصيرة ثاقبة .

أما مثار الحروب النباتية ، فهي هي أسباب الحروب البشرية والحيوانية ، هي تصادم المصالح والتنافس على الطيب من الأرض ، والتطاحن على القوت ، والتهافت على الموارد العذبة . أما وسائل القتال فبعضها أولي ينحصر في أن النبات القوي يسبق الضعيف في التهام الغذاء ، والماء ، حيث يمد جذوره الشرهة إلى أبعاد نائية ودانية . وبذا يشتد ساعده ، ويعلو ، فيحجب الضوء عن النبات الضعيف ، ولا يخفى أن الغذاء النباتي عبارة عن تمثيل لكربون الجوّ بواسطة أشعة الشمس في الأوراق « أما الجذور فتمد النبات بما يلزم من ماء وأملاح » فبحرمان النبات الضعيف من الضوء اللازم يأخذ في الاضمحلال والضعف .

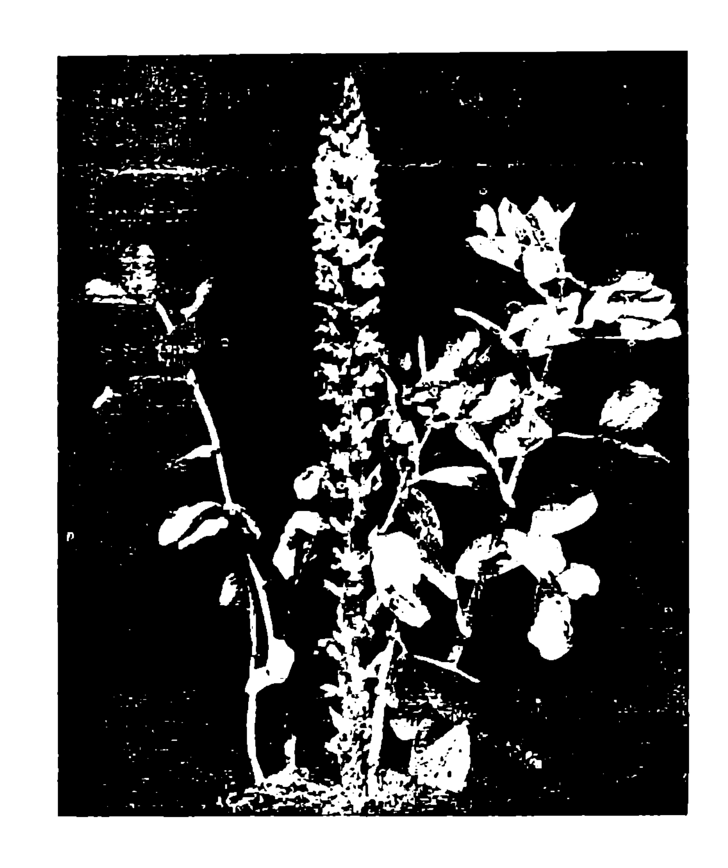
وقد يحاول الوصول للضوء جاهداً فتستطيل خلاياه ، وتشرئب قامته « ويعرف في اللغة العامية بأنه يسورق » ولكن ارتفاعه مع هزاله لا يسمح له طويلاً بالحياة والكفاح . ولذا فسرعان ما ينهار ويذبل . ولبعض النباتات العديمة الجذور أو لضئيلتها طرق غريبة في صرع النباتات ، والتطفل عليها واعتصار دمها وامتصاص غذائها . فنبات الحامول يلتف حول سوق البرسيم ، والعطر ، والزعتر ، ويرسل مِمَصَّات تلتصق بأنسجة النبات العائل ، ثم تسرق منها ما تشاء من ماء وغذاء . أما نبات الهالوك وهو من أشرس النباتات وأعنفها كفاحاً ، فإن بزوره تظل ساكنة في التربة من ١٥ ـ ١٧ سنة دون أن تموت فإذا ما اشتمَّ جنينها رائحة جذور الفول أو البسلة أو الكراوية أو البابونج . فإنه يَنْبت ويلف نبته في مدار حلزوني حتى إذا ما صادف جذر العائل التصق به . وأخذ يمتص من غذائه ثم يرسل ساقاً قوية تحمل مئات الأزهار ، وملايين البزور . وبهذا الجيش الجرار من البزور يبدأ هجوم العام التالي . وما يليه من سنوات ، يتضاعف فيها عدد جنوده مئات المرات . ما لم تتداخل العوامل الزراعية . والمساعدات البشرية لإنقاذ الحاصلات النافعة من براثن فتكه ، باقتلاع نباتات الهالوك قبل الإزهار ، وباتباع دورة زراعية طويلة لا تزرع فيها النباتات التي تعوله ، وبزراعة مصائد نباتية لاقتناصه ، فقد أثبتت التجارب

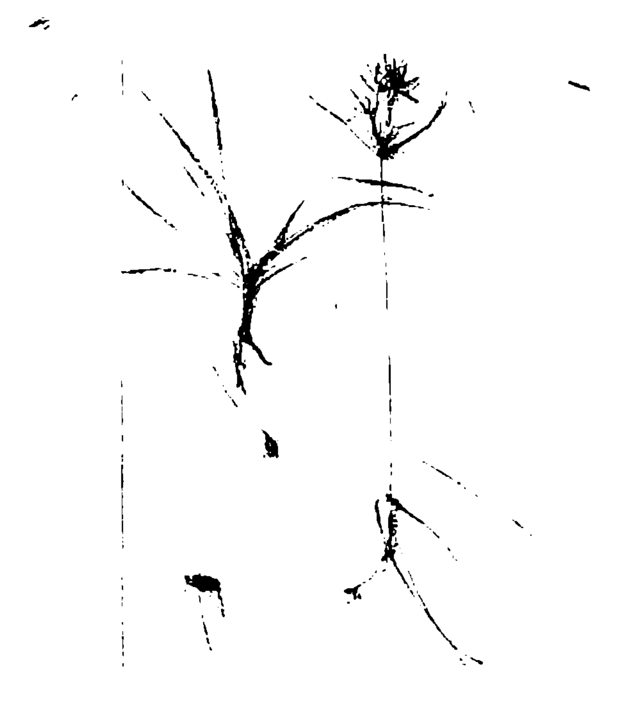
أنه بزراعة الكتان في الحقول الملوثة بزور الهالوك ، فإن أجنة البزور الأخيرة تنبت ثم تنمو على الكتان ، ولكنها سرعان ما تموت ، لعدم ملاءمة جذور الكتان الكبير لنموها كما يفيد غمر التربة بالماء خمسة عشر يوماً في خنق ما بها من بزور الهالوك وإن لم يكن الخنق تامًّا لجميع بزوره .

ولبعض الحشائش أسلحة أوتوماتيكية ، تقذف ببزورها إلى أبعاد طويلة فان قرونها لا تفتح بسهولة ، بحيث تسقط بزورها في مكانها « كما في البسلة الشيطاني بل تنفتح بقوة وبصوت » وتنثر بزورها الى أبعاد كما ترى في الشكل » ولكن هذا الانتثار لا يقارن بما تفعله بزور الجعضيض والقريص وبزور نبات أسنان الأسد . فقد سلحتها السماء بمظلة حريرية (باراشوت) تستطيع بواسطتها أن تطير في الجو . وأن تهبط حيث المهد الملائم والجو المناسب ، والرطوبة اللازمة لسرعة إنباتها . وبذا تحتل ميدان الموقعة دون أن تستطيع نباتات المحاصيل أو زارعها أن يقاوموها . وكثيراً ما يتم هذا في فترة الليل حيث تتعذر أو تنعدم القدرة على رؤية أو مقاومة هذا العدو . ولقد اتبع الألمان في الحرب الأخيرة العالمية هذه الطريقة في احتلال جزيرة كريت ، عن طريق الجو والهبوط بالمظلات .

على أن لبعض النباتات مقدرة فائقة في إخفاء طابورها الخامس ودسه بين بزور المحاصيل بحيث يتعذر معرفتها على الزراع . وبالتالي يصعب فصلها فبزور الحامول الكبير تكاد تساوي بزور البرسيم حجماً واستدارة وشكلاً كما أنها تنضج مع تقاوي البرسيم. وقد ظل الإنسان أمداً طويلاً يحاول تنظيف تقاويه منها حتى هداه البحث الى طريقة طريفة تنحصر في خلط التقاوي ببرادة الحديد ثم تعريضها لمغناطيس قوي. ولما كان سطح بزور الحامول غير أملس فإنها تحمل كمية كبيرة من مسحوق برادة الحديد، وبالتالي فإنها تنجذب وما عليها من البرادة الى المغناطيس دون بزور البرسيم الملس . وقد صنع الألمان آلة كبيرة لتنقيب البرسيم بني تصميمها على هذه الفكرة البسيطة وقد اشترى قسم البساتين واحدة منها

وقد تلجأ النباتات إلى وسيلة أخرى لنقل أفراد الطابور الى أراضي الأعداء دون أن ينتبه إليها أحد من أصحاب هذه الأراضي . وذلك أن تكون لثمارها أو لبزورها أشواك





هالوك متطفل على الفول

بسيطة تعلق بشعور الحيوانات أو بملابس المزارعين كما في ثمار الشبيط والنفل المر والجزر الشيطاني والكرفس البري .

وهناك طريقة أخرى لانتقال هذه البزور الضارة دون أن يلاحظها أحد وذلك بأن تلقيها نباتاتها الى مجاري المياه وسرعان ما يلقيها اليم بالساحل أو تحملها قنوات الري آمنة مطمئنة الى التربة . وأغلب ما ينقل بهذه الطريقة البزور الخفيفة التي تقوم على سطح المياه وكذا بزور النباتات التي تنمو على شواطىء القنوات . ومن أمثلتها ، المنتنة وجميع أنواع الرمرام والتفتة والرجلة والحميض. واستخدم اليابانيون هذه الطريقة في الحرب الأخيرة في الاستيلاء على كثير من الجزر المتاخمة لبلادهم في التسلل إليها ليلاً عن طريق البحر. وقد تقف بعض الطيور موقفاً عدائياً للنباتات النافعة المنزرعة وأصحابها،وذلك بأن تأكل ثمار بعض الحشائش أو بزورها . ولما كان لبعض البزور غلاف صلب فإنها تمر في القناة الهضمية لهذه الطيور أو الحيوانات دون أن تتحلل أو يموت جنينها وعند لفظها لهذه البزور فإنها تهبط في هدوء واطمئنان الى التربة المخصصة لنماء الحاصلات . ومن أمثلة ذلك بزور لسان الحمل وبعض أنواع النلارس .

وتحتاط كثير من النباتات فتحمل أكثر من سلاح . ففي السعد مثلاً لا يكتفي النبات بما لديه من بزور خفيفة سهلة الانتشار بالماء والهواء فإنه يستخدم سلاحاً خفياً ماضياً فهو يكوّن عُقداً مليئة بالبراعم الكامنة . وعلى أكثر من طبقة لأسفل . فإذا ما اقتلع النبات من منطقته العليا وظن المزارع أنه تغلب على النبات واستأصله فاذا ما رويت الأرض للنبات النافع الحليف فسرعان ما تتنبه براعم السعد الكامنة في الدرنات السفلية والتي كانت تتصل بالنبات الظاهر على سطح الأرض اتصالاً رهيفاً لا يسمح باقتلاعها معها . وتمثل هذه الحالة اتصال المزارع اليهودية المتناثرة في صحراء فلسطين والتي تعمل كل منها مستقلة إذا انقطع الاتصال بمركز الخلية .

وهناك سلاح رهيب لم يقو الانسان على تقليده حتى الآن وهو يزحف تحت الأرض ويتخذ من الثرى غطاء يخفي حركاته الخطيرة وهجومه المستتر . ففي النجيل والحلفا والعرق السوس تزحف جنودها ــ ريزوماتها ــ تحت التربة دون أن تراها عين أو يحس بدبيبها أحد .

فاذا ما اقترب النجيل أو الحلفا من جذور نبات توقفت ريزوماتهما قليلاً وأخرجت واخزات حادة تنقب بها تلك الجذور أو الدرنات أو الأبصال ثم تنخرها وتعيث في محتوياتها فساداً . ولا تقتصر هذه المعارك على النباتات ذات الوزن المتقارب كما هو الحال في الملاكمة كما لا يشترط أن يكون النبات المهاجم أقوى أو أكبر حجماً من النبات المدافع. فان كثيراً من الميكروبات النباتية لا تكاد ترى بالمجهر إلاّ بصعوبة . ومع ذلك فان فتكها بأكبر الأشجار يكون ذريعاً . فجراثيم البياض والعفن والصدأ والتفحم لا تقيم وزناً لحجم الأشجار أو النباتات التي تهاجمها . ومن طريف ما شاهدت في هذا الصدد أن بزور نوع من الهالوك لم تجد أمامها سوى أشجار الكازورينا الصغيرة في المشتل فهاجمتها ونمت على جذورها وأضعفتها عن مثيلاتها كما هو موضح في الصورة ؟

ومما يذكر في هذا الصدد أن باستير العالم الفرنسي الأشهر أراد أن يستفيد من المعارك النباتية وأن يستخدم سلاحها في إبادة جراثيم الأمراض الخطيرة ضد الانسانية . فقد لاحظ عام ١٨٧٧ أن بعض الكائنات تقاوم بشدة مرض الجمرة الخبيثة ولم يتسع له الوقت في التوسع في هذا الميدان ، ولكنه وضع الحجر الأساسي لأبحاث العالمين إمرش وَلو عام ١٨٩٩ حيث توصلا الى أن جراثيم «سيدوموناس بيوثيينيا» تكسب المحاليل التي تنمو فيها خاصية فريدة في قدرتها على اهلاك كثير من الميكروبات الضارية التي تفتك بالانسان . وفي عام ١٩٢٩ بينما كان العالم الانجليزي الدكتور الكسندر فلمنج يقوم بفحص مزارعه البكتيرية في مستشفى سانت ماري بلندن. وكان الكثير منها قد تلوّث بالمئين من الميكروبات السابحة في الهواء والتي أخذت تتكاثر وتنمو في كافة صحون المزارع . ولكن ما هذه البقعة التي حرّم فطرها على غيره من الكائنات أن تقربها أو تنمو فيها ؟ وأي سلاح ماضٍ يتخذه هذا الفطر في تخدير أعدائه واذابة أجسامها ؟! لقد قام بعزله البحّاث وتربيته في مزارع خاصة، ثم في محاليل غذائية، فاذا بالفطر يفرز مادة صفراء شغلته عن الفطر نفسه، فجرّب أثرها على مزارع الكائنات الدقيقة الأخرى الضارة بالانسانية فاذا بتأثيرها الساحر يوقف نشاط هذه الميكروبات ويذيبها وكان الفتح المبين في اكتشاف البنسلين أو افراز فطر البينسيليم نوتاتم للفتك بأعداء هذا الفطر من الميكروبات النباتية التي كثيراً ما تورد الانسان موارد الهلاك والفناء كجراثيم الغانغرينا الغازية، والالتهاب الرئوي، والالتهاب السحائي، والدفتريا والسيلان، والجمرة، وكثير غيرها من الميكروبات السبحية والعنقودية، فكم في هذا الصراع النباتي من فوائد للبشرية ؟! وكم في خلق الله من أسرار وعبر

عز الدين رشاد
رئيس فرع النباتات العطرية والطبية

عودة الآب

كانت ليلة من ليالي الصيف المصحية حين جلس الزارعون في العراء قبالة أعرام القمح يرعونها بعيون يقظة ساهرة . وقد انتثروا في فضاء الله ثبات ثبات لكل ثبة هم ، فهذه في حديث عن غدها وما ترجوه من وفاء إجارات وديون : وتلك في جدل تثيره المطالب التي لا يفي لها المحصول . وثالثة جلس آحادها في صمت بين نظرة الى الأرض وأخرى الى السما كأنهم يبثون بها الزرقاء ما فعلت الغبراء . ومن بين هؤلاء وهؤلاء جماعات ملك المرح زمام صغارهم فشاع لهم زمر وغناء يعلو حيناً وتردد الأرجاء صداه فيجد سبيله الى الأنفس الواجمة فيستخفها ، أو إلى الألسنة المعقودة فيحل من عقالها ، وإلى الصخب والعنف فيحيله صمتاً ورفقاً .

ثم يخفت فتعود النفوس واجمة والألسن معقودة والصخب الى شدته .

حتى اذا ما استنفد الجهد آخر ما في النفوس من مُنّة تراخت الأجفان وانفرجت الأشداق عن تأب ، وأصابت الأجساد فترة ، حنت الجنوب الى المضاجع فانبطحوا وطاؤهم الأرض وغطاؤهم تلك العباءات التي صنعتها أيديهم من الأصواف والأوبار .

ويخيم السكون على ذلك الفضاء ، ويتكبد القمر في رشقه النير السماء ، فيكشف عن حي يخطو في حذر بين تلك الجثث الملقاة على الأرض حول الأعرام هامدة لا حراك بها

ويخطو خطوة ثم يتلبث قليلاً محدقاً فيما حوله يحسب في دبيبه الهين بقدميه الحفيتين قرع النعال على الصفا ، وفي خفق جلبابه والريح تلعب به حفيف الأدواح مع العواصف وفي أنفاسه التي كان يعلو بها صدره ويهبط في عجلة لم يعهدها ، تأوهات لها صداها الأجواء ، وفي وجيب قلبه دقات مُرنّة تنفذ الى الآذان .

حسب كل هذا وأيقن به فقصر من خطاه وخفف من وطئه وطوى فضل ردائه

وسطه وأطبق شفتيه إطباقاً وحط يسراه على مكان قلبه من صدره يظن أنه ممسكه عن الحركة .

ويرى أنّ الأمور قد استقامت له بالذي فعل فيمضي في سبيله ، على عاتقه عُبَيْبَوَة صغيرة وهو يحاول أن ينهب تلك الأذرع الباقية بينه وبين عَرَمَة من الحنطة تحكي الهرم شكلاً وانحداراً .

ويرنو ببصره فيرى القمر قد نفذ ضوؤه من خلال سعفات النخيل فأرسله على الأرض أشباحاً من ضياء تلعب على الأرض كلما لعبت الريح بالأغصان فيوجس في نفسه خيفةً ويلقي الوهم في روعه أنّ أهل الأرض قد أحسّوا به فنهضوا في قمصانهم البيض . وتسرع يداه الى عينيه فركاً ويحملق فيما بين يديه وتحت رجليه فيعلم أنه من صُنع القمر والأشجار والرياح ، فتعود إليه الطمأنينة ويتحسس العبيوة فلا يجدها حيث طرحها على عاتقه اليمنى . فيرجع أدراجه يتفقدها ويطول به البحث ويجهده الجهد فيرشح جسمُه عرقاً ويجد معه شيئاً يشوك قفاه فيمد يده إليه فيجد العيبة كما هي على عاتقه اليسرى لا اليمنى . فيشوش لهذه لبّه ويكاد تثنيه رهبة عما هو مقدم عليه . ويضيق صدره بالذي خرج له فيعود الى نفسه لائماً وزاجراً ويصحّ منه العزم على أن يرجع من حيث أتى .

وفيما هو مولّ وجهه شطر منزله إذا به يذكر الصبح حين يصبح وصغاره حين يهبون ببطون خاوية يسألونه ما أعدّ لهم من طعام ووفّر من زاد . ومثل له مجلسه منهم عشاء هذه الليلة يتبلغون بتلك اللقيمات التي كانت آخر ما ضمت السلة . وذكر يده الفارغة من العمل وما عاني من ذلّ سؤال الجيران . وامتلأت عيناه بالماء وانفرجت عنه الجفون فجرى على خدّيه ساخناً .

وما عرف أنه بكى بعد أن شبّ قبل هذه إلاّ يوم وارى زوجه الرمس منذ سنين ثلاث . فحمل الى عبئه عبئاً آخر . يكسب للصغار نهاراً ويرعاهم ليلاً . وإذا به بعد عام أو نحوه طريح الفراش ينفق من يسير ما ادخر . حتى إذا ما نفد امتدت يده إلى فُرش وأوعية باعها للداء والغذاء . وما أن يبرأ حتى يجد نفسه ذا علة دفينة تجعل من اليد الصناع يداً مضطربة لا يرغب فيها أصحاب المصانع ، فيحبس نفسه أمام منزله ، يندبه في الحين بعد الحين من لهم إليه حاجة وهم لا يقوون إلاّ على قليل ينقدونه إياه .

مرّت هذه الذكريات تباعاً في مخيلته فزفر زفرة حارّة واسودّ في عينه ما ابيضّ ولم يملك زمام نفسه فعاد يقضي ما خرج له .

وفيما هو يفتح فم العبيوة ليهيل فيها القمح بيديه . إذا عين غافية تنتبه وإذا صاحبها يحاول أن يثب فتُعجله ضربة بفأس تقع على أم رأسه يصحو لها من حوله فيجدون بين أيديهم شيخاً مضرجاً بدمه ورجلاً يعدو على بُعد فينهضون في إثره فلا يتعلقون منه بذيل .

* * *

ويصبح الصباح ويهبّ كبير الصغار الثلاثة من نومه فلا يجد أباه في مكانه فينشده خارج الدار حيث اعتاد أن يجلس فلا يراه . ويظنه دُعي إلى بعض ما يدعى إليه فيجد أدواته في مكانها . فيجلس إلى أخويه يداعبهما .

ويبيضّ النهار وتُصعد شمسه ويجد الصغار للجوع ألمه ويأخذ صغيرهم في البكاء وأخواه إلى جنبه يمنّيانه بأطيب ما يشتهي وألذّ ما يؤكل .

ويشق الأمر على الصغار فيخرجون هلعين لا يدرون آلجوع فزّعهم أم هم بغيره مُفزَعون ! وينذر بهم الناس . وكانوا قد انتهى إليهم مقتل ذلك الشيخ من جيرانهم في الحقول المحيطة فيعجبون للخطبين تجمعهما أُمسية واحدة .

وشاعت شائعة استحالت بعد قليل يقيناً حين شهد كبير الصغار أن العبيوة التي تُركت ملقاة إلى جانب الأعرام لأبيه .

* * *

عرفت المدينة صبياناً ثلاثة تضمهم حجرة في حي من الأحياء التي تضيق فيها الغرف بنزلائها . وعرفوا رجلاً يبرّهم يملك البيت الذي أوى إليه الفتية . وكان يستأجر كبيرهم في حانوته أو قل في مصنعه الصغير . وسرعان ما شبّ الاخوان فلحقا أخاهما الى المصنع نفسه وأصبح لتلك الأسرة من الصغار مالٌ تعيش منه أخذ ينمو مع الأيام ، وفاض منه شيء عادوا ببعضه على عجوز مُرمل كانت تنزل الغرفة المجاورة ، جزاء جهد منها تبذله في العناية بأمرهم .

وجرت الأعوام سراعاً وطوت فيما تطوي ربّ المصنع والبيت . فخلفه عليهما كبير الأخوين ، وكان قد زوّجه الرجلُ من وحيدته وأسلم إليه الأمور حين قعدت به السن .

حملها الفتى عامين وأياماً لم يألُ فيها جهداً وأفاد كثيراً من كسب يَسّر به للرجل ما أراد. فأسلم الروح ولسانه مشغول بالدعاء له والوصاة بابنته وأمها .

* * *

وقد فاتنا أن نحدّثك قليلاً عن فتاة هذا البيت . فهي من الجمال على حظ يرغب فيه الكثير . ثم إن أباها لم يهمل أن ينشئها قارئة كاتبة فأرسلها الى المدرسة صبية وضمها البيتُ حين كعبت وأيفعت وقنعت الفتاة على غُصة بأن تجري يداها في الأوعية والأطباق بعد أن كانت تجري بين المحابر والدفاتر. ورضيت ضجرة بأن تشارك الأم الى جانب الموقد، وكانت من قبل شريكة لجمع من صواحبها بين قاعات الدرس ، ولم تملك مع إرادة الأبوين إرادة تصل بها ما كانت راغبة فيه من حياة.

فقبعت في البيت لا تخرج الى السوق إلاّ في كنف أمها . واستبدلت بيئتها الأولى بيئة من العجائز يزرنَ أمها وتزورهنّ لا يؤمنّ بأنْ تثقف الفتاة بغير الثقافة المنزلية ويجزعنَ حين يرينَ لهنّ فتاة يصاب أبوها بحمى تعليمها .

فشقيت فتاتنا بآرائهنّ حيناً ثم ألفت ذلك عنهنّ ووجدت في البيت ما يشغلها اليوم كله ولكنها كانت ترجو شيئاً واحداً بعد أن فقدت كل شيء . كانت ترجو أن ترى نفسها الى زوج له مثل حظها أو فوقه من ثقافة . أو قل كانت تريده زوجاً من غير المدرسة التي نبت فيها أبوها وزوجها .

ولكنها لم تملك أن تقول بما ترغب كما لم تملك أن ترفض . فانطوت على ألم لم يصرفها عن أن تعيش معه لمن لم تحب ، طائعة ناصبة . تغلب نفسها على أمر لم تعرف بادئ ذي بدء أنه لا يُغلب . وكانت تفهمه شيئاً غير الحب وتظنه هذا التباين بين النشأتين والاختلاف في اللونين .

وما اختفى وجه الأب من البيت واختفت معه تلك الرهبة التي كانت تفيض بها جوانحها خوفاً منه ، حتى بدا لها الأمر في صورة غير التي كانت تظن . وما رأت وجه ذلك الفتى الذي كان يجري في أثرها مع الغدوة والروحة وهي فتاة ، والذي كان يسكن من بيتها إلى ناحية ، والذي عوّدها أن تراه حين تقف الى نافذتها مع المساء حين كف عن ملاحقتها إلى

الأسواق بعد أن أصبحت زوجة — ما رأت وجه ذلك الفتى وكانت تعرفه صبيًّا حتى
رفت أن الذي تضطرب به جوانحها شيء آخر أخذ يتكشف في وضوح حين ملكت جسمًا
ندنه في ظل أبيها ، وقوة لم تكن تعرفها من قبل ، فقالت لنفسها يوماً : إني أحب . ولم
يجد كثيراً في تعرف من أحبت . فلم يكن غير ذلك الفتى الذي شغل بها وكان من أمره معها
ما كان .

***

إنها تملك من زوجها يداً مدبرة للمصنع ، وهو معتمدها ومعتمد أمها ، وتملك من
هذا الحبيب قلباً لا تشك في ذلك ولكنه تنقصه القدرة التي منّ الله بها على هذا الزوج .
إذاً فلتصرف قلبها عن هذا الهوى الضال وما لها تفكر فيما لا تملك معه حلاً . ثم مالها
تبرم والى جانبها قلب فيه اجلال واحترام . أليس هذا كل ما تبغي المرأة وتزيد ؟
حدثت نفسها بهذا لترضى . وآلت على نفسها ألاّ تمس تلك النافذة بيد . واتجهت الى
الزوج تزيد في بره وإلطافه حتى كاد الزوج يظن بنفسه الظنون . وأن المرأة تهزأ به ، أو
أنها تخفي في صدرها شيئاً .
وكلما أمعنت الزوجة في التقرب أمعن الزوج في الريبة . وأحست ذلك منه فعاودتها
بلبلتها وأحيط بها . واستحكمت ذات مساء عقدة نفسها ولم تجد غير النافذة مخرجاً لما هي
فيه فدفعت مصراعيها بكلتي يديها تطلب الهواء وما حسبت أنها تطلب وجه الفتى تأنس
به منية .

***

كانت الفتاة صادقة حين برت زوجها فأسرفت . وكان الزوج غير صادق حين رابه أمرها .
أرادت الفتاة أن تغلب هذا الهوى الغالب بما حاولت لتنسى ، وأن تحول بين مشاعرها
وبين أن تشغل بغير ما تريد . فجعلت الأمور كلها براً واحتراماً ، حتى فيما لا يطلب معه
البر والاحترام . وما كان يملكها أن تجري أمورها مع الصواب والرشاد . ولم يعرف الزوج
ما تخفي الصدور ولم يكن على حظ من ثقافة يقلب به وجوه الأمر أو يصل به بين نفسه
ونفسها حتى يعلم .

ولكنه عرف الزوجة كما عرفها مَن على شاكلته في كلمة لاحظ في ظلها للروح ، عرف المرأة طعاماً يزدرده سهلاً لذيذاً كلما أحسَّ إليه نهماً وجوعاً .

فما أن رابهُ منها ما رابهُ حتى رآه مُرًّا ما أساغه بالأمس حلواً . وجهدت المسكينة غير موفقة في أن تظفر به راضياً كما كان فلم تفلح . وقد أكثرت من الوقوف الى النافذة، وهي وإن لم تبادل الفتى نظرة إلاَّ أنها كانت تجد نفسها راضية حين تعود منها فترى الفتى ناظراً إليها لا يني ولا يفتر . فتبيت ليلها هادئة مطمئنة .

وانكسرت فيها حدَّة البر فاقتصدت ، ورأى الزوج الصلة بين هذا وكثرة وقوفها الى النافذة ظاهرة . فبغتها على حين غفلة . فرأى الفتى يشير بيديه ، فاختفى ليرقب الامور كيف تجري في غيبته .

* * *

كانت الزوجة تستجيب لهواها عن غير عمد . وكان الذي تراه هواء تنشده في النافذة لتنشقه فتراح له نفسها هو الهوى الذي لم تقو على غلبته . وقد وجدت الراحة بعدُ في أن ترفع رأسها ، وما عليها في ذلك من حرج فرفعته وكانت من قبل تقف به مطرقة .

ولكن شيئاً واحداً لم تقوَ له بعدُ وغلبتها نفسها عليه . فقد تعوَّدت ألاَّ تغادر النافذة إلاَّ بعد أن تبسم للفتى وتحيّيه برأسها مرة وبيدها أخرى . وهي حين تفعل تحس السرور قد ملأ عليها جوانبها . والغبطة قد سرت مع دمها .

* * *

أمَّا عن الزوج فقد التفت إلى زوجه يفجؤها في أوقات مختلفة من النهار . وكان يكتم عن أمها ما ساوره . ولو فعل لأراح نفسه من هذا العناء وهذه البلبلة . وما أن عرف لها لبثها الطويل إلى النافذة حتى حال الشك يقيناً وضاق صدره بما حمل فجمع إليه أخويه وأسرَّ لهما بما كتمه عنهما أشهراً . وثارت ثائرة الأخوين ، وهتفا باسم الزوجة حيناً وباسم الفتى حيناً آخر . وامتلأ قلب أصغرهما حقداً على الفتى وحفظها له في نفسه .

ولكن ليس هذا كل ما أراد الأخ الأكبر، فعلى الأخوين أن يشركاه في رقبة الزوجة وعليهما أن يُنْهيا إليه ما يعلمان .

هذا والزوجة في غفلة عما يقال في أمرها . ولم تجد من تُساقي له بذات نفسها كما وجد الزوج ، فسدرت تهوي في هذا المنحدر دركة دركة . وإذا هي بعد شهر ونحوه بين يدي الفتى في حديقة من الحدائق يتشاكيان ويتناجيان . وإذا الفتاة تحس أنها وجدت ما تفقد وذاقت الراحة والسعادة في تلك الفترات القصيرة التي اعتادت أن تجلس فيها الى الفتى مع كل أسبوع فزادت واستكثرت . وكانت حكيمة يوم أن كانت مُـقلة . ولكنها فقدت أسباب الحيطة حين أكثرت . وانتهى الى الاخوة الثلاثة ما تخفي وتستر .

* * *

الفتى نازح إلى المدينة من قرية لا تبعد كثيراً ، هي تلك القرية التي شهدت من أعوام عشرة مقتل شيخ من شيوخها وهو في حقله إلى جانب « قمحه » يرعاه . عرف الفتى الفتاة قبل أن يضمها البيت بقليل . عرفها في الطريق وعرفته ، ورآها من النافذة ورأته . ولكنهما رُزقا قلبين انضما على هوى مع أول لقاء .

وكان الفتى لا يزال طالباً في سنيه الأخيرة ويعلمه الكثيرُ عن مقتل أبيه . ولكنه لا يعرف عن القاتل إلاّ اسمه . وكان للقاتل لقب يناديه الناس به ، وبه عرفه الفتى . أما الأبناء . أبناء القاتل . فقد حفظوا عن أبيهم اسمه لا لقبه . والفتى لم يَأْتـِهم قبلُ . ولم يجد من يدلهُ على ماضيهم . فكان هذا كل علمه عنهم .

وكذلك كان علم الاخوة عن هذا الفتى ، عرفوه قرويًّا نازحاً ، ولم يَعنهم تعرُّف القرية التي نزح عنها . وعرفوه طالباً يوشك أن يُجاز ، وعرفوه عاشقاً لفتاتهم مسيئاً اليهم في عرضهم .

***

والغضب كالنار في الحطب الجزل يشيع في الجسم فيزيد في ضرامه . فالعين لا تبصر إلاّ ما يثير والأذن ليس معها الاّ ما يهيج ، والرأس لا يبرم غير الشرّ والقلب لا يطرب الاّ بالسير الدامية وأحاديث الانتقام .

كان كل أخ يرى الخطب خطبه والطعنة اليه وجعل كلٌّ يرى في الأمر وسيلته دون أن يكاشف أخويه بما عقد العزم عليه .

***

خرجت الفتاة أمسية وفي نفسها أمر جديد . فهذا القلب الصغير الذي لم يقوَ للحب ساعة حمله . والذي لم يجد أباً يستمع له دون أن يغضب ، أو أمّاً تشير وتنصح ، أو أخاً يعرف أن الهوى مما يُغتفر إن لم يَجُرّ الى ضيعة، أو زوجاً يمد يده بالسلاح قبل أن يبسطها بالانتقام — خرجت لتضع لتلك الصلة نهاية . فقد أفاقت على صوت يهتف بها من بين جوانحها بأنها زوج . وللزواج حرمته .

وما كان صوتاً ولكنها حملت قلباً كالقلوب لا بد أن يعمر بالحب حيناً ، ولم تجد في ظل الزوج ما يشبع قلبها وإن أشبع جسدها ، فاستجابت في غير شرٍّ لتلك النظرات ثم تلك الجلسات البريئة تملأ بما تجد فيها قلبها . ولم تنسَ أنها زوجة . فجلست الى حبيب قلبها تمتع به قلبها . وما أن ذاقت طعم ما حرمته وتزوّدت بالقليل منه حتى أنست من نفسها قوّة ، ومن عقلها رشداً،فخرجت هذه المرة تودّع الفتى وداعاً لا لقاء بعده ، ولتنظر منه بآخر نظرة،ولتسأل الله له السلامة والتوفيق . ولو كانت غير زوجة ورُجع اليها في أمره لاختارته ، ولكنها عرفت للقيود حرمتها فرعتها في جلساتها معه وخرجت تقطع حبلها اشفاقاً عليه، وبرًّا منها بعهودها .

وكان المكان هو المكان الذي اختارته هي والفتى الى جانب ساقية بين المزارع تلتف به أشجار كثيفة .

***

مضت الفتاة تبغي فتاها حيث تواعدا فلم تجده . فعلمت أنها سبقت الموعد بقليل . وكانت الأرض قد لبست ثياب الليل الأسود وخيم السكون وبدت وحشته في نفسها فهمت بأن تنصرف . وما كادت حتى أحست وقع قدم . فعرفت انه لصاحبها فنهضت من مكانها تشرف عليه . وما كاد الفتى يخطو الى حيث تقف حتى وثب اليه فتىً لم يكن غير الأخ الأصغر . فأمّه بهراوة وما كاد يرفع يده ليجزيه الثانية حتى وجد الى جانبه أخويه عن غير موعد كل يسبق الى الفتى بما ملك . وإذا الفتى جثة . واذ دمه يجري على الأرض دائباً .

وألقي الى الأم أن هناك شراً ينتظر ابنتها وتيقنته الأم حين لم تجد ابنتها والإخوة الثلاثة بين يديها فخرجت هلعة صارخة على غير هدى . فوجدت الى جانبها أماً ثانية تندب ابناً . فالتقى الصوتان الحزينان .

ولكن سرعان ما هدأ أحدهما وأمعن ثانيهما فيما بدأ به .

عرفت أم الفتاة أن ابنتها بخير اللهم إلا من غشية نقلت من أجلها إلى المستشفى لتسعف . وتيقنت أم الفتى أن ابنها مضى إلى لا عودة فأعولت ما أسعفها العويل .

* * *

وهناك أب خلفناه بغر وقطعنا عنك حديثه . وقد غلبه الشوق فعاد أدراجه بعد تلك الغيبة الطويلة باحثاً عن أولاده ، فعلم أن الأيام لانت لهم وأنهم فيها على شيء من الرغد . فيقصد إليهم طامعاً في أن يعيش الى جوارهم يوماً أو بعض يوم وكفاه ما عانى تلك الأعوام من البعد عنهم .

ثم هو قد بدا غير ما كان ولم يعد أحد يعرفه ، فهو آمن الغوائل غير مُلقٍ للأحداث بالاً .

ويشاء القدر أن تكون تلك الأمسية موعد حاوله فينحدر معها الى بيت أولاده بعد أن عرفه . فيجد البيت خاوياً إلا من بعد القُطّان . ويسمع لهم حديثاً غير مفهوم يفقد معه وعيه وينسيه حذره ويخلعه من حيطته . ويجري الى حيث يجري الناس فيرى أبناءه بين يدي الشرطة ، ويعرفهم بكبيرهم ، فيقذف بنفسه إليهم ويدفعه الشرطة عنهم .

ثم يعرفه الشرطة فيجدون فيه ضالة ينشدونها من أمد بعيد . فيسوقونهم جميعاً الى حيث يناقشهم القانون الحساب .

* * *

وهكذا عاد الأب ليذوق مع أولاده الشقاء ثانيةً كما ذاقه أولاً . ولينزل وإياهم بيتاً مشيداً يحيط به الحراس من كل جانب ، لم يكن غير السجن .

الذهب السائل

في الشرق الاوسط

ثروة ينبغي أن يلم بها الشرقيون جميعاً

عند عقد المؤتمر البرلماني الدولي في القاهرة منذ ثلاثة أعوام رأت الحكومة المصرية ان تطلع الضيوف الأجانب على نواحي النهضة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في مصر فطبعت طائفة من الكتب تبيّن بأجلى صورة ما حققته مصر من ارتقاء . واستوقف نظرنا منها كتاب كتبه حضرة الشيخ المحترم محمد محمد الوكيل بك عن القطن المصري أجاد في بسط موضوعه وتفسير نواحيه حتى ان أستاذنا الكبير خليل ثابت بك دعا في مقال نشره الى تقرير هذا الكتاب على طلبة المعاهد المصرية باعتباره كتاباً يتعين على الطلاب أن يدرسوه ليلموا بأكبر محصول يدر على مصر من الخيرات ما لا يُستطاع حصْر مداه في ما ترادف من أجيال وفي ما ينتظرنا من أجيال وحقب .

واليوم برز في منطقة الشرق الأوسط عنصر جديد له شأنه المعلّى في اقتصاديات رقعة استراتيجية كبيرة القدر، ونعني به مادة الزيت التي كثيراً ما ينعتونها « بالذهب السائل » إيماء إلى نفاستها وعلوّ قدرها. وكانت لمصر من هذه المادّة حصة كبيرة . فقد تبيّن لشركات البترول التي تنقب في صحراء سينا أن تلك المنطقة عامرة بوفرة من مختزن النفط، وأن الينابيع الجديدة التي كشفت في مناطق عسل والفيران والسدر دلت على إن إمكانيات كشف ينابيع أخرى تكتنفها آمال واسعة ويُعلق عليها رجاء لا حدّ لمداه .

وقد بدأت أنظار العالم بأسره تتطلع إلى منطقة الشرق الأوسط بعد ما انفتحت أراضيها تميط اللثام عن مكنوناتها النفيسة وباتت أنظار القارّة الأوربيّة تتجه الى زيت الشرق الأوسط باعتباره « ملاذها » الوحيد حين تنضب مواردها الأميركية من النفط

الذي يرسل لها بمقتضى مشروع مارشال فاعتباراً من عام ١٩٥١ سيلبي الشرق الأوسط ما يُربي على ٨٠ في المئة من حاجات أوربا البترولية كما أنه سيجيب طلبات بعض الأسواق الأسيوية والأوربية .

***

وإذا كان الأستاذ خليل بك قد اقترح أن يدرس الطلاب المصريون مادة « القطن » في المعاهد الابتدائية والثانوية بغير أن تقصر على طلاب كلية الزراعة، فلنا اليوم أن نقترح تدريس مادة « البترول » لا في المعاهد المصرية وحدها بل فيها وفي جميع معاهد الشرق الأوسط .

وقد عمر الشهر الماضي بأنباء البترول الجديدة ، ذلك أن الحكومة السورية أمضت إتفاقاً مع شركة البترول العربية الأميركية بمقتضاه تمد أنابيب البترول من الظهران عبر سوريا إلى ساحل لبنان فكان هذا العقد فاتحة عهد جديد تجتازه سوريا لما يدره عليها المشروع من دولارات سخيّة عدا الامتيازات الأخرى التي تجيء في ركاب هذا العقد من تشغيل الأيدي العاملة العربية وشراء مقدار من البترول الخام سنويًّا (قدره ٢٠٠ ألف طن) بقيمة تكاليفه والظفر بحصيلة عن كل طن من البترول يصدر وما الى ذلك .

كذلك فوجيء متتبعو الأنباء في اليومين الأخيرين بما قررته شركة كبيرة للبترول تنقب في مصر — هي شركة ستاندرد أويل أوف نيوجيرسي — فقد أذاعت الشركة أنها قررت وقف أعمالها وقتيًّا وأنذرت عدداً كبيراً من موظفيها المصريين بالاستغناء عنهم وحجة الشركة في اتخاذ هذا القرار إنها ترتاب في القوانين المصرية المزمع إصدارها لتنظيم شؤون المناجم والمحاجر .

***

والواقع إن هذا الإجراء ينبغي أن يوجه نظر الحكومة المصرية إلى ضرورة سرعة إصدار هذا القانون لأن الإبطاء فيه يجعل الشركات في قلق ولأنه متى صدر دلّ المشتغلين بصناعة البترول — والصناعات المعدنية الأخرى — على الحدود التي يتعين عليهم فيها العمل

ومما يذكر في هذا الصدد أن المؤتمر الهندسي الذي عقد في القاهرة في العام الماضي قرر ضمن ما قرره ضرورة المبادرة بإصدار هذا التشريع لما له من تأثير كبير في الاقتصاد القومي .

* * *

وهناك عنصر ينبغي أن يذاع أمره بصدد صناعة التنقيب عن البترول فكثيراً ما يقولون : فلتتول الحكومة أمر استنباط الذهب السائل ولتحرم الشركات من هذا الامتياز .

والذين يعرفون حقائق الأمور يدركون أن هذا القول وإن كان بادي الوجاهة، يفتقر الى ما يعززه من الناحية العملية . ذلك لأن الحكومات — مهما اتسعت مواردها — لا تستطيع أن تتكفل بنفقات الكشف والتنقيب عن البترول عدا أن الأعمال الحكومية مطبوعة دائماً بطابع البطء والروتين ، ولكن الشركات قادرة على مواجهة هذه النفقات لأنها تدار على قاعدة عالمية فتخسر في التنقيب في منطقة في الشرق مثلاً خمسة ملايين جنيه وتكسب من ينابيع أخرى في الغرب مثلاً عشرين مليوناً فيكون لها بعد هذه الجولات ربح يمكنها من المضي في عملها .

أضف إلى ذلك ما تكتسبه تلك المنشآت من خبرة واسعة في التنقيب والاستنباط في جميع ربوع العالم تمكنها من إجادة النهوض بعملها بما لا يتأتى للافراد والحكومات .

والرأي الصائب هو أن لا تضن الحكومات بمواردها إلاَّ إذا استأثرت بأمر استغلالها ، بل إن تتيح لقادرين أن يغزوا هذا الميدان ولكنها تشترط عليهم شروطاً تمكنها من أن تظفر منهم بأكبر نفع فتشغل الأيدي المحلية وتتيح للاموال المحلية أن تستثمر في أسهمها وتكون مدد امتيازها قصيرة بحيث تؤول مصانعها ومعاملها الى الحكومة قبل أن تنضب الموارد ، وقبل أن تستهلك المعدات. وكذلك يشترط أن يتدرب المصريون في هذه المنشآت على جميع الأعمال الفنية والادارية ليكونوا بها على المام تام.

وفي ضوء هذه الاعتبارات ينبغي النظر إلى قضية صناعة البترول في الشرق الأوسط.

وديع فلسطين

كيف فهمت

القضاء والقدر

موضوع لا يزال مشكلاً معقداً ، ولكنني أكلف كثيراً بكل مشكل معقد ، كما يكلف الرياضي بعويصات المسائل الرياضية . ولقد سئم الناس الحديث في المسائل الدينية لأن ولاة أمور الدين أساموهم حين أفهموهم أن الدين ومسائله أمور معقدة، وأسرار مغلقة، لا يزداد الإنسان منها قرباً وفهماً إلا ازداد عنها بعداً وضلالاً ، وجهدوا فيه وجاهدوا فلم يفتحوا فيه مسألة إلا أغلقوها ، وأخيراً رجعوا حين فشلوا ورضوا من الغنيمة بالإياب في آفاقه التي طوفوا يقولون كالعجائز اللهم ديناً كدين العجائز . . . فلا عجب ان أصبح الناس يزهدون الأديان ومسائلها زهدهم في الخرافات والأساطير ، وزهدهم في السفهاء الذين يعبثون في الحياة ويزجون أوقاتهم ازجاء ، ويلقونها القاء . . . ولكن هل رأيت أن الانسان يتوجه في حياته ويصدر في كل تصرفاته عن الصورة الخاصة في نفسه التي يتصور بها الحياة، ويتكيف بها عقله أو اعتقاده، حتى كان الفرق بين تصور الأفراد والشعوب لمسائل الحياة الذي يكيف الحياة هو كالفرق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والظلام والنور ، والتقدم والتأخر ، والغنى والفقر ، فأما أن تراه انساناً حياً ينبض بالحياة لأنه فهم الحياة.أو ميتاً شبحاً قد لفظته الحياة لأنه لم يفهم الحياة .

وبعد: فالناس فريقان ، فريق يؤمن بوجود رابط للطبيعة وما تجري فيه من سنن محكمة منظمة ، وفريق يرى أن الطبيعة هي رابطة نفسها بما تجري فيه من سنن محكمة منظمة ، وأن ضرورة الحياة هي التي أوجدت هذه الروابط المحكمة المنظمة ، ونحن لا نبحث الآن في أي الرأيين أصح فلنا في ذلك مقال آخر ، ولكن بحثنا فيه الآن من ناحية تعلقه بالقضاء والقدر .

وأما الفريق الثاني فأمره مفهوم من ناحية اعتقاده بالقضاء والقدر — فحيث قد انتفى عنده وجود رابط لكل شيء انتفى اعتقاده بأن ما يحدث في الطبيعة يجري على علم بالرابط المنظم لها،وانما هي عنده مصادفات منظمة . . . وهذا الفريق نفسه الملحد بالواحد الرابط ينقسم الى فريقين : فريقاً يؤمن بأن الحياة مصادفات عمياء تعطي بغير حساب، وتمنع بغير حساب، وترفع من تشاء بغير حساب ، وتخفض من تشاء بغير حساب، ويسمونها الحظوظ

والأقسام وهم أكثر الناس، والفريق الآخر يرى أن الطبيعة نفسها منتظمة وعطاؤها منظم أيضاً ، ورأوا أنَّ كل الحظوظ الحسنة فيها قد دفع أصحابها من أجلها ثمناً غالياً يساوي أو أقلّ ما يساوي ما أخذوه منها . . . فهم لذلك يعملون لأنهم يعلمون أنهم لن يبخسوا شيئاً فلم يخدعوا أنفسهم بالأماني وهم قعود . وأما أولئك فهم لا يزالون مخدوعين بأن الحظوظ الحسنة ستقبل عليهم يوماً،ولو لم يقدموا لها شيئاً . ومن عجب أن يحلو للإنسان أن يغالط نفسه اذا عجز عن أن يقدم للحياة شيئاً إذا حرمته الحياة شيئاً .

وأمّا الفريق الأول وهم المؤمنون بالواحد الرابط لكل شيء فينقسمون أيضاً الى فريقين : فريقاً يفهم في الواحد الرابط لكل شيء فهماً حسناً وهم قليل وهم المؤمنون حقاً يعتقدون أنَّ هذا الوجود المنظّم المحكم لا بدَّ أن يكون الذي ربطه منظّماً محكماً أيضاً. ومن أجل ذلك فهم يعتقدون أنَّ الحياة منظّمة كذلك وأنَّ ما يقدمونه إليها يساوي ما يأخذونه منها تماماً عدلاً ،فلا يطمعون في غير مطمع ، وان أنقصتهم الحياة شيئاً علموا أن الله لم يأخذ منهم شيئاً جوراً.وإنما يرجعون الى أنفسهم كما يرجع المحاسب الى نفسه إذا أخطأ في حسابه. يقولون « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون» وإنهم لا يصابون إلاَّ بما قدَّمت أيديهم فلا يلومون إلاَّ أنفسهم ، فأقسم الله بهم مباهياً معظماً معزّزاً كما أقسم بيوم القيامة العظيم حين يقول « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنّفس اللوّامة ».وفريقاً لم يخلصوا الإيمان ولم يفهموه وهم كثير — يفهمون أنَّ الألوهية حين تعطي قوماً لا يستحقون الأعطاء في نظرهم وتمنع قوماً يستحقون الاعطاء في نظرهم — قالوا لا تشك وهم يشكون . وقالوا هذا سر وما نحن فيه باحثون إلاَّ واقفون عنده مؤدبون

ملك الملوك اذا وهب لا تسألنَّ عن السبب
فالله يعطي من يشاء فقف على حدِّ الأدب

هؤلاء هم الذين لا يقدّمون للحياة شيئاً ولا يحسنون فيها صنعاً — هم الذين يرون الحياة كالموت والحركة كالسكون .

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرك والسكون

مع أنَّ القضاء فيما جرى به قدَّر أنَّ الحركة ليست كالسكون ، وأنَّ القاعدين ليسوا كالمجاهدين ، « وفضّل اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيماً » فهل تستوي الحياة والموت والحركة والسكون ؟

وأخيراً أنت عند ظنك بالحياة — ان رأيتها خيراً وعدلاً فأنت نفسك بخير وعدل، وان رأيتها شرّاً وظلماً، فأنت نفسك شرٌّ وظلم .

عبد الحميد علي الغرابلي



نجاح العلماء في عزل الفيروس

الذي يسبب شلل الأطفال

نجح علماء الولايات المتحدة بعد تجارب استغرقت عدة سنوات في عزل فيروس شلل الأطفال والحصول عليه في صورة تكاد تكون نقية أي بمفرده تقريباً. وقال الدكتور بيرملز ستولبرج من علماء البكتريولوجيا في جامعة مينيسوتا في مقال له في صحيفة مينابوليس تريبيون أنه أمكن عزل الفيروس نقياً نقاء يكاد يبلغ ٩٩٫٥ في المائة وكانت درجة النقاء التي امكن الوصول إليها في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا لا تزيد على ٨٠ في المائة أو ٨٥ في المائة.

وقد أمكن الحصول على فيروس شلل الأطفال الذي يصيب الانسان بعد ما تمكن علماء مينيسوتا من الحصول على فيروس الشلل الذي يصيب الحيوانات الصغيرة بعدة أربعة أشهر

والفيروس الذي أمكن لعلماء مينيسوتا الحصول عليه ما زال قوياً حتى انه إذا أضعف الف مرة فانه يسبب الشلل للقردة، وهذا الفيروس نوع من أنواع فيروس شلل الاطفال الذي أصاب مينابوليس في شكل وباء في عام ١٩٤٦.

أما الهدف الذي يرمي العلماء اليه من الحصول على فيروس هذا المرض فهو اجراء التجارب على الدم للحصول على مصل يقي من الاصابة بشلل الأطفال أو للكشف عن الفيروس في الدم. وقد بدأ البحث بالفعل للوصول الى ذلك في جامعة مينيسوتا وستكون الخطوة القادمة اجراء التجارب للوصول الى علاج لهذا المرض، وتقوم المؤسسة الوطنية لشلل الأطفال في الولايات المتحدة بالانفاق على هذه البحوث.

دواء جديد لعلاج الكوليرا

استطاع الدكتور هاري سينيكا أستاذ البحوث في كلية الأطباء والجراحين بجامعة كولومبيا، والدكتور ادوارد هندرسون مدير قسم البحوث الطبية في شركة شيرنج بمدينة بلومفيلد (ولاية نيوجرسي) اكتشاف دواء جديد لعلاج الكوليرا يسمى

« بثاليلسولفاستيميد Pthalylsulfacetmied »
وقيل إن هذا الدواء كان له أثر فعال في علاج مرض وباء الكوليرا الذي أصاب مصر أخيراً
وقد سافر الدكتور سينيكا الى مصر بطريق الجو ومعه كمية من هذا الدواء عولج به خمسمائة مريض . وتبين من سجلات ٤٣ مريضاً ان واحداً فقط قد توفي . وتدل احصائية الحكومة المصرية على أن نسبة الوفيات بلغت ٢ ر ٤٩ في المائة من بين ٧٨١ ر ٢٠ مصاباً .
ومن خصائص هذا الدواء انه يقتل البكتريا ، ويتسرب الى جدران الأمعاء ولا يصل الى الدم . ومن خصائصه أيضاً انه يتركز في المناطق المصابة بالأمعاء ، ولكنه لا يحدث أثراً سيئاً على الجهاز العام للانسان وقد تبين للباحثين ان هذا الدواء يصلح لمعالجة الدوسنتاريا والحمى المعوية والاسهال وبعض الأمراض الاخرى .
ويعمل الآن الدكتور سينيكا في جامعة كولومبيا على سبيل الاعارة من شركة شارپ ونوهم ، وقد تخرج في كلية الطب بجامعة بروان الامريكية . أما الدكتور هندرسون فقد درس في جامعة جلاسجو وعمل في عدد من الجامعات الأمريكية .

فرن شمسي

أتم الدكتور ترومب فوس والدكتور هنري بلانشيني الفرنسيين عمل فرن شمسي ووضعه للعمل في مرصد ميدون بفرنسا .. وقلب هذا الفرن ما هو إلاّ مرآة مقعرة يبلغ قطرها حوالي ستة أقدام ونصف وبعدها البؤري حوالي ثلاثة وثلاثين بوصة ونصف .

* * *

وهذه المرآة محمولة على مصباح كشاف مما كان يستخدمه الجيش . ومن الطبيعي أن المرآة تحرك ميكانيكيًّا تبعاً لحركة الشمس لتكون دائماً في أحسن حال لاستقبال الأشعة .
وإن تركيز هذه المرآة للاشعة يجعل من الممكن الحصول على درجة حرارة تبلغ خمسة آلاف ومائتين درجة مطلقة ...

* * *

وبهذا الفرن الشمسي أمكن صهر بعضاً من العناصر النادرة وحُوِّل الجرافيت من مادة صلبة إلى غاز في درجة حرارة ٣٥٠٠ درجة مطلقة .
كما أن قطعة من الحديد تزن حوالي أوقية حين عرضت لحرارة هذا الفرن الهائل انصهر جزء منها إلى غاز في عشرة ثواني .. !!



مكتبة المقتطف

١ – اصطلاحات عربية لفن التصوير

ليس وضع الاصطلاحات العربية بالأمر الهين ، فإنه ليحتاج الى ذوق رفيع وبصر بعيد وإدراك للشيء المراد تسميته ومعرفة دقيقة بكل دقائقه ليطابق الاسمُ المسمَّى من جميع وجوهه . كما يحتاج الى اطِّلاع واسع على أصول الكلمة واشتقاقها والمقابلة بينها وبين ما وُضع مثيلاً لها في لغة أخرى ليتحسس الفروق من حيث صفة الشيء المسمّى وتأتي بعد هذه الصعوبة في هذا الأمر والمشقة في ذلك الاختيار مشقة أكثر من هذه وأكبر ، هي تقدير اللفظ الصالح للاستعمال ومعرفة السائغ منه للذوق ، القابل للذيوع . فكم من ألفاظ رقدت حيث أريدَ لها النهوض لأن الأذواق لم تستسغها ، فلم تتقبلها الخاصة برضى واستحسان ، ولم تلقها العامة بيسر وسهولة .

لذلك كان حسن صنيع من الصديق البحاثة الدكتور بشر فارس — وهو أديب له ذوق فنَّان وشاعر له حسُّ المبتدع — إقدامه على تذليل صعوبات كثيرة في نواحٍ مختلفة من الفنون يصوغ فيها اصطلاحات هي بحاجة اليها صياغة تضمن لها الحياة والاستمرار . فوُفِّق الى مدى بعيد فيما وضع أو اختار .

وآخر ما أنتجه في هذا الباب اصطلاحات في فن التصوير بلغت خمساً ومائة كلمة هي ثمرة بحثه فيه دعاه الى وضعها كتابه الذي ألَّفه بالفرنسية وعنوانه المعرَّب « منمنمة دينية تمثّل الرسول من أسلوب التصوير البغدادي » نشره المجمع العلمي المصري . وكانت هذه

الاصطلاحات مبحثاً ألقاه في جلسة علنية بهذا المجمع في شهر مايو من العام الماضي .

وقد اتجه في وضع هـذه الاصطلاحات الوجهة السليمة التي تضمن الحيـاة لها ، فهو يأخذ من اللغة السائرة بين النـاس في مصر وغيرها اللفظ المخصص بعد التحرّي فلا يبعد به عن إدراك العامة ولا ينزل به عن أصوله في اللغة الفصحى ، أو يستخرج الاصطلاح مما استعمله العرب والمستعربون في العصور السابقة ، أو يستنبطه من اصطلاحات عريقة لفنون أخرى . وهو إذ ينقل لفظاً فصيحاً يعمل جاهداً على التقريب بينه وبين ما يجري على ألسنة الناس حتى لا يشقّ عليهم أو يحسّوا فيه بُعداً عما أَلِفوا . وهذه وسيلة فعّالة قائمة على تبصّر ووعي . وقد وضع لهذه الاصطلاحات مَسْرداً فرنسيّاً عربيّاً . ثم شرح بعد ذلك هذه الاصطلاحات مستشهداً لها بنصوص من كتب اللغة والأدب .

* * *

ونحن في هذه الآونة في حاجة ملحّة الى كثير من هذه الاصطلاحات في شتى فنون المعرفة توضع في إطارٍ من المعرفة العلمية والإلمام اللغوي والذوق الأدبي . ولعلّ الدكتور بشر فارس يتابع جهوده في هذا الحقل ، فهو أكثر العاملين فيه دأباً وجلداً ونشاطاً وحيوية .

(يباع الكتاب في مكتبة النهضة ومكتبة نشر الكتاب الفرنسي في القاهرة)

٢ — الأمثال العامية

للمغفور له العلاّمة المحقق احمد تيمور باشا أيادٍ بيض على المكتبة العربية بما جمع لها من كنوزٍ نفيسة وما أخرج من آثار قلمية قيّمة .

ولقد كان وفاء لجهد هـذا العالم أن تنهض اللجنة التي تألفت من علماء أجلاّء لنشر المؤلفات التيمورية برياسة الأستاذ الكبير خليل بك ثابت فبدأت بنشر كتابيه « ضبط الاعلام » و « لعب العرب » ثمَّ نشرت له أخيراً كتابه الضخم الذي ضمّ فيه ٢٦٨١ مثلا من الأمثال العامية التي تناقلها العامة مشروحة مقرّبة كلماتها الى أصولها في العربية الفصحى فهو بمثابة تقريب بين اللهجتين وأساس للباحثين في اللغـة لمعرفة أصول الكلمات وأخذ ما يستطاع أخذه منها وإضافته الى الفصيح . ولم يقصر هذا الكتاب على جمع الأمثال فهو

يحقق فيه أصل المثل وسبب قوله وأصول كلماته وما يقابل بعضها من مثل فصيح مستشهداً لذلك بالكثير من الشعر .

وليس هذا العمل بالهيّن فهو مجهود ضخم يتضح للمطالع عليه ما بذل فيه المرحوم تيمور باشا من تحقيق ليبلغ به الغاية التي كان يرمي إليها في تحقيقاته العلمية .

وعسى أن تعمل اللجنة — مشكورة على ما قدّمت — على إخراج آثار الفقيد جميعها بهذه الروح الطيبة لتظفر المكتبة العربية بآثار هذا العالم الجليل الذي كان يعمل في صمت متفانياً في غايةٍ هي أشرف الغايات .

ويقع كتاب « الأمثال العامية » في ٤٤٣ صفحة ويطلب من حضرة سكرتير لجنة نشر المؤلفات التيمورية الأستاذ احمد ربيع المصري بدار اللجنة بميدان المبدولي بعابدين بجوار المتحف الصحي بالقاهرة .

٣ — ذخائر العرب

لا شكّ في أن « دار المعارف » هي أكبر دار للنشر في الشرق العربي ، ولا شكّ في أن ما أفادته منها الثقافةُ العربية في مدى ستين عاماً جديرٌ بالتقدير والثناء ، فقد احتضنت تلك الثقافةَ عاملة على رفع مستوى الكتاب العربي ، ناظرة في طريقها الى غاية أسمى من الكسب وأرفع من الأجر . لذلك استطاعت أن تكسب الى جانب هذه الثروة العلمية والأدبية التي حفل بها تاريخها الطويل ثروةً لا تقدَّر بمال ، هي الثقة بما تنشر والاطمئنان الى ما تذيع والايمان بالرسالة التي تؤدّيها ، وهو فخرٌ لها ، وأي فخر !

***

ولقد وضع صاحب هذه الدار الأستاذ شفيق متري ومديرها الأستاذ يوسف مشاقة برنامجاً واسع النشاط بعيد المدى لتحقيق الهدف الذي تتجه إليه هذه الدار في خدمة الثقافة يسيران عليه في عزم وقوّة وإيمان وثقة لا يضنّان فيه بشيء ، فهما بعد أن قاما بسدّ النقص في جانب المعرفة بإصدار سلسلة « إقرأ » بمعاونة خيرة الكتاب والمفكرين ،

وسدّ الحاجة الى مجلة تسجل النهضة الفكرية بإخراج مجلة « الكتاب » بإشراف كاتب ضليع وشاعر ممتاز وناقد حصيف ، اتّجها ناحية الفكر العربي القديم يحييان آثاره إحياء فيه كل معاني القوّة والخلود الى جانب ما ينشران من آثار الفكر الحديث ، فعملا على إخراج مجموعات من التراث العربي تحت اسم « ذخائر العرب » فأصدرا منها كتابين في أروع إخراج فني ليتفق مع القيمة الأدبية الرفيعة لهذه الآثار .

وأول هذين الكتابين ، القسم الأول من « مجالس ثعلب » لإمام اللغة أبي العباس احمد بن يحيى ثعلب ، بتحقيق الأستاذ المحقق عبد السلام هارون المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول وهو يقع في أربعمائة صفحة من القطع الكبير .

والثاني كتاب « جمهرة أنساب العرب » لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الاندلسي تم بتحقيقه والتعليق عليه الأستاذ إ . ليفي بروفنسال أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس وهو يقع فيما يزيد عن ٥٣٠ صفحة من القطع الكبير أيضاً .

وقيمة الكتابين العلمية والأدبية جديرة بأن تجعل لهما مكان الصدارة من هذه السلسلة النفيسة التي أقدمت « دار المعارف » على إبرازها من تلك الكنوز الفنية مضحية في سبيل هذه الغاية الكريمة بالجهد والمال .

ولقد قصرتُ كلمتي هذه على تحية الذخائر عند ظهورها لأتناول فيما بعد عرض هذين الكتابين .

٤ — ديوان الهذليين

أخرجت دار الكتب المصرية القسم الثاني من ديوان الهذليين بعد أن صدر القسم الاول منه في سنة ١٩٤٥ ، وقد تضمن شعر : المتنخل ، وعبد مناف بن ربع ، وصخر الغيّ ، وحبيب الأعلم ، وأبي كبير ، وأبي خراش ، وأمية بن أبي عائذ ، وأسامة بن الحارث وساعدة بن جؤية ، وصخر الغي وأبي المثلّم ، وأبي العيال ، وبدر بن عامر وأبي العيال .

وفي إخراج هذا الأثر من شعر الهذليين خدمة للادب العربي القديم في ناحية من

نواحيه ، وإظهار لتراث بعضه مغمور وبعضه مشتت في بطون الكتب لم يظفر بجامع يلمه وينشره على الناس نشراً صحيحاً حتى أدَّى القسم الأدبي بالدار هذا الواجب ، فقام المرحوم الشيخ احمد الزين بتحقيق القسم الأول ثم انتقل الى رحمة ربه وهو يعمل في القسم الثاني منه فأتمَّ العمل أخيراً صديقنا الأستاذ محمود أبو الوفا .

ولقد كان في رأينا أن يوفى الكتاب حقه من التحقيق بذكر ترجمات وافية للشعراء الذين نشرت أشعارهم فلا يكتفي بذكر ترجمة الشاعرين أمية بن أبي عائذ وأبي العيال ترجمة قصيرة. ولعلَّ ذلك لا يفوت الدار عند الانتهاء من طبع القسم الثالث فيذكر كل ذلك في ذيله

على أن صدور القسم الثاني من هذا الكتاب بعد الفترة الطويلة من الزمن بينه وبين صدور القسم الأول لأمرٌ تشكر عليه الدار في شخص مديرها الجديد ، لأن البطء الذي لازم آثارها الأولى كان مبعثاً للأسف . ولكني أعلم أن الأستاذ الجليل أمين مرسي قنديل بك آخذ بسبيل النهوض بالدار الى المستوى الذي يجب أن تكون فيه هذه الدار جامعة عامة تؤدي رسالتها الثقافية على غير نطاق محدود ، معنيٌّ بأن تساير النهضة الحديثة وأن تنشر على الناس ما لا تستطيع غيرها أداءه ، وهذا مضماره فهو في طليعة أساتذة الجيل في التربية والتعليم . وحبذا لو يسّرت له السبل المادية لتحقيق ما يجب تحقيقه من رفع شأن هذه الدار وعدم قصرها على خزن الكتب ومطالعتها وإعارتها فحسب .

***

وبهذه المناسبة نرجو – مؤملين تحقيق هذا الرجاء قريباً — ان يكون حرص سعادة قنديل بك الذي يبدو الآن فيما تعمل الدار جاهدة على إخراجه من الآثار الأدبية شاملاً لما نفد من مطبوعات الدار فيعمل على إعادة طبعها ليتيسر للناس الحصول عليها ومتابعة مجموعاتها كاملة فلا يقف نفادها عائقاً في سبيل الحصول على هذه المجموعات النفيسة وأن تستطيع الدار في عهده وبرعايته وهمته أن تنتهي مما طال عليه الأمد من كتبها التي وقف صدورها أو تباطأ .

حسن كامل الصيرفي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

ملحق المقتطف

المقتطف ٧
الجزء الرابع من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ ابريل سنة ١٩٤٩ — ٢ جمادى الثانية سنة ١٣٦٨

طوفان التقدم

صراع بين اللاهوت والعلم
إزاء علم الجيولوجيا
— ٢ —

جهد لاهوتي
لكبح النظريات العلمية

انتعاش الاساليب العلمية — بافون ومعهد السربون — مقالة بيرنجر في الحفريات — معارضة البروتستانت للجيولوجيا الحديثة — أعمال بارنت وويستون وويلي وواطسون وأرنولد وكوكبرن وغيرهم .

لم يكن من المستطاع أن يُغشّى على الاسلوب العلمي فيزول ويندثر بتة . فعند بداية القرن السابع عشر نفث ده كلاف وبيتو وده فيلّون في الأسلوب العلمي نسمة الحياة ثانية . ولكن المعهد اللاهوتي في باريس قد بادر إلى الوقوف في وجه الاتجاه العلمي باعتبار انه منابذ للأسفار المقدسة ، وأعدمت المقالات التي تخالف تلك الأسفار ، ونفي مؤلفوها من باريس ، وحظر عليهم أن يعيشوا في المدن أو يغشوا الاجتماعات العامة .

أما الآخذون بناصر العلم ، ولو انهم كُبحوا إلى حين ، فقد عملوا في هدوء ،

ولاسيما في ايطاليا . ومضى على ذلك نصف قرن حين تقدم « إستينو » الدنمركي ، و« إسكـِلاَّ » الايطـالي خطوات أخرى في الطريق المستقيم . وبالرغم من أنهم وأنصارهم قد عمـلوا جاهدين في سبيل أن يرموا الحوت الأعظم بسهم ، فداوروا وخادعوا حتى استطاعوا أن يضفوا على عبارات سـفر التكوين وأساطيره صورة غامضة من التبجيل اتخذوها دريئة حتى يُضمِّنوا أقوالهم حقائق جيولوجية ، مضت بهذا العلم قُدُماً هوناً على هون .

ظلت الروح العلمية في فرنسا بالغة القوة والأثر . وفي أواسط القرن الثامن عشر حاول «بافون» تقرير حقائق جيولوجية بسيطة . ولـكن المعهد اللاهوتي في السوربون مدَّ اليه يده فوراً ونحَّاه عن مركزه السَّامى ، وأجبره على أن يستغفر بذلة وحقـارة ، وأن ينشر اسـتغفاره في النـاس . وقد تضمن استغفـاره العبارات التالية :

„ أعلن أني لم أرْمِ إلى مخالفة نصوص الـكتب المقدسة ، وأعتقد بصحة كل ما تضمنته فيما يختص بالخلق ، سواء أتعلق ذلك بالترتيب الزماني أم بالوقائع . واني لأنبذ كل شيء جاء في كتابي متعلقاً بتكوين الارض ، وعلى الجملة كل ما يحتمل أن يكون منافياً لقصة موسى „

إن هذه الوثيقة المزرية لتذكرنا بعضاضة، تلك التي حُمِل غاليليو على اعلان مثلها قبل مئة سنة من ذلك العهد .

لقد لاحظ أحـد عظام الثقات من أهل العصر الحـديث أن المذهب الذي اضطر „ بافون „ إلى إنكاره هو من الثبات والحق بحيث يضارع القول بدوران الارض على محورها . وبالرغم من هذا فقد احتاج العلم إلى مئة وخمسين سنة أخرى ليتسنى له أن يقرع بهذا المذهب آذان الناس قرعاً خفيفاً ، في حين مضى المذهب

الكنسي قائماً على أن جميع „ الأشياء التي صنعت قد ظلت كما هي منذ بدء خلق العالم ،، وأن القول بأن الأحجار والحفريات قد صنعت قبل ذلك أو بعد البدء في الخلق ، قول مناف لنص الكتب المقدسة . وكذلك نرى انه قد حلت محل العلم فكرات لاهوتية حصرت في عبارات طنانة فارغة المعنى ، قضت بأن الحفريات هي „ ألهيات طبيعية ،، أو هي „ انعقادات معدنية ،، أو هي من „ مخلوقات قوة تكوينية ،، أو هي „ مُثُل ،، برأها الخالق قبل أن يصمم نهائياً الصورة التي يخلق على غرارها الأشياء .

خلّف لنا ذلك العصر الذي حلت فيه الآراء اللاهوتية محل الآراء العلمية ونحّتها عن عالم المعرفة ، أثراً أقيم تخليداً لذكرى قصتين معاً ، إحداهما مأساة والأخرى أضحوكة . هذا الأثر هو كتاب الأستاذ „ يوهان بيرنجر ،، من جامعة „ وُرْزبرج ،، والطبيب الخاص للأمير الأسقف ، الذي أسماه : „ نماذج الخلق الأولى المطبوعة في الصخور ،، (١) ، وأتى فيها على صور مئتي نموذج حجري تشابه بوضوح هيئة الحشرات والدواب . على أن „ بيرنجر ،، قد عمد من قبل ، إمعاناً في تمجيد الله ، إلى القول بنظرية ان الحفريات إنما هي „ حجارة من نوع خاص أخفاها مهندس الكون الأعظم للتسلي بها ،، . حتى أن بعض تلاميذه قد جنحوا إلى امتحان عقيدته في هذه النظرية التقويّة امتحاناً مريراً . فراحوا يجبلون من الطين كهيئة حفريات مزوّرة وخبزوها ، ثم لم يقتصروا فيما زوّروا على هيئة ضروب مختلفة من النباتات والحشرات والزواحف والأسماك ، بل اصطنعوا نقوشاً عبرانية وكتابات سريانية ، حملت إحداها اسم « القادر » ، ودفنوها في مكان كان من عادة الاستاذ أن يمضي اليه باحثاً عن عينيات من الآثار الحفرية .

(١) Lithographiae Wirceburgensis Specimen Primum

ولقد كان الفرح الذي أخذ الاستاذ يبرنجر عند ما عثر على هذه البراهين الدامغة الدالة على الاثر المباشر لفعل الله في تصوير الحفريات، عظيماً فائق التقدير. وأعدَّ لها كتابه فأبهظ في نفقاته وأسرف في إعداده. أليست صفحاته المصوَّرة هي الحد الفاصل المثبت للحقيقة المؤيدة للرأي اللاهوتي، النافي لخيالات العلم؟ وجعل في فاتحة كتابه لوحة في صفحة كاملة لرمز صوِّر بصورة هرم تكوَّنت لبناته من هذه الحفريات وعلى رأسه تربع أميره الذي هو في خدمته، ورمز يشير إلى مجد الله. ولقد كان إيمانه بهذه الاستكشافات من الثبات بحيث لم يمنعه ما ترامى اليه من أخبار المخادعة في ما عثر عليه، من أن ينشر كتابه في الناس. ولقد هوجم وفضح أمره، ولكنه تقدّم إلى الناس بجواب ضمنه ما ضمَّن من سخرية بمهاجميه وازدراء بهم. ولكن تعالي الضحكات التي دوَّت من حوله، أقنعت حتى المؤلف نفسه بما في ركازه العلمي من الخداع والغش. ولقد قيل بأنه أنفق كل ثروته في سبيل الحصول على النسخ التي وزعت من الكتاب، فراحت سدًى، وتناوحت من حوله سخريات منافسيه فمات كسير القلب مندمل الصدر. ولكن الموت نفسه لم ينجه من التعاسة وسوء الحظ. فإن نسخ الطبعة الأولى، وقد باعها إليه خليع متهاون من ورثة أحد الناشرين في ليبزج، سرعان ما أعيد طبعها بعنوان آخر، وما زالت إلى الآن تطلب ويجدُّ في أثرها الراغبون في الاحتفاظ بواحدة منها، لتكون لديهم أثراً خالداً وعنواناً على الحماقة الانسانية.

هذه الفضيحة الكبرى لم تكف للقضاء على الفكرة التي كانت السبب فيها، فإنه بالرغم من أن مستوى التفسيرات اللاهوتيعِلْمِيَّة قد سما وارتفع درجة ما، ظلَّ الاعتقاد بأنَّ الحفريات قد صنعتها يد الله وبثتها في طبقات الارض منذ أيام الخلق ثابتاً راسخاً، هذا بالإضافة إلى القول بأنها خلقت لغرض غامض خفي، ربما

كان لمحاولة امتحان الايمان الانساني .

ومن عجب أن الحرب اللاهوتية إزاء الاسلوب العلمي في البحوث الجيولوجية، كانت في البلاد البروتستانتية أشد وأقسى منها في بلاد الكثلكة . لقد تعامت الكنيسة الرومانية من أخطائها التي كلفتها ثمناً غالياً ، وبخاصة من موقفها إزاء كوبرنيكوس وغاليليو ، وأفقهتها قيمة الاخطار التي تكتنف دعوى العصمة التي تدعيها ، لدى وقوفها في وجه علم أخذ يتنشأ وينمو . لهذا كانت المعارضة في إيطاليا طفيفة وأوهاضئيل، في حين أنها بلغت في انجلترا أقسى صورها وأعتى أساليبها، إذ أخرجت من رجالها من كانوا أشد المنابذين لعلم الجيولوجيا ، طوال عصر التنابذ الذي قام بين الكنيسة وذلك العلم ، كما أبرزت أقوى المناقشين في حقائقه العاملين على هدم قواعده الثابتة ، الراجعين بمبادئه إلى ضروب من التوفيق كانت إلى الخيال والاصطناع أقرب شيء . على ان الكنيسة الانجليزية قد أخرجت بعض شخصيات اتصفت بالنبل كالاسقف كلايتون ويوحنا متشل ، أخذوا بيد العلم وأيدوا الأسلوب العلمي . ولكن الظاهر أن أمثالها قد أضاعهم دوي الاصوات المنبعثة من حناجر رجال الكنيسة والمنابذين ، أولئك الذين ظهر خلطهم بين اللاهوت والعلم مضحكاً حيناً ومؤسياً حيناً آخر ، وكان مظهرهم هذا من أروع مظاهر التاريخ الحديث ، بل من أكثرها تفقيهاً في العلم بالطابع البشري .

لقد نلحظ أن لهجات اللاهوت على العلم ثلاثة أطوار أو بالحري ثلاثة وجوه تطرد كل اطراد . ينطبع الطور الاول بطابع الرجوع إلى النصوص المقدسة والمقررات التي يقررها أهل اللاهوت إزاء كل علم ناشيء . ويتصف الطور الثالث بمحاولات ترمي إلى التوفيق بين العبارات المقدسة وحقائق العلم الثابتة ، أما الطور الثاني ، وبمعنى آخر الدور الأوسط ، فيلابسه التمسك بعقيدة لاهوتية ذات أثر في

العقول يحارب من طريقها العلم . رأينا ذلك في علم الفلك عند ما استمسك « بلارمين » ومناصروه بأن الحقيقة العلمية القائلة بدوران الارض من حول الشمس تنابذ العقيدة اللاهوتية في التجسد . وكذلك حدث مع علم الجيولوجيا إذ قيل بأن الحقيقة العلمية القائلة بأن الحفريات إنما تمثل حيوانات بادت وفنيت من قبل أن يكون آدم ، تخالف العقيدة اللاهوتية في هبوط آدم وان بهبوطه « حل الموت بالعالم من طريق المعصية » .

في الطور الثاني من أطوار الجلاد بين اللاهوت والعلم الجيولوجي ، زخرت انجلترا خاصة برجال من كبار مؤيدي الارثوذكسية ، وفي مقدمتهم "" توماس بارنت "" .

وفي الربع الاخير من القرن السابع عشر ، وبالحري في نفس الوقت الذي أهدى فيه "" نيوتن "" للعالم استكشافه الفذ ، نشر "" بارنت "" كتابه "" النظرية المقدسة في تكوين الارض "" . وكان "" بارنت "" أثير المكانة رفيع المنصب . ولقد اتخذ من النص المشهور في رسالة بطرس الثانية سنداً ، فقال إن الطوفان حطم الدنيا القديمة وأقام دنيا جديدة . ورفض نظرية نيوتن . واعتمد في نظريته في الطوفان على تفجر ينابيع الغور الأعظم ، أكثر من اعتماده على فتح نوافذ السماء بماء منهمر . وكان وثوقه بتلك النظرية ثابتاً أكيداً ، لأنه كان يعتقد أن باطن الارض مجوف مملوء بسائل ، فهي أشبه ما تكون بالبيضة . فأخذ من سفر التكوين نصوصاً متفرقة وبخاصة من رسالة بطرس الثانية ، والنظرية اللاهوتية في طرد آدم ، وأخرى فلكية في منطقة البروج ، وفكرات انتحلها عن ديكارت وخلطها جميعاً بعضها ببعض ، ومضى يؤكد انه قبل أن تأتي المعصية بالطوفان ، كانت الارض مصورة على مقتضى نظام هندسي كامل ، وكانت ملساء

جميلة «كالبيضة» ، فلم يكن بها من بحار أو جزائر أو وديان أو صخور ، ولا من «أخاديد أو صدوع أو ندوب» ، وان كل الخليقة كانت على غرارها ، اكتمال تكوين وحسن صورة .

وفي كتابه الثاني ، تقدم «بارنت» خطوة أخرى . فكما انه خلط في كتابه الأول بين نصوص من سفر التكوين ورسالة بطرس وديكارت ، مزج في كتابه الثاني قصة الفردوس كما رواها سفر التكوين بالأساطير الوثنية عن «العصر الذهبي» واستنتج من ذلك كله انه قبل أن يأتي الطوفان كانت الارض في ربيع دائم ، فلم يكن يغشاها مَطَر ، اللهمَّ إلاَّ ما يشبه الندى المتساقط .

وبالاضافة إلى هذه الأسانيد التي أنكر بها وجود البحار قبل المعصية ، أراد أن يعلل سبب ذلك ، فقال بأنه إذا كانت البحار قد وجدت قبل الطوفان ، إذن لتعلم العصاة كيف يبنون السفن ، ولاستطاعوا عندما يحل الطوفان أن ينجوا بأنفسهم .

كان الكتاب قوي الاسلوب حسن العبارة ، فنجح في جذب الأنظار اليه . ولقد ترجم إلى لغات متفرقة ، وأثار كثيراً من المعارضين ، كما نال عطف كثير من المؤيدين في جميع أنحاء أوربا . عارضه كثير من الرجال الاقوياء ذوي النفوذ ، وبخاصة في انجلترا ، وكان منهم جماعة قليلة من أفذاذ الكنيسة . ولكن الكنيسة على وجه عام حيته أعظم تحية وتقبلته بأحسن القبول . ومدحه «أديسون» بقصيدة لاتينية ، وظلَّ قرابة قرن مؤثراً في الشعور الأوربي تأثيراً كبيراً ، وساعد في أن يجعل النظرية اللاهوتية تضرب أصولها في الفكر ، نظرية أن الارض ، كما هي كائنة اليوم ، إنما هي حطام ، في حين أنها قبل أن تأتي المعصية بالطوفان كانت جميلة في صورتها التي هي أشبه بالبيضة ، منزهة عن كل النقائص ، محبوة بكل الكمالات .

بعد ذلك بسنين قلائل تقدَّم كاتب رفيع المكانة هو "وليم وستون" الاستاذ بجامعة كمبردج ، فنشر في سنة ١٦٩٦ كتابه "نظرية جديدة في تكوين الارض". لم يجر هذا الكاتب في أعقاب "بارنت" بل حاول أن ينتفع بالفكرات النيوتونية ، ومن أجل أن يعلل الكارثة الجيولوجية التي سببتها المعصية أدخل في الأمر مذنَّباً صدم الارض ، ففجَّر "ينابيع الغور الأعظم".

* * *

أعظم من هذين البطلين ، ثلاثة آخرون ظهروا في القرن الثامن عشر ، عملوا جميعاً على اخضاع العلم الجيولوجي للاَّهوت ، وقد خصوا جميعاً بقدرة فائقة ، وهم : يوحنا وسلي وآدم كلارك ورتشارد واطسون . لقد اشترك ثلاثتهم في سمو الكفايات العقلية ومتانة الخلق ونبل الغرض ، وكان أولهم من أعظم من يذكر تاريخ انجلترا من الرجال . ومع ذلك نجدهم جميعاً وقد استخضعهم نص الكتب المقدسة إزاء علم الجيولوجيا ، واستعبدهم مجلًى عابر من مجالي اللاهوت .

إزاء السِّحر والشعوذة ، وإزاء الفكرة في المذنبات ، كان موقف « وسلي » كما كان موقفه إزاء الجيولوجيا سبباً جرَّه إلى أخطاء فاحشة . إن العقيدة الكبرى التي اتبعها وسلي وواطسون وكلارك والتي جارَوْا فيها القديس أوغسطين وبيده وبطرس لومبارد ، وجمهرة كبيرة من أعظم العقول التي استظلت بالكنيسة ، والتي ظنَّ ان من الواجب الاستمساك بها إزاء الجيولوجيين ، انحصرت في القول بأنَّ الموت نزل بالدنيا من جرَّاء المعصية وطرد آدم وحواء من الفردوس وهبوطهما إلى الأرض ، وإن المدى الذي بلغ اليه اعتقاد وسلي في ضرورة الأخذ بهذه العقيدة ، يلوح لنا بعيداً عن التصديق في عصرنا هذا .

« البقية على الصفحة ٣٠٦ »

نظرات في النفس والحياة

— ١٤ —

نظرات جورج أليوت سويفت

جورج أليوت هو الإسم الذي اشتهرت به ماري إيفانز الكاتبة الانجليزية الشهيرة. وقد اشتهر من الكاتبات الأوروبيات كثيرات، وربما كانت لبعضهن شهرة عالمية أكثر من شهرتها، ولكن الفحص والتمحيص يدل على أنها من غير شك أعمق بصيرة وأغزر فكراً وأرجح رأياً وأعظم خيالاً من مدام ده سافيني، أو مدام ده ستايل، أو جورج ساند. أو جين أوستن أو غيرهن. ويمكن تقسيم مؤلفاتها الهامة الى أربعة أقسام: القسم الأول. يشمل القصص التي تشرح فيها صفات نفوس من حولها من الناس، وهذه الكتب مثل أموس بارتون وآدام بيد وسيلاس مارنر وغيرها هي أكثر كتبها رواجاً بين القراء الانجليز لأن موضوع كل منها أقرب الى أذهانهم ولأنها أسهل أسلوباً. والقسم الثاني من مؤلفاتها يشمل قصة رومولا التاريخية التي تصف فيها عهد احياء العلوم في إيطاليا بمحامده ومكارهه والقصة التاريخية أشق وأصعب في تأليفها لأنها تحتاج الى دراسة ذلك العهد ونقد ما يذكر عنه وتصوره ببصيرة نافذة. وقصة (رومولا) من القصص التاريخية الكبيرة التي يصح أن تحتل مكاناً ما بين ازموند لثاكري، وسان أنطوان وسلامبو لفلوبير وتاييس، والآلهة ظماى لاناتول فرانس وبعض القصص التاريخية الشهيرة الأخرى. والقسم الثالث من مؤلفاتها قصة مدلمارش وقصة دانيال ديروانذا وهي لا تقل فيهما بصيرة ولكنها تبعد عن النفوس المألوفة حولها التي وصفتها في القسم الأول، كما أن عادة الاسترسال في الفكر تغلب عليها ويغلب عليها الأسلوب الفكري. والقسم الرابع من مؤلفاتها رسائل ثيوفراست دعتها باسم فيلسوف أغريقي قديم وهي وصف لخصائص أخلاق الناس على نمط لابرويير. وهذه

الكاتبة فضلاً عن انها درست ثقافات الأمم المختلفة كما يتضح من قراءة مؤلفاتها فانها وارثة بصيرة شكسبير وهنري فيلدنج القصصي الانجليزي على اختلاف ما بينها وبينهما . وكثيراً ما تذكرنا مقدمات فصول توم جونز لهنري فيلدنج — وهي على شكل رسائل وبحوث في النفوس في آثار هذه الكاتبة ويصح جمع كلمات عديدة من مؤلفاتها لا تقل عن كلمات عظماء المفكرين من الرجال كما يتضح من نظراتها الآتية : —

(١) إذا أساء إلينا إنسان ثم خاب في أمر لا صلة له بإساءته أو خاب في أمور حياته عامة أحسسنا كأن خيبته في أمور حياته بسبب إساءته إلينا . كأن نظام الحياة لا يستقيم ما دام قد أساء إلينا إلاَّ بخيبته، وكأنَّ تلك الخيبة نتيجة طبيعية للأساءة إلينا. وهذا الاحساس يشتدّ أعظم ما يشتدّ في نفوس ذوي الأَثَرَةِ والجهل. ولعلَّ سببه إن المساء إليه من غيظه يريد الانتقام فيتخيل أنه قد أصابت المسيء مصيبةٌ فاذا حلَّت به مصيبةٌ سهل عليه أن يحسَّ انها نتيجة اساءته إليه. وكل إنسان كما قال أناتول فرانس يحس كأنه قطب الدنيا ومحور العالم وكل من يسيء إليه . إذاً يكون كأنه خارج على نظام العالم فلا غرو اذا خاب وفشل ! !

(٢) قد يكون الانسان فظًّا قاسياً في نقد الناس وأعمالهم ومع ذلك قد يكون رقيق الحاشية والطبع مع اسرته . وبعض الكُتَّاب كان بيده اليمنى يصول بقلم يقطر سمًّا وهلاكاً في نقد إنسان آخر ، وبيده اليسرى يهز أرجوحة طفله الصغير بحنان ورفق . . . وهذا يذكرنا هيبير مندوب المجلس البلدي بباريس أيام حكم الارهاب. وهذا الفارق يعظم أيام الاضطراب والثورات. وقد وصف الدكتور كابانيه في كتابه لنفروس رفليوسنير كيف أن الإنسان الرقيق الطابع الوديع الأخلاق قد ينقلب ويصير وحشاً ضارياً اذا كان في جماعة تحبذ أقواله وأعماله القاسية . وفي هذا مصداق النظرة التالية لجورج اليوت وهي :

(٣) عند ما نخدع النـاس أو نسيء إليهم ونحن وحدنا قد نتردَّد ونتحرَّج من بعض أساليب الخداع أو الشر ونأنف منها ونخشى اللوم ولا نريدها إلاَّ للضرورة القاهرة فاذا اجتمعنا والناس واتفقنا معهم في تلك الأساليب ووجدنا منهم تحبيذاً لها تسلطت أساليب الخداع أو المكر أو الشر والإجرام علينا ، ولم نشعر بصعوبة في ارتيادها ما دام الناس

معنا . وهذا ما وصفه وضرب له الأمثال الدكتور كابانيه في كتابه عن الاضطراب الثوري وأثره في النفس والجسم .

(٤) إن الانسان قد تكون نظرياته ومبادئه مخطئة ولكن إحساساته وأعماله نبيلة كما يصدق العكس فقد تكون نظريات المرء ومبادئه وعقائده سامية نبيلة بينما تكون أعماله بالضد من ذلك . ومن أجل هذا الخلاف ينصح النقاد للمؤرخ أن يميز بين مبادئ رجال التاريخ وبين أعمالهم . وهذه نصيحة واجبة لكل إنسان في الحياة اليومية أيضاً، إذ كثيراً ما يخطىء فيظن أن مبادىء المرء وإحساساته وأعماله كلها من طراز واحد وهي أصناف مختلفة .

(٥) إن ذوي النقص والعاهات في حاجة الى فضائل ومزايا تزينهم لأنهم يشعرون بقلق اذا لم تكن لهم إلاّ عاهاتهم، أو كان لهم نقصهم وحده . ولكن الفكرة التى تجعل الفضائل أو الفضل بدلاً لهم ووقاية كما تقي الطبيعة الحيوانات في الشتاء البارد بفرو كثيف فكرة مبالغ فيها مبالغة كثيرة، إذ كم من أناس من ذوي النقص أو العاهات لا فضل لهم ولا فضيلة إلاّ أن يكون الفضل ومزايا النبوغ كامنة في النفس تظهرها الحوادث سواء أكانت عاهات أم لم يكن نقص — فمن الذي يستطيع ان يقطع بأن ذكاء زياد بن أبيه وفصاحته وقدرته في تصريف الأمور كلها كانت بسبب مطعن أو مغمز في نسبه ولم تكن هبات طبيعية في نفسه . ومن أجل ذلك يخطىء بعض العامة خطأ أولياً في علم المنطق فيقلبون هذه الفكرة ويجعلون الفضل على عاهة أو نقص. وهذا يذكرنا بعض الشواهد التي تصف هذا الخطأ في علم المنطق كمن يقول مثلاً كل القِطَطَةِ حيوانات . فإذاً كل الحيوانات قِطَطَةٌ وقلب الفكرة لا يجوز في علم المنطق .

(٦) من الغريب أن الناس كثيراً ما يتعجبون لحدوث شيء هم الذين عملوا لإحداثه، كما يتعجبون إذا لم يحدث أمر لم يصنعوا شيئاً لإحداثه كالآباء الذين يتعجبون من جهل أبنائهم وقلة تربيتهم وهم السبب إذ لم يحزموا أمرهم لتربيتهم، والأزواج يتعجبون لفقدانهم المحبة وانقطاع أواصرها بين الزوج وزوجه ولم يعملا لتهيئة سبيل بقائها، والجيران يتعجبون من نفور جيرانهم منهم ولم يعقدوا أواصر المودة معهم .

(٧) ما أشد اعتماد الناس على ما قد يأتي عفواً، فإذا عمل المرء عملاً يحط من كرامته تعلق باحتمال عدم ظهوره ، وإذا أسرف تشبث باحتمال الكسب من وجه آخر غير منظور ولا محتمل، وإذا أساء تنظيم عمله تمسك باحتمال إن اساءته تنظيم عمله ليست هامة لنجاحه فيه ، وإذا خان صديقه اعتمد على أن الصديق قد لا يعرف خيانته له وعاقبة ما نزرع من بذور تلك الأوهام الباطلة في الاعتماد على الأمر المرغوب فيه الذي هو غير محتمل الحدوث إنما تنتج محصولاً باطلاً ومحالاً من نوعها . وليس الجهلاء وحدهم هم الذين يتشبثون بالمحال المرغوب فيه فقد قال مارمونت وغيره إن نابليون بونابرت في أواخر أيام مجده كان مهما صححت له الحقائق يعود إلى ما حسبها قبل تصحيحها .

(٨) ما أشد إلحاح الرغبات الإنسانية فإذا تملكت النفس رغبة لا يغنيه إن تقدم له ما هو عوض عنها من أمر آخر ولو كان مثلها أو خيراً منها. وهذا مشاهد في تشبث الأطفال بالأمر المرغوب فيه كما هو مشاهد في تشبث الكبار .

(٩) الشعور بالأمن يكون ناشئاً من العادة أكثر مما يكون ناشئاً من الأدلة والاعتقاد. ومن أجل ذلك كثيراً ما يوجد الشعور بالأمن إذا إعتاده الانسان حتى بعد زوال الأحوال التي جعلته عادة وصيرت الانسان يسكن اليه ويطمئن، فإن منطق العادة يغلب على ذهنه، ويرى أن الخطر محال حدوثه مع إن مرور الزمن قد يكون السبب في حدوثه. ومثل ذلك مثل الرجل الذي يكون سقف بيته آيلاً إلى السقوط فإذا لم يسقط وتعوّد الأمان حرمته تلك العادة من أن يرى في مرور الزمن ما هو كفيل بإيهانه وإضعافه وسقوطه وقس على ذلك كل أمور الحياة .

(١٠) إنها قاعدة عامة وهي أنه لا بدّ للنفس من أمر خفي غير موثوق به كي يُغَذّي أملها وشكها وعملها فلو انكشفت لنا أمور المستقبل لما علقت النفس بها ولاسرعت بأملها وعملها وشكها وشعورها إلى غير المستقبل المكشوف المعروف ..... وهذا الرأي أصح حجة من تعجب كعب بن زهير من سعي الانسان وعمله مع ان القدر مخبوء عنه . وذلك في قوله :

لو كنتُ أعجب من شيء لأعجبني سَعْيُ الفتى وهو مخبوء له القَدَر

(١١) إذا تحمل أحد الناس غضبنا بسكوت وطيبة قلب وعطف، فإننا إذا سكن غضبنا قد نشك بسبب مسلكه معنا وهدوئه في مداراة غضبنا في اننا كنا على حق، ونشك في ان معاملتنا له كانت معاملة لائقة ويزداد هذا الشك والأسف اذا مات من تحمل غضبنا بسكوت وطيبة قلب وذهب الى عالم الصمت الأكبر.

(١٢) قال يوليسس في قصة سوفوكليس: دعنا مرة واحدة نرتاد سبيل المكر والكذب والاحتيال والشر الخ. ثم نعود بعدها دائماً أبداً الى سبيل الصدق والشرف في العمل والفكر والوسيلة. وهذا كثيراً ما تقوله النفس في باطن نفسها استدراجاً لها ومخادعة، فتستمر في الكذب والمكر والشر أكثر حياتها بعد ان كانت توهم نفسها انها مرة واحدة صغيرة ثم بعدها مرة أخرى صغيرة الخ.

(١٣) كل عمل مذموم يستدرج صانعه الى أعمال وأقوال عديدة مذمومة كي يزكيه ويسوغه، وكي يزكي ويسوغ الأعمال المذمومة التي يزكيه بها. وتستمر تلك العدوى في نزعات النفس ورغباتها فاذا أثم المرء لم ينته إثمه بعمله، ولا تنقطع سلسلة آثامه، إلا اذا اعترف بخطأه أو اثمه، فلا يحتاج إذاً الى شرور كي يزكيه. واذا ظلم انساناً لا يقنع حتى يزكيه بظلم آخر. وهذا يذكرني ما صنعه أحد الكرادلة الذي نقم على رجل نقده فأتهمه بالكفر بالمسيحية في عهد كان جزاء من يتهم به الحرق. ولم يكتف بذلك بل انه صهر في النار صليباً من الحديد وقدمه اليه كي يتوب ويقبله وكان الرجل موثقاً فنفر من ألم حرارة انصهار الصليب وزوى وجهه عنه وانما فعل عدوه ذلك كي يقال انه نفر من الصليب لكفره بالمسيحية، اذ كان الناس لا يعرفون انه وضع الصليب الحديدي في النار. وهكذا زكى هذا الكردنال إثمه الأول بإثم ثان — على أن تزكية العمل المذموم أو القول المذموم بعمل أو قول آخر مذموم أمر مألوف كثير الحدوث في الحياة اليومية.

(١٤) كثيراً ما نخدع أنفسنا حتى نصدق أن اثرتها في معاملة الناس كانت تكون أقل قسوة وأكثر انصافاً وأبر بهم وأعدل لو اننا عرفنا حقيقة حالتهم ولكن إيثارنا الرفق لا يقوى الا بعد فوز أثرتنا ونيل أنفسنا ما تريد لا قبل الفوز به. وقد تعرف النفس حالة من تعاملهم، ولكنها تتناساها حتى تنساها. وتتجاهلها حتى تجهلها مغالطة من النفس

للنفس، كي تدعي انها كانت تكون أرفق وأبر وأعدل. على أنه بالرغم من هذه المغالطة فان العوز قد يزيدها إثرة وعنفاً وقسوة وظلماً .

(١٥) بعض الأخيلة التي نخدع بها انما نخدع بها ونحن نشعر بذلك الخداع، واللذة فيه كاللذة التي نجدها في رؤية مجموعات الألوان التي تصنع من قطع الزجاج الملوّن فتتخذ أشكالاً بديعة في الفانوس السحري . وكما أن الطفل يلذ له أن يلعب لعبة أساسها خداع النفس بالأمور وحقائقها حتى يصير لعبه جدًّا، كذلك العاشق يلذ له أن يخدع نفسه وهو يعرف انه يخدعها . وهذا يذكرنا قول أبي نواس .

صار جدًّا ما مزحتُ به رُبَّ جد ساقهُ اللعب

(١٦) لعل السبب في اننا كثيراً ما نخيب في أن نعزي معاشرينا في مصاب أصابهم ونسليهم عنه أنهم يشعرون ونحن نعزيهم بحبنا لأنفسنا، واننا انما نفكر في كل ما يهمنا من مطالب إثرتنا وهذا لا يمنع أن تكون ممزوجة بشيء من العطف على الناس في مصابهم وإن كانت هي الغالبة. وبالرغم من أن كل انسان يعرف ذلك في نفسه، فانه اذا أصابه خطب أو مصاب أمّل أكثر من ذلك من غيره وتوقع مشاركة أعظم منه في مصابه أو خطبه .

(١٧) الحياة اليومية هي محاولة كل انسان ان يخفي نفسه عن معاشريه وراء كلمات وأعمال مزيفة، وهؤلاء المعاشرون أشد بعداً عن المرء من نفسه وخواطرها وما بها من شرور لا تنطق بها، ولا تبين عنها، وقد لا تعملها ومن خير كثير قد لا تصنعه. وكثيراً ما نفكر في عمل آثام لا نستطيع أن نعملها كما نفكر في صنع أعمال من أعمال الخير أو اللباقة والمهارة لا نستطيع عملها. فخواطرنا قد تكون أسوأ أو أفضل منا . وقد علل سمرست موام القصصي اتهام الأتقياء الأبرار الأخيار أنفسهم أو توقعهم العقوبة في الآخرة بخواطر السوء التي تتردد في النفس ولا تصنع صنعاً كما أن بعض الناس قد يمدح نفسه بسبب خواطر الخير التي تتردد في نفسه ولا يعمل شيئاً لتحقيقها .

(١٨) كما أن الشاب المملوء صحة وحياة ونشاطاً يصعب عليه أن يدرك الموت كل الادراك، وإن يحسّ وطأته مهما رأى من مظاهره . كذلك يصعب عليه أن يدرك الشقاء الكارث وأن يحسّ وطأته . وهو يؤمن في سريرة نفسه ان المقادير لا بد أن تنجي شبابه

وصحته ونشاطه وحياته منه حتى ولو كان ذلك في آخر لحظة قبل أن يكرثه. ولعل هذا الاحساس هو سبب استهتار الشباب أو شجاعته واستهانته بمعضلات الحياة.

(١٩) مما يساعدنا على أن نعمل في الحياة عملاً قليلاً طيباً أننا لا نعرف ما في سرائر أصدقائنا ومعاشرينا عنا مما يثبطنا، وليس في الحياة مرآة تعرفنا حقيقة أنفسنا فنطمئن. وهذا الاطمئنان يجعلنا نظن أننا نعمل عملاً كبيراً عظيماً، فنستطيع بذلك أن نعمل ولو عملاً صغيراً طيباً. وكما أن الطفل الصغير الذي يتعوَّد نظره الصغير بعد قياس المسافات، كثيراً ما يصطدم بالأشياء، كذلك الانسان الذي لم يختبر أمور الحياة بفطنة يحسب أن مكانته في الحياة مكانة كبيرة وهي صغيرة جداً، ويصطدم بالعراقيل كما يصطدم الطفل الصغير بالأشياء إذ لم يتعوَّد بعد قياس المسافات بنظره.

(٢٠) كثيراً ما يسوِّغ المرء أموراً غير سائغة ولا جائزة بتغيير أسمائها، فيسمي اضطهاده الناس مقاومة، أو الخرق والهوج إصلاحاً وتجديداً. وقس على ذلك جميع أمور الحياة التي لا تسوغ، فبتغيير أسماء الأمور يستطيع المرء ان يعمل ما هو حبيب الى نفسه وإن كان شرًّا مكروهاً.

(٢١) ليتذكر المرء اذا أقدم على عمل ان الحياة كعملية حسابية لا يستطاع عملها مرة ثانية لتصحيحها وتلافي أغلاطها، كما لا يستطاع تصحيح عمل الطرح بأن يعمل عمل الجمع في الحساب صحيحاً.

(٢٢) إن الناس قد يرحمون الميت وقد يزكونه. وطالما كانوا يرون من الواجب المفروض، سحق قلبه، ما دام ينبض وقهر عقله ما دام يفكر فاذا سكنا سكون الموت فلا بأس من الاحسان اليه بكلمات مزيفة واحساس بالرفق مصطنع.

(٢٣) إن تخدير النفس بتجاهل الحقائق حتى تجهلها، حالة نفسية تختلف كل الاختلاف عن حالة السكينة والاطمئنان مع معرفة الحقائق معرفة تامة. ولكننا كثيراً ما نخلط بين الحالتين.

(٢٤) أول ما يصيب المرء الخطب أو الضيق قد تستفزه الاصابة المفاجئة فتكسبه قوة مؤقتة لا تزول حتى يصير الحزن والخطب عادة ونيراً.

(٢٥) بعض الناس لا يستطيعون تحمل حتى القليل من الإهانة إلاَّ اذا استطاعوا أن يغمضوا أعينهم عنها ، او ان يتمكنوا من الامتناع عن تصديقها ومعرفتها والاقرار بها والفطنة اليها ومغالطة أنفسهم فيها . فاذا لم يستطيعوا إلاَّ مواجهتها ومعرفتها كانت حياتهم عبئاً ثقيلاً ربما لا يقدرون على حمله مع ان كل انسان لا يخلو من أمثالها في الحياة .

(٢٦) إن بعض ذوي النجاح وان كانوا معروفين بسلامة الطوية والنية قد يجدون لذة في ايقاع الشر ببعض الناس اذا كان عمله سهلاً ولا يعوق أعمالهم الناجحة . وكأنما يصنعونه على سبيل اللهو أو الفكاهة أو التنفيس عن خطرات كامنة في نفوسهم أو لاثبات قدرتهم . وهذا الرأي يذكرني بقصة لسمرست موام عن تاجر انجليزي في اليابان كان ناجحاً وكان معروفاً بين أهله ومعاشريه بطيبة القلب ، فطلب منه أحد الخُيَّابِ من بني جنسه أن يجد له عملاً يرتزق منه ، وكان هذا الخائب في شبابه مشهوراً بالسباحة في البحر قبل أن يصيب الدهر من قوته فاشترط التاجر عليه أن يسبح مسافة طويلة في البحر في مكان شديد التيار فاذا فاز ألحقه بعمل يرتزق منه . ولكن الرجل هلك في أثناء سباحته، وعند ما سأل سائل التاجر عن سبب اشتراط هذا الشرط قال مبتسماً الحقيقة هي أني لم يكن عندي له عمل أي انه كان يعرف أنه هالك لامحالة. وأنواع هذا الشر من أهل النجاح وأمثاله كثيرة الوسائل ... واذا أصاب النجاح خائباً عفواً من غير جهد كبير منه حقد عليه أهل النجاح الذين كدُّوا واحتالوا للنجاح وعدُّوها قسمة ضيزى، مع أن نجاحه قد لا يؤثر في نجاحهم ولا يقلل منه. واذا كان هذا الحقد والحسد شأن ذوي النجاح فكيف بما يعانيه التعساء المحرومون .

(٢٧) من السعادة أن يعوّد المرء نفسه أن يعيش معها بدل أن يشرئب دائماً الى اعتبار الحياة سوقاً يرتاده الناس للتفرج عن أنفسهم برؤية المعروضات . وبعضٌ لم يعود نفسه أن يعيش معها لا يطيق عشرة نفسه. وهذا من أسباب الحاجة الى المصادقة والمصاحبة .

(٢٨) كثيراً ما نعمل عملاً فلا نرى من الناس ارتياحاً إليه أو اقتناعاً به أو إعجاباً. ولا يثبطنا ذلك، ولا يصرفنا عن عمله، بل نحسب أن سبب عدم ارتياحهم واقتناعهم قلة ما صنعنا

منه ، فنثابر على عمله توقعاً لظهور ارتياح الناس إليه واقتناعهم به وإن كان غير مقنع .

(٢٩) قد يتوقع المرء حدوث الأمر المحال وهو يؤمن إيماناً تامَّـا أنه سيحدث ولا فرق بين هـذا وبين الجنون إلاَّ ان الحوادث قد تبدد ذلك التوقع والإيمان، ولا تبدّد الجنون .

(٣٠) ان الطبع الذي يميل دائماً الى السيطرة والتحكم حتى في الأمور التافهة الصغيرة لا بدّ أن يكون به جانب من الضعة والحقارة ويخفيهما بذلك التحكم .

(٣١) بعض اللغات قد تكون فيها طلاوة وحلاوة لا يشعر بها من يقرؤها، كذلك بعض الوجوه قد تعبِّـر للرائي عن أكثر مما في أنفس أصحابها من معانٍ .

(٣٢) عند ما يريد الناس تصديق الأكاذيب أو إذاعتها حتى يصدقها غيرهم يقولون : — لا دخان من غير نار ... ومَثَـلهم مَثَـل الذي يُـعكِّـر الهواء بدخان (بيبته) أو نرجيلته أو لفافة تبغه ثم يحسب أن الدخان والنـار من عند غيره وهي من عنـده ، والأكاذيب أو النقائص التي يراد تصديقها في نفسه .

(٣٣) المصلحون يشعرون بسرور في كل اصلاح ، ولا يعطفون على النفوس التي تأسف مع ذلك لما يصيب كثير من الناس في كل اصلاح من ضرر وألم وشقاء بسبب انتقال الأمور من حال الى حال عند الاصلاح . والمصلحون لا يقتصرون على حرمان تلك النفوس من العطف، بل إنهم قد يعدون أسفها على من نالهم الشقاء بسبب الإصلاح، خلافاً لهم في الرأي والمبدأ، أو خيانة لعهد الاصلاح فيشركونها في الشقاء أو الاعدام .

(٣٤) لا يستطيع العامل صنع عمل جليل شبه معجز إلاَّ بإيمانه بنفسه ، وأكثر إيمان العامل بنفسه مستمد من إيمان الناس به أو ايمان طائفة كبيرة منهم ، ولـكنه اذا فقد ايمان الناس به ، لا يلبث إيمانه بنفسه أن يزعزع مهما كان عظيماً . إلاَّ اذا كان قليل الإحساس لا يلتفت الى حقائق العالم . على أن العامل قد يكون هو الذي خلق إيمان النـاس به في أول الأمر

(البحث بقية) ع . ش

أشجان

نهاه عن الكأس ندمانها   وعن جنة الحب ولدانها
وآذاه في المُثُل المدّعو   ن فما دفعت عنه أوثانها
وعيره بجنون الشبا   ب شيوخٌ تأرجح ميزانها
وقالوا صباء والهوى والصبا   حياة النفوس ووجدانها
وبين الصبا والتصابي حدو   دٌ يؤود المساحيق إتيانها
ووصل الغواني هدايا الشبا   ب غوالي على الشيخ أثمانها
وما تستوي خفقات القلو   ب معذبهنّ وهيمانها
وما تستوي خلجات العيو   ن سواحرهنّ ووهلانها
فما بالهم كلفوا بالذي   أتاه وهم منه أسمى نهى
وكيف استبدّت بأتقاهمُ   كؤوس الحميّا وألوانها
وورد الخدود وميل القدو   د وصاحي العيون ووسنانها
وما كذّبته المرايا ولا   تغير في الحق إيمانها
ولكنه الحق يقذي العيو   ن ويؤذي الحقيقة إعلانها
ويؤخذ باللمم المعلنو   ن ويخفي الكبائر كتمانها

***

أباريس منيتني بالحيا   ة فأين الحياة وسعدانها

وأين من العير ركب الأديـــب إذا ما تفاخر فرسانها
وما حظه من سماط الحيا ه إذا ما تسابق عقبانها
وأين من الورد شرب الكـنا ر اذا ما تزاحم غربانها

***

لها ما لها في سفين الشبا ب وآب وما آب ربانها
وآب ليدفن أحلامه فما وسعتهن أكفانها
إلى شاطىء هرم هادىء وأرض تغيّر سكانها
فلا قومه عامروها ولا كبير العشيرة سحبانها
ولا الأجنبي خفيض الجنا ح رحيم ولا العرف قانونها
ولا محض النصح (أشياخها) ولا سأل الهدْي شبانها
ولا اقتحم النار قوادها ولا امتحن النـار فتيانها
فأنكر في الناس أن قد عموا وصُمّت عن الحق آذانها
وأنكرت الناس أن ينطوي على نفسه وهو فنانها
فأفرغ في الكأس أشجانه ففاضت على الكأس أشجانها
ولكنها آمنت خوفه وأنساه ما ذاق تحنانها

عبد الغني أبو النجا

تطور الآراء
الاجتماعية والسياسية
الحديثة
للكاتب الانكليزي هـ . ج . ويلز

إنّ النظم والعادات والآراء السياسية التي كانت تميز المدنيات القديمة أخذت تنمو عصراً بعد عصر بشكل لم يكن أحد من الناس يتصوره أو يتنبأ به ، لأن هذا النمو لم يتضح إلاّ في القرن السادس الميلادي وهو العصر الذي يمثل فترة المراهقة البشرية . ففي هذا العصر أخذ الناس يفكرون في العلاقات التي تربط بعضهم بالبعض الآخر ، وابتدأت تجول في عقولهم أولى الاقتراحات حول امكان تغيير وإعادة تنظيم المعتقدات والقوانين والأساليب التي طال عليها القدم والتي كانت تسيطر على نظام الجماعة الإنسانية .

لقد أشرنا [1] الى فجر النهضة العقليـة الجيدة الذي انتشرت أنواره في الاسكندرية وأثينا ، وأظهرنا بعـد ذلك كيف انهارت المدنيات التي قامت على أكتاف العبيد ، وكيف حجبت الغيوم السود ، التي جمّعتها العصبيات الدينية وزادتها حلوكة الحكومات الفردية المطلقة ، الشمس التي كانت تريد أن تطلع مبشرة بعهدٍ جديد . ولهذا فإنّ الأضواء التي سلطتها الأفكار الحرة الجريئة لم تستطع أن تنفذ من بين هـذه الظلمات المتراكبة المطبقة على أوربا إلاّ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد جرّبنا أن نشير اشارات عابرة الى الموجات التي امتدت من بلاد العرب والى الغزوات التي شنها المغول ومشاركتها في هذا البعث العقلي الذي هزّ أوربا . وقد تمثلت هذه المشاركة على الأكثر في انماء المعرفة المادية ، لذلك كانت أولى الثمرات التي جنيت بعد احساس الانسان بامتياز جنسه هي تلك الاختراعات المادّية وتلك القوى الصناعية . إن علم العلاقات البشرية ، وعلم النفس الفردي والاجتماعي ،

(١) يشير ويلز الى الفصول السابقة في كتابه « تاريخ العالم » الذي اقتبسنا منه هذا الفصل .

وعلم التربية والاقتصاد ، لم تكن علوماً معقدة في نفسها فقط ، بل كانت تتصل اتصالاً مشوشاً بالجوانب العاطفية لهذه المشكلة،ولهذا فإن التقدم الذي حصل فيها كان بطيئاً وجابه عراقيل كبيرة . لأن الانسان ينصت ، ولكن بلا هدف ، الى هذه الآراء المختلفة في الكواكب والذرات ، في حين أن أفكارنا التي تعمل للكشف عن أساليبنا في الحياة تستقر منا في الصميم وتؤثر على كل فرد تأثيراً عميقاً .

وكما عرفت تلك التأملات الجريئة التي رويت عن أفلاطون قبل أن يعاني ارسطو ما عانى من مشقة في جريه وراء الحقيقة ، كذلك حدث في أوربا أن وضعت أولى المسائل السياسية للوضع الجديد على شكل قصص خيالية نقلت مباشرة من جمهورية أفلاطون ومجموعة قوانينه . وإن جزيرة سير توماس مور الخيالية ليست غير تقليد طريف لآراء أفلاطون التي أنتجت فيما أنتجت قانوناً انكليزيًّا هزيلاً . وأما مدينة الشمس التي تخيلها كامبانيلا فكانت أكثر امعاناً في الخيال وأقل خصوبة .

وما إن انتهى القرن السابع عشر حتى أخذت المؤلفات الاولى في السياسة والاجتماع تنتشر بين الناس . ومن الروّاد الأوائل في هذه البحوث الفيلسوف جون لوك الذي كان من أبناء أحد دعاة الجمهورية في انكلترا . وكان لوك أول من وضع جملة ملاحظات في مسائل الطب والكيمياء ، ورسائله الأولى في الحكومة والتعليم والتسامح تكشف عن عقل واع مؤمن بضرورة إعادة بناء نظام الجماعة . ثم أعقبه مونتسكيو ، وهو عالم آخر من نفس هذا المستوى الرفيع،ظهر في فرنسا بين عامي (١٦٨٩ و ١٧٥٥) وأخضع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والمعتقدات الدينية للتحليل والبحث، فجرّدها من تلك الأوهام التي كانت تسيطر على العقول في فرنسا وتملأها بخرافات الحكم الفوضوي . وإن فضله لا يقل من فضل لوك في محاربة كثير من الآراء المزيفة التي كانت تقف في وجه كل محاولة تدبر عن قصد ووعي لإعادة بناء المجتمع البشري .

وإن الجيل الذي أعقب هؤلاء الفلاسفة في أواخر القرن الثامن عشر اندفع بجرأة ممعناً في تحليل المذاهب العقلية والأخلاقية السائدة . وان الانسكلوبيديين ، وهم جماعة ممتازة من الكتّاب ، كانوا أصحاب أرواح تعتمل في جوانحها فعاليات أشد من تلك الفعاليات التي

كانت تضطرب في نفوس طلاب مدارس الجزويت الممتازة ، إذ وحدوا جهودهم لوضع هيكل عالم جـديد (١٧٦٦) . وقد اختط الفيزيوقراطيون نفس الطريق الذي اختطه الانسكلوبيديون ووضعوا بحوثاً جريئـة غير ناضجة في تنظيم الانتاج وتوزيع الحاجات والخدمات . وأكثر من ذلك ان مؤلف « قانون الطبيعة » تشكى من نظام الملكية الخاصة واقترح تشييع المرافق الاجتماعية ، فكانت دعوته هذه طليعة تلك المدارس المختلفة التي انضمّ اليها المفكرون الاجتماعيون الذين تكتلوا سوية وسموا بالاشتراكيين .

ما هي الاشتراكية ؟ هناك مئات من التعاريف للاشتراكية وآلاف من الاشتراكيين . ولكن من الضروري أن نعرف ان الاشتراكيـة ليست أكثر ولا أقل من نقد لفكرة الملكية من وجهة المصلحة العامَّة . وإننا سنسرد تاريخ هذه الفكرة بإيجاز في تطورها خلال العصور . إن الاشتراكية وكذلك العالمية فكرتان جديدتان في تاريخ الفكر البشري بينما أكثر الأفكار في حياتنا السياسية تطوّرت تطوراً تدريجيًّـا صاحبَ الوعي الانساني في كل تاريخه .

والأصول الأولى لفكرة الملكية ترجع إلى الغرائز الشرسة في الأنواع الحيوانية ؛ وقبل أن يكون الانسان انساناً من زمن طويل،كان جدنا « القرد » مالكاً . وان الملكية في شكلها الأول هي ما يدافع عنـه الحيوان ، وتتمثل في قصة الكلب والعظمة ، والنمر والعرين ، وزئير الذئب والقطيع ، فهذه كلها أصول للملكية . ولعلّ ليس هناك اصطلاح غير ذات معنًى قُـبل في علم النفس كاصطلاح الشيوعية البدائية . فإن الانسان القبلي القديم وإنسان العصور الحجرية الأولى كان يتمسك بحق الملكية بالنسبة لزوجاته وبناته وأدواته ومحله الذي يأوي اليـه . فاذا ما اعتدى شخص آخر على هذا المكان الذي اتخذه مسكناً فإنه يقاتله ، وإذا استطاع فإنه يذبحه . وإن نظام القبيلة نما خـلال العصور ، وقد لاحظ « اتكنسن » في كتابه « القانون الأول » إن هـذا النظام نما بعد أن استقرت في نفس الرجل القـديم نزعة التساهل : التساهل في الإبقاء على الرجال الأصغر منه ، وفي حنه في زوجاته اللواتي يسلبهنّ من القبائل الأخرى ، وفي عدّته وحليه ، وفي صيده الذي يقنصه . وقد نما المجتمع البشري بتعاون أصحاب الأملاك بعضهم مع بعض ، وإن هذا التعاون

فرض نفسه على الانسان عند ظهور الحاجة الى التكاثف لدفع اعتداء القبائل الأخرى على المكان الذي يسكنه . فاذا لم تكن التلال والغابات والجداول ملكك ولم تكن ملكي ، فذلك لأنها ملكنا جميعاً . كل واحد منا يفضل أن يقول إن هذا ملكي ، ولكن هذا ليس هو العمل المنظم ، لأن الآخرين في هذه الحالة سيدمروننا . ولذلك فإن المجتمع منذ أن وجد عمل على التخفيف من الشعور بحق التملك . وإن غريزة التملك في الحيوان وفي الانسان الوحشي أشد قوة منها في الانسان المتمدين ، ولهذا فإننا نجد جذورها في عواطفنا لا في عقولنا .

ولم يكن في عصر الانسان المتوحش ولا في عصر الانسان المتمدين اليوم أي تحديد للملكية . فكل ما تستطيع الدفاع عنه فهو ملكك : نساء العشيرة ، الاحتياطي المذخور ، الحيوان المصطاد ، الكهف المحفور في الصخور ، الطريق المفتوح في الغابة . ولكن كلما نما المجتمع نمت معه أنواع من القوانين التي كانت تمنع القتال الشرس ، وتدفع الانسان أكثر وأكثر لاستصناع وسائل أكثر مثالية لاثبات ملكيته. وكان الناس يستطيعون أن يتملكوا كل ما يستطيعون صنعه أو القبض عليه أو الادعاء به ، وكان من الطبيعي في مثل هكذا نظام أن يصبح المدين الذي لا يقدر على الدفع ملكاً لدائنه . إلا أن فكرة الملكية التي لا تخضع لقيد ولا حد أخذت تتغير ببطء ، فكل التغيرات التي طرأت على أنظمة الحياة التي يخضع لها الانسان ، أخذت تهتز أسسها وتفقد ما كان لها من استقرار وثبات ، إن الناس وجدوا أنفسهم يولدون في أرض يملكونها جميعاً ، ويدعون بها كلهم ، ولم يولدوا في أرض يملكها كل واحد لنفسه ويدعي بها لذاته. وانه من الصعب تتبع آثار الانقلابات الاجتماعية في المدنيات القديمة ، ولكن تاريخ الجمهورية الرومانية يرينا بأن المجتمع قد استيقظ على فكرة أن الديون شيء مزعج للناس. ولذلك يجب أن تلغى وان عدم تحديد الملكية غير مقبول أيضاً وخاصة ملكية الأرض . كما أننا نشاهد بأن البابليين المتأخرين حددوا ، بكل صراحة ، تلك الحدود التي كانت للاسياد على العبيد بموجب فكرة الملكية . وأخيراً فاننا نجد في تعاليم يسوع الناصري مثل هذا الهجوم على الملكية بشكل لم يعرف من قبل ، فهو يصرح بأن دخول الجمل في سم

الابرة أسهل من دخول صاحب الأملاك الكبيرة الى الجنة . وقد توالت الهجمات بانتظام على فكرة الملكية الكبيرة في الخمسة والعشرين قرناً الأخيرة . واننا اليوم بعد ١٩٠٠ من تبشير المسيح نجد جميعنا بأن العالم يشهد حركة كبيرة لتحطيم الأسس التي تقوم عليها الملكية في الحياة البشرية . وان الفكرة الشائعة « بأن الانسان يستطيع أن يتصرف في ملكه كيفما يشاء » قد عانت هزة كبيرة بنفس القوة التي عانتها الأفكار الأخرى التي تسند فكرة الملكية .

إلاّ أن هذا العالم الذي وجد في ختام القرن التاسع عشر وقف موقف المتساءل في هذه القضية ، فلم يقدّم شيئاً كافياً أو يقرّ فكرة واضحة لتحديد المشكلة . وكانت أولى أهدافه حماية الملكية من جشع وفتك الملوك ، واستغلال النبلاء المجازفين ، وأولى عناية كبيرة لحماية الملكية الخاصة من الضرائب ابتدأت بفرضها الثورة الفرنسية ، إلاّ أن دستور الثورة الذي أقرّ المساواة فرض هذه الضرائب على الملكيات الكبيرة التي كانت الأفكار ترمي الى حمايتها . اذ كيف يمكن أن يصبح الناس أحراراً ومتساوين،وهناك العدد العديد منهم لايملكون أرضاً يسكنونها ، ولا شيئاً يأكلونه ،وإنّ المالكين لايطعمونهم ولا يسكنونهم ما لم يكدّوا ويتعبوا ؟ مما لا شك فيه إن هذا الوضع دفع بالفقراء الى الشكاة .

وكانت من أولى النتائج السياسية المهمة لهذه الأوضاع ظهور جماعة جديدة وقفت في جبهة واحدة وأخذت تطالب بتعميم الملكية ، وكانت تهدف من وراء غايتها ، وبطريق آخر ، نتيجة أخرى . فعرف الناس ، بظهور هؤلاء ، جماعة الاشتراكيين المتطرفين — أو بعبارة أكثر تحديداً الشيوعيين الذين كانوا يدعون الى « الغاء » الملكية الخاصة إلغاء تامّـا وتمليك الدولة كل المرافق العامة .

* * *

وكان من الأمور المتناقضة أن نجد أناساً آخرين يبحثون عن الحرية والسعادة ، وهما الغايتان اللتان كان يبحث عنهما غيرهم بوسائلهم الخاصة ، فيقترحون من ناحية جعل الملكية

مطلقة بقدر الامكان وتعيين غاية لجميع الملكيات من ناحية أخرى. وإننا نجد تفسيراً لهذا التناقض اذا ما عرفنا أن الملكية ليست شيئاً واحداً، بل هي أشياء مختلفة متباينة .

* * *

وعندما تطوّرت الحياة في القرن التاسع عشر أخذ النّاس فقط يدركون بأن الملكية ليست شيئاً بسيطاً، بل شيئاً معقّداً تختلط فيه قيم مختلفة وتنبعث منه آثار متنوعة . فهناك أشياء متعدّدة (كجسم الانسان ، وأدوات الفنان ، والملابس ، وفرش الانسان) تعتبر من الأملاك الشخصية التي لا يمكن سلبها . كما أن هناك أصنافاً كثيرة من الأشياء – كالسكك الحديدية ، والآلات المختلفة الأنواع ، والبيوت ، والأراضي الزراعية ، وزوارق النزهة ، وغير ذلك — تحتاج الى أن يوضع لكل منها تصميم يبين الى أي مدى وتحت أية قيود تدار ، اذا كانت ملكية خاصة ، والى أي درجة دخلت في عداد أملاك الدولة العامة ، وكيف يمكن إدارتها واستغلالها من قبل الدولة لتحقيق المنفعة الاجتماعية . وفي ميدان الحياة العملية أثرت هذه المشاكل في الأفكار السياسية ، وتطرّقت البحوث الى قضية مقدار كفاءة الدولة في الادارة . وقد فتحت هذه المشاكل الطريق لظهور مشاكل أخرى تتعلق بالنفسية الاجتماعية واتجاهات علم التربية . ومع ذلك ، والى هذا الحين ، كانت القوى التي تناوىء الملكية لا تزال تعتمد على العاطفة أكثر من اعتمادها على العلم .

فكان يقف في طرف الفرديون الذين يدعون إلى حماية وتوسيع حرياتنا المقررة على ما نملكه ، ويقف في الطرف الآخر الاشتراكيون الذين يرمون على اختلاف نزعاتهم الى تقييد الملكية والى تقليل حقوقنا المنبعثة من تملكنا للاشياء . وأما في ميدان العمل فنجد على الدوام دعاة معتدلين يقفون بين الفرديين المتطرفين الذين لا يسمحون إلاّ نادراً في فرض الضرائب لمساعدة الدولة ، والشيوعيين الذين ينكرون أية ملكية على الاطلاق . ان النظام الاشتراكي كما هو متعارف اليوم ، والذي يدعى بالجماعي يسمح ببقاء الملكية الخاصة بقدر معقول، ولكنه يدعو الى أن تتملك السلطة العليا في الدولة المرافق العامّة

تعليم والنقل والمناجم إلى استملاك الأراضي والاشراف على إنتاج الآلات الثقيلة
ا شابه ذلك.

* * *

وإننا نشاهد اليوم تقدماً مطرداً واتجاهاً واضحاً نحو دراسة الاشتراكية واقامتها
أسس علمية . لقد غدا أمراً مفهوماً وواضحاً أن الانسان البدائي الأول لم يتعاون مع
اء جنسه في المهام الاجتماعية الكبيرة ، ولهذا ظهر بأن كل خطوة يراد انجازها في سبيل
ء أسس دولة متشابكة المصالح، وإن كل طريقة تنتهجها الدولة لتضع يدها على المشروعات
اصة ، تحتاجان الى نشر التعليم وتحسين توجيه الرقابة والإدارة. إن الصحافة والأساليب
بوية في الدولة الحديثة لا تزال جميعها بعيدة من أن تتلاءم وهذا الاتساع الكبير في
ادين النشاط الاجتماعي .

ولكن بعد مضي فترة من الزمن أدّى التعارض بين مصلحة المستخدِم ومصلحة
ستخدَم وعلى الأخص بين مصالح أرباب العمل الانانيين ومصالح العمال الناقمين ، الى انتشار
نف عنيف بدائي من أصناف الشيوعية في أنحاء العالم ، وهو الصنف الذي اقترن باسم
كس . لقد بنى ماركس نظرياته على أساس الاعتقاد بأن أفكار الناس تتجدد وفق
جياتهم الضرورية . وهكذا فإن هناك عقبة كأداء في المدنيات الحديثة تحول دون
نيق الرفاه لكافة الطبقات العاملة بله الكتلة الجماهيرية بصورة عامة . ونظراً للتقدم الذي
سل في ميدان التعليم والذي جاء في أثر الثورة الميكانيكية ، فان الأغلبية العظمى من
ال ستغدو طبقة واعية وستصبح أكثر عداء (ولا ننسى انها طبقة واعية) للأقلية
اكمة . وبطريقة معينة ستستولى هذه الطبقة العاملة الواعية على السلطة ، كما يتنبأ ماركس
تدشن عهد دولة اجتماعية جديدة . إن العداء ، وان العصيان ، وان الثورة المتوقعة ،
ياء يمكن فهمها فهماً كافياً ، إلاّ انها سوف لا تؤدي الى اقامة دولة اجتماعية جديدة أو
ذلك ، بل ستلد عملية هدم اجتماعية فحسب . والتجربة الروسية كما نشاهدها اليوم أثبتت
ورة قاطعة ان الماركسية حركة غير منتجة .

لقد عمل ماركس على احلال الخصام الدولي مكان الخصام الطبقي ، ولذلك أنتج الماركسية على التوالي : الدولية الأولى ، والدولية الثانية ، والدولية الثالثة . ولكن نظرنا من النقطة التي ابتدأت منها فكرة الفردية الحديثة فيمكننا أن نحصل على نه الافكار الدولية . فمنذ أيام الاقتصادي الانكليزي الكبير آدم سمث والاتجاهات العا تعمل دائبة لتوجيه الأذهان نحو الحقيقة القائلة بأنه لا يمكن تحقيق الرفاه العالمي .إ تعميم الحرية ، ورفع القيود التجارية . إن الفرديين بكراهيتهم للدولة كرهوا التعريف الكمركية ، وشجبوا عراقيل الحدود ، وهاجموا كل أنواع التقييدات التي توضع لتضييق فكرة الحرية في المعاملات . ومن الممتع أن نرى اتجاهين فكريين ، متناقضين في روحه مختلفين في جوهرها ، في مثل تلك الدرجة من التناقض والاختلاف التي عليها الأمر الحرب الطبقية الاجتماعية التي يبشر بها الماركسيون ، وبين الحرية التجارية التي دعا ال الفرديون من فلاسفة العصر الفيكتوري ، نقول من الممتع أن نراها يتلاقيان في الن في الدعوة الى غايات مشتركة ترمي الى تحقيق التعاون العالمي في مختلف الشؤون الانسانية ! أي أعتبار للتحديدات والتقييدات التي يفرضها وجود الدولة . وان القياس في م المواضيع متروك للإنجازات والانتصارات الواقعية أكثر من كونه ضد المسائل النظر

* * *

ولهذا أخذنا نحس بأنه رغم هذا الاختلاف الواسع بين المذهب الفردي والمذ الاشتراكي ، فانهما قسم من اتجاه عام ، اتجاه للبحث عن مجتمع أكثر رحابة وسعة ، و آراء وتأويلات سياسية لاختيار السبل التي تجمع الناس سوية للعمل مشتركين متعاوني وإن هذا الاتجاه ابتدأ ثانية في أوروبا وقوّاه إيمان الانسان بمثل الامبراطورية الروم المقدّسة وحثه عليه انحلال المسيحية ، ثم ازداد نمواً على نمو عندما بزغ عصر الاستكش الذي تطلع منه الانسان الى آفاق جديدة . . . آفاق تمتد الى أبعد من شواطئ البحر المتو لتضم العالم الواسع بأسره .

فؤاد طرزي

إليكِ

أزجيتُ كلَّ الأغاني إليكِ . . . لا للغواني
فأنتِ كلُّ الأماني
يا جنتي ، يا بلادي

***

إن غبتُ عنكِ ، يغيبُ جسمي ، وروحي قريبُ
مبادرٌ ، مستجيبُ
لما تُريد بلادي

***

عشقتُ منكِ الضفافا والريفَ ، والصفصافا
والنيلَ بالرزق وافى
يا جنتي ، يا بلادي

***

أحببتُ فيكِ الرمالا والعشبَ والصلصالا
والنبتَ يزهو جمالا
في جنتي وبلادي

***

يا ما أُحيلى السواقي نُثارةَ الأشـواقِ

مطـــاولةَ الآماقِ
تروي جنان بلادي

***

النيلُ فيضٌ عميمٌ والريفُ زرعٌ كريمٌ
والمجدُ رمزٌ قديمُ
لجنـــتي وبلادي

***

أبناؤكِ الصيدُ هاموا بالحسن فيكِ ، فقاموا
وأقسموا : لن يناموا
حتى تسودي : بلادي !

***

يا قِبلتي في سجودي يا غايتي ، يا وجودي
اللهُ قد قال : سودي
يا جنتي ، يا بلادي

***

لبَّيك يا نور عيني قد دِنـتِـنِـي أيَّ دينِ
فإن أتى اليوم حيْـني
هتفتُ : تحيا بلادي

مختار الوكيل

سلامة موسى

دعامة قوية من دعائم الفكر العربي

سلامة موسى مفخرة من مفاخر الفكر العربي المعاصر بلا ريب ، ونجم لامع من نجوم الحضارة في الشرق . ويوم تؤرخ هذه الفترة من أدبنا العربي المعاصر سيذكر فيها اسم سلامة موسى في مجال التكريم والتبريز . بل سيتقدّم اسمه على أسماء كثيرة لمعت وتلمع بفعل الأضواء التي سلطت عليها من هنا وهناك .

هـذا أديب عصامي يعترف في تواضع ، ومباهاة ، بأنه لم يفلح في المدارس المصرية ، وليست العلّـة علّـته ، بل اللوم واقع على النظم العقيمة التي كانت تطبق في التربية منذ خمسة وأربعين عاماً ، واللوم مصبوب على الاستعمار الأجنبي والاستبداد الفكري الذي عمد على الدوام إلى كبت الرأي وإقصاء أبناء الوطن عن نور المعرفة الحقّـة .

إنه أديب وقف حياته على الإرشاد والتقويم بطريقته الخاصة ، فظلّ يكافح الاستعمار في جميع صوره ، وظلّ ينافح الاحتـلال ما وسعته الحيلة وما أسعفته القريحة والحجة ، وظلّ يمسك المشعل دأباً لإفساح السبيل أمام الشباب وصغار السن .

نقّـادة جريء مفحم ، ولذلك يلجأ منازلوه إلى التطاول والتهجم ، ولـكنه كرجل درّب نفسه على المنهاج العلمي ، يأبى أن ينحدر الى درك اللجاجة الوضيعة ، ويظهر استعلاءً على المطاعن التي يستهدف لها ، فيرد الشتيمة بالصمت ، ويجيب على الاهانة بابتسامة فيها معنى الزراية والاحتقار . وقد رماه معاصروه بكل مثلبة ونقيصة ، وسجلوا عليه أحكاماً مجحفة قاسية ، ولـكن سلامة موسى ظلّ كما هو ، رجل فـكر ، ورجل رأي ، ورجل عقيدة ، وظلّ أديباً يتعاطى العلم فيخضد شوكته ، وفيلسوفاً يشيع مذاهب الفلاسفة بين العامّـة ، وبقي دعامة تستند اليها النهضة الفـكرية المصرية العربية ، تذكر له فضله خمساً وأربعين سنةً طوالاً على الأدب .

سلامة موسى من أسرة ذات يسار وذات جاه ، ولكنه آثر أن يبيع أرضه ويتخلى عن جاهه ليقدم لأبنائه ومواطنيه زاداً فكريّاً وأدباً خالصاً منتقى . وأصبح سلامة موسى اليوم فقيراً يقتات من عرق جبين شيخوخته ، بينما غيره ينعمون في ألبسة من البزّ يكادون لولا الروح التي تدبّ فيهم ، يُعدّون أمواتاً .

سلامة موسى من أساطين المجددين في اللغة العربية ، ومن فحول المبتدعين لكلمات وعبارات وألفاظ جرت على الألسنة جريان الماء في الوادي ، وهو من أعلام المترجمين المبسّرين والمبسّطين لأنه ينشد أن يجعل العلم والأدب والثقافة مشاعة للجميع : للفلاح في قريته ولطالب الجامعة وللموظف . وجميع كتابات سلامة موسى منشّطة للذهن ، باعثة على التفكير ، دافعة الى الحركة ، حاثّة على الانفعال ، لأنه يكتب لأحياء لا لأموات ، ويريد دائماً أن يكون في الطليعة وأن يبقى في الطليعة على الدوام .

ولسلامة موسى نحو أربعين مؤلَّفاً ، قرأت معظمها وأنا بسبيل قراءة بقيتها . وأقسم أنه ما من كتابٍ إلاّ زادني معرفة وغذّاني بفيض غامرٍ من الآداب الرفيعة، وأطلعني على آفاق ربما ظلّت محجوبة زماناً طويلاً ، وله بذلك عليّ ، فضل لا ينكر ، فضل الأستاذ الموجِّه ، والمعلّم الناصح ، والأب المجرّب ، والأخ الوفي ، والصديق الصدوق . وليس هذا شعوري وحدي ، بل هو شعور كثيرين ممن يصرفون معظم وقتهم في المطالعة والتلاوة ، أولئك الذين يبحثون اليوم عن مفاخر الفكر فلا يجدون إلاّ كلاماً مرصوصاً وعبارات مسجوعة مترادفة ، وآراء غثّة لا تشبع ولا تروي . واذا كان لكل كاتب مدرسة ، فان المدرسة الأولى للدكتور طه حسين بك بلا منازع ، والمدرسة الثانية منسوبة للأستاذ سلامة موسى بغير شك . ومن شاء أن يقول غير ذلك فهو مغالط لنفسه قبل أن يغالط الحقيقة والتاريخ .

وسلامة موسى كاتب يعرف قدر نفسه ، بل لعله من أقدر الكتّاب معرفة لقدر النفس وما ذلك إلاّ لمجاهرته بالرأي في غير خجل ولا وجل ، وحرصه على أن يكون كل ما يكتبه منطوياً على جوهرٍ ثمين ، فهو لا يعرف السوقية ، ولا يعرف العربدة الفكرية ، ولا يعرف الصفاقة الأدبية ، ولا يعرف الدعارة الذهنية . ومن أسف ان هذه المذاهب جميعاً لها اليوم

مروّجون ودعاة، ولها أعلام تحمل اقلاماً وتكتب باسم الفن واسم الأدب واسم الصحافة. ولو لم يكن سلامة موسى يعرف قدر نفسه، لرأيناه يكتب عن غراميات الساقطات بدلاً من أن يكتب عن «جيته» ، ولقرأنا له مقالات خسيسة كالتي تزخر بها منشورات دور الطباعة كل يوم. ولكن هذا المفكر الحر الأبي حريص على سمعته الأدبية وعلى جاهه العلمي وعلى خلق المربي ، فلا يبيع نفسه وقلمه بثمن بخس .

إن سلامة موسى مفخرة خمسة أجيال في تاريخ مصر ، وسيضيف خلفاؤنا الى تلك الأجيال أجيالاً أخرى كثيرة ، لأنه أديب مبتدع ، وصحفي موجه ، وعالم مكين، ومفكر ممتاز . وحسبي أن أذكر في هذا الصدد أمرين أولهما : انني كنت أقدّم الأستاذ سلامة موسى للصديق الكبير الراحل المغفور له الدكتور سيد حسين سفير الهند في القاهرة ، فجلسنا سوية قرابة ثلاث ساعات طرقنا فيها من ألوان الحديث صنوفاً متباينة متباعدة ، بين فلسفة وتاريخ وأدب ودين واجتماع وسياسة . ولما حان وقت الانصراف أعرب السفير الفيلسوف عن إعجابه الكبير بسلامة موسى وتقديره لكفاءاته واستعداداته وذهنه الواعي المتفتح الكثير المسام .

والأمر الثاني أن مكتبة الكنغرس الاميركي رأت أن تترجم الى اللغة الانجليزية أنفس الكتب المعبرة المعاصرة في آداب العالم الحديثة . وكان في طليعة المؤلفات المصرية التي اختارتها للترجمة كتاب «تربية سلامة موسى» الذي سرد فيه سلامة موسى تاريخ حياته وعوامل تكوين شخصيته مع اشارة الى ظلال التاريخ القومي في بلاده ، وقال الذين يهيمنون على ترجمة هذا السفر إنه كاف لأن يخلد اسم صاحبه في سجل الخلود .

فسلامة موسى لم يعرف الثقافة المهوّشة ، ولا لقف ثقافته من المعلومات المبعثرة ، ولا ترك سواه من الأدباء يقفزون سلم المجد الأدبي ويخلفونه على الأرض . إنه يسير الى الأمام، وخطاه ثابتة وثقافته تزداد اتساعاً ، وماضيه يزداد مجداً ، غير عابئ بما يقال عنه مدحاً أو قدحاً . فهو رجل يعيش حياة بسيطة لا يستهويه مال فان ، ولا يطمع في ثراء أو جاه . حسبه انه يؤدي لوطنه جزية من عصارة فؤاده ، وحسبه انه وهو في الستين من عمره لا يزال يكتب ويفكر ويناقش كابن الثلاثين أو الاربعين .

وديع فلسطين

أريد زوجا أعبده

هذه قصة ليست مصرية . ولكن يجدر بالفتى والفتاة المصريين أن يجعلاها مصرية . جميع وقائعها حقيقية ولكنها غير مرتبة ترتيباً تاريخيّـا . هي عبرة لمن يعتبر .

ويلبور ريط ودورا دورثي من دايتون من ولاية أوهايو الأميركية ، كانا جنباً الى جنب في الثقافة الأولية في الكلية . وكانا فرسي رهان في النبوغ والنجاح الى أن تأهّـبا للدراسة العليا : ويلبور للهندسة ودورا للطب . كلاهما لم يتمّا العقد الثاني من العمر بعد .

فتىً وفتاة احتكّـا في أول الشباب فلا بدّ أن يقدح الاحتكاك شرر الحب . قال ويلبور ريط في أواخر أيام الدراسة في الكلية : ألا ترين يادورا انه يجب أن نتعاهد على الزواج قبل ان نفترق : أنتِ للطب وأنا للهندسة لكيلا يذهب حب الصبا سدى ، ولا نلاقي بعده مثله .

فرمقته دورا بجانب نظرها وقالت : حقٌّ ما تقول ولكني لا أخفي عليك أني أريد زوجاً أعبده .

فضحك ويلبور وقال : لعلك تريدين عجل هارون الذهبي الذي عبده بنو اسرائيل في سفح جبل سينا . أعاهدك أني في بضع سنين يكون عندي من الذهب ما يسبك عشرة عجول كعجل هارون .

فقهقهت قائلةً : خبتَ ظنّـا . لا أعبد المال بل العظمة أعبد . أريد زوجاً عظيماً .

— ما هي العظمة التي تعبدين ؟ فهناك عظمة الغنى وعظمة الجاه وعظمة المنصب و ...

فقاطعته قائلةً : لا . لا . مثل ركفلر كثيرون ، ومثل البرنس اف ويلس عديدون، ومثل مكنلي رؤساء جمهورية سابقون ولاحقون . أريد زوجاً متفرّداً بعظمته .

— عجباً . إذن ما هي العظمة التي تعنين .

— عظمة القوة .

— هذه كلمة مبهمة . الأسد قوي . والحوت قوي . وجليات الجبار قوي .

فضحكت هازئة : بئس ما تفهم . بسمرك أقوى من جميع الأسود والحيتان . ودب واحدٌ يصرعهُ . ولكن أوربا كلها كانت ترتعد فرقاً من دهائهِ .

— آ . . فهمت . تريدين عظيماً في السياسة .

— عظماء السياسة سلسلة في التاريخ لا تنقطع . أريد عظيماً لا عظيم مثله : سياسيًّا ماليًّا جباراً عفريتاً شيطاناً لا يهمني . أريد عظيماً يسحرني ويستعبدني والسلام .

فأطرق ويلبور هنيهةً ثم قال : فهمت : تريدين عبقريًّا نابغاً بشيء لم يسبقه إليه أحدٌ ولا يلحقه بهِ أحدٌ .

— قاربت أن تفهم قصدي . ولكن هذا لا يكفي . فقد يكون عبقريًّا في العلم أو في الشعر أو في الفن . ولكن العباقرة في هذه كثيرون يمرون في التاريخ مرور الشهاب في الجوّ العافي ثم ينطفئ .

— أوه .. فهمت . فهمت تريدين شهرة تملأ الآفاق والأجيال .

— ليس هذا فقط . ليس في العالم الآن أشهر من تشارلي تشبلن الممثل الهزلي السينمائي هذه شهرة سخيفة تمرُّ مرَّ السحاب . ثم تنقضي أريد شهرة مجيدة أبدية .

— آ . آ .. فهمت . تريدين إلهاً تعبدينه .

— أي نعم . إلهاً أرضيًّا عظيم الطموح لا نهاية لطموحه . عظيم المطامع ولا حدود لمطامعه .

— لبَّيكِ . مهلاً أربع سنين الى أن أتم دراسة الهندسة هل تصبرين ؟

— أصبر رغم أنفي لأن السنين الأربع تستغرق كل صبري على دراسة الطب والمران على التطبيب .

* * *

ما انقطعت الصلات بين ويلبور ودورا . وكانا يتقابلان أو يتكاتبان . هو نبغ في الهندسة . وهي نبغت في الطب . هو توظف في شركة كارنيجي الحديدية وهي في مستشفى سنسناتي .

في ذات يوم ورد الى دورا خطاب من ويلبور يدعوها فيه الى حفلة افتتاح الجسر (الكوبري) العظيم الذي بناه فوق وادٍ عميق في داكوتا . فما ترددت دورا أن أسرعت الى المكان حيث رحب بها ويلبور وصحبه من لجنة الاحتفال . ودهشت إذ رأت جسراً منبطحاً من ظهر جبل الى ظهر جبل آخر ، وبينهما وادٍ نحو كيلومتر فضاء على عمق نصف كيلومتر ، كأنَّ زلزالاً شقَّ الجبل شقين فحدث بين شقيه هاوية طويلة لا يمكن عبورها . فكان المسافرون يضطرون أن يسيروا على ظهر الجبل الواحد مسافة أميال الى أن ينثنوا الى الجبل الآخر عند اتصال الجبلين . فهذا الجسر اختصر المسافة بضعة عشر ميلاً

فلما رأت دورا ذلك الجسر وهو قائم على صقالات حديدية مندغمة في بطني الجبلين من هنا وهناك والمركبات الضخمة تمر عليه وهو لا يترنح ، دهشت وقالت بعد صمت طويل :

« مرحى مرحى يا ويلبور . ولكن هل رأيت جسر بروكان العظيم فوق النهر الشرقي

فابتسم ويلبور وقال : أذلك أعظم من هذا ؟ هذا كيلومتر بين الجبلين وذاك نصف كيلومتر بين ركيزتيه . وهذا نصف كيلومتر فوق الهاوية وذاك ربع كيلومتر فوق الماء .

— ولكن على ذاك تسير القطرات الحديدية متتابعة بلا انقطاع .

— إذا كثر المارَّة على هذا أضفنا اليه مثله أعرض منه لإنشاء خطوط حديدية عليه .

— لا أبخسك حقك يا عزيزي فهو جسر عظيم . ولكن في الدنيا عظائم أعظم . هل رأيت برج ايفل !

— سمعت به ورأيت صورته

فقالت متدللة : وهل كنت تطلع على المجلة الطبية ؟ ...

— نعم نعم قرأت عن عمليتك العجيبة في استئصال سرطان من تحت اللسان من غير أن تخرقي مؤخر الفك الأسفل — حقاً انه لعمل عظيم

فقالت خازرة العينين : ترى هل تحدَّث العالم عن جسرك أكثر مما تحدَّث عن عمليتي الجراحية .

فهزَّ ويلبور رأسه وقال : هذا الجسر أول عمل من أعمالي وفي المستقبل القريب سيكون لي عمل أعظم . فإن شركة سكة حديد بنسلفانيا ستنشىء محطة عظيمة في نيويورك عند

منها نفقٌ تحت نهر الهدسن الى نيوجرسي يكون طوله نحو خمسة أميال . فهذا الجسر الذي ترين الآن إنما هو شهادة لي عند الشركة بأني كفء لإنشاء المحطة وحفر النفق العظيم الذي ستمر فيه ٤ أو ٦ أزواج من الخطوط الحديدية . وسيكون أعجوبة العالم . فصبراً .

— أدعو لك بالنجاح لكي أعبدك.

***

بعد فترة من الزمن احتفلت شركة سكة بنسلفانيا الحديدية بافتتاح محطتها الجديدة العظمى في نيويورك وبافتتاح النفق العجيب تحت نهر الهدسن العميق العريض هناك عند مصبه في الاقيانوس الاطلسي . وملأ المحتفلون العديدون قطاراً عظيماً عديد المركبات . فدرج بهم من المحطة التي لا تسعها بقعة الأزبكية والعتبة الخضراء وساحة الأوبرا في القاهرة . وهي تسفل عن مستوى سطح الارض تحت بطن النهر نحو ١٥ متراً لكيلا يكون الانحدار في النفق محسوساً على مدى بضعة أميال .

ودرج بهم القطار الطويل بربع سرعته المعتادة لكي يشاهدوا النفق جيداً . وكان النفق مضاءً كأنه في ضوء النهار . وكانت دورا الى جنب ويلبور ريط الذي تولى عملية انشاء المحطة وحفر النفق ، وهما صامتان ، ودورا تلتفت الى هنا وهناك الى أن راعها تباطؤ القطار حتى صار أبطأ من سلحفاة . فقالت . ويحي . هل حدث حادثٌ فاجع يا ويلبور حتى أخذ القطار يتوقف ؟ فقهقه ويلبور قائلاً : لا تخافي يا عزيزتي . يسير القطار ببطء كي لكي يشاهد المحتفلون اتصال شطري النفق

— ما ذا تعني بشطري النفق

أعني بشطريه كشطري بيت من الشعر يتصل المعنى بينهما ... ان الشركة اشترطت أن يتم النفق في مدة معينة قصيرة . ولكي أضمن إتمامه في الميعاد شرعت في حفره من الجانبين — من نيويورك ومن نيوجرسي في وقت واحد - فهزىء بي زملائي المهندسون حتى خولهم . وقالوا إنه مهما كان الرصد دقيقاً فلا يلتقي شطرا النفق في مكان واحد . ولا بدَّ أن يشرد كلٌّ منهما عن الملتقى . وكانوا ينذرون الشركة بالخسارة الفادحة في هذا

العمل الذي كانوا ينعتونه « بالعمل الأرعن » . هه لقد قاربت مركبتنا ملتقى شطري النفق فانظري .

ونظرت دورا حيث أشار ويلبور فاذا المصابيح الكهربائية هنـاك أسطع من سائر مصابيح النفق . تضيء ذلك المكان إضاءة ممتازة . ودهشت إذ رأت أن الشطر الواحد يشذ عن الشطر الآخر نصف قدم فقط . أي أن هنـاك بين الجدارين المتصلين تفاوتاً . وبقيت مبهوتة الى أن بعُـد القطار عن المكان فالتفتت الى ويلبور وقالت : — « مدهش » ولطمت خده بقبلة سُـمعت فرقعتهـا في المركبة والتفت النظّـار الذين سمعتهم يقولون : حقّـا إنه لعمل مدهش . ماذا يقول المستهزئون الآن

وأجاب ويلبور على هذا السؤال : ألفت نظر حضراتكم الى أننا نحن الآن تحت ١٥ يردة من قعر نهر الهدسن وتحت سطح الماء خمسين يردة . فما شذّ حفر الشطرين لا سمتيّـا ولا أفقيّـا أكثر من نصف قدم والخط تام الاستقامة كما ترون .

***

لما انتهت الحفلة وعادوا الى المقصف قالت دورا : لو لم تسبق أنفاقٌ كثيرة هذا النفق لقلت أنه العمل الأعظم الفذ الذي لامثيل له .

فضحك ويلبور وقال : لا أنكر أن عمليتك الجراحية التي أُحييتِ بهـا الميت عملية فذّة لم تُـسبق . كيف نجحت بها .

فتمايلت دورا إعجاباً ودلالاً وقالت : كنت أبحث عن رصاصة المجرم التي رأيتها بأشعة رنتجن تحت عين قلب المصاب . واذا بنبض قلب المصاب قد وقف وتنفسه انقطع . فانتهرت مُـنشّـق البنج بسخطٍ . فحاول تحميس الصدر باللطم فلم ينجح . فأسرعت وأعملت المشراط لشق طريق كفي الى القلب وجعلت أضغط بقبضتي على التجويفين بالتناوب لـكي يعود القلب الى خفقانه . وفي بضع دقائق عاد يخفق وعاد الصـدر يصوّب ويصعّـد . وانتظم التنفس ثمَّ عدت الى اتمام العملية واستخرجت الرصاصة . ثم لأمت الجروح .

— لا ريب أنكِ طرتِ فرحاً ومشيتِ مرحاً

— لا . لأني خفت أن يتعفن الجرح بسبب أني فيما كنت أخيطه سقطت فيـه من حاجبي قطرة عرق .

أوه . لا تخافي . ان عرقك لأطهر من دم ذلك الجريح . وقد شفي والحمد لله وطنطنت الجرائد بعمليتك العجيبة . هـذا عمل فذّ حقيقة لم يُسبق إليه . أنت أصبحت المعبودة .

— مثل هذا أريد منك فأعبدك

فتململ ويلبور باسماً وقال : حتى متى تطوّحين بي .

— حتى يبلغ طموحك الى حدّ يعز على غيرك البلوغ اليه .

٭٭٭

ما مضت أشهرٌ على هذا الحادث حتى طنطنت الجرائد بأن مسألة الطيران قد انحلت إذ توفق الأخوان ويلبور وأورفيل رَيط من دايتون الى اختراع جهاز أثقل من الهواء يندفع في الهواء بقوّة محرّك يدير مراوح دوراناً سريعاً . وإنهما قد طارا في هـذه الطائرة بعض أميال في بضع دقائق . واستغربت دورا أن ويلبور لم يعد يتصل بها لا مكاتبة ولا مقابلة. فقالت بنفسها ان ويلبور لما طفق ينجح طفق « ينقل » . « عرف الحبيب مقامه فتدللا » فصبرت على مضض .

وكان المحامي اسبورن الشهير صديقاً لويلبور رايط فجاءه في تلك الأثناء وقال له : هل علمت أن شخصاً يدعى ستنفورد قدّم الى مكتب تسجيل الاختراعات عريضة يطلب فيها تسجيل اختراع طيارة باسمه

فبغت ويلبور وقال : كيف ذلك

— أبلغني مدير مكتب التسجيل أن ستنفورد هذا قدّم مع العريضة رسم الطيارة ونموذجاً صغيراً لها وذكر أن عنده الطيارة طبق هذا النموذج . أفما طلبت أنت تسجيل اختراعك .

— لا . لأني لا أود أن أحتكر استغلال شيء نافع للعالم . أما ستنفورد هذا فقد اختلس اختراعي بلا شك اختلاساً لأنه كان يطلع عليه بصفة كونه مهندساً ميكانيكيًّا وصانعاً ميكانيكيًّا موظفاً عندي . وقد صنع معظم أدواته حسب التعليمات التي كنت أمليها عليه .

— إذن فقـد أهملت أنت فضلك وحقك في اختراعك لـكي لا تحتكر نفعه فتولاه

غيرك ليحتكر نفعه لنفسه . وقد علمت أن فتىً من بيت هنز ملك النحاس اتفق مع ستنفورد على تأليف شركة لاستغلال الاختراع . وهينز هذا يموّل المشروع . وأنت خاسر حق الاسم وحق الشهرة وحق الاستغلال . ولم يعد لك حق بأن تستعمل طيارتك لأنها لم تصنع بمصنع ستنفورد وهينز

— لله منه لصاً . ما خطر لي أن ملاطفته لي كانت حيلة لسرقة الاختراع . فما رأيك .

— دعه لي فأنا أقاضيه وأزجه في السجن لصاً وابتز منه غرامة سارقاً .

ورفع اسبورن قضية على ستنفورد وهينز وأثبت أن طيارتهما مقتبسة من نفس طيارة ويلبور رايط . وزجهما في السجن وما خرجا الاّ بكفالة ريثما يصدر الحكم بالقضية .

وكانت دورا تقرأ كل يوم بعد آخر شيئاً عن تقدّم الطيران حتى قيل أن ويلبور رايط سيعبر أميركا من نيويورك الى كاليفورنيا بطائرته . فجن جنونها لأن ويلبور أغفلها . فكتبت اليه تطلب منه أن تصحبه في رحلته هذه الجوية . فردّ عليها بأنه كان يود أن يصطحبها لولا مخافة الخطر عليها من هذا الطيران الرهيب .

وما مضت مدة حتى طنطنت الجرائد بعبور لندبرج الأوقيانوس الأطلسي من نيويورك الى باريس . وكان ويلبور لما يرحل بعد رحلته المذكورة . فكتبت دورا اليه لتكاشفه انها تواقة الى الطيران الطويل المدى . ولذلك ستكتب الى لندبرج أن يصطحبها معه في رحلته الثانية .

* * *

وما لبثا أن اجتمعا مشتاقين فقالت : لله منك . اتدع لندبرج يتفوّق عليك بالطيران.

فابتسم ويلبور وقال : ليس لندبرج الذي عبر الاتلانتيك ياعزيزتي بل الطيارة التي اخترعتها أنا هي التي عبرته . سترين الف لندبرج يتفوقون عليه . لندبرج عبر الاتلانتيك في ٣٨ ساعة وسترين من يعبره في ١٩ ساعة ومعه ركاب وأحمال وأثقال . فهلاً

وكانت دورا تسمع صامتة مبهوتة. فقال لها أنمدين هذا الاختراع فدًى أم تريدين مني أنفذ منه ؟

— ماذا تقول بالمنطاد ؟

المنطاد أخف من الهواء وهو سلحفاة الجو . أما طائرتي فأثقل من الهواء وأسرع من الريح وسماشي الشمس فوق سطح الأرض . تسبح بك الظهر ويبقى الوقت ظهراً فوق رأسك حتى تعودين الى حيث قمت .

— حقاً إنه لإختراع عجيب وانه سيخلد اسمك وشهرتك . ولكن ألا ترى أن اللاسلكي أعجب منه وأعظم شأناً .

— من اخترع اللاسلكي

— ماركوني

— لا . اشترك في اختراع اللاسلكي كثيرون أظهرهم في اختراعه ثلاثة ، فاراداي الذي كان أول من قال بالأمواج الكهرطيسية . ثم السير اوليفر لدج الذي كان يدرب ماركوني . وما كان ماركوني الا تاجراً بالعلم . فالسير اوليفر لدج استنبط . وماركوني تاجر . ولو كان السير اوليفر لدج يحب المال دون العلم لكانت شركة ماركوني الآن تسمى شركة اوليفر لدج . فاللاسلكي اخترعه ثلاثة أشخاص على الأقل في ثلاثة أزمنة وفي ثلاثة أمكنة . أما طيارة ريط فاخترعها شخص واحد في زمن واحد وفي مكان واحد (أخي اورفيل كان مساعدي في العمل الميكانيكي) .

بقيت دورا برهة تفكر صامتة الى أن قالت : ألا يمكن أن يزاد على طائرتك شيء آخر أعجب وأعظم اختراعاً .

— يمكن التحسين طبعاً . ولكن يبقى الطيران طيراناً كما اخترعته . وقد لاحت لي أفكار أخرى بشأن استعمال الطيران ولكنها أفكار تقض مضجعي .

فأجفلت دورا وقالت : كيف . ماذا ؟

— لاح لي أن تستعمل الطائرة في الحرب لالقاء القنابل لدك المدن وتدمير العمران وافناء الانسان . فيتحول اختراعي هذا من نعمة الى نقمة . وقد يتمادى الميكانيكي الشرير بأن يصنع قنبلة ضخمة مجنحة كطائرتي يقذف بها محرك كالسهم المارق الى حيث يسددها القاذف فتندفع وحدها بلا سائق . والويل للعالم اذا جعلت طائرتي عاملاً من عوامل الشر حينذاك ينقرض الجنس البشري . ألا يفزعني هذا التخيل ؟ .

فربتت دورا على خده باسمة وقالت : لا تجزع يا عزيزي . ليست طائرتك التي تقوض العالم بل العالم الشرير يستخدمها لتقويض نفسه . وذلك خير عقاب له جزاء لشره . ولكن قل لي . ألا يمكن أن يقوم اختراع أعظم شأناً من الطيران .

— قولي لي . ماذا يمكن أن يخترع بعد فأتطوع له ؟ أتفكرين أني أسافر الى المريخ ؟

— لا أدري ماذا في عالم الغيب .

— ان ظهر اختراع أعظم افتجحدينني وتعبدين المخترع الآخر، فاندفعت اليه وعانقته وأمطرت على خديه القبلات وقالت : اكتفيت بهذه العبقرية الخالدة والشهرة المجيدة . ان اسم ريط سيبقى متردداً في الآفاق والأزمان مدى الدوران . هذه هي العظمة التي أعبدها. بقي لي أن أسألك هل كنت تعرف ان ستنفورد شريك هينز هو ابن خالتي ؟

— كلا لم أكن أعرف ذلك . وسواء عرفت أو لم أعرف فاطمئني . لقد بذلت كل جهدي في أن أنقذه من ورطة حمقه ولؤمه . لقد سامحته وأخبرت اوسبورن المحامي أن يعكس الدفاع وينقذه . إني مسامحه من كل قلبي فاطمئني .

— ويحك . هل ظننتني جئتك لكي أتشفع به عندك ؟ تباً له : بل جئت لكي أكفك عن السعي الى انقاذ هذا اللص النذل . حاذر أن تعفو عنه . يجب أن يعاقب الخائن . سأمضي الى اسبورن المحامي وأحرضه عليه .

— ويحك يا دورا . أود أن تكوني من حزب من « يحب أعداءه ويبارك لاعنيه » لا من حزب من ينتقم

— ليس هذا انتقاماً بل هو تأديب . ولماذا لم تسجل أنت اختراعك وتحفظ حقوقك ؟ ان هذا الاهمال ذنب تعاقب عليه .

لا . لا . لا أريد احتكار استغلال منفعة الجمهور . لقد سجلته أخيراً لا لكي أستغله . بل أطلقت أيدي المتمولين في إنشاء معامل لصنع الطيارات على شرط أن يكون لهم عشرون بالمائة من الكسب والباقي للعمال يوزع عليهم بنسبة استحقاقهم . أليس هذا أفضل يا دورا

فانقضت عليه دورا وضمته الى صدرها وأمطرته قبلات لم ينته إلا بقولها : لقد توجت عظمتك العقلية بعظمتك الخلقية . ان عظمة الأخلاق لأعظم من عظمة الذكاء . وشهرتها أوسع وأدوم . الحمد لله إني وجدت معبودي .

فقال ويلبور : وأنا أحمد الله أني وجدت معبودتي قبلك ، معبودتي التي أوحى لي حبها عبقريتي .

نقولا الحداد

قلبي

املئي قلبي بما شئت املئيه　　يا صروف الدهر ما قلبي بوانِ
أحرقيه ، يا أماني أحرقيه　　سوف لن يعبأ قلبي بالزمانِ

***

كم بكى ، كم ثار ، كم أحصى شجونه ؟　　ثم كم عاد لينسى كل شيءْ . .
فاسألي الأحزانَ كم أدمت جفونه ؟　　واسأليني هل شكا يوماً اليّ . .

***

هائماً كالبرق يطوي فلواتِه　　بين دمع المزنِ أو قصف الرعودِ ،
هوذا قلبي بأقفارِ حياتِه　　مجبراً يسبر أغوار الوجودِ .

***

ايه يا قلب وهذا العيش سرٌّ　　يا ترى بالله من يغزل يومكْ ؟
رعشةٌ أنتَ ، وإدلاجٌ وفجرٌ　　من ترى خطَّ على جفنيك حلمكْ . .

***

وتلوّى الليل من حولي وأوجسْ ،　　يسأل الأشباح عن دنيا شرودي
لا تسلْ يا ليلُ فالفجر تنفّسْ ،　　وأيادي النورِ قد فكّت قيودي

***

عشت في الغار طيوفاً تتبدَّدْ ،　　عشت عيش الظل ، عيش الأدمعِ ،
أنا دهرٌ كل يوم يتجدَّدْ　　خمرتي نفسي ودنّي أضلعي .

(القاهرة)　　عدنان الذهبي

ستيفن ليكوك

١٨٦٩ - ١٩٤٤

سيرة حياته بقلمه

في شهر مارس عام ١٩٤٤ مات ليكوك ففقد بموته الناطقون بالانجليزية شخصية جد محبوبة. كان « ليكوك » عالماً ممتازاً . وكاتباً فكاهياً من الطراز الاول . أدخلت كتبه السرور على الملايين من الناس . وإن القارىء ليجد في السطور التالية مقتطفات من قصة حياته وإنه ليجد بين هذه السطور ومضات من فكاهة « ليكوك » التي لن يجاريه فيها أحد ..

كان أبي وأمي كلاهما من « هامشير » . وكان آل « ليكوك » يقيمون في جزيرة « ويت » حيث كان جدي يملك بيتاً . ولكني أحسب ذلك الجد كان يريد الجزيرة كلها لنفسه . بل كان لا يريد لأولاده أن يحتشدوا فيها .

ولهذا فقد خرجوا جميعاً يجوبون أقطار الدنيا . وينتحون أبعد نواحيها .

وقد أجدت عليهم أعنابهم التي زرعوها في جزيرة « ماديرا » . والنبيذ الذي عصروه من تلك الأعناب مالاً كثيراً .

واستتبع هذا الغنى أن لا يعمل أحد من آل « ليكوك » عملاً (أعني عملاً مثمراً مجزياً) .

وظلّ الحال كذلك ثلاثة قرون . حتى جاء العصر الذي ولدتُ فيه فتفرّقنا شيعاً . وكان علينا أن نعمل ، بل أن نعمل أدنى الأعمال درجة ، حيث يجزى العامل على الساعة التي يعمل فيها . وهذا مما يحط من قدر أي رجل ممن نسلتهم أرض « هامشير »

وآل « ليكوك » كما أسلفت القول كانوا يعملون في جزيرة « ماديرا » يصنعون النبيذ ويبيعونه . ولا يزال البعض من أبناء عمومتي يقيمون هناك . ويصنعون ما كان يصنع آباؤهم .

ومنذ بضع سنين أخرج كبيرهم كتيباً وصف فيه أنبذة « ماديرا » . وتكلم عن آل « ليكوك » . وجاء في ذلك الكتيب أنّ أول من تسمى باسم « ليكوك » كان أجيراً من الأُجراء في « لندن » يعمل لكسب قوت يومه . وقد بعث بابنه يتعلّم في مدرسة مجانية . ثم أرسل بعد ذلك « صبيًّا » في سفينة كانت وجهتها « ماديرا » .

ففكر أيها القارىء فيما قصصته عليك، وقل لي — وحق أبيك — كيف أستطيع أن أبدىء القول وأعيده — وهذه كل معلوماتي — في كيف شبّ ذلك الصبيّ وكيف كبر ، وكيف اقتنى المزارع الكبرى ، وكيف جمع الثروة والمال ؟

* * *

أمّا قوم أمي ، وهم آل « بتلر » فكانوا أكثر مالاً وأعزّ نفراً ، وان كنت لا تستطيع أن تعدهم من أهل « هامشير » . ذلك لأنهم لم يكونوا — في العصر الذي أتحدَّث عنه — قد قضوا في « هامشير » إلاّ خمسين ومائة عام .

وكانوا ، وما زالوا ، يقيمون في بيت اسمه « بري لودج » يقوم فوق تل يشرف على القرية القديمة . قرية « هامبلدون » . وهي قرية عاصرت وباء الطاعون الذي ظهر عام ١٦٦٦ و « هامبلدون » اليوم هي للاعبي « الكريكيت » وهواة تلك اللعبة بمثابة « مكة » عند المسلمين يولُّون وجوههم شطرها أينما كانوا .

ففي تلك المدينة بدأت تلك اللعبة « المقدسة » . وأقول « المقدسة » وأستغفر العرف — ذلك لأني لا أجد نعتاً يؤدي وصف الرجل الانجليزي لتلك اللعبة إلاّ كلمة « مقدسة » .

وكما قلت آنفاً . فإنّ جدي كان يريد « جزيرة ويت » كلها لنفسه . ولذلك فإنّه بعث بأبي إلى جنوب إفريقيا يوم تزوّج بأمي ، وكان إسمها « أنيس بتلر » وهي ابنة القس « ستيفن بتلر » . وكان هذا عام ١٨٦٦ أي قبل أن يجعل الألماس والذهب بلاد جنوب إفريقيا مثابةً للهموم والأحزان .

وكانت تلك الأيام أيام المراكب الشراعية ، وأيام المسافات البعيدة ، وأيام الوداع الطويل. وقد ذهب الزوجان الى حيث يريدان الاقامة . في عربات تجرها الثيران ، وكان كل

شيء بدائيًّا كما نراه الآن في لوحات «السينما» عند عرض فلم حياة الرّحالة « ليفنجستون » وأفلام إفريقيا المظلمة .

ولكن جوّ إفريقيا لم يكن جوًّا ملائمًا لأمي ، بل كان مستحيلاً عليها الاقامة فيه . ثمّ جاءَ الجراد فأتى على ما زرعوه . ولذلك فقد عاد الزوجان الى « هامشير » مرةً أخرى.

وفي عام ١٨٧٦ رحلت أمي الى « كندا » ومعها أطفالها الستة لتلحق بأبي الذي سبقها الى تلك البلاد ليعمل في الزراعة .

وكانت مزرعة أبي تحوي زروعاً مختلفة ففيها أنواع الحبوب ، وفيها الكلأ ، وفيها من الماشية الضأن والخنازير ، وفيها الدجاج ، وفيها غابة لمن شاء أن يحتطب .

وكان أبي لايعرف عن الزراعة شيئاً . وكان أجيره واسمه « اولد تومي » أقل منه خبرة ودراية .

وكان أبي يجمع بين الجهل بالزراعة وبين الخمر والكسل . وعلى الرغم من أنّ أمي كان يجيئها قليل من المال تدرّه عليها مزرعة لها في انجلترا ، فإنّ مزرعة أبي قد استحالت أرضاً قاحلةً لا تنبت الزرع . وركبه الدين فرهن الأرض وثقلت عليه أحمال الربا ، كما ثقلت عليّ تلك الأحمال من بعده .

وكنّا ونحن أطفال لانبرح المزرعة ، إذ كنا أصغر من أن نقدر على التجوّل ولو شئنا لما استطعنا. ذلك لأنّ أقرب جار لنا قد كان بين مزرعته ومزرعتنا نصف ميل ، فلم يكن من دأبنا إلاّ أن نذهب الى الكنيسة في أيام الآحاد ، وإلاّ أن نجيب دعوة الداعي في قرية « ستون » بين حين وحين . ولولا غدوّنا ورواحنا الى المدرسة لظللنا طول عمرنا في البيت لا نبرحه .

وعلى قيد ميل منا قامت مدرسة تضيئها أضواء لطيفة ، ولها فناء ، وفيها مضخة للماء . وكانت تجمع بين الصبية والبنات . وكانوا جميعاً أبناء قوم مهذبين . وهم قوم فقراء . ولكنهم لا يحسّون بفقرهم ، وتحسبهم أنت أغنياءَ من التعفف .

وكان يقوم بالتدريس في تلك المدرسة معلمان : رجل وامرأة . وكان كل شيء في المدرسة ينبئك بالبساطة ويحدّثك عن الوقار والاحتشام .

وكانت مواد التعليم هي القراءة والهجاء والكتابة والحساب ، والجغرافيا . ولم تكن تشوب التعليم تلك المواد التي تفسد على الناس عقولهم في زماننا هـذا . والتي تحدث بين طلاب الجامعات الشغب والهياج .

والأمور التي تتنافى مع القواعد الصحيـة كانت تبدو لنا — بحكم العادة — أشياء عادية . فكنا نبصق على ألواحنا ، ثم ننظفها بأيدينا . وكنا نشرب جميعاً من كوز واحد . وكان الصبية والبنات تجمعهم الفصول ، ويفترقون حتماً إذا خرجوا الى فناء المدرسة .

وقد ثبت في ذهن أمي أنّ بقاءنا في المدرسة ضارٌ بلغتنا ، غير مقوّم لألسنتنا ، بل هو مؤدٍّ بنا الى العي والحصر . وكنا في الواقع قد انحدرنا وساءت تعبيراتنا . ونسينا اللهجة القويمة لهجة أهالي « هامشير » . وكنا قد بدأنا نقول : "them there" , "most always" , "these here" , "w... II"

ولذلك قد قررّت أمي أن تقوم هي على تعليمنا على الرغم من عملها الكثير المتصل مع الأطفال الصغار والخدم ، وفي القيام بحاجات البيت والمطبخ .

وكانت أمي قد أتمت تعليمها في انجلترا ، وأضافت اليه حبها وولعها بفنون الأدب ، وهما حبٌ وولع لازماها طوال حياتها التي بلغت التسعين عاماً .

ولكنا لم نكن نلقي بالاً إلى تعليمها . ذلك لأننا كنا نعرف أنها أمٌ وليست معلمة .

وعلى هـذا قد توقفت تلك الدروس . وعادوا بنا الى المدرسة حيث سعدنا بقضاء مدرسة خاصة ظللنا حوالي سنوات أربع نتلقـى عنها علوماً ما كنت أستطيع أن أؤديها لتلاميذي يوم كنت معلماً في عشر سنين .

وكنا نخرج من عزلتنا أحياناً، كخروجنا في يوم الزينة مثلاً ، وإجابتنا دعوة للغداء في قرية قريبة ، وذهابنا لمشاهدة حفلات لعبة « الكريكيت » .

وإن أنس لا أنسى يوم تمّ الخط الحديدي ، ويوم وصل أول قطار فقد كان وصوله حادثاً تاريخيـاً . وقد سبقه رنين الأجراس وصفير الصفارات .

وقد تبع مسير القطارات أن رأينا فاكهة « البرتقال » لأول مرة . ثم تبع ذلك أيضاً أن استغرقت مدينتنا في النوم مرة أخرى حتى أيقظتها بعد سنين زيارة السيارة ، تحمل السائحين والسائحات .

وكان ركوب القطار عندنا نحن الأطفال وسفرنا الى « تورنتو » كأنه سفر الى « بلاد العجائب » .

وكان والدي في ذلك الحين قد بدأ يعاقر الخمر حيناً بعد حين. وكانت أمّنا تخفي علينا هذا . وكان من عادة أبي أن يبرحنا في المساء فيذهب الى القرية المجاورة ليعود الينا وقد لعبت برأسه الخمر ، وقد عقد السكرى بمعاقد أجفاننا .

وكلما لجّ أبي في غيه وزاد في سكره ، تقلّص ظلّ المزرعة وانكمش . وكلما زاد الدّين وغشيت سماءَ بيتنا غاشية من الصكوك التي لم يؤدّ حسابها ، ضاق بنا العيش واسودّت جوانبه .

وكما أسلفت القول فإن أمنا كانت تخفي كل ذلك علينا عدة سنين مستعينةً بالصبر والصلاة .

وانقلب أبي بفعل الخمر من أب رحيم الى عاتٍ متجبر لا يلقى منه الكبار من إخوتي إلاّ الضرب المبرح ، وإلاّ العذاب الأليم .

وقد ترك هو البيت عام ١٨٨٧ ولا شك أنه كان يريد العودة ، ولكنه لم يعد أبداً ولم أره أنا بعد ذلك أبداً . . .

وقد عاشت أمي على ما تُغله المزرعة القديمة ومقداره ثمانون ريالاً في الشهر ؛ ذلك لأنها كانت وقفاً غير قابل للبيع .

وكانت أمي تعيش على هـذا القدر الضئيل من المال هي وأولادها الثمانية مضافاً اليهم العجوز « تومي » وزوجته — وكانوا يعملون عمل الحرّاس .

وغادر أخواي الكبيران بيتنا الى غير عودة فأصبحت بعـد سفرهما رأس العائلة . وكنت يومئذٍ في السابعة عشرة من عمري . وكنت كطالب في المدرسة ، ثم في الجامعة ، وكمدرس بعد ذلك ، لا أستطيع أن أزور المزرعة إلاّ في زمن العطلة وإلاّ في أيام متفرقة . ثم أرحت أمي وأرحت نفسي من عذاب تلك الأرض فتركتها نهباً مقسماً للراهنين والدائنين . ولست أعرف أين استقرّ بتلك الأرض المطاف . وكان آخر عهدي بها يوم دخلت الجامعة في مستهل عام ١٨٨٢ .

وما شهدت في تلك الجامعة إلاَّ تقاليد الخُلُق الكريم ، وإلاَّ فيضاً لا ينقطع من حسن المعاملة ؛ فلا جلد ولا ضرب ولا سخرة . وكنت إذ ترانا يومئذٍ تعرف أننا أبناء بيوت كريمة لم تعرف المهانة الطريق الينا .

وهنا أسائل نفسي أمن الخير للطالب أن يُلحق بالقسم الداخلي بالمدرسة وهو يسكن غير بعيد عنها ؟ وهل في ذلك القسم الداخلي ما لا يجده في القسم الخارجي ؟

وهذا سؤال مرَّ بخاطري ألف مرة ومرَّة . والجواب عندي بالايجاب ولكنه إيجاب مقيد بقيودٍ وحدود . فان الضرر الذي يلحق بالطلبة في مدرسة داخلية غلب عليها سوء الادارة لأسوأ مائة مرة ومرة من كل نقص يجده الطالب في مدرسة خارجية .

فعلى الآباء أن لا يبعثوا بأبنائهم الى مدرسة داخلية إلاَّ إذا استيقنوا من نقاء العيش فيها من الوجهة الخلقية . فان من ساء خلقه في مدرسة داخلية لا علاج له إذاً أبداً .

وكذلك لا خير في مدرسة لا همَّ لها إلاَّ جمع المال ممن يقدرون على دفعه لتخرج في معاملها نماذج في الأناقة يتبارون في مضغ الكلام ، ويتسابقون في البذخ والسرف .

أما المدرسة الداخلية التي خلت من تلك العيوب فلها خيرها ونفعها . فهي التي تخلق من الطالب رجلاً لا يعوِّل في الدنيا على أحدٍ وهي التي تشفيه من مرض التعلق بالأهل والوطن ، وهي بذلك تعلم المرء كثيراً من القيم الجديدة لمسائل الحياة . فهي تعلمه مثلاً أن الصاحب عند الشدائد هو الذي يريك ماذا تأخذ من كل أمر وماذا تدع .

والطالب الحديث العهد بالمدرسة هو في أشد الحاجة الى مثل هذا الصاحب ، إذ هو كالبيت الجديد الذي لم يستو على سوقه .

والطالب الحديث العهد بالمدرسة هو أكثر استجابة لكلمة طيبة يتلقاها من فم أستاذه والى مسة رفيقة على الكتف . وانه ليرى في ابتسامة البواب العجوز معنى من معاني الدعاء والتشجيع

وان الصحبة الصادقة التي تقوم بين الطالب وصاحبه أو أصحابه لهي أبعد مدًى وأدوم عهداً وأعمق غوراً من الصحبة العادية .

وليس يخطر في ذهني وأنا أقول هذا القول تلك الصحبة التي تقوم بين طلاَّب كانوا

في المدرسة ثم جمعت بينهم ظروف العيش فعاشوا طوال حياتهم مجتمعين . إنما تمر بخاطري ذكرى الذين كانوا طلاباً ثم فرّق الدهر بينهم . ثم عاد فجمع بينهم بعد عشرين أو قل – إن شئت – بعد أربعين عاماً . فمرّ السنين لا يكاد يحس ، وتذكر الماضي يصل في لحظة بين ذلك الماضي البعيد وبين اليوم الذي الذي أنت فيه .

وقد اتفق لي أن كنت ألقي إحدى محاضراتي في إحدى المدن الأمريكية الكبرى ، وقد أعقب واحدة من تلك المحاضرات حفلة استقبال . وهناك قيل لي : هل تذكر « مستر ليون » الذي كان من زملائك في الجامعة منذ خمسين عاماً ؟

هل أذكره ؟ يا له من سؤال سخيف ! وكيف لا أذكره وقد كان زعيم فرقة « الكريكيت » . وإني لأذكره يوم كان فتى بائن الطول مديد القامة . وإني لأعدها تحية منه بل خير تحية أن يذكرني هو .

فلما لقيته نسيت كل من حولي . وغفلت عن كل ما حولي . فقد سألتني سيدة عن رأيي في رواية « جالسورذي » التي سماها « القرد الأبيض » (وكنت لم أسمع عنها شيئاً) وقال لي أحد الحاضرين : لقد كان واجباً عليّ أن استمر في محاضرتي نصف ساعة أخرى .

ولكن « ليون » كان عندي أبرز شخصية في الحاضرين . وإني لأعترف أن السنين الخمسين قد غيرته . وإنه لم يعد بعد طالباً كندياً . ولكنه أصبح أمريكياً من أصحاب الأعمال . وقد نقصت قامته قدماً أو أقل قليلاً ، وذاب الشحم منه فأصبح نحيلاً ضئيلاً .

وأثنى على محاضرتي وسألني عن حال الكلية التي كنا فيها . فقلت له : إن البناء قد أزيل ثم أعيد بناؤه ليسكنه الساكنون لقاء أجر . ثم وقفنا نذكر أيام ذلك البناء الذي كان على وشك السقوط ، ونذكر الريح التي كانت تهب على وجوهنا من ناحية الشجر ونحن وقوف في فناء المدرسة . وأبعدتنا تلك الذكريات عن «جالسورذي» و «قرده الأبيض» .

(وبعد) فقد جرت بي العادة أن أكون كثير التنبؤ . ذلك لأني وجدته أدنى الى السلامة وأقل عسراً وأبعد أثراً من الحقائق .

وكنت أثناء السنين الطويلة التي كنت أحاضر فيها في جامعة « ماك جيل » أقول لتلاميذي : دوّنوا قولي هذا واذكروه أيها السادة : سترون بعد مرور خمسين عاماً كيف

وكيت . أو : إنه بعد انقضاء نصف قرن سترون نهاية كل شيء ترونه الآن تقريباً .

فكان لكلماتي هذه أثر هائل في عقول تلاميذي . ذلك لأنهم كانوا لا يستطيعون الوصول الى سر إدراكي لما سوف يقع .

والخطأ الوحيد الذي ارتكبته هو أني جعلت مدى نبوءاتي قصيراً جداً . إذ جعلتها كلها وشيكة الوقوع . فقد بدأت التنبؤ عام ١٩٠١ . وبذلك سوف تتحقق أول نبوءة حوالي عام ١٩٥١ .

ومن المحقق أن كثيراً من التلاميذ القدامى قد خلوا اليوم مكانهم . وحتى الذين بقوا منهم قد طووا مراحل الشباب ووهن العظم منهم .

ومع ذلك فلن أرتكب هذه الحماقة . حماقة النبوءات قصيرة المدى مرة أخرى . وان الناس ليتنبأون منذ الآن بما سوف يحدث بعد الحرب . ويبدو أن بناء الجماعة كلها سوف يعاد بناؤه . من قمة الرأس الى إخمص القدم أو من إخمص القدم الى قمة الرأس ...

ومن الناس من سوف يبدأ بناؤه من أحد الجانبين . ومنهم من سوف يبدؤه من الجانب الآخر . ومن المسائل العظمى التي تشغل بال المفكرين مسألة التعليم . ويقول الناس إن التعليم يجب أن يعاد بناؤه من القمة الى السفح . وهم يقولون : إن التعليم سوف يكون غير بادٍ للعيان . فلن تستطيع أن تقول عن رجل من الرجال أمتعلم هو أم جاهل ..

ويبدو انه قد شكلت منذ الآن لجان كثيرة قوامها كبار رجال التعليم في البلاد . وإحدى تلك اللجان تعنى بعلم الحساب وقد وصلت في المراجعة الى جدول الضرب . وإلى الرقم ٩ مضروباً في ٩ إن شئت التحديد . . وقد يصدون عن مراجعة الباقي من أرقام الجدول .

وواحدة أخرى من تلك اللجان تعنى بمراجعة مسائل القسمة المطولة . والمظنون أن الأمر سيطول بهم ...

ولكن كبرى مسائل ما بعد الحرب هي بالطبع مسألة تجديد بناء المدن . ويبدو أن هذه المسألة قد أصبحت عامة في جميع أنحاء العالم .

أما مدينتنا فلاشك أن إزالتها واجبة ، فقد استعصى فتقها على الراتق . فشوارعها كلها تتقاطع وكلها تخالف الطريق السوي .

وأنا إذا نظرت إلى بيتي وددت لو أمسكت بالمعول من فوري ، وسويته بالأرض . وهو بيت حقير عديم القيمة . . ويشاركه في هذه الحقارة كل البيوت المعدّة للإيجار . وإني لأراها في حاجة الى أن ترتفع طبقاتها السفلى من سطح البيوت الى قمتها . وذلك لكي يتخللها الضوء . . .

وعلى أية حال فقد شكلت لجنة من الخبراء بدأت عملها من الأساس عنيت أول ما عُنيت بمسألة المجاري ، ونظرت في هل هي صالحة أم غير صالحة . وهي لا بدّ ناظرة بعد ذلك في مسائل الحرير والنشع ، ثم في مسألة الفضلات والقُمامة . ويقوم بدراسة المسألة الأخيرة عالم خبير بفنه .

ولكن هذا كله في حاجة الى الوقت وإلى أن تعمل الفؤوس عملها .

(وبعد) فلنعد الى قصة حياتي : ولدت في العصر الفكتوري بل في صميم ذلك العصر . وهو عصر قد بعد به العهد . عصر يؤرخ بالامبراطورية الفرنسية في إبّان مجدها ، كما يؤرخ بالكاتب الانجليزي « ديكنز » وهو يكتب آخر كتاب من كتبه . يوم كان « ديكنز » على حافة القبر ، وكنت على حافة المهد .

وكانت الدنيا يومذاك دنيا واسعةً عريضةً . وكانت هناك قارات برمتها لم تزل مجهولة وكانت « إفريقيا » مجرّد رسم تخطيطي . وكانت المحيطات لم تشقها السفن بعد .

وقد خلّى ذلك العالم مكانه اليوم لعالم جديد ، عالم تطنّ فيه أصوات تجيء من كل أقطار الدنيا ، ويهدّد الموت سكانه تهديداً عامّاً شاملاً .

وإنّ الصور المتحركة لترينا اليوم مواكب الحوادث تمرّ أمامنا بترتيب وقوعها . ولكل واحد منا حوادثه ومواكبه .

فموكب حياتي أنا مثلاً يبدأ بشواطىء البحر في جزيرة « ويت » ثمّ يتحوّل الى قرية « بورت شستر » وقلعتها الرومانية . ثمّ تتغير معالم الرؤيا فأرى « الملكة فكتوريا » تركب القطار وتطلّ برأسها منه . ثمّ يتحوّل الموكب الى باخرة من طراز ١٨٧٦ تشق المحيط الأطلسي . وهي تحمل قوماً مهاجرين إلى « كندا » .

ثمّ يمر بنا الموكب على مزرعة بالقرب من مدينة « أونتاريو » . ثمّ إذا بالموكب

يتحوّل بي الى مدرسة داخلية في إحدى جامعات « كندا » . والعميد يبدو وقوراً في لحيته والطلبة في زيهم على الطراز القديم .

ثمَّ إذا بنا ننتقل الى جامعة « شيكاغو » ثمَّ الى جامعة « ماك جل » حيث ظللت هناك ستًّا وثلاثين سنة دراسية .

وإني لأذكر الفصول الدراسية في شهر فبراير ، والطلبة نائمون . وأنا أوصي بعدم إقلاق راحتهم وأن يتركوا في نومهم هانئين . ذلك لأنَّ المحاضر كان يحاضرهم في الآثار القديمة .

ثمَّ إذا بالموكب ينتقل بنا الى زمان الحرب العظمى ثمَّ إذا بتلك الحرب الى انتهاء . ثمَّ إذا بي أسافر من جديد لأحاضر في الولايات المتحدة . ثمَّ إذا بي أعود إلى ساحة جامعة « ماك جل » مرةً أخرى . ثمَّ اذا بي أعتزل العمل . ثمَّ إذا بي أمنح درجة من درجات الشرف كعالم ممتاز ... ثمّ إذا بالحرب الثانية يندلع لهيبها .

هذه صورتي . وهذا موكبي من صبح حياتي الى غسقها . وإني لأذكر أني سمعت منذ نصف قرن خطيباً يخطب القوم في يوم منح الجوائز في جامعة كندا العليا ويقول لهم : إنه يرى أمامه في أشخاص الخريجين الناجحين ساسة المستقبل وشعراءه وقوّاده وزعماءه .

ولقد خُيل إليَّ يومئذٍ أن بعقل ذلك الرجل دَخلاً ، فانَّ من كان يراهم أمامه إنما هم نحن لا قوماً سوانا .

ولكن ثبت أنه كان محقاً في قوله . ولو أنَّ بعض من عناهم كانوا أوفر حظًّا مني . ذلك بأنهم عاشوا في عالم كله سحر وشعوذة ، فهم أينما وُجدوا أُخذ بيدهم الآخذون من عظماء القوم . ويبدو أنَّ الوهم يغذي نفسه ...

وإني لأذكر على مرّ السنين واحداً من أولئك المحظوظين ، كان يلقى من المعجبين به إعجاباً اختصَّ به وحده دون الناس جميعاً .

ولقد جلست الليلة الماضية أتعشى ، وكان بجانبي الأستاذ « بيوكان » فقال لي : إنَّ فلاناً (وهو يعني ذلك المحظوظ) عالم من العلماء ، وهو قد أوتي مقدرة عجيبة كعالم باللغات .

فقلت له :

أحق ما تقول ؟ قال نعم. فقد سألته مرةً : هل تظن أن كلمة Snob بالهندية هي نفس كلمة Knabe بالألمانية ؟

قلت : وماذا قال هو ؟

— قال : انه لا يدري ...

ثم جلس صاحبي مطمئناً في جلسته وبه من التقدير لهذه الدقة العلمية ما به ... وإن في الناس كثيراً من هذا الطراز ممن تغشى سماء حياتهم غشاوة من الوهم .

وإني لتحضرني بهذه المناسبة قصة زنجي عجوز من «كارولينا» ظلّ طوال عمره ينتظر أن يُسمح له بأن يكون منتخِباً . فلما جاء يوم الانتخاب ووضع ورقته في الصندوق ، ظلّ ينتظر الخطوة التالية وقتاً طويلاً . ثم لما رفع عن عينه غشاء الوهم قام يتساءل ويردد سؤاله . هل هذا هو كل شيء يا حضرة الرئيس ؟

قال الرئيس : نعم هذا هو كل شيء !

وهكذا هي الحياة . فالطفل يقول : عند ما أصبح صبيًا ، والصبي يقول عند ما أكبر حتى إذا كبر قال : عند ما أصبح زوجاً . . فاذا تزوج قال : عند ما أعتزل الخدمة . فاذا اعتزل الخدمة أحسّ بريح باردة تهب ، وعرف أنه أضاع كل شيء .

وما ذلك إلاّ لأننا لا نعرف معنى الحياة إلاّ في الساعة الأخيرة ، وما الحياة إلاّ غزلها الذي ننسج منه نسيجنا يوماً بعد يوم . وليست الحياة أن نعيش مؤملين الانتقال الى أحسن أو أن نعيش على خوف من أن تسوء الأمور .

وهذان الأمران : أن يكون المرء دائم التطلع الى أمام ، وأن يكون قلقاً على أمور لم تحدث بعد ، وقد يمكن أن لا تحدث أبداً .

هذان الأمران يجعلان الحياة كالهيكل العظمي لا لحم فيها ولا دم .

فاذا استطاع المرء ، وجب عليه أن يستمتع بكل لحظة من لحظات حياته .

وإنه لأمر مستغرب أن نصرخ مجمعين طالبين أن يتوقف الفلك عن الدوران ، يحثنا الشوق إلى أرض دائمة الأصائل ، لا يغشاها ليل ولا يحوطها ظلام أو يحدونا الحنين الى وادٍ ظليل، نقرأ في ظلال أشجاره ديوان شعر .

ولكن قد يكون هذا القلق وهذا الاضطراب هما الدافعان لنا على القيام بنصيبنا من الكفاح. وإن الغالبية العظمى منا عندما ينظرون — وقد تقدّمت بهم السنّ — إلى ماضيهم يحسون إحساس الرضا على أنهم قد استطاعوا أن يقوموا بنصيبهم في الحياة . وهم يتماجون بقولهم إننا — على الأقل — استطعنا أن ننجو بأنفسنا من عذاب السجون ، ومن أهوال مستشفى المجانين ، ومن مخاطر ملاجىء العجزة والمساكين .

وعلى الرغم من هذا فعلى المرء أن يظلّ في حذره فقد يجنّ الشيوخ أحياناً .

ولكننا على أية حال لا نودّ أن نبدأ رحلة الحياة مرة أخرى .

وإني إذ أنظر الى الماضي إلى الليالي الطويلة ، ليالي الدرس في المدرسة الداخلية ، ليالي انكبابي على القاموس ، أعجب العجب كله كيف فعلت هذا .

وهناك أعمال كثيرة كان المرء يؤدّيها ، وهو اليوم لا يستطيع أن يؤديها . كما أن هناك أشياء كثيرة يرتعد الشباب ، وترجف قلوبهم وهم يترددون في القيام بها وهي تبدو بسيطة سهلة لمن تقدمت بهم السنّ ، ففي مسائل النساء – أريد أن أقول البنات — ترى المحبّ من الشباب يلجأ الى التجسس ، يحدوه الأمل حيناً ، والخوف والعجب أحياناً ، ترفعه كلمة ، وتخفضه غمزة حاجب .

ولو عقل صاحبنا الشاب ونظر الى الأمور كما ينظر اليها الشيخ لاستطاع أن يصل حباله بحبال أية فتاة يشاء .

وكل ما يجب أن يفعله هو أن يتقدّم الى الفتاة ، وأن يقول لها : يا آنسة فلانة إني لا أعرفك ، ولكن جمالك الفتان قد سحرني ، فحلّ عقدة من لساني ، واضطرني الى الكلام . فهل تستطيعين أن تتزوجيني بعد ظهر اليوم ، وليكن موعدنا في منتصف الساعة الرابعة مثلاً .

وإني أعني بقولي هذا أن هذا الأسلوب في هذه الناحية من الحياة قد يوفر على المرء سنين من الرعب والفزع ...

والشباب كله جميل في عين أولئك الذين علتهم كبرة . والفتيات في أبسط مظاهرهنّ ، هنّ — في نظرهم — جميلات . وذلك بما أضفت عليهم الطبيعة من مفاتن . واللاتي حرمنَ الجمال هنّ — على الأقل — صغيرات السن .

أما الشيخوخة فقد كتب عليها أن تعيش في عزلة .

وعلى أية حال — حتى لو تسامحنا في القول — فإن الشيوخ صحبتهم مملة. إذ أنهم لا يقدرون على أن يصمتوا. وقد لاحظت هذا في النادي الذي أغدو اليه.

وهم إذا بدأوا في رواية قصة من القصص رأيتهم في كل واد يهيمون. وأنت على أية حال عارف بالقصة، ذلك لأنها هي القصة التي قصصتها أنت عليهم ليلة أمس ..

وطريق الحياة الذي رسمته لك رسماً تخطيطياً من الشباب الى المشيب، تستطيع أنت أن تقيسه بنفسك، متهدياً بأسلوب الخطاب الذي يخاطبك به الغرباء.

وبي لا أزال أذكر عامل عربة النوم الذي ناداني لأول مرة بقوله: يا دكتور، وكذلك لا أزال أذكر ذلك الذي رغم من قدري فسماني «القاضي»

وكذلك لا أزال أذكر من ناحية أخرى سائق السيارة الذي فتح الباب لي وقال: حاذر في نزولك أيها الشيخ الوالد . . .

وكم قاسيت يوم تحدث عني أحد المخبرين في جريدته، وسماني «السيد العجوز».

ويوم قال عني أني بسيط الزي، بسيط المظهر.

وكم كانت الضربة قاصمة للظهر يوم قالت عني إحدى الصحف أني جاوزت السبعين من عمري. وهي كذبة بلقاء مفضوحة. تنم عن نذالة قائلها. ذلك لأني لم أكن أبلغ من العمر يومذاك إلا سبعة أشهر وتسعاً وستين سنة.

واليوم يناديني المنادون بقولهم: أيها الشيخ الوقور. وسوف يحصدني الموت بمنجله يوم يدعونني بالشيخ الأكبر. والناس يعنون بهذا القول في بلادنا كل رجل اشتعل رأسه شيباً، وظل حتى الثمانين من عمره لا يعرف الطريق الى السجن.

وهناك شيء يمكن أن يقال — حتى في هذا المقام — عن عقلية الشيخوخة:

إن الشيوخ يصبحون أكثر رأفة ورحمة في حكمهم على الآخرين. ذلك لأنهم قادرون على أن يحسنوا الفهم حتى لو كانوا غير قادرين على غفران خطيئات الآخرين.

فإذا سمعت أنا عن رجل يسرق سجل أموال المتجر الذي يعمل فيه فاني أعرف أنه — بعمله هذا — يرنو بعينه الى خزانة المتجر.

وإذا قرأت أن رجلاً يحرق متجره أيقنت أنه يرمي الى قبض مال التأمين.

والشيخوخة محتملة إذا لقينا عملاً نعمله. كأن نعنى بالأولاد والأحفاد. أو إذا عشنا على ذكريات الأعمال الصالحة التي أديناها. أو إذا قمنا بأي عمل قد يبعث في النفس الأمل. فيقول الواحد منا يومئذ: سوف تخلدني أعمالي الصالحة ...

(مترجم) مبارك ابراهيم

شهيد السلام

في رثاء « المهاتما غاندي » . قديس القرن العشرين ، وزعيم الهند الذي كافح الاستعمار كفاحاً مريراً حتى قهره بالعصيان المدني والمقاومة السلبية .

وقد لقي غاندي حتفه يوم ٣٠ يناير من عام ١٩٤٧ وهو يتأهب لصلاته الروحية ، حيث أطلق عليه أحد الفوضويين من مواطنيه أربع رصاصات قضت لساعته .

وعلى هذه الصورة تنتهي حياة رجل كرس حياته وجهده لإزالة الفوارق الدينية بين الهنود ، وحث العالم على فعل الخير ونشدان السلام وخدمة الانسانية !!

إيه « غاندي » وأنت من عالم الأر   واح ، أطلقت للورى نجواكا

هزَّ منعاك ساكني الأرض طرّاً   فبكوا فيك زاهداً نسّاكا

تبع الخاشعين في حلل الأبـ   رار ، وحيّا منزلاً وملاكا

كيف يعدو عليك بالفتك باغٍ   نصب الموت مكمناً وشراكا ؟!

دبَّر الأمر للجريمة غدراً   حين لم تلمس الضرار يداكا ؟!

يا شهيد السلام في « الهند » هل أجـ   ـدى على القوم ما أردتَ هناكا ؟!

أنت يا موئل الضعاف ، وتعزا   ءُ قلوبٍ تثيرها رحماكا

جسم حرٍّ تقوده نفس حرٍّ   ترتجي الدهر للعفاة فكاكا

وتروم الحياة أمناً ورشداً   لترى الشرق ناعماً ضحّاكا

ونسجت الثياب من عزمات الـ   ـشعب حصناً رعيته ووقاكا

هابه الخصم بالسلاح وبالجيـ   ـش ، وأضحى بيأسه يخشاكا

أملٌ خالج الفؤاد ، ومجدٌ   لم ين عنه في الزمان سواكا

بيد أن الخلاف ما زال في الدنـ ـيا غماراً لأهلها وشباكا
قام من قبلك النبيُّون بالأمـ ـس، ينادون بالخيور وراكا[1]
بذلوا الأنفس الكريمة للحقّ بشيراً ومنذراً صكّاكا[2]
فاستحال النداء في طلب العيـ ـش عداء مدمِّراً وهلاكا
هكذا الناس، شأنهم من قديم عمروا الكون عنوةً وانتهاكا
يتبارون بالخسيس وأن قلّ ويزهون بالحضيض امتلاكا
وطماح الجسوم ظلّ مع الأقـ ـوى، ولو كان ظالماً سفّاكا!!

***

رحم الله ذلك الجسد الوا هن، كم خاض للسلام عراكا
ضمّ جنباه في الجوانح قلباً ما لوجدانه شبيه يحاكي
صابراً صبر مؤمن لا يبالي أجَنى الوردَ أم جنى الأشواكا؟!
وقضى، والمنون أبلغُ هادٍ ربَّ موتٍ يُذكي الجماد حراكا
ان موت العظام في الكون ميلا د خلود يحيلهم أفلاكا
وأديم السماء أفسح للرو ح، وأبقى من الوجود سماكا[3]
عبثاً تنشد السلام على الأر ض، وترجوه للأنام حباكا[4]
عبثاً تنشد السلام وقد أغـ ـرى بصرعاه عُصبةً فتّاكا!!

(القاهرة) عبد السلام رستم

(١) الخيور ج خير — دراك — متلاحق، متصل
(٢) صكاك — شديد القرع
(٣) السماك — ما سمك به الشيء أي رفع
(٤) الحباك — الطريقة وفي معنى آخر الحظيرة المشدودة

على هامش

المعرض الزراعي الصناعي

السادس عشر

مضى ثلاثة عشر عاماً منذ آخر معرض زراعي صناعي أقيم في سنة ١٩٣٦ حيث حال قيام الحرب العالمية الثانية دون انتظام دورة إقامته كل خمس سنوات ، والآن وقد افتتح المعرض الزراعي الصناعي العام دورته السادسة عشرة وجب على كل مصري أن يلمس التقدم الذي وصلت اليه مصر إبان هذه الفترة وذلك بمشاهدة مختلف المعروضات الزراعية والصناعية والتجارية . وبمقارنة المعروضات الموجودة الآن بما كان لدينا في الماضي يمكن أن نخلق رأياً عامـاً يؤمن بنهضة بلاده ويفكر في مستقبلها ويعمل على المساهمة بنصيب من العمل المنتج الذي يعود عليه بالفائدة كما يعود على مجموع المواطنين من سكان وادي النيل ، فاذا وجدت فكرة إمكان التقدم لدى أفراد هذا الشعب وشعر بقدرته على العمل المتقن ولو بعد تعليم فني وتدريب عملي ، أمكن للقادة وأصحاب الرأي أن يجدوا لدعواتهم الاصلاحية صدًى ولأفكارهم منبتاً خصباً ، فكثير من المفكرين يدعون الى العناية بالصناعة مثلاً ولكنهم لا يجدون من يلبي دعوتهم وينفذ توجيهاتهم لانغراس بعض الافكار البالية في أذهان الكثيرين أو لعدم إيمانهم بالمستقبل استناداً الى عوامل اليأس التي طبعت في نفوسهم من تأثير ما كانت عليه البلاد في الماضي وعدم ايمانهم بامكان التغيير بل التغيير السريع مع أنه اذا توجهت العقول والسواعد المصرية بالتعاون مع رأس المال المصري في خلق الصناعات وتركيزها وتقويتها لخطونا خطى سريعة .

والمهم أن يدرك زائر المعرض أنه في خلال الفترة التي نهضت فيها البلاد سياسيـاً واقتصاديـاً بثورة سنة ١٩١٩ على الانجليز استطعنا إنشاء بنك مصر ومؤسساته وأنه ابتداء من سنة ١٩٢٠ حتى الآن أمكن إيجاد بعض الصناعات القومية مثل صناعات غزل القطن وحلجه

وعصير زيته ، وتبييض الأرز وعمل الأعجنة الغذائية وحفظ المنتجات الزراعية ودبغ الجلود وصناعة الأحذية وصناعة الأسمنت والسكر — وطحن الغلال ، وصناعة الأثاث ، وصناعة مستخرجات الألبان ، وصيد الأسماك ، وبناء السفن ، وتكرير البترول .

فهذه الصناعات التي أصبح الآن لها مكان ملحوظ لم يكن من المحتمل أن تظهر وتنمو الا بعد تحرر المصري من الجهل الذي فرضته عليه السياسة الاستعمارية لكي تظل مصر وعماد الحياة فيها للزراعة ، أو بالأحرى القطن الذي يصدر الى مصانع لانكشير . وأمام زائر المعرض الآن أمثلة بارزة على أنه في الامكان الآن أن نخطو خطوات سريعة في التقدم ، وعلى القادة المصريين أن يضعوا البرامج والأسس للمشروعات الكبرى ، وعلى الأفراد أن يعاونوهم بسواعدهم وقدرتهم الانتاجية حتى نثبت أننا بدأنا في التحرر مما لقنه إيانا الأجنبي في قاعات الدرس وهو أننا أمة زراعية لا تنجح فيها الصناعة . وفي المعرض الآن برهان قاطع على أن ربط المصريين بعجلة الزراعة فقط فيه شيء كثير من الخطأ والتضليل . ومن العوامل التي لا يصح أن نغفلها إصدار التعريفة الجمركية في سنة ١٩٣٠ الذي ساعد على قيام بعض الصناعات وتوسيع المشروعات التي كانت قائمة ، كما يلاحظ أن الحرب الأخيرة قد أوجدت صناعات جديدة في مصر مثل صناعات الجبن الجاف وتعبئة الخضروات وورق اللف والعلف وقطع الغيار وأدوات الغزل والجلوكوز والنشا ، ولا يعيبنا في الفترة الحالية أن تكون أثمان بعض السلع مرتفعة عن مثيلاتها المستوردة أو أقل منها جودة في ناحية ما ، بل العيب أن تعتمد بعض الصناعات في بقائها على التعريفة الجمركية أو الاعانات والحمايات الحكومية إذ يجب أن يلاحق أصحاب المصانع الحالية أحدث الأساليب العلمية التي تظهر في العالم ويدخلوها في صناعاتهم مع زيادة مقدرة العامل الانتاجية ورفع مستواه الفني والاجتماعي ، فاذا تم هذا استغنت مصر عن التغني بالماضي الكريم بحاضر أكرم وأعظم .

ذهبت إلى المعرض وكلي حماس وشوق وإيمان بأن هذا العمل من أجل الأعمال النافعة وأعظمها شأناً وأجلها خطراً ففيه يمكن أن يلمس المرء مجموعة الجهود التي قام بها الزراع والصناع والتجار ليس من جهة الدقة الفنية المبنية على الأساس العلمي ولا من جهة قدرة اليد المصرية وقوتها ، بل من حيث الذوق العام ووضع الانتاج بالطريقة العلمية التي

تجذب النظر وتدعو الى التدقيق والفحص والمقارنة والتعلم .

ولقد أعجبت بكثير من المعروضات ، وليس هناك زائر شاهد المعرض ثم لم يجد ما يرتاح اليه ويتذوقه ويستفيد منه إذ أن مبانيه المختلفة قد ضمت كل ما يحتاج اليه الناس مهما اختلف مستواهم في التذوق أو في الثقافة أو في العمر ، فكما حوى ما يعجب الرجل ويستهويه ففيه للمرأة ما يرضيها وللطفل ما يلهيه . ولقد شاهدت بعض القرويين وقد وقفوا مشدوهين أمام بعض المبتكرات العلمية أو الرسوم البيانية لا يدرون كيف تحققت تلك المعجزات ، بينما رأيت أحد الفنانين وقد وقف أمام لوحة زيتية وقد استغرق في تأملاته سابحاً في تحليله للأضواء والظلال ولم يحس بأمواج الناس التي تمر به تنظر نظرة عابرة إلى ما نسي فيه نفسه ، بل أن فيهم من لم يلتفت إلى ما ينظر اليه ، وشاهده متأملاً فرثى لحاله وأشفق عليه .

* * *

إذا قصدنا مشاهدة القسم الصناعي بالمعرض وجدنا قسمين الأول وهو الخاص بمعروضات بعض الشركات الكبرى «بنك مصر — عبود» ويتميز بالاعتناء بضخامة المباني وارتفاع الدرجات الموصلة إليها دون الاهتمام بإبراز الأعمال نفسها التي تعتبر في مقدمة الأعمال المجيدة في مصر ، فلا أدري هل كان ذلك نتيجة لاعتقادهم أن جمهور المشاهدين يلمس أثر عملهم خارج المعرض أم لعدم حاجتهم الى الدعاية والإعلان وكلا الأمرين لا ينهض سبباً لمثل هذا التقصير الذي لا يمكن اغفاله لأنه إذا كان الجمهور يعرف من ذات نفسه ومن احتكاكه آثار جهودهم في الحياة اليومية فلم يكن هناك داعٍ إذاً للاشتراك في المعرض إذ أنه مع وجود كثير من المعروضات فإنها لم تلبس الاطار اللائق بها ، كما أهمل فيه الجانب الاحصائي الذي يبرهن على أهمية أعمالهم. وكذلك جانب النماذج المتحركة التي يحتاج إليه أغلب الزائرين ، ولو مررنا بمعروضات شركات أخرى لوجدنا أن العناية كانت أكبر والاتجاه نحو الأسلوب التعليمي في العرض كان أقوى شأناً وأعظم أثراً ، فلا يمكننا اغفال اهتمام شركة مصر للهندسة والتعدين مثلاً بهذا الاتجاه فهي لم تكتف بابراز معروضاتها في إطار

لائق، بل قدمت عرضاً سينمائياً عن جهودها في بعض الصناعات في ثلاث فترات يومياً ، وبمثل هذه الطريقة يمكن أن يخرج المشاهد بفائدة كبيرة لا تقدر .

بل ان احدى شركات الأسمدة « نترات الشيلي » فوق اهتمامها بحسن العرض العلمي وإبراز النماذج البارزة وامتلاء مبناها بالصور التوضيحية لمختلف العمليات الخاصة باستخراج السماد من صحراء شيلي، وتأثير عناصر السماد على النباتات المختلفة في فن بديع وإتقان تغبط عليه ، إذ بها تخرج علينا بتمثال لشخصية قروية مزودة بآلات لالتقاط الأصوات وارسالها مما ييسر التحدث بين هذا التمثال وجمهور الزائرين فيجد المثقفون بغيتهم ، وكذلك الزراع .

أما القسم الثاني . وهو القسم الخاص بالصناعات الصغرى فكان الاهتمام فيه واضحاً نحو الناحية التجارية. إذ امتلأت سراي الصناعة بمنتجات الشركات الصناعية الصغيرة مما يجعل الزائر يشعر أنه لا يمر في المعرض بل يسير في « شارع فؤاد الأول » أما العرض ودقته وأهميته التعليمية فليس فيها إلا القليل . وليس هناك من يدل الزائر على الصناعة وطريقتها، بل هناك من يروج للسلعة بأساليب الإغراء على المشترى في الوقت الذي لم يقصد فيه بالمعرض أن يكون مجموعة للمحلات التجارية .

***

أما سراي الزراعة فقد ازدحمت بنوعين من المعروضات الزراعية ، الأول وهو ما يشغل الجزء الأكبر من الصالة . والرأي عندي أنه لا أهمية تذكر له إذ هو عبارة عن صناديق وضع بها انتاج بعض الزراعيين في مصر في المحاصيل المختلفة كالقمح والشعير والذرة والفول . . . الخ وهذه الناحية من العرض لا تفيد الزراعيين شيئاً ، إذ مهما قيل إن إنتاج إحدى المزارع يتفوق على إنتاج المزارع الأخرى من حيث الشكل أو الحجم فالنوع واحد ولا فضل لزارع على آخر في هذه الناحية ، لأن الزارع لا يمكنه ادعاء انتاج نوع جديد يتميز بخصائص معينة أو يصلح لجو أو تربة أو يقاوم إحدى الآفات مثلاً .

ولو كان المقصود أن تكون هناك منافسة بين الزراع يتعين فيها مجهود المحسن والمقصر فهذا بلا ريب أمر فيه كثير من النظر ؛ إن من المعلوم أن كل زارع ينوي الاشتراك في

المعرض يستعد بمعروضات إعتنى بها عناية خاصة وعومات معاملات في الزراعة والتسميد والتنظيف والانتقاء مما لا يمثل الحالة الحقيقية في البلاد . فلو كان كل الزراع الذين عرضوا علينا انتاجهم لديهم هذه المقدرة في إنتاج محصول أراضيهم كلها بهذا المستوى من الجودة والاتقان لكانت مصر أول الدول أجمع في إنتاج كل المحاصيل الزراعية . وما دامت هذه الحاصيل لا تمثل المتوسط العام للدولة بل تمثل جزءاً اعتني به فإن المشاهد العادي من جمهور الفلاحين قد ينسب لنفسه تقصيراً لم يقم به ولا يستطيع أحد إثباته عليه .

***

وبودي أن يتجه كبار الزراع وصغارهم على السواء إلى مشاهدة القسم الثاني في هذه الصالة وهو الخاص بمجهود الأقسام الفنية في وزارة الزراعة التي يقضي الفنيون فيها زهرة العمر وسني الشباب في العمل المضني سنوات طويلة في صمت وسكون حتى يتمكنوا من الوصول بالطريقة العلمية الصحيحة التي لا يمكن بطريقة غيرها أن نحصل على أنواع جديدة من المحصولات تزيد الانتاج العام حقاً وتفيد مصر والمصريين .

وحسبي دليلاً على هذا أن المشاهد حين ينتهي من هذه الصالة يجد في ركن منها معروضات قسم الاحصاء بوزارة الزراعة ومنه يتبين مركزنا الصحيح ومستوانا في الانتاج وحاجة مصر الى العناية بالزراعة والعمل على رفع مستواها ومستوى العامل والفلاح . لأن النتيجة التي توضحها البيانات تدل على خلاف مظاهر معروضات كبار العارضين الذين لو كان مستوى الزراعة بمصر مثل ما يعرضون لكانت الأولى في كل انتاج زراعي .

ولكن لي نقداً يتعلق بهذا القسم هو أنه في اللوحات الخاصة بالصادرات والواردات عملت وحدة هي عبارة عن عملة نقدية تمثل قيمة ما يصدر أو يستورد إلاً أنه في اللوحة الخاصة بالصادرات حددت بعشرة آلاف جنيه . وفي الواردات حددت بمائة ألف جنيه مما يدعو الى تضليل الزائر غير المدقق ، إذ يرى زيادة الوحدات في لوحة الصادرات عنها في لوحة الواردات مما يجعل الزائر يظن أن مصر في مركز قوي بالنسبة لزيادة صادراتها الزراعية عن وارداتها . وليس عيباً أن نقرر أن لدينا نقصاً في بعض السلع وأنه من المهم أن

نعمل على زيادة انتاجها في مصر وتحسين مستوى الموجود منها فعلاً وبذلك نسير كأمة ناهضة نحو استكمال مالدينا من نقص بدل أن نسير وحالتنا حال التعاسة .

هذا وهناك أيضاً رسم يبين مقدار ما يوضع في الفدان من الأسمدة في مصر، وفي بعض الدول ، ومنه يتضح أن مصر ثالثة دول العالم من ناحية كثرة استعمال الأسمدة الصناعية، وهذا أمر لا يدعو الى الفخر بل يدل على أن في مصر نقصاً كبيراً في انتاج الأسمدة العضوية التي تفتقر اليها التربة المصرية والتي بها يستمر خصب أرض وادي النيل الذي اشتهر منذ القدم بالقوة وأخذ يتدهور منذ أن ابتدأت مصر في ادخال نظام الري بالمشروعات وارتفاع مستوى الماء في الأرض نتيجة كثرة الري بالراحة . ويرجع هذا النقص الى عدم الاهتمام بتربية المواشي فاذا علم أيضاً أن جميع الأسمدة الصناعية على كثرتها مستورد من الخارج لمسنا مقدار ما ينتاب الاقتصاد المصري من خروج ثمن هذه الأسمدة الى البلاد الأخرى، ويبين حاجتنا الشديدة الى انتاج الأسمدة محلياً ، الأمر الذي أخذ بعض الممولين المصريين يتجهون اليه . ونرجو أن يكتب لهم التوفيق في انتاج هذه السلع بحيث تسد حاجة مصر من الأسمدة وبأثمان تخفف بعض التكاليف على المحاصيل الناتجة حتى يستهلكها المصريون بأثمان معقولة وليمكن تصدير الفائض منها الى الأسواق العالمية .

***

فاذا قصدنا السراي الكبرى وجدنا أن بها أقساماً متنافرة الهدف فبينما نرى على اليمين مصلحة سكة الحديد، نجد على اليسار المطبعة الأميرية وكلية الزراعة والخاصة الملكية . وفي الدور العلوي نجد مصلحة الأملاك والأوقاف مع مصلحة التليفونات. وهذا يوجه تفكيرنا الى عيب أساسي في تنظيم المعروضات وتوحيد ما يخص كل فرع من نواحي النشاط الاقتصادي كالزراعة مثلاً أو الصناعة مما لم يتحقق إذ وزعت أوجه النشاط الواحد في عدد من الأبنية وفي تباعدها تشتيت لذهن المشاهد فلا يدعه يركز تفكيره في ناحية واحدة ليتسنى له المقارنة والتفضيل بين ما يراه من نشاط الجهات المختلفة .

نعود الى المعروضات فنجد أن بعض النماذج التي وضعت صنعت من الشمع ولونت بألوان زاهية لا تتفق مع اللون الطبيعي وفي أحجام شاذة مما جعل بعض الزائرين يشك

في حقيقة ما تمثله وتعذر انتاج أشباهها .

وقد وجهت معروضات الخاصة الملكية النظر الى بعث صناعة الأخشاب الدقيقة والعناية بعمل النماذج المصغرة .

***

وقد أمكن لكلية الزراعة أن تضع معروضاتها في الاطار اللائق بمعهد علمي تنبعث منه أسس التفكير السليم والقواعد العلمية والفنية للاصلاح الزراعي ويمكن حصر الاتجاهات التي تدعو اليها الكلية في أربع نواح :

١ — تركيز الحاصلات الزراعية في مناطق تخصص في أنواع منها .

٢ — الاهتمام بتربية الحيوانات والدعوة للعناية بها .

٣ — القرية النموذجية التي تتركز فيها المباني والحدائق تستخدم فيها الآلات الزراعية بدلاً من العمال والعناية بوسائل النقل السريع .

٤ — الدعوة الى التفكير في تعديل الآلات الزراعية البلدية مما يوفر مجهود العامل والماشية ويزيد في عمل الآلة .

٥ — عرض كثير من نتائج البحوث العلمية والدعوة للاهتمام ببعض الصناعات المتعلقة بحفظ الفواكه والخضر والألبان .

ويكفي أن نقرر — أن معروضات كلية الزراعية قد اتسمت بحسن الذوق الفني في معرض هذا العام، إلا أن فكرة القرية النموذجية في حاجة الى شرح طريقة التنفيذ وفق نظام حيازة الأراضي الحالي في مصر ، وهل سيكون تنفيذ ذلك على أساس النظام التعاوني أم هناك أسس أخرى ستتولى كلية الزراعة الدعوة إليها فيما بعد .

***

وفي طريق وادي النيل تتشابه المعروضات وإن اختلفت المديريات . ولا أدري كيف تهتم كل مديرية بذكر عدد المدارس والمنتظمين فيها وعدد المستشفيات .. الخ . في الوقت الذي تقوم فيه وزارة المعارف والصحة ومتحف الحضارة وغيرها بمثل هذا الأمر بأدق بيان وأحسن تعبير . رأيت في مديرية أسيوط « طاحونة » مصنوعة من البوص

وهي تدل على مقدرة صاحبها الفنية حقًّا ولكن لا قيمة لها من الوجهة العملية إلاّ إذا قصد طحن الهواء ؟؟ . وهذا يوجه تفكيرنا إلى ضرورة تشجيع هؤلاء المبتكرين الفقراء . فقد تكون العبقرية مدفونة في أسمال الفقر والفاقة،ولا يمكن أن تكشف عن سرها إلا اذا تولتها يد الصقل والتهذيب وذلك بإيفاد أمثال هذا الصبي الى معاهد التعليم الفني ليستفيد ويفيد . أما المرور على الطاحونة والإعجاب بها ، ثم منحه شهادة من الجمعية الزراعية ببراعته فأمر لا قيمة له في نظري لأنه لا يفيد مصر شيئاً .

* * *

وقبل أن نختم طوافنا بالقلم في معرض هذا العام نرى لزاماً علينا أن نذكر كلمة لا بد منها هي أننا لا نرى داعياً لأن يربط المعرض دورته بقسم للملاهي فلا علاقة بين رقينا الصناعي والزراعي وهذه الملاهي التي لا يدل إقبال الناس عليها إلاّ على أننا قوم لا نحفل بالجد احتفالنا باللهو .

* * *

واذا كان لا بد من الترفيه عن زوّار المعرض فليكن هذا الترفيه جديراً في ذاته بعيداً عن اللهو الذي لا يفيد والذي يحبب الناس في العبث

* * *

وختاماً نرى لزاماً علينا مرة أخرى أن نشكر القائمين بهذا المعرض فهو جامعة للعلوم والفنون حقًّا،ولكن مما يؤسف له أن هذه الجامعة ليس بها مدرسون يوجّهون روّادها التوجيه الصحيح الى حقيقة ما يعرض أمامهم ، فهو يسير بتوجيه نفسه دون إرشاد أو تعريف ، وليست هذه من الأهداف التي تقام من أجلها أمثال هذه المعارض .

هلال السيد الحطاب

طوفان القدم

(تابع المنشور على الصفحة ٢٤٨)

فقد أقام وسلي فكرته اللاهوتية في الجيولوجيا على القول بأن الله القادر بعد أن أتم الخلق ، ألفى أن الارض وجميع المخلوقات « حسنة جداً » ، فذهب في موعظته التي تكلم فيها عن « سبب الزلازل واتقائها » إلى انه ما من انسان يعتقد بصحة الكتب المقدسة ينكر أن "المعصية هي السبب الأدبي في حدوث الزلازل ، مهما يكن من أسبابها الطبيعية " . ثم يقول ان الزلازل هي « نتيجة اللعنة التي نزلت بالارض من جراء الخطيئة الأصلية » ووصل بين ما قرره سفر التكوين وما قال به القديس بولس من أن " الخلق كله يئن ويتألم إلى الآن " ، فوجد في ذلك الوصل برهاناً قدسياً جديداً على أن الزلازل إنما هي نتيجة زلة آدم . ثم يقول في موعظته التي بعنوان : "اغتباط الله بأعماله" انه "قبل معصية آدم لم يكن ليحدث في جوف الارض من هياج أو ثوران ، أو تقلصات عنيفة ، أو هزات أو رجات أو زلازل ، بل كانت ثابتة ثبات الأعمدة التي ترفع السماء . وعلى هذا لم يكن في الأرض انفجارات نارية ولا براكين ولا جبال محترقة " .

فمن الطبيعي إذن أن علماً يثبت أن الزلازل قد ظلت تحدث خلال أجيال وعصور قبل أن يكون للإنسان أي أثر في هذا السيار ، ويقرر فوق ذلك أن نفس هذه الزلازل التي يعتبرها هذا اللاهوتي لعنات ترتبت على زلة آدم ، إنما هي نعم وخيرات ، إذ أنها أحدثت تلك الصدوع التي يعثر الانسان فيها على العروق المعدنية اللازمة لقيام الحضارة الحديثة ، يكون ولا شبهة فوت إدراكه . وأين مقررات هذا العلم ، من اعتقاده بأن الزلازل « إنما هي أحكام الله العجيبة ، وانها النتيجة الصحيحة والعقاب العدل للخطيئة » ؟ .

على هذا أيضاً كان الرأي في الموت وفي الألم . فقد قطع في موعظته " هبوط الانسان " بأن الموت والألم إنما حلاّ بالعالم من جرّاء زلة آدم ، موقناً بأن الافتراس القائم اليوم بين صنوف الحيوان يعود كذلك إلى معصية آدم . وتكلم عن الطيور والوحوش والحشرات فقال بأنه قبل أن تنزل المعصية بالعالم وتحل به لعنتها ، " لم يحاول واحد من هذه الأحياء أن يلتهم صاحبه أو يضره بصورة من الصور " . وان " العنكبوت كان وديعاً كالذبابة ، ولم يكن ليترقب دمها متلبثاً بها ". كذلك مضى وسلي يحرض أتباعه على علم الجيولوجيا لأن هذا العلم قد أظهر من طريق البقايا الحفرية للحيوانات اللاحمة ، أن الموت والألم قد حلاّ بهذه الأرض أحقاباً بعد أحقاب قبل ظهور الانسان . على ان فضلات الحيوانات الضعيفة التي عثر بها نصف مهضومة في معدات الحيوانات الحفرية الكبيرة ، قد حطّمت كل البراهين التي أقام عليها وسلي نظريته الكبرى .

ولقد اعتنق دكتور آدم كلارك فكرات مشابهة لهذه . فقد مضى موقناً بأن صنوف الشوك والقتاد قد بُرِئت لتكون لعنة على الانسان فيكد ويكدح تبعاً لمعصية آدم ، وانها ظهرت في الارض أول مرة عقيب هبوطه ، وكذلك رتشارد واطسون ، وهو أخصب كتاب عهد الاصلاح الانجيلي ومؤلف " النظامات " وهي مثال المقالة اللاهوتية المؤيدة لوجهة النظر الانجيلية ، فانه قال في فصل عقده عن " المعصية " ، وبخاصة الحيّة التي أغرت حوّاء : " ليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن الحيوان قد لابسته الصورة الثعبانية بأيّ حال قبل ذلك الانقلاب الخلقي الخطير . وانه إذ مسخ فصار زاحفاً يمشي على بطنه ، فإن ذلك يدل على تغير كلّي ونقصان في الصورة الأصلية " . أما ذلك التهايؤ الطبيعي العظيم الذي يصل بين الحية وبين بيئتها ، والذي هو موضع انبهار الطبيعيين ، فلم يكن عند

الوسليين من رجال الدين أكثر من شر نزل بمقتضى خطيئة آدم وحواء . وهنا أيضاً اضطر العلم الجيولوجي أن يواجه اللاهوت بأن يكشف عن آثار الحيات الكبرى في العصر الفجري من العصور الجيولوجية ، تلك التي تقدمت ظهور الانسان بأحقاب متتالية .

كانت النتيجة المباشرة لهذه التعاليم صادرة عن أمثال هؤلاء الرجال ، أن تصد الكثيرين الذين لولا هؤلاء لعمدوا إلى المشاهدة والبحث العلمي ، وأن ترجعهم إلى الأخذ بالأساليب المدرسية القديمة . ومن ثمت أينعت ثانية طريقة حل ألغاز الكون بالكلام وبالعبارات المنمقة . ففي سنة ١٧٣٣ روج دكتور تيودور أرنولد لنظرية « المُثُل » موقناً بأن الحفريات إنما هي نتيجة « تماسك دقائق مادية حدث في حالة الخلق فأبدع الخالق نماذج للمخلوقات والاشياء فوق الارض وفي باطنها . وقد فاز كتاب « أرنولد » بقبول شامل كامل .

***

على هذا كان تأثير هذه المنظومة من عظام اللاهوتيين ، حتى انه قرابة انتهاء القرن التاسع عشر ، كان المنابذون من الانجليز لعلم الجيولوجيا مستندين إلى القواعد الانجيلية ، كما لو انهم قد اكتسحوا كل شيء أمامهم . فإذا نظرنا في مجموع ما ورثناه من الأدب المقدس وقسناه بمقتضى قواعد النظر التاريخي ، نرى ان ذلك الأدب قد جزع كل الجزع من تلك الأخطار التي تنشأ مما يوحي به علم الجيولوجيا ، وبخاصة إذ يثبت أن الأرض أقدم عمراً بكثير من ستة آلاف السنة التي احتاج اليها « يوشر » رئيس الأساقفة ، تفسيراً لنصوص العهد القديم . ولم يقتصر هذا الشعور بالجزع على رجال الكنيسة وحدهم . فإن « ولسيمس » وهو من مفكري

المدنيين ، قد قرر أن مثل هـذه البحوث إنما تقود إلى الـكفر والالحاد ، وانها بمثابة : ,, أن تنزل الله القادر وخالق الـكون عن مكانته الحقـة ،، . ولقـد انضم الشاعر ,, كوبر ،، الى هذه البيئة ، فنظم في الاتجاه العامي الجديد شعراً ، نبذه به ونفـاه قال : ,, حرث بعضهم الارض الصلبة ، وبعضهم فجـرها ، ومن طبقاتها استخلصوا سجلاً نعرف منه أن ,, هو ،، الذي خلقها ، وأوحى بتاريخها إلى موسى ، كان مخطئاً في تقدير عمرها ،، .

Some drill and bore
The solid earth, and from the strata there
Extract a register, by which we learn
That He who made it, and revealad its date
To Moses, was mistaken in its age;

Cowper.

وأهاب ,, يوحنا هووارد ،، برجال انجلترا أن يعارضـوا : ,, تلك المذاهب العلمية التي تحاول أن تصرف العقل العام عن كل علاقة له بالنصرانية » .

***

بالتهجم على العلم الجيولوجي من طريق العقيـدة في خطيئة آدم ، استمرت الحملة من ناحية أخرى قائمة على تفسير النصوص الدينيـة تفسـيراً حرفيـا . كذلك اعتمد معارضو هذا العلم على تلك القشور الخرافية التي تتضمنها الـكتب المقدسة واستمسـكوا بها وأنزلوها من القيمة منزلة التعاليم الأدبية والحقـائق الدينية المنبثة في تضاعيف تلك الـكتب . ولقـد كان لخرافة ,, الأيام الستة ،، ، بأمسياتهـا وإصباحاتها [1] ، والعبارات الواضحة المعينة لزمان حـدوث كل جزء من أجزاء

(١) لدى القول وكان صباح وكان مساء يوماً ثانياً أو ثالثاً وهكذا .

الخليقة ، شأن خاص في مهاجمة العلم والنيل من حقائقه . ومن أجل أن يفوز اللاهوتيون بهذه الخرافات سليمة ، استعرت نار المعركة واشتد لظاها .

ولقد استمرّت المعركة حامية الوطيس في انجلترا حتى زمان ليس بعيداً عن ذكريات رجال عاشوا في العقدين الأولين من القرن العشرين . وانها لمعركة تسلح فيها رجال اللاّهوت بكل ما وصل إلى يدهم من عدّة ، مصوبين قذائفهم نحو علم ناشىء ينير ما أظلم من نواحي العقل البشري ، حتى لقد أصمّوا بدويّ أسلحتهم آذان العالم المتمدين .

تلقاء الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت الصيحة بالكفر والتدليس والتجديف والتهجم على كتاب الله ، سلاح رجال من الكنيسة .مثل المحترم « ملن براون » و « هنري كول » وغيرهما ، يطعنون به علماء الجيولوجيا جميعاً وبغير استثناء ، ويرمون به باحثين من خواص النصارى مثل دكتور « بكلاند »، والأسقف « كونيبير » و « پاي سميث » والاستاذ « سدجويك » .

* * *

أمّا السّلاح المفضل عند أهل الجمود وحزب الأرثوذكسية ، فكان اتهام الجيولوجيين بأنهم يتهجمون على الحق الإلـهي . ولقد قالوا بأن علم الجيولوجيا موضوع محظور بحثه والتفقه فيه ، وحرّموه على أنه « فن أسود » وأنه « خطر ومنبوذ » وأنه مجال حرام ، وأنه سلاح جهنمي وأنه تحدٍّ ممقوت بشهادة الوحي .

ولما أنس رجال اللاهوت أن هذا الأسلوب لم ينجح في إرهاب أولئك الذين اشتغلوا بالعلم ، جنحوا إلى حركة أخرى شتيتة المناحي . وإذا شئنا أن لا نذكر انجلترا ، فإن من أشد الأشياء تحقيراً للطبيعة البشرية أن نذكر تلك الأعمال المسفة،

بل المحاكمات التي اتخذها أضيق الناس عقولاً في أمريكا وسيلة للنيل من علماء النصرانية ، أمثال بنيامين سليمن وإدوارد هتشكوك ولويس أغاسيز

ولكن من واجبنا، ومما نغتبط به كل اغتباط ، أن نذكر هنا رجلاً عظيماً من نابهي علماء النصرانية ، مَجَّد الدين وكرّم نفسه بأن قبل مقررات العلم واعتقد بها وآمن بموحياتها ، بالرغم من كل هذه الصرخات المدويات . هذا الرجل هو نيقولاس ويزمن الذي عرف فيما بعد باسم الكردينال ويزمن . فان سلوك هذا العمود الشامخ من أعمدة الكنيسة الرومانية ، كان على النقيض من سلوك أولئك الأفاكين من بروتستانت الانجليز ، الذين ملؤا الدنيا عويلاً وأفعموها صياحاً وتشهيراً .

***

وهنا ينبغي لنا أن نذكر أن معركة من أكثر المعارك لذة وتسلية قد حدثت في «نيو انجلند» فان الأستاذ استيوارت «من كلية أندوفر» وكان قد كُرّم وارتفع شأنه باعتباره دارساً متعمقاً في العبرانيات ، قد مضى يقول بأن الكلام في ستة أحقاب متطاولة تمّ فيها الخلق ، قذفٌ في الكتب المقدسة ، وأن سفر التكوين إنما يذكر ستة أيام ، كل منها مساء وصباح ، لا ستة دهور . .

فأجابه الأستاذ «جيمس كنجسلي» من كلية «ييل» في مقال امتاز بعُمق الفكرة ورقة الحاشية ، بأن سفر التكوين يذكر بوضوح ودقة أن السماء جسم صلب ، كما يذكر ستة أيام عادية . فاذا كان الأستاذ «استيوارت» قد استطاع أن يتخطى إحدى الصعوبتين ويؤمن بنظرية كوبرنيكوس ، فانه في مستطاعه

كذلك أن يتخطى النانيـة ويؤمن بحقائق الجيولوجيا . وكانت المعركة سريعة فاصلة ، انتصر فيها العلم .

* * *

ربما كان الأسقف ,, كوكبرن ،، هو صاحب أروع محاولة لصد علم الجيولوجيا عن المضى في سبيله المحتوم . فقد نزع إلى أساليب أهل اللاهوت في القرن الثامن عشر ، فعمل على أن يكتسح مؤيدي هذا العلم في الميدان . ولم يكن له من معرفة ثابتة بذلك العلم ، فصب عليهم قذائف من الوقاحة والشتم ، واتخذ المنابر والصحف والكتب الخاصة أداة لها . ومن فوق المنبر في ,, يورك منستر ،، امتهن ,, ماري سومرفيل ،، بالذات من أجل دراساتها العميقة في الجغرافيا الطبيعية ، تلك الدراسات التى مجدت اسمها في أنحاء العالم كله .

ولكن سخطه الأعظم قد انصب على ,, الجمعية البريطانية لتقدم العلوم ،، فقد نشر رسالة هاجما فيها ، طبعت خمس مرات في خلال عامين ، وأرسل إلى رئيسها كتباً بالتهديد والوعيد والانذار ، وانتحي أساليب جعلت الحياة سعيراً على أمثال سدجويك وبوكلاند ، وغيرهما من أعلام الباحثين ، الذين عملوا على إذاعة الحقائق الجيولوجية كما اهتدوا اليها .

* * *

سرعان ما اتضح أن هذه الأسلحة مفلولة قليلة الجدوي . كانت أشبه بالأجراس الصينية ، إزاء المدافع الكبيرة . فمضى العمل العلمي بخطى وئيدة متزنة .

اسماعيل مظهر



أعظم المخترعات في سنة ١٩٤٨

سئل عالم أمريكي ، رأيه في أعظم مخترعات سنة ١٩٤٨ فسردها كما يلي : —

أولاً — استنباط الدقائق الذرّية المسماة «ميزونات» [١] وهي التي قد تحل معضلة المادة

ثانياً — تمكن الطائرات اللامروحية [٢] ذوات الدفع الغازي ، من الطيران بسرعة تفوقها في الصوت ، اذ أنها فتحت عصراً جديداً من عصور الهواء .

ثالثاً — اثبات كون تناول حبة واحدة من حبوب البنيسيلين [٣] ، عقب تعرض متناولها للاصابة بداء السيلان ببضع ساعات ، يكفي لوقايته من ذلك المرض العضال

رابعاً — تركيب الجليسرين صناعيًّا من النفط (الزيت المعدني) وبذلك أصبح ميسوراً استخراجه تجاريًّا مستقلاً عن المواد الدهنية .

خامساً — اكتشاف الأوريومايسين والپوليمكسين — وهما دواءان ناجعان لعلاج الأدواء التي تعجز عن شفائها مركبات السلفا وغيرها .

سادساً — اتمام اختراع المقراب — التليسكوب — البالغ قطر مرآته ٢٠٠ قيراط وانجاز تركيبه [٤] في مقره . وهو أكبر أنواعه في العالم بأسره ، إذ يستطيع رؤية أعلى الطبقات الجوية العالمية التي لم يظفر بكشفها أي راصد كان ، فيما غبر من الزمان

سابعاً — الترخيص رسميًّا لجهازين من محطمات الذرّة ، في انتاج قذائف ذرّية تنافس الأشعة الكونية .

ثامناً — انتاج مطاط صناعي [٥] . تجاري أصلح من المطاط الطبيعي في مزاياه الكيميائية .

---

(١) الميزون أو الميزوترون — دقيقة من دقائق المادة ، غير ثابتة ، تحمل شحنة كهربية سلبية . ووزنه يعادله في الكهرب ٢٠٠ مرة . ويعتقد العلماء أنها ثمرة من ثمار تحلل الاشعة الكونية . وتسمى أيضاً باريترون . (٢) وصفت هذه الطائرات في مقال مسهب نشر في مقتطف يوليو سنة ١٩٤٧ . (٣) وصفت هذه الاقراص ومنافعها في مقتطف ابريل سنة ١٩٤٧ (٤) ذكرت جريدة المقطم في ٤/٦/١٩٤٨ — في برقياتها — بعنوان أكبر مرصد في العالم — موات بلومار — في ٤ / ٦ / ٤٨ احتفل أمس بافتتاح أكبر مرصد في العالم بحضور عدد كبير من العلماء . ويبلغ قطر طاكس الضوء فيه ستة أمتار . وسيوضع على قمة جبل بالومار . وتكلم بهذه المناسبة كثيرون من الخطباء فأبانوا أن نظارة المرصد الجديدة تبيح معرفة هل كان كوكب المريخ مسكوناً . أو غير مسكون (٥) وصفت المطاط الصناعي وذلك في باب الاخبار العلمية بمقتطف يوليو سنة ١٩٤٢

تاسعاً — اكتشاف القمر الخامس من أقمار السيار أورانوس[1]، ومداره حول مركز جاذبيته ٣٠ ساعة .

عاشراً — استخدام النيوترونات لاكتشاف أسرار المادة ، عن طريق نماذج الصور الفوتوغرافية الخاصة بانعطاف الضوء

علاج داء السيلان بحبة واحدة من البنيسيلين

ثبت حديثاً كون داء السيلان يُتاح توقيه ، ببلع حبة واحدة من البنيسيلين (كما تقدم القول في النبذة الأولى) وذلك عقب تعرض المصاب للاصابة به ببضع ساعات . كما جاء في تقرير قدّمه الى المختصين ، الدكتور هاري إيجل الطبيب في المعهد الأهلي الصحي التابع لوزارة صحة الولايات المتحدة الأمريكية ، قال فيه إن هذا العلاج العفني المشهور قد ثبتت قوته من قبل في شفاء إصابات السيلان . فأصبح ميسوراً كسر شوكة عدواها المتتابعة وذلك بهذه الوسيلة الوقائية الهينة ، التي ستفضي بعد حين الى استئصال شأفة هذا المرض ، وقد أيد هذا التقرير خمسة آخرون من أطباء وزارة البحرية الأمريكية إذ قالوا إن الحبوب التي استعملت لهذا الغرض كانت من الأقراص المعتادة المرموز لها بحرف ج . G التي تؤخذ عن طريق الفم بموجب الوصفات التي يكتبها الأطباء لأولئك المرضى على أن يتناولها المصاب بعد ساعتين من استهدافه للداء .

أما إذا أخذ يتناولها عقب فترة تتفاوت بين ١٢ ساعة و ١٨ ساعة من الاصابة كان لزاماً عليه بلع حبتين ، مرة واحدة كل ست ساعات . ولكن ليس لهذا العلاج زمن محدد .

تنظيف الشرايين المسدودة

قدم الدكتور لويس بازي كبير جراحي مستشفى سانت لوبز في باريس تقريراً الى المؤتمر الاكلينيكي السنوي الذي عقدته كلية الجراحين الأمريكيين وذلك في شأن جراحة جريئة سوف تكون مصدراً لاحداث انقلاب أساسي عظيم في الجراحة ، هو ترميم الشرايين البشرية التي تنسدّ بتأثير الأمراض أو الاصابات المختلفة . وتتضمن هذه الطريقة الفنية فتح الشريان فتحة يبلغ طولها قدمين وكشط المادة التي تعوق سير الدم فيه . ثم إغلاقه وتركه حتى يشفى بنفسه . وتدل هذه المقدمة العلاجية على كونها ستصير يوماً ما

(١) أورانوس — كوكب سيار من المجموعة الشمسية ، هو سابعها في البعد عن الشمس . وتبلغ أقرب مسافة بينهما ١٧٨١ مليون ميل . وقطره ٣١٠٠٠ ميل . وله أربعة أقمار أي نجيمات تدور حوله .

نعمة للانسانية، إذ يعالج بها المصابون بداء تصلب الشرايين ، لأن الأطباء كانوا عادة يخشون عاقبة نزع المحتويات الداخلية التي في أجواف العروق ، معتقدين أن ازالتها تزيد الشرايين انسداداً ، فثبت من الجراحات المائة التي قام بها هذا الطبيب الفرنسي المجرّب ، في السنة الماضية ، أنّ هاتيك المشتملات حينما تزال ، تحل محلها طبيعيًّا الكريات الدموية البيض ، وذلك عقب عودة الدورة الدموية الى حالتها الطبيعية الأصلية في جسم المصاب الكهل أو الشيخ. وقد ظهر تحسين جليّ في الدورة الدموية في ٦٥ إصابة من مائة الحالة التي عالجها الطبيب المشار اليه .

الكاپوك في المعرض الزراعي الصناعي السادس عشر

قرأت أول مرة ، في شبابي ، وصف هذا النبات الطريف ، وذلك في إحدى المجلات الانكليزية العلمية المؤرخة في ٢٧ يوليوسنة ١٩١٥ ثم كتبت فيه نبذة نشرتها في باب الأخبار العلمية بمقتطف يناير سنة ١٩٤٣ . وما كنت لأتوقع أن استمتع ذات يوم بمشاهدته مزروعاً في بلادنا ، لذلك كان دهشي عظيماً واغتباطي جزيلاً إذ رأيت هذا النبات العجيب في جناح معروضات مزارع انشاص التابعة للخاصة الملكية حيث أبصرت نموذجاً منه معروضاً في صندوق زجاجي مغلق ، وذلك في الطابق السفلي من السراي الكبرى بالمعرض الزراعي الصناعي الحالي . فآثرت أن أكتب عليه الفذلكة الآتية :—

الكاپوك K pok أو الكاپوك اسم غريب لمادة تحشى بها الحشايا « المراتب » والمناطق التي يتمنطق بها الناس وقاية من الغرق ، والوسائد « المخدات » والنمارق ، وتبطن بها الملابس ، وتصنع منها الأشعرة « الملابس الداخلية » . وهو صنف من الزغب الحريري ، يشبه القطن . بيد أنه يتميز عنه بكثير من المزايا . فضلاً عن كونه يكاد ينافس الصوف وهو مشتملات لوز بزور أنواعٍ معينة من أشجار الفصيلة النباتية المسماة بومبا كشيا المعروفة بأشجار القطن الحريري ، التي تزرع في جزائر جاوى والفيليبين والانتيلا وبلاد البرازيل والهند وسائر الأقاليم الحارة . وكما ان القطن ينتج من بزور نبات القطن ، كذلك يتولد الكاپوك من الجدران الداخلية للوز نبات الكاپوك . وهو كمية من شعر نباتي دقيق ناعم متلبد بعضه مع بعض . وطول كل شعرة منها يتفاوت بين ثلث قيراط « بوصة » وقيراط كامل . وتختلف ثخانتها بين $\frac{1}{1000}$ و $\frac{3}{1000}$ من القيراط . وتزن الياردة المكعبة من الكاپوك ، اذا أحكم كبسها ، عشرين رطلاً انكليزيًّا .

ثمّ إن الميزة التي تجعله نافعاً جدًّا ، هي

مقاومته المفرطة للحرارة، إذ هو من أقوى المواد المشهورة ، غير الموصلة لها . ويقال إنه أشد « دفئاً » من الصوف وأخف منه ست مرات ، بحيث أن المعطف الذي يصنع من نسيج الكابوك يكون خفيفاً جداً . ومع ذلك فإنه يقي لابسه البردَ إذ يحول دون نفوذه الى بدنه كما يمنع إفلات الحرارة من جسده أيضاً . وترجع هاتان الخاصيتان ، الى كثرة وجود الهواء في هاتيك الألياف . وهذه الميزة هي ، مصدر كون الكابوك أنفع مادة لصنع الحصر والمناطق الواقية من الغرق . إذ يستطيع وهو في الماء العذب حمل ثقل يعادل وزنه ١٧٥ مرة . لذلك ترى المرء الذي يرتدي صُدْرة « صديريّا » من نسيج الكابوك ، يطفو كالفلين على سطح الماء ، حيث لا يعتري رداءه التلف ، أيّاً كانت درجة تشبعه بالماء . لأن الماء لا يمكنه إبلاء شعور الكابوك الخالية من مادة البروتوبلازم (المادّة التي تتكوّن منها خلايا الأجسام الحيّة) إذ هي غلافات سليولوزية ناعمة غير صالحة لغذاء الميكروبات ولا تؤذيها الهوام .

البوليمكسين

هي مادة كيميائيــة تتولد من البكتيريا التي توجد في التربة والماء . وقد تمّ تركيبها حديثاً لإبادة الجراثيم . وثبت كونها أقوى من الاستربتومايسين . وذلك في علاج بعض الأمراض الجلدية وتحل محل الاستربتومايسين في معالجة بعض الأمراض الشديدة . ومن الأدواء التي يمكن علاجها بهذه المادة الكيميائية الجديدة ، الطاعون وحمّى مالطة وأنواع معينة من الالتهاب السحائي والحمى التيفودية وتسمم الدم وغيرها من الأسقام .

عوضين هنري

عقار جديد للقضاء على الجراثيم

أُجريت في كلية الأطباء والجراحين بجامعة كولمبيا بمدينة نيويورك تجارب بنوع جديد من عقاقير السلفا أُطلق عليه تجاريّا اسم دارفيزول (Darvisul) وقد أسفرت التجارب عن نجاح في وقف انتشار سم الفيروس (Polio Virus) في أجسام الفيران . ومع أن العلماء الأمريكيين المشتركين في مكافحة مرض شلل الأطفال يحرصون على أن يقولوا أن العقار الجديد يجب أن تجري به تجارب كبيرة فإنهم يؤكدون أنه أول عقار يستطيع اختراق الخلايا التي تدخل فيها الجراثيم ويحصنها ضدها بحيث تتلاشى . ومما يذكر أن إسم الفيروس يؤدي في حالة شلل الأطفال الى وفاة أو تكسيح مئات من المصابين به في كل سنة .

وقد لوحظ أن لتأثير دارفيزول ثلاث نواح كما جاء في بيان أصدرته جامعة كولمبيا فأولاً ، أدّى هذا العقار الى شفاء الفيران من مرض التهاب المادّة السنجابية في الحبل الشوكي . وثانياً ، أصبحت للفيران التي شفيت مناعة ضد الإصابة بالمرض مرة أخرى ، وثالثاً انه عند ما أعطيت جرعة واحدة منه منع الإصابة . وقد اتضح أن لدارفيزول مفعولاً يفسد مفعول مائة جرعة مهلكة من جرعات سم الفيروس الذي يصيب الفيران عندما تحقن بعد مضي أربع وعشرين ساعة من ادخال الفيروس في أجسامها . وقد ماتت جميع فيران الفئة غير المحصنة من جرعات صغيرة جداً . ومن ناحية أخرى من نواحي الدراسة وجد أن جرعة واحدة من دارفيزول أنقذت حياة ٥٠ ٪ من الفيران التي أصيبت بسم الفيروس بعد ادخاله في أجسامها بست أو سبع ساعات .

وتجري الآن تجارب بدارفيزول على القردة المصابة بما يشبه شلل الأجسام البشرية وتجري تجارب أولية لمعرفة تأثير العقار على الكائنات البشرية ، ويقوم بها الباحثون في خمس من المستشفيات والجامعات . ومن أجل هذه التجارب حذّر الدكتور مري ساندرز ، أحد أساتذة جامعة كولمبيا ، من التمادي في التفاؤل أو التشاؤم بشأن عقار دارفيزول .

ومما قاله : لا نعرف مدى تأثير دارفيزول على مرضى التهاب المادة السنجابية في الحبل الشوكي للكائنات البشرية . ولكن ثبت في المعامل ان العقار سيكون له شأن يذكر في مكافحة الفيروس . ومن جهة أخرى لا يوجد ما يبرّر ما يزعمه البعض من أنه ناجع في شفاء ذلك المرض . ولا يمكن أن يذاع أي بيان عنه إلاّ بعد التحقيق من أن مفعوله سيكون ناجعاً .

ومع ذلك ذكر الدكتور ساندرز ان دارفيزول هو أول مادة كيميائية عرف أنها توقف انتشار سم فيروس من أي نوع . والمعروف أن الفيروس واحد من أنواع الكائنات الحية الثلاثة التي تسبب المرض في معظم الحالات . أما البكتريا والريكتسيا فهما النوعان الآخران . وكانت مكافحة جراثيم الفيروس وما زالت أصعب من مكافحة النوعين الآخرين لأنها تكمن بين الخلايا الحية وغير الحية وتتكاثر كالكائنات الحية ولكن مفعولها كمفعول مادة كيميائية .

وغني عن القول ان اكتشاف عقار له قوة القضاء على جراثيم الفيروس التي لم يتوصل العلماء الى الآن الى طريقة للقضاء عليها يمهد السبيل للانسان للتغلب على هذه الجراثيم نهائياً . وربما ساعدت المواد الكيميائية التي تقضي على الفيروس على ضمان شفاء المرضى بالانفلونزا والحمى الصفراء والتهاب الدماغ وغير ذلك من الامراض التي تسببها جراثيم الفيروس

ونظراً لنجاح التجارب التي أجريت بإبادة دارفيزول على الفيران للقضاء على جراثيم الفيروس ينتظر أن يكون له مفعول قوي بالنسبة لجميع الأمراض التي تسببها هذه الجراثيم. وأوضح الدكتور ساندرز ان مفعول العقار لا يصل مباشرةً الى جراثيم الفيروس الكامنة في جسم الفار بل يصل الى خلايا الأنسجة. وأضاف الى ذلك قوله :

ان هذه النتيجة تدل على أن المركب الكيميائي يستطيع تغيير فسيولوجيا الخلية بدون إبادتها ويجعلها في الوقت نفسه مكاناً غير صالح لتكاثر جراثيم الفيروس. ولم يحدث حتى الآن أن اكتشف عقار يستطيع اختراق الخلايا التي تدخل فيها الجراثيم ويحصنها ضده في حين أنها المركز الرئيسي الذي تنفث فيه جراثيم الفيروس سمومها.

وقد أعدَّت الجامعة تقريراً وصفت فيه البحوث التي قام بها الكيميائيون الصناعيون في الولايات المتحدة لمكافحة جراثيم الفيروس وأدَّت الى انتاج عقار دارفيزول. وقد استعمله الدكتور ساندرز في تجارب استغرقت ما يقرب من سنة على اكثر من ١٢٫٠٠٠ فأر.

بحرية الولايات المتحدة

تتعاقد على صنع منطاد ضخم

تعاقدت البحرية الأمريكية مع شركة جوديير لصناعة الطائرات على صنع منطاد أخف من الهواء ولم يسبق أن صنع مثيل له من حيث الضخامة.

وسيبلغ حجم المنطاد الجديد ما يقرب من ضعف حجم أي منطاد استخدمته البحرية لمكافحة الغواصات في أثناء الحرب العالمية الثانية، وهو يستطيع الطواف فوق البحار الى مسافات بعيدة، ومن مواصفاته أن طوله ٣٢٤ قدماً وعرضه ٧١ قدماً وارتفاعه في أعلى نقطة ٩٢ قدماً وستكون فيه أمكنة لاستراحة الضباط والجنود. وسيكون له محركان من طراز «رايت سايكلون» قوة الواحد منهما ثمانمائة حصان، ولن يستطاع اصلاح المحركين في حالة الطيران.

***

ورؤي أن يعمل في المنطاد الجديد أربعة عشر ضابطاً وجندياً، على أن يعمل فريق منهم ويستريح الفريق الآخر في مكان بعيد عن المحركين والدفة. وستعد به صالة وغرفة للمائدة مزوَّدتين بموقد كهربائي للطبخ وثلاَّجة وستكون لكل محرك مروحة قطرها ثمانية عشر قدماً ومتصلة بالمحرك بوساطة جسر ومثبتة على شخطورة المنطاد. أما جهاز الحركة فسيصنع بحيث تدير المحرك.

الواحد مروحة واحدة ، وكلتا المروحتين .

وهناك تغيير في التصميم العادي للمنطاد تدل عليه وجود ثلاث عجلات لها تروس للهبوط وسيحتاط في صنع عجلتي القيادة بحيث تكونان متصلتان لكي يتسنى للقائد أو مساعده أو كلاهما استعمالها بسهولة في وقت واحد .

أما الغلاف الخارجي للمنطاد فيصنع من منسوج صقيل مغطى بالمطاط الصناعي وهي طريقة جديدة لصنع غلاف المنطاد الذي يقل وزنه عن وزن الهواء . وسيستوعب المنطاد الجديد ٨٢٥٫٠٠٠ قدم مكعب من غاز الهليوم .

تحضير حامض التانين صناعياً

توصل الكيميائيون الامريكيون الى تحضير حامض التانين صناعياً لدبغ الجلود الثقيلة . وقد أثبتت التجارب التجارية ضيقة النطاق التي أجريت به صلاحيته فيما يتعلق بالتكاليف وجودة الجلود المدبوغة به . ولم يتم تحضير حامض التانين صناعياً إلا بعد بحوث استغرقت عدة سنوات ودعت إليها الحاجة الى ايجاد بديل عن حامض التانين الذي يستخرج من الخضروات نظراً لأن الكميات التي يمكن تحضيرها محلياً تتناقص باستمرار . وهو يستخرج عادة من شجرة أبي فروة التي كادت تعدم صلاحيتها تجارياً بفعل الآفات الزراعية ، وتحتاج الولايات المتحدة لكميات من حامض التانين اللازم لدبغ جلود الأحذية قدرها ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ رطل أي ما يساوي ١٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو جرام .

***

ومما يذكر أن هذه المادة الكيميائية الجديدة هي أول حامض تانين صناعي حضر في الولايات المتحدة بتكاليف توازي تكاليف حامض التانين الطبيعي الذي يحضر محلياً أو يستورد . أما فيما يختص بتركيبه الكيميائي فهو «دايالديهايد» أي أنه مركب من الكربون والهيدروجين والاوكسجين وهو بمثابة حلقة اتصال بين بروتين جلد الحيوان ومادة القلفونية وهما بامتزاجهما يحيلان الجلد غير المدبوغ القابل للتلف الى جلد مدبوغ يبقى سليماً على الرغم من مرور الوقت . وقد دلت التجارب على أن العملية الجديدة تستغرق أقل من نصف الوقت اللازم لدبغ الجلود بالطريقة المألوفة .

وينتظر أن يعم استعمال حامض التانين الصناعي الذي ابتكره المستر وينهايم ، من كيميائيي شركة بلانتري الكيميائية بمدينة سنت لويس بولاية ميسوري ، بالتعاون مع المستر ادوارد دوهيرتي من كيميائيي شركة بونا الين بمدينة بوفورد بولاية جورجيا . وقد وصف الجلد المدبوغ به بأنه ذو لون فاتح يميل الى لون الزبدة ، كما أنه ناعم الى الدرجة التي يريدها الدباغون والذين يستعملون المصنوعات منه .

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

لحق المقتطف

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ مايو سنة ١٩٤٩ ٣ رجب سنة ١٣٦٨

طوفان القدم

صراع بين اللاهوت والعلم

— ٣ —

طوفان نوح
ومحاولة التوفيق بين اللاهوت والعلم

نظرية ان الحفريات سببها الطوفان - قبول هذه النظرية عند الكاثوليك والبروتستانت - بيرنت ، ويستون ، وودوارد ، مازوريه - إنكريز ماذر ، شوخزر ، نظرية فولتير في الحفريات — جهود ضائعة في سبيل تنوير رجال الكنيسة من طريق النظر العلمي - تقدم العلم بتؤدة - اعمال كوفييه وبرونيار - معارضة غرانفيل بن - انحياز سيرليل وبوكلاند الى الناحية العلمية - تسليم اللاهوتيين - بقايا المعتقد القديم - القضاء الاخير على النظرية التقليدية باستكشاف القصة الكلدانية عن الطوفان - نتائج المعارضة اللاهوتية للعلم .

قبل نهاية المعركة التي أتينا على وقائعها في الصفحات السابقة بزمان طويل ، بل في عهد مبكر جداً ، اتضح لبعض المدافعين عن الأرثوذكسية ممن امتازوا بعمق الفكرة والتبصر ، ما في الأسلحة المدرسية من الوهن وقلة الجدوى . ولما تجلت لهم تلك الصعوبات التي اكتنفت الحملة اللاهوتية المألوفة على العلم ، بادر

كثير منهم إلى العمل على عقد هدنة . بذلك بدأ الطور الثالث من أطوار تلك الحرب — طور المحاولة في سبيل التفاهم والتوفيق بين الناحيتين .

أما الوسيلة التي لجأ اليها هؤلاء « التفاهميون » أو « التوفيقيون » فانحصرت في القول بأن الحفريات هي من مبدعات طوفان نوح .

كان هذا الاتجاه اتجاهاً قوياً ، بمقتضى أنه قائم في الظاهر على نص الكتب المقدسة . وكان له ، بالاضافة إلى ذلك مبرر كنسي ذو بال ، بحكم أن بعض آباء الكنيسة كانوا قد قالوا بأن البقايا الحفرية ، حتى تلك التي وجدت في أشمخ الجبال ، إنما تمثل حيوانات أبادها الطوفان . وقد استمسك « ترتليان » بهذه النظرية استمساكاً ، كما ظن القديس أوغسطين أن سناً حفرية عثر عليها في شمال أفريقية ، هي واحدة من أسنان عملاق من العمالقة التي نوهت بهم الكتب المقدسة .

* * *

في القرن السادس عشر خاصة ، اتجه الرأي نحو هذه النظرية وأضفى عليها أولئك الذين اقتنعوا بتفاهة التعليلات المدرسية ، قيمة ووزناً كبيراً . ولقد قبلها رجال من أعظم رجال المعسكرين ، الكاثوليكي والبروتستانتي . وكان مارتن لوثر أعظم رجال اللاهوت الحديث الذين روجوا لهذه النظرية . فقد وضح له أن العبارات والاستطرادات المدرسية ، لا تستطيع أن تواجه الصعوبات التي تثيرها قضية الحفريات ، فنزع بالطبع إلى إثبات أن أصلها إنما يرجع إلى طوفان نوح .

بهذا سيطرت تلك الفكرة على العالم النصراني ، وزُيّن للناس أنه ما من شيء في مستطاعه الوقوف في سبيلها . غير أنها قبل نهاية القرن السادس عشر اعترضتها بعض العقبات . فقد أوضح « برنارد باليسي » ، وهو من أبعد علماء فرنسا نظراً وأدقهم ملاحظة ، كما أنه من أثبت النصارى عقيدة وإيماناً ، أن هذه النظرية فاسدة

من أساسها . وأظهر غيره من الباحثين ذوي النُّهى ، وبخاصة في إيطاليا ، صحة رأيه . ولكن ذلك كله ضاع هباءً وذهب سُدًى . تبدد كل جُهد بذله رجال طيبون أمناء في محاولة الكف من تلك الأضرار التي رأوا أنها سوف تصيب الدين إذا ما ربط بنظرية علمية ، كان من المحقق أنها ستنفجر فتذهب أباديد . وظلت نظرية أن الحفريات إنما هي بقايا الحيوانات التي أغرقها الطوفان ، العقيدة الراسخة للعديد الأكبر من زعماء اللاهوت زهاء ثلاثة قرون ، على أنها "النظرية المعقولة" وعلى أنها الطريق المختار للتقريب بين مقتضيات العلم ، والنصوص المقدسة . ومن أجل أن تؤيد هذه النظرية القدسية ، حفزت الهمم وبذلت الجهود ، من جانب الكاثوليك والبروتستانت على السواء .

قبلها الأب البنديكتي «كالمت» في فرنسا وبشر بها في كتابه عن «الانجيل» . حدث ذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، إذ مضى معتقداً أن عظام "المستودون" التي عرضها "مازوريه" هي عظام الملك "طوطوبوقوس" Teutobocus ، واتخذها شهادة حية على وجود العمالقة الذين ذكرتهم المقدسات ، وعلى أن سكان الأرض الأولين قد طاح بهم الطوفان .

ولكن أعظم مؤيِّدي هذه النظرية ظهر في انجلترا . ولقد رأينا من قبل ، كيف أن "توماس برنت" عند انتهاء القرن السابع عشر ، قد مهد الطريق في كتابه "النظرية المقدسة في الأرض" فنفى مستكشفات "نيوتن" وأظهر كيف أن الخطيئة قد حطمت أساس الغور الأعظم ، كما رأينا أن "وستون" في كتابه « النظرية الجديدة في الأرض » بتسليمه بعض الشيء وقبوله مستكشفات "نيوتن" قد أدخل في الأرض مذنباً ساعد على إحداث الطوفان . ولكن يوحنا وودوارد أستاذ كلية جريشام ، كان أنبه من هؤلاء أثراً وأعلى ذكراً . فقد كان زعيماً

من زعماء الفكرة العلمية في جامعة كمبردج ، ومن كبار المنقبين عن الحفريات العاملين على تفسير معانيها وغوامضها ، فحاز بعلمه أسمى مسوغات الاحترام والتبجيل . وفي سنة ١٦٩٥ نشر كتابه « تاريخ الأرض الطبيعي » ، فخدم به العلم من طريق أنه سلّم بحقيقة ثابتة ، وبذلك هدم الأساس الذي تقوم من فوقه النظرية القديمة في الحفريات . فقد أظهر أنها ليست من ألهيات الطبيعة ولا هي نماذج زج بها الخالق في تضاعيف الطبقات الأرضية لغرض غير مستبان ، بل إنها بقايا حقيقية لحيوانات كانت حية ، كما قال اكزينوفانس قبل ألفي سنة وبذلك أدّى خدمة عظيمة للعلم وللدين . غير أن نصوص العهد القديم وقصة الطوفان وتلك العبارات المشهورة في رسالة القديس بطرس، قد استقوت عليه بسلطانها العظيم ، فراح يقول بأن الحفريات قد خلفها طوفان نوح . ولقد ساعده سلطانه في أن يزود الحملة على العلم بقوة وعنفوان عظيمين : فعرض « مازوريه » عظام ممّوث عثر بها في فرنسا ، على أنها من عظام العمالقة الذين ذكرتهم المقدسات ؛ وفعل الأب طروبيا نفس الفعل في اسبانيا ؛ وأرسل إنكريز ماذر إلى انجلترا بقايا عثر بها في أمريكا مؤيداً بها نفس الاتجاه .

ومن أجل أن يتم تثقيف المؤمنين في العلم اللاهوتي ، علقت تلك العظام التي هي عظام العمالقة المذكورة في الكتب المقدسة وعرضت علانية في الأسواق . ولقد رأى جوريو بعضها معلقاً في كنيسة من كنائس مدينة والنس . وعمد هنريون مدفوعاً بقوة تلك العوامل الى وضع قوائم حدد فيها هنريون جسوم أسلافنا في عصر قبل الطوفان ، فقضى بأن طول آدم كان ثلاثة وعشرين ومئة قدماً وتسع بوصات وأن طول حواء كان ثمانية عشرة ومئة وتسع بوصات وتسعة أجزاء من البوصة !!!

غير أن أعظم خدمة أدّيت للنظرية اللاهوتية قد جاءت من صقع آخر .

في سنة ١٧٢٦ استكشف شوخزر عظاية حفرية كبيرة، فعرضها على الناس متخذاً منها شاهداً إنسانياً على الطوفان. ولقد استقبل ذلك الاستكشاف العظيم بالتهليل في كل مكان، فقد خيل إلى الناس أنه لا يثبت أن البشر قد أغرقهم الطوفان لا غير، بل يثبت أيضاً أن هنالك عمالقة عاشوا من قبله. وكوّن نظرية أن ينابيع الغور الأعظم قد فجرتها يد الله بفعل مباشر، وأن هذا الفعل، إذ وقع أول شيء على محور الأرض، قد أوقف الأرض عن حركتها الدورانية، وفجّر ينابيع الغور الأعظم، ففارت المياه المختزنة فيه، وكان الطوفان. ولم تقف خدمته للعلم اللاهوتي عند هذا، فانه جهّز نسخة من الأناجيل زودها بعدد عظيم من الصور المحفورة التي تؤيد وجهة نظره، وفرضها على القراء فرضاً وألزمهم إياها إلزاماً. ولقد اختص الطوفان من هذه الصور بأربعة وثلاثين.

في خلال هذه الأحداث مرت فترة كانت إلى الهزل، ولكنها كانت ذات أثر بالغ في الإرشاد وحسن التوجيه. ذلك بأنها تظهرنا على أن محاولة تحوير استنتاجات العلم بحيث توافق مقتضى العقيدة، قد يُضلّ التفكير الحر كما يُضل التفكير المقيد بالمقدسيات.

حوالي سنة ١٧٦٠ ترامى إلى فولتير خبر استكشاف حفريات بحرية عثر بها في أصقاع مرتفعة في مختلف أنحاء أوربا. كان لفولتير مذهب لاهوتي يؤيده، بالرغم من معارضته الشديدة لكتب العبرانيين المقدسة. ولقد روّعه أن تتخذ هذا الاستكشاف سبيلاً إلى تأييد القصة الموسوية عن الطوفان، فاستجمع كل قوته البيانية وراح يسخرها في تأليف أدلة وبراهين ليثبت أن تلك البقايا هي بقايا أسماك حملت لتتخذ طعاماً، فلما فسدت ألقى بها المسافرون في الطريق، وأن الأصداف الحفرية إنما ألقى بها الصليبيون اتفاقاً لدى عودتهم من الأرض المقدسة

وزاد إلى ذلك أن العظام الحفرية التي عثر بها بين باريس وإيتان، إنما هي بقايا هيكل عظمي اختزنها فيلسوف قديم في صومعته". وتتابعت من قلم فولتير الفصول تلو الفصول، مستجيباً لمقتضى الضرورات التي فرض أن مذهبه اللاهوتي يحتاج إليها، ومضى يكافح كل نتائج العلم الجيولوجي التي ذاعت في عصره.

ولكن أشد ما أصاب النصرانية من أضرار التحامل والحقد، قد أتى من طريق الإمعان في الجهد مبذولاً من تلك الناحية التي حاولت أن تظهر أن الحفريات إنما سببها طوفان نوح.

لم يقم في فكر المؤيدين للأهوت أن هنالك من فرض أو حيلة أو وسيلة هي من العنف بحيث تحملهم على تجنبها والاقلاع عنها — إذا هم رأوا أنها حيوية لتأييد نص الأناجيل. وباتخاذ ماجاء فيها من الاشارات العابرة والعبارات الغامضة على أنها الحق الثابت، والاستمساك بأن ذلك الشعر المقدس هو حقائق نثرية لامبدل لها، وتفسيرها تفسيراً حرفياً صرفاً، أقام أتباع "بارنت"، و"وستون"، و "وودوارد" رأياً كان له من العلاقة والأثر في علم الجيولوجيا، نفس ما كان لكتاب "قوزماس" — الطبوغرافية النصرانية في علم الجغرافية. وعبثاً ضاعت كل الجهود التي بذلت في إقامة البراهين الجيولوجية والحيوانية والفلكية على أنه لم يقع من طوفان عام، أو طوفان غمر جزءاً كبيراً من الأرض في خلال ستة آلاف العام المنصرمة، أو في خلال ستين ألف سنة مضين. وسدى ذهب كل ما فعل الأسقف كلايتون وهو من مستنيري أهل الكنيسة في سبيل القول بأن الطوفان لا يمكن أن يكون قد امتد لأكثر من البقعة التي عاش نوح فيها. وكذلك تبددت جهود غيرهم أمثال الأسقف كروفت والأسقف ستيلنجفليت وماتيو بول وهو من المنشقين، في سبيل إثبات أن الطوفان ربما لم يكن عاماً شاملاً

وجه الأرض كلّه . بل عبثاً ما أظهر الباحثون من أن الطوفان حتى لو كان عامّاً شاملاً ، فإن الحفريات لا يمكن أن تكون أثراً من آثاره ولا يمكن أن يكون السبب فيها .

لم يكن هنالك من جواب على هذه الحقائق إلاّ اللجوء إلى النصوص المقدسية ، وأن كل الجبال الشوامخ التي هي على ظهر الأرض والتي هي تحت السماء قد غمرت . ومن أجل أن يضفي على هذا البحث حصانة دينية أعلن وورتنجتون ، ومن على غراره من الرجال ، إن محاولة إقامة أي برهان على أن الحفريات ليست من مخلفات الحيوانات التي أغرقها طوفان نوح ، كفر ومروق من الدّين . ومضى الاعتقاد في انجلترا وفرنسا والمانيا قائماً على أنّ الحفريات إنما هي تركة خلّفها طوفان نوح ، بل ذاعت الفكرة في أن الاستمساك بهذا المعتقد ضروري للخلاص الأخروي .

ولكن العلم ظلّ يتقدم بخطى متزنة . لم يقفه من شيء ، لا قوة الكنيسة ، ولا الرسوم المحفورة البارعة التي زين بها « شوخزر » طبعة الأناجيل ، وبذلك أخذت الأسس التي تقوم عليها النظرية اللاهوتية تتداعى وتضمحل . على أن عملية الهدم كانت بطيئة ولا شبهة . لقد احتاجت عشرين ومئة سنة حتى يتسنى للحقائق كما بيّنها الله في الطبيعة أن يجلوها باحثون من طراز هوك وليناوس وويثهرست ودوينتون وكوفييه ووليم سميث ، وأن يتسللوا بحقائقهم من وراء تلك الأخطاء المتراكمة والأغاليط المتراصة المتراكبة ، لينشروا رسالة التّنور مجلوّة في عبارات احترزوا فيها كل الاحتراز حتى لا تستثار اللاهوتية الهوجاء ، وليتهيّأ لهم أن يبثوا ألغامهم في أصول تلك الأوهام . حتى اذا استهلّ القرن التاسع عشر ، كان العلم قد بلغ من القوّة مبلغاً لا يقاوم . وشق الطريق أفذاذ من العلماء مثل فون بوك وبلومنباخ وشولتيهم ، ولكن أثر كوفييه في الغارة كان طرازاً وحده . ففي

السنوات الأول في ذلك القرن أخذت بحوثه في الحفريات تلقي ضوءاً لامعاً على علم الجيولوجيا . ولا شك في أنه كان من غلاة المحافظين ، ممعناً في الحذر والكياسة ، بل انه كان عند قولة فولتير : « بين الذئاب يستحب الحذر بعض الشيء » . كان عصره عصر رجعية ، فقد هادن نابوليون الكنيسة ، والعبث بهذه الهدنة معناه الخيانة . ولقد استطاع كوفييه بما اصطنع في التصورات الغامضة الفضفاضة ، أن يرضي رجال اللاهوت ، في الوقت الذي بث فيه ألغامه القوية في أمنع قلاعهم . ولقد أدرك الخطر بعض المؤيدين للكنيسة . أدركوه بغريزتهم اللاهوتية ، وكان « شاتو بريان » رجلهم الطرازي . ففي كتابة " عبقرية النصرانية " وهو من الكتب العظمى في عصره ، التافهة في عصرنا ، عالج مشكلات الخلق ، معتمداً على المخادعة ، مستمداً من عبارة في " البدء "[1] دليلاً استند عليه في القول بأن الخلق لم يتم دفعة واحدة ، بل بظهورات كانت موجودة من قبل . ولكن الانتصار الحقيقي كان من نصيب " برونيار " الذي نشر كتابه في الحفريات النباتية سنة ١٩٢٠ ، فأقام به سداً لم يقو على اقتحامه أعداء العلم .

ومع هذا كله لم تنته المعركة ، بل تجدد الأمل في كسبها ، إذ قام على قيادتها " غرانفيل بن " في انجلترا .

قامت نظريته على أساس القول بأن " كرة الأرض قد جرى عليها انقلابان : الأول : الخلق ، والثاني : الطوفان ، وكلاهما حدث بأمر الله وحكمه الذي لا يرد " ومضى يوقن بأن الخلق قد تم في ستة أيام من أيامنا العادية ، لكل منها " مساء وصباح " . واختتم بحثه بعبارات من تلك التي ألفها الناس ، بان أهاب بكوفييه وغيره من الجيولوجيين أن " ينتحوا المسالك القديمة ويسلكوها حتى يبسطوا

(١) « في البدء خلق الله السموات والارض » سفر التكوين الاصحاح الاول :

مذاهبهم ويرجعوا عما قالوا به من حدوث انقلابات متوالية في سطح الأرض ، الى القول بانقلابين اثنين أو حادثين : أيام الخلق الستة ، وطوفان نوح . غير أن الجيولوجيين لم يستجيبوا لهذا الدعاء ، بل على العكس من ذلك أعلن رئيس الجمعية الجيولوجية البريطانية ، والأسقف " بكلاند " ، وهو جيولوجي نابه من رجال الكنيسة ، إنهما يعترفان بأن الحقائق قد أجبرتهما على أن يطرحا نظرية أن حفريات العصر الفحمي قد طمرت في طوفان نوح ، وان ينكرا أن الطوفان كان شاملاً .

شعر الحزب الأورثوذكسي خاصة بما في خروج " بكلاند " من أثر وقيمة . ولقد اتخذ من كفايته وأمانته وولائه لصناعته العلمية إذ كان راعياً لكنيسة " كرِيْسِت " ، وأستاذاً لعلم الجيولوجيا في جامعة اكسفورد ، سلطاناً ومَدَداً استخدمهما كاملين في تهدئة زملائه من رجال الدين . ففي أول محاضرة له ، حاول بجهد أن يظهر أن الجيولوجيا تؤيد عبارات الخلق والطوفان كما يذكرها سفر التكوين ، وفي سنة ١٨٢٣ ، وبعد أن أظهرت كشوفه في مختلف الكهوف بما لا سبيل الى رفضه أو إدحاضه قِدَمَ الأرض بل إمعانها في القدم ، كان لا يزال متشبثاً بنظرية الطوفان على ما جاء في كتابه " الآثار الطوفانية " Reliquiae Diluviae

على أن هذا لم يرض الحزب المعاند للعلم ارضاءً تاماً . فاتخذت هجماتهم عليه صورة هي الى السخرية أكثر منها إلى البغض والمقت . والمثل على ذلك هجاء كتبه " شاتِلْوُرْث " ، الذي صار فيما بعد أسقف «شيستر» مقلداً به الشاعر بوب في سفره الذي هاجم به « نيوتن » : وقد جرى هذا الهجاء على النمط الآتي :

(ذات مرة قامت بعض الشكوك عن الطوفان ، فلما تصدّى لها « بكلاند » صفى الأمر صفاء الطين) .

"Some doubts were once expressed about the Flood :
Buckland arose, and all was clear as mud".

عندما غادر «بكلاند» جامعة أوكسفورد في رحلة الى جنوبي أوربا، سُمع الأسقف «جيسفورد» يقول متنفساً الصعداء: «حسن. لقد ذهب بكلاند الى إيطاليا، فحمداً لله إذ سوف لا يأتينا مزيد من هذه الجيولوجيا».

ظلت العاصفة على هدوئها النسبي ونزل بعض الاطمئنان بالقلوب ما ظلَّ «بكلاند» مؤيداً «للنظرية الطوفانية». ولكن عند ما ألقى سلاحه وسلَّم، استعر أوار المعركة، وتبدَّلت الأهاجي والصور الاستهزائية، بهجمات عنيفة مريرة، وانهال عليه من المنابر والصحف سيل من الإهانة والقذف. أما أقذع القذف فقد انصبَّ على سير «شارلز ليل». وقد رأينا أنه نشر كتابه مبادىء الجيولوجيا في سنة ١٨٣٠. وما من كتاب كان أمعن من هذا الكتاب حذراً وتلطفاً. جمع فيه مؤلفه جملة المستكشفات التي وصل إليها الباحثون لعهده، واستخلص منها الاستنباطات الضرورية بأبين سبيل وأثبت منطق. ولذا يعتبر الى الآن من الكتب التي يفخر بها العالم الأنجلو سكسوني — ذلك بأنه أحد الشواخص البينة في طريق الفكر الانساني.

ولكن النزعة في هذا الكتاب كانت بالضرورة مخالفة لتلك الاساطير الكلدانية وغيرها من الخرافات التي راجت عن الخلق والطوفان وانتحلها العبرانيون بعد أن نقلوها عن مدنيات جاورتهم وكانت أقدم من مدنيتهم، ثم أدمجوها في الكتب المقدسة التي رموا بها الدنيا الحديثة. فكان نصيبه الرفض البات القاطع.

استمسك اللاهوتيون ورجال العلم الذين نهجوا نهجهم بأن الاقلال من شأن التغايرات الجيولوجية واعتماد «ليل» على الفعل التدرجي الصادر عن علل طبيعية لا تزال تعمل الى الآن، قد هدَّد النصوص القدسية في الخلق. ولم يترك مجالاً

لتدخل المعجزات . ولما رأوا أنه قد قضى على فكرتهم الأثيرة في الانقلابات الجيولوجية العظمى التي انتابت سطح الأرض ، وفي الحفريات المديدة وانها أثر من طوفان نوح ، وإنه أظهر أن الخلق يحتاج الى زمان أطول بكثير من ذلك الزمان الذي يمكن استنتاجه من تأريخات العهد القديم وأنسابه ، انفجر غضب الأورثوذكسية انفجاراً ذريعاً مخيفاً . فهاجمه زعماء الكنيسة الكبار بلا رحمة . وقد ظل زماناً في مجال "النبذ الاجتماعي" ، لأن الكنيسة لم يكن في يدها إذ ذاك أن تفعل به أكثر من هذا .

***

ولما لم يجد هذا غير قليل ، اتخذ جانب العلم وسيلة الى تحطيمه ، وأغري به "كوفييه" بسلطانه وعنفوانه . ولكنه ظهر غير بعيد أن هذه الوسيلة لا غناء فيها ، لأن المفكرين لم يصغوا "لكوفييه" ، وأصغوا الى "ليل" . أما كتاب "كوفييه" الذي سماه "نظرية في تكوين الأرض" وهو من كتب الأرثوذكسية المعروفة ، ففقد قيمته في اعتبار رجال العلم ، فلم يطبع طبعة ثانية . في حين أن كتاب ليل قد طبع اثنتى عشرة طبعة متوالية . وظل أساساً ركيزاً من أسس الفكر الحديث .

ممن وصفوا بالاعتدال من معادي «كوفييه» العالم «فيرهولم» صاحب كتاب «الطوفان الموسوي» الذي ظهر في سنة ١٨٣٧ . وقد ذهب الى أنه من المتعذر أن يكون قد نزل بالأرض أمثال تلك التقلصات المبكرة التي يفرض الجيولوجيون وقوعها ، لأنه من المستحيل أن يقع طوفان "قبل أن تحدث تلك الجريمة الأدبية" أي قبل خلق الانسان . ولقد عبر بجمل منيرة عن أسفه على ماوقع فيه رئيس الجمعية الجيولوجية والأسقف "بكلاند" من القصور وقلة

التبصر ، معارضاً أولئك الجيولوجيين الذين " يعضون وأعينهم مغمضة عما أوحى به الله بكل وضوح وبيان " .

ومع هذا مضى الجيولوجيون ينقبون عن الحق . فإن الجرثومة التي غرسها " وليم سميث " خاصة ، قد نشأها وربيها منظومة كريمة من الباحثين الذين حققوا للعلم نصراً مبيناً . ذلك في حين أن أولئك اللاهوتيين الذين شعروا بأن انتباذ العلم على أنه كفران وإلحاد لا يجدي غير قليل ، راحوا يتبعون طرائق جديدة توفق بين حقائق الجيولوجيا وسفر التكوين . ولقد أظهر بعضهم فراهة بينة . ولكن سلطاناً دينياً مجتاحاً ، كان يخمد جذوتهم ويحط من عزمهم بأن يدمغهم حيناً بعد حين بأنهم متطرفون خياليون . على أن هذه المحاولات قد اختلفت وتباينت من حيث المنزلة والقيمة . ولكن الحقيقة التي صبغتها جميعاً كانت مزيجاً من العلم قلَّ أم كثر ، بمقدسات تزيد أم تنقص ، فتخرج منها نتائج هي الى البعد عن العقل بمقادير متفاوتة . وبالرغم من أن قليلاً من الرجال قد عكفوا على هذه الطريقة متفرقين فان التسليم وإلقاء السلاح من جانب ذلك الحزب الذي نابذ حقائق الجيولوجيا بأسطورة طوفان نوح ، كاد يكون تاماً .

من الشواهد الأولى على أن هذا التسليم كان كاملاً ، ما رواه الجيولوجي ، المعروف دكتور " و . ب . كاربنتر " . ويحسن بنا أن ننقل هنا كلماته بنصها قال : —

" إنك لتعرف كتاباً ذا قيمة كبيرة هو كتاب دكتور " سميث " المسمى " معجم الانجيل " . وإني لأعرف الملابسات التي أحاطت بترتيب هذا المعجم فإن فكرة الناشر والمشرف عليه قد اتجهت الى أن يتضمن المعجم من بحوث النقد الحديث ونتائجه ما يطابق روح المحافظة مطابقة شريفة معتدلة . وتمَّ لهم الرأي

على أن لا يعارضا علم الجيولوجيا، ولكن القول بشمول الطوفان كان من المبادىء التي تشددا في الاستمساك بها. فعهد المشرف بالمقال الخاص بالطوفان لعالم ثقة عظيم الكفاية، فلما وصله المقال ألفى أنه ممن في الهرطقة مغال من التحرر من القديم، فلم يقو على وضعه في المعجم. ولم يتسع الوقت لكتابة مقال آخر لهذه المادة، حتى أنك اذا تصفحت هذا المعجم وجدت أن مادة «الطوفان» قد أحالت على مادة فيضان [1]. وقبل أن يصل ترتيب المعجم الى مادة «فيضان» طلب المشرف مقالاً آخر من مصدر ظن أنه من المحافظين الذين ينشدون سلامة الدين. فلما وصله المقال، وجد أنه أنكى من الأول وأقذع، فكتب مقال ثالث اتخذت فيه كل الحيطة ليكون أمين المتجه سليم المغبة. فاذا نظرت في كلمة «فيضان» [2] وجدت أن الكاتب أحالها على مادة «نوح»، حيث كتب مقال عهد به الى استاذ ممتاز من أساتذة جامعة «كمبردج»، أتذكر أن الأسقف «كولنسو» ذكره مرة لي فقال: إن كاتبه قد حاذر محاذرة تامة في تحريره حتى أنه أهمل الكلام في هذا الأمر اهمالاً تامًّا. ومن هنا ترى تحت أية صورة من صور الكبت وقعت الفكرة العلمية وأي جهد بذلت في هذه الناحية من البحث».

شهد تاريخ هذا الصراع تسليماً آخر شبيهاً بهذا، فإن «هورن» أصدر طبعة جديدة من كتابه «مقدمة الأناجيل» وقد اعتبر كتاب الأرثوذكسية المثالي، فأسقط منه بغير جلبة ولا ضوضاء فكرة اتخاذ الحفريات برهاناً على شمولية الطوفان.

(١) كلمة طوفان Deluge تأتي في الترتيب المعجمي قبل كلمة فيضان Flood فأحال المعجم عليها.

(٢) وكلمة فيضان Flood تأتي قبل كلمة نوح Noah فكأن المشرف على هذا المعجم قد أحال «طوفان» على «فيضان» فلما لم يفز بمقال يطابق وجهة اللاهوت أحال «فيضان» على نوح، ثم لم يكتب في هذه المادة شيء يفي بحاجة العلم.

كذلك وقع في أمريكا ما يشبه ذلك سنة ١٨٤١ . فان أستاذاً من نابهي الباحثين في التفسيرات والآداب الانجيلية في كلية الكنيسة البروتستانية الأسقفية ، هو دكتور „ صموئيل ترنر ،، قد استجاب للحق فاعترف به مثبتاً بذلك أنه جدير بإيمانه النصراني وشجاعته الأدبية . ولقد نبذ ذلك النزاع القديم واطرحه جماعة عظيمة من الجماعات النصرانية ، عند ما قام بعيد ذلك رجلان جليلان من رجال الدين اتصفا بالتقوى والعلم الواسع ، تابعان للكنيسة النظامية الأسقفية ، فأدمجا في „ الموسوعة الانجيلية ،، التي طبعت باشرافهما ، ملخصاً كاملاً للبراهين الجيولوجية والفلكية والحيوانية المثبتة أن طوفان نوح لم يكن شاملاً وإنه لم يشمل رقعة واسعة من سطح الأرض ، فلم يعترض على هذا العمل رجل واحد في أي فرع من فروع الكنيسة الأمريكية

كانت سنة ١٨٦٢ هي الحد الفاصل بين النزعة القديمة وبين الأخذ بالأساليب الحديثة من جانب رجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، عند ما نبذ « روش » أستاذ اللاهوت في جامعة « بون » في كتابه « الانجيل والطبيعة » النظرية الطوفانية القديمة ، وأنحى على مؤيديها بقارص النقد ، وأثبت النتائج التي أقرها العلم .

ولكن على الرغم من أن النظرية المقدسة التي اتخذت من طوفان نوح وسيلة تدفع بها الصعوبات التي أقامها العلم كانت قد أخذت في الاحتضار ، فان نواحي من الفكر قد مضت أمينة عليها مخلصة لها مستمسكة بها .

ففي بلدان الكتلة الرومانية احتضنت النظرية القديمة وبشر بها في المطبوعات ومن فوق المنابر ومن كراسي أساتذة اللاهوت . ولقد دلّ البابا « بيوس التاسع » على حدبه عليها عند ما منع المؤتمر العلمي الايطالي من الاجتماع في مدينة بولونيا سنة ١٨٥٠ .

وفي سنة ١٨٥٦ هنأ الأب ,, دوبرين ،، لاهوتيي فرنسا على موقفهم الرائع قال : ,, إنهم بغريزتهم لا يزالون يستمسكون باستمداد الفكرة في الحفريات من طوفان نوح ،،. وفي سنة ١٨٧٥ نشر الأب ,, شوايـيه ،، في باريس وفي ,, أنجير ،، متناً رحب به رجال الكنيسة أعظم ترحيب وأجازوه بصدق عقيدة ، وقد نحى فيه مثل ذلك المنحى . وفي سنة ١٨٧٧ نشر الأب اليسوعي ,, بوسيزيو ،، Bosizio في ,, ماينس ،، مقالاً عنوانه ,,الجيولوجيا والطوفان،، ، فجهد أن يرد الدنيا الى الوراء بأن يحمل الناس على الاعتقاد في الحل القديم لتلك المشكلة العلمية ، جانحاً الى القول طبعاً الى أن أيام الخلق إنما هي أحقاب متطاولة ، ولكنه كفّر عن إجازة هذا القول بعبارات السخرية التي رمى بها ,, درون ،، .

وفي سنة ١٨٦٩ قال «مكاريوس» رئيس أساقفة الكنيسة الروسية الرومية في لتوانيا بضرورة الاعتقاد في أمرين : هما الخلق في ستة أيام عادية وفي طوفان نوح، وانهما السبب في كل الأشياء التي يحاول علم الجيولوجيا تبيانها . وبعد ذلك بسنين أي في سنة ١٨٧٦ قام لاهوتي نابه من نفس الكنيسة وذهب لأبعد مما ذهب صاحبه ، فأنكر على المؤمنين أن يعتقدوا بحدوث أي تغيير منذ ذلك « البدء » الذي ذكره سفر التكوين ، عندما نضدت طبقات الأرض وخُططت ثم صُدّعت ، ورصّعتها يد الله بالحفريات في خلال ستة أيام عادية .

في الفرع اللوثري من الكنيسة البروتستانية تجاوبت الأصداء بمثل هذا المعتقد . فان « كايل » أستاذ جامعة « دوربات » الذي نبه ذكره في التفسيرات الانجيلية ، ألف مقالة نشرها في سنة ١٨٦٠ حكم فيها بأنّ علم الجيولوجيا قد ارتدّ عقباً ، وأن تعليلاته قد سقطت بحكم حقيقتين كبريين : الأولى — اللعنة التي طردت آدم وحوّاء من الجنة ، والثانية ـ الطوفان الذي قضى على جميع الأحياء ماعدا نوحاً وأسرته

والحيوانات التي حملها في الفلك . وفي سنة ١٨٦٧ تقدم « فيلبّي » وتبعه « ديتريش » في سنة ١٨٦٩ ، وكلاهما لاهوتي ذائع الصيت ، فانتحيا ذلك المنحى واتجها ذلك المتجه في المانيا ، وحاول ثانيهما أن يضرب العلم والعلماء ضربة تردها الى حظيرة الدين ، فقال عبارته المشهورة : إن من حق علم الجيولوجيا أن ينظر فيما هو كائن ، لا في مناشيء الأشياء . وهي عبارة رنانة ولكنها خاوية كالقصبة الجوفاء .

وحتى سنة ١٨٧٦ كان «زوجلر» من مؤيدي هذا المتجه ، واجتمع عليه لفيف من اللاهوتيين أقل منه شأناً ، وأخذوا يبشرون به للناس من فوق المنابر وفي الصحف لعلهم يقسرون الفكر على الأخذ بما يضاد العلم ، فلم يكن لعملهم هذا من نتيجة اللهمّ إلاَّ ان تزداد الشكوك التي تساور المفكرين في النصرانية ، وبخاصة بين ناشئة الشباب الذين فقدوا كل ثقة في قضية هذه براهينها وعُددُها .

ذلك بأنه في حوالي ذلك العهد أُصيب المتجه التقليدي في الطوفان بضربة قاتلة ، وبطريقة لم تكن متوقعة . فان بحوث « جورج سميث » في الألواح الأشورية المحفوظة في المتحف البريطاني حوالي سنة ١٨٧٢ ، ومن بعد ذلك في بلاد أشور نفسها ، قد كشفت بما لا يترك مجالاً لشك أو ريب ، أن كثيراً من الأقاصيص التي يتضمنها سفر التكوين ، إنما هي في أصلها أساطير وخرافات كلدانية قديمة تكيفت وحلّ بها بعض التغيير .

ولم يقم البرهان على ذلك فيما يختص بأقاصيص الخلق وهبوط الانسان ، بل قام أيضاً على الطوفان بصورة واضحة قاطعة . أما اللوحان الحادي عشر والثاني عشر وهما اللذان يتضمنان أهم هذه النقوش ، فقد ظلاَّ سليمين تقريباً ، وهما يقصّان أساطير سجلت في الحجر خلال زمان أوغل بكثير من عصر موسى قدماً ، وتتناول فيما تتناوله أشياء جديرة بدنيا الانسان اذ كان في طفولته ، فتذكر بناء الفلك

للفلك من الطوفان ، والعناية بتدريز خشبه ونجاة انسان تحبه السماء ، واختياره وأخذه في السفين من كل ضروب الحيوان زوجين اثنين ، ثم تقفل باب الفلك وارسال أفراد من الطير عندما أخذ الطوفان يتناقص ، وتقديم القرابين والأضحيات عند ما غاض الماء ، وفرح « الموجود القدسي » الذي صنع الطوفان عند ما استنشم ريح القربان بمنخريه . ذلك في حين أنه في خلال هذه الأسطورة قد أضفى على العدد « سبعة » وهو العدد الكلداني المقدس من الهيبة والاحترام ، ما تقع على مثله في أساطير سفر التكوين وفي الكتب العبرانية المقدسة جميعاً .

تبع ذلك ظهور باحثين تفانوا في البحث واستماتوا في سبيل العلم من أمثال «سايس» في انجلترا و «لينورما» في فرنسا و « شرادار» في المانيا ، واتبعوا جميعاً نفس الطريق الذي سار فيه « جورج سميث » فكانت نتيجة بحوثهم أن نبذت الأسطورة العبرانية في الطوفان ، تلك الأسطورة التي عمل اللاهوتيون خلال أزمان متلاحقة على أن يلزموا البحوث الجيولوجية إقرارها ، حتى لقد رفضها في تؤدة وهدوء خواص علماء النصرانية ، وأضافوها الى عالم الخرافة ودنيا الأسطورة .

قامت محاولات متفرقة لتبدد من قوة هذا الكشف العظيم ، ولقد اتضح أن الخوف من ذيوعه ونشره في الناس ، قد أثر تأثيراً حقيقياً في سلطان رجال الدين النصراني وحدّ من عنفوانه .

ومع كل هذا فان انتحال الأساطير الكلدانية وبثها في تضاعيف المقدسات العبرانية ، هو أحد البراهين الدامغة على قيمة الأناجيل النصرانية من حيث دلالته على نزعة تقدمية نشأت في الانسان . فإن الأسطورة الكلدانية تعزو حدوث الطوفان أول شيء الى الشهوة المطلقة لإله بعينه من بين عديد من الآلهة هو (بعل) . أما القصة العبرانية فعبارة عن تكييف لهذه الأسطورة عزى به الطوفان

الى العدل الصمداني والبرّ الرباني الصادرين عن إله واحد . وهذا يظهر نا بصورة قاطعة على درجة من التطور أرقى طبيعة وأنبل عاطفة ، إذ هي تتلمس سبباً أدبيّا لتبرير مثل هذه الكارثة العظمى .

ومما يبعث على أشد الأسف أنه حتى بعد أن بلغ العلم هذا المبلغ ، فإن سياسة انكار مثل هذه الموحيات العلمية الجديدة كانت عامة على وجه التقريب ، اللهمّ ، إلاّ إذا استثنينا فئة قليلة من ذوي العقول الفذّة من رجال الدين ، أما السبب في جمود هذه النزعة في بلدان الكثلكة الرومانية وبلدان البروتستانية على السواء ، فلا يعوزنا العثور عليه الى كثير من الجهد . ولا حاجة لنا هنا بأن نمضي في التعريف بالحالة التي كان عليها فكر الأوساط من الناس في فرنسا وإيطاليا . أما في المانيا ، فعلينا أن نذكر حقيقة مثالية هي أنه في سنة ١٨٨١ لم يكن في كنائس برلين من الوسائل إلاّ ما يتسع لاثنين في المئة من مجموع سكان المدينة ، بل كانت هذه الوسائل أكثر من الحاجة . لا تدل هذه الحقيقة بطبيعة الحال على اضمحلال الروح الديني عند الشماليين من أهل المانيا ، فإن المعروف أنهم شديدو التدين والروح الديني على أشده بينهم . ولكن السبب في ذلك راجع في الأكثر الى أن حقائق العلم البسيطة تسرّبت الى نفوس الناس وتشرّبتها عقولهم ، في حين أن الحزب الغالب في الكنيسة اللوثرية قد ظلّ يرفض هذه الحقائق ، ومضى يفرض على الناس ضرورة التفسير الحرفي للنصوص المقدسة ، ويلزمهم الزاماً عقيديّا بها . وتلك نزعة كان العقل الألماني قد شبّ عن طوقها وأفلت من أصفادها . ولا شك في أن ذلك سوف يكون نصيب كل جماعة ينتحي فيها رجال الدين هذا المنحى ويتبعون مثل هذا الأسلوب . ولا مشاحة في أن هذا يحز في قلب كل مفكر مهما كانت نزعته الدينية . وأن هيئة دينية مستنيرة مفكرة تقية ، هي في كل مكان وحينما تكون ، نعمة ورحمة .

اسماعيل مظهر

جذوة

كلما أمعن أمسي في البعادِ   لم يَشُقني ذخرُ يومي وغدي
أينم الحاضرُ لكنَّ فؤادي   زاهدٌ في الصبوات الجُدُدِ
ناكصٌ إثرَ هوى غيرِ معادِ   كلفاً بالمديرِ المبتعدِ
يا له عهد جموحٍ وتَجَنٍّ ! !

يا لها ساعة غيٍّ وانطلاقِ   من حدودٍ خطها لي رَشَدي !
إذ تلاقينا فأغراني التلاقي   وتهافتُ على الثغر الندِي
وجنيت الشهد من حلو المذاقِ   واشتهى..لو يشتفي ثغري الصدِي !
يوم أدركت المُنى بعد التمني

يوم أن أغراني الشوقُ المطيفْ   بجنى حسنك فامتدت يدي
تتحرّى ما طوى البُرْد الطريفْ   من خفايا حسنك المنفردِ
فتلظت جذوة الوجدِ العنيفْ   في كياني القلِقِ المرتعدِ
أغربي يا ذِكَر الغابرِ عني

لاحقتني صورٌ لا تضمحلْ   للقاءٍ أزليٍّ سرمدي
يومَ أن وردَ خديك الخجلْ   فسترت الوجهَ عني باليدِ
واستوى قدُّكِ يعنو للقُبَلْ   مستقرًا ... يا له من مشهدِ !
خِلتُه آية فنٍّ، أي فنٍّ !

ضاق ذرعي بشفوفٍ وحُلَلْ   حجبتْ سحرَ الجمال المرتدي
فانثنتْ كفي الى تلك الكِلَل   ونَضتْها عن قطوف الجسدِ
فتجلت آية تعشي المُقَلْ   بهرتْ لُبِّي وشفّت كبدي
يقتفيني طيفها بالرغم مني

كلما عادت بيَ الذكرى الى   ذلك الماضي تداعى جلَدي
عهد حب مرَّ إلاَّ أملا   واصلاً ما بين أمسي وغدي
ليت ما بينهما انبتَّ فلا   يزدهيني ممعنٌ في البُعُدِ
أيها النسيان أجِلْ وأعِنّي !

محمد منير الشوباشي

نظرات في النفس والحياة

— ١٥ —

تكملة نظرات جورج أليوت سويفت

(١) بين النساء من يدفعها طبعها الى الحماقة حيناً بعد حين وتستنفد جهد شراستها في وقت قليل ولا تستعيده إلا بعد مدة من الزمن فيستريح أهلها . ولكن بين النساء من تعد من أهل الخير والتضحية ومحبة ذويها وهي لا ترفع صوتها في شراسة، ولكنها لا تفتأ طول يومها تنكد حياتهم بصوت منخفض باللوم والشكوى والتأنيب والمخالفة وبتذكيرهم أحزان أمس وما قد يُتَوَقَّع من أحزان غدهم، وتبكي إذا سمعت خبراً ساراً، كما تبكي اذا سمعت خبراً محزناً، فهي دائماً بين بكاء السرور وبكاء الحزن . وهذان الصنفان مشاهدان في الرجال أيضاً، وإن كان البكاء أغلب على النساء فأي الصنفين أثقل على القلب ؟ . المشاهد ان الناس يفضلون الصنف الأول مهما كانت شراسته لأنه يعطي معاشريه فترات راحة . ومن أجل ذلك قد يمدح معاشر الرجل الشرس هذا الشرس فيقول (قلبه طيب — أو قلبه أبيض) وربما كان السبب ان صاحب الوقاحة والشراسة اذا هدأت حدّة طبعه شعر باعتدائه على الناس بهما، فيلين ويلطف، وملاطفته لشدة اختلافها عن شراسته ولأنها غير متوقعة تكون ذا أثر أعظم في النفس ممّن ملاطفته الناس أمر معتاد مألوف . أما الملاطفة الممنوعة النادرة فهي تفاجىء النفس مفاجأة سارّة كما قال الشاعر (أحب شيء الى الانسان ما مُنِعا) . أما الرجل والمرأة من الصنف الثاني فإنهما لدأبهما على الشكوى والتململ واللوم والتذكير بالأحزان يكادان يبلغان بأهلهما الى درجة الجنون . وأشد من هذين الصنفين الرجل والمرأة اللذان يجمعان صفات الصنفين : شراسة متقطعة وتململاً دائماً .

(٢) للطبيعة لغة وهي لغة صدق لا تكذب، ولكنا لا نعرف قواعدها فنخطىء اذا حاولنا معرفة معناها ، ونحسب أن العين الفاترة الفاتنة الساحرة ذات الأهداب الجميلة

الطويلة دليل على الصدق والأمانة ، ولكن صاحبتها قد تكون ورثت عينيها عن جدتها ، وورثت أخلاقها وطباعها عن مصدر وراثي آخر ، فتجمع بين العين الفاترة التي تدعو الى الاطمئنان ،وبين الغش والمكر والخداع والشر. وهذه الفكرة أصدق من قول الفيلسوف الألماني نيتشه في وصف سقراط الحكيم الاغريقي القديم الذي كان ذا وجه شنيع وكان مشهوراً بالحكمة والعفة والفهم والأمانة والصدق . ولكن نيتشه الفيلسوف الألماني يقول: إن من نظر الى صورة سقراط يستطيع أن يستدل منها على انه كان مجرماً بطبعه . وهذه مبالغة لا مُسَوِّغ لها فإن خواطر الاجرام تتردد في كل نفس كما قال فرويد . وقد يكون المجرم شنيع الوجه وقد لايكون . فقد رأيت في كتاب عن المجرمين صوراً كثيرة لبعضهم جمعت بين الجمال والسماحة والطلاقة ؛ فالقبح أو الجمال ليس دليلاً قاطعاً على الصفات النفسية الغالبة .

(٣) الصانع الماهر الذي يحفزه ضميره الطاهر يحجم عن صنع آلة غير محكمة الصنع لأنها قد تضر من يقربها أو يستعملها ولا يعرف الصانع مقدار الأضرار المتتابعة التي تسببها سبباً عن سبب . وكذلك كل انسان ينبغي أن يتذكر ان عمله قد يكون له نتائج بعيدة غير منظورة . وكذلك أقوال المرء يصدق فيها ما يصدق في أعماله وربما استحال عليه أن يتحاشى كل عواقب أعماله وأقواله كما أوضح أناتول فرانس فيما اقتُبِس من ظراته . ولكن استحالة معرفة نتائج الأعمال والأقوال (أي النتائج والعواقب المتتابعة القصِيَّات) لا تمنع من محاولة التبصر قبل القول والعمل — ولا أظن أن مفكراً في العصور الحديثة كانت لآرائه عواقب ونتائج ومذاهب غير منظورة كما كانت لآراء جان جاك روسو — ولقد قال هنري فردريك أمْييل : كل المذاهب الحديثة المختلفة في نواحي الحياة يمكن ارجاعها الى روسو . ومن الغريب أن روسو كان حييًّا يحب العزلة وينفر من الاجتماع بالناس . ويسيء بهم الظن . وكان يخشى وينفر من الثورة التي كان يتوقعها ويحاول منعها بالاصلاح . وكان يقدس حريات الفرد الى أقصى حد كما في رسالته (أسباب تفاوت الناس) ومع ذلك فقد تشعبت مذاهب وعواقب افكاره ومذاهب معتنقيها أيام الثورة الفرنسية وهو في كتاب (العقد الاجتماعي) يذكر

آراء يستطاع بها تقييد حريات الفرد الى حدّ كبير، وهذا التناقض أيضاً ظاهر في كتابه المسمى (إميل) في التربية فهو يريد من المربي ان يترك تلميذه حرًّا يستنتج عواقب ونتائج أعماله بنفسه . ومع ذلك فالمربي الذي وصفه وأراده كان أحياناً يتجسس على تلميذه ويهيء له النتائج التي يريدها — ومن أجل ما وصفت من الفرق بين طبع روسو وبين آرائه يخيل لي أنه لو كان عائشاً في باريس أيام حكم الارهاب لسيق الى الجيلوتين وأعدم لتخلف رجل الفكر عن رجل العمل وذلك بالرغم من أن حُكّام الارهاب كانوا قد اعتنقوا مبادئه . وبالعكس قد يصاب صاحب الفكرة الجديدة أو المبدأ أو الشريعة لتخلف الناس عنه . وأذكر قصة أظن أنها لدستويفسكي القصصي الروسي وبها يتخيل أن سيدنا عيسى عليه السلام قد بُعث مرة ثانية في أوربا ودعا الناس الى الأخوة والتعاون والسلم والمحبة فخشي بعض الحكام دعوته وضاقوا به ذرعاً وحاولوا أن يصلبوه مع انهم على دينه .

(٤) إن أعظم حوادث حياتنا تأتي وتروح كما يأتي الليل والنهار والنوم واليقظة والمطر والصحو والحصاد . ولا نستطيع تعيين أوقاتها لها كما نشاء . وربما جاهدنا وعملنا ، ولكن جهدنا وعملنا قليلا الأثر اذا قيسا بضرورة المقادير التي تعمل عملها وتحدث نتائجها بالرغم منا ومستقلة عن عملنا — ولعلّ هذا من أسباب ما لوحظ في نظرة في المقال السابق من شدة اعتماد الناس على ما قد يأتي عفواً وهو غير مضمون الحدوث . ولو أن من أسباب هذا الاعتماد أيضاً ميل النفس الى تصديق احتمال حدوث ما تود أن يحدث حتى تكاد من شدة هذا الميل تراه حقيقة واقعة . وكذلك تميل النفس الى تصديق ما تود أن يكون من أحوال غيرها من الناس . ومن صفاتهم إن خيراً وإن شرًّا وحمداً أو ذمًّا. وكما ان النفس تميل الى تصديق ما تود أن يكون حقيقة فهي وان كرهت حدوث ما تخشى حدوثه اذا تملك الخوف والذعر حتى يصير الذعر مرضاً تميل الى تصديق حدوث ما تخشى حدوثه حتى كأنه حقيقة واقعة . ولعلّ بعض الأمراض من هذا النوع من الوهم الذي سببه الخوف . وهذا الميل النفسي الى تصديق ما تود النفس أن يكون كأنه حقيقة كائنة هو مسألة سيكولوجية ثابتة . وكذلك التأثر بالذعر حتى تعتقد سببه حقيقة كائنة . وأغرب من هذا وذاك ان الانسان قد يصاب بأمراض لا من الذعر، ولكن لأنه يود أن يصاب بها، فيميل الى تصديق

ما يود أن يصاب به حتى يصاب ، وانما يود ذلك إما لينال التدليل والاعزاز والعناية والعطف كما هو نصيب المريض . واما تشفياً وانتقاماً ممن وُكِل اليهم أمره كي يكلفهم عناء في رعايته أثناء مرضه. واما لأنه يشعر في ضميره أنه أراد السوء لمن لم يصبه بضرر فيدفعه ضميره الى تصديق وقوع السوء بنفسه فيصاب . وكل هذه الأمور تذكرنا قول جويتي الأديب الألماني اذ قال : كما أن روما القديمة كان بها فضلاً عن سكانها من الأحياء ، سكان من التماثيل العديدة المنصوبة في كل مكان . كذلك هذه الحياة الدنيا يوجد فيها دنيا من الأوهام وعالمَ من الخيالات وهي أعظم أثراً وأتم قدرة في نفوس الناس وحياتهم وأكثر الناس يعيش في هذه الدنيا الثانية

(٥) لا بدَّ أن يكون في نفوس الناس شيء من كذب السريرة مهما تخلقوا بالعدل والصدق ، فان أفضل رجل اذا حادث انساناً لا يود ان يؤلمه يضطر في محادثته له ان يميل قليلاً الى رأيه ملاطفةً له ، أو لعله غير قادر على التعبير عما في نفسه ، أو لعله لا رأي له في موضوع الحديث فيجتبي رأي غيره يسد به فراغاً في نفسه . وكل هذه الأحوال كأمواج في بحر الانسانية، ولا بدَّ أن يسير المرء بسفينته بينها . فمن الحكمة أن لا نحقد على الناس من أجل ذلك، وأن لا نيأس من النفس الإنسانية إذا انقادت بعض الانقياد ودلَّ انقيادها على كذب السريرة

(٦) اذا كانت آلام كفاحنا في الحياة لا تخلف إلاَّ نفوسنا كما كانت قبلها مع ما فيها من تحيُّز للباطل ومن أثرة وقلة مبالاة عظائم الأمور، فاننا نكون قد تألمنا في هذا الكفاح ولم نربح فضائل أو صفات سامية . ولكن هذا الألم قد يتحوَّل الى عطف به نكون أكثر قدرة على فهم الأمور كما تتحوَّل القوَّة الى قوة أخرى في علم الطبيعة .

(٧) خليقٌ بالمرء قبل أن يحاول فهم الكون كله — وييأس اذا لم يستطع فهمه — أن يحاول فهم ما حوله من الحياة أولاً لأن الزمن كالمال إنما يقاس بمقدار حاجتنا إليه . وهذه الكلمة أوسع نطاقاً من قول الفيلسوف الأغريقي القديم (اعرف نفسك) وقد فسَّر جويتي هذه الكلمة بقوله إن الانسان لا يستطيع أن يعرف نفسه بالتأمل الفكري وحده، بل لا بدَّ أن يكون التأمل في النفس مقروناً الى العمل وأداء الواجب ، وفي أداء الواجب

اليومي يستطيع المرء أن يختبر نفسه وأن يعرفها بالتأمل وقد أعجب كارليل برأي جويتى وأعاد ذكره مراراً .

(٨) إننا كثيراً ما نعتز بماضي حياتنا حتى ولو تغيرت أفكارنا وتبدَّل شعورنا، وصرنا انساناً آخر بهذا التغير. ولذلك قلما نرضى عن نقد ذلك الانسان الأول الذي كنّاه في الماضي بل نتلمس له ما يزكيه كراهة لتخطئة أنفسنا القديمة كل التخطئة، وذلك لأنها بالرغم من كل شيء أساس أنفسنا الحديثة .

(٩) قلما تستطيع الأقدار أن تنتقم منا بسلاح من أنفسنا تتخذه ضدنا من تألمنا لما سببنا لغيرنا من الآلام، إلاَّ إذا وصف الناس عملنا في إيلام غيرنا بأوصاف شنيعة، أو إذا خشينا ذلك ، فعندئذٍ يتيقظ ضميرنا ويتيقظ احساسنا الخلقي ويؤنبنا ، وربما كان لا يؤنبنا لولا لوم الناس وتأنيبهم.

(١٠) كثيرٌ من عيوب الناس وغرائب طباعهم سببها أحزان وأحاسيس وحوادث مثَّلَتْ بالنفس تمثيلاً ، والحياة التافهة غير الثابتة أو الحياة الضالة التي يحياها إنسان والتي نلوم صاحبها عليها قد تكون كحركة الرجل الذي فقد بعض أعضائه وقد تكون نفسه كجزع الشجرة التي قطعت غصونها وأوراقها — وهذا قول مبكر فيما يسميه علماء النفس في هذا العصر العُقَد النفسية .

(١١) إننا نستطيع أن نحس روح الله في كل أمر . ففي الأعمال والمخترعات الكبيرة أو في أعمال الصناعات الصغيرة نستطيع أن نرضي الله بأعمال أيدينا كما نرضيه بأعمال نفوسنا ، وأن نعمل الخير ونتقرَّب الى الله بالأعمال المنزلية والزراعية ، كما نرضيه ونتقرَّب إليه بالصلاة لأن كل عمل يؤدَّى بصدق وأمانة إنما هو تقرُّب الى الله

(١٢) ولكن بعض الناس إذا أدّوا الصلاة يوم الأحد في الكنيسة حسبوا أنهم أدّوا كل واجبهم نحو الله فتستريح ضمائرهم وتجيز لهم أموراً كثيرة ويعدون الحياة منصباً مربحاً . أو متجراً مكسباً بدل أن يعدوها واجباً يقتضي الجهد والتضحية والعمل .

(١٣) إن قول شكسبير في قصة ما كبث إن الإنسان لا يستطيع أن يكون في أمور

مختلفة في وقت واحد إنما يراد به الأعمال ولا ينطبق على الاحساسات والخواطر ، فإن لحظة واحدة صغيرة أو أقل من لحظة قد تكون بين خاطرة الميل الى القتل في النفس ، وبين خاطرة الرجوع عنه والتوبة والندم . وربّ دقيقة واحدة قد تجمع بين النزعة الشريفة والنزعة الدنيئة في النفس . فالحقيقة هي أن النفس الانسانية لا تجمع بين الأضداد فحسب ، بل تجمع بينها فيما يكون أشبه بالوقت الواحد . وهذا ما لا يفطن إليه الذين يحكمون على النفوس بخطراتها ونزعاتها .

(١٤) فينبغي أن نصحح أحكامنا العامة على الناس تصحيحاً دائماً مستأنفاً أولاً فأولاً بالخبرة وضرورات الحياة وبما في النفوس البشرية من قهر وإلزام مع مراعاة الواجب المفروض وتنوعه في الحالات المختلفة . فاذا نقدنا إنساناً نقدناه من غير التجاء الى الكذب والباطل والمبالغة . وهذه أمور قد تتسرّب إلى رأينا . إما عن طريق الشهوات ، وإما عن طريق تطبيق أحكام عامة مطلقة وضعها من لا يميز الأمور بالتجارب والخبرة .

(١٥) كثيراً ما تدهشنا الشدة ونباغت بها من أناس عُرفوا باللين . والسبب في ذلك أن لينهم من اطمئنانهم الى عودة وقوع الأمور المألوفة المعتادة . فإذا جاء غير المألوف ارتاعوا وظهر ارتياعهم في شدتهم وعنفهم . ودلّ ذلك على نقص في خبرتهم لأمور الحياة ونفوس الناس .

(١٦) يخيّل لنا أن بعض الناس يجدون لذة في حماقتهم وشراستهم وغيظهم حتى أنهم يحرمون أنفسهم من مسرات كثيرة ممتعة ، كي يتمتعوا بلذة الحماقة والغيظ .

(١٧) قد تجتمع في بعض النفوس صفات هي الشدة والشعور بأنها صالحة وحب السيطرة على غيرهم مع ضيق في الفكر والخيال . فإذا اجتمعت هذه الصفات في أناس لم يكن سبب نفورهم من انسان واضطهادهم إياه تلك المعرفة الممزوجة بالجهل والشك والتي يسمونها الحقيقة . ولكن السبب أنهم في حاجة الى أن يملؤا فراغهم من الفكر ، وأن يسدوا ثغرة في التأمل ، وأن يخفوا خلوهم من الحكمة ، وأن يشبعوا حب سيطرتهم على غيرهم ، وان يباهوا الناس بصلاحهم ، وأن يقنعوا غيرهم به — وهذا اذا كانوا على شيء من الفضل . وقد يكون السبب

شعورهم بنقيصة في أنفسهم يقتصون لها بالتشفي وبالكيد لغيرهم، أو يكفّرون عنها بانتقاص غيرهم واضطهاده .

(١٨) ثق أنك اذا رأيت إنساناً يدّعي أنه أطيب نفساً ممن هم حوله ، فهو إما أن له أرباً يخفيه بادعاء ذلك ، وإما أن نفسه قد تغلغل فيها الكبر الروحاني ودنس العجب النفسي. وهذان الكبر والدنس يختلطان بفضله فيفسدانه كما تفسد العفونة المأكولات .

(١٩) تنتقل النفس من الصدق الى الغش في معاملتها لنفسها . ثم ترى الغش خطة ضرورية تسوغها بلباقة، فترى جمال الأعمال وقبحها من نسيج واحد. وكما ان الدول قد تأخذ على دولة عملاً عدائياً ثم تذعن لما يسمى في عرف السياسة الأمر الواقع. كذلك النفس تذعن للأمر الواقع منها حتى تفاجأ بالقصاص .

(٢٠) ان الرجل الذي ليست له ثقة بنفسه قد يكتسب ثقة بنفسه اذا عاشر رجلاً له ثقة كبيرة بنفسه إذ أن للثقة بالنفس عدوى، ومثل ذلك مثل الذي أصابه البرد يأنس الى من لفحه الحر ليدفىء نفسه بحره . فيقل أثر القر فيه — على ان هذه المعاشرة قد تأتي بعكس ذلك إذا خشي الأول ان يقحم نفسه فيما يقحم الثاني فيه نفسه بالاقدام من ثقته بها ، وفي مثل هذه الحال اذا لم يجارِ الأول الثاني في إقدامه وثقته بنفسه . يوشك ان تنفصم عُرى الصداقة والمعاشرة ، إلاّ إذا لم يكن مازماً بهذا الاقدام . وإذا أقدم وحيل بينه وبين باعث ثقته ولاقى صعوبات أو خصومات كُشِفَ ضعفه . وإنما مَثَلُه حينئذٍ مَثَلُ السلك الذي يُزَوَّد بالكهرباء فاذا فصل عن مصدر الكهرباء فقد قدرته الكهربائية .

(٢١) ان المرأة مهما كانت معجبة بنفسها لا تشعر بجمالها وحلاوة أنوثتها شعوراً تامّاً إلاّ إذا أحبها رجل. فإن حبه يزيدها ثقة بقدرة ملاحة أنوثتها، فتتيقظ وتحس إحساسات ما كانت تحسها من قبل. وهذا هو سبب قدرة الرجال على خداع النساء . فإن الرجل اذا أتقن تمثيل مظاهر الحب أحست شكراً له وعطفاً عليه ، وهذا ما كان يصنعه لاندرو قاتل النساء في فرنسا، فانه كان يقنع المرأة أنها ذات جمال وحلاوة أنوثة ، فتنقاد له وتطيعه طاعة من نُوِّم تنويماً مغناطيسيّاً ، إذ الايحاء النفسي شبه تنويم.

(٢٢) في بعض الأحايين ترى سفينة تعجب الرائي وتحسبها محكمة الصنع وتقبل شركات التأمين ان تؤمن عليها، فاذا صادفتها أول عاصفة شديدة غرقت واتضح ان ذلك كان بسبب عيب خفي في بنائها، ونقص مستور في تركيبها . وكذلك الانسان يعجب الرائي فاذا صادف أول محنة أو امتحان لنفسه ولقدرته النفسية أو بدهه خطب لم يكن يتوقعه أو أمر من أمور الحياة مفاجيء غير منظور ظهر من طباعه ما كان خفيًا وتغير أو تدهور أو تخبط فيكون حاله كحال تلك السفينة .

(٢٣) يشبه بعض المؤلفين طبيعة الانسان بطبيعة الموجودات ويقولون ان الطبيعة تصلح ما أفسدته بالضياء والماء والهواء وبتجديد النمو ولكن الشجرة التي قد اقتلعت أو صعقت لا تعود الى النمو وان نمت غيرها والتلال التي بعثرت لا تتجدد وان نشأت غيرها فليس هناك اصلاح حقيقي تام في طبيعة الموجودات أو في طبيعة الانسان .

(٢٤) يقولون إن الانسان إنما يجني في الحياة ما يزرع ولكن هذا ليس كل الحق فكما ان الانسان يجني ما يزرع فانه قد يجني ما لم يزرع ، كما انه قد يجني من النبات والزهر والأشجار ما لم يزرع وما ينمو بنفسه أو بعمل غيره وهذا يصدق في الخير كما يصدق في الشر .

(٢٥) اذا عظم إحساسنا الى حد كبير نما الاحساس الى درجة يخلو فيها من حب النفس الذي ابتعثه ويصير ناراً تتطلب كل شيء في النفس وقوداً لها وغذاء للهيبها. وهذا يفسر لماذا ننكر أن إحساسات المرء وأعماله الصادرة عن إحساساته والتي تضره سببها الأثرة وحب الذات غير مدركين ان الاحساس في درجاته المختلفة وحالاته المتغايرة يتغير طبعه وتتغير نتائجه .

(٢٦) قد ننسى ان الانسان تصيبه عواقب ما يجني غيره وإن لم يكن هذا الانسان له صلة بالجناية واشتراك فيها . أليس العدل نفسه يعاقب من هم في حاجة الى الجاني أو لهم به صلة اذا عاقبه فيعاقب من يعول اذا انقطع عنهم رزقهم بالعقاب أو يعاقب أقاربهم في سمعتهم وباضطهاد الناس لهم وذمهم بسبب جريمة قريبهم .

(٢٧) في أوقات الحزن الشديد تكون فترات تتخللها . وفي هذه الفترات لا يتذكر المرء حزنه بل يتذكر حادثاً تافهاً لا صلة له بحزنه كأنما تعفيه طبيعته في تلك الفترات من تذكر حزنه والانشغال به كي يستطيع أن يعاود تحمله وهو في تلك الفترات لانشغاله بالأمر التافه بدل الانشغال بموضوع حزنه يكون كأنه أصابه بله مؤقت .

(٢٨) أهل الريف اذا كانوا في بقعة منعزلة وحلّ بأرضهم غريب أساءوا به الظن كأنه أتى اليهم من عالم مظلم مجهول كالعالم الذي تهاجر منه الطيور شتاء الى أرض الدفء والنور. ومن أجل ذلك يتوقعون من ذلك الغريب أي شيء غريب مهما كان عمله وقوله مطابقاً المألوف ومهما صدر من نفوسهم مما يخالف العرف المألوف فاذا ارتكب إثماً أو جنى جناية بعد زمن طويل وبعد مزاولة الخلق المألوف زعموا أن ذلك مصداق لما توقعوا منه من أول الأمر . فالذي يولد بينهم يكتسب بولادته شيئاً من الثقة به والألفة له ، أما من لم يولد بينهم فكأنما وُلد وجاء الى هذا العالم في نظرهم بطريقة غير طبيعية مثل طرق الشعوذة . وحقيقة هذا الحذر من المجهول مشاهدة حتى في نفوس الناس اذا حذروا ممن ينقطع عن زيارتهم ومعاشرتهم أو مجالستهم. ولعلها ناشئة عما في النفوس البشرية من أمور مجهولة ومن غريزة تمكنت في النفوس من قديم الزمن من عهد الكهوف وسكانها، ومن عهد كان كل إنسان يخشى كل إنسان ويصون حياته بذلك الخوف .

(٢٩) ان بعض ما يسميه الناس خيالاً إزراء به قد يكون تعلقاً بحياة أتم وأعظم وبحقيقة متوقعة في المقبل من الدهر، فبطولة الواحد الفرد أو الآحاد القليلين التي لا تؤثر أثراً كبيراً قد يعدها الناس تعلقاً بالخيال ، ولكننا نخطىء إذ نقسم البطولة الانسانية وهي متصلة مهما خفي اتصالها وكل منها قدوة وهذا الخطأ كالخطأ في تقسيم وحدات الجيش الى آحاد أو الخطأ في تقسيم أشعة الضوء محاولة لمعرفة قدرة الجيش أو الضوء .

(للبحث بقية) ع . ش

تحية عام جديد .. !

ارفع الكأسَ ، حيِّ ذاك الوليدا وترفّق ، ولا تكن جلمودا

ويكَ عامٌ مضى ، وأقبلَ عامٌ لستَ تدري نحوسه والسعودا

لا تكن مسرفَ الكآبةِ ، واعلمْ أنّ ما مرَّ مُدبراً لن يعودا

***

أبداً كنتَ تعشقُ التجديدا فتبسّمْ ، وحيِّ عاماً جديدا

هو في صحوةِ الشبابِ نشيدٌ يبعثُ اللحنَ بالهوى عربيدا

لا تقلْ أدبرتْ عذابُ الأماني : الأماني جديدةٌ لن تبيدا . !!

***

املأ الكأس جهرةً ، وتغزّلْ وتمنَّ الأحلام والتخليدا ...

وابتسم للجمالِ حيثُ تراهُ واقتبسْ من سناهُ شعراً نضيدا

واعفُ عن ذنبه ، وسامحْهُ ، واغفرْ ما جناهُ عليكَ ثغراً وجيدا

وانسَ ما فاتَ ، ليس يرجع ماضٍ إنْ ألفتَ النواحَ والتسهيدا

***

دورةُ العمرِ أقبلتْ بوليدٍ لم يزلْ في مهادهِ مشدودا

لا تعجّلْ ، واخفض عليه جناحاً من حنانٍ ، وكنْ به مجدوداً

هو ضيفٌ وكم فرحتَ بأضيافِكَ من قبلُ ، وانتفضتَ سعيدا

حيّه شاكراً ، وقبّلْهُ في رفقٍ وضمَّ الصغيرَ ضمّاً شديدا

فلعلَّ الآمالَ تصدُقُ فيه ولعلَّ الضئيلَ يغدو رشيدا

مختار الوكيل

صورة العصر

في شعر شوقي

إن الشعر الصادق هو ما كان مرآةً لعصره، وسجلاً لبيئته، وديواناً لأيامه، وتعبيراً لأحاسيس قائليه، وصدى لمشاعر قارئيه.

والعصر فيه من البيان الفاتر والقوي، والطبيعي والمتكلف. وفيه من الألفاظ الذابل والمورق، والباهت والمتألق. وفيه من النفوس البريئة واللئيمة، والصادقة والزائفة. وفيه من الصور المفرحة والمفجعة، والسارة والحزينة.

فيه كل هذه الألوان على تباينها، وهذه المشاهد على تنافرها، ما بين قديمها وجديدها، وصحيحها وباطلها، وجميلها وقبيحها. إذ ليست الحياة كلها تعبيراً جميلاً عن شعور صادق، بل في الحياة شعور غير صادق، يعبر عنه تعبيراً غير جميل. وفيها شعور كاذب، يعبر عنه تعبيراً جميلاً، وفيها شعور صادق، يعبر عنه أحياناً تعبيراً جميلاً، وأحياناً تعبيراً غير جميل. والشعر لون من ألوان هذه الحياة.

وفي شعر شوقي كثير من ملامح عصره، ومِمات زمنه، وسجل أحداثه، وصدى لآلام جيرانه، وأماني قومه.

لقد تخطَّى شوقي أدواراً في حياته الفنية: فكان يرد في أول أمره موارد القدماء، فامتلأت نفسه بصور من شعر فحول الشعراء الأقدمين، كأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعرّي وغيرهم، فتتبعهم في اساليبهم وألفاظهم ومعانيهم وأخيلتهم، ولكنه مع هذا يميل الى الابتكار في أسلوبه، والابتداع في خياله، حتى لقد تقرأ في كلامه معنى غيره فيخيل اليك أنه معنى مبتكر لم يسبق اليه.

أنظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ (٢٣ سنة) وهي من شعره السائر:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء
ما تراها تناست اسمي لما كثرت في غرامها الأسماء
ان رأتني تميل عني كأن لم تك بيني وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

فأعجب من موهبة شوقي في التوليد، إذا عرفت أنه أخذ البيت الثاني من قول ابي تمام:

أتيت فؤادها أشكو اليه فلم أخلص اليه من الزحام

فمر المعنى في ذهن شوقي كما يمر الهواء في روضة، وجاء نسيماً يترقرق بعد ما كان كالريح السافية بترابها. لأن الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء، لا بقلب امرأة يحبها. فقد سبق شاعرنا أبا تمام بمراحل في ابداعه وذوقه ورقته.

والبيت الرابع أخذه من قول الشاب الظريف:

قف واستمع سيرة الصب الذي قتلوا فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى فحب فسام الوصل فامتنعوا فرام صبراً فأعيا نيله فقضى

فما أشبه بيت الشاب ببيت قروي بني من الأحجار الخشنة وترك من غير أن يطلى بجص أو دهان فظل خشن الملمس ريفي المنظر. أما بيت شوقي فأشبه شيء ببيت من مرمر أو رخام مصقول، ناعم الملمس، متألق المنظر، فاتن الرواء.

ذلك لأن الشاعر الفنان كالمصور الماهر، يرسم مناظر الطبيعة كما يرسمها سواه، ولكنك ترى براعته تدل عليه وأسلوبه يعبر عن افتنانه، وما في نفسه من أسرار الفن وتمكن الجمال كما تجد المصور يرسم ما رسمه غيره، ولكنه يؤلف بين اللون واللون ويبرز ما بينهما من التناسق والمشاكلة فيخيل اليك أنه شيء جديد.

وهل الفن إلا هذا السر الذي بثه الله في نفوس الفنانين، فيبرز كل منهم ما في نفسه وما علق بها من إدراك، وما قدر عليه من تنسيق.

أنظر اليه وهو يصور نهاية الحياة، وأن ما على الأرض من تراب ان هو إلا رفات الماضين، وبقايا عظام السالفين.

كرة الأرض كم رمت صولجانا وطوت من ملاعب وجياد

فالغبار الذي على صفحتيها دوران الرحى على الأجساد

اذا علمت ان هذا المعنى ينظر الى قول المعري.

خفف الوطء ما أظن أديم الأ رض إلاّ من هذه الأجساد

فأي فرق بين الصورتين ! وأين ابتكار شوقي واستمداد تصويره من نوع من لعب الكرة ، يلعبها اللاعبون ، وهم على صهوات جيادهم راكبون ، فأين هذا من سذاجة المعرّي وبساطة تعبيره ؟ فهوَ فرق ما بين عصر المعرّي وعصر شوقي .

واستمع اليه وهو يصف ما بين الشمس والحياة من صلة ، ويصوِّر أثرها في الناس من المبدأ الى النهاية ، ومن الحياة الى العدم ، ومن الوجود الى الفناء ، جامعاً في ايجاز قصة الحياة ، متنقلاً بسرعة من الميلاد الى الوفاة . وذلك في قصيدة (توت عنخ آمون) فهو يعمد بذلك الى تهيئة الجوّ للحديث عن الآثار الخالدة ، وفعل الدهور والأزمان فيما خلفه الانسان ونسجته الحضارة . فيقول :

مشيتِ على الشباب شواظ نارٍ ودرتِ على المشيب رحى طحونا

تعينين الموالد والمنايا وتبنين الحياة وتهدمينا

فيا لكِ هرَّة أكلت بنيها وما ولدوا وتنتظر الجنينا

أليس هذا حقًّا ؟ نقد بريء من كل سقم لفظي أو معنوي ، فهو عذب في كل ذوق ، مستساغ في كل فهم . أرأيت الصورة الجديدة التي تعيد الى الأذهان أسطورة مصرية شائعة في أن الهرة تأكل بنيها وهم صغار وتنتظر الأجنة لتفعل بهم كما فعلت بأخواتهم ، مع انها هي أمهم ، والمعينة على وجودهم . فأي حكمة بالغة في هذه الصورة ، وأي عبرة عامة في هذا التمثيل .

فلشوقي شعر تبين فيه شاعريته ، وحسن غوصه ، وفوزه بالمعنى الجيد ، وحسن أدائه في اللفظ الرشيق ، وتأثره بصور العصر الحديث ، مما بعد فيه عن التقليد ، وخلص من قيود القديم ، فلم يتكلف ولم يتصنع ، وانما شعر وأحسَّ ، وجرى قلمه بما أحسَّ وما شعر . وليس هذا الشعر بالشعر القليل ، حتى في معارضاته فقد كانت تبدو عبقريته الخالقة واضحة متمايزة .

قال في قصيدته التي يعارض بها بردة البوصيري يصف الدنيا .

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية ... وان بدا لك منها حسن مبتسم
فُضي بتقواك فاهاً كلما ضحكت ... كما يُفض أذى الرُقطاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة ... من أول الدهر لم ترمل ولم تئم
لا تحفلي بجناها أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحَم

أرأيت الى رائع التصوير وقوة التخييل ، وجلال موسيقا القدم ، ووقار هيبة الحكم . أبى شوقي إلاّ أن يجدّد ويجعل للعصر صورته ، ويحترم له ميسمه ، فقال ان (الكربون) يقتل في الزهر كما يقتل في الفحم . فهذا معنى عصري جديد .

* * *

ثم اقرأ له وهو يناقش فكرة لم تكن في عصر البوصيري ، وإنما هي فكرة حديثة جاء بها المستشرقون يرمون الدين الاسلامي بأنه نشر بالسيف لا الاقناع .

يقول شوقي :

قالوا غزوت ورسل الله ما بُعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفْك دَمِ
جهلٌ وتضليلُ أحلام وسفسطةٌ ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالعلم
لما أتى لك عفواً كلُّ ذي حسب ... تكفَّل السيف بالجهال والعَمَم
والشر إنْ تلقه بالخير ضقتَ به ... ذَرعاً وإنْ تلقَه بالشر يَنحسم
سل المسيحية الغراء كم شَربَتْ ... بالصاب من شهوات الظالم الغَلِمِ
لولا حماة لها هبُّوا لنُصرتها ... بالسيف ما انتفعتْ بالرفق والرُّحُم

يريد أن يقول إن كلام هؤلاء المعترضين سفسطة محضة ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وان نبيّ الأسلام في بدء دعوته لم يأل جهداً في الدعوة بالرفق والمقارعة بالبرهان ، وإنه ما دفع الى الضرب والحرب إلاّ من بعد ان رأى عقم الوعظ والنصح ، وان لا حيلة في الجهل والظلم اذا مرد الناس عليهما إلاّ بالتأديب .

أنظر الى هذه المسيحية التي تعلن أنها دين السلام أصابها من الطرد والقتل ، والتعذيب والانتقام والاصطلام ما لا تسعه الكتب المؤلفة ، وبقى ذلك مدة ثلثمائة سنة الى أن تنصر

قسطنطين ، فحينئذٍ استقرت قواعدها ، وانتشرت في الأرض وأمنت الغوائل ، ولم تنتشر إلاّ بقوة ملوكها وسلاطينها .

وإذا أردت تاريخاً عصريًّا ، وسجلاً جديداً لأحدث الحوادث ، وأقرب أفاعيل الزمان ، فاقرأ له :

يا رب هبت شعوب من منيّتها واستيقظت أمم من رَقدة العدَم

سعدٌ ونحسٌ ومُلكٌ أنت مالكهُ تُديل من نِقم فيه ومن نعَم

رأى قضاؤك فينا رأيَ حكمته أكرِمْ بوجهك من قاضٍ ومنتقم

فالطُف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفاً ولا تسُم

يا رب أحسنتَ بدء المسلمين به فتمّم الفضلَ وامنح حسنَ مختتم

لم يترك شوقي رحمه الله أيّ فكرة اجتماعية يرى لها خطراً في كيان المجتمع إلاّ أبدى رأيه فيها وأنار الطريق للسالكين في مهامها . فقد أرّخ قصة الحجاب والسفور ، وناقض رأيه الأخير رأيه الأول فيها فدل على التبدل فلم يستح أن يسجل هذا التطور ، ويشايع الجديد من صورة العصر .

قال أولاً في قصيدة عنوانها « بين الحجاب والسفور » ينكر السفور ولا يرتضيه .

صَدَّاح يا ملِك الكنا رِ ويا أمير البُلبلِ

ما كنتُ يا (صداحُ) عندك بالكريم المُفضلِ

شهْد الحياة مشوبةً بالرق مثل الحنظل

يا طير لولا أن يقو لوا جُنّ قلتُ تعقل

اسمع فربّ مُفَصَّل لك لم يفدك كمجمل

صبراً لما تشقى به أو ما بدا لك فافعل

أنت ابن رأي للطبيعة فيك غير مُبدل

ابداً فروع بالاسا ر مهدد بالمقتل

إن طرت عن كفني وقعت على النسور الجُهَّلِ

ثم بعد سنين تطورت الأفكار ، وازدادت الحرية ، وتقبل الناس الجديد ، وأخذت

المرأة في النهوض ، فقال قصيدة ألقيت في حفلة نسائية عظيمة انعقدت بدار التمثيل العربي برئاسة السيدة هدى هانم شعراوي .

قل للرجال طغى الأسيرْ   طيرُ الحجال متى يطيرْ
أوهى جناحيه الحديدُ   وحز ساقيه الحريرْ
ذهب الحجاب بصبره   وأطال حيرته السفورْ
هل هُيِّئت دَرَجُ السما   ء له وهل نص الأثيرْ
إن السماء جديرة   بالطير وهو بها جديرْ
هي سرجه المشدود وهو   على أعنتها أميرْ
حريةٌ خُلق الإنا   ث لها كما خُلق الذكورْ
يا قاسم انظر كيف سا   ر الفكر وانتقل الشعورْ
جابت قضيتُك البلا   د كأنها مثلٌ يسيرْ
لقد اختلفنا والمعا   شر قد يخالفه العشيرْ
في الرأي ثم أهاب بي   وبك المنادم والسمير
ومحا الرواح الى مغا   ني الود ما اقترف البكور
في الرأي تضطغن العقو   ل وليس تضطغن الصدور

على انه لا بد لصدق النقد من أن نذكر ألفاظاً جاءت في شعر شوقي، بعضها فاتر و بعضها غير فاتر ، ولكنه ابن البيئة المصرية .

كتب على صورة مهداة لصديق :

سعت لك صورتي وأتاك شخصي   وسار الظل نحوك والجهاتُ
لأن الروح عندك وهْيَ أصل   وحيث الأصل تسعى الملحقاتُ
وهبها صورة من غير رُوح   أليس من القبول لها حياةُ

فالمعاني مبتكرة ولكن فيها لفظتان فاترتان وهما « والجهات » و « الملحقات» . وجاء في قصيدة ذكرها في مفتتح ديوانه المطبوع أول مرة تحت عنوان « الى أمير المؤمنين عبد الحميد الثاني » .

سلام الله لا أرضى سلامي فـكل تحية دون المقام

وقال :

فان تفت الموانع منه حظي فليس بفائت حظ الـكلام

وبعد أن قدّم هذه التحية الى الخليفة عاد فشفعها بتقدمة الى الخديوي فقال :

وما حاولت من عصر عظيم من الآداب للوطن العظيم
فكنه يا ابن توفيق فاني نخيم الظن في الجاه الفخيم

أسمعت الى الألفاظ السائرة الشائعة على الألسنة « دون المقام ، الموانع ، حظ الـكلام الوطن العظيم ، الجاه الفخيم » . على أنه لا يوجد في اللغة العربية « نخيم » . وانما هو الفخم ولـكن شوقي على ما يظهر التقطها من الأفواه .

وقال في قصيدته الاندلسية وهي احدى آيات شوقي الخالدات ، لما فيها من التشبيهات الطريفة والصور الرائعة والأخيلة الجميلة كقوله :

نبا فلم نخل من رَوْح يراوحنا من بر مصر وريحان ينادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليم تلقينا

ولـكن لم تخل هذه الدرّة الثمينة من ضعف في الأسلوب أحياناً يدعو الى استغلاق في المعنى واستبهام في المقصد ، ومن ألفاظ سرت الى شوقي من لغة الحديث المصرية الدارجة مثل قوله :

جئنا الى الصبر ندعوه كعادتنا في النائبات فلم يأخذ بأيدينا

وإذا أردت أن ترى صورة العصر واضحة في أخيلة شوقي ، وسمات بيئتـه بارزة في صوره فاقرأ له الأبيات الآتية :

يقول في رثاء (أبي هيف) وكان وقف معارضاً لمشروع (ملنر) وقفة تاريخيـة لا تنساها له مصر ، وأعدَّ تقريراً شاع واستحقَّ التقدير .

لـا رأى (التقرير) ينفث سمه سبق الحُـواة فأخرج الرقطاءَ

فقوله (سبق الحواة فأخرج الرقطاء) لا يمكن أن يكون هنـاك أبلغ في الاعجاز ، وأدق في الإيجاز ، من هذا الـكلام . فقوله (سبق الحواة) صورة كاملة تريك كيف وثب الفقيد ، فوقف أمام المشروع ، كما يثب الحاوي فيقف أمام جحر الحية ، وقوله (فأخرج

الرقطاء) أعظم ما يمكن في تصوير ذلك المشروع ، فقد نبه على السم الكامن فيه ، على الرغم من جماله الظاهري ، ونعومته الشبيهة بنعومة الحية .

وقال في رثاء محمد بك فريد من قصيدة أولها :

كل حيّ على المنيـة غادي تتوالى الركاب والموت حادي

الى أن قال يصف صورة للجنازة هي من صورة العصر

ساقة النعش بالرئيس رويداً موكب الموت موضع الإتئاد

كل أعواد منبر وسرير باطل غير هـذه الأعواد

تستريح المطي يوماً وهذي تنقـل العالمين من عهد عاد

لا وراء الجيـاد زيدت جلالاً منذ كانت ولا على الأجياد

وقال في قصيدة عنوانها « الربيع ووادي النيل » .

والنخل ممشوق القدود معصّب متزين بمناطق ووشاح

كنبات فرعونٍ شهدنَ مواكباً تحت (المراوح) في نهارٍ ضاح

ومن ذا يستطيع أن ينكر صدق العاطفة وقوتها ، في جدّة صورتها ، وجمال تعبيرها في قوله :

وطني لو شغلت بالخـلد عنـه نازعتني إليه في الخـلد نفسي

وإذا أردنا أمثلة واضحة لقوّة شاعريته ، وجدّة تنسيقه ، وابتكار تصويره ، فلنأخذ ذلك من معارضاته ، فهي ميزان دقيق للشخصية ، ومحك صادق للشاعرية .

حيث فيها يبين مبلغ خلاص الشاعر من قيود التقليد ، وبعده عن نماذج المعارضة واحتذائها .

فقد كان شوقي كثيراً ما يكلف بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يبزهم .

استمع الى شوقي والبوصيري في قصيدة « نهج البردة »

يقول البوصيري :

ولا تزوّدت قبـل الموت نافلة ولم أصلّ سوى فرض ولم أصم

ظلمت سنة من أحيا الظلام الى أن اشتكت قدماه الضرّ من ورم

ويقول شوقي :

وإن تقدّم ذو تقوى بصالحة قدّمتُ بين يديه عبرة النّدم
لزمت باب أمير الأنبياء ومَن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

ففي أبيات البوصيري تجد ألفاظاً فقهية اصطلاحية ، بعيدة عن ألفاظ الشعر وموسيقاه وليس فيها فنٌ ولا تصوير . وأروع ما فيها وصفه صلى الله عليه وسلم في تهجده وقيامه بالليل .

أما شوقي ففي ألفاظه موسيقا قوية رائعة ، والتعبير بقوله (أمير الأنبياء) تعبير جديد . ثم انتهاء البيت التالي بحكمة جارية مجرى المثل على طريقة المتنبي ، وهو أشد الشعراء أثراً في شوقي ، وموسيقا شعره ، وجزالة ألفاظه ، وقوّة أسره .

ثم إذا انتقلنا الى (داليته) التي يعارض فيها الحصري ، نجده مستمدًّا فنه مما حوله من صور العصر ، في مثل قوله :

ناقوس القلب يدق له وحنايا الأضلع معبده

وفي (سينيته) التي عارض فيها البحتري ، وقد كان وهو بالأندلس قد استأجر منزلاً في ضاحية جبلية من ضواحي برشلونة ، وهي مرتفعة كثيراً عن قلب المدينة ، لذلك كان في استطاعته أن يشهد بسهولة البحر المتوسط الجميل ، والسفن وهي رائحة غادية فيه ، ليل نهار ، فبعث منظرها فيه الحنين الى الوطن فقال شوقي يصف ذلك المنظر .

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسّي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي ، وجعل جرحه في هوى مصر أعضل من أن يطبّ له الزمان .

وانظر إليه كيف وصف قلبه حين قال :

كلما مرّت الليالي عليه رق والعهد في الليالي تقسّي
مستطار اذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرْس

فهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق ، أو هبّ النسيم ، كما كان يتحدث الأعراب ، وإنما يصف ما يشاهده الغريب على شواطىء البحر المتوسط ، وأين وميض البرق وهبوب الريح ، من أصوات البواخر في غسق الليل . ثم قال :

يا إبنة اليمّ ما أبوك بخيل ما له مولعاً بمنع وحبس
أحرامٌ على بلابله الدَّو ح حلالٌ للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل إلاّ في خبيث من المذاهب رجس

فقد وصف شوقي مصر في ذلك الحين بما يصدق عليها ، ورمى رمية مسددة في صدر الظلم ببيته الأخير .

ثم قال في خطاب الباخرة :

نفسي مرجلٌ وقلبي شراعٌ بهما في الدموع سيري وأرسي
واجعلي وجهك « الفنار » ومجرا ك يد « الثغر » بين رمل ومكس
وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ظمأ للسواد من عين شمس

أي نفس يمثلها شوقي في هذا الوصف البديع غير النفس المصرية ؟ وان الذي يعيش في مصر ، وله ذوق شوقي واحساسه ، ليس بكثير عليه أن يقول مثل هذا الشعر الصادق الجميل .

أما إذا أردت أن تبحث عن خفة الروح المصرية ، والتهكم اللاذع في فكاهة حلوة وحسن ظرف ، فاستمع اليه وهو يقول في قصيدة « توت عنخ أمون » .

أمن سرق الخليفة وهو حيٌّ يعف عن الملوك مكفنينا

ثم ينتقل الى مخاطبة الملك فؤاد في التعجيل باستصدار الدستور .

فعجل يا ابن اسماعيل عجل وهات النور واهد الحائرينا
هو المصباح فأت به وأخرج من الكهف السواد الغافلينا

ألست ترى معي أن هذا البيت الأخير يُخيِّل إليك ذلك (الدليل) وهو يخرج السائحين من كهوف الاهرام ، وبيده مصباحه . فهي صورة مصرية متكررة كل يوم .

وكان لشوقي ابن خال طويل الأنف ، فنظم فيه مداعباً هذين البيتين

لك أنف يا إبن خالي تعبت منه الأنوفْ
أنت بالبيت تصلي وهو بالركن يطوف

وبعد فان الزمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدلالة عليه ، وأصدق في الشهادة له ، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر تفسيراً قوياً ، وشرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضياء ، وإن سطعت فيها كواكب تهدي ، وتألقت فيها نجوم تضيء .

عبد الوهاب حموده

عرس الطبيعة

عادت شُفُوف الروابي ... بِنَورها الخلّاب
ما بين أحمر قانٍ ... وبين أصفر كاب
وبين أخضر زاهٍ ... وأبيض كالحَبَاب
من جلّنار وآسٍ ... في روضةٍ معشاب
ويا سمين تدلّى ... على ذرى (اللبلاب)
ومن قرنفلَ يرنو ... لطلعة الأعناب
وزنْبَقٍ وأقاحٍ ... تداعيا للتصابي
فمن زهورٍ تجلت ... منشورة الأسراب
ومن زروعٍ تعالت ... فوق الحصى والتراب
مبثوثة في مهاد الغـ ... ـبراء بثّ الزرابي
تسقى بماء نميرٍ ... من جدولٍ وشعاب
بين البواسق تجري ... في عطفة وانسياب
وخفّت الطير تأوي ... الى الغصون الرطاب
تلقي الأهازيج لحناً ... من شدوها الجذّاب
ورفّ قرص ذُكاء ... خلف الشعاع المذاب
يزحزح الليل في الركـ ... ـب ، زاخر الأسلاب
بما احتفى من مَرَاحٍ ... وما احتوى من عذاب

ورقّت الريح حتى تخالها في لُغاب
تهدي الأريج زكيًّا في روحةٍ وذهاب !!

***

لاح الربيعُ بهيجاً في زي الوجوه العِذاب
بما اكتست من بُرودٍ من حسنه ، وثياب
مطـرّزاتٍ بوشيٍ من كل لونٍ ساب
أضفى النماء عليها بنضرةٍ وشباب !!

***

عرس الطبيعة يزجي من بعد طول غياب
أفراح فصلٍ تراءت بمونق الأسباب
على حنين المثاني ورنّة الأكواب
وراقصات العذارى وقُبْلة الأحباب
ومن طرائفِ شتى مسطورةٌ في كتاب
حروفها ولُغاها بصائر الألباب
تكاد تنطق جهراً في روحها الوثّاب
بمبدعات المعاني وملهمات الخطاب
تدعو الأنيس مليًّا في موكبٍ جوّاب
لفتنة الأعجاب وروعة الآداب !!

القاهرة عبد السلام رستم

في ظل القانون

آن أن يؤوب أخوكِ والساعة موعده . البدار . البدار . فقد وجدتُ بالأمس عذري عنكِ . وما يملكي اليوم أن أفعل .

هذا ما علا به صوت الأم وهي تطل من النافذة تدعو إليها ابنتها ، وكانت يدها في يد ترائب لها يعضينَ عصرهنَّ في براح من الأرض تلتف به الدور، وكانت لم تسعد بلقاء صواحبها إلاَّ منذ حين قصير . غير أنها ما سمعت ذكر الأخ حتى نفضت اليدين مما أخذت فيه وعادت أدراجها الى المنزل تطوي مراقي السلم مثنىً مثنىً .

ودلف الأخ بعد قليل يتأبط عدًّا من الكتب يمشي على استحياء وبصره الى الأرض . وما جاز أسكفة البـاب حتى دفعه في عنف ملأ البيت صدًى وهزَّ أركانه . فعرف سكان الطبقات الثلاث ، وكانوا عشيرة واحدة ، أن « خليلاً » قد آب من المدرسة . فخفتت الأصوات، وهرع الصغار الى مأمن ، مخافة أن يصيبهم سوء جزاء تجمّعهم على درجات السلم.

وتُسرع الأخت فتهيء لأخيها ما يحب في غرفته . والويل لها إن لم تلقنعنه في خفة ، أو أصاب فيها إبطاء ووقعت عينه منها على ما لا يرضاه .

هنا مترك الحذاء ، وهناك محفظ الحلة . وفي ضوء النافذة نضد صغيرة اتسعت رقعتها لكتب وكراسات بينهما مصباح زيتي . وغير بعيد أريكة فاضت على جنباتها ملاءة تقاسمتها الألوان . تمتد أمامها قطعة من بساط انجرد خمله وبقيت خيوطه .

***

في تلك الغرفة اعتزل « خليل » تاركاً لأمه وأخته غرفة أخرى تفصل بينهما ردهة وعت جرَّة كبيرة تتسع لقربةٍ من الماء يحملها إليهم مع الصباح السقاء . والى جانب الجرَّة واعيـة للماء صغيرة يخرج من أسفلها صنبور يصبُّ في طست صغير يختلفون إليها جميعاً

كلما عنَّ لهم أن يغسلوا وجهاً أو يداً . ومع الجرَّة والواعيــة موقد للغاز وقليل من أوعية وأطباق فيها منافع لهم .

وقد ألِـف الفتى أن يقضي الـكثير من وقته في هذه الغرفة وحيداً ، إلاَّ من كتاب، صامتاً إلاَّ حين يقرأ . حتى إذا ما تكشف له نور الصباح غدا يخبُّ الى مدرسته . يسعى إليها بكرة وينقلب منها عصراً على رجلين أبلتا الطرق وما كلَّتا.

وكان لا يجلس إلى أمه إلاَّ مع أول كل شهر حين تجتمع في يده تلك الجنيهات الخمسة ، غَـلَّـةَ أشطار في دُور مجاورة ، هي كل ما مات عنه والده .

والحي من الأحيــاء التي تضامت سبلها وَتزاحمت فيهــا البيوت بالمناكب حتى كادت تتلاقى رءوسها .

والناس هنا حريصون على أن يحفظوا للجوار حرمته، فالنوافذ مغلقة والستور مسدلة، إلاَّ جانباً من النهار تأمن فيه قعيدات البيوت أن الرجال إلى مسعى، وأن البيوت منهم خاوية ، فلا غرو إن رأيت الفتى قد غلَّـف زجاج نافذته بأوراق ذات لون حتى لا يؤذي جارة ولا يتهم بريبة .

وقد وكل الى أخته في غيبته أن تعنى بحجرته ،تسوِّي ما تشعث منها وتجري فيها يدها بالتنظيف والاصلاح بعد، أن تفتح النافذة ساعة ثم تغلقها .

وكان إلى أسفل دار « خليل » حانوت يسوس أمره شيخ قد خلّـف الخمسين احترف العطارة ، يجلس إليه مع المساء صفوة من شيوخ الحي ، يسمرون في حديث جُـله عن مبلغ العفاف من النفوس اليــوم . والحديث يجرُّهم إلى الماضي القريب فيكشف لهم عن سيدة الأمس في جلبابها الفضفاض وملاءتها الـكثيفة وقرارها في البيت إلاَّ مع سبب مُـلِـحّ وطارىء قاهر .

وهم إذا ذكَروا هذه ذكروا إلى جانبها الفتيان قبل وبُـعدهم عن مواطن الريبة وأخذهم بأسباب الحياء .

كان هذا حديث الجمع يفرغون منه ليلة ليعودوا إليه أخرى . لا جديد فيه غير ما كان يقع تحت السمع والبصر من مرئيات ومسموعات، العرض فيها معدوٌّ عليه .

وكانت الجلسة محبّبة الى خليل ، ينزل إليها مع كل مساء بعد أن يطمئن إلى أنه أدّى ما عليه وأربى . فيأخذ مكانه بينهم يستمع إلى تلك القصص ويعقب عليها مع المعقبين منهم بما يحضره من كلمات التوجع والتحسر ويسأل الله معهم رحمة لهذا الجيل الذي انزلقت به القدم وانفرط عقد الحرمات فيه فباتت الأعراض إلى تبرج والأحوال إلى غير حرص .

حتى إذا ما همَّ أن يترك مكانه بينهم سمعها على لسان أكثرهم دعوات أن يزيده الله بأهداب الفضيلة تمسكاً ، وكلمات تملأه إعجاباً بحاله ، وإمعاناً في تضييق الخناق على نفسه ، ومن إليه إيالتهم .

وعرفت فتيات الحي له ذلك يخفنَنهُ على أنفسهنّ ، وحرصنَ على ألاّ يسمعنَ منه كلمة تؤذيهنّ فأخلينَ له الطرق إن بدا وغلّقنَ النوافذ إن أطلّ .

وأمضى الفتى ريّق شبابه يحول بين بصره وبين أن يرى ، ويصم أذنه عن أن تسمع ويكبت نفسه إن تحركت، وهو في كل ليلة دالفُ الى الشيوخ في استماع وحديث ، لا ينقطع عن مجلسهم ولا يبرم به .

وأعقب عام عاماً وإذا خليل مُدرِّس في إحدى المدن يضمه بيت بين بيوت انضمت هي الأخرى على فتيات نهدنَ وكعبنَ . وما أن أحسسنَ للفتى ظلاً حتى امتدت اليه الأعناق ترقبه غادياً رائحاً . والفتى على عهده لا يرفع رأساً ، ولا تنفتح له نافذة . ولو ملك هنا ما ملكه هناك حيث بيته في القاهرة للفظها كلمات كالسياط ، ولكان له معهنّ شأن .

*

وانتهزت فتاة صلة الجوار وأن البيت الى البيت يتصل سطحاها إلاّ من حاجز قائم من خشبات، فلزمته الفتاة ما لزم خليل سطح بيته مع العصر مشغولاً بكتابه . وما ملّت الفتاة وما أيست . وأغفل خليل أمرها فيما أغفل. وظنّت الفتاة أنه غير محسٍّ بوجودها رغم ما تشيع عنها من حركة وصوت، فَعَلَت الحاجز تُوهم أنها غير عامدة وهو يراها عامدة، فطوى ما بين يديه وانحدر يبغي مأواه .

وبات على عزم ألاّ يرقى إلى ذلك السطح . ولكنه وجد نفسه من الغد مع العصر يتأبط كتابه ويحمل كرسيه ويُصعد الى حيث اختار . ووجد صادفاً يشغله عن المضي في القراءة من بلبلة ووسوسة، فظنه ضنىً وإرهاقاً . فأخذ يفرك جبينه بيده . وهو حين يفعل يجد

بصره قد غلبه على أمره،وسارقه التفاتة الى حيث مكان الفتاة بالأمس يتفقدها .

واستحال الوهم جدًا وأحسّ الفتى من قلبه قلقاً صدق فيه خليل نفسه حين عزاه إلى غيبة الفتاة وتخلفها عن الصعود .

وطوى عصره وأظله الليل،وما كان قبل يُسطاله فهبّ من مكانه فزعاً وجرى الى السلم يحمل مع الكرسي والكتاب في يديه شاغلاً بين جنبيه . وأحس الفرق بين حالين ، حال قديمة وقفت فيها الفتاة ترغب اليه وهو عنها لاهٍ قانع بأنها تراه ، وحال جديدة خرجت فيها عليه نفسه،وأصبح لها توق لايمنع وشوق لا يدفع . وهو بين الحالين حائر لا يدري أعلى رشد هو أم على غيّ .

ترى أكان الفتى حين لزم الجدّ مستجيباً لنداء قلبه،وتُراه حين أخذ نفسه بهذا الحزم يراه الخير الذي لا خير سواه . لنتركه للأيام قليلاً فهي كفيلة بأن تكشف لنا الكثير عما لا نعرف الآن علّته من نفسه.

*

واختفى ظلّ الفتاة فلم يظفر بها السطحُ أياماً لم يتخلف فيها خليل عن التبكير في الصعود والتعويق في الانصراف . وما انتفع فيها بنظرة في كتابه . بل وجد خلل الخشبات أسطراً في قراءتها ريٌّ مُشبع لنفس على ظماء وجوع.

*

وكتب الله للفتاة البرء من وعكتها فقصدت قصد السطح مع العصر ، وبها لو رأت الفتى مقبلاً عليها،فحسبها إيذاءً ما لقيت من صدوفه.واستيقظ الدلّ من نفسها فعقدت العزم على أن تلبس له غير ما لبست . وفيما هي تدنو من الحاجز أبصرت الفتى من بين تلك الثغرات التي أحدثتها في ذلك الجدار الخشبي ، ورأته قد لزم الحاجز يلعب بأصابعه في ثغرة من ثغره يمكّن بذلك لبصره أن يرى . فلكت أمرها وعادت أدراجها،بعد أن التقى طرفاها غير طويل .

وكاد الفتى يصيح بها إلاّ أنه ملك حزمه، وقام يسعى الى كرسيه وكتابه فعلم أنه صمد اليوم دونهما . فهمّ أن ينزل ولكنه أخذ يغدو ويروح ونظره لاينفك عالقاً بالحاجز حتى غابت الشمس ولم يعد يرى ما حوله فانحدر الى مأواه .

شهد الشارع الذي يقوم فيه بيت الفتى والفتاة حفلاً خفقت فيه الأعلام وسطعت الثريّات وخفّ اليه شيوخ الحي وشبانه يشهدون بناء الفتى بالفتاة .

ولم يمضِ غير قليل حتى أصبح ذلك المأوى الذي كان لخليل خالصة يتسع لزوجين لم ينقضِ على تعارفهما سوى أشهر .

و نَعِم الزوج بتلك الحياة وأفرط ولم ينسَ أن يكون حازماً فقنّع امرأته وكانت سافرة ، وألزمها البيت وكانت لها زورات ، ومنعها أن تقف الى نافذة . واستجابت الزوجة الى ما يريد ، مما كانت طامعة حين كانت تفعل ما فعلت أولاً إلاَّ في أن ترى نفسها زوجة وقد رأت ، فلتنصرف الى طاعة وليها ولتحرص على رضاه .

*

وتصل الأيام بين خليل و بين أسرة زوجه بأسباب . فيزور ويزار . ويُسأل أن يُعنى بأمر فتاة من قريبات زوجه مقبلة على امتحان. ويُخلص خليل في العون فيدعو الفتاة الى بيته أياماً ويزورها في بيتها أياماً أخرى .

وجازت الفتاة الامتحان مهنّأة ، وما انقطعت عن التخلف الى خليل في أيام رسمها لها لتعدّ للمستقبل عدته .

ورأت الزوجة في الأمر ما يريب. فهمت أن تقول شيئاً ، فإذا هي مُوعدَة بيمين. فسكتت. وحرّكت للأمر أبويها، فحاولا أن يفعلا شيئاً فما استطاعا.

*

و جرت الأمور بين الزوجين تشوبها شوائبُ لا مكان فيها لطمأنينة . فالزوج قد شغف بالفتاة حبّا . وبوده أن يظفر بها زوجاً ، وما من خلقه أن يعيث فساداً . ولكن دون الزواج أموراً، فهو زوج ، ثم هو يرى في الجمع بين اثنتين ما يشين .

وكان ذا حيلة ودهاء . وإذا حدّثك فأنت مستمع إلى مظلوم معذّب، جدير بالعون والرحمة . لهذا لم يجد خليل مشقة في أن يحمل أهل الفتاة على أن يقبلوه لها زوجاً ، على أن يظل ذلك سرّا ، حتى يقضي الله بعد ذلك أمراً .

وعدّت الزوجة على الزوج غيبات طالت ، وشمّت فيه ريحاً أخرى . ففشت في إثره ، وما مثل هذا يُكتم .

وما شاع عنه هذا حتى أنكره عارفوه . فهم يرونه لا يدنو ولا يزلّ . ولكنه مَلكَ أن يقول فصدّقه من صدّقه وكذّبه من كذّبه . وانفصمت للقرابة عروة . وعاش خليل يختلف الى بيتين ، عاشا على عداء ، وكانا قبل على وفاق .

وشقي الزوج مع ما حاول من أن يجعل الأمور الى استقرار وهدوء . فخلع زوجته الأولى فخرجت عنه تحمل على كتفها بنتاً وتجرّ أخرى . وضمهنّ جميعاً البيت الذي هجرته منذ أعوام أربع . فعاشت الى كنف أمها وكانت فقدت أباها منذ أشهر .

* * *

لم تنل يد التغيير من بيت خليل في القاهرة كثيراً . فقد غادرته أخته زوجةً وخلّفت فيه أمها وحيدة ، يُعني بأمرها فيه جميع من في المنزل ، فهي لهنّ جدّة . أما الحانوت فقد تولاّه الابنُ بعد موت الأب ، وانفرط عقد هذه الجماعة فلم تعد تقصد إليه كما كانت تقصد .

ذلك كان الشأن حين نزل خليل بزوجه في الحجرة التي ضمته صغيراً . غير أنه استبدل بالأثاث أثاثاً جديداً وهيأ للزوجة ما رأى في غير إسراف وغلوّ .

وجرى خليل في القاهرة يتقلب بين مجالسها ، وتفتحت عيناه لأن ترى ، وأذناه لأن تسمع . ولكنه كان إذا عاد الى البيت وذكر الماضي تولّته غمرة ينطبق لها جفناه ، ويميل لها رأسه . فيعرف الناس أن الزمن بماله وجاهه لم ينل منه في قليل ولا كثير .

أما تلك الثورة التي باع من أجلها خليل أمّاً وبنتين ، وفرّق بين أسرتين ، والتي ظنتها الزوجة الثانية هوًى لا يُنال منه ، فقد خمدت جذوتها في نفسه ، وباتت الزوجة لا تحس لها حرارة . فعاشت المسكينة مع الأم بنتاً تعني بها دون الجميع . وأصبح خليل لا يدخل عليهما إلاّ مع المساء ليقضي بينهما ساعة بين صلاة وراحة ، ثم يغادرهما في صمت كما دخل عليهما في صمت . وهو إمّا إلى عودة أو تخلّف . وما يملك إنسان أن يناقشه ، فما للريبة إليه سبيل . وما أقدره على تبرير ما يفعل وأقواه على أن يحتال . وارتاحت الزوجة الى الأم وحديثها عنه ، فلم تخش شرّاً ورضيته على حاليه فعاشت هادئة بعض الشيء ، إذا ما فزّعها خاطر ذكرت ثقة الأم بابنها فعادت مطمئنة .

ويَراح خليل الى البيت أسبوعاً فيأوي إليه مع الغداء، ويعود إليه مع العصر فلا يبرحه . فتشيع الغبطة في نفس الزوجة ، وتتيه الأم زهواً بصدق حدسها . وتجري الأمور رخاء لينة . لولا ما بخليل من وجوم وبلبلة .

وفي صبيحة يوم والكل الى المائدة يطعمون سُمعت على السلم خَفقة لقدم ، تبعتها قرعة خفيفة على الباب ، قامت لها الزوجة ناهضة ، فألفت على الباب سيدة تذكر اسم زوجها فظنتها أمًّا تسعى في شيء يخص ابناً لها في المدرسة ، فهشت للقائها، وأذنت لها في الدخول . وجزع الزوج وحاول أن يقول ، وكانت السيدة الوالجة أسرع منه إلى القول . فعرفت الأم أن ابنها زوج لثانية ، وأنها هي تلك ، فخجلت . وعرفت الزوج المقيمة أن لها ضرَّة فانكسرت ، وعرفت الزوجة الجديدة أنها ثالثة الأثافي فهلعت .

*

ولم يجد الزوج ما يخافه لجعل وقته قسمة بين البيتين، غير أنه وجد في البيت الجديد سعة من لهو ومتاع ، سنحدثك حديثه بعد حين ، فخصه بالكثير من وقته وماله وعطفه. فآذى بذلك نفساً لم تجد في قوس صبرها منزعاً ، فبرمت ثم شكت . فعدَّ ذلك عليها خروجاً على الأخلاق،وكفراناً بالنعمة . فزادها هجراً . ولم يكن بملكها إلاَّ أن ترحل إلى أهلها فرحلت . وما استقرَّ بها المقام هناك أياماً ، حتى رأت كلمة الزوج في أمرها يحملها إليها البريد . فعلمت أنه لا يود لها رجعة فحزنت،وأضرَّ بها الحزن، فأورثها علة فقدت معها عقلها، وضاق بها أهلها فحملوها الى المستشفى تاركين إلى الله مصير أمرها .

*

لقد برَّت الزوجة الجديدة بما آلت وأغمضت عينيها على استخذاء، وتركت لزوجها مجلس الى أختها لتضمن ذَهَبَه . وحَسْبُها ذلك الاسبوع الذي قاضبها فيه .

ذلك بيت فقد عائله ، انضمَّ على فتيات ثلاث وأم ، كبرى الفتيات تلك التي وصل خليل حبله بحبلها حين لقيها بين يدي صائغ تبيعه قرطها . وقد تحدث اليها وتحدثت اليه وتحركت نفسه لعونها ، فأكبرت وجدانه . وشفع البر برٌّ حين طرق عليها الباب في اليوم الثاني يحمل الكثير مما لا تغنى عنه البيوت . وقد مهَّد بالذي فعل السبيل إلى أن يلج البيت ، فولجه زائراً ولم يغادره إلاَّ زوجاً . وقد كشف لهم عن عذره في رغبته أن يظل الامر سرًّا ، فقبلنه . فالفتى كما بدا نبيل، ومع العوز الحياء والخجل .

ولكن شيئاً لا تغفل عنه الزوجة ، هو حرصها على أن ترى زوجها لها ، فلما رأت لأختها منه نصيب ثارت . فجازاها على ثورتها بغضبة دامت أسبوعاً . وخافت الزوجة أن تطول إلى لا رجعة فسعت اليه ، فعرفت جديداً من أمره وكانت على أن تغضب . ولكنها ذكرت فقرها وتركت الحكم له . وعرف هو ضعفها فرضي أن يعود اليها ، وبسط في البيت يده فأغناه ، وعونه الواسع فكفى الجميع شراً كُنَّ على أن يصلينه.

والتفتت الزوجة إلى أختها تحذرها ولم تلتفت الى الزوج تزجره . وباتت لا توجس في نفسها خيفةً فقد احتاطت للأمر بما فعلت .

وما كان في خلق الفتى أن يجترح إثماً ، أو يأتي الأمور إلا من أبوابها . فمضى يبذل لها الأماني ، والفتاة ترى في إجابته عقوقاً بأختها ، وعاراً سوف يتعلق بأذيالها . فانقلب ينذرها بالسوء ويكشف لها عن مستقبل أسود ، فما ألان لها عوداً . فظهر لها في ثوب الواله الدنف فانكسرت أمام سلطان الحب بعض الشيء وراح يشكو لها ما يعاني وما يضنيه فرثت له وبكت همّه . وخلا بها يوماً فأبان لها عمّا فعل ، وأن أختها منه بائنة ، إذ من الظلم لنفسه أن يضم الى جنبه من لا يحب . وأنه سيودّع البيت بمن فيه ما دامت هي لم تستجب له . وازدحم رأس الصغيرة بالبلابل وحسبت نفسها مع الخير حين صحبته يوماً الى بيت بمعزل ، فتمضي بيمينها قبوله لها زوجاً .

***

خفّ سكان الحي المجاورون مساء ليلة الى سرادق أقيم قبالة ذلك البيت الذي حلّ فيه « خليل » منذ عامين يواسون في ركن منه رجلاً متهدماً ، كان للفتيات عمّاً . وإذا ما التفتوا الى اليمين وجدوا « خليلاً » في حلته السوداء واجماً ، فمال إليه فريق وصدف عنه فريق .

أمّا لمن أقيم السرادق فلا يهولنّك أن تسمع أنه كان لاثنتين احتدم بينهما شجار ، واستطالت يدّ الكبرى فيه فقذفت أختها بمصباح الغاز ، وأخطأت حين همّت بنجدتها ، فالتهمتهما النار معاً .

*

ولا يزال خليل على بقية من القوة ، ولا يزال يرى أنه مهيض تعس . ولا يزال يرى أنه عفّ وهو فيما يفعل يحمي أفعاله بسلطان القانون ، ويستظلّ بظله . وما بنا أن نلاحقه الى غاية الشوط . وبودنا لو ضاق القانون فضيّق على أمثاله فحمى من عبث ودفع من شر .

الموج

يا مصر حياك بالورد الحيا الهطل ... وازدان بالدر رطباً جيدك العطل

وزانك النيل فاخضرّت بأبيضه ... حمر البطاح عليها الحلي والحلل

والطلّ ينثر درّاً فوق سندسها ... يحلي به العاطلان القصر والطلل

والشمس توقد شمعاً من أشعتها ... لها على كل غصن زاهر شعل

فالنيل من فضة والشمس من ذهب ... بحر من النور طام فلكه الأمل

بحرٌ من النور والنوّار لؤلؤه ... أضحى من القمر فوق الموج ينتقل

تقبل الشمس منك الوجه كل ضحى ... فتودع الورد محمرّاً به القبل

ولؤلؤ الغيث تبر الترب صيره ... زبرجداً جلاه الوهد والجبل

والسحب نسج حرير والصبا جلم ... تخاط منها لاعراس الربى الكلل

فأرض مصر سماء الأرض زينها ... نجم الزهور له نجم السما مثل

وفي سمائين بحر فيه منعكس ... شكل النجوم وبر نجمه الدغل

فالبحر في طرف والبر في طرف ... يا حسنها أن تناجي النوق والجمل

ومصر جنة أهل الأرض ناضرة ... يجري من النيل فيها الخمر والعسل

خمرٌ اذا شربته الأرض أسكرها ... فكل ما أخرجت من ناضر ثمل

سكرى وأقداحها القداح يترعها ... راح الدجنة صرفاً حين ينهمل

راح حسته بنات الروض حاملة ... كؤوس زهر فنها العل والنهل

والريح تلعب بالأقداح ضاربة ... بعضاً على البعض والأغصان تنتضل

أجنــة أم عرينٌ أم بسيطوغى؟ ... والنجم والشجر والأسياف والأسل

وفي العرين أبو الهول الذي عجزت ... عن أن تزحزحه الأقدار والدول

وهذه مقلتي تاقت الى شرف ... أدنى ذراه بأعلى العز متصل

فهل سبيل الى مصر فتحملني ... فيها متون الفضالا الأنيق الذلل

تجري على فلك العلياء طائرة ... الى العلى بفتى ضاقت به السبل

تحطني في ربى مصر فترفعني ... الى ذرى دونه الأطواد والقلل

(طهران) عباس الخليلي

الذهب[1]

تاريخه، استخدامه، أمراضه

يوجد الذهبُ كثيراً في بقاع الأرض، بشكله المعدني حيناً، وممزوجاً بمعادن أخرى حيناً آخر. وهـذه المعادن هي الفضة والنحاسُ والحديدُ وغيرها. وهو يوجد بين الصخور المعروفة باسم Quartz وبين الرمال. وطبيعيٌ أن الذهب الذي يوجد بين الرمال كان قبلاً بين الصخور التي تفتتت بتأثير الأنهار أو السيل، فتحللت الى رمال حيث هذا المعدَنَ النفيس. والذهب يوجدُ عصرَ في هاتين البيئتين. وبالنسبة لسهولة معرفته واستخراجه من بين الرمال، فإن قدماء المصريين تعرَّفوه واستخرجوه منـذُ أقدمِ العصور. ويتشرفُ النـُّحاسُ بأنه كان أول المعـادنِ تداولاً في التاريخ الفرعوني، ويتشرف الذهبُ بأنه كان ثاني هذه المعادنِ. ولما كان استخراجُ الذهبِ من الرمال أسهل مراساً من استخراجه من بين الصخور، فان أجدادَنا بدأوا هذه العملية في المناجم الرملية

وأهم مناطق الذهب بالقطر المصري، هي الواقعـةُ بين وادي النيل والبحر الاحمر. وبالأخص الجزء الذي يحدُّه شمالاً الخط بين قنا والقصير، وجنوباً حدودُ السودان. ومع ذلك فإن مناجم الذهب الفرعونية، وجدت شمال هـذه المنطقة بمسافة بعيـدة كما وجدت جنوبها حتى دنقلا. وطبيعيٌ أن هـذا الأقليم هو المعروف الآن باسم نوبيا وقبلاً باسم أتيوبيـا. ولم يعثر على الذهب بشبه جزيرة سيناء، على الرغم من أن الظروف الطبيعية والجيولوجية هناك تساعد على تواجده. وهناك بعض الإشارات الى جواز العثور على الذهب بتلك المنطقة قديماً، ولـكن ليس بصفةٍ قاطعة.

ويقال إن المساحة التي بحث فيها أجدادُنا عن الذهب بالصحراء الشرقية، هي نحو مائة ميل مربع، وأن الأراضي هناك قـلـِّبت بعمق مترين تقريباً. والمعروف أن العرب

(١) محاضرة للدكتور حسن كمال بك مدير عام مصلحة الصحة الاجتماعية بوزارة الصحة

حاولوا استخراج هذا المعدن النفيس أيضاً ، بعد استيطانهم للقطر المصري .

أما استخراج الذهب من بين الصخور ؛ فإن محاولات المصريين لها بلغت المائة عملية .

ومهما كانت منابع الذهب المستخرج في مصر سواء كان ذلك من بين الصخور ، أو من بين الرمال ، فإن قدماءَ المصريين كانوا يستخرجونه تامًّا دون ترك أثرٍ له.

وهناك نصوصٌ تاريخية تشير الى استجلاب الذهب من السودان . أما استيراد هذا المعدن من البلدان شمال القطر المصري ، قبل الأسرة التاسعة عشرة فلم يثبت للآن .

وأهمُّ مناطق الذهب في مصر القديمة هي : —

في الجنوب . في الأسرة الثانيــة عشرة (قفط والنوبيا) ، وفي الأسرة الثامنة عشرة (قفط — كوش — والصومال) ، والأسرة التاســعة عشرة (السودان والصومال) ، والأسرة العشرينية (ادفو — كوش — السودان — كوم امبو) .

في الشمال . في الأسرة التاسعة عشرة (ليبيا) ، والأسرة العشرينية (آســيا) وأقدم خريطة جغرافية في العالم ، هي الموجودة حالياً بدار تحف (تورين) تمثل اقليم استخراج الذهب في مصر الفرعونية بصحرائها الشرقية . ويرجع تاريخ هذه الخريطة الى عهد الملك سيتي الأول (أسرة ١٩ — ١٣١٣ — ١٢٩٢ ق . م) .

﴿ تعدين الذهب في العهد الفرعوني ﴾ . طريقة فصل الذهب من الرمال عند قدماء المصريين كانت بسيطة تتلخص في غسل الرمال بالمياه ، فتجرف الرمال بتيار الماء تاركةً ذرات الذهب أو كُتَلِهِ الصغيرة راسبةً بفضل ثقلها . ثم تُصهر هذه الذراتُ الى كتل .

أما طريقة استخراجهم للذهب من الصخور ، فقد وصفها الكاتب اليوناني اجاثارشيديس Agatharchidis في القرن الثاني بعد الميلاد ، الذي زار تلك المناجم ولو أن هذا الوصف فُقد إلاَّ أنَّ المؤرخ ديودر الصقلي أورد منه صورة كاملةً . فالصخور الصلبة كانت تكسر بالنار كتلاً كبيرةً . وهــذه كانت تُفتتُ بالآلات اليدوية الصغيرة . وبعد التفتيت كان القوم ينقلونهــا الى خارج المنجم ، حيث تطحن في أهونةٍ الى حجم الفول ، ثم في طواحين الى مسحوق ، وبعد ذلك يغسل المسحوق على سطحٍ مائلٍ لفصل الأتربة بطريق الجرف مع تيار المياه ، وترسيب الذهب بفضل الثِّقل. ثم تصهر الذرات الذهبية الى أحجام كبيرة .

وأجود أنواع الذهب الفرعوني كان يحوي ذهباً خالصاً بنسبة ١ و٧٢ ./. (١٧ قيراطاً) الى ٨ ر٩٩ ./. (٥ر٢٣ قيراطٍ) ومع ذلك فقد وُجد ذهب كان يحوي من المعدن النفيس ما يقرب من ١٣ ، ١٢ ، ٩ قراريط .

وذكر توماس Thomas ان الذهب المصري الحالي يحوي ذهباً خالصاً بنسبة ٠ر٨٤ ./. (٢٠) قيراطاً إلى ٣و ٩٠ ./. (٥ ر ٢١ قيراطٍ) وان الشوائب التي به لا تتعدّى معدَن الفضَّةِ . ولكن لُوحظَ بين الشوائب معدنا النُّحاس والحديد .

﴿ نقاوة الذهب ﴾ يظهر من نتائج التحليل الكيميائية الحديثة ، إن الذهب الفرعوني لم يُنقَّ نقاوةً تامَّةً إلاَّ في العهد الفارسي (٥٢٥— ٣٣٢ ق.م) ولو ان النصوص المصرية القديمة في عهد الأسرة العشرينية (١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق . م) ذكرت عبارة « الذهب المكرر مرتين » و« المكرر ثلاث مرات » مما يشير الى محاولة نقاوته على دفعات إلاَّ أن الذهب الذي عُثِرَ عليه في تلك العصور ، لم يتعد ما سبق أن ذكرناه سابقاً .

وفي القرن الثاني بعد الميلاد ذكر إجاثارشيديس (Agatharchidis) تكرير المصريين للذهب ، بصهره مع الرصاص والملح والصفيح وردة الشعير ، ولم يرد في وصفه طريقة فصل شائب الفضة من الذهب .

وابتداء من الأسرة الثامنة عشرة بدأ القوم يضيفون النحاس الى الذهب في الصياغة ، كما يشاهد ذلك في خواتم تلك العصور . وقد بلغت النسب في أحد هذه الخواتم ٢٥ ./. ذهباً و ٧٥ ./. نحاساً .

﴿ صناعة الذهب — الصياغة ﴾ والمصوغ الذي عُثر عليه بمقبرة الملكة حتب هيريس (Hetep Heres) أسرة رابعة يدلُّ دلالةً قاطعة على منتهى ما وصلت اليه هذه الصناعة من الاتقان في تلك العصور السحيقة . أما المصوغ الذي عُثِرَ عليه في دهشور واللاهون ، من عهد الأسرة الثانية عشرة ،وأيضاً في مقبرة توت عنخ آمنون (أسرة ١٨) فيفوق في اتقانه كل وصف . وما أكثر الصور التي تُمَثِّل صناعة الصياغة على جدران مقابر أجدادنا مثل مقبرة (تي) بسقارة (أسرة ٥) ومقبرة (ميرا) بسقارة أيضاً (أسرة ٦) ومقبرة بني حسن (أسرة ١٢) ومقبرة (رخمارا) بطيبة (أسرة ١٨) .

الى هنا انتهى تاريخ هذا المعدن النفيس في مصر الفرعونية. والآن ننتقل الى الوضع الحديث.

سبق أن ذكرنا ان الذهب يوجد عادةً في الصخور (Quartz) ، وبين الرواسب الرملية ، ويفصل المعدن عن الرمال باستعمال تيار الماء ، الذي ينقل الرمال ويترك الذهب في قاع المجرى . وبعد جمع هذا المعدن بالطريقة المذكورة يُحَضَّر نقيًّا بعدة طرق أكثرها استعمالاً هي مزجه بملح سيانيد البوتاسيوم أو الصوديوم فينجم سيانيد الذهب وهذا يفصل بالتحليل الكهربي (Electrolysis) حيث يتراكم الذهب على القطب السالب .

ويوجد الذهب في منجم السيد بقفط ومنجم السكري في مرسى عالم ومنجم الذهب في البرامية، بين القصير وادفو . فاما منجم السيد فتديره شركة مساهمة منذ عام ١٩٤٤ واستطاعت أن تحصل منه في عام ١٩٤٨ على ٢٩٥٠ أوقية بلغ ثمنها ٦١٠٠٠ جنيهاً وبه ٢٢٠ عاملاً .

وأما منجم السكري فقد استخرج منه ٢٠٧٦٢ أوقية من الذهب الخالص ، منذ سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٤٧ . وقد بيعت بمبلغ ١٢٧٢٠٩ ج على حين بلغت المصاريف في هذه المدة ٢٩٦٤٢٠ ج . وأما منجم البرامية فقد استولت الحكومة عليه في أوائل الحرب العالمية الأخيرة من مديره الايطالي ولم تقم بادارته . وأخيراً رخصت للنائب المحترم عبد الملك حمزة بك بادارته .

ويستخرج الذهب حالياً بثقب الصخور أولاً ، ثم نسفها بمادة جليجنيت Gelegnite بعدها تنقل في عربات تجرها الأيدي . وكان هناك خطران يلازمان هذه الصناعة . أولهما التسمم بالسيانيد (سيانيد الصوديوم الذي يستعمل عادةً لاذابة الذهب من فتات الصخور) لكن معرفة طريقة التسمم به ، حددت كثيراً من حوادثه . وثانيهما التسمم بالزئبق الذي يستعمل كالسيانيد في استخراج الذهب من فتات الصخور . ويحتوي سيانيد البوتاسيوم على ٤١ ٪ من حامض الايدرو السيانيك . ويستعمل في الطلاء الكهربي (Electro-plating) والتصوير الشمسي . ولكن أستعيض أخيراً بسيانيد الصوديوم ، لرخص الأخير . ويحدث سيانيد البوتاسيوم تأثيره السيء في الجسم اذا ما تعرض جرح أو قرحة جلدية للجوهر . وقد حدثت فعلاً حوادث كثيرة من هذه الناحية .

أما سيانيد الصوديوم فكثير الاستعمال في التعدين والطلاء الكهربي ودبغ الجلود وصناعة الألوان الخ .. كما يستعمل كمصدر لاستخراج حامض الايدرو السيانيك لعملية التبخير . وطبيعي ان كل هذه العمليات تصحبها حوادث تسمم .

وحامض إيدرو السيانيك وأملاحه من أشد السموم . فهو سم للبرتوبلازم،ولذا فهو يقتل بشل المجموع العصبي وتأثيره المباشر على قوة القلب . وبكميات صغيرة جداً يحدث تهيج الأعصاب في الجسم. ويقف حامض الايدرو السيانيك وأملاحه حائلاً دون عملية التنفس، وذلك بمنع مادة (Cytochrome) من القيام بوظيفتها وهي نقل الاكسيجين الى الأنسجة وتهيئته للتنفس . لذلك نجد في حالات تسمم السيانيد ان الدم يكون أحمر قانياً لعدم مغادرة غاز الاكسيجين منه . وان الدم الوريدي قد يحوي من الاكسيجين كمية تقرب من كميته في الدم الشرياني . ومن الجائز أن وقف عملية تبادل الاكسجين بالجسم هي سر سم الجوهر . وان سرعة الوفاة حينذاك نتيجة وقف هذه العملية في مراكز الجسم الرئيسية .

وتحدث الوفاة من استنشاق غاز الايدرو السيانيك إذا وجد في الهواء بنسبة ٠٥ر٠ في الألف . أما إذا تعاطاه الشخص فانه يقتل اذا بلغت كميته من ١ — ٥ ملليجرام لكل كيلوجرام من وزن الجسم .

أما سيانيد البوتاسيوم فقد يحدث الوفاة للانسان في ظرف ربع ساعة اذا تعاطى الشخص خمس قمحات (أي حوالي ٣٠ر٠ جرام) . والتسمم بأملاح السيانيد ينجم من سرعة احداث حامض الايدرو السيانيد في المعدة بتأثير العصير المعدي . ولكن ذلك يترتب أيضاً على كمية الطعام بالمعدة .

وفيما يلي حادثة تسمم من حامض الايدرو السيانيك معتبرة مرجعاً في الطب الشرعي ذكرها (سيدني سميث في كتابه ص ٦٨١) واردة على لسان طبيبها واضحة بها أعراض التسمم

في ٤ نوفمبر استدعيت فجأة لعلاج آنسة . وبعد بضع دقائق وصلت منزلها فوجدتها ملقاة على الأرض تتنفس تنفساً عميقاً ، وهي فاقدة الشعور متشنجة ، متمددة حدقتي العينين ، باردة الجسم ، عديمة النبض . وأخبرتني أمها أن الآنسة صعدت الدرج ، لتغير ملابسها ، وتحمض بعض الأفلام الشمسية . وعلى أثر ذلك سمعتها الأم تصيح أماه — أماه

ثم تسقط توًّا على الدرجات متشنجة متقايئة . ولوحظت رائحة اللوز الشديدة في نفسها وقيئها . فاستنتجت أنها سممت نفسها بطريقة ما ، بملح سيانيد البوتاسيوم أو حامض الايدرو السيانيك . وبالسؤال اتضح انها كانت في كامل صحتها قبل الحادثة بنصف ساعة

قال الطبيب : فنقلت الآنسة الى الفراش ، وحقنتها بمقدار ١/١٠٠ قمحة دجتالين ، ١/٥٠ قمحة استركنين ، وشفعت ذلك بحقنتين من الكونياك ، وبدأت في عمل التنفس الصناعي مع التدليك العام . ولاحظت بعد مدة قصيرة أن النبض بدأ يظهر خفيفاً في المعصم . ثم داومت في اسعافها بالكونياك وزجاجات الماء الساخن ، وحراقات الخردل فوق منطقة القلب ، الى أن استفاقت قليلاً على أن تنتكس حالتها الى ما كانت عليه عدة مرات بعد ذلك فقد تقيأت مرات عديدة كما تشنجت تشنجات متوالية . وكانت حدقتا العينين متمددتين طول المدة . ولم يسترجع رشدها تماماً إلاّ بعد مرور ثلاث ساعات من الحادثة . بعدها رجعت الى حالتها الطبيعية تقريباً اللهمّ إلاّ بعض الغثيان والدوخان .

وبالبحث في حجرتها لوحظت قطعة كبيرة من سيانيد البوتاسيوم ، وبجوارها مدية ، كانت تستعمل للحك ، قصد الحصول على بعض المسحوق من هذا الملح . أما كيف تمكنت من نقل بعض هذا المسحوق الى فمها فقد عجزت عن شرح ذلك تماماً . لأنها لم تتذكر شيئاً عن الحادثة ، بالرغم من أن هناك ما يدل على حصول فترة صغيرة كانت فيها محتفظة برشدها بدليل اندفاعها الى خارج الغرفة وصياحها طالبة النجدة

أما أعراض التسمم البطيء بحامض السيانيك أو أملاحه فتتلخص في إحساس بالاختناق ودوخان واضطراب الذاكرة ، وآلام بالرأس ، وزيادة في ضربات القلب ، وصعوبة في التنفس . ويفقد الانسان رشده تدريجاً . فاذا ترك ولم يسعف مات من وقف حركة التنفس .

أما اسعاف هذه الحالات ، فيتلخص في تفريغ المعدة بالمقيئات أو بالغسيل ، وعمل التنفس الصناعي ، والتدفئة الخارجية للجسم ، وحقن الأثير ، واعطاء الكونياك ، بالفم أو المستقيم ، وتدليك الاعضاء . ولا فائدة من استنشاق غاز الأكسيجين . لأنّ الدم الشرياني والوريدي متشبعٌ به . ويصف البعض جوهر الأتروبين والكارد يازول بحجة تنبيه مركزي التنفس والدورة الدموية . ولكن ذلك لم تثبت فائدته .

ويقال إن اعطاء الجلوكوز يقلل كثيراً من تأثير حامض الايدرو السيانيد وأملاحه على الجسم. وقد استدلّ بعضهم على ذلك بأن محاولة تسميم «راسبوتين» في ١٦ دسمبر سنة ١٩١٦ بوضع حامض الايدرو السيانيك في نبيذ له قبل تعاطيه بثلاث ساعات، لم تحدث تأثيراً مرضيًّا على الشخص، بحجة أن السكر الموجود بالنبيذ وقتئذٍ أضعف الى حدٍّ بعيد قوّة الحامض السامة. وكانت هذه الحادثة في وليمة أقامها له عدّة شخصيات روسية كبيرة. فلما لم يفلح سيانيد البوتاسيوم قتل راسبوتين رمياً بالرصاص.

أما سيانيد الزئبق (Mercury Cyanide) فسامٌ ويستعمل بكثرة في استخراج الذهب ولا تقل سمية هذا الملح عن سمية السليماني، ولو أنه لا يحتفظ بقوّة التآكل (Corrosive Property). وليلاحظ أن الزئبق معدنٌ يصل الى الجسم بطريق الجلد السليم، كما يصله بطريق الغذاء والاستنشاق. وأن التسمم به في عملية استخراج الذهب قد يكون سريع المفعول أو بطيئه حسب الظروف. فاذا كان استنشاق الهواء الحاوي لبخار الزئبق أو لأتربة أملاحه هو وسيلة التسمم، كانت الأعراض بطيئة الظهور. وهذه تتلخص في مغص وغثيان وقيء وضجر وانقباض نفساني. بعد ذلك تنتفخ الغدد اللعابية وتتألم، ويحمر لون اللسان واللثة ويتقرحان وتنتن رائحة النفس. ثم يشتكي المريض بصعوبة في الابتلاع، ثم يظهر على اللثة خط أزرق. وتصاب الأمعاء باسهال ويعتري الشخص صعوبة في التنفس وسعال ورعشة عامة وحركات تقلصية في الأطراف، وأعراض بعض الشلل، وقد ترتفع حرارة الجسم قليلاً وينحف ويسيل اللعاب كثيراً.

ويسعف المصاب بإفراغ المعدة، وتناول اللبن، ويلتفت الى الكليتين، وغير ذلك، مما يقع في دائرة عمل الطبيب وأهم مادة استنبطت لعلاج التسمم بالزئبق والذهب والزرنيخ، هي مادة B. A. L. (British-Anti-Lewistie) التي كانت تستعمل أولاً في علاج التسمم بغاز (اللويسيت). وهي عبارة عن مادة (2,3-Dimerc aptopropanol) مذابة بنسبة ٥ ٪ في زيت الفول السوداني الحاوي لمادة (Benzyl Benzoate) بنسبة ١٠ ٪. وهو موجود بالسوق بشكل أنابيل ٢ سم³ وتقدمه شركات مثل (Boots)

وبالنسبة لعمق مناجم الذهب فان الضغط عليها من الخارج يكون شديداً، فتتداعى

جدرها ويسقط تحتها عدد من العمال . وقد أدخلت تحسينات كثيرة في صلب المناجم وطريقة فصل الذهب .

وأهم الأمراض الأخرى التي تصيب عمال الذهب هي الالتهاب الرئوي والسلكوزيس (Silicosis) والدرن ، والانكلستوما ، والاسقربوط (قلة فيتامين ج)

وتمنع الاصابة بالانكلستوما برش ملح الطعام في أرض المراحيض وداخلها . وغسل المقاعد والجدران مرة في الاسبوع بمحلول الملح في الماء بنسبة (٢٠ ٪) .

ويمنع مرض السلكوزيس (Silicosis) والدرن الرئوي باستعمال المياه ووسائل التهوية. وعليه فيجب استعمال المياه في كل عملية تنقيب . كما يجب بلّ قطع الصخور قبل نقلها بالمياه . ويتحتم أيضاً رش المياه على جدر المنجم باستمرار . ووقت النسف تذرّ المياه في الهواء بشكل نوافير ، تفصل بين موضع النسف ومكان العمال . على أن تستمر هذه النوافير لحين زوال كل الأبخرة والأتربة بالغسيل . ولما كانت المياه غير كافية لمنع ذرات الصخور التي تسبب مرض (السلكوزيس) فان تهوية المنجم ضرورية جداً . وتعمل عملية النسف بعد ابعاد كل العمال ، حتى القائم بعملية النسف وذلك باستعمال آلات ناسفة خاضعة للتوقيت (Time fuses) والتهوية ضرورية لخفض درجة الحرارة داخل المنجم . وتعمل التهوية بوضع الشافطات عند مدخل المنجم وارسال الهواء تحت ضغط داخل المنجم بوساطة انابيب (Venture tubes) ويلزم وضع الترمومتر ذي المخزن الجاف والرطب (Dry & wet bulb Thermometer) وقياس كمية ثاني اكسيد الكاربون باستمرار داخل المنجم .

ويشترط أن تكون بكل جهات المنجم وسائل الاسعاف متوفرة . وهي عبارة عن صندوق معدني يحوي كل الأربطة والأجهزة والعقاقير ونقالة وبطانية الخ . . . وان يمرن كل موظف وعامل نبيه على استعمالها .

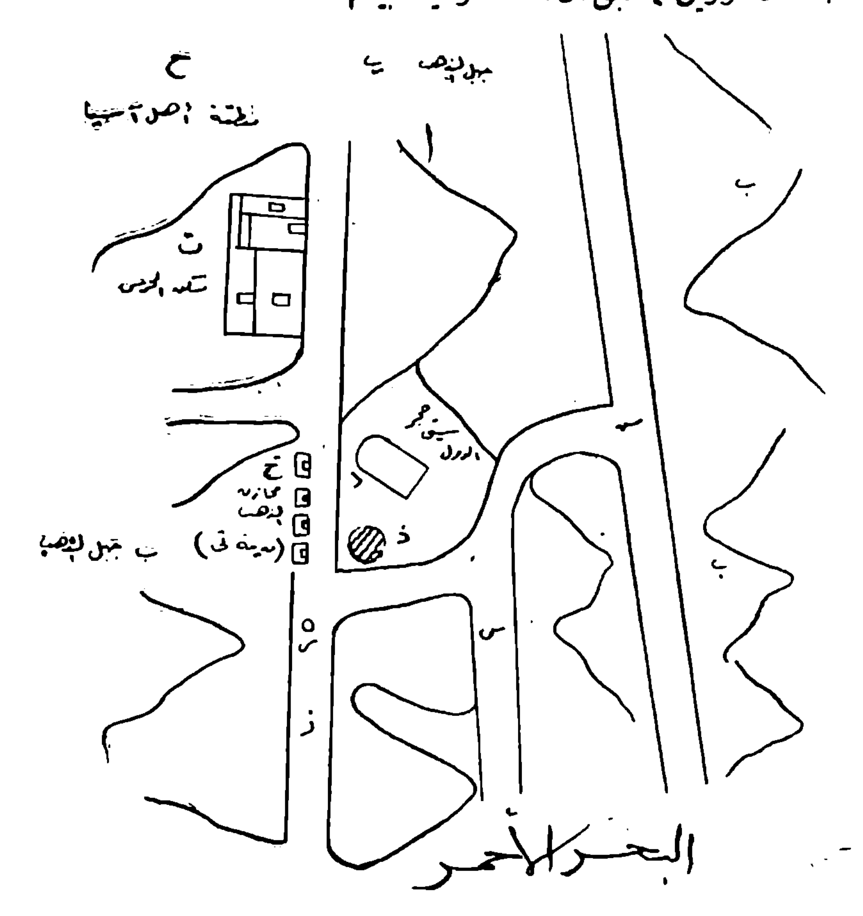
ويستحسن الكشف طبياً على كل عامل قبل التحاقه بالمنجم واعطائه شهادة بجودة صحته وخلوه من الأمراض . وان يعاد هذا الكشف على فترات . وان تستعمل الأشعة السينية في الكشف . وكل عامل يقل وزنه يعزل لفحصه طبياً . ويفضل في المناجم الكبيرة انشاء مستشفى صغير مجاور .

ويشترط في الغذاء ان يكون كاملاً . ويعطى فيتامين (ج) في مرض الاسقربوط أقراصاً أو بشكل عصير برتقال .

ولو أن تمدين الذهب لا يهمل التسمم بأحد الغازات الاّ أن جواز حصول انفجار مادة النسف داخله أو احتراق خشب أو خلافه يتطلب الاحتفاظ بأسطوانة اكسيجين لاسعاف الاختناق . الى هنا انتهى ما أردنا سرده عن تاريخ استخراج الذهب الحديث في مصر وأمراضه وقد تبين ان كمية الذهب المستخرجة من مصر الآن ضئيلة ، وان تكاليفها باهظة ، على عكس ما كانت عليه أيام أجدادنا . لذلك رأيت قبل أن أختم هذه الكلمة ان أشرح بعض جهود الفراعنة في استخراج هذا المعدن وكميته وقتئذٍ ومقدار تداوله : —

والآن نرجع هنيهة الى التاريخ القديم فنقول ان Prisse Davin بريس دافين عثر بجوار كوبان على الشاطىء الشرقي من النيل أزاء مدينة « دكة » على لوحٍ حجري نقوشه دالة على ان الملك رمسيس الثاني استخرج معدن الذهب من جبل علاكي وهو يبتدىء بعبارات خاصة بتقديم القرابين كأمثاله من الأحجار . ثم يشتمل على ٣٨ سطراً من النقوش . وفيما يلي ملخص ترجمته وهي وصف شامل لحالة العمال القديمة في استخراج الذهب : « في الرابع من طوبة من السنة الثالثة لتولية حضرة ملك الأقاليم « رمسيس الثاني » .. بينما كان بمدينة منف يقدم واجب الشكر للمعبودات على ما أولوه من الشهامة والنصر وطول العمر ..... وكان حينئذٍ جالساً على عرشه الكبير المصنوع من الذهب ومتوجاً بالتاج المتوج بالريشتين ومتصدراً لإعطاء الأوامر ونشرها في البلاد التي كان يجلب منها الذهب ومشتغلاً بأمر احتفار آبار في الطرق الخالية من المياه بعد ما طرق مسامعه الشريفة ان الذهب موجود بكثرة في جهة تسمى « اكيتا » إلاّ أن المياه معدومة بالكلية » ولعلّ اكيتا هي المعروفة الآن بجبل « علاكي » . وكان من المتعذر استخراج الذهب لعدم المياه بالكلية . وكانت هذه الشكوى مرفوعة لسدته من رؤساء الاقليم ومشفعة بمساعدة أمين « اتيوبيا » فافتتحوها بتجبيله . ثم التمسوا من سدته ان يحتفر لهم البئر في الجبل الآنف الذكر . وانهوا اليه ان النجاح في هذا المشروع لا يتم إلاّ اذا تضرع للنيل المقدس . فقبل منهم رمسيس هذا الالتماس واستغاث بالنيل فأجاب دعاءه وقبل دعواه . وعليه نبع الماء من الجبل وعرف

البئر باسم « بئر الملك رمسيس » وقد سبق القول بأن هذا الحجر لم يوجد بموضع استخراج المعدن، بل وجد بجوار قلعة كوبان التي تتصل بها وديان صحراء «عتباية». وكانت هذه القلعة مشادة لصد هجوم أهل البادية على وادي النيل. وللمحافظة أيضاً على معادن الذهب. لأن وادي « علاكي » يبتدىء على مقربة من (كوبان) ويمتد شرقاً الى البحر الأحمر. فهو طويل متعرج. ويسكن « العتباية » قبائل البشارية وفيها عروق الذهب. ومن ضمن وديانها وادي شوانب، والجبل الأسود، وجبل أم كبريت، وأم الطيور الخ . . . وابتدأ استخراج الذهب منها في عصر العائلة الثانية عشرة. واستمر بعد ذلك في عهد الفراعنة، الى عهد البطالسة الى القياصرة، الى الخلفاء. وقد وجدت لهذه الأراضي الذهبية خارطة مرسومة على ورقة من البردي، جعل فيها لون كل مكان يقرب من لونه الطبيعي. وهي الآن محفوظة بمتحف تورين كما سبق أن ألمعنا. واليك بيانها :



قال الأستاذ «شابلس» انه لم يوجد من هذه الخريطة القديمة الا نصفها . اذ يظهر أن القطعة المؤشر عليها في الرسم بحرف « ا » هي نصف الورقة . ومن الكتابة الموجودة في هذه القطعة يفهم انها خريطة لمنجم الذهب لكونها تفيد — جبال الذهب التي يستحضر منها الذهب — وهي ملونة في الرسم بالأحمر — ومكتوب في مواضع الحرف (ب) عبارة جبل الذهب . وفي الموضع المؤشر عليه بحرف (ت) عبارة (محراب أمون) وهو مبني على قارعة الطريق الأصلي . وفيه قاعتان ، لعلها كانتا مسكناً لحرس هذه المنطقة . وفي المكان المؤشر عليه بحرف (ج) نصوص معناها (المسكن المقيم فيه أمون) ويوجد عند (ح) نقوش معناها (أهل آسيا) وعند (خ) أربعة مساكن لبلدة سميت (تي) كان يودع فيها الذهب ثم يلي ذلك مكان حرف (د) محل اللوح الحجري الذي نصبه (سيتي الأول) جاء فيه أنه أسس هناك مصلحة لمعادن الذهب . وعند (ذ) بئر رسم فيه الماء وبجواره أرض سوداء رسم فيها الماء دلالة على كونها زراعية . وفي مجمع الطرق (ر) بئر ثان صغير جعل سبيلاً للمارين . والطريق الأصلي المؤشر عليه بحرف (ز) يستمر الى أن يتصل بالبحر كما يفهم من النصوص الموجودة به . ومثله أيضاً الطريق المؤشر عليه بحرف (س) . أما الطريق المؤشر عليه بحرف (ش) المنثور فيه محار البحر، فيسمى طريق (نيبامات) ، يظهر انه علم لرجل أجنبي . ووجود المحار فيه دليل على قربه من البحر .

***

وهذه أقدم خريطة في العالم جعلت للدلالة على معدن الذهب ، على مقربة من البحر الأحمر . وجاء عن الملكة (حمتشبسوت) (أسرة ١٨ — ١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق . م .) انها قالت ما ترجمته : « أتذكر أنني جلست يوماً بالقصر . وفكري يجيش بتأملات خالقي . فأوحى الى قلبي أن أشيد لخالقي مسلتين من خليط الذهب والفضة (Electrum) يبلغان عنان السماء « وقد كلفت المهندس المحبوب (سنموت) القيام بهذه المأمورية فتوجه الى محاجر الجرانيت ، جهة الشلال الاول ، لقطع حجرين كبيرين تصنع منهما المسلتان الكبيرتان . فجمع هذا المهندس من شاء من العمال ، وابتدأ بالعمل في أوائل فبراير من السنة الخامسة

عشرة من حكم جلالة الملكة . وبعد مضي سبعة أشهر ، تمكن سنموت من قطع الصخرتين المذكورتين وذلك في أوائل شهر أغسطس . وقد شحنهما في سفن نيلية الى طيبة قبل أن يهبط منسوب فيضان النيل . ورأت الملكة أن تنصب هاتين المسلتين في الساحة ذات العماد ، التي أسسها والدها بالكرنك والتى اختار فيها آمون تحوتمس الثالث ملكاً على مصر . وتطلّب انجاز هذا العمل نقل عمد السقف المشيدة في الجناح الجنوبي للساحة المذكورة ، علاوة على أربعة عمد من الجناح الشمالي ، ونزع جزء من السقف وهدم الحائط الجنوبي ، لادخال هاتين المسلتين . وكانتا مكسوتين بخليط الذهب والفضة .

***

ومما جاء عن ثروة هذه الملكة قولها إنها كانت تكيل المعادن النفيسة كالحبوب ، بالمكاييل الكبيرة . وهو قول يعززه ما رواه (تحوتي) بأنه كان يكدس بأمر جلالتها في ساحة قصرها ما يزيد على ٤٢٣ لتراً من خليط الذهب والفضة . وإليكم ترجمة ما قالته جلالتها مفتخرة بهاتين المسلتين: «لقد صنعت قمتي هاتين المسلتين من أجود خليط للذهب والفضة وجد في العالم . وكان من الممكن مشاهدة القمتين من شاطىء النيل . وكانت أشعة الشمس تنعكس منهما على القطرين وقت شروق الشمس على الأفق بشكل غاية في الجلال»

***

أما ارتفاع هاتين المسلتين فأعلى من سقف ساحة الكرنك التي شادها تحوتمس الأول . وقد أقسمت (حعتشبسوت) بكافة المعبودات ، ان كلتا مسلتيها صنع من حجر واحد منعاً لدخول الشك في أنفس القوم وقتئذٍ . والحق يقال أن هاتين المسلتين أعلى الآثار المصرية التي يرجع تاريخها الى تلك العصور لأن ارتفاع كل منهما بلغ حوالي ٩٧ قدماً ونصف قدم . أما زنة كل منهما فتقرب من ٣٥٠ طناً . ولا تزال احداها شاخصة في مكانها الأصلي ، تسترعي أنظار السيّاح كل سنة .

الدكتور حسن كمال

الأساس الاجتماعي
للأسلوب الأدبي

أسلوب الكاتب هو شخصيته المؤلفة من عاداته الذهنية وعواطفه الأخلاقية . ولسنا نقصد هنا بالطبع إلى ذلك الأسلوب الذي يحاكي به كاتب كاتباً آخر يتعوّد عاداته ، بل أحياناً يأخذ بعباراته وكلماته ، لأننا لا نجد هنا « شخصية » ، وإنما نجد محاكاة تحتاج إلى تكلف كثيراً ما يزيف المعنى ويفصل بين الموضوع وبين الأسلوب .

إنما نقصد إلى ذلك الكاتب الذي يكتب عفو نفسه ، كما يمشي أو يتحدث عفو نفسه . وصحيح أن هناك مجالاً لأن نتكلف الكمال أو الحسن في المشي أو الحديث ، ولكن بشرط أن لا يكون هذا التكلف محاكاة لشخص آخر ، بل يكون مجهوداً لتحقيق غاية .

ونحن في حياتنا نتعوّد عادات الجسم التي نمارسها في الأكل والمشي وفي ألوان أخرى من النشاط . وأيضاً نتعوّد عادات الذهن في الاتجاه التفكيري والأسلوب المنطقي أو السيكلوجي الذي نتخذه في الحديث أو الكتابة .

وهذا الأسلوب السيكلوجي أو النفسي إنما يتكوّن بعواطفنا التي تحفزنا على التفكير ، وهي في هذا التفكير تبعثنا على اتجاهات معينة . وهذه العواطف هي مئة في المئة ، اجتماعية ، أي أن المجتمع بما يرسم لنا من أهداف ومثليات ، ننشأ على احترامها منذ الطفولة ، يربي في نفوسنا عواطف تحملنا على الغيرة أو الغضب أو الأسف أو الفرح . وقد يكون الأساس لهذه العواطف الإجتماعية طبيعيًّا ، كما نرى مثلاً في عاطفتي الجوع والجنس ، ولكن المجتمع يصوغ لنا الأسلوب الذي نتخذه في التصرف بهاتين العاطفتين .

والميدان الأكبر الذي تتربى فيه عواطفنا هو الميدان الاقتصادي ، أي تلك العوامل التي تربط حياتنا بالإعتبارات الإقتصادية وطرق الإنتاج والارتزاق . وأخلاقنا ليست في النهاية سوى وجدان ينشأ من تصادم العواطف فيما نسميه الضمير . وعند ما نستقرىء

التاريخ نجد على الدوام أن الطبقة التي تتولى الإنتاج هي نفسها الطبقة التي تتولى الحكم ، ثم أخلاقها التي هي ثمرة البيئة الاقتصادية التي تعيش فيها وتتصل فيها بطرق الإنتاج والارتزاق التي رفعتها الى القمة ، هذه الأخلاق تعم الحكومة ثمّ تعم الشعب ، فأخلاقها هي الأخلاق السائدة وما تجد من فوائد لها في السلوك يعود فضيلة ، وما تجد من ضرر لها في السلوك يعود رذيلة .

ولكن الأمة ، كائنة ما كانت ، في نظام المباراة العام تنقسم طبقات للأغنياء والمتوسطين والفقراء . ولذلك تختلف الأخلاق ، لاختلاف العواطف الإجتماعية التي نشأت في بيئة الإنتاج والارتزاق ، اختلافاً يسيراً . ولكن هذا الاختلاف يكبر ، بل أحياناً يتضخم إذا تنبهت إحدى الطبقات وأصبحت على وجدان بمكانها . وقد وجدنا هذا الوجدان في طبقة النازيين من أصحاب المصانع والمزارع أيام هتلر حين تكتلوا وسنوا من القوانين ما يحمي نظام المباراة ويرد عنهم موجة الإشتراكية . وفي أيامنا نرى هذا الوجدان بين العمال في فرنسا ،فإنهم يتكتلون أيضاً ويحاولون إيجاد نظام أخلاقي جديد عن طريق التغيير للنظام الاقتصادي القائم .

والأديب هو اللسان الناطق الذي يعبر عن العواطف وينفح عن الأخلاق التي تنشأ في وجدانه الطبقي .فهو إذا كان ينتمي إلى طبقة الأثرياء انتماء القلب والعاطفة لأنه ثري مثلهم أو لأنه يكتب لهم وإنتاجه الأدبي لا يحبه غيرهم، في هذه الحال ، تعود عواطفه عواطفهم

وكذلك الشأن إذا كان الأديب ينتمي الى طبقة الفقراء ، فإنه عندئذ يعبر عن عواطفهم ويأخذ بأخلاقهم ويحلم أحلامهم .

اعتبر أشعار المتنبي الذي كان يجالس الأمراء والملوك . أو اعتبر كتاب « الأغاني » الذي ألفه الأصفهاني أيضاً للملوك والأمراء. فنحن هنا إزاء شاعر وناثر كلاهما قد نشأت عواطفه وتكونت أخلاقه وفق القيم والأوزان التي أحاطت بكل منهما . وقارن هذين الأديبين بكتاب « ألف ليلة وليلة » الذي وضعه مؤلف أو مؤلفون لتسلية العامة من الفقراء . فإنه كله أحلام الحرمان : طعام وقصر وامرأة جميلة وحظ يصيب الفقير المحروم فيرفعه فجأة إلى ملذات ومسرات لا تعرفها طبقته .

وليس الاختلاف هنا بشأن الموضوع ، لأن موضوع الأغاني يكاد يكون هو نفسه موضوع ألف ليلة وليلة ، كلاهما يتحدث عن الملذات الجسمية ، ولكن الأول يتحدث عن الواقع الملموس في عيش الأمراء والملوك والأثرياء ، والثاني يحلم بهذه الأحلام .

ولكن الاختلاف الأصلي في أسلوب القصة والرواية . فإن « الأغاني » تليدي إتباعي كتبه بلغة القدماء لغة الفقه والتاريخ ، لأن قراءه من رجال الفقه والتاريخ ، بل ان مركزهم الاجتماعي (الاقتصادي) مرتبط بهما . أما ألف ليلة وليلة فقد كتب بلغة العامة ، لأن المؤلف منهم ولهم ، فهو ابتداعي لا يلتزم القواعد ولا يحترم تقاليد اللغة .

وأذكر أنا هنا أنه حوالي ١٩٢٥ حين ازداد الوجدان الشعبي في مصر اتجه كثير من الكتّاب المجددين نحو اللغة العامة ، وحاولوا اصطناعها ، وهم بالطبع لم ينجحوا لأن الوجدان الشعبي الأدبي لم يكن كاملاً . ولكن حتى هنا يجب ان نتحفظ لأن المجلات الأسبوعية التي نشأت بعد الوجدان الشعبي أي بعد سنة ١٩٢٥ اتخذت اللغة العامية أو بالأحرى اتجهت نحوها . ولم تستطع هذه المجلات أن تستخدم واحداً من الأدباء السابقين حتى الذين داعبوا الدعوة الى اللغة العامية ، لأن هؤلاء نشأوا ورسخوا في الأسلوب الاتباعي التليدي .

وقد صادفت الحركات الأدبية في جميع الأمم التي وصلت إلى درجة معينة من الثقافة نهضتان : إحداهما النهضة التليدية أو الاتباعية ، والأخرى النهضة التجديدية أو الابتداعية . والاسم الأوربي للأولى هو الكلاسية ، أي اتباع القواعد والقيم القديمة أسلوباً وتفكيراً ، والأسم الأوربي للثانية هو الرومانتية ، أي ابتداع القواعد والقيم الجديدة .

ولكل من هاتين النهضتين قواعد اقتصادية . أعتبر مثلاً زعيم الكلاسية الفرنسية فولتير ، وزعيم الرومانتية الفرنسية أيضاً روسو . فإن فولتير اتباعي لا يبتدع ، وهو بعيد عن حياة الشعب ، يؤلف كتاباً عنوانه « الملك الشمسي » في مفاخر لويس الرابع عشر . وصحيح أنه يكافح التعصب الديني ، ولكنا حتى هنا لا نجد كفاحاً شعبيًّا . وإنما نجد كفاحاً ذهنيًّا في الدفاع عن حرية الرأي والعقيدة ، وهو يعيش معيشة الأمراء ، راضياً عنهم راضين عنه ، يدعوه الملوك لزيارتهم ، ويلبي هو هذه الدعوة ، فيعيش في بلاط الملك

البروسي ، وبراسل امبراطورة روسيا ، وهو يكتب بأسلوب تليدي اتباعي يتفق وعواطفه. ولا عبرة بأن يقال إنه كان أحد الأسباب لإلغاء العرش في فرنسا ، لأن حملته على الملوك والأمراء لم تكن ترمي إلى المحو والإلغاء وإنما الى الإصلاح فقط .

أما روسو فقد نشأ بين الشعب، بل بين الفقراء ، وعاش على خلاف للأخلاق السائدة، وحمل على الحضارة لأنها ، في عقله الكامن ، التفاوت الاجتماعي الذي تئن منه أكثرية الشعب الفقيرة ، وقال بأن الطبيعة البشرية حسنة لا تفسدها غير الحكومات والقوانين والحضارة . وما ننتظر من رجل الشعب في عصر لويس السادس عشر أن يقول غير هذا ؟ ثم كان أسلوبه أسلوب الشعب : البساطة في التعبير ؛ ثم كان تفكيره ابتداعيًا ، أي ثوريًا في التربية والمعيشة .

وأسلوب الكاتب هو شخصيته، أي هو أخلاقه التي اكتسبها من بيئته الاجتماعية الاقتصادية ، أي من عوامل الإنتاج والارتزاق التي يعيش فيها . فالكاتب الذي يعيش في بيئة صناعية مثل برمنجهام أو شيكاجو لا يمكن أن ننتظر منه أسلوب تولستوي الذي كان يعيش في عزبته بين الحقول ؛ لأن العواطف التي تتكوّن منها أخلاقنا تعين لنا أسلوب التفكير والكتابة ونوع الأدب السائد .

قرأت من مدة قريبة نقداً لكتاب ألفه جورج دوهاميل عن أمريكا الصناعية . وكان الكاتب أمريكيًا ، فلم يجد في الكتاب غير السخف الذي يقارب البلاهة ؛ ذلك أن جورج دوهاميل يعيش في فرنسا حيث البيئة الانتاجية ، بالمقارنة الى أمريكا ، تكاد تكون شرقية زراعية ، ولذلك نجد انه يحمل على الامريكيين لاتجاههم المادي ، ويذكرهم بالقيم الروحية التي لا يكاد يفهمها الأمريكي . ومثل هذا القول نجده أيضاً في بعض الكتّاب الشرقيين في البيئة الزراعية عند ما يتهمون الحضارة الأوربية بأنها مادية قد نسيت « الروحيات »

ونحن في مصر هذه الأيام نتطوّر تطوّرات اقتصادية تجر في إثرها تطورات اجتماعية ، بل تطورات كتابية أسلوبية ، فقد ظهرت بيننا منشآت صناعية وتجارية قليلة ، ولكنها — على قلتها — قد أصبح التعليم حولها عامًا أو كالعام ، والعمال والمتوسطون يقرأون

في هذا الوسط ، ولذلك تفشت المجلات الأسبوعية في هذا الوسط ، واستحدثت أسلوباً كتابيًّا يكاد يكون عاميًّا . أما الوسط الزراعي عندنا فلا يزال تقليديًّا تليديًّا ، بل هو كذلك حتى في الجهل والأمية . والمتعلمون في هذا الوسط يكاد عددهم يقتصر على المعلمين الالزاميين الذين ينزعون إلى التقاليد ، ويلتزمون الأساليب الاتباعية القديمة .

الاتباعية بتقاليدها وسننها ، والاتباعية باقتحاماتها وثوراتها ، تكادان تكونان مزاجين مختلفين في كل منا . تبدوان في الأخلاق والسلوك والمثليات والمعيشة ، وأخيراً تتبلور كل منهما في أسلوب الأديب ، لأن الأدب هو البؤرة التي تتجمع فيها الاتجاهات أو الآمال الاجتماعية فيشتعل فيها الخامد ويضيء فيها الغامض .

وقد نجد كاتباً ابتداعيًّا يعيش في أمة زراعية اتباعية ، وليس هذا عجيباً ، لأن هذا الكاتب قد تجاوز وسطه الاجتماعي الاتباعي الى وسط آخر ابتداعي في أمة أخرى يستلهم منه المثليات والآراء . وكذلك يجب أن لا نبخس «الشخصية» ، فان الوسط لا يطبعنا كلنا على السواء بطابعه ، ومن هنا بعض اختلافنا في الأسلوب والتفكير . وكذلك يجب أن لا ننسى أن في كل مجتمع تناقضات وأجنة اجتماعية ترتكض وتكاد تصرخ للخروج الى الدنيا . وكثيراً ما يكون الكاتب أو الأديب الذي يناقض عصره ويثور على مجتمعه أميناً لهذا المجتمع ، لأنه قد أحسَّ هذه الأجنة ، وأحسَّ أنه يجب عليه أن يعمل كي تولد في يسر ولا تحتاج الى «العملية القيصرية» ، كما هو الاصطلاح الطبي ، وما تجلب على الأمة من جراح ودماء .

لقد عشنا في مصر مئات السنين الماضية ونحن نمارس الصناعة في أنظمة إقطاعية تستند الى عقائد وتقاليد ، وبقي مجتمعنا متجمداً مئات السنين لم تغير منه سوى النهضة أو النهضات التجارية التي انتهت وزالت عند دخول الأتراك في سنة ١٥١٧ . ولم يبق لنا عقب هذا التاريخ سوى الأنظمة الاقطاعية التي كانت تمرّسها وتبقيها سيوف الأتراك حتى تجمّد تاريخنا بل تعفّن ، وانهار مجتمعنا أو كاد الى الفوضى .

ثم نهضنا في القرن التاسع عشر ، وها نحن في أيامنا نرى جنيناً جديداً في البيئة الصناعية التي تتجرثم في أنحاء البلاد . وهذه البيئة الصناعية تناقض البيئة الزراعية وترفض التقاليد والعقائد وتطلب الرأي والعلم . أجل هي بيئة ابتداعية تطلب أدباءها الذين لم يوجدوا في مصر الى الآن . هؤلاء الأدباء الذين يجب أن يساعدوا الجنين الجديد على أن يولد ، بأن يجعلوا أسلوبهم الكتابي الأدبي تجريبيًّا عضويًّا يملأ فراغاً ويؤدي وظيفة في المجتمع البازغ الجديد .

سلامة موسى

سوق الغرور

لوليم ماكبيس تاكري

ولد « وليم ماكبيس تاكري » بمدينة « كلكتا » بالهند في الثامن عشر من يوليو عام ١٨١١ . وكان أبوه موظفاً حكومياً .

وكان في طبعه حب التنقل من حال إلى حال ، وكان طريقه مختلف المراحل ، تعلم في ... «أكامبردج» ... بمدرسة الحقوق ... وكان يعيش على دخل موروث .

وحاول أن يكون صحافياً ، وأن يرسم صوراً كاريكاتورية . وكتب في مختلف الموضوعات ، ولما قل ماله عاش على أجر المحاضرات التي كان يلقيها .

ثم حل بساحته الحزن في أواخر أيامه يوم فقدت زوجته عقلها . ومات في لندن في اليوم الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٦٣ .

وقصته « سوق الغرور » التي يرى القراء خلاصتها في هذه الصفحات هي — كما يقول أحد النقاد — إحدى القصص العظمى القلائل في الأدب العالمي كله . بل قد تكون القصة الوحيدة من قصص المجتمع التي يصح أن تسمى تحفة من تحف الأدب . وهي وإن تكن قد خلت من « بطل » فإنها لم تخل من « بطلة » .

والمحور الذي تدور عليه القصة هي تلك الشخصية الخالدة المنقطعة النظير شخصية « بكي شارب » التي كانت مثلاً ونموذجاً من أمثلة المغامرين المتكالبين في المجتمع ، والتي جمعت بين الذكاء وبين التراخي في الأخلاق .

وهي منذ الساعة التي ألقت فيها من نافذة العربة بقاموس « جونسون » المهدى إليها من معلمتها إلى آخر ساعة مثلت فيها دورها على مسرح الحياة لم تحد يوماً عن طريق الخداع والحيلة .

أما ضحاياها فكانوا كثيرين ، ... فكان ... إلا ... في الأخلاق ... لا غبار عليها .

في يوم مشمس من أيام يونيو ، وفي إحدى السنين الأولى من القرن الثامن عشر ، غادرت فتاتان في شباب العمر ونضارة الصبا مدرسة الآنسة « بنكرتون » للبنات لتضربا بسهميهما في هذا العالم الواسع . ذلك لأن أيام الدرس عندهما قد انتهت .

والفرق جدّ كبير بين أميليا سدلي ، وجنتيها الورديتين ، وابتسامتها الحلوة ، وعينيها الزرقاوين اللتين تنبئان عن براءة لا حدّ لها ، والتي غادرت المدرسة موشحة بحب جميع زميلاتها في الدرس . وهي تعود إلى أحضان عائلتها ذات الثراء والمجد .

أقول إن الفرق جدّ كبير بين « أميليا سدلي » وهي من وصفنا . وبين « بكي شارب » التي لم يحزن لفراقها أحد . ولو أنها قد جعلت سفرها مذكوراً لا ينسى . وذلك بإلقائها من نافذة العربة هدية الوداع . وكانت تلك الهدية قاموس « جونسون » !

وقد حزّ هذا العمل في نفس « أميليا » السمحة الرضيّة ، التي لم تسيء في حياتها إلى أحد . والتي لم تحس يوماً إحساس الكره لأحد . ذلك الكره البغيض الذي فاض به قلب « بكي » في تلك اللحظة موجهة إياه إلى الآنسات « بنكرتون » وإلى مدرستهن اللطيفة .

وقد بدت البغضاء منها — وكانت من قبل مجبرة على كبتها وكتمها — وصبّت وابلاً منها على رأس أميليا وقالت : قد يكون الكره لوناً من ألوان الخبث ولكنه شيء طبيعي وأنا لست ملكاً من الملائكة .

وفي الحق إن الحياة قد قست على « بكي » . فقد كان أبوها مصوراً بارعاً . وكان من خلقه عدم المبالاة . وكان مولعاً بالخمر . وكانت أمها — وقد ماتت منذ زمن بعيد — إحدى فتيات الأوبرا .

وكان أبوها يعلم الرسم في إحدى مدارسه . فلما مات ذهبت « بكي » — وكانت قد بلغت السابعة عشرة من عمرها — لتعلم اللغة الفرنسية لقاء أن تتعلم هي الإنجليزية ولقاء سكنها وغذائها . ولم يكن هذا مما ترضى عنه وتسعد به فتاة من خلائقها الكبرياء .

وكانت « بكي » نحيلة ضئيلة . ذات شعر أغبر . وقد جهمت لها الحياة تجهماً لا يمكن أن يخطر ببال الفتيات ذوات الصون .

وهي لذلك قد فاض بالكره قلبها على ما تلقاه الفتيات من راحة وهناء . وذلك بالقياس إلى ما قسم لها من فقر مدقع . وما قدر عليها من غيبة الحامي وفقدان النصير .

ولكنها مع ذلك — قد أجمعت أمرها أن تتعلم ما يرفعون قدرها في الحياة وهو أن

تـكون يوماً ما وصيفة في بيت من بيوت أثرياء القوم ونبلائهم .

وبعد حرب كلامية دارت بينها وبين كبرى الفتيات « بنكرتون » سمعت هذه الآنسة بأن عائلة « سير بت كرولي » تطلب وصيفة . وهكذا بُتّ في أمر مستقبل « بكي » .

وكانت الفتاة الطيبــة القلب « أميليا » قد عقدت أواصر الصحبة بينها وبين الفتاة اليتيمة . فرأت — وقد تقرَّر أن تغادرا المدرسة في وقت واحد — أن تدعو صديقتهـا العزيزة « بكي » لتقضي معها أسبوعاً في بيت أهلها قبل أن تبدأ مخاطرتها الجديدة .

ولما وصلت « بكي » الى « بلومسبري » فُـتنت بكل شيء هناك . وكانت بصفة خاصة تكثر من السؤال عن فتى البيت الوحيد السيد « جوزيف » الذي كان يومئذٍ عائداً من الهند في إجازة مرضية . حيث كان يعمل موظفاً ممتازاً من موظفي شركة الهند الشرقية .

وكانت تلك الفتــاة غير اللبقة تسأل : « أغنيٌّ هو ؟ أله زوجة وأولاد يسعدونه ؟ وبدا عليها العجب كل العجب عندما أنبأتها « أميليا » — في سذاجة الأبرياء — أنَّ أخاها لم يذق من قبل طعم الصبابة والحب .

وما كان « جوزيف » ليستطيـع أحد أن يقول إنه جميل . ولو أنه هو كان يظن بنفسه أنه جميل . ذلك لأنه كان عريض المنكبين . سمين الضواحي . قد بالغ في العناية بزيه وهندامه وكان فوق ذلك مغروراً .

ولـكنه كان إذا رأى امرأةً تولـته نوبة من الخجل لم يكن يسـتطيع أن يتغلب عليها أبداً .

وحتى كلمات المديح التي كانت تنطق بها « بكي » في نصف همس : وهي تثني على منظره البهيّ . لم تستطع أن تعيد إليه الثقة بنفسه .

ومن نافلة القول أن نذكر أنَّ صاحبنا هذا — وقد كان يخيَّـل إليه أنه رجل محنـك كان لا يقيم في بيت أهله . بل كانت له غرف في حي من الأحياء الحديثـة في المدينة . وكان يحيا هناك حياة من خلع العذار على قدر ما تواتيه « قدرته » . ولـكنّ أصحابه كانوا قليلين ولم تكن الحياة تسره حقـاً . وهو ذلك الرجل المختال الفخور .

وقد قبل يوماً — طوعاً لأمر أبيــه — أن يبقى ليلة عادت « أميليا » ليتعشى . وقد

سرّه ما قالته عنه « بكي » . وما أبدته من الرضا عند ما ذاقت لأول مرة الأرز على الطريقة الهندية . ولو أنّ الفتاة المسكينة ـ والحق يقال ـ وجدت هذا الأرز لاذعاً حريف المذاق .

وكانت « بكي » في الأيام التالية مثلاً من أمثلة عرفان الجميل . حتى لقد أسرت قلوب العائلة كلها . وبدت « أميليا » في نظرها — أكثر من ذي قبل — أعزّ صاحب وصديق .

وحتى لقد كان من أثر هذا أن قد بدأ « جوزيف » تتملكه الثقة بنفسه تدريجيًّا وهو في حضرتها . فلما ذكَّرته أخته بزيارته التي وعد بها لـ « فوكسهول » كان أكثر الناس شوقاً الى الذهاب الى تلك الناحية .

ولما كان من الضروري أن يكون هناك رفيق من الحماة لتلك الفتاتين فقد ذكر اسم الضابط « جورج أوسبرن » وهو ابن « مستر سدلي » في العماد . وكان الوالد وهو ينطق بهذا الإسم يغمز بعينه غمزةً خفيفة وهو يشير إلى « أميليا » .

فلما جاءت ليلة السفر هبّت عاصفة هوجاء صحبها برقٌ ورعد . فاضطرّ الاربعة أن يبقوا بالمنزل فأتاح هذا البقاء فرصة للنجوى وهمس الحديث .

وقد سرّت « أميليا » برؤية فتاها « جورج » الجريء الجميل الذي عرفته وأحبّته كل الحب منذ الطفولة . بينما رحّبت « بكي » بالفرصة التي أتيحت لها لتمضي قدماً في سبيل غزو قلب « جوزيف » الذي « أحسّ » بأنه قد أصبح متحدثاً بارعاً عند ما خلا إليها . وقد فتن بغنائها الذي كان حقّا غناء مستحبّا .

ولقد خطر بباله أنه مما قد يسرّه أن يصبح زوجاً لتلك الفتاة اللطيفة المهذّبة الجذّابة . ولو كانت فقيرة لا تملك درهماً .

وفي اليوم التالي صحا الجوّ واعتدل الهواء وتقرّر القيام بالرحلة الى « فوكسهول » . وأحسّت « بكي » إحساس الواثق أن النصر سوف يعقد لها لواءه الليلة فيجثو « جورج » عند قدميها .

وقال « جورج » إنه قد دعا صديقه الكبير « وليم دوبن » ليلحق بهم في المساء . وأضاف الى ذلك قوله إن بينهما صداقة وثيقة العرى منذ كانا طالبين . ومنذ وقف وليم » في صفه يوم احتدم العراك بينه وبين أحد المشاغبين في المدرسة .

و « دوبن » هذا فتى خجول . مديد القامة . فارع الطول . وهو كذلك فتىً غبيّ أخرق على ما به من قدرة على الاحتفاظ بمصالحه .

وكان هذا « الفتى » يجد لذةً في العناية بجورج يوم كان صغيراً . وكان أبوه يومذاك بدّالاً فأصبح اليوم رجلاً واسع الثراء . بل قد أصبح صاحب لقب.

ولما وصلت الجماعة الى « فوكسهول » انقسموا قسمين . ولو أنهم قد تعاهدوا على أن يلتقوا إذا حان موعد العشاء بينما قد أبيح لـ « دوبن » أن يطوف ما يطوف .

أما « بكي » فلم تجد ما كانت تشتهي في الألعاب النارية . ولا في الموسيقى . ولا في الألف متعة ومتعــة التي كان يفيض بها ذلك المكان الساحر. وزادت في هزيمتها الخمر التي قدمت ساعة « العشاء » . ذلك لأنَّ « جوزيف » قد عبَّ منهـا بالكبير وبالصغير ففقد وعيه . وطفق يغني ويتشاجر . ولولا وصول « دوبن » في الوقت المناسب لكانت الخاتمة أسوأ وأشنع .

وأسرع « جورج » فنحّى الفتاتين . وترك صاحبه يدبر الأمر مع « جو » .

وكانت « بكي » في اليوم التالي لا تزال متفائلة . ولو أن أوان رحيلها كان قد دنا واقترب .

فلما أزف وقت الرحيل أثنت هي على العائلة ثناء طيباً . وقبلت مع الشكر الجزيل . الكثير من الهدايا التي أغدقتها عليها « أميليا »

وكان سير « بت كرولي » لا يحبه الناس ولا يوقرونه . وكان على « بكي » أن تذهب الى قصره في المدينــة وأن تصحبه الى بيته في الريف حيث كان يمضي جلَّ أوقاته وكان عليها كذلك أن تخدم ابنتيه من زوجته الثانية التي كانت من عامة الشعب .

وكانت « بكي » يملؤها الأمل بما سوف تلقــاه من أناقة وسموّ في الخُلُق لدى « البارون » . وكانت تقارن بين هذه الأخلاق الساميــة المرجوَّة . وبين ما لقيته من جوّ ينبيء عن عامية في كل شيء في بيت آل « سدلي »

ولشد ما دهشت عند ما رأت أن الذي فتح لها الباب شيخ قد تقدمت به السن في رأسه صلع . وفي عينيه دهاء . وقد ركبتا في وجه به حمرة . وقد قادها الى قصر قديم مظلم . وهناك

عرفت أنه رب القصر . وانه هو نفسه « سير بت » . وسرعان ما تبين لها أن الحقارة هي أبرز رذيلة فيه . وانه لا يوقر رجلاً . بل لا يوقر امرأة ...

وفي خطاباتها الى « أميليا » وصفت « بكي » « البيت الكبير » ووصفت ربته التي جف عودها . والتي لا تستطيع أن تظهر بالمظهر اللائق بمكانتها . ووصفت البنتين اللتين لا قيمة لهما ولا وزن . ثم وصفت أخاهما لأبيهما مستر « بت » وهو وريث اللورد . ووصفت ورعه وتقواه . وتحدثت عن « رودن » أخي البنتين لأبيهما . وكان يقيم بعيداً مع فرقته . ثم وصفت ريح البلى والانحلال التي تملأ جو المكان .

وكان « بيوت كرولي » أخو سير « بت » صاحب الكلمة العليا في الابرشية . وكان ما بين عائلته وعائلة أخيه لا ينبيء عن ود كثير . ذلك لأن مطامع كليهما المالية كانت مركزة في ثروة الآنسة «كرولي» . وكانت مسألة تصرفها في مالها مصدر قلق للأخوين .

ويبدو أن «رودن» كان صاحب الحظوة عندها . ذلك لأنها كانت تسدد ديونه التي بات حتماً سدادها عند ما أصبح ضابطاً في الجيش .

وكم كثر القيل والقال عند ما كانت السيدة العجوز تزور القصر . وكان هذا البيت القديم لا يعرف الشهي من الطعام . ولا تبدو عليه آثار النعمة إلا في أيام تلك الزيارات .

أما « بكي » فقد استقر بها المقام بين أفراد العائلة . ولم تدع وسيلة من وسائل الارضاء الا اتخذتها حسبما أوحى اليها تفكيرها .

وكان مستر « بت » ينظر اليها نظرة الاعجاب والتوقير . وكانت تلعب « النرد » مع والده الذي كان دائم النشو . وسرعان ما أصبحت له عوناً ككاتمة سر له . تنظم أوراقه وترتب خطاباته . ذلك لأن الرجل العجوز كان لا ينفك مشغولاً « بقضية من القضايا أو بأخرى . وكلما طال المقام بها زاد اعتماده عليها وعلى نصائحها التي تبديها . وقلما كان يعمل شيئاً دون مشورة تلك الفتاة الوصيفة .

ولقد كان يوماً عبوساً ذلك اليوم الذي استقر فيه رأيها على أن تزور قومها في الريف وبذل كل سعي لثنيها عن عزمها .

وكانت العائلتان «بيوت» و «كرولي» تخفيان ما بينهما من نزاع اذا حضرت تلك الفتاة حتى ليحسبهم المرء جميعاً وقلوبهم شتى .

وجاء « رودن» يوماً للزيارة . وكتبت عنه «بكي» الى صاحبتها « أميليا » فوصفته بأنه كثير التأنق . تحبه عمته وتعجب به . ذلك لأنها تلمح الى رجل جميل . رجل خبير بأمور الدنيا . يستطيع أن يشرب، ويقامر، ويدخل في عراك . وينصب شباك الحب لامرأة حسناء ويحيا حياة تكون في نظر تلك العمة في الذروة من الرجولة .

أما مسز «بت» فكانت لا تقيم له وزناً . وكانت تنظر اليه نظرها الى « مخنث » . وقد انتهز هو فرصة زيارة عمته فغاب عن البيت .

وكذلك الآنسة « كرولي » لم تكن بمنأى عن مدار سرور « بكي » . وكانت تكثر من الحديث عنها في كل مناسبة . وكانت تفخر بآرائها الحرة . وكانت تقسم على أن « بكي » هي الشخص الوحيد في الضاحية كلها الذي يفيض حديثه حيوية وذكاء .

ولم تكن العمة . ولم تكن «اميليا» قد سمعتا من قبل أبداً بما كان بين « بكي » وبين « رودن » من نزال وصدام . فقد كان هذا الفارس بطيء الحديث . ولم يرزق موهبة معسول الكلام . ولكن «بكي» استطاعت أن تقرأ إعجابه بها في عينيه . وخاتلت هي منه « زير نساء » دون أن تضحي بذرة من ظرفها ورقتها . ولو أنها كانت تلجأ الى فتنة عينيها وسحر حديثها في لباقة لا حد لها .

أما « أميليا » فقد كان يشغلها الحب والإعجاب ، بـ « جورج » الذي كان — والحق يقال — يرى أنه أمر طبيعي أن يكون موضع حب .

وفي الحق أنه ظل حياته كلها مدللاً محبوباً من أختيه المفتونتين به ومن أبيه الفخور به فكان يرى غرام الفتاة به أمراً عادياً غير مستغرب .

وطالما شقيت الفتاة وتجرعت الغصص من قلة عناية «جورج» بها إذ كان جل وقته مضيعاً في المقامرة . ولعب البليارد . ومشاركة اخوانه من الضباط في مسراتهم ولهوهم .

وكان على الصغيرة « إمى » أن تتحمل كل هذا في صبر بالغ . ولو أن وسادتها طالما شكت البلل من فيض دموعها .

وبدا على أبيها أخيراً الهم والقلق . ذلك لأن والد « جورج » أنبأه بأن من الخير كل الخير أن تقلل ابنته من الزيارة .



مكتبة المقتطف

نقد كتاب القراءات واللهجات

تأليف الأستاذ عبد الوهاب حمودة

طالعت كتاب القراءات واللهجات ، وأعدت قراءته ، فوجدتني أتنقل بين أساليب تختلف في انماطها لاختلاف قائليها . واستمع الى آراء متباينة لكثير من المؤلفين جمعهم أستاذنا عبد الوهاب حمودة وتركهم يطغون على كتابه ويذهبون به نهباً مقسماً ، وما يكاد يفصل برأيه فيما شجر بين المؤلفين في كتابه من خلاف . وكل من طالع هذا الكتاب يجد أسماء لعشرات من الكتب أخذ عنها ورجع اليها ، ولكن تمنيت مخلصاً لأستاذي لو أن ما جمع في هذا الكتاب تأخر به الزمن عاماً على الأقل ليديره في نفسه ويقلبه على وجوهه ويوفق بينه بعد أن يستجم قليلاً من ذلك المجهود الذي بذله في الجمع والتحصيل، ولو انه فعل ما أشير به لكان له رأي فيما نقل وأسلوب فيما عرض ولاستغنى عن كثير من التكرار

أما الكتاب بوضعه الحالي فقد حشدت مواده على عجل لينتظمها كتاب . وطبعت صفحاته في اسراع ، من غير أن تنسق مواده تنسيقاً محكماً، ومن قبل أن تهضم، ثم تتمثل في أسلوب منسجم، وتقدم للقراء في عرض متماسك جميل. ولقد حاولت مناقشة المؤلف فلم أظفر به إلاً مستتراً خلف عشرات المؤلفين وما كنت أحب لأستاذي أن تتراكم حوله الكتب فتخفيه عن أعين الناظرين، على أن المجهود الذي بذله في جمعه وترتيبه ودفاعه القيم المستمد من نصوص القدامى ضد المستشرق جولد تسهير والمغرضين يستحق عليه الشكر والتقدير .

وأستاذنا على الرغم من كتب القراءات التي يذكر أنه نقل عنها القراءة والقراء تراه لا ينقل نماذجه إلاّ من تفسير البحر لأبي حيان ، فان أطال أطال مثله ولو لم يكن الأمر مقتضياً الافاضة، وإن أوجز تبعه في ايجازه حتى مع الحاجة الى الاطناب ، وان أخطأ اندفع معه في المزاق بدون تحقيق، وإن أبهم وقع مثله في الابهام ولا يتحفنا بالتوضيح .

فمن التطويل مثلاً في ص ١١٨ نقله : « قرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وابن عامر ونافع والكسائي : «يصدون» بضم الصاد وقرأ الكسائي «كذا»

والفِـراء بكسرها وهما لغتان بمعنى». فهو في هذا قد ذكر عدداً من القراء ليسوا من الأربعة عشر في حين أنه لو رجع الى كتاب اتحاف فضلاء البشر في هذا الموطن لوجد انه ترك ممن يضمها خلفاً من العشرة ، والحسن والأعمش من الأربعـة عشر ، وترك ممن يكسرها أبا عمرو وحمـزة وابن كثير وعاصماً وهم من السبعة ، ويعقـوب من العشرة ، وابن محيصن واليزيدي من الأربعة عشر ، وهؤلاء جميعاً الذين تركهم أولى من الفراء والنخعي وأبي رجاء الذين نقلهم الينا .

وفي مقدمة كتابه قال إنه قرأ جميع كتب القراءات فـكان الأجدر أن يجمع ما فيها من نسبة القراءة لقرائها ما دام يريد الاطنـاب ، وأكثر تطويل نراه في ص ١٥٠ و ١٥١ عند قراءة مالك يوم الدين. ومن الاختصار الذي لا أدري ما الحكمة فيه مع أنه فصل قبله وفصل بعده ما نقله في ص ٣٩ : « الحصاد : قال الفراء الكسر للحجاز والفتح لنجد وتميم » ولم يذكر لنا من قرأ بالنوعين. ولو رجع إلى الاتحاف لرأى أن أبا عمرو وابن عامر وعاصماً ويعقوب واليزيدي . قرءوا بفتح الحاء وقرأ باقي الأربعة عشر بالكسر .

ومن الابهـام ما نقله عن البحر في ص ١٢٥ : قرأ الإخوان وحفص « ولم يذكر في جميـع كتابه من هما الاخوان أن تفسير البحر كان يذكر في أجزائه الأولى أسماء القراء . ثم أخذ في أجزائه الأخيرة يذكر الألقاب ورجعت الى كتب القراءات فتبين لي أن الأخوين اللذين يعنيهما البحر هما حمزة والكسائي . ولست أدري السبب في تسميته لهما بذلك فلعلي أظفر من أستاذي بإيضاح

ومن الخطأ ما نقله في ص ٣٧ : « الرسل جمع رسول ... وتسكين عينه لغة أهل الحجاز والتحريك لغة بني تميم » مع أن بني تميم هم الذين يسكنون. فليرجع إن شاء الى كتب اللغة والنحو والصرف والأدب والقراءات واللغات ، بل فليرجع الى البحر نفسه في مواضع أخرى بل فليرجع الى نقله في كتابه القراءات واللهجات عند كلامه على « فنظرة الى ميسرة ص ٣٨ ومثل هذا يقال في نقله ص ١٢٦ حول « عورات » .

وهناك ظاهرة أخرى في الـكتاب ذلك أنه ينقل آراء مختلفة ولا يوفق بينها :

ففي ص ٤٦ ينقل : « كل قراءة وافقت العربيـة ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانيـة ولو احتمالاً وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين » .

وفي ص ٥٢ ينقل : « الذي لا شك فيه أن قراءة الأئمة السبعة والعشرة والثلاثة عشر

وما وراء ذلك هي بعض الأحرف السبعة من غير تعيين » .

وفي ص ٦٩ ينقل : والذي نصّ عليه أبو عمر بن الصلاح وغيره أن ما وراء العشرة ممنوع من القراءة به منع تحريم لا منع كراهة. وقال ابن السبكي في كتابه جمع الجوامع في الأصول . ولا تجوز القراءة بالشاذ والصحيح أن ما وراء العشرة فهو شاذ وفاقاً للبغوي والشيخ الإمام الوالد .

وفي ص ٧٤ ينقل ان القراءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة الى ما كان مشهوراً في الأعصار الأول قل من كثر ونزر من بحر ... وقد ذكر الناس من الأئمة في كتبهم أكثر من سبعين ممن هو أعلى رتبة وأجل قدراً من هؤلاء السبعة .

وفي ص ٧٦ ينقل : « بل من ثبت عنده قراءة الأعمش شيخ حمزة أو قراءة يعقوب الحضرمي ونحوهما كما ثبتت عنده قراءة حمزة والكسائي فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعدودين من أهل الاجماع والخلاف ... ولهذا كان أئمة أهل العراق الذين ثبتت عندهم قراءات العشرة والأحد عشر كثبوت هذه السبعة يجمعون في ذلك الكتب ويقرءونه في الصلاة وخارج الصلاة وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم » .

وفي ص ١٣٣ ينقل : ما عدا السبع أو ما عدا العشر

« ممنوع من القراءة به منع تحريم في الصلاة وخارج الصلاة . » . فنحن نرى نقولاً مختلفة وفتاوى متنوعة فيها مرة حكم بالشذوذ على ما وراء العشرة إطلاقاً . وفيها تارة قاعدة عامة تقتصر في الحكم بالشذوذ على ما خالف الشروط . ولم أجد من أستاذي فصلاً في المسألة أو ترجيحاً لرأي، بل ترك الفصل للقراء، كما يترك رئيس المناظرة الحكم للمستمعين، والواقع أن الحكم على إطلاقه بأن ما وراء العشرة شاذ لا تصح به الصلاة حكم خاطىء لأنه لا يعتبر المقروء شاذاً إلا إذا خالف الرسم العثماني وصحة السند والعربية . وإذاً فمن بعد العشرة يقرأ بقراءتهم في الصلاة وخارجها فيما وافقوا فيه الرسم العثماني. أما الشذوذ الذي حكم عليهم به فإنما هو فيما خالفوا فيه الرسم الذي نشره سيدنا عثمان بموافقة الصحابة . وإن الأعمش والحسن وابن محيصين واليزيدي أئمة مقبولون جمعوا إلى صحة السند موافقة العربية ، وخالفوا في نادر الآيات الرسم العثماني . فالأعمش أهم شيوخ حمزة الذي هو شيخ الكسائي وهذان من السبعة . والحسن من شيوخ أبي عمرو أحد القراء السبعة. وكذلك ابن محيصين من شيوخ أبي عمرو وقراءة أبي عمرو حكم العلماء عليها بأنها أفصح القراءات . وقد وصلت إلى السوسي والدوري فإلينا عن اليزيدي عن أبي عمرو ، فلو لم يكونوا ثقات مقبولين لما تلقى عنهم أحد . غاية ما في الأمر أن هؤلاء الأربعة تلقوا بعض ما خالف الرسم

العثماني مما كان مأذوناً فيه قبل أمر عثمان باتباع مصاحفه واعتمدوه،فليست المسألة إذاً مسألة سبعة أو عشرة أو غيرهم وإنما هي مسألة شروط يوافقها القارىء فيعتمد وتقبل روايته لها أو يخالف بعضها فيشذ أو يكذب .

ونوع آخر مما لا يحكم فيه أو يوجه نقل في ص ٢١ : قال تعالى « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم » قرأ علقمة ويحيي بن وثاب والأعمش « رِدت» بكسر الراء وهي لغة لبني ضبة . . . » . وفي الهامش أشار إلى أنه نقل ذلك عن البحر والاتحاف . (وفي ص ٢١٨ نقل ثم ردوا الى الله مولاهم الحق » روى أن عاصماً قرأ بكسر الراء وهي لغة هذيل » وأشار في الهامش إلى أنه نقل عن طبقات القراء » . ان « اتحاف البشر» لم يذكر أحداً من هؤلاء الذين ذكرهم،بل اقتصر على نسبة قراءة الكسر إلى الحسن فحسب،واكتفى بأن قال إنها لغة . فكان الواجب على أستاذنا أن يضم الحسن إلى من نسبت إليهم قراءة الكسر.أما ذكر الكتب بدون النقل عنها والاستفادة منها فلا داعي له إلاَّ إذا كانت المسألة تعداد كتب فحسب . ومع الأسف قد تكرر ذلك في عدة مواضع من الكتاب .ثم إن نسبة هذا الكسر مرة إلى ضبة ومرة الى هذيل لم يفصل فيه ولم يرجح أي الروايتين تستحق التفضيل . ولو بحث في قراء الكسر وسند قراءتهم لوجد أن علقمة ويحيي بن وثاب والأعمش ينتهون الى عبد الله بن مسعود وهو من قبيلة هذيل.وكذلك عاصم ينتهي سند كثير ممن أخذ عنهم الى عبد الله بن مسعود . أما الحسن فلا صلة له في قراءته بالرواية عن ابن مسعود.ولكن كما يخبر عن نفسه نشأ بين قوم هذليين وأذعن.فالصحيح انه من يكسر الراء وما شابهها في الماضي الثلاثي المضعف إذا بني للمجهول هم قبيلة هذيل .

وتجد في كتاب أستاذنا إكثاراً من ذكر المصادر في أهون الأشياء بدون حاجة تدعو الى ذلك : فمثلاً في ص ٣٥ قوله «أما تميم فهي تميم بن مر بن أد بن طابخة . . . وهمش بما يأتي: دائرة المعارف الإسلامية ، الاشتقاق، نسب عدنان وقحطان ، المعارف ، السمط ، تاريخ آداب اللغة لجرجي زيدان . تاريخ ابن خلدون » . ولعله نسي أن يذكر العقد الفريد ، وصبح الأعشى ، والبيان والإعراب ، وسبائك الذهب ، والعرب وأطوارهم ، والرحلة الحجازية ، والكامل لابن الأثير ، والبدو والتاريخ ، وشرح القاموس ، وابن خلكان ، فكلها الى كثير من الكتب الأخرى فيها أنساب .

وظاهرة أخرى هي تكرار كثير من الأمثلة بنصها وتطويلها . فمثال في ص ١٥ أعاده في ٤٤،وثلاثة أمثلة في ص ١٦ أعادها مفرقة في ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٧ ، ومثال في ٢٢ أعاده في ١١٨ ومثال في ص ٢٧ أعاده في ١٢٣،ومثال في ٣٨ أعاده في ١١٤.وأربعة أمثلة في ٣٩ أعادها مفرقة

في ١١٩و١٢٤و١٢٦ ومثالان في ٤٥ أعادهما في ١١٣ و ١١٤ .

كما أنه يكرر كثيراً من الأقوال المنقولة بصفحاتها ، فكأنه نسي أنها تقدمت أو نسي القراء ما قرءوه. فمثلاً كلامه المنقول في « معايش » في ص ١٤١ و ١٤٢ أعاده كله في ص ١٧٩ و ١٨٠ بدون تغيير . وفوق هذا فانه يكثر من النقل حول معنى واحد في حين أنه يكفي منه القليل . وتجد هذا ممثلاً بوضوح في الفصل الثامن الذي سماه القراءات والنحاة ، كما أعاد كثيراً مما تقدَّم نقله في الكتاب بنصه في الفصل التاسع الذي سماه المبادىء والمسائل.

ولعلَّ حب أستاذنا للاكثار من أسماء الكتب في الهوامش جعله ينوّع في أسماء بعضها ليزيد عددها فهو مثلاً يقول مرة « تفسير أبي حيان » ومرة يقول « البحر المحيط » أو يقول « الكشاف » ومرة يقول « تفسير الزمخشري » أو يقول « فتح الباري » ومرة يقول « الفتح » ومرة يقول « ابن حجر » .

ويظهر أن الاسراع بضم ما جمع جعله ينسى فيذكر ما ليس موجوداً . ولعلَّ ذلك سبق قلم منه . ففي ص ٢٢ « قرىء فكان أبواه مؤمنان » وهي لغة بني الحارث ولغة « سليم » وهمش عليه انه منقول عن تفسير البحر مع أن « البحر » لم يذكر سليماً وليس للبحر الا طبعة واحدة . ولم ينسب أحد في جميع كتب النحو التي قرأتها أن الزام المثنى الألف من لغة سليم ، مع أنهم ذكروا قبائل كثيرة نقلها أستاذنا في ص ٢٣ . وفي « الهمع » استقصاء لها ليس فيه سليم .

مرة أخرى أبدي أسفي على أن هذا الكتاب قد أضرَّ به الاسراع ، وأتمنى أن يعيد أستاذنا نظره فيه ثم يطبعه مرة أخرى إن شاء الله في اناة بعد أن يستجمع شوارده ويتجنب الطابعون كثرة الأخطاء التي لا يزال بعضها باقياً على الرغم من صفحة التصويبات التي وضعت آخر الكتاب .

ففي ص ٢٠ تسع وتسعون نعجة ونعجة أنثى ، والصواب حذف « ونعجة » أو زيادة «لي» قبل نعجة انثى . وفي ص ٢٢ ترقيم ٢٧٢ ، والصواب ١٥٥ . وفي ص ٢٣ خيثم ، والصواب خثعم . وفي ص ٣٠ ولا من بكر لجاورتهم للقبط والصواب للنبط . وفي ص ٣٥ تميم بن مرة ، والصواب مر . وفي ص ١١٨ وابن وثاب وعامر ، والصواب وابن عامر . الى غير ذلك من الأخطاء المطبعية التي قد تغير المعنى أو توقع في اللبس . واني لأكتفي بهذا القدر وأتمنى لي ولأستاذي التوفيق فيما نكتب وما نقول .

عبد الستار احمد فراج
المحرر بالمجمع اللغوي

باب الأخبار العلمية

إرتقاء الطيران وأطواره

(الهليكوپتر مطية المستقبل)

إنَّ التحسين التام للتاكسي الجوي ، سينفذ بلا شك عن طريق الهليكوپتر أو بوساطة الأوتوجيرو ، ولكن الى درجة معينة . أي بآلة في وسعها الهبوط في رقعة من الأرض لا تزيد على بضع يردات مربعة ، سواءٌ أكانت في ميدان أم على سقف بيت .

وعلى هذا المنوال يُتاح الحصول على ما يعادل التاكسي أو الأوتوبيس نفعاً . فيغدو هـذا التاكسي الجوي ينقل السائح من المحطة الكبرى النهائية للخط الجوي ، الى أي مكان قصي في بلده . وبهذا الأسلوب توجد الحلقة الأخيرة المنشودة التي طالما طمح إليها المشغوفون بالسفر الجوي .

ولا مندوحة عن جعل هـذا التاكسي الجوي ، إما على شاكلة طائرة هليكوپتر بأجمعها ، وإما على غرار بعض أجزائها ، أجل إن الهليكوپتر قد ظهرت في الحرب العالمية السابقة ، بيد أنها لم تكن في إبانها قد بلغت أوج كمالها ، وإنما أتيح لها وقتئذٍ الوصول الى مرحلةٍ عمليةٍ على الأقل .

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ « لو » العالم الانكليزي » وثمة أمنية عظيمة بشأن تسهيل تطيير هذا النوع في الأعوام الخمسة أو العشرة القادمة . وذلك على أيدي « المغرمين بالفنون الجميلة » ونرى أنه من المحقق أن عدداً جمّاً منها لابدَّ من استخدامه في خلال الحقبة المشار إليها .

(الهليكوپتر)

في خدمة مصلحة خفر السواحل

وقال ضابط عظيم من ضباط الجيش الأمريكي : « ان طائرات الهليكوپتر تعد أنفع نوع لأداء كثير من الأعمال الشاقة المعتادة المفروضة على مصالح خفر السواحل في أزمان السلم . ذلك لأن القدرة الغريبة التي تتميز بها هذه الطائرات وهي حركتها الرحوية ، تهوّن عليها خفض سرعتها عند هبوطها ، وتمكنها من الوقوف ثابتة في الجوّ ، وتتيح لها التحليق في الهواء والهبوط منه ، في زوايا تامة الانحدار ، وذلك الى مهبطها الضيق فتستطيع الاضطلاع بمهام التفتيش المحكم على الزوارق المشتبه في شرعية أوساقها ، وهي التي تقدم على الدنوّ من شواطىء البحار . ثم إنزال مرشدي السفن « أدلائها » على ظهور البواخر القاصدة

دخول المرافىء واصعادهم إليها عند مزايلة البواخر للموانى قصد سفرها الى الخارج ، فضلاً عن نقل الملاحين من سفنهم الجانحة أو الغارقة وانتشالهم من سطوح قطع الجمد الطافية فوق المياه ، وما شاكلها من المواقف الخطرة ، وذلك بحبال تمدها الى ظهور سفن الانقاذ . كما تقوم أيضاً بنقل المؤن والمستخدمين من المنائر وإليها وتساعد سفن المنائر وغيرها في مجاهل البحار المنعزلة .

وقد جرَّبت وزارة البحرية الأمريكية استخدام طائرات هليكوبتر مزوَّدة بآلات رافعة كهربية ، بصفة كونها وسيلة فنية جديدة لانقاذ ضحايا البحار ، فنجحت هذه التجربة . وذلك بأن تحلق إحدى هاتيك الطائرات في الجو حيث توجد ضحايا الحوادث البحرية والجوية ، ثم يُدلَّى من الآلة الرافعة حبل ذو خطاف يشبكه طالب الانقاذ بعطيفه « جاكتته » الخاصة بالانقاذ من الغرق ، فينشل من اليمّ الى الطائرة . وذلك بلف الحبل على بكرة الآلة الدافعة المثبتة في الهليكوبتر .

(تاريخ اختراع)

الهليكوبتر والأوتوجيرو ووصفهما

في اليوم الخامس والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٩٣٧ استطاعت طائرة من طراز هليكوبتر ، اخترعها المهندس الألماني هينريخ فوك . قطع عشرة كيلو مترات على طائرة من مدينة ستندال ، الى مدينة برلين في المانيا . فكانت هذه الحادثة أول مرة في تاريخ الطيران ، أتيح فيها لطائرة من نوع الهليكوبتر ، مغادرة ميدان التجارب للتحليق في جوّ هاتيك البلاد . فدلَّ نجاحها على ما سوف يجنيه العالم من منافعها ، وقضى على ما كان يخالج الناس من شكوك في فلاحها فانقطع الجدل الذي كان محتدماً حول هذا الاختراع . ثم عرضت هذه الطائرة عينها في شتَّى معارض الطائرات التي أقيمت في برلين حيث كان يقودها قائد طيَّار هو (حنَّا ريتش) فأبدى براعة فائقة أسفرت عن كون الهليكوبتر صالحة للقيام بالمناورات ، قريبة من الأرض حيث تتفادى العوائق التي تعرض لها .

ومن أغرب الغرائب أن تاريخ الهليكوبتر أقدم كثيراً من سائر أنواع الطائرات ، إذ كانت موضع إعجاب علماء القرن الماضي ومثار اهتمامهم . وفي خلاله صنع كثير من نماذجها الصغيرة المحتوية على قواعدها العامة

وكانت هاتيك النماذج تؤلف عادةً من مواد بسيطة ، هي الورق وقطع الخشب وشقق المعادن . وتدار بشُرط « جمع شريط » من المطاط المبروم . وصنع أوَّل نموذج لها ، على شكل لعب علمية ، صانعان فنيان هما لونوي وبيانفنو ، وذلك في سنة ١٧٨٤ ثم قدماها الى أكاديمية العلوم الفرنسية .

وفي مطلع القرن الحالي تمَّ صنع أول

نموذج كبير للهليكوبترات . وكان الفضل في ذلك راجعاً الى امكان استخدام المحركات التي تدور بالبنزين لتطيير الطائرات التي تكون أثقل من الهواء . بيد أن هذه الآلات البدائية ، كانت عاجزة عن قطع المسافات الشاسعة . وإنما كان في مقدورها رفع نفسها مسافة قصيرة فوق سطح الأرض دقائق معدودات .

وفي زمن الحرب العالمية الأولى ، خطا تحسين الهليكوبتر خطواته الأولى الموفقة وكان ذلك في بلاد النمسا والمجر ، على أيدي الأستاذ كارمان وزميله اللفتنانت پتروكزي إذ فاقت قوة الآلة التي اخترعاها حينئذ كل سالفاتها بمراحل . وسبب ذلك أنها كانت تتحرك بثلاثة محركات ، قوة كل منها ١٢٠ حصاناً . فاستطاعت رفع الهليكوبتر الى علوّ ٤٥ متراً في الجو . غير أنها لم تكن طليقة تماماً إذ كانت مقيّدة بثلاثة أسلاك مربوطة بالأرض لكي يكفل لها الثبات في الجو .

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، صنعت في فرنسا كثيرات من الهليكوبترات . بيد أنها كانت ، على تباين أشكالها ، لا تتلاءم نتائجها مع المجهودات والنفقات التي بذلت من أجلها . وكان بينها واحدة صنعها سنة ١٩٢٤ المهندس إيهميخن تمكنت من الطيران أفقيًّا والارتفاع عموديًّا على السواء . إلاَّ أنها كانت بطيئة جدًّا بطأً لا يجدي نفعاً عمليًّا . وكانت هاتيك التجارب الفشلة باعثاً على تثبيط عزائم المخترعين حتى ظهرت طائرة الأوتوجيرو Autogiro التي اخترعها لاكييرفا La Cierva وهذه الطائرة ليست هليكوبتر Helicopter وان يكن كثير من الناس يخلطون بينها وبين زميلتها الهليكوبتر . مع كونهما مختلفتين إذ مروحتا الهليكوبتر تدوران بمحرك يتيح لها الارتفاع عموديًّا وجعلها ثابتة في الجو أو هبوطها عموديًّا وفقاً للسرعة التي يبغيها قائدها ، بسهولة لا تقتضي غير اغلاق صمام بنزين محركها .

أما الأوتوجيرو فهي مثل الطائرة العادية ما عدا كون مروحتها أفقية لا يحركها المحرك تحريكاً مباشراً بل تدور بالريح التي تتولد بالحركة الأمامية للطائرة نفسها . وللأوتوجيرو مروحة واحدة لا غير . أما الهليكوبتر فلها مروحتان على الأقل . فاذا كانت الأخيرة ذات مروحة واحدة فانها تدور بداهة في اتجاه مضاد لاتجاه مروحتها . واذا زوّدت الهليكوبتر بمروحتين تدوران في اتجاهين مختلفين ، وازنت كل منهما الأخرى في قوة دورانها .

ويمكن تركيب كل مروحة منهما فوق رأس أختها أو جنباً لجنب . ولكل وضع من ذينك الوضعين ، محاسنه ومساوئه . ولكن الطريقة الأخيرة منهما تولد أعظم طاقة مساعدة إذ أنها تسهل رفع أفدح الأثقال بقوّة محدودة .

أما طراز فوك من طائرات الأوتوجيرو فلا مراوح له بالمعنى المألوف لنا . ولكن عند توجيه مقدم الطائرة نحو الأرض فإن القوة الدافعة التي تولدها المراوح المساعدة للطائرة ، تفضي الى سحبها الى الأمام في الجو . ويحدث تقهقر هذه الطائرة في طيرانها بتوجيه مقدمها الى أعلى . ولا بدّ من تزويد الأوتوجيرو بمروحة أماميـة ، زيادة على جناحها الدوّار . ويتسنّى أيضاً تزويد الهليكوپتر بمروحة كتلك .

ثم ختم المؤلف الانكليزي الذي نقلنا عنه هذا الفصل ، بحثه قائلاً : « ومما لاريب فيـه اننا سنتمكن في القريب العاجل من الطيران في طائرة تجمع بين مزايا طائرتي الهليكوبتر والأوتوجيرو ، إذ يتاح لنا وقتئذ بالهليكوبتر ذات المروحة التي تدفعها دفعاً أماميا ، تحرير المراوح المساعـدة للطائرة وجعلها تدور بتأثير الريح . هذا وقد كنت اقترحت تسمية هذه الطائرة الجديدة بإسم آيروچيرو توحيداً للاسماء جميعها التي أطلقها المخترعون المختلفون على الطائرات التي اخترعوها . وستصبح الأيرو جيرو لسوء الحظ صالحة صلاحية رائعة للأغراض الحربية كسائر الطائرات المعتادة ، إذ تجعلها قدرتها على الثبات في الجو ، وارتفاعها وهبوطها وتحركها الى الأمام أو الخلف ، طبقاً لارادة قائدها ، صالحة جدًّا للمراقبـة ، فضلاً عن كونها تسهل أحكام قذف القنابل . وتقوم بنقل الأغذية والذخيرة الى الجبهة الأمامية للقتال . وهي لا تحتاج الى المدارج . وقلما تتعرّض للاخطار لأن سرعتها في الهبوط أقل كثيراً منها في غيرها » .

عوضين جندي

انتاج عربات الشحن بالسكك الحديدية

بلغ انتاج عربات الشحن في الولايات المتحدة رقماً قياسيًّا جديداً في شهر أغسطس الماضي بسبب تنفيـذ البرنامج الاختياري الذي وضعه أصحاب مصانع عربات الشحن وأصحاب مصانع الصلب . فقـد بلغ انتاج شهر أغسطس ١٠٫٣٩٤ عربة أي أنه زاد على الانتـاج الشهري الذي قدّر عند وضع البرنامج في شهر ابريل سنة ١٩٤٧ ، وهو عشرة آلاف عربة . وبلغ عدد العربات التي صنعت منذ شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ حتى الآن ، ١١٥٫٤٣٩ .

ويقضي البرنامج بأن تنظم وزارة التجارة الأمريكيـة توزيع كميات الصلب بحسب المتفق عليـه فيما بين أصحاب المصانع الى مختلف المصانع التي تنتج عربات للشحن .

* * *

ويقول اتحاد شركات السكك الحديدية الأمريكية أن هناك طلبات لشراء ١٢٢٫١٨١ عربة من عربات السكك الحديدية الجديدة لم تلب عندما حلّ شهر يوليو الماضي .

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الرابع عشر بعد المئة

لحق المقتطف

المقتطف

الجزء الأول من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ يونيه سنة ١٩٤٩ — ٤ شعبان سنة ١٣٦٨

طوفان القدم

صراع بين اللاهوت والعلم

— ٤ —

انتصار العلم

الجهد الأخير في سبيل التوفيق واكتمال النصر للعلم

جهاد كارل فون روس وبانر وغيرهما — الشهادة الواقعية التي نمت عنها الكهوف والقيعان الزاحفة في قدم الانسان — جهاد جوس في سبيل انقاذ التفسير الحرفي لسفر التكوين — جهود اللاهوتيين في القارة الاوربية — محاولة غلادستون في سبيل التوفيق — مكلي وكانون درايفر يقضيان على هذه المحاولة — الاسقف ستانلي والمهادنة بين العلم والكتب المقدسة .

قبل أن ندخل في ختام هذا البحث ، يحسن بنا أن نمضي قليلاً في الكلام في بعض محاولات أملاها اليأس ودفع إليها القنوط ، رمى بها أولئك الذين حاولوها ، الوصول الى هدنة أو تفاهم . وهي ظاهرة نأنسها دائماً عند ما يقترب وقت انتصار العلم في أي عراك له مع الدين ، ويلوح انتصاره فيه محتوماً واقعاً . من هذه المحاولات بل ومن أخصها ما قام به كارل فون « روس » سنة ١٨١٩ . فبكثير من دعوى

المعرفة العلمية التي تختفي وراءها أغراض وآمال حددتها اللاهوتية الجرمانية ، جهد محاولاً أن يؤلف مقالة فيها من الغموض والتعمية بحيث يمكن أن يغشى على حقائق المشكلات العلمية . ظهرت هذه المقالة في صورة نقاش كان قد لجأ بعضهم إليه من قبل ، ليبرهنوا به على أن الحفريات التي عثر بها في الطبقات الفحمية لم توجد قط حية ، وانما هي « نتيجة نماء أجنة نباتات ناقصة » . وهذه النظرية بذاتها ، على غموضها وعمائها ، قد اتخذت سبيلاً الى تعليل الحفريات الحيوانيـة ، من غير أن تنظر بأي اعتبـار الى الأدوار الزمانية المتطاولة ، والتغايرات التي يثبت العـلم الجيولوجي أنّ هذه الحفريات قد تقلبت فيها حتى وصلت الى حالها الحاضرة .

في سنة ١٨٣٧ نزع « جفنر » الى الأخذ بهذه النظرية أو بالحري هذا التفسير . ولـكنّ سطحيته وغثاثته ، كانت من الظهور بحيث اعتقد الناس أن مقولاته ليست أكثر من عبـارات خاوية فارغة ، لا تحمل من الحق شيئاً ، وسرعان ما رفضت وأضيفت الى المنسيات .

في انحاء مختلفة من أوربا ، قامت محاولات أخرى مشابهة لهذه . ولقد شهدت انجلترا أعظم هذه المحاولات وأكثرها إثارةً للذهن . في سنة ١٨٥٣ نشرت رسالة بعنوان « النقض الصريح لنظرية الجيولوجيين المنافية للأناجيل » ، أحيَا فيها مؤلفها نظرية قديمة نفث فيها روحاً جديدة . أما هذه النظرية فتتلخص في قوله : « إن كل العضويات التي يعثر بهـا في أعماق الأرض قد صنعت في اليوم الأول من أيام الخلق ، لـكي تتخذ نماذج للنبانات والحيوانات التي سوف تُخلَق في الثالث والخامس والسادس من تلك الأيام » .

وبينما كانت هذه المحاولات على أشدها ، وقد رمت جميعاً الى صون النظرية القديمة في الحفريات ، ظهر على مسرح الفكرة الحديثة في الجيولوجيا ، زمرة جديدة

زمر الباحثين .

ففي أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر ، بدأ الجيولوجيون ينقبون في الكهوف والقيعان التراكبية في سطح الأرض . وبعد سنين قلائل ظهرت منظومة من المستكشفات بدأت في فرنسا ثم في بلجيكا وانجلترا والبرازيل وصقلية والهند ومصر وأمريكا ، فكان من شأنها أن تدعم حقيقة أن الأرض أهلت بالانسان منذ أزمان أوغل في القدم من الأزمان التي قدرت لذلك من قبل . أمّا التأريخات التي وضعها رئيس الأساقفة « يوشر » و « بوسويه » و « بيتافيوس » وغيرهم من أعلام اللاهوتيين ، فقد وضح أنها فاقدة القيمة ولا غناء فيها . ولقد بان بجلاء أنه مهما يكن من أمر تلك المذاهب واستنادها الى تأريخات العهد القديم وتراجم البطارقة، فإنما هي في حكم العدم . ولقد اضطرّ أكثر الجيولوجيين جنوحاً الى المحافظة والاعتدال الى الاعتراف بأن الإنسان قد ظهر من فوق الأرض في زمان مبكراً جدًّا ، لا منذ ستة آلاف أو ستين ألف أو مئة وستين ألف سنة، بل قبل ذلك بأحقاب . وفي سنة ١٨٦٣ سقط آخر معاقل اللاهوتيين عند ما أعلن سير « شارلز ليل » في كتابه « قدم الانسان » رجوعه عن فكرته القديمة ، وعبّر عن ذلك في جمل منيرة لأسمى العواطف الإنسانية .

إن المؤيدين للنظرية القائمة على نص الكتب المقدسة ، أولئك الذين بدءوا بالعدوان ومارسوه زماناً طويلاً ، قد انقلبوا في النهاية مدافعين عن قضية اكتنفتها أخطار جمة شديدة . ولقد تنقلوا في دفاعهم من موقع الى موقع . وقد يتفق أن يكون الجهد الذي بذله « جوس » في انجلترا سنة ١٨٥٧ ، هو أشق الجهود وأحقها بالعطف والاشفاق . فقد أدّى هذا الرجل لعلم الحيوان خدمات جليلة ،

ولكنه حصر كل همه فيما بعد، وعبأ كل جهده في تأييد التفسير الحرفي لسفر التكوين، وما أقام اللاهوت عليه من شامخ البناء. وفي كتابه المسمى «السُّرة»[1] عاد كرَّة الى النظرية التي قال بها قبل «غرانفيل بن» فنمَّاها بأن أضاف إليها مبدأ آخر سماه "خطأ التاريخ"، ملخصه أن كل الأشياء قد خلقت بيد الله القادر في ستة أيام محدَّدة، لكل منها "مساء وصباح" وان كل تفاصيل الخلق قد أصبحت كائنة بعد ان لم تكن في برهة واحدة. ولما كان قد آمن بما قرر دكتور "أور" Ure إذ قال بأنه "لا العقل ولا الوحي يبرران أن نَعُدَّ أصل النظام الماديّ من حيث الزمان إلى أكثر من ستة آلاف سنة من أيامنا الأرضية"[2] فقد مضى "جوس" يقول بأن البراهين المقامة على حدوث تقلصات وتغايرات في طبقات الأرض والصخور والمعادن والحفريات إنما هي "ظواهر" لا أكثر من هذا ولا أقلّ. ومن هذه "الظواهر" التي خلقت معاً وفي برهة واحدة، تلك الأخاديد الجليدية والخموش التي ترى على الصخور، والعلامات الدالة على تراجع الصخور كما يرى في "نياجرا"، والطبقات الملتوية والمصدَّعة بأنواعها ومختلف صورها في جميع أنحاء الأرض، وعمدان الحمم التي قذفتها البراكين المندثرة، وطبعات أقدام الطير والزواحف في الصخور، والبقايا نصف المهضومة المخلفة عن الحيوانات الضعيفة في معدات الحيوانات الحفرية الكبيرة، والعلامات التي تركتها أسنان الضباع في العظام المستحجرة المتناثرة في كثير من الكهوف، وهيكل الموث السّبيري المحفوظ في "سان بطرسبرغ"[3] بما في لحمه من آثار أسنان الذئاب — كل ذلك بما يعتوره

(١) Omphalos من كلمة يونانية Oupalos ومعناها السرة أو الحبل السري

(٢) Prochronism : من اليونانية Xpo = قبل + Xponos = أي زمن ، ومعني المصطلح خطأ في التاريخ برد الشيء الى زمان قبل زمانه المعترف به . (٣) الآن لينغراد .

من الفجوات الزمانيـة التي تفصلها ، أراد ,, جوس ،، أن يحمل العقـل البشري ويلزمه أن يسلم بأنها خلقت في برهة بعينها كأنهـا لمح بالبصر . أما مقـدمة الـكتاب فان فيها كثيراً مما يثير ويهز العاطفة . وقد اختتمها بدعاء توسل فيه أن يكون كتابه سـبباً في أن يقع التفاهم بين العلم والدين وان ,, إلـه الحق إذا شاء أن يكون لـكتابه هذا الأثر ، ونفذت مشيته ، فله الحمد والمجد والملـكوت ،، . قال في ختام الكتاب : ,, لقد طهر الحقل ومـهد الطريق للشاهد الأعلى الذي يطل علينا من الناحية الأخرى من العالم،،والذي يقول في شهادته — ,, في سـتة أيام صنع ,, يهوه ،، الأرض والبحر وكل ما فيها ،، . وقد طبع هذه العبارة بحروف كبيرة ، كأنما هو يشير الى إنهـا آخر ما يقال في نفي كل الحقائق الجيولوجية التي وصل إليها العلم .

في أنحاء أخرى من أوربا بذلت جهود اليأس في زمن متأخر على الزمن الذي وقع فيه ما قصصنا ، وقد رمت جميعها الى تأييد النص الحرفي للـكتب المقدسة باصطناع نظرية هي من جميع الوجوه أعجب النظريات التي أريد بها مقاومة العلم. ومن أجل أن تصب هـذه النظرية في قالب يلائم الضرورات التي استجدت في المعرفة ، عمد اللاهوتيون الى متن غامض ,, لأيوب ،، أشير فيه الى النار التي هي تحت الأرض ، وتصورات تأمليـة غير واضحة المعـالم نشرها ,, همبولد ،، و ,, لابلاس ،، ، ومزج هـذا كله بجرعات من المأثورات العبرانية ، ومن هـذا المزيج استخلص ,, شوبرت ،، فكرة محصلهـا أن ,, مناطق النفوذ والفورات الشيطانيـة ،، التي كانت تغشى من قبل عالمنا هـذا ، قد رمت به في وهدة العماء الصرف ، ثم تجدد خلقه ثانية ليتخلص من هذا العماء بطريقة شرحها سفر التكوين شرحاً بيناً دقيقاً . أما ,, روجون ،، فقد جعل الأرض نجماً من نجوم ,, الصباح ،،

التي ذكرها «أيوب» وأن «إبليس» وأتباعه قد ردّوا هذا النجم الى العماء والفوضى الصرف، ومن ثمّ أخذت الأرض تتنشأ ثانية بمقتضى المبادىء التي قررتها النظرية السديمية [1] أما «كورتز» فقد ذهب مذهباً عجباً، فقال إن الاضطرابات الجيولوجية إنما ترجع الى مقاومة الشيطان لله ذى القدرة العلوية عند ما أراد أن ينقذ الكون من العماء. كذلك صاغ «دليتشه» نظرية أخرى ألبسها ثوباً جعلها أقرب الى الفكرة المدرسية. ولكن مظاهر الجهد واليأس لم تظهر في شيء من هذا كله ظهورها في أقوال دكتور «وسترماير» التي نشرها في «ميونخ» بعنوان — «براءة العهد القديم من المعارضات الكونية الجديدة» والعبارة التي ننقلها فيما يلي كافية لاظهار متجهه وفكراته: قال: «من أجل أن يثمر رَفّ[2] الروح القدس على سطح مياه العمق الأعظم، فبدأت قوى الخلق تتحرك وتضطرب. ورأى الشياطين الذين قطنوا عالم الظلام البدائي واتخذوه لهم مقاماً وملكاً أبدياً، إنهم سوف يطردون من ملكوتهم هذا، أو على الأقل أن موطنهم سوف يختزل ويصغر، فحاولوا أن يفسدوا الفكرة التي وضعها الله للخلق، وأن يبذلوا أقصى ما بقي لهم من قوة وجلد، حتى يعرقلوا، أو على الأقل يشوّهوا، الخلق الجديد». وبذلك ظهر في هذا العالم: «تلك الهولات المخيفة المخربة، التي هي تشويهات وتحريفات لنظام الخلق السويّ». ومنها تخلفت الآثار الحفرية. ثم يمضي دكتور و«سترماير» مثبتاً — «أن أجيالاً برمتها خلقها الله ثم وقعت فريسة مفاسد الشيطان ووساوسه، ولذا كان من الضروري أن تزول تلك الاجيال وتندثر». ثم يقول — «وفي عمل ستة أيام استطاع الله أن يجعل الشيطان

(١) نظرية لابلاس في نشوء النظام الشمسي

(٢) من عبارة في سفر التكوين

يلمس قدرته الشاملة، ويرد محاولات « إبليس » تعيسة فائلة ». !!!

على هذه الصورة كان الهجوم الأخير في المانيا على قلاع العلم الجيولوجي. وائتماماً بهذه النزعة وبغيرها من النزعات المماثلة لها، حاول " يوهان سلنبَر شلاَج " سنة ١٨٧٠ أن يقيم قواعد الجيولوجيا على طوفان نوح، فواجه من الصعاب ما حمله على أن يقول في عبارات مؤثرة، إنه يود، لو استطاع، أن يرجع الى نظرية أن الحفريات هي " ألهيات الطبيعة ".

غير أن أعظم الجهود التي بذلت في سبيل أن يظل العلم الجيولوجي في حيز النصوص المقدسة، قد وقع في زمان أحدث من ذلك. ففي سنة ١٨٨٥ اقتطع مستر " غلادستون " من وقته جزءاً صغيراً منه ليخوض المعركة منتصراً لنص سفر التكوين على المقررات الجيولوجية، برغم مشاغله وواجباته بوصف أنه الزعيم البرلماني في انجلترا.

بحسب الظاهر لاح جهده ذاك كأنه الى التطفل أقرب شيء، فإنه اعترف في مفتتح كلامه أنه من حيث العلم " مجرد كل التجرد من تلك المعرفة التي تحمل في ثناياها الثقة واليقين " وسرعان ما دلت تحقيقاته وبراهينه على أن اعترافه كان جديًا من جميع الوجوه.

غير ان " غلادستون " كان يتحلى بصفات أخرى قد يمكن أن تنتج شيئاً. كان فارهاً في صياغة الجمل، بارعاً كل البراعة في تكييف معاني الكلمات المفردة بحيث تلائم الضرورات المتضاربة عند الجدل، قادراً كل القدرة على إقامة بناء شامخ من البرهان على أصغر الحقائق وأدنئها، مُيَسَّراً له أن يزيح من طريقه الحقائق المزعجة التي تعترضه بقوّة تفسيرية خارقة. ولقد كانت فراهته في ذلك مضرب المثل، حتى أن ساخراً في صحيفة لندنية، قد نصح رجلاً متزوجاً من

امرأتين ، أن يتوسل الى مستر ,, غلادستون ،، عساه يمنّ عليه بازاحة إحدى زوجتيه .

أقام ,, غلادستون ،، صرحه اللاهوتي الجيولوجي على دعوى أن في سفر التكوين ,, تقسيماً رباعيّاً رئيساً ،، يتناول الأحياء ، وإنه قد ,, وضع في تتابع زماني نظيم ،، وان هذا النظام وذاك التتابع قد رتبا على الصورة التالية :

« أولا : مخلوقات الماء . ثانياً : مخلوقات الهواء . ثالثاً : مخلوقات الأرض من الحيوان . رابعاً : مخلوقات الأرض مختتمة بالإنسان » .

الخطوة التالية التي خطاها « غلادستون » هي أن يزلق في ثنايا بحثه فرضاً يقوم على الأساس السابق ، كان في ظاهره بريئاً لاخطر فيه ، ومحصله أن هذا التقسيم . ,, قد أيده البحث الطبيعي في هذا العصر ، حتى لقد يمكن أن يتخذ على أنه نتيجة مفروغاً منها وحقيقة لا مبدِّل لها ،، .

وراح في النهاية يقيم على هذه الأسس برهاناً مقتطعاً من الملابسات التي اصطنعها وربط بها بين الكتب العبرانية المقدسة والحقائق التي كشف عنها العلم تأييداً لذلك التقسيم الرباعي وما أقام عليه من نتائج ، ومن هذه الطريق سهل عليه أن يصل الى الغرض الذي رمى إليه وبه توَّج بناءه الشامخ المشمخر ، ونعني بذلك قوله إن كاتب سفر التكوين ,, كان مزوداً بعلم قدسي ،، .

على هذه الصفة كان هيكل البناء الذي أقامه ,, غلادستون ،، ولقد نمَّقه وزينه بتلك الخطابيات التي برَّز فيها وكان فيها من مقدمي أصحاب الفن والابتكار ، فأشرف بناؤه بهامة الجبار على ,, أوساط الناس ،، وبهرهم بجماله وجلاله القاهر — فكان أشبه بقلعة صينية في القرن التاسع عشر بنيت واجهتها بالخزف الثمين ، وسلِّحت بالنبال .

وسرعان ما ظهر أن متانة هـذه القلعة كانت وهماً . فلقد اقتحمها الأستاذ « هكسلي » ببحث آثار الفكر بما فيه من الاعتدال ، وبما فيه من الحقائق الجارفة والبراهين المقنعة . وكان « هكسلي » رئيساً للجمعية الملكية ، وأعظم ثقة في المسائل العلمية غير منازع ممن عاصروا ,, غلادستون ،،

أما الدعوى الأولى في أن الكتابات المقدسة زوّدتنا ,, بتقسيم رباعي ،، أو ,, أقسام أربعة ،، خلقت ,, بترتيب زماني نظيم ،، فلم يهتم الأستاذ هكسلي بنفيه .

أما دعوى ,, غلادستون ،، الثانية اذ يقول بأن هذا التقسيم الرباعي الرئيس . وحدوث الخلق في ترتيب زماني نظيم ... قد ثبتت صحته في زماننا من طريق العلم الطبيعيّ حتى لقد يمكن أن يتخذ على أنه نتيجة مفروغاً منها، وحقيقة لا مبدّل لها — فقد أظهر الأستاذ ,, هكسلي ،، أنه لا وجود على الاطلاق لذلك ,, التقسيم الرباعي ،، ولا ,, للترتيب النظيم ،، وإنه على الضد من قول ,, غلادستون ،، بأن مخلوقات الماء والهواء والأرض قد خلقت متعاقبة على الصورة التي صوّرها ، تدل كل الشواهد التي وصل اليها علمنا أنها لم تكن كذلك ، وان توزع الحفريات في الطبقات المختلفة ، يبرهن على أن بعض احياء الأرض قد تأصلت قبل أحياء الماء . وإنه كان هناك تمازج وتخالط بين مخلوقات البحر والبر والهواء ، مما يهدم ذلك ,, التقسيم الرباعي ،، ويهدم القول ,, بالخلق في ترتيب زماني نظيم ،، ؛ أما قول ,, غلادستون ،، الذي استند فيه الى المتون المقدسة من أن نظريته قد أيدها البحث العلمي حتى لقد يمكن أن تتخذ على أنها نتيجة مفروغاً منها وحقيقة لا مبدل لها — ,, فقد أظهر ,, هكسلي ،، أن ذلك منافٍ للحقائق المعروفة لكل من له إلمام بأوليات العلم الطبيعي ،، . أما عمدة مستر « غلادستون » في هذا البحث ، وهو العلامة « كوفييه » فلا يصح أن تتخذ أقواله ثقة يعتد بها ، لأنه مات قبل

خمسين سنة . وكان العلم الجيولوجي لا يزال في طفولتـه ، ثمّ تحدى مستر « غلادستون » أن يأتيـه بمعاصر حجّـة في العلم الجيولوجي قد يؤيد وجهة نظره التي أقامها على المقدسات . ولما حاول « غلادستون » في ردّه على « هكسلي » أن يؤيد وجهـة نظره مستنداً الى أشـياء انتحلها على الأسـتاذ ‹‹ دانا ››، لم يجد ‹‹ هكسلي ›› من صعوبة في أن يثبت أن ما عزاه ‹‹ غلادسـتون ›› الى ذلك الأستاذ الـكبير ليس له أساس البتة .

في الوقت الذي استطاع فيه الأستاذ ‹‹ هكسلي ›› أن يهز دعائم البناء الذي أقامه ‹‹ غلادستون ›› ببينات العلم ، ظهر خصم جديد عمل على نقضها ببينات من سفر التكوين نفسه . فان المحترم القانون ‹‹ درايفر ›› أستاذ الجيولوجيا في جامعة اكسفورد مضى يناقش الأمر في ضوء التفسيرات المقدسة نفسها . ولقـد تناول أول شيء الجدول المقـارن الذي وضعه سير ‹‹ ج . د . دوسون ›› الذي حاول أن يظهر به دعوى التقابل بين الترتيب الخلقي في المقدسات في العلم الجيولوجي فقال : إن المنظومتين على تناقض كامل . فان ما يسجله علم الجيولوجيا لا يحتوي على ما يدل على عصور محدّدة تقابل ‹‹ أيام ›› سـفر التكوين . كذلك يذكر سـفر التكوين أن خلق النبـات قد تمّ قبل أن تظهر الحياة الحيوانيـة . في حين أن الجيولوجيا قد أثبتت أنهما ظهرا متعاصرين ، إن لم تكن الحيـاة الحيوانية قد سبقت الحياة النباتية . وفي سفر التكوين تظهر الطيور مع المخلوقات المائية ، و تتقدم كل الحيوانات البرية . أما بينات الجيولوجيا فقد تثبت أن الطيور لم يظهر لها من أثر إلا في عصر بعـد ظهور المخلوقات المائية (بما فيهـا الأسماك والبرمائيات) وتـكاثرها ، وانها قد سبقت بأنواع أرضية كثيرة وبخاصة من الحشرات والأحياء الزاحفة . أما ما تقرره الرواية الموسوية من وجود الزروع قبل خلق الشمس فإن

" درايفر " يقرر " أن التوفيق بين هـذه الرواية والمعلومات العلمية لم يقع عليه أحد بعد " . ثم يقول " مما سبق أن أفضنا فيـه من القول ، نجد أنه لا سبيل بنا لغير نتيجة واحدة ، هي أن قراءة نص سفر التكوين تحدث في العقل أثراً واحداً هو المناقضة لموحيات العلم .

***

بذلك تهدَّم بنـاء " غلادستون " الذي حاول أن يشيده على المقدسات مع " تقسيمه الرباعي الرئيس " الذي استمده من سفر التكوين ، ومحاولته التوفيق بين رأيه هذا والحقائق التي قررها علم الجيولوجيا . لقد هدم " هكسلي " الجزء العلمي في ذلك البناء ، ونقض " درايفر " أسسه الانجيلية ، وبذلك تقوَّضت آخر القلاع اللاهوتية إزاء ذلك العلم .

من حيث المعارضة لمثل هذه المحاولات نأتي هنا على آراء رجل فذٍّ من رجال الدين ، من الجائز أن يكون قد عمل على انقاذ كل ما هو جوهري في " النصرانية " في العالم الذي ينطق الانجليزية أكثر من كل رجال الكنيسة . فإن الاسقف دكتور " أرثر ستانلي " كان ذائع الصيت محبوباً في القارتين . ولقد قال في عظته التي ألقاها بعد دفن سير " شارلز ليل " : — " إنه لمن البين الآن لكل النابهين من المكبين على درس الأناجيل أن الاصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين يتضمنان قصتين عن الخلق تناقض احداهما الأخرى تمام المناقضة في التفصيل والزمان والمكان والترتيب . ومن المعروف أنه عندما بدأ العلم الجيولوجي يتنشأ وينمو ، قد اعتوره محاولات رمت الى التوفيق بينه وبين نص المقدسات . وكان هنالك أسلوبان للتوفيق بين الانجيل والعلم ، ولقد سقط كلاهما سقوطاً كاملاً : الأول انحصر في اخراج كلمات الانجيل عن معانيها الأصلية وجعلها تتكلم بلغة العلم . ثم

تكلم في مثال من أوالي الأمثلة على ذلك هو محاولة اخراج معنى كلمة «لا»[1] في سفر اللاويين عن معناها فقال: «ان هذا هو أول مثل على إفساد الانجيل ليوافق حاجات العلم. ولقد تبع ذلك جهود ابتغى بها باذلوها ان يلووا فصول سفر التكوين ليًّا حتى يوافق آخر ما وصل إليه علم الجيولوجيا — فقالوا بأيام ليست هي بأيام، وأمسيات وأضاحي ليست هي بأمسيات ولا أضاحي، وطوفان ليس هو بطوفان، وسفين ليست هي بسفين.

بعد أن نقع على مثل هذا القول التافه لنا أن نتساءل: أيهما أكثر تقوية لروح النصرانية لتؤثر أثرها في القرن العشرين: أكلمات قوية نبيلة أمينة جريئة، ككلمات دكتور «أرثر ستانلي» ، أم تلك السفسطات التي تحمل في تضاعيفها عوامل السقوط وجراثيم الانحلال، كتلك التي فاه بها «غلادستون» ؟

إن عالم العقل يسير الآن في طريق يوضح له أن الوحي العلمي في الخلق وغير الخلق، هو الذي يوائم بين عظمة العالم وعظمة خالقه، باريء الأكوان. وكذلك يرى العقل من طريق العلم أن الوحي لم يكف فعله ولم ينقض زمنه، وأن رسل ذلك الوحي وحواريه، ليسوا أولئك الذين يعملون على أن يحوروا من كلماته لتلائم العقائد الجامدة وآراء أصحاب النحل، وانما هم أولئك الذين يضحون بأنفسهم قانتين للبحث وراء الحق، موقنين بأن هنالك «قدرة» كونية فيها من العقل والنهى والرشاد ما يؤيد البحث وراء الحق وينصره ويحميه، ليصبح الحق وقول الحق، مفيداً في هذه الحياة الدنيا.

اسماعيل مظهر

---

(١) والارنب . لانه لا يجتر لكنه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم « لاويين : ١١ : ٦

ذكريات في السودان

وجه المشرف على ركن السودان في الاذاعة اللاسلكية المصرية الى حضرة صاحب العزة الأستاذ الكبير والشيخ المحترم خليل بك ثابت السؤال التالي :

« ما هي ذكريات عزتكم الصحفية عن السودان » ؟ فتفضل مشكوراً بالجواب التالي :

ذهبت الى السودان في فبراير ١٩٠٣ ، لأسس مطبعة لطبع مطبوعات حكومة السودان وأنشيء مع المطبعة جريدة باللغة العربية ، والإثنتان — المطبعة والجريدة — تابعتان لإدارة المقطم والمقتطف في القاهرة ، ووفقت الى تأسيس المطبعة فبدأت عملها في شهر يوليو من تلك السنة . وكان عمالها الاولون من مصر ، وبعد ذلك تيسر لي اختيار جماعة من الشبان والصبيان السودانيين فعلمتهم أعمال الطباعة المختلفة ، ونجحوا نجاحاً عظيماً حتى أنه لما زار السير ونجت السردار والحاكم العام في ذلك الحين المطبعة أعجبه جداً ما شهد من مهارتهم مع صغر سنهم وحداثة عهدهم بالعمل . واستمر العمل في هذه المطبعة الى سنة ١٩٢٤ ، فاضطررنا الى بيعها لشركة ماكوركدايل الانجليزية ، بعد ما عملنا أكثر من عشرين عاماً ، بنينا في أثنائها مبنى المطبعة القائم الآن على ميدان عباس .

أما الجريدة فصدرت أولاً باسم « جريدة السودان » في سبتمبر ١٩٠٣ ، وطبعنا العدد الأول منها بحضور سعادة السيد علي المرغني باشا والأميرالاي ستانتون بك مدير الخرطوم في ذلك الحين وهو نجل الجنرال ستانتون الذي كان قنصلاً عاماً لبريطانيا في مصر في عهد الخديو اسماعيل وهو الذي توسط في شراء أسهم قناة السويس التي كانت للخديو اسماعيل وقد اشتراها بأربعة ملايين جنيه بطلب المستر دزرئيلي رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الحين . وكان الثمن أربعة ملايين جنيه على ما أذكر الآن ، وبين الذين حضروا حفلة افتتاح الجريدة « جريدة السودان » المرحوم البكباشي مبروك فهمي مأمور الخرطوم (بعد ذلك اللواء مبروك باشا فهمي) — وجمهور من أعيان السودان والشبان المثقفين . وبعد ما

صدرت الجريدة بالعربية في أربع صفحات نحو عامين أضيفت إليها صفحتان بالانجليزية بناء على طلب الحاكم العام لكي يطلع كبار الموظفين الانجليز على ما ينشر في باب النقد وباب الاقتراح وغيرها .

وفي صيف ١٩٠٧ اضطررت الى مغادرة السودان بسبب حالة زوجتي الصحية وتركت العمل في يد المرحوم الأستاذ لبيب جريديني والأستاذ اسكندر مكاريوس من ابناء أصحاب العمل

وكانت هذه المطبعة وهذه الجريدة أول مطبعة وأول جريدة أنشئت في ذلك العهد الى الجنوب من القاهرة . ولما زار أصحاب الصحف المصرية وممثلوها الخرطوم مع المرحوم اللورد كرومر للاحتفال بسكة حديد عطبرة — بورسودان وميناء بورسودان — زار حضراتهم مطبعة السودان وكان إعجابهم شديداً بنظام المطبعة ، وحسن أدواتها وآلاتها ، وقد جلبت كلها بنظام واحد من أحدث مصانع بريطانيا .

وعرفت في من عرفت في السودان في أثناء اقامتي فيه — ولقد لقيت كل عناية ورعاية من الشعب السوداني في جميع طبقاته — المرحومين الزبير باشا رحمت العباسي والشريف يوسف الهندي والشيخ ابراهيم ناظر الجماين والشيخ الطيب هاشم مفتي السودان وشقيقه شيخ العلماء الشيخ أبو القاسم هاشم ومحمد بك حسن سر تجار أم درمان والشيخ مدثر الحجاز وأحمد عثمان القاضي وكثيرين غيرهم . ولم يكن سعادة السيد عبد الرحمن المهدي باشا قد برز الى الأمام كما فعل بعد ذلك

وكانت كلية غردون في أول عهدها ، وكان ناظر القسم الثانوي فيها الأستاذ احمد هدايت بك والمدير العام لها وللمعارف المستر جيمس كرى (بعدئذ السير جيمس كري)

وعرفت من رجال حكومة السودان في ذلك الحين علاوة على الحاكم العام والسردار السير ريجنلد ونجت والكولونيل نيسون السكرتير الملكي (السكرتير الاداري) والمستر بونهام كارتر السكرتير القضائي (السر ادجار بونهام كارتر فيما بعد) والمستر وايزي ستيري قاضي القضاة المدنيين والكولونل فيبس و برنارد باشا السكرتير المالي وهنري باشا وآسر باشا وغيرهم من كبار الضباط والحكام الانجليز والمرحومين الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السودان الأول ونسيبه الشيخ محمد هارون وقد خلفه فيما بعد ، والشيخ محمد مصطفى المراغي قاضي القضاة

وشيخ الجامع الأزهر فيما بعد وغيرهم من رجال الشرع المصريين والسودانيين ، وسعيد شقير باشا ، وشاهين جرجس بك ، وابراهيم ديمتري بك ، وصموئيل عطية بك ، ونعوم شقير بك (مؤلف كتاب تاريخ السودان) والميرالاي محمد غالب بك ونخلة تادرس بك وغيرهم من كبار الموظفين الشرقيين . ولم يكن الشبان السودانيون قد شرعوا يتولون المناصب الكبيرة لقرب عهدهم بالتعليم المدرسي ، وقد أصلح هذا الأمر فيما بعد .

ومع ان الأحكام في السودان كانت في ذلك العهد في مظهرها الخارجي شبيهة بالأحكام العسكرية — وإن لم تكن كذلك — فقد كانت الجريدة حرّة فيما تكتب وما تنشر ، لا رقابة عليها من جانب الحكومة بل كانت تنشر أحياناً أموراً لا يرتاح اليها رجال الحكومة ، وهذا ما أذكره بالشكر والتقدير للسير ريجنلد وينجت باشا ، والسياسة السديدة التي كان يجري عليها ، وأذكر أنني مرة أفشيت عن غير قصد سر حملة عسكرية كبيرة كانت مرسلة من الخرطوم الى بلاد سلطان نيام نيام لتأديبه وتأديب قبائله فخبطت الحملة وضاعت أموال كثيرة ، وأقلق بال وزارتي الحربية والخارجية في لندن واللورد كرومر في القاهرة ، ومع ذلك لم يجاوز موقف حكومة السودان في الموضوع عتباً رقيقاً من جانب الحاكم العام لي ، وايضاحاً للضرر العظيم الذي أحدثه نشر الخبر في الجريدة

وكانت اقامتي في الخرطوم مدة خمسة أعوام مقرونة بالسرور والاغتباط بما لقيت من رعاية رجال الحكومة من شرقيين وأوربيين وما أصبت من حسن ظن اخواني السودانيين ولا سيما أعيانهم وكبرائهم وذوي الرأي منهم .

وما زلت متعلقاً بالسودان ، أحبه كوطن من أوطاني العربية العزيزة ، وقد حافظت على صلتي المادية به ، فإن لي أرضاً وبيتاً في الخرطوم ، أبيت بيعهما ، وآثرت ابقاءهما في حيازتي كصلة وثيقة لي بالسودان. وقد زرت السودان بعد تخلّي عن العمل فيه مرتين كانت أخيرتهما في سنة ١٩١٣ ، فرأيت فيه مظاهر التقدم الكبير في شوارع الخرطوم وميادينها وما جدّ من شوارع أم درمان والكبري الجديد على النيل الأزرق ، والمعدية البخارية بين الخرطوم وأم درمان ، والترامواي الكهربائي في الخرطوم وأم درمان، وعملية الكهرباء في الخرطوم ، الى آخر مظاهر الاصلاح التي يشهدها المرء الآن ويشهد غيرها في تينك المدينتين وسائر مدن السودان . وهذا علاوة على مظاهر التقدم الأدبي والعلمي والثقافي في طبقات الأمة السودانية

واني أسأل الله أن يتيح لي زيارة هذا الوطن لأشهد فيه أضعاف ما شهدته في زيارتي الأخيرة راجياً للسودان العزيز وأهله الكرام اطراد التقدم والنجاح في جميع ميادين الحياة والعمل.

من الأعماق

مهداة الى أخي : محمود حسن اسماعيل

إمتَحِ الشعر يا نديمي، وعقده فسحر هذا القريض غموضه . !
امتح الشعرَ، من هناك، من الأعماق، ملأى بالوسوسات عروضه.!
امتح الشعر، لا تكبله بالعقل، فيا صاح، ما الحجا، ما فروضه . ؟
إمتح الشعرَ، ليس شعراً لديَّ، غير نظم كالنفس يندى وميضه. !

***

إيه ياذكرياتِ أمسي، زمانُ الأمس َولى، فكيف تحيين بَعده؟ .
إيه، ما حاضر الوجود إذن . . ؟ ألعمر مهوي ... فهل ترومين ردّه ؟
«أنا أحيا، لـكن حياة أحاجٍ... ضلَّ من يحسب الإجابة عقدَه !.»
« ثم ماذا؟ » — «لاشيء!» تمتم لحناً واكتنى هذا أعمق الشعر عنده .!

***

ومضاتٌ يا قلبُ، بل أبحرٌ، آه، لودْقٍ ينتابني ثجاجا . !
ومضاتٌ من تربة النفس تنزو، ما أني أبكي نزوها الوهّاجا ...
فاقفلِ الباب، إقفلِ البابَ، يا قلبَ، وخذ عني هذه الأمواجا :
وتنهدتُ للخلاصِ هنا، قرب مجاذيفِ حيارى تشتكي الإدلاجا .!

***

« قف بنا الآن يا شراعُ اذن، هذي مجاذيفي أنهكتها الخطوبُ ...»
«لم يجب...» «قف بنا» ويهوي يحث السير: رقٌ جنت عليه الغيوب
فوقفتُ وحدي...أشيّع هذا الموكبَ المرّ — آهِ — وهو يغيبُ :
وحواليَّ الكائناتُ رموزٌ، في فؤادي مفتاحها محجوب ! ! !

عمرنا الرهبي (القاهرة)

هيئة الأمم المتحدة

قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية أخذت دول الحلفاء الكبيرة ، وهي الولايات المتحدة والمملكة المتحدة (بريطانيا) والإتحاد السوفيتي والصين . تفكر في إنشاء هيئة دولية جديدة تخلف جامعة جنيف ، تلك الجامعة التي لم يكن اثنان قد اختلفا على أنها لفظت آخر أنفاسها ولم تعد تصلح أداةً لصون الأمن والسلم في العالم . وآيةُ اخفاقها تلك الحربُ العالمية الطاحنة التي استمر أوارها في عام ١٩٣٩ ولم يخمد إلا في عام ١٩٤٥ .

وقد تبلور هذا التفكير في مؤتمر تقرر عقده في مدينة دمبارتن أوكس بالقرب من وشنطن في اليوم الحادي والثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٩٤٤ ، وشهده مندوبو هذه الدول الأربع الكبيرة ولبث المؤتمر حتى اليوم السابع من اكتوبر ١٩٤٤ بعد ما دامت أعماله قرابة أربعين يوماً ، وأسفر عن وضع مقترحات لإنشاء هيئة دولية مهمتها صونُ الأمن والسلم الدولي .

وعقب انتهاء المؤتمر من أعماله ومن مقترحاته التمهيدية ، أذاع الرئيس الراحل فرنكلن روزفلت خطاباً في يوم ٩ اكتوبر ١٩٤٤ قال فيه: إن المقترحات التي اتخذها مؤتمر دمبارتن أوكس رُفعت الى الحكومات الأربع لبحثها توطئة لإقرارها ، وأن نصوصها أذيعت على العالم حتى يتاحَ لكل صاحب رأي أن يبدي رأيه في هذه المقترحات . ثمّ تحدث الرئيس الأميركي بشيء من الافاضة عن أهداف هذه المؤسسة المقترحة وأقسامها العامة وأثنى بوجه خاص على المستر كوردل هل وزير الخارجية الأميركية إذ ذاك لما أبداه من جهد تداعت له صحته في وضع دعائم السلم الدولي .

ولما رأت الحكومات الأربعُ الكبيرة أن مقترحات دمبارتن أوكس صالحة لأن تكون أساساً للمناقشة لإنشاء هيئة دولية جديدة ، نابت الولايات المتحدة عن زميلاتها

الثلاث في توجيه رقاع الدعوة الى نحو خمسين دولةً لتشهد مؤتمراً عامًّا للأمم المتحدة يعقد في مدينة سان فرنسسكو الاميركية في الخامس والعشرين من ابريل من عام ١٩٤٥ لمناقشة مقترحات دمبارتن أوكس ووضع مشروع نهائي لميثاق هيئة الأمم المتحدة . وقد روعي في توجيه الدعوة اختيارُ البلدان التي ساهمت في قضية الحلفاء ، فلم تشترك في المؤتمر دولة مّا من دول المحور . وقد مثل مصر في هذا المؤتمر وفد برياسة معالي الدكتور عبد الحميد بدوي باشا وكان من أعضائه دولة ابراهيم عبد الهادي باشا .

عقد إذن مؤتمر سان فرنسسكو ، ونوقشت فيه قرارات دمبارتن أوكس فأدخلت عليها تعديلات شتى ، وانتهت أعمال المؤتمر في اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو ١٩٤٥ بعد ستين يوماً من العمل المضني ، وأمضت الوفود مشروع ميثاق هيئة الأمم ، وهو الميثاق الذي تستند إليه الهيئة اليوم في كل عملٍ من أعمالها .

ونصّ الميثاق بعد الديباجة على أن يكون قوام هيئة الأمم المتحدة ست دعائم رئيسية هي :

أولاً — جمعية عمومية . ثانياً — مجلس للأمن . ثالثاً — مجلس اقتصادي واجتماعي . رابعاً — مجلس للوصاية . خامساً — محكمة دولية للعدل . سادساً — سكرتارية

وسنتحدث عن كل هيئة من هذه الهيئات ونبينُ أهدافها ووسائلها وأساليب العمل فيها .

﴿ أولاً — الجمعية العمومية ﴾ الجمعية العمومية هي الحلبة الكبرى التي تشترك فيها جميع الدول المحبة للسلام على قاعدة المساواة ، لا فرق بين دولة كبيرة أو دولة صغيرة ، وتتمتع جميع الدول من أعضائها بحقوق متساوية والتزامات متساوية . ويمكن لكل دولة أن تنتدب عنها عدداً من الممثلين في الجمعية العمومية — قد يصل الى خمسة — ولكن لا تتمتع الدولة إلاّ بصوت واحد في الاقتراع شأنها شأن سائر الدول الأخرى .

وتناقش الجمعية العمومية كل ما يعرض عليها من شكاوي وكل ما له صلة بالمبادىء العامة الخاصة بصون السلم والأمن الدولي ، كمبادىء نزع السلاح ، وتنظيم التسليح ، كما أن لها أن تقدم توصياتها الى الأعضاء أو الى مجلس الأمن أو كليهما .

وللجمعية أن توجه نظر مجلس الأمن الى الحالات التي من شأنها أن تعرض سلم العالم وأمنه للخطر .

ومن مهام الجمعية إنماء التعاون الدولي في الميادين السياسي والقانوني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والصحي ، وكذلك بحث التقارير السنوية التي تقدم اليها من السكرتير العام لهيئة الأمم ومن رئيس مجلس الأمن ومن الهيئات الأخرى التابعة لها .

ومن أعمالها كذلك انتخاب أعضاء مجلس الأمن وأعضاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي

أما قرارات الجمعية فتؤخذ في الموضوعات الهامة بأغلبية ثلثي الحاضرين المقترعين .

ولكن في الموضوعات غير الهامة تؤخذ القرارات بأغلبية بسيطة للحاضرين المقترعين .

وتعقد الجمعية العمومية دورات عادية سنوية ، ويمكن دعوتها الى دورات استثنائية كلما رُئي ذلك ضرورياً . وتنتخب الجمعية رئيساً لها في كل دورة ، ورئيسها في الدورة الحالية هو الدكتور هربرت ايفات وزير خارجية استراليا ، ولها أن تنشىء من اللجان والمنظمات والهيئات ما تراه ضرورياً للنهوض بما يعن لها من مهام .

ولكن الجمعية العمومية تنشطر بدورها الى طائفة من اللجان ، فهناك لجنة السياسة والأمن وهي أكبر لجان الجمعية العمومية لأنها تمثل جميع الأعضاء وتمهد الأعمال أمام الجمعية العمومية بأن تقتلها بحثاً وفحصاً ومناقشة وتدقيقاً . ثم تقترع فيها وتعرض نتيجة الاقتراع على الجمعية العمومية وهي في العادة تقره .

وهناك اللجنة التوجيهية التي من شأنها توجيه أعمال الجمعية العمومية حتى لا تتشتت وتتشعب

وهناك اللجنة الاجتماعية والانسانية ، ومهمتها مناقشة الموضوعات التي تهتم بالمشكلات الاجتماعية والانسانية مثل قضية مشردي أوربا أو قضية لاجئي فلسطين وأشباههما .

وهناك لجنة المالية والميزانية ومهمتها مراعاة الشؤون المالية والاعتمادات الخاصة بكل برنامج ... وما الى ذلك .

هذا عن الجمعية العمومية

﴿ ثانياً — مجلس الأمن ﴾ — يتألف مجلس الأمن الدولي من أحد عشر عضواً يمثلون إحدى عشرة دولة .

والعضويةُ في المجلس نوعان : فهناك أعضاء دائمون عددهم خمسة يمثلون الدول الخمس الكبيرة وهي بريطانيا وأميركا وروسيا وفرنسا والصين .

وهناك أعضاء غير دائمين يمثلون ست دول صغيرة وهم ينتخبون لدورة مداها عامان ، تسقط في نهاية كل عام عضوية ثلاثة منهم ، وينتخب محلهم ثلاثةُ آخرون . ويراعى عادةً في اختيار ممثلي الدول الصغيرة التوزيع الجغرافي للدول ، فينتخب ممثل عن الدول العربية ، وآخر عن دول أميركا اللاتينية ، وثالث عن دول جنوب شرق آسيا ، ورابع عن دول شرق أوربا ... وهكذا .

والمسؤول عادةً عن انتخاب أعضاء مجلس الأمن هو الجمعيــة العمومية ، فهي التي تنتخب أعضاء مجلس الأمن في كل عام .

أما رئاسة جلسات مجلس الأمن فتكون بالتناوب وبترتيب أحرف الهجاء لأسماء الدول

فرئيس دورة الرئاسة الماضية — ومدة الدورة شهر واحد — هو محمود فوزي بك ممثل مصر ، وقد خلف في منصبه الدكتور تسيانغ مندوب الصين .

وأهم عمل لمجلس الأمن هو ما ورد في الجزء الأول من المادة الرابعة والعشرين من ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، وهو : « رغبةً في أن يكون العمل الذي تنهض به الأمم المتحدة سريعاً فعالاً ، يعهد أعضاء تلك الهيئة الى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية في أمر صون السلم والأمن الدولي ، ويوافقون على أن يعمل هــذا المجلس نائباً عنهم في قيامه بواجباته التي تفرضها عليه هذه التبعات » .

أي ان مجلس الأمن مسؤولٌ قبل كل شيء عن صون الأمن والسلم ، وقراراته ملزمة لأعضاء هيئة الأمم . ولذلك لا يبحث المجلس إلاَّ القضايا الخاصة إما بخرق السلم الدولي أو التي تنذر السلام بخطر ، أو التي من شأن بقائها تهديد السلم بخطر .

ومجلس الأمن يسعى لحل هــذه المشكلات بادىء ذي بدء بطريق المفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، ثم يلجأ الى المنظمات الاقليمية أو سواها من الوسائل السلمية التي يختارها . وله كذلك أن يدعو الفريقين المتنازعين ، أو الفرق المتنازعة إلى تسوية ما بينها من خلاف بتلك الأساليب .

أما إذا لم تُجدِ هذه الوسائل السلمية في تسوية نزاعٍ من شأنه أن يهدد سلام العالم بالخطر فللمجلس أن يبحث الأمر من جميع نواحيه، وله أن يقرر إما عقوبات منها الكفّ عن الصلات الاقتصادية وقطع المواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وسواها من وسائل المواصلات جزئيًا أو كليًا وقطع العلاقات الدبلوماسية ...

وإما اتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي أو لإعادته إلى نصابه.

وفي ما يختص بهذا الأمر تعهدت دول هيئة الأمم بأن تضع تحت تصرف مجلس الأمن وبناءً على طلبه وطبقًا لاتفاقٍ أو اتفاقات خاصة ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لصون السلم والأمن الدولي.

***

هذا وتتبعُ مجلسَ الأمن هيئة لأركان الحرب مهمتها وضع الخطط الحربية اللازمة ومدّ المجلس بالمشورة. وقوام هذه الهيئة رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن (أي الدول الخمس الكبيرة) ومن يقوم مقامهم، وللجنة أن تستعين بدول ليست ممثلة فيها للاشتراك في عملها.

ولهيئة أركان الحرب أن تنشيء من اللجان الفرعية الاقليمية ما تشاء إذا أجاز لها ذلك مجلس الأمن.

***

ومن الأعمال الأخرى التي يتعين على مجلس الأمن انجازها، عدا ما تعلق منها بصون الأمن والسلم، موضوع البت في عضوية أعضاء هيئة الأمم المتحدة. فكل عضو يروم الانضمام الى هيئة الامم يقدم طلبه الى مجلس الأمن لمناقشته، فاذا تبين المجلس أن هذا العضو مكتمل لمقوّمات العضوية — وأهمها انه محب للسلام — أوصى بقبوله وأحال طلبه الى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة لتتعهده بدورها ثم تقرر قبوله أو رفضه.

أما قرارات مجلس الأمن فيشترط أن تكون بأغلبية سبعة أصوات . والمعروف طبعاً أن لكل عضو صوتاً واحداً .

فاذا كان الأمر متعلقاً بلائحة الاجراءات اكتفى بموافقة سبعة من أعضائه أيّاً كانت صفتهم

أما إذا كان الأمر متعلقاً بالمسائل الأخرى المطبوعة بطابع الخطورة ، فيلزم لاقرار القرار الظفر بموافقة سبعة أصوات يتعين أن تكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين الخمسة . ويشترط أن يمتنع المتنازعون عن الاقتراع .

وإذا بحث مجلس الأمن قضية دولة غير عضوٍ فيه كأندونيسيا مثلاً ، فان للمجلس أن يقرر دعوة هذه الدولة إلى ايفاد مندوب عنها يشهد جلسات المجلس ويفضي برأي بلاده ولكنه لا يحقّ له أن يتمتع بحق الاقتراع .

ويختلف مجلسُ الأمن عن الجمعية العمومية في أن المجلس يبيح للدول الكبيرة أن تتمتع بنفوذ أوسع من نفوذ الدول الصغيرة . صحيح أن الدول الكبيرة ليس لها سوى صوت واحدٍ لكلٍّ منها كما سبق أن قلنا ، ولكن هذا الصوت يمكنها اذا شاءت من نقض قرارات مجلس الأمن . فان مجرد امتناع دولة كبيرة عن الاقتراع كافٍ ليحول دون اتخاذ قرارٍ ما ، وهذا ما يسمونه حق النقض أو « الفيتو » . ومما يذكر في هذا الصدد أن روسيا استعملت هذا الحق حتى الآن ثلاثين مرة فاستطاعت أن تنقض ما شاء لها من قرارات مجلس الأمن .

* * *

﴿ ثالثاً — المجلس الاقتصادي والاجتماعي ﴾ ومن أهداف هيئة الامم المتحدة ضرورة تعزيز الصلاتّ الودية السلمية بين الأمم وهي لذلك تعمل على رفع مستوى المعيشة وتهيئة أسباب العمل الدائم لكل فرد والنهوض بعوامل الرقي الاقتصادي والاجتماعي . وهي لذلك تهتم بأن تشيع في العالم روح احترام حقوق الانسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفرقة بين الرجال والنساء ومراعاة تلك الحقوق والحريات فعلاً .

وقد نص ميثاق هيئة الأمم ، رغبة منه في تحقيق ذلك ، على انشاء مجلس اقتصادي واجتماعي قوامه ١٨ عضواً تنتخبهم الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة على أن ينتخب ٦ أعضاء في كل عام ومدة عضويتهم ٣ أعوام .

وهذا المجلس — في الأغلب — بعيد عن الشؤون السياسية ، وهو يبحث المشكلات التي تعرض عليه بروح يغلب عليها الطابع العلمي الفلسفي . وقد استطاع المجلس في دورته الأخيرة برياسة مندوب لبنان الدكتور شارل مالك أن ينجز طائفة كبيرة من الشؤون الأساسية مثل وضع ميثاق حقوق الانسان وتقرير مبدأ المساواة التامة بين الرجل والمرأة في جميع الشؤون ، وانشاء لجان اقتصادية اقليمية مهمتها تحقيق التعاون الاقتصادي في مناطق العالم المتشابهة المتقاربة... الخ

وتتبع المجلس الاقتصادي والاجتماعي نحو مئة هيئة دولية مثل الهيئة الصحية الدولية، وهيئة الطعام والزراعة الدولية ومكتب العمل الدولي ...

* * *

ومهمة المجلس الاقتصادي والاجتماعي أن يجري دراسات ويضع تقارير عن الشؤون الدولية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والصحية ، ثم يقدم توصياته بشأنها إلى الجمعية العمومية .

وله أن يؤلف مايشاء من اللجان والهيئات التي يعتقد أنها ضرورية لتحقيق التعاون الاقتصادي والاجتماعي بأوسع معانيه في العالم .

* * *

أما القرارات فتكون بأغلبية أعضاء المجلس الحاضرين المشتركين المقترعين ، ولا يميز عضو على عضو .

[للبحث بقية] وديع فلسطين

الشوق القديم

أقبلتُ نحوك والدجى في الأفق مبسوط الجناح
وبأضلعي للشوق أجـ نحة تصفق من جراح
والكون أغفى مستعيداً حلمه كصريع راح
أسعى اليك كما سعى طير لرزق في الصباح
وكأن بي ظمأ الجريح غداة مشتجر الرماح
فمددت من عطف اليَّ يد المسيح مسلمه

أمسكت بي شلواً هوى للأرض مسلوب العزاء
لم تبق في نفسي الغوا ية للهداية من رجاء
فكأنني الملاح ضلَّ سبيله عند المساء
إذ راحت الأمواج تلطم فلكه من كبرياء
والريح ناصبت الشراع مرير أنواع العداء
فأشاح من مضض بعين بالمدامع مفعمه

حسناء أي حزازة أرثتها في الأضلع
حركت بي غافي الشجو ن ولهفة المتفجع
وبعثت أدواء الصبا ناراً أقضت مضجعي
لله دمعك لم يدع للسقم بي من موضع
أعلمت أي جوى قدحـ ت وأي داء موجع
كبدي تصفق كالذبيح رمته قوس محكمه

تلك الجراح حملتها كرهاً ولم أتكلم
أخشى شماتة حاسد وأخاف عذل اللوَّم
فكشفت عما أضمرت كبدي وما أخفى في
وبلغت ما أعيي الرجا ل بدمعة المستسلم
كم عبرة من شادن نفذت كحتف مبرم
لولا المدامع لم يلن قلب على متظلمه

(دمشق) عدنان مردم بك

نظرات في النفس والحياة

– ١٦ –

نظرات جوتا أو (جيتا)

جوهان وُلْفجانج فون جوتا أو جويتى الأديب الشاعر العالم الألماني — ربما كان بين الناس من بلغوا منزلته ، أو بَذُّوه في النثر أو الشعر أو العلوم المختلفة أو النقد. ولكن لم يكن بينهم من بلغ شأواً كبيراً في كل هذه العلوم والآداب كشأوه الكبير ، ومنزلته العظيمة . ومن أجل ذلك كان عجيبة زمانه ، وليس عظم منزلته في فنٍّ أو علم أو أدب واحد ، ولكن عظم منزلته في تبريزه فيها كلها . وقد كان شعاره تكميل النفس بالثقافة من كل مصدر وباب . وله في العلوم كشوف لم تكن معروفة من قبله ، ولو أنه أخطأ في تخطئة نيوتن العالم الانجليزي . وكانت له رسائل في النقد في الفنون المختلفة والآداب ، وقصصه التمثيلية بعثت فن التمثيل في المانيا ، كما أن قصصه غير التمثيلية مهدت السبيل لفن القصص . ومن الغريب أنه اشتهر بيننا بأقل مؤلفاته منزلة عند النقاد ، وأعني قصة أحزان ورِتَر التي ترجمت الى العربية ، وكان قد ألفها في شبابه في العهد الذي أسماه عهد العاصفة والشدة ، وله محادثاته لأكرمان ، ومراسلاته لشيلر الشاعر ، وترجمة حياته التي سماها (الحقيقة والخيال) . ولكن القصة الشعرية التي اشتهر بها في المانيا وبين الأدباء والمفكرين هي قصة (فوست) . والجزء الأول أسهل من الثاني . ولم يتم الجزء الثاني إلاّ بعد أن بلغ الشيخوخة ، وأودعه فكره وفلسفته في قالب شعري خيالي . وقد كان جوتا يعيب على شعراء الرمزية جعل الشعر أوهاماً وأضغاث أحلام لا حقيقة تحتها . ومع ذلك فقد كان يلجأ الى الرمزية للتعبير عن الحقائق التي كما قال لا تُصوَّر إلاّ بها ، ولم يكن يعيب الرمزية فحسب ، بل كان يعيب المذهب الخيالي (الرومانتيكي) . وقد لفته صديقه شيلر الى ما في شعره من هذا المذهب . ولا غرابة فإن من كانت نهمة بحثه وفكره وخياله لا تشبع ،

ربما لجأ الى هذا المذهب . ولعلّ إمِرْسُون الأديب الشاعر الأمريكي قد كان يعني ذلك في قوله إن جوتا وصل في بحث ما يمكن عرفانه الى حدود المجهول ، ثم خطا خطوة وراء تلك الحدود وعاد سليماً !!!. وهذه مبالغة طريفة . ولكن من يحاول أن تكون له ثقافة متنوعة كثقافة جوتا لا بدّ أن تفدَحهُ وتبهظَهُ ، وله كلمة يعترف فيها أنه ركب الشطط في طلب هذه الثقافة . وإنما يهمنا في هذه المقالات نظراته في النفس الإنسانية ، وهذه النظرات تعطيك في القراءة الثانية أكثر مما تعطيك في الأولى ، وقد اخترت بعضها لأظهر أنه لم يكن أقل بصيرة ممن كتبوا في صفات النفوس من أمثال مونتاني ، وباكون ولاروشفوكولد ، ولابروبير . ولا يعجبني مسلك النقاد الذين يريدون الحط من قدر غيره ظنّاً أن ذلك يرفع قدره ، ولا مسلك المغالين في إعظامه،حتى يكاد الإعظام يبلغ مرتبة التقديس والتنزيه . كما لا يعجبني مسلك الذين يحطون من قدره لأن له مواقف غرامية كثيرة ،أو لأنه لم يكتب قصائد ليشعل الحقد والبغض في نفوس الألمان ، وهم يحاربون الفرنسيين لطردهم من المانيا . ومن الغريب أنه جمع بين سهولة الأدب الكلاسيكي القديم والطريقة الفلسفية أو الخيالية الألمانية المعقدة . وقد اعترف بنزعة المفكرين الألمان الى هذا التعقيد ، فكأن مؤلفاته بناء جمع بين الطريقة الأغريقية التي كانت تنحو نحو السهولة ، وبين طريقة البناء القوطي التي تنحو الى غير ذلك .

وقد درج بعض الكتّاب على انتقاص لاروشفوكولد،ومدح جوتا،بدعوى أن الأول يكثر من اتهام النفس الانسانية بالأثرة ، كأن جوتا لا يفعل مثل فعله ، وسيتضح أنه يفعل ذلك ، ولا بدّ لباحث النفس أن يفعل . وهذه بعض نظراته مع التعقيب عليها : —

(١) في النفس قاعدة سيكولوجية ، وهي إنها تحاول ان تحوّل موضع ضعفها ونقصها الى مبدأ عام ممدوح . ومن أمثال ذلك : ان بعض الناس يحسبون التأنّي الذي سببه الخوف الكامن قوة لا يغلبها غالب ، ولا يقهرها قاهر ، مع ان إحجامهم قد لا يكون تبَصُّراً وحزماً . وكذلك نرى الضعفاء الذين يعتنقون الآراء الثورية يحسبون أنهم يكونون أسعد حالاً باعتناقها ، ويكون الناس كذلك في أرغد عيش وحال،ولا يفطنون الى أن ضعفهم يمنعهم من حكم أنفسهم ومن حكم الناس — وفي هذه النظرة أكثر من ذلك ،

فكما ان القاعدة ان النفس تُـزَيِّن موضع ضعفها ، فهي أيضاً تُـقَـبِّـح وتُـصَغِّـر ما ليس فيها من الصفات التي تستطيع التخلق بها . فإن من لا يساعده طبعه على التخلق بآداب السلوك ، يرى أن آداب السلوك ضعف، ومذلة، ونقص. وتقبيح ما ليس في نفسه من الصفات الحميدة أو المقبولة لا يمنعه إذا كان له أرب من مدح ما لا يتخلق به من صفات الحمد في بعض الأحايين كي يحسب الناس إنه انما مدحها لأنها من صفاته ، إذ أن النفس لها وسائل مختلفة متناقضة ، تحاول بها كسب المدح والإعظام.

(٢) مهما عاش الانسان في عزلة عن الناس منفصلاً عنهم بأفكاره واحساساته وأعماله، فإنه لا بد أن يكون إما مديناً واما دائناً لغيره في تلك الأمور كلهـا أو بعضها . ولـكن القاعدة هي ان الناس اذا قابلوا انساناً مديناً لهم بفضل، تذكروا ما هو مدين لهم به ، وكانوا أسرع الى التفكير فيما دانوه به من الفضل . أما اذا قابلوا انساناً هم مدينون له فإنهم قلما يذكرون فضله عليهم ، أو اذا ذكروه أسرعوا الى تجاهله ، ويضايقهم ما يلح في تذكيرهم به .

(٣) ان صفات النفوس تظهر في أعمالها ومعاملاتها . ومن أجل ذلك يخطىء من يظن أنه يستطيع أن يعرف صفات نفسه بالفكر وحده ، وبالتأمل في نفسه من غير ان ينظر الى صفاتها في أعمالها . والواقع أن النفس تحاول أن تفصل عمداً بين الأمرين ، وهذا الفصل قاعدة سيكولوجيـة فيها ، لأنها تعرف ان العمل قد يغريها بالتخلق بصفات ذميمة ما كان يتخلق بها المرء لولا اضطراره الى العمل والمعاملات. فكثيراً ما يتجاهل المرء عمداً صفات نفسه التي يظهرها اضطراره الى العمل والمعاملات ويكتفي بالحكم بصفات نفسه غير المضطرة وهي صفات أرق وأطهر ، وقد شبه جوتا نوعي الصفات بالسَّدَى واللُّحْمَة في النسيج أو بالزفير والشهيق في تنفُّس الانسان الحي . وقال إنه لا يستطاع معرفة النسيج من السَّدَى فحسب ، أو من اللُّحْمَة وحدها ، بل من الاثنين معاً . ومن أجل ذلك يغيظ المرء ان تذكره بصفاته التي تظهرها أعماله ومعاملاته . لأن هـذا الفصل بين نوعي الصفات يساعد المرء على التخلق بما يشاء من صفات السوء وهو مطمئن راضٍ عن نفسه .

(٤) لو كان انحياز الانسان للباطل سببه خطأ الفكر من غير ان يكون الباطل متصلاً بميول نفسه ونزعاتها وعواطفها وأخلاقها ، سهل تصحيح الباطل وتلافيه ، ولـكن اتصاله

بها يجعل تصحيحه وتلافيه أمراً شاقًّا أو مستحيلاً . ومن أجل ذلك اذا استعصى على الانسان تصحيح خطأ أو باطل في نفس انسان آخر خدع نفسه ، وأوهمها ان ذلك الخطأ وان ذلك الباطل من ضلال فكر صاحبه ومن أغلاطه العقلية غير المتصلة باحساساته ونزعاته وانما يغالط نفسه هذه المغالطة كي يجعلها تأمل إزالة ذلك الباطل . اذا كان لها خير في إزالته . إذ أنه يدرك بالفطرة أن مكافحة الخطأ الفكري الخالص من شوائب النفس أقل مشقة وأيسر مؤونة وكلفة . وهذا يعلل أمل بعض الناس في التفاهم مع من لا يرجى التفاهم معهم واقناعهم بما لا يمكن اقناعهم به . ولا سيما أن الآمل في التفاهم اذا ازداد صبر توقعه حدوث التفاهم كأنه قد حدث كما هو شأن الأمل في أي أمر آخر . فاذا استجدت أسباب تغير من نزعات من لا يريد التفاهم ومن ميوله النفسية حتى يرى في التفاهم نفعاً له لبس الزَّهوَ مجادله ونسب هذا التغير الى قدرته على الاقناع بالفكر ولباقته وكياسته فيه .

(٥) ان الفكر قد يصحبه شعور شديد وهذا الشعور له أثر عظيم في الحياة وهو نافع اذا استطاع المرء أن يمنع نفسه وهو يفكر من الانسياق في تيار سيله لأنه اذا لم يستطع حكم شعوره وضبطه لم يستطع أن يصحح رأيه وان يعالج ميل نفسه اذا حادت عن الصواب وان يعرف حدود فكره . ولكن من العجيب أن المرء كلما انساق وجرفه تيار سيل الاحساس في مجادلاته ومناظراته قال الناس أنه صادق السريرة ، اذ لولا اقتناعه بصواب رأيه ما انساق مع الشعور الشديد في التعبير عنه وفي مناظراته. ثم يتخذون حكمهم بصدق سريرته حكماً بصواب رأيه والشعور المنفعل في انسان قد يستنبط مثله في غيره بالقدوة والايحاء وقد أوضح شارلز لامب في رسالة الأغلاط الشائعة بطلان هذا الرأي وهذا الحكم لأن الشعور الشديد قد يكون ناشئاً من النزعات النفسية التي قد تتخذ الفكر مطية لتبلغ به غايتها وان كانت غاية باطلة ، أو لتتخذه ستاراً يحجب عن صاحبها وعن الناس كنهها وحقيقتها المستترة وراء الفكر . وصدق السريرة إذا فرضنا وجوده في صاحب الشعور الشديد لا يمنع من الانحياز للباطل كما قال جوتا : أستطيع أن أعد أن أكون صادق السريرة ولكني لا أستطيع أن أعد بأن لا أنحاز مع صدق السريرة الى الباطل لأن صادق السريرة يجهل انحياز نفسه اليه بحكم صدق سريرته .

(٦) إن معرفة الصواب لا تمنع من مواقعة الأخطاء التي يصححها ذلك الصواب اذا كانت أخطاء متصلة بميول النفس فتكون حبيبة الى النفس، وتأبى العواطف على المرء إلاَّ أن يعود اليها. وكذلك الخطأ في الأمور النظرية أو العملية التي ليست متصلة اتصالاً وثيقاً بعواطفنا تعود اليه بعد معرفة الصواب اذا لم يفسر وجه الخطأ وسببه ومكانه وحدوده تفسيراً مقنعاً يؤدي الى رسوخ الصواب، فان من يكتفي بشرح الصواب من غير نظر الى الأخطاء التي يقع فيها الناس ومن غير تفسيرها قد يبذل جهداً عظيماً ويتكلف مشقة هائلة، ولكن قد يكون عمله كله عملاً ضائعاً لا أثر له. وقد يتعجب لضياع عمله وجهده ويدهش لأن تعبه في شرح الصواب لم يثمر وذلك لأنه لا يفطن الى أن شرح الصواب لا يكفي اذا لم يشرح الخطأ أو الأخطاء اذا تعددت. وهذه قاعدة هامة في التعليم اذا أهملها المعلم ضاع عمله وحبط كل الحبوط. ومن أجل ذلك قد يظن المناظر ظنًّا باطلاً أنه فند رأي مجادله أو مناظره اذا شرح رأي نفسه ولم يلتفت الى رأي منافسه في المناظرة ولم يبين أوجه الخطأ فيه. وقبل أن يفعل ذلك ينبغي لكل مناظر أن يذكر رأي خصمه بدقة حتى يثق من أنه يعرفه تمام العرفان فلا يجادل فيما هو خارج عن الموضوع وهو يحسب انه موضوع رأي مناظره. وجوبًا يحتم هذه الطريقة لأن الخروج عن الموضوع أمر كثير الحدوث.

(٧) ان الأفكار الصحيحة والمبادىء العامة المقبولة اذا اقترنت بغرور الانسان سببت اضراراً مخيفة فهو يحسب انه يعمل لهذه الأفكار والمبادىء، ولكنه في الواقع يعمل حسب ما يوحي اليه غروره، فتكون عواقب أفكاره وأعماله وخيمة. ولا شيء أضيع من فكرة ناضجة في ذهن غير ناضج فانها تكون مهما عظمت وجلَّت عاقراً أو تنتج غير المنظور منها. وكل فكرة عظيمة عند بدء ظهورها تكون لها سيطرة طاغية. ومن أجل ذلك قد تنقلب مزاياها كلها أو بعضها الى نقائص وهذا بسبب اندفاع النفس في العمل لها من غير فطنة الى الأفكار والحقائق الأخرى التي تحدها.

(٨) اذا أكثر انسان من مجالسة غيره وأطال الحديث ولم يتملقه تصريحاً أو تعريضاً بأية وسيلة وعلى أي شكل كان التملق، حتى ولو كان مجاملة، ولم يشعره السرور في نفسه بنفسه بأية واسطة فان جليسه لا يسر بمجالسته، وقد يظن به الظنون ويشعر بانحراف عنه.

ومن أجل ذلك كانت المجاملة بالتملق من أهم أركان المجالسة والمعاشرة،ولا بدأن تكون من الطرفين لا من ناحية واحدة من ناحيتها . ومن حاول أن يستغني عنها في معاشرة الناس حتى الذين يذمون التملق وجد نفسه مكروهاً ومجالسه كريهة بغيضة .

(٩) ان الحياء والشجاعة صفتان لا يمكن أن يحاكيهما انسان اذا خلا منهما، ولكل منهما مظهر واحد لا كبعض الصفات التي تتخذ مظاهر وألواناً متعددة . ومع ذلك فان بعض الناس مخدوع بهما فيحسب الحياء جبناً وذلة ، ويعد الصفاقة والقحة شجاعة ولولا كثرة المخدوعين في هذه الصفات مازهد كثيرون في الحياء ولا تنافسوا في الصفاقة والقحة ، فان التقاتل على الحياة يدعو الانسان الى الفرار مما يعد ذلة كي لا يستذله الناس . ويرغبه فيما يخال شجاعة كي يخيف به الناس . ولا شيء يغيظ الناس مثل وجدانهم الشجاعة عند ذوي الحياء اذا اعتدوا عليهم اعتماداً على حلم حيائهم ، وعلى عدم الحياء ذلة،فلا يجدون ذلة ولا استكانة ، بل أن بعض ذوي الحياء اذا لم يجد محيصاً عن ذلك يبذ ذوي السلاطة في سلاطة لسانهم . وقد فطن شعراء العرب الى اقتران الحياء والشجاعة وعدوا ذلك الاقتران مثلاً أعلى كما قال الفرزدق :

يُغضي حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلَّم الاَّ حين يبتسم

وقالت ليلى الأخيلية فيمن حياؤه يخال سقماً وهو في الحرب زعيم :

ومخرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما

حتى اذا رُفعَ اللواء رأيته تحت اللواء على الجيوش زعيما

وفي رواية (على الخميس) وهو الجيش . ومثل هذا أو أكثر مبالغة قول متمم ابن نويرة في رثاء أخيه وكان المرثيُّ سيد قبيلته .

فتىً كان أحيَا من فتاة حييَّةٍ وأشجع من ليث اذا ما تَدرَّعا

ومثله قول الآخر

اذا قيلت العوراء أغضى كأنه ذليلٌ بلا ذلٍّ ولو شاء لانتقم

(١٠) الحقيقة هي أن أغلاط المرء وأخطاءه وعيوبه هي التي تحببه الى الناس ما داموا

واثقين انها لا تضرهم لأنه بها ينخفض الى مستواهم ولا يرتفع عنه . أما لو كان معصوماً مُنَزَّهاً من العيوب أنكره الناس أو حسدوه أو كرهوه . ومن أجل ذلك كثيراً ما يلبسون الفضل ثوب العيب كي يكون حجة لكرهه ، أو كثيراً ما يضحون بأناس كي يثبتوا أنهم أنفسهم على غير الصفات البغيضة التي يدعون كرههم من أجلها . وهذا الإسراع الى إثبات خلوهم منها يريب، إذ لولا وجودها فيهم ما تسرعوا بخلعها على غيرهم وكرههم بسببها، مع ان القاعدة السيكولوجية هي ان النفس ترتاح إذا عرفت اخطاء المرء أو عيوبه، حتى أنها من ارتياحها واطمئنانها تعطف عليه في سريرتها، وتود لو شكرته لأنه بعث إليها الاطمئنان بنفسها على عيوبها التي تعرفها منها .

(١١) التملق دليل على ان المتملق لا يشعر بمحبة أو مودة لمن يتملقه ، فهو بالتملق يستعيض عنهما بدلاً كي يبلغ ما يريد ، ومع ذلك فإن الناس تعد كلامه دليلاً على المودة والمحبة والانصاف لأنهم لا يرون فيما يمدحهم به باطلاً ، بل مدحه لهم حقيقة وانصاف حتى ولو كانوا بجانب من عقولهم يشكون في بعض قوله، ويكون أكبر همهم اذا تملقهم انسان ليس البحث في صدق قوله، بل التأكد من انه لا يريد السخر بهم بذلك التملق . ولاسيما اذا غالى في عبارات التملق فإن المغالاة في التملق تكون أشبه بالسخر .

(١٢) ينبغي أن لا نتعجب إذا تحولت الصفات الحميدة بالتدرج الى شر مكروه، فإن معاني الصفات متصلة متدرجة في النوع والمقدار ، فقد تتحول الغبطة الى حسد، والحسد الى بغض، والبغض الى حب الشر، وحب الشر الى ارتكاب الآثام والجرائم. وقد يبدأ هذا التدرج بما هو أمر بريء ويصل الى ما هو شر مكروه. وذلك اذا استسلم المرء الى النزعات التي تحدث هذا التحول . ومن أجل ان صفات النفوس متدرجة قد لا يفطن المرء إلا بعد سنين طوال انه قد استرسل من الصراحة في القول الى الثقة بالنفس، ومن عظم الثقة بالنفس الى الهوج في العمل ، فينزلق انزلاقاً بطيئاً لا يشعر به من الأمر البريء من العيوب الى ما يجمع الأضرار الكثيرة .

(١٣) في طبيعة الانسان عناد وتناقض فإنه يأبى أن يُرْغَم على ما فيه خيره وفائدته، ويَرْضى مختاراً أن يتقيد بما فيه ضرره. وهو اذا وجد نفسه راضياً مختاراً للتقيد

أكسبته مظاهر حرية الرضا والاختيار اطمئناناً وتعاظماً بافتاته عن قيده وضرره . أما في حالة الارغام على ما فيه خيره، فإن غضاضة الارغام تحز في نفسه وتؤلمه فتلفته عما فيه من الخير وتزهده فيه، وهذان العناد والتناقض ظاهران في حياة الأطفال. وقد يعجب منهما الرجال ولو فحصوا عنهما في حياتهم لوجدوهما في نفوسهم أيضاً .

(١٤) أنظر في نفوس الناس ثم أنظر في نفسي فلا أجد خطأ من أخطائهم كان من المحال أن ارتكبه. وادعاء العصمة والترفع عن الناس أمرٌ ميسورٌ لا يكلف صاحب الادعاء مشقة. ولكن هذا الاعتراف من جوتا يتطلب شجاعة وعظمة نفسية لا تتفق لكل انسان وقد لام بعض الأدباء جوتا على اعترافه في كتابه الذي يترجم فيه حياته والمسمى بين الحقيقة والخيال إذ قال انه كان في عهد صغره يحلم يقظاناً في أحلام العظمة ان أمه حملت به سفاحاً من أمير جليل الشأن، وان أباه اذاً ليس الرجل الذي ينتسب اليه . وقد زكى هذه الشجاعة الكاتب الانجليزي سمرست موام في كتاب الخلاصة . على انه عاد بعد اعترافه الأول فقال : وكل ما حاولت عمله أو عملته وكان بسبب نزعات باطلة قد حاولت أيضاً ان أفهمه، وأن أتعلم منه، وان أدرس الدواعي اليه وأن أزيلها اذا استطعت .

(١٥) اذا تأمل الانسان جثمانه ظاهراً وباطناً في الأوقات المختلفة لا يعدم ان يجد وعكة أو نقصاً أو مرضاً أو ضعفاً، وكذلك اذا تأمل نفسه في حالاتها المختلفة . ومن أجل ذلك تدفع النفس نفسها دفعاً عن التأمل في صفاتها التي تكرهها أو تلبسها لدى نفسها لباس صفات أخرى، أو تتخذ لها حججاً وأعذاراً تزكيها . فقلما تفكر النفس في صفاتها بصدق وجد وإمعان وإنعام .

(١٦) قيل ان العمل ناشيء من الارادة، وقيل انه ناشيء من العرفان، ولكن الانسان لا يستطيع أن يعمل اذا أراد إلا اذا كان يعرف ما يريد عمله. ومن أجل ذلك لا أرى في الحياة أمراً مخيفاً مثل أمر الرجل الذي يعمل وهو لا يعرف ما يعمل .

(١٧) اذا أرضينا غيرنا عزّانا ذلك عن عدم إرضائنا لأنفسنا عند محاسبتها في القول والفكر والعمل فتسر نفوسنا وتنتعش وتنشط — ويكون نشاطها اذا أرضينا غيرنا بالحق

ولكن من الأسف ان هذا قد يصدق أيضاً اذا أرضينا غيرنا بغير الحق وبعمل الباطل لأن ما نلاقيه من العطف والحث يغريها به .

(١٨) في هذه الدنيا كثيراً ما يقيس الناس الرجل بالمقياس الذي يقيس به نفسه،على شرط أن يحدد قيمته ويلتزمها،لأنه يسهل على الناس بالقياس ان يعاشروا رجلاً اعترفوا له بقيمة معينةوان كانوا يكرهون عاداته . ويشق عليهم ان يعاشروا رجلاً لم يحدد قيمته ومنزلته،وجهلهم بها يضايقهم ويبعثهم الى الشك فتساورهم به الظنون .

(١٩) ليس الغُنْم في التفكير في عيوب الأصدقاء،ونقائص من نعرف،لأن التفكير فيها يؤدي الى القناعة بحالتنا النفسية على ما بها من نقص ، ويؤدي بنا الى الغرور . أما التأمل في فضل الخصوم فهو الغُنم لأنه يؤدي بنا الى محاولة التشبه بفضلهم وبفضائلهم .

(٢٠) لابدَّ من أن تكتسب النفس من ضبط النفس بقدر ما تنال من الحرية لأن كل أمر يحرر نفس المرء من غير أن يعطيها قدرة على حُكْم نفسها يضرها ويدعوها إما الى الافراط وإما الى التفريط .

(٢١) أكثر شرور الحياة ناشئة إما من عجزنا عن أن نضع أنفسنا موضع غيرنا ، وإما من عجزنا أن نضع غيرنا موضع نفوسنا. والوضع الأول لو أمكن يزيل الحقد والحسد وسوء الظن، والثاني يزيل الغرور والأثرة والكبر وقلة مبالاة ما يعانيه الناس .

(٢٢) ان التجاذب ليست له قاعدة واحدة فبعض الناس يحب من يشابهه،وبعضهم يميل الى من يخالفه.ومن أجل ذلك نرى تجاذب الأشباه — وربما كان هذا أكثر — كما نرى تجاذب الاضداد.وقد يوجد تجاذب الأضداد بالرغم من تنافر وتخالف وتخاصم .

(٢٣) كثيراً ما يظن المرء اذا استطاع أن يعمل عملاً مرة واحدة أنه يستطيع أن يعمله مراراً فتظهر خيبته وعجزه إذا حاول ذلك الا اذا فقهه وتمرَّس به،ولم تتغير نفسه ومقدرته. وأعجب من ذلك أن الانسان قد يظن أنه يستطيع أن يعمل ما لم يعمله قط اذا رأى غيره يعمله ، مع أنه لم يجرب قدرته ، ولم يكتسب مراناً عليه .

(٢٤) ليس بين الناس من لا يحسد صاحب المواهب العقلية الا الاب ، فان الاب لا يحسد ابنه لأنه كان سبب حياته. وربما أقنع نفسه أن ابنه استمدَّ مواهبه منه . وقد علل

شوبنهور هذا الحسد بأن المرء قد يأمل أن يوفق وان تساعده الحظوظ فيكسب مثل بعض مال ذوي المال. أما ملكات العقل واستعداده فأمور طبيعية. ومن لم تكن عنده لا يطمع في حيازتها . ومن أجل ذلك كان الفكر مع الفقر محسوداً أكثر من الغباوة مع المال . هذا عدا أن صاحب المال يطمع الناس في نيل معونته ويصول بما يهيئه له ماله من النفوذ فيختفي حسد ذوي الحسد، بينما يكون صاحب الفكر معرضاً لسوء الظن بفكره ونتائجه وليس عنده مطمع لذوي الحسد ولا عنده سلطان المال.

(٢٥) بالرغم من أن شدة تعلق المرء بآماله تجعله يتوقعها حتى يصير في توقعه كأنها قد حدثت، فان حدوثها بالرغم من ذلك يكون مصحوباً بشيء ولو قليل من الدهشة والمباغتة وذلك من الشك الذي يلازم هذا التوقع مهما كان موثوقاً به. ولعل أثر رد الفعل في الاحساس يظهر ايضاً هذا الشك الذي يسبب الدهشة ، فان كل احساس شديد لا بد أن يكون له رد فعل كي تستقر الأمور ، اذ انه يعرف انه كان يغالط نفسه في انزال أمله منزلة الحقائق .

(٢٦) إن مجالسة النساء تكسب الرجال آداب السلوك لأنهم يتخلقون بما يناسب مجالسهن فيكتسبون رقة وحياء وآداباً، ويترفعون عن سعار المهاترة ورفث القول، ولكن في البيئات التي يكون الرجال فيها قدوة للنساء، ولا يتورعون فيها من الاسترسال على طباع الخشونة والمجون اذا جالسوا النساء ، تتخلق النساء بهذه الطباع وأشباهها من الطباع التي سماها فلوبير «كانيبري » أي الطباع الكلبية بدل ان يكسبن الرجال من آدابهن وحيائهن .

(٢٧) غفلة بعض الناس عن الحق قد تكون كالنوم الذي يجدد نشاطهم . فاذا استيقظوا ونُبِّهوا الى خطأ شعروا بنشاط مجدد في طلب الحق والصواب. ولكن غيرهم اذا نُبِّهوا الى خطأ تتخاذل قوى أنفسهم ويظهرون الاستخذاء والاسترخاء ، والطائفة الأولى هي طائفة الفائزين.

(٢٨) قلما يهم المرء انتصار الحق إلاَّ اذا كان انتصاره يُزَكِّي فكره وقوله. أما اذا كان لا يزكي فكره وقوله لم يهتم له ولجأ الى الباطل يتخذ منه حجة ولا يهمه بعد ذلك لو مات الحق لأن عنده ان الحق ما يرى ويقول أو يغالط نفسه وهو يعرف كذب ذلك.

(٢٩) ان الخلق القوي في انسان قد يستنبط الخلق القوي في غيره . وهذه النظرة تذكرنا قول جورج اليوت إن من لا ثقة له بنفسه قد يأنس الى من له ثقة كبيرة بها ، كما يأنس الذي أصابه البرد الى من أصابه الحر كي يفيد حرارة ، والخلق له عدوى وايحاء . ألا ترى ان الجندي يكتسب قدرة على تحمل الآلام وشجاعة برؤية قدرة وشجاعة غيره من الجنود في الحروب . وكذلك عدوى الخلق في الحياة اليومية .

(٣٠) يؤلمني أشد الألم أن أرى الانسان الذي جُعِل تاج الخليقة ورأسها وذروتها كي يُحَرِّر نفسه وغيره من حكم الضرورة القاسية بالفكر والعمل ، يفعل ضد ذلك بسبب الانحياز للباطل المُحَبَّب الى النفس فينغمر في حكم تلك الضرورة القاسية ويغمر غيره في حكمها. ومن أجل ذلك نرى حياة الانسان تتقدم بلا تقدم عصراً بعد عصر وترتقي من غير ارتقاء .

(٣١) اذا سمع الناس انساناً يمدح نفسه قالوا إن مدح النفس له رائحة كريهة. ولكن الظاهر ان أنوفهم لا تشعر بالرائحة الكريهة التي في ذمهم غيرهم وهو مدح معكوس لأنفسهم .

(٣٢) مما يُؤدِّي الى حيرة الانسان أنه إذا طلب أمراً واتخذ له وسيلة يركب الشطط في طلب الوسيلة ويغالي بها حتى يهمل الغاية وينساها في طلب الوسيلة فيحيد عما يريد ، لأن الوسيلة متى صارت غاية في نفسها قد يتخذ لها هي أيضاً وسائل مستقلة عن غايتها الأولى وقد تمنعه من بلوغ تلك الغاية الأولى وكذلك من يضع الغاية موضع الوسيلة .

(٣٣) إننا أسرع الى الاعتراف بأخطاء عملنا وأبطأ في الاعتراف بأخطاء فكرنا لأن أخطاء العمل لها عواقب ظاهرة بارزة من الصعب إنكارها، أما اخطاء الفكر فقد تخفى أو تستطاع المغالطة فيها. ومع ذلك فمن النـاس من يماري في اخطاء عمله، وهي ماثلة أمامه ، إذ ينسب تلك الاخطاء الى غيره ، أو الى سبب آخر غير سببها .

(٣٤) إن الانسان مولع بأن يربط كل شيء بحياته وحاجاته . فصاحب الطاحون يشعر أن القمح إنما نبت ونما كي يعطي له عملاً بطحنه ، وكي تظل طاحونه دائرة. وقس على ذلك كل امور الحياة .

(٣٥) ان الانسان مشغوف بمعرفة المستقبل.وهذا الشغف سببه انه يميل الى تصديق حدوث ما يود ان يحدث فيه . وهذه صفة يعرفها الدجالون . ويبنون عليها أقوالهم عند ادعائهم كشف المستقبل .

(٣٦) في جميع العصور كانت الآحاد من الناس هي التي تعمل على تقدم العرفان . أما الجماعات والحكومات فإنها تتنازعها عوامل ودوافع مختلفة قد تؤدي بها الى تقييد العلم حتى في أثناء نشره (وفي كتاب أسباب تفاوت الناس للاستاذ هالدين فصل ممتع في هذا الموضوع) . وعلى أي حال فالحكومات والجماعات تعنى بجامعي العلم والحُفّاظ وأهل المرونة أكثر من عنايتها بذوي الفكر المستقل .

(٣٧) بعض الناس الذين تعبر حياتهم عن مبدأ أو فكرة قد لا يستطيعون فهم ما تعبر عنه حياتهم فيركبون الشطط،وينزلقون الى الخطأ والغلط .وقد كان نابليون يحتقر الأفكار قائلاً إنها نظريات قليلة الأثر ، مع انه كان يعترف بالعمل ان لم يكن بالقول ان الحياة الفكرية تبعث الحياة ، والفكر يبعث العمل .

(٣٨) عند ما يعمل انسان لا بد له من ان يرى أن نفسه أعظم من حقيقتها كي يستطيع أداء عمله . وهذا أمرٌ مغتفر بسبب ضرورة العمل إلاّ اذا كان تنطّسه في الثقة بنفسه يضر غيره لهو يؤلمه أو يقلقه .

(٣٩) اذا عمل الانسان لخير غيره ونفعه فإنما يعمل كي يشاركه من يعمل لخيره في السرور بذلك العمل،ومن لا يستطيع السرور بالعمل لغيره يُضَرّ ويُؤذَى بذلك العمل. والظاهر ان في هذا القول ما يخالف قول كانت (ان المرء لا يستطيع ان يحكم أن الواجب هو دافعه الى العمل إلاّ اذا كان العمل يخالف نزعاته السارة وميوله المبتهجة) . ولو أن قول كانت حكمٌ بصعوبة معرفة الدافع اذا وافق العمل نزعاته السارة .

(للبحث بقية) ع . ش

اضحكي يا نفسي

هذه الأجيال آمالُ هذه الآمالُ أحلامُ
سهروا للمجد واحتالوا وسعى المجد لمن ناموا
كلما للزهر ميالُ غير أنَّ الزهر لا يكفي
فإذا ما عدتِ بالشوكِ فاضحكي يا نفسُ لا تبكي !

***

ها هي الأقداحُ ملآنه ها هي الألحانُ والأزهارْ
حانة النسيان مزدانه للذي يرغب أو يختار
فتعالي ندخل الحانهْ خمرةُ النسيان قد تشفي
إنما هذا الصدَى منكِ فاضحكي يا نفسُ لا تبكي

***

طال تهيامكِ يا نفسي وبدوري طالَ تهيامي..
كم ترى نحنا على رَمس فيه تثوي بعضُ أحلامي
آه لو أهربُ من أمسي آه لو أقوى على ضعفي
إن فعلي صادر عنكِ فاضحكي يا نفس لا تبكي

***

ها هو الإيمانُ في قلبي ساخرٌ بالكفرِ في عقلي..
أملي .. في رحمةِ الربِّ ليس في الإنصاف والعدْل!
فاهدأي يا نفسُ في جنبي واغفري واستغفري واصفي
هل تخلصتِ من الشكّ ؟ ..فاضحكي يا نفسُ لا تبكي!

القاهرة يوسف جبرا

النقد والتعقيب

في الصحف والمجلات

معظم ما يطالعنا من نقدات أو تعقيبات في صحفنا ومجلاتنا، لا أثر للدراسة فيه، ولا جدوى للفكر من ورائه، هي أشبه ما تكون بتوقيعات المجاملة، أو الوخزات المؤذية، أو النفثات الكريهة المنفرة. وندر أن نجد منها الذكي البارع، أو الخلاق النافع

وهذه مأساة تثير الأسى، وتدعو الى الاهتمام اهتماماً كبيراً بهذه الناحية، وتوجيه أصحاب الصحف والمجلات الى احسان اختيار الكتاب والنقاد، خدمةً للفكر، ومعاونةً للتأليف.

وعلى عكس حالنا هذا نكاد نلمس الاهتمام بالنقد في كثير من المجلات والصحف الاوربية، حيث نجد نقدات وتعليقات مركزة حصيفة مدبجة بأقلام ضليعة، تشرح للقارىء النقاط المهمة في التآليف، بل تسجل بعض فقرات منها، وتشوقه الى اقتنائها، وهذه هي الخدمة الحقة التي يؤديها كتاب المجلات العصريون للتآليف والمؤلفين

وكان هذا ديدن كبار الكتاب في أجيال غير بعيدة، فقد كان الكاتب الانجليزي الجهير « ماكولي » يدرك مسؤوليته الأدبية قبل أن يخط حرفاً، كان ينبث بذهنه في أعماق الكتاب، ويتفهم روح كاتبه، ثم يأخذ في الكتابة عنه، وكان يعد الحكم على كتاب دون قراءة فياضة متعمقة، ضرباً من الوقاحة المتغطرسة.

وكذلك كان الناقد العظيم، سانت بيف، يخصص الساعات الطويلة لكتابة مقاله الذي كان يظهر يوم الاثنين من كل أسبوع، ويتناول فيه كتاباً واحداً، وقد تعود هذا الناقد الفرنسي المثالي أن يخصص خمسة أيام لكتابة المقال، ويوماً لمراجعته، وقد كانت لكتاباته خطرها ونفوذها، وكان هو ذاته قوة يعمل لها كل حساب.

ونحن، لا نؤمل، في الوقت الحاضر، الوصول الى مستوى مثل هذين الرجلين، ولكننا، نتطلع الى تعرف المسؤولية الفكرية الخطيرة التي تقع على عاتق الكاتب في مصر أو في غير مصر من البلاد الشرقية الأخرى، وما تتطلبه هذه المسؤولية من أمانة قلمية، وضمير أدبي نزيه في الحكم على نفثات الأقلام أو على قيم الرجال.

وتقتضي هذه الأمانة وذاك الضمير، فهم التأليف واستيعابه، والتجاوب مع كاتبه، ثم أعطاء صورة صحيحة للقارىء عنه، وللناقد أو المعقب، بعد هـذا كل الحرية في نقده كما يشاء في أسلوب عفٍّ، مجردٍ عن اللمز أو الوخز.

فليس ريبٌ، أن التعقيب القائم على القراءة الطائرة، إخلال بالأمانة القلمية، والتعقيب العقربي اللاذع تخلٍّ عن العفة القلمية، والتعقيب الجزئي المغرض قتل للحقيقة، وأسوأ التعقيبات وأشدها إنما هو التعقيب الغيابي التحكمي الذي يدبجه الكاتب دون قراءة للعمل الأدبي.

وطرز هذه التعقيبات تفيض بها مجلاتنا وصحفنا. وقد كان بودنا أن نورد أمثلة لها، ولكن المقال يطول، وهـذا نقتصر على مثال واحد لهذه التعقيبات العابثة، التي أذهلت كثيراً من المثقفين في مصر. هي كلمة عوراء كتبها أحد شباب المتخرجين منها منذ عامين أو أكثر، يحمل فيها على الأستاذ سلامه موسى ويضع من أدبه وعلمه في عنف وضراوة!

لقد قرأنا هـذه الكلمة، فعجبنا من هذه الجرأة بل من هذا الاندفاع الجنوني، في محاولة انتقاص رجل خدم الفكر والثقافة قرابة أربعين عاماً وأخرج في غضونها أكثر من ثلاثين كتاباً وبينه وبين هذا الشاب برزخ واسع من الثقافة والتجربة والعمر.

وكان عجبنا أعظم من صاحب المجلة الذي يسمح بمثل هذه الإندفاعات، وهو الأديب الجهير الذي يعرف تماماً، آثار الأستاذ سلامة على الفكر المصري، وان خالفه في المزاج الأدبي والاتجاه الثقافي.

وإزاء هذا العدوان لم يجد الكاتب الشاب النابه، الأستاذ وديع فلسطين بدًّا من انصاف الكاتب المفكر الجريء، فدبج مقالاً بمقتطف أبريل ١٩٤٩ عنوانه « سلامه موسى دعامة قوية من دعائم الفكر العربي » وكان مقالاً هادئاً نظيفاً متزناً، مركزاً، ضمنه مميزات الرجل الفكرية والانسانية، وعدَّد فيه تآليفه وأبان فضله على الفكر العربي في مدى خمسة وأربعين عاماً ». وقد قوبل هذا المقال من الخاصة بأجلى مظاهر الثناء والتقدير

وقوبل، مع الأسف، من الشاب المعتدي بالاستخفاف، والثورة العارمة على كاتبه فوصف المقال، بأنه مقال مضحك! وشبه كاتبه بالنملة التي اذا سئلت عن الذبابة: قالت إنها فيل كبير! وهكذا يكون أدب التعقيب، وجنوح المعقبين.

ولكننا مع هذا لا زلنا نطمع في أن يراجع المعقب موقفه، كما راجعه قبلاً من شوقي وعلي طه والحكيم، ونكتفي بأن نقدم له أسماء بعض الكتب ليقرأها ليروىء في حكمه ويصحح موقفه — نذكر منها: نظرية التطور وأصل الانسان — في الحياة

والأدب — التجديد في الأدب الانجليزي الحديث — الشخصية الناجعة — التثقيف الذاتي — كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين — فن الحياة — حرية الفكر وأبطالها — أشهر الخطب، حرية العقل في مصر — ثم نردف هذه القائمة بفقرة رائعة جاءت في كتابه «تربية سلامة موسى» لعلها تعطي معقبنا الشاب المندفع صورة من الرجل الذي تجنى عليه في تسرّع :

«ذات مساء في ١٢ يوليو من عام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت في غرفة مظلمة في سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والقتل ، وكانت تهمتي أني أكتب وأفكر .. وأخذت ذاكرتي تعرض فلم حياتي الماضية ، فذكرت الحرية التي كنت أتمتع بها في عام ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات في « المستقبل » وذكرت العناء الذي لقيته في الدراسة والتأليف ، وعددت نحو عشرين كتاباً ألفتها لأبناء وطني أخلصت فيها النية ، وبذلت المجهود كي أنير وأعلم ، وكي أسمو بالشباب الى مثليات القرن العشرين ، وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية ، ثم تأملت حالي على الأسفلت الخشن ، وكيف أني لم أجمع مالاً ولم أحصل حتى على الكرامة التي يستحقها من يخدم ويخلص في الخدمة . . وأخذت أفكر وأجترّ التفكير .وعقلي يتضوّر من الألم ، الى أن أصبح الصباح .... .. »

هذه صفحة جليلة نورانية مؤثرة من حياة الرجل الذي يتهجم عليه أحد المعقبين الشبان ، وهي تلقي ضوءاً على رهبانية الرجل الفكرية ، وزهده عن المادة ، وتفانيه في توجيه الشباب الى الحضارة العصرية ، ومجاهدة التقاليد البالية ، والقيود الظالمة للفكر الحر ، وان شئت آية أخرى من نفثات هذا الذهن الناضج فاسمع إليه في ص ٣٧ من كتاب التربية سالف الذكر يقول فيها :

« لست أبالي أن أكون ثريًّا ، لا بل لست أبالي أيضاً أن تكون لي زوجة وأطفال ، وانما قصدي ، أن أفهم ، أن أعرف كل شيء وآكل المعرفة أكلاً !

«ثم عدت فقلت ولكن لماذا ؟ وأجبت لأكافح — أكافح هذا الشرق المتعفن الذي تنغل فيه ديدان التقاليد ، وأكافح هذا الهوان الذي يعيش فيه أبناء وطني . هوان الجهل وهوان الفقر ، أجل اني عدوّ للانجليز ، وعدوّ لآلاف من أبناء وطني ، لهؤلاء الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية ، وحرية المرأة ، ويؤمنون بالغيبيات» .

هذه هي رسالة الرجل في كلمات ، وتلخص في الدعوة الى ينابيع المعرفة ، ومكافحة الجهل والفقر ، والوقوف في وجه السلفيين الذين يعارضون الحضارة العصرية ، وحرية المرأة ويخلدون الى الخرافات الغيبية ، وما أنبلها رسالة ، وما أجدر صاحبها بكل تقدير واجلال .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

النظام الاقطاعي

في عهد الرعامسة

في كتابي « لمحات من الدراسات المصرية القديمة » [1] الذي تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق المعظم بأن شرّفه بحسن القبول « كما أبلغ ذلك حضرة صاحب الدولة ابراهيم باشا عبد الهادي رئيس الديوان الملكي إذ ذاك الى وزارة المعارف » . ذكرت أن ثمة نظاماً اقطاعيّاً كان يسود في عهد الملك ايخ — ان — آتون حتى السنة السادسة من حكمه ، وقلت إن هذا النظام يمكن تسميته بإقطاعيات المعابد لأنه لا يقوم على نفوذ أمراء المقاطعات المدنيين، وإنما يقوم على نفوذ أمراء المعابد الدينيين . إلاّ أن الملك الشاب ايخ — ان — آتون ، لم يستسغ هذا النظام فسرعان ما ثار ثورته المعروفة في السنة السادسة من حكمه في سبيل الخلاص من أولئك الكهنة الأمراء ومن نفوذهم ، بل ومن معبوداتهم التي كانوا يتخذونها ذريعة لتقوية هذا النفوذ فألغى هذا النظام بجبروته وقوّة بطشه [2] .

وقلت كذلك في البحث المشار إليه إن هذه الظاهرة لم تكن قاصرة على عهد الملك ايخ — ان — آتون بل نجد لها نظيراً في كثير من العهود الفرعونية الأخرى حيث أتيح للملوك الأقوياء الذين كانوا على بينة من نوايا هؤلاء الكهنة أن يقضوا على هذه الظاهرة بتركيز القوة كلها في يدهم والتنكيل بكل من تحدثه نفسه باستغلال تسامح الملوك

* * *

وفي هذا البحث الجديد وضحت بعض الظروف التي استغلّ فيها الكهنة على عهد

(١) الكتاب الذي جعله (المقتطف) هديته السنوية الى مشتركيه الكرام في العام الماضي .

(٢) المقتطف عدد أبريل ١٩٤٥ .

الرعامسة تسامح ملوكهم لجعلوا لأنفسهم مناطق نفوذ في مختلف الأقاليم متذرعين بما منحه الملوك في بادىء الأمر من الامتيازات لمعابد الآلهة المختلفة اعترافاً بجميل هذه الآلهة على ما ناله ملوك الرعامسة من انتصارات فيما كانوا يخوضونه من حروب أو توفيق فيما كانوا يرسلونه من بعثات .

فالواقع أن الرأي السائد بين علماء الآثار والتاريخ في مؤلفاتهم حتى اليوم أنه لم يكن للكهنة في عهد الرعامسة أي نظام اقطاعي ، في حين أن الحقيقة أن ملوك هذا العهد كانوا يضعون ثقتهم في كهنة معابد الآلهة المختلفة في الأقاليم المختلفة ، مما أدى بهؤلاء الكهنة الى استغلال هذه الثقة استغلالاً جعل لهم كثيراً من النفوذ في الأقاليم التي يباشرون وظائفهم الدينية فيها ، ولا سيما أن الظروف ساعدت بعضاً منهم على الاحتفاظ بهذا النفوذ زمناً طويلاً كما حدث لأحد كهنة معبد منف اذ استمرت سلالته تشرف على معبد بتاح وأملاكه طوال عهد الرعامسة أي ما يقرب من ثلاثمائة سنة منتفعين خلال كل هذه المدة بما يجود به الملوك المتعاقبون من هبات وأملاك لإلـه معبدهم حتى امتدَّ نفوذهم في أواخر أيام الرعامسة — أي أواخر عهد الوحدة الثالثة — الى مدى بعيد .

هذا عن الالـه بتاح بمنف . أما عن كهنة الإلـه آمون فنلاحظ في عهد رمسيس الرابع أن كبير كهنة آمون المدعو نسى — آمون كان قد ورث منصب رئيس كهنة آمون عن والده المدعو رمسيس — نخت ثمَّ ولى هذا المنصب بعد وفاته كذلك أخوه المدعو آمون — حوتب. في عهد الملك رمسيس التاسع مما يدلنا على أن أسرة هذا الكاهن تولت منصب رئاسة الكهنة زمناً طويلاً جدًّا يقابل عهد ستة ملوك من الرعامسة ، فاذا لاحظنا أن كلاً من هؤلاء الملوك كان بمجرد اعتلائه عرش مصر يجود بهبات وأملاك كثيرة لمعبد الإلـه آمون وضح لنا مقدار ما وصلت إليه أملاك تلك الأسرة من كهنة هذا المعبد وما بلغته من ثراء على أيدي ملوك الرعامسة وما وصلت إليه بالتالي من نفوذ على أملاكها .

أما عن كهنة الإلـه رع بعين شمس فلدينا قطعة أثرية بمتحف كوبنهاجن يتضح للمطلع عليها أن هؤلاء الكهنة كانوا يتوارثون رئاسة المعبد وأملاكه إبناً عن أب وظلت هذه حالهم مدة طويلة جدًّا لم ينقطع فيها نفوذهم على معبدهم وما يتبعه من أملاك .

وعلى الجملة فقد كان كهنة كل معبد من معابد الآلهة المختلفة يتوارثون مناصبهم الدينية وينتفعون بما يهبه لهم الملوك من أملاك ولا سيما أن المعابد وما تمتلك من أرض وحيوان كانت معفاة من الضرائب وإنه كان لهذه المعابد بيوت خاصة للذهب والفضة أي أن ميزانيتها كانت منفصلة عن ميزانية الدولة .

إلاّ أن تسامح هؤلاء الملوك مع الكهنة جعلهم يطمحون الى أكثر من نفوذهم الديني بالتدخل تدريجاً في المسائل المدنية البحتة حتى أصبح بعضهم في وقت ما يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية فنجد مثلاً أن رئيس كهنة الإلٓه ست المدعو سيتي قد جمع بين الوزارة ورئاسة كهنة الإلٓه ست في عصر الملك رمسيس الثاني .

بل لم يقف طموح الرؤساء الدينيين عند هذا الحد ، وإنما اتخذوا لأنفسهم لقب أمير أو بالمصرية القديمة ربعتي حاتي عا فكانوا بذلك يتشبهون بحكام المقاطعات تمشياً مع ما نالوه من نفوذ مشابه لنفوذ هؤلاء الحكام .

ومثال ذلك المدعو رمسيس نخت كبير كهنة آمون فإننا نجد اسمه منعوتاً بلقب الامارة وكذلك ابنه آمون حوتب نجد اسمه منعوتاً أيضاً بلقب الأمارة .

وتبعاً لهذا التدرج في النفوذ أصبح لكل من الكهنة بوليسه الخاص .

ومن ذلك نرى أن كل أركان النظام الإقطاعي قد توافرت لهؤلاء الكهنة إذ تعددت مناطق نفوذهم تبعاً لتعدد مناطق نفوذ الآلهة في الأقاليم المختلفة فنرى الإله بتاح في منف والإلٓه رع في عين شمس والإلٓه آمون في طيبة والإلٓه أموع رع في بر رمسيس (تانس) والإلٓه تحوت في الأشمونين والإلٓه أزوريس في أبيدوس والإلٓه خنوم في الألفنتين [1] . وهكذا كما أن عنصر التوارث المعروف في النظام الاقطاعي قد توافر

(١) في النصوص التي وصلت إلينا حتى اليوم من عصر الوحدة الاولى والثانية نفهم أن كلمة « آبو » كانت تعتبر اسماً لجزيرة الفنتين وكانت تعتبر في نفس الوقت اسماً لمدينة اسوان . غير أننا نلاحظ أنه بابتداء عصر الوحدة الثالثة اقتصر استعمال هذه الكلمة على تسمية جزيرة الفنتين ، أما اسوان فقد بدأ المصريون القدماء يطلقون عليها اسم « سونو » التي اشتق منها الاسم الحالي « اسوان » لهذه المدينة فيما بعد . والرأي السائد في تفسير كلمة « سونو » ان معناها « سوق » ولكن الحقيقة أن معناها قد يكون كذلك ولكن يصح أيضاً أن نفهم أنهم كانوا يقصدون بها « حصن » ونأمل عند نشر نتيجة حفائرنا بجزيرة الفنتين هذا العام أن نوفي هذه النظرية حقها من الوجهة التاريخية والاثرية .

للكهنة فكان منصب الرئيس الديني يتوارثه الأبناء والأحفاد على مر السنين . ثم توافر لهم أخيراً صفتا الامارة واستقلال ميزانيتهم عن ميزانية الدولة ، مما يجعلنا نجزم بأن النظام



« الملك رمسيس التاسع يقلد رئيس كهنة آمون قلادة »

الاقطاعي بأركانه المعروفة إنما ينطبق على عهد الرعامسة مع فارق فني بسيط وهو أن هذا النوع الجديد من النظام الإقطاعي كان لأمراء المعابد بدلاً من أمراء المقاطعات المدنيين

وأن هذه الصورة الجديدة من النظام الإقطاعي قد أحلت المعبد وممتلكاته محل المقاطعة ومشتملاتها وأحلت الأمراء الدينيين (أي رجال الدين) محل الأمراء المدنيين.

وأن الكهنة ما كانوا يصلون الى ما يبلغونه من نفوذ إلاّ تحت ستار الدين واعتماداً على ما كانت تنطوي عليه قلوب الملوك من عقيدة دينية واحترام لرجال الدين حتى أننا لنجد أنه في عهد الملك رمسيس التاسع قد عمد كبير كهنة الإله آمون الى أن يرسم نفسه على جدران معبد آمون بالكرنك مساوياً في حجم صورته لصورة الملك نفسه. وهو الأمر الذي لم يحدث في تاريخ مصر القديمة كلها إلاّ في هذه الحالة وحدها.

وهي الدليل القاطع على ما كان ينطوي عليه قلب هذا الملك من ديمقراطية حقة وتسامح كما أنها الدليل على مقدار سوء نية هذا الكاهن إذ استغلّ عطف الملك عليه استغلالاً غير لائق. ففي الوقت الذي يقلده فيه الملك القلادة الدالة على عطفه عليه ورضاه عنه نجده يرسم نفسه في نفس حجم الملك محاولاً بذلك استغلال ما أعطاه الملك من نفوذ.

وليس معنى الإقطاعية التي سادت في عهد الرعامسة أنه كان لها أي تأثير على نفوذ الملوك في ذلك العهد لأننا على العكس إنما نلمس في ملوك ذلك العهد قوة وسطوة كبيرين حتى ان عهدهم إنما يدخل في عصر وحدة مصر الثالثة كما أشرت الى ذلك في كتابي «لمحات من الدراسات المصرية القديمة» إذ قلت إن هذا العصر قد بدأ على يد بطل حرب الاستقلال الملك أحمس الأول [١] واستمرّ حتى عهد رمسيس التاسع وهو صاحب الصورة المنشورة في البحث الحالي والتي أشرنا الى أن كبير الكهنة المدعو آمون حوتب رسم نفسه فيها يتقبل القلادة الملكية. وقد قلت عن مزايا هذا العصر بما فيه عصر الرعامسة إنه يمتاز بازدهار في السياسة الداخلية والخارجية وبالحضارة ووحدة وادي النيل، وقد بلغت قوة الملوك في هذا العصر حدًّا أصبحوا معه مسيطرين في نفس الوقت على النظام المالي والقضائي والإداري مما دفعني الى أن أفرد لبحثه من هذه الوجهة كتاباً خاصًّا بعنوان «سلطة

(١) راجع ملخص رسالتي للدكتوراه Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten

الملك وعلاقته بالوزير في عهد الرعامسة »[١] باللغة الألمانية وأجتهد حالياً أن أخرجه أولاً باللغة العربية يشجعني على ذلك عطف مولاي حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم نصير العلم وحامي رجاله .

فلم يكن إذن من أثر الحياة الاقطاعية التي سادت في عصر الرعامسة المساس بسلطة الملوك وإنما كان من نتيجتها أنه حينما توفى آخر ملوك الرعامسة ظهر ما ينطوي عليه الكهنة من مكر وكيد وسوء نية فتنازعوا السلطة بينهم بما أدى الى انقسام البلاد الى قسمين أو بالأحرى الى دولتين . إحداهما جنوبية عاصمتها مدينة طيبة ، وأخرى شمالية عاصمتها مدينة تانيس .

وكان هذا الانقسام المؤلم في مصر هو النتيجة الطبيعية لتساهل الملوك في هذا العصر مع رجال الدين، مما أدى الى أن تقع مصر فريسة للفوضى الداخلية وللخطر الخارجي، حتى قام الملك ابسمتيك الأول وهو الذي سميته في كتاب « لمحات من الدراسات المصرية القديمة » مؤسس عهد وحدة مصر الرابعة فأخضع المتمردين من الكهنة وأعاد الى مصر وحدتها وقوتها وقبض على أزمة الحكم في بلاده بيد من حديد[٢] .

وعلى ذلك ففي مصر التي تكونت فيها أول حكومة ملكية يلتف حول عرش مليكها شعب واحد موحد الصفوف يؤلف بين قلوب أفراده حب الوطن والولاء للجالس على العرش ، لم يكن من الممكن أن يمس أحد هذا الولاء دون أن تدور الدوائر عليه ، ولاسيما وأننا نجد في عهد الرعامسة[٣] أن موظفي الدولة كما جاء في النصوص المصرية القديمة كانوا يشبهون عطف الملك عليهم بعطف الوالدين إذ يقولون : « إن الملك هو بمثابة الأب والأم لكل مواطن صالح »

دكتور باهور لبيب

مدير المتاحف الاقليمية بمصلحة الآثار المصرية

---

(١) الكتاب الذي أشار اليه الاستاذان شارف وزيدل في كتابهما : Die Rechtsgeschichte des alten Aegypten

(٢) أم مراجع هذا البحث منشورة في مجلة مصلحة الآثار المصرية آخر جزء لسنة ١٩٤٨

(٣) سأفرد لبحث « الملك الرئيس الاعلى للبحرية والبرية في عهد الرعامسة » كتاباً آخر

جويا

أمام متحف برادو بمدريد وعلى بضعة أمتار من مدخله الرئيسي أقيم تمثال لجويا أعظم فناني أسبانيا في القرن الثامن عشر تقديراً لأعماله والاعتراف بفضله في عالم الفن والاشادة بذكراه على ممر العصور .

وجويا هو ذلك الفنان الموهوب الذي ظهر بوجوده فن التصوير في أسبانيا ، كما أنه أول فنان تأثر بالثورة الفرنسية فظهرت أسبابها ومقوماتها والظروف التي دعت الى نشوبها من بؤس الطبقات وانحطاطها وكبت الحريات وتحكم الاشراف فيمن هم دونهم . ظهر كل ذلك في رسوم جويا ، فجاءت صوراً حيّـة واقعيّـة تعبر عما كان منتشراً في أسبانيا خـلال القرن الثامن عشر . ولذلك اعتبر أول رسام واقعي لمن خلفه من الفنانين في القرن التاسع عشر.

وكان لتاريخ حيـاته وتقلبه بين الطبقات التي كانت سائدة في عهده صدًى كبـير في تفكيره ، إذ استطاع أن يندمج في طبقتي الشعب والتغلغل الى كنهها، والوقوف على كثير من عيوبها ، فجاءت رسومه آية حقيقية واقعية لما يدور في أسبانيا، رسم بعضها بطريقة تهكمية لاذعة ، ناقداً تلك النظم السائدة ومساوئها .

ولد جويا في أراجون في ٣٠ مارس ١٧٤٦ ، فتشبع من صغره بالرسم ، وظهر ميله الى تلك الرسوم التي خطتهـا ريشته في مستهل حياته ، فتعلم على يد أحد الرسامين في سرقسطة ، وقويت رغبته في الرسم بصورة واضحة عند ما بلغ الثانية عشرة من عمره واضطر على إثر مشادة قتل فيهـا ثلاثة من رفاقه أن يسافر الى مدريد حيث استطاع أن يكمل دراسته، فاختلط بالطبقات المنحطة وتأثر بهم، وأخذ يدعو بريشته الى الثورة للتخلص من تلك القيود الاجتماعية التي فرقت بين الطبقات وأردت سواد الشعب الى الحضيض .

وفي مدريد اتصل بثلاثة من الرسامين . أحدهم هنج الألماني والآخران هوس ولويس ميشيل فان لو الفرنسيان . وجميعهم متضلعون في الرسوم الشخصية، فأخذ عنهم ذلك النوع من الرسم وأكمل فنه وبزّ أقرانه، إلاّ أنه لم يستطع البقاء في مدريد فاضطرّ الى السفر الى ايطاليا ، فاتجه صوب الساحل الشرقي مع إحدى فرق مصارعة الثيران. ومن ثمّ وصل الى روما بعد اعياء شديد، واختلط بالأوساط الفنية، ومنح الجائزة الثانية في المسابقة التي عملتها أكاديمية بارما . ثم عاد الى سرجوسا ثانياً حيث ظهرت باكورة انتاجه في الرسوم الفريسكو

التي زخرف بها كاتدرائية سرجوسا المشهورة ١٧٧١ Nuestra Senora Del-Pilar

وتزوّج من أخت أستاذه Frencisco Bayeu الذي عهد اليه بوظيفة رسام بالبلاط الملكي فأنتج جويا بين عامي ١٧٧٦ — ١٧٩١ ثلاثاً وأربعين لوحة رائعة أظهر فيها من روائع الفن ما أدهش الآخرين بفنه وعبقريته في اظهار الظل والنور مع التلوين . ولما تشعه رسومه من روح وقوة لم يَنْحُ نحوها غيره من الفنانين في هذا المضمار فأعجب به الملك شارل الثالث وقد رسم صورته ، كما رسم صور أربعة ملوك تتابعوا بعده منها ، صورة شارل الرابع وزوجته ميرادو وغطاء رأسها ودونا تريزا ، كما صوَّر رجال القصر فصلحت حاله وذاعت شهرته حتى سمي رسام القصر ١٧٨٩ ؛ كما رسم صورة مدام البا والمركيزة دي لامرسيد وغيرها . ولم يصرفه عمله كفنان عن الخوض في غمار حياة القصر والطبقة الارستقراطية .

وفي عام ١٧٩٢ قاسى جويا من مرض كاد يصمه فاعتكف عن العالم غارقاً في أحلامه وهواجسه التي أرهفت حسه وزادت من تشاؤمه . وفي بداية ١٧٩٣ رسم بعض الصور الشعبية متأثراً بالظروف التي كانت سائدة في فرنسا في القرن التاسع عشر لجاءت لاذعة تنقد الحياة الاجتماعية ، وتعرف تلك الصورة « بالأهواء » منها رسم قسيسين يعبدون في غير ورع ولا خشوع . كما رسم دور الغوغاء والسفاكين وغيرها . وهذه الصور وان لم تنم على جمال وتقاليد فنية حية كالتي نراها في الرسوم المسيحية كمناظر الرعاة — فانها تكشف عن مرارة وهتك الحقيقة التي بلغت أوجها في المناظر الساخرة كتلك التي رسمها على جدران منزله في منزنار ، وهي تمثل خرافات العرافات والأحلام المزعجة كصور Caprices & Disparates.

واستطاعت الحرب عام ١٨٠٨ تركيز همه في زيادة قوته والنشاط في عمله ، فصور فظاعة الحرب وأهوالها في رسوم كاريكاتورية . ومنها صورة تمثل هجوم أهالي مدريد على المماليك في اللوحتين المعروفتين بـ « ٢ مايو ، ٣ مايو » وفي هاتين اللوحتين ظهر الشعور الاسباني وعصبيته الدينية ورغبته الملحة في الاستقلال وتمثيله بالأتراك طلباً للحرية .

ولما أحسَّ ان الطبقة الحاكمة بدأت تفهم مقاصده ، وتحريضه للثورة وتهكمه على رجال الدين ، سافر الى فرنسا حيث مات في بوردو ١٨٢٨ . وفي الفترة الأخيرة من حياته لم يفكر إلاّ في التصوير والنحت ، فنحت بعض الرسوم كمصارعة الثيران وهو موضوع عرفه أيام صعلكته ومات بعد ان ترك ثروة فنية هائلة أثارت دهشة الفنانين الآخرين لقوتها الفياضة الممثلة في الحوادث البريئة والمزرية ، كما فتحت أعمال جويا آفاقاً جديدة في الفن في عالم الخيال والحقيقة . ولم تكن رسومه قاسية أو محزنة كما يظن البعض ، وإنما كانت ثورية ولم يكن جويا فنانا ارستقراطياً ، وإنما كان رساماً ، ولده الشعب للشعب ، لأنه رسم لهم أكثر مما رسم لخاصتهم ، وأول رسام للقصر كما انه أول رسام للثورة .

محمد رجب البيلي

حافظ وشوقي [1]

ما الشعر ، وما هي اتجاهاته ، ولماذا نعشقه ، وما قيمته في الحياة الانسانية ؟ .

أسئلة قد تخطر على بال بعض القراء ، وليس من السهل الجواب عليها في كلمة واحدة . وانما يمكن أن نقول ان الشعر هو لغة العاطفة والخيال . وهو قبل كل شيء مادّة وروح ، وأعذب الشعر ما كانت روحه أغلب على مادته .

وروح الشاعرية كامنــة في الانسان والحيوان والطبيعة . وهي في الانسان أحاسيس يحركها الحزن والفرح والضحك والبكاء . وهي في الحيوان أصوات تتجاوب في الأحراج والغابات بين زئير الأســد وبغام الظباء وغريد الطيور ونقيق الضفادع وفحيح الأفاعي . وهي في الطبيعة ، في جمالها الرائع ومناظرها الخلاّبة بين الجبال الشاهقة والصحاري المقفرة والبحار الصاخبة والجداول المترقرقة والمروج المنبسطة بما تحمله في دويّ العواصف وهزيم الرعد ، ووميض البرق ، وهدير الموج ، وحفيف الغصون ، وهمسات النسائم .

ولغة الإنسانيــة هي أقوى ترجمان ينطق عن هذه الأصوات ، ويعبر عما ترسمه في نفسه من تهاويل ونقوش . وأن الانسان ليرقى بمدنيته ومشاعره في اتقان هذه اللغة العميقة فيهذب منطقه ويصفو وجدانه وتتضاءل منه شرور الحيوانية العمياء .

والشاعر الصادق كـكل صاحب فنّ وذوق تملك حب هــذه اللغة فاستطاع أن يخلق من نبرات الألفاظ كائنات حية في معناها وكأنها منحوتة من أوصاله أو متدفقة من قطرات دمه.

ولــكن أين هو الشاعر الصادق ؟

يقول الناقد الانـكليزي الـكبير « وليم هازليت » في معرض نقده للشاعرين « بوب » و« وريدن » . « لم يكن « بوب » مميزاً كشاعر رقيق له خيال واسع وحاسة مشغوفة بجمال الطبيعة ، لا ، ولم يكن متأثراً بانفعالات القلب وخلجات العواطف . ولـكنه كان حاضر البديهة ذكيـاً ناقداً نافذ البصيرة . وقد تجمل الدنيا ببراعة الحذق وصياغة الفن ، وإذا شئت فقل اذا زخرفها الفن . وفي سرعة الخاطر وحدة الذكاء مجال لامتلاك هذه الناحية . على أن

---

(1) رسالة لصديقنا الاديب الكبير الاستاذ حسن كامل الصيرفي

(پوب) كانت تهزه مشاعره في بعض الأحايين فينطق بما لا يقال، مما كان سبباً لنفور أسرته وأصدقائه منه .

« وقصارى القول إن پوب كان شاعراً للفن لا للطبيعة ، والفرق بين الاثنين كما أراه ، أن شاعر الطبيعة يتأثر بما تخلفه في نفسه صور الجمال والقوة والشهوة الجاثمة على صدره .

وكيفما كان الجمال وحب العظمة وسحر الطبيعة في جلالها الأخاذ ، مضافاً إليها ما ضمنته الأفكار والآراء وما حوته القلوب والأفئدة ، فإنها جميعاً من خصائص الشاعر العالق بالحق المتعمق في بواطن الأشياء المندمج في مشاعر النـاس في كل زمان ومكان . لأنه قطعة من الطبيعة ذاتها ، لم يخلقها وإنما خلقته . وكان له مريدوه من قراء شعره مهما تباينت عواطفهم واختلفت مداركهم . ذلك لأنه ينظر للاشياء كما تبدو في تكوينهـا الفطري ، فيشعر منها بما يوائم طينته ويتفق والأوضاع كما أبرزتها الطبيعة في أشكالها وألوانها ».

« هكذا كان هومير وشكسبير » .

«فقد كانت أعمالها الرائعة مشتقة من الطبيعة ، لأنهما كانا صورتين صادقتين منها . نبتا من جرثومتها كما يتفجر الينبوع العذب من باطن الأرض . قوّة الخيـال فيهما ما هي إلاّ القوة التي استحدثت هذه البدائع الخالدة .

ذلك شأن « پوب » . لم يكن شاعر الطبيعـة أو في مقدمة رجالها ، لأنه كان ينظر اليهـا مطرزة بالفن ،موشاة بالصنع . يزينها الملبس ويغطيها الثوب ، فاصطنع شعره من نسيج غيره لا من ذات نفسه » .

ويرمي « هازليت » في قوله عن الفن الى أنه الصنـاعة كما يفهم من مدلول عبـاراته . والـكلمة في تفسيرها تعني ذلك . ففي القاموس أن فنّ الشيء زيّـنه . وإنما أخذها المحدثون واستعملها المعاصرون على أنها الذوق الأصيل .

ولا يعدو رأي « هازليت » آراء عظماء النقاد والـكتّـاب في الشرق والغرب يستوي في ذلك القـدماء والمجـددون . ويروي ابن قتيبـه في كتاب « الشعر والشعراء » « لم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ،ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاً حظّـه ، ووفرت عليه حقه ».

« فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلاّ أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله ».

«ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولاخصّ به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرفٍ خارجية[1] في أوله » .

مما تقدم يتبين أن الشعر مادة وروح ، وأعذبه ما كانت روحه أغلب على مادته . ويقول صديقنا الأستاذ حسن كامل الصيرفي في كتابه «حافظ وشوقي » عن فن الشاعرين « وأول ما يلاحظ على فن شاعرينا « المادية » التي لم يستطيعا أن يبرأا منها حتى في الأوصاف التي تنأى عن المادية ، وقلّ أن تصفو صورهما منها . فشوقي مثلاً — وهو أقل من صاحبه انغماساً في هذه الناحية — حين يصف منظراً طبيعيًّا لجريان الماء وخريره يصفه كأنه وضح العروس تبينه وتصيته » . ولكن شوقيًّا كان يتجه صوب الخيال في كثير من قصائده ، وبخاصة ما كان متصلاً بالطبيعة ، على أن اتجاهه ناحية الخيال لم يكن استغراقاً في الطبيعة ولكن كان افتتاناً حسّياً أكثر منه احساساً روحيًّا » .

وهو قول لم يعد الصواب بل صادق كل الصدق في حكمه .

وصديقنا الأستاذ الصيرفي ليس بصديق اليوم ، فهو صديق الشباب ، ظلنا على مودتنا الوطيدة لم يمسسها خلاف في الرأي أو تعصب في القول . وبقي كلانا له ناحيته وعقيدته ، ومودتنا على ما هي لم تشبها شائبة ، مزاجها الحب والصفاء . نلتقي ونفترق كأحسن ما يكون الصديقان . لا نعرض لفكرة الا ويحترم كل منا لصاحبه رأيه فيها دون تعنت أو اصرار ، ولا ينقلب الرأي الى نقاش وجدال يصدران عن تشيع وتحزب بغيض .

وقد تناول صديقنا الصيرفي « حافظ وشوقي » بتقدمة عنهما وعن موسيقاها وثقافتهما وشعرهما السياسي وحبهما للطبيعة وقوة الرثاء فيهما وأثر المرأة في شعرهما ، ثم عرج على مقارنة بينهما في قصائد نظماها في مناسبات حركتهما معاً ، وبسط للقارىء اتجاه كل منهما مشيراً الى ما ذكره بعض كبار النقاد أو الشعراء عنهما معلقاً برأيه الخاص في الاثنين . ثم انتهى الى معارض التاريخ سارداً أثر التاريخ القديم والاسلامي في أشعارهما . وانتقل بعد ذلك الى فنهما فالخاتمة ، منوهاً الى ان ما ذكره ما هو الا دراسة أوحت بها ذكرى الشاعرين بمرور خمسة عشر عاماً على وفاتهما على نطاق محدود » .

والحق أن هذه الدراسة — وان اعتذر صديقنا بضيق نطاقها — تنم عن نظرة خالصة تظهر الشاعرين كما هي دون تحيز أو محاباة لهذا أو ذاك وانما يعرض للقارىء ما احاط بهما

(١) الخارجي — الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم . ومنه الخارجية ، وهي خيل لا عرق لها في الجودة ، نتخرج سوابق ، وهي مع ذلك جياد .

من ظروف الحياة ، ويذكر مواضع القوة والضعف في القصيدة معللاً أسبابها تعليل الشاعر الفطن اللبيب .

لم أر حافظاً وشوقيّاً إلاّ عرضاً في الطريق ، وكانت ترتسم على الأول خطوط فيها البؤس والكآبة والإشفاق ، وكان يمشي متمهلاً وقد عراه ضعف الشيخوخة . ولمحت شوقيّاً يسير مسرعاً كثير التلفت وكأنه يسترعي انتباه الغادين إليه . وفي مرة كنت وصديقاً لي على مقربة منه، فأومأ صديقي إليه يذكره فما كان منه إلاّ أن هرول الى الاختفاء عن أنظارنا . وهذه القسمات والحركات قد تعطي للفكر صورة غير قاطعة عن طبيعة كل منهما ، يزيدها التفرس في حياتهما وأشعارهما جلاء . وربما جاء الحكم على غير ما صوّره الحدس في النظرة الأولى .

غلب على حافظ التشاؤم إذ عانى ما عانى من بؤس وشقاء لولا أن سانده عطف الأستاذ الامام وحدبه عليه في مستهلّ حياته . فلما مات الامام وأعقبه من بعده الزعيم مصطفى كامل ، ضاقت الدنيا بحافظ ولم يجد له سبيلاً للعيش . وارتفع شأن الوصوليين ، ورأى أن الشعر وحده لا يغني عن الحياة شيئاً ، فآثر اللجوء الى وظيفة تقيم أوده وتؤدي بلغته .

أما شوقي فكان يملك من الغنى الموروث ما يصونه ويصرفه بكليته الى صقل ثقافته بالدرس والتحصيل والتغلغل في الطبيعة وابراز صورها الرائعة الجميلة . ولكن غلب عليه حب الشهرة والظهور يبحث وراء كلمات المدح والاطراء فيستزيده ذلك من القناعة بمجاراة معاني القدماء !!

ولسنا نقيس بهذا القول شاعرية كل منهما ، وإنما قد يكون من المناسب أن نرجع الى ما قلناه آنفاً الى الخصائص الأولية الواجب توافرها في الشاعر المطبوع . فلا شك في أن حافظاً وشوقيّاً كانت فيهما شاعرية ولكنها شاعرية محدودة لم تصل الى أعماق الطبيعة . فهي شاعرية سطحية تمتّها ريشة الفنان !! .

عاش الشاعران معاً في جوّ داجن لم يلقن الشعر فيه إلاّ أنه قاصر على المدح والنسيب ، والتقدم بإعلاء شأو هذا ورفع ذكر ذاك . فظلاّ على التمسك برضا الحاكمين وأصحاب المناصب والأمر . وقد حاول شوقي أن يتنصل من هذه الطريقة ليظهر كشاعر مجدد ، إلاّ أن هذا التنصل لم يخله من الإسفاف الذي تورّط فيه كثيراً بحكم مركزه وصلته .

على أن ما يعاب في قصائد المديح لا أنها نظمت في المدح ، فمن المدح ما صدر عن عاطفة جياشة وصدق في القول وانما يعاب المدح ، وكان أكثر ما يقال ، في النفاق والتملق

والمداهنة التي يكيلها الشاعر للذات التي يطريها . وأنها لتبدو جلية في القول يمجها السمع وتعافها النفس .

كان شعراء العرب في الدولتين الأموية والعباسية يمدحون ويسجلون الحوادث وأثر الممدوح فيها ، فنهم من كان يمدح عن إيمان وصدق وعن حب ووفاء . فاذا تابعت رجلاً منهم كأبي تمام وكانت منزلته لدى الرؤساء والشيوخ على أعظم ما تكون الصلة والعطف ، إذا تابعته في قوله يمدح الوزير محمد بن عبد الملك الزيات — وكان له صديقاً — في قصيدته التي أولها .

لهان علينا أن نقول وتفعلا ونذكر بعض الفضل منك فتفضلا

فإنك تجد فيها مثلاً للمدح الناطق بالولاء الطاهر ، يقول للوزير ما يراه دون تحرز ويتقدم اليه يستأذنه في الرحيل عنه وعن بغداد .

سأقطع أمطاء المطايا برحلةٍ الى الوطن الغربيّ مجراً وموصلا
الى الرحم الدنيا التي قد أجفّها عقوقي ، عسى أسبابها أن تبللا
قبيلٌ وأهلٌ لم ألاقي مشوقهم لوشك النوى إلاّ فراقاً كلا ولا
كأنهمُ كانوا لخفّة وقفتي معارف لي أو منزلي كان منزلا
ولو شئت لما التاث برّي عليهم ولم يكُ إجمالاً لكان تجمّلا
فلم أجد الأخلاق إلاّ تخلقاً ولم أجد الأفضال إلاّ تفضلا
وأصرف وجهي عن بلادٍ غدا بها لساني معقولاً ، وقلبي مقفلا

ومنها :

لئن همي أوجدني في تقلبي مآلاً ، لقد أفقدنني منك موئلا
فإن رمت أمراً مدبر الوجه أنني لأترك حظّاً في فنائك مقبلا
وإن كنت أخطو ساحة المحل أنني لأترك روضاً من جداك وجدولا

فهذا الشاعر يخاطب الوزير بما في نفسه ولا يعيبه أنه يمدحه وانما يخاطبه وهو يعلم أنه يخاطب روحاً مثله تحبه وتؤثره وتقدر عواطفه ومكانته .

وقد روي أن أبا تمام قدم يمدح الحسن بن رجاء ، فأنشدهُ قصيدته التي أولها

كفّي وغاك فانني لك قالي ليست هوادي عزمتي بتوالي

فلما وصل الى قوله في الممدوح

لا تنكري عطَلَ الكريم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العالي
وتنظري خَبَب الركاب ينصّها محيي القريض الى مميت المالِ

قام الحسن بن رجاء وقال لأبي تمام ، والله لا أتممها إلاّ وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه وقال :

لما بلغنا ساحة الحسن انقضى عنا تملّك دولة الأمحال
أغلى عذارى الشعر أن مهورها عند الكرام اذا رخصنَ غوالي

الى آخر الأبيات

فتعانقا وجلسا . فقال له الحسن ، ما أحسن ما جليت هذه العروس ، فقال أبو تمام ، والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك أوفى مهورها . وكافأه الحسن على ما اشتهر به من البخل بأحسن عطاء .

ونمسك عن الاستطراد في الحديث فانه ذو سعة ، ولنعد الى حافظ وشوقي .

كان حافظ وشوقي يتخذان من المديح وسيلة للزلفى الى قوم لم يكن منهم لاغة بله الشعر تقدير ، وكانوا يفهمون الشعر على أنه ضرب من الصناعة يصاغ لابتزاز المال . ولم يكن للشاعرين في الوقت نفسه قدر من الاعتزاز بالشخصية التي تكسب الشاعر هيبته وعظمته ، كما لم يكن لهما من الثقافة الواسعة ما يؤهلهما الى ادراك الأشياء على حقائقها وتفهم مناحي الفلسفة والعبقرية .

وإذا كانت طبيعة حافظ حفزته في أول عهده الى أن يكشف عن جوّ الحياة القائمة في زمنه الرازح ببطش الاستعمار والطغيان ، وما امتدّ حوله من ظلم وخطوب ، فان طبيعة شوقي لم تدرك الاّ مناعم القصور ورقة الترف لا يمازجها الألم الممض الذي يستفز المشاعر الانسانية ، فظلّ حتى أواخر أيامه مولعاً في نظم قصائده بالأصباغ والألوان ، لا يعلق الاّ بالتشبيه والاستعارة ومعارضته قصائد القدماء ليقال إنه يبزّهم . فاذا جرح الزعيم سعد زغلول حين اعتدي عليه ، كان مثله كمثل عثمان حين قتل ، وإن آثار الدماء التي سالت على قميص سعد تشابه الدماء التي سالت على صفحات القرآن الذي كان عثمان يتلوه حين قتل ، ولو مات سعد في اصابته لغيب (عمرو الأمور) و (أخلى من المنابر سحبانها !)

واذا وصف النخيل لا يذكر إلاّ فصوص العقيق مفصلة بشذور الذهب وأن النخيل (ملك الرياض أمير الحقول ، عروس العزب !! ..) وأن ثماره طعام الفقير ، وحلوى الغنيّ وزاد المسافر والمغترب !! ..)

فهل هذا شعر تنفثه الروح وتسطره الأخيلة ؟! ..

إن الذين يأخذون الشعر على ألفاظه ليقولون لك هذا أبدع الشعر وأحلاه .. وأي رقة

أعذب من هذه الكلمات الرقيقة المرصوفة كأنها اللآلىء المكنونة !! .. والتي قلّ أن يجود بها الزمان من شاعر مثل شوقي !! ..

وكما كان الشاعران بعيدين عن الجلال والعظمة الانسانية ، لم يكن لهما من الثقافة العالية ما يدفعهما الى التغلغل في صميم الأشياء . وفي مناسبة واحدة وهي موت تولستوي الفيلسوف الروسي الكبير عام ١٩١٠ ، رثاه شوقي بقصيدة وأعقبه حافظ بأخرى من بحر وقافية شوقي . فما الذي قالاه ؟ .. قال شوقي : —

(تولستوي) تجري آية العلم دمعها ... عليك ، ويبكي بائسٌ وفقير
وشعبٌ ضعيف الركن زال نصيره ... وما كل يوم للضعيف نصير
ويندب فلاحون أنت منارهم ... وأنت سراج غيَّبوه منير
يعانون في الأكواخ ظلماً وظلمة ... ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضا ... عليهم ، وتغشى دورهم وتزور

***

ويبكيك ألف فوق (ليلى) ندامةً ... غداة مشى بالعامريّ سرير

***

إذا أنت جاورت المعرّي في الثرى ... وجاور (رضوى) في التراب تبير
وأقبل جمع الخالدين عليكما ... وغالى بمقدار النظير نظير
فقل يا حكيم الدهر ، حدّث عن البلى ... فأنت عليمٌ بالأمور خبير
أحطت من الموتى قديماً وحادثاً ... بما لم يحصل منكرٌ ونكير

وأعقب حافظ يجاري شوقي في قصيدته هذه التي اقتضبنا منها الأبيات السالفة .

رثاك أمير الشعر في الشرق وانبرى ... لمدحك من كتّاب مصر كبير
ولست أبالي حين أرثيك بعده ... إذا قيل عني قد رثاه صغير
فقد كنت عوناً للضعيف ، وأنني ... ضعيفٌ ومالي في الحياة نصير

***

إذا زرت رهن المحبسين بحفرة ... بها الزهد ثاوٍ والذكاء ستير

وأبصرت أنس الزهد في وحشة البلى وشاهدت وجه الشيخ وهو منير
وأيقنت أن الدين لله وحده وأن قبور الزاهدين قصور
فقف ثم سلّم واحتشم إن شيخنا مهيبٌ على رغم الفناء وقور

فالقارىء يرى من الأبيات التي ذكرناها من القصيدتين أن كلا الشاعرين نظر الى تولستوي نظرة سطحية فقارناه بأبي العلاء على انه مثاله في زهده وتنسكه وعزوفه عن الدنيا مع أن كلاً منهما يختلف عن الآخر في الاتجاه والنظرة الى الحياة، فتولستوي كان من سلالة أصحاب الأقطاع في روسيا وعاش في أوساطهم وحارب في جيش القيصر. وظهرت الاشتراكية فدان بها وانقلبت الآراء في ذهنه فكرّس نفسه لخدمة شعبه والدعوة الى رفع مستواه حتى انه وزّع ما يمتلكه من أراض على عمال ضيعته ولبس لباسهم واشتغل معهم . أما أبو العلاء فقد عاش في ضنك لا يجد من الحياة الاً ما ينفره منها ويقصيه عن ملاذها كان مقبض النفس لا يرى معنى للوجود أو صورة للبقاء .

ولقد استهلّ حافظ قصيدته بالتمسّح « بأمير الشعر في الشرق » ، والذي نعلمه أنه في ذلك الوقت كان يتردّد على شوقي ويلازمه بحكم منزلته لدى الخديوي ليسعى له في الوظيفة التي يرومها لمعاشه .

وشوقي هو شوقي في أغلب قصائده لا بدّ له من الاستعارة ، فرحمة عيسى وليلى العامرية والمعرّي وسحبان ووائل ، ورضوى وثبير ، يزج بها في كل مجال دون اعتبار للموقف أو وزن الموضوع، وكأنها أقانيم يحوم حولها ولا يتخطاها . ولو اتسع المقام لذكرنا الكثير من المآخذ في السياق ، ولكن الحديث عن حافظ وشوقي يطول .

أنهما في اعتقادي شاعران لزمانهما وجيلهما ، ولكلٍّ منهما منحاه . وأن صديقنا الأستاذ الصيرفي ليستحق الشكر والثناء على ما بذل من جهد في تصويرهما على ضوء الحقيقة وعلى مسرح الحوادث التي تتابعت في أيامهما ، فجاءت رسالته لا كما قل في نطاق ضيق ، بل منافذ مفتوحة لحياة الشاعرين ودراسة دقيقة لم يشبها حشو مملول أو تكرار ممجوج .

القاهرة عبد السلام رستم

سوق الغرور

لوليم ماكبيس تاكري

— ٢ —

وبينما قلب « إمى » الصغير يعاني ما يعاني من لواعج الحب عادت الآنسة « كرولي » إلى بيتها في « بارك لين » تصحبهما صديقتها العزيزة « بكى » التي كان عليها أن تمني بها قليلاً . ذلك لأن الخمر المعتقة . وذلك الشهي من ألوان الطعام قد أضرا بها قليلاً .

ولم يكن آل « ريجز » . وهم الصحاب القدماء للسيدة العجوز راضين أبداً عن مجيء « بكى » . ولقد زار الكبتن « رودن » عمته غير مرة . فقد كانت ثكنات فرقته تقع في مكان قريب . ولا شك أنه أتاح لنفسه نظرات خاطفة الى محاسن « بكى » الفاتنة .

وحين تقدمت الآنسة « كرولي » إلى الشفاء بفضل تطبيب الآنسة « بكى » البارع . تتالت الرسائل من سير « بت » يلح في طلب عودتها . ولكن أخته لم تكن لترغب أن تفارقها صاحبتها الظريفة التي طالما سرت عنها بملحها ولطائفها وظل صاحبنا يكاد يتميز من الغيظ . وقد طال به الى « بكى » شوقه وحنينه

وعادت الصحبة بين « أميلي » و « بكى » سيرتها الأولى . بعد أن تولاها الذبول قليلاً . ذلك لأن كلتا الفتاتين كانتا مشغولتين بهموم النفس .

وجاءت الأنباء معلنة موت « لادي كرولي » ولو أن أحداً لم يبك على تلك السيدة التعسة . ولما حضر سير « بت » الى المدينة لعمل من أعماله الكثيرة . جاء بنفسه يرجو الآنسة « بكى » أن تعود . وقد بدت عليه حالة غير عادية أغاظت تلك الفتاة الرزينة وأهاجتها ، ولما طلب اليها راجياً أن تعود لتصبح « لادي كرولي » بلغ منها التأثر مبلغه . وتوكيداً لقوله جثا هذا العجوز الخبيث المتصابي على قدميها .

ولشد ما دهش عندما رأى الدموع في عينيها . وكان حقًّا عليها أن تبكي . ذلك لأنه أصبح لزاماً عليها أن تعترف . وقد فعلت . فقالت : أنني يا سير « بت » متزوجة من قبل .

وجاءت على الأثر الآنسة « كرولي » . وهي جدّ غضبى . ولكن الرجل العجوز قد عاد سيرته الأولى في سرعة تدعو الى الاعجاب . وطفق يضحك ضحكاً خافتاً ويقول لـ « بكى » عكنك على أية حال أن تتخذيني صديقاً . وانه ليسرّه أن تعود الى قصره .

وإنه لمغنم كبير ذلك الذي فاتها . ولكن « بكى » هي واحدة من أولئك اللائي يتقبلنّ الحياة دائماً كما تجيء . ولقد اعترفت الآنسة « كرولي » التي أدهشها هذا الرفض فقالت : إنَّه وإن يكن قد بلغ من التأثر مبلغه لهذا الشرف فان صلة من الصلات تربطني بمكان آخر . ولم تقل هي من صاحب هذه الصلة . ذلك لأنها أيقنت أنه على الرغم من عدم رضا السيدة العجوز عن آرائها الحرَّةِ غير المقيدة فإنها إذا علمت بزواج هذه الوصيفة الفقيرة التي لا تملك درهماً بابن أخيها الحبيب الى قلبها . وهو « رودن كرولي » فإنها لابدَّ سوف تسخط وتغضب .

وذلك الضابط المحدود الذكاء قد سحر السحر كله بذكاء الفتاة . وكان إعجابه بظرفها وذكائها يعقد لسانه .

ولقد جاء الأوان أن لا يظل أمر زواجهما سرًّا مكتوماً . وفي ذات صباح دخلت الخادمة إحدى الغرف في « بارك لين » فألفتها خالية . وألفت ورقة مكتوبة الى الآنسة « بريجز » — وهي يومئذٍ واقعة تحت سلطان « بكى » — كُتب فيها تفصيل ما حدث . ووُجه فيها الرجاء الى الآنسة « بريجز » أن تكون لهما عوناً عند الآنسة « كرولي » .

وزاد من غضب السيدة العجوز شدَّة سخط سير « بت » عندما جاء ليعود بالفتاة الى « هامشير » .

وفي عاصفة من الغيظ والحنق بات يصبّ عليها وعلى « رودن » وابلاً من الشتائم .

وبينما كانت « بكى » تسعى الى زيادة دخلها كان آل « سدلي » يتلقون ضربة قاصمة . لقد تأثرت أعمالهم بحوادث القارة الأوربية ثم أفلسوا إفلاساً تامًّا . وآية هذا أن قد عرض للبيع بيتهم الواقع في ميدان « رسل » .

وقد زارت « بكى » وزوجها مكان بيع المعروضات . ودار عراك بين المزايدين على « بيانو » صغير كانت « أميليا » معجبة به . ثم رسا المزاد أخيراً على شخص يدعى كابتن « دوبن » .

ولقد أصبح السيد العجوز وزوجه و « إمي » يعيشون على ما يبعث به إليهم « جوزيف » من مال . ولكن ضياع الثروة لم يكن ضربة قاصمة كتلك الضربة التي تلقتها « إمي » في هدوء الموتى وصمتهم يوم جاءها النذير بأن « جورج » لم يصبح ذلك الرجل الذي كان مشتهى نفسها ومراد أحلامها .

وأن مسألة زواجه بها أصبحت موضوعاً غير قابل للبحث .

ثم إن نفس الأسباب التي أدت الى إفلاس أبيها قد تدخلت اليوم مرة أخرى في حياتها تدخلاً أبعد مدى . ذلك أن نابليون قد عاد من منفاه . وأن أوربا كلها قد اجتمعت لتحاربه ولذلك فقد أصبح من المحتمل أن يدعى « جورج » و « وليم » ليسافرا مع فرقتهما الى خارج البلاد .

وقد لقي « دوبن » يوماً ذلك الشاب ولقي معه ورقة من « أميليا » تحله من قيود خطبتهما . فتأثر لحلاوة كلماتها وعذوبتها قلب ذلك الفتى الأناني المستهتر .

وأما « دوبن » فما كان ليستطيع إخفاء شعوره الإخفاء كله . ذلك بأن « أميليا » كانت عنده المثل الأعلى للمرأة الكاملة . وذلك بأن سعادتها كانت تعني عنده الدنيا وكل ما فيها . ولو لم تكن به القدرة على مشاركتها تلك السعادة .

وتذكر الفتيان سحرها ، وفتنتها ، وسلامة طويتها . وطاف بخاطر « جورج » طائف من الأحساس بقلة التقدير لذلك الحب الذي ما قدره حق قدره ، فكان سبباً في قلة العناية بتلك الفتاة .

لذلك ولما أبداه « دوبن » من حجج لاقناعه . ذهب « جورج » لتوه وساعته الى البيت الريفي الصغير ليُدخل السرور على ذلك القلب المحب الساذج . الذي لم يذق في الشهور الأخيرة غير مرارة اليأس . فلم تلبث الفتاة إلاً قليلاً حتى عادت الى وجنتيها حمرة الورد . وحتى برقت عيناها الجميلتان .

وفي الوقت نفسه لم تكن الحياة عند « بكى » كما رسمتها في مخيلتها عسلاً وشهداً . ذلك لأن عمة « رودن » لم تصفح عنه أبداً.

وإن كان هو وزوجته يعيشان حتى ذلك الحين على الإستدانة فإنه سيجيء يوم تبطل فيه هذه الإستدانة .

وقد كانت السيدة « بيوت كرولي » يومئذٍ صاحبة الأمر والنهي في « بارك لين » وهي لم تترك فرصة للإشارة الى خبث « رودن » وخبث زوجته الصغيرة الماكرة إلاَّ انتهزتها .

وكانت تلك السيدة ترى أن خير حلٍ لهذه المشكلة هو أن يؤمر « رودن » باللحاق بفرقته في خارج البلاد .

وكذلك لمَّا سمع والد « جورج » . ذلك التاجر العجوز القاسي القلب بأن ابنه قد جدَّد عهد صلته بأميليا توعَّده بقطع صلاته به . وكذلك بحرمانه من كل عون . وبعد جدال عنيف ترك « جورج » البيت الذي قدر عليه أن لا يعود إليه أبداً .

ثم أُعدَّت العدَّة لزواج لا تحيط به الضجة . وذلك بفضل مساعدة « دوبن » وذهب العروسان لتمضية بضعة أيام في « بريتون » على أن يلحق بهما « جوزيف » بعد قليل .

وجاء « دوبن » يوماً مسرعاً يحمل « لجورج » نبأً هامًّا . وهو أنه قد أفشى سرّ زواجه لأبيه . وكذلك فإن أمراً قد صدر بسفر الجيش الى بلجيكا لملاقاة « بونابرت ».

ورأت « بكى » بعينيها اللمَّاحتين ما خفي على فطنة « أميليا » . وهو أن « دوبن » صديق « جورج » كان بها مولعاً مفتوناً .

وسافرت « أميليا » و « جورج » الى لندن ليدبرا أمورهما . ذلك لأنه تقرر أن تصحب السيدات أزواجهنَّ الى « بروكسل » وفي صحبتهنَّ « جوزيف » . ولم تحزن الزوجة الصغيرة لفراق « بكى » الفاتنة الساحرة .

وكل ما وصلهما من والد « جورج » كان مبلغاً من المال مقداره ألفان من الجنيهات. على أن لا يدفع للزوجين بعد ذلك أي مبلغ آخر مهما يكن قليلاً . ذلك لأن « جورج » لم يبقَ له مكان بين أفراد عائلة « سبورن » .

وكذلك شدّوا الرحال الى «بروكسل» حيث كانت تسود الجرأة والشفقة . وحيث كان معروفاً أنه عما قليل سوف تسوي الجيوش التي لا تقهر مسألة « نابليون » . وفي الوقت نفسه فان الجوّ السائد كان جوّ البهجة والمرح . فكان الزوّار يفدون الى « بروكسل » زرافات ووحداناً . وكأنهم جاؤوا ليشهدوا رواية في ملعب .

ولا حاجة الى القول ان « لقاء » آل «كرولي» كان أمراً لا بد منه . وكانت « إمي » ترقب نجاح صديقتها السابق في دنيا الحياة العامة التي خاضت هي غمارها الآن . أما «جورج» فقد كان مستعبداً غير حر .

وفي الخامس عشر من «يونيو» أقامت «دوقة ريتشموند» حفلة راقصة . وكانت ليلة مشهودة . وفي هذا المجتمع اللامع كانت زوجة « رودن كرولي » محط الأنظار من كل جانب . فقد كانت في أبهى زينتها . وكان سلوكها كأنما هي عاشت طوال حياتها في مثل هذه الأوساط .

أما « اميليا » فقد جلست منطوية على نفسها . بينما كان «جورج» يجري وراء «بكي» التي كانت ملتقى إعجاب الجماعة . وبعد أن عانت «اميليا» ما عانت من تجرع غصص الذلة . ومن معاناة مضض الإهمال والترك . تقدمت الفتاة المسكينة بالرجاء الى الصديق الوفي « دوبن » في أن يسير بها الى بيتها .

وما إن جاء الفجر حتى شاعت أخبارمشئومة . وذهب «وليم» لملاقاة صديقه . وكان هذا على مائدة الميسر . ولكن الأنباء التي جاء بها «دوبن» قد أرجعته الى صوابه . وبينما كان هذا عائداً أدراجه أيقن أنه في طريقه لملاقاة الصدام . وهو صدام قد لا يرجع منه أبداً . وطاف بخاطره بغتة خاطر يشوبه الحزن الممض ، والأسف البالغ على زواجه الذي كان رائده فيه الطيش والنزق .

وكذلك طاف بخاطره خاطر قسوته على زوجته . تلك المخلوقة الظريفة اللطيفة . ولكن لات ساعة مندم .

أما قصة « واترلو » وحديث مجدها فقصة معروفة لا تحتاج الى إعادة . ولكن ليس هذا بمانع أن نقول إن آلافاً قد فقدوا حياتهم ليصلوا « نابليون » نار الهزيمة الساحقة ،

وكان من بين هؤلاء الرجال « جورج اوسبرن» .

أما « اميليا » فقد ظلت تنتظر وقلبها مفعم بالحب . ونذر الشؤم ترفرف حولها بجناحيها . وكان « دوبن » يعني بأمرها في إبان محنتها . وهو الذي أنبأ والد « جورج » بقصتها . وكانت هي يومئذٍ على وشك أن تضع طفلاً .

وجاء الوالد ليزور قبر ولده في « بروكسل » . ولكنه رفض أن يمد الى « اميليا » يد المعونة . ذلك لأنه كان يكرهها .

وقد نفد المال الذي كان في يد « جورج » منذ زمن بعيد . ذلك لأنه وزوجه كانا يعيشان عيشة البذخ والترف . وكان «جورج» لا يضن بالمال على ما تشتهيه نفسه أبداً . ولم تعلم «أميليا» أبداً علم اليقين قلة ما كان في يدها . وكذلك لم تعلم علم اليقين مدى المعونة التي هي مدينة بها «لدوبن» . وقد فعل « دوبن » ما فعل لأنه كان المنفذ لوصية صديقه . وكانت — وقد أذهلها الحزن — لا ترى للمال قيمة .

ولما وضعت حملها . جاءها مولودها بأمل جديد . وأنشأ لها هدفاً تعيش من أجله بعد أن ذهب فارسها البطل الى غير رجعة .

وأنعشت الأمومة آمالها مرة أخرى . ولم يكن يعنيها شيء في هذه الدنيا سوى طفلها. ولما أعادها الصديق الوفي « وليم » الى انجلترا استقر المقام بها في البيت الريفي الصغير في «فلهام» حيث عاشت عيشة هادئة . ونذرت نفسها لحب طفلها .

وإذا كان قومها قد راقبوا عن كثب تفاني « الكبتن دوبن » في تودده اليها . وفي اغداقه الهدايا عليها . وفي زياراته المتتابعة فان « اميليا » كانت في شغل عن هذا كله .

فلما جاءها يوماً ينبئها بأن أمراً قد صدر اليه ليسافر الى الهند حزنت على فراق صديق كريم . لا أكثر ولا أقل .

وهناك في باريس كانت « بكي » أماً لولد . وكانت تحيا حياة الناعمين . وتعيش عيشهم . وذلك على حساب الاستدانة التي كان « رودن » لا يزال قادراً عليها . وكذلك على حساب مهارته في لعب الميسر التي كانت تزيد في دخله .

ولكنها لم تر في ذلك ما يأخذ بيده الى الأمام . ثم أجمعا أمرهما على العودة الى لندن .

فهناك قد يستطيع أن يحصل على وظيفة تليق بضابط . وبواحد من آل « كرولي » .

وكانت عمته لا تزال قاسية ، متحجرة القلب . ولكن « بكى » كانت على ثقة من أنها بذكائها سوف تضمن لزوجها الإسعاد .

من أجل ذلك انتقلت هي وزوجها الى بيت أنيق صغير في شارع كرزون . ولما جاءت الأنباء تنعي الآنسة « كرولي » لم تأخذها الدهشة عند ما سمعا أن نصيب زوجها من الميراث قد انتقل إلى أخيه « بت » الذي كان يومئذ متزوجاً . والذي عرف كيف يتسلل الى فيوض فضل تلك العمة .

ولم تعرف الحيرة السبيل الى قلب « بكى » بل كتبت خطاباً مهذباً الى « بت » تهنئه فيه بما ناله من ميراث كبير . وتتمنى له السعادة كلها . وتحيي « لادي جين » ، وترجو وتأمل أن يسعد « رودن الصغير » يوماً بلقاء أهله الأعزاء

وهكذا مهدت « بكى » الطريق لعلاقات طيبة مع عائلة أخي زوجها .

وفي « هامشير » أصبح البارون الشيخ أكثر غرابةً في أطواره كلما تقدّمت به السن . وأصبح ميله الى صحبة الأوشاب أكثر وضوحاً . كما أصبح ولعه بالخمر أكثر شدّة وعراماً .

وقال المرجفون إن الحسناء الرائعة . إبنة الساقي « هوروكس » تطمح أن تكون « اللادي كرولي » . وقد كان حقّاً أن لها في البيت منزلة تتطاول لها الأعناق .

ولكن حدث ذات ليلة أنّ مقداراً من الخمر قد زاد عن حده . قد سبب موت الشيخ التعس . فلما مات لم يحزن عليه أحد إلاّ — وهذا استثناء محتمل — الآنسة « هوروكس » التي فقدت بفقده مكانتها .

وتنفس « بت » الصعداء . ذلك لأنه أصبح الآن قادراً على أن ينظم بيت أجداده .

وجاء آل « رودن كرولي » يحضرون الجنازة . وكانت « بكى » مثال اللباقة والكياسة فكسبت رضا أخي زوجها — وهو ذلك المختال الفخور — بالثناء على براعته وقدرته . وكذلك أسرت « لادي جين » بما أبدته من اهتمام بأطفالها . ولو أنه لا يمكن القول إن « رودن » الصغير قد لقي يوماً عندهم شيئاً من هذه الرعاية .

وعند ما عادت « بكى » وزوجها الى المدينة إنغمسا في حياة البهجة . تلك الحياة التي

كانت « بكي » حليـة من حلاها . وقد عرف كل الناس — وبخاصة الرجال — أنَّ من دخل بيت السيدة « كرولي » فانه لا يعدم البهجة والمرح .

وكان من المكثرين الإكثار كله من زيارتها « لورد ستين » الكبير . وهو رجل واسع الثراء وهو من تستطيع — اذا استعانت بجاهه وسطوته — أن تفتح كل باب مغلق .

وكان أصحابه الذين يجيء بهم يلعبون الميسر مع « رودن » الذي كان ينكمش شيئاً فشيئاً .

وقد بدت المسكنة على وجه زوج السيدة « كرولي » . وكان أكبر سرور له في الحياة أن يصعد الى غرفة طفله ليلاعبه .

وكانت أم الطفل تذهب الى تلك الغرفة بين حين وحين . ولكنَّ الطفل لم يكن يظفر منها بغير كلمات فاترة قبل أن تغادره لتذهب الى الاوبرا . أو الى المسرح أو الى واحد من مجالي اللهو التي كانت تضيع فيها أوقاتها كلها .

أمَّا « أميليا » فقد كانت تحيا حياة هادئة مستقرَّة . وهي راضية كل الرضا بتلك العيشة البسيطة . وكانت تناجيَ نفسها فتقول : ماذا يعنيني المال قلَّ أو كثر . أليس عندي أكبر كنز في الدنيا أسهر على رعايته والعناية به ؟

وكانت الخطابات تصل الى « دوبن » في الهند . وفيها وصف لتقدّم الولد تقدُّماً عجيباً . و « دوبن » يطرب لسماع هذا النبأ . كما يطرب لكل شيء يذكره بالمرأة التي أحبَّ

ووصلت أنباء الحفيد الصغير الجميل الى سمع جده الشيخ « اسبورن » . وذلك عن طريق بنته التي لقيت الطفل في بيت آل « دوبن » حيث كان يلذ لفتيات البيت أن يروه.

وكان الشيخ القاسي القلب يصغى — في لذة — إلى أنباء حفيده في شوق بالغ يحدوه الحنان . وقد حانت يوماً الفرصة المنتظرة فدفعت به الجرأة إلى أن يعرض على الأم المسكينة مالاً إذا قبلت التخلي عن « جورج الصغير » وسمحت بأن يربيه جدّه التربية اللائقة بسليل بيت من بيوت المجد .

فأثار هذا العرض ثائرة « أميليا » على الرغم من طبعها الهادىء . إذ كيف تقبل أن تضحي بأعز عزيز لديها . وبالمصدر الوحيد لسرورها في هذه الدنيا التي تزداد وطأة الفقر فيها شدّةً . ذلك لأن أباها قد بدد ما يملك من مال قليل .

ولكن جاء يوم أيقنت فيه أنها بعملها هذا قد تكون سبباً في حرمان ولدها من فرص لحياة رضيّة هو أهل لها . فرأت أن تتخلى عن ولدها . وبها من الحزن ما بها .

ثم وُضع في الاتفاق شرط يسمح للأرملة الظريفة أن ترى ولدها كلما أرادت . وأقرَّ هذا الشرط جدّ الولد . [لها بقية] مبارك ابراهيم

قصة

ابنة القاتل

للكاتب الفرنسي « م . جيراردبه »

ترجمة الآنسة نعمت حسني

البحر ثائر ، يدفع الى الصخور بجيش من الأمواج ، رهيب لا يترامى اليه الخيال . ووقفت هي في مكانها لا تتحرك ، قلقة تتوقع قيام العاصفة . وفتحت المنارة عينها ، يومض نورها وسط الظلام .

إن التي وقفت في مكانها لا تتحرك .. تلك هي امرأة أتت لاشعال المنارة . وقفت هناك في أعلى ، وقد عصبت شعرها بمنديل ثبتته حول رأسها . وضمت الحرملة على صدرها وكان الهواء شديداً يحاول انتزاعها . ثم انعطفت تأخذ مصباحاً ، كان على الأرض بالقرب منها .. وبينما هي تتأهب للنزول ، سمعت وقع خطوات .

وخرج من الظلام ، رجل بدت على مظهره المتوحش ، علامات السكر الشديد ، وكان يتمتم بكلمات مبهمة — ثم قال وعلى فمه ابتسامة بلهاء حائرة :

— هل أتممت العمل ؟ ... هذا حسن ...

ثم انفجر يضحك ضحكات جنونية ، دوت في ذلك المبنى الضيق ، وطغى صوتها على صوت الأمواج فقالت المرأة في حزن .

لو أني لا ألاحظ المنارة بنفسي ، لهلك الكثيرون من الملاحين .. بينما أنت في الحانة ، تحتسي الخمر . فقال الرجل متلعثماً .

— أتؤنبينني ؟ لو كان هذا ما تقصدين ، فاني أنهاك عن ملاحظة المنارة . . . بل أمنعك ! فهزت كتفيها قائلة :

أتريد أن أصارحك القول ؟ . . . أنت إنسان عديم النفع . . ولولا قيامي بعملك ، لكان ما تصيبه من النقود ، في حكم المسروق . . . فنظر إليها الرجل بغضب . . وعادت هي تقول :

— أجل ، أنت انسان عديم النفع . . سكير ...

وما كادت تتم كلمتها ، حتى هجم عليها الرجل ، وقد اتخذ من قبقابه الغليظ سلاحاً ، وجعل يضربها ! كان يضربها دون تبصر . . على رأسها ، وعلى صدرها ، وعلى خاصرتيها . . .

كان في استطاعتها ان تهرب من ذلك الرجل ، الذي أضاع صوابه الخمر . . ولكنه واقف أمام الباب المفتوح . . ولو دفعته تريد الافلات منه ، لتدهور في الفضاء ، ولقي حتفه على تلك الدرجات الحجرية . . لا ، إنها لن تفعل هذا ، فهو زوجها . . . وجعلت تدافع عن نفسها فقط . . فتحمي رأسها بذراعيها . وزاد به الغيظ والحنق . . فضربها على ذراعها ضربة جعلته يسقط هامداً . . ثم لطمها على رأسها لطمة قوية . . سقطت على أثرها لا تتحرك ...

وبغتة ، ظهرت الابنة . . وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ! . . . اتسعت عينا الطفلة ، ووقفت في مكانها جامدة ، وقد استولى عليها الرعب . أما هو فقد تزايد غضبه . . ورفع جثة المرأة ، ورمى بها على السلم . . وإذا بها تتدهور على الدرج الحجري ، وتدهورت معها الطفلة ! وكيف ذلك ؟ . . . لقد رمت بنفسها فوق جثة أمها ! ...

وردد الرجل ، نفس الضحكة الجنونية . ثم أفاق من سكره . . وأخذ رأسه بين يديه ، وجعل ينظر في الفضاء برعب ...

* * *

وانتشر الخبر ، ان زوجة « ليجوف » قد تدهورت من أعلى المنارة ، وماتت قضاء وقدراً . أما « آن — ماري » الطفلة ، وهي الشاهد الوحيد . . فإنها لم تفتح شفتيها بكلمة عن الحقيقة . وليس من أحد خطر بباله أن يسألها . . أو يتطرق الشك الى ذهنه ، إن المأساة فيها جريمة .

وشيعت المرأة المسكينة ، الى مقرها الأخير . . وبعد قليل من الزمن ، لم يعد أحد يتكلم عنها ، فقد طغى على ذكرها النسيان . ولكن هناك من كان يذكرها : آن — ماري ، التي أشجى فؤداها الحزن ، وأصبحت شاحبة الوجه ، هادئة رزينة ، لا تفارقها ذكرى أمها — الشهيدة — والتي كانت تنظر الى أبيها — القاتل — بعينين تشتعلان غضباً وتهديداً .

لم تخن الفتاة أباها . . ولكنها أقسمت أن تعاقبه حسبما يتراءى لها . . . وفكرت : سوف لا توجه إليه خطاباً . . لا . . سوف لا تكلمه البتة . . وكان فيها عناد الأصل البريتوني . . فلم تحنث في قسمها .

كان الرجل يشتد به الغضب ، كلما وجد كلامه لا يلقى جواباً . . ولكن نظرة من الفتاة ، كان فيها من القوة ما يغني كلاماً يريد أن يفوه به ، ويجعله يتلاشى قبل أن يتحرك به لسانه . . تلك هي نظرة تعيد الى الذاكرة مشهداً مروعاً !

وسط هذا العالم الخضم ، بدأ هذان المخلوقان حياة حزينة . حيث لا يتبادلان حديثاً . وحيث لا تنظر الفتاة الى أبيها . حقاً إنها لحياة كئيبة ، حتى ليخشى منها على الصواب ! وكثيراً ماكان الرجل يخرج الى الطريق ، ويقف بالقرب من الأكواخ ، ليتسمع الى الأصوات الآدمية ! فإذا أقبل المساء ، توجه الى الحانة ، ليحتسي الخمر مع رفاقه . ويفكر فجأة في المنارة . فيسير متعجلاً نحو الصخور بخطى متعثرة . ولكن آن — ماري ، تكون قد أشعلت المصباح . فيشكرها الأب . ولكنها تقابل شكره دواماً بالصمت . ذلك الصمت الذي فيه ما فيه من البغضاء والنفور .

* * *

ودخلت الفتاة في الثامنة عشرة من سني حياتها . وازدهر جمالها ، والتمع حسنها ، وتحدث الجميع عن أدبها وكمالها . فتقدم إليها الكثيرون من شبان الحي . كل يقدم لها حياة أقل عبوساً من تلك التي تحياها ، ولكنها رفضت الزواج : فالمنارة تضطرها أن تلزم دار أبيها . المنارة التي تقوم بدور الحارس ، على حياة الكثيرين في الظلام ،فقد كانت تعلم أنها لو تركت امر المنارة لأبيها ، فسوف يبحث الملاحون عبثاً ، عن نجمهم الهادي . وسوف يحدث ما لا تحمد عقباه . وتعلم أيضاً ، أن أباها سوف يطرد ، ويحرم من مرتبه المتواضع . ولا يكون أمامه إلاّ الموت بائساً وحيداً ! إنها لا تشعر حياله إلاّ بالغضب والتحقير ، ولكنها لا ترضى له ذلك المصير .

وذات مساء ، وكانت الفتاة في أعلى ، حيث المنارة . وكانت العاصفة على أشدها . فأصابتها لفحة هواء . وهبطت الدرجات الحجرية ، وقد سرت القشعريرة في بدنها . ولازمها السعال طول ليلتها .

ومرّت الأسابيع ، والمرض عندها لا يتلطّف . بل يزداد حدّة ! ومرّ على خاطرها أنها قد تموت . فثارت ثائرة نفسها : إنها إذن ، سوف لا تتذوّق أي فرح من أفراح الحياة ؟ . وتبين لها فجأة ، أن تضحيتها ، إنما هي بعيدة عن الصواب . وتمنت لو أنها تشفى . وباتت تنتظر الشفاء في شغف وشوق . إنها تريد نصيبها في الفرح .. في الحب .. في المستقبل .

واشتدّت بها وطأة المرض . وأصبحت الفتاة لا تمشي إلاّ بصعوبة . ولكن ، عندما كان يقبل المساء ، قبل أن يعود الأب . كانت تجرّ نفسها جرّاً ، الى أعلى الفنار . ثم تهبط وقد وهنت قواها واضمحلت . . . كانت الفتاة تنظر في الفضاء اللانهائي ، وقد

لمعت عيناها في محياها الباهت . وأصبح الأب قلقاً ينظر طويلاً الى ذلك الفم المغلق ، الذي أصرّ على الصمت في عناد .

***

كان يتردد على الفتاة بالزيارة ، بعض الجيران ، ممن عرفوا أمها فيما مضى . فكانت ترحب بهم .. وتكثر من سؤالهم عن كل ما يذكرون عن أمها . وعندها ، يتسمع القاتل الى صوت ابنته ، كما لو كان يتسمع الى موسيقى الـهية.. كان يود لو أنها تنسى يوماً ، وتبادله الـكلام ! كان معذباً تعذيباً قاسياً . فقد كانت زوجته تتراءى له في كل ليلة .. تلومه وتعنفه على جريمتـه ، بصوت أعلى وأقوى من صوت الرياح والأمواج مهما اشـتدت وعظمت . وانقلبت سريرة الرجل . شيئاً آخر .. وقد أخذ الرشاد ينبثق فيها انبثاق النور في الظلام . ورسخ في ذهنـه أن القتيلة ، قد تكفّ عن تعذيبهـا لو أن الإبنة تعفو عنه . ألا ليته يستطيـع أن يظفر من ابنته بكلمة يطيب بهـا قلبه البائس ... كان يتوقع حلول المصاب ! ويتخيّـل الدار وقد أصبحت قفراء حزينة ! يا لله ! أتموت آن — ماري ! ولـكن يجب أن تتكلم .. يجب أن تقول له كلمة تنجو بها روحه من العذاب ...

غير أن الفتـاة ما زالت على اصرارها .. لا يثنيها عنـه مر الأيام . وتوغّـل الداء في صدرها .. وظهر عليهـا الهزال ... وكانت تسهر عليها صديقة لها . ولشدّ ما كان الرعب يتملك آن — ماري ، عندما كانت تتخيّـل ، أنها قد تضطر الى مكالمة أبيها . لا .. إنها لا ترغب في نزع السلاح . كانت إذا تلاقت عيناها مرة بنظرات أبيها الحزينة ، التي تلازمها دواماً ، فما أسرع أن تغضّ عنه عينها .

***

وأخيراً ، وقد أحست آن — ماري ، أن العمر يذوب قطرة إثر قطرة . . فإنها طلبت أن يؤتى لها بقسيس .. وأتى يصحبه طفل ... ودخلا بخطوات لها صوت وقعه رهيب . وازداد شحوب الفتاة عندما سمعت طنيناً ضعيفاً ، عرفت فيه صوت الزيوت المقدسة !

واعترفت الفتاة ! ... ولـكنها احتفظت بكذبتها الـكبرى . حيث لم تبـح بالحقيقة ، ولم تتهم قاتل أمها . ولـكنها إبنة القاتل ! وكيف تبوح بسرّ أبيها ! إنه سرّ سوف تحتفظ به كوديعة مقدسة ، لا تسلمها لغير ربها . إنه سرّ لا سلطان لها عليه البتة . ولما دخل الأب بعد ذلك الى حجرة ابنته ، فانها ارسلت اليه نظرة قرأ فيها بوضوح : « اني لم أقل شيئاً عن سرك » .

وظنّ الرجل ان ابنته ، قد هدأ في قلبها الحقد والكراهية . ظنّ أن هذه المائتة ، سوف تفتح له ذراعيها النحيلتين ، وتقطع الصمت . فركع بالقرب من سريرها .

كانت آن — ماري ، قد أنهكها الجهد الذي انفقته في الاعتراف ، فأقفلت أجفانها وضمت ذراعيها . فبدت وكأنها دخلت في راحتها الأبدية . فأصابت الرجل قشعريرة سرت

ولكن الفتاة ما زالت تتنسم نسيم الحياة . وكان أبوها يرقب وجهها الناصع البياض، وفمها الذي يلفظ انفاساً ضعيفة قصيرة . وتمتم الأب قائلاً :

— آن — ماري ! اغفري لأبيك . كلّميه . أرجوكِ . أتوسل اليكِ . قولي انك عفوت عني . ولما كانت تلزم الصمت ، فقد الحّ الرجل قائلاً :

— لِمَ لا تقولين شيئاً ؟ قولي كلمة . كلمة واحدة . ليس هذا بالشيء الكثير . كلمة تؤكد أن . . . انكِ قد نسيتِ جريمتي . انكِ هناك في أعلى ستضرعين من أجلي . آن — ماري ، أجيبي ! ...

وانتظر لحظة . ولكن الفتاة لا تجيب ، وكأنما تهيم في عالم بعيد . فصاح الأب في جزع متوسلاً :

— آن — ماري ! ردّي على أبيك يا بنيتي ... اني على كل حال ، لم أسيء اليك !

ونهضت آن — ماري، على ذراعيها . وقد تبعثر شعرها . وحوّلت نحوه عينين ملؤهما الاشباح . فقد ارتفع الماضي بين ذلك الرجل الحائر الولهان ، وبين تلك الفتاة التي يقتنصها الموت . ذلك الماضي الذي لا يمكن لها أن تنساه . وفهم الرجل ان ابنته قد أجرت العدل في عقابه . وانه صريع انتقامها !

وبينما كان ينظر الى آن — ماري ، رأى نوراً عظيماً ، قد أضاء على وجهها . ثم وثبت الفتاة بقواها الأخيرة، وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة حزينة ، واغرورقت عيناها بالدموع. ومدّت ذراعيها نحو شبح غير منظور . ونطقت بتلك الكلمة القريرة . أول كلمة تلعثم بها لسانها الصغير فيما مضى :

— أماه !

ثم هوت على فراشها ، وقد فارقت الحياة .

نعمت صدقي

باب المراسلة والمناظرة

في قصيدة « رهين » المحبسين

قرأت في مقتطف دسمبر سنة ١٩٤٨ قصيدة مهداة الى روح أبي العلاء المعري (رهين المحبسين) لناظمها (كاظم مكي حسن) والقصيدة كانت منصبة على مدح أبي العلاء ولم يبد فيها ناظمها رأيه في الشاعر بل ظهر بمظهر المؤيد الى أبي العلاء في جميع ما قاله أو ما تفلسف فيه . وكما يبدو من قصيدته أنه وقع في خاطىء الرأي من جهة نظرته التأييدية المطلقة الى أبي العلاء . ولذا فيحق لي أن أنبه الناظم الى بعض هنات الرأي في قصيدته . وأولها : أن الشاعر يحسن به أن يبين مناقب ومثالب ممدوحه ويبدي رأيه الشعري في ممدوحه أو أن يبين تعليلاً يغطي به بعض مثالبه حتى لكأنه يظهرها وكأنها من قبيل المناقب . وهذا لم نجده في القصيدة بل وجدنا الناظم قد استرسل في المدح وأغضى عن تبيان رأيه في متناقضات أبي العلاء المعري المعروفة وهل أدل هذا من قوله .

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد

وقوله :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

فما أوسع وأكبر التناقض بين الرأيين . إذ أن أحدهما ديني إرشادي والآخر كفري إلحادي غير مؤمن بالمعاد . ولذا يحق للبعض أن يرميه بالالحاد .

وثانيها : لقد استرسل الناظم في تأييد أبي العلاء حتى لقد تحامل على ناقديه مع أنهم على حق في ذلك الأمر الذي يدل على عدم انتباهه الى مواطن الضعف الظاهرة التي هوجم منها ممدوحه وأنه مهتم فقط في سوق العقيدة في قالبها المقفى .

وثالثها : إن الناظم ينفي الجمود نفياً قاطعاً عن ممدوحه وذلك في قوله « دعوت إلى نبذ الجمود ... » ويعتقد في أنه ما سعى في حياته إلا الى حرية الرأي وحقيقة فلسفة أبي العلاء

وخواطره الشعرية تثبت عكس ما ذهب إليه ، إذ أن أبا العلاء في حياته أقرب الى الجمود منه الى الانعتاق في عالم الحرية .

وهل أدل على هذا من قوله .

« تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد »

وما الحياة لو دققت . إلا نتيجة لتفاعل الفكر مع الطبيعة وموجوداتها .

وهل يوجد أكثر من قوله هذا تثبيطاً للهمم البدنية والفكرية . إنه الدعوة الى الجمود بأجلى مظاهرها . فكيف يؤكد ناظمنا تأكيداً قاطعاً بدعوته الى نبذ الجمود . وبأي دليل قطعي ؟ .

ورابعها : لقد استرسل صاحبنا في الأغضاء عن هنات أبي العلاء لتمسكه في جانب واحد منها حتى أنه لم ينتبه الى جانب الجمود في رأي أبي العلاء الذي نظمه بقوله :

وقلت تساق الضأن للذبح عنوة وقسراً وتخشى في مرابطها الأسد

بقيت حصوراً لست ترضاك والداً تذل وتشقى في جنايته الولد

إن هذين البيتين — ولو يظهر في أحدها جانب العدل — ليدلان دلالة قاطعة على أن أبا العلاء جامد يائس يدعو الى الجمود إذ أن رقته بالحيوان تدعوه الى عدم اجراء التجارب الطبية عليه واستخراج الأمصال ، لو عرف هذا من قبل . وإذن فلا يسعى لترفيه البشرية بموت حيوان مؤذٍ ضار . وفي هذا ما فيه من خنق الأفكار والمفكرين وهم في المهود . وأما دعوته لقطع دابر النسل خوف سوء التربية فهي أبلغ دليل على جمود الفكر ولو سلكتها الناس لما وجدت هذه الحضارة واختراعاتها ، ولا نعمنا بآراء مفكري البشرية ، بل لقد تحوّلت الأرض الى بلاقيع ليس فيها إلا اليعافير وإلا العيس . ولو أنه كان بعيد التفكير لطرأ له أنه قد يحصل في نسل المستقبل أناس مفكرون يركّبون جميع الأغذية من النبات والمواد الكيمياوية فيستغنون عن ذبح الحيوان هذا الذي يرأف به عبر حدود المعقول . سقت هذه الكلمة لا لأقلل من قيمة أبي العلاء كشاعر وفيلسوف ولكني لأؤكد بأنه ليس متفرداً بالكمال وأن ناظم القصيدة مدح أبا العلاء وآراءه دونما تعمق في النظر فيها . وأملي أن يتنبه الى هذا والسلام .

القورنة — البصرة رشيد السعد

باب الأخبار العلمية

عداد جيجر أو صمامه

(١) كيف يرشد الى مواضع الثقوب ومكامن الخلل التي تطرأ على الآلات (٢) ثمن هذا الجهاز حالياً (٣) كيف انتفع به الذين شهدوا تجارب اطلاق القنابل الذرية في بكيني. (٤) متى اخترع هذا العداد (٥) معارضة روسيا في اعلان ما تملك من الاجهزة الذرية. (٦) ارشاده الى مناجم تبر للمعادن ذات الطاقة الاشعاعية (٧) استعماله لحراسة المباني الحربية (٨) كيف تعالج الاشياء المراد كشف غوامضها بوساطته (٩) التوسل به الى صون آبار الزيت المعدنية. (١٠) وصف تركيبه.

جاء في البرقيات العامة[1] من شيكاغو في ٢٩/١٢/٤٨. أصبح صنع السفن التي تسير بقوة الطاقة الذرية أمراً أقرب الى الحقيقة اذ أعلنت لجنة الطاقة الذرية اليوم مشروعاتها الخاصة بانشاء الأفران الاختبارية التي تلائم مواصفات الآلات التي تستخدم في تسيير السفن في المستقبل باليورانيوم بدل الفحم.

قلت في موضوع على (الذرات المشعة ومنافعها الحيوية) نشر في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٤٣.

« حينما يبتدىء هضم الغذاء وتمثيله، يسجل العداد الكهربي المسمى عداد جيجر مسير الطعام في جسم الانسان، الى مقره الأخير، حيث يصير جزءاً من ذلك الجسم لأن خاصية الاشعاع الصناعي التي تكتسبها العناصر المشار اليها وقتية، تزول في بضعة أيام ولا تترك أثراً سيئاً في الجسم البشري، بل تنفعه في دراسة أمراض تضخم الغدة الدرقية، وفي حالة اللوكيميا (وهذه تتميز بزيادة كبيرة ثابتة في عدد الكريات البيض) وفي أدواء تضخم الطحال والغدد الليمفوية والأورام وفقر الدم.

ثم ختمت ذلك البحث قائلاً « وقد حاول بعض أطباء كليفورنيا، تقصي جراثيم التدرن الرئوي في الجسم البشري، وذلك بتغذيتها أولاً بأملاح الفسفور المشعة. وفي سنة ١٩٣٩ منح الأستاذ ارنست لورنس، جائزة نوبل لاختراعه جهاز تهشيم الذرة، ولأجل مكتشفاته في الطبيعيات، وهي التي

---

(١) وهذه البرقية تؤيد ما ذكرته في مقال نشر في مقتطف مايو سنة ١٩٤٦ حيث قلت: انه يمكن أنشاء المصانع التي تولد البخار أو الكهرباء التي قوامها الحرارة الذرية لتسيير البواخر والقاطرات المصرية.

كانت نتيجة عبقريته ، إذ رأى بثاقب نظره ما يحتمل أن تؤديه المواد المشعة ، من الفوائد للعلوم الأخرى». لذلك استصوبت وصف هذا العداد فيما يلي : —

قال كاتب أمريكي في وصف هذا الجهاز ما يأتي : —

من الميسور عامة في المستقبل القريب أن يصبح جهاز جيجر العداد ، من الضروريات لدى كل أمريكي وأمريكية ، كالثياب الشخصية لكل منهما .

ولا غرو فقد ثبت أن ألوفاً من الأمريكيين الذين يمارسون أعمالهم في المواد ذات الطاقة الاشعاعية أو قريباً منها ، ونعني بها اليورانيوم والبلوتونيم والراديوم وأجهزة أشعة رنتجن وجهاز تهشيم الذرة ، غدوا لا يستغنون عن هذا العداد .

ولكن عند ما تستخدم الطاقة الذرية في مصانع المدن والأرياف ، وحينما تستعمل لتسيير البواخر والبوارج والسكك الحديدية والسيارات والطائرات العصرية ، سيربى عدد الناس الذين ، سيهتمون بالمواد ذات الطاقة الاشعاعية ، عليهم في الظروف الحالية حتى يعادل عدد سكان الولايات المتحدة حالياً .

ولا مندوحة حينئذٍ عن الانتفاع بهذا الجهاز، في المساكن التي تدفأ بالطاقة الذرية وترطب وتضاء بها ، حيث يقوم بالحراسة الدائمة ، ضد الثقوب والاتلاف التي تطرأ على تلك الآلات . ذلك لأن أي تلف كان تستهدف له ، ينجم عنه انتشار أشعة غما وغيرها من الأشعة القتالة ، في المنطقة المناوحة لها .

وهي أشعة لا تمكن رؤيتها أو سماعها أو الشعور بها . بيد أن عداد جيجر يكتشفها توًّا فيحذر السكان من أضرارها قبل تعرضهم لها تعرضاً فتاكاً [1] .

وهذا العداد يشبه من بعض الوجوه ، آلة مصورة من مصورات السينما ، ذات سماعتين توضعان على أذني مستعملة . وإذا صوب هذا الجهاز الى جسم قاص من الاجسام ذات الطاقة الاشعاعية ، ولو كان ميناء ساعة مدهوناً بالراديوم ، شرع هذا الجهاز العداد في التحرك والطقطقة إذ تهيج إبرته المثبتة على مينائه . وتتوقف درجة تهيجه على مبلغ الخطر الذي يتبين وقتئذٍ لحامل الجهاز . ولولا عداد جيجر هذا لما تمكن العلماء من تقدير الاضرار التي نجمت عن تجارب اطلاق القنابل الذرية في بيكيني . تلك الخسائر الفادحة التي بلغت ملايين لا تحصى من الدولارات . على حين أصبحت نفقة صنع الجهاز الواحد من هذا النوع لا تعدو خمسة ريالات .

---

(١) جاء في الانباء البرقية من شيكاغو — في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ أن المستر رودربجز المتخصص في البحوث الذرية توفي يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٤٨ وذلك في أحد المستشفيات هناك ، نتيجة لاصابته بالاشعاع الذري

ثم أضاف الكاتب الأمريكي ، قائلاً :
« ولم يكن أحدٌ منا نحن الذين ، شهدوا التجارب الغريبة المشار إليها ، يجرؤ على الدنو من أية منطقة كانت من أهداف التجارب الذرية، إلاَّ وهو موقن ،بوساطة عداد جيجر ، بخلوها من التلوث بالطاقة الاشعاعية » .

« وإن أنس فلن أنسى منظر طائفة العمال الذين عهد اليهم حينئذٍ في حمل عدادات جيجر ، وهم يسيرون الهوينا ، خطوة فخطوة ، وذلك على ظهور السفن الحربية التي استهدفت لتدفق أشعة القنابل الذرية ، حيث كانوا يسددون أجهزتهم المشار اليها ، شذر مذر ، منصتين لخطوات تكتكة العداد ، مراقبين إبرته . وحتى الماعز والخنازير التي كانت تدنو منهم ، كانوا يعرضونها لعيون عدادات جيجر الحساسة.

وكان أشد الأشياء تأثراً بالطاقة الاشعاعية ، خنزيراً ميتاً ، وُجد على ظهر الباخرة نيڤادا (إحدى بواخر الولايات المتحدة الأمريكية) التي كانت مسلحة بمدفع من عيار ٤٠ مليمتر . وهي إحدى السفن التي جعلت أهدافاً للقنابل الذرية ، إذ تبين أن كرياته الدموية البيض ، كادت تفنى بأجمعها ، وذلك قبل صعود حملة عدادات جيجر الى ظهر ذلك المركب الصريع .

وقد تيسر في ذلك اليوم المشهود ، حصر المناطق الملوثة والانفجار الجوي ، حصراً نسبيًّا . فكان حملة عدادات جيجر يرسمون بالزيت دائرة حمراء حول كل منطقة لا تزيد مساحتها على بضع ياردات مربعة من ظهر السفينة أو آلاتها . ثم كانوا يحذروننا من ولوج تلك الدائرة الخطرة . وحدث في عصر اليوم الثالث لانفجار القنبلة الذرية أن سمح لنا حامل عداد جيجر ، بالسباحة على مدى شاطىء بيكيني . وبعد انقضاء أسبوع على ذلك الحادث،حالت التحذيرات التي تلقيناها ، عن طريق هاتيك العدادات، دون دخولنا في منطقة طيران طائرة من طائرات الاسطول الأمريكي ، من الطراز الذي تسيطر عليه الموجات اللاسلكية ، على بعد ٢٠٠ ياردة ، حيث أطلقت في مجال الغيمة الذرية [١] وتوقن لجنة الطاقة الذرية التابعة لهيئة الأمم المتحدة أن الطاقة الذرية لا بدَّ من حلولها محل الفحم الحجري وزيت الوقود، في مشروعات دائمة ، ولذلك اقترحت على اللجان التي تفحص الأجهزة الذرية المركبة في العالم أجمع ، التذرع بهذه العدادات لتستطيع القيام بوظائفها على خير ما يرام .

غير أن روسيا تعارض الآن ، في إباحة القيام بهذا البحث في بلاد السوفييت .

وعداد جيجر ليس جديداً في ذاته ، بل قديماً إذ بدأ العمل في اختراعه في سنة

---

(١) أنظر البرقية التي أثبتناها في صدد هذا المقال

١٩٠٨ وذلك تحت إشراف هانز جيجر Hans Geiger العالم الألماني الطبيعي الذي ولد سنة ١٨٨٢ بيد أنه لم يتح له إبلاغ هذا الجهاز الحساسية الشديدة التي كان ينشدها له ، إلا في سنة ١٩٢٠ .

ويؤلف العداد الجيجري من قلب ، هو صمام يكاد يشبهه في الراديو ، إلا أنه مجرد من الاضاءة .

وفي باطن ذلك الصمام اسطوانة من الصلب [1] الذي لا يصدأ مملوءة بغازي الأرجون والكريبتون وغيرهما من الغازات الجوية النادرة .

وفي وسط الاسطوانة يمتد سلك من معدن الطنجستن ، لا يزيد قطره على $\frac{30}{1000}$ من عقدة الأصبع « البوصة » ويشحن هذا الجهاز ، ببطاريات عادية من الطراز الذي يحمل في الجيب . وبلغ من دقة إحساسه ، أنه يشعر بكل شعاعة مضرة فيتهيج تهيجاً ملحوظاً يلفت اليه مستعمله .

ويرى المطلعون على الحقائق ، أن مهارة هذه الآلة الحارسة ، التي لا حد لها ، سوف تجعلها من ضروريات البلاد الأمريكية .

ولا بدع في وسعها الارشاد الى تبر المعادن ، ذات الطاقة الاشعاعية . وهذا التبر نادر الوجود ، ويصعب الحصول عليه في أرجاء بلاد الولايات المتحدة الأمريكية بغير هذه الوسيلة . ثم إنها تكشف عن الثقوب التي تحدث في غلافات آبار الزيت المعدني ، كما تبين ثخانة الدهانات الزيتية التي تدهن بها السيارات والثلاجات الجديدة وتقيس ثخانة المراجل والأنابيب التي يخشى عليها من التأكل الداخلي . وتقيس سطوح السوائل المحفوظة في الصهاريج المختومة قياساً مضبوطاً .

وكل ما تحتاج اليه لاداء أعمالها ، مساعدة طفيفة هي دهن أو مزج الأشياء التي يراد كشف غوامضها أو الوقوف على خفاياها وأضرارها ، بمادة ذات طاقة اشعاعية متوسطة . ومن المرجح عامة ان عداد جيجر سيتولى الحراسة في كل مدخل من مداخل المباني الاستراتيجية ، وذلك عند ما تشتد الازمات العالمية ، لكي يفتش كل راغب في ولوجها . غير ان الشركات الست التي انشئت في بلاد الولايات المتحدة الامريكية ، ووسعت نطاق منتجاتها من هذه الأجهزة ، لا تفكر الآن الا في الانتاج اللازم للسلم ، في هذا العصر الذري » .

* * *

وبعد كتابة ما تقدم أتيح يوم ٢٨/٤/٤٩ لكاتب هذه السطور مشاهدة هذا العداد الرائع ، وذلك في معرض الذرة الذي أقيم في كلية العلوم بقصر الزعفران بالعباسية بالقاهرة فأعجب به كل الاعجاب .

عوض جندي

---

(١) راجع مقتطف ديسمبر سنة ١٩٤١ .



مكتبة المقتطف

كتاب في السياسة

تأليف الوزير الكامل أبي القاسم الحسين بن علي المغربي

إعني بنشره وتحقيقه وتعليق حواشيه سامي الدهان دكتور دولة في الآداب من باريس

أجدني حريصاً على أن أبدأ حديثي قائلاً عن ناشر الكتاب قبل أن أعرض لمؤلفه . وقد أتنكب في ذلك نهجاً عرفه المتحدثون عن الكتب ولكن مخالفة النهج الى اطراح ما أرضت هوى وأشبعت رغبة . وأنت الى المخالفة ألصق وبها ألزم حين تجدك مع هذا الهوى وتلك الرغبة تقول للحق وتحدث غير جائر سننه .

وما لنا يعنينا أن نسهب مرضيين في القول ممن سلفوا مؤلفين ، ونتحرج حين ننصرف الى القول فيمن تضمنا اليهم ضامة ونخشى أن نُظن مغلين أو أن نُزن مجانفين ، أو أن نحسب أصدقاء لا ناقدين .

ومن غير خالصتك يحسن أن يقول عنك ، ومن أعدل من وفيّ يعرف بك . وأنت حين تنشر أحق ممن نشرت له بالحديث . فالمنشور له موفّى حقه في عملك وتقدمتك له . ثم في تخليصك كتابه من رقّين : رق الخط ، وما أمدّ أمده ، ورق التحريف ، وما أكدّ كده . أما عنك فالحديث الى ضيق والقلم مقل .

هذا دأب لا أعرف أننا مع الحق فيه . وغيره أولى بنا إن أردنا أن يعلم الناس ، وان يشيع عنا ما نعلم ، وان أردنا غير الضنة . وما علينا من تثريب إن كنا مع النصفة ولم نمن لهوى أو نلين لرغبة .

عرفت هذا الصديق - الناشر حين نزل بدار الكتب المصرية منذ أعوام ثلاثة باحثاً متعرّفاً الى مكتوباتها فرأيت وفرة من همة ونشاط . وصحبته على ذلك عاماً إلاّ أقله فلمست آماله من صدره ، وعرفت أن هذا الصدر العريض يحوي آمالاً عراضاً . ولقيته في أيبته من أوربة بعد أن أجيز على رسالته وأخرج للناس أبا فراس فسررت لهذين التوفيقين .

وآثر أن يجعل له في مصر إقامة ثانية في البحث والتنقيب فغبطني أن يصل الصديق علماً بعلم، وان تكون إجازته وما نال واصلة لا فاصمة .

أتراني جاوزت أم أنا مثير منك همة بهمة ، وناشر صفحة لأرى إزاءها صفحات نقرأ فيها الجد والدأب والمثابرة .

أما عن هذا الكتاب فقد كنت موعوداً به حين ودعني الدكتور سامي الى دمشق في صيف العام الفائت ليتم متمه . وما جهلت الكتاب وما فاتني قدره . فهو للوزير المغربي في أجل ما صدر عنه . أراده صفحة يفيد منها الساسة ليستقيم لهم الأمر . فبصرهم بما عليهم لأنفسهم ، وما عليهم لخاصتهم ، ثم ما عليهم لعامتهم .

وحكمة ذلك أنا كاشف لك عنها في قوله :

« فالسائس الفاضل إنما يصلح نفسه أولاً ، ثم يصلح بسياستها خاصته وما يحملها عليه من الآداب الصالحة لرعيته فينشأ الصلاح وتسود الاستقامة على تدريج » .

والمؤلف بعد هذا مفصل ما أجمل، مورد أدلته وحججه في أسلوب أنت اليه مجذوب. خذ مثلاً قوله « وليس بسائس من خص بحزمه بعض ملكه . ومثل العارض البعيد ، إذا لم يستدرك عاجلاً ، كمثل العضو يسقم من البدن ، فإن تُلوفي وإلاَّ سرى فساده في الجسد » .

هذا نمط للمؤلف في التعبير يحكى فيه كتاب هذه البابة ، أمثال ابن المقفع . أما أنه أدنى أو أبعد فرد الأمر فيه الى مقدمة مبسوطه قدم بها الدكتور سامي لكتابه . قال فيها عن المؤلف كثيراً ، بين نقل ودرس . وما أظن القارىء في غنى عن أن يلم بها .

ويسرني أن أضم إلى هذه ثانية عن فهم الرجل للسياسة ، فقد يظن بالرأي القديم الظنون ، وقد يُرى أن من الخير أن نلقن عن ساسة الحاضر ، وبذلك نغنى . يقول الوزير المغربي : « ثم يتفقد مدينته بل مدنه كلها ، بضبط طرقها ، ومعرفة من يدخلها ويخرج منها ، والوقوف على الكتب المختلفة إلى أهلها من التجار وغيرهم . وليضبط مدينته ضبط الرجل من الرعية داره . ولا يخرج عنها أحد إلاَّ بجواز ولا يدخلها إلاَّ بإذن . ويقول في موضع آخر : « وأما قائد الجيش فيكون شجاعاً فارساً عارفاً بآلات الجندية ذا حظ من الرأي ويطالب بمعرفة أحوال الجند المضمومين إليه ، ليعرف الحاضر من الغائب ويلزمهم الباب في أكثر الأوقات بالعدد التامة ، ليرهب بذلك رسل الملوك وجواسيس الأعداء » .

هذا طرف من توجيه المؤلف . ولك منه صورة عن عقله، وصورة أخرى عن أساليب السياسة حينذاك . وما نحن من هذه الأساليب ببعيد فالأمور على وصلة أو شبه وصلة .

ونحن إذ ندرس هذا ننتفع به أكثر ما ننتفع في وصل قديم الأمر بحديثه . وما أحوج كل علم أو فن لهذا ونحوه .

هذا هو المغربي المؤلف . وأما عن الدهان الناشر . فقد عرفت مني مقدمته للكتاب أريد أن أزيدك عليها ملحقاً أضافه جمع فيه تراجم المغربي من كتب الأدب والتاريخ . وقد أحصيت له في ذلك ستة عشر مرجعاً ، ثم ضم إليها فهارس مختلفة كشفت عن الكثير مما يحتاج إليه القارىء .

وإذا شئت أن تعرف أين طبع كتابه هذا فاذكر المعهد الفرنسي بدمشق وسالف يده في إخراج أبي فراس لتعرف نشاط هذه المؤسسة وجميل اتجاهها .

وإني اذ أشكر للدكتور الدهان جهده الموفق أسأل الله له عوناً وقوة لتحقيق ما وعد من نشر مخطوطات بين يديه تتصل بالعصر الحمداني وتكشف عن جوانب فيه .

ابراهيم الابياري

عاصفة في صحراء

للاستاذ محمد مفيد الشوباشي — ٢٢٧ صفحة من القطع المتوسط — مطبعة الاعتماد

هذه قصة يقصها الأستاذ الشاعر الأديب محمد مفيد الشوباشي عن بطل من أبطال العرب اسمه سليك شغف بابنة أحد رؤساء العشائر المعادية له فزوجها أبوها منه على مضض وللفتاة ابن عم اسمه زيد يهواها ويثير زواجها حفيظته فيروح يكيد لها ولزوجها . ولها صديقة اسمها سلمى يهواها أخوها خالد ولكنها تهوى زيداً ،وتتضارب في القصة هذه العواطف المتباينة ويدس زيد للبطل سليك كميناً ليغتاله فتصيبه سهام الكمين فيرجع الى منزله ويعرف اخوانه خبر الكمين فيهبون الى نجدته ويقضون على أعدائه ويسارعون الى منزله ليستطلعوا خبره فيظنهم أعداءه مقبلين عليه فيقتل زوجته حتى لا تقع في قبضتهم. ثم يوهمه زيد أنها كانت تخونه فيجن جنونه ويشن الغارة على أهلها. ولكن الزوجة لا تموت بل تشفى من جراحها وتنجلي الحقيقة بعد ذلك ويعود الصفاء وتهدأ العاصفة .

هذه القصة مزدحمة بالحوادث والحوار والمناقضات والمشاهد وفيها حب وغزل وطبيعة. وفيها بغض وحقد وحسد، وفيها كيد وحرب وقتل. وقد ذهب المؤلف يستعرضها مسرعاً في نثر سهل فياض حتى اذا وقف مواقف العاطفة الجامحة انتقل من النثر الى الشعر في قواف من السهل الممتنع تعد من أرق الشعر وأبلغه . وهذه أول مرة في اللغة العربية تمتزج في

القصة المشاهد المسرحية بسياق القصص . ولعمري لا يتاح مثل هـذا المزج إلاَّ لمن كان كاتباً متفوقاً وشاعراً متفوقاً . وفي الأنشودة التي نظمها المؤلف لتغنى في حفل زواج بطل القصة مثال من أمثلة هذا الشعر الرائع :

اليوم زفَّ الى الجمـا ل الفضل والشرف الرفيع
اليـوم تمَّ الحسن إذ زفَّ البديع الى البديع
إن زانها حسن الأنوثة زانه بأس الرجـال
فجمالهـا وجماله اجتمعا ليكتمـل الجمـال
إن يأمرا أمراً يطأ طيء صاغراً لهما الزمان
من سيفه نرجو الأمان ومن لواحظهـا الأمان

وشعر القصة كله على هذا المثال البديع من الصفاء والسهولة وتجاري هذه القوة في النظم قوة الحوار وتنوعه وتقارع الأجوبة والأسئلة، ولا عجب في هذا فان المؤلف يجمع بين الأديب والمحامي فهو يعرف كيف يهاجم خصمه ويدفع حجته،وهو يعرف مكامن الضعف في النفوس البشرية فيدخل منه عليها . وينال منها . ويسعفه خيال الأديب والشاعر ليلبس شخصية كل بطل من أبطال قصته ويجري على لسانه ما يعبر به عن شعوره وأفكاره .

وبعد فالقصة تجري حوادثها في عهد الحسين بن علي رضي الله عنه كما أشار المؤلف الى ذلك . وانما ذكرت هذا لأدل على أن ازدحام الحوادث منع من تصوير ذلك العهد والتوسع في وصف البيئة والعادات . ولو ذهب المؤلف اليه لطالت القصة طولاً وضاقت ضيقاً قد يمله عامة القراء، وقد لا ترضى عنه خاصتهم ، وودت في بعض اجتماعات أشخاص القصة لو لم يدخل « الخادم يحمل إناء يغص بأقداح من القهوة » لأن القهوة لم تكن أيامئذ معروفة في الحجاز ،كما وردت أن زيداً ابن عم الفتاة لم يغادر المدينة المنورة الى انطاكية وحلب لأن في سفره اقتضاباً يضعف السرد ويشتت ذلك ذهن القارىء . ووددت أيضاً لو لم تجر بعض تعبيراتنا العصرية على لسان بعض أشخاص القصة كالجمال المثالي والضحايا وما شاكل هذا من معان لم يألفها العرب لذلك العهد .

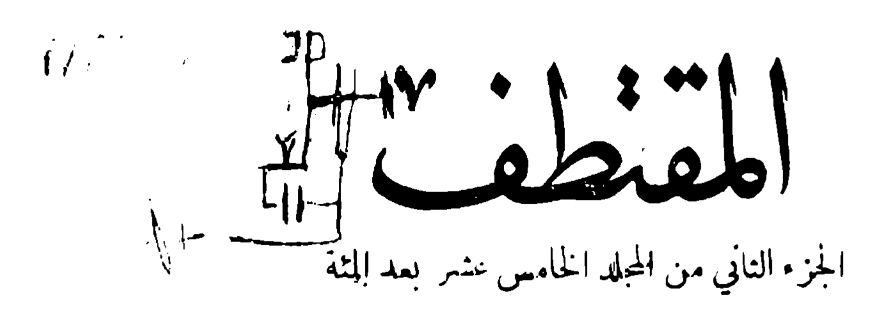
ان هذه الهنات لا تمس جوهر القصة ولا تضعف حبكها وسردها واشراق ديباجتها وبراعة شعرها واني اذ أهنىء الأخ الكريم الأستاذ الشوباشي على قصته هذه أرجو أن يتحفنا بتمثيلية شعرية في قوة المشاهد التي أدارها ادارة بارعة ولعله مجيب باذن الله .

خليل شيبوب

فهرس الجزء الاول

من المجلد الخامس عشر بعد المائة

ملحق المقتطف



الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ يوليو سنة ١٩٤٩ — ٥ رمضان سنة ١٣٦٨

يوستنيانوس

والامبراطورية البوزنطية

١ — تمهيد

في سنة ٥٣٤ ثم في سنة ٥٥٥ من الميلاد ، استطاع قوّاد الامبراطور البوزنطي وجيوشه ، أن تقضي على مملكتي « الونـدَل » [١] والقوط الشرقيين [٢] كما اغتصبت جزءاً من شاطيء إسبانيا من القوط الغربيين [٣] . لهذا كان درس الأحوال التي قامت في القسطنطينية في ذلك العهد ، وبخاصّة في عصر « يوستنيانوس » ، أعظم أباطرتها ، من أخص ما يعني به دارس التاريخ ، ومن أوليات ما ينبغي أن يكون موضع عناية أولئك الذين يدرسون أوربا في القرون الوسطى .

في سنة ٥١٨ ميلادية انتهى حكم « أناستاسيوس » [٤] ، وكان حكماً مضطرباً غيرَ مستقر ، مملوءاً بالقلق ، ساورته العصيانات في مقرّ الملك وفي خارجه ، وشهدت فيه القسطنطينية كثيراً من الشغب ، وثار فيه « الإيزَوريّون » [٥] ، ووقعت حرب مع الفرس في الشرق ، وانشعاب عن البابويّة ، ومشادّة دينية أثار غبارها رعايا الامبراطور لأخذه بمذهب الوَحدَيطَبَعِيّة [٦] .

والوَحدَيطَبَعيّون هم القائلون بأن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلـهية . وكانت هذه النظرية ذائعة في الشرق ، فسببت كثيراً من الإضطراب ، لأن الشرقيين ،

(١) Vandals (٢) Ostrogoths (٣) Visigoths (٤) Anastasius (٥) Isaurians
(٦) Monophysitism

حتى الطبقات الدنيا من مجتمعهم ، كانوا يأخذون بضلع في المناقشات اللاهوتية . وعلى الجملة فإن « أناستاسيوس » قد خلف تركة مثقلة بالهموم .

عند موت « أناستاسيوس » ارتقى عرش الأباطرة الشرقيين جندي هرم من المستمسكين بالنصرانية على صورتها السُّنيَّة[1] (الأورثوذكسية) ، هو الامبراطور « يوستين »[2] فرحبت به البابوية ووثقت بنواياه . وكان أميًّا ، وقلَّما يعرف من القراءة شيء ، حتى لقد كان يتخذ نموذجاً يرسم اسمه على غراره ، إذا أراد التوقيع ؛ وندر أن يعرف شيئاً من شئون السياسة . أما الحاكم الحقيقي في خلال تسع السنوات التي ملك فيها ، ثم في خلال ثمانية وثلاثين سنة من بعد ذلك ، فكان الإمبراطور « يوستنيانوس »[3] وهو من ذوي رحمه ، تلقى من العلم أوسع ما يدرك من العلم في عصره ، وتدرَّب في السياسة . وفي سنة ٥١٨ ميلادية ، كان قد بلغ السادسة بعد الثلاثين من عمره . ولقد قال فيه المؤرخ الانجليزي النابه « إدورد جبون » قولة حق ، إذ أشار إلى أن « يوستنيانوس » لم يمُرّ بطور الحداثة قط » . وعاش حتى بلغ الثالثة بعد الثمانين . وكان فاتر المزاج محبًّا للعزلة والبعد عن الناس ، بسيط العادات زاهداً عفيفاً .

قال فيه أحد معاصريه : « لم يكن ضخم الجثمان ولا ضئيله ، متناسب الأعضاء ، أميل الى الربالة منه الى النحف . أمَّا وجهه فمستدير جذاب . وكان صافي الأديم ، وأكثر ما يكون أديمه صفاء ، عند ما يمسك يومين كاملين عن الطعام .

كان محبًّا للنظام والسَّير في الأمور على قواعد مرسومة ، ذا قدرة فائقة في التعرف على دقائق الأشياء وتفاصيلها ، شأن كل العظماء من رجال الإدارة . وهو أشبه الرجال بنابليون من حيث الإكباب على العمل مع قليل من النوم ، والبغض الشديد للكسل والاسترخاء . وجَّه اهتمامه الذاتي الى كل إدارة من إدارات الحكومة ، وأكبَّ على درس مشاكل اللاهوت .

كان قادراً على ضبط نفسه ، وتنكير مشاعره وأغراضه . أمَّا مظهره فكان يعبِّر عمَّا تنطوي عليه نفسه من القوة الفائقة والثبات على غاياته . ولقد خُبِّرنا أن قدرته العقلية كانت ترتج بعنف في المواقف الحرجة ، وأنه في قرارة طبعه كان من ذوي المواهب العقلية أكثر منه رجلاً من ذوي المواهب العملية . ومع هذا فإن تاريخه ينمّ بوضوح عن أن أعماله كانت مسيَّرة في الأكثر بسياسات مرسومة الحدود مضبوطة القواعد ، ومبادىء ثابتة لا يتحوَّل عنها ولا يخرج عليها . ولم يكن هنالك من شيء يضطره الى التردد ، والتنوّح بين الإقدام والإحجام إلا ضغط ظروف خارجة عن إرادته .

---

(1) Orthodox (2) Justin (3) Justinian

منذ بداية اشتراكه في الأعمال العامَّة ، اتجه فكره الى أن يكون من عظام الأباطرة فنجح وبلغ غايته . ولقد اغتصب فيما اغتصب من ملوك القوط الشرقيين مدينة « رافِنّا » (١) حيث مراقد « غلا إفلاقيديا » (٢) و « ثيودوريك » ، (٣) فترى هنالك حتى اليوم صوراً رسمية للسيد الأكبر « يوستنيانوس » مع الامبراطورة « ثيودورا (٤) » ، صُوِّرت على القاشاني الفخم في أثناء ملكه . —

إن الأعمال التي رسم « يوستنيانوس » معالمها ، قد اضطرته الى الاستعانة بعدد من الوكلاء ذوي الكفايات . ولقد كان سعيد الحظ في العثور عليهم ، أو بالأحرى كان حكيماً في انتقائهم . كان له من « بليزاريوس » (٥) والخصي « نارْسَس » (٦) قائدين عظيمين . وكان له من « أنـثَـمـيوس الطَـرَلّـي » (٧) مهندساً فارهاً أشرف على إقامة المنشآت والمباني العامة . أما وزراءه المقدَّمان فكانا « إطربونيان » (٨) المشترع الفقيه الذي يرجع اليه الفضل في كل أعمال التشريع التي تمت في عصره ، و « يوحنا الكبَّدوكي » (٩) وهو من رجال الادارة الأكفاء والمبرزين في المسائل المالية .

أتهم « يوحنا » بوسائل العنف ليزوِّد « يوستنيانوس » بالمال الذي تحتاج اليه مشروعاته العظيمة . واتهم « إطربونيان » بالرشوة والاتجار بالعدل . غير أن « يوستنيانوس » كان يقظاً غير غافل ، إن لم يكن شاكّاً ، تأكل قلبه الغيرة ، حتى من أخص أتباعه والناجحين من رجاله . أما « ثيودورا » زوجه القادرة العنيد ، فكانت من أعظم من استعان بمدده من مقدمي ذوي الرأي . ومن أمجاد عصره ظهور المؤرخ الكبير « فروقوفيوس » ، الناموس الملازم للقائد « بليزاريوس » فقد وضع كتباً في حروب « يوستنيانوس » وفي منشآته العديدة ، مما زاد في قدره ، وأعلى من مكانته .

غير ان « فروقوفيوس » الى جانب هذا ، كتب تاريخاً سريّاً لذلك العصر ، وصف فيه « يوستنيانوس » بأنه الشيطان مجسماً ، وإن حكمه كان سلسلة متصلة الحلقات من التهتك والاباحة والاستبداد . على أن في هذا الكتاب غلوًّا وتطرفاً وحقداً يظهر بيناً في مثل قوله : « إن ما أصدر « يوستنيانوس » من أوامر القتل أو الاذن بالقتل ، قد فاقت من حيث العدد ، كل ما صدر من أمثالها في جميع العصور » . وأنه « كان بغير مال ، فلم يكن يسمح لغيره أن يكون ذا مال » . ووصف « ثيودورا » زوجة « يوستنيانوس » ، كما وصف زوجة « بليزاريوس » فقال إنهما من أخص النماذج النسوية . ولكن من خلال هذه الافراطات ، يمكن أن نستشف بعض الحقائق المؤيدة بقرائن المنطق .

(١) Ravenna (٢) Galla Placidia (٣) Theodoric (٤) Theodora (٥) Belisarius (٦) Narses
(٧) Anthemius Tralles (٨) Tribonian (٩) John of Cappadocia

٢ — الأمبراطورة ثيودور

قيل إن « ثيودورا » كانت ابنة حارس الوحوش في « الهبودروم »[1] وأنها كانت وقتاً مّا من شبابها ممثلة لعوباً عملت في مسارح القسطنطينية . وبعد أن ارتادت الشرق ، عادت الى العاصمة الكبرى شخصية مهذبة أصلحتها المخاطرات وشذبت قتادتها المجازفات . على أن هذا القول مشكوك فيه بعض الشيء .

وقع « يوستنيانوس » في حبائل غرامها ، فتزوّج منها في سنة ٥٢٣ ، وشاطرته مسئوليات العرش من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٤٨ ؛ ويقال ان سلطانها عليه في الشئون السياسية والدينية كان قويّاً بالغ الأثر .

يقول « فروقوفيوس : كان لها « وجه مفرط الحسن . وبالرغم من أن جثمانها كان صغيراً فإنه كان في أقوم صورة وأسوى تركيب . أما بشرتها فلم تكن الى البياض الصرف ولا الى التورد الخالص . كانت عيناها مفرطتا السرعة في الحركة ، بحيث تستطيع أن تحولها في ألف اتجاه في لحظة واحدة » .

ثم يقول إن يوستنيانوس وثيودورا كانا يتبعان سياسة التظاهر بالاختلاف في شئون الدولة فيظاهر كلٌ منهما حزباً في حين أنهما كانا يعملان ويديهما في قفاز واحد ، ويفضيان بعضهما لبعض ببواطن نصرائهما بكل صراحة ، فاستطاعا بذلك أن يقفا على أسرار خصومهما

والظاهر أنهما قد خلقا متممين أحدهما لصاحبه ، مهيأين ليكونا نفساً واحدة في جسمين . وفي حين كان « يوستنيانوس » اليقظ يمضي الليل بطوله مُتَنَقِّلاً في جوانب القصر ، كانت « ثيودورا » تمضي تغط في نومها حتى ينتصف النهار . كان من الهين أن ترى الأمبراطور ؛ أما هي فكان من أشق الأمور أن تمثل في حضرتها . لا يكاد « يوستنيانوس » يمد يده إلى طعام أو كأس شراب حتى ينشغل عنهما بمهام الدولة . أما « ثيودورا » النؤوم فلا تكاد تغادر فراشها إلا لتستحم . ثم ترتد إلى سناتها الهادئة ، حتى إذا كان وقت الغداء أو العشاء صُفَّ على خوانها كل أنواع اللحوم خاصّة ، وبوفرة غير مألوفة .

٣ — سياسة يوستنيانوس

إن الأشياء الرئيسة التي رمى « يوستنيانوس » الى تحقيقها ، تنحصر في الآتي :

(١) إن يجعل سلطة الامبراطور مطلقة

(٢) ان ينهي الانشقاق مع البابوية وان يحتفظ بالوحدة الكنسية وبالأرثوذكسية .

---

(١) Hippodrome

(٣) ان يعيد للامبراطورية ممتلكاتها في الغرب ، وان يحيي الامبراطورية الرومانية
(٤) ان يؤمّنَ الامبراطورية القائمة (البوزنطية) من أن تهاجم باتباع سياسة كيسة مرنة تلقاء الهمج ، فيعيد بناء الحصون القديمة ويقيم غيرها في شبه جزيرة البلقان وفي جميع أنحاء الشرق ، ويتجنب الحرب مع الفرس ومع الهمج أطول زمن ممكن .
(٥) ان يصلح الادارة الامبراطورية ، وان يؤسس حكومة قوية حازمة .
(٦) ان يتم العمل الذي بدأه الامبراطور « ثيودوسيوس » الثاني [١] في سنة ٤٣٨ في القانون ، وان يصب القانون الرومانيّ في قالب كامل دائم .
(٧) ان يكون من عظماء البناة ، كما كان كبار الأباطرة من قبله .

استطاع « يوستنيانوس » ان يرفع من مركز الامبراطور ، فجعله أسمى مما كان في جميع العصور . فقد فاق « ديوقلطيانوس » [٢] في فخامة بلاطه وتنظيم رسمياته ، وفي استخدام الألقاب ذات الرّنين والطّنين . أما مراسيم الدولة فكانت تصاغ في لغة بالغة منتهى الحزم والغطرسة . فاذا مثل أمامه أحد سجد وقبل قدمي السيد « يوستنيانوس » . ومع هذا فان « فروقوفيوس » يقول في تاريخه السري ، بأنه كان قريباً من الناس والوصول اليه سهل هين ، وانه لم ينكر على أحد أراد الاتصال به حق التحدث اليه والمثول في حضرته ، وانه كان حسن اللقاء جم الأدب . وفي الواقع أن أموراً كثيرة من أمور الدولة حصرها « يوستنيانوس » في يد الحكومة المركزية ، فازدادت المشاغل والمهام في بلاطه أكثر مما كانت في أيام غيره من الأباطرة السابقين .

كان من أول مهمات « يوستنيانوس » أن يسوس جماهير القسطنطينية المشاغبة الجانحة الى الانتقاض والثورة ، وهي مهمة من أشق المهمات التي شغلت الأباطرة من قبله . ومن أجل أن يتقرّب من الغوغاء أنفق في سنة ٥٢١ ما يقرب من ثلاثة أرباع مليون من الجنيهات على الاستعراضات والملاعب العامّة . وكان « أناستاسيوس » قد حظَرَ مجالدة الوحوش ولكن « يوستنيانوس » أجازها . وبالاضافة الى أجازته مجالدة الناس للوحوش والترخيص للناس بشهود مسارح التمثيل التي وسم أحدها بسمة بغيضة إذ سمي « الموسات » ، فإن ألهية أهل القسطنطينية المحبوبة كان سباق العربات وكانت تقام كل يوم أحدٍ في حلبة السباق (الهيبّودروم) الكبرى حيث كان يشهدها ثلاثون ألف رجل ، لأن شهودها كان محظوراً على النساء . وكان المشاهدون ينقسمون أحزاباً بحسب ألوان الثياب التي يلبسها المتسابقون ، ويحتل أهل كل حزب أمكنة خصصت لمختلف الألوان . ومن هنا نشأ الحزبان العظيمان حزب الخُضر وحزب الزرق اللذين اقتسما المدينة ، وتطرفا في

---

(١) Theodosius II (٢) Diocletian

منافساتهما حتى العداء ثم الاعتداء . على أن الحزبين قد استطاعا ، في بعض المناسبات ، أن يصطبغا بصبغة سياسية . وكان « أناستاسيوس » يناصر الخضر ، في حين أن «يوستنيانوس » و « ثيودورا » كانا يناصران الزرق . فإذا انتصر أحد الحزبين في سباق أقيم في الحلبة احتفال عظيم تحية للمنتصرين. كذلك كان الامبراطور ممن يشهدون السباق في أكثر الأحيان ، فينتهز الشعب هذه الفرصة السانحة ويتقدم الى الامبراطور معبراً عن مشاعره . وكان الامبراطور يقابل في العادة بالهتاف ، ولكن كان يقابل بعض الأحيان بالصفير ، أو تتخذ مقصورته هدفاً لقذائف السلاطة والسفه أو عرائض الشكوى من سلوك الحكومة، قد يحدث شغب بالغ ، ان لم يكن في داخل الحلبة ، ففي شوارع المدينة.

وفي سنة ٥٢٣ غضب الخضر والزرق على حاكم المدينة وطلبوا عزل « إطريبونيان » و «يوحنا الكبدوكي» بل ان ذلك لم يكف لارضائهم . فلما جردت عليهم الجنود، ردوهم الى القصر الملكي عنوةً ، وأشعلوا النار في المدينة. واضطر «يوستنيانوس » أن يناشدهم التعقل والاخلاد للسكينة في الهبودروم ، ولكن الجمهور الهائج رفض أن يثق بوعوده وأعلن تنصيب امبراطور آخر. ولقد أخذ « يوستنيانوس » الفزع والخوف حتى لقد فكر في مغادرة المدينة . ولكن «ثيودورا» خطبت مجلسه الخاص خطبة عبرت عن منتهى الأقدام والشجاعة ورفضت أن تفر ، وأهابت بزوجها قائلة : اذا أردت أن تنجو ايها الامبراطور فان لدينا المال والسفن، وهذا البحر الذي أمامك ولكن تأمل قليلاً لعلك اذا فررت ونجوت بنفسك لا تعود فتفضل الموت على النجاة. أما أنا فأظن أن الامبراطورية ثوب جميل يدفن المرء فيه »

ولقد فعلت هذه الكلمات في الرجال فعل السحر فصمموا على القتال والصمود للثورة .

خرج القائد « نارسس » محاولاً أن يستميل بعض الزرق بالمال ، كما خرج القائدان « بليزاريوس » و « موندوس » [1] بفرق الهمج المسترزقة ، وأخذا يذبحان بقسوة جمهوراً احتمى بالهبودروم . وتعالت الصيحة من جانب الجمهور « استظهروا عليهم » فسميت هذه الثورة التي ظلت تضطرم ستة أيام بثورة « نيكا » [2] أي النصر . ولقد منع « يوستنيانوس » إقامة الألعاب في الحلبة سنين من بعد ذلك ، وأصدر لوائح عدة تضمنت أوامر ادارية من شأنها أن تحفظ النظام في المدينة، وتجعل الحياة فيها أكثر رتابة . غير أن سلطان الزرق والخضر ، قد عاد قبيل موته الى ما كان عليه قوة وعنفواناً .

[يتبع] اسماعيل مظهر

---

(1) Mundus (2) The Nika Riot : the personification of Victory; called Victoria, by the Romans, the goddess of Victory. Class ; Dict. 602

خليل مطران

هيهات أنسى « خليلاً » صاحبي وأخي أيام تصفو مودات من العلل

مضى خليل مطران بعد ما قضى وذهب الى بارئه في يوم ٣٠ يونيو ١٩٤٩

مضى فمضى معه حديث عذب يحلو ترياقاً للآذان ومضت معه بشاشة جيل محتها العلة فالمنية ، ومضت وراءه قلوب أفزعها هول الفجيعة واعتصرتها محنة الفراق

مضى الرجل الأريحي الهمام صاحب القلب الكبير والنفس المستعلية والشيم المسترفعة

مضى بأدبه وآدابه بمحامده ومكرماته ببره ووفائه بآخائه وأبوته .

مضى في ركب يحف به الخلان وقد سحت عيونهم دموعاً غزيرة ودميت قلوبهم أسىً ، مضى الى عالم الصمت من كان لا يعرف الصمت ومضى الى عالم الهجوع من كان مشتعل النشاط ملتهب الحيوية .

مضى الانسان خليل مطران ، وقليل من يصدق وصفهم « بالانسان »

عرفت مطران في سنواته الأخيرة أيام تأصلت منه العلة فزاد هزالاً على هزال ، وضعفاً على ضعف وهمّا على هم ولكنه كان يعرف كيف يحيل هذه العلل جميعاً الى مدعاة للاستبشار فيقول في رضا المستسلم القانع المؤمن : « الله كريم » . وقد ردد هذه العبارة مرات ومرات في كل مرة التقيت فيها به ، وكانت « حجتي » اليه مرة في كل أسبوع أمضي فيها معه بضع دقائق كي لا تكون الزيارة ثقيلة على مريض قاعد تسلخ جلده من الجلوس بغير حراك وتهرى بدنه من وقدة صيف لا ترحم وزمهرير شتاء لا يبالي . وكان كلما اشتدت عليه وطأة الداء يقول قولة تجري على الألسنة في بعض قرى لبنان :

« وجسمي صار نص حي ونص ميت ونص الحيّ باقي للعذاب »

كان كلما ذكر أمامه اسم تناوله من جانبه المشرق سواء كان اسم كبير أو صغير .

لا يعرف الذم ولا القدح ولا يبيح لنفسه ان يجرح أحداً في غيبة أو بمشهد منه . وحاشاه وهو صاحب ذلك القلب الكبير ان يقول قولة في حق أحد حتى ولو نوصب العداء .

فكر ذات يوم ان يدوّن مذكراته بشطريها السياسي والأدبي ، ومضى يكتب ويحبر ولكنه سرعان ما نفض يديه من أوراقه وتناولها ممزقاً مبعثراً . ولما سألته السبب قال : لست أريد أن أغير التاريخ ولست بقادر على أن أكتب الحقيقة كلها بغير أن أتعرض للوم صديق فلتحرق المذكرات ولتوأد الخاطرات ولا يقال ذات يوم أن خليل مطران أساء الى زيد من الناس أو تعرّض لعمرو من أصدقائه .

ويوم درى خليل مطران أن لجنة ألفت لتكريمه ولنشر شعره ودواوينه . قال : ما هؤلاء القوم يشغلون أنفسهم بما لا يستحق منهم مشغلة أو عناية . يريدون نشر أوراق لا قيمة لها . حقّ لها أن تحرق ولا تذاع .

فقد كان مطران متواضعاً في غير كلفة ولا اصطناع يرى شعره السمين هزيلاً ويستصغر شأن مواهبه التي بها غزا عالم الأدب وغذاه . وكان دأبه أن يرفع الاصاغر حتى لا يقتل فيهم روح الطموح ويشجع الشبيبة حتى يخلق أجيالاً من الرجال النافعين ، ويحث كل ناشىء ماداً له باليمين ساعد العون وباليسار يد التشجيع والتوجيه ، كان مطران مدرسة كثيرة القصّاد كثيرة الروّاد يقبل عليها الأدباء إقبالاً ولا يرومون عنها إدباراً ، يجلسون معه فيسمرون ويتأدبون ويتعلمون من نبع المعارف الغائر المعين .

ما من قاصد إليه ردّه ، وما من ساع ببابه صرفه، وما من مستطلع شيعه خائباً . فقد كان مطران أميراً نبيلاً يهب الناس كل ما يستطيع ولو قدر لوهبهم ملكاته ومواهبه ومحصلاته الفكرية ورصيده من المعرفة

واليوم نتلفت ذات اليمين وذات اليسار فلا نرى خليل مطران الذي شغل من كل قلب فراغاً أنى أن يملأه غيره فقد آذنت شمس حياته بمغيب وآن له أن يلحق بالخالدين من رصفائه الشعراء بعد ما دام فراقهم طويلاً .

مضى الركب يحث الخطى تشيعه الأفئدة والقلوب في مصر وتجزع له الأفئدة والقلوب في كل مصر فليس خليل مطران ممن يجود الزمان بمثله كل أوان ولا هو ممن تتكرر حياتهم في جيل ولكنه فرد فريد سيظل على الدوام سامقاً في عالم الأدب العربي . وسيبقى ذكره أبد الدهر معطراً بأريج الزكي من الخلال

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وديع فلسطين

منقاوه

أمراض المنطقة الحارة

قلما يجد الإنسان ميداناً نجح فيه الطب بشكل واضح كما يجده في المناطق الحارّة . وهذه المناطق واقعة بين المدارين جغرافيّا إلاّ أنها طبيّا تشمل أيضاً بعض منطقتي الاعتدال الشمالية والجنوبية . وقد كانت المناطق الحارّة قليلة السكان نسبيّا في أغلبها كأفريقيا وأمريكا إلاّ أنها تزدهر الآن بالسكان وهذا الازدهار يرجع الى سببين رئيسيين الأول : تطبيق أصول علم الصحة بتلك المناطق، والثاني: معرفة حقيقة أمراض المنطقة الحارّة معرفة حقيقية مما مكننا من تقدير مدى خطرها الاجتماعي ومقاومة ذلك الخطر بوسائل الصحة العامة .

لقد كان لعلم الصحة العامة فضلٌ كبير في مقاومة الأمراض بالمنطقة المعتدلة الشمالية كأوروبا وأمريكا . وذلك منذ منتصف القرن الثامن عشر فبدأت الوفيات تقل وبدأت هذه القلة تتدرّج شيئاً فشيئاً منذ ذلك الوقت . ويمكن اعتبار منتصف القرن الثامن عشر نهاية علم الصحة في العصور الوسطى .

ولم يكن الهبوط في نسبة الوفيات في الأقاليم المعتدلة بالتغيير الوحيد في الصحة العامة ذلك لأن هذا التغيير شمل أيضاً ناحية أخرى هامة وهي سبب الوفاة .

والواقع أنّ بعضاً من الأمراض أخذت تقل إصاباته تدريجاً في البلاد المتمدينة من المنطقة المعتدلة حتى يمكن أن يقال عنها أنها أضحت في خبر كان . ولهذا السبب بقيت هذه الأمراض في المناطق الحارّة بعد زوالها من المناطق المعتدلة . ولذا فإن الملاريا والطاعون والتيفوس والجذام والدسنتاريا — بعد ما كانت منتشرة في جميع أنحاء العالم أصبحت معتبرة للسبب المذكور أعلاه ضمن أمراض المناطق الحارّة . والمنتظر أنه سيأتي في القريب العاجل زمن تنعدم فيه بعض أمراض المنطقة المعتدلة وتضاف الى جدول أمراض المنطقة الحارّة وذلك كالحمى التيفودية مثلاً . فالباحث في انتشار هذه الحمى ببلاد الانكليز يرى أنها قد بدأت تختفي بشكل محسوس حتى يمكن للانسان أن يتنبأ بأنها ستنعدم تماماً .

ففي الفترة بين ١٨٧١ الى ١٨٨٠ كانت نسبة الوفيات بالتيفودية ٣٣٢ في المليون من الأحياء
وفي » ١٨٨١ » ١٨٩٠ كانت النسبة ١٩٨
وفي » ١٨٩١ » ١٩٠٠ » » ١٧٤
وفي » ١٩٠١ » ١٩١٠ » » ٩١
وفي » ١٩١١ » ١٩٢٠ » » ٣٥
وفي » ١٩٢١ » ١٩٢٦ » » ٢٤

ومن ذلك يتضح أن اعتبار مرض الملاريا والطاعون والتيفوس والجذام وبعض أنواع الدسنتاريا ضمن أمراض المناطق الحارّة انما يعني أن هـذه الأمراض أصبحت قاصرة على تلك المناطق حيث تتوافر فيها وسائل التكاثر والانتقال . وطبيعي أنه اذا اتبعت في هذه المناطق نفس الوسائل الصحية التي اتبعت في المنطقة المعتدلة — وهو مجهود عظيم وشاق — فان هذه الأمراض سوف تنعدم أيضاً كما انعدمت في المناطق المعتدلة .

ولا يبعـد مطلقاً اذا استمرّ العالم في تقدمه الحالي أن تصبح الأمراض المسماة الآن أمراض المناطق الحارّة أثراً بعد عين .

لكن هناك أمراض أخرى غير ما ذكر تعتبر ضمن أمراض المناطق الحارّة بمعنى آخر . ذلك لأن هذه الأمراض لم تصل أو وصلت نادراً الى سواحل بلاد المنطقة المعتدلة . وأن وصولها لم يصحبه استمرار لعدم توافق ظروف التكاثر والبقاء. نذكر على سبيل المثال من هذه الأمراض الحمى الصفراء ومرض النوم والبربري والدنج والكالازار وغير ذلك .

ويستنتج مما قيل آنفاً أن أمراض المنطقة الحارّة ليست قاصرة على هـذه المنطقة الجغرافية وأن هذه الأمراض بعد اختفاء بعضها من المنطقة المعتدلة وانكماشها في المنطقة الحارّة بقيت محتفظة بأنواعها المتعددة . ولذلك فنحن نجد الأمراض في المنطقة الحارّة مختلفة في الشدة والبساطة كما أن الميكروبات المسببة لها تختلف في طبائعها عن البعض الآخر

وسنقتصر الآن على ذكر مثالين لأمراض المنطقة الحارّة يظهر منهما بوضوح الطريق الذي سلكه أطباء المنطقة المعتدلة لجعلوا المنطقة الحارّة أكثر أمناً من الوجهة الصحية ممـا كانت عليه سالفاً وذلك بالنسبة للغربيين ولأهالي تلك المنطقة على حدّ سواء . وهذان المرضان أحدهما يمكن اعتباره بحق مرضاً من أمراض المنطقة الحارة التي لم تصل الى الآن الى المنطقة المعتدلة . وثانيهما : مرض كان منتشراً في المنطقتين الحارّة والمعتدلة فأصبح الآن قاصراً على المنطقة الحارّة . أما الاول: فهو الحمى الصفراء . وأما الثاني : فهو الملاريا .

﴿ الحمى الصفراء ﴾ — ربما كانت أيسر وسيلة لذكر تاريخ هذا المرض البدء من

النهاية لأن العلم الحديث لسبب هذه الحمى يُظهر بوضوح أهمّ معالم تاريخه .

فني عام ١٩١٨ لاحظ البحاثة الياباني (نجوش) حلزونيات دقيقة صغيرة في دم مصاب بحمى صفراء بعاصمة جمهورية (اكودور) على شاطىء أمريكا الجنوبية الغربي (جوايا كويل) وكانت هذه العاصمة أهم المراكز التي توطنت فيها الحمى الصفراء وقد أظهر (نجوش) أن الأرانب الهندية إذا حقنت بدم مصاب بالحمى الصفراء أحدث أعراضاً تماثل أعراض هذا المرض . كما أظهر حضرته وجود الحلزونيات في دم هذه الأرانب . وقد نقل الحمى المذكورة من أرنب هندي الى آخر بنفس الطريقة . وتمكّن من الحصول على زرع نقي لميكروب هذا المرض على مزارع صناعية . ونقل الميكروبات من هذه المزارع الى سلسلة من الأرانب الهندية واستخرج في النهاية زرعاً نقياً لهذا الميكروب . وقد أوضح حضرته أن هذه الميكروبات تختلف في الشدة اختلاف شدّة وطأة الوباء . فحالات الحمى الصفراء الشديدة الوطأة ينجم من ميكروب شديد قتال .

وكانت قلة وجود الميكروبات في دم المرضى المصابين بالحمى الصفراء سبباً هامًّا في عدم اكتشافها مدة طويلة . وذلك لأن سموم هذه الميكروبات فتاكة فمقدار من $\frac{1}{1000}$ السنتيمتر المكعب من زرعة لهذا الميكروب كافية لاحداث أعراض قتالة في الأرنب الهندي

وهناك نواحٍ أخرى هامّة يجدر ملاحظتها عن ميكروب الحمى الصفراء . فهذا الميكروب له دورة حياة خاصّة . ففي بعض هذه الدورة يكون غير مرئي بواسطة المجهر . وهذا هو سر وبائية دم المصاب بالحمى الصفراء بعد مروره بالمرشحات الدقيقة . وفي هذه الحالة يقال للميكروب أنه من النوع (الغير مرئي) أو المار بالمرشح Filter Passing وقد ظهر أخيراً أن هناك عدة أمراض معدية مسببة بميكروبات لها هذه الخاصّة أيضاً . من ذلك ميكروب شلل الأطفال . وقد أصبح لفصيلة الميكروبات التي تمر بالمرشحات أهمية كبيرة حتى خصص لها بحث قائم بذاته .

وتمكن (نجوش) أخيراً من اظهار مكنون أوبئة الحمى الصفراء فانه بعد ما تمكن من نقل هذا الميكروب من أرنب هندي الى آخر بواسطة حقن الدم — تمكن أيضاً من نقل المرض بواسطة لدغ أحد أنواع البعوض الذي كان يظن فيما سبق أنه ناقل المرض للانسان .

وقد أثبت هذا الباحث أن دور التفريخ لهذا الميكروب داخل البعوض هو ١٢ يوماً بعده يمكنه نقل المرض الى الانسان . أما دور التفريخ في الانسان (وهي المدة بين لدغ البعوض وظهور أعراض المرض) فهي تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة . وقد اتضح الآن أن

الحمى الصفراء لا تعدي بالملامسة ولكنها تنتقل بطريق البعوض . وأن هذا البعوض لا بدَّ أن يحتضن هذا الميكروب في جوفه مدة اثني عشر يوماً قبل أن يكون وبائيّاً . وأوبئة الحمى الصفراء كانت ذات تأثير شديد على الرأي العام فكثرت أحاديثها على لسان الأهالي والشعراء وكتب الكتّاب عنها قصصاً شهيرة . فرواية الهولندي الطائر Flying Dutchman تدور حول سفينة أصيب راكبوها بالحمى الصفراء . وسارت الخرافة بين بحارة المراكب الأخرى أن شبح هذه السفينة يحوم حول رأس الرجاء الصالح وأن كل من يتجه اليه يصاب بالمرض . وقد أغلقت جميع الموانىء أبوابها في وجه هذه السفينة فلم يتمكن راكبوها من الوصول الى بر . وأخيراً توفوا جميعاً بهذا الداء . وقد وضع الموسيقار المشهور (واجنار) أوبرا عن رواية هذه السفينة . كما ألف الكاتب ماريات Marriat رواية حول هذا الموضوع أيضاً . وتوجد صورة هذه السفينة التي صرعتها الحمى الصفراء في بعض المتاحف الطبية . وهناك حادثة تاريخية أخرى يجمل سردها . ففي عام ١٨٣٧ وجد يخت اسمه (هسكنسون) Huskinsson في مدينة سيراليون Siaralion حصل أن ظهرت حالة حمى صفراء بين بعض البحارة ثم تفشت الحمى بينهم ولم ينج منها إلاَّ اثنين أو ثلاثة وانتقلت الحمى بعد ذلك من اليخت الى المدينة . وبقي اليخت في الميناء بدون بحارة مدة ثلاثة أشهر . وبعد اغراء بعض البحارة بالمال الجزيل قبلوا الاشتغال في هذا اليخت . وبعد ما بدأوا عملهم بقليل ظهرت الحمى الصفراء بينهم وفتكت بهم جميعاً على وجه التقريب . وكانت اصابتهم نتيجة لدغ البعوض الذي كان باليخت مدة ثلاثة أشهر المذكورة .

وهناك غير ذلك أمثلة كثيرة لا تقل تأثيراً عما ذكر سالفاً . والحمى الصفراء حمى قتالة وقد أودت بأرواح طبية كثيرة فالسنجال مثلاً أبيد فيها جميع أطباؤها تقريباً بالحمى الصفراء مرتين . ففي سنة ١٨٣٠ توفى ستة أطباء من اثني عشر طبيباً . وفي سنة ١٨٧٨ توفى اثنان وعشرون طبيباً من سبعة وعشرين طبيباً .

والاصابة بالحمى الصفراء تحدث مناعة بعد الشفاء . واصابة الأطفال تكون عادة بسيطة . ولذلك فالأقطار المتوطن فيها هذا المرض يكون أهله حائزين مناعة طبيعية من اصابات سابقة .

والأوبئة إذا حصلت في تلك الجهات تحصل بعد فترة من الزمن يكون قد وجد فيها عدد من الأهالي غير حائزين للحصانة .

وانتشار بعوض الحمى الصفراء أكثر من شر الحمى ذاتها . والثابت أن هذه الحمى لا توجد إلاَّ في البقاع التي يكثر فيها البعوض .

واستمرت أوبئة الحمى الصفراء تتكرر خارج حدود المناطق الحارة في القرن السابع عشر، بل وحتى في القرن التاسع عشر، ووصلت الى السواحل الشرقية لأمريكا الشمالية حتى بلغت نيويورك. ثم وصلت الى(بلطيمور) Baltimore وفيلادلفيا Philadelphia وبوسطون Boston وتواجد الوباء أيضاً في سواحل أمريكا الجنوبية . هذا فيما يتعلق بالدنيا الجديدة . أما فيما يتعلق بالدنيا القديمة فقد بلغت الحمى الصفراء الساحل الغربي لأفريقيا وذلك عن طريق تجارة الرقيق منذ أقدم العصور . وتواجدت هذه الحمى أيضاً أحياناً في أسبانيا والبرتغال وايطاليا بشكل أوبئة قتالة . وهناك ما يدل على أن هذه الحمى زارت زيارة عابرة فرنسا وانجلترا . وآخر وباء شديد لها كان في مدريد عاصمة اسبانيا وذلك عام ١٨٧٨ .

ومطامع الانجليز في جزر الهند الغربية كانت ولا تزال عظيمة . فمنذ القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كان لها مراكز حربية كبيرة ولكنها كانت غير صحية بالمرة . من ذلك ما ذكره الكاتب (ثكري Thackeray) في كتابه المسمى Vanity Fair الذي يصف العصر الثاني لحروب نابليون والذي يحوي أيضاً الحالة المخزية والمؤسفة التي فيها أرسل المدعو (رودن كرولي Rawdon Crawley) كحاكم لاحدى جزر الهند الغربية وذلك لمدة قصيرة جداً حيث وانته المنية من جراء الحمى الصفراء . وهناك حوادث كثيرة في التاريخ عن خسارة جسيمة في الأرواح أصابت القوات البريطانية من جراء الحمى الصفراء في ثكنات جزر الهند الغربية. وقد بلغت شدة الوباء أحياناً أن أبيدت بعض هذه القوات عن آخرها . ففي جزيرة (جاميكا) كان متوسط الوباء بهذه الحمى بين الجنود البريطانية لعدة سنوات ١٨٥ في الألف. وفي جزائر (برمودا) كانت الوفيات ٨٠ في الألف . ولا يخفى أن الجنود التي كانت ترسل الى تلك الجهات كانت منتقاة في ريعان شبابها . ومنذ مئة عام كانت نسبة الوفيات في جزيرة جاميكا أعلى نسبة لأي جزء في الامبراطورية البريطانية في ما عدا ساحل أفريقيا الغربي حيث بلغت هذه النسبة بين الاوربيين في (سيراليون) ٣٦٢ في الألف .

ومنذ عام ١٨٥٠ بدأت الحالة الصحية تتحسن في جزر الهند الغربية . وفي ذلك الوقت لم يكن معلوماً سبب الحمى الصفراء بل ولا سبب من أسباب أمراض المنطقة الحارة ولكن منذ سنة ١٨٥٠ أسست عمليات المياه المرشحة في جزر الهند الغربية وعلى الأخص بمدنها الكبيرة حيث كانت تتواجد الحمى الصفراء بكثرة . وبزوال البرك والمستنقعات وصيانة عمليات المياه من الحشرات وادخال وسائل النظافة والتخلص من القمامة — كل ذلك ساعد كثيراً على ازالة هذا المرض الخطير دون معرفة سببه الأصلي .

ونحن نعلم الآن دورة حياة بعوض الحمى الصفراوية . نعلم أماكن توالدها وفقس بيضها وعلى الأخص في مجامع المياه الصغيرة بالقرب من المساكن . ولما منعت هذه المجامع اختفى المرض . وكان الفضل في ذلك للاشراف البريطاني والأمريكاني . وحكاية ابادة الحمى الصفراء في منطقة (پنما) و (جاميكا) و (وترينداد) وغيرها ذكرت أخيراً في تاريخ الطب وكل واحد مهتم بهذه الناحية لا بد وان سمع عما حصل للبعثة الأمريكية المخصصة لمقاومة البعوض عام ١٩٠٠ وما صحب ذلك من وفاة الأستاذ (لازار Lazear) . وهذا العالم ورفيقه المدعو (والتر ريد Walter Reed) (١٨٥١ الى ١٩١٢) أثبتا أن الحمى الصفراء لا تنتقل بالفراش ولا بالملابس ولا بأي شيء آخر ولكنها تنتقل فقط عن طريق لدغ بعوضة موبوءة بها

وقد قامت البعثة الامريكية السالفة الذكر بعمل تجارب على آدميين بواسطة البعوض الموبوء وبواسطة حقن مصل الدم المرشح من مصابين بالحمى الصفراء . ولما تجمعت هذه المعلومات الهامة أتى دور الدكتور (وليم جورجاس Williame Gorgas) (١٨٥٤—١٩٢٠) فبدأ بابادة هذا النوع من البعوض وعلاج المصابين بالحمى الصفراء داخل كلات . وفي ظرف ثلاثة أشهر أصبحت (هافانا) عاصمة كوبا خالية من الحمى الصفراء لأول مرة منذ مئة وخمسين عاماً كما يتضح ذلك من الجدول التالي .

وفيات هافانا من الحمى الصفراء

السنة	الوفيات	السنة	الوفيات
١٨٨٥	١٦٥	١٨٩٥	٥٥٣
١٨٨٦	١٦١	١٨٩٦	١٢٨٢
١٨٨٧	٥٣٢	١٨٩٧	٨٥٨
١٨٨٨	٤٦٨	١٨٩٨	١٣٦
١٨٨٩	٣٠٣	١٨٩٩	١٠٣
١٨٩٠	٣٠٨	١٩٠٠	٣١٠
١٨٩١	٣٥٦	١٩٠١	١٨
١٨٩٢	٣٥٧	١٩٠٢	—
١٨٩٣	٤٩٦	١٩٠٣	—
١٨٩٤	٣٨٢	١٩٠٤	—

وفيما عدا الأقطار النصف متمدينة كجمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية يمكن

اعتبار الحمى الصفراء أنها موضوعة تحت اشراف محكم . ولو أن إبادة هذه الحمى من كثير من الأقطار يعتبر نصراً عظيماً لعلم الصحة العامة إلا أنه يعتبر في الوقت نفسه حادثاً تاريخياً عظيماً وأن إليه يرجع الفضل الكبير في تحسين صحة المدن وجعلها أكثر موافقة للسكن وأقل إصابة بالأمراض عما كانت عليه في القرون الوسطى .

﴿ الملاريا ﴾ — أما تاريخ الملاريا – وهو المرض الذي ينتقل عن طريق البعوض فيختلف تماماً عن تاريخ الحمى الصفراء . فإن الملاريا كانت الى عهد قريب معتبرة مرضاً منتشراً في المنطقة المعتدلة والحارّة على حدٍّ سواء . وكان هـذا المرض يقال له قديماً Ague أما لفظ ملاريا فهو حديث في اللغـة الانجليزية على الأقل وبدأ استعماله في القرن الثامن عشر . وهو كلفظ الأنفلونزا من أصل إيطالي ويحوي ضمن معناه الجهل بالسبب . فلفظ ملاريا يدل على (هواء ضار) أما لفظ أنفلونزا فيدل على (نزول السموم من النجوم في الهواء) وكان المعتقد وقتئـذٍ أن هذين المرضين إنما ينشآن نتيجة لتغير في أحوال الطقس . ولا يزال أهالي روما وبعض جهات ايطاليا يعتقدون أن الهواء يصبح سامّـا أثر غروب الشمس .

ولو أن لفظ (ملاريا) حديث إلاّ أن ظروفه قديمـة . والمقصود بالظروف هنا سوء الحالة الصحية من حيث تجمع المياه الراكدة وغير ذلك . والملاريا أحد الأمراض المسببة بمكروبات لم تفقد من خواصها شيئاً منذ أقدم العصور . وقد وجد وصف شامل لهذا المرض في مخلفات أبقراط، واعتبار الأمراض كوحدات مختلفة إنما جاء نتيجة للفحص والاكتشاف الحديث . ولذلك فأغلب الأمراض المعدية هي حديثة التاريخ أما أعراض المرض فهي مشروحة شرحاً وافياً منذ أقدم العصور (١٠٠٠ ق . م) ونقطة الفصل بين التـاريخ القديم والحديث لهذا المرض هو وقت استعمال الكينا في علاجه .

ففي القرن السابع عشر استعمل نبات (Cinchona) في علاج الحميات فنجح في بعضها ولم ينجح في البعض الآخر .

ولذلك قسمت الحميات وقتئذٍ الى حميـات تتأثر بالسنكونا وأخرى لا تتأثر به . ثم استخرج من السنكونا جوهر الكنين بعد ما عمّ استعمال السنكونا سائر أوربا .

وقد شرح (Sydenham) الملاريا شرحاً جيداً لما اكتسح وباؤه بلاد الانكليز وأوربا في القرن السابع عشر والثامن عشر منتشراً من مواطن توالده — أي المناطق الحاوية على البرك والمستنقعات . وكانت هذه المناطق موجودة في مقاطعة (كمبردج Cambridge) ومصب نهر تيمس Thames ومنطقة (بريستول) وساحل انجلترا الجنـوبي . واستمرت

الملاريا هناك زمناً طويلاً . وكانت منتشرة في لندن حتى عام ١٨٥٨ فكانت نسبة الاصابات بها في مرضى مستشفى (سانت توماس) بلندن في الفترة ١٨٥٠ — ١٨٦٠ تتراوح بين ١٢ والستين في الألف . ومنه يتضح أن ٥ في المئة من مرضى لندره كان مصاباً بالملاريا .

وارتفاع أسعار الأراضي في لندن اضطرّ الحكومة الى اقامة الجسور على نهر التامز فامتنعت بذلك وسائل تسرب المياه الى الأراضي المنخفضة المجاورة . ثم ردمت هذه المنخفضات وضمت الى المناطق الآهلة فحدث التأثير المنتظر . ففي عام ١٨٦٤ اتضح أن الملاريا أخذت تقل بشكل محسوس وانها بدأت تنعدم في بعض الجهات . وفي القرن العشرين بدأت وزارة الصحة الانكليزية تبحث بين دماء الأهالي على جراثيم الملاريا وبعد بحث طويل أمكن الحصول على حالة واحدة . وهكذا يمكن التنبؤ أن الملاريا سوف لا يكون لها وطن في بلاد الانكليز في الظروف الحالية الصحية . واكتشاف جرثوم الملاريا حادث جدير بالمعرفة هذه الجراثيم أول ما تدخل دم الانسان تحتل كرياته الحمراء . وأول من شاهدها كذلك هو الأستاذ (Alphonse Laveran) عام ١٨٨٠ ببلاد الجزائر .

وذاعت اكتشافات هذا العالم في جميع أوروبا واتضح حينئذٍ أن ارتفاع الحرارة في الملاريا هو نتيجة تكاثر جراثيمها في الدم ثم أتى الدكتور (باتريك مانسون) Patrick Manson (١٨٤٤ — ١٩٢٢) الذي ظنّ أن هذا الجرثوم يمكن انتقاله الى الانسان بواسطة البعوض . وهذا الظن أثبته حقيقة واقعة (الأستاذ Ronald Ross) عام ١٨٩٨ . حيث أثبت أن جرثوم الملاريا لا بدّ أن يمر في معدة البعوضة قبل أن ينتقل الى الانسان عن طريق لدغها له . وكان أول اكتشافه رؤية هذا الجرثوم في ملاريا الطيور ثم اتضحت صحة هذا الاكتشاف في ملاريا الانسان أيضاً .

وازالة أماكن تواجد البعوض أضمن وسيلة لمقاومة هذا البعوض .

ولذلك تعاونت فرق الهندسة والفرق الصحية في الجهات الموبوءة فكان لها أثر فعال وبهذه الوسيلة تمكن القوم من ابادة بعوض الحمى الصفراء والملاريا في منطقة (پنما) تماماً فانعدم هذان المرضان . وهناك أماكن كثيرة في المنطقة الحارة كانت موبوءة بالملاريا فأصبحت الآن خلوًّا منه . وما أكثر وسائل ابادة يرقات البعوض

هكذا تمكن علماء الصحة والهندسة من نظافة المناطق الحارة من هذين المرضين في جهاتها الكثيرة . ومن المنتظر في القريب أن تصبح المنطقة الحارة سليمة وصحية بدرجة تسمح للأهالي أن يستوطنوها .

الدكتور حسن كمال بك
المدير العام لمصلحة الصحة الاجتماعية



[الى ابن شقيقتي التي أسلمت أنفاسها بعد
أن وهبته الحياة ولم تسعد بمرح طفولته]

أنتَ صَدَى أُغنيةٍ   حَنَّتْ إليها أُذُني ...

قدْ وَهَبَتْكَ النُّورَ في   الدنيا بأغْلَى ثمَنِ

غيَّبها الصمتُ العمـ   يق في إسارِ الكَفَنِ

كما يغيبُ خَلْفَ الأُفْـ   ـق طَيْفُ السُّفُنِ

مرَّت كحُلْمٍ عابرٍ   على جَناحَيْ زمني

أين هو الحُلْمُ الذي   كان ... ؟ كأنْ لم يكُنِ !

طوى سطورَ بهجتي   بصفحةٍ من شَجَنِ

وغاب في آثاره   جمالُ حُلْمِ الوَسَنِ

أنتَ صداها فأعِدْ   لي - إنْ خَبِيتَ - ما فَني

* * *

عصفورَ هذا الوَكْرِ لا   يُسكتْكَ صمتُ الحَزَنِ

الْـهُ كما شئتَ . . . فلَهْـــوُ الطفلِ صفْوُ الزمنِ

وامرَحْ كعصفور الربيــــع الراقص المُفْتَتِنِ

يطفُرُ فوق النهر ... فــــوق العشب... فوق الغُصُنِ

واصدَحْ كما يصدح في نجْواهُ بين الوُكُنِ

وامْلأْ رحابي بالأغا ريد التي تؤنسُني

لُغاكَ شِعْرٌ لم تُدَنِّسْهُ خطايا الألسُنِ

أعذبُ ما صاغ فمٌ في عالم الطفل الهَني

أفهمُ ما تقصد بالحدْ س ، وإن لم تَبِنِ

تقيك عيناي وقلــبي عاديات المِحَنِ

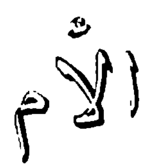
قد ذُقتَ طعم اليُتْم قبل الماء ، قبل اللَّبَنِ

* * *

أنت صَدًى... بل صورةٌ بل نَفْحةٌ تَغمُرُني

إذا خَطَرْتَ استرجعتْ عيناي مَنْ ودَّعني ...

حسن كامل الصيرفي



إسمها «ليلة» . وقد سماها ابني أحمد بهذا الاسم لأن لونها أسود كالليل لا تبرق فيه
[illegible]نة . وقد وجدها في الطريق تموء وتصرخ وأتي بها إلينا عن إشفاق ، كي تموء وتصرخ
[illegible]راخاً كريهاً كأن بها صرعاً وحاولت أن أقذف بها الى النافذة مراراً ، غير أن مجلس العائلة
[illegible]لى رأسه زينب زوجي حرّم عليّ ذلك ورموني بالقسوة والجحود لمبدأ الرفق بالحيوان .
أن الصراخ المزعج الذي ينطلق الى رأسي ويجهز على أعصابي ليس فيه قسوة . ولم أجد
عيون عيالي وزوجي شيئاً من الرفق نحو عائلهم وعميدهم ! . لذلك وجب عليّ أن أحتمل
[illegible]عذيب من أجل هرّة صغيرة فراؤها أسود قذر مريض . وفضلاً عن ذلك فهي تنظر
[illegible]رات بغيضة إلى كل من اقترب منها ، وتطلق مخالبها وتزمجر ويعلو صوتها كأنها تلعن
[illegible]سب وتنذر عن حقد حتى حين أقبل عليها أحمد بطبق من ثريد اللبن لطمته وهي تلتهمه
[illegible]هاماً وأسالت الدم من يده . رأيت ذلك في شيء من التشفي والانتصار وقلت إنها ككل
[illegible]رّة لئيمة الطبع خائنة حتى مع من أحسن إليها . ومرّة أخرى كلهم ضدي : إنها مذعورة
[illegible]شب مخالبها كي تتقي القسوة والتعذيب والنكاية التي ألفتها من الناس والأطفال . وحين
[illegible]بدّل الحال ، وترى العناية والرعاية يتلاشى منها كل نفور ومرارة وتأنس إلينا ، ثمّ إن
[illegible]يت الذي فيه قط لا تدخله الجرذان والفئران ولا غيرها من الهوام . وأعطيت الأوامر
[illegible]يادة اللبن وحين نجلس الى المائدة يستقطع نصيب الهرّة وأعد طبق خاص «لليلة» ومكان
[illegible]ير لنومها غير أنها كانت تنبذه وتتخير لنفسها كل مرّة مكاناً غيره وبذلك جدّ في بيتي
[illegible]ضو رغم أنفي .

بعد أيام تبدّل فراء «ليلة» الى السواد البراق السليم . وامتلأ جسمها الهزيل . وخرجت
[illegible]ن عزلتها وصارت تفد إلينا حيث نجلس . وتموء بصوت هادىء ليس فيه ذعر أو نفور .
[illegible]ها تسلم على أفراد الأسرة . وتتخير لنفسها أجمل مقعد . ولما زادت طمأنينتها صارت
[illegible]تخير حجر من تود وتمسح رأسها بذقنه . وتعمل بلسانها في فرائها لتنظفه وتجلوه . ثمّ
[illegible]تاءب وتنام ملء جفونها أحلام . وتولى أحمد أمر تغذيتها وتربيتها ، فيدعوها باسمها حتى
[illegible]فته ورضيت به ، ويأخذها بالشدّة إذا بدرت منها بادرة . وعرفت بعد الحزم أن الأكل

المباح هو الذي يقدَّم إليها فقط وحرم عليها بعض الصغائر فلا تقبل على كل آكل تتزلف إليه ولم يبق إلاَّ أن أنتظم الى محبيها وأعترف بها عضواً كريماً محبباً بيننا وخاصة حين رأيت علاقتها الطيبة برضيعتنا زيزي . وهي تكاد تخنقها خنقاً فتلبي هذه في يدها في وداعة وصبر . بل تقبل عليها تداعبها . ولا تنشب أظافرها إزاء أي قسوة من ابنتنا ولا تطلق صوتاً . يدل على النفور أو الامتعاض . وهذا ما زاد في حبي في « ليلة » .

في مدى أسابيع صارت تامة النمو تسير في خيلاء تجيب كل فردٍ منا حين ينادي « ليلة » وتتنحى عن كل شيء تحذرها منه . ذات يوم وجد قط أبيض ضخم فية خشونة وفي نظرته شراسة السبيل الى مسكننا فانطلقت « ليلة » إليه كالسهم وقوست ظهرها . ويا لهول منظرها بفرائها المنفوش ونظراتها التي تقدح شرراً . ونشبت أظافرها وزمجرت ولطمته لطمات قاسيات رغم تباين الجرم وحرمت عليه البيت تماماً . وهذا ما أقرَّه كل واحد منا في كثير من السرور . وبقيت في بيتنا لا تبرح بابه مهما نفذت الى خياشيمها روائح الطعام من مطابخ جيراننا ومهما كانت أكثر إغراءً وأوفر دسماً .

ذات ليلةٍ في الشتاء تنبهنا أن « ليلة » لا تجلس معنا كالعادة . فناداها أحمد ولم تجب إلى ندائه فطاف في الغرف يبحث عنها دون جدوى . لا بدَّ أن يداً أثيمة امتدَّت الى هذه المخلوقة العزيزة وحرمتنا إيَّاها . وسوف يطوف الأولاد بالجيران في الغد حتى يعثروا عليها . وعمَّ البيت كآبة حزينة من أجلها .

وحين خرجت في الصباح المبكر الى عملي وجدت ليلة جالسة أمام الباب متعبة كليلة ليس في عينها شعاع أو بريق وولجت الباب بخطى هزيلة فصرخت أزف البشرى الى الأولاد وانصرفت . وعلمت أننا أهملنا البحث عنها خارج المنزل وتركناها تقضي ليلة طويلة فوق البلاط القارس . وقد أصبحت مترفة لا تحتمل مثل هذه الشدائد . وفي الليلة التالية كانت « ليلة » بيننا وقت العشاء وحضر إلينا بعض الضيف وكانت لدى الباب في تحيتهم . وأمضينا الليلة مع زُوَّارنا في سمر . ولما انصرفوا بحثنا عن « ليلة » فلم نجدها وتفقدناها خارج البيت فلم نعثر لها على أثر . لقد عرفت السبيل الى خارج البيت . وهذا لا يتفق مع نظام الأسرة . وأخذ أحمد على عاتقه أمر صيانتها من هذا النزق . غير أنها أفلتت رغم كل حيطة في الليلة الثالثة وكان كل بحث غير مجد . وخرجت لزيارة صديق لي ووعدت أولادي أن أبحث عنها وأردها الى خدرها إذا وجدتها . وطفقت أنادي وأبحث دون طائل . ولما عدت الى البيت في ساعةٍ متأخرة من الليل وجدت معركة ناشبة في فناء البيت بين قطيع من الهرات اللاتي ألفت عيشة الخشونة والسطو وبينها « ليلة » الوديعة الأنيقة إن إهمالنا شأنها قذف بها بين

البراثن المفترسة . وناديتها في شيء من الاستعطاف والاقرار بالذنب لجريرة اهمالها . غير أنها نظرت الي نظرة كلها غرابة . وأقبل عليها القط الأبيض ضخم الجثة وهرعت أمامه الى أعلى الدرج . ولم أجد بدا من اقتحام المعركة كي اخلص هرتنا المسكينة من هذا العاتي. على أني فهمت توا أنها ليست معركة . وإن كانت كذلك فهي نضال الحب واتضح لي أن تدخلي عمل غير نبيل .

أخذ أولادي على عاتقهم أن يضعوا حدا لهذا الجنوح. وشددوا الرقابة على «ليلة» وسيرها المريب في الليل ، وبقيت «ليلة» مسالمة حتى انتهينا من العشاء . وبقيت تموء متوسلة بكل أنواع الزلفى وكان في صوتها رجاء وشغف ولوعة . وأمرها كل طفل بدوره أن تلزم السكينة فهم أحمد يمنعها بل ضربها ضرباً ليس فيه اشفاق . فانتهرته في شدة وفتحت لها الباب . وخلفت لي غضب الأولاد جميعاً . وقالوا انها رغبتي القديمة أن أتخلص منها ولم يكونوا في السن التي تسمح لي أن أكاشفهم بما يفعل الغرام بالهرات .

وجاءت في الصباح كعادتها متعبة تكاد لاتستطيع أقدامها أن تحمل جسمها من الانهاك قذرة الفراء لا تقوى على فتح عينيها تجر ذنبها جرا. ولارغبة لها في الحركة ولا في الغذاء مع شدة حاجتها إليه وقصدت إلى مكان مريح تسقط عليه الشمس الدافئة . فلا تبغي غير النوم والراحة . وكان دور زينب أن تدافع عن الأمهات أو ما هن في انتظار الأمومة . إزاء شهوة الانتقام التي أوغرت صدور الأطفال نحو هذه السكينة . وقالت ان الهرة هزيلة ضعيفة لابد أنها مريضة . ومن يدري ربما وجدت في هواء الليل ما يعيد اليها صحتها . غيرأن منطق الأطفال السليم يعزو سقمها وضعفها الى سهر الليالي . وسوء السلوك . وفي النهاية أخطأت زينب وقالت ان «ليلة» سوف تصير أما . فسرهم القول أيما سرور وكان علينا أن نروي شغف الاستطلاع ونجيب على وابل من الأسئلة وكنا في صبيحة الجمعة ونستمتع جميعاً بضجعة طويلة . فتناومت وقد هجر الأطفال مضاجعهم الى سريرنا وبقيت أستمع في خبث لباقة الأم في إفلاتها من كل جواب محرج واستطاعت أن تسكتهم ولكنها لم تقنعهم وبدأوا يتقاسمون النتاج فيما بينهم حيث تجلت الأنانية والشحناء في القسمة .

وفي المساء فتر حماس التضييق على الهرة المسكينة بل كان في وسع الأطفال أن يتغاضوا أيضاً ويتركوا لها هذه الحرية المبهمة التي اتضح أنها تنتج صغاراً . وانتهى المساء دون أن تبدي « ليلة » اهتماماً واضحاً بشأن هواها . وترك الأولاد مضاجعهم في فزع على صراع بين «ليلة» وقط غريب . واتضح أنه القط الأبيض الضخم الجثة . وعلمت أنها طاردته إلى باب المسكن ولم تتبعه . وسمعته يصرخ من حر الجوى خارج المسكن .

وعادت « ليلة » إلى حياتها الهادئة فقد نالت من غرامها أقصى ما تصبو اليه ولا ترغب في المزيد فهي لا تتطلب من الحب إلاّ أن تصبح أمّاً !

ولما تبين للأطفال علائم الحمل واضحة جلية . وأن نبوءة الأم صحت كاملة لم يتركوا زينب حتى توضح لهم كيف عرفت بيقين أن الهرّة تنتظر الحادث السار، ولما فشلت زينب في إقناعهم . عادوا إليّ بفضولهم وشره الاستطلاع . فقلت لا يمكن أن يفهم ذلك غير من سبق أن كان أمّاً . أما أنا فلا أزيد عن كوني أباً . وللجنس الأنثى أسرار تغيب عنا .

يظهر أن زينب لم تكن أكثر اتزاناً من ابنها أحمد . أو في حد لغة باقي أسرتي المحبوبة لم تكن زوجى أقل اشفاقاً ورفقاً بالحيوان من أولادها . أذ أنها طيبة القلب التي ورثوها عنها أنا أدعو الأشياء بأسمائها . وليس هذا في نظري إلاّ البله والعبث . فقد جاءت زوجي أيضاً ذات يوم بقط لا يكاد يبلغ الأسبوع الأول من عمره السعيد . رمادي مريض ملوّث بالطين وغير الطين ، يفرز دماً من مكان ما فيه . تتقزز منه النفس وتعافه العين وخلاف ذلك يجب أن يكون هذا المخلوق مصدر عدوى . ولم أجد في بيتي من يقاسمني ثورتي سوى «ليلة» . فرغم عبئها الذي أثقلها ، وجعلها بطيئة الحركة محبة للنوم والراحة. هجمت على المزاحم وبدا في وجهها العدوان والشراسة وتنفث من فيها كأنها تبثق سمّاً . وكدت أفوز بأغلبية من أولادي إلى جانبي حين قلت إن هذه الثورة الهوجاء والغيرة المريرة التي تعانيها «ليلة» زمن الحمل لخطر على « ليلة» في حملها . أي خطر. وبدلاً من التفكير في إزالة هذا المكروه . كان هم الجميع مجرد حجز القط الجديد عن « ليلة » وأطلقوا عليه الاسم الباسم « فجراً» ! ولماذا يا ترى يدعى هذا الممقوت «فجراً » قالوا لأنه رمادي . وأن الليل لا بدّ يتلوه فجر !

انقضت الأيام التالية في الاهتمام « بليلة » وأمر نفاسها ! إن جوفها الممتلىء لم ينتج سوى قطّاً أبيض ببقعة سوداء في رأسه وسبقت أولادي ودعوته «صباحاً» . ولم يكن سوى قط دميم ضعيف لا يبشر بحياة طويلة إنه ابن القط الضخم الأبيض على التحقيق . إنه الحب لأول نظرة غرها فيه حجمه ومنظره فهامت به على أمل أمومة خصبة ثرية الخلف . وهذه المسكينة طفقت تنظر الينا بعين وديعة طيبة متوسلة أن لا نمس وحيدها بسوء . لقد زاد حبنا لها وعطفنا عليها وتسابقنا في رفاهتها وشؤون غذائها . وأردت أن نخصص لها دجاجة برمتها غير أن زينب رمتني بنظرة وابتسامة كأنها تقول يا له من أبله ككل الرجال . على أننا قدمنا لها فعلاً دسماً شهيّاً وغذاء سخيّاً في نوعه ومقداره .

ولم يكن من السهل العثور على نتاجها . فقد بحثنا طويلاً ولم نهتد . وفي النهاية ترقبناها

حين تبغي الخلوة ولم تكن الرقابة من الأمور الميسورة لأنها أيضاً تتحين غفلتنا لتفلت الى مكان مأمنها . وهرع أحمد الينا وأغلق الغرفة التي اختفت فيها وقلبنا المقاعد ونبشنا الزوايا وفوق بعض الوسائد المهجـورة وجدناها تلعق هذا الشيء اليسير الضنين . وهي تنظر الينا نظرة حزينة تائهة بائسة وماءت بصوت جريح خافت.وعادت تلعق وحيدها كأنها على يقين أن رياقها يمده الحياة ورفعت الينا نظرة تقرعنا إن كان لهذا الفضول نهاية ! وبعد ساعة أو ساعتين أعلن الأولاد أنها أخفت ابنها عنا . إنها لا تستطيع أن تترك وحيدها في علته وسقمه لعبثنا وفضولنا . ولا يمكن أن يرضيها أن فلذة كبدها ألعوبة اللاعبين . ولم يكن عملها هذا الا حافزاً جديداً لبحث مضن . ولو أننا أقنعنا الأطفال طويلاً أن يتركوها في أمان حتى يكبر «صباح» فيسعى هو اليهم ويلاعبهم . على أنهم يؤكدون لنا بكل عزيز أن لا يصيبوا أمها بسوء . ومضى يوم برمته ولم يهتد أحد على مهد الصغير . والعجيب أنها تخيرت مكاناً يدل على الفطنة . ففي أقرب مكان يجب أن يتبادر الى الذهن نقلت اليه «صباحاً» ولـكن البحث لا يتناول أقرب مكان . وهذا هدفها هذه المرة ، بل يتناول كل خفي قصي لقد وضعته تحت سريرنا في المكان الذي كثيراً ما نجتمع فيه . وهكذا على مرآى منا تختفي غير ملحوظة وتنعم بخلوتها المحبوبة . ومجرد الصدفة أن وقع نظر أحد الأطفال عليها وهي تخرج من تحت السرير .

لقد بالغ الأولاد في اعداد مخدعهما بحيث يكون ليناً مريحاً نظيفاً آمناً ومدوا أيديهم الى «صباح» لنقله فجاءت «ليلة» تهرول وتتوسل ، ولم يكن في صوتها حنق أو لعنة . ولم يبد على وجهها شراسة أو نقمة . لم يكن سوى الوله والتوسل في ضعف واستكانة وسارت خلف الأطفال ، ووضعوا الابن في مخدعه وحملوها اليه ورأينا جميعاً في حسرة وحزن أن حياة «صباح» في خطر . وهكذا كان شعور الأم . ماذا فعلت كي تنقذه وتمده بالحياة لقد ألقت بنفسها على ظهرها وسحبته الى بطنها سحباً كي ينهش من جؤجؤها ويولغ الى فؤادها إذا شاء . وهذا المخلوق يتحرك حركات بطيئة ليس فيها رغبـة أو قصد ثم يعمد الى حركة متواصلة متماثلة طوع النفس المسرع الى النهاية ، حتى فترت حركته تماماً وهمت «ليلة» حائرة وقد هالها القدر . تنظر الينا وإلى الذي انقطعت انفاسه بعين تائهة هوجاء وأخذناه منها كي نقصيه ولـكي نقصر زمن الفراق.فتعلقت بنا بمخالبها الهادئة ، لأنها حين تريد تكون المخالب رحيمة . وهي ضارعة فوضعناه أمامها كي تودعه الوداع الأخير ، فتشمه بأنفها ، وتمر بلسانها بهذا الجسم الذي برد . ثم تنظر إلينا ونطقت في وضوح إن كان لنا الآن حيلة ، ومالت برأسها اليه . وخرج من فها الصوت الذي هو الحسرة واليأس، وأمرت رحمة

بها وبنا أن يقصي عنها فجرت خلف المشيع ولكننا حملناها ومنعناها أن تجري وراء اليأس!

ومرّ زمن وهي تجوب كل غرفة وكل زاوية وهي تصرخ وتنادي، ثم تمد الينا وتقف بيننا. وتنظر الينا وتتكلم كلاماً واضحاً في مقاطعه حزين في لحنه. لأنها تعلم على يقين أننا أصبحنا بحال ما أسرة واحدة وأننا نقدر مصابها محزونين آسفين. ثم تهبط برأسها وتعود سيرتها في البحث والنداء اليائس.

وقالت زينب إن «ليلة» سوف تجن لا محالة حين سمعناها تصرخ في وحدةٍ صراخاً عالياً متواصلاً باكياً كأنها فهمت الآن فقط أنه الفقدان. وبعد برهةٍ جاءت إلينا. وتكلمت هادئة متئدة وخرجت وكأنها تدعونا بنظرةٍ وجاءت مرةً أخرى ونطقت نفس المقاطع بنفس الهدوء وخرجت الى نفس الاتجاه وكرّرت هذا مرات وفي النهاية قلنا لا بدّ أنها تبغي أمراً. وتبعناها. وجاءت أمام باب مغلوق وأفرغت في صوتها كل توسل ورجاء وبان في عينها شغف أكيد أن نفتح لها الباب الموصود.

هذه غرفة المهمات للخياطة والرتق وتنقية الحبوب وغير ذلك ولأنها غرفة رحبة خصصناها للقط «فجر» ليعيش فيها في مأمن من غوائلها. فحذرت زينب أن تفتح الباب غير أنها حملت «ليلة» وقبلتها بعين مغرورقة وفتحت الباب فاندفعت «ليلة» الى القط المسكين وسكبت كل شغف وخلعت عليه عطفاً وحنواً تلعقه وتمسح فراءه ورقدت وجرّت القط في رفق إلى بطنها فنشب مخالبه حادّة الى بطنها ومدّ فه وبدأ يرتشف في نهم الغذاء الشهي وينعم بالأمومة. وليلة تتحمل آلام المخالب الحادّة في جلدٍ ولذة وارتسم على وجهها الهدوء والسلوى ورأيت زينب تشهق بابتسامة السرور وعيون مغرورقة وبعد هنيهة وجدنا «ليلة» تحمل هذا الابن النامي الى مكانها المختار لتستمتع بالأمومة كاملة. ومن هذا الحين صارت تناديه نداء خاصاً لو شاءت أن تغذيه من ثديها. وكنا اذا قدمنا لها طعاماً شهياً تناديه نفس النداء أو تجوب الغرف بحثاً عليه وتأتي به ليقاسمها اللقمة ولكنه ككل ابن مملوء بالأثرة والأنانية فلا تعجبه المضغة إلاّ التي في فمها فتتركها له راضية قريرة. بل إنه ليترك ما في فمه ليسحب ما بين أسنانها.

في أيام قلائل نما «فجر» وصار يجوب الغرف جرياً وعدواً ويتعلق بأهداب الأشياء لينشيء لنفسه ألعوبة والمنظر الفاتن حين يداعب أمه ويعجبه أن يمض ذنبها الذي تثنيه وترخيه. ويكون في عينها حلو السكرى فيتركها بغتة ليأتي مسرعاً وينقض عليها ويحرمها النوم الجميل ويحملها على مداعبته. فتداعبه وتضحي براحتها.

لقد انقضى «صباح» سقيم وانبثق لها «فجر» باسم. دكتور علي حسين

النقد والتعقيب

في الصحف والمجلات

قلّ أن نجد، في الوقت الحاضر، ناقداً أو معقباً في الصحف والمجلات، سليم الحكم، متزن العقل، سمح النفس، عاملاً على خدمة الأدب والفن، وانصاف الأدباء والمفكرين.

وأغلب النقاد والعارضين للكتب، يصدرون عن آراء ذاتية، محملة بانفعالاتهم، وأهوائهم ونزواتهم، ويجرون وراء شهرة كاذبة عابرة.

ويرجع هذا الى إيحاءات هذا العصر القلق المضطرب المذبذب، وما اتسمت به روحه من مجافاة للتعمق، وميل للمادة وحب للتوصل والتسلق.

ولهذا فقد أغلب النقد الحاضر في الصحف قيمته وآض وبالاً ونقمة على الحقيقة، وضلالاً لكثير من القراء الذين يؤمنون بصوفية الحرف المطبوع.

وكم يؤثر في نفوسنا أن نجد برزخاً عميقاً فاصلاً بين نقد اليوم، ونقد الأمس القريب، الذي لم يمض عليه أكثر من خمسة عشر عاماً أو يزيد، فقد كان أغلبه، نقداً ايجابياً، فنياً، عاملاً على تنمية الانتاج الأدبي والفني.

وإذ نكتب هذه الكلمة، تطالعنا وجوه طائفة من نقاد الأمس الممتازين، وما خلفوا من تراث نقدي مقدور، وما ننسى أبداً، نقدات الدكتور أبو شادي المتزنة الناضجة، ودفقات الدكتور ناجي الحساسة، وبحوث الأستاذ أحمد الشايب الرزينة المتأنية، وكتابات ابراهيم المصري الحصيفة، ونفثات البشبيشي الرصينة، ولطائف الدكتور بشر فارس، وفكرات الدكتور رمزي مفتاح الصريحة، وتعقيبات الصيرفي الهادئة القوية، وخطرات صالح جودت الذكية، وبعض نفحات محمود حسن اسماعيل، وسانحات مختار الوكيل، وغير هؤلاء من الممتازين الذين كانوا يمارسون الأدب والنقد معاً، والذين تجردت نقداتهم من المهاترة والتهجم على الأشخاص، واتسمت في الغالب بالعفة والكياسة، والشغف بالخلق والأنجاب.

ومن قبل هؤلاء، سعدت البيئة الأدبية بنقاد فحول أخيار أمثال الأستاذ خليل مطران، والدكتور هيكل والدكتور طه، وكذا المازني والعقاد عند تجردهما من الانفعالات والغايات.

ومع هـذا ، فلم تخلُ بيئة الأمس البعيد أو القريب ، من نقّاد متعالمين ، ونقّاد ذاتيين مسرفين في عاطفيتهم ، ونقّاد منحرفين تخلوا عن العفة القلمية ، وقدحوا في كرامات الأدباء ، وحاولوا الوضع من انتاجهم .

وهذا النفر الأخير من النقّاد لم يؤثروا ذرة في إنتاج الأمس ، وان تركوا في نفوس الأدباء غصة على غصة وقد بادت لحسن الحظ نقداتهم المنحرفة ، كما يبيد الزبدُ في هبّات الرياح

وظفرت البيئة الأدبية الماضية ، بتراث نقدي مشرف ، وشهدت عهداً تعاونيًا مثمراً ، واستقبلت نقّاداً ممتازين ، عاونوا الانتاج الأدبي معاونة ايجابية ، وأنصفوا المؤلفين ، وقدّروا كرامة الأدباء الموهوبين .

وقد كنّا نرتقب ، في الوقت الحاضر ، نقّاداً أكثر امتيازاً وأكثر وعياً للنقد السليم ، ولكن خاب الرجاء . وضاع الأمل المرتقب ، وعدنا الى النقدات العاطفية المصطنعة ، والتعقيبات المؤذية الثرثارة ، والطعنات الجارحة الآثمة ، وفتحت العيون في ذهول تشهد ناقداً يتهجم على مواهب المفكرين ، ويقدح في أشخاصهم ، وناقداً يتعالم على الفحول ، ويحمل لهم عصا الأستاذية ، وناقداً يلف نقده في وشاح من الدهاء ويصور العمل الأدبي في صورة شوهاء ، وآخر يجمع الهنات من التآليف أو المقالات قاصداً الى الازراء على الأدباء والسخر منهم ، والى جانب هؤلاء ، طراز آخر ، لم يرزق الحاسّة الفنية ، ولا القوّة الفكرية للنقد ، ولكنه ارتقى المنصة ، وأصدر على الموهوبين من شعراء العصر الحديث ، أحكاماً كليلة عرجاء .

ومع هـذا ، ولحسن الحظ ، فإن البيئة الأدبيـة الحاضرة لم تعدم بعض النوادر من النقّاد الممتازين من أمثال الدكتور محمد مندور ، والأساتذة أحمد الشايب ومحمد خلف الله ، وسيد قطب أحياناً ، تفاوتت قوة حاستهم الفنية وقامت نقداتهم على ذوق أدبي سليم أو على بعض أصول فنية لم تصل درجة التكامل .

ولم نظفر بعد بالناقد المثالي ذي الوعي الكامل ، والذوق الواعي المنظم ، ذلك المرتقب الذي يحس بالحيـاة إحساساً كاملاً ، ويفهم الطبيعـة البشرية ، ويعرف خير ما أخرج من التآليف قديماً وحديثاً ، ويبـذل دمه ، ونور عينيه للوصول الى جوهر الكتاب المراد نقده ، فيكشف عما فيه من حسنات ، ويلم الماماً هيناً بالعيوب ، ويقابل بين الكتاب المنقود وباقي ما أخرج الكاتب ، وبهذا النقد يبرز الفن الحقيقي في العمل الأدبي وهذا هو النقد المثالي الايجابي الذي عناه الناقد الشهير مدلتون مواري في كتابه « مناحي الأدب » Aspects of Literature بقوله :

« الناقد الحق هو الذي يبرز الفن الحقيقي في العمل الأدبي ، ويبرز أجمل ما فيه ، ففي الشعر مثلاً يأتي الناقد من أنواع الشعر بأجمله ، وهذا هو الجهد النقدي المنشود » وهذا النقد الايجابي المنتج له أثره البالغ في القلوب والعقول على السواء .

حقاً ، اننا في حاجة ملحة الى الناقد النبيل المتخصص في فنون الأدب ، الى ناقد يعتمد الأصول الحديثة في نقد الشعر، ويبرز روائعه ، وناقد يتعمق قراءة القصص القصيرة ، ويكشف عن بدائعها الفنية ، وناقد يحلل الروايات نثرية كانت أو مسرحية ، وناقد يهب نفسه لأدب السينما وفنها ، فمثل هذا التخصص يؤدي حتماً الى ترقية الانتاج الأدبي والفني ورفع مستواها .

وقد يسأل متسائل عن السبب في عدم وجود هذا الناقد المنشود ؟ واعتقادنا أن هذا راجع الى أن ناقد اليوم يكتفي بثقافة محدودة ، ولا يعمل على تنمية شخصيته وانضاجها ، وفضلاً عن ذلك ، فان التعليم في مدارسنا وكلياتنا ، وبخاصة في نواحي النقد ، لم يصل الى الدرجة المرتجاة ، ففن الشعر ونقده لا يلقيان دراسة فنية عميقة ، وفن القصة ونقدها ، لايحتلان المكانة الواجبة لهما ، وكذا الحال في الفن المسرحي .

ويضاف الى هذه العوامل ، عامل آخر ، خفي ، ولكن أثره خطير ، هو أثر روح العصر ، ذلك الروح الفردي ، المجرد من حب التعاون ، المتسم بالتوزع والقلق ، والذبذبة والميل الى المادة ، وهذا الروح قد طبع كثيراً من نفثات الأقلام بطابعه .

وليس شك ، أن هذا العامل يمكن التغلب عليه ، بروح الناقد الفنان ، تلك الروح التي تستطيع التسامي على أية بيئة عكرة ، إذا تحصنت بالمعرفة الواسعة ، والكياسة والتواضع والاتزان . وكم يؤلمنا أن نجد نقدات ذكية تضيع ولا تأتي بأية ثمرة بالنظر لحدة أسلوبها وتجردها من الكياسة ، أو بالنظر لقلة الحقائق فيها ، أو عدم تجاوب كاتبيها مع العمل المنقود تجاوباً بريئاً .

وقد ألمعنا في مقال سابق عن أثر التحامل والحدة في نقد أحد أدبائنا الشبان ، لمفكر مصري جهير ، وما جلبت هاتان النازعتان من استياء صفوة المفكرين ونفورهم .

وها نحن أولاء ، نلقي ضوءاً على نقد كاتب شاب آخر لكتاب البلاغة العصرية واللغة العربية للاستاذ سلامة موسى ، انعدم فيه التجاوب ، وضاعت الأمانة الواجبة على الناقد في تبيان حقائق هذا الكتاب ، مع اقتران هذا النقد المنحرف بتطريزات شائهة .

وغايتنا من وراء هذا إعلاء مكانة النقد وتنقيته من الشوائب وجعله أداة منتجة عاملة الى جانب الانتاج الأدبي .

وكتاب « البلاغة العصرية » الذي نحن بصدده ، هو صرخة ذكية من صرخات الأستاذ سلامة في هذه البيئة المتحجرة ، لجعل اللغة العربية كما هو الحال في كل لغة ، وسيلة لتأدية المعاني والآراء ، لا غاية من الغايات ، ودعوة نبيلة الى توسيع آفاق هذه اللغة ، وجعلها أداة طيعة لنقل آثار الحضارة الراهنة .

فلقد هال هذا المفكر المتحضر ، أن تضحى الأفكار من أجل العبارات الملوّنة المنمقة المزركشة ، وأن توأد الاصالة الفكرية بالكلمات المطلقة المسيبة غير المحدّدة كما هاله ، أن نتخلف عن ركب الحضارة بتركنا المعارف الحديثة ، واقتصارنا على بلاغة البهارج والزخارف البديعية تحطم بها رؤوس النابتة .

ولقد قضى التواضع على مؤلف الكتاب أن يذكر في صلبه أنه يطرح آراءه للمناقشة : وأغلب هذه الآراء تؤيدها صفوة المفكرين والمثقفين ثقافة عالية ، كما سنوضح فيما بعد .

فكيف نوقش هذا الكتاب ؟ وماذا كان نصيب مؤلفه من أحد كتّابنا الشبّان في مجلة الرسالة الغراء ؟ وما هي تعليقاته ؟

لقد زعم الكاتب الشاب في كلمته ، أن الأستاذ سلامة موسى يهجم على اللغة العربية ! ويعيب أدبها ! ويدعو الى اللغة العامية ! وان آراءه في هذا الكتاب ككل الآراء التي في كتبه ! وان رجلاً هكذا اتجاهه لا يجوز أن يحتل مقعداً مع الخالدين في المجمع اللغوي ، بل أنه ليرشحه لرياسة مجمع يطلق عليه « المجمع العامي » ويسمى باسمه !

ولا ردّ لنا على هذه الأقوال ، ولكننا ندع الكتاب يرد عليها ، ويكشف مبلغ افتئاتها على الرجل وعلى الحقيقة .

والنقاط الجوهرية في الكتاب تدور حول « ملكية العبارة » كما يقول البيانيون المحدثون ، وحول تبعية اللغة للتفكير ، وحول أثر اللغة وألفاظها في النواحي السيكولوجية والخلقية والفكرية ، وحول الاعتماد في الكتابة على العقل والمنطق دون العاطفة والانفعال ، وحول توسيع آفاق اللغة بثقافة العلوم والمعارف الحديثة ، وبإيجاد كلمات جديدة تتساوق مع العصر الجديد .

فأما عن ملكية العبارة ، أي الدقة في استعمال الألفاظ ، وتوافقها مع المعاني والأفكار ، فقد أفاض في هذا البحث حديثاً في غير مكان . وأنه ليقول في ص ٩ :

« اللغة المثلى هي التي لا تلتبس كلماتها ولا تنساح معانيها ، ولا تتشابه عن بعد أو قرب . ويقول في ص ١٨ و١٩ : « إن الرقي في اللغة يعني الدقة وأن اللغة الحسنة تتوقى المترادفات لأنها ثرثرة صبيانية يضيع بها الوقت » . و « الكاتب الذكي يحيل المترادفات من التوحيد

الى التنويع » أي يفرق بين الألفاظ المتقاربة المعنى مثل التفريق بين لفظة روح ونفس مثلاً أو بين كلمة الحكومة والدولة . وغير هذه من الألفاظ .

ويقول في ص ٩٣ مؤكداً ما أسلفناه قريباً — « يجب أن تكون الرسالة التعليمية لأية مدرسة مصرية ، هي تعليم اللغة العربية ، وأن تكون غاية هذا التعليم ، إيجاد الكلمات التي تحرك ذكاءنا بالتفكير الحسن ، وأن يكون هدف المعلم ، ليس العبارة الجميلة ، بل الكلمة الناجعة التي لا يمكن أن تقوم مقامها كلمة أخرى »

ويقول في ص ١٤٥ وهو ما يفند ادعاء الكاتب في مجلة الرسالة ويدحض أقواله :

« يجب أن نكبّر من شأن لغتنا ، وأن نوليها أعظم اهتمامنا ، لأنهما وسيلة التفكير ، ولا يمكن التفكير الحسن بلا لغةٍ حسنة » .

فهذه الأقوال وأمثالها كثيرة زخر بها كتاب « البلاغة العصرية » وهي آية ناطقة على أن المؤلف لم يهجم على العربية ، ولكنه يبغي الإكبار من شأنها وينادي بالاهتمام الفائق بالتعبير الدقيق المحدد المقتصد ، وهذه الفكرة ليست بدعاً وإنما هي ما يقول بها البيانيون ، ويطبقها الأدباء الفنانون .

فلقد كان الكاتب الفرنسي الشهير — فلوبير — لا تغفو عيناه طوال ليله وهو في كرب ، ليصل الى اللفظة الحقة Mot Juste كما كان يسميها ، وكذلك كان الكاتب الانجليزي الجهير استيفنسون يكابد مثل هذه التجربة .

وما لنا نذهب بعيداً مستشهدين بالغربيين وأمامنا كتاب « الأصول الفنية للأدب » « للأستاذ عبد الحميد حسن » وكيل دار العلوم يؤيد هذه الفكرة في ص ١٨٨ حيث يقول:

« إن فقدان التوازن بين اللفظ والمعنى وعدم توافقهما ، نشأ عنه إسراف في سرد ألفاظ تعد من لغو القول ، أو نافلته ، فيصبح المعنى حائراً ، وقد تضيع معالمه وسط هذا الزحام اللفظي »

وينتقل مؤلف « البلاغة العصرية » الى فكرة لا تقل خطراً عن الفكرة السالفة وهي جعل اللغة وسيلة للتفكير والاهتمام بالتفكير ، قبل الاهتمام بالعبارات الجميلة المزركشة ، وفي ذلك يقول في ص ٦١ :

« يجب أن يعوّد الشاب كيف يفكر ويبحث ويطلع ويجب مقاطعة الاقتباس في الانشاء في المدارس الابتدائية ، ويكرر تأييد هذه الفكرة في ص ١٠٥ — إذ يقول :

« إنا في حاجة الى أن نجعل البلاغة فنّا للتفكير الحسن السديد » .

وهذه الفكرة بالغة الأهمية لأن في نطاقها تتقدم العقلية الشرقية ، وتلوذ الى الابتكار

والاصالة ، وقد أثبت ذلك طائفة من رجال التربيــة وعلم النفس ، فيقول ر . ريل R. Reil في كتابه « فن التفكير العملي » :

«إن أعظم غاية للتعليم ، هو أن تعلّـم الناس كيف يفكرون ، وهذا النوع من التعليم من أصعب الأمور » [1] وعلى مثل هذا الرأي جرى الأستـاذ ميس Mace في كتابه « سيكولوجية الدراسة » Psychology of Study — فقال : إن الذي يُـعلـم ، هو معرفة كيف نفكر» .

ويفيض المؤلف حديثاً ، إلى ما تقدم ، في أثر الألفاظ من الناحية السيكولوجية، والاجتماعية والخلقية ، وهذا بحث علمي طريف ، غير مسبوق في لغتنا العربية ، ومما جاء في هذا البحث ، أن الـكلمات تؤثر في نفوسنا ، وتجعلنا نسلك سلوكاً معيناً بما تغرسه في أذهاننا من القيم ، وان هذه الـكلمات تبعث في أنفسنــا انفعالات خاصــة ، أو تحدث مقاييس ذهنية نعيش بها ونسلك في حياتنا على مقتضاها ص ٣٨ من الـكتاب .

وفضلاً عن ذلك فان الـكلمات تكسبنا كما يقول المؤلف اتجاهاً خلقيّـاً ، بل تكسبنا اتجاهاً مزاجيّـا ، فان كثيراً مما نشمئز منه ، أو نطرب له ، أو ننشط إليه يعود الى الكلمات التي تعلمناها ، وانغرست في عواطفنا ص ٤٠ . وذكر مثالاً لهـذه الحقيقــة الأخيرة. كلمة « بجمة » فإنها اسم شنيع لطائر يعد تحفة في الطيور ، ولذلك لم يستطع شاعر عربي أن يستغل الطاقة الفنية في وصف هذا الطائر لشناعة إسمه ، مع أن إسمه اللطيف في الانجليزية والفرنسية ، جعل كثيراً من الشعراء الانجليز والفرنسيين يذكرونه في أشعارهم .

وقد فصّـل هذه الفـكرة في كثير من صفحات الـكتاب فقال في ص ٨٧ :

« ان لـكل كلمة ايحاءها الذي يندس في العقل الباطن ، ويكوّن لنا عادات في التفكير والأخلاق،ويجب لهذا السبب أن نحيط أبناءنا بالـكلمات المثلى التي تبعث على التفـكير الحسن».

وفي ص ٩٧ ، أبان أثر الـكلمات في الأخلاق ، فقال ، بأن هناك كلمات تبني الأخلاق، فـكلمة المروءة ، أو الفتوة ، أو البر ، كلمات تبني الأخلاق ، وأنهـا من التحف الغالية. ولو كانت الأمم العربية تكسب في كل مائة سنة كلمة جديدة ، لها هـذه القوّة في الخير، لصار المجتمع العربي أسمى المجتمعات في التفـكير العاطفي » .

ولم يقف مؤلف كتاب « البلاغة العصرية » عند هذه الفـكرات بل ارتأى أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة ، وأن تكون مخاطبة العـقل غاية المنشيء بدلاً من مخاطبة

(1) The Art of Practical Thinking. by Reil.

العواطف ، وذلك لأن البلاغة في لغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل ، وهذا ضرر عظيم ص ٥٦

وهذه فكرة يمكن أن تقبل من كاتب اجتماعي أو رجل مشتغل بالعلوم ، همه الوحيد مسايرة العقل ، ومصاحبة الحقائق ، وقد يكون الدافع الى فكرته هو ازدحام البيئة الأدبية بالأدب العاطفي المصطنع أو الأدب العاطفي المسرف في عاطفيته ، ومثل هذا الأدب ممجوج ، ولا قيمة له ، ولكن لا نكران في أن هناك فنوناً من الأدب يعتمد العاطفة والانفعال ، كالشعر الغنائي والوجداني ، والقصص الرومانتيكية ، والأغنية ، وغيرها ، ومثل هذه النواحي تتخذ العاطفة أساساً لها ، وتستوحي العقل الباطن ، ويرى الناقدون المحدثون ، وفلاسفة الجمال ، أن هذا الأدب هو الأدب ، الفني ، ويمكن استفتاء « هربرت ريد » وغيره من النقاد المحدثين في هذه الناحية ، التي تتطلب بحثاً مطولاً

* * *

والذي يتعمق كتاب « البلاغة العصرية » يحس احساساً كاملاً ، بأن مؤلفه ، قد تملكته فكرة ثابتة نبيلة ، هي أنه لا تقدم للبيئة المصرية ، إلاّ باللواذ الى العقل ، وتزويد الناس بأنواع الثقافات المنوّعة ، والعلوم الحديثة ، لتسير البلاد في ركب الحضارة . ولهذا نراه يحمل حملة شعواء على الكتّاب الذين يتركون آثار الحضارة الراهنة ، ويعيشون على تراث الموتى ، فيترجمون كما يقول ، رجال الماضي ، ويتركون رجال الحاضر ويولون اهتمامهم أدب القدامى ، وينأون عن التأليف في مشكلاتنا المصرية ص ١١ ويكتفون باجترار عواطف القدامى الفردية ، دون اهتمام بالفكرات والعواطف الاجتماعية والأدب الشعبي .

وقد زخر الكتاب بشواهد وفيرة لتأييد هذه الفكرة ، فيقول : « إن لغتنا خرساء في نحو مائة علم وفن ، ولهذا السبب نحن جهلاء في هذه العلوم والفنون — ويقول في ص ١٢٠ — « الكلاسية في مصر ، ليست لغوية أدبية فقط ، بل هي اجتماعية مزاجية ذهنية ، فدعاتها مثلاً يهتمون كثيراً جدًّا في التأليف عن الخوارج في أيام علي بن أبي طالب ، ويهملون التأليف عن الخوارج على الديمقراطية .

ويتجلى من هذا ، أن مؤلف كتاب « البلاغة العصرية » يدعو الى أدب حي ، أدب عصري يتصل بالحياة ، أو ينبع منها ، ويريد أدباء لهم آثار في الحياة الاجتماعية ، أدباء يثيرون مشاعر معاصريهم من أمثال ديكنز وشيكوف وأبسن وه . ج . ولز وبرنارد شو ومن اليهم .

ومن وسائل تجديد الأدب ، تجديد اللغة وجعلها عصرية ، وذلك بتبسيطها (ص ٨٣)

وترك الكلمات الحفرية ذات الايحاء السيء ، واختيار الكلمات التي تمتاز بالإيحاءات الموقظة المنشطة أو كما يقول في ص ١٠٠ — كلمات يحس الفرد نشوتها ، بل يتأثر بكيميائها ، وفضلاً عن ذلك ابتكار كلمات جديدة تساير تطور المجتمع المتحضر ، وتطعيم تعبيراتنا بمعاني العلم ، ثم استعارة الكلمات العالمية أو الكوكبية كما يسميها ، مثل « التليفون والراديو ، والتلسكوب ، والفلم ، والتلغراف وما إليها .

وهو في هذه الآراء ، يجاري سنة التطور في كل لغة من اللغات الحية ، فاللغة الانجليزية كما يقول J. W. Marriot لا تقل كلماتها عن ٤٠٠ ألف كلمة وهي تستعير في كل عام ، بل في كل يوم ، كلمات جديدة[1] وذلك لأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية المتجددة ، تتطلب كلمات جديدة تعبر عن المخترعات والكشوف العلمية الحديثة .

* * *

هذه هي أهم الفكرات التي دار حولها كتاب « البلاغة العصرية » وهي فكرات تستأهل التمعن ، بل التمثل ، وهناك فكرات عارضة ذكرها المؤلف دون أي تعليق ، مثل فكرته في احياء الأدب الشعبي باصطناع اللغة العامية ، ص ٨٣ ولكنه لم يذكر شيئاً عن كيفية اصطناع هذه اللغة ، وفي أي فن من فنون الأدب ؟ والمفهوم أنه يدعو الى لغة عربية سهلة عصرية . وهو محور كتابه ، وهو في هذا الكتاب ، وفي كتبه العدة التي ازدانت بها المكتبة العربية لم يستعمل كلمة عامية واحدة ، بل أنه يتوخى الكلمة المعبرة ، والعبارة العربية الصحيحة ، وأسلوبه يبز كثيراً من أساليب كبار أدبائنا .

ومما تقدم من عرض مفصل لكتاب « البلاغة العصرية » يتضح أن ما جاء في أقوال كاتب مجلة الرسالة من أن الكتاب يدعو الى التهجم على اللغة العربية ، ويعيب أدبها ، ويدعو الى العامية ، لا يقوم على أي أساس من الصدق والحق ، ونخشى أن نقول إنه تشويه متعمد ، قصد به التشهير ، واذاعة الآراء الباطلة ، وهذا ما نشجي له كل الشجى ، ونرجو أن يربأ كتابنا الواعون بأنفسهم عن الانزلاق في الحكم على كتاب أو أديب ، دون قراءة فياضة ، وتجاوب مع الكاتب ، وتجرد عن الهوى .

هدانا الحق والتعاون سبيل النقد العف النزيه .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

---

(1) English Language & Literature (The New Educational Library)

سوق الغرور

لوليم ماكبيس ثاكري

— ٣ —

وانحدرت عائلة « سدلي » إلى الدرك الأسفل من الفقر حتى رهن والدها — بجهالة — كل شيء . ولم يستثن معاش « جو » .

ثم كثر إلحاح الدائنين . ويئست المسكينة من قدرتها على أن تمدّ يد المعونة لأهلها . ففكرت في الزواج . وكانت تقابل بالاعجاب على الرغم مما كان يحيط بها من ظروف قاسية .

وكان قسيس المدينة يرى فيها زوجته المثالية . ولكنها عادت فمحت ذلك التفكير من خاطرها .

ومهما يكن من شيء فإن ذكرى « جورج » كانت كل شيء عندها . ولكن الضربة كانت شديدة الوقع على أمها التي عانت في السنين الأخيرة ألواناً من النكبات .

ثم ماتت تلك السيدة وغادرت حياةً قد ظلت همومها تتزايد يوماً بعد يوم . وبقيت « أميليا » لتسعد أباها ، ما وسعها الجهد . ولتحلم بالمستقبل الباهر العجيب لولدها .

وبينما هي تعاني ما تعاني . كانت خطط « بكي » تلقى نجاحاً . وكان أكبر نصر لقيته في حياتها يوم قدّمتها سلفتها « لادي جين » إلى البلاط .

ولقد غلب « سير بت » على أمره تماماً . ونالت امرأته أكثر مما كانت ترجو أن تنال ولكنها كانت امرأة في طبعها التهيب والخفر . وكانت تطيع أمر زوجها .

وبينما هم في العربة إذا بها تبدي ملاحظة عن جمال الحلى الماسية التي كانت تتحلى بها « بكي » وعن المخرّم الدقيق الصنع الذي كان ينتهي به طراز ثوبها . فأكدت لها

« بكي » أن الجواهر والحلى إنما هي جواهر وحلى مأجورة . أما المحرّم فكان صفقةً تمت لها منذ سنين .

فهل كانت « بكي » تنظر نظرة خبث إلى « سير بت » . وهي تشير الى جواهرها . ومنها المشبك الماسي الذي كان قد أعطاه لها ؟

والحق ان تلك الجواهر لم تعد الى دكان الجوهري ولكنها أغلق عليها القفل في درج صغير كانت « بكي » تحفظ فيه كنوزها . ومنها جملة طيبة من أوراق البنك التي لا يتولى «رودن» في أمرها أقل شك .

أما « بكي » فلم يبقَ يومذاك مكان لا يرحب بمقدمها . وحتى أولئك السيدات اللائي لا تعلق بهنَّ أية شائبة . واللاتي كنَّ ينظرنَ اليها من قبل نظراً شزراً . قد أصبحنَ اليوم يرحبنَ بها .

وحتى لقد أجبرت « لادي ستين » ، تلك السيدة المتعالية أن ترحب بها وتستضيفها . والحق ان تلك الفتاة الوصيفة قد خطت في سبيل الارتقاء تدريجاً منذ أيام مدرسة الآنسة « بنكرتون » . ومع ذلك فقد كان ينتابها الضيق أحياناً على الرغم مما يحيط بها من أسباب المجد . ذلك لأن المجد الذي نالته كان مجداً لم تكتنفه الصعاب !

وقد زاد تردد «لورد ستين» على بيتها . والمعروف أنه زوج امرأة من الطراز الحديث لا ينتظر منه أن يكثر من الظهور أمام الناس .

ولقد كانت هناك دائماً الآنسة «بريجز» . وقد أصبحت اليوم وصيفة « لبكي » تعني بمقتنياتها . وكانت هذه الوصيفة لا تحصل على أجرها إلاَّ قليلاً . وكذلك كانت قوائم الحساب — التي يقدمها التجار ثمناً لما يقدمونه لحفلات العشاء — لا يؤدى حسابها .

واتفق ذات ليلة بعد أن نعمت «بكي» بسهرة فخمة في قصر « لورد ستين » وبعد أن ودّع «رودن» زوجته ، رأى هو أن يصل الى بيته راجلاً مع صديق له . وإذا هو ينظر فيرى شبح رجلين هو يعرفهما كل المعرفة

وكان هذان الرجلان مأمورين من مأموري تنفيذ الأحكام القضائية . فكيف النجاة منهما وكيف الهرب .

لذلك رأى أن لا مفرّ من قبوله دعوة صديقه السيد «موسى» أن يقضي الليلة في بيته وأن يقيم عنده حتى يخفّ أصحابه الى نجدته . وتسديد دينه الذي اضطره الى التخفي .

وليست هذه بالمرّة الأولى التي وجد «رودن» نفسه في هذا البيت . ولذلك فقد استقرّ به المقام هناك . ثم أجمع أمره على أن يكتب في اليوم التالي إلى «بكي» وأن يطلب إليها أن تعمل على خلاصه وفك أسره .

***

وفي صباح اليوم التالي بعث إليها بكلمة صغيرة . وتوقّع أن تسعى الى فك أسره يومه ذاك . حتى لو أدّى بها الأمر الى أن ترهن بعض مصوغاتها .

ولكنّ النهار كاد أن ينصرم ولم يأته أي جواب . وفي المساء جاءته كلمة صغيرة من امرأته تقول فيها : إن أمر حبسه في منزل «السيد موسى» قد أحزنها وأزعجها . وأنها لذلك وعلى الرغم مما بها من وعكة وعلى الرغم من زيارة الطبيب لها فقد غادرت سريرها . وانطلقت لتنظر ماذا تستطيع أن تفعل . ولكنّ الدائن «ناثان» رجلٌ لا تعرف الرحمة السبيل الى قلبه . فهو يقول إنه لا يقبل إلاّ سداد الدّين كاملاً غير منقوص . ولكنها ألحّت في التوسل . وألحفت في الرجاء . فقبل أن يرهن بعض حليّها . وأنه آتيها بالمال غداً . وسوف يطلق عندئذٍ سراح زوجها . ثم ختمت كلمتها بقولها : ثم عُدْت إلى سريري مريضةً محمومة .

فلما قرأ زوجها هذه الكلمة تولّته الهواجس والشكوك . وهي هواجس وشكوك كانت تطوف بخاطره منذ قريب . فطفق يتساءل : هل رحبت هي بفرصة غيابه ؟ وإذا صحّ هذا فمن ذا الذي ولّت وجهها شطره تطلب عنده العزاء وتلقى عنده السلوان ؟ .

ثم بعث بكلمة صغيرة الى أخيه يشرح له فيها ما وقع له . ويسأله المعونة والنجدة . فلم تمض إلاّ ساعة أو بعض ساعة حتى جاء زائر يزوره .

فلما رأى الزائر لم يصدق عينيه . فقد كان هذا الزائر «لادي جين» زوجة أخيه . إذ قد مسّ ما حلّ به من ضيق شغاف قلبها . وقد جاءته بما يحتاجه من مال .

فلما نظر إليها فاضت دموعه . فقد كانت تحنو على ولده «رودن الصغير» حنواً

مستحباً ورأى فيها مثالاً لكرم الخلق . كاد ينسى أن له في هذه الدنيا وجوداً .

وفي حوالي الساعة التاسعة سار الى بيته . أو قل جرى الى بيته . ذلك لأنَّ دافعاً غريباً كان يدفعه الى التعجل . وقد امتقع لونه لمنظر بيته الذي شاعت الأضواء فيه . ثمَّ تولَّته رعشة فظلَّ لحظةً لا يستطيع حراكاً . ثم دخل بيته في صمتٍ وسكون . فبدا البيت كأنه خلا من ساكنيه . فقد غاب الخدَم . وغابت الوصيفة . وكان الولد في المدرسة . فصعد السلَّم . وتوجَّه الى إحدى الغرف العليا . ومنها كان يسمع صوت زوجته وهي تغني .

فلما فتح الباب . رأى « بكى » جالسة على إحدى الأرائك . وهي ترتدي فستاناً جميلاً . وقد شعَّ منها بريق الحلى . ولورد « ستين » ينحني على يدها يقبلها . فلما رأت زوجها استحالت ابتسامتها الفاتنة الى حملقة . وكأنما سُكرت أبصارها .

ولكن لورد « ستين » قد استشاط غضباً . ذلك لأنه ظن أن فخاً قد نصب له . ثمَّ حاول أن يبدو لبقاً كيِّساً فأومأ الى الزوج إيماءة ود . ولكن « بكي » أدركت ما في نظرات زوجها من معانٍ . فارتمت على قدميه تؤكد براءتها . وتطلب الى لورد « ستين » أن يؤيد قولها . فحملق فيها اللورد . ذلك لأنه ظنَّ أن الزوجين مشتركان في تدبير الفضيحة. وقال معيِّراً إياها : إن كل قطعةٍ من الحلى هي من شرائه . هذا الى أشياء أخرى لا يعلم حسابها . إلاَّ الله . وقال أنه لن يكون ضحيَّة مكيدة يدبرها زوجان من الأراذل .

ثم حاول أن يغادر المكان ولكن « رودن » لطمه على وجهه . وهذه أول مرة أحسَّت فيها « بكى » إحساس الاحترام لزوجها . ثم انقلب إليها الزوج . ومزَّق كل ممزق عقود الجواهر والأقراط والأساور وقذف بها كلها الى الأرض . وأصابت إحداها جبين « ستين » فتركت ندبة ظلَّت باقية في وجهه حتى الممات .

ثم طلب إليها زوجها أن تجيئه بمفتاح خزانتها ليستوثق مما قاله « ستين » عمَّا لديها من نقود .

فلما فتح صندوقها ألفى أوراق النقد مكدَّسة . وهي نقود تكفي لسداد دينهم . وأخذ منها ما شاء أن يأخذ . ثمَّ غادرها ممتقعة اللون . تبدو لرائيها كأنها حطام امرأة . ولم تستسلم « بكى » للهزيمة أبداً بل طلبت معونة سير « بت » في صبيحة اليوم التالي .

ولـكن « رودن » كان قد سبقها إلى هناك . وكذلك قصت قصتها « لادى جين » فضاعت الفرصة على « بكى » !

ومن سخرية القدر أن خبر تعيين زوج « بكى » حاكماً قد نشر في الجريدة التي ظهرت صباح ذلك اليوم . وكان المنصب في إحدى البلاد الاستوائية حيث ذهب « رودن » لـكي يلاقي حتفه منفيـًا مبعداً .

أما « أميليا » فـكان ولدها لا يزال هو وحده قرّة عين لها . وكان هذا الولد يتدرّج في نموه واكتمال محاسنه تدرّج الهـلال . وكان جدّه مولعاً به لا « يضنّ عليـه بشيء مما يشتهي » .

وجاء رجل من الغرباء طويل القامة . أسمر اللون . الى المدرسة ذات يوم لـكي يراه ولم يلبث الولد أن عرف فيه صديق والده « الماجور دوبن » الذي طالما حدّثته عنه أمّه . وسرعان ما أصبح هو وإيّـاه صديقين حميمين .

أما « دوبن » فما كان أحد ليستطيـع أن يقدر سروره لرؤية حبيبته « أميليا » فإنّ قلبه ما انفكّ يخفق بحبها . وما خمدت جذوة الحب في ذلك القلب يوماً .

وقد عاد كذلك « جوزيف » وقد أغمّـه وأحزنه ما وجد في أهله من عسرٍ وضيق . فانتقل بهم الى محيط أبهى وأبهج .

وقد توردت وجنات « إمي » . ذلك لأن العيش عندها أصبح أكثر ليناً ورفاهية . ولـكن أباها لم يعش ليرى تبدّل الأحـوال على الرغم من عنايتها العناية كلهـا بتمريضه وتطبيبه .

واتخذ الصبي « جورج » من « الماجور دوبن » بطله الذي يحتذي مثاله . وسُرّت أمّـه السرور كلـه لفرط عناية هذا الصديق الوفي بها وولدها .

ولـكن ذكرى ذلك الحب تعيد لها ذكرى زوجها الغالي الذي غيبه القبر . وهي لذلك لا تنظر الى « دوبن » إلاّ نظرها لصديق لا أكثر ولا أقلّ . وعليـه هو أن يقنع بتلك النظرة .

وكانت المرأة الشابّـة لا تقدّر هـذه الجوهرة الثمينة التي قدمت لها حق قدرها .

واقترح السفر الى الخارج . فسافر « جوزيف » « والماجور » « وأميليا » . وجورج في رحلة الى القارّة الاوروبية .

وفي ذات ليلة . وفي نادٍ للقمار بمدينة « بادن بادن » دُهش « جوزيف » إذ سمع سيدةً مقنّعة تناديه باسمه . وكان صوتها لا يزال عذباً نديًّا . ولو أن ملابسها لا تدلّ على الاناقة . ولو أنّ وجهها قد بولغ في صبغه وتلوينه .

ثمّ أيقن صاحبنا أنّ تلك السيدة هي « بكى » . ولكن قد غيّرتها السنون ! فكم من مدينة من مدن القارة شاهدت « بكى » وهي تتسكّع تسكّع المشرّدين وهي وحيدة حزينة . ذلك لأنّ رائحة الفضيحة كانت تلاحقها أينما ذهبت

وإنها لقصة تبعث الأشفاق والرثاء . وإنها لقصة البراءة المفترى عليها . كما قالت هي « لجوزيف » وكانت تستعين على توكيد حديثها بعينين لم يفارقهما الحوَر . وبذراعين هما فتنة للناظرين . فلما بلغ الاقناع به حدّ العقيدة . ذهب قُدُماً الى أميليا الذي تأثر قلبها لسماع القصة .

وكان « وليم » شكّاكاً كبيراً . فقال إن تلك المرأة قد جلبت النحس أينما ذهبت . وطلب الى « إمي » وألحّ في الرجاء أن لا تراها مرة أخرى . واستتبع هذا عراك عنيف طرحت أميليا على أثره صداقته ظهريًّا . تلك الصداقة التي ملكتها رخيصة فهانت عليها .

وأخيراً أعلن « وليم » أن صبره قد نفد . ذلك لأن ما يلقاه منها من اجحاف وجحود قد حزّ في نفسه . وقال إنه لن يستطيع بعد اليوم أن يبقى تحت رحمة امرأة لا تستحق هذا الحب القوي العميق .

وما إن انتصرت « إمي » . وما إن ارتحل « وليم » حتى بدت الدنيا في عينيها أضيق من كفة الحابل . وحتى عرفت عيناها الدمع الغزير . وحتى غاضت حمرة الورد من وجنتيها . وحتى ساد حياتها سكون وحزن . وحتى فقدت مباهج الحياة حلاوتها .

ولكن أرملة شابة جميلة غنية (بحكم ما خلفه لها « أوسبرن » من مال كثير) كان بديهيًّا أن تصبح غرضاً للأفاقين الذين يكثرون في المدن الكبرى .

فلما تولاها اليأس غاضت كبرياؤها . فكتبت ذات يوم خطاباً أرسلته الى لندن . وكانت

« بكي » قد أدركت بفطنتها كل شيء . وفي ساعة من ساعات المروءة رأت أن تتدخل فقالت لاميليا قولاً لا ينقصه الوضوح انها رفضت حبًّا تفخر كل امرأة أن تظفر به . وضحت بذلك الحب لقاء ذكرى قد نصل لونها وزالت صبغتها.

واحتجت «إمي» على هذا القول . وأنكرت على كائن من كان أن يمس ذكرى زوجها العزيز «جورج» .

ولكن « بكي » تولت وصفه حق الوصف . فقالت عنه إنه كان مغروراً ضعيفاً مختالاً وتوكيداً لقولها أبرزت خطاباً كان قد أرسله اليها في تلك الليلة المشئومة ليلة «واترلو» يرجوها فيه أن تهرب معه .

وكان هذا الافشاء لدى « إمي » بمثابة انطلاق وعتق لقلبها العاني . وأصبح قلبها اليوم حرًّا يستطيع أن يحب من طال به الحنين الى حبه .

أما « بكي » فقد اختفت من طريق حياتهم السعيدة الهانئة . وبقيت في خارج البلاد لتسعد « جو » الذي أحبّ البقاء في بلاد القارة . ولم يمض الا القليل حتى أصبح طوع بنانها .

ولما حاول « وليم » أن ينقذه وينجيه رفض هو أن يفارقها . وقد ثبت عند موته أنه لم يخلف وراءه إلاّ مبلغ التأمين على حياته . على أن يقسم هذا المبلغ بين « أميليا » وبين محبوبته « السيدة كرولي » .

وبعد حين من الدهر ورث ولد « بكي » الأرض . ولكنه لم يشأ أبداً أن يرى أمه ولو أنه جعل لها راتباً سخيًّا .

* * *

وأخيراً عادت هي الى انجلترا لتعمل أعمال الخير في مدينة «باث» . وكانت من أكثر العاكفات على بيوت العبادة . وكانت — والحق يقال — مثالاً طيباً لخير أفراد المجتمع

(عن الانجليزية) مبارك ابراهيم

كأسها الثامنة

حطمت كأسها وهمت بكأس　　وهي غضبى فقلت حسبك نفسي

أنت حطمتها وأتلفت قلبي　　فتلمست في الكؤوس التأسي

وتداويت من هواك بعرفٍ　　من طلاها يأسو الجراح وينسي

فهي راحي وراحتي وعزائي　　ونواسيّ إن طربت وأنسي

وهي شيطاني المنزل بالوحـي　　وركبي عبر الخيال وحلسي

علمتني ألاّ أحب سواها　　وكفتني صراع شكي وحسي

ونأت بي عما يدنس نفسي　　وأقالت خطاي من كل رجس

***

يا نداماي لا تراعوا لأني　　حنقت بالعرس في عشية عرسي

إنها كأسها التي حطمتها　　بعد ما قرَّ في قرارة حدسي

إذ تقول التي أحب وأهوى　　حين همت بشرب ثامن كأس

ما بهاء الحياة بيضاء كالثلـج　　ونعمى الهوى على غير لبس

فتجهمتها وقلت وهذا الـعقد　　ما عقده على غير قوسي ؟

دلمى أبو النجا

هيئة الأمم المتحدة

– ٢ –

رابعاً – مجلس الوصاية الدولي

مجلس الوصاية الدولي هو أقل فروع هيئة الأمم ضجة، ولكنه بحكم طبيعة عمله كرقيب على شؤون الملايين من الشعوب غير المستقلة يجب أن يتسم بالنزاهة.

وقد تعهدت دول هيئة الأمم، التي قد تضطلع الآن أو في المستقبل بتبعات ادارة أقاليم لم تنل شعوبها قسطاً كاملاً من الاستقلال الذاتي، بأن تقدم مصالح أهل هذه الأقاليم على كل ما عداها، وان تحمل هذه المصالح أمانة مقدسة في عنقها، فتلتزم بالعمل على تنمية رفاهية أهل هذه الاقاليم الى أقصى حد مستطاع.

وينص الميثاق على ضرورة كفالة الحقوق التالية للشعوب غير المستقلة الخاضعة لنظم الوصاية:

ا – كفالة تقدم هذه الشعوب سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وتعليميًّا، وحمايتها من ضروب الاساءة.

ب – تنمية أساليب الحكم الذاتي، وتقدير الأماني السياسية لهذه الشعوب.

ج – توطيد السلم والأمن الدولي

وبناء على هذه المبادىء أنشأت هيئة الامم نظاماً دوليًّا للوصاية لإدارة الأقاليم التي قد تخضع لهذا النظام بمقتضى اتفاقات فردية، وللاشراف عليها. على أن تشمل الوصاية الأقاليم المشمولة بالانتداب والأقاليم التي كانت قبلاً مستعمرات للأعداء، والأقاليم التي تتنازل عن ادارتها الدول المسؤولة عنها.

ومعروف طبعاً أن الوصاية تكون على القاصر، فتى اكتملت للشعوب مقوّمات الدول ونضجت النضج الكافي الذي يؤهلها للانضمام الى هيئه الأمم، رفعت عنها الوصاية وزالت آخر آثارها.

ويتألف مجلس الوصاية من أعضاء هيئة الأمم الذين يتولون ادارة أقاليم مشمولة بالوصاية ومن الدول الخمس الكبيرة ومن عدد آخر من الدول ينتخب لحفظ التوازن .

خامساً : محكمة العدل الدولية

محكمة العدل الدولية هي الأداة القضائية الرئيسية لهيئة الأمم المتحدة ، ويعدّ جميع أعضاء هيئة الأمم أطرافاً في النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية . ويجوز لدولة ليست من هيئة الأمم أن تنضم الى النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية بشروط تضعها الجمعية العمومية لكل حالة بناء على توصية مجلس الأمن .

ويتعهد كل عضو من أعضاء هيئة الأمم بالامتثال لأحكام محكمة العدل الدولية في كل قضية يكون هو طرف نزاع فيها .

وإذا صدر قرار من المحكمة وأبى « المحكوم عليه » الامتثال له ، كان للشاكي أن يعرض الأمر على مجلس الأمن فيقرر المجلس التدابير التي يرى اتخاذها لتنفيذ هذا الحكم .

والمحكمة مؤلفة من قضاةٍ مستقلين ينتخبون بغضّ الطرف عن جنسيتهم بحيث يكونون من ذوي الصفات الخلقية العالية وحائزين في بلادهم المؤهلات المطلوبة لتعيينهم في أرفع المناصب القضائية ، أو من المشرعين المشهود لهم بالكفاية في القانون الدولي

وقوام المحكمة ١٥ قاضياً ، ولا يجوز أن يكون بينهم أكثر من قاضٍ من رعايا دولة واحدة ، ولمصر قاضٍ في هذه المحكمة هو معالي الدكتور عبد الحميد بدوي باشا .

والقضاة ينتخبون من قبل الجمعية العمومية ومجلس الأمن من قائمة تقدم لهما .

وتتبع المحكمة في أعمالها النظم القضائية المعروفة .

سادساً : السكرتيرية

أما الركن السادس من أركان هيئة الأمم المتحدة فهو السكرتيرية أو الأمانة العامة . ولهذه السكرتيرية سكرتير عام تختاره الجمعية العمومية بتوصيةٍ من مجلس الأمن والسكرتير الحالي هو المسيو تريجفي لاي وهو في الواقع أكبر قطب إداري في هيئة الأمم .

والسكرتير العام يتلقى جميع تقارير أقسام هيئة الأمم المتحدة ويتلقى جميع الشكاوي والبرقيات من الأفراد والهيئات والحكومات .

وهو يتمتع الى حدٍّ ما بما تتمتع به الدول من امتياز ، لأن له أن ينبه مجلس الأمن الى المسائل التي يرى أنها قد تهدد السلم والأمن الدولي ، وهذا حقٌّ مخوَّل للدول .

ويمين السكرتير العام موظفي السكرتيرية طبقاً للوائح المألوفة .

ويضع السكرتير العام في كل سنة تقريراً مفصلاً عن أعمال هيئة الأمم المتحدة يقدمه للجمعية العمومية لمناقشته .

وهناك إلى جانب ما أسلفنا من منشآت هيئة الأمم المتحدة منظمات أخرى نذكرها على سبيل الإحصاء لأن مجرّد الحديث بالايجاز عنها يسلب كثيراً من الجهد .

فهناك هيئة اليونسكو — أي هيئة العلوم والتربية والثقافة — ومهمتها تحقيق التجانس الفكري بين دول العالم ومكافحة الحروب بنشر وسائل الثقافة .

وهناك البنك الدولي ، ومهمته تقديم قروض الى الدول لاستغلالها في مشروعات اصلاحية واسعة تعجز عن النهوض بها رؤوس الأموال الفردية .

وهناك صندوق النقد الدولي وهو يقف الى جانب البنك لمؤازرته وتأييده . ولحفظ استقرار العملات في العالم .

وهناك هيئة اغاثة الأطفال المشردين ومهمتها العناية باللاجئين من الأطفال أينما كانوا .

وهناك مكتب العمل الدولي وغايته مراقبة أحوال العمل والعمال وتحسينها .

أضف الى ذلك أن هيئة الأمم المتحدة تترك الباب مفتوحاً أمام تأليف كل نوع من أنواع اللجان والهيئات الخاصة أو الفرعية أو الاقليمية أو الدولية . كما ان الهيئة تعترف بالمواثيق الاقليمية والدفاعية التي قد تعقدها الدول من أعضائها ، بشرط أن تكون تلك المواثيق غير متعارضة مع ميثاق هيئة الأمم المتحدة .

علاوة على أن الهيئة تبيح حق تعديل ميثاقها للدول من أعضائها اذا رأت أن ذلك ضروري .

* * *

هذا عن الناحية الادارية لهيئة الأمم المتحدة .

أما عن الناحية المعنوية لها ، فالرأي عندي أنها هيئة لا ينتظرها كثير من التوفيق ، بل إن مجال الخيبة والقنوط أمامها أوسع من مجال النجاح والاستبشار .

وسبب ذلك أن الهيئة ، كما اتضح من أعمالها ومناقشاتها منذ انشائها حتى اليوم ، تتنكب في الأغلب الطريق السوي ، وتركل مبادىء العدالة والحق ، وتبيح للغاصب فرصة المضي في منهاجه ، وتقيم للقوة سلطاناً لا ينازعه سلطان .

أضف الى ذلك أن حق « الفيتو » أو النقض المخوّل للدول الكبيرة في مجلس الأمن

انما يجعل اتخاذ قرار معادٍ للدول الخمس الكبرى أمراً متعذراً ، ولذلك لا يسع دولة صغيرة أن تنبري لمواجهة دولة كبيرة وتنتظر عدالة ونصفة ، ولا يسع حقاً مع الضعيف أن يخذل باطلاً في جانب القوي . وحق الفيتو هذا استطاع حتى اليوم أن يشل معظم أعمال مجلس الأمن ، لأن كل قرار يتخذه المجلس يمكن نقضه بمجرد رفع يد ممثل لدولة من الدول الخمس الكبيرة ، أيّاً كانت خطورة هذا القرار ، وأيّاً كانت خطورة النزاع الذي حتم إصدار ذلك القرار .

فمجلس الأمن ، والجمعية العمومية هما قبل كل شيء ميدان للسياسة لا للحق والعدل. وإذا عرضت للمناقشة قضية ما ، كان موقف الدول من نحوها مطابقاً لا لنواحي العدالة والحق ، بل لنواحي المنفعة الشخصية والاندفاع التلقائي . ولذلك لم تستطع هيئة الأمم بجميع فروعها أن تحل نزاعاً واحداً من المنازعات المعقدة التي عرضت عليها ، فلم تحل قضية مصر ، ولا قضية فلسطين ، ولا قضية اندونيسيا ، ولا قضية برلين ، ولا قضية المانيا ، ولا قضية كشمير ، ولا قضية هنود جنوب أفريقيا ، ولا قضية مستعمرات ايطاليا السابقة ، ولا قضية اليونان ، ولا قضية مضيق كورفو ، ولا قضية .....

والقضايا التي ظُنّ ان الهيئة أصدرت فيها حكماً ووصلت الى نتيجة ما ، لم تُحلّ لسبب من الأسباب . فمشكلة لاجئي فلسطين مثلاً ، وهي مشكلة قررت هيئة الأمم المتحدة ضرورة المبادرة بحلها بتقديم مساعدة مالية قدرها ٣٢ مليون دولار للانفاق منها على المشردين مع تقرير مبدأ إعادة اللاجئين الى بلادهم وتعويضهم عن خسائرهم . . . هذه المشكلة ظلت كما هي فلا حصص الاغاثة دفعت ولا اللاجئون عادوا الى ديارهم ولا المسؤولون دفعوا لهم تعويضاتهم . وقضية اندونيسيا التي أصدر مجلس الأمن فيها أمراً غير مرة بضرورة اطلاق سراح أقطاب الجمهورية المعتقلين والجلاء عن المواقع التي احتلها الهولنديون . . . هذه القضية ظلت كما هي لأن أوامر مجلس الأمن لم تلق أذناً صاغية .

وفي وسع المرء أن يسوق عشرات من الأمثلة التي تعزز الاعتقاد بأن هيئة الأمم مدعاة الى التشاؤم لا إلى التفاؤل ، وبأنها كما وصفها صحفي مصري حلبة للمناظرة والمنافسة لا هيئة لصون السلم والأمن الدوليين .

نرجو الله أن يكون مصيرُها خيراً من مصير سابقتها جامعة جنيف ، وأن يكون عمرُها أطول من عمر عصبة الأمم .

وديع فلسطين



مصابيح الفلورسنت[1] وأضرارها

إن المبدأ الثابت المعروف في الاضاءة الكهربية حتى اليوم، يقوم بإحماء الفتيل المركب في مشكاة المصباح الكهربي احماء شديداً جداً من شأنه جعل التيار الكهربي المسلط عليه يشع أشعة تولد الضوء بنسبة ٢ ./. ولذلك يؤثر عليه الضوء الكهربي البارد « الفلورسنت » الحديث الاستعمال . وقد تبين حديثاً لبعض أطباء امريكا خطر صحي خفي في مصابيح الاضاءة الكهربية الأنبوبية الشكل البـاردة النور « نسبياً » التي أصبحت تضاء بها البيوت والمدارس والمتاجر والمصانع والملاهي والمقاهي وغيرها . وهي المصابيح الحديثة الطراز التي اعتاد الناس حسبانها خالية من الضرر .

ذلك انه إذا ما جُـرح امرؤ بحطام أنبوب كبير منها ، فقد يقضي ذلك الجريح شهوراً متعددة حتى يندمل جرحه هذا . وربما يقتضي علاجه استهداف الجريح لغير جراحة واحدة ، قصد استئصال الأورام ونزع النُسج الميتة التي تتولد في الجرح المشار اليه .

وقد قام باذاعـة هذه التحذيرات ، أصحاب إحدى شركات المباني الأمريكيـة ، ومديروها . إذ نصحوا كل من يصاب بجرح من شظية زجاج أنبوب فلورسنت ، أن يبادر الى عرض نفسه على الطبيب ليباشر علاجه على الفور . ثم حذروا الناس من العلاجات المنزلية ، عندما يجرحون بهذه الوسيلة ، وجعلوا يحثون بوابي المنازل وعمال الصيانة والصناع الذين يعمدون الى الانتفاع بحطام المواد المهملة ، على الاقلاع عن تحطيم أنابيب الفلورسنت المحترقة قصد الانتفاع بحطامها، ذلك لأن بواطن هاتيك المصابيح المشرقة مدهونة بدهان مؤلف بنسبة تبلغ ٤ ./. من فسفور البريليم . ومن شأن رواسب البريليَم أنها تضيء عندما تصوّب اليها أشعة ما وراء البنفسجي . وهي الأشعة التي تتولد حينما ينطلق التيار الكهربي على الغاز الذي في جوف الأنبوب .

---

(١) الكاتب : وصفت هذه المصابيح في مقال نشر في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦ ثم في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٩ بباب الاخبار العلمية

وقد اخترعت حديثاً مصابيح كهربية باردة الضياء يستعمل فيها غاز الكريبتون بدلاً من غاز الارجون المألوف . وغاز الكريبتون هذا ، عنصر من أندر العناصر الطبيعية في الجوّ . وهو مستعمل الآن في مصابيح الفلورسنت الجديدة التي قوّة كل منها ٨٥ وُط التي تنتجها شركة وستنجهوس . وهي تتميز على سواها بكونها تولد طاقة كهربية تزيد ١٧./ عليها في المصابيح العامة الاستعمال التي تحتوي على غاز الأرجون . إذ كل مصباح منها قوته ٨٥ وُط يولد ضياء كهربيًّا مشرقاً بارداً يعادل ما ينتجه زميله ذو المائة الوط المملوء بغاز الأرجون الذي يحل محله . والكريبتون كما أسلفنا القول هو أحد الغازات النادرة التي توجد منها مقادير طفيفة جدًّا في الهواء .

والبريليم عنصر معدني صلب ذو لون أسود مائل للسنجابي غير أكّال ، من فصيلة المغنيزيوم . اكتشفه سنة ١٧٩٧ ن . ل . فوكيلين . ويتميز بكونه ذا خصائص تشبه خليط النحاس والألومينيم . ويستعمل في صنع نوافذ أنابيب أشعة رنتجن .

ويظن الباحثون في هذا الموضوع أن رواسب البريليم عند ما تدخل في النسيج البشري عن طريق أي جرح يحدث من شظيةٍ زجاجية تتناثر من أنبوب الفلورسنت ، تولد الأورام ، وتحول دون اندمال الجرح وتجعله يفرز مادّة مائية .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد الحوادث الأربع الآتية : (وقد نشرتها المجلة الطبية الصناعية وذلك في جزئها الصادر في شهر اكتوبر سنة ١٩٤٨ بقلم الدكتور شووك المدير الطبي لشركة أونز اللينويز للزجاج في مدينة توليدو بولاية أوهيو) خاصة بالإصابات التي نجمت عن شظايا أنابيب الفلورسنت .

ولا يخفى أن سرّ مصباح الفلورسنت كامن في أنبوبه الزجاجي الذي يبلغ طوله العادي ياردة كاملة أو أكثر . ثم في باطنه المغشّى بالمواد الكيمائية المسحوقة . وهي ذات لون أبيض يقق كالثلج . وعندما يسلط عليها التيار الكهربي تتلألأ مثل الصبغات المضيئة التي تصبغ بها أثاثات المسارح . وذلك بتأثير انطلاق أشعة ما وراء البنفسجي التي تتولد في الأنبوب من بخار الزئبق الذي يحويه الأنبوب نفسه كما أسلفنا القول .

ويؤلف الدهان المتلألىء من عدة مواد هي مزيج السليكات والطنجستات وفوسفات الزنك والكلسيوم والمغنيزيوم والكادميوم والبريليم .

وكانت أولى الحوادث الأربع المشار اليها ، ما وقعت لامرأة من المستخدمات في أحد مصانع الشركة سالفة الذكر بمدينة ماريون بولاية إنديانا ، إذ جرح معصمها الأيسر ، وذلك

على أثر سقوط أنبوب فلورسنت من بؤرته الكهربية، إذ هوى على رأسها فتحطم. وكان وقوع هذا الحادث في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ فلم يبرأ جرحها إلا في شهر مايو سنة ١٩٤٨ نتيجة جراحة عملت لها. وكان سبب هذا أن المرأة الجريح لم تأبه لاصابتها من فورها. وإنما لجأت الى زميلة لها كانت متمرنة على آداء الاسعافات الأولية فضمدت لها جرحها. ولم تعرض الجريحة نفسها على الطبيب إلا آجلاً. وحينئذٍ أخذ الجرح في الالتئام رويداً رويداً حتى شُفيَ. وقد أعلنت هذه الاصابة الى علماء الباثولوجيا (علم الأمراض وطبائعها) في جامعة هارفرد، كما أذيعت في معهد سراناك ليك في ولاية نيويورك حيث يدرسون الاصابات المتولدة من البريليَم. وحينئذٍ أبلغهم الدكتور روبرت س. جراير العضو في لجنة علاج السرطان في جامعة هارفرد أنه شاهد ثلاثة جروح من هذا القبيل نجمت عن شظايا زجاج أنابيب الفلورسنت المحطّمة. وقال إن هاتيك الأورام الثلاثة والورم الرابع الذي حدث في انديانا، كانت حالاتها مشابهة للتي تتولد في رئات الصنّاع الذين يعملون في مصانع الفلورسنت حيث يستنشقون مساحيق البريليم ثم يموتون متأثرين بأورامهم المزمنة في رئاتهم. بيد أن هذا الطبيب يشير على زملائه الباحثين في هذا الموضوع، بوجوب التريث في الاعتقاد بصحة هذه النتيجة، أي حسبانهم البريليَم عاملاً أكيداً لتأخير التئام الجروح المذكورة آنفاً. وذلك لانه وقف على اصابات من هذا النوع لم يكن البريليَم مصدرها.

ومما يحسن ذكره في هذا الصدد أن مصانع هذه المصابيح الكهربية الرائعة قد شرعت تجرّب تجارب شتى في مساحيق مصنوعة، غير معدنية، لتحل محل ذلك الفلز. وكان تصرفها هذا سابقاً لتكشف مساوىء البريليم لرجال الطب بصفة كونه مصدراً للضرر الصحي في مصابيح الفلورسنت المحطمة. ومطمح أرباب المصانع من القيام بتجارب المواد الجديدة هو أملهم في زيادة الطاقة الضوئية لمصابيحهم تلك. فاذا أسفرت تجاربهم عن النجاح المنشود زال بلا شك خطر البريليَم، كما يعتقد الدكتور جراير.

عوض جندي

ذكريات

تعاودني ذكراكِ والليلُ ساكنٌ . فتعصفُ في نفسي عواصفُ هُوجُ
أيسجو كظلِّ الموت ليلي وينضوي وكان بأفراح الحياة يموجُ
يذكّرني هذا السكونُ لياليًا لها لجَبٌ مستعذَبٌ وضَجيجُ
ليالِيَ لم يستطعْ النومَ جفنُنا ولم يُغشِينا مَرَجٌ لنا وعجيجُ
نثير سكونَ الليل بالقصف والطّلى وتَهْدِرُ مثل البحر وهو مهيجُ
وتَغْنَى مغانينا بكل فكاهةٍ وتعلو أغانيُّ لنا وهزيجُ
لكلٌ حديثٍ رقّةٌ وبشاشةٌ وللَّهْوِ وجهٌ كالشباب بهيجُ
عهودٌ نضيراتٌ إذا ما ذكرتُها سرَتْ نفحةٌ منها وهبَّ أريجُ
وشاقتْ أناشيدُ الغرام مسامعي ولاحت غياضٌ نضرةٌ ومروجُ
فلم يبقَ من هذا النعيم الذي مضى سوى ذِكْرِ توري الأسى وتهيجُ
وأمسيتُ في ليلٍ تثير سكونه ، إذا ما عراني ، زفرةٌ ونشيجُ

محمد منير الشوباشي

مصيف رأس البر

أنعمْ (برأس البر) للمرتادِ ... راحٌ لسارٍ في الركاب وغاد

فيه التقى النيل الوقور بغارب ... طامٍ يجيش بموجه المنقادِ

جمعا أناة الشيب في ركض الصبا ... وسرائر الأيام والآباد

يجد الخليُّ على اللسان وصخره ... نجواه بين دعابةٍ وطراد [1]

ويرى الشجيُّ على تكسر موجه ... سلواه من ألم الحياة العادي

تسخو الطبيعة، لا تضنّ على امرىء ... بنوالها في متعةٍ ومراد !!

* * *

برز الضياء على الوجود وأشرقت ... شمسُ النهار تُنير للهجّاد

وضحَا القطين، وأمَّ منه وسائقٌ ... تختال في حللٍ وفي أبراد [2]

حشد المصيف وقد تجرّد للهوى ... فكأنه عيدٌ من الأعياد

وخرائد الحسن القشيب تماثلت ... كالحور تبهر أنفس العبّاد

نضت الثياب، فبان ما لا يُرتجى ... من كلّ غصن بالجنى ميّادِ

لُدْنُ الجسوم، تتيه في ألوانها ... مستطلعاتٍ كالربيع البادي

قدّت على نحت الصناع رشيقةً ... فتخالها في معرض الأجساد

تُصبي وتفتن بالمحاسن ناظراً ... فكأنها للحبّ بالمرصادِ

وتُعانق الأمواجَ في رقصاتها ... ولها رمالُ الشطّ خير وسادِ

عجباً لسلطان الأتيّ، تهادنت ... عليــاؤه عن ساكنٍ متهادي

(١) اللسان مكان معروف برأس البر عند ملتقى النيل وبحر الروم يجتمع فيه المصطافون أصيل كل يوم (٢) القطين ج قاطن السكان — الوسائق ج وسيقة الجماعات

خاض الخلائق في حشاه وأوسعوا   للغيد تمرحُ فيه والقصاد !!

* * *

جنّ الظلامُ، وأخلدت في صمته   هذي الجموعُ لراحةٍ ورقادِ

تغفو العيون على كمين ضميرها [1]   ليبين وحيَ مظنّةٍ ورشاد

وبدا جبين البدر يطرق موهناً   يسري بأطيافٍ خطرنَ بَدادِ

ولطائف النسمات في لمساتها   يذكينَ أشواق المحبّ الصادي

وعلى الخضمّ تطلّ من أثباجه   قصص الغرام تلوح بعد بعاد

مرّت من الزمن القديم مسارحاً   تنساب بين غلائلٍ ومهادِ

لعبت عليها الغانيات فصولها   فأذبن من مُهَجٍ ومن أكبادِ

وذكرتُ صرعاها وصولة ملكها   والذكر نبع ذخيرةٍ وعتادِ

تلقى الشباك، وبالعيان تصيدنا   ونزاعنا أبداً الى الصياد !!

لله هذا الأفق ؟ أي ملاحة   يهتز فيها بالسرور فؤادي !!

فوقفت أنظر للفضاء محلقاً   بالروح بين طرائف وتلاد

وأرى الضفاف وساكنيها ندوةً   لحديث سمار، وصفو وداد

فاذا انقضى عهد المصيف، وقوضت   أخصاصه، بتفرق الرواد [2]

هبّت أعاصيرٌ، وزمجر عيلم [3]   في ثورة الأنواء واليصواد

وتدافعت قطع الغمام، وأرجفت   بوميض برق أو بقصف رَعادِ

يسألنَ عن عرض الجمال وطيفه   فوق الكثيب، وسحره الوقاد

قُل راح أسراب المصيف، فهل لها   عودٌ الى هذا المكان الشادي ؟!

القاهرة   عبد السلام رستم

---

(١) اشارة الى الوعي الباطن وتأثيره في الايحاء (٢) أخصاص ج خص — العش
(٣) العيلم من أسماء البحر واليصواد الجلبة في الحرب والخصومة

العقل والقلب

جاء في الأخبار على لسان الدكتور ولتر رايدل العالم الألماني الذي يعيش في أمريكا الآن إنه في مدى خمسة وعشرين عاماً سيستطيع الإنسان أن يتنقل بالطائرة بين الأجرام السماوية المختلفة . ولهذا الخبر مغزى أخلاقي بعيد المدى . فهو يعطينا صورة واضحة لما وصل إليه العلم من نضج وقدرة على تسخير قوى الطبيعة لخدمة الانسان فاستحق هذا بحق أن يلقب بسيد الطبيعة وقاهرها .

لقد مضى الزمن الذي عالج الانسان فيه مشاكله ونال حاجاته بالالتجاء الى الأوهام والخرافات . فهو لم يعد في حاجة الى بساط الريح وخاتم سليمان . لأن العلم يجعله يطير فعلاً من بلد الى آخر ، بل سيجعله في المستقبل القريب يتنقل بين الأجرام السماوية المختلفة . والعلم يقدم له من الخيرات ويوفر له من أسباب الحياة ما لم يخطر على بال أحد مهما بلغ به الخيال .

لم يصل الإنسان الى هذا ولم يصبح بحق سيد الكون إلاّ حينما آمن لنفسه وآمن بالعقل وبقدرته على الكشف عن معميات الطبيعة .

ولكن يؤسفنا أن نجد في هذا الوقت الذي يعلق فيه الناس آمالاً كباراً على العلم لإنقاذ العالم من مشاكله بما سيوفره من أسباب الرزق والحياة الموفورة ، جماعة من الكتّاب تنكر العقل وتقلل من شأن العلم .

فقد جاء في تمثيلية « بيت النمل » على لسان الجنية التي ظهرت للشاب المهندس ما يأتي :

« من سوء حظي أنك رجل مفكر . قلما تظهر جنية لرجل مفكر . إنما أكثر ظهورنا للبسطاء والعامة ... الخ » .

وفي مكان آخر قالت الجنية : « نعم .. نعم عقلك . هذا الحارس الثقيل الذي يقف

بباب قلبك . حارس هو عندك مدجج بسلاح العلوم الرياضية والمنطق . . كيف أستطيع اقناعه ولكني لن أتراجع ... سأحاول جهد الطاقة الخ ...» .

وخلاصة هذا الاتجاه هو أن العقل البشري قاصر عن فهم العالم وحل مشاكله . وان الانسان يستطيع أن ينقذ نفسه ويحل أزماته عن طريق القلب والاستسلام لأحلامه . فالعالم تافه لا يستحق الالتفات وحياة الانسان على هذه الأرض فقاعة هواء .

هذه دعوة خطيرة من غير شك لأنها دعوة ضد الحياة نفسها .

***

ولو سلمنا جدلاً بما ذهبت إليه هذه الدعوة فإن الايمان بالقلب لا يبرر الإسراف في التحقير من شأن العقل والاقلال من قيمة الحياة . فإن كبار المشيعين للقلب كبرغسون مثلاً لم يبلغ هذا الشطط البعيد ؛ بل إنه قال عن العقل إنه أسمى ما في البشرية وإنه النور الذي استطاعت به الحياة أن تدرك ذاتها، وإنه المرشد الذي قادها من تقدم الى تقدم حتى وصلت الى ما هي عليه الآن . وذهب غيره الى أن مصير الانسان أصبح في يد العقل حينما انتقل من حياة الفطرة الى حياة التحضر .

إذن فهذه دعوة تحارب عزيمة الانسان ورغبته الأصيلة ، التي اكتسبها بالمران والخبرة في اقتحام الحياة واكتشاف أسرارها والتسلط على عناصر الطبيعة وإخضاعها لارادته، فاستطاع في النهاية أن يكون سيد نفسه .

هذه الدعوة إن دلت على شيء فإنما تدل على أننا لسنا في حاجة الى كهربة خزان أسوان وتصنيع الأمة وتعميم الآلات في الزراعة لزيادة الخير ورفع مستوى المعيشة ، إنها تعني أننا لسنا في حاجة الى الأطباء والمهندسين والكيمائيين والصناع . ولست أدري كيف يمكن أن نستغني بالقلب ، بل بهذه الصورة المحدودة للقلب والشعور ، عن كل هذه الأشياء التي تتعلق بها حياة الأمة .

أعتقد ان الذي يدفعنا الى مثل هذه الأفكار إنما هو الافتقار الى العقل والعلم الذي هو السبيل الوحيد لحل مشاكلنا . ذلك لأنه إذا توفرت للناس حاجاتهم وفاض الخير وعم

وأتيحت الفرصة للكثيرين تبعاً لذلك أن يتعلموا وأن يجدوا أعمالاً منتجة لائقة ، إذا حدث هذا ، وهو لا يحدث إلاّ إذا آمنا بالعقل البشري وبالعلوم الحديثة ، استطاع الانسان حينئذٍ ان يحس أنه سيد الطبيعة حقاً، وان حياته جديرة بالعيش، وانها ليست فقاعة هواء وان عالمه ليس مسرحاً للجن أو بيتاً للنمل .

ولست أدري كيف دخل في وهم أصحاب هذه الدعوة ان هناك تعارضاً بين العقل والقلب أو الشعور ، وأغلب ظني أن ذلك يرجع لتصورهم لحياة القلب تصوراً سلبيًّا جامداً، والى اعتقادهم بأن الانسان اذا نما عقله ضعف قلبه واضمحلّ فيه الشعور وهذا فهم خاطىء لقيمة العقل والشعور معاً . فالشعور الذي ينشأ بلا فهم ولا دراية إنما هو شعور أبتر بدائي ؛ هو مجرّد انفعال عصبي عقيم جاهل يهدم صاحبه ولا يبنيه . أما الشعور السليم الخصب الذي يفيد صاحبه وينميه فهو الشعور الذي ينتج عن فهم وتعقل .

واذا عرفنا ان غاية الحياة هي الحياة نفسها ، الحياة الموفورة ، أمكننا ان نقول إن رسالة الأدب الحقيقية تقوم على زيادة شعورنا وإحساسنا بالحياة على زيادة اقبالنا وتحمسنا لا تحمساً منشؤه الفهم والعقل . فالعقل ينير الشعور والشعور يخصب العقل ويجمله . فكلما ازدادت معرفة الانسان بالحياة ازداد تحمسه لها ، وكلما ازداد تحمسه لها ازداد اقباله على معرفتها .

اني أومن بالقلب ولكن بالقلب الذي يؤكد معنى الحياة ولا يلغيه ، بالقلب الذي يثير حماس العقل فيدفعه الى اقتحام الطبيعة واخضاعها لسلطانه . حينئذٍ يستطيع الانسان أن يبلغ مرماه من الحرية التي ينشدها . والحرية هنا هي فهم قوانين الطبيعة واحترامها . فهي ليست أفكاراً للحياة والوجود والهروب منهما .

نحن في هذا العصر في حاجة ماسة الى مزيد من العقل الذي ينير الشعور، والى مزيد من الشعور المستنير الذي لا يلغي العقل .

بشرى الضبع

باب المراسلة والمناظرة

الطوفان

حضرة الأستاذ اسماعيل مظهر

لما كنا ندرس علم الحيوان في الجامعة الاميركية في بيروت كان بين أيدينا كتاب مطوّل له مقدّمة تزيد على عشرين صفحة محورها مذهب دارون في «أصل الأنواع» وتسلسل الانسان. فقال الأستاذ، نتجاوز الآن هذه المقدمة ثم نعود اليها بعد ان ننتهي من الكتاب. ولما عدنا اليها كانت أسئلة الطلبة تمطر الأستاذ عما بين هذا الموضوع ونصوص التوراة بشأن الخليقة وغيرها من الأساطير العبرانية من التناقض. فلما عجز الأستاذ عن التوفيق بين العلم والتوراة قال: أرجو ان تعلموا انه متى اختلف العلم والتوراة في مسألة كان الحق مع العلم. وأما نصُّ التوراة فيجب ان يؤوَّل تأويلاً يتفق مع العلم لأن التوراة لم تكتب في عصر العلم الحديث، بل كتبت في عصر لا علم فيه سوى الأساطير والخرافات. أما الآن فنحن في دور من العلم لا يمكن أن يخضع للأساطير والترهات.

* * *

والظاهر من مقالك أيها الأستاذ في مقتطف مايو الذي سردت فيه جميع نظريات العلماء الأولين والآخرين بشأن الطوفان دلَّ على ان العلماء كانوا حتى أوائل القرن التاسع عشر يعتقدون ان الطوفان حدث فعلاً كما وصفه كاتب سفر التكوين، أي انه كان شاملاً كل سطح الأرض وكان مرتفعاً حتى قمم جبال أراراط. وهذا بالبديهة أمرٌ غير معقول لأنه يستلزم أن يكون في الكرة الأرضية وجوّها ماء يزن نصف وزنها على الأقل.

وهذا يستلزم أيضاً ان يكون ماء البحر قد نقص فهبط نحو خمسين متراً مقابل ما يتحول منه الى بخار وثقل به الهواء الجوي فهبط جليداً. وتصور ما تشاء من غير المعقول من مقتضيات هذا الطوفان الخرافي.

حكاية الطوفان أسطورة نقلها اليهود كما نقلوا غيرها من أساطير الكلدانيين والآشوريين والبابليين من سكان ما بين النهرين وما حولها أخذها اليهود حين كانوا في بابل بعد ان غزا نبوخذ نصر اورشليم وساق اليهود سبايا الى بلاده ومكثوا هناك عبيداً نحو ٧٠ سنة الى أن غزا كورش الفارسي بابل فأطلق سراحهم وعادوا الى وطنهم .

قبل ذلك التاريخ لم يكن لليهود تاريخ ولا توراة ولا أسفار موسى ولا غيرها لأن الكتابة كانت رسوماً وصوراً فلا تحتمل أن يُكتب بها اسفار مطولة . وما صارت بحروف صوتية إلاّ بعد أن استنبط الفينيقيون الأبجدية ولم يكن ذلك قبل ٦٠٠ سنة قبل الميلاد المسيحي .

فلما عاد اليهود من سبيهم الى أورشليم جعل أحبارهم يصنفون تاريخهم في توراتهم بعضه كما تناقلوه بالتواتر عن أسلافهم فكانوا يحررونه كما يتراءى لهم وكما تمليه عليهم شهواتهم ومآربهم . فزجوا معظم الأساطير البابلية والأشورية والكلدانية التي توافق شهواتهم ورغباتهم بعد أن عدلوه لكي يتفق مع عقائدهم . فكتبوا أخبار رحلة أجدادهم من مصر بقيادة موسى ثمّ حروبهم مع الكنعانيين وغيرهم من سكان فلسطين بقيادة يشوع الى غير ذلك مما تراءى لهم والله يعلم كم في هذه القصص من الصحة والصدق .

وكان خبر الطوفان من جملة ما انتحلوه من أساطير ما بين النهرين وما حولها . وبالطبع عدلوه كما اقتضت رغباتهم . والمفهوم من نص التوراة أن الطوفان حدث في تلك البلاد القريبة عنهم ولم يحدث في فلسطين وطنهم . ولذلك استقرّت سفينة نوح في أحد جبال اراراط المشرفة على العراق . ولم تستقر في أورشليم ولا في الأردن. وإذا قارنت بين أسطورة الطوفان البابلية وأسطورته اليهودية لا تجد فرقاً إلاّ في الأسماء والأشخاص فلا يبقى عندك شك في أن أسطورة الطوفان اليهودية مقتبسة من الأسطورة البابلية .

***

وعند اليونان أسطورة طوفانية أيضاً بعيدة الشبه عن الاثنتين . والغالب أنها مقتبسة أيضاً لما كان بين الأمم البوزنطية والشرقية من الاتصال التجاري .

وفي بعض البلاد في جنوبي آسيا أساطير طوفانية حتى في جنوبي أوربا أيضاً وهو أمرٌ يدل على أن لحكاية الطوفان أصلاً يمكن تعليله بما يأتي : —

فهو معلوم أن في العصور الجيولوجية الأخيرة ما يدل على أنه كانت تتواتر نوبات جليدية من حقبة إلى أخرى تغمر سطح الأرض الشمالي عدَّة سنين ثم ينقطع هبوط الثلوج فيذوب عن الأرض ويتدفق في السهول والوديان ويغمرها الى ارتفاعات غير مألوفة. والعلماء يسمون هذه النوبات بالأعصر الجليدية فتتواتر كل عشرة آلاف الى ٢٥ ألف سنة لعوامل متيورولوجية . ولعلَّ العصر الجليدي الأخير كان سبب هذا الطوفان . أو أن هذا الطوفان الذي تناقلته الأساطير اشارة إلى العصر الجليدي .

***

ولا يخفى أنه كلما تواتر الخبر وتناقل الناس رواياته وتقادم زمنه تعاظم قدره كما هو معلوم عن طبيعة البشر في الروايات .

هذا إن صحَّ أن لخبر الطوفان أصلاً يستحق أن يتناقله الناس كالفيضان الذي يحدث أحياناً في وادي النيل . فاذا كان مرَّة عظيماً تناقل القوم خبره . وكلما انتقل من جيل الى جيل عظم شأنه . ولكن مثل هذا التعظيم أو المبالغة لم يعد ممكناً في عصرنا الذي انتشر فيه العلم والتعليم والنشر والطبع والكتب التي تسجل كل كبيرة وصغيرة .

فطوفان نوح وفلكه كما روي في التوراة خرافة أكثر مما هو أسطورة أو تاريخ . وما أسخف من العبرانيين الذين دوَّنوه وجعلوه لنا تاريخاً مقدَّساً إلاَّ العلماء الذين ألفوا بعثة لكي تبحث عن فُلك نوح في جبال اراراط . والظاهر أن هذه البعثة يهودية لأنه ليس أحد غير اليهود يتاجرون بترَّهات توراتهم كما يتاجرون بالأكاذيب والسخافات للتضليل. ولسوء الحظ أنهم في كل عصر يجدون من يصدق أكاذيبهم حتى من كبار الساسة والحكَّام . فسبحان من علِم ولم يعلِّم إلاَّ قليلاً .

نقولا الحداد

نظرات في مسائل نحوية

هناك بعض المسائل النحوية التي يعسر على المطالع الاحاطة بها احاطة ثابتة لا يأتيها النسيان نظراً لتشعب قواعدها واختلاطها بعضها ببعض أولاً، ولاعوجاج تخريجها ثانياً، ولشيوع صيغة شواذها في الكلام المتداول ثالثاً، ولعدم انطباق قاعدتها في الكلام انطباقاً لا يعتوره الشذوذ، ولصعوبة تطبيقها من غير الاستعانة بالمعاجم (المعاجيم) أخيراً.

ومن هذه المسائل:

١ — مسألة الأفعال اللازمة والمتعدية في آن واحد.

هذه الأفعال — ومنها جاء. أتى. هاج.... — تجعل الانسان في ارتباك عند اعرابها واستعمالها ما لم يستعن بمعجم والى متى يبقى على هذه الحال؟ واللغة وخاصة قواعدها تحتاج الى التبسيط. أليس من الأحسن أن نطبق عليها قاعدة التعدي بحرف الجر ونعتبر مفعولها — ان اتت متعدية — منصوباً بنزع الخافض (أي باسقاط حرف الجر) في مثل قولنا (مررت الدارَ) أي بالدار وقوله تعالى (واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي كالوا لهم. وقياساً على هذا يكون القول جئتَ البيت بمعنى جئت الى البيت فيسهل التعليل الاعرابي ويستغنى عن المعجم في البحث عن هذه الأفعال.

٢ — مسألة تأنيث الفعل وتذكيره مع جمع التكسير وغيره والوصف بالمفرد.

يقول النحويون إن الفعل يجوز تأنيثه أو تذكيره مع الجمع فتقول كان الناس. أو كانت الناس. كما يجوز الوصف بالمفرد للجمع ككريات حمراء كما يجوز القول كريات حمر. وهذه المسألة طرقها الكثيرون وأتوا بتآويل مختلفة لها تشتت ذهن القارىء عن استيعابها ولي فيها رأي مأخوذ من قاعدة حذف المضاف والاستعاضة بالمضاف اليه عنه وهي قاعدة معلومة ومشهورة في كتب النحو وأمثلتها قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها) أي أهل القرية (وجاء ربك والملك صفّـا صفّـا) أي جاء أمر ربك. (واشربوا في قلوبهم العجل) أي حب العجل. إذن أليس من الأسهل أن نؤول (كان الناس) بمعنى كان مجموع الناس (وكانت الناس) بمعنى كانت جماعة الناس على اعتبار حذف المضاف وانابة المضاف اليه عنه حيث يتبعه في اعرابه كما هو المقرر. وكذلك نؤول كريات حمراء على معنى مجموعة كريات حمراء، وكريات حمرٌ على عدم تقدير حذف المضاف. فتنتهي المشكلة وكذلك الأخبار بالمفرد ينطبق عليه نفس التعليل.

٣ — مسألة الصيغ الخمس التي يستوي فيها المذكر والمؤنث .

وهذه الصيغ هي فعول بمعنى فاعل كصبور ، فعيل بمعنى مفعول كقتيل ، ومفعال كمبسام ومفعيل كمعطير ومفعَل كمهذَر . ويلحق بها الأوصاف الخاصة بالنساء وبعد أن يعدد النحويون مواطن مجيء التاء وكيف أنها تأتي تارةً للفرق بين المؤنث والمذكر ولتأكيد المبالغة كنسابة وللمبالغة كراوية وللوحدة كورقة أو للعوض كعدة أو للدلالة على النسب كمهالبة . ثمَّ المواطن التي تلحق بها التاء بعض هذه الصيغ حتى يصبح المرء في ارتباك من تداخل القواعد مع أن هناك قاعدة يذكرها رحمه الله الزمخشري في مفصله وهي أن التاء قد تأتي لتأكيد التأنيث في مثل الكلمتين ، ناقة ونعجة . إذن لماذا لا نطبق هذا التخريج التأكيدي على كل الصيغ فنقول قتيلة وصبورة كما هو شائع ومستعمل في كلام الناس لا سيما وأن بعض النحويين اعتبر هذه الكلمات — عدوة ، ميقانة ، مسكينة ، معطارة — شاذة وهي عندي ليست كذلك بل يمكن حملها على تأكيد التأنيث . وحبذا لو تعم قاعدته كل الصيغ السالفة كما بينت . هذا ولا ضير على من يستعملها كما مبينة في كتب النحو كما لا ضير على من يستعملها على تخريج التأكيد .

٤ — في إعراب المنادي .

يقرِّر النحويون أنَّ المنادي المفرد العلم والمثنى والمجموع يبنى على ما يرفع به وذلك لحسبانه من الأسماء المنصوبة وهو كذلك ، ويخالفهم الكوفيون على اعتباره معرباً ولهم في ذلك برهان مفند من قبل البصريين ، وأني أرى أن هذا المنادي يجب أن يعرب ويلحق بالأسماء المرفوعة . وذلك لأن الاسم المعرب إما أن يعرب بالحروف أو بالحركات وليست الحروف علامة بناء فكيف إذن يسوغ لنا أن نعرب (يا محمدان) على اعتباره مَبنيًّا على الألف مع أن الألف أو الواو ليستا علامتي بناء بل اعراب كما هو مقرَّر ومعروف . أفلا يحق لنا أن نعربه نائب فاعل لفعل مبني للمجهول محذوف تقديره يُدعى محمد ، أو يدعى محمدان بدل قولنا أدعو محمداً أو محمدين . وعندئذ يستوي التقدير واللفظ كما استويا في بقية أقسام المنادي .

هذه نظرات عرضتها والغاية منها السعي الى التبسيط والتنبيه الى أن بعض القواعد الشاذة قديماً أصبح الأخذ بها والقياس عليها أسهل من تلك المقيس عليها في الكتب النحوية ، وذلك لأنها شاعت على الألسن وما هذا إلاَّ لسهولتها فينبغي أن يعوَّل عليها وأن يُسعى الى تعميمها . كما اني آمل من النحويين ان ينظروا الى تبويب النحو وتبسيطه بمنظار جديد مبني على الأساس القديم مؤثرين التبسيط على التعقيد والتوليد على التحديد أو التقييد .

الفورنة — البصرة
بشير السعر

حول ذاكرة حافظ ابراهيم والمغربي

حضرة صاحب العزة رئيس تحرير المقتطف

قرأت في مقتطف دسمبر سنة ١٩٣٢ محاضرة للعلامة الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ألقاها في حفلة تأبين حافظ ابراهيم في المجمع العلمي بدمشق وقد جاء في الصفحة ٥٦٥ من الجزء المذكور قوله :

«وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه في زيارته الأخيرة لبلادهم أنه أبرع اخباري وأظرف نديم عرفوه في حياتهم ولولا وقار (مأتم التأبين) لروينا لحضراتكم شيئاً من ملحه الأدبية مما يدل على شدة ذكائه وقوة حفظه

(على انني مهما أغفلت ذكر خبر من أخبار حفظه لا أحب أن يفوتني ذكر خبر مستغرب اتفق له مرة في نسيانه، ذلك أن (حافظاً) يحفظ أخبار الأولين والآخرين ويروي ما يحفظه بكل دقة وتثبت ولكنه مع هذا ذهل مرة عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي اسماعيل ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ثم صار قصراً لآل لطف الله، فروى لنا (حافظ) ان هذا القصر أصبح (بستان حيوان) وذلك قوله من قصيدة نشرت في ديوانه المطبوع سنة ١٩٠٧ (ولم يجدها في ديوانه المطبوع سنة ١٩٢٢) وصف فيها ذلك القصر بقوله :

كنت بالأمس جنة الحور ياقصـ ـر فأصبحت جنة الحيوان

وعلق على ذلك بقوله : ولعمري إن نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراته، ولطالما لمحهما في غدواته وروحاته أمر مستغرب جداً نرويه في غرائب أخباره بعد مماته كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياته. وهذا النسيان من (حافظ) يشبه ماروي عن الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده أنه استأذن يوماً على بعض اخوانه فسأله الحاجب عن اسمه فأطرق يتذكر.

ونحن نقول للعلامة الجليل إن (حافظاً) لم ينس ولم يسهُ فان حديقة قصر الجزيرة كانت يوماً ما مسرحاً للحيوان قبل أن تنقل الى مكانها الحالي المعروف بحديقة الحيوان بالجيزة. وعلى ذلك فان حافظ (حافظاً وذاكرته قوية) لم يكن ناسياً ولا ساهياً ولا ذاهلاً، بل كان واصفاً مؤرخاً كما يعهده الاستاذ. كما تولى تصحيح ذلك تأييداً لقولنا حضرات محققي الطبعة التي أخرجتها وزارة المعارف عام ١٩٣٧ لديوان حافظ. ذكرنا ذلك انصافاً له وللتاريخ

عبد الرزاق أبو السعود

باب الأخبار العلمية

الحرب على الجندب

استطاعت وزارة الزراعة الأمريكية أخيراً ، بعد تجارب علمية دامت ثلاث سنوات ، أن تحصل على سلاحين كيميائيين جديدين ينتظر أن يعاونا الفلاحين على انقاذ محاصيلهم ومراعيهم من اغارات الطائر المسمى بالجندب أو (أبو النطيط) . وقد برهنت تلك التجارب على أن هذين العقارين الكلوردان والتوكسافين. هما أفتك الأسلحة بذلك الطائر ، فهما أدق عملاً وأشد فتكاً وأطول أثراً وأحسن مفعولاً من باقي قاتلات الحشرات الكيمائية .

ويقول الأخصائيون إن الجندب يموت حالاً عقب اصابته مباشرة بهذين العقارين أو بعد أكله خضروات عليها اثارة منهما .

ويمكن استخدام هذين العقارين بطرق مختلفة ، رشهما كسائل أو بودرة ، ويمكن أيضاً عمل طعم منهما وهذا الطعام يمكن أن يكون جافاً أو مندّى بالماء . على أن رشهما سائلاً هو أنجع الطرق . واذا كان الطعم مكوّناً من أحدهما فانه يغدو أنجع من الرش أو البودرة ، خصوصاً في حالات المساحات الواسعة من حقول البرسيم الجافة أو جذور الحبوب أو الخضروات الجافة .

ولإعدادهما للرش ، توصي الوزارة باستعمال رطل من الكلوردان ، أو رطل ونصف من التوكسافين لكل فدان وإذا أريد أن يكون الرّش جافاً فان المقدار يزيد ٥٠ ٪ .

وأفضل مكان لاستعمال الرش سواء أكان سائلاً أم جافاً هو الأراضي المشققة وهي توجد عادة في صفوف الحواجز وعلى ضفاف القنوات وجوانب الطريق وحافات الحقول أوحيث تنبت فيها الأعشاب وكذلك الأراضي البور . وأفضل الأوقات لعمليات الرش هو عند ما يكون التشقق الأصلي قد انتهى وقته ، أو عند ما يبدأ جيش صغار الجندب زحفه نحو المحاصيل .

وتقول الوزارة أيضاً إن الكلوردان والتوكسافين عقاران سامّان كأي العقاقير الأخرى قاتلة الحشرات. ولذا يجب أن تراعى الدقة في استعمالها . فالأبقار المدرّة ، والعجول المعدّة للذبح يجب أن تمنع من الرعي في الحقول التي تمّ رشها ويستمر هذا المنع لعدّة أسابيع ، كذلك يجب ألاّ تتعرّض لهذين العقارين الساميين ، الفاكهة أو الخضروات المعدة للاستهلاك الانساني .

يقوم العلماء ورجال الصحة الأمريكيون الآن بحملة لاستئصال الزهري من الولايات المتحدة . وهم يستخدمون عقاقير جديدة قوية ، ويتبعون سياسة عامة مركزة قوامها الارشاد الصحي والعلاج .

ويقول الدكتور ليونارد شيل ، كبير جراحي ادارة الخدمات العامة في أمريكا ، ان نسبة الوفيات الناتجة عن الاصابات بالزهري قد نقصت ٤٥ ٪ خلال الأعوام العشرة الماضية . أما معدل الاصابات الجديدة فقد نقص ٢٠ ٪ خلال الشهور السبعة والعشرين الماضية فقط .

ويستطرد الدكتور شيل فيقول إنه منذ عشرة أعوام فقط كانت الأمراض السرية قد بدت كأنها « مشكلة كبرى » توشك ان تستعصى على الحل ، ففي ذلك الوقت لم يكن لدينا علاج ناجع للسيلان ، ولكن تركيز البحث العلمي الذي يجري في المعامل ، قد أدى منذ ذلك الحين الى الآن الى نتائج باهرة . على أن ظهور البنسلين كعقار ناجع في شفاء السيلان والزهري كان بمثابة نقطة التحول في ذلك الكفاح الطويل إننا لم نعد الآن نحارب حرباً دفاعية » .

ثم يقول الدكتور شيل أيضاً ان مجموع نسبة الوفيات السنوية الناتجة عن اصابات الزهري ، قد هبط من ٢١٫٠٠٠ اصابة عام ١٩٣٨ الى ١٣٫٠٠٠ اصابة عام ١٩٤٧ .

وتبعاً لذلك الهبوط ، تقدر الزيادة التي حصلت عليها الأمة في قدرتها الانتاجية بما يساوي تماماً أعمار ٩٠٫٠٠٠ رجل من السنين وتلك الزيادة سنوية وهي ناتجة عن نقص معدل وفيات الزهري . وكذلك فان معدل وفيات الأطفال الناتجة عن اصابات المواليد بزهري وراثي ، قد نقص ٧٧ ٪ عما كان عليه من عشرة سنين ، أما معدل مرضى الأمراض العقلية الذين يدخلون الى المستشفيات نتيجة اصابة الجهاز العصبي المركز بالزهرى فقد نقص ٣٠ ٪

ويمضي الجراح الكبير في تقريره فيقول إنه منذ عثر الاطباء والعلماء على العقاقير التي تشفي الزهرى ، أضحت المهمة الاولى هي وضع أكبر عدد ممكن من المرضى تحت العلاج . وفي خلال الثمانية عشر شهراً الماضية ، كانت استجابة الجمهور لاذاعات الراديو وكتابات الصحف وغيرها من وسائل الدعوة والحث ، كانت الاستجابة ذات أثر كبير فقد توافد عدد كبير من المرضى على مراكز الفحص الطبي والعلاج .

ولقد أعدَّ قسم الأمراض السرية في ادارة الخدمات الصحية العامة ، مواضيع تلك الحملات الشعبية ، ويمكن لمراكز الصحة في الولايات والمناطق المحلية وكذلك الهيئات والمؤسسات الأخرى ، أن تحصل على تلك المواضيع . وكان من نتيجة تلك الحملة أن

٣٠٪ من حالات اشتباه الاصابة بالزهري قد توافدوا على المراكز الصحية للفحص الطبي. خلال السبعة والعشرين شهراً الماضية فقط وتلك الحقيقة توضح نتيجة تلك الحملة

واذ يتطلع الدكتور شيل الى مستقبل اتجاه الحملة على الزهري ، نراه يؤكد ضرورة ازدياد البحث العلمي في ميدان علمي النفس والاجتماع لكي تقرر العوامل النفسية التي تؤدي الى انتشار الزهري ، وكذلك مدى ارتباطها بالأوضاع الاجتماعية المختلفة .

علاج العظام المشوهة

ملخص تقرير لعالمين أمريكيين

« يمكن الآن للأطفال الذين أصيبت سيقانهم بالعجز نتيجة لمرض شلل الأطفال أو أي مرض آخر أن يسيروا بحالة أقرب الى الطبيعة بوساطة استخدام مشابك من الصلب الذي لا يصدأ بعد تثبيتها داخل عظام الساق لإيقاف نموها . وهذه المشابك على شكل U الانجليزي . وإحدى فوائد هذه المشابك هي تسوية نمو عظام الساقين . وقد ساعد استخدام هذه المشابك على شفاء حالات احتكاك الركبتين من الداخل وحالات تقوس الساقين » .

وقد أجريت تجارب لاختبار هذه الطريقة في مستشفى الأطفال في ميلوكي وفي السكونسن حيث تم اكتشافها ، وقد عرض الطبيبان والتر بلاونت وجورج كلارك هذه التجربة أمام ألفي جراح .

ويقول الدكتور بلاونت إن الطفل يجب أن يزود بالعلاج عندما يكون لا يزال أمامه عامان آخران لاكتمال النمو ، ويمكن معالجة الأطفال المصابين حتى بلوغهم سن الثامنة . وطول هذه المشابك يقل عن بوصة واحدة وهي مصنوعة من الصلب الذي لا يصدأ لأنه قوي جداً ويقاوم التآكل (البلى) . وتجري عملية حفر صغيرة في العظم ثم يثبت المشبك فوق منطقة النمو . ويقول الدكتور بلاونت إن هذه العملية توقف نمو عظام الساق وقفاً آلياً في حالة أكثر مستويات النمو .

ويمكن للطفل المريض أن يعود الى مدرسته بعد أيام قليلة من اجراء العملية ولكنه يحتاج الى رعاية دقيقة ولا بد من أن تؤخذ له بعض صور بالأشعة في فترات متباينة لقياس طول العظام وعندما يتم العلاج تنزع هذه المشابك ويعاود النمو الطبيعي سيره

أما في حالات الاصابة باصطكاك الركبة الداخلي فإن المشابك تثبت في الناحية الباطنية من الركبة ، وفي حالات التقوس تثبت في الناحية الخارجية . وفي حالات إصابة الركبة بانثناء عكسي نتيجة لشلل الأطفال ، أو حالات تيبس مفصل الركبة وانثنائها الى الداخل نتيجة لالتهاب مفصلي أو إصابة ، فان العلاج يتم بطريقة مماثلة .

تصنيع المزارع

يقول مستر تشارلس ف برانان وزير الزراعة الأمريكي في تقريره السنوي الذي رفعه الى الرئيس ترومان « إن الزراعة في الولايات المتحدة يجري الآن تصنيعها بسرعة فائقة لم تعرف قبلاً في تاريخها، وأهم ناحية في برنامج التصنيع هي تحسين الجرارات الزراعية وغيرها من الآلات التي تستخدم في المزارع الصغيرة لتوفير الطاقة البشرية». ويستعمل الفلاحون في العمليات الزراعية الآن ضعف ما كانوا يستعملونه من جرارات عام ١٩٤٠ . وبلغت الزيادة في استعمال سيارات النقل بمعدل ٨٠ ./٠ ، وفي استعمال السيارات الحالية بمعدل ٢٠ ./٠ أما الزيادة في استعمال الآلات التي تحصد الحنطة وتدرسها في عملية واحدة فقد بلغت ١٥٠ ./٠ وأكثر من ١٠٠ ./٠ في استعمال الآلات التي تنتقي الغلات بنفسها، وأكثر من ١٠٠ ./٠ في استعمال آلات حلب الماشية . وفي خلال تلك المدة عينها ، أي منذ عام ١٩٤٠ ، نقص عدد الخيول والبغال المستخدمة في المزارع بأكثر من الثلث . وقد بلغت الزيادة الكلية في الانتاج والآلات الميكانيكية وغيرها من الادوات المستعملة بما فيها الخيول والبغال بما يقرب من ٤٠ ./٠

« ومما هو جدير بالذكر هذا التوسع في استعمال آلات الحصاد في حقول البنجر ، والآلة التي ترفع بالات الدريس أو الحشيش المجفف ويحركها رجل واحد ، وكذلك المفارم التي تطحن العلف وحاملات السماد وآلات جمع المحاصيل التي تتحرك حركة ذاتية ، وكذلك آلات انتقاء الغلات وبذور القطن ، وقد صاحب هذا التوسع في الاستعمال تحسين في صناعة وتصميم الآلات والجرارات نفسها . وبلغ عدد المزارع التي تدار الآن بالكهرباء ، ثلاثة أضعاف ما كان عليه منذ عشرة أعوام .

ويقول الوزير أيضاً إنه مع ملاحظة التوسع في تصنيع المزارع في الولايات المتحدة ، فان هذا التصنيع هو المسئول المباشر عن زيادة أكثر من ١٠ ./٠ في الانتاج الزراعي خلال السنوات العشر الماضية . وقد أدى التوسع في تصنيع المزارع خلال سنوات الحرب الى زيادة قدرها ٣٠ ./٠ في انتاج العامل الزراعي عن كل ساعة . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان من نتيجة زيادة التصنيع أن زدادت كمية المحاصيل ، وهي زيادة نردها الى سهولة حصول العامل الزراعي على وقت فراغ أكثر فكان يمضي هذا الوقت في عمليات الحصاد .

ويتوقع الوزير ان الجرارات وغيرها من الآلات سوف تظل تأخذ مكان الجياد والبغال في المزارع الامريكية فيقول « إنه في الأعوام العشرة الماضية قد أعفيت

مساحات زراعية قدرها ١٥ مليون فدان من استغلالها لانتاج غذاء للحيوانات التي تعمل في المزارع وتحولت الى مساحات زراعية تنتج محاصيل للاستهلاك البشري. ويعتقد الوزير أيضاً انه خلال قرن من الآن ، سيكون هناك في المزارع الأمريكية نحو خمسة ملايين جرارة على الأقل والى جانبها عدة مئات من ألوف الجرارات التي تستخدم في الحدائق ، هذا والعدد الذي يوجد الآن من تلك الجرارات هو ثلاثة ملايين. ويتنبأ الوزير أيضاً بأنه في نفس المدة سيقل عدد الخيول والبغال المستعملة في المزارع من تسعة ملايين الى أقل من أربعة ملايين . ويختم الوزير تقريره فيقول « إن الولايات المتحدة قد صدرت عام ١٩٤٧ ما يقرب من سدس محصول آلاتها الزراعية ، وهذا الجزء يعادل ٣ر٧ أضعاف ماكان لديها بين ١٩٣٥ — ٣٩ . ويوضح الوزير أخيراً أن سياسة الولايات المتحدة الزراعية تهدف الى تشجيع وترقية الانتاج الزراعي في الخارج وذلك عن طريق البحث العلمي واقتباس الأساليب الزراعية النافعة

قراءة صوتية للعميان

اخترع حديثاً جهاز ألكتروني يترجم الحروف المطبوعة الى موجات صوتية ، يمكن للعميان بوساطتها أن يقرأوا الصحف أو الكتب عن طريق آذانهم . وتجري الآن التجارب لاتقان هذا الجهاز في الولايات المتحدة .

وقد أمكن لشركة الراديو الأمريكية اختراع هذه الآلة في معاملها في برنستون بنيوجرسي وتمت تجربة هذه الآلة لأول مرة اثناء اجتماع عقدته الجمعية الكهربائية في نيويورك وهي هيئة مكونة من مهندسين كهربائيين ويقول المهندسان ل . ا . فلوري وزميله و . س . بايك من شركة الراديو الأمريكية وهما اللذان قاما بتحسين ذلك الجهاز المعقد ، إنه مكوّن من وحدة بصرية ، وعقل ألكتروني (يختار المادة التي يقرأها) وكذلك مكبر صوت وعند ما تمر الوحدة البصرية على سطر مكتوب فان أنبوبة كهربائية سالبة تكتشف كل حرف بواسطة ثماني نقط ضوئية مرتبة ترتيباً رأسياً. وعند ما تمر النقطة الضوئية على أي جزء اسود من الحرف ، ترسل دقة الى وحدة التمييز وهناك تعد هذه الدقات عداً ألكترونياً وبعد أن يتم التفرس في الحرف (رؤيته بوساطة المنظار) فان مجموع الدقات يعرف بواسطة جهاز التمييز . وعدد الدقات هنا يختلف تبعاً لكل حرف ، ويحرك شريطاً مغناطيسياً حيث يكون الحرف قد ترجم عليه الى أصوات بشرية . وعند ما ينطق الحرف ، يسمع النطق عن طريق مكبر الصوت

إن الجهاز الحالي جهاز ضخم ، ومعقد وكثير النفقات . ويؤكد المخترعون أنه لا بدّ لهم من بحث كثير قبل أن يمكن أن تستخدم الآلة للاستعمال العام .

صادرات الأغذية الأمريكية

يؤخذ من تقرير وضعته وزارة الزراعة الأمريكية عن صادراتها من المواد الغذائية في العام الماضي ٤٧ — ٤٨ ، ان مجموع تلك الصادرات وصل الى ١٩٫٣٤٧٫٠٠٠ طنًّا . وزادت نسبة الاستهلاك المحلي للمواد الغذائية بما يقرب من ١٢ ٪ من القيمة الغذائية التي كان يحصل عليها الفرد قبل سنوات الحرب .

وكانت نسبة الحبوب والأرز من مجموع تلك الصادرات هي ٨١ ٪ ، أما صادرات القمح ومنتجاته فقد بلغت قيمتها ١٣٫٠١٨٫٠٠٠ طنًّا ، فكانت بذلك أكبر أجزاء الكمية المصدرة . وهي تقارب عشرة أمثال معدل الكميات التي صدرت بين ١٩٣٥ — ١٩٣٩ ، وتعادل أيضاً ما يقرب من نصف محصول القمح الذي استخدم في التغذية عام ٤٧ — ٤٨ .

أما صادرات الحبوب فقد كانت مقتصرة على أغراض التغذية الزراعية . وبلغت صادرات الحنطة ومشتقاتها مليون طن وذلك المقدار يعادل ثلث صادرات ٤٦ — ٤٧ . أما الشعير وشعير البيرة ، والذرة الليفية ، والشوفان ، والجويدار (نبات كالشعير) ودقيقه فقد بلغت صادراتها ١٫٢٣٤٫٠٠٠ طناً ، وهذه الكمية أكبر من صادرات عام ٤٥ — ٤٦ بثلثين وتعادل أربعة أمثال معدل صادرات ١٩٣٥ — ١٩٣٩ .

وبلغت صادرات الأرز ٤٠٧٫٠٠٠ وقد زادت عن صادرات ٤٦ — ٤٧ وقد أرسلت كلها الى أقطار الشرق الأقصى وكوبا

وكانت صادرات المواد الدهنية والزيوت ٢٥١٫٠٠٠ طنًّا وهي تزيد بما يقرب من ١٤ ٪ عن صادرات عام ٤٦ — ٤٧ ، وتقارب ثلاثة أمثال المعدل السنوي قبل الحرب

وكانت صادرات اللحوم ٦٨٫٠٠٠ طنًّا وهي تعادل ثلث أمثالها من صادرات ٤٦ — ٤٧ وعشر أمثالها من صادرات ٤٥ — ٤٦ . وكانت صادرات الجبن واللبن المحفوظ في العلب واللبن المجفف ٤٦٠٫٠٠٠ طنًّا وهي تقل عن مثيلاتها لعام ٤٦ — ٤٧ بما يعادل ١٠ ٪ أو أكثر قليلاً ، و٤٤ ٪ أقل من صادرات ٤٥ — ٤٦ ولكنها أكثر جدًّا من مثيلاتها من صادرات ما قبل الحرب . وكان مجموع صادرات المواد الغذائية الأخرى ، ولا سيما الفاكهة والخضروات ، والبطاطس ، والبيض ، والحبوب المجففة والبسلة وفول الصويا والبندق هو ٢٫٩١١٫٠٠٠ طنًّا وهو أقل من الصادرات في كلا العامين السابقين .

وقد حصلت الدول المشتركة في مشروع انعاش أوربا على ١٢٫٥٥٧٫٠٠٠ طنًّا أو ما يعادل ٦٢ ٪ من مجموع صادرات الولايات المتحدة من الأغذية . وحصلت أقطار الشرق الأقصى ما قيمته ١٦٫٤ ٪ ، وجمهوريات

أمريكا اللاتينية ٥ر٩ ٪ ، وكندا ١ر٤ ٪ والأقطار الأوربية الأخرى غير الأعضاء في مشروع الأنعاش ٤ر١ ٪ والبلاد الأخرى ٦ر٣ ٪

مدن امريكية « تتبنى » مدناً اوربية

أرسلت مدينة بروكلين بالولايات المتحدة الى قرية بريكيلن بهولندا شحنة من مئات الخطابات التي كتبها أطفال المدرسة ، ومكتبة من الكتب الأمريكية والاسطوانات الموسيقية ومفرش من القماش منسوج عليه منظر أحد المتنزهات العامة . وهذه الشحنة خطوة ثقافية جديدة في برنامج « التبني » الذي تتبعه الآن الولايات المتحدة . ومنذ أن تبنت مدينة بروكلين قرية بريكيلين منذ عام ، أرسلت جمعيات مدينة نيويورك خمسة عشر طناً من الأغذية والملابس لأهل القرية المتبناة .

وكانت الناحية الثقافية من المشروع قد أعلنت في اجتماع في مدينة نيويورك عقدته هيئة العمل الديمقراطي التي تتولى تنسيق عمل ٦٠ جماعة امريكية قد تبنت جماعات اوربية . وقد زارت مس مرجريت سالومان راعية مشروع « من بروكلين الى بريكيلن » القرية الهولندية في الخريف الماضي وقالت بعد عودتها أن المدينة لا تحتاج بعد الى مواد غذائية .

ويقول مندوبو الجمعيات الامريكية الأخرى التي « تبنت » مدناً أوربية انهم يؤكدون أهمية تبادل الثقافة في برنامجهم . ولكن جمعيات أخرى لا تزال مستمرة في ارسال المواد الغذائية والملابس الى الجماعات الصغيرة التي تحتاجها .

أنواع ممتازة من أشجار الصنوبر الهجين

أمكن لعلماء الولايات المتحدة — بعد أبحاث دامت مدى عشرين عاماً في معهد التناسليات الخاص بالغابات في بلاسرفيل — أن يستنبطوا اخلاساً من شجر الصنوبر تبز أصولها . وكان الغرض من استنباط هذه الأخلاس هو سد النقص في الأخشاب ذات الحجم المناسب للكتل الخام وللحصول على اللباب وغيره من الأغراض في الولايات المتحدة . ويقال أن أشجار الصنوبر الهجين تنمو بسرعة تعادل ثلاثة أمثال سرعة نمو أصولها ولقد زوجت تغايرات منوعة لتنتج أشجاراً تناسب المناطق المختلفة بأمريكا . كما اكتشفت أساليب لضم أفضل مميزات الوالدين كسرعة النمو ومقاومة البرودة والحشرات والآفات بالاضافة الى طريقة تحديد نمو الشجرة وشكلها .

«الآن وقد انتهى العام الأول لمشروع مارشال يحق للأحرار في كل مكان أن يغتبطوا بالنتائج التي اسفرت عنها فترة التجربة. هذه هي خلاصة الرأي الذي ذهبت اليه هيئة المشروعات الأهلية بالولايات المتحدة أثناء اجتماعها السنوي الذي عقد في مدينة واشنطن، وهي هيئة ليست سياسية ولا تجارية».

وتمضي الهيئة في تقريرها فتقول «لقد سار الانتعاش الاقتصادي بثبات في البلاد المشتركة في المشروع، فقد ارتفعت مستويات المعيشة وانحسر مد الجوع والمرض، وهناك ما يدعو الى انتظار تحسن جديد في المستقبل. وقد أدى ذلك الى ان الحكومات الديمقراطية قد أصبحت اليوم أكثر قوة».

ويقول التقرير أيضاً «إن هيئة المشروعات الأهلية ليست معنية الآن باحتمال فشل مشروع مارشال، ولكنها مهتمة بأن يفضي نجاحه الى أكثر جداً مما يمكنها أن تفعله لأوروبا الغربية».

وتشير اللجنة الى وجود مشكلات اقتصادية واجتماعية في اوربا وهي مشكلات عميقة الجذور يتطلب حلها «أكثر من مشروع مارشال»

وتقول «إن بلدان غرب أوربا قد اعتمدت وقتاً طويلاً، ولا تزال على بلاد أخرى للحصول على المواد الخام، ولكنها كانت أيضاً مصدر العون المالي والفني لتلك البلاد.

«ونحن أعضاء هيئة المشروعات الأهلية نرحب بعزم الرئيس ترومان الذي أعلنه في خطبة توليه الرئاسة، على أن تقوم الولايات المتحدة وغيرها من البلدان المتحضرة بمساعدة البلدان الأخرى التي تحتاج الى تلك المساعدة. ونؤكد على الأخص، أهمية مثل ذلك العمل في تزويد أوروبا الغربية بمصادر جديدة للمواد الخام وطرق جديدة لاستخدام انتاجها.

وكان بين أعضاء الهيئة الذين وافقوا على التقرير جيمس كبرى السكرتير لمؤتمر الهيئات الصناعية، وجون تشامبان من شركة ما جروهل العالمية للنشر، وكلينتون جولدن مستشار السياسة العمالية لادارة التعاون الاقتصادي، وجون جالبرت أستاذ الاقتصاد بجامعة هارفرد، وساندر جينيس نائب رئيس اتحاد عمال الملابس بأمريكا، وليون هندرسون كبير الاقتصاديين في معهد امريكا للابحاث، وآلان كلاين رئيس مكتب اتحاد الزراعة الأمريكية، وإيزادور لوبن مندوب أمريكا في بعثة الاقتصاد والوظائف التابعة لمجلس هيئة الأمم للاقتصاد والاجتماع،

واريك بيترسون السكرتير المالي العام للهيئة الدولية للآلات .

وكذلك مسز ريموند ساير رئيسة الهيئة الدولية المشتركة لنساء الريف، وبوريس شيشكين المبعوث الخاص في ادارة التعاون الاقتصادي ، وون شاتفيلد تايلور مستشار المسائل المالية والعملة في الادارة السابقة، ولازار تيبر مدير أبحاث الاتحاد العالمي لهيئة عمال ملابس السيدات ، وفلورنس ثرون مدير أبحاث اتحاد العمل الأمريكي ومارسيل فورهيس نائب رئيس الجمعية الأمريكية لقصب السكر .

حزم الصداقة

تلقى الأطفال في إثنى عشر قطراً في أوروبا ٤٠٠ر٠٠٠ صندوق محملة بالهدايا من أطفال أمريكا . ويحتوي كل صندوق على خطاب شخصي من طفل أمريكي ومواد مدرسية ، وأدوات خياطة ، وجوارب أو قفازات بلا أصابع لتدفئة الكفوف ، وصابون ولعب وفرشة ومعجون أسنان . وترعى هذا المشروع جمعية نساء أمريكا للخدمة التطوعية .

وقد بدأت الجمعية هذا المشروع عام ١٩٤٥ وكانت قد تألفت عام ١٩٤٠ ، ولديها الآن عشرة آلاف عضو من السيدات وكل سيدة يمكنها أن تصرف بعض الوقت في خدمة تطوعية جماعية يحق لها أن تصبح عضواً وكان اهتمام الجمعية خلال سنوات الحرب موجهاً كله الى المساعدة والقيام بخدمات للترفيه عن رجال الجيش ، فكانت الجمعية تساعد عائلاتهم وعلى أتم استعداد للقيام بأي مساعدة عاجلة. ومنذ نهاية الحرب استمرت تباشر عملها في الخدمة الجماعية وبدأت مشروعات كمشروع «حزم الصداقة» لكي ترقى بالصداقة العالمية .

وفي عام ١٩٤٦ بدأت الجمعية مشروع «حزم الصداقة» فكان الأطفال الأمريكيون يشتغلون بالابرة لعمل قطع ملابس ويرسلونها الى الأطفال عبر البحار . وفي عام ١٩٤٨ بلغ عدد ما أرسل من هذه القطع ٣٠٠ر٠٠٠ قطعة أرسلت جميعها الى الاقطار الأخرى .

اكتشاف فيتامين جديد في بذرة القمح

أعلن في الاجتماع السنوي لجمعية الصحة العامة الأمريكية اكتشاف عنصر جديد في بذرة القمح ويعتقد انه فيتامين جديد .

وذكر الدكتور هوارد شنيدر من معهد روكفلر للأبحاث الطبية بنيويورك ما لاحظه خلال تجاربه من أن العنصر الجديد قد زاد في مناعة الجرذان الطبيعية ضد العدوى البكتيرية . وصرح شنيدر بأن هذا العنصر على الأرجح ، عامل مستقل لا يلتبس لأي من عوامل التغذية المعروفة — فضلاً عن جميع الفيتامينات — أن يحل مكانه .

الدجاج الهجين يغل بيضاً أكثر من الدجاج الأصيل

تدل التجارب التي أجريت على الدجاج الهجين — مدى خمسة عشر عاماً — على ان نسبة ما يغله من البيض يزيد بمقدار عشرة في المائة على انتاج الدجاج الأصيل الجيّد النوع . ويضيف خبراء الدواجن بوزارة الزراعة الأمريكية — والذين ذكروا هذه النتائج — ان الدجاج الهجين يتمتع بمقاومة للمرض أقوى ويتميز بقدرة أكبر على استمرار الانتاج في الأحوال الجوية الغير ملائمة . ويذكر الاخصائيون أيضاً ان الدجاج الأصيل الأمريكي يغل سنويّاً مائتي بيضة في المتوسط في حين يبلغ متوسط ما يبيضه الدجاج الهجين مائتين وخمسة وعشرين بيضة في العام . كما يبلغ متوسط الانتاج الأهلي في الولايات المتحدة مائة وخمساً وخمسين بيضة للدجاجة الواحدة .

ويقال ان المبدأ واحد — من وجهة النظر التناسلية — بالنسبة للدجاج الهجين والقمح الهجين المرتفع الغلة . أى ان يبدأ تزاوج الأقارب ثم تزاوج غير الأقارب — فتزوّج أفضل العينات في عائلة واحدة ثم تزوّج أفضل العينات في العائلات المختلفة .

انتشار استخدام النوشادر السائل في التسميد

انتشر استعمال النوشادر السائل كمصدر للأزوت الضروري للتخصيب — وذلك وفقاً لما أذاعته وزارة الزراعة الأمريكية حديثاً . ولقد ذكر الدكتور اندرسون ، من قسم الصناعات النباتية التابع للوزارة في بلتسفيل في ماريلاند ، ان استهلاك هذا النوع من الأزوت قد بلغ خمسة وثلاثين ألفاً من الأطنان خلال العام الفائت . ولو أن هذا المقدار لا يتعدّى — إلاّ قليلاً — أربعة في المائة من جملة استهلاك الأزوت الكيماوي خلال السنة الماضية ، فان النوشادر السائل ذو أهمية كبيرة في بعض المناطق الزراعية وخاصة في ساحات معينة من أراضي الري في الجنوب الغربي حيث تزرع الفواكه والخضروات .

ويقول البيان أن وسيلة استخدام النوشادر السائل هو بمزج غاز الأمونيا بمياه الري في نسبة معينة ، أو بتغذية التربة بمحلول النوشادر مباشرةً .

ويزن الجالون من النوشادر الخالي من الماء نحو خمسة أرطال ويحتوي على ٨٢ في المائة من الأزوت . ويختزن في صهاريج قوية تحتمل ضغطاً قدره ٢٥٠ رطلاً على البوصة المربعة .

وعدّد البيان — ضمن مزايا النوشادر السائل — اعتدال الثمن ومناسبته لزراعات معينة . وسرعة تشرب التربة له بالاضافة الى عوامل أخرى . على أن له — من الناحية الأخرى — بعض المساوىء مثل ضرورة استخدام آلات ثقيلة .



مكتبة المقتطف

١ — دراسات في علم النفس الأدبي

تأليف الاستاذ حامد عبد القادر — صفحاته ٢١٠ صفحة من القطع الكبير
مطبوعات لجنة البيان العربي بمصر

عرَّف الفيلسوف ابن سينا الفلسفة بقوله : — « إنها صناعة نظر يقصد منها العلم بحقائق الأشياء وبما يجب على الإنسان أن يعمل من الأعمال التي بها تسمو نفسه وتشرف وذلك بحسب الطاقة البشرية » وعرَّفها الشريف الجرجاني بما يقرب من ذلك فيقول في تعريفاته : « الحكمة علمٌ يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية » .

وكان الأستاذ حامد عبد القادر ، الأستاذ بكلية دار العلوم قد ألقى من نحو سبع سنوات تقريباً ثلاث محاضرات في علم النفس على طلبة قسم اللغة العربية بمعهد الدراسات العليا ، وقد رأى حضرته تعميماً للفائدة أن يجعل من تلك المحاضرات وما أضيف إليها كتاباً قيماً

والكتاب الذي نحن بصدده الآن يحوي بحوثاً عن تطور المباحث النفسية ، والأدب وعلاقته بعلم النفس والعمليات العقلية المؤثرة في الإنتاج والتقدير الأدبي والفنون والسر في جمالها ومنهج تفصيلي للنقد الأدبي .

وهذه كلها بحوث قيمة يجدر بالمشتغلين بهذا العلم أن يقبلوا على مطالعتها والاستفادة منها

٢ — الراهبة المتوحشة أو « قصة حشرة »

تأليف الدكتور عباس ابراهيم حسن — صفحاته ١٤٤ صفحة من القطع الصغير
مطبوعات لجنة البيان العربي بمصر

« لا تغتر بالظوهر » : هذه نصيحة من النصائح التي لا يفتأ الآباء والمربون ينصحوننا بها والسعيد من عمل بها واتبعها . فبين بني الانسان ذئاب في ثياب حملان يتخذون مظهراً

وديعاً نبيلاً يتوسلون به في الوصول الى مآربهم ولا يبالون إن جرّت هذه المآرب على غيرهم ألواناً من السوء والأذى — وكذلك الحشرات يوجد بين أفرادها ما لا ينبيء مظهرها من مخبرها . ومن هذه الحشرات « فرس النبي » — المانتيس — وهي من الحشرات التي تقع تحت أعيننا ولكننا لا نلقي بالاً إليها ، فهي من آكلة اللحوم متوحشة تقطع رؤوس ضحاياها. وانثى فرس النبي تعامل ذكرها أي ـ قرينها ـ بفظاعة وحشية إذ تمسك به وتغرس أنيابها في جسمه وتمتص دمه وتلتهمه بتؤدة وتلذذ ثمناً لعناقها وتلقيحها .

وقد شرح الدكتور عباس ابراهيم حسن في كتابه قصة هذه الحشرة ووصف شكلها وعاداتها شرحاً وافياً كما أتى على صورة من حياة الحشرات وفيها العجيب الغريب — والكتاب محلّى بكثير من الصور وبأسلوب رجل العلم المدقق القدير بفنه .

٣ — المهد الذهبي

وقصص أخرى من الأدب الألباني

وضع الاستاذين وهبي اسماعيل حقي وابراهيم خيرالله — صفحاته ٢٠٨ صفحة من القطع الصغير مطبوعات لجنة البيان العربي بمصر

هي تسع قصص من القصص الصغيرة ذات الموضوع الواحد مترجمة عن الأدب الألباني تمثل كثيراً من النواحي الاجتماعية والخلقية والوطنية . وأكبر هذه القصص، قصة المهد الذهبي التي تبلغ من المجموعة كلها أكثر من ثلثها . وبطل هذه القصة قروي محتال أعمل ذكاءه وراء ستار من الغرارة القروية حتى أوقع في حبائله خمسة من المدنيين المثقفين من سكان «أشقودراه» فابتز أموالهم . والقصة بمنأى عن الخيال الآري العميق واحكام القصص الغربي العميق ، روحها شرقي ووحيها ألباني ، جبلي ونثارها شاة ورعي وغابة وينبوع . ويغلب على الظن أن كاتبها متأثر ببطل الحريري « أبي زيد السروجي » حازق الحيلة ومبدع الخداع في ابتزاز أموال الناس تأثراً مباشراً أو غير مباشر ، هذا الى تشربها الروح الاسلامي ففيها تقرأ صوت المؤذن ، ويأتي حديث الصيام ، وذكر رمضان .

اسبيرو جسري

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الخامس عشر بعد المئة

لحق المقتطف

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ اغسطس سنة ١٩٤٩ — ٦ شوال سنة ١٣٦٨

يوستنيانوس

والامبراطورية البوزنطية

٤ — يوستنيانوس والبابوية

كان أول عمل قام به « يوستنيانوس » عقب توليه الملك التفاهم مع البابوية واضطهاداً مريراً شاقاً أنزل بالوَحْديطَبعيين وبلائه وبلاياه. لقد أدرك « يوستنيانوس » بثاقب فكرته وألمعيته السياسية، أن تعضيد البابا ضروري في استعادة الغرب من يد الهمَج. ولكنه بمجرد أن ثبت قواده أقدامهم في أرض إيطاليا، وملكوا زمام « روما » وضح بجلاء أن « يوستنيانوس » قد رمى إلى أن يكون السيد المطاع، حتى في الشئون الكنسية.

في سنة ٥٣٧ من الميلاد عُزل البابا « سِلْوِريوس »[1] الذي كان للنفوذ القوطي أثر في انتخابه، وانتخب بدلاً منه البابا « وِيغِليوس »[2] مُرشح الامبراطورة « ثيودورا ». كذلك يعزى إليها أنها أقنعت الامبراطور بأن ينزل شيئاً ما عن قسوته إزاء الوَحْديطَبعيين، وقد أخذوا يزدادون قوةً ونفوذاً برغم اضطهادهم. واتباعاً لنصيحة « ثيودورا » عمل « يوستنيانوس » على أن يكسب بعض ثقتهم فأصدر مرسوماً امبراطورياً حرَّم فيه بعض المؤلفات النسطورية[3] بالرغم من أن مجمع خلقيدونية[4] كان ندأجازها في سنة ٤٥١، ولما عارض البابا « ويغليوس » هذا المرسوم، طردته الجيوش الامبراطورية من « روما »؛ وساعد على ذلك أنه لم يكن محبوباً من أهل إيطاليا، لسوء خلقه،

(١) Silverius (٢) Vigilius (٣) Nestorian Works (٤) Chalcedon

إذ قتل أحد المسجلين بلكمة من قبضة يده ، وأمر بابن أخته فضرب حتى الموت نقل البابا في أول الأمر الى « صقلية » ، ثم الى القسطنطينية ، حيث صنع به ماهيأه الى أن يذعن لأمر « يوستنيانوس » . غير أنه لم يلبث غير بعيد حتى عاد فتاب عن فعلته هذه ورجع عن خطيئته وقضى سبعة الأعوام التي بقيت له في البابوية ، جاهداً في سبيل أن يتخلص من الموقف الذي ألقى بنفسه فيه ، بالأيمان المغلظة طوراً ، وبالاعترافات المكتوبة طوراً آخر .

ظلّ هذا البابا سجيناً في القسطنطينية زمناً مّا ، وهدّد باستعمال القسوة معه عندما هرب الى الأديرة يحتمي بها ، ثم نُفي أخيراً الى جزيرة صحراوية . ولقد أيد المجمع المسكوني الكنسي الخامس الذي عقد في القسطنطينية سنة ٥٥٣ في كنيسة « أيا صوفيا » الجديدة، مسلك يوستنيانوس . أما رجال الكنيسة الذين أيدوا « ويغيليوس » فعوقبوا بالوشم والسجن والنفي والإقالة . ولقد أذعن « ويغيليوس » في النهاية . غير انه بفعلته هذه قد أنزل من سلطان البابوية في الغرب وأضعف هيبتها ، فهبّ أسقف « ميلان » [1] وأسقف « أكيليا » [2] يرميانه بخيانة الأرثوذكسية ، وبدأ عهداً طويلاً من الانقسام . وظلّ « يوستنيانوس » طوال البقية الباقية من حكمه حاكماً بأمره في انتخاب « البابوات » وفي شؤون الكنيسة بوجه عام .

على الجملة ، كان «يوستنيانوس» حاكماً مطلقاً في شؤون الدين وشؤون السياسة معاً ، وتصرّف على أنه الرئيس الأعلى للكنيسة النصرانية . غير انه الى جانب هذا كان جاداً في تنمية المرافق النصرانية ، وفي أن يعيد الى الامبراطورية الرومانية قوتها وسلطانها . فكان كريماً سخيًّا اذا وهب الكنائس والأديرة، محساً في تشجيع البعثات التبشيرية الى الهمج، قاسياً كل القسوة في معاقبة الوثنيين والهراطقة [3] .

ولكن مما يؤاخذ به أنه أغلق مدارس الفلسفة في أثينا ، وصادر هباتها، حتى الهبات التي كانت تعطى لأقاديمية « أفلاطون » ، [4] ومنع عنها الموارد التي كانت ايراداتها تزود الأساتذة بمرتباتهم ، ففرّوا إلى البلاط الفارسي .

(1) Milan (2) Aquileia (3) Heretics (4) Plato

ولقد ظلَّ « يوستنيانوس » ، حتى بعد ان بلغ الهرم ، وبعد أن فقد كل شهوة الحرب والنظر في تفاصيل الدفاع عن الامبراطورية ، تلك التي استغرقت كل همته واسترعت كل انتباهه من قبل ، محبًّا للاشتراك في الجدل اللاهوتي ، نازعاً الى العمل على أن يجعل شعبه موحَّد الايمان ، موحَّد العقيدة .

لقد أبان عراك « يوستنيانوس » مع البابا عن حقيقة تلك الصعوبة التي تنطوي على ضمّ شطري العالم النصراني ، في الشرق والغرب ، تحت سلطان كنيسة واحدة . ولقد قدر بعض الباحثين أن « القسطنطينية » ظلت في شقاق ديني مع روما نصف الزمن الذي انقضى من سنة ٣٣٧ الى سنة ٨٧٨ من الميلاد . فان المجلس الثامن والأخير الذي عقد في الشرق وقبلت « روما » أن يكون مجلساً مسكونيًّا قد شهدته القسطنطينية في سنة ٨٦٩ ، أما الانقسام النهائي فلم يحدث الا سنة ١٠٥٤ ولكن الواقع أنه لم تتم وحدة صحيحة ، قبل أن يحل ذلك الانقسام بعهد طويل . ومنذ ذلك الوقت ، وبالرغم من محاولات رمت الى التوحيد ، ظلّ كثالكة الرومان منفصلين عن كثالكة اليونان ، وعن نصارى الروس .

٥ — استعادة شمال افريقية

حكم « الوندل » ملك ضعيف من سنة ٥٢٣ الى سنة ٥٣٠ ، هو الملك « هلدريق » (١) وكان أميل الى الكثالكة الاورثوذكس منه الى الآريين ، ومضى على صداقته بيوستنيانوس معترفاً بسيادته الاسمية . ولما تذمر الوندل عزلوه وأمَّروا الملك « غليمر » مكانه ، سنحت ليوستنيانوس فرصة للتدخل في الأمر . ولقد استطاع القائد « بليزاريوس » على رأس جيش عدّته عشرون الف جندي ، أكثرهم من « الفرسان المصفحين » (٢) أن يهزم الوندل وشيكاً في موقعتين ، وسلّم « غليمر » سنة ٥٣٤ ، كذلك سلمت جزائر سردينيا وكورسيكا والبليار لقواد « يوستنيانوس » واستردّت الأسلاب التي أخذت من « روما » في سنة ٤٥٥

ذلك في حين أن البربر الذين كانوا ممعنين في استرداد أراضيهم من الوندل ، قد مضوا يقاومون بعناد شديد مدى أربعة عشر عاماً بعد ذلك التاريخ . وفي الحق ان « يوستنيانوس » لم يستطع أن يغزو كثيراً من أرض « موريطانيا » (٣) وهي أمعن بقاع شمال افريقية امتداداً نحو الغرب ، وتعرف الآن ببلاد مراكش ، غير انه كان مستولياً على « سبتة » (٤) تلك القلعة

(١) Hilderic (٢) Cataphracti = heavy-mailed cavalry. (٣) Mauretania (٤) Ceuta

الحصينة التي تقوم حارسة على بوغاز جبل طارق . ولقد حصن تخوم البلاد التي وقعت تحت سلطانه وأصبحت في حوزته ، فاستنفذ ذلك كثيراً من الجهد والنصب ، لأن « الوندل » هدموا جميع التحصينات الأولى ما عدا قلاع « قرطاجة » .[1] على إننا نرى الآن من خرائب تلك القلاع ما يوحي إلينا بضخامة ذلك العمل الفذ .

قاست الولايات الافريقية كثيراً من العنت والارهاق في خلال الصراع مع البربر ذوي العناد والقوة ، كما أرهقها ثقل الضرائب التي كان يفرضها عمال « يوستنيانوس » . وانا لنستنتج شيئاً عن عدد الأنفس في شمالي افريقية من عبارة وردت في كتاب « التاريخ السري » لفروقوفيوس ، اذ ذكر ، بما لا يخلو من مبالغة ومغالاة ، ان خمسة ملايين من الأنفس طاح بها القتل في أثناء تلك المغزاة ، مضافاً الى ذلك عدداً ضخماً من هيئة الموظفين الذين عملوا في حكم ذلك الاقليم . وكان على رأسهم « الحاكم البريتوري »[2] وقد عرف فيما بعد باسم « الأكسرخ » أي الحاكم الأعلى ،[3] وكان يتقاضى مرتباً ضخماً ، يزيد على مرتب بقية الموظفين مجتمعين . ومن تحته ادارة كاملة بها أربعمئة موظف ، ثم سبعة حكام تحت كل واحد منهم خمسين مساعداً ، ثم ستة دوقين[4] مع كل منهم أربعين كاتباً ، عهد إليهم بأعمال التخوم وصيانتها ، فالمجموع ألف موظف . ولقد عمل « يوستنيانوس » على أن تسترد أفريقية البوزنطية رخاءها ، وزوّد قرطاجة بعدد من الأبنية الجديدة .

٦ — استعادة إيطاليا

عندما شنّ « يوستنيانوس » حربه مع الوندل[5] كانت مملكة القوط الشرقيين[6] في إيطاليا يحكمها ملك حدث ، وكانت أمه حسنة النية من ناحية « يوستنيانوس » ولها به ثقة ، فسمحت للقائد « بليزاريوس » أن يتخذ من صقلية قاعدة يدير منها العمليات الحربية على أفريقية . ولقد أصبح ابنها موضعاً لاحتقار رؤساء القوط لأنه كان يبكي اذا

(١) Carthage : يخطىء بعض المترجمين فيخلطون بين قرطجة وقرطاجنة : فالاولى هي المدينة القديمة في شمالي أفريقيا ، أما الثانية فمدينة أقامها القرطاجيون على ساحل اسبانيا الشرقي وسموها قرطاجنة أي قرطاجة الصغيرة : والاولى ترسم Carthage والثانية Carthagena (٢) Praetorian prefect (٣) Exarch
(٤) dukes دوقين : جمع دوق (٥) Vandals (٦) Ostrogoths

ضربه أستاذه بالسوط . ولكن هذه الطريقة الخشنة التي اتبعت في تنشئته ، قد أحدثت فيه صفات مضادة للصفات التي ظنّ أن هـذه التربية قد تغرسها فيه ، فنشأ صلباً قاسياً ، ولقد أودت بحياته شروره ومباذله وشهوانياته ، بعد أشهر قليلة من انتصار « بليزاريوس » على الوندل وتسليمهم له .

نجحت الملكة الأم في التزوج من ابن خالها وكان أول من له الحق في العرش بعد موت ابنها، ولكنه أغرى بها، فقتلت طعناً بالخناجر. فانتهز « يوستنيانوس » هذه الفرصة لإعلان الحرب ، إذ كان يعد هذه الملكة من أحلافه .

كان « يوستنيانوس » بسياسته اللبقة الكيِّسة ، قد استطاع أن يغري الفرنجة [1] بغزو « بروفانس » وشمالي إيطاليا ، فأخذ الفرنجة عنـد ما بدأ « بليزاريوس » مغزاته الايطالية يساعدونه ويمدونه بالعون . وشدّ « يوستنيانوس » أزر « بليزاريوس » بقائد بوزنطي آخر غزا « دلماشيا » ، ولكنّ « يوستنيانوس » أرسل في إثره القائد « نارسس » بجيش آخر ليعرقل تقدمه ويتجسس عليـه ، فانتصرت جيوش بوزنطية عدة انتصارات متوالية بين سنتي ٥٣٥ و٥٤٠ انتهت بتسليم رافنـا [2] .

غير أن القوط تحت إمرة ملك جديد إسمه « طوطيلا » [3] جددوا الحرب ، ولم تحل سنة ٥٥١ حتى كانوا قد استعادوا معظم إيطاليا واحتلوا صقليـة [4] وسردينيا [5] وكورسيكا [6] وفي النهاية استطاع الشيخ « نارسس » ذلك القائد المحنك أن يهزم الملك طوطيلا ويقتله في سـنة ٥٥٢ ، وفي سنة ٥٥٥ اضمحلت قوى القوط ، وطرد الفرنجة والألمان [7] من إيطاليـا وكانوا انتهزوا فرصة تلك الأحداث وما جرت من فوضى ، فأخذوا يعيثون في أرض الرومان فساداً . ولكن الى جانب هذا فقدت الامبراطورية « رايطيـا » [8] و « نوريفوم » [9] و « بانـونيا » [10] ، وفي سـنة ٥٦٨ بدأ « اللومبارديون » [11] غزواتهم الناجحة ووطدوا أقدامهم توطيداً جزئيـًا في ايطاليا .

لم يدر في خلد « يوستنيانوس » أن يعيد الى الوجود الامبراطورية الغربية ، ويضع

---

(1) Franks (2) Ravenna. (3) Totila (4) Sicily
(5) Sardinia (6) Corsica (7) Alemanni (8) Rhaetia (9) Noricum (10) Pannonia (11) Lombards

لها امبراطوراً . فان ايطاليا ، كافريقية ، حكمها نائب امبراطوري تحت سلطان القسطنطينية وانتهى بذلك عمر السناتو الروماني [١] .

غير ان « نائبية » « رافنا » بالرغم من انها انكمشت وقتاً ، فانها ظلت موجودة زمناً طويلاً بعد دخول اللومبارديين إيطاليا . أما « رافنا » نفسها فلم تسقط الا في سنة ٧٥١ ، وظلت الامبراطورية البوزنطية مستولية على صقلية وأجزاء من جنوبي إيطاليا ، وغير ذلك من المواقع المتناثرة على الشاطىء مثل البندقية [٣] حتى القرنين العاشر والحادي عشر

كذلك ملك « يوستنيانوس » جزءاً ساحلياً من جنوب شرقي اسبانيا ، اذ استنجد به أحد الأدعياء ليساعده على الملك الآريّ الذي كان يضطهد رعاياه الكاثوليك . ومع الزمن رجع هذا الاقليم شيئاً فشيئاً الى القوط الغربيين [٤] . غير أن « يوستنيانوس » قد نجح في أن يضم شطئان البحر المتوسط الى الامبراطورية ويظللها بسلطانه ، واتخذ بانتصارات قواده ألقاباً فخمة رنانة مثل أفريقانوس ، [٥] ونداليفوس ، [٦] قوثيقوس ، [٧] المانيقوس [٨] فرنجيشوس ، [٩] جرمانيقوس [١٠] .

٧ — يوستنيانوس والهمج

كانت شبه جزيرة البلقان شرقي دلماشيا وبنّونيا ، جزءاً من الأرض التابعة للامبراطور « يوستنيانوس » وتحت سيادته . غير أن سيادته عليها كانت إسمية ، لأن الهمج كانوا يجتاحونها المرّة بعد المرة ، بمحض ارادتهم ومتى شاؤوا . فأخذ يحصن ذلك الاقليم الممتد من الدانوب الى بحر « مرمرة » [١١] بخطوط من القلاع القوية ، وأحيا في ذلك الاقليم ، وفي جميع الأقاليم الامبراطورية ، النظام الروماني القديم ، في أن يعهد بحماية الحدود الى جنود من أهل ذلك الإقليم ، يقيمون في أرض تقطع إليهم محاذية لتخوم المملكة . كذلك دربت جيوش « بليزاريوس » و « نارسس » وجهزت بجند من الهمج الأجانب عن الامبراطورية . وكان أكثر اعتماد « يوستنيانوس » على سياسة رشيدة رصينة اتبعها

Vandalicus (٦) Africanus (٥) Visigoths (٤) Venice (٣) Exarchate (٢) Roman Senate (١)
Marmora (١١) Germanicus (١٠) Francicus (٩) Almannicus (٨) Gothicus (٧)

إزاء الهمج المحيطين ببوزنطية . ولقد رأينا طرفاً من هـذه السياسة الماهرة في أن يتخذ من البيوت الحاكمة في أفريقية وإيطاليا وأسبانيا أصدقاء ، ثم ما يلبث أن ينتحل الأسباب لغزو بلادهم . كذلك استطاع أن يبهر سفراء القبائل الهمجية التي كانت تعيش إزاء تخومه بفخامة بلاطه وأبهتـه إذا ما هبطوا القسطنطينية ، وأنعم على ملوكهم بالهدايا والحسنات والألقاب . غير انه الى جانب هذا كان يغري بعضهم ببعض ، فيظلون في شغل عنه بأنفسهم ، بعيدين عن التفكير في غزو أقاليمه . ولقـد امتدت محالفاته الى أثيوبيا والحبشة وأعالي النيل . على أن هذه السياسة كانت كثيرة النفقات ، لأن الهمج لا يأتمرون بأمره من غير منح ينالونها ، وهبات يتلقونها منه .

* * *

كانت العقبة الكبرى التي وقفت في سبيل « يوستنيانوس » ومشروعاته الكبرى في تنمية الامبراطورية وتقويتها ، عداء المملكة الفارسية [١] التي كانت تهدد تخومه الشرقية ، فان الحروب التي وقعت بين بوزنطية وفارس ، ولم يكن هو من جناتها ، والتي ظلت قائمة بين ٥٢٤ و ٥٣٢ ، ثم من ٥٤٠ الى ٥٤٥ ، ثم من ٥٤٩ الى ٥٦٢ قد انتهت باذعان الامبراطورية البوزنطية وقبولها دفع جزية سنوية لفارس . ولقد اضطر في أثنـاء هذه الحروب أن يسحب كثيراً من الجنود من التخوم الشمالية ليباشر حروبه مع فارس ويواجه مطلوبات مغازيه الطويلة في أفريقيـة وإيطاليا ، حتى أن قبائل الهون [٢] والسلاف [٣] والبلغار [٤] قد استطاعوا أن يهاجموا تخومه عبر الدانوب بمعدل مرة في كل أربع سنوات طوال حكمه . وكانوا في النهاية يردون على أعقابهم ، غير أنهم استطاعوا في احدى غاراتهم أن يصلوا برزخ « قورنثوس » [٥] أو مشارف القسطنطينية . ولقد توج « بليزاريوس » أعماله في شيخوخته ، برد غارة شنعاء شنها الهون في سنة ٥٥٨ ؛

البلغـار الأصلاء قوم بدو رعاة كالهون [٦] . وقد تبعوا الهون الى منحدرات

(١) Kingdom of Persia (٢) Huns (٣) Slavs (٤) Bulgars
(٥) Isthmus of Corinth (٦) Huns

« فونطوس »[١] في زمان متأخر عن مقدم الهون بعض الشيء . ولقد كان أول ظهورهم في جنوب الدانوب حوالى نهاية القرن الخامس الميلادي . وكما فعل الهون قبل مئة سنة إذ غزوا القبائل الجرمانية وكسحوا قبائل أخر الى لجاج الامبراطورية الرومانية ، كذلك فعل البلغار فحملوا السلاف على أن يرافقوهم في غارات كثيرة عبر الدانوب . وبالرغم من أن البلغار كانوا السادة والأمراء ؛ فانهم انتحلوا لغة السلاف وعاداتهم ، واندمجوا فيهم فأصبحوا الأمة البلغارية التي نعرفها اليوم .

***

أما تاريخ قبائل السلاف الأول فغير محقق ، يكتنفه الشك وتحف به الريب . وهم يعتبرون سلالة ألبيية[٢] وأقرب الأجيال إليهم دماً هم الكلت[٣] على ما يظهر ، ويتكلمون لغات من المجموعة « الاندويوربية »[٤] ؛ وهم يتضمنون اللط[٥] واللثوان[٦] مآهلهم بمقربة من بحر البلطيق ، ثم روساً وسلافاً مآهلهم في جنوبي نهر الدانوب .

وقبل التاريخ الميلادي بعدة قرون ، دفعهم الجرمان الى ما بعد نهر « الفستيولا »[٧] ولكن في القرون الأولى من العصر الميلادي تكاثر السلاف بسرعة على ما يظهر وانتشروا انتشاراً مروعاً في شرقي أوربا . وكانوا فلاحين من الزراع ؛ غير أنهم أقل من الجرمان كما يظهر من حيث غذائهم النباتي وحاجتهم الى الحيوانات الداجنة التي تساعدهم على أعمالهم وتخفف عنهم شيئاً من جهدهم البدني . ولم تنشأ فيهم النظامات الاجتماعية والسياسية إلاّ قليلاً ، والى جانب أنهم رحماء مقتصدين ممارسين للمشقات كانوا قليلي الابتكار بعيدين عن الاعتداء ، وأكثر ميلاً الى الموسيقى منهم الى صناعة الحرب . ولقد ارتد كثير منهم فلاحين مسودين يعملون تحت سلطان البدو الذين هبطوا من الشرق ، ولكن بعضهم قد تعلم من غزاته الجلاد والغارات فأصبحوا بدورهم غزاة عند ما ترك القوط

(١) Pontus Steppe (٢) Alpine Race (٣) Celts
(٤) Inda-European (٥) Letts (٦) Listhuani ns (٧) Vistula

الشرقيون شبه جزيرة البلقان حرّة ليحل محلهم فيها غزاة ومغيرون جدد . ولقد تكلم « فروقوفيوس » [١] خاصة عن السلاف في بسارابيا [٢] ومولدافيا [٣] وولاشيا [٤]

تلقاء نهاية حكم «يوستنيانوس» وقع في عالم الهمج انقلابان كبيران . فان الهون البيض أو « الافثاليون » [٥] وهم قبيلة همجية من حوض نهر جيحون [٦] وراء مملكة فارس كانوا شوكة في جنب تلك المملكة طوال الزمن الذي هاجمت فيه الامبراطورية البوزنطية. هزمهم الأتراك وبددوا سلطانهم ، أولئك هم الأتراك الذين أراد القدر أن يلعبوا على مسرح التاريخ الأوربي دوراً ذا شأن عظيم . وفي نفس الوقت أخذ مد عظيم من موجات البدو الأسيويين ، وهم قبائل «الأفيار» ينحدر نحو الغرب . ولقد منحهم «يوستنيانوس» في أخريات أيامه جزية سنوية مكافأة لهم على هزيمة البلغار والسلاف الذين كانوا يهددون تخومه وينتهكون حرمتها . وبعد موت «يوستنيانوس» بقليل حاربوا تحت امرة خاقانهم «بايان» مع الفرنجة في « ثورنجيا » [٧] ثم وحدوا قوتهم مع اللومبارديين [٨] ليهزموا قبائل أل « غفيدا » [٩] في أعالي الدانوب . ومن ثمت انقض اللومبارديون من بنونيا على ايطاليا ، بينا استباح « الأفار » أرض « الغفيدا » وتوطنوا السهل الذي هو الآن « هنغاريا » . وسرعان ما أخذوا يفرضون سلطانهم الاستبدادي المطلق على أقاليم أوسع وأشمل ، لأن الجرمان بضربهم غرباً وجنوباً ، قد أباحوا أواسط أوربا لمن يتقدم لاستعمارها . وفي خلال ما تبقى من القرن السادس ، اعتاد « الأفار » أن يشتوا بجوار مدينة « نورنبرج » [١٠] الحديثة في شمالي بافاريا . أما نفوذهم في أقصى عنفوانه ، فقد امتد على الأرجح من بحر البلطيق الى إسپارطة [١١] ، ومن التيرول [١٢] الى روسيا ، وأخذت قوتهم في التضاؤل عند القرن الثامن .

اسماعيل مظهر

---

(١) Procopius (٢) Bessarabia (٣) Moldavia (٤) Wallachia .
(٥) Ephthalite (٦) Oxus See Smith's p. 639 (٧) Avars Thuringia (٨) Lombards
(٩) Gepidæ (١٠) Nürnberg (١١) Sparta (١٢) Tyrol .

« مهداة الى روح الخليل »

يا عذارى الليل

يا عذارى الليل غني الروحَ غني	هدأ الروحُ على العودِ المرنِ
أين ذاك الأمس من روحي ومني	هاتفُ الليل مضى عنكِ وعني !

*

أنا وحدي... بل وأطياف حبيبي	تنثر الشوقَ على أمسٍ قريبِ
شربَتْ روحي دموعي فارفقي بي	يا عذارى الليل بالله وحني

*

هاتف الليل . . ألا عاد النشيد	يملؤ الليل كؤوساً من جديد ؟
شحب النور على الأفق البعيد	وسها الجدول في روضي الأغن

*

وعذارى الليل..ما أوفى العذارى!	ذهبت تلتمس الوجد المثارا
ثم عادت .. آهِ أطيافَ حيارى	تمزج الدمعَ بريحاني ودني !

القاهرة

يوسف جبرا

مستقبل

الشعر العربي

الشعر مشاركة جدية في الحياة ، تتخذ مادتها من الواقع الإنساني العام ، وصياغتها من طبيعة حركة الحياة الخاصة . وحياة الشعر ليست في مفردات مستحدثة ، ولا أخيلة محلقة ، ولا معانٍ مبتكرة ، وانما في مقدار ما يأخذ من الحياة وما يعطي لها ، وفي مقدار ما يتأثر بها ويؤثر فيها . ذلك لأن الشعر « فعل حي » وحركة جدية تؤرخ لنا واقعنا النفسي تأريخاً لا يقوم على « المصدر والوثيقة » وإنما على المعايشة والوجود . وهو بهذا التأريخ الحي يؤازر بين حركاتنا ، ويطور تجاربنا ويجعل من حياتنا طريقاً إلى ... إلى « أي شيء » واكتشاف قارة كاكتشاف نبتة ، كاكتشاف جمجمة قرد ، كاكتشاف علاقة رياضية كاكتشاف حشرة ، كاكتشاف نظرية اقتصادية ، كاكتشاف صياغة شعرية ، كلها ثروات تضاف الى الواقع النفسي فتخصبه وتضخم من محتوياته وتعمق من أبعاده . ذلك لأننا نعرف أن تطور الإنسان ليس إلا تطور نظرته الى الواقع الذي هو بدوره كائن حي متطور أبداً . والنظرة الى الواقع تجربة إنسانية ، محض إنسانية ، والشعر إحدى عناصرها ومقوماتها . ومن هنا كان الشعر مسئولية إنسانية . ومسئولية الشاعر هي في إحالته للإشكال الجزئي الصغير إلى إشكال إنساني كبير ، بحيث يجعل من أحداثه الشخصية الخاصة حقيقة عامة متضخمة ، تستشرف الإنسانية خلالها حياتها ، وتغذي واقعها النفسي .

والمشكلة هنا ليست مشكلة موضوع بقدر ما هي مشكلة صياغة فقد يسمو الموضوع وقد يسفّ ، ولكن يبقى العمل الشعري عملاً شعرياً وتبقى الظاهرة التعبيرية ظاهرة فنية . وقد اختلف « أيديولوجياً » مع شاعر ، وأرفض مذهبه في الحياة ، وأتهم فهمه لها بأنه فهم رجعي ، فيه ردة ونكوص . . ومجانبة لتطور الواقع الإنساني كما أفهمه ، ولكن تبقى له عندي صياغته الفنية . جليلة رائعة . وقد اتفق « أيديولوجياً » مع آخر يتماشى

مذهبه في الحياة مع مذهبي، ولكن قد أتهم صياغته الفنية بالتفكك والتجانف وعدم الاتساق، بل قد أرفض كشاعر فنان، وإن رضيت بلونه المذهبي الانساني.

وقد يبدو لأول وهلةٍ أن ما انتهيت إليه، يتناقض مع ما سبق أن ذكرته من قبل. فهنا أغلّب الصياغة على الموضوع، وهناك كنت أتحدث عن الشعر كحركة حيّة ومشاركة جدية في الحياة. أليس هذا تناقضاً؟.. الحق.. لا. ذلك لأن الصياغة الفنية بحسب ما أفهمها هي نفسها إضافة جديدة إلى الحياة. فهي المخلوق الحقيقي الذي يساهم بإيجاده الفنان إلى جانب المخلوقات الكونية المتعددة. ويتحتم علينا إذن أن نعرف ما هي الصياغة وسأقتصر بالطبع على الصياغة في العمل الشعري.

يتكوّن العمل الشعري أولاً من وحدة أولى صغيرة هي الكلمة، ومن علاقات بين الكلمات هي الجملة الشعرية أو البيت، ثم من علاقات بين الجمل الشعرية أو الأبيات هي العمل الشعري بأكمله. والكلمة المفردة لها دلالتان: دلالة لغوية ودلالة موسيقية. والجملة الشعرية أو البيت له دلالات ثلاث: لغوية وموسيقية وبلاغية. والعمل الشعري بأكمله له دلالات أربع: دلالة لغوية ودلالة موسيقية ودلالة بلاغية ودلالة فنية. وهذه الدلالة الأخيرة هي في الواقع الثمرة الحقيقية للتعبير. وتتحقق تلك الدلالة الفنية بمقدار تحقق الارتباط الضروري بين العناصر المكوّنة جميعاً لهذا العمل الشعري من كلمات وجمل ودلالات مختلفة. بمقدار تحقق الضرورة بين هذه العناصر تتحقق الظاهرة الفنية في العمل الشعري، أو بتعبير آخر تكمل صياغته. ومعنى هذا، أن الصياغة تركيب ذو عناصر بينها علاقات ضرورية والضرورة هنا ضرورة نسبية، وليست مطلقة، وذلك راجع إلى انسانية التعبير. إلاّ أن تلك الضرورة النسبية نفسها هي التي تجعل من كل عمل فني خلقاً جديداً وإضافة حقيقية الى الحياة. فليس ثمة ضرورة واحدة تصدق على كل عمل فني، بل كل عمل فني يحمل في داخله مبررات الضرورة في تركيبه الخاص. ومن هنا تتحقق المعجزة الكبرى، معجزة انتقال الحدث الشخصي إلى حدث إنساني والاشكال الجزئي إلى إشكال كلي عام خلال الصياغة الفنية.

وهنا أجازف بالقول بأن كلية الموضوع الفني وعمومية مادته وشمول مضمونه، إنما تتحقق بمقدار تحقق الضرورة بين عناصره المكوّنة له، أي بمقدار الاحكام في صياغته. وهذه ليست

نظرية أقول بها، بل معجزة تحققها كل صياغة فنية محكمة . وبهذا المعنى وحده يقال على كل عمل فني كبير إنه يستند إلى وحدة تجريبية : والحق إن الوحدة التجريبية ليست إلاّ ثمرة إعجازية لأحكام الصياغة .

وأنا أعرف السؤال الذي يواجهني الآن به كل قارىء بعد هذه الأحكام السريعة . ولكني أعترف منذ البداية أني لن أجيب عليه إجابة وافية . والسؤال هو : ولكن ما هي تلك [illegible] بين العناصر المكوّنة للعمل الشعري ، تلك الضرورة النسبية التي تختلف باختلاف [illegible] العمل ، والتي بتحققها تتم الصياغة وتستحيل الحركة الشعرية فعلاً خلاقاً ، ويستحيل [illegible] الحدث الجزئي الخاص الى تجربة عامة كلية ؟

نحن [illegible] أنها ليست ضرورة منطقية بحتة ، وليست ضرورة دلالية لغوية بحتة ، وليست ضرورة بلاغية بحتة ، وليست ضرورة موسيقية بحتة وليست ضرورة شعورية وجدانية بحتة .

فقد تحقق الضرورة الصياغة في عمل فني ، مجانب للمنطق العقلي ، متناقض مع الدلالات اللغوية المتفق [illegible] من الطقوس البلاغية ، تضطرب موسيقاه ، وتتصارع ايقاعاته الشعورية الوجد[illegible] لكنه يبقى مع ذلك عملاً فنيًا . والخطأ الكبير الذي يرتكبه الكثيرون في موا[illegible] العمل فني حقيقي أنهم يتطلعون فيه إلى إحدى تلك الضرورات فلا يجدونها فيحكمون عليه بالفسولة والضعف ، ذلك لأنهم ما تفتحت أمام بصائرهم تلك الضرورة الاعجازية الخارقة وأقصد بها الضرورة الفنية ، التي هي تركيب عضوي حي من كل تلك الضرورات الجز[illegible] متفاوته . ولأنهم ما استبصروا في حياتهم الثقافية ذلك الكائن الانساني العجيب وأقصد به الحقيقة الفنية . أجل . هناك ثمة حقيقة فنية هي في مظهرها علاقات ونسب [illegible] وفي جوهرها إضافة حقيقية جدية الى الحياة . وبهذا يزول التناقض الذي يتضح لأول وهلة وتتفصح لنا وثاقة الصلة بين صياغة التعبير الفني وإنسانيته .

ونحن في مواجهتنا لتجارب الشعر العربي لم نستطع حتى اليوم إلاّ الى مدى محدود ، أن نخرج الى دائرة أوسع من دائرة تلك الضرورات الجزئية التي تكلمت عنها . وانما

اقتصرنا عليها فحسب في تاريخنا النقدي الطويل متخذين منها سنداً للحكم على كل عمل شعري. والشعر العربي يزخر بالتعبيرات التقريرية البحتة ، والنقد العربي كذلك يزخر بآيات التمجيد لتلك التعبيرات التي لا تستند الاّ الى ضرورة منطقية . والتعبير الفصاحي والبلاغي يكون الجانب الأكبر من تعبيراتنا الشعرية ، والنقد العربي كذلك لا يزال حتى اليوم يزخر بآيات التمجيد كذلك لتلك التعبيرات «البهلوانية» اللبقة . وفي العصر الحديث تقوم نظريات جديدة في الشعر العربي متخذة الرمز أو الإيحاء الصوتي أو الوحدة العضوية سنداً للرضى عن تعبير شعري أو رفض تعبير شعري آخر ، متذرعة في ذلك بنتائج مستمدّة من الأبحاث السيكلوجية . على أنه حتى اليوم لم يتحقق موقف جدّي يواجه التعبير الشعري كظاهرة فنية ، ويحكم له أو عليه بمقتضى هذه الوجهة من النظر .

وأنا أعترف أن اللفظة العربية في التعبير الشعري قد لحقها تطوير واستحداث وأن العلاقة بين الألفاظ العربية [الجملة الشعرية أو البيت] قد لحقها كذلك تطوير واستحداث ؛ أما العمل الفني فما أقدم على تحقيقه حتى اليوم غير أفراد يعدون على الأصابع ، متجاوزين عما في أعمالهم من بدائية واستخفاف .

الحقيقة الفنية ضائعة في الشرق العربي .

فالشعر العربي اليوم في غالبيته ما يزال تجربة لغوية بلاغية ، وما زال كبار شعرائنا هم هؤلاء المجودون قولاً والمفصحون بياناً والمحلّقون خيالاً . ولست أدري الدور الذي يقوم به شعراؤنا المحدثون إلاّ أنه مجرّد لباقة لغوية من نوع مبتكر ، استند على الاستفادة الكاملة بكل إمكانيات اللفظة وبعلاقاتها المتنوّعة بغيرها من الألفاظ ، هذا فضلاً عن القدرة الخاصة على التحليق والتغور في مسابح الخيال وأبعاده . إنها لعبة ألفاظ تلعب فيها القدرة اللغوية واللباقة الذهنية والمصادفة البحتة دوراً كبيراً ، لعبة ألفاظ ... تتقارب فتشع معانٍ ، وتتاح صور في حدود مقفلة هي حدود بيت شعري ، ثمّ تتقارب ألفاظ أخرى فتشع معانٍ وتتاح صور في حدود بيت شعري آخر ، وهكذا حتى تنتظم سبحة رائعة من الحياة الشعرية المتراصة ، كلٌّ منها بلون برّاق من التصورات اللغوية والتحليقات الخيالية . والحق أن الشعر العربي الحديث قد استطاع — كما قلت من قبل — أن يحرّك

من جمود البيت الشعري التقليدي ، ولكن في حدود اللفظة والعلاقات بين الألفاظ ، إلا أن « التناول العام » ما زال كما هو . فالغنائية البحتة ما زال أخص خصائصه حتى في التعبيرات المسرحية . والبيت ما زال كما هو وحدة العمل الشعري ، وعنصره الأساسي ، وما زال المعنى البيتي هو السند القوي للحكم على قيمة العمل ، وما زال سعة الخيال هي الهدف الأسمى الذي يحاول كل شاعر أن يبلغ مداه ليكون أميراً جديداً للشعر . ومشكلة الشعر العربي الحقيقية هي مشكلة هذا الإصرار العجيب على المعنى أو الصورة داخل بيت شعري مقفل ، هي مشكلة التعبير البلاغي القاصر دون بلوغ مرتبة الظاهرة الفنية .

ولن يكون للشعر العربي مستقبل ، كحركة جدية نواجه بها الحياة ، قبل أن يتخلى عن جمالياته الزخرفية ، عن تلك البلاغية الكاذبة وذلك الخيال المفضوح الذي لا يربطه بواقع الصياغة مسئولية أو التزام .

وفي رأيي أن الخلاص من هذا المأزق التعبيري ، لا يكون إلا بالتخلي عن البيتية المقفلة . إما عن طريق التخلص نهائياً من القافية مع فتح البيت الشعري وجعله مفضياً إلى الأبيات الأخرى إفضاء تركيبياً وتصويرياً . وإما عن طريق الإبقاء على القافية لا كنهاية للتركيب اللغوي للبيت وإنما كجرس موسيقي فحسب . ولقد كانت محاولات تحطيم القافية حتى اليوم محاولات مضحكة للغاية ، لأنها حطمت القافية وأبقت على وحدة البيت اللغوية . وبهذا استحال العمل الشعري إلى أبيات متعددة متفرقة لكل منها قافية خاصة . ولقد كانت القافية تقوم بوظيفة مزدوجة كنهاية للبيت وكوحدة موسيقية للقصيدة وبزوال القافية بقي البيت في وحدته المنعزلة التقليدية ، وفقدت القصيدة جانباً من جوانب وحدتها الموسيقية . وبهذا أضيف نقص جديد إلى التعبير الشعري . على أن هذا النقص يمكن تلافيه — كما قلت — إما بتحطيم القافية مع فتح البيت العربي وجعله مفضياً إلى غيره من الأبيات ، وإما بالابقاء على وظيفة واحدة فقط من وظيفتي القافية هي الوحدة الموسيقية ، وبالغاء وظيفتها الأخرى كنهاية للتركيب اللغوي للبيت ... وبهذا يكون البيت الشعري العربي مفضياً باستمرار إلى ما بعده من الأبيات .

على أن هذه ليست عملية هينة ميسورة بل تستلزم كثيراً من المعاناة والتصبر والجهد . إذ أنها عملية تخال قاسية عن تجارب أجيال عديدة من التعبير الشعري . والحق أنها في ذاتها عملية شكلية بحتة ، ولكني أرى أن مجرد تحرير الشاعر من طغيان البيت — هذا التحرر الشكلي فيما يبدو — سيؤدي الى تحرره من ربقة الفكرة اللغوية ، ومن وضوح الوزن التقليدي ورتابته بل ستتكشف له موسيقى أخرى داخلية هي موسيقى الصياغة الفنية

الحقيقية ، وسيجعل من تعبيره حركة تطورية في داخل الأطار الواسع الذي يشمل العمل الشعري كله ، ويتيح للمتذوق الجاهد فرصة الوقوف أمام التجربة الصياغية البحتة وجهاً لوجه .

وبعد هذا اليوم لن نحكم على شاعر بالجودة لأن أبياته مستقيمة وقوافيه سليمة ، ومعانيه مطابقة لألفاظه وألفاظه مطابقة لمعانيه .

وبعد هذا اليوم لن تكون القدرة البلاغية وحدها ولا الموهبة الخيالية وحدها ولا الحس الغنائي البحت أساساً للحكم على جودة شاعر . بل سنحكم على شاعر بالجودة إذا استطاع أن يجعل من تركيباته اللغوية الموزونة واقعاً انسانياً جديداً نغذي به واقعنا النفسي المحدود ، وتجربة حياتنا القاصرة . وليس ذلك الواقع الانساني الجديد إلاّ تحقق شروط الظاهرة الفنية في عمله الشعري . ولكن من قال إن مجرد ذلك التغيير الشكلي للشعر كفيل بأن يهبنا معجزة فنية . بل ومن قال إن القصيدة العربية في تركيبها الشكلي التقليدي تعجز عن أن تمدنا بمعجزة فنية — إن لم تكن قد أمدتنا بالفعل في حدود معينة — غير أن الذي أقوله هو حاجتنا الى تطوير وسائلنا التعبيرية ما أمكن على أن تكون أهدافنا دائماً إيجاد ظواهر فنية . والبيئة المقفلة في التركيب التقليدي فيها تعسف وعدم طواعية للحركة المتجهة التي تفرضها كل صياغة فنية .

وقد يقال لي : علام لا نتجه بكليتنا الى الشعر الحر مسايرين في ذلك أحدث الحركات الاوربية المعاصرة في الشعر ؟ على أني أرى أن كل تجديد في الفن ينبغي أن يكون عن طريق تطوير حقيقي لوسائلنا التعبيرية . ونحن لم نستنفد بعد امكانيات تلك الوسائل ، ولم نتجاوز حتى اليوم الوسائل التعبيرية القديمة اللهمّ إلاّ في حدود ضيقة جزئية . والشعر الحر تجربة بعيدة ما أعتقد أنها التطور الطبيعي الذي ينبغي أن يقوم به الشاعر العربي اليوم فليكن هدفاً أخيراً . . نصل اليه كنتيجة طبيعية لكفاحنا في تطوير وسائلنا التعبيرية ، ولا داعي حتى اليوم للوثبة الى ذلك المجهول البعيد على حين أننا بعد لم نستنفد كل التجارب الممكنة في وسائلنا التعبيرية الراهنة .

إن الصياغة الفنية ضرورة داخلية في التعبير ، فليكن كذلك انتقالنا الى الشعر الحر ضرورة داخلية في نفوسنا الشاعرة وليس تخلصاً أو هروباً من قسوة التعبير المقيد .

إن الحرية الحقيقية لا تصدر أبداً إلاّ عن ضرورة حقيقية كذلك .

محمود أمين العالم

حذار من البنسلين (1)

البنسلين كغيره من العقاقير الطبية قد يفتك بالميكروبات وقد يزيد من قدرتها على الفتك بالانسان

العقار الساحر

كلما اكتشف العلم عقاراً طبّل له العالم وزمّر ، ثم تهدأ العاصفة ، وينقشع الغيم ، فيختفي العقار وفعله السحري في زوايا النسيان . والبنسلين أحد العقاقير التي تلقاها العالم ، فوجد فيه معقل الرجاء ، ثم تكشف الواقع فاذا هو أقل من أن يحقق كل الأماني والأحلام بل إنه قد يكون عديم النفع في علاج أمراض سبق له أن أعطى فيها أحسن النتائج . وليس معنى هذا أن العقار أو الميكروب يقبض على عصا سحرية تعمل حيث تشاء ، ويبطل فعلها حيث تشاء ، بل معناه أن للعقار كما للميكروبات الفتاكة خواص تتغير بتغير الظروف ، ولكن سرها لا يتكشف إلا بعد مرور الزمن وزيادة المعلومات العامة .

وقد انكشف سر البنسلين والاستربتوميسين (2) كما سبق أن انكشف سر عقاري السلفا (3) والبيوسيانيز (4) فعرف الطب في أي الظروف يقضيان على الميكروب ويزيلان المرض ، وفي أي الظروف يقف العقار مكتوف اليدين . وعرف الطب أيضاً أن الميكروب يكتسب مناعة يقاوم بها العقار إذا أسيء استخدام البنسلين أو اتباعه .

ولو تتبعنا عواصف الأمل التي اجتاحت العالم عند اكتشاف أي عقار مضاد للميكروبات الفتاكة بالجسم لرأيناها كما قال الدكتور بير الأستاذ بجامعة بنسلفانيا تهبط على العالم كحمى التيفوئيد فترفع درجة حرارته بسرعة عند ما يستخدمه الأطباء في علاج كل مرض ، ثم تبدأ في الهبوط عند ما تتكشف أخطاء استعماله ويلعنه العالم . وأخيراً تسير كدرجات الحمى في مستواها الطبيعي فيعرف العالم مفعول العقار على حقيقته .

﴿ الجد الأول ﴾ وتعال نتتبع تاريخ اكتشاف العقاقير وما أثارته في العالم من لغط .

---

(1) Penicillins (2) Streptomycin s (3) Salfas (4) Pyocyanase

في عام ١٩٠١ اكتشف العالمان الاوروبيان رودلف أميريش وأوسكار لو عقاراً سمياه « بيوسانيز » فكان فعالاً في قتل ميكروبات الدفتريا في الأوعية الدموية . وكان أول نطر أمكن استخراجه من النباتات أي إنه الجد الاول للبنسلين .

وكان العقار مشوباً بعدة مواد غريبة لم يتيسر فصلها . ومع ذلك ارتفعت حمى العالم من أجله ثمانية أعوام . فأعلن أنه دواء ناجع لعلاج الكوليرا ، والالتهاب السحائي ، والحمرة ، والتهاب الغشاء المخاطي ، والسل . وتجاوزت الصحف فادعت أن هذه المادة السحرية قادرة على علاج جميع الأمراض القتالة . ولم يخل مخزن أدوية من عشرات المركبات المحتوية على « البيوسيانيز » . وبها تعالج جميع الأسقام والعلل من الصلع الوراثي الى « كلو » الأقدام

وظل الباحث النمسوي الدكتور يوجين بياسكي يدعي أنه أعظم مطهر حتى عام ١٩٠٩ وكان يدعي أن نثر رشاشه في الفم كفيل بمنع جميع أنواع العدوى . ورغم هذا لم تأت سنة ١٩١٠ حتى هجر الأطباء العقار لنتائجه الضعيفة في علاج الدفتريا ، ولأنه كان عديم الجدوى حيال الأمراض الأخرى . وانفجرت فقاعة « البيوسيانيز » فلم يعد يذكر الآن على أي لسان .

﴿ معركة البكتريا « والسلفا » ﴾ وليس معنى هذا أن « السلفا » و « البنسلين » و « الستربتوميسين » ستلاقي ذات المصير فقد أثبتت قدرتها الفذة على قتل الميكروبات والبكتريا . ولكنها لن تحقق تلك الأحلام الحارة التي تناثرت صورها في كل مكان ، فادعت أن الطبيب الحديث يملك في جعبته عقاقير سحرية تقوم بالمعجزات . فلا نزال نتخبط في دياجير الظلام حيال الأمراض الداخلية للجسم وطرق علاجها . ولدينا مجموعة كبيرة من الأمراض نجهل كل الجهل مقاييسها ورد فعلها . وليست عقاقيرنا الحديثة سوى نقطة في خضم المعارك التي يشنها الانسان على البكتريا بأنواعها .

ومعرفة المفعول الصحيح للعقار لا تدرك بمجرد اكتشافه ، بل جرت العادة أن تجتاح العالم فورة حماسة تحمل العقار ما لا طاقة له على احتماله ، فتتناثر الادعاءات من كل حدب وصوب . وبعضها صحيح والبعض الآخر مجرد أوهام واشاعات . ففي بدء الحرب الأخيرة مثلاً انقسم العلماء الى فريقين حيال أهمية « السلفا » . وقبل أن يخوض الجنود البريطانيون غمار موقعة دنكرك حرصت الادارة الطبية على تزويد جعبة الاسعافات الأولية لكل جندي بمقدار من « السلفابيريدين » المتبلورة . ولما انقشعت المعركة فاضت الصحف في وصف المعجزات التي أنقذت سيقان الجنود ، وأذرعهم ، وشتى أعضائهم باستخدام « السلفا » .

ولما دخلت أمريكا الحرب أيضاً انتابت رجالها ذات الحمى فزودوا كل محارب بحبوب «السلفا» ليبتلعها فتقيه الأمراض، وتكسب جسمه المناعة. ولكن ما كادت سنة ١٩٤٥ تقدم حتى صدرت أوامر رجال الجيش تحرم استخدام «السلفا» سوى بأمر الطبيب وتحت اشرافه. فقد بدا لهم أن فائدتها في منع انتشار العدوى تحتم تغلغلها في مجاري الدم. وظهر أيضاً أن تناولها عن طريق الفم أقوى مفعولاً من رشها على الجروح التي كان يغلب أن تكون مملوءة بالأقذار تبعاً للمكان الذي يصاب فيه الجندي ويسقط.

فاذا قارنا هذا الهبوط في الاقبال على استخدام « السلفا » مع ما كانت تتمتع به من سمعة خلابة في عام ١٩٤٠ لأدركنا سر هبوطها الآن حتى كاد ستار النسيان يغطيها، فمنذ هذا العام أصيبت بخسائر فادحة، وهبطت موازين نجاحها في علاج الأمراض ووقاية الأجسام الى نسبة ضئيلة. فبعد ان كانت العلاج الناجع للانفلونزا والالتهاب السحائي وحمى التيفوئيد والتهاب الرئة وغيرها قلبت لها الحقائق والميكروبات ظهر المجن، فلم تعد التعويذة الواقية. وقد وزعت أخيراً ادارات الجيش قائمة ترشد الى استخدام العقاقير المختلفة في الأمراض المتعددة فاذا السلفا العتيدة فيما سبق لا يوصي بها سوى لمجموعة واحدة من ٣٣ مجموعة من الأمراض.

وهي لا تزال تتبوأ مركزاً فعالاً ومماثلاً « للبنسلين » و « الستربتوميسين » في علاج أربع مجموعات من الامراض ومنها السيلان والحمى القرمزية وبعض أنواع الالتهاب الرئوي. وفي تسع مجموعات أخرى ينظر اليها كعقار مشكوك في فائدته كما ثبت أنها عديمة القيمة بالنسبة لاثنتي عشر مجموعة من الأمراض.

﴿ البنسلين في الميدان ﴾ ولعل البنسلين هو أنجع عقار لم تصادفه الدعايات الكاذبة والأوهام المفتعلة. ولعل ذلك يرجع الى السرية التي احيطت بها تجاربه واكتشافه. فقد عثر عليه الدكتور الكسندر فلمنج لأول مرة في عام ١٩٢٨ ولكنه ظل بعيداً عن مجال الدعاية حتى احتضنه الجيش الأمريكي فعد من الأسرار العسكرية التي لا يجوز تداولها. وظلت تجاربه تدور في الخفاء في نطاق محدود، فلم يعرف بأمره من المدنيين سوى عدد يسير، فلما أعلن عن اكتشافه كانت أبحاثه قد تقدمت الى مدى بعيد وتحقق الأطباء من خواصه.

ومع هذا الحرص والدقة لم تخل اشاعاته من دجل وتهريج، فهو لا يقتل كل ميكروب كما يتوهم الناس. ولو أردنا تحديد تأثيره على الميكروبات لوجدناه فعالاً حيال قسم كبير منها، وهو المعروف باسم بكتريا جرام الموجبة. وجرام هو العالم الدانيمركي الذي

قسم البكتريا الى نوعين . فقد وجد ان جميع أنواع البكتريا اذا عولجت بصبغة معينة فإن قسماً منها يبدو أزرق اللون تحت المجهر ، بينما القسم الثاني لا يكتسب أي لون ، ومن ثمَّ أطلق على النوع الأول اسم بكتريا جرام الموجبة ، وأطلق على القسم الثاني بكتريا جرام السالبة .

وأثبتت التجارب ان البنسلين يفتك بجميع أنواع الميكروبات الموجبة الصبغة ، أما السالبة فانها تلفظه وتستأنف عملها في الفتك بالجسم وخلاياه . وعلى هذا الأساس فلا فائدة من « البنسلين » في علاج الأمراض التي تحدثها الميكروبات السالبة الصبغة مثل حمى التيفوئيد والالتهاب السحائي وغيرها . ولحسن حظ الانسان ان أكثر أمراضه وأشدها فتكاً تنتج من ميكروبات النوع الأول فتقع تحت تأثير البنسلين العجيب .

﴿ تناقض غريب ﴾ وكان كل هذا حسناً يشف عن أمل باسم ، ونتائج لامعة براقة ولكن الأطباء لاحظوا شيئاً غريباً فقد شاهدوا أكثر من مرة أن الميكروبات التي كان مفروضاً أن يفتك بها البنسلين لا تعبأ بأمره ، بل تظل تمرح كأنها لم تتعرض لذلك السم القاتل . وتقدم اليها ملايين الوحدات فتلتهمها وتظل على حالها في الفتك بجسم الانسان

وجاء شهر يناير عام ١٩٤٥ فانتشر وباء ميكروب سبحي بين جنود سلاح الطيران الأمريكي في ميدان كيسلر بحوض المسيسبي وتكررت ذات الظاهرة في ميدان لوري بحوض نهر الكلورادو في مارس عام ١٩٤٦ . وكانت ميكروبات الأمراض من الأنواع التي ثبت علميًّا ان « البنسلين » شديد الفتك بها . ولكن أحلام الأطباء تبخرت عندما عالجوا المرضى بالبنسلين ، فلم يشف الجنود ، ولم تختفِ الميكروبات ، بل ظلت حية تتكاثر وتفتك بأجسام الجنود .

وتسربت أنباء الأوبئة وتلقفها رجال الصحافة يروون هزيمة « البنسلين » فيما سبق له الانتصار فيه . واهتزَّ الأطباء والعلماء في عنف ، وبدأوا ينظرون الى العقار الساحر نظرة يأس ، حتى صرح الدكتور هانز موليتور مدير معهد مرك بقوله « قد لا تمضي سنوات قليلة حتى يفقد (البنسلين) كثيراً من قدرته على علاج جانب كبير من أخطر الأمراض السائدة » .

ولم تكن هذه الظاهرة جديدة على الأطباء ، فأن البكتريا تؤلف نوعاً من المقاومة حيال كل عقار . وقد عرفت هذه الخاصية عند استخدام (السلفرسان) المعروف بفتكه الشديد بميكروبات الزهري . كما شوهدت في (الكينا) عند علاج الملاريا . وكان من الغريب أن لا تظهر أيضاً حيال (البنسلين) .

«الميكروب يتحصن» وتحدث هذه المناعة في الميكروبات عند ما تكون كمية العقار قليلة تخمد البكتريا ولا تقتلها. فبعد فترة وجيزة تفيق ثانية ولكنها تكون قد كونت في جسمها مواد كيميائية تقاوم سموم العقار. وهذه الميكروبات ونسلها لا تتأثر بهذا العقار بعد اكتسابها لهذه المناعة. ولحسن حظ البشرية أن البكتريا لا تكتسب المناعة سوى حيال عقار واحد في وقت واحد. فاذا أخفق (البنسلين) في الفتك بها أمكنك الالتجاء الى السلفا أو أي عقار آخر يقاوم المرض.

ولعقار (السلفا) بين جنود الجيش سجلات حافلة بمثل هذه الحوادث. فقد كانوا يلجأون الى جرعات السلفا القليلة في جعباتهم لمقاومة مرض السيلان فتنجح فترة في اخماد المرض، ولكن ميكروباته كانت لا تلبث أن تستعيد نشاطها أقوى مما كانت، فيشتد فتكها بالمريض الذي لا يجد مفراً من الالتجاء الى المستشفى. وفي مثل هذه الحالة يجد الطبيب أن عقار السلفا عديم النفع مهما زاد في جرعاته.

وفي احدى المرات نقل بعض الجنود المصابين بالسيلان من الميدان الى معسكر قرب أحد موانى استراليا، ومضت فترة قصيرة فاذا المعسكر موبوء بهذا المرض الخبيث، واذا عقار (السلفا) عديم النفع في علاجهم جميعاً لأن الجنود الذين نقلوه الى غيرهم كانوا قد تعاطوا كميات السلفا التي كانت في جعباتهم مما أكسب ميكروبهم مناعة. فلما انتقل ميكروبهم الى الآخرين احتفظ هو وذريته بذات المناعة. ولم ينقذ الموقف سوى طائرة أحضرت كميات كبيرة من (البنسلين).

وظهرت المناعة ذاتها حيال البنسلين أيضاً، فقد أصيب أحد الناس بخراج تحت أحد أضراسه. فلما ذهب الى الطبيب وضع له مقداراً من (البنسلين) فوق الخراج حتى اختفى. وكان من الطبيعي أن العقار قتل الميكروبات التي اتصل بها ولكنه لم يقض عليها كلها قضاء تاماً. فبعضها كان بعيداً عن البنسلين، ولم يصب سوى بتخدير وقتي. فلما أفاق كان قد اكتسب المناعة ضد العقار. ولم تمض سنة واحدة حتى تكاثر بالملايين فأعاد الحالة ذاتها بصورة أقوى. وانساب في الدم حتى هاجم القلب. ونقل الرجل الى المستشفى بين الحياة والموت.

وفحص الأطباء حالته وشخصوها بحالة التهاب الغشاء الداخلي للقلب وأحسن علاج لها هو (البنسلين) وأعطاه الأطباء الجرعة في اثر الجرعة وحالة الرجل تزداد سوء حتى أكره الأطباء الى تجربة عقار آخر أقل تأثيراً من (البنسلين) وكان من الطبيعي أن يفتك العقار الآخر بالميكروبات التي اقتصرت مناعتها على (البنسلين) وحده. فلما استعاد الأطباء سيرة

أمراض الرجل أدركوا مناعة ميكروباته التي جردت أفضل عقار من ميزة علاجه . وكانت هذه الحالة دليلاً جديداً على أن مقاومة أي ميكروب بالعقاقير تحتم أن تتوفر في الجرعات المقادير والوسائل الكفيلة بالقضاء على الميكروب كله قضاء تاماً .

﴿ مناعة لم يعرف سرها ﴾ ومثل هذه الدراسات والتجارب لا تعرف عن العقار وهو في اطواره التاريخية الأولى ، ولكنها تتكشف بمرور الزمن ، وبمراقبة أعراضها التي تفصح عن خواص العقار ، وخواص الميكروب أيضاً وكل هذه الحالات تضيف الى معلوماتنا جديداً ، وتضع أيدي رجال العلم على أفضل الوسائل لمواجهة الخطر ، ولكنها لا تعني أن العقار سحري ، بل تلفت النظر الى ناحية من الجهل العام بطبيعة الأمراض الداخلية وعلاجها .

ولا تزال في جعبة الميكروبات الفتاكة أنواع من المناعة التي لا يدرك سرها انسان . ويقدرها بعض الاخصائيين في فنون مقاومة الميكروبات بنحو ١٠ ./. من الميكروبات التي تستطيع التهام أي عقار فتاك لأخواتها دون أن يبدو عليها أي تأثير بل تظل على فتكها بالجسم .

﴿ عقار نادر « ستربتوميسين » ﴾ ومن العقاقير الطريفة أيضاً « الستربتوميسين » ففي عام ١٩٤٣ استخرج الدكتور سلمان وكسمان مادة جديدة اكتشفها في عفن وجده في حقل قرب جامعة رتجر . وكان لأبحاثه دويها كالمعتاد فقد اكتشف العقار السحري الثالث من العفن . ورغم الأبحاث الكيميائية والجهود المتواصلة فلا تزال كمياته قليلة ونادرة . فقد ظلّ الجيش الامريكي فترة طويلة يستنفذ وحده نحو ٩٥ ./. من انتاجه الكلي .

وبلغ من دقة تحضيره وندرته ان الجيش الأمريكي أراد أن يجد وفرة منه في خريف ١٩٤٥ فشحذ همم جميع المعامل الكيميائية في أمريكا لتقدم له ألفي أوقية في الشهر من العقار ، ولكن كل جهودها لم تدبر أكثر من ٧٠ أوقية في الشهر .

وكانت هذه الندرة وصعوبة التحضير من العوامل المنعشة للاشاعات فتناقلت الألسن انه ليكمل نقص « البنسلين » . فبينما الثاني يفتك بالميكروبات التي تصبغ باللون الأزرق تبعاً لطريقة جرام ، فان العقار الجديد سلاح شديد الخطر على الفصيلة الأخرى وهي التي لا تتلوّن . ومن ثمّ بزغ الأمل في أن العقار الجديد قادر على علاج أمراض المجاري البولية ، والتهاب البريتون ، والسل ، وحمى التيفوئيد ، والكوليرا .

﴿ خيبة أمل ﴾ وقد نشر القسم الطبي بالجيش الأمريكي تقريراً وضع باشراف ادورد

بولاسكي من أكبر الاخصائيين في وسائل مقاومة الميكروبات . وتناول التقرير في بحثه موضوع هذه الميكروبات السالبة التلوين ، فعرض للتجارب دون أن يقرر النتائج تحاشياً للخطأ ، ومنعاً لانتشار الأوهام . فعرض حالة ٧٠٠ مريض منها ٣٥٠ لحالات التهابات المجاري البولية الخطيرة . وقرّر ان العقار لم يؤد الى نتيجة حاسمة سوى في ٥٠ ./ من الحالات . كما وجد ان ذات المناعة التي يكتسبها الميكروب ضد البنسلين أو السلفا تتوفر ضد « الستربتوميسين » . أضف الى ذلك ان مجرى البول يجب ان يكون خالياً من الموانع كوجود حصوة في الكلى أو خرّاج .

وكانت النتائج أيضاً مخيبة للآمال في ١٧٥ حالة من أمراض العظام والتهابات الأنسجة الناجمة من الجروح . فقد كان النجاح حليف ٤٠ ./ فقط من الحالات . ويظهر أن علاج هذه الحالات يحتاج الى نظافة تامة . فيجب استخدام العقار للقضاء على البكتريا وحدها . أي بعد إزالة الأجزاء الميتة من العظام أو الأنسجة بالعمليات الجراحية .

ولا يمكن الاستغناء عن العمليات الجراحية في هذه الحالات والاستعاضة عنها باستخدام العقار لأنه في هذه لا يؤثر على ميكروبات جرام السالبة اللون ، بل يعطيها مناعة ضده فيصبح العقار عديم الجدوى .

وبقيت ١٧٥ حالة أخرى تناولت مختلف أمراض ميكروبات جرام السالبة وكانت نتائجها حسنة في بعض الحالات الخطرة التي تنتاب الدم والحمى والالتهاب السحائي حيث كان النجاح ٨٥ ./ اذا كان المريض لم يتلق أي علاج من قبل . ووجد الأطباء أيضاً أنّ حمى التيفوئيد تعالج بنجاح تام بالعقار إذا أعطيت بمقادير وافرة خلال ثلاثة أسابيع من غزو المرض للجسم ، واذا كانت الميكروبات أيضاً لا تمتاز بتلك المناعة الغريبة التي لم يعرف لها مورد .

﴿ تأثير محدود وضار أحياناً ﴾ وأثبتت تجارب الجيش كما ورد في هذا التقرير أن عقار « ستربتوميسين » ليس قتالاً لكل ميكروبات جرام السالبة . فهو لا يؤثر مطلقة على حمى التيفوئيد في مراحلها الأخيرة ، ولا على قرح المعدة والدوزنتاريا . كما أنه يشارك البنسلين في خاصية الفتك ببعض الميكروبات الموجبة من الفصيلة الأخرى ذات اللون الأزرق .

وكانت تجارب الجيش الخاصة بالسل محدودة وأثبتت أن العقار يفتك بميكروبه في بوتقة الاختبار ، ولكنه قليل الفائدة إذا أعطي للانسان . ولاحظ الأطباء أيضاً أن للعقار تأثيراً ساماً على نحو ٢٠ ./ من المرضى . ويخدر بعض الأعصاب المتصلة بقدرة

الإنسان على الوقوف والسير وحفظ توازنه . فبعد تعاطي جرعات العقار كان الدوار ينتاب المرضى فيتخبطون في غرفهم على غير هدى

وظن أن أعصاب العين هي التي تسبب هذا الارتباك فأجريت التجارب على المرضى في غرف مظلمة لا ترى العين فيها شيئاً ، فكان المرضى يترنحون باستمرار مما يدل على أن العقار يؤثر على أعصاب التوازن ذاتها .

وقد أجريت هذه التجارب في نحو ٣٠ مستشفى كانت كلها تحت اشراف الدكتور بولاسكي . وكانت النتائج كما رأينا مخيبة للآمال حتى صرح بقوله (اذا كنت تريد أن تكون متفائلاً حيال هذا العقار ففتش عن شيء آخر) . وليس معنى هذا أنه فقد الأمل في فائدة العقار ولكنه يرى أنه يحتاج الى دراسة أدق فإن مفعوله خارج جسم الإنسان يدل على قدرة فذة في الفتك بالميكروبات

﴿ البداية لا النهاية ﴾ وهو يقول في هذا السبيل (يجب على الناس أن يدركوا أننا على وشك العثور على قاتل ميكروبات جرام السالبة التي لا نعرفها كل المعرفة . وإن عقاراً مثل (الستربتوميسين) ليس في الواقع إلاّ مفتاح التجارب لا نهايتها . وكلما زادت معلوماتنا عن تركيبه ومفعوله ، فانه سيكون مرشداً لاكتشاف عقار أكثر كمالاً منه .

ولا يزال الأخصائيون يوالون بحوثهم لعلهم يعثرون على هذا العقار الكامل . فيوالي الدكتور سلمان وكسمان مكتشف (الستربتوميسين) أبحاثه . وقد عثر على عقار رابع سماه اكتينوميسين [1] . وهو قوي الى درجة يمكن بها استخدامه في قتل الفيران .

ومن شهور أعلن نبأ اكتشافه لعقار جديد سماه نيوميسين [2] وله كل مميزات عقار ستربتوميسين في محاصرة الميكروب والفتك به . ويقال إنه أقوى مئة مرة من الستربتوميسين وقد تمت كل تجاربه في المعمل بنجاح تام وبقي أن يجرب على الحيوانات لمعرفة مدى فائدته للبشرية .

والواقع أن كل العقاقير المعروفة الآن ذات نفع كبير في مكافحة الأمراض ، ولكنها قد تكون أيضاً مؤذية اذا لم تستخدم بالطريقة الفعالة ، وبالنسب الضرورية ، لأن اساءة استعمالها ستعطي الميكروبات مناعة تتيح لها مهاجمة الجسم في غفلة من الطبيب والمريض ولكن دراستها دراسة تفصيلية ستسفر ولا ريب عن نتائج لها قيمتها في مقاومة الأمراض التي تفتك بالبشرية .

فوزى الشتوى

---

(١) Actinomycin (٢) Neomycin

العناية بصحة العامل

حجرة اسعاف العمال

﴿ الموقع ﴾ يفضل ان تكون الحجرة وسط محل العمل حتى يمكن الوصول اليها من كل النواحي في أقصر مدة . ويفضل ان تكون سهلة الوصول من المدخل العام حتى يمكن لخص العمال المستجدين بعيداً عن المعمل كما يستحسن ان تكون بعيدة عن الضوضاء وعلى مستوى الأرض .

﴿ أقسام الحجرة ﴾ ولو ان مكان اسعاف العمال يطلق عليه عبارة (حجرة الاسعاف). إلاّ أنه في الحقيقــة مبنى يحوي عدة حجرات . وهذا المبنى يقسم عادة الى قسمين : قسم للرجال وقسم للنساء اذا ما تواجد الجنسان . أما إذا تواجد جنس واحد فطبيعي ان يكون ذلك قاصراً عليه . وعلى كل حال فكل قسم يجب أن يشمل حجرة انتظار وأخرى للعلاج وثالثة للفحص ورابعة للطبيب أو الممرضة أو الممرض حسب الحالة . وفي بعض المصانع تخصص حجرة للتدليك وأخرى لإجراء العمليات الجراحية . ويفضل أن يشرف على المبنى شخص له خبرة طبية وان تكون مواضع تقابل أسطح الحجرات مستديرة وان تكون مزودة بوسائل منع تسرب الأتربة ، وان يكون التصميم مما يسمح للنقالات بالدخول والخروج بسهولة . ويشترط أن يكون الضوء متوفراً طبيعيًّا أو صناعيًّا في كل وقت وان تتوفر وسائل التدفئة والتهوية ويمنع كل شخص من الاقتراب من مبنى الاسعاف إلاّ للغرض الذي من أجله شيد .

﴿ الموظفون ﴾ موظفو حجرة الاسعاف سواء كانوا تحت اشراف طبيب مباشر أو بدونه يشترط فيهم ان يكونوا مخلصين في مهنتهم (مهنة التمريض) ومهنة الأمانة . فمن

البواب الى الكاتب الى الممرّض يجب ان يكونوا قائمين بمهنتهم خير قيام حافظين على سر المهنة منتبهين الى كل تغيير في صحة العامل مهما كان صغيراً . إذ بهذه الوسيلة فقط يمكن تفادي أخطار العمل وأعراضه مبكراً . ودلتنا التجارب ان العامل لا يبوح بمرض أو بشكوى إلاَّ في مبنى الأسعاف وان هذا الشعور لا يقويه إلاَّ اهتمام مقابل من ناحية حجرة الاسعاف وموظفيها .

ويجب أن يكون التمريض متوفراً في كل وقت العمل حتى يتمكن العامل من الذهاب الى حجرة الاسعاف والاستفهام فيها عن كل ما يخصه بعد التصريح له من ادارة المصنع . والعمال الذين يطلبون رأياً طبيًّا من الطبيب يحدد لهم ميعاد خاص .

واذا كان المصنع يشغل مكاناً فسيحاً وجب إقامة أفرع لحجرة الاسعاف في جهاته البعيدة تحت اشراف ممرضين متمرنين . وهؤلاء يشرف عليهم رئيس . ويطلب من كل هؤلاء أن يكونوا قد تلقوا من قبل وسائل الاسعاف وألموا بها جيداً .

وإذا تواجد طبيب وجب أن يكون عمله شاغلاً له كل الوقت . فلا يسمح له بتعاطي المهنة خارجاً . ومن أعمال هذا الطبيب الاشراف على دوسيهات العمال الصحية واعطاء الشهادات وعمل الاحصائيات وتقديم التقارير للادارة .

﴿ أثاث الحجرة ﴾ يختلف أثاث الحجرة باختلاف الصناعة ولو أنه في جملته متشابه في جميع المصانع . ويشترط في حجرة الاسعاف البساطة والرخص وتوفر العقاقير وتوفر الاضاءة وبعض الأدوات كالملاقط لاستخراج الأجسام الغريبة من العين وجهاز لتثبيت العظام المكسورة وجهاز للأشعة السينية لتشخيص الكسور ومعرفة أمكنة الأجسام الغريبة بأجزاء الجسم . أما العقاقير اللازمة للغيار على الجروح من مراهم ومحاليل وقطن وأربطة الخ . فمن الواجب تواجدها أيضاً . وأهم عقاقير الغيارات في المصانع هو الفلافين والبارافين (Flavine & Paraffin) وذلك للجروح . وتبسط العقاقير كثيراً وذلك بالاحتفاظ بمزيج للسعال وآخر للمعدة (عسر الهضم) وثالث للاسهال الخ . فاذا احتاجت الحالة الى رأي الطبيب حوّلت إليه . أما أمراض الجلد فأحسن علاج لها بصفة دائمة هو محلول الكلامينا (Calamine) يوضع على الموضع المصاب لحين العرض على الطبيب .

﴿ العلاج ﴾ جميع الاصابات البسيطة يجب معالجتها في حجرة الاسعاف بدقة خصوصاً الاصابات ذات العلاقة بالأصابع والمفاصل وأوتار عضلات اليدين . وفي حالة عدم تواجد حجرة عمليات يكتفى بوضع الغيار المطهر بعد نظافة الجرح جيداً حتى لا تحصل مضاعفات واصابات العين الخفيفة كدخول جسم غريب فيها يجب أن تسعف بيد ممرض متمرن .

* * *

وهناك كثير من الأمراض (حقيقية ووهمية) يرجع أصلها الى طبيعة الصناعة . فبعض الروائح تحدث عند بعض العمال غثياناً . و بعض الضوضاء يحدث عند البعض صداعاً ، كما أن غذاء الكانتين كثيراً ما يسبب نزلات معدية معوية . وكل حالة من هذه الحالات تعالج حسب ظروفها .

أما الحالات المرضية التي لا تمت الى نوع العمل بصلة فهذه يستحسن أن تعطى الاجازة اللازمة وتحوّل على الطبيب المعالج . لكن كثيراً ما يحصل أن العامل يفضل علاجاً بسيطاً من مبنى اسعاف المصنع وخصوصاً اذا كانت الاصابات بسيطة كسعال أو نزلات أنفية أو نزلات معدية معوية أو صداع أو دوخة أو اضطرابات في الطمث . . . الخ . والعقاقير التي يتحتم الاحتفاظ بها في مبنى الاسعاف مخصص لها مقال بمفرده .

وقد تكون حجرة الاسعاف وسيلة سهلة لتنفيذ علاج بعض العمال من أمراض لا دخل لها بالعمل فاعطاء الحقن للدمامل أو للنزلات الشعبية يمكن أن يعمل في مبنى الاسعاف وقت مزاولة العامل لعمله وذلك بناء على رأي الطبيب المعالج .

﴿ ضرورة فحص العمال قبل التحاقهم بالعمل ﴾ يجب فحص كل عامل جديد قبل التحاقه بالعمل للتأكد من خلوه من الأمراض المعدية ومن أن صحته تساعده على القيام بعمله فلا يحتاج الى اجازات مرضية طويلة مما يسبب ارتباكاً . وهذا الفحص ضروري أيضاً لضمان سلامة العامل لأن بعض الاصابات قد تعرضه الى أخطاء جسيمة أثناء العمل .

﴿ السجلات ﴾ أضمن وسيلة للمحافظة على الانتاج وصحة العمال أن يخصص دوسيه لكل عامل يدوّن به تاريخ التحاقه ومرتبه الخ ... كما يدوّن به أيضاً حالته الصحية والامراض التي يصاب بها والعلاج الذي يعطى له . وبعض المصانع تفضل استعمال (طريقة الأرشيف)

فتخصص لكل عامل (كرتاً) يدوّن به حالته الصحية وأمراضه وتواريخ تطعيمه ضد الأمراض المعدية الخ ...

ويخصص سجل لاصابات العمال من العمل على حدة يدوّن به تاريخ حصول الاصابة وكيفية حصولها واسماء الشهود ومدة العلاج واسم الطبيب المعالج ونتيجة العلاج ... الخ للرجوع اليه في حالة اذا ما رفعت دعوى تعويض . ولذلك فيفضل كثيراً تخصيص سجلان أحدهما خاص بالحوادث السابق ذكرها، وثانيهما خاص بالأمراض العادية التي لا تمت الى العمل بصلة .

ومن هذه السجلات يمكن لرئيس مبنى الأسعاف أن يكتب تقريراً شهريًّا وتقريراً سنويًّا يثبت فيه تعداد الاصابات ونوعها ومقدار الاجازات المرضية وأسبابها . ومن هذه التقارير يمكن للمصنع أن يقدرمبلغ خسارته من جراء اصابات عماله ومدة تغيبهم .

وكلما كان التقرير وافياً كلما أمكن الوصول الى وسائل للاقلال من الاجازات المرضية والحوادث . وهذه التقارير أيضاً تظهر للادارة أهم النقط الطبية الواجب توفرها في العمال بحسب نوع العمل .

وأساس كل نجاح هو قيام موظفي حجرة الاسعاف بدقة وضمير وتعتبر جميع البيانات المدوّنة بسجلات حجرة الأسعاف سرية ، كذلك كرتات الصحة يجب اعتبارها سرية فلا يجوز اطلاع شخص عليها إلاّ بموافقة الادارة .

حوادث التسمم في الصناعة

كلما زاد تعداد المصانع كلما كثر تعرض العمال في التسمم . والنهضة الصناعية بالقطر المصري تسير سراعاً . ففي كل جهات القطر بدأت المصانع تشاد وبدأ الاقبال عليها يزداد من الجنسين الذكور والاناث . وحالات التسمم في الصناعة منها البسيط التي لا تلاحظ بسهولة فلا تقع تحت نظر الطبيب ومنها الشديد وهي التي تمر تحت نظر الطبيب والادارة . وادخال التحسين في وسائل الصناعة والعلاج قلل كثيراً من حالات التسمم كما ان انتاج صناعات جديدة زاد في حالات التسمم باستعمال سموم جديدة .

التسمم بالرصاص

يتبوأ الرصاص المقام الأول بين المعادن السامة في الصناعة . وقد خفضت اصابات التسمم بهذا المعدن الى السبع تقريباً نتيجة للخطوات الوقائية التي اتخذت في السنوات الاخيرة .

وصناعة الخزف تحدث في بلاد الانكليز حالات تسمم بالرصاص إلا ان هذه الحالات قلت الآن . والتسمم بهذا المعدن يحدث نتيجة طلاء الخزف (تزجيجه) بغمر الخزف في سائل الزجاج الحاوي لكمية كبيرة من أكسيد الرصاص . وهذه الحالات بدأت تقل باستعمال الملابس النظيفة للعمال اسبوعيًا وبتغيير ملابس العمل بالملابس المنزلية وغسل الأيدي والأوجه عند الانصراف من المصانع . وغسل أرضية الحجرات التي يصنع فيها التزجيج بالماء الجاري بدلاً من كنسها في حالة الجفاف قلل كثيراً استنشاق الأتربة المحملة بالرصاص . واستبدال الزجاج السائل الحاوي للرصاص بزجاج آخر خالٍ منه كان خطوة أخيرة لمنع التسمم المذكور .

وطلاء المنازل والحجرات بالألوان الحاملة لأملاح الرصاص عرض العمال القائمين بهذه العملية الى خطر التسمم بالمعدن المذكور أكثر من أي صناعة أخرى . وذلك لكثرة العمال القائمين بهذا العمل ويحصل التسمم المذكور نتيجة لازالة الطلاء القديم بورق الصنفرة واثارة الأتربة بهذه العملية فيسهل استنشاقها . ويمكن التغلب على ذلك باستعمال المياه وقت العملية واستعمال ورق مسنفر لا يتأثر بالماء وبهذه الوسيلة يمتنع استنشاق الأتربة المذكورة . والتسمم بالرصاص عن طريق الجهاز التنفسي تزيد أهميته عن التسمم به عن طريق الجهاز الهضمي مائة مرة .

أعراض التسمم بالرصاص

أهم عارض هو المغص المعوي المصحوب عادةً بامساك وفي الحالات الشديدة بقيء . بعد ذلك يأتي عارض فقر الدم أو الانيميا . وبفحص كريات الدم الحمراء يلاحظ رسوب مواد بشكل نقط صغيرة داخل بعض كريات الدم الحمراء . وكلما كبر حجم هذه النقط كلما

كانت الحالة شديدة . ومن هنا وجب فحص دماء العمال القائمين بهذه المهن والمعرضين للتسمم بالرصاص .

وهناك عارض هام آخر هو شلل الرصاص — يصيب أي مجموعة من العضلات ولكنه يصيب أكثر عضلات الزراع مسبباً استرخاء اليد .

ومن الأعراض المهمة للتسمم بالرصاص العارض المخي — ويبدأ فجأة مصحوباً بتشنجات صوتية التي تنتهي بغيبوبة أو هلوسة .

ورسوب الرصاص على اللثة يحدث خطاً أزرقاً هو عارض هام للتسمم بالرصاص .

﴿ طرق الوقاية ﴾ أهم وسيلة لمنع التسمم هو استعمال (شفاطات) الهواء في ازالة هواء حجرات العمل فيمنع بذلك وصول الاتربة المحملة بأملاح الرصاص الى الجهاز التنفسي .

وقد ثبت من التحاليل التي عملت على دماء وأبوال العمال حيث لوحظ أن الزلال البولي يتوالد بكثرة في المسمومين بالرصاص .

وطبيعي أن نظافة العمال المستمرة من حيث الاستحمام خصوصاً بعد نهاية العمل وتغيير الملابس عاملان هامان لمنع هذا التسمم .

التسمم بالزئبق والزرنيخ

وليس التسمم بالزئبق والزرنيخ أقل حصولاً من التسمم بالرصاص — والتسمم بالزئبق يتواجد عادةً بين العمال القائمين بعمليات القبعات من الفلين ومن مستحضرات الزئبق والبارمترات .

أما التسمم بالزرنيخ فأقل حصولاً من الزئبق وقد يكون حاداً كما قد يكون مزمناً ويحصل من استنشاق مركبات الزرنيخ مثل ارسينيت الصوديوم

التسمم بالغازات والأبخرة والسوائل

التسمم بهذه المواد أكثر حصولاً من التسمم بالمواد الصلبة السابق ذكرها . وقد أخذ تعداد هذه الحالات يزداد بكثرة في السنوات الأخيرة .

﴿ أمراض الأتربة ﴾ تختلف حجم ذرّة التراب من ١ ميكرون الى ١٥٠ ميكرون وتحدث الأتربة المذكورة في صناعة التفتيت وطحن الصخور وصناعة الاسبستوس في عمليات النسف . أما الأبخرة المسببة للمرض ذات العلاقة بالصناعة فهي عبارة عن أبخرة كلوريد النشادر وأبخرة الزنك والرصاص ويمكن اعتبار الدخان نوعان من التراب إلاّ أنه أقل خطراً .

ويمكن قياس كية الأتربة المحملة في الهواء بعدّة طرق أهمها الطريقة التالية وهي التي تتلخص في ارسال كمية من الهواء المحمل بالأتربة في أنبوبة رفيعة الطرف موضوعة رأسيًا فوق سطح مبلل بالماء . وبهذه الطريقة يجتذب ٩٥٪ من التراب الموجود بالهواء على هذا السطح ، ويمكن عدّ ذرّات الأتربة وفحصها بالمجهر أو وزنها بميزان التحليل الكيماوي . ولا تعد ذرّات الأتربة إلاّ بعد مرور ٢٠ دقيقة.

* * *

قد اتضح الآن بصفة قاطعة أن استنشاق الأتربة أخطر كثيراً من ابتلاعها فاستنشاق أتربة الرصاص أخطر ١٠ مرات عنه بالابتلاع . ذلك لأن حوالي نصف الأتربة التي تستنشق تستبقى في الرئتين .

وذرات التراب التي ترسب على الشعب تخرج بطريق التنفس والسعال أما الذرّات التي تصل الى ذات الرئة فلا سبيل للخلاص منها إلاّ عن طريق افتراسها بكريات الدّم البيضاء

ومعنى هذا أن وسائل المقاومة في الجسم هي التي تتحكم في خلاص الجسم من هذه الأتربة فاذا كان الجسم سليماً عموماً ورئويًا فان كريات الدم البيضاء كفيلة بافتراس هذه الأتربة والتخلص منها . أما اذا كان الجسم ضعيفاً بقيت هذه الذرّات في خليات الرئة وقتلتها وأحدثت تليفاً حولها . ويشاهد ذلك واضحاً في حالات التسمم بالسليكا.واذا استمر الحال على ذلك تحوّلت مساحة كبيرة من الرئة الى مادّة ليفية عديمة الفائدة ، بل وخطرة لشدّة تعرضها للاصابة بالدّرن . ومن هنا يتضح السبب في قصر النفس والنهجان كعارض أول للتسمم بالأتربة .

وأهم أمراض الأتربة هو مرض السليكوزس الناتج من تأثير مادة ال (Silica) على الرئة وأيضاً مركبات السليكات (الاسبستوس) وهذا المرض يصيب العمال الذين يشتغلون في تفتيت الأحجار باستعمال عجلات من الحجر الرملي . إلاّ أن هذه الحالات قلّت باستبدال الحجر الرملي المذكورة بمادة (Alumina) و (Carborundum) وغيرها — وهذا المرض يصيب أيضاً عمال مناجم الذهب والذين يشتغلون في جوف الأرض بالمناجم ويستنشقوا الأتربة المتصاعدة من عمليات النسف ومن عمليات التفتيت الدقيقة داخل المناجم .

ولذلك يجب فحص هؤلاء العمال بين حين وآخر اكلينكيًّا — وبالأشعة لمعرفة بدء اصابتهم بالسلسيكوزس والدرن. ومن جهة أخرى اشترط استعمال المياه ووفرة التهوية. فعمليات التفتيت والتثقيب الصغيرة يجب أن لا تعمل بآلة جافة بل يشترط فيها تواجد الماء. كذلك عملية فصل الصخور المتفتتة عن الأتربة يجب ألاّ تستعمل إلاّ بعد تواجد الماء ويصيب السليكوزس أيضاً عمال مناجم الفحم بنفس الطريقة .

طرق الوقاية والعلاج

(١) يحلل الهواء في الأمكنة المتعددة لمعرفة كمية الأتربة فيها كما سبق ذكره .

(٢) كثرة التهوية .

(٣) كثرة استعمال المياه .

(٤) مراقبة النظافة .

(٥) استعمال آلات تفتيت لا تحدث ذرات السليكا .

(٦) استعمال شفاطات الهواء .

وعلى العموم يمكن تخفيض كمية الأتربة في الهواء الى حدٍّ يسمح للعمال بالعمل فيه بدون ضرر .

[يتبع]

الدكتور حسن كمال بك
مدير عام مصلحة الصحة الاجتماعية

السيد محمد رشيد رضا

صاحب المنار

والأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

أبى المصور كل الاباء أن ينشر كلمة ما تعقيباً على المقال الذي نشره في العدد ١٢٨٦ منه الصادر في ٣ يونيو سنة ١٩٤٩ في تجريح إمام من أعظم أئمة المسلمين في جميع العصور وهو السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار رضي الله عنه وأرضاه فأين هذا الاباء من حماية الحق والعدل والحرية وهي عناصر الحياة الاجتماعية التي ما خلقت صاحبة الجلالة الصحافة إلا لصيانتها والذود عنها . وبارك الله في المقتطف شيخ الصحافة العربية الذي يعرف كيف يحمي الحق والعدل والحرية ويضرب الامثال للناس لعلهم يرشدون .

وإني لأرجو من نشر هذا المقال أن أرد للسيد الامام اعتباره وأرجو أن يكون ما عند حضرة الكاتب الكبير من مطاعن فيه قد انتهى فيتم لي ما أردت وإلا فلم يبق إلا أن أرجو من حضرته أن يتفضل بنشر ما بقي عنده منها لعلي أستطيع أن أبين وجه الصواب فيها كما بينته في هذا فيستريح فؤادي .

عبد الله امين

كتب الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد في العدد ١٢٨٦ من المصور الصادر في ٣ من يونيو سنة ١٩٤٩ تحت عنوان : « أعلام مصر الحديثة كما عرفتهم » : و : « عالم فذ لا يعني بالمعارف العصرية » : مقالاً في السيد الإمام محمد رشيد رضا صاحب المنار .

وكان قد كتب مثل هذا المقال فيه أيضاً في العدد ١٨٢ من جريدة روز اليوسف اليومية الصادر في ٥ من سبتمبر سنة ١٩٣٥ فجمعت المقالين ودرستهما فوقع في نفسي أنهما أقرب الى الذم منهما الى المدح .

غير أني واثق من أن حضرة الكاتب الكبير لم يرد مدحاً ولا ذماً وإنما أراد أن يكون مؤرخاً منصفاً بريئاً من التحيز والمحاباة فيذكر الحسنات والسيئات جميعاً كما قال في آخر مقاله الأول وهو : لو كان الغرض من التأبين أن يقال عن كل إنسان إنه أفاد كل الفائدة لبطل معناه ولحق بالقول الجزاف الضائع في الهواء . وقد شبع الشرقيون من القول الجزاف حتى اكتظوا كظة لا يحمد معها مزيد فلنعرف للرجل حقه فننصفه

وننصف التاريخ فما يَبخَسُ العاملين حقوقهم في الواقع إلاّ أولئك الذين يَرَوْن ما عملوه قليلاً لا يكفي للثناء والتقدير فيزيدون عليه ما لم يعملوه ومالم يستحقوه وهذا هو البخس بعينه ونقص التقدير في أنقص معانيه :

وإنـي لأؤيِّـده في هـذه القاعدة الذهبية كلّ التأييد وقد كان السيد الإمام نفسه من المؤمنين بهذه القاعدة العاملين بهـا وهي هي نفسها طريقة أهل السنة من الأئمة الذين عُنوا بجمعها وبدراسة رواتها وبالجرح والتعديل .

وما كان لي أن أتوقع من حضرة الكاتب الكبير الرائي ولا من السيد الامام المرثى المحاباة في مثل هذا المقام ولا في غيره لأن المحاباة جناية على التاريخ تأبى النفسُ الكبيرة أن تتردّى فيها . وما أقبح نفساً تتردّى في هذه الهاوية .

ولذلك تجد المرثـى نفسه حين رثى صديقه شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي العراقي رحمه الله في آخر عدد أصـدره من المنار وهو الجزء الأول من المجلدة الخامسة والثلاثين من مجلدات المنـار لم يتحرّج أن يذكر ما يعرفه في المرثى من نواحي الضعف لأنه لا يسـتطيع أن يقول غير ما يعرف وما يعتقد ولا يستطيع أن يسكت عن قول ما يعرف وما يعتقد ولأنّ النقص من شيمة الإنسان والكمال المطلق لله وحده .

وهذه القاعدة نفسها هي التي تضطرني اضطراراً وتدفعني دفعاً الى بيان وجوه الحق والحقيقة فيما نسبه حضرة الكاتب الكبير الى السيد الامام في مقاليه المذكورين . ففي المقال الأول منها :

(١) أنه كان مصلحاً بالكتابة والتعليم على البعد ولم يكن مصلحاً بوحي الحضور وروح الشخصية كما كان جمال الدين ومحمد عبده ودُعاةُ هذا القبيل .

(٢) وأنّ ضعفه لا يرجع إلى قلّة العلم كما يرجع إلى قلة الإلمام بالنفسيات ومسالك العواطف والشعور واستدلّ على قلة الإلمام بالنفسيات بما كان منه مع مشركي الهنود حين كان في الهند وبحديثه الى النـاس في المسجد المجاور لمنزل المرحوم الشيخ عبـد الرحيم الدمرداش باشا وكان الموقف موقف هداية وإصلاح .

(٣) أنه أقدر رجل في زمانه على كشف الشبهـات وحل المشكلات التي تساور عقول

الأوساط من المتعلمين قراء الفقه والدين وأنه إذا بدا عليه الضعف أحياناً فإنما يبدو عليه حينما يعترضه سؤال سائل أعلم من هذه الطبقة توحي إليه بشبهات أعظم من تلك الشبهات .

وفي المقال الثاني منها قوله :

(٤) ولكنني أسأل نفسي دائماً بعد قراءتها «مجلة المنار» من أين يُلِمّ بالنفس هذا الشعور بشيء غير مستساغ في كثير مما يكتبه الشيخ رشيد وهذا رأي كثير من القراء أيضاً .

ثم قال : إنه ضَرْب من الحاجة إلى الصقل ولا سيما الصقل من ناحية الكياسة والفكاهة .

(٥) عناية الشيخ بالاطلاع على المعارف العصرية العامة أقل بكثير من عنايته بالاطلاع على مسائل الفقه والدين .

واستدلَّ على ذلك بأن الشيخ كأنَّهُ سَمِعَ نُبُوءَةَ حين سمع الأستاذ يعقد صلة بين الكبد وبين بعض الأمراض وبأنه توقف في فهم المقصود من لفظ منو وهو عبدالله مينو

(٦) وأنّ السيد الإمام أبى أن يبيعه الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام إلاّ مع الجزء الثالث منه مع وعده إياه بأنه سيشتري الجزء الثالث قريباً وقد كان يتوقع اعفاءَه إياه من ثمن الجزأين معاً .

(٧) وأنّ حديثاً دار بينهما في المترو في صدق الرسالة فكان دليل حضرة الكاتب الكبير «على قدر فهمي» أرجح من دليل السيد الإمام .

هذه هي كلُّ المعايب التي وردت في المقالين .

(١) فأمّا أنّه كان في دعوته إلى الهدى والإصلاح بالكلام أقل من الإمامين الجليلين الحكيمين السيد جمال الدين والأستاذ الشيخ محمد عبده تأثيراً فهذا صحيح فقد كان همهما الأكبر أن يتركا رجالاً يحفظون آراءهم ويعرفون مقاصدهم في الإصلاح ويسلكون طرقهما فيه لا أنْ يدوّنا كتباً وقد كان في وُسْعِ كل منهما لو شاءَ أن يكتب في الهداية والدعوة إلى الإصلاح عشراتِ المجلدات . وكان همّ السيد الإمام خليفتهما أن يدوِّن علمه المقتبس منهما ومن أئمة الإصلاح السابقين والمنسوج على منوالهم ، وأن ينشره بالكتابة في أنحاء العالم وقد ترك أكثر من أربعين مجلدة من مجلدات المنار وغيره ملأت مشارق الأرض ومغاربها علماً ونوراً وهداية وكلُّ إنسانٍ ميسَّرٌ لما خلِقَ له .

ولا أقول إن السيد الإمام كان مصلحاً بالكتابة والتعليم على البعد دون المشافهة ووحي الحضور كما يقول حضرة الكاتب الكبير وإنما أقول : إنه كان مصلحاً بالكتابة وبالمشافهة على البعد والقرب غير أنه كان بالكتابة أمتن تحريراً في الطروس وأبلغ تأثيراً في النفوس منه بالمشافهة ولذلك أسباب : —

منها : رغبته في انتشار دعوته في العالم الاسلامي كله بأخصر طريق وأقصر وقت وهذا لا يكون إلاّ بالكتابة . ومن أجل ذلك أنشأ المنار وعكف على تحريره وعلى الكتابة في الصحف السيارة وعلى تأليف الكتب وهذا من شأنه أن يشحذ فيه ملكة الكتابة ويزيدها قوة على قوتها ويرد ملكة الكلام عن أن تسامي ملكة الكتابة فيه حتى أصبح قلمه أعلى بلاغة وأوضح بياناً من لسانه . ومنها : توارد المعاني الكثيرة على ذهنه حين الكلام الشفوي واباحته لنفسه في المشافهة ما لا يبيحه لها في الكتابة من الاستطراد والخروج من موضوع الى موضوع فيضيع على السامع القصد وإن كان هو من شأنه أن يحتفظ دائماً بجوهر الموضوع الأصلي وبالعود اليه وإيفائه حقه من الكلام. ومنها : حماسته الملتهبة التي تزيدها أحياناً المناقشة أو الشجو حدة فيتعسر على مخاطبه متابعته . ومنها أنه ما كان يتكلم طبعاً ولا يخطب فيما نعهد ونعلم من أمره إلاّ ارتجالاً . أما الكتابة فمجال الدرس والتمحيص والتحرير ولا شك فيها أوسع منه في الكلام ولهذا كان في تحريره أبلغ تأثيراً وأوضح بياناً منه في كلامه وليس هذا بضائره .

(٢) وأما قلة إلمامه بالنفسيات فهذا وصف لا يمكن أن يصدق بأية حال من الأحوال على السيد الامام وهو الذي عرف روح الاسلام أصدق معرفة وخبر العالم الاسلامي أعظم خبرة وزلو أكثر أقطاره وأقام فيها وامتزج بشعوبها امتزاج الماء بالعود والدم بالعروق واندمج مع العاملين على تحريرها طول حياته في البلاد السورية والمصرية والتركية والهندية والعربية وفي أوربا والأمثلة التي ساقها حضرة الكاتب الكبير لا تنهض حجة له ذلك أن السيد الامام ما كان واعظاً دينيـًا للعوام يدعوهم الى الفضيلة وينهاهم عن الرذيلة فيحتاج الى الاحتيال عليهم واستمالتهم بما يلائم أهواءهم من الطرق إنما كان مصلحاً دينيـًا اجتماعيـًا سياسيـًا يريد أن ينتشل الأمم الأسلامية من مجاهل الضلالة العمياء والذل والاستعباد

بنتشلهم من الشرك وهو أصل الفساد والاستعباد .

وكان يعلم من علم النفس وعلم الاجتماع ومن طبائع الشعوب التي امتزج بها وبزعمائها أن إصلاح الأمم لا يمكن أن يتم أو يتحرك بشيء من السرعة إلا بالأحداث العظيمة كالحروب والثورات والصيحات العظيمة التي تُصخ الآذان وتوقظ الصم النيام ، لذلك ما كان يعرف الرفق والهوادة في الدعوة الى الاصلاح الأكبر وهو محاربة الشرك وما كان يبالي أنه ضيف المرحوم الشيخ الدمرداش شيخ الطرق الصوفية وأنه يطعن في طريقته وهو ضيفه وفي مسجد مجاور له وبين مريديه وأتباعه ، بل إنه كان يقصد ذلك قصداً وليس هذا الموقف أول موقف ولا آخر موقف له من نوعه بل مواقفه من هذا النوع لا تحصى فيُظَن ذلك جهلاً منه بالنفسيات وما هو بجهل وإنما هو علم عظيم .

وأمَّا ما كان في الهند إذ عرضوا عليه شجرة يُقَدِّسُها البراهمة ويقرِّبون إليها القرابين وأنه ذهب في إقناعهم إلى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تخلق من دون الله ولا ترزق. فالذي أعرفه من علم السيد الواسع وقريحته المتقدة وسمِعْتُه منه في هذا الحادث وسمعه غيري من اخوانه ومريديه أن البراهمة إنما يقدسون هذه الشجرة وأمثالها لأنها مظهر من مظاهر الفيض الإلهي كما يقول علماؤهم . وقد كان كلامه في هذا معهم لا مع عامة الناس طبعاً وما كان يخطر ببال السيد الامام أنهم يقدسونها لأنها تحيي وتميت. فالذي يعرفه السيد في جميع المشركين من جميع الملل أنهم يعتقدون فيما يقدسون من نبات وحيوان وجماد وأناسيّ أحياء وأموات أنها يُتَقَرَّبُ بها اليه سبحانه وتعالى كما قال : وما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفى : والمراد بالعبادة معناها الأصلي المستفاد من معنى العبد واشتقاق اللفظين واحد فهو الخضوع والذلة للمعبود وهذا لا شك لا يكون إلا خوفاً من مكروه أو رغبة في محبوب يُرْجَى من المعبود دفعه أو جلبه ولو بالوساطة . وهذا ما يُدْرَكُ بالبداهة من حال من يعبدون غير الله .

(٣) وأمَّا ضعفُه عن إقناع المثقفين ثقافة عالية . (٤) لقلة علمه فيردّه أنه كتب في عقائد الدين وأحكامه وشبهاته ومشكلاته وفي سوء فهم المسلمين له وانحرافهم عنه وفي إصلاحهم إصلاحاً دينيًّا واجتماعيًّا ما شاء الله أن يكتب وسارت كتاباته في أنحاء العالم

الإسلامي وجُلُّها إنْ لم يكن كلُّها مخالفٌ لما أَلِفَهُ الناس وعرفوه فكان صدمة لهم في عقائدهم وأعمالهم وفيهم صفوة العلماء من رجال الدين واللغة والطب والهندسة والقانون وغيرهم من ذوي الثقافات العالية الممتازة . ومنهم من لم يكتف بتحصيل العلوم العالية في بلاده فسافر واستزاد من العلم في أوربا ، ومع ذلك كله فقد اقتنعوا بما جاء به وتَلَقَّوْهُ بالقبول وأُعْجِبُوا به ودانوا له . وهل كان المنار إلاَّ مجلة المثقفين ثقافة عالية ممتازة .

هذا إلى أن الناس أمام الشبهات الدينية ومشكلاتها لا ينقسمون الى مثقفين ثقافة عالية وثقافة متوسطة وإنما ينقسمون إلى مؤمنين مسالمين راغبين في معرفة الحقائق الدينية والى كافرين بالدين معاندين مكابرين وفي كل من هؤلاء وهؤلاء المثقفون ثقافة متوسطة والمثقفون ثقافة عالية ، بل والأُمّيُّون وكثير من هؤلاء وهؤلاء غارقون في البدع والخرافات والأوهام والضلالات الدينية الى الأذقان . وكثير من هؤلاء وهؤلاء من اقتنع بدعوة السيد وقليل منهم من لم يقتنع : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) .

على أن انتفاء المقدرة على اقناع المثقفين ثقافة عالية الجاحدين المنكرين لا يلزم منه انتفاء القدرة العلمية والقدرة الاقناعية اللتين برز فيهما السيد الامام كل التبريز .

فان كان بعد ذلك في الدين ما يتعذر إدراك معناه أو اقناع كل مرتاب به كالحروف التي في أوائل السور أو بعض النصوص المتشابهة أو إقامة البرهان العقلي عليه كعذاب القبر ونعيمه وانه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وكالجنة والنار وكالصراط وأنه أرق من الشعرة وأحد من السيف وغير ذلك من السمعيات وهي ما كان طريق العلم بها السمع الوارد في الكتاب والسنة مما ليس للعقل فيه مجال أو كان المخاطب ليس له نصيب من الدين منكراً له يتعذر إقناعه فان شيئاً من ذلك لا يمكن أن ينهض دليلاً على أن السيد الامام كان من شأنه أنه أقدر على كشف الشبهات وحل المشكلات التي تساور عقول الأوساط من المثقفين قراء الفقه والدين دون غيرهم ممن هم أرقى من هذه الطبقة علماً وتفكيراً .

(٥) وأما قلة علمه بالمعارف العصرية العامة فان كل الذي استدلّ به حضرة الكاتب الكبير على ذلك مسألتان :

إحداهما : أنه كان معه في مجلس ومعهما سعيد شقير باشا وان الحديث استطرد الى الصحة فقال سعيد باشا انه يحس إعياء وخواء يشبه الدوخة فسأله حضرة الكاتب الكبير: هل كشفت على الكبد ؟ فقال : إن المصيبة كلها من هذه الكبد : ولاح على الشيخ رشيد كأنه قد سمع مني نبوءة فسألني : هل درست الطب : فليس في هذه القصة إلاّ هذا السؤال : هل درست الطب : أو لا يجوز أن يكون هذا السؤال مداعبة منه للاستاذ أو أن يكون تنبيهاً له على أن الكلام في هذا ونحوه إنما هو من شأن الطبيب أو لشيء آخر أو هل يعقل أن الكلام في الكبد وفي المعدة وغيرها أصبح خافياً على العامة أو على صغار المتعلمين حتى يخفى على مثل السيد إني استأذنه أن نستبعد هذا الدليل إنه ساقط من تلقاء نفسه . وأما المسألة الأخرى فهي لفظ منو الوارد في كلام للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الجزء الأول من التاريخ ويراد به عبد الله منو، فعلى فرض التسليم بأن هذا اللفظ اشتبه على السيد الامام أفلا ينسب هذا الاشتباه الى السهو وزحمة العمل في الطبع والكاتب الكبير خير من يقدر زحمة المطابع وضغط تجاربها على الكتّاب .

وقد سها حضرة الكاتب الكبير نفسه في المقال الأول فقال عن السيد الامام (وأسعده الحظ بالسماع عن السيد جمال الدين الأفغاني في صباه ومصاحبته الأستاذ محمد عبده بعد ذلك فانتفع ونفع وقام بعهد التلمذة على هذين الرجلين العظيمين جهد المستطاع . ولعله أصبر تلاميذهما على المتابعة والمثابرة والاستقلال بعد ذلك في نهج الهداية والاصلاح) على حين أنّ السيد الإمام لم يلق السيد جمال الدين حكيم الشرق الأكبر ولم يكن تلميذاً له وإنما أخذ علمه وحكمته وطريقته في الاصلاح عن حكيم الشرق الكبير الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وقوام هذه الطريقة تمحيص الحقائق وتخليصها من البدع والخرافات والأوهام والضلالات واعلانها للناس وإن خالفت عقائدهم وما ألفوه وآلمتهم وأغضبتهم وأثارتهم بشجاعة نادرة وبلا مبالاة .

وبعد فإنّ الجهل بعبد الله منو من أوله لآخره لا يعد دليلاً على عدم العناية بالمعارف العصرية، أوليس في كبار العلماء والأدباء في أنحاء العالم من يجهل من هو خيرٌ وأبقى ذكراً وأشهر من عبد الله منو، ولم يكن ذلك الجهل دليلاً على عدم عنايتهم بالمعارف العصرية. هذا وإنّ عدم العناية بالمعارف العصرية حكم عام والأحكام العامة كقواعد العلوم لا يمكن أن توضع إلاّ بعد استقراء جزئيات كثيرة. فلو أن حضرة الكاتب الكبير أحصى عشرين غلطة في المعارف العصرية لجاز له حينئذٍ أن يحكم هذا الحكم ولكن بدون عنوان ضخم. أما أن يقيم حكمه على مسألة واحدة فهذا غبن وظلم.

(٦) وأما الامتناع عن بيع الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام إلاّ مع الجزء الثالث منه فهذه مسألة مالية أدبيّة لها حساب في الطباعة وكان نظامها حينئذٍ أي منذ أربعين سنة لا يسمح بمثل ذلك. فهذه الحادثة لا يمكن أن تدل على حب للمال وقد كان السيد الإمام من الزاهدين فيه وفي الدنيا وما فيها مع علمه الراسخ بقيمة المال وبتأثيره في حياة الأمم ودعوته المسلمين الى العناية به، وما كان المنار على سعة انتشاره المذكورة في صدر المقال الثاني ليقوم بنفقاته وكان سد العجز من المطبعة والكتب. وقد كان السيد الإمام من أجود الناس ولم يكن يتصدّق على المستجدين المحترفين بالملاليم، وإنما كان إذا عرف موضع حاجة آثر صاحبها على نفسه بما يملك قلّ أو كثر. وما كانت تطيب له لقمة شهيّة إلاّ إذا أكلها معه آخرون. ولقد مات رضي الله عنه وهو غارق في بحر من الدين وعفا الله عن حبيبه وصديقه حضرة الأخ الصالح محمد بك نجيب محمد الذي أقيم وصيًّا على القصر ووكيلاً عن الكبار فأنقذ التركة بجده وحسن تدبيره وحزمه مع العفة الخارقة للعادة وخلصها وكبر القصر وحسنت حالهم بجدّهم وكدّهم واجتهادهم وبحسن رعاية نجيب بك وبرضا الله عن والدهم.

(٧) وأما الحديث الذي دار بينهما في المترو على صدق الرسالة وشهده معهما حضرة الأستاذ الجليل السيد عبد الرحمن عاصم ابن عم السيد الإمام وزوج أخته ووارث علمه وأعلم الناس بسيرته فإن الدليل الذي ذكره السيد الامام وهو: إنّ المحقق من سيرة النبي

عليه الصلاة والسلام كافٍ للدلالة على وحي القرآن لأنه (ص) لم يأت بمثل هـذه البلاغة قبل الأربعين . وكان يشكو انقطاع الوحي فترة بعد نزول القرآن الكريم عليه : دليل على صدق الرسول (ص) في أن القرآن من عند الله لا من عنـده هو، والدليل الذي ذكره حضرة الكاتب الكبير وهو : وإنما المعجزة الكبرى هي الرسالة المحمدية التي لا ينهض بها فردٌ ولا أمة بغير معونة إلـهيّـة وإنما المعجزة الكبرى هي أثر القرآن في الضمائر وأثره في تواريخ الأمم الاسلاميـة وغيرها : دليـل على إعجـاز القرآن لأن القرآن معجز بلفظـه وبمعناه جميعاً .

وكلا الدليلين حسن صحيـح لازم، وكلاهما لايفوت السيد الامام. غير أنَّ مكان الحديث حينئذٍ وزمانه وهو في قطار سريع بين مصر الجديدة والقاهرة والمسافة قصيرة والمركب عام لم يكن يصلح للاسترسال في مثل هذا الحديث ولذلك دُعيَ حضرة الكاتب الكبير لمقابلة خاصة في مكانٍ خاص ووقت أوسع فلم يجب ولو أنه أجاب وتردد على الداعي غير مرة لتغيـّر رأيه فيه وحكمه عليـه . أما أن النابغة الذبياني ما سمي نابغة في بعض الأقوال إلا لأنه لم يقل الشعر إلاّ وهو رجل وأنه وغيره أجْـبَـلَ أي انقطع عنه الشعر فترة فان بين النابغة وبين الرسول (ص) فرقاً يقضي على هذا التمثيل ، فالنابغة وُلد ونشأ في بيئة شعرية للشعر فيها المَقام الأسمى الذي لايطمع في السموّ إليه مقام ، فالشاعر هو حامي القبيلة ورافع لوائها ومـعلي قدرها وهو فخرها في المجامع وعُـدّتها في الشدائد عليه تعتمد وبه تعتز ، فمن المؤكد أن نبوغه وليد هذه البيئة ولا بدّ أنه كان في صباه يحب الشعر ويحفظه ويرويه ويُكدي في نظمه قبل أن يظهر بأول رائعة من روائعه أما الرسول (ص) فقد نشأ في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء، ليس للنثر فيها ذكر. وقد جاء بشيء لاعهد للدنيا به جاء بقرآن لاهو شعر ولا هو نثر مرسل وهو مع ذلك كما قال حضرة الكاتب الكبير آنفاً جامع لخير البشر في الدنيا والآخرة فأين شعر النابغة بل شعر شعراء الجاهلية مجتمعاً منه.

عبد الله أمين

الضبع وابن آوي

ترجمة الدكتور مراد كامل

« في يوم من الأيام التقى ضبع وابن آوى في غابة . فقبض الضبع على ابن آوى ثم قال له : إما أن تحضر لي ماء وإما أن تهيء لي مكاناً للراحة . فقال له ابن آوى وهو يرتعد من الخوف : لو كنت رجلاً لما جسرت على معاملتي بهذا الشكل السيء . فسأله الضبع قائلاً : ما هو الرجل ؟ فأجاب : اذا أردت فتعال معي أدلّك على الرجل . وبينما هما يسيران مرّا برجل مسنّ ، فسأله الضبع قائلاً : أهذا هو الرجل ؟ فقال ابن آوى لا ، هذا كان رجلاً ، وهو الآن ليس برجل . فاستمرّا في السير حتى لقيا صبيّاً ، فسأله الضبع : هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى لا ، هذا سيصير رجلاً . وبينما هما في طريقهما مرّا بشاب في يده بندقية ، فسأله الضبع : هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى قائلاً : هذا هو رجل حقّاً ، اذا كنت شجاعاً فاقبض عليه . فذهب الضبع لينقض عليه ، فأطلق الرجل رصاصة أصابت أذنه ، فصدّق الضبع حينئذٍ ابن آوى وفرك أذنه ثم ولى هارباً .



خليل مطران

١٨٧٢ – ١٩٤٩



خليل مطران

الرجل والشاعر

١٨٧٢-١٩٤٩

كأنما كان الخليل ينظر من سُجُف الغيب دنوّ منيّته ، عندما خاطب تمثالاً نصفيًا له بقوله :

مثـــالي إنني أرنو إليــك وإنّ بي رفقا
دنا أجلي فيا جذلي ولـكن أنت قد تبقى
أخاف عليك أن تحيا ومن يحيا ولا يشقى (١) ؟

وصدقت بصيرة الرجل ، فما كادت تنقضي سنتان على هـذه المناجاة حتى زفر الخليل آخر أنفاسه وثوى بين ظلال الموت ، وأضواء الخلود .

أجل ، مات الخليل في مساء ٣٠ يونيو ١٩٤٩ بين انتفاضات القلوب الشاعرة ، ولوعات الأرواح المتصوّفة ، وبموته فقد الشرق العربي ، رجولة ممتازة ، وشاعرية نابغة .

وما ريب أن خسارتنا الانسانيـة والخلقية بفقده ، لا تعادلها إلاّ خسارتنا الأدبية والفنية بموته ، فلقـد كان الرجل فذًّا في الأدباء ، إذ توحدت فيه الشخصية بالنبوغ ، واتّسم بخلال قلبية وعقلية نادرة في زمان ، نحن أحوج فيه الى من يرفع أرواحنـا ، ويضرب لنا المُثُل في حب الخير والتواضع والأريحية والإيثار .

وهل في أدبنا الحاضر ، أجمل وأبدع مما قاله هذا الرجل ، في أواخر أيامه ؟

كان في الشـعر لي مرام خطير فعـدا طوقي المرام الخطير

---

(١) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك سنة ١٩٤٧ ص ١٦

هائمٌ في الوجود أسأله الوحـ ـي كما يسأل الغني الفقير
أكبروني ولست أكبر نفسي أنا في الفن مستفيد صغير
لا يضق صدر شاعر بأخيه يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها ليس تحصى شموسها والبدور
كل جرم يعلو ويصبح نجماً فله حيز وفيه يدور
والنجوم التي تلوح وتخفى ربوات وما يضيق الأثير (١)

***

تلكم النفحات الشعرية التي تليت في حفل تكريمه بين الوجوه المشرقة ، نتلوها اليوم بين الحسرات المكتومة ، ونجد فيها العبرة ، والهمسة الخفية الموحية بأنبل عاطفة ، إنها تفسير حق لفطرة الرجل الأصيلة ، فطرة الحب التي اعتلجت بين جوانحه صغيراً ، وراودته شاباً ، وسمت ودقت في كهولته وشيخوخته — أنها الشريان الهام في نسيج هذا القلب الكبير الذي ضوأ بالحب النبيل في شبابه وعبّر عن هذا الحب في قصيدته « حكاية عاشقين » (٢) وبقيت أعطار هذا الحب بعد موت حبيبته ، وأفصح عن بقائه في القصيدة التي ناجى فيها عصفورة رآها في جنيف قرب تمثال جان جاك روسو (٣) فقال : —

سيري وولّي صدرك الـ مشتاق شطر المربع
حتى إذا ما جئته وشرعت أعذب مشرع
عوجي ببستان هنا لكَ في العراء مضيّع
لي في ثراه دفينةٌ كالكنز في المستودع
تخفي الأزاهر قبرها عن أعين المستطلع
قولي له إن جئته يا أنس هذا البلقع
أتحس في هذا الثرى نبضات قلب موجع ؟
هذا حنين من فؤا دِ محبك المتفجع

(١) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك ١٩٤٧ ص ١٤٩

(٢) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٦٠ (٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢١

ولم يقف حب هذا القلب الكبير عند الحب الخاص النبيل ، بل امتدّ ، وامتدّ ، الى حب الموطن الأول ، والحنين إليه حنيناً لاهباً تشهد به طائفة من قصائده ، مثل « قلعة بعلبك »[1] و « للتأليف بين القلوب »[2] و « تشوق »[3] وتتحدّث به قصائده في موطنه الثاني مصر في مثل « يامصر »[4] والى « حافظ ابراهيم » التي جاء فيها قوله :

« مصرُ » الحضارة والآثار شاهدة   « مصر » السماحة مصر المجدُ من قِدَم
« مصر » العزيزة إن جارت وإن عدلت   « مصر » الحبيبة إن نرحل وأن نقم
جئنا حماها وعشنا آمنين به   ممتعين كأن العيش في حُلُم

واكتمل حب الرجل ، واتسع مجاله فشمل الانسانية بأسرها ، وآيات برّه الايجابي . تتناقلها الألسن ، وتنطوي عليها قلوب العارفين ، والآونة الحاضرة ، لا تتيح الكشف عنها ، ولكنا نجد تفسير هذا الروح الانساني النبيل مبثوثاً في كثير من شعره . وبخاصة شعره القصصي الذي فتح به فتحاً جديداً في عالم الشعر الحديث ، فإنا لنراه يتألم لمصير موّادة متسولة تموت مريضة بعد زواجها بعام في قصيدته البديعة « وفاء »[5] ونلحظه ينعي على العاهر التي تقتل جنينها ، في قصته الشهيرة « الجنين الشهيد »[6] ونسمعه يترحم على الشاب السري الذي يلقي بنفسه في الماء لخيبة حبه في قصته « المنتحر »[7] ونلمس ثورته على أحد رؤوساء المذاهب الذي أصرّ على إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تمّت بغيته ، لألحق بولدهما البريء العار ، وهذه الثورة الهادئة تضمنتها قصته « الطفل الطاهر »[8] وهي من أروع قصصه الشعرية على الاطلاق ومن نبع عاطفته الانسانية العميقة ، ومما جاء فيها قوله ، مخاطباً الطفل البريء ، وناعياً على القس العاتي :

ياطفلُ قلّب طرفك المترددا   أو ما ترى شبحاً عبوساً أسودا
متجسساً لك من وراء ستار

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٧٧
(٢) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٠٧
(٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٣٣٨
(٤) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢٦٦
(٥) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٨٤
(٦) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٩٩
(٧) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٧٤
(٨) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٤٦

هذا أساء اليك قبل المولد وجنى عليك جناية المتعمد
ومن السماء دعاك صوب النار
لكن أراك تبشُّ بشّة سامح وأراك ترمقه بعين الصافح
ما للهلال وللسحاب الساري

ولسنا نجد تدليلاً على تبيان تأصل فطرة الحب في قلب هذا الرجل الكبير ، أقوى وأروع من قصيدته « هل تذكرين »[1] فهذه القصيدة مع حلاوة موسيقاها وجمال صياغتها ، تمد الباحث ، ببعض السمات الأصيلة للخليل ، لأنها تروي بعض ذكرياته ، ومن هذه الذكريات يجد السيكولوجي مصدراً فذًّا لتعرف شخصية الرجل ، ورغباته في الحياة[2] ، فهو يروي فيها تجواله مع إحدى بنات عمه وقريبة أخرى ، وصاحبة ثالثة ، ولهوهم في روضة ، وقطفهم العنب منها ، ثم انجذابه الى الرفيقة الغريبة ، ومحاولته إدخال البهجة على قلبها ، وعمل لعبة من الصلصال لها في هيئة عصفور ، ومما جاء في هذا القصيد عن ذكريات حبه الساذج ولهوه البريء قوله :

هل تذكرين ونحن طفلان عهداً بزحلة كله غُنْمُ
إذ يلتقي في الكرم ظلان يتضاحكان ويأنس الكرمُ
هل تذكرين بلاءنا الحسنا حين اقتطاف أطايب العنب
نُعطي ابتسامات بها ثمناً وبنا كنشوتها من الطرب

ثم تساؤله عن النهر في القصيد ذاته يؤيد حبه لجمال الطبيعة ، واندماجه فيها ، وأنه في ذلك يقول :

والنهر ، هل هو لا يزال كما كنا لذاك العهد نألفُه
يَسقي الغياضَ زُلاله الشبما ويزيد بهجتها تعطفه
ينصب مصطخباً على الصخر ويسير معتدلاً ومنعرجا
يَطغى حيال السد أو يجري متضايقاً آناً ومنفرجا

(١) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٣٥

(2) Adler — What life Should mean to you.

متخللاً خضر البساتين متهللاً لتحيةِ الشجر
متضاحكاً ضحك المجانين لملاعب النسمات والزهر

ثم وصفه لجمال الصاحبة الغريبة وانجذابه اليها يعزز فطرة هذا القلب المتيّم في الطفولة وفي ذلك يقول :

ما أنس لا أنس العقيق وقد جُزْناه بعد السيل نفترج
كان الربيع وكان يوم أحد ومسيرنا متمعج زلج
و« نبيهة » الكبرى ترافقنا مجهودة ضجت من التعب
ولها صويحبة ترافقنا حسناء كلّ الحسن في أدَبِ
ضحّاكة كالنور في الزهر رقّاصة كالغصن في الوادي
كرّارة كنسيمة السحر ثرثارة كالطائر الشادي

ثم يروي بعد هذا أثر سحر الجمال فيه ، وما أوحى اليه من صنع لعبة لحبيبته ، وفي هذا الصنع دلالة مبصرة على استعداده الفطري لحب الفن والخلق ، وفي ذلك يقول :

حُسنٌ تملكني فأدبّني ما شاء في قولي وفي فعلي
وبمثل لمح الطرف أكسبني خلقاً وعلمني على جهل
أوحى اليّ دداً أجربه في آية من فطنة ودد [1]
فجمعت صلصالاً أركبه وصنعت عصفوراً لها بيدي

ولم يتمالك الشاعر أن يطير إعجاباً وفرحاً بهذه اللعبة التي صنعها على عين حبيبته ، فأبدى عجبه بما جبلَ ، وان لفّ هذا العجب في وشاح شفاف من التواضع ، قال :

صوّرت شبه الفرخ في وكر من غير سبق لي بتصوير
فأتى على ما شاءه فكري ورضيت عن خلقي وتقديري
ماكان هذا الفرخ معجزة فتانة الاتقان والحسن
كلاّ ولم أجعله مَعْجَزة [2] لكفاءة الحذّاق في الفن

فهذا القصيد الفريد الذي أطلنا الوقفة عنده ، يحمل جملة دلالات على بعض خلال

(١) الدد = اللعبة (٢) معجزة = ما يعجز الغير عن الاتيان بمثله .

الرجل الأصيلة ، وهي (١) حبه المتأصل في صباه (٢) ونزوعه الى الجمال الطبيعي والانساني (٣) وشغفه باسعاد غيره (٤) وابراز هذا الشغف بطريقة عملية فنية (٥) وعجبه بصنعه ، عجباً مقروناً بالتواضع .

* * *

وهناك سمات أصيلة أخرى غير ما ذكرنا نعتقد أنها حكمت شخصية الخليل ، وهي الحرية ، التي قد تبلغ درجة الثورة ، والاقدام الذي قد يصل الى درجة المجازفة والمغامرة ، والاباء الذي نأى به عن مواطن التذلل حتى في أحلك الساعات ، وثبات خلقه ، وحيويته الدفاقة ، وهذه السمات تجلّت في مراحل حياته ، وتلوّن بها شعره ، وبرزت واضحة جلية في ملامح وجهه .

وأبرز هذه السمات ، وأصلها تحرره ، وجرأته ، واباؤه ، ولا أدل على تحرره من نفوره من الظلم في يفوعته ، وهجرته بعلبك موطنه الأول الى باريس ، ومساهمته في حركات البعث الوطني والقومي ومناصرته لأعلام الوطنية أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، ونزعته التجديدية في الشعر . هذه كلها من الدلائل الناطقة على روحه المتحررة ، وقصائده الشهيرة « مقتل بزرجمهر »[١] التي نادى فيها بالشورى وكراهية الحكم الفردي و « الطفلة البويرية »[٢] التي روى فيها ابتهال طفلة صغيرة الى الله لنصرة أبيها وقومها في الحرب — و « فتاة الجبل الأسود »[٣] التي روى فيها بطولة المرأة ودفاعها عن وطنها وغيرها من القصائد الا آيات بيّنات على أنفته من الظلم ودعوته الى الحرية .

وأبلغ آية على هذه الطبيعة المتحررة في رأينا ، قصيدته التي دافع فيها عن حرية الرأي وحمل على قانون المطبوعات في مصر ، وكان من نتيجة هذا الدفاع أن هدّده رئيس وزارة ذاك الزمان بالنفي ، فما كان من الرجل الحر إلا أن أجابه بقصيده الرائع الموسوم بـ « تهديد بالنفي »[٤] وهو أصدق شاهد على تأصل نزعته الحرة وفيه يقول :

أنا لا أخاف ولا أرجّي   فرسي مؤهبةٌ وسرجي

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٩٩ (٢) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٣٧
(٣) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٠٤ (٤) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٩

فاذا نبا بي متن برٍّ فالمطيـــةُ بطنُ لجّ
لا قولَ غيرَ الحق لي قولٌ وهذا النهجُ نهجي
الوعد والإيعاد ما كانا لديَّ طريق فَلْج [1]

وقد صاحبت هذه الروح المتحررة ، نزعتان صديقتان هما الجرأة والإباء، وقد انعكس أثرهما في عمله وفنه ، ويبدو لنا أنه ورثهما من أمه المقدامة الحساسة ، وتجسمتا في وجنتيه العاليتين . ونتوء عظم الوجنة ، كما يقول المتفرسون المتعمقون آية الجرأة ، بل المجازفة .

ولا أدل على روحه الجريئة المقدامة من شغفه في صباه بركوب الخيل ، والسبق على متونها ، وقد سبب له هذا الشغف ، أن وقع كما يقول الدكتور اسماعيل أدهم [2] مرة من فوق أحد الجياد فتكسرت بعض أضلاعه ، وتهشمت أرنبة أنفه وبقي أثر هذه السقطة في أنفه طول حياته .

وتجلت شواهد هـذه الجرأة في بعض أعماله ، فلقد اشتغل الرجل بعد ترك أعماله الصحافية بالأعمال الزراعية والتجارية ، وقام بالمضاربات ، فكسب كثيراً وخسر كثيراً ، وقد انتهت به إحدى هـذه المضاربات إلى خسارة فادحة ، فتوارى في أثرها عن الناس ، وأعرب عن حالته النفسية الأليمة بقصيدته الشهيرة الرائعة « الأسد الباكي » [3] التي جاء فيها قوله :

وكم في فؤادي من جراح ثخينةٍ يُحَجِّبُها بُردايَ عن أعين الناس
إلى عين شمس قد لجأتُ وحاجتي طلاقة جوٍّ لم يُدنَّس بأرجاس
أُسرّي همومي بانفرادي آمناً مكايد واشٍ أو نمائم دساسِ
يخالون أني في متاع حيالها وأيُّ متاع في جوار لديماس [4]

وأروع تصوير لنفسه الحزينة الأبية قوله في القصيد ذاته :

ذروني أنكِّس هامتي غيرَ متَّقٍ ملامة روّاد وشبهة جُوّاس [5]

(١) الفلج = الظفر (٢) بحث الدكتور اسماعيل أدهم « مطران شاعر العربية الابتداعي المقتطف ١٩٣٩ وهو أدق وأوفى بحث عن شعر خليل مطران (٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٧
(٤) الديماس — الحفير من الارض (٥) جواس : جمع جائس وهو الطائف في مكان ما

في حُرة بكر ضُلوعي سياجُها أراش عليها سهمه معتد قاسي
أعيد إليها كل حين نواظري وأُخفض من عطف على جرحها راسي

وأبلغ دليل على هذه الجرأة، هو شعره الجديد الذي وثب به وثبة، بعيدة، لا يقدر عليها إلا موهوب جريء، وأيـا قلبنا شعره، وجدنا تجارب شعرية لم يطرقها أحد قبله، وطلاقة بيانية وأسلوبية، وتحرراً من عبودية القافية، لا نعرف شاعراً سبقه إليه، وشاهد هذا التحرر في القافية قصيدته البديعة « فنجان قهوة »[1] التي دبجها في أواخر عام ١٩٠٢، وتعد هذه القصيدة في رأينا آية جرأته الفنية، والبذرة الأولى في الشعر المرسل وقد استهلها بقوله:

البحر ساجٍ والسكينة سائده والليل داجٍ والمدينة راقده
غمر الظلام هضابها وجبالها وقلاعها وصروحها فأزالها
شبه المحيط المستوى وبقاعه ما لا يرى من شمه وبقاعه
لا نجمَ في الأفق المحجب سافرٌ خلل السحاب ولا سراج ساهرُ
وإذا أصاخَ الى الجهات مطيفُ سمعاً فلا ركز يحس خفيفُ
إلاّ خُطا شبحٍ ضئيلٍ هائمٍ كالوهم يسري في مخيلة واهم

* * *

ولم يساير الخليل في مراحل حياته، وقدات شعوره، ودفعات جرأته، بل كبحت البيئة الظالمة وصروف الحياة، وآلام الرجل وغربته، خلائقه الفطرية الأولى التي ألمعنا إليها، فاتكأ كثيراً على نفسه. وقمع انفعالاته وعواطفه الجارفة، وذلك بقوة عقله وشدة محاسبة ضميره، وفي هذا يقول الخليل في حديث له:[2]

« في المعاودة وحدها تاريخ تكوين شخصيتي. فقد كان هنالك عاملان يعملان في نفسي: « شدة الحساسية ومحاسبة النفس » وبهذه المحاسبة، أدخل الخليل عنصراً جديداً على نفسه، وتمكن من إيجاد التوازن في شخصيته، وان قلل هذا العنصر من حرارة كثير من أعماله الفنية.

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٣
(٢) هامش صفحة ٦٤ الدكتور اسماعيل أدم — في كتابه « مطران شاعر العربية الابداعي ».

وآثار هـذه المحاسبة نجدها في بعض قصائده الوطنية التي كان يرمي من ورائها الى اشعال الروح الوطني ، وإن رمز ولم يصرح بهدفه وستر ولم يكشف ، وشاهد ذلك ، قصيدته « شيخ أثينة » [١] وهي نذير الى أهل أثينة الأذلاء لمقاومة استعمار الرومانيين الغاشم ، وقد اتخذ – كما يقول الأستاذ العزيزي [٢] « شيخ أثينة » ينفث في كل بيت من أبياته روحه المتألمة لذل قومه ، كما اتخذ من قصيدة « مقتل بزرجمهر » السابق التنويه بها ، أداة لإبراز جبروت السلطان عبد الحميد ، عند ما شاهد أحرار العرب يقتلون ، وشاهد السلطان عبد الحميد لا يرعى لهم إلاً ولا ذمّة ، لأنهم قد ارتضوا العبودية ، وسكتوا عن مظالمه ، ومما جاء في هذا القصيد قوله :

فلأنت كسرى ما ترى تحريمه كان الحرام وما تحلُّ حلالا
وليُذكرَنّ الدهرَ عدلك باهراً ولتحمدنَّ خلائقاً وفعالا
لو كان في تلك النعاج مقاومٌ لك لم تجىء ما جئته استفحالا

فالعهد الاستبدادي المظلم الذي عاصره ، وشهد فيه اشلاء المنقوم عليهم يثقلها الحديد وتطرح في أعماق البسفور ، ورأى قلم المراقبة التركية ينهال على الصحف . فتقفر حقولها وتغل أعناقها ، علمته هذه الأحداث المخيفة ، أن يكون ناقماً يكظم نقمته ، وثائراً يجتر ثورته [٣]

وتشهد قصائد كثيرة أخرى بتغلب عقله على عاطفته ، وهذه القصائد قد نعجب بها ، ولكنها لا تضرب بأوتارها في قلوبنا ، وهذا ما نلمسه في بعض قصائده الوجدانية مثل قصيدته « العالم الصغير مرآة العالم الكبير [٤] التي تحدّث فيها الى احدى حبيباته ، ولكنه مال عن مناجاتها الى فلسفة ما حوله من احياء الكون ، وقد استهلها بقوله :

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٦١
(٢) « المجلة الجديدة مايو ١٩٣٧ ، العدد الخامس من السنة السادسة مقال للاستاذ روكس زايد العزيزي بعنوان « خليل مطران وشعره »
(٣) المرجع السابق
(٤) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٩ — وكتابنا « الشعر المعاصر » ص ٧٢

أرأيت صوغ الدرّ في العقيان　هـذا حباب البن في الفنجان
فلكٌ تمثـل شمسُـه ونجومه　أفلاكنا في السير والدوران
ليلى أجيلي الطرف فيه تنظري　سر الـكيان وآية الأزمان
تجدي سماواتٍ وسمنَ عوالماً　فتـانة الابداع والاتقان

***

فهذا التعقل الذي ساد أكثر حياته ولوّن شعره ، هو ثمرة من ثمرات حياته الخاصة وضغط المجتمع الذي عاش فيه ، فاضطره الى مجاملة الناس في أفراحهم وأتراحهم ، ولهذا زخر شعره بالمديح والرثاء والتهاني في حفلات الزفاف ، وقد كان أكثر هذا الشعر متكلفاً لأنه لم يصدر فيه عن طبيعة أصيلة ، ولم يخف الخليل هذه الأعراض التي طرأت على فطرته الأولى ، بل عبّر عنها في قصيد له مرفوع الى ناشر الديوان ، ضمنه مجاملته الناس في الرخاء والبأساء ، واغتفاره زلاتهم ، وجريانه ، كما يقول على حكم النهى ، دون مغالبة القدر[1] ويقول الانصاف ان الخليل ، وان هادن في بعض الأحيان فانه لم يهادن مرة على حساب الحق والضمير ، كما كان يفعل أدباء جيله ، بل استمسك بالحق دائماً ، ولم يتقلب مرة أو يتذبذب ، وهذه فضيلة يذكرها له الجيل الحاضر الصاعد .

ونعتقد أن «العزيزي» في مقاله خليل مطران وشعره[2] ، الذي دبجه في المجلة الجديدة عام ١٩٣٧ ، لم يكن موفقاً في الحملة على الخليل لمجاملته الناس ، لأن هذه المجاملة ليست ملقاً كما ادّعى ، انما هي نزول على اعتبارات اجتماعية ، ما كان لمثل قلبه الـكريم الطيب، أن يزورّ عنها ، أو يتحلل منها .

ونحسب أن ما جاء في شعره في الأغراض سالفة الذكر ، لا تمثل حقيقته النفسية الأصيلة وإنما الذي يمثل هذه الحقيقة ، هو شعره الوجداني الخالص وهو في اعتقادنا شعره الخالد ، هو هذا الشعر الذي نبع من شعوره الدفـاق معبراً فيه عن خليقة أصيلة فيه مثل عاصفة الحب وتمثل لهذا بقصيدته « هل تذكرين » التي حللناها سابقاً ، أو معبراً عن انفعال الألم

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص٢٩٢ (٢) المجلة الجديدة « خليل مطران وشعره » للاستاذ روكس زايد العزيزي — (شرق الاردن) مايو ١٩٣٧ العدد الخامس من السنة السادسة .

واليأس في مثل قصيدته « الأسد الباكي » التي أسلفنا على ذكرها ، أو معبراً عن انفعالات نفسية وعواطف منوّعة ، كما في رائعته الباقية « المساء » [1] التي تحدث فيها عن حبه ، وآلام نفسه ، وجلال أحياء الكون حوله وقد لفّ خواطره في وحدة كاملة ، ومما جاء في هذا القصيد قوله :

متفردٌ بصبابتي متفردٌ بكآبتي متفردٌ بعنائي

شاكٍ الى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء

ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء

والبحر خفّاق الجوانب ضائق كمداً كصدري ساعة الامساء

والأفق معتكر قريحٌ جفنُهُ يغضي على الغمرات والاقذاء

وقوله في القدة الثانية .

يا للغروب وما به من عَبرة للمستهام وعبرة للرائي

أوَليس نزعاً للنهار وصرعةً للشمس بين جنازة الأضواء

أوَليس طمساً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلماء

أوَليس محواً للوجود الى مدى وإبادة لمعالم الأشياء

حتى يكون النور تجديداً لها ويكون شبه البعث عود ذكاء [2]

فهذا القصيد ، يعبر تعبيراً صادقاً عن حالة الرجل النفسية ، وهو يمدنا بمادة صالحة لتعرف شخصيته ، فهو يكشف بادي الرأي عن حبه المتأصل لحبيبته ، ولهفته لجمال الطبيعة ويبين لنا قواه التفكيرية وخياله الخصب ، وتمازج هذه القوى بقواه الشعورية ، وفضلاً عن ذلك فإنه يلقي للسيكولوجي ضوءاً ، على طابع شخصية الرجل ، فالقدة الأولى التي أتينا بها قريباً هي تعبير ذاتي عن آلام الرجل ، والقدة الثانية ، هي تعبير موضوعي عن الغروب وما يلابسه من خاطرات ، ومن هاتين ، يمكن القول بأن الخليل حتى في قطعه الوجدانية الذاتية ، يترك التعبير عن نفسه الى التعبير عن الدنيا الخارجة ، فهو في التعبير

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١١٩ (٢) ذكاء = الشمس

الذاتي يمثل الانطوائية ، وفي التعبير الموضوعي يمثل الانبساطية ، وفي الجمع بينهما في قصيد واحد يمثل الطابع المتوسط بينهما [١] .

فهو يجمع حظا من صفات الانطوائي ، وقسطاً من صفات الانبساطي ، حتى ليتعذر الحكم أي صفات هذين الطابعين تغلب عليه ، ومن صفات الطابع الأول ميله للتأمل ، والتفكير ومقدرته الأدبية ، ومثاليته ، وحبه للعزلة ، ومن دلائل ذلك : قصيدته الطويلة عيد الميلاد[٢] التي بلغت الأربعين بعد المئة بيت ، وفيها قوله :

أحببْ بكل عزلة يأوي إليها الرجُلُ
وإن تكن كحجرتي لا شيء فيها يجمُلُ
في هذه الغرفة أخلُو للمعاني خلْوَتي
أسكبُها في عَبراتٍ مُرَّةٍ أو حُلْوَة
هنالك الاستقلالُ في أسمى معاني الكلِمهْ
لا يَتَّهِمُ الانسانُ عينيهِ ولا يخشى فمَهْ
أستنزل الوحي لنفعِ الناس إن يُسِّر لي
وامنح العذرَ بلاَ ضنٍ وأكفَى عَذَلي
هنالك ألقى الله بل ألقى ضميري آمنا
وليسَ كلُّ ساكنٍ بيتاً يبيتُ ساكنا [٢]

وقد برزت نزعته الانبساطية في صور عملية شتى من البر والمؤاساة ، وحب الاجتماع وحب العمل ، والتساوق مع الدنيا المتغيِّرة ، وشواهد هذه النزعة في شعره ملموسة في كثير من الموضوعات العامة التي تناولها تناولاً عامًّا مقترناً بالفلسفة الخفيفة ، وفي تصويره الأشياء والشخوص تصويراً واقعيًّا ، وشعره زاخر بالآيات الشاهدة على هذا الاتجاه ، ونكتفي هنا بإيراد بعض ما جاء في قصيدة « السيدة التاجره » [٣] مثالاً على طرقه الموضوعات

---

(١) كتابنا « الشعر المعاصر » ص ٧٣ (٢) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢٤٦ إلى ص ٢٥٥
(٣) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٧٣

العامة ، وتحبيذه الإقدام على العمل ، ووصفه لسيدة غنية مهنت التجارة وصفاً واقعياً مقترناً بلمحات الجمال ، يقول :

أتاجرة النفائس والغوالي   من الطرَف المصوغة والحرير
لأنتِ عجيبةٌ بين الغواني   كعصرك بين خالية العصور
وهل عجبٌ كحانوتٍ غدونا   نراه مطلع القمر المنير

ثم يقول : ألا يا بنت عصرٍ ما لحيٍّ   به خطرٌ بلا عمل خطير
حطمْتِ القيد فيه ولم تراعي   سوى قيد الفضيلة في المسير
ورُمت من الحياة مرام عزٍّ   يشق على العصامي القدير
نعم وأبيكِ ما للطهر حصنٌ   سوى خفر الشمائل والضمير
وأيٌّ رام بين الناس مجداً   فليس يعيبه غيرُ القصور [1]

وواضح من هذا أن شخصية الخليل كانت مركبة ، ماجت بين الانطوائية والانبساطية ، وعاشت في جو المثالية ودنيا الواقعية ، وفي جوِّ المثالية أصابت الالهامات الخلاقة ، وعبّت من نبع الجمال ، وفي دنيا الواقعية ، جدّت وجاهدت ، ودانت بعبادة العمل ، ولكنها لم تتلوث بأوضار الحياة .

أجل ، انها شخصية فطرت كما أسلفنا على الحرية والجرأة ، وهامت بالحب والجمال ، كما أنها تحصنت بالذكاء والقدرة الفكرية ، وقوة التخيل ، وتصارعت في جوانبها القوّة الشعورية الدفاقة ، مع القوّة-الفكرية ، فتغلبت الأولى حيناً ، وتغلبت الثانية أحياناً ، وتوازنت القوتان في أغلب الأحايين ، ومصداق هذا نجده في شعره المتوشح بالبساطة حيناً وشعره الذي سيطر عليه العقل أحياناً ، وشعره الجامع بين العاطفة والخيال والفكر جمعاً متناسباً في أغلب الأحايين — والظاهرة الجثمانية تعزز هذا ، فالوجنتان العاليتان الجريئتان يخفف من عنفوانهما ، جبهته العريضة المفكرة ، وعيناه اللامعتان الذكيتان ، وفمه المنطبق الحازم ، وذقنه المربعة القوية التصميم ، [2] ولو شئنا الاستدلال بملامح الوجه على الغدة الصماء التي كانت تحكم شخصية هذا الرجل ، لاستطعنا القول ، بأن ذقنه المربعة . وحاجبيه

---

(١) القصور = العجز - (2) Character Reading by Fredrick Meier p. 150

كثي الشعر ، ووجهه الحاد ، وجمجمة رأسه الطويلة . هي من علائم سيطرة الغدة النخامية [١] وهي غدة التجلد كما يقول لويس برج في كتابه « الشخصية الانسانية » [٢] وهي الغدة الضابطة القائدة للنفس كما يقول آخرون .

وإذا تركنا هذه الدلالات على تركب شخصية الرجل ، وألقينا نظرة على أعماله في مراحل حياته ، ألفينا ما يؤيد صحة رأينا تأييداً قوياً ، فقد نجم الرجل في بعلبك البلد العريق حضارة ، وتلقى العلم على العلامة « ابرهيم اليازجي » وهو حجة في اللغة والأدب وكان أثره فيه كبيراً ، وتملى جمال بلاده ، هذا الجمال المركب المنوع ، حيث الجبال الشم ، والبحر الجياش ، والأرز الصلب الدائم الخضرة ، ونفر الى باريس ، لجمع الى الثقافة العربية ، ثقافة غربية ، ونهل من نبع أدباء الخيال ، أمثال الفرد دي موسيه وهيجو ، كما أغرم بأدباء الكلاسيك ، أمثال راسين وكورني ، وفي عودته الى مصر ، وطنه الثاني ، مهن في الصحافة فساهم في تحرير الاهرام ، واللواء ، والمؤيد ، وظهر نبوغه الأدبي في تحرير المجلة المصرية والجوائب ، وخلف بهجرة الصحافة تراثاً من الشرف والكرامة والأدب الرفيع ، وتحول الى الحياة العاملة ، فاشتغل بالمسائل التجارية والاقتصادية ، فكسب كثيراً وخسر كثيراً وانتهى به المطاف الى العمل بالجمعية الزراعية الملكية ، حيث اشتغل بمسائل الاقتصاد والحساب الجافة ، وصبر عليها ، ووفق فيها كل التوفيق كما اختير مديراً لادارة الفرقة القومية . وفي اثناء جهاده في سبيل رزقه ، تمكن الرجل من إغناء الأدب العربي ، بشعره الفريد ، ونثره الرصين ، وترجماته الضليعة ، التي ماجت بين ترجمة عيون أعمال الأدباء الرومانتيك ، والكلاسيك ، فقد ترجم ليالي الفرد دي موسيه ورواية هرناني لفيكتور هيجو كما ترجم لكورني مسرحيات « السيد » Le Cid وسينا Cinna وبوليكت Polyeucte وترجم لراسين رواية L'incomparable Bérénice ، وانتقل الى المسرحية الانجليزية العالمية ، فاهتم بترجمة روايات شكسبير الخالدة ، هاملت ، وماكبث ، وعطيل ، وتاجر البندقية ، والملك لير ، ولم يقف عند ترجمة هذه الأعمال الأدبية البحت ، بل تعددت نواحيه فاهتم بنقل الثقافة الاقتصادية

(1) Glands Regulating Personality by Berman

(2) Human Personality by Louis Berg

والسيكولوجية ، فترجم كتاباً في الاقتصاد السياسي ، وكتاب « تعليم الارادة »[1] لپايو Payot وكتاباً في التاريخ الطبيعي لفيكتور دوري Victor Dury وكانت هذه الترجمات ، كما يقول الأستاذ زكي طليمات لا مثيل لها من حيث سلامة العبارة ، وقوة الأسلوب ، ووضوح المعاني[2] وفضلاً عن هذه الترجمات فقد الف كتاب « مرآة الأيام » .

وهذه المجهودات الأدبية الجبارة هي شهادة بالغة على عقلية الرجل المركبة ، وحيويته الدافقة وعلى ايمانه بالعمل الذي ترنم بمجده بعد سن الأربعين بسنتين في إحدى قصائده الطيفة إذ قال :

يظل المرء في دنيا ه من شُغُل الى شغل
يُجدِّدُ مُنى ويَخْلِقُها على الأعوام كالحلل
ومن سنة الى سنة يعاودها بلا ملل
فمن أملٍ الى يأسٍ ومن يأسٍ الى أمل
ولا سعدٌ ولا سلوى ولا مجدٌ سوى العمل[3]

* * *

والحق أن الخليل مع تمثيله عصره أجلى تمثيل ، قد سما على دنياه ، وبزّ معاصريه من الأدباء في ثبات خلقه ، وكرم نفسه ، وتفانيه في خير الناس ، وكانت شخصيته مزاجاً فريداً من المثالية المحلقة في الخيال ، ومن الواقعية المؤمنة بالجهاد وحب العمل في الحياة ، فقد كان الرجل يسير بقدمين ثابتتين على الأرض ، ورأسه يطوف في السماء ، وقد عاش في سمائه شاعراً جريئاً مبتكراً ، وعاش على الأرض ، رجل دنيا ، كما يقولون ، يشاطر الناس أفراحهم وأتراحهم ويعطف على بائسيهم وفقرائهم ، وينقم من حكامهم الظالمين المتغطرسين ، وينادي بالشورى وحكم الدستور ، وهو لم يحمل على طبقة من الطبقات ، بل أحب كل طبقة ، واذا نزع في شعره الشعب لاستكانته للظلم فهو تقريع المحب ، الوامق الى إسعاده ـ وأما مسالمته

(1) L'Education de la volonté.

(٢) الكتاب الذهبي ، لمهرجان خليل مطران بك ١٩٤٧ ص ٦٣

(٣) قصيدة « تحية عام ١٩١٣ » — ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٠١

ومصافاته لكبار الرجال وذوي الجاه ، والأغنياء ، فراجع الى حذره وحبه في كسب قلب كل طبقة .

وقد عبر شعره عن حياته وعن نفسيته تعبيراً صادقاً ، فهو شاعر رومانتي يهيم بالحب هياماً ، ويشغف بالجمال شغفاً كبيراً ، وتبدع ريشته في مجالي الألم أيما إبداع ، وقصيدته الوجدانية « مثال في مرآة »[1] مثال للرومانتيكية المبدعة ، موضوعاً وأسلوباً لأنه أعرب فيها عن ألمه الحازب لموت حبيبته وبكائه عليها ، وانه ليقول في طلاقة أسلوبية ، وموسيقى مهجية :

كنا كغصني دوحة نبتا بل زهرتي غصن تعانقتا
بل حبتين بزهرة نمتا وتساقتا لما تعاشقتا
نار الغرام مع الندى العذب

تمت سعادتنا على قدر فسطت عليها غيرة القدر
أودت معاً بالعين والأثر واستبقت الباقي من الخبر
ذكرى وتبصرة لذي لب

ثم يقول : ماتت وكل ضاحك جذل ما للورى ولموت من جهلوا
لا قلب يبكيها ولا مقل بل نبلها واللطف والأمل
وشبابها وطهارة القلب

ماتت ونور الفجر مرتسم في الماء فهو أغر مبتسم
والروض زاه بالندى شبم والطير تصدح فيه والنسم
والزهر والأغصان في لعب

ومن أروع قصائده الرومانتيكية التي يصف فيها ألمه في مرضه قصيدة «الأثر الباقي»[2] وهي في الحق من آثاره الخالدة ، وقد جاء فيها قوله :

لله في صدر وهى وتقوست منه العظام
خاو كجوف الغار تملأه المخاوف والظلام

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٨٢ (٢) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٨٨

إلاّ سراجاً حائلاً فيه يُنير بلا ابتسام
روح تضيء على ضريح في صميم القلب قام
تحنو عليه كأنه مهد لطفل فيه نام

ومثل هذه اللوعة نجدها في شعره الواقعي الرومانتيكي ، وبخاصة شعره الوطني ، وأبدع ما وقفنا عليه مثالاً لوجده وألمه ، تصويره أبناء بيروت الذين حصدهم الطليان بمدافعهم في عام ١٩١٢ في قصيدته «اهانة بيروت» [١] التي قال فيها :

بلادي لا يزال هواك مني كما كان الهوى قبل الفطام
أُقبّل منك حيث رمى الأعادي رغاماً طاهراً دون الرّغام
وأفدي كلّ جُلمود فتيت وهَى بقنابل القوم اللئام
فكيف الشبلُ مُختبطاً صريعاً على الغبراء مهشوم العظام
وكيف الطفلُ لم يقتل لذنب وذاتَ الخدر لم تهتك لذام

ومع رومانتيكيته المجنحة والممتزجة بالواقع ، فلم يخل شعر الخليل من بذرات الواقعية ، ونلمس ذلك في شعره القصصي ، وشعره الاجتماعي وشعره الشعبي الذي كان يقرع فيه الشعب لاستنامته على أعمال الغاصب ، وعلى عسف الحاكم ، في أسلوب موضوعي ، وأجل ما وقفنا عليه في هذه الناحية مقطوعته « دمعة على الشام » [٢] في أيام الطاغية جمال ، وقد جرت في أسلوب واقعي ، تجرّد من الذاتية ، وفيها يقول :

يرقى الذرى ويعيش مغتبطاً شعبٌ على أعدائه خشنُ
شعب يحب بلاده فإذا هانت فما لبقائه ثمنُ
تبكي العيون «الشام» راسفةً في القيد محدقة بها المحن
أتعزّ أمصار بفتيتها وتهون تلك بهم وتمتهن
أشقى اليتامى في مرابعه شعبٌ يعيش وما له وطنُ

* *

هذه إلمامة عاجلة عن الرجل الحر الجريء الذي فقدته البلاد العربية ، الرجل ذي البديهة التي كانت تغلي كالمرجل ، والخاطر الذي ينهل كالمطر [٢] الرجل الذي حاولت أحداث الحياة ونوازلها أن تخمد من شعوره الوثاب ، وتطفىء من عزيمته الوقادة ، فبقيت مشاعره وعزيمته

(١) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٢١
(٢) من أقوال شاعر مصر — حافظ ابراهيم — كتاب السندوبي « الشعراء الثلاثة »

كالجمرات المتقدة وإن غطتها ذرات الرماد ، الرجل الذي عاش عاكفاً على محراب أبولو ، وسادناً من سدنة الشعر المبتكر الجديد ، فأوسع صدر العربيـة للخيال الخلاق ، وأفسح فيه للقصص والتصوير [١] وعلـم جيلاً من الأدباء معنى الشخصية الأدبية ، والطلاقة الفنية ووحدة القصيد ، فتأثرت به كوكبـة من الموهوبين أمثال خليل شيبوب ، والدكتور أحمد زكي أبو شادي ، والدكتور ناجي ، وإيليا أبو ماضي ، وإلياس فرحات ، وعمر أبو ريشة وغيرهم كثيرون ، تأثروا به تأثراً موضوعيـًا أو فنيـًا أو توجيهيـًا ، فتركت روحانية هذا المعلم — الجبار وقوته الفنية في نفوسهم أبعد الآثار، وما قام به هؤلاء الأفذاذ من تجديد، وما تناولوه من موضوعات ، إلا الرقي الطبيعي لرسالة الخليل [٢] وفي ذلك يقول الدكتور أبو شادي في آخر ديوانه « أنداء الفجر » :

« عرفت محبة هذا الرجل الإنساني وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، اذ تعهدني صغيراً بقيت أهتدي بهديه ، وأثره في شـعري أثر عميق لأنه يرجع الى طفولتي الأدبية ، ويصاحبني في جميع أدوار حياتي ، وإذا كان استقلالي الأدبي متجلياً الآن في أعمالي ، فهو في الوقت ذاته ، يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك الأستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة الوفية ، ناظرة الى آثار الصبا والى معلمي الأول بحنان عميق . . . . » [٣] .

*

هذه لمحات من آثار الخليل في الأدب والأدباء ، وهذه بعض سماته العالية المتسامية ، وإنا لنشعر شعوراً خالصاً بالألم العميق ، لحرماننـا من شخصيته وإن كنا نجد شيئاً من العزاء الحق في تراثه الانساني والأدبي الباقي ، وفي تتويج رسالته التجديدية الجريئة قبيل موته ، وحسب الرجل رضواناً أن تبقى الشعلة الفنيـة التي أوقدها ، هادية وموحية إلى التجديد ، بل التجريب في النثر والشعر .

— أثاب الله مطران كفاء ما قدم من ثمار ، وفتح القلوب لفنه النابغ ورسالته الخلقية النبيلة .

— وفي ذمة الفن ونور الخلد .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

(١) من أقوال شاعر مصر ، حافظ ابراهيم — عن كتاب السندوبي : « الشعراء الثلاثة ص ٢٥٤ »

(٢) مقال في آخر ديوان به أنداء الفجر — للدكتور أبو شادي بعنوان « مطران وأثره في شعري » من ص ١١ — ١٢٨ الطبعة الثانية — يوليو ١٩٣٤

(٣) ديوان أنداء الفجر — ص ١٢٨

[قصة]

هذا أخي

أقله القطار إلى القاهرة ، وكان قد عيّ بالنظر إلى ما ينتشر تحت بصره من ألوان لاتماز ، فهذه أرض اخضرت بالنبت ، وتلك بقرات عجاف وسمان افترشت الغبراء تلعب أفواهها على اجترار ، وهؤلاء جماعات من الرجال والصبيان في أسمال قد أووا الى ظلال الأشجار على مقربة من سوامهم يصيبون حظًّا من طعام وآخر من راحة .

فألقى برأسه الى متكأ لين ، يجده الراكب في الدرجة الأولى أو الثانيــة خلف ظهره ، وشخص ببصره الى سماء العربة ، ولم يكن الى جانبه أحــد يشغله أو يشغل به ، ففزع الى أفكاره يأنس بها ، ومرت الذكريات تباعاً ، وقد وجم لهــا بادي الرأي واستوحش ، ثم بشّ وهشّ ، وهجس به هاجس من شر فانتزع رأسه من مقره ، وعاد يلهو بالنظر الى فضاء الله وما ضمّ .

والقطار موسع الخطو ، يسمى بما فوق ظهره في مساربه ومسالكه ليبلغ مبلغه فيريح ويراح ، يتلبث حيناً ببعض المدن يأخذ منها ويعطي . والفتى لاهٍ بهذا مشغول به . وكان الوحدة في معزله أوحشت نفسه فنشد الأنس في تلك الجموع على أرصفة المحاط مصعدين منحدرين . وفيما هو منقلب الى مكانه بعد وقفة إلى النافذة رأى قبالته عذراء يكاد يجمعه وإياها العمر ، أما عنه فهو ابن العشرين والسبع ، وأما عنها فرد ذلك إليها ، وستعلم نبأه بعد حين .

ويدهشك أن يكون هذا جائل خاطره حين رآها لقد اطمأن الفتى للفتاة حين وجدها الى جانبه ، وشغفه مرآها ولما يستقر به المقام ، ولكن الفتاة بدت غير قيئة ، متشحة في غير وشاح الفتيات ، وخاف الفتى فاصلة السن أن تفرق ، فكان هذا أول ما شغل باله . فسكنت إليه نفسه حين بدا له من أمرها ما قدر ، وزاد من سكون نفسه أن رأى الأصابع عاطلة .

جلس الفتى ، وقد ملأ الله عليه فضاءين ، فضاء المكان وفضاء النفس وكان وسيماً على الرغم مما غبّر منه السفر ، حالياً بما يفقده الكثير من الفتيان . وكان الليل قد أظلّ الكون بجناحيه ، وأضاء لهما المصبــاح المركوز في عل تلك الأشبار التي اتسعت لهما من العربة .

ومرت دقائق صامتة إلاَّ من وجبات اضطرب بهـا قلب الفتى ، فحرَّك لهـا قدميه يضرب بهما الأرض في رفق يستر ماوهم أنه مسموع مفضوح . وأحسَّت الفتاة ظاهره وكشفت عن باطنه،ولم تـكن ذات قلب أغلف فتحركت للقول حين بصرت به غير شجاع ولا مقدام .

فسمرا في حديث طيب محمود ، عرف الفتى بعده أن الفتاة تمتهن التعليم في مدارس القاهرة ، وأنها قاصدة إليها بدء العام . وعرفت الفتاة أن الفتى مهندس عائد من السودان ، بعد أن شارك في عمل قضى من أجله هنـاك سنين ثلاث أو تزيد قليلاً . وافترقا حين بلغا القاهرة بعد أن عرف كل منهما أين يقيم الآخر .

*

شبت سعاد حين شبت على هوى لم تعرف كيف تدفعه ، ولم تملك لزمام أمرها مقاداً. وكانت ذات حظ من جمال وآخر من مال . ولـكنها لم تملك الى هذين عقل الفتاة الركينة الرزكنة . فحسبت الهوى تسليماً ، والحب تفريطاً . فأعطت لفتى هواها وحبهـا ما أراد ، وعادت هي منه ملء البطن . واختفى المحب المغرر ، وكان من النازحين الى القاهرة للراحة واللهو ، وكما ضلـت سـعاد الجادَّة ضلـت عن أن تعرف عنه شيئاً ، غير أنه جار وأنه ذو يسار وأنه محبب إليها ، ثم هو كما أفضى إليها عند أول لقاء كان على أن يكون زوجاً بعد حين .

وخشيت الفتاة على نفسها العطب ، وهلعت الأم حين بصرت بالحزن يدب في جسم ابنتها ، والذبول يطوي نضرتها ، وخافت أن تفقد وحيدتها بين عشية وضحاها . فنسيت خطباً بخطب ورحلت بابنتها الى تركيا حيث مهد أبيها ولحده . فقضت هناك عاماً وبعض عام وعادوا من هناك ثلاثة : الأم والفتاة وهذا الصغير الذي مدَّ الله في أجله وأصبح بعد مهندساً ، وقد ودعناه منذ قليل على محط القاهرة في أوبته من السودان .

*

ونزح حسين من القاهرة وعاد إليها ، وانتهى إليه خبر الفتاة التي أحسنت إليه وأساءهو إليها فأهمه ، وجهـد أن ينسى فلم يفلح . وقد همَّ أن يخطو الى ذلك البيت خطوة شريفة لـكنه أعجله البرق برسالةٍ داعية . فخفَّ الى الصعيد . وهناك وجد عمّاً يحتضر . وفتاة تتشوف إليهـا الجيوب قبل العيون ، لأنها خالفته على ماله ، ووجد العقد ينقصه أن يذيله باسمه ، ففعل .

وشغلت القرية الزوج فأخلد الى المقام فيها ولكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يلم بالقاهرة كلما ذكر حاجة له بها ، وهو حين يلم يذكر أن له فيها زوجاً وابناً لا يعرفان من أمره شيئاً .

*

لقن الفتى المهندس عن أمه أن أباه مات عنه وهو في بطنها ، فكان يحزنه ذلك ويهم نفسه ، ثم يعرف لأمه بعد جدته برها به وحدبهما عليه فيحجب هذا حزنه على أبيه بعض الشيء .

هذا وذاك ما جال بخاطر الفتى وهو في أيبته من السودان . وقد عرفت الآن ما أهمه فأوحشه ، ثم ما راح له فهش وبش . ولكن شيئاً لم يصلك نبؤه . هو ذلك الهاجس الذي نزع الفتى فقفز معه من مكانه الى النافذة .

عاد المهندس من السودان يحمل رجاء ورجاء . أما أولهما فذلك التوفيق الذي هيء له، فهو يرجو بعده فتحاً ونصراً ، وأما ثانيهما فتلك الفتاة التي لقيها في القطار فرجا أن تكون له زوجاً .

وقد خف الى حيث أمه ، وهو مزمع أن يفجأها ببشرى حضوره سالماً ، وأن يحدثها حديث توفيقه وما عزم .

ولم يكد يودع فتاته حتى استقل سيارة أخذت طريقها الى الجيزة حيث يقوم بيت ، هو كالقصر الصغير تحيط به حديقة جميلة تخذتها الأم ملهاها فشغلت بأمرها مع البستاني تشير عليه فيعمل . وعرف الناس المحيطون لها هذا الذوق فحمدوه لها وشكروها عليه . وزار الكثيرون منهم الحديقة ينقلون عنها ويحكون صورها .

*

وصل الفتى الى البيت مع الصبح فأنكره ، رأى الحديقة غير الحديقة ورأى المتسلقات أعواداً يابسة والشجيرات قد امتدت أغصانها في غير وجهة . فولج يدخل فرأى أرضاً سوداء لا تمسك غير تلك الشجيرات المشعثة .

هنا ذكر ذلك الهاجس فوجب له قلبه ، وضاق به صدره فخطا خطوات . فإذا خادم عجوز ما رأته حتى دمعت عيناها وما هم أن يسألها حتى وجد الجدة تشرف عليه من مخدعها وهي لا تقوى على القول . فاغرورقت عيناه بالدمع وما يعلم ،وسمع مع نشيجه نشيج ونشيج أفاق الفتى بعده وقد علم كل شيء ، علم ان الأم ودعت منذ أشهر أشوق ما تكون إليه ،

وان الجدة ضلت لُبَّها فلم تملك أن ترسل اليه . وأن ذوي قرباه لم يروا أن يزجوه بعد أن علموا أن أوبته قريبة .

*

ومضت أشهر والفتى في شغل عن الفتاة لا تعلم من أمره شيئاً فعدته كالفتيان لا يسلِّم حتى يودع ، فحاولت أن تنساه ولكنها لم تقو ، وكانت آلت على نفسها ألاَّ تكون سبَّاقة الى الاتصال به والسؤال عنه . وذلك شأن للنساء معهود غير أنها حين طالت غيبته خرجت عن معهودها وسعت اليه سائلة عنه .

وقد عنَّ لها أن تلقاه حيث يعمل . فسعى الحاجب بين يديها الى غرفته يراها إحدى قريباته . وهناك الى مكتب انتثرت على صفحته أوراق وجدت فتاها مقبلاً على ورقة بين يديه يجري بين أسطرها قلمه غير متلبث . وفيما هو يرفع رأسه يملأ عينيه من جمال زهرة أودعها واعية زجاجية أمامه رأى فتاته وما كان أحسن بها حين خطت اليه .

فنهض اليها ووصلت هي سعيها اليه فالتقيا غير بعيد من مقعده . ورمت ببصرها فرأته خطاباً ما كان يكتبه . فازدحم رأسها بالبلابل . وامتدت يدها غير مريدة الى الخطاب وأمكنت عينيها من أسطره . فاذا اسمها أول كلمة فيه ، واذا المكتوب لها ، فيه العذرُ وما كان كتب غيره .

وكما أسرعت الفتاة الى اختطاف المكتوب أسرعت الى رده . والتفتت الى الفتى فرأته واجماً حزيناً ، ورأت دموعه تسيل ، ثم سمعته يبكي فأسعدته ما وسعها أن تسعده . فأخذ الفتى بعد حين يحدثها حديثه في نبرات حزينة ، وما أن جره القول الى الحديقة حتى قام الى الزهرة فانتزعها من واعيتها وأكب عليها يلثمها في حرارة ، فبها فُتنت أمه ولها عاشت مُستبتة .

*

وجرت الأيام تؤلف بين القلبين وتوفق بين الفؤادين وأنس كل واحد منهما بصاحبه أنساً لا تصفه ، وحملا في قلبيهما شيئاً أغلى من الهوى وأجل . فقد حرص على أن يخلو اليها ، كما حرصت هي على أن تخلو اليه يعمران هذه الخلوة بسمر محبب الى قلبيهما بريء . الفتى يريدها الى جنبه ، والفتاة تريده الى جنبها وما بهما ملل ولا سأم ، ولكنه مطعوم له حلاوته على كل حاسة والقلب باللقاء سعيد .

وسعت الفتاة مع الفتى الى قبر أمه مع الجُمع في الصباح يجلسان اليه ساعة من نهار ثم يعودان . كما سعت معه الى بيت جدته تعني معه ببعض شأنها . ولم يبق إلاَّ أن يضم الفتى اليه فتاته في بيته ضمَّا رابطته الزواج .

وغاب « حسين » عن القاهرة غيبة طالت . وما نحب أن نذكرك به فما الحديث عنه ببعيد ، ثم ألمّ بالقاهرة زائراً . ويعنيني أن أسر اليك أنه وفد الى القاهرة هذه المرة لا لشأن من تلك الشئون التي تتصل بعمله . ولكنه رأى رؤيا أفزعته تتصل بماضيه مع الفتاة التي نكبها ، وأحسّ واخذاً من ألم يكاد يصمي قلبه ، وجد حادياً يحدوه الى القاهرة لجرى في إثره اليها . وما أن وطئتها قدماه حتى وجد باعثاً من شوق ينهض به الى تعرّف أمر فتاة أمسه . فنهض ولم يمض غير بعيد حتى عاد بعلم ما لم يكن يعلم ، ولكنه علم أهمه وحزنه ، فقبع في البيت لا يخرج . وكان اليوم خميساً تتلوه جمعة .

فنهض مع الغد مبكراً ونهضت معه ابنته . وخرجت هي لشأن ظنه يتصل بعملها في القاهرة ، وخرج هو لشأن ظنته يتصل بأرضه وتجارته .

*

قد لا يجد الآثم المنيب غير رجام يقف اليها يذرف عندها دمعة هو واجد الراحة بعدها من ألم يرزح تحت عبئه . وما بك أن تحول بين باكٍ وبين ما يبكي عليه ولكن بك أن تعرف السبب إن جهلته .

وهذا ما أراده المهندس حين وجد مع الصباح الباكر رجلاً يجثو على قبر أمه يكاد يدفن في الأرض وجهه يبكي في صوت مسموع . وحسبه الفتى أخطأ فقيدَه . فتقدم إليه والفتاة في إثره ، ومسح بيده على كتفه وكأنه يريد أن يستنهضه . ورفع الرجل رأسه بعد لأي ، فرأى فتى وفتاة حجب الدمع على عينيه فلم يعرف منهما أحداً ، ولكنه ما كاد يرفع رأسه حتى سمعها صرخة من الفتاة باسمه ثاب معها الى بعض رشده ، فنهض واقفاً ، فاذا هو يستقبل ابنته مشدوهة حائرة . ويستقبل الى جانبها فتى أُوحي إليه أنه ليس إلاّ ابنه ، وكان مصدوقاً .

وعرف الأب أن الفتى والفتاة على هوى وحب ، فوجم ساعة مطرقاً ثم رفع رأسه بعينين اخضلتا بدمع وأراد أن يتحدث واقفاً فخذلته قدماه فجلس على القبر ومضى يقول ويبين ! .

ثم نهض راجعاً من حيث أتى تاركاً لهذين الأخوين ما يريان

وما يعلمنا أن واحداً من الثلاثة صحت له الحياة بعد هذه أو أنس بها

ابراهيم الابياري

باب الأخبار العلمية

ماذا استفاد فن الطيران من الحرب العالمية الثانية ؟

قال الأستاذ « لو » العالم الانجليزي المشهور إن المباحث العتيدة في الذرَّة سوف تقضي على فواجع الطيران ، والكوارث الجوية التي يروع بها العالم من حين الى آخر ، إذ تدل المباحث العلمية الحالية الدائرة بعيداً عن قائمة المحظورات السرية ، على نجاح مختلف في آفاق جمة سيؤدي الى زيادة الطمأنينة والثبات في فن الطيران وقت السلم . وذلك لأن في معاهد المباحث العلمية البريطانية كثيراً من الأجهزة الكهيربية الصالحة للطيران التجاري . وستكون السرعة من ضرورات نجاح الخطوط الجوية في المستقبل . لأن السائح العصري يصبو الى الانتقال عاجلاً من مكان الى آخر ويستشيط غيظاً من إضاعة وقته سدًى في الانتظار العقيم . ومن دأبه الجنوح الى المجازفة أكثر من ميله الى التلكؤ ريثما يصفو الجو . وقد أفضى استخدام الأجهزة الكهيربية الى حل كثير من المعضلات المتعلقة بسلامة الطيران . فقبل نشوب الحرب العالمية الثانية الماضية ، لم يكن لدى قادة الطائرات وسائط متقنة لتقدير أبعاد طائراتهم عن الاراضي التي يحلقون في أجوائها ، تقديراً صحيحاً ، ولا وسائل لمعرفة مواقعهم من الجو معرفة مضبوطة . أما الآن فقد اخترعت براعة العلماء البريطانيين وعبقريتهم ، مقاييس للارتفاع الجوي ، وبوصلات لاسلكية أوتوماتيكية ، فأجهزة لتقدير أبعاد الأهداف ، وغيرها من الأجهزة التي تبعث الطمأنينة في أفئدة الطيارين . تلك الطمأنينة التي تحققت على أيدي رجال السلاح الجوي البريطاني . ففي الطيران التجاري والخصوصي ، حيث تكون نفقات الادارة ، ذات شأن خطير حقيقة تتبين منافع مقاييس وقود الطائرات . وقد حلت الآلات الكهيربية المضبوطة محل المقاييس العتيقة غير المتقنة لذلك الغرض . فغدا الطيار يتمكن من تقدير ما يوجد في صهريج طائرته من البنزين ، في أي وقت كان في أثناء رحلته . ومن وسائل الطمأنينة الحديثة أيضاً ، الجهاز الكهيربي الذي يدل قائد الطائرة على مقدار الجليد الذي يتراكم على مروحة طائرته وأجنحتها ، إذ يبين له متوسط تكدس ذلك الجليد عليها فيتمكن الطيار حينئذٍ من تغيير اتجاه طائرته ، حينما يرى ذلك التغيير

واجباً ريثما تتحسن الأحوال الجوية . وتسنى أيضاً باستعمال كل من الجهاز الكهربي الخاص بضبط عملية مزج الهواء ببخار البنزين في محرك الطائرة ، وبجهاز منع فرقعة البنزين، السيطرة الاوتوماتيكية التامة على ما يستهلكه محرك الطائرة. وبذينك الجهازين يتاح تنظيم استنفاد الوقود . وحتى اذا تولدت الفرقعة في اسطوانة أو اسطوانتين أو أكثر ، زيدالوقود الممزوج بالهواء الزيادة التي تمنع فرقعته . ويقدر المطلعون على هذه الحقائق ، الوقود الذي يمكن توفيره بهذه الوسيلة الحديثة ، بأكثر من الطريقة القديمة بنحو العُشر . وهذا في عرفهم ، قدر يكفي لدفع ثمن الآلة المشار اليها . ثم إن البوصلة المغنطيسية القديمة قد بطل استعمالها ، إذ حلت محلها ، البوصلة الكهربية الجديدة التي تعين اتجاه الطائرة وموقعها . وثمة جهاز لمنع تصادم الطائرات بعضها ببعض ، قوامه الصمامات الكهربية ، سيكون له شأن عظيم في كل ناحية . وهو يركب على لوحة آلات الطائرة حيث يقوم دائماً ببيان مواقع الطائرات بنسبة بعضها لبعض ، وذلك في نصف قطر دائرة معينة .

طائرات مارك Marque

أما طائرات مارك التي تمت تجربتها من كل الوجوه ، فقد تبين نجاحها عملياً غاية النجاح . وهي من مخترعات ڤوت وسيكورسكي[1] Sikorsky & Vought. وقد يصلح هذا الصنف نموذجاً لهليكوبتر المستقبل . وهذه الهليكوبتر تشبه الأوتوجيرو من بعض الوجوه ، ولكنها تختلف عن الأخيرة بخلوها من المروحة الأمامية ، إذ تحتوي على اسطوانة رحوية مستقيمة مثل طارة أو طارات التربين تدور في سطح مستو مؤلف من الفولاذ المجوف يبلغ قطره ٣٦ قدماً . وهذه الاسطوانة ترفع الطائرة ، لخلوها من الأجنحة . ثم تدفعها الى الأمام أو الى الخلف أو الى أحد جنبيها ، وفق إرادة قائدها . وأحدث مزاياها وأغربها ، اسطوانتها المستقيمة الرحوية الصغيرة المركبة في ذنبها تركيباً عمودياً . وهي ثلاثية الريش . ويبلغ قطر كل ريشة منها سبع أقدام ونصف قدم ، تدفع الطائرة دفعاً جيداً في زوايا قائمة نحو الجبهة الأمامية للطيران .

وبهذا الجهاز تضبط القوة الرحوية للآلة . وبوساطته أيضاً تستطيع الطائرة

(١) هو ايجور سيكورسكي — مهندس متخصص في الطيران ، روسي — أمريكي ولد سنة ١٨٨٩

التحليق في الجو. أما كون هذا التحليق أمراً حقيقيًّا للغاية، وليس مجرد حركة أمامية بطيئة، فقد ثبت ثبوتاً مؤيداً بالبرهان، إذ رُفعت الطائرة فوق سطح الأرض مسافة بضع أقدام، قصد تغيير عجلاتها التي تنزل بها على الأرض. ثم أبيح لركابها الصعود اليها بسلم من الحبال، دُلي من فوق الى تحت، بينما كانت الطائرة محلقة في الجو على بعد أقدام قليلة من الأرض. أما الاسطوانة الرحوية التي في الأوتوجيرو فلا يديرها المحرّك إلاّ عند قيام الطائرة من الأرض. وما برحت طائرة الهليكوبتر ذات مظهر بدائي معين. ولكننا نتوقع اختفاء هذا المظهر، بتوالي نماذجها. ويرجح أيضاً زيادة سرعة طيرانها إذ أنها حالياً لا تزيد على مائة ميل في الساعة. لأن هناك عقبات أساسية تحول دون بلوغ مدى سرعتها، مثلها في الطائرات العادية. ومع ذلك لا يبعد أنها ستصل في السنوات القليلة القادمة الى ١٢٠ أو ١٥٠ ميلاً في الساعة من دون أي خفض كان لقوة ارتفاعها العمودي أو تحليقها الجوي.

ولقد كان هذا الصنف من ضمن النماذج الأولية للطائرات التي حاول الناس صنعها (كما أسلفنا القول في نبذة أخرى) غير أن تعاقب الفشل في تحقيق هذه الأمنية، جعل المخترعين يصدفون عن حل معضلتها. رغم المكافآت العظيمة التي كانت تعرض عليهم جزاء تقديم تصميم عملي لأجلها.

***

ومن بواعث الاغتباط أننا أصبحنا نرى صوراً لطائرات منها حاملة البريد، تحط على سقوف البيوت والمتاجر. ونشاهد تجاراً من صميم الريف يدخلون طائرة واقفة عند أبواب بيوتهم، فتقلهم الى متاجرهم.[1] فصرنا نعتقد أن هذه المناظر وأمثالها ليست من نسج خيال المستقبل بل هي حقائق راهنة من أطوار العصر الحديث

الجراحة منذ ٤٦٠٠ سنة

عرضت حديثاً الجمعية التاريخية لمدينة نيويورك ومتحف بروكلين، على مجمع علماء الطب في نيويورك، نسخة منقولة عن رسالة طبية قديمة يرجع تاريخها الى ٢٦٥٠ سنة ق.م كتب أصلها جرّاح مصري قديم. وذلك على ورقة بردي. وتعرف هذه الرسالة باسم مكتشفها إدوين سميث. وقد وصفها المرحوم الدكتور جيمس هنري برستد

(١) الكاتب — راجع مباحث العلم والعمران التي نشرتها في المقتطف سنة ١٩٢٩

العالم الأثري في الفنون والحضارة المصرية القديمة ، بأنها (أقدم نواة للخبرة العلمية الصحيحة في العالم) .

ولا غرو لأن هذه الرسالة كتبت في زمن قريب من عصر تشييد الأهرام . وفحواها يدل على حذق قدماء المصريين لعلم التشريح المؤسس على تشريح الجثث البشرية ، ويثبت أن مؤلفها كان ملماً بأن الدم يتدفق من القلب عن طريق العروق الى أجزاء الجسم كافة : وقد وردت في هذا النص كلمة « المخ » لأول مرة في الكتابة .

***

ورسالة البردي هذه مقسمة ثلاثة أقسام خص الجزء الأول منها بالطب الظاهري والجراحة . وعنوان الجزء الثاني « رقيات[1] لطرد ريح عام الآفات المرضية » والجزء الثالث خاص برقي « تحويل الشيخ شاباً في العشرين من عمره » . عوض جندي

(١) الرقية — أن يستعان للحصول على أمر بقوى تفوق القوى الطبيعية في زعمهم أو وهمهم وجمعها رقي ، ورقيات .

ابراهيم المازني

قضى الكاتب الكبير الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني نحبه في مساء ١٠ أغسطس ١٩٤٩ بين الألم والحسرة لفقدان مصر حاملاً من حملة لواء الأدب الرفيع وخسارتنا في موته خسارة أدبية كبيرة ، ولا يخفف منها إلا ما ترك الرجل من تراث أدبي باق فان بحوثه في « حصاد الهشيم » وروايته « ابراهيم الكاتب » وترجماته الدقيقة البارعة ، سوف تبقى شاهداً مبصراً على نبوغه وفوقانه ، وعلى طواعية اللغة لقلمه الذكي اللماح .

ويُعدّ الأستاذ المازني مثالاً للأديب المجاهد في العصر الحديث ، فقد مهن التدريس في بداية حياته بعد تخرجه من مدرسة المعلمين العليا واشتغل بالصحافة طوال حياته ، وتقلب بين مختلف الصحف وصدر فيها جميعاً عن عفة واتزان ، والحقل الذي تجلى فيه نبوغه هو الحقل الأدبي ، وفيه أنبت أجمل الثمار وأشهاها ، ولقد امتاز المازني ، بأسلوب فكاهي منقطع النظير بين كتاب العربية .

رحمه الله ، وأثابه كفاء جهوده الأدبية الباقية .



مكتبة المقتطف

البرقيات للرسالة والمقالة

للمرحوم العلامة احمد تيمور باشا — لجنة نشر المؤلفات التيمورية بمصر

أصدرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية أخيراً كتاباً جديداً من مؤلفات العلامة الكبير احمد تيمور باشا رحمه الله ، عنوانه « البرقيات للرسالة والمقالة » وهو نوع جديد في التأليف في هذا الموضوع — وقد قدَّم له سعادة الشيخ الجليل خليل ثابت بك رئيس لجنة النشر بمقدمة هذا نصها — قال حفظه الله : —

خلَّف المغفور له العلاَّمة احمد تيمور باشا من كنوز العلم والأدب والتاريخ وسائر الفنون ما يشهد له بسعة الباع وغزارة الاطلاع ، وأتحف الناس جميعاً متأدبين ومتعلمين باحثين ومطالعين بمكتبة فيها مجموعات من أنفس ما جمع الجامعون البارعون ، منها ما تم طبعه ونفع نشره سواء في حياته أو بعد ما قبض الى ربه بوساطة « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » وهي التي أتشرَّف برئاستها .

ولقيت اللجنة من اقبال أهل العلم وأنصار الأدب ما دفعها دفعاً الى مواصلة هذه الخدمة الأدبية التي اضطلعت بها في سبيل نشر الثقافة العامة في مصر وغير مصر .

ومنها ما لم يرَ النور بعد وهو ما تداركته هذه اللجنة وأحاطته بعنايتها ونشرت بعضه تباعاً في فترات بعضها قريب وبعضها الآخر بعيد ، مقيدة في ذلك بعملها الشاق الكبير وبحثها العميق ومراجعتها الدقيقة . ولا غرض لها من ذلك كله إلاَّ أن تقفو أثر الفقيد الذي لم يتعلَّم العلم ليحبسه في صدره أو ليقفه على نفسه، بل كان علمه وسيلة لإرشاد الناس كما كانت خزانته أداة لإنارة العقول وهداية الباحثين .

وقد اجتمع لدى اللجنة الى اليوم من كتبه التي وقفت على طبعها واخراجها للناس خمسة كتب من أمتع الآثار وأروعها وأنفعها في مقدمة ما خلفه الفقيد من كنوز قلبه ولسانه وفكره وبيانه .

وهذه الكتب الخمسة هي : « ضبط الاعلام » و « لعب العرب » و « تاريخ الأسرة التيمورية » و « الأمثال العامية » و « الكنايات العامية » .

وتتبع هـذا القدر من الكتب بكتابها الجديد : « البرقيات للرسالة والمقالة » وهو عنوان غريب لموضوع غريب يضطلع به وحده ، بل هو الموضوع الذي تتألف اليـوم له ولسواه من البحوث العلمية لجان أدبية ومجامع علمية أهلية وحكومية .

ونظرة واحـدة الى هذا الكتاب وما سبقه من كتب للفقيد كافيـة للاقتناع، بأن الموضوعات التي طرقها في حياته لم تكن من النوع المعتاد، بل كانت فترة ندرة كمخطوطاته التي تقتضي جهداً وصبراً لا يقـدر عليهما سوى الذين وقفوا أنفسهم وجهودهم على خدمة العلم والأدب .

ومن أجل ذلك قدّرت اللجنة هذه المؤلفات قدرها وأحاطتها بمـا تستحق من عنايتها وبذلت ما قدرت عليه لتحقق غايتها وتتم رسالتها .

وعسى كتاب « البرقيات للرسالة والمقالة » هذا أن يلقى ما لقيته كتب المؤلف الفقيد والعالم الباحث العظيم التي كتبهـا بأسلوب علمي جزل دقيق وامتـازت بالقوة والسهولة والشعور العميق .

١ — الوزراء العباسيون

تأليف الاستاذ محمد احمد برانق — صفحاته ٢٥٦ من القطع المتوسط — مطبوعات لجنة البيان العربي بمصر

تناقل المتقدمون قبل عصر التدوين ، السير والأخبار بالرواية جيلاً بعد جيل ، حتى إذا اهتموا بتدوين العلوم والفنون، كان التاريخ من العلوم التي دوّنوها ، وكان العرب يجرون في تدوينه على نمط خاص ، ينحصر في ذكر الأحداث منسوبة الى رواتها ، أو غير منسوبة وقد ألّـف كثير من المتقـدمين في الوزراء الاسلاميين ، والمؤلفون وإن اختلفت طرقهم ، كانت لا تخرج عن سرد الأخبار ، مجرّدة من البحث والتحليل والنقد والتعليق .

والكتاب الذي بين أيدينا « الوزراء العباسـيون » لمؤلفه الأستاذ الفاضل الأستاذ محمد احمد برانق يختلف عن هـذا الوضع ، فقد أراد الأستاذ برانق أن يكشف لنا عن الأحداث التي جرت بين الوزراء من جانب ، وبين الملوك من جانب آخر ، وان يبحث هذه الأحداث ويحللها ويحكم لصاحبها أو عليـه ، غير مبال شيئاً غير الحق الذي يهديه إليه البحث ، وإن كان في إظهار هذا الحق سخط ساخط من المتزمتين الذين درجوا على تمجيد القدماء وإحاطتهم بهالة من القدسية أو شبهها ، فان البحث العلمي الصريح الصحيح لا يعرف

المجاملة وبدأ بالدولة العباسية أول دولة عرفت الوزراء ، فتكلم عن حاجة الملوك الى الوزراء ومتى سُمي الكاتب وزيراً وعن نوع الحكم في الدول الاسلامية وأقسام الوزارة عند العرب

والكتاب بجملته يحوي بحوثاً قيمة عن رأي مؤرخي الأفرنج في تاريخ العرب والكتاب في العصور المختلفة أمثال شلوسر ونيبور ورانكه وفنكلر ورينان — ورميهم الشرقيين بالجمود ، وقصورهم وتقصيرهم وتعصبهم .

ومشاهير الكتّاب التي وردت في الكتاب هم : الخلاّل « وزير آل محمد » — وخالد ابن برمك — أبو أيوب الموريانى — الربيع بن يونس — أبو عبيد الله معاوية بن عبيد — يعقوب بن داود — الفيض بن أبي صالح — ابراهيم بن ذكوان الحرّاني .

فنهنىء الأستاذ محمد احمد برانق بكتابه النفيس الذي سدّ فراغاً كبيراً في المكتبة العربية من هذه الناحية ونسأل له اطراد التوفيق في اخراج الأجزاء الباقية من الوزراء الإسلاميين بهذا النحو من الدرس العميق على اختلاف دولهم وعصورهم — ونرجو لكتابه الرواج الذي يستحقه .

٢ — بجوار الكعبة المشرفة

كيف حج النبي (صلعم) وبحوث أخرى

تأليف الاستاذ محي الدين رضا — صفحاته ١١٨ من القطع الكبير

اسم الكتاب يدل عليه ويشرح محتوياته فهو يشتمل على وصف رحلات قام بها المؤلف الى الحجاز ويسرد الوصف بكيفية أداء مناسك الحج والأدعية التي تتلى في كل مكان ، وفي الكتاب وصف لعظماء الحجاز وشيء مما امتازوا به أمثال جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وسمو ولي عهده وغيرهما .

ويحدثنا المؤلف في كتابه حديثاً تصويريًّا شائقاً عن الطواف حول الكعبة المشرفة فيصف الطائفين والطائفات وصفاً شهيًّا مزجه بالنقد في بعض الأحيان والارشاد الى ما فيه اتقان أداء مناسك الحج . وقد مهّد لذلك بسرد كيف حجّ النبي (صلعم) وحقق أن دخول النبي الى المدينة يوم هاجر إليها لم يكن من باب ثنيات الوداع كما هو المشهور الذي تلقنه المدارس لتلاميذها الى اليوم ، وان النبي دخل المدينة من باب ثنيات الوداع بعد استقراره في المدينة وكان عائداً من غزوة وكان قد شاع أنه قتل فيها .

ووصف المؤلف بعض مجالس الملك عبد العزيز آل سعود وسرد بعض أحاديث جلالته ووصف مقدار حبه لجلالة أخيه الملك فاروق المعظم وحبه لمصر كلها

وفي الكتاب أحاديث في الاصلاح لمعالي وزير المعالي السعودية الشيخ عبد الله السليمان وغيره وفيه صور لأماكن الحج وعظماء الحجاز ، وهو تحفة تستحق عناية الحجاج ومحبي كتب الرحلات والأدب .

٣ – من كل نبع قطرة وقصص أخرى

تأليف حسن محمد جوهر — صفحاته ٨٤ صفحة من القطع الصغير — مطبوعات لجنة البيان العربي بمصر

هذا الكتاب مزيج جمعت قطراته من نبوع كثيرة ، وهو يحوي مجموعة من القصص تمثل كثيراً من عادات وأحوال الأمم المختلفة ، قديمها وحديثها — ففيها الأشوري والعربي والهندي والألماني — ومن أهمها قصة آدابا الصياد وهي أشورية مثلت بعض فصولها على شاطئ نهر دجلة ، تبين أن الأشوريين كانوا يعتقدون أن لكل ظاهرة طبيعية كياناً خاصاً تتمثل بشراً أو حيواناً أو خليطاً من اثنين منهما أو أكثر . ولقد ظهرت ريح الجنوب للفتى آدابا الصياد في صورة عجوز شمطاء بها جناحان كأجنحة الطير .

والقصة تكشف بأجلى بيان عن حب الأشوريين لآبائهم حبًّا يضحى في سبيله الخلود . وآية ذلك أن السهم الأعظم أنو Anu ، قد خيّر الفتى آدابا بين أن يرفعه الى أرفع مكان وان يطهّره من الأرجاس وان يسقيه من شراب الآلهة ليكون من الخالدين — أو ان يرده الى أبيه ، فاختار الفتى بدون تردّد أن يرد الى أبيه لحاجته الى معونته ورفده .

وعندئذٍ طابت نفس «أنو» بجواب الفتى ورأى فيه آية الاخلاص ونبل الأخلاق وايثارة أباه على نفسه وأمر أن يغمر في بحر الصحة ليطهر من امراض الدنيا وآلامها ، وان يعيش سعيداً في الدنيا مع أبيه الشيخ .

أما قصته الثانية «موجلي» فهندية قصد مؤلفها أن يبين أن الحيوان والطير أمم مثلنا لها نظمها الخاصة وقوانينها المرعية ، وان منها العزيز الجانب ومنها الذليل ، ومنها الكريم ومنها اللئيم .

ولقد عاش موجلي وهو بطل القصة بين الحيوان فعلمته لغتها ، ولقنته قوانينها ، ووقفته على أسرار الغابة ، وحين رجع الى أهله ، عاد موفور الصحة ، مفتول العضل ، قويًّا ، وهو أقدر على خوض غمار الحياة وأقوى على مغالبة الأحداث من لداته الذين لم يحيوا حياته .

وقصص الكتاب كلها على هذا النمط الطيب مما تلذ مطالعته ، وهو لبنة طيبة أضافها المؤلف الى مكتبة الطفل الحديث ، ويد يشكر عليها .

إسماعيل مظهر

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الخامس عشر بعد المائة

لحق المقتطف

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ — ١٠ محرم سنة ١٣٦٩

آياته في خلقه

١ – للحياة موكب هو من آيات الخلق

في الأساطير القديمة التي تتناقلها الأمم خلفاً عن سلف، وفي قصص الميثولوجيا التي تتوارثها الأجيال، حكايات عن أشخاص أو روّاد أو أبطال وهبتهم الطبيعة قدرة خاصّة على فهم منطق الحيوان، الذي يظن الكثيرون أنه أبكم لا يقدر على شيء.

غير أنه من خطل القول، ومن الاعتداء الصريح على القوة التي تدبر الأشياء، أن يقال بأن الحيوانات التي تقع من نظام الطبقات الحيّة في مرتبة تعلو مرتبة الأسماك الهلامية، عاجزة عن أن تتفاهم بالأصوات الشفوية التي تخرجها. على أن بعض الحيوانات العليا فيها من الذكاء والقدرة على الفهم ما حمل «ألفونس كار» على أن يقول مرة إن كلبه يستطيع أن يفعل كل شيء ما عدا الكلام. غير أنه حمد الله على أن كلبه عاجز عن ذلك، وإلاّ لأزعجه بالثرثرة وكثرة الكلام وتكرار الشيء الواحد آلاف المرات.

وعلى الرغم من أننا لم نزوّد بكفاية القدرة على فهم منطق الحيوان، ذلك المنطق الذي يتألف من اشاراته وأصواته الشفوية، فإن البحوث الحديثة قد هيأت لنا فرصة الوقوف على حقيقة المخلوقات التي تعايشنا فوق هذه الأرض، فرفعنا بعض الحجب التي لا يزال كثير

منها يغشي على مباحث التاريخ الطبيعي ، حتى بعد أن أفلح العلامة لينايوس ، بثاقب بصره وواسع علمه ، في أن يقفنا على العلاقات الأساسية التي تربط بين نواحي عالم الأحياء .

* * *

في سنة من أوائل سني القرن العشرين ، وجّه محرر إحدى الجرائد اليوميّة سؤالاً للسير «هربرت مكسويل» عضو المجمع الملكي البريطاني ليعيّن له اسم الكاتب الانجليزي الذي خلف أكبر الأثر في توجيه الفكر الإنساني في القرن التاسع عشر . ولم يكن هذا السؤال مما يجاب عليه عفو الخاطر ، ولكن سير مكسويل تناول القلم وكتب بغير تردد اسم : « تشارلس روبرت دارون » .

قد يتفق ان يوجد من يأنف أن يُضْفَى هذا الشرف على عالم مواليديّ (طبيعي) دون مجموعة اللاهوتيين والمؤرخين والفلاسفة والاخلاقيين والشعراء وكتّاب المقالة والقصصيين الذين أنجبهم القرن التاسع عشر برمته ، ومنهم من خلّف آثاراً دمغ بها الفكر بطابع ثابت في الناحية التي تمشت فيها مواهبه . غير أن الواقع أنه لم يتح لواحد من هؤلاء أن يستقوى على ما استقوى عليه « داروں » من روح العناد والمناخة عما أتى به من حقائق العلم الطبيعي في أي فرع من فروع المعرفة، ولم ينتصر غيره في مجاله انتصاره في مجال ذلك العلم ، ولم يخلف غيره من بالغ الأثر ما خلّف من النتائج وأساليب البحث في ميادين النشاط العقلي .

ليس لنا أن نستطرد إلى الكلام في « داروں » وهل أمكنه أن يؤلف جميع حلقات التطور في عقد نظيم من الفكرات المسلسلة ، أو إنه عزى إلى نظرية الانتخاب الطبيعيّ من الأثر أكثر مما لها في حقيقة الأمر . فإن هذه الأشياء من شأنها أن تظل زمناً آخر مثاراً للمناقشة والخلاف . أما الذي أجمع عليه الناس فهو أن داروں إذ استجمع كل حقائق العلم والبحوث التي تقدمته واستوعبها وأنعم النظر فيها مؤيداً بعضها نابذاً البعض الآخر، وإنه إذ أثبت صحة الكثير منها بملاحظات شخصية دقيقة ، وأضاف اليها نتائج القدرة البشرية في استيلاد الحيوانات الداجنة ، قد وفق الى رفع علم الأحياء في جملته وفي متجهه إلى ذلك المستوى الرفيع ، وأضفى على الحياة لوناً مثيراً للعجب ، باعثاً على الاجلال

والإكبار ، بل أنه ألّـف بين ما كان متنافراً في العقل من صور الحياة وفي بعث الحياة موكباً حافلاً ، هو الآية الـكبرى من آيات الخلق .

* * *

ولـكن ذلك الموكب الذي حشد فيه « دارون » كل صور الحيـاة ، لموكب دموي ، آيته الموت والقتل والفناء ، ليبقى في النهـاية من الأحياء ما هو جدير بالحياة ، سنّة الانتخاب الطبيعي والتّـنَـاحُـر على الحيـاة وبقاء الأصلح . ولـكن ذلك المجلي لم يرض قلوب الـكثيرين ممن كانوا يرون أن الحياة روض، والأمل زهرة، والإنسان في الدنيـا عابر سبيل، كما يقول « أولفر جولد سميث » ، وحزّ في نفوسهم أن يصبح ذلك الروض الذي تخيله الشعراء وذلك الأمل الذي نمّـاه الفلاسفة ، إنما هو ميدان معركة دائمة يفوز فيهـا الأقوى والأصلح والأصبر على مكاره الحياة ، لينقل إلى أخلافه الصفات التي جعلته يتفوّق في المعركة التي اجتازها عن جدارة واستحقاق .

والواقع أن هذه المعركة قائمة في جميع طبقات الأحياء من أدناها الى أرقاها ، بين الحيوان والنبات ،وبين النبات والحيوان ، وبين الحيوان والحيوان ، وبين النبات والنبات. ولـكن ما هو السبب في ذلك ؟ سببه في الحقيقة أن المبدأ الذي تقوم عليه الحياة واحد هو الخلية الحية ، هو بعينه في الحيوان كما هو في النبات .

لا ينافح الحي عن حياته تلقاء أحياء أخرى ، أو يكافح عنها إزاء الطبيعة وأعاصيرها العاتية فحسب ، بل ينافح عنها إزاء الحر والبرد والرطوبة والجفاف وغير ذلك . فقد كان من حظ العلم أن يصل بأدواته وجهازاته المبتكرة الى حقائق خفيت عن الناس القرون تلو القرون . فقد كشف الأحيائيون عن أحياء في أماكن وبقاع لم يحلم أحد بأن الحياة تستطيع البقاء فيها .

فقد صحب سير « أرنست شكلتون » في رحلته الى القطب الجنوبي عالم أحيائي هو مستر « جيمس موري » . فغمر هذا العالم جرّة الى عمق خمسة عشر قدماً في بركة جمد ماؤها وأخرجها فاذا بها تعج بحييوينات تعرف باسم الحييوينات الدوارة ، وأخرى تعرف باسم دببة الماء أو المقربيوط .

ظلت هذه البركة عامين في خلال وجود البعثة متجمدة الماء . وربما كانت قد ظلت كذلك سنين كثيرة قبل وفود البعثة الى تلك الأصقاع النائية ، وربما كانت قد ظلت قروناً على تلك الحال ، بقيت في خلالها هذه الحييوينات في حالة اندفان ، وفي محيط نزلت درجة حرارته الى أربعين درجة فارنهيت تحت الصفر . لا يلوح في مثل هذه البيئة أي مظهر من مظاهر الحياة على هذه الكائنات . إن حياتها ترتد الى كمون .

ولكن لم يلبث العالم الاجيائي أن يضع هذه الحييوينات في محيط مائي ملائم الحرارة، ويعرضها للضوء ، حتى أخذت هذه الدوارات وغيرها مما خرج في الجرة في الحركة والسعي وراء الرزق والعمل على إخلاف النسل، إما باخراج البيض، وإما بالتوالد . على أنك لا تعجب بعد ذلك إذا علمت أن هذه الأحياء ليست سوى حييوينات مجهرية (مكروسكوبية) تكشفها لأبصارنا قوى المجاهر وحدها ، وانها فوق ذلك من أوالي الركب في موكب الحياة .

ولعلنا فيما يلي نوفق الى الانتقال بك الى منظر آخر من مناظر ذلك الحفل العظيم .

* * *

٢ – اللصوصية في موكب الحياة

الجرذان لصوص مدربة

لا أريد أن أثقل على القارىء بذكر العلماء ، وقد أسرفت بعض الشيء في ذكر « داروِن » ومنزلته ، فآثرت أن أجعل في هذه البحوث من المراوحة بين الطعوم ، ما لا يشق على الذوق أن يألفه . على أني إذا كنت قد أسرفت بعض الشيء في الكلام عن « داروِن ونظرياته » ، فإنما كان ذلك عن حاجة لأظهر أن هذا العالم قد كشف عن أن للحياة موكباً يسير ، وقافلة تضرب في سهول الحياة ، وأن الحياة بما فيها من مختلف الصور، هي عند الحقيقة وحدة لا تتجزأ ، وأنها تبث في الأحياء من الصفات والطباع ما يشترك في غايته ، وإن اختلف في أسلوبه ووسيلته .

***

لقد خص الفيلسوف بيدبا الجرذ بالكثير من عناية الذكر في كتابه « كليلة ودمنة »

تابان عن ما فيه من صفات حميدة وما فيه من حرص، وما اختصّ به من دهاء. ففي كثير من فصوله الممتعة كان الجرذ صديقاً وفيّاً، أو ناصحاً أميناً، أو أريباً حذراً، أو مفكراً منطيقاً. بل إنه في باب الجرذ والسنور جعله المكافح المنافح في الحياة، العالم بطرق الجهاد والجلاد، المحتال على العيش، الساعي إلى الرزق، العامل على المنافسة في دنيا الأحياء. ولكن هذا الفيلسوف على كثرة ما ذكر الجرذ فإنه لم يتخذ منه غير رمز يرمز به إلى حياة الإنسان، ومثل يضرب على ما ينبغي للإنسان أن يدأب عليه، وما لا ينبغي له أن يسعى إليه من أحوال العيش. معنى هذا أنه لم يبحثه بحث العالم، بل بحثه بحث الفيلسوف المتأمل. ولعلني لا أكون مخطئاً إذا قلت إن أول من بحث الجرذ بحثاً علميّاً كان الطبيب العالم ابن بختيشوع في كتابه « منافع الحيوان ».

ولا أعرف على وجه التحقيق إن كان في المكتبة العربية نسخة من هذا الكتاب، وإنما اطلاعي كان على مخطوط فارسي مصوّر، نقشت فيه رسوم منها رسم يبين كيف تنقل الجرذان بيض الطيور، وكيف تفتن في نقله حتى يصل إلى جحورها سليماً. ولا شك في أن الرسم الذي يبين هذه الحقيقة في هذا الكتاب هو أقدم صورة عرفت في تاريخ علم الحيوان. جاء في ذلك الكتاب ما ترجمته:

« يستلقي أحد الجرذين على ظهره ممسكاً البيضة بين أطرافه الأربع (قدميه ورجليه) من فوق بطنه، في حين يجره الجرذ الآخر من ذنبه ميمماً نحو الجحر ».

ومن هذا الكتاب نسخة فارسية مصورة محفوظة في مكتبة « بير مونت مورجان » نبأ أن الفراغ من كتابتها كان في سنة ٦٩٠ هجرية في مدينة فرغانة، أي أنها كتبت في العصر المغولي.

***

ولقد حقق العلم الحديث تلك الرواية بعد أن ظلّت معتبرة من الأساطير زماناً منذ أن نشر الكاتب الفرنسي المعروف لافونتين كتابه المشهور، ولا سيما قصته المعروفة بعنوان: « الجرذان والثعلب والبيضة ».

Les Deux Rats, le Renard, et l'Oeuf. (No CLXXXIX Fables).

ولكن هذا لم يصبح الآن خرافة بل حقيقة أيدتها المشاهدات وعني بدرسها العلماء،

ومن المؤلفات التي يعتمد عليها حتى الآن مؤلف العالم الانجليزي « جيمس رودويل ».
« الجرذ : تاريخه وصفاته الهدمية » :

The Rat : Its History and Destructive character by James Rodwell : 1858

ولقد عقب على هذا الكاتب غيره من الباحثين منهم العلامة المواليدي « توم سبيدي »
الذي يروي القصة التالية :

دخلنا مسرعين إلى حظيرة اعتاد الدجاج أن تلقي بيضها فيها ، فرأينا في ناحية منها جرذاً كبيراً يحمل بيضة من المذود متجهاً بها إلى جحر في ناحية منه ، فكان يحتضنها بإحدى يديه دالفاً بأطرافه الثلاثة الأخرى بحرص وعناية حتى لا تنكسر . فلما شعر بنا ألقاها ولاذ بالفرار » .

ومما روي أيضاً أن جرذين قد يستطيعان نقل بيضة من فوق سلّم ذي درجات الى حيث يريدان . قال الأستاذ « رودويل » :

لاحظ صاحب معمل للحلوى أن البيض يسرق بطريقة لم يتبينها ، فأخذ يراقب الأمر حتى إذا كان ذات يوم بصر بجرذين ذكر كبير وأنثى أصغر منه حجماً على درجةٍ من درجات السلم ومعهما بيضة ينقلانها بحرص وتؤدة ، فنزل الجرذ الكبير درجة من السلم ووقف على رجليه مادّاً يديه فوق الدرجة العليا ، وأخذ الجرذ الآخر يدحرج البيضة بهوادة حتى كانت عند يديه فأمسك بها محتضناً إيّاها بعناية ثم انحنى بها حتى وضعها على الدرجة ، وتريث حتى هبط إليه الجرذ الآخر وتسلمها منه ، ثم نزل الجرذ الأول درجة أخرى ، وتلقاها كما فعل أولاً ، وما زالا يهبطان حتى بلغا نهاية الدرج .

ألا نجد في هذا عذراً لأولئك الذين قالوا « إن الحيوان إن امتنع عليه الكلام ، فإن الطبيعة قد عوّضته عنه بقدرٍ من العقل، وقسط من الحيلة ،تسلّح بهما في معركة الحياة؟ ألسنا نجد في هذا وأمثاله عذراً لأولئك الذين أنطقوا الطير وألهموا الحيوان في قصصهم الرائع وحكمتهم الباقية ؟

اسماعيل مظهر

صديقي

صديقي كنتَ في الماضي نبيَّ المُثُلِ العليا
وكنتَ تلومُ من لفَّ إذا لفَّ مع الدنيا
وكنتَ تقاتل الأيامَ في صبرٍ وإيمانِ
فما تعبأ بالظالمِ أو تحفل بالشاني..
تضيء نجومك الزهراء وجهَ الأرض حوليَّا
وأرجوكَ إذا لم أرجُ من ذي خلةٍ شيَّا
فلِمْ لستُ أراك الآن ما قد كنتَ بالأمسِ؟
ولِمْ بُدّلتَ مثل الأفق بين الليل والشمس؟
وأين الحانة العذراء فيها الوتر القدسي؟
وأين الصفوُ والإدراك بين النفس والنفس؟
دسستَ الطينَ في مجرايَ والأقذاءَ في كأسي
وأصبحتُ ألاقي اليومَ إيمانك بالحدْس
فأبكي كنزيَ المفقودَ إذ أخلو بأوهامي
وأعرفُ أنني ضيَّعتُ مع مثلك أيامي!!

أجل يوماً على الاخلاص كنتَ المثَلَ الحيَّا!
وكنت معي صريحَ القلبِ لا تحتجز الرأيا!!
... فما أنت تعود الآنَ في ثوب بألوانِ
فقدْ خِفتَ على شانِكَ أن يمحقه شاني
غداة عرفتَ أن الناس قد ضجوا بألحاني
وأني قبلك المذكورُ في صحبٍ وخلانِ
فأعملتَ سوادَ العقل في هدمي وخذلاني
فأحذرُ جانبَ الصلِّ الذي ناغيتُ بالأمسِ
وأبكي خلّيَ المفقود.. بالأشجانِ في نفسي!

وأنت الأبيضُ الشائقُ كنتَ تلوفُ بالأسودْ
وكنتَ ترافق «المنبوذ» ـ هل تنكر؟ ـ للمعبد!

فلمْ أنتَ تنادي الآنَ بالأصلِ وبالسؤدد ؟!!
... لأنك بعد هذا اليوم لن تسمى ولن تمجد
ستسمى دونك الأرحامُ في ذا البلد الأنكد !!

ألا لستُ أكيلُ اللومَ — إني مدركٌ حالَكْ
فإني قد وجدتُ الناس ـ جلّ الناس ـ أمثالك
... ضعاف يشرعون الخيرَ ضد الغائل الأقوى
لكي لا يُحرموا المأكلَ والمشربَ والمأوى
فإما ساعفَ الدهرُ .. فلا خيرَ ولا تقوى !
وكم طاغيةٍ بالأمس لما أن طغى هالَكْ
فما قد أصبحَ الطاغوتُ في المعبد تمثالَك

وكنتَ المعجبَ المفتونَ بالشعرِ وترويه
فلما مال عنه الناسُ جهلاً أو غلوا فيه
مشيتَ على طريقِ الناسِ تنديداً بأهليه
ورمياً للفتى الشاعرِ بالعجز وبالتيه
وما الشاعر لو تدري سوى العاقل في الدنيا
ولو فتشت في الشعر وجدتَ الحكمة العليا
وجدتَ حقيقةَ الانسانِ لا الوهمَ ولا الرؤيا
فلا واللهِ لم يتركْ لعِلم اليوم من بُقيا
ولكن غرورَ الناس قد يتركهم عُميا .. !!

وتأتي الحُمقَ يا خلّي وتدعو الحُمقَ تزكينا .
وأدهى منه أن تحسَبَ أنّي قلتُ آمينا
فتمضي بين كل الناس تدعونيَ مأفونا
.. فلِم تحسبُني أحملُ منك الضرّ والهُونا ؟؟
سألقي بكَ للبردِ وألقي كلَّ أضرابك
فإن الدفء قد هيّج ذاك السمَّ في نابك !

القاهرة يوسف جبرا

نظرات في النفس والحياة

— ١٧ —

تكملة نظرات جوتا

يحتفي الأدباء هذه السنة بإحياء ذكرى (جوتا الألماني) ولقد عادت المانيا مجزأة كما كانت في عهده. وكان (جوتا) ينكر الحروب وقسوتها ويندد بفظائعها التي سماها فظائع الأبالسة. وكان في صباه قد اشترك في الحملة على الثورة الفرنسية التي تمخضت عن الجمهورية الفرنسية الأولى. وكان (جوتا) يرغب في السلم العالمي الذي ينشده العالم الآن، كما كان راغباً في ثقافة عالمية كما يرغب اليونسكو. ولهذه الأسباب كان هذا الوقت أنسب الأوقات للاحتفاء بذكراه. ولم يكن (جوتا) من طبقة الأشراف، بل أسبغ عليه صديقه أمير ويمار لقب الشرف. وقد ذكرنا في المقال السابق انه في شبابه ألَّف قصة (أحزان ورتر) التي اشتهرت في عهدها كاشتهار قصة (كلاريسا هارلو) لرتشاردسون الانجليزي و (هلواز الجديدة). لروسو وكانت على طريقة (السنتيمنتاليزم). ولقوة أثرها في النفوس حاول بعض الشبان التشبه (ببطل) القصة. ومن أجل ذلك لم يكن أثرها حميداً، اتسع نطاق فكر (جوتا) ونطاق نفسه بعدها، وبالرغم من أن مواقفه الغرامية كانت بها عاطفة غرامية صحيحة، إلاَّ أنها كانت ممزوجة بالرغبة في التجربة والخبرة صنع العالم المجرب. وكانت تتنازع نفس (جوتا) العاطفة والرغبة في الخبرة وهذا التنازع كان في كل الأمور، ومن أجل ذلك كان أديباً وكان عالماً. وقد ذكرنا أنه كان يميل إلى المذهب الكلاسيكي وصفاته من سلاسة وسهولة ووضوح كما في قصته (هرمان ودوروثيا)، كما كان يميل أحياناً إلى الشعر الفلسفي أو إلى الخيال الرمزي، كما في بعض أجزاء القسم الثاني من (فوست) المسمى (هيلينا). والحقيقة إنه كان يشعر بلذة فنية في تجربة كل نوع من الثقافة والأدب، فقد قرأ مرة قصيدة تأبط شراً التي مطلعها .

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يُطَلّْ

وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية فترجمها (جوتا) إلى الألمانية لإعجابه بها. وهذا كما ورد في كتاب (تاريخ العرب الأدبي) للعلامة نيكلسون الانجليزي. و(لجوتا) ديوان سماه (ديوان الغرب والشرق) يحاكي فيه بعض الشعر الشرقي، وسمع مرة أن الإسلام هو الاستسلام لارادة الله في كل شيء، فقال هذا ما ينبغي أن يكون عليه كل إنسان. وألف حكمة في هذا الموضوع. وقصص (شيلر) التمثيلية على العموم أوقع. إذا قارنا بين قصص (جوتا) أمثال (اجونت) و(تاسو) و(جوتز) و(افيجنيا)، وبين قصص (شيلر) أمثال (وليام تل) و(ماري ستوارت) و(والنستين) و(دون كارلوس) و(اللصوص).

وقد ترجم (كارليل) قصة (جوتا) النثرية المسماة (وهلم مايستر) إلى الانجليزية، ولكنه عاد يتململ ويتأفف من بعض حوادثها، والواقع أن هم (جوتا) وغرضه هو أن يعرض كيف اكتسب بطل القصة ثقافة حتى من الحوادث والمخالطة الوضعية، ولم يقصد بالثقافة الزهد، فقد كان (جوتا) زاهداً في الزهد، بل كان يراه مؤدياً الى ضيق النفس والفكر، وإنما كان يعني بالثقافة استخلاص الحكمة الصائبة من تجارب الحياة.

وكانت روح (جوتا) روحاً عالمية تخطت حدود وطنه واحتضنت العالم، حتى إنه أبى أن يكره الفرنسيين في عهد نابليون عندما غزوا المانيا. وقال لاكرمان كيف أكره أمة أنا مدين لها بجزء كبير من ثقافتي، والثقافة هي كل شيء. وقال (أوسكار وايلد) في رسالة (الناقد صاحب الفن): كان جوتا أول من جرأ وجاهر بهذه الفكرة العالمية، وسيزداد أثرها في العالم حتى تؤدي إلى ترجيح العالمية، ويمحو النقد الفرق الخاصة، ويقرب توحيد العقل البشري على اختلاف أمكنته، وقد نقده بعض الأدباء نقداً شديداً كما فعل مينزل، وبعضهم كان نقده يخالطه الإعجاب به مثل نقد هيني الشاعر الألماني.

وفيما يلي تكملة لما أختير من كلماته ونظراته مع بعض التعليق: —

(١) كل إنسان له أخطاء وصفات نقص أو عيوب لولاها ما وجدت شخصيته وفرديته التي يمتاز بها، ومن أجل ذلك نأنس في بعض الأحايين إلى أخطاء وعيوب أصدقائنا القدماء، إذ لولاها محيت شخصيتهم وصاروا أناساً آخرين. فإذا تخلص أصدقاؤنا منها مرة وافتقدناها فيهم أنكرناهم، وقد نشعر بقلق إذ نشعر بتغير المألوف منهم. والواقع إن

هذا ليس في الأصدقاء فحسب، فإن الحياة كلها مثل حجرة عُلِّقَت صور على جدرانها، فإذا أزيلت بعضها من مكانها ربما أحسسنا بقلق هو شبيه بقلق التشاؤم بالأمر غير المألوف، وكأن إزالتها من مكانها نذير بالموت والفناء .

(٢) ان الإنسان قلما يستطيع إن يدرك مقدار إساءة النـاس فهم قول غيرهم ، لأن كلامهم يمر خلال احساساتهم وخواطر نفوسهم، ولو استطاع الانسان أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم وتأويله حسب أهوائهم ، لتجنب كثرة الـكلام، كي يَسْلم من عنت أو خطب .

(٣) إن الرجل المعجب بنفسه يظهر إعجابه بنفسه بوسائل كثيرة، وإذا منع من بعضها استحدث أخرى، فهو يظهره بضحكه أو ابتسامه أو سخره أو غير ذلك من الوسائل المتنوعة. ومهما كان الأمر الذي حرّكه الى الضحك أو الإبتسام بعيداً عن موضوع إعجابه بنفسه ، فإنه يُظهر في ضحكه أو ابتسامه إنه مسرور بنفسه راضٍ عنها، معجب بها، والرجل الذكي قد يرى أموراً كثيرة في الحياة تستحق الضحك والسخر، ولـكن الحـكيم إذا تدبر مآسي الحياة ومشاقها وآلامها وعجز الانسان فيها مهما كان قادراً وصولة القدر . إذا تدبر كل هذه الأمور ، منع نفسه من السخر بقدر ما يستطيع منع نفسه .

(٤) مما يدلّ على عجز الناس أن كثيراً منهم إذا واجههم الناس بعيوبهم يتحملون العقاب على تلك العيوب ، ولـكن إذا حاول محاول أن يرغمهم على مزايلتهـا ومباعدتها ضاقت صدورهم، فهم يفضلون أن يُعاقَبُوا ، وأن يظلوا عليها إذا لم يستطيعوا دفع الوصف بها أو دفع العقاب. وهذا يظهر في حياة الصغار كما يظهر في حياة الـكبار .

(٥) من الغريب أنك تجد في بعض الأحايين شـبّاناً يتفق أنك لا تـكاد ترى فيهم موضع نقص يصلحهم ، ولـكن اندفاعهم مع دافع الشباب إلى مجاراة تيار الناس يجعلهم كالسفينة التي تتقاذفها الأمواج ، فهذا الدافع هو أخوف ما يخاف عليهم ، ولا سيما أن الشاب مندفع بطبعه ، وأنه بالرغم من مظاهر ثقته بنفسه كثيراً ما يخفي تحتها قلة الثقة ببصيرته التي لم تكتسب بعـد من تجارب الحياة ، فينقاد لتيار الناس ولعدوى خصالهم وأعمالهم بسبب ذلك .

(٦) من النـاس من لا تتفق طباعه وأية بيئـة أو مكانة ، ومن أجل ذلك ينشأ ذلك الصراع المخيف في النفس الذي يضيع الحيـاة سدًى ، ويقضي على مسرّاتها ، ولا يقتضي إتفاق المرء والبيئة أن ينقاد ذلك الإنقياد الجارف الذي حُذِّر منه في النظرة السابقة .

(٧) ليس من السهل أن نصيب العدل في قَدْرِ فضل الساعة التي نحن فيهـا ، فإذا كانت خيراً أوجبت فرضاً ، وإذا كانت شرًّا حملتنا ثقلاً وهمًّـا ، وإذا كانت لاخيراً ولا شرًّا كانت مللاً وسأماً ، والنفس تميل إلى دفع كل هذه الأمور عنها وإبعادها حبًّا للراحة، وخلاصاً من المشقة في الحالات الثلاثة إلاَّ من شذَّ في النفوس غير المسوقة بمبدأ أو وهم أو إيمان أو إحساس شديد .

(٨) إن الحق والباطل ينبعان من منبع واحد في النفس ، وكثيراً ما يكونان متصلين فيها إتصالاً قليلاً أو كثيراً . ومن أجل ذلك ينبغي الحذر إذا أردنا محو الباطل من محو الحق معه .

(٩) مما يدعو إلى الأسى ان الناس يزهدون في الحق لا لأمرٍ إلاَّ لأنه معروف مملول مألوف ، والألفة تبعث الملل، وهم لا يفطنون إلى انه بالرغم من انه معروف ، لا يستطيعون تطبيقه في الحيـاة وإنجاحه وتحقيقه ، فهم يشق عليهم في العمل وإن كان لا يشق بعضه في الفكر . ولعلَّ هذا أيضاً من بواعث الزهد فيه ما دام يصعب ويكلف النفس ألماً ومشقـة.

(١٠) إذا بدأ الإنسان يعمل قيد ضميره بالعمل وضروراته ، أما إذا تريث وجعل يفكر فإنه يعطي لضميره فرصة لاستعادة حريته — هذا إلاَّ إذا كان التفكير في تهيئة الأعذار التي تسوِّغ عمله ، فمثل هذا التفكير لا يعطي ضميره حريته .

(١١) إذا أصغيت إلى إنسان، فإنه قد يكون مخطئاً مخدوعاً ، وإذا أصغيت إلى أناس كثيرين، فإنهم كذلك قد يكونون مخطئين مخدوعين . ومع ذلك فإن كثرتهم قد توهمك انك أصبت الصواب في قولهم ، وأكثر الناس يحكمون بضغط حكم من حولهم من الناس من غير فحص وتقدير لذلك الحكم ، بل إنه مهما حاول الإنسان التخلص من أثر قول من حوله وحكمهم يجد مشقة أو استحالة .

(١٢) إذا استحسن الناس مبدأ أو رأياً في الحياة واعتنقوه لا تلبث محاسنه مع مضي

الزمن أن تزول . وتظهر وتعظم أضراره ومفاسده من سوء الأخذ به ، فإذا استفحل ذلك حاول الناس القضاء عليه ، ولكن عند ما يقضون عليه يقضون على النظام الذي لا تستقيم حياتهم إلا به ، فتعم الفوضى حتى يضطروا إلى إعادة النظام على أساس جديد أو على الأساس القديم ممزوجاً بقليل من التجميل والتحسين . وعلى ذلك فالجهد الذي يبذل في سبيل التغير والإصلاح ، أكثر من التغير والإصلاح إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر لا إلى المسميات .

(١٣) معرفة الخطأ أسهل من الوصول الى الصواب ، فليس كل معرفة للخطأ تؤدي إلى الصواب ، فإن الخطأ يوجد على سطح الأمور ، أما الصواب المجهول فلا يستطيع كل إنسان البحث عنه . ومع ذلك فانه بعد تعذر معرفته إذا عرفه الإنسان كانت له لجأة الأمر المتوقع، وبغتة الأمر المعروف المنسي، مع انه لم يكن معروفاً ولا منسيًّا .

(١٤) إن محاولتنا أن نضع أنفسنا موضع الرجل الذي يخدع نفسه بأنصاف الحقائق وأجزائها، أشقّ على العقل والنفس من فهم الرجل الذي كل فكره خطأ .

(١٥) إذا كان الفكر والمشاهدة مصحوبين بالرغبة في اعتقاد السوء، صرفتهما تلك الرغبة عن تبيُّن أعماق الحياة فلا يصلان الا الى سطح الأمور . وهو أمر صحيح في العلم، كما هو صحيح في الأدب ، فما استطاع الشاعر العالمي (شكسبير) مثلاً أن يفصح عن حقائق نفوس من يصف من الناس حتى حقائق صفات الأشرار منهم ، الا بأن يضع نفسه مكانهم كي ينظر اليهم بالعطف ، فيستطيع أن يستخلص حقائق نفوسهم، وهو قلما يشذ في ذلك إلا في قصصه الأقل جودة

(١٦) اننا نستطيع أن نُغفل مناقضة لنا من غيرنا، أما اذا أتت المناقضة لنا من نفسنا والحس، كان كل ما نستطيع عمله أن نصحح تلك المناقضة أو أن نصحح نفوسنا، ولما كان تصحيح ميل النفوس أمراً عسيراً، فان النفس تحتاط حتى لا تتقحم عليها مناقضة لها من نفسها ، وللنفس وسائل عديدة في هذا الاحتياط .

(١٧) ربما أصابت المصائب العامة أو الخاصة انساناً قويًّا، فلا يكون وقعها أشد ولا أثرها أعظم من وقع المذراة وأثرها في أعواد حبات الحنطة، فانها تنزع الحبات، ولكن تلك الحبات لا يهمها أن تعود فتزرع كي تستنبت محصولاً جديداً أم تؤخذ فتطحن فتصير غذاء وقواماً. وكذلك ما تستنبته المصائب من الرجل القوي العاقل الرشيد من الأعمال والأقوال

تكون دائماً صلاحاً لنفسه، يستدرك به فارط أمره أو صلاحاً للناس. وبعكس ذلك ما تستبعثه من الرجل الأخرق أو الضعيف، وهذا مثل أعلى قلما يصيبه انسان، ولكنه اذا كان دائماً نصب عينيه، ربما أصاب بعضه اذا كانت نفسه مؤاتية له

(١٨) إننا نرتاح للأمور الوسطى، ونقبل على من كانت ملكاته في حدودها لأننا نأنس بمخالطة من هو أقرب الينا منزلة وشبهاً، وبمعاشرة من يشاكلنا ولا يكلفنا مشقة الارتفاع فوق الأمور الوسطى وهذا من أسباب رواج شأن أصحابها .

(١٩) إن الكفاح بين القديم الموجود، وبين الاصلاح والتجديد، كفاح دائب أبداً. وكل نظام اذا اعتوره الفساد دَفَعَ قهراً الى ضده. وهذا مشاهد في الأدب كما هو مشاهد في الحياة عامة، مثل النزاع بين أصحاب نظرية امتلاك الضياع الكبيرة، وأنصار نظرية تأميم الأرض أو الكفاح بين أنصار نظرية حرية التجارة وأنصار حماية المنتجات المحلية . وهذا الكفاح على تعدد مظاهره كفاح معروف من قديم الزمن .

(٢٠) الحرية المطلقة أمر غير مرغوب فيه، فلا عيش ولا صلاح للناس معها لأن الناس إذا تحرروا من كل القيود تحرروا أيضاً مما يمنعهم من الخطأ، ومما يردعهم عن الشرور — وهم اذا طلبوا الحرية المطلقة، انما يطلبون نظاماً جديداً وقيوداً جديدة ولا يعرفون خطر طلب الحرية المطلقة الا بعد أن يُكوَوْا بنارها، ويَصْطَلوا الويل منها، وبعد أن يمعنوا في الأخطاء الناشئة من الافراط أو التفريط .

(٢١) السعيد هو الذي يعمل ليخلو من هم الحياة وقلقها . فاذا لم يُؤدِّ العمل لجمع المال الى الهم والقلق كان من عمل السعيد. أما إذا أدّى الى الهمّ والقلق لم يكن العمل . لجمع المال طريق السعادة، بل طريق الشقاء فليست الثروة أن تكون ذا مال كثير، بل الثروة أن تخلو نفسك من توقع الحاجة، ومن خشية الفقر، فمن استطاع أن يخلي نفسه من هذه الخشية لم يكن فقيراً واذا لم يستطع كان فقيراً .

(٢٢) كل عمل يراه الرجل الضيق الذهن حرفة أو صنعة أو مهنة، يراه الرجل العظيم فنّاً جميلاً، فمهما كان خادماً لحرفته أو صنعته ملتزماً لها، فهو خادم لفن جميل. ومثل هذه الخدمة واجبة على كل إنسان سواءً أكان كبيراً أم كان صغيراً في مقامه ومرتبته . وإذا عمل الإنسان عملاً واحداً بصدقٍ وإتقان، كان عمله مرآةً يرى فيها صورة كل ما يمكن عمله بصدقٍ وإتقان .

(٢٣) لكل إنسانٍ عمل يشبه طبعه وطريقته، فإذا حاول الإنسان أن يعمل ما ليس في طبعه ونفسه أخلَّ ولم يُحسِن، ولا ينبغي أن يُطلَبَ من الرجل عمل ما لا يشبه طبعه

ونفسه، لقد طلب مني أناس أن أنظم قصائد إثارة البغض، فكيف أصنع ذلك وليس البغض من طبعي .

(٢٤) لا شيء يدعو الى التزام جادّة الفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس، والتزام ما يلتزمونه، ولا شيء أدعى إلى ما يشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التي يحياها الناس، ومن الخروج على فروضها ونظمها .

(٢٥) التجارب والخبرة لا حدّ لها ، أما النظريات فإنها محدودة بحدود العقل . ومن أجل ذلك كثيراً ما يعود الناس إلى نظرية بعد نبذها وتركها إذا ازدادوا خبرةً وتجارباً .

(٢٦) إن أغلاط المرء في الحياة قد تكلفه عناء كثيراً، وتوقع به ضرراً بالغاً، ومع ذلك لايستطيع أن يثق أنها استنفدت كل عواقبها، فإنها قد تكون لها عواقب قصيّات تطارده بعد ان يظن أنه قد عوقب عليها عقاباً كافياً — ومع ذلك فالشبان خاصة يندفعون إلى أمثال تلك الأغلاط، ولا يعرفون ما هو مخبأ لهم، كما قد لا يعرف ذلك الكبار .

(٢٧) في الفكر كما في العمل ينبغي معرفة حدود ما يستطاع الوصول إليه كي لا تضيع جهود المرء سدًى ، ومع ذلك ينبغي أن يثابر المرء على اعتقاد إمكان فهم المجهول الذي لايستطيع فهمه ، وإلاّ قصّرَ في أمور كثيرة في بحثه ، وكان من الجائز أن يصل بذلك البحث الى كشوف كثيرة ماكان يتوقعها .

(٢٨) إنك إذا أردت من إنسان أداء واجبات ومنعت عنه مزايا يستحقها لأدائها، فاعلم انك ستدفع ثمناً غالياً لهذه الخطة ، ولا تحسبنّ أنك اقتصدت ، والناس اذا أرادوا الغبن قالوا لا شكر على واجب .

(٢٩) إن الذين عاشروا الأطفال يعرفون أنه اذا زاد التأثير عليهم عن حدٍّ معين لا يخفق هذا التأثير في إحداث رد فعل يؤدي إلى مخالفةٍ وعناء . ومن أجل ذلك كانت حياة الصغار مملوءة بالتسرع في الحكم على الأمور بأحكام غير ناضجة . ولا بدّ أن يمضي زمن حتى يستطيع المدرس أن يصحح أثر هذا التسرع وهذا العناء — والمدرس الفطين هو الذي يستطيع أن يعرف حد السيطرة الذي يؤدي بعده التأثير الى المخالفة والعناد . ويعجبني خطة بعض المدارس الإنجليزية التي تكل أكثر أمور التلاميذ إلى التلاميذ أنفسهم، حتى خصوماتهم وحتى حفظ النظام ، فينشأ التلميذ وهو يشعر بالمسئولية ، كما إنه لا يحسّ تلك السيطرة القاهرة التي تؤدي إلى العناد .

(٣٠) إذا أراد الانسان أن يركن إلى خبرة غيره ، ينبغي أن يتذكر أن ذلك الأمر المختبَر قد أصبح بينه وبينه حاجزان : حاجز نفسه وحواسه ، وحاجز نفس من يركن

إلى اختباره ، وقد تتغير الحقائق من إحدى الناحيتين .

(٣١) إذا فقد الانسان الفهم الأساسي العام ظنّ أن كل ما يشتهيه أمر ضروري وإن كل ما يسره أمرٌ نافع ، فيقيس الأمور بمقياس باطل .

(٣٢) لا يستطيع الانسان أن يعيش من غير سلطة مسيطرة على حياته ، ومع ذلك فان هذه السلطة فيها من الخطأ قدر ما فيها من الصواب والحق . فانها تحافظ على أمور كثيرة ينبغي أن تزول، وتسمح بزوال أمور كثيرة ينبغي أن تصان، فهي سبب عدم تقدم الانسان.

(٣٣) بعض الناس كانوا يكونون على جانب كبير من النبل والشرف والصدق لولا انهم ذكروا مرة أمراً مكذوباً أو باطلاً ، ثم أرادوا أن يسوغوا أنفسهم ويعذروها بأن يعيدوا ذكره مراراً كي يصدقه الناس فتتدلّى بهم هذه الغريزة بدل أن تزكيهم وترفع من شأنهم.

(٣٤) لا يمتاز الانسان بالفضل على خصومه، اذا لم يستطع بالفضل معرفة فضلهم ، والانسان لا يستطيع أن يشغل نفسه بكل انسان ، ولا أن يعيش مع كل انسان ، فينبغي إذاً أن يعزّ أصدقاءه ، وأن لا يكره وأن لا يضطهد أعداءه ، أو من وضعهم موضع الخصوم.

(٣٥) قبل الثورة كان كل أمر مجهوداً يُطلب من الناس أداؤه ، وبعدها عاد كل أمر مطلباً للناس يطلبونه، وهذا يذكرني نقد (مازيني) للثورة الفرنسية إذ قال إنها جعلت الناس تنظر الى حقوقهم ، والى طلب تلك الحقوق ، وصرفت الناس عن واجباتهم — وربما كان في هذا القول مبالغة ، الا اذا أريد أن يكون تقديم الواجبات مبدأً عامًّا .

(٣٦) المخدوع بقول غيره أو عمله إنما كان مخدوعاً،لأن في نفسه صفات مكّنت الخادع منه، فالمخدوع إذاً هو الذي خدع نفسه بسبب ذلك .

(٣٧) الحصاد أشق من نثر البذر في الزراعة، وكذلك في الحياة تزداد المشاق كلما قارب الانسان مقصده الذي يسعى اليه، وكذلك في الفنون كلما ألمّ بها الانسان وتفقّه فيها، عرف صعوباتها . وأما المبتدىء فيها غير الممارس لها ، فهو أكثر اغتراراً بها وبالقدرة على التبريز فيها .

(٣٨) السعادة هي الاستسلام لارادة الله ، فنتقبّل كل ما يصيبنا كأنه ناشىء من ارادتنا .

(٣٩) مهما حرّر الفن النفوس ، فان أساسه عقيدة وإيمان، ومهما خالطه من الفكاهة فإن أساسه الجد .

[للبحث بقية] ع . ش

العناية بصحة العامل

— ٢ —

اختناق بغاز أول أكسيد الكاربون

(Carbon Monoxide)

لهذا الداء أثران خطران على الانسان هما خطر الانفجار ، وخطر التسمم ، ويحصل الانفجار اذا ما تسرب هذا الغاز في مكان مغلق،الى أن تصبح النسبة بينه وبين هواء المكان ١ الى ١٠ ، فاذا ما تواجد لهب في مثل هذا المكان انفجر الغاز . واما خطر التسمم فيحدث إذا بلغت النسبة أقل من ذلك بكثير أي حوالي ١ الى ١٠٠. واحتراق قدم مكعب من خشب في دهليز منجم راكد الهواء يكفي لتسمم من يتواجد في الدهليز لمسافة ربع ميل تقريباً ، وكل من يدخل هذا المكان يكون عرضة للوفاة الفجائية . واذا قلت نسبة الغاز في الهواء حدث التسمم البطيء ، وغاز أوكسيد الكاربون له تأثير ضار على جزء المخ السفلي قد ينتهي أحياناً بتلفها .

وكمية قليلة جداً من هذا الغاز اذا امتزجت ببطء في أحد الأماكن لدرجة يتعذر شمها كافية لإحداث الصداع . والتهاب الحلق ، وضعف عام عند كل من يتواجد في ذلك المكان ، يقظاً كان أو نائماً.وكثيراً ما يتوفى أناس في بضع ساعات من تسرب مقادير صغيرة جداً من هذا الغاز في حجرة نومهم على الرغم من أن هذه المقادير لا تنفجر لضآلتها . وقد حدث أن تسمم أفراد عائلة من غاز أول أوكسيد الكاربون تسرب الى منزلها من ماسورة غاز الاستصباح بالشارع نتيجة لانسداد مسام الشارع الملاصق من جراء تغطيته بالجليد . وكان بحجرة نوم هذه العائلة موقد مضاء بالبترول، ومع ذلك لم يحدث انفجار، بل حدث التسمم المذكور فقط .

وغاز أول أوكسيد الكاربون يحدث التسمم باتحاده مع هيموجلوبين كريات الدم الحمر

بعد طرده الأوكسيجين منها ، وقابليته للاتحاد مع الهيموجلوبين تفوق قابلية الأكسيجين بما يعادل ٢٢٠ الى ١

ويحدث التسمم من غاز أول أوكسيد الكاربون بنتيجة عملية الانفجار في المناجم (Blasting operation in nines) اثناء صهر الحديد (Iron Smelting) . وكل انفجار طارىء داخل مناجم الفحم يصحبه تولد غاز أول أوكسيد الكاربون .

أعراض التسمم البطيء . بأول أوكسيد الكاربون

دوخة . عدم اتزان المشي . صداع . طنين بالأذنين . إحساس بالانقباض بالصدر . أما أعراض التسمم الحاد فهي دوخة فجائية، ثمّ اغماء وارتخاء عام بالعضلات

(الإسعاف) — يوضع المريض في مكان هاوٍ ويزال الزبد أو اللعاب من الفم. ويجذب اللسان إلى الأمام إذا كان ذلك ضرورياً . ويدفأ الجسم بالبطانيات وزجاجات الماء الساخن . ويعمل له التنفس الصناعي وذلك برفع الذراعين الى أعلى رفعاً تامًّا لمدّة ثانيتين ثم خفضهما إلى جانبي الصدر مع ضغط على الجانبين مدّة ثانيتين أيضاً . وتكرر هاتان العمليتان خمسة عشر مرة في الدقيقة الواحدة . ويشم المريض غاز الاكسيجين مع ٥ ٪ غاز ثاني أوكسيد الكاربون ، وهذا المزيج محضر داخل اسطوانات ويعطى بكمامة .

وإذا تعذَّر ذلك يمزج غاز ثاني أكسيد الكاربون من اسطوانة أخرى مع غاز الاكسيجين المنبعث من اسطوانة الأكسيجين بالنسبة المطلوبة ، وذلك بوصل أنبوبتي الغازين في أنبوبة واحدة وإرسال هذه الأنبوبة في أنف المريض . والقاعدة أنه ما دام القلب ينبض فهناك أمل في إنقاذ الشخص . وإذا ما استعاد المريض تنفسه يستمر في استنشاقه غاز الأكسيجين النقي لمدّة ثلاث ساعات على دفعات صغيرة يعطى بينهما الطعام .

وأحياناً يعطى المريض حقنة أتروبين $\frac{1}{100}$ قمحة تحت الجلد . ولا مانع من تكرارها إذا ما تطلب الحال . ويعالج الاغماء بمحلول الملح (١ ٪) تحت الجلد. أو بنقل دم سليم إلى المريض . ويوضع المريض في السرير بضعة أيام . وقد يعقب التسمم جنون .

(الاختناق من أسباب أخرى) — يحصل الاختناق من أسباب أخرى غير استنشاق غاز أول أكسيد الكاربون كما هو مذكور أعلاه والاختناق معناه منع وصول غاز

الأكسيجين إلى الدم . وعليه فالغرق الذي يمنع اتصال الرئتين بأوكسيجين الهواء يحدث اختناقاً . كما أن انسداد مجاري التنفس من جسم غريب في الداخل ككتلة طعام أو تورم من التهاب أو ورم مرضي يحدث نفس النتيجة . كذلك الضغط من الخارج على العنق أو على الصدر كما يحدث من وقوع أحجار على صدر عامل يمنع تمدد الرئتين فيحدث اختناقاً . وما يقال عن غاز أول أكسيد الكاربون يقال أيضاً عن حامض السيانيك المتصاعد من تعدين الذهب واستخلاصه من الشوائب، وأيضاً الطلاء بالذهب نتيجة لاستعمال سينور البوتاسا أو الصودا ، كذلك غاز الماء (Water gas) إذا تسرب في حجرة مغلقة ، ويحدث أحياناً ان غاز الكبريتوز (Sulphurous acid) الناجم من حرق كبريت العمود وغاز النشادر وغاز الكلورين الناجم من المسحوق المبيض (Bleching Powder) — كل هذه تلهب الحنجرة من الداخل وتحدث توورماً لها ، ثم انسداداً فاختناقاً . وهناك غازات أخرى مثل أوكسيد الأزوتوز (Nitrous Oxide) (وهو الغاز المضحك) والكلوروفوم والاتير تحدث أحياناً تأثيراً سيئاً على مركز التنفس بالمخ فتشله وتوقف التنفس .

وأعراض الاختناق في هذه الحوادث أبطأ منها في التسمم بأول أوكسيد الكربون . وهي غالباً تبدأ بسرعة النبض وعمق التنفس (Gasping) ، ثم ارتفاع في ضغط الدم وصداع نتيجة لذلك ، وزرقة في الجلد من قلة تأكسد الدم ، ثم تشنجات (هي في الحقيقة محاولة لاستنشاق الأكسيجين من الهواء) . وفي هذه الحالة تتمدد الأوردة وتوضح . وفي حالات التسمم بغاز أول اوكسيد الكاربون لا تحصل تشنجات . بل تنتهي الحالة بالوفاة في هدوء وسكون .

والاوكسيجين غاز يباع في اسطوانات تحوي أحياناً ١٠٠ قدم مكعبة من الغاز مضغوطاً . وفي أعلى الاسطوانة محبس للسماح للغاز بالخروج في أنبوبة تدخل زجاجة بها ماء دافىء لرفع حرارة الغاز ، وهناك تبدأ أنبوبة أخرى تدخل أنف المريض أو تدخل في كامة توضع فوق أنف وفم المريض .

وتعمل أحياناً خيمة حول المريض يدخل فيها غاز الاكسيجين ولهذه الوسيلة مزية إمكان المريض من استنشاق الأكسيجين كل وقت .

أمراض التعدين

﴿الذهب﴾ يتواجد هذا المعدن عادة في صخور (quartz) وبين الرواسب الرملية في مجاري الأنهر . ويفصل المعدن عن الرمال باستعمال تيار المياه الذي ينقل الرمال ويترك الذهب في قاع المجرى . وبعد جمع هذا المعدن بالطريقة المذكورة يحضر نقياً بعدة طرق أكثرها استعمالاً هي مزجه بملح سيانيد البوتاسيوم أو الصوديوم فينجم سيانيد الذهب، وهذا يفصل بالتحليل الكهربي (Electrolysis) حيث يتراكم الذهب على القطب السالب Cathode .

ويتواجد الذهب في منجم السيد بقفط ، ومنجم السكري في مرسى عالم ، ومنجم الذهب في البرامية بين القصير وادفو . فأما منجم السيد فتديره شركة مساهمة منذ عام ١٩٤٧ واستطاعت ان تحصل منه في سنة ١٩٤٨ على ٢٩٥٠ أوقية بلغ ثمنها ٦١٠٠٠ جنيهاً .وبه ٣٢٥ عاملاً . وأما منجم السكري فقد استخرج منه ٢٥٧٦٣ أوقية من الذهب الخالص منذ سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٦ . وقد بيعت بمبلغ ١٢٧٣٥٩ ج.على حين بلغت المصاريف في هذه المدة ٢٩٦٤٢٠ جنيهاً . وأما منجم البرامية فقد استولت الحكومة عليه في أوائل الحرب العالمية الأخيرة من مديره الايطالي ولم تقم بادارته

ويستخرج الذهب بثقب الصخور أولاً ، ثم نسفها بمادة جليجنيت (Gelegnite) وبعدها تنقل في عربات تجرها الأيدي.وكان هناك خطران يلازمان هذه الصناعة . أولهما : التسمم بالسيانيد (سيانيد الصوديوم الذي يستعمل لاذابة الذهب من فتات الصخور) لكن معرفة طريقة التسمم به حددت كثيراً من حوادثه . وثانيهما:التسمم بالزئبق الذي يستعمل كالسيانيد في استخراج الذهب من فتات الصخور . وبالنسبة لعمق مناجم الذهب فأن الضغط عليها من الخارج يكون شديداً فتتداعى جدرها ويسقط تحتها عدد من العمال. وقد أدخلت تحسينات كثيرة في صلب المناجم وطريقة فصل الذهب .

وأهم الأمراض التي تصيب عمال الذهب هو الالتهاب الرئوي السلكوزيس (Selicosis) والدرن ، والانكلستوما ، والاسقربوط (قلة فيتامين ج)

وتمنع الاصابة بالانكلستوما برش ملح الطعام في أرض المراحيض وداخلها، ثم غسيل المقاعد والجدران مرةً أسبوعيًّا بمحلول ملح الطعام في الماء بنسبة ٢٠ ٪

ويمنع مرض السلكوزيس ، الدرن الرئوي باستعمال المياه ووسائل التهوية . وعليه يجب استعمال المياه في كل عملية تثقيب كما يجب ، بل قطع الصخور قبل نقلها بالمياه. ويتحتم أيضاً رش المياه على صدر المنجم باستمرار . ووقت النسف تذر المياه في الهواء بشكل نوافير تفصل بين موضع النسف ومكان العمال ، على ان تستمر هذه النوافير لحين زوال كل الأبخرة والأتربة بالغسيل . ولما كانت المياه ليست كافية لمنع ذرات الصخور التي تسبب مرض السلكوزيس، فان تهوية المنجم ضرورية جدًّا . وتعمل عملية النسف بعد ابعاد كل العمال حتى القائمين بعملية النسف (وذلك باستعمال آلات ناسفة خاضعة للتوقيت) (time fuses). والتهوية ضرورية لخفض درجة الحرارة داخل المنجم . وتعمل التهوية بوضع الشفاطات عند مدخل المنجم، وارسال الهواء تحت ضغط داخل المنجم بواسطة أنابيب (Venture Tube) ويلزم وضع الترمومتر ذي المخزن الجاف والرطب (Dry and Wet Pub Thermometre) وقياس كمية ثاني أوكسيد الكاربون باستمرار داخل المنجم .

ويشترط أن تكون وسائل الاسعاف متوفرة بكل جهات المنجم ، وهي عبارة عن صندوق معدني يحوي الأربطة والأجهزة والعقاقير ونقالة وبطانية.الخ .. وان يمرن كل موظف وعامل نبيه على استعمالها .

ويستحسن الكشف طبيًّا على كل عامل قبل التحاقه بالمنجم ، وإعطائه شهادة بجودة صحته وخلوه من الأمراض . وان يعاد هذا الكشف على فترات . وان تستعمل الأشعة السينية في الكشف ، وكل عامل يقل وزنه يعزل لفحصه طبيًّا . ويفضل في المناجم الكبيرة انشاء مستشفى صغير مجاور.

ويشترط في الغذاء ان يكون كاملاً ، ويعطى فيتامين (ج) في مرض الأسقربوط أقراصاً أو بشكل عصير برتقال .

ولو ان تعدين الذهب لا يشمل التسمم باحدى الغازات إلاَّ أن جواز حصول انفجار

مادة النسف داخلة أو احتراق خشب أو خلافه ، يتطلب الاحتفاظ بأسطوانة أكسجين لاسعاف الاختناق .

﴿ الفوسفات ﴾ يستخرج الفوسفات من منجم « السيد » حيث تديره شركة بلغ ما باعته منه سنة (١٩٤٨) ٢٩١٠٠٠ طن .وقد باعت في سنة (١٩٤٧) ٢٨٩٣٣٨ طنـا بمبلغ ٩١٠٤٣١ جنيهاً . وفي « السباعية » بالقرب من أدفو مناجم للفوسفات تستغلها شركة أجنبية. وقد استخرج منها عام (١٩٤٨) ١٦٨٠٠ طن . والفوسفات من أهم المواد التجارية . وأهم هذه المواد هي : اولاً — المعروفة باسم الأسمدة الأوزوتية . وهذه تشمل كبريتـات وازوتات النشادر، وسياناميد الجير، واليوريا، وفوسفات اليوريا . وثانياً — الأسمدة الفوسفاتية — وهي التي تهمنا هنا — وهي تتواجد بشكل (captite, phosphorite, Natural phosphates) أو الفوسفات الطبيعية — رماد العظام bone ashes Mono calcic bicalcic phosphates مثل السوبر فوسفات وفوسفات العظام)

وبعد استخراج الفوسفات الطبيعية تغسل وتفرز وتفتت وتنخل (Cifted) ، ثم تعالج بالمواد الكيميائية، ثم تعبأ . وكل هذه العمليات يصحبها تشبع الهواء بالأتربة . وبعض هذه الأتربة مهيج ، والبعض الآخر كاو Caustic للأغشية المخاطية والجلد . وهناك علاوة على ذلك أخطار الحريق والانفجار وكثيراً ما تؤثر أتربة هذه العملية على ملتحمة العينين وأغشيـة الأنف فتسبب في الأخيرة انثقابها . وأما ملتحمـة العين فسرعان ما تتأثر من Super phosphate لما تحويه الأخيرة من فوسفات الجير وما يحدثه من التهاب الى تورم الى عتامة القرنية .

ويتحتم عمل عمليات الأتربة في آلات مقفلة بإحكام وان تكون عملية التعبئة في مكان به مخلخلات الأتربة (Exh nst) ويجب اتخاذ الحيطة ضد الحريق والانفجار وان تمنع الأتربة عن العمال باستعمال الكمامات والمناظر (goggles) الخاصة وملابس خاصة بالعمل ولبس أحذية بعنق عال وقباقيب (Sabots) ودورات مياه كافية وحمامات من نوع (الدوش) douche

وتحضر السوبر فوسفات بمزج مادة (Tricalcic Phosphate) بحامض الكبريتيك وبذا تستخرج أكبر كمية ممكنة من حامض الفوسفوريك Phosphoric acid وهذا يعني أولا الاهتمام ضد أخطار حامض الكبريتيك الغير نقي مادة والقابل للانفجار واحداث اختناق من غاز (Nitrous gas) وغاز الأيدروجين . وغاز (Arsinuretted gas)

وثانياً . العناية أثناء عملية تفتيت الفوسفات الطبيعية . وهذه تستخرج عادةً كتلاً كبيرة ثم تفتت في حالتها الجافة، وهي عملية تحدث كثيراً من الأتربة . وكانت عملية التفتيت تعمل بالأيدي. ثمّ استعيض عنها بالآلات الميكانيكية . وهذه الآلات ترفع كتل الفوسفات بأونشات ، ثم تنقلها الى المطاحن في مكان محكم الغلق مركب عليه (شافطة) مخلخلة الغبار . وبعد الطحن ينقل المسحوق لتحليله . ومخـاطر عملية التفتيت والسحق هي كالمذكورة أعلاه تحت (الفوسفات) .

أما مخاطر عمليــة التحليل (Disintigration) أو عملية مزج الفوسفات مع حامض الكبريتيك فيصحبها دائماً تولد غازات ضارّة . وكان المزج يعمل قبـلاً في قنوات مكشوفة ويحدث حينذاك أثراً سـيئاً على العمال والجيران . لـكن الآن يعمل التحليل في قاعون كبير مغلق . وبهذه الـكيفية أبعدت أخطار العملية واستفيد من الحرارة العظيمة الناتجة من هذا المزج . وبعد الفراغ من عملية التحليل هذه يصب السائل في مكان مخصوص يقع عادة أسفل مكان التحليل . وجميع الغازات المتصاعدة من السوبر فوسفات تخرج عن طريق أنابيب ، وتعالج بالـكيميائيات حتى تصبح غير ضارة قبل تعرضها للخارج .

وبعد الفراغ من عملية التحليل وتخزين سائل السوبرفوسفات تبدأ عملية تجفيف هذا السائل . وهنا يحصل التأثير السيء على الجلد، والغشاء المخاطي لعيون وأنوف وشعب العمال، وقد سبق الـكلام على ذلك تحت الفوسفات . ويجفف السائل عادة في درجة ١٠٠° سنتجراد والى فتتعرّض العمال إلى خطر السلق . وهنـاك يجب ارتداء ملابس خاصـّة، وكمامات وأحذية الخ .

وبعد عملية التجفيف تأتي عمليــة السحق . لأن التجفيف يخلف كتـلاً كبيرة من السوبرفوسفات تحوي بعض الميـاه . ولذلك وجب سحق هـذه الـكتل كي تجفف السوبرفوسفات تماماً . وهنا تتصاعد غازات ضارّة . ولـكن هذه العملية تعمل الآن في آلات محكمة عديمة المخاطر .

بعد ذلك تعبأ السوبرفوسفات وتشحن إلى الجهات المطلوب نقلها إليها . وليلاحظ أن عملية التخزين تحدث تحجراً للمسحوق مما يتطلب اعادة سحقه ونخله . وعملية السحق هذه تسبب كثيراً من الحوادث للعمال لأنها كثيراً ما تعمل بالأيدي .

الدكتور حسن كمال بك

مدير عام مصلحة الصحة الاجتماعية

حجة فلسطين

ومن ذا الذي كتبها لليهود ؟[1]

موضوعي اليوم تاريخي وكل مستنداتي فيه التوراة . والتوراة كتاب مقدس يعترف به اليهود والنصارى والمسلمون . ولكن أي توراة ؟

وقضيتنا الآن ما هي حجة اليهود في إدعاء أمرين . الأول : إنهم شعب الله المختار . والثاني . إن فلسطين أرض الميعاد التي وعدهم الله بها ملكاً لهم . وسندهم في هذه الملكية وتلك الدعوى هو التوراة ، والنصارى يعترفون بالتوراة كما وصلت إليهم من أيدي اليهود . واليهود لا ينكرون ان التوراة التي يتداولها النصارى وقد طبعوها ونشروها بعدة لغات هي ترجمة صحيحة عن العبرية للتوراة التي بين أيديهم . ونحن نحاسبهم على دعواهم هذه بموجب توراتهم .

ومعلوم أن الانسان في كل زمان يجب أن يكون حائزاً لحجة تثبت ملكيته للعقار الذي يدّعيه لنفسه سواء كان طيناً أو عمارة أو نحو ذلك . حتى في عصرنا هذا يجب أن يكون في يدك وثيقة يسمونها « فاتورة » تثبت انك اشتريت هذه الحلية من الصائغ فلان وإن هذه السيارة اشتريتها من التاجر فلان الى غير ذلك .

فلنرَ الآن ما هي حجة اليهود بأرض الميعاد التي وعدهم الله بها . وبأنهم أخصّاء الله ، وإن الله ، أعني اللّهُهُم ، هو إلههم وحدهم ، وإن جميع الأمم الأخرى ليست من عباد الله . فهم محتكرو الله دون سائر الأمم استغفر الله . هم محتكرو يهوه . وبهذا الاختصاص أحل اللههم لهم أملاك الأمم الأخرى وأرزاقهم وأمتعتهم .

فلما همَّ موسى أن يقود بني اسرائيل من مصر الى فلسطين كان يمنيهم بملكوت الله في فلسطين ، وإنه لهذا يقودهم إلى هذه البلاد حاسباً إياها أرض الميعاد التي خصها الله بهم . إن هذه الأرض ملتقى جميع بني اسرائيل بحسب يقين اليهود . وكان موسى يغريهم بأن هذه الأرض تفيض لهم لبناً وعسلاً (أنظر سفر الخروج الاصحاح الثالث عدد ٦ إلى ١٠)

---

(١) محاضرة القاها العلامة الاستاذ نقولا الحداد في النادي الشرقي بالقاهرة في ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ .

وإن الله يدفعها لهم منها فيطرد الكنعانيين والأموريين واليبوسيين والحثيين والفرزيين والحويين والصيدونيين إلى آخر من فيها من الأمم الأخرى التي ليست من شعب الله (أنظر سفر الخروج الاصحاح ٣ عدد ١٧). وقد حلل لهم أراضيهم ومواشيهم وبيوتهم وأثاثهم وفرشهم ولحفهم وآنيتهم. كذا كان موسى وهو يقودهم من مصر يزين لهم الثروة والغنى والسعادة.

ولما عزموا على الرحيل أوعز الله إلههم أن يستعيروا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين (أنظر سفر الخروج الاصحاح الثاني عشر العدد ٣٥ و٣٦). وفي اليوم التالي رحلوا وتلك الأمتعة معهم كغنيمة باردة.

يا لله! ما هذا الإله الذي يوعز إلى قوم أن يسلبوا قوماً آخرين؟. أليس جميع الأقوام هم من خلائقه؟. وقصة فرار الاسرائيليين من مصر وإقامتهم في سفح جبل سينا مدة ٤٠ سنة إلى أن أتى الوقت المناسب للزحف إلى أرض الموعد، هي قصة معروفة جيداً عند كل منا.

ولما وصلوا إلى هدفهم كان موسى قد شاخ وهو في أرض عربات مواب، وصعد إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة حيث أراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وما يليهما. قال له: هذه هي الأرض التي أقسمت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها، قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر (أنظر سفر تثنية الاشتراع ٣٤ - ١ إلى ٦) لأنك أنت وأخاك هرون خنتماني في وسط اسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية جنين إذ لم تقدساني في وسط اسرائيل (تثنية ٣٢ — عدد ٥٠ و ٥١). ومات موسى في أرض جلعاد، ولم يدخل أرض الميعاد. ودخل شعب اسرائيل أرض الميعاد بقيادة يشوع خليفة موسى.

وحين كان الاسرائيليون في برية سينا أمر الرب موسى أن يصنع خيمةً عظيمةً كهيكل يعبده فيه شعبه. ووصف له كيفية صنعها وأماكن الذبيحة فيها. وجعل في صدرها الأقصى مكاناً لتابوت العهد الذي وضع فيه اللوحين الحجريين اللذين كتب الرب عليهما بأصبعه وصاياه العشر. وسمى ذلك الصدر قدس الأقداس. ثم أملى عليه الرب المرة بعد المرة شرائعه. وكان موسى يذيعها على الشعب. ولم يكن يكتبها لأن الكتابة في ذلك العهد لم تكن كالكتابة اليوم، فكان مستحيلاً أن يكتب بها شرح طويل. وكان الله منذ استقدم ابراهيم الخليل من اور الكلدانيين منذ ٢٣٠٠ سنة قبل المسيح يمني نسله بأن يجعلهم

كنجوم السماء في الكثرة (أنظر تكوين ١٥ — ٥) وكتراب الأرض (١٣ — ١٦) وانه يعطيهم الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً (خروج ٣ — ١٧)

وها قد مرَّ على هذا الكلام أكثر من ٤ آلاف سنة منذ ابراهيم الى الآن وعدد بني اسرائيل لم يزد على ١٥ مليوناً . فهل كذب الله عليهم ؟ حاشا . بل الحقيقة إنه لم يعد هذا الوعد لأحدٍ .

كل هذا كُتِب في الأسفار الخمسة الأول من التوراة، وهي أسفار التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية . ولهذا سُميت هذه الأسفار الخمسة بأسفار موسى الخمسة. وكان المعتقد ان موسى كتبها بيده لولا أن خبر وفاته مذكور في آخرها . ولا يعقل أن موسى نعى نفسه وكتب خبر وفاته بيده . ويفسر المفسرون هذا أن يشوع كتبها أو أتم بها السفر الأخير . والحقيقة انه لا موسى ولا يشوع كتبها لأنه لم يكن في زمانهما كتابة. وإنما كانت لعهدها الكتابة الهيروغليفية التي كانت محصورة بالكهنة المصريين . وإنما هذه الأخبار كتبها اليهود بعد رجوعهم من سبي بابل ، وبين العهدين سبعة قرون كما سيأتي بيانه.

فوعد الله لابراهيم ولموسى وجميع بني إسرائيل انه سيملكهم فلسطين مُسند الى التوراة التي في أيدي اليهود الآن ، واسفارها الخمسة الأول . أعني أن الحجة التي في يد اليهود بامتلاك فلسطين هي في هذه الأسفار . فلنرَ من كتب هذه الأسفار .

اليهود يزعمون أن كاتب هذه الحجة موسى بأمرٍ من الله ، أو من الرب، وإنها مسجلة في التوراة تسجيلاً رسميًّا . ولكن أي توراة .

فلنبحث في هذه الدعوى :

خرج الإسرائيليون من مصر سنة ١٢٥٠ قبل المسيح . هذا بحسب ما يستنتج من توراتهم ، في ذلك العهد كان أرقى نوع من الكتابة هو الخط الهيروغليفي المصري لعهد الدولة المصرية العشرين التي استمرت من سنة ١٢٠٠ الى ١١٠٠ قبل المسيح . وكانت الكتابة الهيروغليفية كتابة تصويرية . أي كانت الأسماء تصوَّر بمسمياتها . فاذا أرادوا أن يكتبوا بيتاً رسموا بيتاً ، أو شمساً رسموا الشمس ، أو عجلاً رسموا العجل ، وهكذا دواليك . وكانوا يستعيرون للمعاني أحياناً رسوم الأشياء، فاذا عنوا نوراً أو لمعاناً رسموا شمساً أيضاً . وعلى اللبيب أن يفهم بالقرينة . ومع ذلك لا يفهم اللبيب ، بل كان سلفه يعلمه إياها . وهكذا كانت كتابتهم تنتقل بين الكهنة من السلف إلى الخلف بالتلقين والتعليم ، ولما في كتابتها وحفظها من المشقة لم يكتب بها إلاَّ نقشاً في ألواح حجرية، أو على مسلات، أو جدران ، أو لحود قبور . ولذلك لمَّا أراد موسى أن يتلقى وصايا الله العشر صعد الى

«جبل سينا » ونحت حجرين وبقي عدّة أيام هناك إذ كتب الله عليهما بأصبعه وصاياه العشر . هذا إن صحت الرواية أن لله أصبعين يكتب بهما . والحقيقة أن هـذه القصة من أولها إلى آخرها ملفقة . وما كتبت إلاّ بعد سبعة أو ثمانية قرون من خروج بني اسرائيل من مصر كما سنبينه فيما بعد .

فجميع الكتابات التي تلقيناها عن مصر والمصريين في الزمن القديم لم تكن تتجاوز صفحات ألواح حجرية أو جدران أو مسلاّت حتى الدولة العشرين وما بعـدها ببضعة قرون . وفي سنة ٩٩٦ قبل المسيح جاءَت الدولة الليبية إلى مصر وحكمتها . وعن طريقها تطرّق اليونان والرومان الى مصر . فتطوّرت اللغة والكتابة بعض التطوّر وتحوّلت الهيروغليفية إلى كتابة تسمى هيراتيك كان يمتزج بهـا شيء من الأحرف الصوتيـة (فونتيك) التي يعطى بها لكل مقطع صوت حرف . ويقال ان هذا الاصطلاح بالكتابة والتعبير كان من اختراع شخص فينيقي يسمى قودموس، وبقي الحرف الهيروغليفي معمولاً به حتى القرن الثـالث قبل المسيح ، إذ تغلّب عليه الحرف الشعبي المسمى ديموتك الذي تغلب فيه الحرف الصوتي .

وفي أشور وبابل كانت الكتابة تسير الهوينـا كما كانت في مصر تماماً . وكانت الكتابة على الحجر وعلى الآجر إذ كان يشوى بعد الكتابة .

لما صارت الهيروغليفية تتطوّر وتتحول إلى هيراتك صار يُزَجّ فيهـا بعض رسوم تدل على حروف صوتيـة . وصار يمكن أن يتركب فيها بعض أسماء وكلمات . ومنذ الدولة الخامسة والعشرين أي دولة البطالسة التي كانت قبل المسيح بنحو ٣ أو ٤ قرون ابتدأت الكتابة الشعبية تعم (ديموتك) .

وحاصل القول أن الكتابة لعهد موسى لم تكن إلاّ رسوماً، وكانت مقتصرة على بضع مئين من الرسوم . وكانت محصورة في الكهنة . وكتابة كهذه لا تسع خمسة أسفار أي خمسة كتب مطوّلة يدون فيهـا موسى تاريخ شعبه وشرائعه وأسماء قبائله وأسباطها إلى غير ذلك من مطولات التاريخ . ولم يكن في ذلك الزمن ورق ولا بردي ولا رق غزال أو رق من جلود الحيوانات الصغيرة لكي يكتب عليها. ولهذا كتب الله وصاياه العشر على لوحين من الحجارة إن صحت الرواية . إذن من غير شك لم تكتب أسفار موسى الخمسة في عهد موسى حتى ولا بعد موسى بمئات من السنين لأن الكتابة الهيروغليفية لا تحتملها وموسى لم يكن يعرفها .

إذن من كتب الأسفار الخمسة وسائر أسفار التوراة ؟ ومتى كُتِبت ؟ هنا بيت القصيد بعد أن استتب اليهود في أورشليم لعهد الملوك الأول جعل سليمان يبني الهيكل المشهور حسب تصميم الخيمة التي وضعها موسى وهو في برية سينا ، أو بالأحرى حسب تعليمات كان يتلقنها موسى من الله حين صنع الخيمة . فصنع سليمان الهيكل حسب وصف الخيمة، كما هو في سفر الملوك الاصحاح السابع فما بعد . وكان بناء هذا الهيكل في سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر (أنظر أول الاصحاح السادس من سفر الملوك الأول)

وكان سليمان يسرف في بناء هذا الهيكل ، فما خلّى ولا ترك ذهباً وفضة في مملكته إلاّ استعمله لهذا الهيكل . ولا ريب أنه بنى قصره وكبار رجاله بنوا قصورهم بمثل هذا البذخ . فكان هذا البذخ مشوّقاً لملوك بابل وأشور أن يغزوا فلسطين من حين إلى آخر لكي ينهبوا هذه النفائس .

وغزا نبوخذناصر ملك بابل أورشليم أربع مرات ، وفي كل مرة كان يسبي أهلها وينهب ما يشاء . وآخر مرة غزاها ودمر الهيكل وسبى جميع أهلها . وسمي هذا السبي بسبي السبعين . وكان النبي أرميا ينصح للملك صدقيا (ملك إسرائيل) أن يسلم المدينة والهيكل لنبوخذ ناصر (أو بختنصر) لكيلا يهدم الهيكل . ولكن صدقيا لم يسمع نصيحة أرميا فقبض عليه نبوخذ ناصر وقوّر عينيه وقتل إبنيه وعفا عن أرميا .

وكان أرميا قد شعر أن نبوخذ ناصر إذا دخل أورشليم فلا بدّ أن ينهب الهيكل ويدمره . فأسرع هو وبعض اللاويين واستخرجوا تابوت العهد وفيه اللوحان الحجريان وبعض الأواني الثمينة وحملوها إلى مغارة في جبل نبو في أرض موآب قبالة أريحا ودفنوها هناك وعادوا ولم يعودوا يعرفون أين دفنوها . ولكن أرميا قال لهم متى عاد بنو اسرائيل إلى أورشليم من سبيهم هداهم الله إليها [١] .

وفيما كان كهنة اليهود في أسر بابل كان دانيال معهم وهو زعيم كهنوتهم فكانوا يطلعون على أساطير البابليين والأشوريين ويدرسون شرائعهم وتقاليدهم . وكانت حينئذ

(١) بعد الحرب الكبرى الاولى جاءت بعثة أثرية من أميركا برئاسة علامة أثري يدعى الدكتور فرر (والغالب ان البعثة يهودية) جاءت الى فلسطين للبحث عن تابوت العهد ، فاذا وجدوه حققوا وعد أرميا ان الله يرشدهم الى التابوت متى عادوا الى أرضهم ، وعلموا ان ميعاد العودة الى أرض الميعاد قد حان فيبذلون جهدهم في العودة ، ولكنهم بقوا هناك يبحثون وينقبون فلم يقفوا على أثر . والدكتور فرر يزعم انهم حصروا الارض التي فيها التابوت في كيلو متر مربع . وبعد بضع سنين عادوا خائبين ، على ان يجهزوا حملة أخرى أغنى وأقوى ، ولكنهم لم يعودوا حتى الآن . ولا يبعد ان يزيفوا تابوتاً ولوحين آخرين ، ويقولوا ها قد وجدنا التابوت ومحتوياته ، ويرونا خط أصبع الله المزيف ، وهم أقدر من زيف ولفق .

شريعة حمورابي شريعتهم الرسمية . وكان حمورابي هذا بطلاً عربيًّا، وقد غزا بابل وفتحها وحكمها هو وخلفاؤه أكثر من قرن . فدرس الإسرائيليون هذه الشريعة واقتبسوها .

وكانت الكتابة قد تطوّرت حينئذٍ وتحوّلت تدريجيًّا إلى حروف صوتية . وكانت قوام اللغات السامية ولا سيما الآرامية والفينيقية . وصار ممكناً أن يكتب بهذه اللغات وحروفها مطولات ومتون على رق الغزال

وفي ذلك الزمان غزا كورش الفارسي بابل وفتحها فتقدم إليه اليهود الأسرى وتوسلوا إليه أن يطلق سراحهم فأعطاهم عطايا لكي يستعينوا بها على بناء هيكلهم. ولما عادوا إلى بلادهم وشرعوا يبنون هيكلهم ، كان أول ما فعلوه انهم جعلوا يضبطون شرائعهم ونظام عبادتهم وطقوسهم ونحو ذلك وأخذوا يدوّنون تاريخهم أيضاً حسبما تلقفوه عن آبائهم وأجدادهم.

منذ ذلك الحين جعلوا يكتبون أسفارهم الخمسة بالتدريج . وكان ذلك بعد سبع قرون من خروجهم من مصر أي منذ وفاة موسى . ومن محاسبهم فيما يكتبونه من تاريخ وأساطير وحوادث وشرائع . كتبوا أخبار ابراهيم واسحق ويعقوب كما زين لهم الغرض والأمل . كانوا يضعون نصب أعينهم فكرة إن الله وعدهم بكذا وكذا وكيت وكيت فمن يقول لهم انكم كاذبون ، إن الله لم يعدكم بشيء . ورووا قصة خروجهم من مصر ومكثهم في البرية ٤٠ سنة إن كانوا قد خرجوا وإن كانوا قد وُجدوا في مصر، وليس في توراتهم ما يدل على أنهم رحلوا إلى مصر كما خرجوا منها . من يقول لهم إنكم لستم صادقين ، إنكم تكذبون عن لسان الله . وبعد ذلك لفقوا ما شاؤوا عن حروبهم مع الكنعانيين والأموريين وغيرهم من قبائل ذلك القطر على ما في رواياتها من التنكيل والتفظيع بعباد الله بقيادة زعيمهم يشوع خليفة موسى . وهم بكل وقاحة ورجاسة وتجديف يزعمون إن الله كان يأمرهم بأن يهجموا على المدن ويقتلوا كل من فيها بحد السيف ، ولا يعفون عن طفل ومرأة ورجل وشيخ ، وأخيراً أن يحرقوا المدينة . فابتدأوا بأريحا إذ كانت أول مدينة أمامهم ، ثم بعدها مدينة عاي، ثم مدينة مقيدة، ثم جيعون، ثم لخبش، ثم عجلون، ثم جدون، ثم دبير الخ «فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها لم يبق شارداً، بل حرّم كل نسمة كما أمر الرب إلــه اسرائيل فضربهم الرب من قادش برنيع إلى غزة وجميع أرض جوش إلى جبعون . وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك دفعة واحــدة لأن الرب إلــه اسرائيل حارب عن اسرائيــل (أنظر سفر يشوع الاصحــاح العاشر عدد ٤٠ الى ٤٣)— بل اقرأ جميع الاصحاحات العشر من سفر يشوع تَرَ فيها ما تقشعر له الأبدان من التفظع والتنكيل .

[يتبع]

نقولا الحداد

التقاليد
عنقاء موهومة

الحرية كلّ لا يتجزأ . فاما أن تكون حرًّا ، وإما أن تكون عبداً . فإن انتقاص شيء من حرية الفرد ، طريق ممهود أمام المستبدين ليسلبوا الحرية جميعاً وكذلك الحال في قضية المرأة : فهي إما أن تكون حرة كبقية المخلوقات ، وإما أن تكون رقيقاً . أما الحدود الوسطى التي يريد بعض عشاق التقاليد أن تقف حرية المرأة عند حدّ منها ، فهي القيد ، وهي الاستعباد وهي الرق .

يخشى الذين يظهرون الحدب على المرأة أن تكون الحرية سبيلاً إلى انحلال أخلاقها . ولأي سبب ، بل لأي سنة من السنن تكون الحرية سبيل الفساد والفسق والفجور إذا كانت من نصيب المرأة ، وتكون سبيل الرشاد والفضيلة إذا كانت من نصيب الرجل ؟ بأية قوة سحرية ينقلب الذهب في يد الرجل ، رصاصاً في يد المرأة ؟

ثم : لماذا ننظر في حرية المرأة المسلمة ، نظرة تختلف عن نظرتنا في حرية المرأة على الإطلاق . اللهمّ إلاّ أن نكون على اعتقاد أن الجوهرة في يد المسيحيـة أو البوذية أو الزرادشتية ، تنقلب حجراً خسيساً في يد المسلمة ، وإلاّ أن نسلم أن أثر هـذه الأديان في النفوس أخـصّـن للنساء من أثر الإسلام .

يصوّر لأصحاب التقاليـد الآثار التي تترتب على حرية المرأة وتمتعها بحقوقها المدنيـة والسياسية ، بصورة انتكاسية ، إذ يخيّـل إليهم أن الحالات القائمة اليوم في عالم المرأة هي أسمى وأحكم وأفضل ما يكون ، وإنه ليس في الإمكان أكرم ممـا كان ، ويخيل إليهم أن الحالات التي تقوم إذا نالت المرأة حقها الطبيعي ، هي أخَسّ وأسف وأرذل ما يتصوّر . والحقيقة أنهم واهمون . فالرجل هو الرجل، والمرأة هي المرأة، في كل العصور وفي مختلف

الأطوار . في كليهما من النقائص والكمالات ما خلت الطبيعة في لوح الحياة . ما زادت الحرمانات التي نزلت بالمرأة في خلال العصور المرأة فضيلة ، ولا زادتها رذيلة ، فقد ظلت المرأة هي المرأة . فهي نبت رأي للطبيعة فيها لا يتبدّل ولا يتغيّر . وإنما يتبدل في المرأة العادات والنزعات . فإن الحرمانات تحملها على اللجوء إلى فكرات السوء ، بقدر ما تحملها الحرية على فكرات الخير والجمال .

هل انتكست الأخلاق ذلك الانتكاس الموهوم الذي يتخيله أسيادنا أصحاب التقاليد في كثير من بلاد أوربا عند ما تحررت المرأة من أسر الرجل ؟ هل شاعت فوضى الأخلاق وانحلت روابط الاجتماع ؟ كلا وألف مرة كلا . فإن أوربا لا تزال سيدة الدنيا حتى بعد أن تحررت المرأة فيها ، بل إنها زادت قوة الى قوة منذ أن شاركت المرأة الرجل في عالمي السياسة والاقتصاد .

أيراد بنا أن ننظر في قضية المرأة في الغرب وقضيتها في الشرق من زاويتين مختلفتين ؟. أما إذا أريد بنا ذلك ، فإنه ولا شك يلزمنا القول بأن المرأة الشرقية وبالأحرى المسلمة ، هي من طينة غير طينة النساء . بل يلزمنا أن نقول إن المرأة الشرقية والمسلمة بخاصّة ، أقل ائتماناً على فضائلها من المرأة الغربية . .وهذه على أية حال قضية فيها نظر ، لم يفصح لنا عنها أسيادنا أصحاب التقاليد .

* * *

إن الكلام في قضية المرأة على هذه الصورة إنما يقصد به الانتكاس لا الإصلاح . أما الذي اعتقده فهو أن هذه القضية الخطيرة ينبغي أن تعالج في ظل الحالات العالمية التي تساق فيها الأمم الآن ، لا في ظل حالات محلية ، تخلفت ملابساتها عن مقتضيات الحضارة مراحل كبيرة وأشواطاً طويلة .

أريد أن يعرف أولئك الذين ينادون بالتقاليد ، ما هي تلك التقاليد . أهي تقاليد الحريم والأغوات والدادات ؟ وإذا لم يكن هذا هو ما يعنون بالتقاليد فأي شيء يعنون ؟. أهي تقاليد التسري واتخاذ المحظيات ، وما يملك يمين الرجل من نساء ؟ أهي حبس المرأة واستغلال ضعفها ومنعها من التمتع بأية قدرة اقتصادية لتظل عالة على الرجل ، ورهينة لأمره ، ونهباً لنزواته ؟ أهي شريعة أن تمنع المرأة من كسب قوتها وإن مست إليه الحاجة ، لتظل إلى الأبد ذلك المخلوق الضعيف المهان المترهل الجسم والعقل والحواس ؟ أرجو أن يحدد القائلون بالتقاليد ، ماذا يعنون بها ، وإلا فإن هذه التقاليد تصبح ذلك الحصان المجنح الذي نقرأ أخباره في الأساطير .

ان الحياة الاجتماعية قد انقلبت آيتها . فلئن قامت الحياة الاجتماعية قديماً على قوة العضلات والجرأة والبطولة المستندة الى السيف والحربة والمزراق ، وكانت جميعاً من خصائص الرجل ، فانها تقوم اليوم على قوة الآلة ، لا آلة الحرب وحدها ، بل آلة المصنع ، كما أنها تقوم الى جانب المصنع على قوة العلم الذي يؤسس المصنع ويخترع الآلة ويوجه سياسة العمل . والأمم الحديثة إنما تعتمد في تشييد ذلك كله على ما يسمى « قوة الحشد » ونقصد به حشد جميع قوى الأمة ، ثم توزيعها على المرافق العامة توزيعاً يتوخى فيه التوجيه نحو الغايات التي تتطلبها الظروف ، أو تدعو اليها السياسة التي توجه فيها خطى الأمة .

ولقد شعرت الأمم بما يحفزها الى العمل على حشد القوى منذ أن بدأ الانقلاب الانتاجي الحديث ، إذ أخذت كل أمة تحشد من القوة ما يضمن لها التفوق في معركة التنافس التجاري والتناحر على الحياة . وإنما يتم الحشد بتعبئة قوى الأمة رجالاً ونساء .

بلغت هذه الحال قمتها العليا في الحربين الأخيرتين ، إذ بان جلياً أن الأمة التي تكمل حشدها تكون فرصتها في الفوز أكبر وانتصارها أضمن . ومن ثمت حتى الآن نرى العالم وقد أخذت كل أمة تحشد من قواها الانتاجية والمادية ، ما تتوخى به الفوز في المعركة المقبلة ، وإنها لمعركة واقعة لا محالة .

هذا في العالم المتحضر . أما في مصر التي تريد أن تلاحق أمم هذا العالم ، وتأخذ بأسباب الحضارة الانتاجية الصناعية ، فلا يؤمن أحد بما لقوة الحشد من أثر في القدرة على البقاء في عالم تستعد حشوده للمعركة الفاصلة ، وإنما يراد بنا أن نؤمن بالتقاليد : تلك العنقاء الموهومة .

أما أولئك الذين يقولون بأن روسيا قد رجعت خطوات بعد أن ظفرت الى حرية المرأة فيكادون لا يعرفون عن روسيا شيئاً . وإنما هم يلجؤون الى أقوال أشبه بأقوال ذلك الذي أتى بانسان وقال له كم عدد النجوم التي تظهر في الليل ، فلما عين رقماً موهوماً ، قال له أنت مخطىء . والواقع أن كليهما مخطىء ، ولا يعرف من الحقيقة الا وهماً يتراءى . أما الحق فهو ان الفتاة الروسية هي التي أنقذت ستالينجراد من السقوط في يد الألمان ، وبذلك ردّت جحافل الألمان عن الوطن الروسي . هي التي عبرت الفولجا في الظلام لتنقل الذخيرة والميرة للمدافعين عن مدينة الفولاذ . ولعلّ أولئك الواهمين لا يقولون أن ذلك هو السبب الذي نقم له الروسيون من المرأة فعملوا على ردها حريماً على الصورة التي يتمناها أصحاب التقاليد ؟

اسماعيل مظهر

عروس النيل

— ١ —

أعياد النيل عند قدماء المصريين

قرأت بصحيفة « الاهرام » الغراء بتاريخ ١٨ أغسطس سنة ١٩٤٩ ما كتبه حضرة الناقد الشهير الأستاذ أحمد الصاوي محمد بمناسبة عيد وفاء النيل في « ما قلّ ودلّ » إذ قال :

« أين عروس النيل ! ... أين ذلك الرمز الخالد للتضحية ، تفتدي بنفسها قومها »
« وبلادها ووطنها . . وتذهب راضية مرضية ، إلى أعماق النهر ، وينطوي ذلك الحسن »
« الأسمر الرائع في طيات أمواج النجاشي ».

عرف من الآثار التي استكشفت أن المصريين كانوا يقيمون للنيل احتفالات تشبه الأعياد ، ولم يذكر المؤرخون عنها إلاّ شيئاً قليلاً ، فمن ذلك ما قاله « پاين » المؤرخ الشهير في القرن الأول للميلاد إن المصريين في عصره كانوا يقدمون الغذاء للتماسيح ويلبسونها بعض الثياب في وقت الفيضان ويلقونها في النيل فتبدو ألوان الثياب الناصعة في منظر بهيج يروق الناظرين » .

والذي لا شكّ فيه أن كل الاحتفالات الخاصة بالمهرجانات التي تقام لفيضان النيل سنويًّا كانت بمنزلة فريضة دينية يحترمها الناس كاحترامهم للنيل (١) ، وكان رؤساء النيل يقيمون لها الزينات المعتادة للأعياد العامة .

وجاء أيضاً ما نصه : « يستقبل الشعب المصري بالفرح والسرور ظهور مياه السلسلة المقدسة ، فابتهاج النفوس وفرحها بمجيء النيل أمرٌ طبيعي ، ويجب أن يعد فيضانه في مقدمة الأعياد التي بحلولها يهنىء المصريون بعضهم بعضاً .

وجاء في أنشودة النيل المكتوبة في ورقة إنسطاسي البردية ما نصه : « أيها الفيضان

المبارك قدمت لك القرابين والذبائح ، وأقيمت لك الأعياد العظيمة ، وذبحت لك الطيور واقتنصت لتحيتك الغزلان من الجبال ، وأعدّت لك النار الطاهرة ، وقدّم لك البخور



(رقم ١) عروس النيل أو مصر هبة النيل

والنعم السماوية والعجول والثيران ، فتقبلها هدية شكر واعتراف بفضلك » ولم يذكر بها مطلقاً إلقاء عذراء في النيل (١) .

وجاء ذكر أعياد النيل في مائدة للقرابين محفوظة في متحف فلورانس ، ويرجع تاريخها الى ملوك الأسر الثلاث الأولى .

وقال « ماسبيرو » في هـذا الموضوع : « عند ما يصل الماء المقدس إلى جدران مدينة «سيين» (أسوان) يقدم الكهنة أو الحاكم أو أحد نوابه ثوراً أو بطـاً ، ويلقيه في الماء في حرز من البردي مختوم عليه ، ويكتب في الحرز الأمر الملكي الخاص بنظام الفيضان . ومتى رأس الملك نفس هـذا الاحتفال نقشوا في الصحراء وسجلوا هـذا الحادث تذكاراً تاريخياً . وإذا تغيب الملك عن الاحتفال ناب عنه الكهنة باحتفال عظيم ، حاملين تمثال المعبود سائرين به على ضفاف النيل والجسور مرتلين الأناشيد » .



رقم (٢)
المعبود حورس (أبولون)

ومن المستندات الرسمية الباقية عندنا الآن شواهد السلاسل الثلاث ، يرجع تاريخها إلى عهد الملوك رعمسيس الثاني ، ومنفتاح ابنه ، ورعمسيس الثالث ، وهي تنقسم الى جملة أجزاء ، فبعد مقدمة رعمسيس الثاني تقرأ أنشودة النيل، وخطاب الملك بالتهليل للمعبود، ثم القرار الذي يحدد تاريخ الأعيـاد ، ويلحق به كشف القرابين وملخص ترجمته كالآتي :

« في السنة الأولى والشهر الثالث من فصل الحصاد ، واليوم العاشر في عهد المنير كالشمس الملك القادر المحبوب من الحق ، صاحب التيجان حاكم مصر المنتصر على البـلاد الجبلية حورس الذهبي (رقم ٢) مديد العمر المبارك ملك الوجهين القبلي والبحري رعمسيس المحبوب من أمون أبي الآلهة الذي يمنحهم الحيـاة والبقـاء والقوة كالشمس الى الأبد فليحي الإلـه الطيب النيل الذي يحي النفوس بجوهره والثروة بثمراته (رقم ٣) أنت أيها الوحيد الذي تظهر من نفسك ، ولا يعرف أحد ما تحويه والكل يفرح بظهورك من مخبئك ، فيك تربى الأسماك العديدة ، ومنك تفيض الخيرات على مصر ، فأنت خلقت لأجلنا ، ويسر بك الناس والمعبود « نون » متى قدم له القرابين أهالي البلاد ، واتحدوا

معه في فرح التحية بقدوم النيل المضيء، بخيراته على البلاد تستفيض من صنع يديه وتتدفق ببركاته »

«وقد أمر الملك بتقديم القرابين لأبيه أمون رع (رقم ٤) ملك الآلهة مرتين في السنة في زمن مياه السلسلة المقدسة، وفي مكانه المكرم الذي لم تكن قبله مياه، حياة وسلام وقوة».



(رقم ٣)

نيل الوجه القبلي ونيل الوجه البحري حاملان ثمار النيل كالأسماك وزهرة البردي والأصل محفوظ بالمتحف المصري بالطبقة السفلى بالجناح الشرقي .



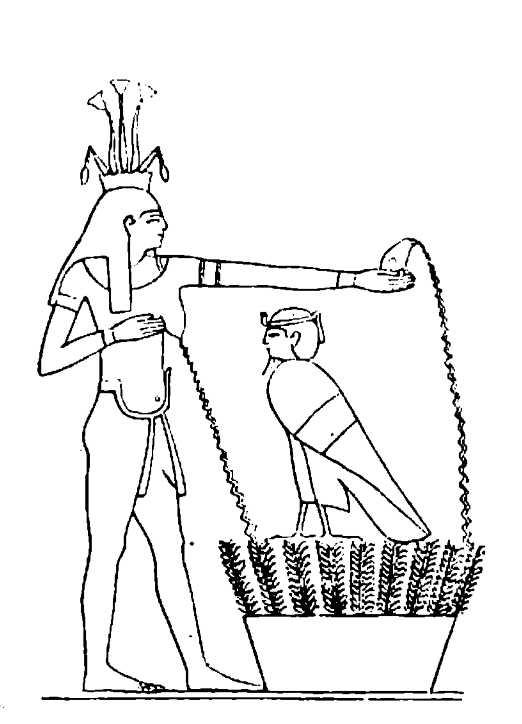
(رقم ٤) المعبود أمون رع ملك الآلهة

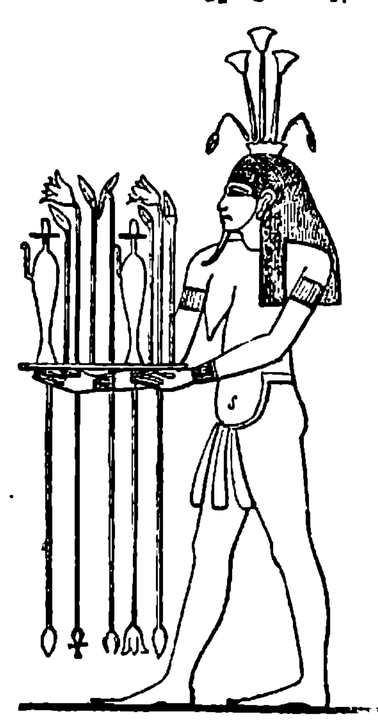
« فتقدم القرابين في اليوم الأول من شهر سايت ، وفي الخامس عشر من شهر توت ، وفي الشهر الثالث من فصل الفيضان، والخامس من شهر ابيب «كضريبة سنوية »

« ويلقي في النيل عجلاً أبيض، وثلاث أوزات وهدايا ثمينة، ثم الكتاب الشامل لتفصيلات المهرجان وأنواع الهدايا للإله أمون رع ملك الآلهة ورب مدينة طيبة »

إذن لم يلقَ بعذراء في النيل كما يزعمون

ومهما اختلف المؤرخون في تواريخ أعياد النيل ونماذج احتفالاتها ، فلا تخرج عباراتهم عن قول واحد وهو بذل جهدهم في مظاهر الأفراح عند بدء الفيضان ، وإلى ذلك أشار العالم الأثري « دي روجيه » إذ قال « في اليوم الخامس عشر من شهر توت جاء فيضان النيل في سلسلة ، وفي ١٥ أبيب صعد النيل فقدمت القرابين والهدايا للمعبود حعبي (اسم النيل المقدس) (رقم ٥)، وفي ذاك اليوم كانوا يلقون له ميثاقاً مكتوباً من ديوان الملك ، فيقبل النيل هذا العهد ولا يختلف عن وعوده ، فيمنح مواهبه أرض عبيده المؤمنين »

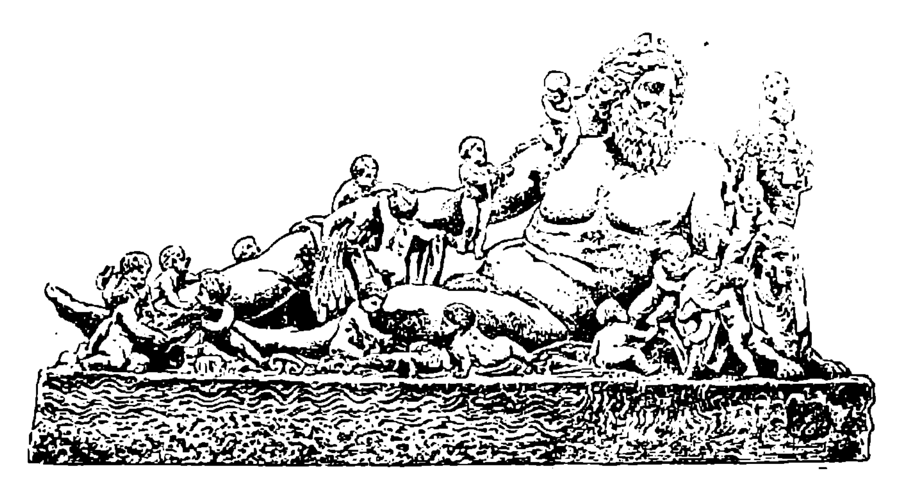




(رقم ٥) الاله حعبي (اسم النيل المقدس)

وفي نتيجة « مدينة هابو » تاريخ لأعياد يحتفلون بها ، ويظهر أن قدماء المصريين كانوا يحتفلون في يوم ٣٠ من شهر كيهك بعيد الصليب . قال بروكش باشا « العالم الألماني إنهم كانوا يحتفلون بهذا العيد في جملة مدائن مثل أدفو، ودندرة، واسنا »

وكانوا يجعلون لمقياس النيل (رقم ٦) عيداً خاصًّا فيحمل مقياس النيل في معبد سيرابيس .



(رقم ٦)—الشيخ والستة عشر طفلاً رمز للنيل، والستة عشر ذراعاً (المقاييس) والأصل محفوظ بالفاتيكان بروما ، ويرجع تاريخه للعصر الروماني

وروى سنيك الفيلسوف الروماني (في القرن الأول للميلاد) : «أن المصريين في عهد الرومان كانوا يلقون في نهر النيل القرابين ويلقي الحكام بعدها هدايا من الذهب وأنواع الحلي» .

ولا يزال تقليد الاحتفال بأعياد النيل باقياً الى يومنا هذا ، ولا نعثر على نص مصري يؤيد ما نسب الى قدماء المصريين من تقديمهم ذبيحة بشرية، في حفلة فيضان، أو لأجل ان يجود النيل على البلاد بفيضه السنوي

ويظهر أن منشأ هذه الخرافة قصة رواها «بلوتارخ» المؤرخ اليوناني في القرن الأول للميلاد ، وتناقلها عنه غيره من قومه، ومن الرومان، ومن العرب إذ قال :«اعتماداً على وحي أجيبتوس ملك مصر قدّم إبنته قرباناً للنيل ليخفف غضب الآلهة، وإنه بعد فقد ابنته ألقى بنفسه في النيل » .

فهذا القول هو أصل الاعتقاد بتقديم فتاة عذراء قرباناً للنيل المعبود كل سنة . ويكفي أن البداهة الذوقية تكذب هذا الزعم بعد العلم الراسخ بما كان للمصريين من القدح المعلى

في المدنيـة ورقة الشعور وسمو العواطف حتى مع الحيوانات العجم . فبالأولى تشمئز سجيتهم عن إلقاء فلذة كبد من أكبادهم في مجرى المياه المتلاطم الأمواج التي لا تبقي شيئاً من إرهاق النفوس واختطاف الأرواح من أجسادها ، ولم يكن العقل يستسيغ اقتراف هذا الجرم وانخداع النيل بارتكابه .

أما ذكر «عروس النيل» بلفظة «ربيت» المشار إليها في ورقة «هريس» البردية، فيكفي في إثبات أنه خرافة وخطأ ، إن لفظ «ربيت» هو علم على أحد أشكال النيل المؤنثة، وليس علماً على « عروس » كانت تلقى في النيل كما زعم بعض المؤرخين . والقول باستمرار العادة بالهدايا الذهبية والطيور والحيوانات لا ضرر منه ، وغاية ما يلتمس به العذر هو التفاؤل بأن يكون الفيضان سخيّـاً على مجموع الخلائق يجود بأعم ما تشتاقه النفوس .

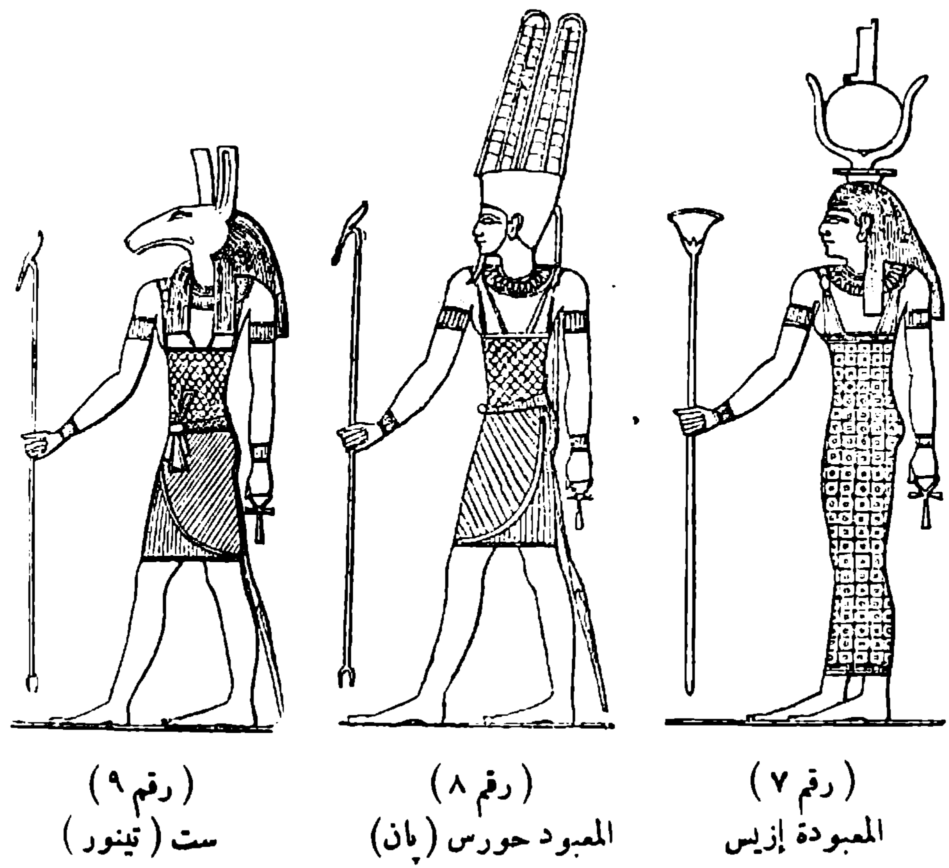
٢ – أعياد النيل في العصور الوسطى

استمر المصريون على ما ألفوه من عادات الأعياد ورسوم الحفلات، ولم يغيروا حفاوتهم بها مع ما طرأ على ترتيباتها من التفاوت في الرونق والأوضاع ومظاهر الزينة ، فهي كانت عرفية ووراثية وقومية ودينية إلى أن جاء الفتح الاسلامي بمصر، فمحا كثيراً من العادات، ولا تزال بعض آثارها باقية إلى يومنا هذا . وفي كثير من المتاحف بالمدائن الشهيرة بعض بقاياها الدالة على ما كان للنيل من المكانة في النفوس ، والنيل من حيث هو منبع الفيض والخيرات ، يبقى بمكانتـه العمرانية في أرفع مراتب التجلة والاحترام ، فهو كما تقدم كأنه انتزع من مساحات الصحراء كميات وافرة كانت مجدبة فألبسها حلة الرغد والسخاء ، وجعل القاطنين بها أغنياء بعد الفقر ، وذوي سعة ويسار ، بعد أن كانوا في حضيض الفاقة والضنك.

ولا زال الاحتفال بمهرجان النيل متبعاً في نوعيته إلى الآن، فكأن المصريين في محافظتهم على تقاليد آبائهم افترضوا على حكامهم احترام تقاليدهم وعقيدتهم في النيل المقدس

وكان من عقيدتهم في عهد الفراعنة أن دمعة المعبودة «إزيس» (رقم ٧) تنزل في النيل وتسبب فيضانه فبقيت هذه العقيدة الى العصر المسيحي ، وظن الاقباط أن النيل يفيض بنقطة إلـهية تنزل من السماء ، ونجد في النتيجة السنوية القبطية أنه قبل انقلاب الشمس في الصيف بأربعة أيام أي في اليوم الحادي عشر من شهر بؤونه يحتفل بعيد ليلة النقطة

السماوية التي تطهر الهواء ، وترفع الطاعون عن الأرض . ويقول البعض إن جبرائيل رئيس الملائكة يصلي قبل ذلك بثلاثة أيام ويدعو حتى تفيض مياه النيل فيسجد ويتوسل إلى ربه بأن يفيض النيل وينزل إلى الأرض المطر والندى ، ويحمل في يديه سيفاً لطرد الشيطان وإليه فيما يقولون يرجع فضل نزول النقطة الإلهية .

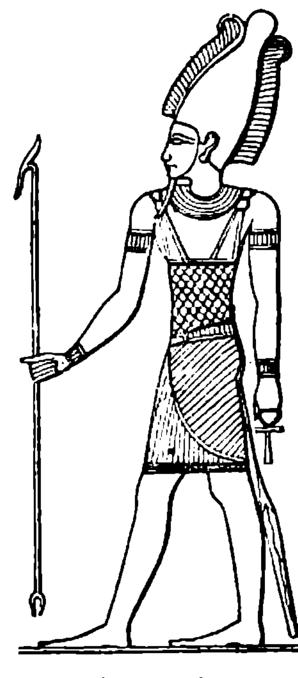


(رقم ٧)
المعبودة إزيس

(رقم ٨)
المعبود حورس (بان)

(رقم ٩)
ست (تينور)

فالأقباط حافظوا على تقليدهم القديم حتى أتت النصرانية ، وجعلوا يوم نزول النقطة عيداً . وقد جاء في بعض النصوص ذكر النقطة السماوية وليلة موج الدموع . وأن قصة قتال جبرائيل رئيس الملائكة للشيطان تشبه كثيراً قصة حورس (رقم ٨) المنتقم لأبيه من ست ، (رقم ٩) وأبيه أوزوريس (رقم ١٠) رمز الأرض السوداء الخصبة ، وست رمز الصحراء المجدبة .



(رقم ١٠)
أزوريس (ديونيسيوس)

ومتى حان وقت نزول النقطة يتوالى الفيضان ويرتفع الى درجته المعلومة . ومن العادات المألوفة الى اليوم أن بعض الناس اتخذوا المناداة للتبشير بمبادىء الفيضان في أوائله سبباً للإرتزاق بما يسديه إليهم الناس عند هذه البشرى ، فيهنىء بعضهم بعضاً بحلول موسم النيل كالتهاني المألوفة في الأعياد السنوية

ثم يأتي عيد زواج النيل، والاحتفال بقطع الخليج ، والقول بزواج النيل مبنيّ على تلك القصة الخرافية قصة القاء فتاة في النيل تلك الفتاة التي استبدل بها الى عهد قريب تمثال من الخشب يحلى بملابس ويزين بالقصب ونحوه . وأما الاحتفال بالنيل وإلقاء النقود ونحوها في مجراه ، فهذا على سبيل التفاؤل كما تقدم . ومن التماثيل الموجودة في متحف اللوفر تمثال رمزي يمثل النسر صنع مدينة الإسكندرية وهو يشبه أحد تماثيل النيل المحفوظة الى الآن بمتحف الفاتيكان في رومة . (راجع رسم ٦)

٣ — أعياد النيل في العصور الحديثة

نقل المقريزي في خططه عن ابن الحكم (صاحب كتاب «فتوح مصر» وغيره المتوفى سنة ٢٥٧ هـ — سنة ٧٨٠ م) من أخبار مصر أنه في سنة ٢٣ بعد الهجرة لما افتتحها عمرو بن العاص جاء إليه الأقباط وقالوا إن للنيل سنة لايجري إلا بها ، قال وما هي؟ فقالوا: إذا خلت اثنتا عشرة ليلة من شهر بؤونة من الشهور القبطيـة عمدنا إلى جارية بكر مليحة نأخذها من أبويها غصباً ، ونجعل عليها الحلى والحلل ، ثم نلقيها في بحر النيل في مكان معلوم عندنا . فلما سمع كلامهم قال هذا لا يكون في الإسلام أبداً . فأقام أهل مصر أربعة أشهر بؤونة، وأبيب، ومسرى، وتوت لم يزد فيها النيل لا كثيراً ولا قليلاً . ولما رأوا ذلك هموا بالجلاء عنها . ولما رأى عمرو بن العاص منهم ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فلما وصل إليه ذلك الكتاب وعلم ما فيه كتب بطاقة وأرسلها إلى عمرو بن العاص وأمره أن يلقيها في نهر النيل . فلما وصلت إليه تلك البطاقة فتحها فإذا مكتوب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر المبارك . أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله تعالى هو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك ، فلما وقف عمرو بن العاص رضي الله عنه على ما في البطاقة ألقاها في بحر النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد ، وعيد الصليب يكون في السابع عشر من شهر توت فأجرى الله تعالى النيل في تلك الليلة ستة عشر ذراعاً في دفعة واحدة »

وروى بعض السائحين بمصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد أن المصريين كانوا يلقون عروساً من الخشب في النيل. واليك وصف الاحتفال :

« يتألف الموكب من حاكم البلد وطوائف عديدة من الأقباط والعلماء والأعيان ورجال الدين والبطرك وفريق من رجال الاكليروس ، وتتبعهم الموسيقى وخلفها الجماهير يصفقون ويترنمون بالأناشيد: ثم يلقون العروس الخشب في النيل وقت فتح الخليج .

ولما أتى بونابرت مصر ترأس حفلة النيل باعتباره أكبر حاكم للبلاد ، ولا يزال المصريون يحتفلون بوفاء النيل ، ويقيمون الأفراح في كل الجهات احتفالاً به فيكون بالرونق والزينات عيداً مشهوداً .

وروى المؤرخون اليونانيون إنه كان لكل إقليم من الأقاليم المصرية القديمة آلهة خاصة، إلا أن جميع القدماء أجمعوا على تقديم فرائض خاصة للنيل ، وكان لفيضانه العجيب احتفال سنوي كعيد يبتهج به جميع أفراد الشعب .

وكان من عقائد القدماء إن لكل شيء روحاً، وحياة، وارادة ، وشخصية سامية، من هبات المعبود الأعلى ، وإن النيل يشفي من الأمراض ، وإن الأقباط والمسلمين وإن كانوا أبطلوا الاعتقاد بألوهية النيل ، لكنهم لا يزالون يصفونه بقولهم النيل المبارك . وفي زمن فيضانه كان البطرك يذهب إلى النيل مصحوباً بحاشيته إلى مصر العتيقة ، ويلقي في النيل صليباً من الفضة. وكان الترك يحتفلون به رسمياً، ومتى انتهى الاحتفال كانت الجماهير تلقي في النيل الحبوب والثمار والسكر والخبز والدراهم ، ويغتسل الأطفال في مياه النيل ، وبعض الناس يغتسلون أيضاً بأول ماء يمر في الخليج طلباً للشفاء وإزالة العقم .

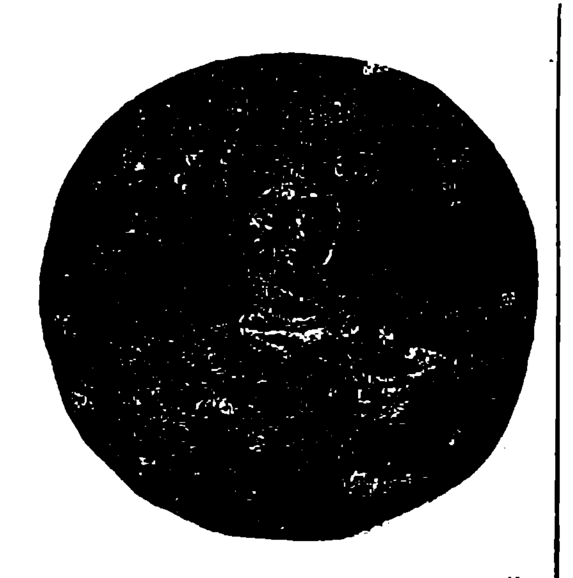
وكان من المتبع قبل اليوم المحدد لجعله يوم وفاء النيل أن يضعوا في مصر العتيقة تمثالين كبيرين عليهما أنوار مركبة على منصة من الخشب مسندة على مراكب، وهذان التمثالان يمثلان رجلاً وامرأة ويسميان العروسين

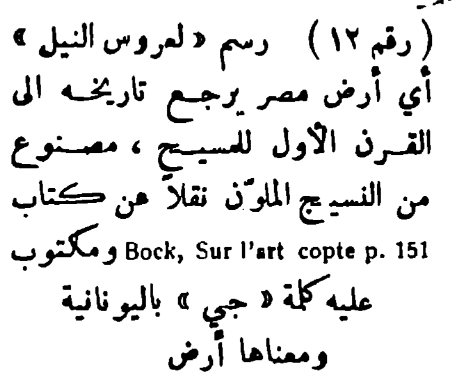
وكان من عادتهم صنع عروس أخرى من الطين ويلقونها في النيل يوم الفيضان .

وقال هيرودوت « إن المصريين كانوا يكرهون ذبح الحيوانات فمعقول جداً إن يترفعوا من ازهاق الأرواح التي قيل إنهم يقدمونها كقربان وضحية طلباً لوفاء النيل



رقم (١١) رسم « للنيل » يرجع تاريخه الى القرن الأول للمسيح والأصل بمتحف موسكو وهو مصنوع من النسيج الملون نقلاً عن كتاب Golénischef Risultats oviches logiques p. 57 ومكتوب عليه باليونانية « نيلوس »





(رقم ١٢) رسم « لعروس النيل » أي أرض مصر يرجع تاريخه الى القرن الأول للمسيح ، مصنوع من النسيج الملوّن نقلاً عن كتاب Bock, Sur l'art copte p. 151 ومكتوب عليه كلمة « جي » باليونانية ومعناها أرض

وليلاحظ ان كل أمة يدخل عليها دين جديد ينشر عنها خرافات كثيرة . وإذا تأملنا رواية ابن الحكم والناقلين عنه كالمقريزي وغيره ، يتضح لنا إنها خرافة مخترعة . نعم إن ابن الحكم نقل هذه عن اليونان كما نقل غيره أكاذيب أخرى في كتاب عنوانه « الأنهار » نسبوه الى بلوتارخ ، ودوّنوا به أن أحد ملوك مصر لما أبطأ فيضان النيل في بعض السنين ألقى ابنته فيه بأمر الآلهة واشتهر في الروايات ان الاحتفال يمثل (زواج النيل) الذي هو أزوريس (رقم ١١) بأرض مصر التي تمثل ازيس (رقم ١٢) فالمرجع في كل الروايات الى تصور خيالي ليس الا .

٤ — أنشودة النيل لقدماء المصريين

من لوازم الفطرة الراقية ابتكار الأناشيد في المناسبات التي ترتاح النفوس فيها الى الترنم بما يستطاب لأجلها افتخاراً واستلذاذاً واستبقاء لحسن الأحدوثة ، فيتداول الناس الأناشيد كلما تجددت الذكرى للاحتفالات ، والنيل عند قدماء المصريين قد اختصوه بما ألفوا من مظاهر الأفراح ودلائل المسرات عند فيضانه ومواسم أعياده . وقد خصوه بأناشيد رائعة تعرب عن شدة شعورهم ، ومن بينها الأنشودة التي نمقها في عصره الشاعر المصري القديم ووجدت مكتوبة في لوحتين على الورق البردي المحتفظ بها إلى الآن في المتحف البريطاني ، وترجمها العالمان الأثريان الشهيران « ماسبرو » و« جبس » وهما اللذان نقلاها من الشعر المصري القديم ، وقد ترجمتها الى العربية نظماً من الرجز

نسدي الى النيل سلاماً عاطرا ... لأنه قد جاءنا مباكرا
اليوم عيد النيل في بشراه ... فكلنا تسرنا لقياه
النيل يحيي فيضه بلاده ... وهي له تلازم العباده
منظره يروق للابصار ... وسره معجزة الأفكار
النيل يأتينا من الظلمات ... ليملأ الأكوان بالخيرات
يروي نداه أنضر الحدائق ... وينبت الأرزاق للخلائق
كأنه يأتي من السماء ... ليمنح الحياة للأحياء
يحيي موات الأرض في النواحي ... كأنه من عاملي فتاح
يجود بالخير (لسب) محسناً ... كما (لنبرا) قد أقر الأعينا

(٢)

النيل رب السمك المحبوب ... يأتي به من عالم الغيوب
ويخصب النبات في الغيطان ... والزهر والريحان في البستان
ينبت قمحاً وشعيراً جيدا ... ولن يصد النيل عنه أحدا
بالنيل ينجو من شقاء الدهر ... كل فقير من أهالي مصر
في نعمة النيل لهذا الوادي ... سعادة الحكام والأفراد
والبطء في الفيض يضر الخلقا ... ويغضب الرب الرحيم حقا

(٣)

فيوضه تأتيه من أتوم ... فتجتني من خيره المقسوم

وتنتفي أوهام كل خائف بالنيل فهو مصدر اللطائف

(٤)

كأنك الخالق للأشياء ومانح الضعاف بالنماء
ومن نداك نمنح القربانا فلا نخاف بعده هوانا
كل غني منك يرجو نعمته ويمنح المحتاج منها رحمته
فأنت للغني والفقير ملجأ كل الخير والتيسير

(٥)

أنت رئيس سفن الحياة تسري بها لساحل النجاة
أسرار مجراك علينا خفيت لكن مزاياك لدينا عظمت
فلست محتاجاً إلى قربان ولست تخشى خدع الانسان

(٦)

ولست محتاجاً إلى مكان فأنت رب الفيض والإحسان
يلقاك بالتصفيق عند اللقيا مستبشرين كل من في الدنيا
فأنت تحيي مهجة الظمآن وحارس الملوك والتيجان

(٧)

منك المعونات على الدوام مقرونة بالحمد والإعظام
وأمرك المطاع في البلدان تقبله النفوس بالإذعان
وتملأ القلوب حبا صادقا وتجعل الكون بشكر ناطقا
أولاد «سبك» منك في أفراح وأهل «نيق» بك في انشراح
كأنما دائرة الموجود أمام مجراك من الجنود
يغني العباد عن شقاء الجهد فيضك إذ يأتي بكل رغد

(٨)

يضيء منك الماء حين يبدو بعد الظلام وهو ما تود
لم تتخذ فيها ترى أعوانا ولم تدع لحاكم سلطانا
فأنت روح الكل في الوجود أنعم بفيض النيل من مقصود

(٩)

تأتي وتمضي طبق ما تريد وكم تطيع ربها العبيد
وكل ثوب من هموم ماضيه تنزعه بشرى التلاقي الزاهيه
فأنت للسقام نعم البلسم ومنك للجميع تصفو الأنعم
تجيب بالفيض رجاء الأمة وتصطفيها بعميم الرحمة
يحوي ثراك أنفس المعادن فتكثر الأموال في الخزائن
لكن بالقمح حياة الناس وليس بالأموال في القرطاس

(١٠)

في عيدك الصغار والكبار تطربها الطبول والمزمار
ويستطاب الأنس والسرور ويتباهى بالصفا الجمهور
فأنت حقا زينة البلاد ومصدر الخيرات والاسعاد

(١١)

وكلما جئت الى العواصم أسديت فيها أعظم المغانم
فيفرح الغني والفقير إن لم يعق فيوضك التأخير
وهكذا مسرة الأقوام يحبونها في سائر الأعوام

(١٢)

نهدي إليك الطيب والعجولا وكل قربان نرى المقبولا
ونوقد النيران والبخورا ونملأ الدنيا بها سرورا
تخرج من (بتيو) وتأتي طيبه كمستهام زائر حبيبه
وكل ما يحويه سر النيل لم نكتشف منه سوى القليل

(١٣)

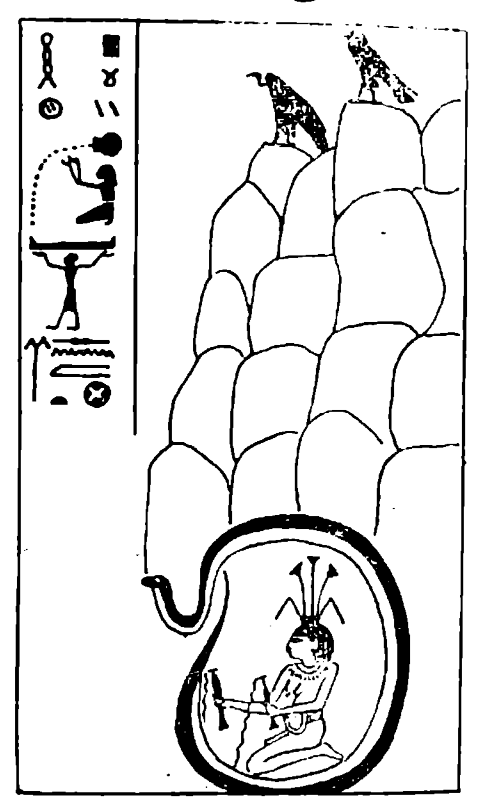
مصر تعد النيل ربا ساميا فاجعل لنا بالفيض حظا ناميا
واجعل بني النيل على سواهم يرقون شأناً رغم من عاداهم

آمين . آمين . آمين

وكان قدماء المصريين باعتيادهم الترنم بهذه الأنشودة يمتنون بتوقيعها على أوضاع الآلات الموسيقية ليكون لوقعها في النفوس طرب النشوة الموسيقية والانشراح القولي، ولا زلنا الى العصر الحالي نتلقى من عوام المنادين الذين يطوفون وحولهم الغلمان في الأزقة والحارات ما هو بلا شك صدى متتابع من ترديد هذه النغمات أيام الفيضان .

ومن أولئك المنادين من يقتصر فيما يلقيه على غلمانه بأناشيد مختصرة ، ونغمات مقتضبة ، ومنهم من يجعل كلماته على نسق السجع المرصع ، الذي طرأ عليه التحريف العامي في النطق والتلحين بما لا يخرج في معناه عن القول الآتي :

إنك أيها النيل المبارك صاحب القوة العظيمة ومنك تتدفق الكنوز ، وتفيض الخيرات على أرض مصر ، بارك الله تعالى في فيضانك ، وأدامك متدفقاً بالخير والبركة على البلاد والأودية والبساتين والمزارع ، يشكر نعماءك الانس والحيوان والطيور في أوكارها ، والحيتان في أغوارها .



رسم يمثل الإله حعبي (النيل) في مخبئه ، وتفسير هذا الرسم إنه يوجد فوق صخور مرتفعة عليها رسما الصقر والباشق ، وفي حجرة يرى بداخلها هيكل إلهي لاله رائع حاملاً في يديه آنية تخرج منها فيوضات النيل المبارك ، ويجد الرائي مرسوماً على رأس الحجرة حية ملتفة على نفسها وبين رأسها وذنبها منفذ ضيق لمرور النيل . وهذا الرسم فسره كاهن مدينة سايس للمؤرخ هيرودوت بأنه منتهى معلوماتهم عن منابع النيل

فاذا كانت عبادة النيل بصفته إلهاً كما كان يمجده به قدماء المصريين في حفلاتهم ومعابدهم فقابلته بالتحية والبشاشة والفرح والسرور عند مبادىء أشهر فيضانه آثار باقية من العواطف القومية لدى الأمة المصرية بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات والتطورات الفطرية .

وقصارى القول لو كان هناك حقيقة أن قدماء المصريين كانوا يلقون عذراء في النيل يوم فيضانه ، لكانوا أثبتوها في أنشودتهم المذكورة . إذن رواية ابن الحكم ما هي الا خرافة منقولة عن اليونان .

انطون زكرى

أمين مكتبة المتحف المصري سابقاً

ترتيلة السَّحَر
في وادي تشاموني [1]

« يا لهذه المناظر السامقة في مهابتها المتكبة على الوادي العميق في شتى الصور أنها لسحر ساحر تكاد لا تصدقه العين لولا أنها حقيقة ماثلة ».

برسي شيلي

عَلَوتَ بعرشك السامي ارتفاعا ... مهيباً في جلالته مطاعا !!
فهل لك قبل أن تخفي الدياجي ... فتبقى نجمَةَ الإصباح ساعا ؟!
أيا جبل الروائع ، لست أدري ... وفيك أرى الأباطح والقلاعا ؟
أأنت تزينها ، أم أنَّ منها ... جمالاً ما يني إلاَّ طِلاعا ؟
فما أبهاكَ في صَمْتٍ تجلَّى ... على واديكَ ينحدِرُ انصياعا
تحفُّ بك الجداولُ جارياتٍ ... تجوسُ مسالكَ الغابِ اندفاعا
تصفّقُ بالخرير وما توانى ... عن الإيقاع يجتذب السَّماعا
ويكسُوكَ الظلامُ ثيابَ دُجنٍ ... كَلَوْنِ (الآبنوس) إذا أشاعا
تساوِرُهُ البقاء ، وقد أغارت ... عليك نجومُه تبغي الصِّراعا
وأنتَ أزاءها طودٌ شموخٌ ... تصدُّ جيوشها عرِماً شجاعا [2]
فيا لك مارداً لم تكتنفهُ ... غواشي الهول رُعباً وارتياعا
أحلّق بالنواظر فيك أرنو ... وما تنفكَّ أشواقي تِباعا
وأرجعُ محدقاً بين الروابي ... فألفى الغيبَ يزدادُ انقشاعا
فيا زهراً تناثر مستقرّاً ... على الأغصانِ من شغفٍ تداعى
ويا شجر الصنوبر والغوالي ... تعانقُ من ذوائبها التياعا

---

(١) مقتبسة من قصيدة للشاعر الانكليزي صموئيل تيلور كولبردج وضعها عند زيارته للوادي الجميل الواقع بجبال الالب في شمال إيطاليا . ولد كولبردج عام ١٧٧٢ وتوفي عام ١٨٣٤

(٢) عرم — قوي شرس .

ويا سرب السوائم وهي ترعى أمالي الجنادل لا تُراعى
تُجاورُها النسور مهوَّمات . جوائم في مكامنها سباعا
ألا بل فاسجُدي حمداً وشكراً لمن أحياكِ أشتاتاً جِماعا

***

فإيهاً يا أبا الأطوادِ إيهاً تحيةُ زائرٍ بالحُبِّ ضاعا (١)
تباركتِ السماء بما أفاءت عليك ، فجمَّلت هذي الرباعا
نؤمُّ عيونها ظمأى عطاشا ونقطف شهدها غرثى جياعا
فأيقظ روحيَ الوسنان يصحو وأطلقْ من ذخائركِ اليراعا
فلستُ أشيمُها نبتاً وماءً وإن راقت محاسنها طباعا
أبِنْ لي ما تضمن في سناها وكيف يشفّ خلقاً وابتداعا
وهَبْ لي سرَّها فيما تناءى شخوصاً بالحياة تُرى شراعا
وأيقظْ قلبيَ اللهفانَ أيقظ فمَن وجدانهُ أردُ المتاعا
أمرّ عليك بالنجوى ، وأني لأبصرُ فيك آفاقاً رِتاعا (٢)
فما كنتَ الحديثَ يرقُّ لفظاً وينفثُ في مقاطعه الخداعا
ولكن فيك أرواحٌ تلاقي خيالاً كالوميض شَبا شُعاعا
لتبعثها العواطفُ أين كانت هُياماً أو حَنيناً أو هُلاعا (٣)
أسيرُ برسمها جذلاً طروباً وأنزحُ عن معالمها وِداعا
سلاماً ، فالصباح أراه يدنو ليُسدِلَ فوق جنتِك القناعا
لقد آن الرحيلُ ، وكلُّ وصلٍ تبدَّدَ فُرقةً وغدا نِزاعا (٤)
فإن فارقتُ وجهَكَ لستُ أنسى مَدى الأيام ، حسنَك والبقاعا

القاهرة عبد السلام رستم

(١) ضياع — انتشر العطر وفاح (٢) رتاع — ج راتع ، المكان الخصيب
(٣) الهلاع — الجزع الخوف (٤) النزاع — الحنين والشوق

صورة من صور الحياة القاسية

الأطفال المشردون

ترافع المحامي عن المتهم ، بما أوتي من فصاحة لسان ، وقوة برهان ، واختلت المحكمة للمداولة . ثم عادت الى قاعة الجلسة ، وأعلنت حكمها وهو يقضي بإحالة الأوراق إلى مفتي الديار ، ومعنى ذلك الحكم على المتهم بالإعدام شنقاً ، وفقاً للقوانين المصرية .

وخرج الجند بالمحكوم عليه ، وهو أصفر الوجه ، زائغ البصر ، لكنه ثبت الجنان ، وكان يسير مدفوعاً بغلظة الحراس وفظاظتهم، فهذا يدفعه ، وذاك يلكمه ، وآخر يستحثه، وغيره يلكزه ، وهو مستسلم لهم ، لا يبدي مدافعة أو ممانعة، كأنه فقد الحس والشعور ، والناس يبتعدون عنه ، ويفرون من وجهه ، ويتنحون بسرعة عن طريقه .

وكان المتهم شاباً في السابعة والعشرين من عمره،طويل القامة ، نحيل الجسم ، قوي البنية ، وسيم المحيا ، لولا ما انطبع على أساريره من يبوسة وجمود ، مما جعل نظراته حادة قاسية ، لا تنم عن عطف ، ولا تشف عن حنان .

وعندما وصل الى باب المحافظة الخارجي المطل على الميدان وقف فجأة لا يتحرك من مكانه على الرغم من دفع الجند ولكزهم ، وأخذ يحملق بعينيه ، وقد اعترته رعدة شديدة اهتز لها كل جسمه ، وطفق يتطلع إلى رهط من الصبية والصبايا تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعاشرة ، وهم يتزاحمون حول صندوق القمامات والنفايات ، ويتدافعون بالأيدي والمناكب لالتقاط ما يجدونه فيه من كسرة خبز قذرة ، أو عظمة عليها مسحة من اللحم ، أو قشرة برتقال عالق بها بعض اللب ، أو قطعة بطاطس علتها الأوساخ والأدران ، فيلتقمونها بشراهة ، ويلوكونها بشهية ، ويزدردونها بلذة ، كأنهم يأكلون أطايب الطعام ويتذوقون أشهى المآكل ، وهم يزاحمون الهررة والكلاب التي تبحث مثلهم فيما تبعثر من الزبالة ويسلبونها ماتعثر عليه من الفتات ، وبقايا المأكولات ، ويصخبون ويضجون ويضحكون مع ما بهم من جوع ، ومسغبة ، وما هم فيه من شقاء وبؤس .

وكانوا عراة الرؤوس ، حفاة الأقدام ، لا يستر أجسادهم غير ثياب ممزقة بالية تبدو من خلالها عورات الكثيرين منهم ، وكانت وجوههم ذابلة ليس فيها أثر من نضارة الطفولة يعلوها شحوب واصفرار ، وتتخللها أخاديد من القذارة والوساخة ، وأعينهم مطفأة النور لا تنم عن ذكاء ولا فهم ، كأنها أعين حيوانات دنيئة ، وأجسامهم نضيضة اللحم ، لم يبق منها الطوى سوى جلد على عظم .

وقف المحكوم عليه يتأمل هذا المنظر المتجلي أمامه ، وهو شارد الفكر ، ذاهل العقل ، حتى أخرجته من سباته زكلة شديدة من حذاء الجندي الثقيل في ردفه كادت تلقيه أرضاً ، لكنه لم يستدر ولم يهتم بمعرفة من ضربه من الحراس ، لاعتياده على مثل هذه المعاملة من جميع الجنود ، بل رفع يديه المصفدتين بالحديد ومسح بظهر كفه دمعة ترقرقت في عينه . ثم لوى بصره عن الصبية ، وسار متبوعاً بالجند وبسائر المسجونين .

وعندما هم بركوب العربة التي ستقله ورفاقه إلى السجن ، إقترب منه زميل له قد تمرست نفسه بالإجرام ، وارتاضت على أنواع المنكرات وضروب الآثام ، حتى صلدت عواطفه ، وتحجرت مشاعره ، وهو منذهل من بكائه ، لعلمه برباطة جأشه ، وقوة جنانه ، وهمس في أذنه قائلاً : « إيه دا يا محمد ، جمد قلبك ، فالسجن مأوى الرجال ، والمشنقة مرجيحة الأبطال » . فأجابه الشاب بصوت مختنق من التأثر : « سيان عندي حياتي أو مماتي ، وأنا أفضل الرحيل عن هذه الدنيا التي لم تدر لي سوى التعس والشقاء ، ولا تظن أن بكائي على نفسي ، بل على هؤلاء الأطفال الذين يتزاحمون حول صندوق القاذورات ليجدوا فيه من النفايات ما يسدون به جوعهم ، فقد أشجتني رؤيتهم ، وأعادت إلى ذاكرتي أيام طفولتي بمرارتها وعلقمها ، وسأقص عليك ما كابدته في حياتي القصيرة من العذابات والآلام عند ما نجلس في العربة لتعيه من بعدي ، ويكون عبرة وعظة لسواي . من الذين يجنون على أبنائهم ، دون أن يكون لهم ضمير أو وازع .

ولما أخذ السجناء أمكنتهم في العربة لبث محمد برهة مستغرقاً في أفكاره ، ثم زفر زفرة خرجت من أعماق قلبه واستتلى حديثه قائلاً : ما أتعس الطفل الذي يشب بعيداً عن حنو أمه وعطف أبيه ، وما أشقاه إذا كان والداه من الظلمة العتاة المجردين من كل عاطفة للأبوة ، فقد شاءت صروف الدهر أن لا يعي ذهني ، حالما بدأ يحس ويشعر ، إلا الشقاء الذي ليس بعده شقاء ، فعند ما فتحت عيني في هذا الوجود ، وأنا لم أستتم بعد الثالثة من عمري ، لم أر لوالدي أثراً ، بل ألفيت نفسي عند امرأة عجوز ، شرسة الطباع ، شكسة الخلق ، لا قلب لها يرق ، ولا فؤاد يرحم ، فقد طلق أبي أمي وهي

حامل بي ، وذهب إلى حيث لا يدري أحد بمكانه ، ولم يكد ناظري يكتحل بنور هذه الحياة حتى تزوّجت والدتي سواه ، فكنت حجر عثرة في سبيل هنائها ، لأن زوجها لم يكن يطيق رؤيتي ، فكان يسيء إليَّ وينهال عليَّ ضرباً بدون سبب ، وأمي تدافع عني جهد طاقتها ، حتى إذا ضاق ذرعاً بي خيَّرها بين نبذه لها أو تركها إياي ، ففضلت الانفصال عني ، وأسلمتني إلى هذه المرأة العجوز لتقوم بتربيتي لقاء أجرة معينة تتناولها شهريًّا ، وأنا لم أزل بعد في الثانية من عمري . ولكن ما هي إلاَّ شهور حتى غابت أمي عن نظري وتركتني بين يدي . هذه العجوز التي عندما رأت انقطاع المال عنها شرعت تعاملني أسوأ معاملة ، وتضربني ضرباً أليماً ، ولا تطعمني في النهار كله إلاَّ كسرة خبز يابسة تكاد لا تكفي للابقاء عليَّ ، ولا تكسوني إلاَّ بقطع عتيقةٍ من بقايا ثيابها الخلقة تلفقها كيفما اتفق ، وتحلها على جسمي الهزيل ، فلا تمنع عريي ، ولا تستر عورتي ، ولا تقيني من حمارَّةِ الصيف ، ولا من صبارَّة الشتاء .

ولما قوي ساقاي على حملي علمتني التسوُّل وجمع أعقاب السجائر وبيعها ، ودرَّبتني على سرقة ما تقع عليه يدي وكانت تطلقني صباحاً مشيعة اياي بالضرب وطالبة مني أن أعود إليها مساء وفي يدي لا أقلّ من ربع ريال . والويل لي إذا رجعت ولم أستتم هذه الجزية المفروضة لأنها تنهال ضرباً بالعصا على جسمي العاري الضعيف حتى تخدَّ فيه آثاراً دامية ، فيغمى عليَّ من الألم ، وتلقيني في ركن الغرفة السوداء بعد ما تجردني من النقود التي جمعتها ، وتجلس على فراشها وبيدها العصا تتطلع إليَّ . كما يتطلع الوحش إلى فريسته الدامية ، معتزمة إعادة الكرة حالما أفيق من غيبوبتي . فكنت ألبث وقتاً طويلاً وأنا في غشيتي حتى إذا عاد إليَّ حسّي وشعوري أتطلع إليها بطرف خفي ، فاذا رأيتها ترقبني ظللت في مكاني لا أتحرك إلى أن يغلب عليَّ النعاس والتعب والألم ، فأنام متوسداً الأرض الرطبة ، نوماً متقطعاً يتخلله الفزع والهلع ، والهواجس والوساوس .

وحالما يتنفس الفجر توقظني بالرفس واللكم ، وتلقي إليَّ بكسرة الخبز كما تلقيها إلى كلب ، وتشيعني بالتهديد والوعيد ، فأخرج لمزاولة عملي ، وأنا في حالة تتقطع لها نياط القلب من الضعف والهزال ، والجوعِ والعري ، حتى اذا كان ذات يوم ، وقد غادرت الحجرة عند زرّ السحَر ، أتطلب ما أسدُّ به جشعها ، دفعاً لأذاها ، وأنا متأبط قطعة الخبز اليابسة ، متزمل ببقايا ثياب لم تترك الأيام منها غير مِزَق تتدلى على جسمي ، فيبدو منها صدري الهزيل الذي تعد أضلاعه ، ويظهر من تحتها ذراعاي الرفيعان الملتصق جلدهما بعظمهما ، وساقاي الدقيقتان اللتان تحملاني مترنحتين ، مررت بقصر منيف تحيط به حديقة

غناء ، في مدخلها قبالة السلم الرخامي كشك صغير من الخشب رابض فيه كلب ضخم الجثة هائل المنظر مربوط بجنزير ، وقد انحدر عبد أسود حاملاً طبقاً فيه لبن مغلي يتصاعد منه البخار فوضعه أمامه وقفل راجعاً ، فغمس الكلب في اللبن منخريه بحذر، ثم أقعى على ذنبه انتظاراً ريثما يبرد اللبن .

وكان الوقت شتاءً ، والطقس بارداً زمهريراً ، يقضقض من قرّه الجسم المدثر بالصوف والفراء ، فكيف بالعاري مثل جسمي الذي لا تستر أجزاء منه سوى أطمار بالية مهلهلة ، فتطلعت الى طبق اللبن وقد جحظت عيناي ، واندلع لساني ، وجرى لعابي في فمي على الرغم من يبوسة حلقي الذي لم يذق في حياته للبن طعماً ، فطاش عقلي ، وفقدت اتزاني ، واندفعت من باب الحديقة المفتوح ، وأسرعت الى الطبق ، فهجم عليّ الكلب الكاسر وأنشب أنيابه في كتفي العاري ، لكني لم أعبأ بالألم من فرط الجوع والبرد، وجثوت على ركبتيّ وأمسكت الطبق بكلتا يديّ ورفعته الى فمي وطفقت أعب اللبن عبّاً غير شاعر بسخونته . فلما رأى الكلب لهفتي وجوعي ، فطن بغريزته إلى حالتي البائسة ، فتخللت الرحمة قلبه ، وارتدّ عني ووقف بعيداً وهو يبصبص لي بذنبه ، ويتطلع إليّ بعطف وحنان ، وقد أبرقت عيناه الصغيرتان المملوءتان ذكاء ، كأنه يقول لي : « اشرب فلا خوف عليك ، لأنك أحوج مني إلى ما يقيتك ويدفئك » .

وكأني بالحيوان أرق قلباً من الانسان ، إذ بينما أنا مقبل بكليتي على اللبن أتجرّعه بشراهة متناهية ، سمعت من ورائي صوتاً يصيح « ياحرامي » وشعرت بضربة سوط شديدة وقعت على أم رأسي فسقط الطبق من يدي وانكفأت على وجهي من شدة الألم ، وأخذ الدم يتدفق بغزارة من جرحي .

وكان الضارب شاباً في العشرين من عمره ، أنيق الملبس ، يتدثر بمعطف ثمين من الجوخ ، تحته بزّة أفرنجية من غالي النسيج ، وفي يديه قفاز من الجلد ، وقد قبض على سوط مدبب الرأس ، فانحنى فوقي وقال بحدّة : «أتسرق أيها الوغد وأنت في هذه السن!» وهمّ بضربي ثانية ، لكن الكلب الذي أنف من هذا الظلم هرّ هريراً قوياً ،وهجم على صاحبه مكشراً عن أنيابه ، وحال بينه وبيني ، فصاح الشاب مغضباً : « ويحك يا بوبي أتهرّ عليّ ! » لكن الكلب لم يبال به ، بل لبث في مكانه ومال عليّ وشرع يلحس جرحي بلسانه ، كأنه يؤاسيني مستغفراً مني عن الجور الذي ألحقه بي سيده . فنادى الشاب خدمه الذين لبوه جماعة ، وأمرهم بطرحي خارجاً ، وهو ينحي عليهم باللائمة لتركهم باب الحديقة مفتوحاً ، فحملني اثنان منهم من يديّ ورجليّ وألقوني في الشارع وأغلقوا البوابة

الحديدية ، فلزمت مكاني دون أن أجد في نفسي قوة على مبارحته ،وكان النزيف قد انقطع غير أن الألم ما زال شديداً ، فأسندت رأسي الى جدار لكنها ما عتمت أن هوت على الأرض ، فالتففت على نفسي وأنا التمس الراحة مما أعانيه ، ولكن بدون جدوى ، لأن الألم كان يزداد من دقيقة الى أخرى .

وكانت الشمس قد بدأت تشرق ، وأشعتها الشاحبة تنسل من بين السحب المغطية وجه السماء ، فشعرت بدفء خفيف تحت لعابها واستسلمت للكرى .

وما هي إلاّ فترة من الزمن حتى أيقظتني من سباتي رفسة عنيفة من حذاء ثقيل اهتزّ لها كل جسمي ، فأفقت مذعوراً وتطلعت فيما حولي فألفيت جندي الدورية واقفاً ينتهرني بالسباب والشتائم طالباً مني السير ، وعدم « شغلي » الطريق ، فصدعت للأمر ونهضت متحاملاً على نفسي ، وطفقت أسير مترنحاً كالشارب الثمل ، وأنا اعتمد الجدار بيدي لكي لا أهوي الى الأرض ، حتى إذا مررت بصيدلية التمست من صاحبها الرأفة بحالي وضمد جرحي ، فطردني شر طرد .

عاودت سيري وأنا أدلف ، وقد حبست نفسي عن الجزع ، لأستمد من عزيمتي قوة تساعدني على التطواف ، حتى أصل الى مكان خرب آوي اليه ، فأبصرت على مدى قريب منزلاً متهدماً قد زال سقفه وبقيت آثار جدرانه فهرولت اليه بقدر ما تسمح به حالتي وانسللت بين أطلاله حتى أصبت ركناً قد أنارته أشعة الشمس الشاحبة فسكنت اليه ، وتمددت فيه ، وأنا أتداخل في بعضي وألتف بأطماري طلباً للدفء ، وما لبث النوم أن ران على أجفاني فاستسلمت اليه لأجد فيه مخففاً لآلامي وأوصابي .

وشاءت الأقدار ألاّ تريحني ولو فترة من الزمن ، فأفقت مرعوباً على تساقط المطر ، ووجدت السماء قد اعتكر لونها ، وفاضت ميازيبها ، والرعد يلعلع في الفضاء ، والهواء يهب بعنف وشدة ، فأسرعت بالنهوض وقد ابتلت أطماري ، والتصقت بجسمي ، وسرت وأنا اشتدّ في عدوي باحثاً عن ملجإ يقيني عادية المطر المنهمر بغزارة ، والتجأت الى طنف يبرز من عمارة فاستترت به من وابل الماء ، ولبثت واقفاً أرقب المارة ، وأنا انتفض من البرد ، واترنح من الألم حتى انقطعت خيوط الغيث ، وانقشعت الغيوم ، وبدت الشمس ببهائها، فازدحمت الشوارع بالسابلة ، وجلهم من الصبية ، وهم يسيرون أفواجاً حاملين الحلوى واللعب وقد ارتدوا حللاً جديدة زاهية ، وركب بعضهم العربات والسيارات وهم يغنون ويصفقون فسألت صبيّاً عاثلني حالةً عن خطب هؤلاء ، وعن سبب خروجهم في أبهى الثياب وأجلها ، فأجابني بأنهم يحتفلون بعيد الفطر .

عيد الفطر ؟ وما هو هذا العيد ؟ لم أسمع بعد بالأعياد ولم أحتفل بها قط ، لأن كل حياتي ظلام في ظلام . لم يبدُ فيها بصيص من الضوء ، ولا نُسالةَ من الفرح والسرور . فالأعياد لا تعرفني ولا أعرفها ، فهي بمنأى مني ، وأنا بِمَعزِل عنها .

ومرَّ بي فوجٌ من الأطفال وهم فرحون يأكلون الحلوى والكعك ، فمددت يدي إليهم مستجدياً لأن الجوع أخذ يقرس معدتي ، عَلَّني أذوق طعم الحلوى والكعك اللتين لم أعرف بعد لهما مذاقاً ، فتفرَّسوا في وجهي الشاحب النحيل ، وقد رسمت عليه الأقذار والدماء خطوطاً وتعاريج ، وتأملوا في عينيَّ اللتين تشعان ببريق الحمى ، وتطلعوا إلى ثيابي المِـزَّق المبللة ، والملتصقة بجسمي ، دون أن تستر عورتي ، ثمَّ نظر بعضهم إلى بعض هَلِـعين وَجلين ، وأطلقوا سيقانهم للريح ، كأنهم سرب غزلان يفر من وحش مفترس.

لم أكن أعرف بعد أن ثمة إلاهاً ، ولا أدري كنه الحياة ، ولا سر الوجود ، وكل ما أشعر به وقتئذٍ أني موجود ، وإني أتعذب وأتألم ، بينما غيري من الأطفال ينعمون ويفرحون ، ويعيشون مرفهين مدللين ، ومع ذلك رفعت عينيَّ نحو السماء بحركة لا أدري مبعثها ، وأنزلتهما الى الأرض وأنا أشعر باجحاف وظلم ، لا أحيط بأسبابهما ، ولا أدرك سرها ، لكن إحساسي الذي تنبه قبل أوانه جعلني أسائل نفسي عن السبب الذي من أجله يوجد صبيان في رخاء العيش وليانه ، يسارع إليهم الهناء ، وتكلأهم السعادة بعنايتها ، وتؤاتيهم الدنيا على رغائبهم ، وآخرون في سنهم ، قد تنكرت لهم الحياة ، وتجهّم لهم وجه الزمن ، فذاقوا من شقاء العيش ، ومرارة الوجود ما يكاد يدك صرح هياكلهم ، ويودي بحياتهم الغضة اليافعة .

سؤالٌ جهدت نفسي في تعرُّف سببه ، وسرٌّ أفرغت ما في وسعي لأُدرك له حلاًّ ، لكن عقلي الصغير القاصر تضاءل دون ذلك .

وكانت شوكة الجوع يشتد وخزها في معدتي ، وأنا أدافعها وأدفع ألم كتفي وجرح رأسي بالتلهي في تصفح الوجوه ، وإجالة الطرف فيما يبدو حولي ، فأبصرت بجانبي خانة جلس فيها أناس من جميع الأجناس ، الى موائد عليها من الكؤوس وأصناف المأكل ما زاد في جوعي وألمي ، فتفقدت جيبي لعلي أعثر فيه على فتات من الخبز لكني لم أظفر بفتيتة واحدة ، لأن جيبي كان مخرقاً كالمصفاة ، لا يستقر فيه شيء مهما صغر ودقَّ حجمه ، وقد أضعت كسرة الخبز التي كنت متأبطها في الحديقة عند عرين الكلب .

وقفت عند باب الحانة أنظر إلى من فيها وقد أججت رؤية الطعام نار الطوى في جوفي وزادتها استعاراً ، وصحت عزيمتي على التسلل الى الداخل عساي أصيب ما أمسك به رمقي ،

وتنقلت بين الموائد متطلعاً بشراهة ولهفة ، إلى ما أبقاه محتسو الخمر في الطباق من القطع والفتات ، حتى إذا انتهيت الى مائدة قد فرغ الجالسون من أمرها وغادروها ، مددت يدي المرتجفة الهزيلة الى ما رسب في الصحون من الطعام وأسرعت به الى فمي ، وأنا أزدرد دون مضغ ، فانهال الموجودون هناك عليَّ بالزجر والنهر ، وشرع بعضهم ينادي خدم الحانة ليقصوني من حضرتهم ، وليبعدوني عنهم لأن منظري المزري القذر قد سبب لهم تقززاً ، وعكر عليهم صفو الهناء في احتساء الخمر وشرب المسكر ، فأقبل الخدم وطردوني بالدفع واللكم وألقوني خارجاً ، فتلمست طريقي وأنا أسير وجسمي يهتز كقصبة مرضوضة ، وساقاي لا تقويان على حملي ، حتى إذا وصلت الى منعطف زقاق ، شعرت بأن الأرض تدور بي ، فسقطت على وجهي وغبت عن الوجود .

مكثت في غشيتي مدة غير وجيزة ، حتى أفقت على أصوات تناديني ، وأيدٍ تحركني ، فظننت لأول وهلة أن العجوز توقظني حسب عادتها ، فنهضت مسرعاً خشية أن ينالني اذاها إذا تباطأت ، غير أن الآلم ألتى بي ثانية على الأرض ، فطفقت أتفرَّس في الوجوه المائلة عليَّ والمحدقة بي ، فوجدتها وجوه صبيان من صِنْوي وشاكلتي ، فثيابهم رثة بالية ، وسحنهم غبراء شاحبة ، وقذارتهم تماثل قذارتي ، وأعمارهم تتراوح ما بين الخامسة والعاشرة ، وهم مقبلون عليَّ بوجوههم ، فرحون بلقياي ، جذلون بما سيخصونني به من العطاء والمنحة ، أنا البائس المسكين مثلهم ، إذ لا يعرف كنه الفقر إلاَّ من ذاق جوفه ألم الجوع ، وتحمل جسمه العاري حر الصيف وبرد الشتاء ، وشعر حياؤه بمذلة السؤال ، وانكسرت نفسه تحت وطأة الضعة والهوان .

جلس الصبية حولي عندما بدا لهم عجزي عن النهوض ، واستطلعوني أمري ، فقصصت عليهم تاريخ حياتي القصير ، المفعم بالرزايا ، المليء بالآلام ، وهم سامعون مني ، مصغون اليَّ ، حتى اذا استفرغت ما عندي ، رثوا لحالي ، وطيبوا خاطري ، وناولني أحدهم برتقالة أكلتها بجزء من قشرتها لشدة لهفتي على تسكين ألم جوعي ، وأروني نقوداً فضية كانت في جيب أكبرهم سناً ، وأكلاً شهيًّا ملفوفاً بورق ، ثم حملوني الى الصيدلية التي قصدتها صباحاً فطردني صاحبها ، وأعطوه ربع ريال وطلبوا منه تنبيهي وضمد جروحي ، فلبى الأمر هاشًّا باشًّا عندما قبضت يده على الشلن ، وقدم لي كوبة فيها أدوية منعشة ، وغسل جرح رأسي ، وعضة كتفي وضمدها ، فانتعشت نفسي وردّت اليَّ روحي ، وقويت رجلاي على حملي ، وسرت مع رفاقي الذين اعتزموا احياء العيد أسوة بسواهم من الأطفال الأغنياء المترفين ، فلئن أبت عليهم الانسانية أن تدخل السرور على

قلوبهم طوعاً ، في ذلك اليوم ، فقد أخذوا منها قسراً وبالسرقة ما ساعدهم على نيل أمنيتهم وادراك مرامهم .

انتحينا جانب حديقة خربة ، لم يبقَ منها غير سور متهدم ، يحيط ببعض أشجار متفرقة هنا وهناك ، وافترشنا الغبراء ، وبسطنا طعامنا المؤلف من خبز بلدي وسمك مشوي وطعمية « وحلاوة طحينية » ، على سماط من ورق الصحف القديمة ، وأكلنا هنيئاً وشربنا من حفر في أرض الحديقة ملأى بماء المطر ، وبعد ما خلع عليَّ زملائي من ثيابهم ما كساني بعض الشيء وستر من عورتي ، تمددنا على الأرض ، ونمنا نوماً هادئاً حتى الأصيل

وعند ما أفقنا جلسنا حلقة نتسامر ، وقد سرى عني بعض ما كان بي ، فأقبلت بكليتي عليهم ، وأنا ممتن لهم ، مغتبط بصحبتهم . فعرضوا عليَّ مفارقة العجوز التي تسومني العذاب الأليم ، والانضمام الى زمرتهم ، فهم يعملون لحساب شخص ، وان يكن أقل شراسة وأخف جشعاً من تلك ، لكنه شديد الوطأة عليهم ، فكل منهم ينقده جعلاً معيناً مساء كل يوم عند أوبته ، غير أن الحال ستتغير منذ الآن ، لأنهم أصبحوا عصبة باتفاقهم مع أحداث على نمطهم ، أكبر منهم سناً ، قد تحرروا من ربقة محتكريهم ، وغدوا يستغلون « مواهبهم » لأنفسهم ، وهم ذوو سطوة وبأس في عالم الأجرام الخفي ، فاذا سولت للمسيطر عليهم نفسه الشريرة أن يداوم في ارهاقهم وظلمهم ليكونن ذلك وبالاً سريعاً عليه ، إذ لا يلبث رفاقهم الكبار أن ينتقموا منه شر انتقام ، بعد ما يعلنونه بذلك ، فلهذا كله يرى أولئك الأطفال أن أنضم اليهم لترفه حالي ، وينعم بالي .

وقد وقع كلامهم من نفسي موقعاً حسناً ، فأجبتهم الى ما يريدون وأنا جذل فرح وعشت معهم مقاسماً إياهم ضراءهم ، اذ لم يكن لهم سراء ، لأن تبدل السيد لم يبدل البؤس ولم يغيره ، وكل ما في الأمر انه خفف قليلاً من حدته ، فالرجل كان جباراً عاتياً ، يبادرنا بالشر لأقل سبب وأتفهه ، غير أنه لم يكن في شراسة العجوز ، ومع كل فقد كنا جماعة والظلم إذا عم ، ورأى المرء من يأنس اليه في محنته ، سهل عليه احتمال المغارم ، مهما اشتدت وقويت .

مكثت على ذلك شهراً كاملاً ، حتى اذا كنت ذات ليلة سائراً أجمع أعقاب السجاير ، واستندي الأكف ، وأسرق ما تصل اليه يدي ، كلما وجدت لذلك سبيلاً ، وقد كان يومي مشرقاً ، لأني جمعت فيه ما يقارب الريال ، قابلتني العجوز على حين فجأة ، فانقضت عليَّ انقضاض الأسد على فريسته ، وأمسكت بذراعي ، وأمعنت فيَّ ضرباً ، وهي تهدر وتزمجر وتصيح ، حتى تكأكأ علينا المارة ، فأخبرتهم بأني ابنها وقد هربت من دارها على الرغم

من شدة اعتنائها بي، وسهرها على تقويم اعوجاجي ، وما فتئت منذ ذلك الوقت وهي تبحث عني وتجد في أثري حتى عثرت عليّ الآن . ثم أهوت بيدها على جيبي ، عندما طرق مسمعها رنين النقود ، وهي تجذبني وتدفعني ، فأخذت حصيلة اليوم كلها ودستها في عبها ، وجرتني من ذراعي ، وهي توسعني ركلاً برجلها كلما تباطأت في السير ، وأنا لا أجرؤ على الممانعة ، حتى وصلنا الى غرفتها الكائنة في سفح تلول زينهم البعيدة عن العمران ، فطرحتني أرضاً وقبضت على عصا غليظة ، وهي تقول بفرح وحشي : « الحمد لله الذي مكنني منك ، فلن تفلت بعد الآن من يدي » وما رحت تضربني وأنا أصيح وأستغيث حتى شفت غليلها مني.

نمت نوماً متقطعاً تساوره الأحلام المخيفة ، وأفقت في منتصف الليل وحاولت اختراق حجب الظلام ببصري ، لأتبين مكان العجوز لكني لم أستطع ، غير إني سمعت غطيطاً متسقاً ، فأيقنت منه بأن العجوز نائمة ، وعزمت على الهرب لأني أعلم بأن باب الحجرة لا قفل له ، ولا يغلق بإحكام ، فإذا ما فتحته بتؤدة لن يسمع له صرير . فسرت على أطراف أصابعي ، محاذراً الاتيان بحركة حتى وصلت إلى الباب ، فألفيت العجوز ممددة عرضاً على عتبته لتحول بيني وبين الخروج ، فنكصت على عقبي ، ولزمت مكاني ، وأنا حائر في أمري ، لا أدري ماذا أفعل .

وبينما أنا أتردد بين الإقدام والإحجام فتح الباب بحذر ، وبدا منه شعاع قام صوب إلى أنحاء الغرفة حتى استقر عليّ ، فانتصبت واقفاً ، وأسرعت إلى مصدره متوسماً فيه الفرج ، فقبضت يد قوية على ذراعي وسحبتني خارجاً متخطياً العجوز التي أفاقت وأخذت تولول طالبة النجدة ، فانقض عليها شخصان وكمما فمها وألقياها على الأرض ، وهي تتخبط بين أيديهما محاولة التخلص ، فتركتها غير عابىء بها ولا مكترث ، لما سامتنيه من العذاب وأسرعت الخطى ممسكاً بيد قائدي الذي شرع يطمئنني ، فعرفت فيه أحد الرفاق الكبار الذين يتولون الصغار منا برعايتهم ، ليميطوا عنهم أذى مستغليهم .

وفي الحال لحق بنا الاثنان اللذان صرعا العجوز ، وأخبراني بأنها لن تزعجني فيما بعد فدب الرعب في قلبي لأني فهمت أنهما قضيا عليها ، لكن الشفقة لم تعرف السبيل الى فؤادي لما عالجته من البؤس والشقاء على يديها .

سرت مع الرفاق الكبار الذين نالهم التعس ، وحلت بهم نوازل المكروه ، بمقدار ما بلغ إليّ منها لكنهم عند ما شبوا ، واشتدت سواعدهم ، والتمسوا مايصلحون به حالهم لم تعزب عن فكرهم طفولتهم التعسة المعذبة ، ولم ينسوا أشباههم الأطفال الذين يعانون

كل ضروب الرق والعبودية ، فألفوا فيما بينهم تلك الجمعية التي أخذت تسهر على الصبية الصغار وتدافع عنهم ، وتقتص لهم ممن يقسو عليهم ، ويسومهم جوراً وظلماً .

حللتُ في دارهم حيث ألفيتُ عدة أطفال في سني وما فوقه ، فأخبرني أحدهم بأنه رآني عند ما ألقت العجوز القبض عليّ ، وتبعني حتى علم بمقرّي فأسرع بنقل أمري إلى الرفاق الكبار الذين سارعوا لاغاثتي ، وأنقذوني من مخالب تلك العجوز القاسية .

عدت عندهم إلى سيرتي الأولى ، فكنت أجمع أعقاب السجاير وأبيعها ، وأستجدي ، وأسرق ما أستطيع سرقته ، وفي الليل عند ما أعود إلى مأواي لديهم أدَرَّب وسائر الأطفال على نشل حافظات النقود من الجيوب ، فإذا أعيانا أمر إنسان ، واستعصت علينا سرقة حافظته ، عمدنا إلى شق جيبه بمشرط واستولينا على ما فيه .

وكانت هذه الطريقة ، في بدء أمرها ، من أشق شيء عندي ، لأنها تتطلب مهارة وخفة يد ، لا يتسنى الحصول عليها إلاّ بعد مران طويل ، فكان الرفاق الكبار يدرّبوننا بصبر وجلد بأن يملأوا طستاً ماء ، وينشروا على سطح الماء ورقة طافية ، ويطلبوا منا قطعها بمبضع حادّ دون أن تغطس ، أو أن يبتل ظاهرها ، فدأبت على ذلك حتى قتلته مراساً ومعالجةً ، ولم يمض عليّ طويل زمن حتى برعت فيه ، وبززت سائر رفاقي الأطفال .

كلفت باللصوصية ، وأولعت بالنشل ، لأن كلاهما ينيلني ، من جهة ، ما أصبو إليه من مال ، ومن جهة أخرى ، ما يساعدني على الإضرار بالناس ، والإنتقام من الإنسانية التي بادأتني بالشر ، حالما تفتقت عيناي لنور هذه الحياة .

وما برح المجتمع يناصبني العداء ، ويصليني حرباً شعواء حتى تأصلت في نفسي كراهية البشر ، فأصبح لا يلذ لي غير مدّ يد الأذى لسواي تشفياً منه وانتقاماً .

وما زلت على هذه الحالة ، وأنا كلما تقدم بي العمر إزداد خبرة ودراية بفنون السرقة وأساليب النشل ، فلم أترك مجهوداً إلاّ بذلته ، ولا وسعاً إلاّ استفرغته ، حتى صرت من أكبر اللصوص ، ومن أعظمهم جرأة ، وأوسعهم حيلة ، ولكن ذلك لم يكن ليطفىء جمرة غلي وحقدي ، لأن سرقة المتاع ، وتخفيف عبء الجيوب من المال ، لا يثقلان العوائق ، ولا يصيبان الإنسان في صميمه ، فصحّ عزمي على مبادرته بالسوء في جسمه وحياته ، ولذا لجأت إلى سفك الدماء ، وإلى القتل بشناعة ووحشية ، فكنت أفتك بالناس وأنا رابط الجأش ، ثابت الجنان ، دون أن يختلج قلبي بأية عاطفة من الحنان ، بل كنت أقبل على ذلك بلذة متناهية ، مستعذباً حشرجة الغير ونزعهم ، مستطيباً آلامهم وعذاباتهم ، منتشياً من منظر دمائهم السائلة التي كانت تنزل على فؤادي برداً وسلاماً ، حتى

كنت أقتل لسبب ولغير سبب ، فاذا ما اشتدت وطأتي في مكان ، وضج أهلوه مما نزل بهم ، رحلت إلى سواه وأنا أبذر الموت أينما حللت ، حتى أثقل أمري الحكومة ، وعجزت عن إيقافي عند حدي ، ومنع أذاي وضري ، لأني كنت أفلت من الهواء ، لا أعلق في حبالتها مهما أحكمت حبكها .

ويتبادر الى الأذهان أن القتلة لا ضمير لهم يبكتهم على منكراتهم وآثامهم ، غير أن هذا خطأ يذهب إليه من يأخذ الأمور على علاتها ، ويقع فيه الذي لا يتعمق في درس العواطف البشرية ، فكنت إذا ما خلوت بنفسي عقب كل جريمة ارتكبتها ، شعرت بضميري الغافي يستيقظ من سباته ، ويعنفني على موبقاتي ومنكراتي ، فكنت أبين له ما حاق بي من الظلم منذ ولادتي حتى وقتي هذا ، منددا بتصرفات المجتمع معي ، مبررا فعالي ، محبذا أعمالي . فكان ضميري يتململ قليلا لكنه لا يلبث أن يعود إلى سباته .

وما زلت أتنقل من جريمة شنعاء الى أخرى نكراء ، ومن إثم شديد إلى اثم أشد منه وأوقع ، دون أن ترتوي نفسي من الدماء المراقة ، بل كانت تتوق دائما الى الفتك والقتل حتى إذا سطوت ذات ليلة على دار وجيه وفتكت دون رحمة ولا شفقة بأسرته كلها ، المؤلفة من زوجة وشابين وصبيتين وطفل رضيع ، اعتقلت في المنزل قبل أن أستطيع الافلات لأني ، وايم الحق ، لم أرده ، فقد عافت نفسي الحياة ، وضقت ذرعا بالوجود ، ورأيت الاستسلام بدون مقاومة ولا ممانعة ، رغبة مني في الرحيل عن هذه الدنيا التي لم أنل منها سوى الشقاء والتعاسة ، ولم أجد فيها طيلة حياتي غير ظلم الانسان لأخيه الانسان .

وقد أقررت للمحقق بكل آثامي ومنكراتي ، ورجوت القضاء الحكم علي دون شفقة ولا رحمة ، لأني عشت ولم يعرف قلبي الشفقة ولا الرحمة ...

هذا هو تاريخ حياتي ، المفعم على قصره بالحوادث الجسام .. إن مروعاته ليست وقفا علي وحدي ، بل هي نفس ما سيصيب كلا من هؤلاء الأطفال ، الذين أبصرناهم حول صندوق النفايات . والذين يملأون شوارع القاهرة وأزقتها وطرقاتها .

إن قلبي يتقطع حسرة عليهم ، لما يخبئه لهم الزمن من الرزايا والخطوب ، وسيكونون جميعا مثلي حربا على الانسانية والمجتمع ، طالما أن هناك آباء لا قلوب لهم ، وأمهات تجردن من كل عاطفة حنان على فلذات أكبادهن ، وحكومة لا تبالي بهؤلاء الأطفال ولا تعالج مشكلاتهم الحيوية ، وأغنياء لا هم لهم إلا ملء بطونهم ، وإشباع ملذاتهم .

(عزبة الزيتون) جورج نيقولاوس

معهد سميثسونيان [1]

Smithsonian Institute

يوجد بمدينة واشنطن بالولايات المتحدة الامريكية معهد علمي يعرف بهذا الاسم. قام منذ أكثر من قرن بدور خطير في خدمة العلم والعلماء وتمهيد سبل الدرس والثقافة للباحثين ومحبي الإطلاع.

وهو من أقدم المؤسسات التي قامت بمال الأفراد. وصاحب الفكرة عالم انجليزي يدعى المستر جيمس سميثسون James Smithson الذي أوصى قبل وفاته بكل ثروته البالغ قدرها خمسمائة ألف دولار للحكومة لإنشاء معهد علمي عام. ولم يحدد أغراضه تفصيلاً بل أجمل ذلك في « ان الغرض منه هو العمل على توسيع دائرة المعارف والعلوم بين الناس عامة ».

فتم تأسيس المعهد في عام ١٨٤٦ بواسطة الحكومة قياماً برغبة صاحب الهبة على خير ما يرام. وحمل المعهد منذ ذلك الحين منار العلوم والمعارف في أميركا الشمالية. ولقد كان حقاً متحفاً مبيناً، أتاح لنفر كبير متابعة البحث ومزاولة الدرس وإنماء الثروة العلمية حيث عكف المشتغلون فيه على دراسة مظاهر الطبيعة ومعالجة شؤونها وكشف ما غمض من نواميسها وحل ما استعصى من مسائلها، واثبات ذلك على ضوء العلم الصحيح. فكان للمعهد على مدى الأيام من حسن الأثر في التقدم العلمي لأهل هذا الجيل ما يقرن ذكره بالحمد والثناء.

ولم تكن الأفكار وقت تأسيس المعهد مهيأة تماماً لاستساغة مثل هذه البحوث لأن العلوم وقتئذ لم تكن متصلة الوشائج ولا هي على حال من التآلف والارتباط مما آلت إليه فيما بعد. نعم قد عمد بعضهم إلى حل بعض المسائل الخاصة بالميكانيكا والطب. كما عني البعض الآخر بجمع مختلف النباتات وطوائف من الفراش والهوام لا لغرض ظاهر أو هدف معين إلى غير ذلك من المحاولات.

أما المستر سميثسون صاحب الفكرة فقد كان كلفاً بدراسة علم الكيمياء ومعالجة المعادن فأكب على أنابيب الاختبار وبين يديه مختلف الأحجار لدراستها متخذاً ذلك

---

(١) مترجم من الانجليزية من مقال للمستر توماس هنري — المجلة الجغرافية الاهلية الامريكية

كهواية لا كمهنة . ولاختباراته وأبحاثه آثار معروفة . وقد التحق عضواً . وهو في سن الثانية والعشرين بالجمعية الملكية .

* * *

أما المعهد فيشتمل . عدا قاعات الدراسة وغيرها ، على معارض بها مختلف الأسماك والزواحف والحشرات والطيور والجلود والأحافير ، ونماذج من أوراق الأشجار والزهور وغيرها . وكلها منسقة تنسيقاً علمياً ومعروضة للزائرين . غير أن كثيراً منها محجوز في أماكن خاصة للعلماء والاخصائيين.

وانضوى تحت لواء المعهد المذكور منذ عهد تأسيسه عشر هيئات فنية وعلمية حكومية عملت تحت إدارته واندمجت فيه كما عاونته مالياً .

ومن حسن الطالع أن من وقع عليه الاختيار لإدارته كان أوسع أهل زمانه علماً وأبعدهم شهرة في علم الطبيعيات ألا وهو المستر جوزيف هنري الذي عمل على تحقيق فكرة صاحب المشروع وقام بها خير قيام — وهو أول من وضع نظرية التلغراف . وإن كان غيره هو الذي استغلها . كما انه هو أيضاً المخترع للآلة الكهربائية المغناطيسية وان نظريته الخاصة بالمغناطيسية الكهربائية كانت إحدى الأسس التي بُني عليها تصميم المحركات والمولدات الكهربائية .

وبعد وفاة المدير المذكور خلفه في ادارة المعهد المستر سبنسر فولرتون بيرد . فعمل هذا على الإكثار من المجموعات الخاصة بعلم الحياة ، حتى اُعتبرت مجموعة المعهد إحدى المجموعتين أو الثلاثة الشهيرة في العالم . لاشتمالها على نماذج معظم الأحياء من الهلاميات إلى الغوريلا . وكلها معروضة للبحث العلمي .

أما مجموعة النباتات بالمعهد فتشتمل على نحو ٢٨٠٫٠٠٠ أنموذج لمختلف الأنواع المعروفة الآن في العالم بما في ذلك الفطريات .

أما الأحياء التي تنتمي الى فصيلة الزواحف فيوجد منها نحو ١٠٠٠٠ - ومن ذوات الثدي نحو ٢٥٤٫٠٠٠ — ومن السلالات المختلفة أقليمياً نحو ١٤٫٠٠٠ وكلها محنطة . كما يوجد في المتنزه الأهلي الذي تمده الحكومة باعانتها . وهو تابع لهذا المعهد . حيوانات ثديية حية وزواحف وطيور كلها معدة لتثقيف الجمهور وللباحثين .

وبالمتحف الأهلي التابع لهذا المعهد أيضاً أكثر من ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ نموذج خاص بعلم الحياة وأكبر الأحياء عدداً وأكثرها تنوعاً هي مملكة الحشرات، فإن ما عرف منها في العالم على وجه التقريب يبلغ نحو ٨٠٠٫٠٠٠ نوع، عدا ما يضاف إلى هذا العدد سنوياً

مما لم يكن معروفاً من قبل ويعد بالألوف . وهذه ممثلة ضمن محفوظات المعهد البالغ قدرها ٦٠٠٠ر٠٠٠ ومجموعة نماذج الطيور تـكاد تكون كاملة ، إذ المعروف أن الأنواع الأصلية يبلغ عددها ٨٥٠٠ . وبإضافة عدد الأنواع الفرعية يبلغ عددها ٣٠ر٠٠٠ . وأنواع الأسماك المعروفة من أصلية وفرعية يبلغ عددها ٤٠ر٠٠٠ بالمعهد . وبإضافة هـذا العدد الى ما في المتحف الأهلي منها تبلغ جملة ذلك ١ر٤٠٠ر٠٠٠ نوع

وفضلاً عما في المعهد من معارض وما هو مجهز به من معدّات الدرس ووسائل البحث العلمي، فقد قام منذ نشأته بإرسال بعثات استكشافية بلغ عددها حتى الآن ١٥٠٠ بعثة لارتياد المناطق النائية . وجمع نماذج من النباتات والحيوانات وغيرها للمعهد وهو مجهود له قيمته من الوجهتين العلمية والإقتصادية حتى أن ما في المعهد منها الآن ليعدُّ بحق قاموساً للاحياء وتطورها من الطحالب إلى الإنسان. ومن معروضات المعهد هياكل عظام الحيوانات المنقرضة والحاليـة منذ فجر التاريخ للآن. ومن بينها الدينوصور Dinosaur والديبلودوكاس Diplodocus . وكان الأخير أضخم حيوان عاش على الأرض إذ يبلغ طوله من قمة رأسه الى مؤخر ذيله سـبعين قدماً وارتفاعه خمسة عشر قدماً . وعلى هذا القياس قد يمكن تقدير وزنه من عشرين إلى ثلاثين طنـاً .مع العلم بأن وزن الفيل الـكبير لا يتجاوز خمسة أطنان.

أما الدينوصور الذي يعتبر من فصيلة الزواحف فله منقار كمنقار البط وساقاه كساقي الديك الرومي كما أن له قرنين . وهو من أكلة النباتات واللحوم أيضاً . عاش على الأرض منذ ثمانين مليون سنة وقدر وزن ما يأكله بنحو ربع طن من النباتات يومياً .أما حجم مخه فصغير جداً بالنسبة الى جسمه الهائل لدرجة أن ادراكه الضعيف قد لا يتجاوز علمه بأنه كائن حي فحسب.

وبالمعهد مجموعة كبيرة من الهياكل العظمية لمختلف أنواع الزواحف من أصغرهـا الى الدينصور . كذا توجد أجزاء متناثرة من الأحافير لا شكل لها هي بقـايا لحيوانات ثديية منقرضة كانت في أميركا الشمالية في أزمنة متوغلة في القـدم في العصر المسمى بالعصر البالوسيني Paleocene وهي معروضة أيضاً في المعهد للعلماء والاخصـائيين . كما توجد أيضاً بقايا عظام لحيوانات ثديية تختلف كل الاختلاف عما هو معروف في عصرنا الحاضر .

ومما عُـني المعهد بدراسته أصل الهنود الحمر سكان أميركا الأقدمين الذين وُجدوا بها قبل فتح أوربا لها ومنشئهم . فشرع في ذلك في عام ١٨٧٩ وقيض له جمع معلومات قيمة لها خطرها في هذه الناحية وأيضاً لصلتها بثقافـة الجنس البشري إجمالاً . ومع ما في دراسة هذا الجيل من البشر من الصعوبة والتعقيد فقد تبين للباحثين بأن هؤلاء الهنود ليسوا بسلالة قائمة بذاتها إنما هم أقوام من سكان آسيا لا تربطهم رابطة اقليمية ، نزح أسلافهم الى

أميركا أفراداً وجماعات حول بوغاز بهرنج Behring منذ نحو عشرين الف سنة بدليل اختلافهم في المظاهر واللغات وأساليب المعيشة وصفاتهم التشريحية وغيرها. ومن ضمن الذخائر التي يحتفظ بها المعهد مجموعة من الجماجم البشرية تبلغ نحواً من ١٧٠٠٠ جمجمة كانت محل درس مستفيض فأمكن منها معرفة الأزمنة التي عاش فيها أصحابها وأنواع سلالاتهم وأعمارهم والحالة العقلية التي كانوا عليها . وكذا النوع « أي فيما إذا كانت الجمجمة لذكر أم أنثى » الى غير ذلك . لأن الجمجمة في اعتبار العلماء هي أولى أجزاء الهيكل العظمي بالاحتفاظ وأجدرها بالدرس من غيرها ، إذ هي من الوجهة التشريحية تمثل الناحية الانسانية ، وقد جيء بهذه المجموعة من سائر أنحاء العالم ، فهي بمثابة قاموس شامل ومرجع محترم .

هذا وقد عاصر المعهد ظهور كثير من المخترعات وتابع تطوراتها . فمنها القاطرة والتلغراف والسيارة والآلة الكاتبة والتليفون والطائرة وأشعة رنتجن والراديو وغيرها من الأجهزة والآلات التي تدار بالكهرباء . كذا الدائن المستعملة في كثير من الصناعات

ويحتفظ المعهد ببعض نماذج من الآلات البدائية للقاطرة والراديو . ونماذج لبعض المنسوجات ومستخرجات المناجم وبكثير من الآلات التي تستهوي الزائرين وتستلفت الأنظار والتي تمثل في مجموعها الطابع الخاص بالثقافة الأميركية .

ولا تفوتنا الاشارة الى أن لمعهد سميثسونيان الفضل في نشأة فن الطيران فهو أول مصنع للمحاولات الأولى للطائرة كما انه يشتمل على متحف لتطورها منذ نحو خمس وأربعين سنة لأن السكرتير الثالث للمعهد وهو المستر بيير بونت لانجلي . أعلم علماء زمانه في الكيمياء قدم الى واشنطن يحمل معه حلمه الذي ظل يداعبه منذ صباه . وهو تقلد الانسان أجنحة الطير وجعل ما هو أثقل من الهواء يعلو فوق الهواء . فقد عانى في هذا السبيل كثيراً وبذل جهداً جهيداً وكان يتحرق لبلوغ تلك الأمنية حتى أخذ في مراقبة الطير أثناء تحليقها في الجو ليقتبس منها طريقتها . وبعد محاولات عدة في سنوات متتابعة أظهر أول محرك ذي أجنحة في شهر مايو من عام ١٨٩٦ أطلقه من فوق سفينة فطار الى مدى نصف ميل ثم هبط فوق الماء بغير أن يلحق به أي عطب . وبعد ذلك عمد الى بناء جهاز آخر يرتفع في الجو حاملاً إنساناً فأتمه وأجرى أول تجربة في شهر اكتوبر من عام ١٩٠٣ غير انها أخفقت . ومن بعده قام كثيرون بعدة محاولات مماثلة كان لها أثرها الظاهر في تقدم هذا الفن . ومهما كانت الظروف واختلفت الأساليب فللمعهد فضل السبق على كل حال .

ومن البحوث التي يقوم بها المعهد مسألة بناء الذرة التي أصبحت في مقدمة البحوث العلمية . وأشعة الشمس ومدى تأثيراتها المختلفة في الأحياء بحثاً مستفيضاً فأكب المستر

أبوت Abbot سكرتير المعهد هو وجماعة من المشتغلين بهذه الشؤون في مرصد المعهد على هذه الدراسات. فالشمس تنشر حولها أمواج القوى الى ملايين الأميال . فيتجه بعضها طولاً مع الأثير وهي موجات الراديو . والبعض يسير بتموُّج أثيري متناهٍ في القصر هي أشعة رينتجن . وبين هاتين نطاق ضيق من الأشعة هو أكسير الحيـاة يشمل الاشعاع والحرارة والضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية غير المنظورة التي تلهب الجلد وتقتل الجراثيم . كما يشمل الضوء الشمسي عدداً لا يحصى من الموجات ذات الأطوال والخصائص المختلفة وهم يقومون أيضاً بدراسة حرارة الشمس وصلتها بتقلبات الطقس وإمكان الأنباء بتغيرات الجوّ وغير ذلك . فهذا المعهد الذي تؤيده الحكومة الأمريكية هو بمثابة مستودع عظيم لمختلف المعروضات . فيشاهد الزائر في قاعات العرض شتى الحاجات . فمن لعب الأطفال التي كانت تستعمل في أول عهـد استيطان الانجليز لأميركا ، الى ملابس الرئيس واشنطن وسيفه . فمكتب الرئيس توماس جيفرسون الذي كتب عليه مسودَّة اعلان اسـتقلال أميركا . إلى ميداليات وأوسمة بيرد مرتاد القطب الشمالي في عام ١٩٠٩ الى غير ذلك من التحف والآثار التي لا يتناولها حصر . وبه أيضاً مجموعة من ملابس زوجات رؤساء الولايات المتحدة من عهـد الرئيس واشنطون الى فرانـكلين روزفلت . وبالمقارنة تتبين وجوه التغيير التي طرأت على ملابسهن مدى مائة وخمسين عاماً .

واهتمَّ رجال المعهد بحفظ مجموعة من الأحجار الـكريمة . ونماذج من جميع أنواع المعادن المعروفة . كذا معظم أنواع المعـادن والنيازك التي هي من أصل كوكبي وهي مجموعة مستوفاة الى أبعد حدٍّ وهي تختلف في مظهرها عن المعادن الموجودة على أرضنا قليلاً .

ولما كانت رغبة مؤسس المعهد هي نشر العلوم والمعارف، فقد زوَّد المعهدُ نحواً من ١٥٠٠ مكتبة عامة ومعهداً علميّـا في مختلف البلدان بعـدد وافر من المطبوعات الثقافية والعلمية في كل موضوع مجاناً لمحبي الاطلاع .

وبالاجمال فالمعهد هو عبارة عن مستودع لأعظم وأثمن المجموعات الفنية في العالم، وهو يشمل مجموعتي التحف اللتين خلفاهما كل من المستر اندرو ميلون Andrew Mellon والمستر شارلز فرير Charles Freer ولـكل منهما بناء خاص قائم برأسه .

وليس من المبالغة في شيء لو قلنا بأنه قد لا يوجد هنالك مكان آخر في العالم قد ضمَّ شتات ما تفرَّق من نماذج وآثار تلك الفترة التي تخللت فصول رواية الأرض . فترة « التخمُّر » العجيب وأدوار التطوُّر وهو ما يسمى « بالحيـاة » على هذا النمط الرائع البديع الخالد .

أمين عبده

بوزارة الزراعة سابقاً

التقدم الصناعي

في مصر

وأثره في الحالة العمالية والاجتماعية[1]

اشتهرت مصر منذ القدم بأنها بلاد زراعية . وستبقى زراعية ما دام يجري فيها النيل العظيم بمائه العذب ويحمل في جريانه أسباب الخصب لأرضها الطيبة وما دامت شمسها المشرقة تبعث الحياة والنموّ السريع لكل ما يزرع فيها.

وبالرغم مما تتمتع به مصر من شهرة ذائعة في هذا المجال وبالرغم من المجهودات المتواصلة التي بذلها المصريون قديماً ولا يزالون يبذلونها الآن لاصلاح أراضيهم واستثمارها فان ما ينتج من هذه الأراضي في الوقت الحاضر لا يكفي حاجة السكان ولا يفي للنهوض بمستوى معيشتهم على الوجه الأكمل وحتى اذا ارتقينا بوسائل الانتاج الزراعي أكثر مما فعلنا وبلغنا غايتنا من اصلاح كل الأراضي البور أو القابلة للزراعة وحصلنا في النهاية على أقصى ماتنتجه الأرض من غلة ، فستبقى الحالة المعيشية في مصر دون المستوى المنشود — ذلك بأن سكان مصر يتزايدون باطراد كل عام بنسبة تسبق دائماً نسبة الزيادة في مساحة الأراضي المستصلحة وتفوق بكثير أمثالها في البلاد الأخرى . فقد تضاعف عدد سكان مصر في أقل من خمسين سنة فأصبح في سنة ١٩٤٧ أكثر من ١٩ مليون نسمة . وكان في سنة ١٨٩٧ أقل من ١٠ ملايين نسمة . بينما لم تزد مساحة الأراضي المنزرعة في هذه الحقبة أكثر من ١٠ في المائة.

ومعروف أن البلاد التي تعيش من الزراعة وحدها بلاد فقيرة ، كتب على أهلها أن يقنعوا بأقل نصيب في الحياة سواء في مأكلهم أو ملبسهم أو في سائر شئونهم الحيوية.

وثابت من بعض الاحصائيات التقريبية أنه يوجد من أهل مصر ما لا يقل عن أربعة

---

(١) محاضرة القاها سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا في ٢٦ اغسطس ١٩٤٩ في حلقة الدراسات الاجتماعية التابعة لهيئة الامم المتحدة التي انعقدت في بيروت ابتداء من ١٥ اغسطس ١٩٤٩

ملايين شخص كان يعيش كل منهم قبل الحرب العالمية الثانية بإيراد لا يزيد عن جنيه واحد في الشهر . وخمسة ملايين شخص بما لا يزيد عن ثلاثة جنيهات في الشهر . وقد زاد هذا المستوى إبان تلك الحرب فيما يختص بعمال الزراعة والصناعة الى ثلاثة أمثاله . ومع هذه الزيادة فستوى المعيشة بالنسبة للطبقات المتوسطة والطبقات الفقيرة لا يزال في حاجة قصوى للنهوض به وتحسينه .

لذلك كان واجباً على مصر أن تفكر جديّا في علاج هذه الحالة وان تستنبط وسيلة أخرى بجانب الزراعة تكفل لأهلها عيشة راضية بقدر الامكان .

ونعود قليلاً الى الوراء حيث شبت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ فقد شعر المصريون بنقص كبير في كثير من حاجاتهم الضرورية ولم يتمكنوا من الحصول وقتذاك على بعضها إلاّ بأثمان باهظة . فعوّلت البلاد على أن تتجه ناحية الصناعة . ولم تنته تلك الحرب الاّ وكانت الأذهان مهيأة لهذا التطور . فنهض المغفور له محمد طلعت حرب باشا واستنهض الهمم داعياً المصريين الى الاهتمام بالصناعة فنجحت دعوته . وانتهز فرصة هذا النجاح فتقدّم لبلاده بمشروعات صناعية متعددة تمت دراستها بعناية وأشرف على تنفيذها مع نخبة من رجالات مصر بهمة واخلاص حتى بدأت هذه الصناعات تؤتي ثمارها ويفيد منها المصريون وأهل البلاد المجاورة .

وساعد على انجاح هذه الصناعات تعديل سياسة مصر الجمركية في سنة ١٩٣٠ تعديلاً يكفل قسطاً معقولاً من الحماية للصناعات الناشئة . ومعروف ان أبوابنا . قبل هذا التعديل كانت مفتوحة لكل وارد بما لا يدع مجالاً لأية صناعة أن تعيش .

وإذن فيمكن القول بأن التفكير في تصنيع مصر قد بدأ في أعقاب الحرب العالمية الأولى وأن النهضة الصناعية المصرية الحديثة بدأت بعد تعديل التعريفة الجمركية الذي أشرنا اليه أي أن عمر الصناعة المصرية يقل في الواقع عن عشرين عاماً .

صحيح انه قامت في مصر في القرن الماضي عدة صناعات . كصناعة السكر والصناعات المعروفة بذات المنفعة العامة كصناعات الكهرباء والغاز والمياه . ولكن هذه الصناعات لم يكتب لها البقاء إلاّ بفضل ما كانت تتمتع به من ميزة الاحتكار التي كفلت لها الحماية

من خطر المنافسة مدة طويلة . كما استطاعت صناعات أخرى أن تعيش بجانبها كالصناعات اليدوية والميكانيكية الصغيرة، ولكن سرعان ما ضعفت هذه الصناعات أو تلاشت لأسباب سياسية واقتصادية لا مجال لتفصيلها في هذا المقام .

***

إن كل الأسباب مهيأة لنجاح الصناعة في مصر، فرؤوس الأموال متوافرة وكذلك الأيدي العاملة . والمادة الخام موجودة سواء فيما تنتجه الأرض أو فيما تحويه في باطنها من كنوز شتى .

ولقد اعتمدت الصناعة أول ما اعتمدت على كثير من المواد الأولية الزراعية التي يتوافر انتاجها في البلاد وأهمها القطن فنجحت صناعات الغزل والنسج المختلفة الخاصة بالقطن والحرير والتيل والصوف والكتان وحلج القطن وتبييض الارز وطحن الحبوب وصناعة السكر والمأكولات المحفوظة ، كما نجحت صناعات كيماوية كاستخراج الزيوت والصابون والصودا وحامض الكبريتيك والصناعات المعدنية كالأثاثات المعدنية والأسرة والأدوات الصحية والصنابير وأنابيب الرصاص والحديد والأقفال والمسامير وأدوات الانارة وكثير من أدوات المستشفيات كأدوات التعقيم والأجهزة الجراحية والصناعات الجلدية كعمل السيور وسروج الخيل والشنط والأحذية وصناعات الفخار والقيشاني والسيراميك والبلاط والرخام والأسمنت وصناعة الطباعة وصناعة الأثاث وصناعة المواصلات البحرية والنهرية والأرضية والهوائية وغير ذلك كثير مما يحتاج إلى بيان طويل

وهذه الصناعات التي يبشر نجاحها بعصر ذهبي للرخاء في مصر يمكن أن نصل بها إلى أرقى درجات الكمال إذا استمر أصحاب الصناعات على الأخذ في صناعاتهم بالأساليب العلمية الحديثة وتدعيم بنائها على أساس اقتصادي سليم .

ولعل أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الصناعة في مصر فوق توافر رؤوس الأموال والمادة الخام — حسن استعداد العامل المصري واقباله على تفهم دقائق الصناعة الحديثة بروح الذكي الماهر الصبور .

***

ولكي ندرك مدى التطور الصناعي في مصر في السنوات الأخيرة نبين فيما يلي بعض بيانات احصائية عن مدى الفائدة التي أفادتها البلاد من نهضتها الصناعية وهي تتناول :

أولاً — رؤوس الأموال المستثمرة في الصناعة وقيمة المنتجات الصناعية والدخل الأهلي منها .

ثانياً — عدد المؤسسات الصناعية والعمال المشتغلين بها وأجورهم .

ثالثاً — أثر الصناعة في الميزان التجاري .

رابعاً — مقدار ما تحصله الدولة من ايراد من الصناعة .

فأولاً — بلغت قيمة رؤوس الأموال المستثمرة في الصناعة سنة ١٩٤٥ بما في ذلك قيمة السندات المصدرة والإحتياطات — نحو ٢٠٠ مليون جنيه قيمة إسمية .

وبلغت قيمة المنتجات الصناعية ٢٠٠ مليون جنيه أيضاً . كما بلغ الدخل الأهلي منها في نفس السنة ٧٠ مليون جنيه . في حين أن قيمة المنتجات الزراعية قدرت بمبلغ ٣٢٠ مليون جنيه (حسب تقدير وزارة الزراعة في تلك السنة) وقيمة الدخل منها ١٧٨ مليون جنيه . .

ثانياً — في سنة ١٩٢٧ كان عدد المؤسسات الصناعية أكثر من ٧٠ ألفاً تستخدم نحو ٢١٥٠٠٠ شخص .

وفي سنة ١٩٣٧ ارتفع عدد المؤسسات إلى ٩٢٠٠٠ كما زاد عدد من تستخدمهم إلى ٢٨٠٠٠٠ شخص، ثم استمرت الزيادة حتى بلغ عدد هذه المؤسسات ١٣٠٠٠٠ في سنة ١٩٤٤ تستخدم ٤٦٠٠٠٠ شخص .

ويقرب الآن عدد المستخدمين في الصناعة من عمال وموظفين نحو نصف مليون . لا يدخل فيهم عمال الحرف اليدوية ولا عمال الحكومة ومستخدموها الذين يشتغلون بأعمال صناعية . وهؤلاء يزيد عددهم على المائة ألف شخص .

فإذا أضفنا إليهم عدد من يعولونهم وجدنا بأن الصناعة المصرية قد فتحت أبواب الرزق لعدد من سكان البلاد لا يقل عن مليون ونصف مليون شخص أو يزيدون .

أما مقدار الأجور والمرتبات التي دفعت للعمال والموظفين الذين يعملون في الصناعة

فقد بلغ في سنة ١٩٤٥ نحو ٢٧ مليون جنيه ، أي بما يزيد على ٤٢ جنيهاً سنويّـا للعامل في المتوسط بينما كان متوسط الأجر لعامل الزراعة في تلك السـنة ١٩ جنيهاً فقط وهو كما يبدو أقل من نصف الأجر في الصناعة

على أن أجور العمال في الصناعة قد زادت بعد هذه السنة زيادة كبيرة ففي صناعة الغزل والنسج مثلاً عدلت الأجور في أوائل سـنة ١٩٤٨ وزادت ٢٥ في المئة مما كانت عليه في سنة ١٩٤٥ .

ولا يدخل في هـذا التقدير ما تقدمه بعض الصناعات المصرية لعمالها من الخدمات الصحية والاجتماعية وبخاصة تقديم السكن والتغذية والعلاج .

ففي شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة الكبرى وشركة مصر للغزل والنسج الرفيع بكفر الدوار وكذلك في شركة صباغي البيضا — وهي من الشركات التي أساهم في الاشراف عليها قدرت قيمة الخدمات سالفة الذكر بما يقرب من ٢٠٪ من أجرة العامل يوميّـا .

ثالثاً — وكان من نتائج تقدّم الصناعة المصرية أن استغنت مصر عن استيراد كثير من المنتجات الصناعية بفضل صنعها محليّـا .

فبالنسبة لصناعة الغزل والنسج مثلاً قد بلغت قيمة المنتجات :

من الأقمشة القطنية ٢٥ مليون جنيه . ومن الأقمشة الحريرية ٥ ملايين جنيه .

ومن الأقمشة الصوفية ٣ ملايين جنيه .

كما بلغت قيمة المنتجات من صناعات الكحول والبيرة وكسب بذرة القطن والسكر والاسمنت ومستخرجات الزيوت نحو ٥٠ مليون جنيه .

فيكون المجموع ٨٣ مليون جنيه .

وقد توفرت للبلاد هذه المبالغ واندمجت في الثروة القومية وتأثر بها الميزان التجاري لصالح مصر وأصبحت عاملاً من أهم العوامل في زيادة القوة الشرائيـة لأفراد الشعب المصري وبالتالي في رفع مستوى المعيشة بينهم .

رابعاً — بلغ مقـدار ما حصلته الدولة في سنة ١٩٤٥ من الضرائب المفروضـة على

الصناعة — خلاف الرسوم الجمركية — نحو عشرين مليون جنيه بينما لم تحصل الدولة من الضرائب المفروضة على الأطيان الزراعيـة في تلك السنة إلاَّ على أقل من خمسة ملايين من الجنيهات .

يتضح مما تقدم مقدار أهمية الصناعة في تحسين مستوى المعيشة في البـلاد وأثرها في دعم الاقتصاد المصري وضرورتها لامكان توازن الميزان التجاري .

وقد ظهرت آثارها بوضوح ابان الحرب العالمية الثانيـة التي أوصدت أثناءها الطرق البحرية واضطر أهل كل بلد حينذاك أن يكتفوا لدرجة كبيرة بانتاجهم الذاتي .

فقد وفرت الصناعة المصرية لأبناء البـلاد حاجتهم من الكساء ومن كثير من المواد الضرورية الأخرى . كما وفرت أثناء فترة تلك الحرب العصيبة لجيوش الحلفاء . كثيراً من المواد الهامة حتى أمكن للمصريين أن يحتملوا سني الحرب دون عناء وأمكن للحلفاء أيضاً أن يشيدوا بما قدمته لهم الصناعة المصرية من معونة قيّمة .

* * *

وكان من الطبيعي ، وقـد اتجهت مصر هـذا الاتجاه الصناعي ان تواجه طائفـة من المشاكل العمالية الهامة التي تلازم دائماً تصنيع جميع البلاد . فإن طبيعة العمل في الزراعة وفي الصناعات اليدوية تختلف اختلافاً بيناً عنها في الصناعات الكبرى الحديثة سواء من ناحية تجمع العمال وتكتلهم والمواظبة على الاستمرار في العمل والسرعة والعناية في الانتاج أو من ناحية استخدام الاحداث والنساء وأخطار المهنة أو تنظيم الهيئات العمالية وترتيب علاقاتها مع أصحاب الاعمال . وقد نشأت كل هذه المسائل وتزايدت أهميتها مع نمو الصناعة وتقدمها السريع .

واجهت مصر هذه المشاكل العمالية بطائفة من التشريعات راعت في وضعها ما اقتبست من خبرة بعض البلاد التي سبقتهـا بأشواط طويلة في التطوُّر الصناعي الحديث وأخـذت تتدرَّج في إصدار القوانين التي تحمي العامل وتنظم علاقاته بصاحب العمل وتحدد حقوق وواجبات كل من الطرفين فأصدرت :

أولاً — في سنة ١٩٠٩ تشريعاً أوليًّا لحمـاية الاحداث الذين كانوا يشتغلون ببعض

الصناعات . وقد تعدل هذا التشريع في سنة ١٩٣٣ بتشريع حديث يحرم تشغيل الاحداث دون الثانية عشرة سنة من عمرهم في الصناعة ولا يجيز تشغيلهم إلاّ في الأعمال الخفيفة التي تتناسب مع سنهم وقوتهم البدنية ، وتؤهلهم الى تعلم صناعة أو حرفة . وقد حدد القانون الصناعات الخطرة التي لا يجوز تشغيل الأحداث فيها إلاّ إذا كان بيدهم شهادة طبية دالة على لياقتهم من الوجهة الصحية للعمل في هذه الصناعات . كما حرّم تشغيلهم في صناعات معينة وفي أثناء الليل ، أما ساعات العمل اليومي فقد حدّدها القانون كما حدّد فترات الراحة اليومية والأسبوعية .

وكذلك حرّم هذا التشريع تشغيل النساء ليلاً إلاّ في حالات استثنائية . كما حدّد ساعات عملهنّ اليومي وفترات الراحة اليومية والأسبوعية وحرّم القانون تشغيلهنّ في الصناعات الخطرة . ونصّ هذا التشريع أيضاً على منح العاملة أجازة قبل الوضع وأخرى لا تقل عن خمسة عشر يوماً بعد الوضع .

ثانياً — نظم المشرع المصري ساعات العمل للبالغين . فصدر قانون سنة ١٩٣٥ نصّ على عدم تشغيل العمال أكثر من تسع ساعات يومياً ، وذلك في الصناعات الخطرة التي حددها القانون . كما حدّد فترات الراحة اليومية على نحو يجعل العامل لا يشتغل أكثر من خمس ساعات متوالية .

ثالثاً — وكان من أثر التطوّر الصناعي أن تنبه المشرع المصري الى ضرورة الأخذ بمبدإ مخاطر المهنة ومسؤولية صاحب العمل وحده عنها . فصدر قانون في سنة ١٩٣٦ نصّ على انه لكل عامل أصيب أثناء العمل وبسببه الحق في الحصول على تعويض عن اصابته من صاحب العمل وفقاً للقواعد المقررة . ذلك فضلاً عن مسؤولية صاحب العمل عن العلاج الطبي وصرف نصف الأجر أثناء العلاج والتعويض في حالة تخلف عاهة جزئية أو كلية أو إذا توفى العامل بسبب الاصابة

رابعاً — ولضمان حصول العمال على التعويض عن اصاباتهم صدر القانون في سنة ١٩٤٢ يلزم أصحاب الأعمال بالتأمين على عمالهم ضد اصابات العمل .

خامساً — كان أيضاً من أثر التطور الصناعي تكتل العمال وتجمعهم فأصبح لزاماً على

الدولة أن توجههم الوجهة السليمة وتعترف بنقاباتهم . فأصدرت قانوناً سنة ١٩٤٢ تجيز للعمال الذين يشتغلون بمهنة أو صناعة أو حرفة واحدة أو مهن أو صناعات أو حرف متماثلة أو مرتبطة ببعضها البعض أو تشترك في انتاج واحد أن يكوّنوا فيما بينهم نقابات ترعى مصالحهم وتدافع عن حقوقهم وتعمل على تحسين حالاتهم المادية والاجتماعية . وبذلك اعترفت مصر بالنقابات العمالية ومنحتها الدولة الشخصية المعنوية . على أن القانون قد حرّم على هيئات العمال الاشتغال بالمسائل السياسية أو الدينية حتى تتفرّغ لتحقيق الأغراض التي أنشئت من أجلها . كما حرّم عليها الدخول في مضاربات مالية أو تجارية حرصاً على أموالها من الضياع .

سادساً — ولما كان هناك الكثير من الحقوق والواجبات لكل من العمال وأصحاب العمل لم تنظمها القوانين سالفة الذكر فقد ضمنها المشرع قانوناً آخر أصدره سنة ١٩٤٤ وهو قانون عقد العمل الفردي .

وهو ينص على مسؤولية صاحب العمل عن تقديم العلاج الطبي للعامل في حالة المرض ومنحه أجازة مرضية أقصاها تسعون يوماً ، ونصف الأجر أثناء العلاج فضلاً عن تقديم الدواء مجاناً . وقد نظم القانون المسائل المتصلة بالأجر والجزاءات التي توقع على العمال والوجوه التي تصرف فيها حصيلة الغرامات ، والاجازات السنوية بالنسبة لمن يزاولون أعمالاً عادية أو أعمالاً خطرة أو مضرة بالصحة .

كما كفل القانون للعمال والمستخدمين الحق في مكافأة عن مدة الخدمة في حالة الفصل من العمل فضلاً عن ضرورة الإخطار قبل الفصل بمدة كافية .

ولم يغفل هذا التشريع الواجبات الاجتماعية الملقاة على عاتق أصحاب الأعمال الذين يستخدمون عمالاً في جهات بعيدة عن العمران فنصّ على ضرورة توفير الغذاء الصحي والسكن اللائق .

وقد أقرّ هذا القانون علاوة على ما تقدم مبدأً هامّاً يقضي بمنح العمال اجازة سنوية تتراوح مدتها بين ١٠ أيام و١٥ يوماً تبعاً لدرجة خطورة المهنة وذلك مع دفع أجورهم كاملة عن مدة هذه الاجازة .

سابعاً — بعد أن قطعت مصر هذه المرحلة في ميدان الصناعة والتشريع الاجتماعي كان لا بدَّ من ايجاد وسيلة سريعة للفصل فيما ينشأ من منازعات بين أصحاب الأعمال والعمال فصدر قانون التوفيق والتحكيم سنة ١٩٤٨ وقد جعل هذا القانون الفصل في المنازعات العمالية على مرحلتين . الأولى مرحلة التوفيق فاذا فشلت هذهِ المرحلة ولم يتمكن الطرفان من الوصول الى اتفاق في النزاع القائم بينهما أحيل موضوع النزاع الى هيئة التحكيم وهي هيئة شبه قضائية يحضرها محلفون . وقد نظم القانون طرق الالتجاء الى الهيئتين .

وهذا التشريع يعد من أحدث التشريعات العمالية .

ثامناً — ولما كان العمال وأصحاب الأعمال كثيراً ما يدخلون في مفاوضات ودية لوضع شروط للعمل أسخى مما تنص عليه القوانين فقد أعدت الحكومة المصرية مشروع قانون خاص بعقود العمل المشتركة والأركان الواجب توافرها في العقد وهذا المشروع منظور الآن أمام البرلمان المصري .

هذا سرد مختصر للتشريعات العمالية التي أصدرتها الحكومة المصرية وهي في مجموعها ترمي إلى حفظ حقوق العمال وتنظيم علاقاتهم بأصحاب الأعمال . وقد كانت الحكومة المصرية موفقة كل التوفيق حينما فكرت في إنشاء مجلس أعلى للعمل يضم مندوبين عن العمال وآخرين عن أصحاب الأعمال وممثلين لمصالح الحكومة المختلفة وجعلت من اختصاصه النظر في هذه التشريعات قبل إقرارها وإصدارها ويبحث هذا المجلس الآن مشروع قانون للتأمين الاجتماعي ضد المرض والعجز والشيخوخة والوفاة وبإصداره يمكن القول بحق أن شئون العمال تسير جنباً إلى جنب مع تقدم الصناعة ومع تقدم التشريع العمالي في البلاد الصناعية .

* * *

وكما واجهت مصر هذه المسائل الهامة واجهت بجانبها أيضاً مسائل اجتماعية وصحية لها خطورتها البالغة، منها اكتظاظ السكان في المدن والمناطق الصناعية اكتظاظاً لم تعرفه بلادنا من قبل . ففي مدينة المحلة الكبرى حيث أنشأ بنك مصر مصنعه الكبير للغزل والنسج الذي بدأ العمل في سنة ١٩٣٠ تضاعف فجأة عدد السكان . في المدينة حتى ساءت

حالتها الصحية . ومنها سوء التغذية بسبب بعد المسافة بين المصانع وبين بلاد بعض العمال ، إذ كانت الغالبيـة العظمى منهم تتناول طعامها في أمكنة بعيدة كل البعـد عن القواعد الصحية كما أن الغذاء نفسه لم يكن مشتملاً على عناصر التغذية اللازمة .

وقد وجدنا فوق هذا أن الحالة الصحية لغالبيـة هؤلاء العمال كانت في أشد الحاجة للعناية بها نظراً لانتشار الأمراض المتوطنة والمعدية بينهم، يضاف الى ذلك أن عدداً كبيراً من هؤلاء العمال هم من فئة الأحداث . وهؤلاء وإن كان القانون يجيز استخدامهم إلا أن حداثة سنهم وبعدهم عن عائلاتهم قد جعل العناية بهم أمراً واجباً .

هـذه مشاكل كما تعلمون ليست قاصرة على مصر فحسب ، بل إنها من لوازم التصنيع وقد واجهها الكثير من البلاد الصناعية الأخرى . ويسرني أن أذكر لكم كيف عالجناها وإلى أي حد نجحت الصناعة المصرية في التغلب على حدتها .

إننا لم نتجه في علاج هـذه المشاكل نفس الاتجاه الذي درجت عليه كثرة المصانع في البلاد الأخرى وهي إعطاء الأجر المناسب للعامل ثم تركه يدبر بنفسه أمر ما يحتاجه من المسكن والتغذية والرياضة والعـلاج والتعليم، بل كان رائدنا في ذلك كله أن يتولى أصحاب الأعمال أنفسهم تدبير السكن الملائم والغذاء الصحي، وكذلك توفير وسائل الرياضة والعلاج بإقامة المستشفيات وتعليم أبنـاء العمال بإنشاء المدارس وقد أنشأت بعض الشركات التي لي شرف المساهمة في إدارتها مدناً فسيحة أعدت فيها المساكن الصحية للمتزوجين من العمال لا يزيد إيجارها عن قيمة مصاريف الصيانة، كما أعدت مطاعم صحية تقدم فيها الوجبات بنصف التكاليف ومستشفيات تامة الاستعداد لعلاج العمال بدون أجر، كما أنشأت المدارس لتعليم أولاد العمال، والنوادي الرياضية لبث روح الرياضة بينهم وتسهيل سبل التسلية لهم اثناء الفراغ

ولم تقتصر هـذه الشركات على إقامة المساكن للعمال المتزوجين، بل أقامت أبنية خاصة للعزاب من الرجال والنسـاء أعدت إعداداً وافياً بكل أسباب الراحة والصحة والرفاهية .

وقد كان من حسن الحظ أن وجدنا من الحكومة المصرية كل مؤازرة وتشجيع وربما سمع بعض حضراتكم بالشرف الكبير الذي نالته هـذه المصانع ، إذ تفضل جلالة ملك مصر حفظه الله بافتتاح جميع هذه المؤسسات .

ويسرني أن أذكر لكم أيضاً ان بعض المؤسسات الصناعية الأخرى قد حذت حذو مؤسساتنا وقدّمت لعمالها الخدمات الإجتماعية المختلفة .

إني أعلم أن كثيراً من هـذه المنشئات التي تقيمها الصناعة في مصر هو من صميم عمل الحكومات والمجالس البلدية لأن السكن والتعليم والعلاج متروك في كثير من البلاد الصناعيـة الكبرى للدولة والهيئات العامة . ولـكنا نقدر في مصر أن إنشاء صناعة قوية تحتاج إلى تهيئة جوّ صالح للعامل حتى يمكنه الاستمرار والإقبال على الصناعة والاستقرار فيها والإعتزاز بها . ويسعدني أن أبلغكم ان هذه التجربة الصحيحة التي تقوم بها شركات مصر وغيرها قد أتت بفائدة كبيرة لأن صحة العامل قد تحسنت كما زاد الانتاج وتحسن نوعه.

بقيت لي كلمة عن النقابات وهو الموضوع الذي شغل الكثير من الهيئات الدولية في السنوات الأخيرة وخاصة المجلس الاقتصادي والاجتماعي ومكتب العمل الدولي وكان محل دراسة عميقة من جميع المهتمين بالصناعة في العالم ، فقد كان طبيعيًّا كما ذكرت أن يشعر العمال في مصر بحاجتهم الى جمع كلمتهم ، وكان طبيعيًّا أيضاً أن تصدر الحكومة المصرية قانوناً ينظمها ويعترف بشخصيتها المعنوية . ويسرني أن كثرة العمال المصريين قد تفهموا الغرض الأساسي من انشاء النقابات وانها جمعيات اقتصادية وصناعية وليست هيئات سياسية. وان على رؤسائها والقائمين عليها واجباً نحو الصناعة ونحو زملائهم ، فاتجه كثير من هذه النقابات للخدمة العامة ، فأنشأ صناديق للإدخار ، وفصولاً للتعليم ، وأندية للرياضة . وقد قامت نقابة عمال شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة التي يزيد ايرادها السنوي عن عشرين الف جنيه داراً لرعاية الطفل أعدّ أحسن اعداد نرجو أن يكون مثلاً تحتذيه النقابات الأخرى .

وأحب أن أصارحكم القول بأننا في مصر نرحب بقيام النقابات ما دامت تسير في الطريق المشروع لها، وما دامت ترعى صالح العامل ولا تنسى صالح العمل . ونحن نعتقد أنها متى أحسنت ادارتها وعملت على تحقيق الأغراض الاجتماعية التي أنشئت من أجلها ساعدت على ايجاد روح طيبة بين العمال وأصحاب الأعمال سداها التفاهم ولحمتها المصلحة العامة ومصلحة الصناعة التي هي مصلحتهم .

هذا هو سرد مختصر للتقدم الصناعي في مصر في العشرين السنة الأخيرة والنتائج الاقتصادية التي حصلنا عليها وهو يبين بعض المشاكل العمالية والاجتماعية التي اصطحبت هذا التقدم الصناعي، وكيف عالجته مصر عن طريق التشريع من جهة وعن طريق الخدمة الاجتماعية من جهة أخرى. على أن هذه هي المرحلة الأولى، وستتلوها باذن الله مراحل عديدة، لأننا لا زلنا نجد في السير في هـذا الطريق لتوفير العمل ورفع مستوى المعيشة بصفة عامة، فأمامنا مشروعات صناعية ضخمة لا شك أنها تحتل المكان الأول من تفكير الحكومة المصرية ورجال الصناعة على السواء. فإن مشروع كهربة خزان أسوان الذي سمعتم به حضراتكم ولو أنه لم يبت بعد في بعض التفصيلات الخاصة به، إلا أننا نأمل أن يجتاز قريباً مراحل التنفيذ، وإن يوفر بعد إنشائه القوة المحركة الرخيصة التي تسمح بإقامة صناعات هامة كصناعة استخراج الحديد من المادة الخام الموجودة بكثرة ومن نوع جيد في منطقة أسوان.

أمامنا أيضاً استكمال البحث والتنقيب عن الثروة المعدنية كالبترول مثلاً حيث ان مصر غنية بهذه المواد كما أثبت البحث ذلك.

* * *

ولا يفوتني أن أذكر لحضراتكم ان خبرتنا في هذه المرحلة الأولى قد أثبتت ضرورة توفر الصناع المهرة الذين هم عماد الصناعة وقوامها. كما أثبتت ضرورة القيام بالبحوث الفنية اللازمة لكل مشروع حتى يستكمل مقوماته. ولذلك وجب علينا العناية أولاً بتدريب العمال ورؤسائهم تدريباً فنياً كاملاً يمكنهم من استعمال الآلات والماكينات الدقيقة كما يمكنهم من زيادة الانتاج ويغرس في نفوسهم روح الاعتزاز بالمهنة حتى يؤدوا رسالتهم على الوجه الأكمل فيصبح العامل المصري في مصاف زملائه في أرقى البلاد الصناعية. كما يتطلب الأمر العناية بالأبحاث الفنية بإنشاء معاهد للدراسات الخاصة بالصناعة حتى يتهيأ لها كل الوسائل والمقومات التي تعاونها على توطيد أركانها وتجعلها تتمشى مع تقدم الأساليب العلمية والصناعية الحديثة.

قصة

١٨ أكتوبر

جلس إلى أولاده يستمع إليهم في صمت . هـذا راغب أن تكون حُـلة العيد ذات سراويل طويلة ، فقـد شبّ عن الطوق ولم يَـعُـد صغير الأمس يقنعه الساذج ويرضيه الرخيص . وهذه تريده ثوباً من خالص الحرير ، ولن تكون دون جارتها تجملاً وحسبها ما لقيت من أذى صويحباتها وسخريتهن في العيد الفائت . وإلى قبالته كبير أولاده يرنو باسماً ، وينظر إليـه أبوه فيعرف أنها جنيهات خمس عشرة سوف تدفع ثمناً لقيد ابنه في الجامعة. والويل له إن سوّف . وتلك زوجُـه ومن بين يديها صغيران يتلهفان شوقاً لرؤية « خروف العيد » والأم تضرب لهم الصبح موعداً وما الصبح ببعيد .

وآوى الأب إلى مضجعه فرأى فيما يرى النائم كأنّ جيوبه قد ملئت ذهباً وفضة ، ورأى الدنيا قد أقبلت عليه، فقضى ليلة سعيدة الهجعة، هنيئة الضجعة، وهبّ مع البكرة منشرح الصدر وكان ضيقه ، رضي البال بعد بلبال ، رخي النفس بعد برم . فجهد يعرف باعث هذا وهو المرهق عسراً ، فذكر أنه يملك « ورقة نصيب » ليس على بينة من يومها ، فنشرها بين يديه في لهفة وأنعم النظر فيما تحمل من تاريخ فإذا هو قد مضى عليه أسبوعان

فانكفأ إلى ملابسه يختطفها من على المشجب اختطافاً ، وأسرع يلتهم تلك اللقمات التي أعدّت لفطوره على عجل . وأقبل إليه أولاده يستعجلونه البرّ بما وعد ، ويطلبون إليه الوفاء فأرضاهم بقبلاته . وتعلقوا هم بأهدابه إلى الباب يشيعونه بصيحاتهم المختلطة حتى أدركوا واقية السلم فتشبثوا بها يرمقونه وهو يطوي الدرجات طيّاً ، واتسع له الطريق فأسرع فيه الخطو لا يلوي على شيء ، وقد سمع لدقات قلبه ففزع لشدتها فتريث واتأد وامتدت يسراه تلمس مكان الورقة من جيبه فعادت بها تنشرها بين عينيه ، وأنعم النظر يقرأ . فأيقن أنه

لم يكن مكذوباً ، فتاريخها (١٨ أكتوبر) وهو اليوم في غرَّة الشهر الجديد ، ورأى الرقم الدال على الجائزة الأولى تكبر حروفه حتى تكاد تطغى على كل ما هو مسطور ، وأعْظَمَ أن يكون بعد قليل مالك ثلاثة آلاف من الجنيهات ، وكان في أمسية مضت ـ لا عادت ـ يضيق بتدبير دراهم معدودة . فضحك حتى بدت نواجذه ، ولكنه ما لبث أن ذكر الناس من حوله فضمَّ شفتيه ضمّـًا وعبس حتى لا تظن به الظنون ومضى في طريقه .

*

كان وفيق بك وجيهاً مرموقاً يشغل مكاناً في الدولة لا يدركه إلاَّ من خلّف جُل عمره وراءه . وكان ذا حيلة في الحياة فعرف كيف يعبِّد لنفسه سبيلاً أو اثنتين إلى رزق آخر يعود به على نفسه وعياله . ولم يكن في وقته أو جهده مدَّخر لجديد من السعي فرضي بحظيه هنا وهناك وانصرف يعني بمن حوله في خلسات ينتهزها بعد الظهيرة مرة ومع الصبح قبل أن يغادر البيت أخرى . وكانت تحته زوج يرى يدها في كل ركن من أركان البيت ، وهي فيه مشمرة لكل صغيرة وكبيرة مع حزم وتدبير .

وعاش الزوجان لا يعرفان الراحة إلاَّ إذا وفّراها لمن بين أيديهم ، ولا يهنئهما إلاَّ أن يريا بسمات الرضى والغبطة منفرجة بها تلك الشفاه الرقيقة .

وكان جاه الأب لا يحميه إلاَّ أن يظهر بنوه في رونق وبيته في أناقة حمَّله ذلك عسيراً لم يتسع له هذا الكسب ولا ذاك الرزق . وكانت الحياة غبَّ حرب وبين شِقيَّ غلاء ، من أجل ذلك لم يجد الأب مدخراً يحتال به للطارئة والنازلة ، وما أكثرهنَّ عند من ما لا يقوى لهنَّ ويخلنَ به قصوراً وضعفاً .

*

سكنت تلك الأسرة طابقاً من منزل جميل ، يعلوها في الطابق الثاني رب البيت بآله ، يرزقه الله رزقاً واسعاً من تجارة وبيوت . وأقبلت الحرب فأنعشت موات ماله وأزكت ثروته .

وكانت بين الأسرتين آصرة عقد عقدتها الجوار ، ومرت السنون تمكّن لها وتوثّق . ولم تعمل فاصلة الغنى فصماً ، وإن كانت قد أرهقت ذا الرزق المكتوب عسراً ، فما أحرصه

على ألا يتخلف به الركب كثيراً . وقديماً كان في السُّلم يجري مع مُسا كنه في قَرَن ويكاد في بعض أيامه يفوته .

*

كانت زوج « وفيق » عند منصرفه في شغل . ولم تكن تحسبه على تلك العجلة الخاطفة وظنته غير بارح إلاَّ بعد أن يدبرا الرأي بينهما فيما يفعلان . وهي ذات علم بضائقته ولكنها مدخرة لذلك رأياً همت أن تكشف عنه لزوجها مع المساء فأمسكت حتى لا تضار أولادها في نخوتهم ، وتعود بهم صغاراً وقد خلفتهم كباراً .

فما راعها إلاَّ صغارها حين عادوا اليها وهي في بعض شأنها يقصون عليها في فرح عجلة أبيهم الى السوق ليحمل اليهم ما يرجون ويحبون .

ونفضت الأم يدها وانتفضت واقفة وهرولت الى الباب تظن انها مدركته . ولكنها ما لبثت أن علمت أنه ودع عجلاً . فآبت مهمومة واجمة . ونظر الصغار هذا الوجه المتجهم فشغلهم وأوجسوا خيفة فسكنوا وجمد كل في مكانه . وساد الصمت ، وملكت الأم مقاد حزنها خشية أن توحش قلوب أبنائها بعد أنس ، فخرجت عن صمتها وعادت اليهم باشة هاشة ولكن قلبها في صدرها لا يزال مشغولاً .

* * *

ثلاثة آلاف من الجنيهات، رزق الله يسوقه الى من يشاء من عباده ، ذلك ما أخذ «وفيق» يردده في نفسه وهو يخطو . ولكن شيئاً آخر شغل فكره ، وكان يفقد علته ثم وجدها، لقد لبثت هذه الورقة في جيبه أياماً وما التفت اليها . وبالأمس مرَّ به الصبي يحمل بياناً طويلاً بالأرقام الرابحة وصاح بين يديه : الاسعاف . الاسعاف . فما أبه له ولا اهتز . وما كان يضيره لو قلّب ورقته بين يديه وتعرَّف عاقبة أمرها . ثم يسكت ويعود اليه شغله فيجد لذة البشرى اليوم خيراً منها بالأمس وان المال المسوق بعد ضائقة أنعش للقلب من مال ساقه الله مع يسر . وإذا ما ارتاحت نفسه لهذه العلة بدأ الشك يخالجه: أهو رابح حقاً، أم ما أحسه وهمُ واهم وخدعة مخدوع .

فيحس كأن قوة تلفته عن شيء ظنه وتبسط له في الرجاء ، وتهيىء له علته ، ويجدها علة قوية حين التفت الى الورقة بعد نسيان فيعود واثقاً ، ويستخفه الفرح فيمضي في سبيله .

وطالت غيبة الزوج قليلاً ولم يكن بين يدي العيد إلاّ يوم أو بعض يوم . وعلى الأم أن تهيء لصغارها ما يحتاجون إن كانت لا بد مهيئة، وما عليها أن تفعل ما ارتأت حتى يؤوب الزوج، ما في ذلك من بأس :

فصعدت وحدها الى ربة البيت تسألها جنيهات ، ولبثت تجد لذلك سبباً ثم وجدته بعد لأي ، ولم يكن حقـاً كما لم يكن كذبا .

فجلست اليها تحدثها ولا تقوى أن تلج الى موضوعها . وطال الحديث ومضى الوقت يجري ، وهمت أن تنصرف وخرجت في إثرها صاحبتها تودعها .

وما كادتا تقفان إلى الباب حتى وجدت الشجاعة في أن تطلب ورأت في غيبة الزوج علتها وفيما ربة البيت تعود إليها بما طلبت إذا « وفيق » يُرى صاعداً ، فتقبض زوجه يدها عن أن تأخذ ، فقد سقط عذرها بمجيئه . وتودع صاحبتها شاكرة منحدرة إلى حيث تلتقي الزوج الآئب .

*

شهد شاهدان كانا يقفان غير بعيد على ناحيـة من الإفريز في شارع معمور بالمارة والسابلة ، رجلاً وسيم الطلعة بادي الأناقة قد وقف إلى صبي حافي القدمين أشعث أغبر في جلباب خلق وهما يتجاوبان في صوتٍ عالٍ ، هالهما منه سخرية الصغير بالـكبير ، وعدوان الكبير على الصغير . فخفّـا إليهما يفصلان بينهما .

كان « وفيق » واهماً حين أُلقي في روعه أنه في شهر اكتوبر وأنه انصرم منه خمس ليالٍ بعد العشرين . وكان الصبي غير رحيم حين زيّـف له قوله . وكان « وفيق » سريع الغضبة حين أغلظ للصغير . وكان الصغير منتصفاً حين سخر به وأمعن في السخرية .

تلك هي الجلبة التي قيّـض الله لها اثنين ، كادت لولاهما تُـفضي بالمتخاصمين الى غير محمود من المغبة .

*

ونظر « وفيق » إلى من حوله فرأى العيون تغمز ، والألسنة تلمظ . ووجد نفسه بين حشد يسأل اللاحق منهم السابق فيحدثه أن هنا وجيهاً به مسّ . فيضحك من يضحك ويأسى من يأسى. وكذا المصيبة تضحك وتحزن ، وعلى هذا جبل الناس ولا يزالون .

وانتفض « وفيق » في رعدة أحسَّ بعدها أن غاشية تكشفت ، وحملاً عن عاتقه سقط . وعادت إليه الواعية فاستخزى .

ولكنه ما لبث أن شقَّ طريقه بين الملتفين حوله ومرق لا يلوي على شيء وراءه ، وهمَّ أن يطلب سيارة غير أنه ذكر أنه خرج من البيت خاوي الجيوب يضرب في الطرقات ابتغاء هذا الرزق الموهوم ، فخفض يده وقد كاد أن يرفعها مشيراً ، وأمسك صوته في فيه ، وقد همَّ أن يرسله منادياً . ومضى يخب في سيره إلى البيت .

*

أتعرف كيف تستقبل المدن الأعياد ؟ هذه محالّ ازدانت مطارحها بالزاهي الجاذب ، وتلك قد كشفت عن ألوان من الحلوى في خُمُر مذهّبة ومفضّضة . والعيد الذي سيستقبله « وفيق » بأسرته عيد كبير ، تساق فيه الخراف إلى المدينة سوقاً .

ومرَّ « وفيق » في أوبته بالكثير من هذا ، رأى الثياب الجميلة فذكر أولاده وحاجتهم منها : ورأى الحلوى الرائقة فلم ينسَ أن للبيت مع العيد نصيباً . وما أن وقع نظره على الخراف ، وكان قاب قوسين أو أدنى من منزله ، حتى خال كأن صغيره أمامه يعبث بيديه اللطيفتين على ظهر واحد منها وهو بجانب الخروف والخروف ينِدّ عنه ثم يعود إليه شارعاً قرنيه ، فاندفع يجري فرأى حقًّا ما حسبه خيالاً ، وبصر بصغيره ملقى على الأرض . فحمله على كتفه تاركاً الخروف وراءه . وكنت تسمع الصغير يصيح : لا أريد خروفاً لا أريد خروفاً .

*

وأظلَّ المساء الأسرة فإذا هي في مثل جلستها بالأمس ، وإذا الرغبات هي الرغبات . وكانت الأم أوسع حيلة فلم تترك صغارها ينامون إلا مطمئنين . ولكن الأب لبث جامداً لا يحير جواباً ، وقد حبس صوتاً فيه إجهاشة الباكي ، ودمعة وراء جفنيه خاف أن تنحدر على خديه فتفصح أسى في النفس ، لو انكشف للصغار لآووا إلى مضاجعهم بغير تلك النفوس الراضية .

وآن للأب أن ينام فقام إلى مضجعه متثاقلاً ، وغلبه النوم فنام وأصبح ، فإذا الرغبات هي الرغبات لم ينقص منها شيء ، ونظر إلى الورقة فإذا بينه وبين يومها أسابيع ثلاثة . واضطربت جنبات نفسه بأمل ورجاء ، ودَّ معه لو تطوى الأسابيع في غمضة .

ولكن هيهات . فأطرق الرأس وهو يردد : « ١٨ اكتوبر »

ابراهيم الابياري

بين الصحافة والادب

الصحافة والأدب صنوان تربطهما مودة وثيقة العرى . والصحافة والأدب كذلك عدوان لدودان يتربص كل منهما للنيل من غريمه ومنافسه .

قد يكون هذا عجيباً ، ولكنها الحقيقة الجلية

فالصحافة مهنة تتطلب أول ما تتطلب السرعة واليسر ، والأدب يقتضي اول ما يقتضي أناة وتجويداً . الأدب عالة على الصحافة والعكس غير صحيح، لأن الصحافة تستطيع أن تستغني عن الأدب إذا ضاق المجال وفاض سيل الأنباء والبرقيات . أما الأدب فلا يستطيع أن يستغني عن الصحافة لأنها بحكم سعة انتشارها وكثرة تداولها تعد أفضل وسيلة لنقل هذا الأدب إلى قارئيه . لذلك يحرص الأدب دائماً على مصادقة الصحافة، ويقبل روّاده على التودد إلى الصحفيين رغبة في عدم إيصاد الأبواب دونهم .

ويحار الأديب الذي يشتغل بالصحافة ، أيجنح إلى الأدب فيكون مقلاً في إنتاجه مجيداً أم ينحاز إلى الصحافة فيتوخى السهولة والسرعة ويُعنى بالخبر في ذاته لا بطريقة صوغه وتجميله .

ولنضرب لذلك مثلاً : إذا ذهب صحفي وأديب لمقابلة كبير من الكبراء ومحادثته وعاد كل منهما يدوّن ملاحظاته ، فإن الصحفي قد يقتصر من كلام الكبير على جملة واحدة أو إثنتين ويهمل بقية الحديث لأنه « إنشاء » لا أكثر ولا أقل . أما الأديب فإنه يبدأ بوصف هذا الكبير ، فيقول إنه أهيف القد انحسر الشعر عن جبهة عريضة توحي بالتفكير العميق ، يتحدث إليك حديثاً ذا نغمة موسيقية تحبب إليك طلب المزيد من مجالسته ، ثم يمضي يسرد كلامه كلمة كلمة ، بعد استبعاد النابي والعامي وصوغه في قالب فصيح بليغ . ولا ينسى أن يشير بين الآونة والأخرى الى ابتسامة انفرجت عنها شفتا

الكبير ، أو رشفة من قدح ارتشفها ، أو سيجارة أشعلها . ويختتم مقالته بوصف الطريقة التي حيّاه بها ذلكم الكبير .

هذه صورة لست أحسب أنها دقيقة ، ولكنها تمثل اتجاهين متضادين ، ولذلك يحرص الصحفي المحض على أن لا يتيح للأديب الوصّاف أن يتسلل الى صحيفته خشية استغلال أنهر الصحيفة المحدودة في كلام لايقدم ولا يؤخر ، وإن كان من المؤكد أن يفوّت عليه نشر بعض الأنباء ذات الشأن .

وإذا صدر كتاب وأراد صحفي أن يكتب عنه كلمة في جريدته فهو بين أمرين : إما أن يكتب عنوان الكتاب واسمي مؤلفه وناشره وثمنه ، وإما أن ينتقي منه فصلاً طريفاً أو حادثة معينة ينشرها كاملة أو موجزة .

أما الأديب فإنه لايقنع بهذه « القشور » وإنما يقبل على تلاوة الكتاب بتدبر وعناية شديدتين ، ثم يكتب عنه الصفحات في إطراء المؤلف وتقريظ الكتاب فصلاً فصلاً إن لم يكن كلمة كلمة . ولكن بعض الصحف التي لاتودّ أن تخاصم الأدب خصاماً شديداً تتوخى التوسط بين المذهبين ، فهي توفي الكتاب حقّه من الناحية الاخبارية وتجود عليه بقليل من الناحية الأدبية ، وهي في هذا تمسك العصا من وسطها .

والصحافة لا تعترف بالمرض ولا بالمطر ولا بالبرد ولا بالليل ولا بالحر ولا بالمسافات ولا بالعطلات ولا بالمواسم ولا بشيء . ولكن الأدب يعترف بها ويقيم لها وزناً .

ونعني بذلك أن الصحفي قد تصيبه الحمى ولكنه وهو يفترش سريره يباشر عمله فيتصل بهذه الدوائر وتلك ويقف على الأنباء ثم يبلغها بالتلفون إلى صحيفته متحدياً المرض وسطوته ، وإذا اكفهرّ الجوّ وعصفت عاصفة رملية هوجاء كما حدث من نحو عامين ، سارع الصحفيّ إلى الشوارع يصوّر لها صوراً ويتأملها ليسجل تحولاتها واتجاهها وألوانها ، بينما يعتصم سواه بالدور ، ويحول الجزع والهلع دون هذا التتبع والرصد . وإذا نشبت معركة أو شُهرت حرب طار الصحفي إلى حيث تكون وأبلغ جريدته كل خطوة وكل حادثة

أما الاديب فلا يزال البعض يزعم — وأحسبهُ على صواب — بأن الوحي لا ينزل عليه إلاّ تحت ظروف خاصّة وإن شيطان الشعر لا يتجلّى لصاحبه إلاّ في أحوال معينة

فهذا لا يكتب أدبه إلاَّ في الساعة الرابعة صباحاً ، وذاك لا ينظم قصائده إلاَّ على ضوء شمعة خابٍ ، وذاك لا تتفجر ينابيعه إلاَّ على شاطيء البحر ، وهكذا مما قد لا يتوفر للصحفي. فالصحفي يعمل في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، يؤدي عمله في الترام والنادي والسينما والشارع ، في الجوّ الصاخب والهدوء الشامل ، بين آلات الطباعة ذات الضجيج والعجيج ، وعلى المكتب الأنيق الفاخر في حجرته . يباشر عمله فلا يهمه أُلطِّخت ملابسه بالزيت أم خضبت يداه بالحبر . الصحفيّ يستقي الأنباء من الحقير الدنيّ ، ومن الرفيع السامي ، من الحارس ومن المحروس ، من سائق السيارة وصاحب المكتب ، من المصادفة والمثابرة .

أما الأديب ، فلا أحسبه على هذا بمستطيع لأنه يقول إن هذا جهدٌ ضائع ، فما قيمة الخبر إذا قرأته بعد نشره بيوم واحد . إنه يصبح نسياً منسيًّا ، ما يكاد يولد حتى يموت . أما الأدب ، فإنه مخلّد تتناقله الأجيال ويردّده بنو كل عصرٍ ويلتذّ بتلاوته المحدثون .

هذا هو الخصام وهذا هو التنافر بين الفنّيين المتصاهرين : الأدب والصحافة .

أما الصداقة التي تؤلف بينهما فمحورها الكلِمْ والمداد والقلم والطرس

هذه صناعة كتابةٍ ، وتلك مثلُها صناعة كتابة .

هذا عمل مشاع ، وذاك عمل مشاع .

الصحافة تفتح صدرها أحياناً للأدب ، والأدب يوسم الطريق أمام الصحافة . حتى لقد استقلّ الأدب بصحافته الخاصّة فأصدر رجاله مجلات شهرية وأسبوعية ونصف شهرية يودعونها نفثات أقلامهم ونتاج قرائحهم ومحصول بحوثهم ، وهذا ما نستطيع أن نطلق عليه اسم أدب الصحافة أو صحافة الأدب لأن الامتزاج بين الفنّين يصل إلى مرتبة عالية

واذا رجعنا الى تاريخ الصحافة العربية تبينّا أن أسبق الصحف الى الظهور — ومنها عددٌ لا يزال على قيد الحياة كالوقائع المصرية والاهرام والمقطم — كانت تعني كل العناية بالأدب، ولا تنشر الأنباء الاَّ كما تنشر الاعلانات، فمجلة الوقائع المصرية مثلاً كانت تصدر حافلة بالمقالات الأدبية التي يكتبها محرروها وتنشر الى جانب ذلك ما تصدره الحكومة من قوانين ولوائح واعلانات وتعيينات وترقيات وهلمَّ جرّا .

وجريدة الاهرام كانت عند ما أسسها المرحومان سليم وبشارة تقلا تصدر أسبوعيًّا

في الأسكندرية باللغة العربية ، ثم نقلت الى القاهرة وأخذت تصدر طبعتين واحدة باللغة العربية متضمنة المقالات الأدبية المطولة ، وثانية باللغة الفرنسية . وكانت تتعرض أحياناً لبحث شؤون البلاد الاجتماعية . وظلت تسير على هذا النهج ولم تتصف بالصفة الاخبارية وتتغلب على كل ناحية أخرى فيها حتى آلت ملكيتها الى جبرائيل تقلا باشا وولي هو أمرها بنفسه .

أما جريدة المقطم ، فكانت كذلك جريدة أدبية تنشر نفثات أقلام الأدباء السوريين واللبنانيين في مصر . بل إن مؤسسيها غلبت عليهم الصفة الأدبية لأن اثنين منهما أنشأا قبل المقطم مجلة « المقتطف » في لبنان ثم نقلاها الى القاهرة وهي مجلة أدبية وعلمية كما يعرف قراؤها . وظلّ الدكتوران يعقوب صرّوف وفارس نمر باشا يشرفان عليها الى جانب اشرافهما على المقطم حتى توفي أولهما وأقعد تقدم السن ثانيهما . ولا يزال نمر باشا يوالي الأدب كل عناية ويسعى جهده الى صبغ الصحافة بهذه الصبغة ، كما أنه يبذل جهداً محموداً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

ومن يرجع الى أعداد « الجريدة » التي كانت تصدر في سنة ١٩١٢ والسنوات التي تليها يقرأ مقالات أدبية رفيعة لمعالي الدكتور لطفي السيد باشا يستطيع الأديب أن يدعي انها أدب ويستطيع الصحفي أن يقول : بل صحافة ، ويمكن للعلماء والباحثين أن يقولوا : بل هي علم وبحث .

والتعليق على الأنباء هو في الواقع لون من ألوان الأدب، لأن المعقب الصحفي يبسط النبأ مبيناً أسبابه ودواعيه في أسلوب كثيراً ما تكون السهولة الممتنعة من صفاته . والمقالات الإفتتاحية والتوجيهية هي كذلك ضرب من ضروب الأدب لأن كاتبها يتوسل بالمنطق والحجة والأسلوب القوي على اقناع الجمهور وأولي الأمر بعدالة القضية التي يدافع عنها أو بصواب الرأي الذي يدعو إليه .

ولا ريب في أن الأديب إذا أحسن الوقوف على الحقائق المتعلقة بموضوع معين كان أقدر الناس على الإقناع وأمهرهم في كسب التأييد الذي يعوزه . ولهذا السبب عينه نبتت فكرة أخذت تنتشر في معظم بلاد العالم تقول إن الأدب يجب ألاّ يقتصر على ذاته

وإنه ينبغي أن يتصدَّر الأدباء حركات الإصلاح الاجتماعي وتوجيه الرأي العام عن طريق الصحف الى الهدف المبغيّ

والأديب بحكم دأبه ، له قراء ومريدون يتابعون كل ما يكتب أينما كان ، ويحرصون على ألاَّ يفوتهم شيء من إنتاجه ، لذلك يكون للمقالة الإصلاحية التي يكتبها الأديب أثرٌ أبعد من المقالة التي تظهر في جريدة بغير إمضاء .

***

والمقالات التي تنشرها المجلات الأسبوعية والمصوّرة هي كذلك نوع من الأدب لأنها تكتب بطريقة جذابة ذات مقدمات وأواسط ونهايات ، فضلاً عن مطابقة أسلوبها لمبادىء النحو والصرف وخضوعه لجميع قواعده. ثمّ إن كتـاب هذه المقالات كثيراً ما يسترسلون في الخيال ويتركون له العنان فتصبح مقالاتهم قطعاً أدبية نفيسة .

أضف إلى ذلك أن الصحافة اليومية والدورية لم تتخلَّ بعد عن الأدب على الرغم من القيود التي أُلزمت على الإذعان لهـا بحكم شُحّ الورق وخضوعه لنظام توزيع دولي . فما فتئت الصحف اليومية جميعاً تفسح للشعراء والأدباء المجال فتنشر لهم ما تجود به أقلامُـهم، ولا سيما في المناسبات الوطنية أو القومية . ويهتم بعض الصحف بمتابعة المحاضرات التي تلقى في الجمعيات الأدبيـة والعلمية وفي نوادي العاصمة المصرية وقاعاتها وتنشر موجزاً لها ليطّـلع عليها الذين حالت ظروفهم دون الاستماع إليها .

علاوة على أن بعض الصحف أفرد أعداداً خاصة للأدباء والـكتّـاب ، ولا يزال العدد الذي أصدرته الاهرام بمناسـبة وفاة عميدها تقلا باشا متضمناً المرثيات التي دوّنها صحبه وخلصاؤه ، ماثلاً في الذاكرة ، ولا يزال العدد الذي خصصته الصحيفة عينها لاسـتقبال مولد جامعة الأمم العربية يعد تحفة عالية من الأدب الخالص . وتلك الأعداد وأمثالها ، تكون متنفساً للقارىء يروّح بها عن الأسلوب الصحفي الذي كثيراً ما يعوزه جمال الصياغة وحسن التقديم ، وكثيراً ما يكون متصفاً بالجفاف والقحط .

كما أن الصحافة اليوميّـة كانت - قبل الحرب — تهتم بترجمة روائع الأدب الغربي

ونشرها تباعاً مساهمة منها في النهضة الفكرية . كما أنها لا تزال تفرد جانباً من أنهرها للكتابة عن المطبوعات الجديدة وحفلات التأبين والاحتفاء التي تكون عادةً كسوق عكاظ حافلةً بروائع الكلِم وبدائع النظم .

ولم تغفل الصحافة الأسبوعية بوجهٍ خاص باب القصص الذي لا يمكن لأحد أن يدّعي إنتماءه الى أسرة الصحافة . فالقصص — المنقول منه والمؤلف — أدب صرف يقبل القراء في مصر عليه : اقبالاً شديداً أغرى بعض الناشرين بإصدار مجلات خاصّة للقصص ،

تلك هي الوشائج الوثيقة التي تصل بين أسرتي الأدب والصحافة ، وهي ـ على ما أعتقد ـ أوثق من أن تنال منها الأيام . وهل أدلّ على توطد هذه العلاقة من أن عدداً كثيراً من الصحفيين ورؤساء التحرير ينتمون إلى أسرة الأدب قبل أن ينتموا إلى الأسرة الصحفية

والتطور الحديث في الصحف المصرية يقتضي انتخاب محررين ممن توافرت لهم مميزات خاصة لعلّ أهمها جودة الكتابة وحسن الصوغ لأن الزمن الذي كانت الجريدة لا تستطيع أن تستغني فيه عن مصحح يراجع ما يكتبه المحررون قد ولّى الى غير رجعة . وأقلع أصحاب الصحف إلاّ القليلين منهم عن سياسة الاقتصاد واستخدام الصحفي الذي تستطيع أن تدفع له مرتباً أقل من سواه .

ولا ريب في أن هذا التحول الجديد في صحافة مصر يزيد الأمل في التقريب بين الصحافة والأدب حتى لأكاد استشف من بين ثنايا المستقبل أننا مشرفون على عصر يقرأ فيه القارىء الخبر في الصحيفة فيحسب انه يقرأ قطعة من الأدب الرفيع ، لاإفراط فيها في استخدام المحسِّنات الكلامية ولا قصور فيها عن استكمال دعائم الاجادة اللغوية .

* * *

هذه آراء عنَّت لي بعد خبرة قصيرة الأمد في كل من ميداني الصحافة والأدب . ولو خيّرت بينهما لعسر عليّ أن أصدر حكماً .

ربيع فلسطين



توم جونس

Tom Jones

للكاتب الانجليزي هنري فيلدنج

١٧٠٧–١٧٥٤

يعلم العارفون جميعاً أن قصة « توم جونس » التي يطالع القراء خلاصة لها في هذه الصفحات هي خير قصة أخرجها مؤلفها للناس. ويقول بعض النقاد إنها أعظم قصة في الادب الانجليزي.

و « توم جونس » هذا لقيط ألقته أمه على عتبة بيت واحد من أهل الخير هو مستر « أولورذى ».

ويقول أحد الكتاب. إن المؤلف قد جعل من هذه القصة ملحمة نثرية. فهو في النثر كهومير في الشعر

وقد كان « هنري فيلدنج » رجلا مثالياً في حبه الخير للناس جميعاً.

السيد الماجد « أولورذي » شخصية محبوبة. قد أوتي بسطةً في الجسم. وقوةً في العقل. وطيبة في القلب. كما أوتي أكبر مساحة من الأرض الزراعية في مقاطعة « سومرستشير ». حيث كان يعيش في عزلةٍ عن الناس. وحيث كانت تؤنس وحدته أخته الآنسة « بردجت ».

وكانت هذه الآنسة قد جاوزت الثلاثين من عمرها. وكانت لا تأسى أبداً على ما فاتها من ملاحةٍ وجمال. وطالما أعلنت أنَّ محاسن المرأة ومفاتنها إنما هي أشراك لها وللآخرين.

وقد أوتيت هذه الآنسة بسطةً في العقل. حتى لقد كان يظن أنها تعرف أسرار كل أحبولة ومكيدة وُضعت أو سوف توضع في طريق أجمل الجميلات وأفتن الفاتنات من بنات جنسها.

وقد غاب « مستر أولورذي » ثلاثة أشهر كاملة في إنجلترا. ثم جاء الى بيته متأخراً ليلة أن عاد. وتعشى مع أخته عشاء خفيفاً. ثم قام إلى غرفة نومه. وقد نال منه التعب وأضناه.

وإذ هو يرفع غطاء السرير رأى طفلاً ملففاً في مُـلاءة . وهو ينام ملء جفونه . وينعم في مكانه ذاك بأسعد نوم وأهنئه .

ولقد كان من الجائز أن تبدو الآنسة « بردجت » أكثر عناية بالطفل الذي عهد إليها به لولا أنّ قلبها كان مشغولاً بالعناية بالكابتن « بليفيل » الذي كان قد نزل ضيفاً عندهم منذ شهور :

وكان الكابتن الظريف يعني عناية غير قليلة بأمر الآنسة « بردجت » ذلك لأنه كان واحداً من أولئك الرجال العقلاء الذين يرون في جمال النساء عرضاً زائلاً . وعارية مستردة .

ولو خُير لاختار أن يعقد زواجه على ما يملك السيد « أولورذي » من عقار موروث ومن مالٍ طارفٍ وتليد . وكان الكابتن في اقتحامه لذلك الحصن من الفضيلة . حصن الآنسة « بردجت » رائده الأناة والتعقل .

وقد اقتضى الأمر أن تمرّ بضعة أيام قبل أن يعلم السيد « أولورذي » بتسليم هذا الحصن .

وسرعان ما اغتفر للخادع خديعته . ذلك لأن أخته كانت قد بلغت يومذاك السنّ التي تُدرك فيها ما يضرها وما ينفعها . وتبع هذا أن رحب بالكابتن كزوج لأخته .

وبعد انقضاء ثمانية أشهر على زواجهما ولدت السيدة « بليفيل » مولوداً ذكراً . كامل الخلقة . حتى لم يعبأ أحد بقول القابلة إنهُ ولد قبل تمام حمله بشهر .

ولو أن مولد وارثٍ — ولدته هـذه الأخت المحبوبة — كان مصدر سرور وغبطة لمستر « أولورذي » . غير أن حبّـه للقيط الصغير قد زاد ولم ينقص .

ومن عجب أنّ السيدة « بليفيل » قد بدأت تشاطر أخاها حنانه . وبدت مغرمة بأن تصحب « تومي » . كما بدأت تبدي قلة مبالاة بأمر ولد مستر « بليفيل » حتى لقد أثار هذا الأمر قلق زوجها .

والحق أن هذا الميل منها للطفل اللقيط مضافاً إلى مسائل أخرى قد كانت سبباً في أن ينشب بينها وبين زوجها خلاف قد أحنقه وأثار حفيظته . حتى أدّى به الغضب يوماً إلى أن يصيبه الفالج . وهي مصيبة قابلتها الزوجة بالتجمّـل والصبر .

وقد بدأت هي منذ ذلك الحين تعني العناية كلها باللقيط . وأصبح أمر تفضيله على ولدها يثير عدم الرضا عند الناس كلهم باستثناء واحد منهم هو مستر « أولورذي » الذي ما برح يولي اللقيط كل عناية .

وقال اللائمون إنه لعجب أي عجب أن يأذن السيد الماجد لصبي لقيط أن يتربّى مع ابن أخته . وقالوا إنّ هذا سوف يتأثر بالقدوة السيئة فتسوء أخلاقه وتنحطّ . ذلك لأنّ « توماس » قد بدت عليه منذ الصبا الباكر ألوان من الرذيلة . وبخاصة السرقة . فهو قبل أن يبلغ السادسة عشرة من عمره كان قد سرق إحدى الحدائق . ثمّ أتبعها بسرقة بطّة . ثمّ أعمل بعد ذلك مشرطه في جيب مستر « بليفيل » .

ومما هو جديرٌ بالذكر أنّ « بليفيل » كان رجلاً لا يشرب الخمر . وكان تقيًّا . وكان متزنًا . وهي صفات حببته إلى كل من عرفه .

والخادم الوحيد في العائلة الذي أبدى اهتماماً بصحبة « توم جونس » كان « جورج سيجرم » حارس الصيد . وهو رجل في خلقه انحلال .

وصحب الولد والحارس سيدهما في رحلة صيد . واتفق أن سرباً من طائر الحجل قد هبط في أرض جار للسيد اسمه « وسترن » فأمر السيد « أولورذي » حارس صيده أن لا يتخطى حدود أرض الجار ، وأنذره بالحرمان والطرد إن عصى أمره . ولكن الصبي اللقيط قد عرف كيف يقنع الحارس بضرورة التخطي . فأصغى لمشورته ودخل أرض الجار وأطلق على الطير الرصاص .

فلما جاء صاحب الطير يشكو بادر السيد «أولورذي» الى طرد الحارس . ثم عزّر ابنه في المهاد . وعنفه ولكن في غير غلظة .

ثم نبتت صداقة وطيدة بين « توم » والسيد « وسترن » الذي كان يعجب بمهارة الصبي في ركوب الخيل . حتى لقد أعلن السيد إعلاناً صريحاً في ساعة من ساعات سكره أنه يتمنى لو كان له ولد قد أوتي مثل ما أوتي « توم » من البراعة والذكاء .

ثم أصبح « توم » ضيفاً مقيماً لا يتخلف عن مائدة السيد « وسترن » وحتى لقد أصبح الآمر الناهي في أمر سلاح السيد وأمر خيله وكلابه .

وعندئذٍ أجمع «توم» أمره على أن يستعين بهذه المنزلة التي بلغها في قلب السيد «وسترن» ويشفع عنده لصاحبه حارس الصيد الذي أراد أن يلحقه كخادم في بيت «وسترن» ثم رأى أن يستعين في ذلك أولاً ببنت « السيد » الوحيدة .

وكانت هذه الفتاة واسمها « صوفيا » مليحة الشكل . وإن كان يعيبها بعض القصر . ولم يكن « توم » مولعاً بحبها . ذلك لأن هواه كان مع « موللي سيجر » صغرى أخوات حارس الصيد .

و بينما الأمور كما وصفنا إذ جاء « توم » ذات أصيل الى حيث كانت « صوفيا » تجلس وحيدة وبدا ينبئها في لهجة الجد . وبعد اعتذار قصير أنه في حاجة الى معونة تسديها اليه . فظنت أنه يريد أن يحدثها حديث غرامه بها . ذلك لأن لونها قد امتقع وتولتها رجفة . وتعطلت لغة الحديث ولكن «توم» لم يمهلها إذ بدأ يتوسل اليها بأن تمد يد المعونة لحارس الصيد .

فلما أفاقت « صوفيا » من غشيتها قالت — وعلى فمها ابتسامة حلوة — أهذا كل ماكنت ترجوه مني بمثل هذا الجد البالغ في القول ؟ ألا فاعلم أني قد استجبت لندائك !

وفي الأسابيع التالية كان « توم » يذهب كل يوم للصيد مع «السيد» ثم يعود معه الى البيت حيث كانت « صوفيا » تسلط على الشاب كل أشعة سحرها وفتنتها . فأصبح يبادلها هو — من حيث لا يدري — حبًّا بحب ولو انه كانت تعتريه بين آونة وأخرى نوبة احساس بحب « موللي سيجر » ولو انه كانت تطوف بخاطره ذكرى العهد الذي تعاهدا عليه فيعرف أن له حبيباً في مكان غير هذا . وقد جمعت رحلة الصيد يوماً بينها وبين أبيها وبين صاحبهـا . وإذ هم عائدون قفز حصانها على حين غفلة من فرط الخفة والمرح . فجرى « توم جونس » وكان منها غير بعيد وأمسك بلجام حصـانها . ولـكن الحيوان المتمرّد الصعب الشكيمة قد ألقى بحمولته الغالية وراء ظهره فتلقاها « جونس » بين ذراعيه . وفي تلك اللحظة خطر بباله لأول مرّة أن لن يهدأ باله حتى تكون « صوفيا » ملكاً له ، وقد شجّعته على هذا الطموح وصيفة الفتاة واسمها « مسز أونر »

وطفق صاحبنا — وقد أضنته لواعج الحب الذي كان لا يجرؤ على أن يبوح به — يمشي في الخلاء . ويطوف ما يطوف بين الطرق المنعزلة حيث كان يشكو تباريح الجوى .

وقال يوماً وهو يناجيها : لوددت أنّ السماء استجابت لدعائي لجعلتك بين ذراعيّ ! وإني أرى السعادة في أن يجمع الدهر بيننا وأرى الشقاوة في أن يفرّق بيننا الدهر .

وكانت أخت السيد « وسترن » على يقين من أنّ « صوفيا » قد تيمها الحب فباتت نضو سقام وأليف شجن . وانّ الذي أُشرب قلبُها حبّه هو السيد « بليفيل » ثم ما لبثت أن صارحت أخاها بما يجول في وهمها .

فما أن سمع هذا القول منها حتى قال : لم أكن أسعد يوماً في حياتي من هذا اليوم الذي سمعت فيه هذا النبأ . ذلك لأن أرضنا وأرضه متجاورتان . وكأن قد ربط بين أرضه وأرضي من قبل رباط زواج .

ولكن بعد أيام قلائل كشفت «صوفيا» لعمتها عن سرها . وقالت لها ان هواها مع مستر « جونس » . فهاج لذلك هائج السيد « وسترن » وثار ثائره . ثم ذهب وقد كاد الغيظ يقتله الى السيد « أولورذي » فاستلّ هذا حقده وأزال امتعاضه وأكد له أن لن يتمّ هذا الزواج أبداً وأن «صوفيا» لامفرّ لها من أن تتزوج مستر « بليفيل » . ثم زاد على هذا بأن نادى هذا الغر الدعي الطامع في يد « صوفيا » وهو « جونس » وأعطاه بعض المال وأمره بأن يغادر البيت لتوه . وأن لا يعود إليه أبداً .

وخرج « جونس »ووجهته مدينة « بريستول » والحزن يكاد يقتله . ذلك لأن الدهر قد حال بينه وبين تلك التي أحبّ . كما حال بينه وبين ذلك المحسن الذي كان به حفيًّا . فأصبح اليوم لا يأسى على شيء . ولا يبالي بما تجيء به الليالي .

وبات الليلة الأولى في خان حيث لقي جماعة من الجند فربطت بينهم وبينه أواصر الصحبة فقام بسداد نفقة طعامهم . ثم دارت كؤوس الخمر فحلّت من ألسنتهم ما انعقد . ولما جاء دوره ليشرب نخب من أحبّ ذكر — في غير تردد — اسم « صوفيا ويسترن » فقال الجنديّ حامل العلم : وإني أعرف هذه الفتاة — وكان قد رآها في مرقص مع عمتها — وأعرف أنّ والدها يملك أرضاً في « سومرستشير » كما أعرف أن نصف شباب مدينة «باث» قد شغفوا بها حبًّا .

فصاح « جونس » في فورة الغضب : إنك أوقح مخلوق على ظهر الأرض ! وما إن قال

هذا القول حتى رماه الجندي بزجاجة ملئت خمراً فأصابت رأسه فخرّ مغشياً عليه .

ثم غادر الجنود الخان بعد أيام . وظلّ « جونس » يهذي وهو في فراش المرض . وكان يعالجه طبيب جرّاح . ولم يكن هذا الجرّاح سوى « بارتردج » الذي طرده السيد « أولورذي » من خدمته .

« وبارتردج » هذا رجل كفء متعدد نواحي الكفاءة . فهو فوق إدمانه القراءة . حلاّق ممتاز ، وله في الطب براعات .

وهو اليوم كصاحبه « جونس » لا عمل له إلاّ الطواف بالطرقات .

ولما برىء الفتى من جرحه خرج هو وصاحبه ووجهتهما « جلوسستر » ومنها إلى « أبتون » فلما صارا على مقربة منها أثارت دهشتهما صرخات عاتية تخرج من إحدى الغابات . فجرى « جونس » فألفى امرأة نصف عارية . يضربها رذل من الأرذال . ويحاول أن يعلقها في جذع شجرة . فضربه « جونس » ضربة شديدة . فلما تبيّنه عرف فيه — والدهشة تغمره — الجنديّ الذي ضربه من قبل . وبعد أن تبادلا اللكمات جرى الجندي واختفى بين الأشجار . وحلّ « جونس » وثاق المرأة التعسة وأخذها إلى خان قريب .

فلما أفاقت المرأة — واسمها « مسز وترز » شكرته أجزل الشكر . وكانت هي امرأة نصفاً فيها إغراء وفتنة . وفيها حلاوة وملاحة . وعلم « جونس » أنها كانت زوجة لضابط اسمه « وترز » فهجرته لتهرب مع ذلك الجندي الذي كان يضربها .

ثم أكدت هي هذا القول وأضافت إليه أن ذلك الجندي كان قد أغراها بالهرب . وبدا أنه فعل ذلك ليقتلها في مكان منعزل، ثم ينزع عنها حليّها وجواهرها .

فلما سمع « جونس » حديثها وقف منها - وقد شغفها حبّاً — موقف المشفق عليها الزاري بها . ثم تواعدا على أن يزورها في غرفتها إذا أقبل الليل .

وفي ذلك الحين كانت « صوفيا » قد برّح بها الألم . فهي لم تفقد حبيبها «جونس» فحسب . بل أصبح لزاماً عليها أن تبدي الرضا لمستر « بليفيل » الذي كانت تغثى نفسها لرؤيته .

وقالت لوالدها . وهي ترجوه وتلحّ في الرجاء : لست أستطيع العيش مع مستر « بليفيل »

فان أجبرت على الزواج منه أدّى ذلك إلى قتلي . فقال أبوها وهو يقذف بها بعيداً عنه : فلتموتي إذاً وليلعنك اللاعنون ! ألا فاعلمي أني قد عقدت العزم على هذا . فان لم تقبلي فلن أعطيك من مالي دانقاً أو سحتوتاً . حتى لو رأيتك تموتين جوعاً في عُرض الطريق !

وبعد أيام قلائل قالت « صوفيا » لوصيفتها : لقد عزمت أن أغادر بيت أبي هذه الليلة . وإن لي في لندن قريبةً من ذوات الجاه . ولا شك أنها سوف ترحب بمقدمي الترحيب كله.

فلما جنّ الليل خرجت السيدة والوصيفة يسيران على الأقدام ، ثم جمعتهما صدفة عجيبة برجل قال إنه دلّ « جونس » على الطريق المؤدية إلى « بريستول »، فلما علمت « صوفيا » بهذا نقدته جنيهاً لكي يسير وإياها في ذلك الاتجاه .

وأدّى البحث الدقيق إلى معرفة اسم الخان الذي نزل فيه « جونس » ، ثم بلغت هي ووصيفتها ذلك الخان في الصباح الباكر .

ودار الحديث بين الوصيفة وصاحبة الخان فأطنبت هذه وبالغت في وصف جمال فتىً غريب نزل في خانها ، فأيقنت الوصيفة أنها تعني بهذا القول « جونس » .

ثم أشارت ربة الخان إلى مكان « بارتردج » صاحب «جونس» وطبيبه فأخبرها هذا أن « جونس » لا يزال مقيماً في الخان ، ولكنه قد أوى إلى فراشه . فقالت الوصيفة إذاً فأيقظه حالاً ، فان سيدتي تريد التحدث اليه ، وهو لا شكّ يسره السرور كله أن يتحدّث اليها .

ثم أعطت « صوفيا » فرْوها الى الفتاة وقالت : خذي هذا الفرو فضعيه في غرفة مستر « جونس » ، واذا كان الفراش خالياً فضعي الفرو فوقه.

فلما عاد مستر « جونس » إلى فراشه صرخ صرخة عالية جاء على إثرها « بارتردج » فسأله : من جاء بهذا الفرو إلى هنا !

فأجابه : لقد رأيته على ذراع إحدى المرأتين التي كانت تريد أن تقتحم غرفتك لو أذنت لها بذلك .

فصاح « جونس : وأين هما ؟ .

— إنهما الآن على بعد أميال وأميال.

فصرخ « جونس » صرخة مدوية ذعر لها «بارتردج» المسكين وجنّ جنونه ، وطلب اليه « جونس » أن يأتيه بالخيل ، ثم ارتدى ملابسه في مثل لمح البصر ، وطفق يجري في فناء الخان مسرعاً ، وإذا بيد تمسك به، وإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه أمام السيد «وسترن» الذي بادره بقوله : ها قد وجدنا الكلب ، وأنا الضمين بأن الكلبة قريبة الدار من هنا .

واحتجّ « جونس » على هذا القول وأنكر معرفته بمكان الآنسة . ثم أخلى السيد سبيله بعد أن أشبعه سبّاً وشتماً . ثم أمر باعداد الخيل لتقلّه والقسّ « سبل » الذي جاء في صحبته . ثم سارا قُدُماً للبحث عن الفتاة .

وإذ علم من خادم الخان أنها قد عبرت نهر «سفرن» فقد أسرع في اجتياز الجسر القائم على ذلك النهر : وهو يقسم بأنه سوف ينتقم منها شر انتقام . وما إن سار ميلين حتى ألفى نفسه في حيرة أمام مفترق الطرق .

وحاول القسّ أن يهوّن من أمر المصيبة . فصاح « السيد » صيحة منكرة وهو يقول ألا تعساً لتلك الفتاة النجسة !

وفي صباح اليوم التالي أيقن «السيد» أن لا فائدة ترجى من البحث واقتفاء أثر الفتاة وعاد إلى « سومرستشير » . وكان « جونس » أكثر توفيقاً في بحثه عن ضالته المنشودة . وهو لم يعرف طعم الراحة . ولم تعرف عينيه طعم الكرى . وسار مجدّاً في أحد الدروب التي تؤدي إلى « دافنتري » « فدنستابل » « فسانت الباانس » . وهناك عرف لسوء حظه ونكد طالعه أن « صوفيا » قد سارت في طريق لندن .

ثم ذهب إلى العاصمة الكبرى يحدوه أمل ضعيف في العثور بها في بيت من بيوت العظماء التي كان يلم بها كل يوم غير آبه لما يلقاه من عنت الخدم وعجرفتهم

ثمّ بدأ يغشى المعارض والأندية على أمل أن يلقاها هناك .

وكان جماله حديث القوم . وكم من سيدة جميلة أبانت له بلغة العيون التي هي أبلغ من لغة الكلام . وأكثر إفصاحاً أنها ترحب الترحيب كله بكل ما يبديه من أمارات الحب وآياته .

وكان « جونس » يستعصم — في شجاعة بالغة — من كيد النساء ، حتى لقي ذات ليلة — في حفلة مقنعة — لادي « بلاستن » الفاتنة التي غلبته على أمره . فكان يزورها في

بينها كل ليلة . وذات مساء، وكان قد ذهب إليهـا قبل موعد ذهابه، أدخله الخـدم غرفة الجلوس إنتظاراً لمجيء اللادي .

ومن عجب أنه رأى وهو ينظر في المرآة خيال حبيبتـه « صوفيا » ! فقال : إنها هي بعينها وبذاتها .

وكانت هي صاحبتـه حقـًا ذلك أن السيدة التي كان قد عرفها في المدينة هي السيدة « بلاستن » التي استقبلتها في بيتهـا . والتي كانت تنوي أن تزوجها من أحد اللوردات الشبان الذي فتن بسحر جمالها .

وما أن رآها « جونس » حتى خرَّ راكعاً وقال : غفرانك يا آنستي ! فقالت وقد أخذ منها العجب . وأي غفران تريد بعد الذي سمعته ؟ فأجاب : لست أدرى ماذا أقول . وكيف أعتذر . وأنا الشقي ؟ وإني لأستاهل أن يمحى إسمي من ذاكرتك إلى الأبد بعـد وصمة « أبتن » .

فوقفت « صوفيا » والأرض من حولها تـكاد تميـد . وكان وجهها أشدّ بياضاً من الثلج ، وقلبها دائم الخفقان .

واستطردت تقول في صوت هو إلى الهمس أقرب . كيف أرضى بتجريسي والتسميع بي ؟ وكيف أرضى بأن يكون إسمي مضغةً في أفواه الأوباش والأرذال ؟ وكيف أرضى أن تجهر بالقول وتفخر بما منحه إياك ذلك القلب الذي غفل عنـه حراسه ؟ بل كيف أرضى بأن أسمع أنك كنت مجبراً على أن تهرب مني وأن تنسى قصة حبي ؟

وقد أدهشه سماع هذا القول منها . ذلك لأنه لم يرتكب يوماً في حقها إثماً ولا ذنباً . فلمـا حقق الأمر علم أن الذنب في هذا التجريس يرجع إلى ثرثرة صاحبه « بارتردج » في كل حفل وناد . وأقسم ليقتلنـه جزاء هـذه الثرثرة . فحالت بينه وبين قتله وأيقنت ببراءة صاحبها

فلما عاد الماء إلى مجراه . وحلّ السرور مكان الحزن . نطق ببضع كلمات بدت لها كأنها اقتراح بزواج . فقالت : لولا أن واجبي يا سيدي نحو أبي يقتضيني أن لا أتبع هوى نفسي لكان الفقر بين يديك خيراً ألف مرة ومرة من الغنى والثراء بين يدي رجل آخر .

ثم أعدّا العدّة للقاء آخر . وغادر « جونس » البيت إلى حيث يقيم : وكانت صاحبة البيت الذي نزل فيه سيدة ظريفة ليست بالفقيرة ولا بالغنية . وهي تعيش على دخل سنوي يجيئها من السيد « أولورذي » .

ولما كانت تعرف ما بين هـذا السيد وبينه من علاقة فقد جاءته يوماً تقول : « إن السيد « أولورذي » قد كتب إليها يقول إنه آت إلى لندن عما قريب . وأنه يطلب إليها أن

تهيء له مكاناً للإقامة . وأضاف إلى ذلك قوله إن السيدة « بليفيل » قد ماتت منذ قريب . وإن السيد « بليفيل » في حاجة إلى الترفيه عن نفسه في مكان بعيد عن كل ما يذكره بالفجيعة . وأنه سوف يصحب معه « بليفيل الصغير » .

وكذلك السيد « وسترن » وقد بدأ يدبّ إلى قلبه اليأس من العثور على ابنته الغائبة قد جاءه كتاب من سيدة ترود بيوت الأثرياء إسمها « مسز فتز باتريك » بينها وبينه صلة بعيدة من القرابة كما أن بينها وبين « لادي بلاستون » صلة ودّ وثيق .

فلما طال ترددها إلى بيت « اللادي » عرفت قصة « صوفيا وجونس » معرفة كاملة .

أمّا وقد شغفت « مسز باتريك » ببطل قصتنا فقد طلبت في كتابها إلى السيد « وسترن » أن يحول بين هذا الفتى وبين تلك التي تزاحمها في حبه .

وقد أثار الريبة والشك في قلب زوجها ما أحسّ به من سعيها في إغراء « جونس » بأن ينقض عهد الهوى لحبيبته .

ولقي مستر « فتز باتريك » الفتى « جونس » في الطريق . وسرعان ما سُلت السيوف من أغمادها . وسرعان ما أصيب « فتز باتريك » بطعنة من سيف « جونس » . فسيق هذا الى السجن ليحاكم على جريمة القتل .

وبلغ النبأ سمع مستر « أولورذي » يوم وصوله إلى بيت « مسز ميللر » ففزع فزعاً شديداً . ولكنه قال : إن فاجراً غوياً يسير هذه السيرة لا بدّ أن تكون نهايته الى المشنقة ! ولكن « مسز ميللر » أبت أن تصدق أن « جونس » كان مجرماً . ذلك لأنها كانت تحبه الحب كله لما كان يبديه من حنان بالغ نحو أطفالها . فأجمعت أمرها على أن تتقصى الأمر . وأقسم « جونس » أن مستر « فتز باتريك » هو الذي جرّد سيفه أولاً . وإنه ردّ العدوان دفاعاً عن نفسه . ولكن رجلين من النوتية كانا يمشيان في الطريق شهدا بأن « جونس » كان المعتدي .

وسارت الأمور في مجراها إلى أن جاءت « مسز وترز » التي كانت عشيقة « جونس » في مدينة « أبتن » . وقالت لمستر « أولورذي » إن ذلك اللقيط الذي قذف به في عرض الطريق لم يكن غير ابن أخته هو !

وزادت الأمر إيضاحاً فقالت إنك لا بدّ تذكر أن مستر « سمر » وهو ابن صديقك ، وهو الذي قمت بنفقات تعليمه والذي أقام في بيتك عاماً وكأنه ولدك . هذا الولد قد ولدته أختك !

ثم جاء محامي مستر « أولورذي » فقال إنه قد رشا الشهود بتحريض من مستر بليفيل ،

فقال له أولورذي : أظنك كنت فاعلاً غير هـذا لو عرفت أنّ مستر « جونس » هو ابن أختي .

قال : الحق ما كنت أعرف هذا . ولـكني ظننت — وقد سكتّ عن موضوع الخطاب — إنك تريد أن تبقي المسألة سرًّا من الأسرار .

فقال « أولورذي »مندهشاً : أي خطاب تعني !

— الخطاب الذي ناولتني إياه أختك وهي تجود بروحها . فقد أمسكت بيدي وقالت : إعط هـذا الخطاب لمستر « أولورذي » وأنبئه أن مسـتر « جونس » هو ابن أختـه فناولت الخطاب وأبلغت الرسالة إلى مستر « بليفيل » وقد قال لي إنه قد أدّى الرسالة.

فوقف مستر « أولورذي » وقد دارت به الأرض الفضاء لهول ما سمعه من أنباء هذه الخطيئة الـكبرى . فلما أفاق أرسل إلى ابن أخته الذي جاء وامتقع لونه وتولته رجفة . فأنبأه أنهقدجعلله فيماله نصيباً معلوماً . له أن يتقاضاه . وعليه أن لا يراه بعد ذلك مرة أخرى.

ثم جاء الجرّاح فأعلن أن مستر « فتز باتريك » قد جاوز مرحلة الخطر . فلما التأمت جراحاته اعترف بأنه هو الذي بدأ برفع السيف . ولذلك فقد أطلق سراح « جونس »

أما السيد « وسترن » الذي عاد أخيراً الى المدينة . والذي ضمّ ابنته إليه فقد دهش للنبأ القائل أن « جونس » هو ابن أخت « اولورذي » . ثم بعث إليه من يجيئه به . فلما جاءه قال له محيياً : أيها الصـديق القديم ... إني ليسرني السرور كله ان أراك ! وعلينا ان ننسى الماضي بخيره وشره .

ثم سارا معاً الى بيت «وسترن » . فلما دخلاه دفعه دفعة خفيفة وطلب إليه ان يذهب إلى حجرة « صوفيا » لـكي يتناجيا . وبعد قليل ذهب اليهما وهو يسأل « جونس » هل حدّدت هي موعد الزفاف ?

فقالت صوفيا : ما الذي تريد مني ياأبي أن أفعله ?

— أريدأن تتخذيه زوجاً منذ الآن !

قالت هي : لك السمع والطاعة ...

فركع « جونس » . وقد ذهل من فرط السرور . اما « وسترن » فقد طفق يرقص ويقفز في الغرفة جيئة وذهاباً . ثم توقف فجأة وقال : أريد ان ألقى « اولورذي » فأين مكانه الآن قاتله الله ?

ثم خرج يفتش عنه . تاركاً الحبيبين ينعمان بلذة الدقائق الأولى من حياة ناعمة سعيدة .

عن الانجليزية مبارك ابراهيم

شعراء مصر

في العصر الحديث

شوقي ، حافظ ، مطران ، علي طه ، ابو شادي ، ناجي ، الصيرفي

نشرت مجلة « آج نوفو Age Nouveau » وهي مجلة فرنسية تعني بالآداب والفنون وتصدر في باريس مقالاً قيماً في عدد أغسطس سنة ١٩٤٩ للأستاذ نعيم قطان تناول فيه الشعر الحديث والشعراء المعاصرين في مصر ننقله فيما يلي :

منذ ما غزا المغول البلدان العربية ، وفتح نابليون مصر ، شهدت الحضارة العربية أحلك عهد في تاريخها ، فقد كانت كل كتابة أدبية باللغة العربية تعد في نظر المغول والعثمانيين آية من آيات الوطنية، ومن ثمَّ فهي عمل عدائي يناهض سلطانهما .

ولولا ان وجدت العربية في القرآن عاصماً وملاذاً لجاز ان تنمحي لغة الاسلام المقدسة في تلك الحقبة الحالكة من تاريخ هذه البلاد .

وإذا كان نابليون قد أذكى الشعلة الوطنية العربية بعد إذ أوشكت أن تصبح رماداً، فإن آثار هذا الإذكاء في جوانب النشاط الفكري لم تأت في صورة من النهضة الأدبية العربية إلاَّ في أوائل القرن العشرين .

وقد امتازت هذه النهضة بأمرين أولهما: إن اللغة العربية التي لم تستخدم أجيالاً متعاقبة قد بدأت تظهر كأداة غير طيعة في التعبير عن الحقائق المعاصرة التي تختلف كل الاختلاف عن نظائرها في القرون الوسطى . وثانيهما إن تأثير الثقافة الأوربية — وخاصّة الثقافة الفرنسية — حال دون ظهور فكر عربي خالص، ولم يتسنَّ للنهضة الأدبية العربية أن تأخذ بسبيل الازدهار إلاَّ في ميادين الشعر والشعر وحده .

وعند ما يفكر المرء في بواكير الإنتاج الشعري المعاصر في مصر لا بدَّ أن يحضر إلى

الذهن على البديهة اسما شاعرين من فحول الشعراء هما حافظ ابراهيم، واحمد شوقي .

أما حافظ وقد مضى على وفاته نيف وخمس عشرة سنة فيوشك اسمه أن يذهب في أغوار النسيان على مر الزمان . وكان حافظ المنحدر من أسرة متواضعة هو شاعر الشعب الذي يحس باحساسه ويشعر بشعوره ويدرك رغائبه وحاجاته . وقد حثّ الشعوب العربية علانية في شعره الجميل على المطالبة باستقلالها وبعث حضارة الاسلام .

وقد جاهد حافظ ليقلد الى أبعد حدود التقليد الشعراء القدامى قبل الإسلام وبعده .

ولحافظ الفضل مع ذلك في أنه جعل الشعر نابضاً بالحياة ومؤرخاً لأحداثها بعد ما أوشك أن يفقد ـ بدونه ـ هذه الخاصة فلا يعبر عن أفكار أهل هذا العصر . ولم يخلف حافظ أحد من بعده . فهو لا يزال واحد زمانه . ومن أجل هذا كان لإنتاجه الأدبي خطره وأهميته، إلاّ أنه لا بدّ لنا من أن نقرر هنا إن هذا الخطر محدود، ذلك لأن الشاعر لم يستطع أن يخلق شخصيات تتميز بها مسرحياته أو أن يضفي معاني فلسفته على هذه المسرحيات[1]

وفي المقدور ان نستثني من هـذه المسرحيات بعض الحوار الذي تتألف منه أشعار تهز المشاعر هزّا وتأخذ بالألباب

ولم تكن هذه حال صاحبه شوقي فقد ولد من أسرة غنية وتلقى قسطاً من التعليم موفوراً، وأتاحت له إقاماته المتعددة فى فرنسا أن يغترف من مناهل الثقافة الغربية .

ولقد حاول شوقي مع حرصه على أوزان العروض القديمة أن يجعل في أحايين كثيرة مكاناً للشعر الغنائي وأن يبدع في التصوير بغير أن يجافي ذلك قوافي الشعر وأوزانه .

وكان شوقي على غرار صاحبه حافظ مرهف الشعور شديد التأثر بمشكلات عصره، وكثيراً ما نظم قصائد سياسـية في مناسباتها . ولقد طالع العربية بقصيد جمع بين الوفرة والإجادة .

على أن أكبر عمل انفرد به شوقي هو مسرحياته الشعرية التي ستظل مقطوعة الضريب في الأدب العربي . وخليقٌ بنا في هـذا المقام أن نشير الى أن الشعراء القدامى من العرب لم يخلفوا لنا تراثاً من هذا الشعر المسرحي . وفي وسعنا أن نذهب إلى القول بأن الأدب العربي

(١) يعني الكاتب احمد شوقي بك لا حافظ ابراهيم بك

خلا من أدب القصة ما خلا القرآن،وقصص ألف ليلة وليلة التي لا تعد في ذاتها انتاجاً أدبياً بمعنى الـكلمة .

ولقـد أحسّ شوقي بما للفن المسرحي العالمي من كبير شأن عندما تذوّق مسرحيات راسين ، وشكسبير ، وكورنى

وكان في وسع الشـاعر أحمد زكي أبو شادي أن يقتني آثار حكماء العرب في القرون الوسطى . أولئك الذين كانوا يجمعون في وقت واحد بين الفلسـفة والعلم غير أنه بدّد هذه الموهبة بكتاباته عن تربية النحل وتصدره شعراء الطليعة .

وقد كان ينشر في كل عام ديوان شعر من أربع مئة صحيفة يضم قصائد مختلفة من نظمه

وقد أراد أبو شادي أن يجدد الأوزان بإدخاله قواعد من أوزان الشـعر الانجليزي . وجاءت النتيجة بين بين،وأخذ أبو شادي يطالع الناس من خلال دواوينـه الوفيرة الإنتاج بقصائد تبعث على الاعجاب، ولـكن أبا شادي عاد فهجر الشـعر في عام ١٩٣٦ ووقف جهده على العلم .

أما الشاعر ابراهيم ناجي فشعره أقل من حيث وفرة الانتاج غير أن أكثر هذا الشعر الذي ينظمـه من الروائع ، ولقد كتب ثلاث قصائد جميـلة عن الطبيعة فأبدع وأجاد وهو يكتب الآن قصائد «كالبرشام» لبعض المجلاّت المصوّرة

وبين الشعراء من الشباب الذين أخذوا أنفسهم بالقريض وأكثرهم في هذا الباب اهتماماً بالشعر،الشاعر حسن كامل الصيرفي فلقد حاول أن يبعث فن شعراء العرب في الأندلس بما فيه من موسيقى وجمال وقصائده في الغالب صوفية تستوحي أحياناً معاني رمزية .

ويجيء دور خليل مطران ـ وهو شاعر يتقاسمه لبنان ومصر ـ ولقد عاش يحمل لقب « شاعر القطرين » وشعره نابض بالحياة وهو معدود عند الناس أفضل شاعر في جيله .

وبين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٦ ظهرت مجلة « ابولو » وكان اسمها وحده يعلن عن برنامجها وقد التف من حولها شعراء من الشباب يحبون الشعر ويخلصون لرسالته اخلاصاً لا تشوبه شائبة ، وليس لأيهم من وراء الشعر غرض الا حب الشعر ذاته .

ومع أن هؤلاء الشعراء من الشباب لم يؤلفوا مدرسة جديدة للشعر ، فقد أراد كل

منهم أن يطبع الشعر بطابع العصر وكان ألمع هؤلاء الشعراء وأكثرهم تألقاً في سماء القريض أحمد زكي أبو شادي ، وابراهيم ناجي ، وحسن كامل الصيرفي ، ومحمود حسن اسماعيل ، وعلي محمود طه .

ولقد وعد الثلاثة الأول أن يطالعونا بخير ثمرات الشعر في مصر غير انهم مع الأسف لم يؤدوا رسالتهم الأداء الكامل . أما الرابع والخامس من هؤلاء الشعراء الخمسة وهما محمود حسن اسماعيل ، وعلي محمود طه ، فقد وجدا جمهوراً يتذوّق شعرهما ويقبل عليه ويرجع هذا الاقبال الى ما تميز به شعر هذين الشاعرين من رشاقة وموسيقى على انه شعر ليس فيه من العمق الاّ القليل .

وكلاهما متشبع بالفكرة الرومانتيكية غير أن السبيل التي يسلكانها لا تبشر بمستقبل للشعر المصري . فهل لنا أن نتلمس هذا المستقبل في شعر عبد الرحمن بدوي ؟

يحاول عبد الرحمن بدوي وهو من المدرسة الوجودية الألمانية أن يكشف الوجودية في الاسلام، قد يكون هذا الأمر كبير النفع من الناحية الفلسفية ولكن انتاج عبد الرحمن بدوي من الشعر هزيل جدّاً .

ويلي هؤلاء الشاعر جورج حنين ، وهو شاعر من مدرسة السيرياليزم يعبر عن آرائه بالفرنسية وربما كانت شهرته في فرنسا أكثر منها في البلدان العربية ذلك لأن الشعر المصري لا يزال بعيداً كل البعد عن السيرياليزم .

قد يكون لنا — بعد هذه المجالة أن نقرر أن ليس للشعر المصري المعاصر كبير أهمية غير أنه كما قد قال لي في العام الماضي الكاتب المصري الكبير الدكتور طه حسين إذا كانت صورة الشعر العربي الذي يقدمه شعراء مصر الآن لا تبعث على التشجيع ولا تنم عن ثروة من الشعر ، فلا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن مصر ليست إلاّ قسماً من العالم العربي ، وان للشعر العراقي والشعر اللبناني أهميتهما ، وإن وراء ما ينتجه شعراء هذين البلدين مستقبلاً زاهراً للشعر العربي .

ترجمة : رسلان البغي



مكتبة المقتطف

الوساطة الروحية

تأليف عبد اللطيف محمد الدمياطي — ٤٣٠ صفحة من القطع الكبير — ثمنه ٣٦ قرشا
طبع بمطبعة كوستا تسوماس بالقاهرة

صلتي بالحديث عن عالم الروح قديمة . لقنتها طفلاً عن عجائز الأسرة ليالي كنت أجلس إليهن صغيراً فيفضن في كلام ما كان أحبه الى نفوسنا وأحرصنا على البدار إليه . وأذكر أنا ما انصرفنا عنه الا محمولين على الاكتاف بعد أن يثقل منا الكرى رؤوساً وجفوناً.

ولفظنا البيت الى الكتاب فاذا الفقيه أستاذ مقصود في القرية يعرف من الأمر شيئاً. وما أنسى ذلك اليوم ، وكنت بين نفر من لداتي نرقب انصراف جموع المصلين من صلاة الجمعة، إذ طالعنا «سيدنا» بقامته المديدة وفي ثوبه الفضفاض فلم نملك فراراً، وأقبلنا خفافاً الى يده لاثمين، وانتظمنا حوله خاشعين، ننتظر أمره فينا. فمشى يعتمد على أمدنا قامة، وأصلبنا عوداً، وقفونا نحن أثره . ولم نبعد كثيراً حتى وجدنا أنفسنا في ظل منزل عامر لوجيه عرف الموطنون حوله منذ أيام ، أن له شاغلاً يشغله . واقتحم بنا الشيخ ساحة الدار إلى غرفة مزودة بمجمر ، وأحطنا بالنار بأكف ممدودة يترجرج في مقمرها مداد براق علقت به أبصارنا وما ندري شيئاً . وخرجنا يسائل بعضنا بعضاً ، فألقى إلينا كبيرنا نبأ ما نجهل ، وأنا كنا في انتظار روح يحدثنا ونأخذ عنه ما يجلو للوجيه غامض أمره .

ومضت الأيام وإذا الحديث نسمعه في حوار آنق وأكثر تفصيلاً من أستاذ لنا في المرحلة الابتدائية ، كان على علم بالقليل ، ولكنا حسبناه عندها العلم كله ، وكنا نخرج بما نسمع فيلتف بنا الزملاء فنحدثهم في زهو وهم من حولنا صامتون ، وما أظننا كنا أمناء

فيما ننقل عن الشيخ فقد كان يحلو لبعضنا أن يفسح لخياله أن ينسج فيزيد .

وامتدت يدي إلى الكتب قنية ، منها شيء في الروح ، فعرفت كثيراً ولكنه كان غير مغن .

ودارت الأيام وإذا لي في الحياة صديق ، أكثرت من الجلوس إليه مع النهار في مكان عمله ، وعرفت له ميولاً روحية كان يغبطها بدراسات متصلة وقراءة دائمة ، وكان هذا الصديق الاستاذ « الدمياطي » مؤلف هذا الكتاب . وأحب أن أسبق هذا بكلمة ، ذلك أن الصديق لم يكن كاتباً ، ولا أشينه ، حين عرفته . وأذكر أن بين يديّ له كلمات كتبها إليّ عرفت فيها طابعه الكتابي وسبيل قلمه . ولقد حدثك هو عن نفسه في صدر مؤلفه حديثاً أحب أن تعود إليه لتشاركني الرأي فيما أنا حاكم فيه !

لست داعية لفكرة حين أقول إن المؤلف حين كتب هذا الكتاب غيره في جميع ما كتب ، أو قل إنه في هذا الكتاب ذو لون غير لونه، وطابع ليس منه طابعه . وما أظن الأشهر التي احتجب عني فيها هي مصدر هذا التغير منه ، ولا في مثلها ينهض المتعلم الى منهضه .

ولم يكن هذا الرأي رأيي وحدي ، بل سمعته من صَحْب يعرفون المؤلف معرفتي في عهديه .

تُرى أنؤمن بما آمن به الروحي « الدمياطي » من أن مرد الأمر الى روح عال ، هو الذي أملى عليه توجيهه وإرشاده ؟ أم نحن على إيمان آخر ؟

ما أظن أن بين الايمانين نفرة وتضاداً ، فهو ينطق بلسان الروح ، ونحن ننطق بلسان العقل ، والروح وجدان وشعور ، والعقل محسات ومقيسات ، وهو صادق فيما يدّعي ، فهو في غمرة روحية ملأت عليه كل ما يعيش فيه ، ونحن على حق حين نتوقف لأنا لم نخض مخاضه فلا تسليم إلاّ بعد علم ، والعلم يعرف الممكن والمحال وهما وسيلتاه إلى الحكم .

وأخاف أن يجرني الحديث إلى الكلام عن الروحانيات تأييداً أو تفنيداً ، وإن وجدت مادته فلن أجد من صفحات المقتطف متسعاً .

والكلام عن الكتاب واجب والتعريف به نافع :

أفاض المؤلف وكاد لم يترك لمستزيد مزيداً . فتحدث عن الوساطة الروحية في التاريخ، ثم عنها من الناحيتين العلمية والعملية ،كما تحدث عن العلاج الروحي وألوانه . ثم عرض للروحية في مصر . ولم يلق القلم قبل أن يقف في ختام الأبواب يناقش المعارضين ويحاجهم.

فأنت تراه قد قال كثيراً ، والناس في حاجةٍ الى هـذا الكثير ليشبعوا رغبة، ويصلوا إلى ما يريدون من إيمان أو كفران . ولكن شيئاً آخر جدير بأن يقال ويذاع . فقد زارني صديق نابه درس في مصر وأوربة ، جامعي بارز ، وكان قرأ الكتاب قراءة منتفع، ودار الحديث بيني وبينه فإذا هو معجب بمادة الكتاب معظم لها ، وإذا هو يحمل مع رأيه رأي قريب له في مكانته، يشركه في إعجابه وإعظامه ، وإذا هو يسألني أن أصل حبله بحبل المؤلف يؤدي له الحق معه الشكر موفوراً .

ما أحوجنا إلى أن نقرأ ، وما أحوج هذا الجيل إلى أن يلتفت إلى كل ما ينشر . وما أحوج الجميع إلى أن يقرءوا لعبد اللطيف ما كتب ، فهو ثمرة عام أخلص فيه لما يدين به واستجاب لوحي الموحي ، فهجر ميدان عمل رازق ليس له غيره إلى غرفته في بيته حيث يستمع إلى إملاء المملي . لا يريد غير أن ينفع ويفيد . وليت لنا مع كل مؤمن بفكرته هذا الإخلاص وتلك التضحية . إذاً لأفلح الداعون .

ابراهيم الابياري

غرام سنوحي

تأليف يوسف كمال محمد أبو زيد — ١٥٨ صفحة من القطع الوسط — مطبعة زهران بمصر

جميل أن يتجه بعض الأدباء نحو التاريخ المصري القديم فيستلهموه صوراً تعرض من جديد فإن في ماضينا البعيد ما لو استطاع الكتاب أن يتناولوه تناولاً فنيًّا لكان ثروة لا تقدر يغنى بها الأدب المصري الحديث . ولذلك اتجه مؤلف هذه القصة هـذا الاتجاه فعرض صورة قديمة في أسلوب رشيق وإطار رقيق .

ولعله يخطو خطوات ثابتة في هذا السبيل بعد أن يثبت أقدامه في عالم الفن القصصي ويمكن لخياله من الامتداد والتحليق حتى يقع على الرائع من صور الماضي الغني الوفير فينقله في ابتكار فني قدير ، وعرض بالغ حدّ الجودة في التعبير والتصوير .

طريق المجد للشباب

الاستاذ سلامه موسى — صفحاته ٢٣٢ صفحة من الحجم المتوسط — المطبعة العصرية بمصر

إذا رغبت أن تفهم الحياة على انها صراع بين آراء ، وكفاح في سبيل بلوغ الكمال العقلي ، وإذا أردت أن تحيا الحياة كلها — لا نصفها ولا ربعها — وإذا شئت أن تنال منها غاية السعادة المخلدة المؤبدة ، فعليك بكتاب « طريق المجد للشباب » الذي صدر أخيراً للأستاذ سلامه موسى ، فانه كتاب قد لا يبلغك المجد أو السعادة أو العزة ، ولكنه حتماً سيرشدك الى السبل المؤدية الى تلك الغايات النبيلة .

فهو كتاب يحتوي على مئتي فصل قصير أو مقالة موجزة ، تنهض كل منها على رأي وفكرة وتوجيه أغلبه سديد ، ويدور كل باب منه حول نظرية مستحدثة في موضوع من الموضوعات التي تعرض لنا في الحياة يوماً إثر يوم . وهو كتاب فلسفة ، فلسفةٍ حية ذات قابلية للارتقاء والتسامي والتعالي ، فلسفة تدرك الواقع الماثل ، وتتطلع الى المستقبل المُدرك ، وتتوسل الى بلوغ ذلك بأساليب في متناول اليد وعند كل امرىء منا .

***

ومن فلسفة سلامه موسى أن النوم هو ممارسة يومية تكاد تكون موتاً ، فاذا أفرط فيها المرء صار نصف ميت لأنه يؤثر الغياب عن الدنيا وعن اهتماماتها ومشاغلها بلجوئه الى حالة غيبوبة تامة ، وهو لذلك ينصح بالاقلاع عن النوم في القيلولة لأنه مجهدة للنفس ومضيعة للوقت.

ومن فلسفته كذلك أن لا يعكف الشاب على اكتناز المال باعتباره غاية في حد ذاتها ، بل يتعين عليه أن ينفقه وينتفع بالتجارب التي تترتب على انفاقه . ولكن ليكن صرف المال بغير سرفٍ ممقوت أو طيش مطلق من القيود الأدبية .

وهو يدعو الناس جميعاً الى مطالعة سير العظماء لأن هذه السير تحفز القارئين على المحاكاة والتشبه بالمبرزين ، أما حياة الخمول والدعة التي تأتي بها القهوات والمشارب العامة فهي مفسدة لا يصح للشاب أن يدرّب نفسه عليها منذ حداثته .

والأستاذ سلامه موسى يدعو الى الاستمتاع بالطبيعة بخضرتها ونضرتها ، بشمسها وقرها ونجومها ، بهوائها العليل وبساطتها المحببة ، ويدعو الى محبة الحيوان والرفق به ويدعو الى التأنق في الحياة أناقة تشمل المطالعات التي يقبل الشاب عليها ، وتشمل الملابس والمشرب وغيرها . لأن الأناقة تشعر الانسان بالحياة وتكسبه احتراماً وتضفي عليه شخصية ذات عنفوان .

ثم إنه رسول للحب وللاخاء وليقظة الضمير في الشؤون الشخصية والاجتماعية، ورسول للثقافة ولتحرير المرأة من قيود الرجعية القاتلة ولتحرير العقول من تافه الفكر ورواسب النزعات الضارة .

* * *

وهكذا دواليك من فلسفات المفكر الكبير سلامه موسى ، يسوقها اليك في جزالة تكاد تعد سذاجة، ويقدمها لك في « برشامة » . وقد نفعني الأستاذ سلامه بمؤلفاته نفعاً لا يمكن استقصاء مداه ، لأنه علمني أن الحياة مع ما تطويه من فسادٍ ودواعي قنوط ، أهل لأن يعيشها المرء ، ولأن يقبل عليها ، ولأن يكيفها التكييف الذي يخفف من غلواء عيوبها . فاذا كنت قاصر الثقافة ، علمك أن الشهادة لا توازي شيئاً ، وأن أمامك سني العمر تستطيع فيها أن تهذب نفسك بنفسك ، وتعوض ما فاتك من تقصير ، وإذا كنت فقيراً قال لك إن المال المختزن كالجثة الهامدة ، كلاهما ميت .

وإذا كنت تعاني قصوراً في شخصيتك دلك على وسائل ملافاة هذا القصور بنفسك وبغير تدخلٍ من غيرك .

* * *

فالأستاذ سلامه موسى مربٍّ ، مربٍّ جليل . وكتاب « طريق المجد للشباب » هو مدرسة من مدارسه الكثيرة التي يتعلم فيها الطلاب ويتخرجون وينهلون موارد فكر لا ينضب معينه .

وديع فلسطين

١ — معجم عطية — في العامي والدخيل

تأليف الشيخ رشيد عطية (ساو باولو) صفحاته ٥٢٣ من القطع الكبير
— دار الطباعة والنشر العربية — ساو باولو برازيل

عرفت الشيخ رشيد عطيه على مقعد الدراسة إذ تعلمت قواعد اللغة في كتابه القيّم « الإعراب عن قواعد الإعراب » وهو سبعة أجزاء اقتنيت غيرها وتزوّدت بسواها لكني لم أجن الفائدة التي جنيتها من هذه الأجزاء التي تبحث في الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض . .

ومرّت السنون تقفوها السنون وأنا أجهل الربع الذي يقيم فيه الشيخ عطيه حتى شرعت منذ أربع سنوات في تصنيف كتاب (الناطقون بالضاد في أمريكا الجنوبية) صنواً لكتابي الذي صدر عام ١٩٤٦ عن العرب في أمريكا الشمالية،وأخذت أجاذب اخواناً لي أوفياء ممن يقيمون في البرازيل حبل المراسلة فبدا لي أن الشيخ رشيداً ما زال على قيد الحياة وقد أسّس في ساو باولو صحيفة يومية كبرى بإسم (فتى لبنان) أولاً ثم (برازيل - لبنان) بعد لأي من السنين .

وكشفت المراسلات التي دارت بيني وبين نفر من أدباء المهجر عن عنوان الشيخ عطية فراسلته في الموضوع الذي حشدت له جهودي ، وركزت مجهودي،ولشهر خلا حملَ إليّ بريد المهجر نسخة من (معجم عطيه في العامي والدخيل) لواضعه إمام (الضاد) في البرازيل مرتباً على حروف الهجاء كسائر المعاجم الحديثة فجاءت هذه الرائعة المهجرية حجة على أنّ الفصحى التي نزل بها الكتاب العزيز ليست بعاجزةٍ ولا بمقصرةٍ متى تعهدها دماغ عبقري « وإن مصيبة العربية في جمود علمائها الذي وقف حاجزاً دون تقدمها » [١].

ولا جدال في أن الشيخ رشيد عطيــة « قد سجّل إسمه [٢] في كتاب الخلود ، في

(١) الاستاذ نظير زيتون في العدد الخاص من (برازيل — لبنان) الذي أصدرته لجنة تكريم الشيخ رشيد عطية عام ١٩٤٨

(٢) الاستاذ فارس دبغي في العدد الخاص من (برازيل — لبنان) الذي أصدرته لجنة تكريم الشيخ رشيد عطية عام ١٩٤٨ .

سجلّ النابغين القلائل الذين صنّفوا المعاجم فأتوا بمعجزات طالما استعصت على المجامع العلمية،والندوات اللغوية ، وإنه ليصدق على جهرة هؤلاء العلماء ما قاله كونفوشيوس حكيم الصين عن نفسه : « إنه في سيره وراء المعرفة والعلوم نسي طعامه وأفراحه وأحزانه حتى أنه قضى العمر منقباً دون أن ينتبه إلى أن شمس حياته قد قاربت المغيب » .

ولقد قضى المدقق والمنشيء الكبير الشيخ رشيد عطية أيامه بين المحابر والأقلام ولياليه في الدرس والتقصّي ، لا ليوجد لنا معجماً ينحو فيه من سبقه من أساطين اللغة، بل ليسدّ ثلمة ، ويبني سدّاً يرد سيل الكلمات الأعجمية .

لا أقول عن هذا المعلّم الصامت إنه وحيد عصره،وفريد زمانه أو إنه أتى بما لم يأته الأولون والآخرون أو إنه حلّ المعضلة التي تتخبط بها العربية واستعصت على علمائها، ولكني أقول إنه فتح باباً،ومهّد طريقاً،وكم من الذين يدّعون الأمامة اللغوية لا يعملون ويشاكسون من يعمل ، فمعجم عطية بمنحاه فتح في معالجة الأوضاع المستحدثة،ومدرجة لمن يريد الاقتفاء والتوسع والدرس ، ومحثّة للذين لا يفيدون اللغة بغير المماحكات والمناقشات » .

إننا بعد هذه الكلمة العابرة ، نحيي الامام اللغوي الشيخ رشيد عطية ونكرم فيه علمه الصامت، وعمله الذي يعد فتحاً مبيناً للغة العربية ، ونصراً لها. فقد أوضح ما أشكل وبَسَطَ ما أبهم،وقرب ما بَعُدَ عن مفاهيم الناس من أصول اللغة العامية وردّه إلى أصله ودلّ على مصدره ومنبعه، ونسأل الله أن يمدّ في عمره ليعمل في حقلها ، ويؤدي رسالته على أحسن وجه،ويدفع عنها عوادي الأيام،ويضفي على خزانتها ما أضفاه في شبابه وكهولته من آثار رائعة ، وقطوف يانعة.

٢ — تراثنا الاجتماعي — وأثره في الزراعة

تأليف الاستاذ حليم نجار صفحاته ١٦٠ من القطع المتوسط

مطابع دار الكشاف — بيروت

تقلّب الأستاذ حليم نجار في وظائف كبرى أبرزها ، على ما أذكر ، كرسي الدائرة الزراعية في جامعة بيروت الاميركية ، ومديرية الزراعة والمعادن والحراج العامة في لبنان،

وخبيراً فنيـاً لوزارة الزراعة السورية في دمشق. ومن عرف الأستاذ نجاراً معرفتي الطويلة به عرف فيه المثل الأعلى للشاب العربي المثقف الواعي .

وفي صيف هذا العام نشر الأستاذ نجار كتابه (تراثنا الاجتماعي — وأثره في الزراعة) حسر به اللثام عن مشاكل العرب الاجتماعية وأمراضهم الاقتصادية ونقائصهم الزراعية . وقد استهلَّ كتابه بالآية الكريمة : « إنَّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » . وانبرى ينادي بني قومه الغاطين في غفوتهم الدهرية ، اللاهين في جدلهم البيزنطي ، نداء المصلح الغيور ، معالجاً مشاكلهم على إختلاف مناحيها ، وتلاوينها ، وواضعاً أصبعه على مواطن الداء وفي هذا الصدد يقول :

« ... وبعد اشتغالي عدة سنوات في حقل الاصلاح الزراعي، وبعد احتكاكي المتواصل وتعرُّفي بالفلاح وعقليته وتفكيره ، وبعلاقة الزراعة بعقلية الشعب، وبالأمور الاجتماعية العامة ، بتُّ أعتقد أن النهضة الزراعية تتطلب أعمال مصلحين اجتماعيين، يعدّون الفلاح لقبول الإصلاح ، ويمهدون السبيل للنهوض الزراعي والانتعاش الريفي بقدر ما تحتاج إلى دراسات فنية ومشاريع هندسية ».

ولم يقصر الأستاذ نجار بحثه على الأقانيم الثلاثة (الفلاَّح ، والزراعة ، والأرض) ، بل تناول في مبحثه الصريح المرابعة وملكية الأرض ، والتراث الديني وأثره في الزراعة ، والعقلية الأدبية ، والدولة والحكم، والحياة العائلية ، والمدرسة وأثر كل منها في الزراعة .

ولا أراني في هذه العجالة المقتضبة ، قد وفيت هذا الكتاب الجامع لأمراضنا وعللنا في الشرق العربي حقه من العرض والتفصيل، إذ أن موضوع الكتاب، جملة وتفصيلاً جدير بكل عربي واعٍ هدفه الاصلاح وتحطيم الأوضاع التي يقوم عليها المجتمع العربي المهلهل أن يقرأه فيرى في فصوله زحوفاً من الأمراض والعلل التي تألبت على هيكل الفلاح العربي في كل قطر ومصر، وقادته الى هذا الفقر المدقع وصيرته هذا المصير المحزن، وجعلته في مؤخرة شعوب الأرض المتطلعة للوثوب والسائرة قُدُماً في ركب الحضارة والتقدم والاصلاح .

وليعرف الداء الذي هدّ هيكل الفلاح ورجع بتراثنا الاجتماعي القهقرى فيعالجه بالدواء الناجع ، ويتدارك الأمة وفي أعطافها رمق ، والا ندم دعاة الاصلاح حين لا ينفع الندم !

تداركوها وفي أعطافها رمق فلن يفيد اخضرار العود ان يبسا !

(عمان — المملكة الأردنية الهاشمية) البدوي الملثم

باب الأخبار العلمية

وسائل تحسين الزراعة

(لوثر بربنك Luther Burbank) الساحر الأميركي النباتي

موجز ترجمة حياته ومخترعاته بمناسبة انقضاء مائة عام على ميلاده

ولد لوثر بربنك في سنة ١٨٤٩ وتوفي سنة ١٩٢٦ وهو عالم أمريكي من أشهر علماء النبات في العالم . وكان ميلاده في السابع من شهر مارس سنة ١٨٤٩ . وهو اليوم الذي قررت حكومة ولاية كليفورنيا الامريكية ، جعله عيداً وطنيـاً عامـاً تعطل فيه المدارس جميعها هناك ، إحياء لذكرى ميلاد ذلك البحاثة النباتي العبقري .

وهو من أرومة انكليزية اسكتلندية .

ولا غرو فقد اشتهر باضطلاعه بتجارب شتى في موضوع انتخاب الأصلح للنباتات وإخصابها عن طريق تهجينها ، تحسيناً لصفات بزورها . وكان أول نجاح ظفر به تحسين البطاطس ، وإنتاج أفخر أنواعها المسمى باسمه «بربنك» كما أتيح له في مشتله في بلدة «سنتا روزا» بولاية كليفورنيا ، استنباط كثير من أجود الأثمار والأزهار والبقول المختلفة . وذلك في خلال الحقبة من سنة ١٨٧٥ الى سنة ١٨٩٣ . ثم قضى نحبه في ١١ ابريل سنة ١٩٢٦ .

وسنفصل فيما يلي أعماله الباهرة في ميادين الزراعة : —

عصا السحر العلمي ومنتجاتها

كثيراً ما قرأنا في أساطير العصور القديمة ، حكايات على العصا السحرية . تلك التي كان يقبض عليها مستعملوها فيحولون بها الأسمال ، ثياباً من الديباج ، والصخور أحجاراً كريمة . أما في هذا العصر الذهبي ، فعصا السحر ، هي العلم وثماره الشهية . ومن أعجب سحرته وأعظمهم شهرة «لوثر بربنك» ذاك الذي جعل الأعشاب البرية الضارة التي تنبت بين الزرع النافع فتؤذيه أزهاراً أريجة ، كما صيّر النباتات السامة فواكه حلوة . فكان تغمده الله تعالى برحمته ، في وسعه أن يتناول نباتين من نوعين مختلفين ، فيولد منهما صنفاً جديداً من الخضر أو نوعاً حديثاً من الفاكهة لم يعرف له مثيل من قبل . فاستطاع إنتاج برقوق بلا عجم ، وآخر طعمه كالكمثرى

المعروفة باسم برتليت [1] وكذلك أنتج « بربنك » نوعاً أبيض من التوت الأسود ، وفاكهة سماها برقوشمش plumcot هي نتيجة تطعيم شجر المشمش بالبرقوق . وهو الذي أنتج خشخاشاً أحمر من الخشخاش الأصفر المألوف . ثمّ حسّن الورد والزنبق واستحدث أقحوان « شاستا » وهو صنف من الأقاح قصير الأجل ، يتاح زرعه طيلة العام ذو أزهار بيض كبيرة تنمو في محيط زهرته المركّبة .

كيف شاعت شهرته وماذا ربح أولاً

عكف « بربنك » في شبابه على التجارب الخاصة بتحسين النبات . وكان أول نجاح فاز به في هذا الميدان « إصلاح البطاطس » كما سلف القول . ذلك لأن هذا النبات ، من طبيعته ، كونه لا يولد بزوراً . ولكن حدث ذات يوم أن شاهد ، مصادفة ، الشاب « بربنك » نبتة بطاطس ولّدت عنقوداً من البزور مؤلفاً من ٢٣ بزرة . فما كاد يرمقها حتى جمع بزورها ، ثمّ غرسها في تربة صالحة لنموّها فنضجت في إبانها . ولشدّ ما كانت دهشته ، حين رأى كلّ بزرتين منها ولدتا نوعاً من البطاطس يغاير الآخر . إذ كان صنف منها ذا ورق كبير الحجم كبراً غير مألوف ، فضلاً عن بياض لونه إبيضاضاً لم يسبق له نظير . فاحتفظ « بربنك » بذلك النوع حتى حان موعد زراعته فزرعه في موسمه التالي .

ولما نضجت هاتيك الأثمار تبين « لبربنك » أنها قد ولّدت صفاتها الممتازة عينها ، فتحقق من فوره ، أنه قد ابتدع نوعاً جديداً من البطاطس سوف يكون نصيبه الرواج العظيم . فدأب في الإمعان في إنتاجه حتى توافر لديه مقادير جزيلة من حاصلاته فعرضها في السوق ، وسميت باسمه « بطاطس بربنك » . وفي خلال بضعة أعوام ، أتيح لبلاد الولايات المتحدة الأمريكية ، انتاج بطاطس من هذا الصنف الفاخر بيعت محصولاته وقتئذٍ بنحو خمسة ملايين جنيه انكليزي .

بيد أنه مع أشد الأسف لم ينل « بربنك » من ذلك الربح العظيم ، أكثر من ثلاثين جنيهاً انكليزياً جزاءً للنصب الذي كابده في تلك السبيل .

وما من شك أن جزاءً كهذا كان ضئيلاً في مقابل النفحة الجليلة التي نفح بها « بربنك » العالم أجمع . إلاّ أنه على ضؤولته كان نعمة سابغة رضي بها ذلك الشاب وابتهج إذ أتاحت له الانتقال من ولاية مساشوستز إلى بلاد اقليم كليفورنيا ، حيث واصل فن تربية النباتات وتحسينها . وكان خصب التربة

---

(١) كمثرى بارتليت ، نوع من الكمثرى بلغ أوج النجاح في بلاد انكلترا وذلك حوالي سنة ١٧٧٠ ثم أدخله في أمريكا رجل أسمه أنوك بارتليت Bartlett من أهالي دور شستر في مساشوستز

هنـاك ، واعتدال الجوّ أصلح منهما في البلاد التي هجرها . فاستطاع تربيـة أنواع جديدة من النباتات .

المعجزات الفنية في تربية النباتات

ومما يحسن ذكره في هـذا المقام ، أن «بربنك» قضى بقية حياته ، مكرساً مجهوداته للقيام بأعمال زراعية فنيـة تـكاد تعدّ في تربية النباتات ، من المعجزات .

ولا عجب فقد تيسر له انتاج ملايين من النباتات . وبلغ عدد ما استطاع تربيته ذات مرة في مزارعه الخاصة من أشجار البرقوق نحو ٣٠٠٠٠٠ نوع . ومن أشجار الخوخ المختلفة الأنواع ٦٠٠٠٠ شجرة بما فيها الزليق nectarines « الخوخ الأملس » الواحدة زليقة و ٦٠٠٠ شجرة لوز و ٥٠٠٠ شجرة كستنا « أبي فروة » و ٥٠٠٠ شجرة جوز و ٣٠٠٠ شجرة تفاح و ٢٠٠٠ شجرة كمثرى و ٢٠٠٠ شجرة كرز و ١٠٠٠ كرمة عنب .

وتمكن في موسم واحد من تطعيم أكثر من ١٠٠٠٠٠ شجـرة . وهذا فضلاً عن اضطلاعـه بالتلقيح الصناعي للنباتات في مساحة واسعة . وذلك بنقله اللقاح من عضو التذكير النباتي «السداة» من النبات المقصود ، وذلك على فرشاة من شعر الجمل الى عضو التأنيث النباتي «مدقة الزهرة» في النبات الآخر المرغوب تلقيحه . وعلى هذا النحو أصبح إخصاب النباتات المؤنثـة ، أمراً ميسوراً له بغير وساطة الحشرات ، وبالطريقة التي يرغب فيها .

وكانت هاتيك النبـاتات تنتج بزوراً ، إذا غرست ، أنتجت نباتاً هجيناً « مختلطاً يجمع مزايا أبويه كليهما » فغدا في وسعنا أن نقول حقـاً إن الانسان في هذا الزمان يكاد يستطيع انتاج أي نوع كان يصبو اليه من الفاكهة أو الزهر ، وحسبنا دليلاً على صحة هذا المذهب ، الألوف التي أنتجها لوثر «بربنك» ، من هاتيك النباتات ، وهي تعد من العجائب .

تقصير أشجار الـكستنا الباسقة

كان بسوق شجر الـكستنا ، عقبة كأداء في سبيل جمع ثمارها . فتسنى « للوثر بربنك » تذليل تلك العقبة ، إذ تمـكن من توليد شجر نغاشي «قصير جدّاً» لا يزيد ارتفاعه عليه في شجيرات عنب الذئب . ذلك انه تناول شجر اليابان الذي ينتج الـكستنا الـكبيرة الأحجام ، فخلطهـا بالأشجـار الأمريكية التي تنتج الأثمار اللذيذة الطعم من الـكستنا ، فصار في وسعه توليد ثمر من الـكستنا يجمع بين كبر الحجم ولذة الطعم

جوز له قشر رقيق كالورق

وربّـى «بربنك» شجراً من الجوز ، لثمره قشور رقيقة كالورق ، متحرياً بذلك جعله

هين التكسير . ومن عجب أن الطيور قد تنبهت الى ذلك النوع اللين الهين من الجوز فجعلت تلتهمه لتتغذى به فلم ير « بربنك » حينئذ مندوحة عن وقف إنتاجه وإعادة قشوره إلى ثخانتها الطبيعية الأصلية ليقيها من الطيور .

توت أبيض من أصل أسود

وخوخ عجمه من اللوز

ثم أنتج توتاً أبيض كبير الحجم بدلاً من النوع الأسود المألوف ، وخوخاً ذا عجم من اللوز عوضاً عن النوى المعروف .

البرتقال أبو صرة

والبرقوق الخالي من العجم

وكان لوثر بربنك أول من أنتج البرتقال الخالي من البزور الذي إسمه « أبو صرة » كما أنتج توتاً أسود خالياً من الشوك ، وبرقوقاً بغير عجم ، وغير ذلك من الأثمار اللذيذة المدهشة .

طائفة من الثمار المهجنة

وقد ابتدع فواكه جديدة سماها بأسماء منحوتة من أصولها . ومثال ذلك ثمر اللوجانبري loganberry وهو خليط من الفرامبواز « التوت الأفرنكي » والتوت الأسود . ثم فاكهة أخرى هي البلمكوت أي البرقوشمش وهي هجين من البرقوق والمشمش كما سلف القول . وكذلك استنبط ثمر الصنبري sunberry وهو ثمر لذيذ نتج من تهجين نوعين من عنب الثعلب الافريقي والامريكي . وهما ذانك النباتان اللذان لم يكونا ينتجان ثمراً صالحاً للأكل . ومن أغرب ما يذكر في هذا الصدد أن « بربنك » قضى ربع قرن من الزمن حتى حصل على هذه النتيجة الأخيرة .

شجرة تثمر بطاطس وطماطم

في آن واحد

ومن أغرب منتجات « بربنك » ، نبات يثمر بطاطس تحت سطح الأرض ، وطماطم على أغصانه ، فوق سطحها . وقد تيسر له الظفر بهذا النبات العجيب ، نتيجة تطعيم جذور نبتة طماطم معرشة ، بنبتة بطاطس عادية .

تين خال من الشوك

غير أن أشهر أعماله وأنفع مستنبطاته التين الخالي من شوكه . ذلك لأن هذا الثمر يحتوي عادة على علف كثير صالح للمواشي فضلاً عن كونه يدخر مقداراً كبيراً من المياه ، وذلك في سيقانه الشبيهة بالأوراق الثخينة . وهذه المياه ذات نفع فائق جداً في الصحاري المجدبة ، حيث يزكو هذا النبات جيداً .

ومع ذلك لا يتيسر للإنسان ، اتخاذه علفاً للحيوان ، خشية على حياتها من أشواكه الأليمة التي تغشي سطوحه . وما

من شك أن هاتيك السيقان أوراق مكيّفة تكييفاً طبيعيًّا شاذًّا، يولدها هذا النبات ليدرأ بها الحيوان، عن التهامه، بصفة كونه غذاء وشراباً سائغين له. شاهد بربنك تلك الحقيقة، فعزم على استنباط تين خالٍ من شوكه يستطيع الحيوانات التغذي به، فشرع في تنفيذ رغبته لنيل أمنيته، فانتخب من نباتات التين الشوكي، أنواعاً كانت أقلها أشواكاً وأقصرها أطوالاً. فواصل تربيتها وإنتاج نباتات جديدة منها حتى كان يوماً ما يجول في مزارعه بين آلاف من نباتات التين الشوكي اذ لمح بينها صنفاً بلغ طوله ثماني أقدام، خالياً من شوكه كل الخلو، فابتهج ابتهاجاً عظيماً.

ومن ذلك النبات ولّد شجيرات جديدة خالية من شوكها. فأصبح السائح الذي يطيب له التجوال في المناطق الأمريكية القحلة التي قلّما ينمو فيها أي نبات كان، يشاهد مئات الألوف من تلك النباتات التي استنبتها «بربنك» لتصير علفاً نافعاً أعما نفع للحيوان كل عام، فلا غرو إذا رأينا حكومة ولاية كليفورنيا تتخذ قراراً بجعل يوم ذكرى ميلاد هذا الساحر النباتي عيداً سنويًّا تغلق فيه مدارسها جمعاء

كيف تنشأ النباتات الجديدة وأين توجد ؟

إن الخلاّق المعبود سبحانه وتعالى، يخلق دائماً أنواعاً حديثة مختلفة من النباتات وكثير منها جيد ولكن قلّما يفطن لها العباد، فلا يحصلون عليها، ولا ينتفعون بها النفع المنشود. وقد نجدها في الغابات، والحقول، وفي حدائقنا ومزارعنا. لأن الباري جلّ شأنه يخلقها دائماً. فيجدر بنا إذاً البحث عن هاتيك الأنواع الحديثة من الأزهار التي قد تكون أجمل لوناً من غيرها أو ألطف شكلاً في أوراقها، أو أعطر رائحة من سواها، أو أحسن حجماً أو أكثر صلابة من أخواتها.

وربما تكون الفاكهة الجديدة أجود من القديمة حجماً أو أجمل لوناً أو أشهى طعماً أو أعظم انتاجاً أو أشد صلابة وكذلك قد تكون البقلة الحديثة أكبر من القديمة حجماً أو أجمل شكلاً أو ألذ طعماً أو أكثر نتاجاً أو أسرع نضجاً في موسمها أو أعظم صلاحية لتعبئتها في العلب أو أكثر صلابة من سابقاتها.

وقد يصلح العشب البريّ الضارّ غذاءً نباتيًّا للإنسان. لأن جذوره الصالحة للأكل تكون أكثر من سوالفها أو ألذ منها طعماً أو أجمل لوناً أو لصلاحية أوراقه أو سيقانه للطبخ قصد أكلها. كما يمكن العثور في الغابات على أشجار أسرع إنتاجاً للخشب من غيرها. وبهذه الوسيلة كثيراً ما يستطيع الباحثون معاونة الخالق القدير على استنباط فصائل جديدة تتميز بالمزايا التي

نصبو اليها « وذلك في حدود معقولة طبعاً » لأنه يبعد جداً إمكان ابتداع تفاح زرقم أو برتقال أرجواني اللون .

وسائل تحسين النباتات

وتنشأ الأنواع الجديدة من النباتات بثلاث وسائل إذ في بعض النباتات ينتج النوع الجديد (أولاً) من كل بزرة على حدتها . و (ثانياً) في أحوال أخرى تنشأ الأنواع الحديثة نشوءاً فجائياً و (ثالثاً) أما الوسيلة الثالثة فهي التهجين بين الأنواع . ويقوم بهذا التهجين ، النحل والطائر الطنان والريح . وفي وسع الزارع الذكي أو البستاني العبقري أن يتعلم طريقة التهجين هذه . ولكل من ذينك العاملين النشيطين ، أفضل أسوة في « لوثر ربنك » ذاك الذي قام في حياته بعشرات الألوف منها . فاستحدث عدداً جماً من أنواع النباتات الجديدة التي ثبت نفعها .

الطريقة الأولى للتحسين النباتي

ولنبدأ الكلام بشرح طريقة تولد النبات من البزور — فنقول : — تتكاثر البقول مثل البسلة والفول تكاثراً معتدلاً بحتاً من بزورها . وهذا ينطبق على كثير من الأزهار ومنها أقحوان شاستا والبسلة الحلوة . أي إن الوليد النابت من البزرة يشبه أباه كل الشبه (أي النبات الذي تولد منه)

ولكن قد يحدث أن يشذ عن هذه القاعدة بعض النباتات ، إذ يختلف الطفل عن أبيه اختلافاً عجيباً . فاذا غرست مثلاً بزرة بطاطس أو بزرة زهرة داليا وهذه تشبه النجمة شكلاً » فلا يبعد أن تجني نوعاً جديداً من كل منهما . فان حدث هذا فلا يمكن أحد تعليل ذلك الانقلاب تعليلاً مقبولاً . إذ المألوف أن البطاطس أو الداليا تتولد عادةً من درنتها ، أكثر مما تنتج من بزرتها ليظل كل منهما مشابهاً لجنسه جد المشابهة

ولا جرم أن الفواكه جميعا تنتج أنواعاً جديدة عند ما تغرس بزورها في التربة . فاذا غرست مثلاً ١٠٠ بزرة أخذتها من شجرة تفاح من النوع الأمريكي الأحمر اللذيذ الطعم ، فيسوغ أن تحصل على ١٠٠ نوع جديد من التفاح . وقد يكون جلها أقل جودة من الشجرة التي نمت فيها هاتيك البزور . ولكنك إذا غرست مثلاً ١٠٠٠٠ أو مليون بزرة تفاح فانك تجد بينها بلا شك بزرة أو أكثر تنتج شجرة تثمر ثمراً أنفع من الأنواع التي توجد عندنا في بعض الأحوال .

تطعيم الشجر

والطريقة الفريدة التي تفضي الى الحصول على عدد إضافي من أشجار التفاح التي تثمر النوع نفسه كنوع جديد منه هي تطعيم شجر التفاح الصغير « المتولد من البزر » بغصينات من الشجرة الأصلية .

ثم إن البراعم، لا الجذر هي التي تعين نوع التفاح المزمع جنيه من تلك الشجرة

ولا ريب أنه يحتمل على الدوام، أن تعثر على نوع جيد جديد وذلك بين مائة الشجرة الأولى الناتجة من البزرة. ومثال ذلك أن بربنك بذر ٢٩ بزرة تناولها من بطاطس Early Rose وذلك من حديقته في اقليم مساشوستز حيث وُلد وقضى زمن شبابه، فعثر بينها على نوعين جديدين جيدين. أما السبع والعشرون بزرة الباقية فتبين له كونها غير صالحة على الاطلاق.

وبيع أحد زينك النوعين الجديدين الى تاجر من باعة البزور، فقام بتحسينه. وهو النوع المشهور باسم (بطاطس بربنك) وما برح هذا الصنف يزرع في مساحات واسعة من فدادين اقليم ايداهو وغيره من الولايات المتحدة الأمريكية الواقعة في الشمال الغربي لتلك الجمهورية. وكثيراً ما يباع هذا الصنف باسم «بطاطس ايداهو» ولكن يطلق عليه اسم (بطاطس بربنك) في سائر البلاد التي تزرعه.

ومع ذلك ينبغي أن نذكر أنه عقب تلك التجربة الأولى، التي صادفه فيها حسن الحظ، فعثر على ذلك النوع الجديد الجيد من البطاطس على أقل تقدير، جعل يغرس ألوفاً أخرى من بزور البطاطس. غير أنه لم يفز قط بنتائج طيبة. وانما نذكر هذا توكيداً للحقيقة. وهي إنه يجب ألاَّ يتوقع الزارع جني أنواع كثيرة مربحة جداً من البزور التي يقوم بغرسها في حقله.

كيف اكتشف بربنك البرقوق المسمى باسمه

ومن التجارب الأخرى التي جرَّبها بربنك، وكان التوفيق فيها حليفاً له، اكتشاف البرقوق المشهور باسمه، إذ كانت تلك الشجرة واحدة من بضع أشجار برقوق نبتت اصلاً من بزرة غرست في بلاد اليابان قبلئذ بأحقاب، ثم استوردت الى بلاد الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٨٨٤ حيث صار برقوق بربنك من مصادر الربح لزراعه هناك، وفي كثير من أرجاء العالم. وينتج ربحاً يفوقه في سائر أنواعه حيث يزرع منه مقادير جزيلة على ساحل المحيط الهادي. ولما ظفر بربنك بذلك الفوز الباهر سنة ١٨٨٥ شرع يغرس عشرات الألوف من بزور البرقوق حتى بلغ مجموع ما حسَّنه منها ١٣٥ نوعاً. فأصبح كثير منها أساساً لحرفة زراعة البرقوق المنتشرة انتشاراً عظيماً في إقليم كليفورنيا وغيره من الأقاليم الواقعة على ساحل المحيط الهادي حيث يربح زرَّاعها كل عام ملايين الدولارات من بيع محصولات البرقوق المتولدة من أشجار نتجت من البزور التي غرسها بربنك نفسه.

ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أن بربنك كان في زمانه، من دأبه التعجيل في اكتشاف أنواع جديدة من شجر الفواكه

وذلك بتطعيم أشجارها القديمة بأجزاء من الأشجار المتولدة من البزور .

وكثير من أنواع الفواكه والأزهار الأخرى التي لدينا الآن ، كانت أشجارها متولدة أصلاً من البزور . وقد وجدت في أماكن لم يغرس بزرها فيها مخلوق ما . ومثال ذلك التفاح الذهبي اللون ، اللذيذ الطعم . فقد كان ثمر شجرة برية تولدت من البزر « ونحن نسميه بريًّا » لأنه لم يكن من غرس البشر . إذ عثر عليه مكتشفه ، في بستان من بساتين التفاح المنتشرة في ولاية فرجينيا الغربية .

أما أغلب أنواع الفواكه والأزهار الجديدة التي نرى أسماءها مدوّنة في قوائم الأسعار والأصناف ، فهي ثمار أشجار تولدت من البزور واكتشفها عرضاً ، تجار البزور ، إما في حدائقهم الخاصة ، وإما عثرَ عليها بعض عملائهم فباعوا هذه الأنواع الجديدة الى تجار البزور فحسنوها .

أقحوان شاستا

ومثال ذلك: « أقحوان شاستا » الذي حسنه لوثر بربنك . وهذا مع الأسف ، لا تجده مقترناً باسم بربنك مستحدثه ، وذلك في أية قائمة كانت من القوائم المطبوعة فيها أسماء الأزهار ، بل تجد كل بائع من باعة البزور ، يحسن أنواعاً جديدة مما اكتشفه هو شخصياً إما في مزارعه التي يربي فيها النباتات . واما من الأصناف التي يعثر عليها بعض عملائه . فيطلق كل منهم (التجار) أسماء جديدة على هاتيك الأنواع الحديثة، على حين يكاد إسم المولّد الأصلي لهذه السلالة من الأقاحي البيض الكبيرة . يصبح نسياً منسيًّا .

كيف تنشأ الأنواع الجديدة من النباتات نشوءاً فجائيًّا

أما الطريقة الثانية الخاصة بنشوء أنواع جديدة من النباتات ، نشوءاً فجائيًّا ، ونعني بها ، اختلاف الوليد عن والديه في المزايا الوراثية ، ومثالها التفاح الذي وُجد على شجرة Delicious ديليشس [1] التفاح الأمريكي اللذيذ ، كجزء من غصن واحد من أغصانها . وهو التفاح الأمريكي الأحمر المحسَّن الشهي الطعم ، المشهور بعظم مزاياه . وكان مختلفاً عن سائر أنواع التفاح الذي كان نامياً على الشجرة نفسها التي حدث فيها هذا التحوُّل الفجائي . ولسنا ندري حتى الآن كيف نشأ هذا التحول الفجائي في براعمها دون أصولها ولكنه يقع لامحالة . وهو مصدر نشوء الأنواع التي تستجد بين النباتات وفي وسع أي امرىء كان مشاهدته .

والطريقة الثالثة — هي الخاصّة بالتهجين . والمعروف في شأنها ما يأتي : — كان من المظنون منذ أحقاب مديدة ، استحالة اتحاد نوعين من النبات بعضهما مع بعض ، عن طريق نقل اللقاح من أحدهما

(١) نوع محسن من التفاح الامريكي الاحمر اللون ، مشهور بلذة طعمه وجودة صنفه.

إلى أزهار النوع الآخر . ولكن بربنك أثبت أن هذه القاعدة تعدُّ من القواعد التي لا يعوَّل عليها مطلقاً ، إذ قال « إن كثيراً من أنواع النباتات يتاح تهجينها . » ومما لا مراء فيه ، أنه طالما صرَّح بأن خير الوسائل للحصول على أنواع حديثة أجود من القديمة ، هو القيام بإحداث التهجين فيما بينها .

وغني عن البيان أن التهجين يتطلب طول الأناة ويحتاج إلى زمن مديد — ولا شك في كونه يستحق ذينك الأمرين . ومع ذلك فهو وسيلة هينة لا تقتضي غير نقل اللقاح من زهرة إلى أخرى . ولكن هذا العمل ينبغي أداؤه قبل وصول اللقاح إلى مبيض الزهرة التي نود تلقيحها باللقاح الذي نتناوله من أسدية نبات آخر «أي أعضاء التذكير فيه »

وأضمن الطرق لنجاح هذا العمل ، انتخاب زهرة تكون غير مفتّحة . على أن تثق كونها ليست من الصنف الذاتي الاخصاب . ثم تجذب أوراقها إلى الخلف لتستطيع مشاهدة باطن النوارة . وإذا كانت اسدية الزهرة لم تنشق بعد لكي يفلت منها اللقاح المطلوب. فينبغي لك شقها جميعاً بالمقص ليخرج منها اللقاح المنشود . وإن كانت المدقة « عضو تأنيث الزهرة » لزجة دلَّ ذلك على استعدادها لتلقي اللقاح ، فعليك أن تمسها مسًّا خفيفاً بالفرشاة الحاملة اللقاح فيلتصق بها . أما إذا كانت المدقة غير مستعدة للاخصاب ، فيلزم إما اغلاق النوَّارة مع قبضك على أوراقها جميعها بأية وسيلة كانت . وإما بربط كيس ورقي حول النوَّارة لكيلا يلقحها أي لقاح آخر . وإن كانت المدقة متأهبة للتلقيح ، فكل ما ينبغي لك عمله ، هو نقل زهرة من النبات الآخر الذي ترغب في استعماله في التهجين ثم تمسّ المدقة المرغوبة بالفرشاة الحاملة اللقاح المطلوب مسًّا خفيفاً . ومتى تمَّ ذلك العمل ، تغدو النوَّارة في غير حاجة إلى الوقاية لأن مدقتها عندما تقبل اللقاح مرة واحدة لا يستطيع أي لقاح آخر تغيير التهجين ، وحينئذٍ يأخذ اللقاح مجراه في النمو في باطن المدقة نموًّا أسرع قليلاً من المألوف . فلا تحتاج تلك الزهرة فيما بعد إلى أي لقاح آخر

ولهذه الطريقة نتائج باهرة في الوردة والرَّوند وأغلب النباتات الأخرى . أما النباتات الذاتية اللقاح فتلقيحها أمر عسير ، وكل ما يمكن الاسترشاد به في هذا السبيل من التعاليم هو « بذل الجهد مراراً »

وعندما تنبت الأشجار المتولدة من البزور ، تصبح أول خطوة تخطوها وأهمها اختبار أجود هاتيك الأشجار ، وإبادة سائرها غير الجيدة . وهذا التصرف يقتضي جلداً كثيراً وحكمة أكثر مما يتطلبهما انتقاء الأصناف التي تكون أجود ما لدينا منها . والسبب الوحيد الذي يقضي علينا

بالاحتفاظ بأية نباتات كانت ليست أرقى من الأصناف التي عندنا في حوض من أحواض زرع الأشجار ، المزمع توليدها من البزور ولو لم تكن تلك النباتات من الأنواع الممتازة ، فهو قصد تهجينها في مستقبل الأيام .

أما النباتات التي تتكاثر من البزور تكاثراً شبيهاً بأصولها ، فقد ينشأ منها بعض أنواع حديثة. وذلك بالإنتقاء وحده . ومثال ذلك إن بربنك تلقى ذات مرة طلباً من « شركة إمبصن الأمريكية الخاصة بتعبئة البقول في العلب التي مقرها في كولورادو » يقضي بانتاج نوع جديد من البسلة الخضراء مما تعبأ في العلب . وأعربت تلك الشركة أنها في حاجة الى صنف تنضج قرونه جميعها في وقت واحد ، على أن تكون أحجام القرون مساوية بعضها لبعض ما أمكن ، وحبوبها صغيرة . قاصدة بهذه الشروط أن تيسر على زراعها حصدها بأجمعها مرة واحدة من حقولهم بالآلات الكهربية . فيسهل حينئذ على الآلات تفريط البسلة من قرونها ، فتتوفر بهذه الطريقة متاعب بشرية جمة . وقد آثرت الشركة البسلة الصغيرة الحبوب ، على غيرها لأنها تبيعها لطلابها بأعلى سعر . فاستطاع لوثر بربنك في ثلاثة أو أربعة أجيال ، إنتاج نوع جديد من البسلة الخضراء اشتهر باسم بسلة إمبصن Empson احتكرته تلك الشركة للتعبئة في العلب . وما زالت تستعمله الى اليوم ، فغدا أساساً للحرفة الكبرى الخاصة بتعبئة البقول في كولورادو

* * *

وعلى هذا النمط عينه يتيسر الحصول على أنواع محسنة من الغلال كالذرة الشامية والزهر والشعير والقمح وغيرها من الحبوب الكثيرة . وذلك بالانتخاب المتقن . ونعني به الاحتفاظ بالنباتات التي تفوق بمحاسنها الثابتة كل ما يكون لدينا من أمثالها . فمتى اكتشفت نوعاً جديداً من نبات نتج من مجهوداتك الشخصية ، فلا بدَّ من شعورك حينئذ بتأثير شديد يشجعك على تحسينه ، ولو لم يكن أنفر الأصناف الأخرى الموجودة ولكن يجدر بك في مثل هذه الحالة ألاَّ تخضع لذلك الاغراء . وقد أثبت بربنك هذا بقوله « عليك أن تتذرَّع بالصبر ريثما يحين موسم آخر أو موسمان ، لربما تعثر على نوع آخر أسمى من الصنف الأول ، فتعتز به كل الاعتزاز ، إذ يحوز قبول الناس وينال معاضدتهم ، فتحظى بإقبالهم عليه ويعم خيره الجميع » .

ومتى أحسنت اختيار أي نوع حديث فائق من النباتات ، هان عليك تحسينه. لأن تجار البزور مستنبتي النباتات يبحثون دائماً عن الأصناف الجديدة قصد تحسينها كل عام. وكانت الطريقة التي نهجها لوثر بربنك في حياته (رحمة الله عليه) بيع النوع الجديد

الذي يحصل عليه من فوره ، الى تاجر من تجار البزور ، بأغلى سعر يستطيع إحرازه (ويتاح في أمريكا بيع النوع الجديد من البزور ، إلى أي تاجر من تجارها مقابل استيلاء البائع على أتاوة ، هي نسبة محدودة في المائة من أثمان المقادير التي يبيعها التاجر من البزور نفسها في كل عام) ثم ختم الكاتب الأمريكي هذا البحث قائلاً « لما كنت مشتغلاً مع بربنك من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩١٣ كان ينصحني دائماً بقوله : — عليك ما حييت تشجيع كل من يتصل بك في عملك الزراعي ، على التنقيب عن الأنواع الجديدة من النباتات . لأن هذه الأصناف تتولد طبيعيًا دائماً . وفي وسعنا نحن معاونة الخلاق العظيم بوساطة التهجين . وقد آن الأوان لنقوم باختيار الأصلح على الدوام إذ أننا في حاجة دائمة إلى الأنواع الجديدة الممتازة من الغلال والأزهار ، ولا ضرر على الاطلاق من إقبال الناس وتكالبهم على حرفة تحسين النباتات .

ساعة منبهة توثق بالمعصم

أحدث ما استجدّ في صناعة الساعات وأعظمه ، ساعة منبهة توثق بمعصم صاحبها فتوقظه صباحاً من نومه أو تذكره بميعاد مضروب بينه وبين صاحبه أو قريبه . وهي مصنوعة من الصلب [1] الذي لا يصدأ ، مضبوطة التوقيت . ومن أغرب ما يذكر في شأن اختراع هذه الساعة الطريفة كون مخترعها قد اقتبس طريقة التنبيه التي تحويها ، وذلك من حشرة حقيرة هي الصرصار وهو مع صغر حجمه ، يُسمع صوته جليًا من مسافات قاصية . فقلد المهندسون صرير تلك الحشرة إذ وضعوا بعضاً من مقومات تغريدها في تركيب الآلة الطنانة في الساعة الموقظة للنائم ويتولد فيها الصوت بمطرقة دقيقة في باطن تركيب الساعة ، تقرع دبوساً معدنيًا قرعاً خفيفاً على الغطاء الفولاذي العادم الصدأ الذي في ظهر الساعة . وللساعة غلاف ثان خارجي فيه أربع فتحات صغيرة . وهذا الغلاف يغطي الغطاء الداخلي . ثمّ إن الصوت الذي يتولد من المطرقة الدقيقة ، يتردد عن طريق الثقوب بين ذينك الغطائين ، فينتج عن ذلك صوت منبه بهيج ؟ عوض جندي

---

(١) وصفت هذا الصلب في مقال مسهب بعنوان (معادن الحرب) نشر في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٤١ ومما جاء فيه « إن لهذا الفولاذ العادم الصدأ منافع في صناعة الطائرات ، اذ تصنع منه صناديق للذخائر الحربية ، ومجار لمرور الوقود وأخرى لقذف العادم منه أو لقذف القنابل ، ورفوف لحمل القنابل وصناديق لخرطوش اللازم للمدافع الرشاشة . وقد اخترع هذا الفولاذ في بدء الامر للانتفاع به في زمن السلم ثم اغتصبه مثيرو الحروب . فأخذوا يصنعون منه الطائرات وغيرها كما ذكرنا .

٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ طالب
في مدارس الولايات المتحدة

عند ما دقّت الأجراس في أوائل شهر سبتمبر الماضي معلنة افتتاح السنة الدراسية الجديدة في الولايات المتحدة كان هناك ما يقرب من اثنين وثلاثين مليوناً من الصبية والفتيات والشبان والشابات على استعداد لدخول مختلف المدارس التي تبدأ الدراسة فيها في رياض الأطفال وتنتهي في الجامعات . وقد زاد عدد الطلبة المقيدة أسماؤهم في سجلات المدارس بما يقرب من خمسة ملايين عما كان عليه في سنة ١٩٤٠ وترجع هذه الزيادة ، الى حدّ كبير ، الى تطور أحوال سكان الولايات المتحدة في سنوات الحرب والسنوات التي تلتها .

أدّت الحرب الى انتقال جماعات كبيرة جدًّا من السكان بحالة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الولايات المتحدة . فقد هاجر عدد كبير من السكان عبر جبال روكي ، الى الولايات الواقعة على ساحل المحيط الهادىء مما أدّى الى ازدحام المدارس الآن في تلك المنطقة الى درجةٍ فاقت طاقتها .

وانتقل بعض السكان أيضاً من المناطق الزراعية الى المدن كما انتقل غيرهم من المدن الى الضواحي . ومن البدهي ان هجرة السكان قد زادت عدد التلاميذ في منطقة وأنقصته في أخرى .

ومما أدّى الى هذه الحالة التي نشأت في المدارس الأمريكية بعد الحرب ويعتبر من أهم عواملها ، فضلاً عن هجرة جماعات كبيرة من السكان الى مختلف جهات الولايات المتحدة ، زيادة نسبة المواليد في سنوات الحرب والسنوات التي تلتها الى درجة كبيرة لم يعرف لها مثيل . فقد بلغ الأطفال الذين ولدوا في أثناء الحرب السن التي تؤهلهم لدخول المدارس وأخذ عدد تلاميذ المدارس الابتدائية يزداد سنويًّا وينتظر أن تستمر هذه الزيادة بحيث تزيد على ما عرف عنها في جميع الولايات تقريباً ، ولا تستثنى منها إلاّ الولايات التي أصبح عدد سكانها بعد انتهاء الحرب أقل مما كان عليه في السنوات التي سبقت نشوب الحرب .

وهناك مثل آخر أثر على حالة التعليم بعد انتهاء الحرب ألا وهو تسريح الجنود والتحاقهم بالمدارس والكليات لإتمام تعليمهم على نفقة الحكومة بمقتضى وثيقة الحقوق الخاصّة بهم .

ويضاف الى ذلك شدة اقبال السكان بجميع طبقاتهم على التعليم . وقد زاد الاهتمام بالدراسة في رياض الأطفال وهي نوع من أنواع المدارس خاص بتربية الأطفال الذين يبلغون الخامسة من أعمارهم . ويزداد باطراد

عـدد الشبان الأمريكيين الذين يرغبون في الاستمرار في الدراسة بعـد انقضاء مدة التعليم الاجباري الذي يلزم به ، في معظم الولايات ، من تتراوح أعمارهم بين السادسة والسادسة عشرة . وقد اشتدّ الاقبـال على مختلف نواحي الدراسة .

وتدل البحوث التي قامت بهـا ادارة المعارف الأمريكية وهيئة تحرير مجلة «أنباء الولايات المتحدة والعـالم» مدى تأثير الاقبـال على المدارس على حالة التعليم في الولايات المتحدة . فقـد أثرت زيادة نسبة المواليد على المدارس الابتدائيـة التي يقبل فيها التلاميـذ الذين تتراوح أعمـارهم بين السادسة والثالثـة عشرة . ولوحظت شدة الاقبال على التعليم في المدارس التي يتعلم فيها صغار التلاميـذ ففي سنة ١٩٤٧ دخلت المدارس أولى أفواج الأطفال الذين ولدوا في خلال سنوات الحـرب ، وقد بلغ عدد أفرادها ٣٫٠٨٧٫٠٠٠ . أما في سنة ١٩٤٨ فينتظر أن يبلغ عدد أفراد الأفواج التالية ٣٫٣٦٨٫٠٠٠. وينتظر أن يلتحق بالمدارس في سنة ١٩٥٢ نحو ٣٫٧٠٠٫٠٠٠ تلميذ جديد ويحتمل أن يبلغ مجموع التلاميذ في المدارس الابتدائية في سنة ١٩٥٥ نحو ثمانية وعشرين مليوناً بحسب تقدير ادارة المعارف الأمريكية .

أما التلاميذ الذين يتعلمون في المدارس الثانوية ، وهم الذين تتراوح أعمـارهم بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة وتستغرق دراستهم أربع سنوات ، فلا يجدون صعوبة في الوقت الحاضر في الالتحاق بالمدارس العليا والمدارس الثانوية . فقد بلغ عدد تلاميذ المدارس الثـانوية ٦٫٣٠٠٫٠٠٠ في سنة ١٩٤٧ . وينتظر أن يزيد في هذه السنة بنسبة ١ ٪ ، ولـكن ادارة المعارف الأمريكية تقدر انه سيبلغ ٧٫٧٠٠٫٠٠٠ في سنـة ١٩٥٥ . ولم يبلغ أكبر مواليد سنوات الحرب سنـًّا العمر الذي يؤهلهم للالتحاق بالمدارس الثانوية . وليس معنى هذا ان هذه المدارس لا تواجه مشاكل فقد استلزمت شدة الاقبال على التعليم الفني اعداد أماكن جديدة وأدوات جديدة . وزاد عدد الذين يدرسون الموضـوعات التجارية والاقتصاد المنزلي والزراعة والحرف والصناعات بمـا يتراوح ١٨ ٪ و ٥٦ ٪ منذ سنة ١٩٤٦ / ١٩٤٧ الدراسية .

ومع ان عـدد الملتحقين بالـكليات والجامعات ما زال أزيد بكثير على عددهم في السنوات التي سبقت نشوب الحرب فإنه لم يزد على الرقم القياسي الذي بلغه بعد الحرب نظراً لتناقص عـدد الملتحقين من الجنود المسرحين. وينتظر أن يتراوح مجموع الطلبة الذين يترددون على الـكليات والجامعات في هذه السنة بين ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ و ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ وينتظـر أن يصل في سنـة ١٩٥٥ الى ٢٫٦٠٠٫٠٠٠ . ويبلغ عدد الملتحقين من

جنود ومجندات الحرب الأخيرة مليوناً أي انه يقل بنحو مائة الف على ما كان عليه في سنة ١٩٤٧ . وقد أمضى معظم طلبة وطالبات الكليات منهم ومنهن سنتين في دراسة المقرر التي تستغرق أربع سنوات وبذلك أصبحت الحاجة ماسة الى أمكنة كافية وأدوات كافية في المعامل .

فما هي الاجراءات التي تتخذ الآن لمواجهة هذا الضغط الناشيء على الأخص عن قلة أبنية المدارس ،ومن الواجب العمل على تقليله بعد سنوات قليلة ؟ لقد وضع برنامج واسع النطاق للبناء وسارت اجراءاته الى درجة اعداد الأموال والمهمات اللازمة لتنفيذه . ونذكر في هذا الصدد ، مثلاً ، ان وزارة التجارة الأمريكية صرحت بأن أكثر من ٣١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار قد صرفت على المعاهد العلمية العامة والخاصة في الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٤٨ مقابل ١٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار صرفت في سنة ١٩٤٧ و ٨٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار صرفت في سنة ١٩٤٠ وتقدر ادارة المعارف الامريكية أن أعمال المدارس تستدعي صرف ١١٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار يصرف الجانب الأكبر منها وقدره ٧٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار على المدارس الابتدائية والثانوية .

* * *

ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من المدارس الابتدائية والثانوية لجأت الى طريقة الدراسة على دفعتين يومياً لكي يلقن المدرسون بعض الطلبة الدروس في الصباح ويلقنونها للبعض الآخر بعد الظهر. أما الكليات والجامعات فقد استمرت في تنفيذ برامج الدراسة المسائية . وفي عدة ولايات توجد المدارس في أماكن متقاربة للانتفاع بأبنيتها الى أقصى حد ممكن في توزيع التلاميذ ريثما يتم تنفيذ البرنامج الجديد لبناء المدارس الذي ينتظر أن يؤدي الى زيادة ٢٠٠٫٠٠٠ غرفة على الغرف الموجودة حالياً في جميع مدارس البلاد وعددها حوالي مليون غرفة .

ازدياد الطيران المدني في اميركا

أذاعت مصلحة الطيران المدني الأمريكية استمرار ازدياد عدد الطائرات والمطارات المخصصة للطيران المدني في الولايات المتحدة ففي أول اكتوبر عام ١٩٤٨ كان عدد الطائرات المدنية في أمريكا ٩٧٫٠٢٥ طائرة بزيادة قدرها ٥٫٢٨٤ طائرة على عددها في نفس التاريخ من العام الماضي . وفي نفس الفترة ازداد عدد المطارات المدنية في البلاد بواقع ١٫٠٤٧ مطاراً فبلغ مجموع المطارات ٥٫٩٢١ مطاراً .

كلية مسائية لتعليم الكبار

يمكن للمرء أن يلمس التسهيلات التي تبذلها كليات الولايات المتحدة وجامعاتها لتعليم الكبار ، بالاضافة للشباب — في الكلية المسائية التابعة لجامعة سنسناتي (اوهايو) . ولقد اهتمت هذه الجامعة وهي الأولى في الولايات المتحدة التي تملكها وتديرها البلدية – منذ زمن طويل بأن تجعل التعليم متفقاً مع حاجات الجماعة الثقافية والاجتماعية .

لقد أنشئت الكلية المسائية في عام ١٩٣٨ وهي الآن – كما يقول العميد فرانك نويفر — واحدة من أكبر المعاهد المماثلة في الولايات المتحدة . وفي وصفه لبرنامجها ذكر العميد أن هيئة الكلية تنظم أكثر من ثلاثمائة دراسة في النواحي الثقافية والمهنية وللتسلية إجابة للرغبات المبينة أو المتوقعة لسكان المدينة وماجاورها ولقد سجل في العام الماضي ٩٠٠٠ من الكبار ، في سنسناتي ، أسماءهم في فصول التجارة والآداب والهندسة والفنون التطبيقية . ولوحظ أن الطلبة — الذين تتراوح أعمارهم من ١٦ الى ٦٩ سنة — يمثلون جميع المهن المختلفة ، فمن ربة منزل الى رئيس اتحاد . وفي بعض الأحوال كان جميع أفراد العائلة أعضاء بالمدرسة .

وتقدم الكلية المسائية أربعة أنواع من البرامج . فهناك للعاملين الذين لا يمكنهم أن يخصصوا للكلية سوى ساعات ما بعد العمل — سبعة برامج في التجارة والآداب والهندسة وهي في مستوى الدراسات التي تؤهل لدرجات جامعية . وتوجد للذين يرغبون في دراسات تحضيرية قصيرة وشاملة برامج مهنية تمرينية تماثل برامج الدبلومات المتوسطة . وفي الحسابات وادارة المكاتب والاعلان دراسات لأولئك الذين يرغبون في زيادة المامهم ومعارفهم بمهنتهم ، أو الذين يرغبون في الاشتغال بنواح جديدة .

* * *

أما أولئك الذين يرغبون في توسيع مداركهم الثقافية فتقدم لهم دراسات في الآداب . وأما الذين يهدفون الى التسلية المفيدة فيقومون بدراسات لطيفة مثل صنع الأواني والنحت والتصوير وتنظيم الحدائق وتصميم الملابس .

تبادل الطلبة

ورد عن ادارة التربية بالولايات المتحدة ان نيف وواحد وعشرين ألف طالب أجنبي قد التحقوا بكليات وجامعات امريكا خلال العام المكتبي الفائت . وتتألف هذه الجملة

من ٧٫٤٦٩ طالباً من أوربا وجامعة البلدان البريطانية و ٥٫٥٤٦ طالباً من الصين والشرق الأقصى و ٤٫٧٦٦ طالباً من الجمهوريات الأمريكية و ٣٫١٤٢ طالباً من الشرق الأدنى وأفريقيا.

وقدرت ادارة التربية عدد الطلبة الأمريكيين الذي يتلقون العلم — خلال نفس الفترة — في الخارج بأحد عشر ألف طالب منهم نحو ٥٫٥٠٠ من الجنود المسرحين.

عيادة النطق

مضت أعوام ثلاثة على « عيادة النطق المتنقلة » — التي يقوم بالعمل فيها اخصائيون بصحبة أجهزة خاصة لاختبار نطق أطفال المدارس وسمعهم — في ولاية مينوزوتا بالولايات المتحدة . ولقد قامت العيادة — كما بينت جامعة مينوزوتا المشرفة عليها — باختبار ٧٠٫٠٠٠ طفل في تسع عشر منطقة . وتمول العيادة من التبرعات التي تجمعها جمعية مينوزوتا للمقعدين من الأطفال والكبار .

وتقوم هيئة العيادة — المؤلفة من أربع نسوة كلهن جامعيات إخصائيات في علاجيات النطق والسمع — بزيارة المدارس في المدن وفي المناطق الريفية . فتمطي الأطفال المصابين باضطرابات خطيرة في السمع أو النطق ، اختبارات اضافية وتعقد لهم محادثات تنتهي بعلاجهم علاجاً خاصاً ، وبإعادة توجيههم . وكنتيجة للاختبارات التي أجريت خلال عامين ظهر — كما تقول الاحصائيات — ان واحداً من كل خمسة ، من الأطفال الذين أجريت عليهم الاختبارات ، يشكو من واحد أو أكثر من عوائق النطق ، وواحداً من كل عشرة أطفال يشكو من بعض عاهات السمع .

الطائرة الاولى تعود الى امريكا

أعاد متحف العلوم البريطاني بلندن ، الى الولايات المتحدة ، الطائرة « كيتي هوك » التي قامت بأول رحلة ـ في الولايات المتحدة ـ تقوم بها طائرة ذات محرك أثقل من الهواء في السابع عشر من ديسمبر عام ١٩٠٣ . وكان ذلك بناء على ما جاء بوصية أورفيل رايت الذي قام مع أخيه ولبر ببناء الطائرة « كيتي هوك » والطيران بها . وكان رايت قد أعار الطائرة لمتحف لندن عام ١٩٢٨ .

وحفظت الطائرة « كيتي هوك » في متحف الطيران القومي التابع لمجمع سميثسونيان بمدينة واشنطون . وحل محل الطائرة التاريخية في متحف لندن ، مثال لها طبق الأصل صنع خصيصاً لهذا الغرض

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الخامس عشر بعد المئة

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ ديسمبر سنة ١٩٤٩ — ١٠ صفر سنة ١٣٦٩

وداع وترحيب

حالت جهود زميلنا العلامة الاستاذ اسماعيل مظهر في مضمار العلم وانشغاله بوضع معجم علمي كبير دون التفرغ لتحرير المقتطف ، وان ادارة المقتطف التي لقيت من جهوده معها خلال السنوات القلائل التي أشرف فيها على تحرير المقتطف بالروح العلمي والأدبي الذين لمسهما قراؤه والمعجبون به منذ كتب في المقتطف من سنوات بعيدة لتأسف على ان تحرمها هذه المشاغل من جهود الاستاذ الكبير ، آملة ان تظل علاقته بالمجلة وهو بعيد عنها كما كانت قبل توليه رياسة التحرير ذاكرة له فضله وجهده

وقد رأت الادارة ان تندب لهذا العمل الكبير العلامة الاستاذ نقولا الحداد وهو العالم الاديب صاحب المكانة الادبية الرفيعة آملة ان يكون للمجلة في عهد انتدابه وسيع الخطى ورفيع المكانة محتفظاً بالمستوى العلمي والادبي الذي أصبح طابعاً لهذه المجلة

وليس العلاّمة الاستاذ نقولا الحداد بالغريب عن قرّاء « المقتطف » ، ممن يتابعون جهوده العلمية والادبية على صفحاته منذ عهد محرّره الاول المرحوم العلاّمة الدكتور يعقوب صرّوف .

النسبية

في العملة المتبادلة

نحن الآن في وقت يضطرب فيه البحر الاقتصـادي اضطراب اللجج تحت العاصفـة المندفعة . ولا يكاد يستقر على حال — عملة ترتفع وأخرى تنخفض وأسعار تعلو ثم ترخص تبعاً لتذبذب العملة . فما هو المستوى الذي ترتفع العملة اليه وتسفل عنه ؟

الجنيه الاسترليني هبط ٣٠ بالمئة فهبط الجنيه المصري معه .

بالنسبة لأية عملة هبط ؟

هذا هو السؤال الوجيه الذي يخطر للمفكر .

يقولون إنه هبط بالنسبة إلى الدولار . والآن يشاع أن الدولار سيهبط أيضاً . أو أن الذهب سيرتفع . ومعنى هـذا أن الذهب هو المستوى الذي تتذبذب العملات من حوله من فوقه ومن تحته . فلنرَ هل الذهب يعتبر المقياس الذي تقاس به عملات العالم أجمع ؟

قبل هبوط الجنيه كان الاسترليني يباع في انكلترا بما يساوي نحو ٢٢٠ قرشاً في حين أنه كان يباع هنا بأكثر من أربعة أو خمسة جنيهات بحيث إنه لو تيسر لك أن تشتري الذهب في انكلترا لأمكنك أن تبيعه في مصر بضعفين . ولـكن هذه العملية مستحيلة بسبب تعذر اشتراء الذهب في انكلترا والخروج به منها . وكذلك الأمر في سويسرا وأميركا وغيرها . ومعنى هذا إنه ليس للذهب قيمة ثابتة وبالتالي لا يصلح أن يكون مقياساً لقيم العملات .

يعتبر الذهب سلعة غالية كسائر السلع يباع ويشرى على قاعدة العرض والطلب . وهو ذو قيمة غالية لأنه غير معروض بحرية في الأسواق بل هو مخزون في أقبية المصارف وبعض خزائن الحـكومات .

ثلاثة أخماس ذهب العالم مخزون في أميركا . ولهـذا يعتبر ورق العملة الأميركاني متيناً لأن وراءه ذهباً يفتديه على اعتبـار أن الورق لم يطبع وينزل إلى السوق كنقد إلاَّ لأن وراءه ذهباً يحل محله إذا رام حامل الورقة أن يبدلها به . وما درجت عملة الورق وقبل

الناس أن يتداولوها كنقد إلاّ على هذا الشرط، أي إن لحامل الورقة الحق بأن يطلب من بنك الحكومة قيمتها ذهباً .

هذا كان الشرط حين شرعت الحكومات تصدر أوراق النقد بضمانة ما عندها من الذهب . ولكن ما من حكومة تملك من الذهب قيمة ما تصدره من الورق حتى ولا نصفه ولا ربعه . وليس في خزينة مصر من الذهب أكثر من ستة ملايين جنيه ولكنّ في السوق من الورق المصري عشرين أو ثلاثين ضعف هذا الرقم . ولعلّ ذهب أميركا الكثير لا يضمن عُشْر الورق الأميركي المتداول في أميركا .

فماذا يضمن هذا الورق إذاً ؟

يضمنه أولاً الثقة العظمى بقوة الحكومة في حفظ الأمن والدفاع عن الوطن . واذكر أنه لما شبّت الأزمة المالية في الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٠٦ خاف الناس من افلاس البنوك فهرعوا إليها لكي يسحبوا ودائعهم منها وهي أكثر كثيراً مما في البنوك من الورق والذهب . وازدحموا لدى أبوابها حتى خيف على البنوك من الإفلاس ، لأن ودائعهم فيها كانت أضعاف ما عندها من نقد . ولذلك أصبحت أميركا كلها مهددة بكارثة مالية لا محيص منها .

وطغت منها الكارثة على جميع العالم . وكان لمصر نصيب منها . فأصدرت الحكومة الأميركية موراتوريوم (وقف الدفع) لم تصدر مثله منذ عشرات السنين ، وشرع الرئيس ثيودور روزفلت يطوف في العواصم الأميركية ويلقي الخطب لكي يطمئن الناس قائلاً :

لماذا هذا الجنون ياقوم ؟ نحن في بلادنا بألف خير . فلا قحط ولا محل ولا ثورة ولا حرب ولا ضائقة طبيعية .

ثم استوردت أميركا من انكلترا حينئذٍ مئة مليون جنيه ذهباً وأودعتها في البنوك الكبرى وأودعت معها جميع الأوراق المالية التي تملكها كضمانة لودائع الناس . ومع ذلك ما اطمأنّ الناس ولا سكن روعهم . والشاهد في هذا الحادث ان الذهب الأميركي وغيره لم يكن ليطمئن الناس، فكأنه كان لاقيمة له .

والحق ان الذهب المخزون الآن في خزائن الحكومات ومصارف الأمم لا قيمة له البتة. والحقيقة أنه لا قيمة للمال إلاّ إذا أنفق في ما يفيد الجمهور حتى ولو كان في الجيوب فكيف به إذا كان محبوساً في الخزائن ؟ فكيف إذن يمكن أن يكون الذهب مقياساً للعملة ؟

وفي بعض الأحوال يكون الذهب تافه القيمة . مثال ذلك في الحرب العظمى الأولى اشتدت المجاعة في لبنان لأن الطاغية جمال باشا القائد العثماني منع دخول الغلال إلى لبنان.

وما كان فيه منها حجزه أحد السراة هناك ولم يبع منه إلاَّ لمن معه الذهب الوفر . فأصبح القمح حينئذٍ يباع ويشرى بالليرة العثمانية أو الفرنساوية . فكأن الذهب هبط إلى عُشر ثمنه حينئذٍ . فكيف والحالة هذه يمكن أن يكون مقياساً للعملة .

إذن أين نجد مقياساً ثابتاً للعملة ؟ ما دامت قيمة الذهب تطلع وتنزل حسب الظروف والأحوال ، وما دامت تختلف في بلد عنها في بلد آخر .

ظنَّ بعضهم أن قيمة القطن يمكن أن تكون مقياساً للأسعار وبالتالي للعملة . لأن جميع العالم يحتاج الى القطن كما يحتاج الى القمح . ولذلك كنا نرى أن بورصة القطن عندنا تضطرب كاضطرابها في نيو اورليئس الفرضة العظيمة الشأن في ولاية تكسس ، وهي أعظم مصدر للقطن في العالم . وكانت ولا تزال أخبار أسعار القطن ترد إلى مصر من نيو اورليئس . وأسعار القطن في أميركا ومصر وبعض البلاد الآسيوية الواقعة في مناطق السوفيات الروسية وغيرها تتأثر بعض التأثر بأخبار الأسعار الاميركية . ومع ذلك لا يمكن الاعتماد على هذه الغلة من المزروعات ، وان كانت لازمة لكل بلد في الدنيا لأجل الغزل والنسج لأنها متقلبة الأسعار جداً كما هو معلوم .

وربما خطر لبعضهم أن يعتبر سعر البترول مقياساً للعملة أو للأسعار والأثمان لأنه يستخرج من بلاد كثيرة وتتداوله جميع الدول . وكان البترول من جملة أسباب الحرب وأهم لوازمها ومن جملة السلع التي يتوقف عليها النصر . وربما كان من أسباب خسران الألمان الحرب نضوب حاجتهم من البترول . ولكن لا يمكن أن يكون مقياساً للاسعار وقيمة العملة لأن أكلاف استخراجه ونقله تختلف في أي ناحية عن أخرى

بقي أمر واحد يمكن أن يخطر على البال وهو قيمة عمل العامل . ففي كل بلد تتحدد قيمة عمل العامل وتتعين أجرته . ونقصد بالعامل الفاعل الذي يشتغل الأشغال الشاقة التي لا تحتاج الى ذكاء وفن .

فلك أن تقول مثلاً : إن الجنيه المصري يساوي خمسة فعلة أو ستة أو سبعة . فهذه التسعيرة للجنيه بقيمة عمل العامل تصلح في البلد الواحد ولكنها لا يمكن أن تطلق على جميع البلدان . فقيمة عمل العامل في أميركا أضعاف قيمة العامل في مصر أو في اليابان مثلا

فاذن بعد هذه السياحة بين الذهب والسلع والحاصلات والأعمال لايمكن أن نجد قيمة مالية ثابتة تقاس بها الأسعار أو العملة أو الذهب نفسه . فجميع هذه المسعرات والمثمنات تختلف بنسبة بعضها الى بعض . ولا قياس ثابت لها البتة . فقيمة العامل تقدر بقيمة ما يعمله . وقيمة ما يعمله تثمن بالجنيه الورقي . وهذا الجنيه يثمن بقيمة الذهب . وقيمة

الذهب تحدد بمقدار ما يبتاع به من السلع للعامل. وحينذاك يرى العامل أن قيمة عمله لا تكفي لابتياع حاجته اليوم في هذا البلد أو تزيد غداً عن حاجته في بلد آخر

فكيف حاولنا أن نحدد قيمة للعملة أو للسلعة أو للعمل لا نجد مقياساً ثابتاً. فاذاً المثمنات والمسعرات والمقدرات لا قيمة مقررة لها، بل تتناسب قيمها بعضها مع بعض. وهذه القيم متضاربة متذبذبة مترجرجة لا تستقر على حال على الاطلاق. فنحن من هذا القبيل كأننا في بحر متلاطم الأمواج متصادم اللجج. لذلك لا يمكن أن نضع قاعدة ثابتة لاسعار الذهب أو السلع أو العمل.

فما أشبه هذه الحالة بالنسبية الطبيعية، نسبية اينشطين.

في هذا الكون المادي لايمكنك أن تعرف سرعة أي جرم الا بالنسبة الى سرعة جرم آخر. وسرعة هذا الآخر لا تعرف الا بالنسبة الى سرعة جرم آخر وهلم جرًّا. يمكن أن تعرف سرعة الأرض بالنسبة الى الشمس (أو أي سيار) ولكن الشمس سائرة بسرعة ١٢ ميل في الثانية الى نجم النسر الواقع. وهذا سائر بسرعة أخرى في مدار المجرة. والمجرة دائرة بسرعة معينة حول مركزها، وبسرعة اخرى بالنسبة الى سائر المجرات وهكذا دواليك. فلا يمكن أن تعثر على سرعة مطلقة في هذا الوجود. ولا تعثر على جسم ساكن ثابت تعرف بالقياس اليه سرعة أي جسم مقبل اليه أو مدبر عنه

وقد حاول العلامة ميكلسن الأميركي أن يستخرج سرعة الأرض في بحر الايثر على ظن أن الايثر ساكن. وقد عمل عملية معقولة جدًّا متقنة الوضع محكمة الآلة. وجربها مع عالم آخر يدعى موزلي مراراً وعلى أشكال مختلفة. فلم يمكن أن يتوصلا الى نتيجة مقنعة، وانما خرجا من العملية بأنه ليس في الوجود سرعة مطلقة تقاس بها سرعات الأجرام الأخرى. بل أن جميع السرعات تنسب بعضها الى بعض. حتى سرعة النور التي عرف قدرها وهو ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية تختلف بالنسبة الى سرعات السيارات والنجوم وأية سرعة في الطبيعة

فاذا كانت سرعات الأكوان نسبية فلا بدع أن تكون قيم الذهب والسلع تختلف بنسبة بعضها الى بعض.

وهكذا كل ما حولنا وفينا من صور الوجود نسبي.

والقوة نسبية، والعدل والظلم نسبيان، والحق والصواب نسبيان كما تعلم. النسبية سنة الوجود.

نقولا الحداد

نظرات في النفس والحياة

- ١٨ -

تتمة نظرات جوتا

تنقسم حياة جوهان ولفجانج فون جوتا الى عهود : أولاً عهد العاصفة والشدة وهو عهد الاندفاع مع العاطفة والاستسلام للخيال وفيه ألف (جوتز) و (ورتر) . ولو انه لم يكن مستسلماً كل الاستسلام كما سيتضح من تفسير (هِتْنَر) بالنون و (دودن) لمعنى مؤلفاته في ذلك العهد . ثم يأتي عهد رحلته الى ايطاليا ومكثه فيها وقد أكسبته الآثار القديمة ميلاً الى المذهب الكلاسيكي وزادت الأثر الذي كان قد اقتبسه بقراءة كتب القدماء . وبعد عودته بدأت صداقته لشيلر الشاعر وكان شيلر أشد ميلاً الى التعبير عن الجانب الثائر من النفس البشرية كما في قصة (وليام تل) و (اللصوص) و (دون كارلوس) و(عذراء أورليان) وهذا مذهب خلفه جوتا بعد تأليف (جوتز) و (أحزان ورتر) كما أن في قصص شيلر أناساً وصفهم بصفات الكمال الانساني بينما أناس قصص جوتا يتعثرون في أخطائهم ويتعلمون منها ومع ذلك كان جوتا متزناً فلم يحاول اطفاء ثورة النفس على مفاسد الحياة ونظمها . ولكنه مع ذلك كان يدعو الى تطهير النفس أولاً من شوائب الأحقاد والاثرة قبل حمل شعلة الحرية المقدسة . وكذلك كان يفضل العمل المتدرج ويرى انه أنفع من الطفرة التي تؤدي الى التراجع والتقاعس والتقهقر والانتكاس .

ولعلّ اتزانه هذا سبب نقد الأحزاب المتطرفة له . وفي كلماته نجده يحاول إبراز الحق الذي في الآراء المتناقضة ويرى أن من الحكمة أن لا يهمل الحق الذي يخالط الباطل . وهذا من شدة اعزازه للحق وصيانته له من الضياع في أي جانب كان بينما كان غيره اذا أراد محو باطل لا يصون الحق الذي يمازجه . ومن أجل هذه الصفة فيه قد يخال انه يتردد بين النقيضين ولا تردد له . ولعلّ هتنر (بالنون) هو الناقد الذي فسره أحسن تفسير وتابعه ادوارد دودن . ومن تفسيرهما نرى ان ورتر في قصة (احزان ورتر) يمثل الشاب الذي يعالج

احساساً شديداً لا يؤدي الى عمل نافع ثم هو يطلب المحال ويسوقه الخيال وكل هذه صفات مرض ونقص تؤدي الى الهلاك كما أدت الى هلاك ورتر. فهو لم يصف ورتر كي يكون بطلاً يحتذى بل وصفه للعظة والاعتبار وتجنب صفات نقصه. ولكن كثيراً من الشبان تشبهوا به فهلكوا . ولعلّ سبب تشبههم به أن جوتا يكسو أخطاء الشاب ورتر وعيوبه جمال فنه وهو لو لم يكسه لأخطأ ، لأن أخطاء الشباب وعيوبها مكسوة بطبيعتها جمال روح الشباب وهو جمال فني.

وفي قصة (ولهلم مايستر) يتدرج الشاب ولهلم من الانقياد للخيال الكاذب والعاطفة الخرقاء وهما يستهويانه مرة بعد مرة . فيكون عمله وخلقه غير مطابقين لمقاصده فيتدرج بالتعلم من أخطائه وعيوبه الى العمل الصحيح المنتج والى فهم الأمور على حقيقتها بعد تضليل الخيال له تضليلاً طويلاً قد يضل معه القارىء اذا كان شاباً وقد يستهويه ذلك الضلال. ولكن جوتا لا يريد للشاب أن يتعلم كما تعلم ولهلم مايستر من عيوبه وأخطائه اذ أن هذا يكلفه من الجهد والوقت ما هو أنفس وأطول من أن يضيع هكذا . ومن أجل ذلك رسم خطة للتعليم تجنب الشبان مثل أخطاء ولهلم .

وكذلك نرى في قصة (تاسو) الرجل الذي يستعبده الخيال ويكاد يهلكه لولا أن له صديقاً ينجيه . أما في قصة فوست فنرى فوست الذي استفحلت فيه روح التملك والسيطرة حتى تملك حبيبته وهو غير مالك لنفسه ولا مسيطر عليها وكاد يذهب ضحية الاغواء لولا انه ارتدع واتعظ وعصى ابليس (مفستو فيليس) في اللحظة الأخيرة . وبذلك نجا ولم يرد جوتا للناس أن ينقادوا لحب السيطرة كما انقاد فوست في أكثر حياته (ولو انه عرضه عرضاً فنياً مغرياً) بل هو يرى أن لا نجاة للعالم والأمم الا بأن يتعلم الآحاد والأمم ضبط النفس والقضاء على عاطفة حب التملك والتحكم .

وهكذا نجد لكل قصة من قصصه درساً وموعظة ويخطىء من يستهويه جمال الفن فلا يبحث عن الفكرة الفلسفية والمغزى المراد .

* * *

وبالرغم من هذه الثقافة العالية فقد اختلف النقاد فيه . فمنهم من أسقطه ومنهم ، وهم الكثرة ، من رفعه الى السماء سماء الفن والثقافة : قال (بورن) : « لقد فضل جوتا الدعة والراحة على البطولة والآلام . ولكن الأبطال لا تردهم الآلام عن نصر الحرية ونقد مفاسد الحكومات والانتصار لشعوبهم كما فعل مونتسكيو وفولتير وروسو التعس الفقير المريض

الذي عاش بالرغم من ذلك حر الرأي ، وملتون الذي لم يمنعه قرض الشعر من محاربة الاستبداد »

وقال ِمنزل : « ان كل مؤلفات جوتا انما هو عرض لشخصيته في أحسن وضع فني . فالرجل مع خصوبة ذهنه وخياله ماكان يهمه غير نفسه واشباعها من كل احساس بمظاهر الجمال . وقد كان هم جوتا بدل تحرير العقل الألماني ان يحصل عقله وعقل قومه نير كل ثقافة وان يداعب حضارة كل أمة تحت الشمس مداعبة الممثل الذي همه الترف واللذات والاثرة »

وقال جان بول رختر: «عند ما أردت أن أزور جوتا قيل لي انه الآن لا يعجب بشيء ولا يستحسن شيئاً وحتى نفسه التي كان يعجب بها أصبح لا يعجب بها . فسألت صديقاً لي ان يحولني الى حفرية متحجرة أقدمها له لعلّ غرابة شكلها تستدعي تنبهه لها . وفي أثناء الحديث ظلّ ساكتاً الى أن جاء حديث الفنون فقرأ لنا قصيدة له لم تنشر . وكنت أشعر أن صوته يحاول أن يدفع بحرارة قلبه كي تخترق غشاء الثلج المتجمد فوقه » وهذا الجمود ضد ما وصفه به جليم في شبابه .

وقال كارليل «ان عصر جديد ، ذلك العصر الذي يظهر فيه رجل حكيم عاقل يستوعب ويحمل عيوب عصره ويتغلب عليها ويشق لنفسه طريقاً في اتجاه وطريق كان لا يمكن اختراقهما . وهذا هو ما صنع جوتا ، ومؤلفاته هي مرآة عصره الذي وصفه وأوضحه وفسره » .

وقال نيبوهر : « إن الألمان الآن يسمعون اسم جوتا بخشوع وإعجاب كما كان قدماء الإغريق يسمعون اسم هومر . وجوتا قد بلغ في قومه منزلة لم يبلغها أحد غيره . وبسبب مؤلفاته صارت الأمم الأخرى تهتم للأدب الألماني وتحترمه » .

وقال أمرسون : « ليس في العالم شيء لم يهتم جوتا بدراسته وتفهمه . فهو مقرر يسجل كل أمر وظاهرة . وقد وصل في بحثه إلى حدود المجهول . ثم خطا خطوة وراءها وعاد سليماً كما كان قدماء الإغريق يقولون أن الاسكندر المقدوني وصل في فتوحه إلى حدود العالم ثم خطا خطوة وراءها ».

* * *

وفيما يلي تتمة لما أختير من كلماته مع بعض التعليق عليها : —

(١) مهما كانت حياة الإنسان حياة معتادة مألوفة ومهما كانت النفس راضية بهذه

الحياة فإن في النفس نزوعاً خفيًّا إلى مطالب أسمى ونزعات أرفع وأملاً للنفس من تلك الحياة المألوفة المعتادة . والنفس تبحث حولها عن وسائل تدني بها تلك المطالب وترضى بها تلك النزعات — وقول جونا هذا يذكرني بقصة جون بوكان التي عنوانها (ملوك اوريون) وهو يتخيل فيها ان ملوك ذلك العالم الموصوف قد حكم عليهم ان يهبطوا إلى هذا العالم الأرضي ، وإن تعيش نفس كل ملك في نفس انسان من السوقة : وقد ذكر في المثل القديم ان نفس كل انسان تجمع بين قرد وأسد . وفي قصة جون بوكان ترضى النفس بالحياة المعتادة المألوفة حتى إذا تحركت نفس الملك التي فيها نزعت إلى مطالب عالية وأظهرت وسائل وملكات أسمى مما اعتادته .

(٢) كلما تعلم الإنسان درساً هامًّا في الحياة عاقه الفقر الروحي عن الاستفادة منه كل فائدة . ولكنه مع ذلك يكتسب ولو شيئاً قليلاً من الخبرة به . ولعلَّ هذا الفقر الروحي كما سماه جونا أو العجز الدائم كما سماه مينكين الناقد الأمريكي هو سبب تخلف الإنسان عن مسايرة العلم وسبب عدم الإستفادة منه أعظم فائدة كما وصف الأستاذ جوليان هوكسلي وسبب اختلال حياة الناس واعتزازهم بذلك الاختلال أو اعتزاز بعض المفكرين زاعمين أنه لو بطل الاختلال توقف نمو الإنسان الفكري . وهذا من باب جعل الانسان نقصه وعيبه محمدة وميزة . وهذه الصفة في الإنسان قاعدة عامَّة سيكولوجية كما أوضح جونا في مقال سابق أي تحويله نقصه إلى مبدأ محمود .

(٣) قد يخطىء من يظن أن شرف النفس يعوق صاحبه لطيبة قلبه عن إدراك مكر الخبثاء . ولكن اعتقاد المرء هذا الظن قد يدعوه إلى الاسترسال وقلة الحيطة ، فينكشف أمره لدى شريف النفس ، حتى ولو كانت آراؤه محدودة كما أن مخالفة عمل الماكر لما ألفته نفس الشريف النفس تطلعه أيضاً على احتيال الماكر الخبيث .

(٤) لا يستطيع المرء أن يؤسس مثال كمال إلاَّ على أساس الأمور الواقعة الكائنة ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الكمال غير المحدود إلاَّ عن طريق الأمر المحدود . وأما إذا حاول المرء تأسيس مثال الكمال على خياله غير المحدود لا على الأمور الواقعة المحدودة ضل سعيه وازدهاه الخيال واستعبده الوهم .

(٥) القوة التي تدعو المرء إلى التحكم والإثرة هي القوة نفسها التي لو شاء دعته إلى أن يملأ حياته جمالاً وحرية وأخاء فتعم العالم هذه الأمور . ولكن عليه أن يوجه تلك القوة في نفسه الى الجمال والحرية والأخاء توجيهاً مستأنفاً مستمرًّا مثابراً عليه .

(٦) إن الدهور الشديد في النفس إذا لم يُتَّخَذْ كقوة لأداء عمل نافع كان مرضاً وأدّى إلى اختلال الحياة .

(٧) إن الخرافات جزء أصيل في النفس الإنسانية فإذا حاربناها فإنها تختفي حتى نظن أنها قد زالت . ولكنها تكمن في خبايا النفس حتى تجد فرصة فتظهر . (هذه النظرية لا تطلق على جميع الناس . فهناك أشخاص قمعوا كل خرافة قمعاً أبدياً فلا يمكن أن تجد في أنفسهم فرصة لكي تظهر — المقتطف)

(٨) إن الرجل الذي يتعلم بالفطنة الحدود والقيود التي ينبغي أن يتقيد بها ثم يلتزمها مختاراً غير مقهور يستطيع مع ذلك أن يصل الى الحرية . أما الرجل الذي يُقْهَرُ على التزام تلك الحدود والقيود قهراً فإنه قلما يصل إلى الحرية وهو إن وصل اليها وجد لها مرارة وألماً

(٩) لا تنال أمة ملكة الحكم على الحقائق حكماً صادقاً إلاّ إذا استطاعت أن تحكم على نفسها حكماً صادقاً . فالأمة التي تتهرّب من الحكم على نفسها لا تستطيع الحكم على الحقائق حكماً صادقاً . وهي لا تستطيع الحكم على نفسها إلاّ بعد مراحل من الثقافة والنضج والوعي الصادق .

(١٠) إن مقاومة الحقائق الفكرية مثل تحريك النار إنما تُطير منها ما هو شبيه بالشرر فتشتعل النار فيما لم تشتعل فيه من قبل . فالعنف ليس السبيل لمحاربة الرأي لأنه يعدّ عجزاً عن محاربته بالحجة .

(١١) ليس النجاح في الحياة في معرفة النفوس البشرية بل في أن تكون أكبر لباقة ومهارة في وقت معين من منافسك الذي هو أمامك يواجهك . فربما كنت خبيراً بالنفوس ولكن لا تستطيع أن تنتفع بخبرتك .

(١٢) من الصعب أن يعرف الناس بعضهم بعضاً حتى ولو كان داعيهم إلى ذلك العرفان أحسن الميول وأسمى المقاصد فكيف بهم إذا تملكتهم إرادة الشر كما يحدث في كثير من الأحوال عند الحكم على الناس وهذا كما قال رومان رولان : « إن كل انسان لغز يصعب حله سواء أكان يحاول حل لغز نفسه أم لغز نفس غيره ومع ذلك فلا يستطيع الناس أن يمتنعوا عن الحكم على الأنفس والأخلاق إذ أن هذا الحكم جزء ضروري من الحياة

ع . ش

ما هي الغاية القصوى

طفل المعرفة يسأل هذا السؤال . ثم يجيب : —

أعرف إني موجود لكي أنسل نسلاً من نوعي كما ان أبي وجدّي وُجدا لهذه الغاية وإبني وُلد لهذه الغاية . وهكذا تستمر السلالة ما دامت الكرة الأرضية صالحة للحياة. فتى هبطت الحرارة إلى ما تحت الصفر ولم تعد الحياة ممكنة تنقرض الأحياء عن الأرض ومن جملتها الانسان ، ذلك لأن التفاعل الكيماوي بين العناصر الحيوية لا يعود ممكناً في البرودة المتناهية .

— ولماذا وجدت الأرض ؟

لأن التطوُّر المادي اقتضاها . ولأن لها رسالة يجب أن تقوم بها ، وهي أن تنشىء الحياة . ورسالة الحياة أن تنشئ العقل . ورسالة العقل أن ينشىء الجمال والضمير . والجمال شيء نسبي . والحكم فيه للعقل وحده .

وما الغرض من الضمير ؟

الغرض منه أن يقرر العدل والحق ، وبهما يتم الجمال الطبيعي والاجتماعي .

— وما الغاية القصوى منَ الجمال والضمير والعقل والحياة ؟

الغرض منها أن تخوِّل الطبيعة المادية أن تنفذ سننها . وللمادة سننٌ تسير بموجبها . وجميع هذه السنن ترجع إلى سنة الجاذبية.فهناك السنَّة الالكترونية، والسنَّة الكيمية، والسنَّة الحيوية — كل هذه تتجه إلى تنظيم هذا الكون الأرضي بما نرى فيه من قوى ونظام وجمال وعقل وذكاء .

ومن سنن الجاذبية دوران هذه الأفلاك في مواعيد لا تختل قيد شعرة ولا قيد لحظة

وما الغرض من كل هذه الأحاجي الهوجاء الصاخبة ؟ — أكوان متلائمة في حركاتها غير متعارضة ولا متصادمة .

— وما مصير هذه الأكوان ؟

تذوب شعاعاً وتتناثر ذريرات اثيرية في هذا الفضاء اللامتناهي .

— ثم ماذا ؟

تعود هذه الذريرات الأثيرية فتتكوّن ثانية اجراماً وتتداور في هذا الفضاء . ويحتمل أن تتولد منها أرض كأرضنا وتتولد من الأرض حياة وعقل، أو تتولد ظاهرات أخرى من طراز آخر . ثم تعود هذه الأجرام ثانيةً فتذوب شعاعاً وتتناثر ذريرات أثيرية وتعيد سيرتها السابقة مرّة أخرى، كما تكررت هذه السيرة من قبل مرّات لا عداد لها بلا بداية، وكما ستكرر فيما بعد إلى ما لا نهاية له .

— متى ابتدأت سيرة الكون الأولى .

لا بداءة لها .

— ومتى تنتهي .

لا نهاية لها . الكون كله دوران أجرام وذرات لا أول له ولا آخر ، لا في الزمان ولا في المكان .

— وما الغرض من كل هذه الحركات الهوجاء الصاخبة ؟ وما الغاية من هذا العقل ومن الحياة ومن دوران الأفلاك ومن هذا الوجود على الإطلاق ؟

إن كنت تستطيع أن تتصوّر أو تعلم أول هذا الفضاء المكاني وآخره وما وراءه وما قدامه ، وما وراء ورائه وما قدام قدامه — إن كنت تستطيع أن تتصوّر هذا أو تحدّه تستطيع أن تفهم أو تتصوّر ما الغاية القصوى من هذا الوجود .

ولكننا نعلم أن لكل خطوة من خطوات هذا الكون ولكل صورة من صوره غاية خاصّة به ، فهي ، وحالة الكون الأرضي كما هي اليوم ، مستجدة من خطوة سبقتها ومستمدة منها ، هي الاجتماعية الانسانية . وهذه الاجتماعية هي خطوة أولى للمدنية التي نحن فيها الآن . فلذلك يجب أن تكون لنا غاية من مدنيتنا وصورة جديدة لمدنية أخرى تنبثق منها . فما هي الخطوة التالية وما هي صورتها .

في رأي برغسن وغيره من فلاسفة هذا العصر إن كل شكل من أشكال الوجود كان مضمراً فيما سبقه . ومدنيتنا كانت مضمرة فيما سبقها من المدنيات البدائية . وتطوّرات المجتمع هي سلاسل متداخلة بعضها ببعض . أو بالأحرى هي أعواد منبثقة بعضها من بعض كأعواد القصب ، أو هي براعم نبتت بعضها من أطراف بعض ، لاحقتها كانت ضمن سابقتها ، كأنها جميعاً مطويّة الواحدة ضمن الأخرى ، وعامل التطوّر كان يفرزها .

المدنية الشرقية الحالية انبثقت من مدنيتي مصر وبابل (بغض النظر عن مدنية الشرق الأقصى . فلتلك مجرى آخر مماثل . وقد اندمج أخيراً بهذه) وكانت حبلى بمدنية الكهانة

والحكمة والفن كما نرى في آثار هياكلهما وصناعتهما . ثم تمخضت هذه بمدنية الفلسفة والعلم والحكمة التي تصوغ الأخلاق وتتطبّع الأدب النفسي . وقد نشأت في شمال أفريقيا وروما . ثم انبثقت منهما مدنية العلم والشريعة في أوروبا وفي سائر بلاد البحر الأبيض . وأخيراً انفجرت منها جميعاً مدنية العلم الطبيعي ، فانبثقت منها مدنية الاختراعات التي هي طاقة مدنيتنا الحديثة .

فترى أن مدنيــة الاختراعات كانت مطويّـة في المدنيات السابقة إذ كانت جرثومتها جنيناً في رحم المدنيات القديمة .

تُـرى كيف تكون المدنية الجديدة القادمة التي تنطوي عليها مدنيتنا الحديثة ؟

الاختراعات التي استخرجت من الطبيعة كل ما فيها من نفع وجمال وبهجة أصبحت تهدد الإنسان بويلات لم تخطر له ببال من قبل . ولكنها بالحقيقة لم تكن إلا وليـدة محاسن المدنية التي سبقتها — مدنية عهود البداوة والهمجية .

قبل أن نشأت اجتماعيـة الإنسان كانت متكونة في بطن اجتماعيــة أشباه الإنسان the apes كالشمبانزي والأوران الخ ، وكبعض أنواع الحيوانات كالنحل والنمل . وماذا كان غرض الطبيعة من اجتماعيــة أشباه الانسان ؟ كان الغرض منها التعاون للحرص على البقاء والتمتع بالجمال .

فاذاً هدف اجتماعيــة الانسان ومدنيته الحرص على بقاء الإنسان وتمتعه . وقد بلغت هذه المدنية هذا الهدف إلى أقصى مداه . فالنوع الانساني طغى على جميع أنواع المملكة الحيوانية . وليس في سائر أنواع الحيوان نوع يضاهي الإنسان بالنمو العددي والانتشار المكاني والتمتع .

ولكن وأسفاه لقد سبق ذلك التعاون للحرص على البقاء تنازع للبقاء حادٌ يفضي الى القتال . ثم انتقل هـذا التنازع الى المدنيات المتواليـة وما زال يشوه مدنية التعـاون ويثلم محاسنها

الاختراعات التي جاءت زينة المدنية الحديثة وسبب بهجتها كميراث من المدنية السابقة جاءت ومعها ويلات للانسان قد تكون سبب فناء مدنيته هذه الجميلة

جاءت مدنية الاختراع بالفقر المدقع الى جنب الغنى الفاحش . وجاءت بالقتال والحروب الى جنب أسباب السعادة والسلام . وجاءت بالدمار والخراب في صميم العمران والفلاح . فهي مدنية المتناقضات التي تفني بعضها بعضاً .

فما سبب هذا الخطأ في سير الطبيعة، وعهدنا بالطبيعة سائرة على سنة التطور التي تكفل

الرقي من أدنى الى أعلى ومن أقبح الى أجمل ! .

السبب أن مدنية العلم والفن والاختراع تركت وراءها مدنية الحكمة التي تطبّم الأدب النفسي وتطوّع الأخلاق. فهي متطرفة بالرقي المادي ومقصرة في الرقي الخلقي، ذلك لأن اللذة المادية أقرب منالاً واللذة النفسية أضيق مجالاً. وهذا أهم مظهر من مظاهر خصومة النفس والجسد.

بقي أن نسأل، ما هي الغاية القصوى من هذه المدنية التي امتازت بمتناقضاتها. وبعبارة أخرى ما هو مصيرها ؟

ليس في الامكان التنبؤ بالمصير. وإذا شئنا أن نبحث عن هيكل جنين المدنية القادمة في بواطن مدنيتنا رأينا أن هذه تنطوي على أسباب فنائها. فاذا بقي رحم العلم والفن خصيباً يلد أسباب الرقي المتناقضة، وبقي العمران يتناول منها أجنة الشهوات الجسدية مجردة عن مواليد اللذات النفسية، قربت المدنية الحالية الى عهد احتضارها. وربما كان الجنس البشري كله في دور الانقراض، اذا هرمت نفسه الأدبية وتلاشت قوته الخلقية وسادت سلطة الذرّة واستفحلت قوة الجراثيم المرضية بارادة الانسان واختياره في ميدان التنازع. فهل يمكن أن ينقرض الانسان وتبقى أنواع الحيوان الأخرى ؟

الحياة تبقى على الارض ما دامت الارض صالحة لها — والانسان لا ينقرض عن الأرض الا اذا تمخضت المدنية عن انسان آخر أو حيوان آخر أقدر منه وأصلح للاجتماع. فما انقرض الدينوسور الضخم الذي كان أقدر حيوان إلاّ لما جاء الانسان فبزّه بحيله التي خنقت تلك الضخامة أمام هذا الذكاء، كما ان الحيوانات الضارية تنقرض الآن من أمام وجه الانسان. فهل يمكن أن تتمخض مدنيتنا عن قوّة خارقة تبزّ هذا الذكاء البشري الحالي ؟

ماذا في الطبيعة من سر يفوق الذكاء البشري ويصرعه ويستعبده ويجعله خادماً له، كما ان هذا الذكاء استعبد أقوى الحيوانات وطوّعها وروّضها، بل فعل أعجب من هذا، استعبد نواميس الطبيعة وسخّرها لخدمته.

* * *

في أوائل ظهور اينشطين بنسبيته كان المغفور له الدكتور صرّوف يحدثني ذات يوم عن غرابة هذه النظرية وهو متحير في غموضها ومخالفتها للمعقول وقال: «يقال إن في العالم الآن ١٢ عالماً فقط يفهمون النسبية». فقلت «هناك أحد امرين. إما ان اينشطين وهؤلاء الاثني عشر من زملائه مخرّفون يصدقون المعجزات المستحيلة أو إن عقولهم تجاوزت عقول

البشر ، وكأنها دخلت في طور جديد يختلف عن طور العقل البشري الحالي، كما أن عقل الإنسان ارتقى إلى طور يختلف عن عقل « الاوران اوتان »

فهل يا ترى يتمخض الذكاء البشري عن ذكاء جديد يستلم زعامة المدنية القادمة ويكون في المملكة الحيوانية دورٌ جديد غير دور الإنسانية — فكيف يكون ذلك ؟

لا يخطر لنا إلا أن نسميه دور الالوهية .

لا أعتقد أن الجنس البشري تقرضه القنبلة الذرية ولا الجراثيم المرضية . فهو كما اخترع آلات الفتك والدمار يخترع الوسائل لاتقاء هذا الفتك، كما أنه يخترع الأدوية والعلاجات الطبية لاتقاء الأمراض . ومهما أباد الإنسان من أفراد جنسه يبقَ على وجه الأرض بقايا من البشر يستمرون بالمدنية . لاينقرض الإنسان إلاَّ بانقراض الحياة كلها بتاتاً عن الأرض. فما دامت الطبيعة تقدّم للحياة عناصر بقائها وما دامت الحياة تقدم للعقل عناصر بقائه، والعقل يقدم للذكاء أسباب ذكائه. فالإنسان باقٍ والتطور مستمر والاختراع مستمر.

* * *

ماذا بقي للانسان لكي يخترعه ؟ — الذين يعيشون سيرون .

وأما القول إنه بقي للإنسان أن يصعد الى القمر ويطوف بين الاجرام فلا أعتقده، لأنه لا فائدة للانسان من أن يخاطر في الصعود إلى القمر . لا أعتقد إن الإنسان يرتكب هذه الحماقة العقيمة اللهمّ إلاَّ إذا كان إنسان الغد إنسان الطور الجديد القادم يخترع الآلات التي تمكنه من هذا المستحيل او شبه المستحيل . قد يمكن الانسان الحالي ان يقذف بقذيفة تصل الى القمر ولكنه لايستطيع الصعود اليه فيها. وقد يستطيع انسان الغد ان ينجح بهذه الغزوة للقمر اذا كان قد تطوّر عقله وفاق عقلنا وأصبحنا بالنسبة اليه كأشباه الانسان بالنسبة الينا ، وإذا تطوّرت ايضاً بنيته الجسدية بحيث تحتمل الضغط ، ويتعدّل نظام التنفس والدورة الدموية الى غير ذلك .

متى يمكن ان يكون ذلك ! — بعد مليون سنة — إن شاءَ الله . ومن يعش يره . وماذا بعد ذلك !

اذاً يبقى سؤالنا الأول « ما هي الغاية القصوى » بلا جواب قاطع ، ويبقى هكذا الى ان يفنى الانسان بفناء الحياه برمتها، وبفناء الكرة الأرضية وسائر الأجرام ، وتعود الى اصلها الأول ، من الاثير والى الأثير تعود .

ن . ح

الوراثة الاجتماعية

تطغي على الوراثة الطبيعية

كنا في حفل عائلي يجمع عدداً غير قليل من كرام الناس وكرائمهم . وكان أحد أصدقائي إلى جانبي يحادثني وأنظارنا تطوف في الحضّار . فأومأت إلى فتىً جميل مترعرع يراقص فتاة حسناء وقلت لصديقي أنظر الى ذلك الفتى الذي يراقص بنت فلان .

قال : أجل .

قلت أليس هو إبن صاحبنا فلان الذي عرفتني به الآن هنا ومكث معنا برهة يحادثنا ؟

فالتفت صديقي إليّ بدهشة وقال : كيف عرفت ؟ من قال لك ؟

قلت : « من يشابه أباه فما ظلم » . بينهما شبهٌ لا يخفى . هما الآن على مقربة منا ، أجل طرفك بينهما ألا ترى تشابهاً .

فحملق فيّ وقال : نعم هو ابنه بالتبني لا بالطبيعة تبنّاه منذ ولادته عن يد طبيب مولّد في مستشفى . وأبواه مجهولان : حتى أن الطبيب لا يعرف الوالدة ولا اسمها ولا بنت من هي وبعد أن مضت أمه أيام نفاسها القليلة لم يعد يراها ولا عرف عنها شيئاً لأنها هربت من فضيحة ، وتركته أن يتصرف بالطفل كما تلهمه إنسانيته . وكان الطبيب يعرف أن صاحبنا هذا يتوق إلى تبني ولد لأن زوجته كانت عاقراً ، فعرض عليه الطفل فتبنّاه شاكراً. وأظن أن الولد لا يعرف حتى الآن أنه ابنه بالتبني، ولا أن أبويه مجهولان إلاّ إذا كان أحد الفضوليين قد همس ذلك في أذنه . وقد لا يصدق الفتى هذا الهمس لما يراه من حب صاحبنا له ، فهل ترى حقيقياً أن بينهما تشابهاً .

فقلت كذا أرى ، وإن كنت أنت لا ترى فلأنك عارف أن الفتى ليس إبنه من صلبه فلا يتراءى لك الشبه كما يتراءى لي . ألا يمكن أن أم الفتى كانت خليلة سرية لصاحبنا ؟

قال : كلاّ البتة . لأن صاحبنا هذا صديقي الحميم منذ عهد الشباب وأعرف عنه أشياء كثيرة . فلو كانت له خليلة لعرفت . فهل أنت راءٍ تشابهاً قوياً بين صاحبنا والغلام .

قلت . نعم وإلاّ لما لفتُّ نظرك للأمر . وأما أنت فلا ترى التشابه لأنك مع عادي

الزمان ألفت رؤية الاثنين وفي مخيلتك تفاصيل ملامح كل منهما أي جزئياتها وهذه لا تتشابه إلاّ بعض التشابه، ولكن كليات الملامح متشابهة وهي التي دلتني على النسبة بينهما لأن عهدي بهما الليلة فقط . فلا ينطبع في مخيلتي إلاّ كليات الملامح . فأراها متشابهة لأني متأكد أنهما لا يشتركان بالدم .

فأنعم صديقي النظر في الفتى وفي أبيه ثم قال : لعلك مصيب بعض الاصابة فيما ترى . انه لأمر عجيب .

قلت لا تعجب ولا تستغرب الأمر ، لأن الوراثة الاجتماعية تطغى على الوراثة الطبيعية (البيولوجية) ولا سيما إذا كان الطفل منذ بدء حياته ينمو في حجر زوجين سواء كان ابنهما من لحمهما ودمهما، أو لم يكن لأن للعشرة تأثيراً كبيراً في ملامح الأشخاص كما أن لها تأثيراً على الأخلاق بفعل التقليد والمحاكاة . والعشرة هي إداة الوراثة الاجتماعية .

قال : ماذا تعني بالوراثة الاجتماعية . وما هو الفرق بينها وبين الوراثة الطبيعية . نحن نعرف أن الولد الأبيض يأتي من والدين أبيضين ، وإن الأسودين لايلدان إلاّ طفلاً أسود، وحبة الحنطة لا تنتج إلاّ سنبلة قمح ، والكلبة لاتلد سنوراً ، كذا نفهم الوراثة الطبيعية. فما هي الوراثة الاجتماعية ؟ وكيف تطغى هذه على تلك ؟

قلت : سؤالان وجيهان ، ولا سيما الثاني منهما . فاعلم يا صاحبي إن التقليد أو المحاكاة غريزة في الأحياء من أدناها إلى الانسان أعلاها . تراها في القرود مثلاً ، فالقرد الصغير يقلد أو يحاكي أمه أو سائر القرود في كل حركاتها، بل يقلد البشر أحياناً، وكذلك الحيوانات العليا وأشباه الانسان كالأوران أوطان والشمبانزي والغورلا ، حتى الطيور تقلد صغارها كبارها وتحاكي بعضها بعضاً ، ولولا خلة التقليد هذه لما استطاع حيوان أن يعيش . فاذا لم يرَ العجل أمه ترعى العشب في الحقل فلا يعرف أن يرعى ولا يعيش، واذا لم يرَ العصفور أمه تنقد الحب فلا ينقده ولا يعيش . وكذلك الطفل البشري منذ يعي للدنيا يجعل يقلد أمه ثم أبويه معاً في كل ما يفعلانه منذ الحداثة إلى الرجولة .

قال : حقاً هذا ما نلاحظه . ولكني أستغرب سبب هذا التقليد أو هذه المحاكاة .

قلت : ان الحركة سنة من سنن الحياة بل هي أهمها . والحركة في الأحياء ولاسيما العلياء وفي الانسان وأشباهه تتوقف على تحرك العضلات بإيعاز الأعصاب . وما دامت عضلات الصغار مماثلة لعضلات الكبار تمام المماثلة فحركات أعضاء الصغار لا يمكن أن تكون إلاّ مماثلة لحركات أعضاء الكبار . وإذا كانت الطاقة البدنية في كل حي لا بدّ أن تصرف في سبيل نفع الحي فلا بدّ ان تجري على أيدي العضلات التي تحرك الأعضاء . فالفرخ الذى لا بدّ له

ان يصرّف طاقته في تناول الغذاء لا يجد منفذاً لهذه الطاقة إلاّ في منقاره قبل كل شيء. وإذ يرى أمه تنقر الحب يرى أن منقاره يطاوعه في محاكاة أمه في نقر الحب ولا يجد صعوبة للفوز بمحاكاة أمه. ولكنه لا يرى منقاره يطاوعه في التهام الطعام إذا رأى هرّةً أو كلبةً تلتهم الطعام،لأن عضلات منقاره لا تطاوعه على الالتهام، فعضلات منقاره تطاوعه في تقليد أمه ولا تطاوعه في تقليد الهرّة أو الكلبة.

فالتقليد أو المحاكاة تتوقف على عضلات الأعضاء القائمة بعملية المحاكاة.

وهكذا الطفل البشري منذ يشرع يعي ويفهم يشرع يقلد أمه في حركاتها، ثم يشرع يقلد أباه وأخاه في حركاتهما أيضاً، لأن عضلات يديه ورجليه ووجهه وعنقه وكتفيه الخ من طراز عضلاتهم. فاذا تحرّك عضو فيه تحرك بحكم طبيعة تكوينه كحركاتهم تماماً،فيمشي كما يمشون ويحرّك ساعديه كما يحرّكون، وهكذا دواليك.

أما وقد علمت سر خلة المحاكاة في الحيوانات ولاسيما العليا صار في وسعك أن توافقني على أن الطفل أو الغلام أو الفتى يكتسب ملامح من ربياه سواء كان ابنهما الطبيعي أو بالتبني، لأنه يقلدهما في جميع حركاتهما. وأول ما يقلده فيهما هو النطق، فمنذ السنة الثانية يبتدىء يلفظ الكلمات التي يسمعها منهما وهما يكرران نطقها لكي يقلدها فيحسنه. فان كان عربيًّا نطق الأحرف التي يتعذر على بعض الأجانب نطقها كالحاء والخاء والعين والغين. لأن عضلات فكيه وحلقه وحنجرته تتكيف حسب نطق هذه الأحرف. ثم انها تتكيف لنطق ألفاظ اللغة جميعاً ولا يلبث أن يملك معظم كلمات اللغة فيتكلمها بلهجة والديه أو من يحتضنه ويربيه.

ولما كانت عضلات الفكين والحنجرة متصلة بعضلات الذقن والخدين والعنق الخ فلا بدّ أن تتكيف السحنة بتكيف هذه العضلات. ولما كان لكل إنسان لهجة خاصة في النطق ونبرات الصوت ونغماته لم يكن بد من تأثير هذه في العضلات، وبالتالي في سحنة الوجه وقسماته الخ. فلا تستغرب اذاً اذا شابه الغلام حاضنيه في قسماتهما وسيمائهما. ولو ظهر الآن والدا هذا الطفل الطبيعي لما رأيت ملامحه تشابه ملامحهما أكثر مما تشابه ملامح صاحبنا هذا وزوجته.

ولو جئنا بطفل أجنبي قل — صينيًّا مثلاً — وربيناه بيننا الى أن صار غلاماً ثم شابًّا لرأيناه يختلف سحنة عن بني قومه ولو بعض الاختلاف، ولرأيت فيه كثيراً من ملامح القوم الذين ربي بينهم. ولا ريب أنه يتكلم لغتهم بنبراتها ولهجتها ويلفظ الأحرف التي تختص اللغة بها.

ثم هناك حركات عضلية غير حركات نطق الحروف . هناك الضحك والبكاء والصخب والغضب والمصارعة . ولكل هذه تأثير في ملامح الوجه . ولا يخفى عليك أن ضحكات الناس تختلف باختلاف الوجوه . يكاد يكون لكل شخص ضحكة ، كما أن لكل شخص بصمة أصبع . وكذلك لكل شخص نغمة في الكلام، حتى انك اذا سمعت شخصاً يتكلم وأنت لا تراه عرفت من هو إذا كان من معارفك وتعوَّدت أن تسمعه.

ولا ريب أن الانسان يكتسب شكل الضحكة ونغمة الكلام ممن ربوه .

وهناك حركات للمشي تقتبس من حركات مشي المربين . لاحظ فتانا هذا انه يمشي مشية الخيزلى فيتمايل قليلاً ، ثم لاحظ مشية أبيه أيضاً، تر أن تلك نسخة ثانية من هذه . ولاحظ أيضاً أن كتفيه ترتفعان ككتفي ابيه لأنه يقلد أباه في المشي وفي حركة الذراعين والكتفين والوركين ، فصارت هذه خلقة فيه .

واذا جئت تدرس جميع حركاته الدقيقة وحركات أبيه رأيت كل حركة له نسخة من مقابلها من حركات أبيه

لذلك ترى يا صاحبي ان جميع عاداتنا وأزيائنا ولغتنا وعقائدنا إنما هي صنيعة الوراثة الاجتماعية التي نتوارثها بحكم التقليد والمحاكاة . ثم سألت صديقي .

يا ترى هل عقيلة صاحبنا موجودة في هذا الحفل .

قال : رحمها الله ماتت منذ عشر سنوات وكانت عاقراً فاضطرَّ صاحبنا أن يتبنى هذا الفتى في حياتها ، ولم يشأ أن يتزوج أخرى لأنه يخشى أن تجافي الزوجة الثانية الفتى لأنها ليست والدته ، وهو يحبه حباً جماً .

فقلت — أرأيت كيف تؤثر العشرة في الأخلاق حتى في القلب ، والعاطفة . ولو رزق صاحبنا ولداً من زوجته لما أحبه أكثر من حبه لهذا الفتى .

لو كانت زوجته في قيد الحياة الآن لكنت ترى بين الزوجين تشابهاً أيضاً في السحنة والقسمات فضلاً عن سائر الحركات البدنية، لأن عشرة عشرين سنة تطبع الزوجين في طابع واحد للاسباب التي قدمتها لك . يمكنك أن تنعم النظر في ملامح أي زوجين قديمين في الزوجية من بين الآخرين هنا الآن فترى ما يؤكد لك هذا الأمر .

ترى ذلك جيداً في الأخوة الذين يعيشون في بيت واحد، ويندر أن تجد أحداً منهم يختلف عن اخوته في السحنة والحركات

قال هذا طبيعي لأنهم بنو أبوين انفسهما .

قلت : ليس كل تشابه راجعاً الى الوراثة الطبيعية البيولوجية وانما بعضه عائد الى

العشرة . لو كان أحد البنين قد فارق اخوته منذ طفولته زمناً طويلاً ثم عاد اليهم لرأيته يختلف عنهم اختلافاً ظاهراً في سيمائه وحركاته ونبرات صوته ولهجته .

ومجمل ما أريد أن أقوله ان ملامح الانسان جميعاً حتى حركات أعضائه نتيجة حركات عضلاته — عضلات وجهه وفمه وحنجرته وعنقه وحركات يديه وساقيه وقدميه الخ — . وهذه نتيجة محاكاة الانسان في جميع حركاته لحركات ذويه الذين يعاشرهم مدة طويلة وعلى الأخص والديه .

فالوراثة الاجتماعية تشاطر الوراثة الطبيعية في تكوين ظواهر الفرد من سيماء وملامح والخ ولكنها تستقل عنها في تكوين حياة القوم الاجتماعية . وهي سر اختصاص كل قوم بلغته وعقائده وعاداته وأزيائه وبها يختلف قوم عن قوم وشعب عن شعب وأمة عن أمة كما هو معلوم .

فترى أن لقوة التقليد أو المحاكاة تأثيراً عظيماً في شخصية الفرد كما في شخصية الجماعة وهي سر القدوة . والقدوة هي العامل الأقوى في التربية الأخلاقية . ولذلك يجب أن ينتبه الوالدان لسلوكهما أمام أولادهما

ن . ح

بعض مفاخر الاميركان

المغفور له حافظ ابرهيم

أي رجال الدنيا الجديدة مهلاً ... قد شأوتم بالمعجزات الرجالا
وفهمتم معنى الحيـاة فأرصد ... تم عليهـا لكل نقص كمالا
وحرصتم على العـقول لخرّمـ ... ـتم عصيراً يراه قوم حلالا
وقدرتم دقيقـة العمر حرصاً ... وسواكم لا يقدّر الأجيالا
كم أحالوا على غـدٍ كل امرٍ ... والمحيل الأمور يبغي المحالا
قد تحديتمُ المنيـة حتى ... همَّ أن يغلب البقاء الزوالا
وطويتم فراسخ الأرض طيّـاً ... ومشيتم على الهواء اختيالا
ثمَّ سخرتم الرياح فستم ... حيث شئتم جنوبها والشمالا
تسرجون الهواء إن رمتم السـير وفي الأرض من يشدُّ الرحالا
وتخذتم موج الأثير بريداً ... حين خلتم أن البروق كسالى
ثمَّ حاولتم الكلام مع النجم ... فهدتم الشـعاع مقـالا
وأقمتم في كل أرض صروحاً ... تنطح السحب شامخات طوالا

الضمان الجماعي

كيف ينفّذ

الضمان الجماعي (بفتح الجيم نسبة الى الجماعة) أهم مشروع قررته الجامعة العربية في تاريخ حياتها . وقد تواتر الى الآذان والأذهان انه لولا إصرار جلالة الملك فاروق والحاحه ما اتفق أعضاء الجامعة عليه وقرروه بالاجماع . كما أن الجامعة نفسها لم تنشأ لولا مساعي جلالته، فجلالته هو طاقة (قوة) الجامعة أولاً وآخراً.

ولا نرى مبرراً لتردّد أي واحد من الوفود في الموافقة على المشروع لأنه من مصلحة كل دولة عربية ، إلاّ إذا كان لأحد مصلحة شخصية في رفضه .

واني لأعلم أن لبعض الزعماء أو أكابر الساسة مصالح في خنق هذا المشروع في مهده. واذا لم يكن ثمت ريب في ضرورة المشروع لسلامة الأمم العربية ، فأي سعي ضده يعد جناية عظمى .

وبكل أسف ان بين زعماء العرب وكبرائهم خونة لا يتورعون أن يأتوا بالأذى للعرب

وإذا كانت معظم دول أوربا قد ألفت فيما بينها ضماناً جماعيًّا كهذا وانتخبت احدى عشر دولة برلماناً أوربيًّا لكي يضمن سلامتها ، فالدول العربية السبع أحرى من دول أوربا بأن تؤلف برلماناً يحرص على سلامتها . لأنها جميعاً لا تساوي دولة أوربية في الاستعداد للدفاع عن النفس . والعرب الآن في أشد الحاجة الى التعاون في الدفاع عن أنفسها، ولاسيما في هذا الزمن الذي يضطرب العالم فيه أي اضطراب لأن سلامه مهدد بحرب شعواء قد يكون فيها للعالم الفناء ، فالأمم العربية مهددة من الخارج بهذا الخطر العام الهائل ، ومن الداخل مهددة بالصهيونية الواقفة بالمرصاد متحينة الفرص للهجوم على البلاد العربية والتوسع على حسابها . وكفى هذا خطراً على العرب وهو خطر على الأبواب يستوجب تنفيذ مشروع الضمان الجماعي بأسرع ما يستطاع .

وقد علمنا ان الجامعة انتخبت لجنة للبحث في تنفيذ المشروع ، وصار الأمر معلقاً بعاتق هذه اللجنة التي أصبحت مسؤولة عن أي ضرر ينجم عن اهمالها . ونظنها الآن في حاجة الى آراء المفكرين في كيفية التنفيذ . ولذلك أرى الفرصة مناسبة عندي للادلاء بآرائي، لأني منذ ظهرت الخيبة علينا في حرب اسرائيل شرعت أكتب في هذا الموضوع فكتبت في الجرائد المختلفة نحو ٩ مقالات فيه . ولدولة فارس بك الخوري عميد سوريا صرخات فيه عن يد بعض مراسلي الصحف .

* * *

المشروع أعظم وأضخم مما يتراءى للجماعة . فهو يشبه من نواح مختلفة الاتحاد الفدرالي على طراز اتحاد اميركا وسويسرا وغيرها . وإذا لم يكن من هذا الطراز فلا خير فيه .

يجب أن تؤلف من الأمم العربية هيئة عمومية تسمى « هيئة العروبة العليا » ولا بأس أن تسمى « البرلمان العربي العام » .

لا تعين الحكومات المندوبين لهذه الهيئة بل يجب أن ينتخب كل شعب من الشعوب العربية مندوبيه بنسبة تعداد نفوسه من كل مليون نسمة مندوب أو مندوبان . فتكون الهيئة مؤلفة من نحو ٣٥ مندوباً أو مضاعف هذا العدد .

والقصد من أن الشعب ينتخب ،لا أن الحكومة، تعين ان تكون هذه الهيئة أو هذا البرلمان مستقلا تمام الاستقلال عن الحكومات ولا تكون للحكومات سلطة عليه ولكن اذا كانت كل حكومة تعين مندوبها فيأتي المندوب الى البرلمان وهو يحمل مطالب دولته الخاصة ويغلب أن يوجه سعيه الى منافعه الشخصية . وفي هذه الحالة لا يكون ممثلا الأمة العربية برمتها ولا يكترث دائماً بما يقتضيه الضمان الجماعي من التعاون والتعاضد والتناصر، على أن الهيئة العربية العليا يجب ألاّ تفكر إلاّ بمصلحة الجماعة والدفاع عنها . وإذا كان كل مندوب خاضعاً لسلطان حكومته لا يبقى للهيئة استقلال ولا حرية . وفي هذه الحالة تتقلقل الهيئة ولا تستطيع أن تفعل أمراً اجمالياً نافعاً للجماعة

وإذا كانت الحكومات مخلصة لهذا الضمان الجماعي تسمح بعملية انتخاب الشعب للبرلمان العربي تحت إشراف لجنة تعينها الحكومة لأول مرة ، وبعد ذلك يعينها البرلمان نفسه . ويعطى فيها للمتعلمين فقط حق الانتخاب، وللمثقفين ثقافة عالية أن يرشحوا أنفسهم ولا يعطى حق الترشيح لأصحاب الأملاك أو الأغنياء ذوي النفوذ . وإنما يجوز ترشيح الأشخاص الذين عركوا السياسة من أي طبقة .

متى تكوّن هذا البرلمان من الفئات التي أشرت اليها وكان أعضاؤه يعتقدون أنه برلمان لاسلطان لحكومة عليه، وشعر أنه صاحب الحرية المطلقة، وإن أزمّة مصالح البلاد رت في يده، وإنه مسؤول عنها انتخب هيئة أركان حرب عليا مختلطة حسبما يتراءى له، من نظر الى الهيئات العربية المتحالفة ثم يعين قائداً أعلى للجيش.

ومتى تمّ ذلك شرعت أركان الحرب تجنّد من كل أمة عربية عدداً من الجنود بنسبة رادها. فاذا جنّدت خمسة بالمئة من كل أمة أمكنها أن تجند نحو مليون ونصف جندي ا هو بالقدر الكثير بالنسبة لسائر الدول. وإذا كانت تركيا مجندة نحو مليون جندي تعجز الأمم العربية أن تقدم للدفاع هذا المليون، وهي أكثر من ضعفي تركيا نفوساً. ذلك لا نطلب منها في أول الأمر أن تجند أكثر من ربع مليون، على نية أنها في حوال الحرجة تجند أكثر جداً، حتى المليونين أو أكثر.

* * *

هذا الجيش العظيم يكون تحت سلطة أركان الحرب المطلقة. وليس لأية حكومة عربية سلطة عليه البتة. ولهيئة الأركان أن تضعه حيثما تشاء وتحركه كيفما تشاء أو أن تحرك بداته حسب مقتضى الحال. وحينئذٍ لا يبقى لزوم للجيوش المحلية إلاّ بقدر حاجة البلاد الأمن المحلي.

وهو معلوم أن البرلمان وعليه هذه المهام الجسيمة يحتاج إلى نفقات باهظة. وبالطبع فانه يجبى من جميع الدول العربية بنسبة تعداد نفوسها. فلا يتعذر عليه أن يجبي لأول نة نحو ٤٠ مليون جنيه. أو أقل أو أكثر حسب الاقتضاء. وإذا كانت تركيا تنفق على يون جندي، وهي لا تعد أكثر من ١٤ مليون نفس، فالأمم العربية لا تعجز عن الانفاق ربع المليون. وإذا كانت انكلترا وهي لا تعد أكثر من الأمم العربية كثيراً تنفق على اع مليوني جنيه كل يوم في حالة السلم الآن، فلا يتعذر على العرب أن يدفعوا للدفاع عن سهم هذا المبلغ في الشهر لا في اليوم.

وما دامت البلاد العربية كلها مهددة بخطر عاجل فيجب عليها أن تسخو للدفاع عن بها. وهو لا يكلف الفرد الواحد أكثر من جنيه واحد في العام.

فإذ تنظم البرلمان العربي الأعلى على هذا النحو لا تعود اسرائيل الملفقة الطاغية المعتدية ر أن تقحم خطوة واحدة الى حدود أي دولة عربية بل يمكن أن تنحصر ضمن حدودها

وتتكمش دائرتها حتى تختنق فيها . وإذا أطبقت عليها الجيوش العربية من كل ناحية قضت عليها في هجمة واحدة .

ومهما استعدَّ بنو اسرائيل للقاء العرب فلا يستطيعون أن يجندوا العدد الذي يجنده العرب، ولا يجدون في جنديتهم الحماسة التي عند العرب ولا الشجاعة التي للعرب كما هو معلوم، حتى ولو اجتمع كل بني اسرائيل الذين في العالم في فلسطين وهم على قولهم لا يزيدون على ١٥ مليوناً في كل العالم .

* * *

بقي أن دولة اسرائيل تقول إنها تبز العرب في اقتناء السلاح . والسلاح في هذا العصر هو القوة الأولى للحرب . والبرلمان العربي يفهم هذا جيداً ، فلا يغفل عن اقتناء معامل للسلاح ينصبها في كل بلد ويشغلها بكل همة واجتهاد، فيمون الجيش بالسلاح من مدافع ثقيلة وخفيفة وقنابل متنوعة وطائرات من كل طراز ودبابات من كل نوع أيضاً وعربات مختلفة بحسب مقتضى الحال .

وأظن هذه المعامل تستطيع في سنة واحدة أن تمون الجيش تموينا كافياً لسحق العدو في أول جولة حربية .

إذا لم يُنفذ العرب الضمان الجماعي على هذا النحو عاجلاً فالصهيونيون لا يمهلونهم إلى أن يستعدوا .

بقي أمر آخر على الضمان الجماعي أن يفعله وهو تنظيم المقاطعة اليهودية بحيث يتعذر على اليهود أن يعيشوا في وسط عالم عربي يحيط بهم من كل جنب . وإذا نظمها البرلمان العربي أمكنه أن ينفذها بما له من قوة عسكرية وسلاح، وله أن يسن قانوناً للمقاطعة صارماً بحيث أن الاخلال بهذا القانون يستوجب العقوبات الصارمة .

يكون البرلمان العربي الأعلى في أول الأمر حربياً فقط لأجل الدفاع عن كل دولة أجنبية تغزو دولة عربية . فاذا نجح أمكن حينئذ أن تنفذه الدول العربية كلها أو تجعله اتحاداً فدرالياً تاماً كالاتحاد الاميركي وأمثاله وحينئذ تتكون الامبراطورية العربية التي هي حلم كل عربي . وهذا الاتحاد الفدرالي لا ينقض أنواع الحكم التي لكل دولة وحدها كحكومات ذاتية مستقلة بعضها عن بعض مَن ملكية أو جمهورية

الشاعر السامي



رثاء الشاعر المطبوع الدكتور احمد زكي ابو شادي لامام المجددين خليل مطران بك ألقيت في حفلة تأبينه بنيويورك يوم ١٠ أغسطس ١٩٤٩

إلهةَ الشعر ! عادَ الشاعرُ السامي ... إلى عوالمَ لم تُحْصَرْ بأجرامِ
إلى عوالمَ غنّاها وأسكرَها ... كأنّ أضواءَها أصداءُ أنغامِ
إلى نُهًى لم تُكيَّفْ في منازِلها ... ولم تُحدَّدْ بأنفاسٍ وأجسامِ
إلى مَنابعَ للإلهامِ صافية ... فاضتْ على الشمسِ والدنيا بأقسامِ
الأنبياء الى عَليائها انتسبوا ... والشاعريةُ في وحْيٍ وإلهامِ
الى مَناركِ ، فاستعلتْ كواكبُه ... ونحن في وَهْدَةٍ هانتْ وإظلامِ
تَدورُ لا مُلْجِمٌ يُمْلي مساربها ... ونحن ما بين إسراجٍ وإلجامِ
وتبعثُ الشعْرَ في خَفْقِ أشعتُها ... جَمَّ الفصاحةِ إنْ يُوصفْ بإبهامِ !

***

إلهةَ الشعر !... عاد الشاعرالسامي ... إلى عوالمَ لم تُحصَرْ بأجْرَامِ

لم ينزعْ الموتُ إكليلاً خصصْتَ به ذاكَ الجبينَ ، ولم يَظفرْ بإغنامِ
وإنْ يكنْ قد أثار الهولَ في مُهجٍ وبَعثَرَ الزَّهرَ مِنْ باكٍ ومِنْ دامِ
أُسْري به في بُرُوجٍ لا كواكبُنا تدري مَداها، ولا أربابُ أحْلامِ
وخلَّفَ الفنَّ مكبوتاً على وجلٍ ألمْ يُرزأْ بفقد الكوكب (الرامي) ؟
طارَ النَّعِيُّ ، وبئسَ الطيرُ روَّعنا وهو الجريحُ بأحزاني وآلامي
ألقى علينا الأسى ثُكلاً ومسْغبةً مُبَدِّداً ذُخْرَ آمالي وأحلامي
زادَ الهجيرَ لهيباً فرْطُ حُرْقَتِنا أليس حُرْقَتُنا أنفاسَ أيتامِ ؟
كأنما لم يَمُتْ قبلاً بعلَّتِهِ الفاتحون لدولاتٍ وأفهامِ
كأنما عيشُه حامٍ لفِكْرَتِهمْ والفكرُ ليس له كالفكرِ مِنْ حامِ
ما أفدحَ الخطْبَ للعانينَ، ما نعموا فكلُّ جُرْحٍ جديدٍ غيرُ مُلْتامِ
وما أشقَّ المآسي للشعوب متى تُسدُّ وولَّتْ بين إحياءٍ وإعدامِ !

***

هلْ يعلمِ الناسُ أيَّ الناسِ قد فقدُوا أم لا يزالون في نَوْمٍ وأوْهامِ ؟
وهل بكت (بردى) والنيلُ واضطربا (كالأرْزِ) من نوْحِ أعلامٍ وأعلامِ ؟
أصالةٌ من جلالٍ ليس يرفعُه عالٍ من المدْحِ أو دانٍ من الهامِ
مَنْ سايرَ النهضةَ الكبرى وهذَّبها بالفنِّ والرأي أعواماً بأعوامِ ؟
وما تردَّدَ في تكييف مَبْدئهِ ولا تذَبْذَبَ في نقْضٍ وإبرامِ
ولا تلَعْثم يوماً في رسالتهِ ولا تعثَّر في تحطيمِ أصنامِ

كأنما رُشدُهُ الصَّمْصامُ في فَرَقٍ ... وشِعْرُهُ بُرْءُ فأفاهٍ وتَمْتامِ
أجْزتْ شجاعتهُ الأحرارَ عن خدعٍ ... في عالمٍ زاخرٍ باللُّؤمِ لوّامِ
وفاضَ شُؤْبُوبُه رِيّاً لمن عشقوا ... أنفاسَ (طيبةَ) أو ألحاظَ آرامِ
وأشرفتْ (بعلبكٌ) من خرائبها ... عرائسَ المجدِ في (لُبنانَ) و(الشامِ)
ألبستها حُللاً ما نالَ مُشْرِقُها ... أعراسُ (كسرى) ولا أفراحُ (بهرامِ)
ما (البحتريُّ) من الإيوان موقفُه ... وأنتَ في (بعلبكٌ) العابدُ السامي ؟
مَنازلٌ لك لم يَنزلْ بساحتها ... إلاّ النبوغُ ، فما هانتْ لأقوامِ
شعرٌ تَسُرُّ به الأرواحُ صافيةً ... وتستقلُّ به ، لا نظمُ نظّامِ
وشاعرٌ لم يمهّدْ قبله بهدًى ... مثل (المسيح) أتى من بعدِ إظلامِ
جمُّ المروءةِ ، وافي الخُلقِ ، ذمّته ... ليستْ مطيةَ أحبابٍ وأخصامِ
يغدو اليه ذوو الحاجاتِ في لهفٍ ... ويَنثنون وكلٌّ جدُّ مبسامِ
وما تعاظمَ يوماً في تفوّقه ... بل في تواضعهِ آياتُ إعظامِ
كانت زعامته رُكناً يلاذُ به ... دونَ ادّعاء لأحزابٍ وأحزامِ
كالنّورِ ليس لأرضٍ أن تخصّ به ... ولن يُقاسَ بأبعادٍ وأرقامِ !
قد ضنّ بالفنّ إلاّ للبصير به ... كالكنز خبئَ في حرزٍ بأختامِ
وصان تفكيره عن عرضٍ مبتذَلٍ ... كأنما هو حصنٌ بين آطامِ
والفكرُ كالدِّينِ حيٌّ في قداسته ... ملءُ العصور بآياتٍ وآرامِ[1]
لا كالخرائبِ والأطلالِ يسكنها ... شبحُ الفناء وتستخذي لأبوامِ

(١) الآرام : النصب التي يستهدى بها

ما عززتْ أمةٌ أودتْ بعزّته ولا اغتدتْ دونه في عدِّ آنامِ
إذا تهاونَ شعبٌ في كرامته عزَّ الأديم عليه عند أدّامِ
وإنْ أسيءَ الى الآسي يعالجهُ لم يرأمْ الجرحُ أو ينقذ بإِرآمِ (١)
ما حاربتْ أمة أخيارها ونجت أو أودعتْ أمرها أوهامَ رجّامِ
هذا هو الخالدُ الموهوبُ أرفعه عن أن يشيرَ اليه أيُّ إبهامِ !

***

قنعتُ بالحظ في النجوى ، ومرتقبي نُعمَى حنانكَ في عودي وإكرامي
يا من أباح له قلبي فهذَّبني طفلاً وكهلاً ، وأحيا كلَّ أيامي
يا مَنْ سكنتُ اليهِ العمرَ ملتجئاً ضافي العزاء ، فلم أعبأ بأخصامي
صحبته في خيالاتي ، وفي مُثُلي وفي حياتي ، وفي سعيي وإقدامي
ولم يزلْ .. ما لهذا الموت يعصف بي كما يبعثرُ تأويلي وأحكامي ؟
وما لبرهةِ عامٍ كنتُ أرقبها حالتْ أبوداً وردَّتني لإحرامي ؟
أولى به ساعةً تنكيس أرؤسنا حزناً عليه ، وتنكيسٌ لأعلامِ
لا أن تخفِّضَ للطاغوتِ صاغرةً أو أن تطأطئ في بؤسٍ وإعدامِ
لئن تجردَ عن ألقابِ مملكةٍ زانتْ جباناً وما كانت لمقدامِ
فالذئب يمرح في ثوبٍ لسيّده وما يُبدّل غُنماً ثوبُ ضرغامِ !

***

(١) الإرآم : معالجة الجرح .

لم يبقَ لي من عزاء غيرُ ما وهبتْ … يمناكَ للخلدِ من آياتِ رسّامِ

ومنْ مزاميرَ جلّتْ في توسّلها … وفي تسلسُلها عن أيّ إدغامِ

ومنْ تسابيحَ مطرانٍ أردّدُها … كأنما هي من أركان إسلامي

ومن أغاريدَ للعشّاقِ أرشفُها … راحَ الشبابِ فأنسى جدبَ أيامي

ما الراحُ في الخلدِ موعوداً بها أدبي … أرضى بجاماتها عن هذه الجامِ

ومن أهازيجَ في معنىً وفي صوَرٍ … هي (الطبيعة) في روحي وإلهامي

ومن عظاتٍ وأمثالٍ وفلسفةٍ … جاءتْ أناجيلَ فوق المدح والذامِ

ومنْ تهاويلَ للتاريخ تسردها … فنلمحُ الدّهر أحقاباً بأيامِ

ومن صنائعَ للمعروفِ سابغةٍ … ساوتْ ببرٍّ لمخدومٍ وخدّامِ

ومن أحاديثَ مجّ الشهدَ مُبدعها … وإن توارتْ بأزهارٍ وأكمامِ

تنمُّ عن عبقريٍّ الفن معجزةً … والفن كالحب يحيا جدَّ نمّامِ

ولا أنيس سوى الذكرى لصحبتنا … وكم تثورُ على يأسي وإحجامي!

***

رحلتَ في زمن عزَّ الحكيمُ به … والسائس الحرُّ، بلْهَ الشاعر السامي

عن أمة حظُّها الشكوى بلا خطرٍ … فما تثورُ على أسواطِ ظلامِ

يخشى أفاضلُها الأوغادُ إن سعلوا … ويركعون لأغرارٍ وأوغامِ

ويسخطون على مثلي ليقظتهِ … إذ يمدحون، ويبكي الشانئ الرامي!

لا يستقرّون من روعٍ ومن قلقٍ … ولا يُلبّونَ حتى عزمَ همّامِ

إذا أردنا لها استقلالها نفرتْ وما كرامةُ ذي عوزٍ لقوّامِ ؟
كأنما نسيتْ تاريخَ عزّتها ولم تُسطوّفْ بأهرامٍ وأهرامِ !
قالوا : قطيع من الأغنامِ يُشبهها ! يا ليتها كقطيع بين أغنامِ !
يصطادُ أرزاقها من لا أكيّفهمْ وتستباحُ رُكوباً عند إجرامِ
ولا يقوّمها نصحٌ ، ولا عبرٌ ولا سدادٌ ، وتهوى لهْوَ هدّامِ
كم خودعت وصروفُ الدهر ضاحكةٌ نخلّطتْ بين أحبابٍ وأخصامِ
ما بارمُ الحبلِ في أعوادِ مَشنقةٍ كرافع لبنودِ النصر برّامِ
فأثخنتها جراحاتٌ بلا عددٍ وأسلمتها لزلاّتٍ وأسقامِ
وما ينال وفيٌّ حين يُرشدُها إلاّ العقابَ وإلاّ وطءَ أقدامِ
الهزْلُ مازالَ مِنْ أسمى شعائرها والجهل معبودَها في ملكه النامي
أحرارها غرباءٌ لا تميّزُهم في حين تعنُو لأوشابٍ وأعجامِ
لم تتّعظْ وصرُوفُ الدهر تلطمُها ولم تزَلْ رهْنَ أنصابٍ وأزلامِ
وتقتُلُ الوقت إسفافاً ومَنقصةً وثأرُها عند بطريقٍ وحاخامِ
ولم أزَلْ وأنا العاني بخدمتها شبيهها في ضلالاتي وإيهامي
أحنُو عليها وإنْ جارَتْ على أدبي وعاقبتْني على برِّي وإنعامي
وطاردَتني إلى منفايَ جانيةً وعدّدَتْ صَفْوَ آثاري كآثامِ !

***

مَنْ لي بقربكَ حيّاً ذائداً ثقةً عنّي ، وحارسَ وجدانٍ وأقلامِ
يؤرّخُ الأدب العالي بسيرتهِ وباسمهِ يهتفُ الوافي بأقسامِ ؟

لبيكِ من صفوة الأحرار مَنْ عرفوا — مَنْ أنتَ واغترفوا من بحرك الطامي
ومَنْ أبَوا أن يُعدّوا في محبتهم — بين المغالين ، لو قيسوا بمستامِ
ومَنْ يُفدّون أوطاناً نفختَ بها — رُوحَ الإباء فلم تُذعنْ لهوَّامِ
إنْ كانت اليومَ نهْباً بعد تضحيةٍ — فلن تُسام دواماً سومَ أنعامِ !

* * *

عَسَى الرياضَ التي ناجيتَها شغفاً — تَبوحُ بالوحْي للسَّاعي وللظَّامي
عَسَى الرّياحَ التي شاقتك ثائرةً — تفكُّ عنّيَ أغــلالي وإرغامي
عَسَى الهديرَ على الأمواج ينفحُنا — بلحنِكَ الحُرّ لم يُقْرَنْ بإعجامِ
عسى ترانيمَ هذا الطّلّ تمنحُنا — فرائداً منكَ في شُؤبوبه الهامي
عَسَى المساءَ الذي غنّيتَه صُوراً — من الجمال يُغذّي حُلْوَ أنغامي
عَسَى الجداولَ في أبهى وداعتها — تسيلُ منك حناناً حولَ آكامِ
عسى المروج وراعي النحل يلثُمها — ترفُّ بالشهدِ عطفاً بعد إجهامِ
عسى (الطبيعة) في أسْنى مفاتنها — تجودُ لي بسناء منكَ بسّامِ !
أنّى تأمّلتُ في حُسْنٍ أهيمُ به — رأيتُ لُطفكَ في ذهني وتَهيامي
في نشقة العطر ، أو في النور مختلجاً — في ثورة البحْر ، أو في روْعِ آجامِ
وفي مَشاهِدَ لا تُحصى دقائقها — أنتَ وغنّتْ على مِزْمارِ غنّامِ
وتحت كلِّ عُشْبٍ في تصوّفهِ — كأننا أهلُ أشواقٍ وأرحامِ
أُزجي رثائي صلاةً أنت مُلهمُها — وإنْ تكنْ مِنْ حنايا قلبيَ الدامي !

احمد زكي أبو شادي

حجة فلسطين

ومن ذا الذي كتبها لليهود ؟

—٢—

والحمد لله إنهم لا ينسبون هذه الأوامر والأفعال إلى الله ، بل إلى الرب إلـه اسرائيل .
وفي كل موقعة تقول التوراة : قال الرب ليشوع (مثلاً) خذ معك رجال الحرب واصعد إلى عاي . قد دفعت إلى يدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه . فاقتلوا كل من في المدينة كل رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . وكانوا يفعلون أكثر من هذا فكانوا يعلقون الملوك ويفظعون فيهم ثم يحرقون المدينة فلا تبقى إلاّ أنقاضاً وخراباً يباباً .

فلا بدع أن يفعل الصهيونيون في هـذا الزمن في دير يسين وطبريا وغيرهما كما فعل أجـدادهم في زمن يشوع وهم يستحلون هـذا التفظع لأنه كان بأمر الرب إلـه اسرائيل . وكل ما يفعلونه من الفظائع والشرور محلل لهم ما دام بأمر الرب إلـه اسرائيل . هذه هي خطتهم من ذلك العهد إلى اليـوم وإلى الأبد وستظل الانسانية تقاسي منهم إلى أن يبيدوا عن آخرهم لأن الله (رب اسرائيل) الله رب العالمين لا يسمح بدوام الشر إلى الأبد فلا بد إن ينقذ الانسانية منهم .

ولما شاخ يشوع قال له الرب أنت قد شخت وتقدمت في الأيام وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك : كل دائرة الفاسطينيين وكل الجشوريين من الشحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون . وهنا جعل الرب يعدّ له المدن والأقوام التي يسلمها الى شعب اسرائيل ويطرد أهلها من أمامهم وهي كثيرة حتى جبل جرمون (جبل الشيخ) حتى لبنـان وحماة وأخيراً مملكة سيحون بين النهرين (العراق) . (أنظر الاصحاح الرابع عشر من سفر يشوع)
ويهود اليوم لا يقنعون بهذه بل هم تشرئب أعناقهم إلى آسيا كلهـا وأوروبا وأميركا

إلى سائر الشرق والغرب . ولـكن ستكون قبورهم في جميع ممالك الشرق والغرب إلى أن ينطفي ذكرهم . هم الآن ١٥ مليـونا (ليسوا كنجوم السماء وتراب الأرض كما وعـد ربهم ابراهيم) في وسط الني مليون. فسؤددهم على هذه الملايين حلم يفرحون به اليوم ويبكون غداً

كل هذا كتبه اليهود القدماء في أسفارهم بعد رجوعهم من سبي بابل أي بعـد نحو ستة قرون من خروجهم من مصر . ولـكن لا موسى كتب ولا يشوع دوّن . إن موسى ويشوع إذا كانا قد وُجدا هما أبرياء من أكاذيب اليهود الذين عادوا من السبي .

منذ ذلك الحين أي منذ خمسة قرون قبل المسيح صار لليهود كتاب يسمونه التوراة ، وقبل ذلك لم يكن لهم (حتى ولا لغيرهم) كتاب . وقد لفقوا فيه من المخازي ما لا يرضى عنه إلـه ولا انسان .

وأما ما في التوراة من الأسفار المقدسة حقيقـة كأمثال سليمان الحـكيم والجامعة ومزامير داود وسفر أيوب وغيرها مما يجب أن يتعظ به الناس فقد كتب أكثرها بعد ذلك الحين بزمن في مدة نحو ٤ الى ٦ قرون قبل الميلاد المسيحي . وجميع تلك القرون السابقة لم يكتب فيها شيء صالح ، على أن كتبة التوراة الأولين كانوا يلفقون حسبما تقتضي أغراضهم الشريرة من تسويغ التفظيع وتحليل السلب والنهب وانما كانوا ينسبونه إلى رب اسرائيل لكي تكون حجتهم فيه شرعية . ولـكن الله رب العالمين ليس معه خبر مما يأفكون .

وأما أخبارهم القديمة من آدم إلى يشوع إلى سائر الأنبياء الآخرين فـكانت إما ملفقة أو متناقلة من السلف الى الخلف،ولذلك هي مجموعات تدجيل وتخريف ممـا هو غير معقول مثل صيرورة امرأة لوط عمود ملح،وانشقاق بحر الأحمر ونهر الأردن وايقاف الشمس ريثما تتم المعركة الخ . . .

والأدلة على أن اليهود كتبوا تواريخهم بعـد رجوعهم من السبي كثيرة . فهم انتحلوا من أساطير البابليين والأشوريين أسطورتي الخليقة الواحدة في الاصحاح الأول من سفر التكوين وفيهـا وصف حاذق لترتيب الخليقـة يكاد يطابق بعض المطابقة اسنة التطوّر المعروفة الآن من حيث أن الحياة وجدت في الماء أولاً ، ثم تطوّرت وانتشرت على اليابسة نباتاً وحيواناً . ولعلّ الأسطورة الأخرى في الاصحاح الثاني أشورية الأصل . وترى بين

أساطير البابليين أساطير كثيرة مدمجة في أخبار الاسرائيليين الأولى .

ثم ذكروا أسطورة الطوفان وهي بلا شك أسطورة بابلية وموجودة بين أساطير البابليين لأن الطوفان لم يكن بطبيعته في فلسطين، بل هو أحرى أن يكون بين النهرين . وقد بالغوا في روايته مبالغة لا يقبلها عقل . وربما وجد المحقق كثيراً من أساطير البابليين والأشوريين في أساطير الاسرائيليين . وهو أمر طبيعي أن يقتبسوا أخبار غيرهم وأساطيرهم ويدمجوها بما لهم

وأقوى شاهد على أنهم انتحلوا من بابل تاريخها وأساطيرها ومقدساتها أنهم اقتبسوا شريعة حمورابي البابلية . لأنها مطابقة كل المطابقة لشريعة اليهود في سفر التثنية . ولا بدَّ أنهم كانت لهم شريعة خاصة قبل السبي . فلما كانوا في السبي واطلعوا على شريعة حمورابي أعجبتهم فاقتبسوها ونقحوها أو نقحوا شريعتهم بها . ولعلَّ هذا هو السبب في تسميتها تثنية الاشتراع .

بعد هذا البيان لم يبقَ شك في أن اليهود ابتدأوا يكتبون التوراة بعد ٦٨٧ سنة من خروجهم من مصر . وبعد عودتهم من السبي بمدة ٥٣٨ سنة قبل المسيح أي بعد ٦٤٧ سنة من موت موسى .

بناء عليه جميع ما كتبوه من تاريخهم وأخبارهم وأساطيرهم في مدة ٣٣٥٧ سنة أي من سنة ٤٠٠٤ قبل المسيح إلى ٦٤٧ قبله كتبوه بعد هذا التاريخ . فمن أين كانت لهم هذه المعلومات ؟ إن كانوا قد تناقلوها أبٌ عن جد ، فلا يوثق بتاتاً بصحة النقل لأنه لا يعتمد قط على خبر يتناقله أشخاص باللسان . فلا يبقى كما كان عند أول راوٍ . وليس لهم مصادر لأخبارهم غير النقل . فإذن كما جعلوا يدونون توراتهم كانوا يصنفون من عندهم ما يوافق أغراضهم ويتخذونه لهم حجةً ، ولاسيما لأنهم كانوا يزعمون ان الرب كلَّم موسى والرب قال ليشوع ولغيرهما لكي يؤيدوا صحة دعواهم . ونحن نعلم أن الله (ان كانوا يعنون بالرب الله) لا يعلِّم تعليمات باطلة أو يأمر بفظائع . فما كتبوه ليس الاَّ من اختراع هواهم .

وإذا قالوا انهم شعب الرب المختار فمن يجرأ أن ينكر عليهم هذه الدعوى اذا كان يؤمن بتوراتهم . واذا قالوا إن الله وعدهم بأرض الميعاد التي هي فلسطين فمن يجحد هبة الله إن كان يصدق التوراة بحذافيرها . ولكن اذا قالوا إن الرب أمرهم أن يذبحوا النساء والأطفال

فضلاً عن الرجال فنكذب قولهم ولا نذعن لأمر هذا الرب . إن فظائع اليهود في دير يسين وطبريا وغيرهما إنما هي اطاعة لربهم وما هو إلاَّ رب شرير .

اذن فاليهود كتبوا بأيديهم حجة فلسطين لليهود . ولا الله تعالى ولا الرب كتب ولا وهب ، إن أرض الله واسعة وهو تعالى وهبها للجنس البشري كله . وما اختص بها قوماً دون آخرين . وهب انه منحهم هذه الأرض فهي لهم ما داموا مقيمين فيها ومحافظين عليها . فهل تبقى لهم اذا تركوها ١٧ قرناً أو عشرين ومضوا يسعون وراء المال لكي يصنعوا لهم منه عجل هرون الذهبي او تمثال البعل . والمال عندهم أعز من يهوه رب الجنود .

ثم ان اله اسرائيل أي يهوه ليس اله سائر البشر ، هم سموه في توراتهم يهوه رب الجنود . اعني انه قائد عسكري أي جنراليسمو . وكان بحسب قولهم يقودهم لمحاربة الأقوام الأخرى . وكان يكلم الأنبياء . وأما اله سائر البشر فليس له لسان يتكلم كالناس وإنما كان يلهم . ولا يميز أحداً من عباده عن غيره . هو رب العالمين . ولا ينصر قوماً على قوم . ولا يحلل أموال أناس لأناس اخصاه ، ولا يجيز لبني اسرائيل أن يسرقوا حلي المصريات وأوانيهم . إن لله شريعة عامة تسري على جميع الناس ويخضع لها جميع الناس على السواء

بقيت لي كلمة عن صحة هذه التوراة التي لفقها اليهود على هواهم وأخذناها عنهم فمعظمها غير معقول . وحكاية وجود بني اسرائيل في مصر وخروجهم منها تكاد تكون كاذبة من أصلها . فلا ذكر لها في تاريخ مصر القديم على اختلاف مؤلفيه ولا أثر لها بين آثار مصر . حتى ولا ذكر لقوم يدعون اسرائيليين . ولا يمكن أن يخرج من مصر قوم أغراب فيهم ٦٠٠ الف مقاتل ، عدا ما معهم من نساء وأطفال وشيوخ حتى يبلغ عددهم نحو مليونين ونصف على الأقل (أنظر خروج ص ١٢ عدد ٣٧و٣٨) لا يمكن أن تخرج من مصر هذه الالوف ولا يحس بها أهل مصر وفرعونهم وحكامهم . ولا يمكن أن يحدث هذا الحادث ولا يذكر في كتابات مصر الهيروغليفية ، مع أن حوادث أتفه من هذا الحادث أو أسخف منه أشير لها في مذكرات الفراعنة على الجدران والمسلاَّت .

وكيف جاء الاسرائيليون الى مصر ومن أين ومتى ؟

يزعم بعضهم إنهم من نسل يوسف ، والغريب انه ليس في تاريخ مصر ذكر ليوسف ولا

لسنابله ولا لمجاعة مصر وتخزين غلالها . وكيف يكون يوسف في تلك المنزلة العظيمة عند فرعون ثم يسخر فرعون نسله هذه السخرة المضنية حتى انهم يفضلون الهجرة .

أما حكاية انهم قضوا في برية سيناء أو عند سفح الجبل نحو ٤٠ سنة الى أن رحلوا الى أرض فلسطين فليس في سيناء آثار ولا أطلال تدل على انهم كانوا هناك مدة من الزمن أو كان هناك شعب كبير كهذا ولا بد أن يكون قد تضاعف عددهم على الأقل . فكيف كانوا يعيشون والبلاد صحراء قاحلة والجبل أجرد . فهل يحتمل هذا الجبل أن يعيش فيه مليونان ونصف مليون نسمة يستغلونه ويعيشون فيه ومنه . كل هذا يدل على أن كتبة التوراة اخترعوا حكايات غريبة لكي يظهروا للناس أن يهوه رب الجنود الههم مخلص قدير وانه اختصهم دون غيرهم من الامم بميراث عظيم لا حد له .

فاليهود هم كتبوا بأيديهم حجة فلسطين لليهود ونسبوها لله والله براء من أباطيلهم هذه. ولا فرق بيني وبينهم اذا كتبت تاريخ مصر ثم ذكرت فيه ان سمو الخديوي أو جلالة الملك وهبني أو باعني سراي عابدين. وبعد الف سنة يطلع حفدائي على هذا التاريخ الذي سجلت فيه هذا البيع . ثم يدعون شرعاً بملكية عابدين قائلين إن جدنا المرحوم حداد استوهب هذه السراي او اشتراها من صاحب مصر وان عقد البيع مسجل في هذا الكتاب التاريخي المهم .

هكذا يزعم الصهيونيون ان فلسطين لهم لأن أجدادهم ادعوها وسجلوها بأيديهم في توراتهم زاعمين ان الله وهبها لهم . والله يشهد انهم يأفكون . الله لم يهب لقوم شيئاً دون قوم ، الله وهب الأرض للجنس البشري وسماها ملكوت الانسان . وأما أرض ميعاد لقوم اسرائيل فهو هبة لهم منهم انفسهم أو هو اغتصاب لملك غيرهم .

ولكن في أميركا نصارى مغفلين يقدسون التوراة ويقولون حقاً إن فلسطين لليهود . أليس في التوراة نص صريح ان الله وهبها « لليهود » . ومصيبتنا أن اليهود يستغلون اعتقاد هؤلاء النصارى المغفلين بقداسة هذه التوراة على الرغم مما فيها من قبائح وعيوب . وكأننا نحمل على عواتقنا حجة اليهود ودعواهم بملكية فلسطين ولبنان وسائر الشرق (أنظر يشوع فصل ١٣) رغم أنوفنا وإلا كفرنا اكليروسنا . وكان المسلمون أبرع منا في تطهير القرآن من ارجاس التوراة . إذ يقولون أن التوراة التي أخذناها نحن عن اليهود ليست التوراة الحقيقية . أليس عاراً أن نأخذ توراة اليهود في هذا العصر كما هي برجاساتها ؟ واليهود « يضحكون في عبهم » ويقولون فلنمتط النصارى المغفلين بهذه التوراة « المقدسة » .

ثم يتخذ النصارى من الإنجيل حجة لليهود أفظع من هذه . وهي قول المسيح أحبب قريبك كنفسك . وهم يحسبون أن اليهود أقرباؤنا . فلما صار اليهود في كارثة المانية هتلرية تهالك النصارى لانقاذهم . ولما جعلت أوربا تطرد اليهود من بلادها وصاروا مشردين ولاجئين جعل بعض أفاضل الأميركان باغراء شخص يهودي اسمه ماركانتو (وكان يوماً سفيراً في استمبول) يجمعون فلوساً لاعانتهم فجمعوا لهم ١٧٢ مليون ريال من النصارى . وأخيراً سأل النصراني الذي كان يتولى هذا الجمع : « أود ان أعلم أين تذهب هذه الفلوس » : « فقال له « ٤٢ بالمئة منها تذهب الى تل أبيب » . فصاح الرجل . ويحك أأجمع مالاً من النصارى لكي تحاربوا به عرب فلسطين ! لا . إني أنفض يدي من هذه الخدمة التي كنت أظنها انسانية فاذا بكم جعلتموها شيطانية .

صحيح ان المسيح قال أحبب قريبك كنفسك . ولكنه كان يعني الانسان الآدمي . واليهود ليسوا انسانيين .

أما موسى ان صح انه قال إن اليهود شعب الله المختار فقد أضر اليهود ضرراً بليغاً لأنهم بحسب هذا الاعتقاد حللوا لأنفسهم جميع اموال الأمم الأخرى وأملاكهم . وهم يلقبون جميع الأمم الأخرى بالجوييم أي الأنجاس ولهذا يكرهون سائر الأمم والأمم تضطر أن تكرههم . فلو عادوا الى صوابهم واعتقدوا كسائر الأمم ان الله رب العالمين لما أبغضهم الناس .

بقيت الكلمة الأخيرة التي لا بد منها :

يقدس النصارى التوراة التي أخذوها عن اليهود على اعتبار أن فيها نبوءات عن مجيء المسيح . يعني أنه لولا هذه النبوءات لما عد يسوع الناصري مسيحاً . هكذا يظن معظم النصارى . والحقيقة ان يسوع الناصري مسيح بنبوءات وبغير نبوءات . لأن حياته وتعاليمه تثبت انه مسيح مرسل من الله لانقاذ البشرية واصلاحها وقد أيد تعاليمه بدمه . فهو مسيح رغم أنف من ينكر رسالته وحياته ، وتعاليمه تشهد له .

وإني وكثيرين غيري نتأسف أن نكون مرتبطين بتوراة اليهود على ما فيها من النقائص في حين أن عقيدتنا الدينية لا تستند على التوراة ، بل على تعاليم المسيح ورسالته وتضحيته كما وردت في الأناجيل . نحن في غنى عن التوراة .

أرجو ممن لا يصدق هذا الكلام أن يطلع على الأسفار الخمسة الأولى وعلى سفر يشوع على الأقل فيرى الفظائع التي لا تليق بكتاب إلهي .

يمكن الانسان الفاضل أن ينتقي من التوراة بعض أسفارها الصالحة كسفر الجامعة وأمثال سليمان الحكيم ومزامير داود وسفر أيوب ونحوها .

نقولا الحداد

سقراط الفيلسوف

الحكمة تُصلَب

لو كنت تمشي في سنة ٣٩٩ قبل المسيح في شوارع أثينا لعثرت عند سوق الخضرة والفاكهة والبدالة على كهل في السبعين ، في أطمار غير مهندمة ، وليس في قدميه سيور حتى ولا نعال أحياناً ، وهو يتكلم تارةً بتؤدة وأخرى برقة وأخرى بحماسة ، وقد تجمع حوله عشرات من الأثينيين من كل طبقة : من الباعة والصعاليك المستجدين والمتموّلين والعمال والتجار والموظفين والأثرياء والعلماء والفلاسفة — تراهم جميعاً منصتين يستوعبون ومستمعين يتفهّمون ، وذلك الزاهد المتقشف ينثر كلم الحكمة ونظريات الفلسفة ، حتى إذا سأله سائل أو اعترضه معترض أو ناقضهُ مناقض انفجر كالسيل يتدفق بالحجج والبراهين ويتبسّط بالأقيسة المنطقية والموازين ، ولمعت الحِكَم من دماغهِ كالبرق الخاطف ، ودوّت العظاتُ من فمه كالرعد القاصف ، حتى إذا بتر خطابه سيرهُ إلى موقف آخر انفضّ عنه بعض سامعيه مدهوشين ، وتبعه بعضهم مسحورين ، كأنّ مغنطيساً يجتذبهم إليه أو كهرباء تهزهم من حوله .

ذلك هو سقراط الفيلسوف أستاذ أفلاطون ، الذي هو أستاذ أرسطو .

وما زال ذلك الحكيم يتمشى في الشارع ، وهو ينثر هنا كلمة كأنها تعويذة ، وهنا جملة كأنها شعر ، والمسحورون يحفون من حوله ، إلى أن رأوا أنفسهم أمام هيكل مجمع الآلهة « بنثيون » . فدخله ودخل وراءه تلاميذه .

وإذا الكاهنة الموكلة بترجمة حديث الآلهة تتصدّر وتتصدّى كأنها ترحّب بالداخلين وإذا سقراط يرى نفسه أمام تمثال زفس ، إلــه السموات والأرضين . فحدّق فيه ثمّ حملق ثم قال : هل لك أيها الإلــه أن تُنقص السماء نجماً أو تزيدها شمساً ؟ .

فانبرت الكاهنة قائلة : إذا كنت لا ترى ما يزيدهُ الإلــه زفس أو يُنقصه كل دقيقة بعد أخرى فالذنب ذنبك . لماذا تغمض عينيك أمام سطوع نوره الباهر ؟ أو أنت أعمى البصيرة ؟

فضحك سقراط ساخراً وقال : أجل ! يضع زفس شمساً من يمناه في الصباح ، ويأخذ كوكباً بيسراه في المساء ، فيبقى عدد النيرات في السموات كما نراه !

ثم انتقل إلى أمام وثن آخر وتأمله وقرأ في سيمائه أنه بوسيدون إله البحر (نبتون عند الرومان) ، وقال : هل تستطيع أيها الإله أن تهدئ اضطراب البحر يوماً واحداً ؟

فقالت الكاهنة : إن الإله بوسيدون لا ينام أيها الحكيم !

فقال : أفلا يستطيع أن ينام ؟

فقالت : اليقظة سجيته ، فكيف تبطل سجيته ؟

ثم التفت فإذا به يواجه صنم « أبولو » إله الشمس وقال : كيف تطيق أيها الإله « أبولون » أن تنكسف شمسك حيناً بعد آخر ؟

فقالت الكاهنة : الشمس لا تكسف وإنما ضباب آثامكم يحجبها عن عيونكم .

فقال : ألا يوجد بين العباد فرد واحد بلا آثام فتبقى الشمس ظاهرة له ؟ . أو لا يتفاوت الناس في الآثام فيتفاوت ظهور الشمس وانكسافها ؟

فقالت : متى غضب إله الشمس عم غضبه الابرار والأشرار .

فقال : إذن ليس هذا الإله عادلاً ، إذ ينقم من الأبرار بجريرة الأشرار .

ثم تقدم فإذا هو أمام تمثال « هيفاستوس » إله البرق والرعد .

فقال : هل يقدر هذا الإله أن يمنع البرق والرعد مدة شتاء واحد ؟

فأجابت : حاشا للإله « هيفاستوس » أن يذعن لامتحان الحكيم الصعلوك سقراط .

فابتسم سقراط وقال : وهل تستطيع الإلهة « إستريا » المنتصبة أمامي أن تضبط ميزان العدل متوازناً ، فإني أراه في يدها مائلاً .

فقالت : هي تستطيع ، ولكن أنتم لا تريدون إلا أن يبقى شركم راجحاً .

ومال وقال : هذه « أرطاميس » العذراء إلهة النور الطاهرة ، فلماذا تسمح بتقديس الفحش في هيكل أفروديت ؟

فقالت : سل عباد « أفروديت » لماذا صنعوا إلهتهم فاجرة داعرة ؟ هل ترون هنا تمثالاً لأفروديت ؟

فقال : إذن تعرفين أيتها الكاهنة الموقرة أن العباد يصنعون آلهتهم لا أن آلهتهم تصنعهم

والتفت إلى تلاميذه وقال لهم : سمعتم قول الكاهنة المحترمة ، وعلمتم أن البشر ينحتون آلهتهم من جلمد ثم يعبدونها . فيمكنكم أن تحطموا هذه الأصنام بمهدات حديدية ، ولا تستطيع الآلهة التي تتمثل بها أن تقيمها ثانية .

فقال أحد أتباعه : وماذا كانت الآلهة قبل أن ينحت الفنانون هذه الأصنام ؟
قال : كانت من منحوتات مخيّلات الشعراء ، والشعراء يتبعهم الغاوون ، فما تخيّله الشاعر صنعه النحات ، وكلاهما من ذوي الخيال الفنّي .
وقال آخر : وماذا كانت الآلهة قبل أن يتخيلها الشعراء وينحت تماثيلها النحاتون من أهل الفن ؟
قال : كانت منظومات في عقول الحكماء ، وتطوّرت ظنون الحكماء فنشأت منها هذه الآلهة الوهمية . أما الإله الحقيقي فهو واحد لاغير ... هو المدبر هذا الكون الذي هو واحد أيضاً . وسأله آخر : أين هذا الإله الواحد يا معلم ؟ أرناه
قال : هو روح غير منظور سرمديّ ، مالىء هذا الكون العظيم ، يديره بسنن سرمدية لا تتغيّر .
وكانت الكاهنة كسائر السامعين منفرجة الشفتين بهتةً وعجباً ، إلى أن سألها سقراط : ماذا عند الكاهنة الموقرة من نبإ للصعلوك سقراط ؟
فحدّقت الكاهنة فيه قائلةً : سقراط مات طفلاً ، وولد كهلاً ، وعاش جهلاً ، وسيصلبُ عدلاً ! ...
وعقّب على قولها بقوله : «وسيبعث قدّيساً» . ثم ابتسم وقال : وحق السماء ما صدقت لكِ نبوءةٌ قبل هذه النبوءة يا كاهنة !
وخرج ، وخرج تلاميذه من حوله ، وهم يتعجّبون مما سمعوه إلى أن سأله أحدهم : ما فحوى نبوءة هذه الكاهنة يا سيدنا ؟ إنها لأحجية .
فضحك سقراط وقال : إن سقراط مات طفلاً في المعرفة ، ولما صار كهلاً علم أنه جاهل لا يعلم شيئاً ، وكذلك عاش جاهلاً . ولما أوشك أن يعلم شيئاً صُلب عدلاً بحكم الشريعة الدمقراطية التي يقيمها أناسٌ ليسوا دمقراطيين .
فقال آخر : أليس الحكم الديمقراطي عادلاً يا سيدنا ؟
قال : لم أقل إنه غير عادل ، بل عنيت أن ديمقراطيتنا غير صالحة ، لأن رجالها ظالمون بل هي فساد مطبق تحت اسم ديمقراطية ، هي نكبة على أثينا ، هي بلوى تشريعية ، هي من وحي هذه الأصنام التي رأيتموها وتعبدونها . إن عبادتكم لها سخف باطل . خيرٌ لكم أن تكفوا عن العبادة الباطلة وتعكفوا على تفهّم الديمقراطية الصحيحة الحقة .
فقال آخر : أتنهانا عن العبادة يا سيدنا ؟
قال : كلاّ ، بل اعبدوا الإله الواحد الحق الذي لا يُرى .

قال : كيف نعبد ما لا يرى ؟ إنها عبادة حمقاء .
قال : بل هي العبادة الحقة السديدة .
قال : قل لنا يا سيدنا كيف تكون عبادة ما لا يُرى ؟
فأجاب : تكون بأن تتأمّلوا هذا الكون إلى أن تدركوا أن له مدبّراً واحداً ، ثم تؤمنون به، ثم تعملون بمقتضى الفضيلة فتمجّدونه بالعمل الصالح.

* * *

وهكذا كان سقراط يسير بين الشعب مبشراً بوحدانية مدبر الكون ، حاثّاً على الفضيلة والأعمال الصالحة بدعوى أن السلام لا يسود بين الأنام إلاّ بالمحبة المتبادلة ، والمسامحة والتضحية في سبيل الإنسانية ، والقناعة والتزام العدالة .

إن الطمع يؤدي إلى العداوة ، والعداوة تثير الحقد والضغينة ، والضغينة تؤدي إلى الخصام فالقتال فسفك الدماء . كل هذه تتلافاها المحبة والمسالمة والتضحية — هذه زبدة فلسفة سقراط وتعاليمه .

كان سقراط يعيش متقشفاً زاهداً مسالماً ، وما عادى إلاّ الطغاة الظلاّم المرائين في ادعاء الدمقراطية .

كانت أثينا في ذلك الحين في فوضى مطبقة لأن الشيوخ « Senators » كانوا فاسدين بلا أخلاق ، إلاّ نفراً قليلا .

* * *

كان مبدأ سقراط السياسي وغرامه الوطني أن تكون الدولة قوية متينة متماسكة متضامنة . وفي يقينه أنها لا تكون هكذا إلاّ إذا كان الوطنيون مثقفين ثقافة صالحة على أسس الأخلاق السامية والعدالة والحق. ولم يكن لسقراط مطمع في وظيفة أو منصب سياسي رفيع أو وضيع ، ولهذا لم يشتغل بالسياسة .

كان يعتقد أن الدولة مؤلفة من وطنيين يمكن أن يتطهروا ويسلموا من الشر بتحسين حالتهم العقلية والخُلُقية عن طريق التعليم والتثقيف وبهذه الوسيلة وحدها يمكنهم أن يميزوا بين الحق والباطل تمييزاً صحيحاً.

بهذا التعليم حصر سقراط عمله الشريف، وعليه وقف دعوته لأنه كان يثق ثقة أكيدة أن العقل البشري يستطيع أن يدرك إدراكاً جليّاً هذه الأدبيات النفسية : أي الفضيلة والحق والحقيقة والنزاهة ، إلى غير ذلك من الفضائل اللازمة لحياة الإنسان . ويمكن أن

يثقف العقل حسب هذه الفضائل . وثمت على الإنسان الرشيد أن يجتنب الآثام وينجو من عواقب الرذائل .

بهذه الروح البارة كان سقراط يطوف في أثينا ، وقلما خرج منها إلى الريف ؛ وكان يقف في وسط تلاميذه وأتباع فلسفته يعلمهم ويعظهم ويشرح لهم الآداب النفسية وفائدتها لسلامة الجنس البشري . وكان يعتقد أنه بهذا التعليم الشريف يرفع نفوس مواطنيه ويسدد خطواتهم الى الحياة السعيدة ؛ لأنه إذا أشبع الوطني بهذه التعاليم السامية وجَّه أعماله إلى الصواب والخير والصلاح .

على أن سقراط لم يتوسَّل بالدين الى هذه الغاية الصالحة ، لأنه لم يكن يعتقد أن الدين كاف لترقية الأخلاق وتقويمها ، بل كان يعتقد أن الدين الذي اصطنعه البشر لا بدَّ أن يكون فاسداً كفساد صانعيه ، والمعبود الذي خلقه البشر ونحتوا تماثيله ليس في طوقه أن يخلق في البشر أخلاقاً سامية شريفة . فإذاً لا يبقى إلاَّ المعرفة أو علم الحقيقة عن هذا الكون وطبيعة الإنسان لتدل الإنسان على الفضيلة . ولا طريق أدل عليها إلاَّ المعرفة .

***

وانتشر صيته في جميع أمصار اليونان فالرومان فما حولهما ، حتى إنه لما سُئِل هيكل دلفي : من هو أحكم الأحياء على الأرض ، أجاب : « سقراط » ، ولذلك تجمع حوله عشرات من التلاميذ والأتباع كما تجمعوا حول يسوع الناصري في اليهودية والجليل . وكان الفيلسوف أفلاطون من جملة تلاميذ سقراط المعجبين بذكائه الباهر ومبادئه السامية . ولم يكتب سقراط لنا كتباً عن فلسفته وحكمته وتعاليمه . ولكن أفلاطون كتب سيرة حياته وشوارد حكمته وفلسفته .

ولسوء الحظ أن الحكومة الأثينية أساءت فهمه ، لأنّ الأثينيين كانوا لا يزالون يتشبثون بالعقائد القديمة البالية ويأبون خلعها . أو ان الأغراض النفسانية ضربت بتعاليمه عرض الحائط ، ولذلك كفَّروه .

وكان سقراط على علم تام بمعلومات عصره الكونية أو علومها كالطبيعة والفلك والرياضيات والحياة الحيوانية والنباتية على ما كان فيها حينئذٍ من السخف والتخرص والخرافات والترهات . ولكنه لم يعكف على البحث والتعليم فيها ، لأنه كان يعتقد أن التفلسف فيها لا قيمة له ، لأنه غير مسند إلى اختبارات وامتحانات عملية تؤيد المظنات الفلسفية . ولهذا جنح إلى الفلسفة العقلية والفلسفة الأدبية « Ethics » والمنطق وتوسع فيها ، ما أذنت له عبقريته العجيبة .

وفي سني سقراط الأخيرة كانت الحروب بين أثينا وإسبارطة في أشد احتدامها. وفي سنة ٣٩٩ قبل المسيح كان الديموقراطيون ناقمين جداً على القواد لأنهم أهملوا واجباتهم، فهلك بسببهم عدد عظيم من الجنود والناس. فاستصدر ألكسانوس، أحد الشيوخ أمراً بإعدامهم في الحال من غير محاكمة، وهو أمر مناقض لروح الدستور والعدالة، فحدث لهذا شغب في الشعب.

وكان سقراط معلم بعض الأعيان وصديقاً لهم، ومنهم كريثياس وثيراميس وبيثودوروس وغيرهم، فشملته التهمة بتلك الكارثة بزعم أنه من أنصار الأعيان أعداء الديمقراطية، فضلاً عن مباحثه الفلسفية المناقضة للدين والدمقراطية، فكثر أعداؤه ومبغضوه. فاستدعي للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ، وكان حينئذٍ خارج أثينا. فما تردد أن لبّى الدعوة وهي أمام الشيوخ لكي يدافع عن نفسه. وكان في السبعين من عمره حين اتهمه المجلس عن نفسه: وكان دفاعه تقريعاً وتأنيباً لمحاكميه حتى أثار حفيظتهم. بالخيانة العظمى في ثلاث جرائم

أولاً: أنه مارق من الدين.

وثانياً: أنه يجحد الديمقراطية التي هي دستور أثينا ويكرز ضدها.

وثالثاً: أنه يفسد عقول الشبان بإغرائهم على ارتكاب هذين الجرمين.

وكان أنيتوس « Anytus » زعيم الديمقراطيين يستجوبه، فقال له هل تعرف أنك أفسدت دين الجمهور بما بثثته فيه من الالحاد والمروق؟

قال: كلاً، البتة. بل بالعكس رددت الجمهور عن الضلال إلى الحق.

— أما قلت في الهيكل لأتباعك إنكم تستطيعون أن تحطموا هذه التماثيل التي تعبدونها ولا تستطيع الآلهة أن تقيمها ثانية؟

فأجاب: أليست هي حجارة نحتها نحاتون من ذوي الفن؟ فهل للحجارة قوة خارقة بحيث لا تتحطم تحت المطارق الحديدية؟

فقال انيتوس: ألا تعلم أن هذه التماثيل ليست الآلهة أنفسها. إنما هي رموز للآلهة الحقيقية. تمثال أبولو مثلاً ليس إله الشمس نفسه وإنما هو يمثل إله الشمس.

— وهل تعني أن الشمس نفسها إله؟

— وهل عندك شك في هذا؟

— ليس عندي شك، بل عندي يقين أن الشمس جزء حقير من أجزاء الطبيعة الكونية العظيمة المالئة للفضاء غير المتناهي، فهي وسائر أجرام السماء وعناصر الأرض إنما هي مواد تتحرك بقوة الإله الواحد القوي الجبّار الذي لا يرى. والشمس وغيرها من

أجرام الكون وعناصره تتحرك بحسب سنن ثابتة لا تتغير كما قررها ذلك الإله المدبر الأكوان ومسيِّرها. هل تستطيع الشمس أن تطلع في غير ميعادها وتغرب في غير ميعادها الذي تقرر لها منذ الأزل والى الأبد؟ هل يستطيع نبات الربيع أن يزهر في الخريف؟ أليست كل ظاهرات الطبيعة مقيَّدة بأزمنتها، ولا سلطة لها على نفسها، ولا بد للآلهة في سلوكها؟

فارتج على أنيتوس. ولم يحر جواباً. فانتهره سقراط قائلاً: أجب يا هذا. هل أخرسك الجهل؟ إنكم في ضلال مبين. عميت بصائركم عن الإلــه الحقيقي.

فانتفض أنيتوس وازمهرّت عيناه غيظاً وقال: منذ الأزل وإلى الأبد تمثل تلك التماثيل آلهتَنا التي عبدها جدودنا وجدود جدودنا. فهل لمارق مثلك أن ينقض عقائد الأسلاف ويغيِّر دين الشعب؟ إنه لإلحاد يستحق الموت توّاً. ثم اما كنت تدحض الدمقراطية بفلسفتك العقيمة؟

— كلاً، البتة. بل كنت أجحد الدمقراطيين لأنهم يدَّعون الدمقراطيــة القويمة في حين أنهم حكّــام مستبدون ظلاّم. وفي صــدورهم أفاعي سامّــة يدّعون أن حكومتهم كحكومة الشعب، من الشعب وللشعب. وما هي إلاَّ حكومة ذئاب في ثياب حملان. هل تريد أن تقنع هؤلاء الشيوخ أنك دمقراطي تخدم الشعب بحكمك بالموت على هــذا العاقل الفاضل الواقف فيكم يدينكم، في حين تزعمون أنكم تدينونه؟ هل أقامتكم الآلهة أيها السخفاء ديّـانين للصالحين وقاتلين للأبرار؟!

فارتجَّ المجلس ودوّت فيه ضجّـة. بعضهم يقولون: فليُصــلب، وآخرون يقولون: لا فُــضَّ فوه. له كل الحق!

وبعد برهة بذل أنيتوس كل جهدٍ لردّ النظام إلى نصابه. ثم استأنف الاستجواب وقال: لعلك تطمع أن تأخذ من هذا المجلس براءَةً بإلحادك، ومرسوماً دمقراطيّــا بصلاحية عقيدتك الفاسدة، وجائزة على اختراعك ذلك الإلــه غير المنظور، أعني الإلــه المجهول أو بالأحرى غير الموجود؟!

فقال سقراط: لا أقبل براءةً أو جائزةً إلاَّ من إلــهي الموجود في كل مكان، الذي به أنت تحيــا وتتحرك وتوجــد، وبدونه أنت عَدَمٌ. ووجوده بيِّــن لذوي البصائر، والسموات والأرضون تخبرنا عنه وتدلنا عليه، ولــكنكم أنتم عميان القلوب فلا تبصرونه وأنتم سخفاء العقول فلا تدركونه، في حين أنه ملامس أجسادكم ومباركٌ نفوسكم..

أعليَّ تحكمون بالموت أيها العميان القــلوب السخفاء العقول، وأنا نور الحق المضيء فيكم.

فإن أمتموني يشتد حلك الظلام فيكم، فتتخبطون في عشوائكم وتتهالكون في غروركم. أما أنا فإلى إلـهي العلي أنضم وبه أسعد .

فصاح أنيتوس لقد قتلنا هذا المجرم بتبجحه وتجديفه واستكباره ....

فضج المجلس وصخب وتعالى القول : « اقتلوه » ورجع على القول : « باركوه ، كرّموه وقدّسوا البرّ فيه » .

ولما هدأت العاصفة سأله أنيتيوس : أما كنت معلم كرينياس وصديقه وعشير السيبيادس ، وموحياً إليهما مبادئك حتى أفسدت سلوكهما ، فدفعتهما وغيرهما إلى هاوية الضلال ؟

فقال : بلى ! كنت صديق الاثنين ، وما علّمتهما إلاّ الحق والحقيقة !

قال أنيتوس : ولكن صوابك كان سبب ضلالهما، فقاتلا الدمقراطية وزعزعا الجمهورية حتى كادت تسقط .

— لا تسقط جمهوريتكم إذا كانت قائمة على أساس الدمقراطية القويمة . وإذا تزعزعت فلأنكم أفسدتموها لسوء تصرفكم وطغيانكم ، وعوّجتموها بإفسادها . إنكم تستغلون الدمقراطية لمنافعكم الخاصة أيها الطغاة العتاة الفاسدون . أأنتم أيها المجرمون تحاكمون الأتقياءَ الصالحين ؟ كان يجب أن تحاكموا أنتم وإن كانت المحكمة عادلة تعجزوا عن أن تبرّئوا أنفسكم . أنتم تستحقون الموت أيها المجرمون .

فضجّ المجلس وعاد الصخب والهرج ، وكان قوم يقولون « اصلبوه » ، وقوم يقولون « قدسوه . إنه يقول الحق » .

وحاول أنيتوس أن يسكّن الزوبعة فلم يستطع إلى أن رفع سقراط ذراعيه وقال بصوت جهوري : سمعاً يا قوم . سمعاً ، سمعاً ...

فهدأت العاصفة لكي يسمعوا سقراط فقال : إني أرحب بحكمكم مهما كان لأني أعلم أني واقف بين جهلة لؤماء ، ولا عتب على الجاهل . فاحكموا بما تشاؤون . وإلـهي يصفح عنكم . لا تحكمون إلاّ على الجسد وأما الروح فلا تصل إليها أيديكم .

وجرى الاقتراع بكل تورّع . وتورّع المسيطرون عليه عن الغش . فاقترع ٢٨٠ ضد سقراط و ٢٢٠ معه . فحكم عليه بأنه مجرم . وطلب خصومه أن يحكم عليه بالموت في أثناء ساعة .

وكان ممكناً أن يحكم عليه بعقوبة خفيفة . ولكنه اشمخرّ واسبطرّ وترفّع قائلاً : إنه ليس مذنباً . فإذا كانت المحكمة عادلة يعامل كرجل صالح مفضال ، ويثاب على تقويمه

أخلاق الناس . ولكن ما دام المجلس يرى فضائله آثاماً فيقترح أن تفرض عليه غرامة إسمية ديناراً واحداً « mina » إرضاء لكرامة المجلس . على أن خصومه لم يستاؤوا من تفاهة الغرامة بل من إدعائه الصلاح وتبجحه بالفضيلة متعالياً عليهم . فحكموا عليه بالموت تواً .

ولما كان قانون أثينا أن لا ينفذ حكم الإعدام في أثناء إبحار السفينة المقدسة إلى ديلوس كعادتها كل سنة ، تأجل تنفيذ الحكم شهراً ريثما تعود السفينة . فبقي سقراط في السجن يستقبل أصدقاءه ويحادثهم كعادته كأنه غير محكوم عليه .

ودبّر صديقه كرينو وسيلة لفراره . ولكن سقراط أبى أن يفر فرار المجرم . فأصر على البقاء على اعتبار أن الدينونة كانت في هيئة قانونية فيجب أن تطاع، وإن كان الحكم ظالماً . أوليس عاراً على سقراط أن يفر ؟!

وكان بعض أصدقائه يجتمعون به في السجن وينصحون له أن يعلن ارتداده عن عقيدته بالآلهة ومبادئه الفلسفية ، فلم يذعن للنصح . وكان تلميذه أفلاطون أكثر المقربين إليه وأحبهم إلى قلبه . فقال له : إنك يا سيدنا مغالٍ في تشبثك بمبادئك . وهذه الغلواء تكلفك حياتك ثمناً لها . فيجب أن تخفف من غلوائك لكي تسلم حياتك .

فقال سقراط : إن هذه المبادىء التي تستنكرونها علي وتحسبونها غلوًّا هي أثمن من حياتي . فأرجوك يا عزيزي أفلاطون أن تخفف من غلوائك في الحرص على حياتي !

فقال أفلاطون : إننا نحرص على حياتك لأننا في حاجةٍ شديدة إليها . فهي ملك الشعب الأثيني لا ملكك . فارفق بهذا الشعب الذي ربيته وعلمته وقدته الى الحق والصلاح ، ولما ينضج بعد . فنخاف أنك إذا فارقته وهو لا يزال قاصراً أن يفقد ما لقنته فيتقهقر . فبالله لا تترك شعبك قبل أن ينضج .

فقال : إن ما بذلته للشعب من تعليم ونصح كافٍ أن يثقفه ويصونه من الضلال . فإن فقده فلا يستحق البقاء . فدعه يتهور في فساده إلى أن يفنى ، والإلهي قادر أن يقيم بعده شعباً أصلح للبقاء . أتريد أن أنكر تعاليمي فيثور علي المؤمنون بي ويحكمون علي بما هو أمرّ من الموت ، ويسجلون علي الإفك والنذالة . دعني يا عزيزي أن أتلقى الموت بطيب نفس، لأني اذا عشت تموت الحقيقة واذا مت تحيا الحقيقة أليست هذه آية الإنسان النبيل الذي قضى نصف قرن يبشر قومه بسعادة الفضيلة ؟!

فتقهقر أفلاطون وخرج باكياً .

* * *

وهنا نسلم القلم لأفلاطون لكي يكتب كيف مضى سقراط ...

كتب أفلاطون يقول : كان سقراط في السبعين من عمره (٣٩٩ ق . م) حين حكم عليه بالموت . ولعله افتكر أنه قد حان له أن يموت ، وأنه يمكن أن لا يصادف حظاً أفضل من الحظ أن يموت نافعاً وطنه وقومه بموته . فقال لأصدقائه المودِّعيه : « سُرُّوا ولا تحزنوا . لن تدفنوا إلاَّ جسدي » ...

ثمَّ نهض واصطحب كريتو Crito صديقه الى الحمام . وأمرنا أن ننتظر ، فانتظرنا . وكنا نتكلم بحزن عميق . لقد كان كأب لنا . وسنكون بعده يتامى . وبعد برهة عاد وجلس معنا ولم يتكلم كثيراً . ثمَّ أتى السجَّان وجلس إلى جانبه وقال له : أي سقراط الذي أعرف أنه أنبل وألطف من جميع من جاؤوا إلى هذا المكان . لا أظنك تنطوي على ضغينة عليّ كسائر المحكوم عليهم الذين كانوا يصخبون ناقمين عليّ ، ويلعنونني حين آمرهم أن يشربوا السم [1] امتثالاً لأمر الحكومة ...لا تغضب عليَّ كما كان يغضب أولئك المجرمون الذين كانوا يزعمون أني أنا المجرم ، وما أنا إلاَّ منفذ حكم القضاء . ووداعاً يا سيدي . فاجتهد أن تتحمل ما لا بدّ منه . وأنت تعلم ما هي واجباتي .

ثم خرج السجَّان والدمع ينسجم من محجريه . وقال له سقراط وهو خارج : « إني أرد لك صدى عواطفك الشريفة . وسأفعل ما أمرت به » . ثمّ وجَّه الخطاب الى الحضور وقال : « ما أنبل هذا الإنسان ! كان يزورني منذ دخلت السجن . يجب أن نفعل كما أمر . إئتني بالكأس التي ينبغي أن أشربها يا كريتو . فإن لم تكن قد أُعدّت فليعدها الخادم .

وأشار كريتو الى الخادم أن ينجز الأمر ، فخرج هذا ، وبعد برهة عاد ومعه السجَّان وفي يده الكأس . فقال سقراط : « أي صديقي الطبيب الخبير بهذه المهمة . القِ عليَّ تعليماتك . ماذا أفعل » ؟

فقال السجَّان : لاشيء سوى أن تتمشى إلى أن تثقل ركبتاك فتضطجع . ومن ثمَّ يفعل السم فعله . وقدم الكأس لسقراط . فتناولها من غير اضطراب ، ولا اكفهرار ، وقال للسجَّان مازحاً : ما قولك إذا سكبتُ شيئاً منها على أحد الآلهة ؟

فأجاب : « لم نحضر إلاَّ القدر اللازم لك » .

فقال : « فهمت . مع هذا يجب أن أصلي لكي تعجل الآلهة رحيلي الى العالم الآخر ثم رفع الكأس الى شفتيه وتجرعها مبتسماً .

قال أفلاطون . إلى هنا كنا نضبط حزننا ، ولكن لما أتى على ثمالة الكأس لم نعد

---

[1] وهو عصير نبات يسمى بالانجليزية Hemlok ولعله المسمى بنجاً بالعربية ، وهذه كلمة فارسية في الاصل . وعصيره مخدر ويحدث السبات في شاربه

طيق صبراً ، فتدفقت عبراتنا ، ووضعت وجهي بين كفي وما كان كريتو أقل تفجعاً مني ، فاندفع الى الخارج ناحياً ، وتبعه أبولو دفيرس الذي ما كفَّ عن البكاء منذ دخل،فصرخ صرخة رهيبة وهو يخرج . فقال سقراط . « ما هذا الصراخ ؟ لقد أبعدت السيدات من حولي حتى لا يزعجنني بولولتهنَّ . لأنه قيل إن الانسان يجب أن يفارق العالم بسلام . فاهدأوا وتصبروا » .

فلما سمعنا هذا التوبيخ خجلنا وكفكفنا دموعنا وعدنا ، وبقي هو يتمشى الى أن قال إن ركبتيه ثقلتا ولم تعودا تحتملانه . ثم اضطجع ، وجعل السجَّان كل هنيهة يجس يديه وساقيه ، ثم قرص قدمه وسأله : أيحس شيئاً ؟

فأجاب : لا . ثم قال لكريتو « إني مدين للطباخ،فهل تتكرم بالوفاء . فوعده كريتو بالوفاء ثم جسَّ هو نفسه فخذه فذراعه وقال : « انهما باردتان . السم دنا من القلب . دنت النهاية فوداعاً يا أصحابي » ثم بعد هنيهة شعرنا بخلجة ، فكشف الخادم الغطاء عن بدنه وإذا مقلتاه جامدتان ، فأطبق كريتو جفونه وشفتيه .

قال أفلاطون : « هكذا كانت نهاية أحكم الحكماء وأعدل العادلين وأفضل الفضلاء من كل من عرفت . انتهى كلام افلاطون .

ويقال إن سقراط كان يكتب فعل المخدر فيه الى أن صار في غيبوبة . فاذا صحَّ هذا القول يكون سقراط أول من كتب فصلاً في الأقرباذين (المواد الطبية أو علم الأدوية) .

مات سقراط ولكن ذكره شاع ، وعاش الى اليوم ، وفلسفته انتشرت بعده في الشرق والغرب . وكانت تدرس في جميع المدارس والجامعات نقلاً عن تلميذه أفلاطون الذي كتبها وعلمها . وجمهورية « أفلاطون » ليست الاَّ وحياً من تعاليم سقراط ، ولهذا جعل اسم سقراط مكان اسمه في المناقشات .

وتزوج سقراط ورزق ثلاثة بنين لم يكونوا على كثير من الذكاء . وكانت زوجته سليطة قليلاً ، ولا غرو لأن المرأة التي تستطيع أن تعيش مع سقراط يجب أن تكون على جانب كبير من الذكاء والمعرفة ، وإلاَّ كان زوجها في نظرها شاذاً لا يطاق معشره . ومع ذلك كانت تقدره قدره فكانت تقول : « لقد منحنا كثيراً من الشهرة والسمعة الطيبة وأعطانا قليلاً من الخبز »

وفي التاريخ نوابغ كان حظهم كحظ سقراط ، منهم جاليليو الايطالي وغيره . وكفى بشبيه له أو — ممتاز عنه — يسوع الناصري وهو يقول : يارب إغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون .

نقولا الحداد

ابن الطبيعة

هذه قصة خيالية ولكنها محتملة جداً وفي كل يوم تحدث حوادث تضاهيها وتكون عبرة وعظة للمتعظين . فلا بدع أن تعجب القارىء .

— ما لك يا أخي سليم مقطباً اليوم ، ما ذا جرى لك ؟

— تكيد كيدك ثم تسألني ما ذا جرى . تبّاً لك من أخٍ خبيث .

فاستغرب يوسف تعنيف أخيه الذي لم يعهد مثله من قبل وهو لا يدري سبباً له . وقال : تقول كيدي ؟ ما ذا تعني يا أخي ؟

— لعلك تتجاهل أنك وشيت بي لأبي إني قضيت معظم السهرة مع الراقصة نعيمة . فغضب عليّ غضباً شديداً وتوعدني .

— ويحك ! أما كنت تفكر أن أباك رقيب عليك بنفسه ويعرف كل حركة من حركاتك لأنه يعلم ما أنت فيه من غيّ . فلا يتوقع وشاية بك من أحد حتى يغضب عليك . وإذا علم أنك لم تعد إلى البيت إلاّ بعد الثانية من نصف الليل فماذا يظن غير أنك كنت متطوحاً في ضلالك .

— بلى . علم من فمك ما أنا فيه من ضلالة وإلاّ لما كان يسهر حتى يعلم متى أعود الى البيت

— سيان علم مني أو من نفسه بزيغانك وانغماسك في شهواتك . أتظل تمادى في سلوكك المشين هذا لا هياً عن دروسك حتى تسقط في امتحاناتك .

— صه . لست وليّ أمري حتى تؤنبني .

— بلى . إني أخوك الأكبر . ولي أن أنبهك الى غوايتك حرصاً على مصلحتك .

— اخرس . لا تقل إنك أخي . فما أنت أخاً ولا أنت ابن العدني

فبهت يوسف واستهجن هذه النغمة التي يرتلها أخوه عليه . أليس هو ابن أبيه جميل العدني ؟ انها لسبّة لعينة . كيف يجسر أن يتفوّه بها . فنزق به قائلاً : صمتاً . أتجسر أن تنطق بهذه الزندقة أمام أبيك ؟ إبن من أنا إذن يا قبيح ؟

فهزّ سليم رأسهُ هزة رحوية وقال ، لا أدري . سل عن أصلك

فسخط به يوسف : ويحك. ما هذا الخلط الذي تخلط . أخبرني ما ذا تعلم عن أصلي وأصلك .

— لا أعلم إلاّ أنك لست أخي .

— أنّى لك هذا العلم الجديد الذي أجهله يا رذيل . مهلاً .سأدينك أمام أبينا يا وغد

— لا تفيدك هذه الدينونة شيئاً . خيرٌ لك أن تسأل عن أبويك .

فاشتدَّ غضب يوسف وأمسك به وهزَّه وقال ساخطاً : قل من أين اخترعت هـذا الإفك يا رذيل . أخبرني ما الذي أوحاه إليك .

— الحقيقة أوحته إليَّ . لست أخي ولا أنت ابن العدلي . إنك تقاسمني هذه الأبوَّة الكريمة منذ الطفولة . حسبك ما تمتعت بها إلى اليوم

فذهل يوسف لأنه رأى أخاه سليما يجدُّ فيما يقول، ولا بد أن يكون لهذه القالة الدنسة أصلٌ أو سبب . ولما انقشع ذهوله لم يجد سليماً أمامه . فدخل الى مخدعه وانزوى فيه يفكـر في طوارىء الزمان . داخله شكٌّ في نسبه . أيمكن أن لا يكون ابن جميـل العدلي وجميلة زوجته ؟وإذا لم يكن ابنهما فإبن من هو ؟

عصفت فى نفسه عاصفة سوداء من الغم والاضطراب . لعلعت في لبه رعود الأفكار الصاعقة،كاد يرى نفسه كأنه سقط من فضاء العدم الىهذا العالم لا أبٌ ولا أمٌ ولا اخوةٌ ولا أنسباء وأقارب . ما سكان الواحة الضيقة في صحراء متراميـة الأطراف بأشقى منه في وحدته في كرة الأرض .

* * *

بعد برهة استدعى أمه الى مخدعهِ وسألها : قولي لي ابن من أنا ؟

فأجفلت أم يوسف قائلةً . ويحك ما هذا السؤال السمج .

— نعم أود أن أعلم ابن من أنا

— عيب يا بنيّ . أفي العشرين من عمرك توجّـه هـذا السؤال للحجر الذي حضنك والصدر الذي ضمك ؟

— نعم أود أن أعرف الصدر الذي أرضعني والبطن الذي حملني .

— ويحي . ماذا قيل لك فرابك في أبويك ؟ هل سمعت أكذوبة من أحد فصدّقت ؟

— بل سمعت صدقاً من سليم فلم أستطع أن أ كذّب . فأود أن أعرف الحقيقة من فمك الصادق .

عند ذلك دخل جميل الأب عليهما يقول : اني أسمع نقاشاً بينكما في أمرٍ ذي بال .
فاخبراني ما الخبر

فقالت جميلة : وانكبتاه ! يسألني يوسف من أبواه . فلا أدري من رمى له بكلمة مزاح سمجة فأقامته وأقعدته .

فنظر جميل في ابنه يوسف نظرة اخترقت صدره حتى نفذت في فؤاده وقال : أي [illegible] رابك في أبويك يا ابني فزرع فتنة بيننا .

— ليس الفاتن غريباً عنا يا أبتاه، هو سليم ابن البيت الحقيقي، قال لي اني دخيل هنا واني مقاسمه نعمة من أهله لا حقّ لي فيها . فأرجو أن تخبراني من أي عالم مجهول تلقفتماني . فأود أن أعود اليه .

فقال جميل : كل مولود يأتي من عالم مجهول . من يستطيع أن يعود الى عالمه المجهول الاّ حين يقضي الى رحمة ربه

فقال يوسف محرجاً أباه : أجل كل مولود يعرف من ولده إلاّ أنا . وقد عرفت اليوم انكما لستما والديّ، واني دخيل عندكما .

— هل تراك أحط منزلة من سليم عندنا . بل ألا ترى أننا نميزك عنه أحياناً . فكان هو أجدر منك بهذا الشك .

— لكن سليماً نفسه قال لي إني لست ابن أبويّ . فعليّ أن أبحث عن والديّ الحقيقيين . لا يمكنه أن يستنبط هذه الحقيقة من أم رأسه . فلا بدّ انه عرفها قديماً أو حديثاً . واليوم دعاهُ الداعي لأن يبوح بها لي . لا يجرأ سليمٌ أن يفضحها إذا لم يكن واثقاً من صحتها

فنزق جميل قائلاً : أين سليم هذا . ادعيه يا أم يوسف . أود أن أعلم كيف اختلق ذلك الخبيث هذه الأكذوبة الكافرة

فقالت جميلة متململة كئيبة . ياويلتاه ! ليس هو هنا الآن . ولا أدري الى أي داهية مضى . انه يفتعل لنا كل يوم صداعاً

فقال جميل مزمجراً : لم أعد صابراً على غوايته . سأضعه في مكانه . لا تعره يابنيّ يوسف أذناً صاغيـة . أنت ابننا أولاً وهو ابننا ثانياً . ونحن واضعان فيك كل آمالنا . لا تبلبل بالك بهذه الأكذوبة الشيطانية . اعكف على دراستك والله معك

ثم قبله وخرج فتبعته جميلة زوجته الى حجرتها حيث جعلا يتهامسان .

❁ ❁ ❁

قال جميل كيف نبش سليم هذا السر الدفين ، من قاله له ؟ ونحن قد احتطنا كل احتياط لكي ندفن السر في أعماق الغيب . حرّفنا إسمنا وانتقلنا من بيئةٍ تعلم أنه لا ولدَ لنا الى بيئةٍ أخرى علمت أن لنا طفلاً . وعلم أصدقاؤنا الجدد أنه صار لنا طفلٌ كما يصير لكل الناس . فما عرف أحدٌ بأننا اقتنينا لقيطاً وجعلناه إبناً لنا . فكيف طلع هذا السر من قرارة المجهول .

فقالت جميلة : لعلَّ عبلة أختك فرطت منها كلمة ، فهي ثالثة العارفين منا

— لا أظن عبلة تفرّط بكلمة بعد عشرين سنة . وهي كانت شريكتنا في دفن السر . على أي حال يجب أن نكابر ونخمد هذه الظنة .

واجتمع جميل بإبنه سليم وقرَّعه تقريعاً عنيفاً لجحد أخيه . واستنطقه رغم أنفه أن يبوح بمن قال له ذلك الأفك وألقى في باله ذلك الزور . فخذ سليم للتهديد واعترف بأن عمته العانس عبلة قالته له .

فاستشاط جميل وصرفه من أمامه واستدعى أخته عبلة المقيمة عنده معزوزةً وعنَّفها تعنيفاً شديداً لأنها باحت بالسر لسليم .

فاجابت والدموع الغزار تهطل من مقلتيها : أجل لم أعد أطيق أن ابننا الدخيل يتفوّق هذا التفوّق العظيم في العلم على ابننا الأصيل حتى صار يشمخ عليه ويؤنبه أحياناً لتقصيره في الدراسة، كأنه وليّ أمره، حتى صرتما أنتما أيضاً تميّزانه على سليم في أمور مختلفة . وصار سليم يحس هذا التمييز ويغار . وبات صدره يتقيَّأ غلاً وحقداً . فكيف أطيق أن يحل الدخيل الغريب محل ابننا الأصيل . نعم يصعب الأمر عليَّ جدًّا . فأخبرت سليماً أن يوسف ليس أخاه، بل هو لقيط فتبنَّيناه لما يئسنا لأن أمك كانت عقيماً لا تلد . ولما صار ربيبهما وتعلَّقا به لم يعودا يتركانه حتى بعد ان جئت أنت . كذا قلت لسليم . فلا تغضب يا أخي . إن ولدك ولدي .

فقال جميل وقد خفَّت سوْرة غضبه قليلاً : إني أقدّر عطف فؤادك حق قدره . ولكن ألستِ ترين أن يوسف نابغة في علمه بشهادة أساتذته وإن سلوكه سلوك الإبن البار . وإن سليماً عكسه على خط مستقيم . فكيف لا أميّز ذاك على هذا .

— ولكن هذا ابننا وذاك غريب عنا .

— نعم هذا هو احساس الجسد. ولكن احساس الروح والعقل شيء آخر. انضم يوسف إلى صدرنا عشرين سنة منذ طفولته وسليم سبع عشرة سنة . فمقام يوسف في قلوبنا يعلو ثلاث سنين عن مقام سليم . لا تجهلي يا أختي أن الأبوين من ربيا لا من ولدا . ولادة الروح

أبرّ من ولادة الجسد . أرجو أن تقتلعي من ذهن سليم هذه الحقيقة الظالمة لكي يستردها من يوسف . إني أذوب وجداً إذا شرد يوسف من بيننا وشاعت هذه الفضيحة .

***

ولكن قبل أن تجتمع عبلة بأخيها لكي تتلقى تقريعه ويكلفها بهذه المهمة الثقيلة كان السيف قد سبق العزل إذ عاد سليم اليها على أثر نقاشه مع يوسف . وحتّم عليها أن تقول له من هما أبوا يوسف الحقيقيين لأن يوسف أحرجه ولم يصدق أنه دخيل . فقالت له : العلم عند رئيسة الدير . فقذف سليم بهذا الاعتراف إلى يوسف .

أسرع يوسف الى الدير والتمس مقابلة الرئيسة بالحاح فاستقبلته في قاعة الزوّار وهي تتشوّف الى الزائر الشاب الجميل النضير وعلى محيـاه سطر من التساؤل المقلق المزعج : ماذا عسى أن يبتغي

— سيدتي المحترمة . اعلم أن رسالتك انسانية محضة وإنك صادقة مخلصة فيما تفعلين وتقولين .

— شكراً لثقتك العظيمة . ماذا عسى أن أخدمك .

— أظنك تقبلين لقطاء توجهينهم الى ملجإ يتصل بديرك .

فظنت أنه يبتغي أن يعرض عليهـا لقيطاً فقالت : يندر ان أفعل ذلك . وإلاّ فأفعله مكرهة لأن ديرنا لا يقبل لقطاء .

— وأنا أتحقق منك عن النـادر الذي فعلته . هل تتذكرين أنك منـذ عشرين عاماً أعطيت لشخص ميسور الحال لقيطاً لكي يتبناه ؟

ففكرت طويلاً ثم قالت : عشرون سنة تذهب بذكرى حادث لا شأن لي به إلاّ في يومه ، ثم يُنسى بعد ذلك . وأنت تعلم أن مثل هـذا العمل محوط بالأسرار التي يُحظَر كشفها . من كان الشخص الذي تعنيه وما اسمه ؟

وكانت الرئيسة تنظر في يوسف متبينة ما في قرارة نفسه كأنها أدركت أنه هو اللقيط فقال أتذكرين اسم جميل العدني ؟

— جميل العدني ؟ لا أتذكر هذا الاسم يا سيدي .

وبعد تفكير طويل استأذنته وخرجت وبعد دقائق عادت وفي يدها كتيب كأنه سجل مذكرات . وقالت : منذ عشرين سنة زارني رجل باسم جميل المدني لا العدني .

فأبرقت أسرة يوسف وقال : ربما حدث هـذا التحريف البسيط في الكنية من غير قصد . فلعله هو الشخص بعينه .

— أتعلم إنك تسأل عن سرّ محظورٌ إفشاؤه .

— اعلم جيداً واعلم إنك تحفظين هذا السر لقصد شريف وان إفشاءه الآن تتمة لهذا القصد الشريف بل هو الباقي عليك من عملك الصالح . فأرجو أن تبسطي كل معلوماتك عن سرّ جميل المدني أو العدني لأني في ظني ضلع من اضلاع هذا السرّ .

— ملخص ما في مذكرتي إن هذا الرجل جاءني ذات يوم يقول لي إن زوجته عاقرٌ ولا يريد أن يطلقها . ويستنكف أن يتزوج أخرى لأجل نسل . فيود أن يتبنّى صبيًّا لقيطاً . فقصد اليَّ لهذا الغرض لأنه قيل له أن اللقطاء يطرحون أحياناً أمام باب الدير . وترك عنوانه لكي أستدعيه إذا عثرت على لقيط. ومن غرائب المصادفات كان كأنه على ميعاد مع لقيط لأنه في اليوم التالي جاءت اليَّ امرأة بطفل تتوسَّل اليَّ أن أقبله في الملجإ التابع للدير . فقلت لها أن حظ طفلك لسعيد جداً لأنه جاءني أمس رجل يلوح لي أنه سريٌّ وإنه ذو أخلاق سامية وتمنَّى أن يوفَّق الى لقيط لكي يتبناه . وتركت المرأة الطفل .وأرسلت خبراً للرجل فجاءني.فسلمت هذا كما استلمت من تلك . هذا فحوى مذكرتي .

— شكراً لمعلوماتك الثمينة يا سيدتي . هل استلمت وسلمت من غير قيد ولا شرط ؟

— تقريباً هكذا . تعهد الرجل ان يربي الطفل تربية صالحة . واشترط أن لا يعرف أهل الطفل مصيره وليس لهم أن يطالبوا به . اما انا فوثقت إنه مصير سعيد للطفل فقبلت الشرط .

— وماذا اشترطت أم الطفل

— لم تشترط شيئاً سوى أن تبقى مجهولة . وكانت بالفعل مجهولة لأنها لم تخبرني شيئاً عن هويتها البتة . فكأنها جاءت من عالم الغيب . وبعد أن سلمتني الطفل عادت الى عالم الغيب .

— أما تركت أثراً ولو عن غير عمد

— بلى تعمَّدت أن تترك أثراً للطفل . لأنها بعد نحو شهر من الزمان عادت اليّ وفي يدها هذه الحلية .وهي كما ترى قلب ذهبي بسلسلة ذهبية . وقالت إنها تود أن تعطي الطفل هذا التذكار حيث هو ، وإن تحفظ معه له حيث هو . وقصدت أنا بعد ذلك الى عنوان جميل المدني فقيل لي انه انتقل من هناك الى منزل يجهله الجيران . وقال بعضهم إنه رحل الى الاسكندرية . فبقيت هذه الحلية معي الى اليوم تنتظر ما يفعله القدر بشأنها .

فتناول يوسف القلب الذهبي من يد الرئيسة وجعل يقلّبه بين يديه الى أن قال : أتسمحين لي به بثمن .

— إن كنت انت الفتى الذي كان ذلك الطفل فهو لك وإلاَّ فما هو للبيع .

— ماذا تريدين اثباتاً على إني كنت ذلك الطفل .

— هل أنت واثق إنك كنته ؟

— كل الثقة . لأن قصة ذلك الرجل المسمى جميل المدني تطابق كل المطابقة قصة جميل المدني .

— إذاً فأنا واثقة بقولك والقلب لك . خذه وإنما أرجو أن تعطيني ايصالاً بأنك تسلمته .

فكتب يوسف لها إيصالاً كما رغبت . ثم سألها . أما عادت إليك المرأة بعد حين تسأل عن الطفل .

— بلى عادت بعد عامين تسأل عنه لكي تطالب به فقلت لها « في الصيف ضيَّعت اللبن » لأن الذي تبنّاه اشترط أن لا أبلغ أحداً أين صار مصيره . ناهيك عن ان عنوانه تغير ولا أعرفه . وقد توارى في احياء القطر . فعادت خائبة .

— أما أمكنك أن تعرفي شيئاً عن هذه المرأة وعن مكانها أو اسمها إلى غير ذلك ؟

— كلاَّ البتة . هي السر المجهول الذي لا أستطيع الوصول إليه . هي اللغز المغلق . لغز أعمق من لغز متبني الطفل .

— شكراً عظيماً لك يا سيدتي . لقد تفضلت عليّ بأكثر مما أملت . أسأل الله أن يقدرني أن أكافئك بالخير . الى الملتقى

* * *

بعد هذه الغزوة الموفّقة ارتاح يوسف نفساً بعض الراحة . لم يبق عنده ريب في أن هذه الذخيرة الذهبيـة هي هدية له من أمه والدته . ولكن أين هي والدته ؟ ومن هي ؟ لماذا أودعته لقيطاً في الدير ؟ وماذا كانت حياتها . وهل لا تزال حيّة أم سبقته الى عالم الأرواح ؟ هذه الأسئلة صارت في عهدة الزمان . فهل يمكن أن يجاوب عليها الزمان ؟ . كان أمله بهذا ضعيفاً جداً كومضة اليراعة في حلك الليل .

أحسّ يوسف إحساساً قوياً إنه غريب جداً عن جميل المدني وزوجته جميلة ، وإنه دخيل في دارها ، وصار يشعر أنه ثقيل في تلك الدار مهما تلطف أهلها به . لم يذكر لهم شيئاً عن زيارته لرئيسة الدير بتاتاً .

وكان يوسف في السنة الأخيرة في كلية الحقوق . وكان متفوقاً فيها تفوّقاً فوق العادة .

وكان الأساتذة والعميد يحبونه حبًّا جمًّا لذكائه ودماثة أخلاقه وطاعته وحسن سلوكه . وقصد حينئذٍ إلى سعادة عميد الكلية وطلب إليه أن يزوّده بكتاب توصية للأستاذ م . ع . المحامي الكبير لكي يخدم عنده في وقت فراغهِ ويتمرّن لقاء أجر زهيد ، فنفحه العميد بتوصية رفعته الى صف العلماءِ الأعلام . فما تردّد الأستاذ م . ع . أن قبله كاتباً عنده بعد الظهر . وما مضت أيام حتى أُعجب به الأستاذ المحامي أي اعجاب وشعر أنه وقع على مساعدٍ نابغة . ولما انتهت الدراسة ونال يوسف الدبلوم صار معوان الأستاذ المعتمد عليه . وكان يوسف يعلق مفتاح مكتبه بسلسلة القلب الذي ناله من رئيسة الدير . وكثيراً ما كانت أصابعه تلعب بالسلسلة كما تلعب بمسبحة كأنه يجد لذّة في هذا

في ذلك اليوم الذي دخل يوسف في خدمة المحامي وهو لا يزال طالباً كتب الكتاب التالي الى أبيه : —

« سيدي الأب الحنون المحترم »

« لا يمكنك مهما تطوّحت في التصوُّر أن تتصوّر قدر حبي لك ولأمي واحترامي لكما وتقديسي لعطفكما وشكري العظيم لعنايتكما بي مدّة عشرين سنة قضيتها في حجريكما وعند صدريكما إبناً عزيزاً محبوباً . ولا أدري ماذا يكون من أمري لو لم يهيىء لي القدر الكريم أن أكون في حضانتكما وتحت رعايتكما . لا ريب أني لا أكون في النعمة التي أسبغتما عليَّ .

فشكراً لله الذي حرمني من والديّ وأودعني بين أيديكما . تنتهي حياتي عاجلاً أو آجلاً ولا ينتهي تقديري لفضلكما وشكري لعطفكما

كفى ما حملتكما من عبئي . وقد أوشكت أن أعتمد على نفسي في مسترزقي . فاسمحا لي أن أستقل في معيشتي تخفيفاً لكما من حملي .

تكرّم الأستاذ المحامي الشهير م . ع . فقبلني كاتباً في مكتبه بعد الظهر قبل أن أتمم دراستي . فشكراً له . لا تستفقداني . فقد أقمت في منزل صغير لائق بين الكلية والمكتب ولا آلو جهداً في أن أزوركما كلما أتيحت لي الفرصة . أقبل أيديكما خاضعاً طائعاً وجنتي أخي سليم محبًّا مشتاقاً . وعمتي عبلة محترماً. ولدكما الطائع .

يوسف

وجمع يوسف « شنطته » وترك هذا الخطاب على سريرهِ ومضى في غلس الليل .

ما اطلع جميل العدلي على هذا الخطاب حتى جنَّ جنونه ومضى إلى الكلية قبل انصراف الطلبة منها وأخذ يوسف من بينهم ومضى به إلى مكان منفرد ، وجعل تارةً

يؤنبه تأنيباً لطيفاً على افتراقه عن أهله . وتارة يتوسل إليه أن يعود الى البيت لأنه ابنهما الحقيقي خلافاً لما أوهمه سليم . ولكن يوسف لم يرعو . فأصر على الفراق شاكراً الى أن قال جميل : هب أن ما بلغ اليك صادق الخبر وقد نبذك أبواك . ثم ربَّاك أبوان آخران فمن أذنب إليك ؟

— لا هذان ولا ذانك

— ومن أولى ببنوتك

— لا أحد . وانما للذين ربياني فضل عظيم لا أنساه ودين عليَّ أعظم أ كافئه بجني حياتي

— أنت تعلم إننا غنيان عن جني حياتك ، بل بالأحرى نود أن نمنحك شطراً كبيراً من جني حياتنا . فلمن تمنح حق بنوتك .

— لغير أحد

— إذن أنت ابن لمن .

أنا ابن الطبيعة . فبحكم الطبيعة ولدني والداي وبحكم الطبيعة عطف عليَّ أبوان غريبان . الطبيعة خلقت العطف هنا ، والشهوة هناك . فكلا الفريقين كانا ينفذان سنة الطبيعة . الآن أنا ابن الطبيعة .

— حسن . أليس لسنة الطبيعة حق عليك

— بلى لسنة الطبيعة حق على كل إنسان

— ما هو حق الأبوين المطوفين عليك إذن ؟

— حب عميق لقاء عطف شديد . وعندي منه ما يطوع البحر الملتج ويخضع روق الجبل الراسي

— إذن ليس ما يمنعك أن تعود الى المنزل الذي فيه نشأت والحجر الذي فيه ترعرعت . أربك يا بنيَّ عد إلى قلوبنا ولا تملأها جمر نار بفراقك

وقبَّله جميل فقال يوسف مقبلاً أيضاً : لست بعيداً عنكم يا أبتِ إنكم في سويداء قلبي في البعد والقرب ، يستحيل أن أنسى القلبين اللذين صنعا مني إنساناً . إسمح لي يا أبي أن أمضي الى واجباتي ، السلام عليك

وترك يوسف أباه مخبولاً

* * *

في آخر الشهر دفع الأستاذ م . ع . ليوسف اثنى عشر جنيهاً قائلاً وعدتك أن أعطيك خمسة جنيهات أجراً . ولكني رأيت أن عملك يستحق مضاعف الأجر

فنظر فيه يوسف قائلاً : أمن خمسة جنيهات الى إثني عشر من أول شهر ؟ هذا غير معقول يا أستاذي . وأنا لا أزال طالباً . لا آخذ إلاَّ الخمسة التي وعدتني بها . وأنا لا أستحقها وإنما أحسبها صدقة منك

فألحَّ عليه الأستاذ فلم يأخذ فقال له : الخمسة لا تكفيك نفقة . فخذ والزيادة احسبها ديناً عليك استوفيه من أجرك في المستقبل حين تنتهي من الدراسة وتتفرغ للعمل ويرتفع راتبك .

— الخمسة تكفيني . ولا أريد أن أنفق على حساب الدين . وإن لم يُقدَّر لي أن أخدمك في المستقبل فمن يدفع الدين ؟

— أبوك تعهد لي أن يدفعه

فضحك يوسف وقال : أرجو منك يا سيدي الأستاذ أن ترد السبعة الى أبي . لا أريد أن أحمّل أبي ديوني . حسبي ما حمّلته منها في ماضي حياتي

* * *

وحصل يوسف على شهادة الحقوق بامتياز عظيم ، وتمكن كرسيه في مكتب الأستاذ م. ع. الشهير . وما مضت أشهر حتى صار يوسف يد الأستاذ اليمنى . وصار يقضي بعض أشغال الزبائن من غير أن يعرضها على أستاذه الاَّ منتهية خارج المحكمة ، حتى أعجب به الأستاذ أيما اعجاب وكان محسوداً عليه .

وفي ذات يوم جاءت سيدة الى المكتب لعرض قضية لها فاستقبلها يوسف وأبلغها أن الأستاذ متغيب في الاسكندرية بقضايا وانه في امكانه أن يسمع قضيتها ويقول رأيه فيها .

لا بأس فقد سمعت كثيراً انك تقضي شتى الأشغال بالنيابة عن الأستاذ بنجاح . فيسرني جدًّا أن تسمع قصتي .

فاعتدل يوسف في مكانه وهو يتبين السيدة وهي في منتصف العمر ، لها مسحة من الجمال لا غبار عليها ولها نضرة من نضرات الشباب ، لم تهب عليها لفحة الكهولة بعد . وقال تكلمي يا سيدتي .

— قصتي قصيرة بسيطة . لي زوج غير شرعي منذ عشرين سنة

فضحك يوسف قائلاً : إذن ليس زوجاً .

— بلى ساكنني معظم هذه السنين مساكنة الزوج للزوجة . وكلما طلبت اليه أن نعقد عقد الزواج راوغ وماطل قائلاً : أما نحن زوجان ؟ ألا يعتبر الزواج إلاَّ بعقد ؟ فكنت

أقول له : لا زواج إلاّ بعقد . فنحن خليلان . وهذا ما لا أقبله . ولم أقبله إلاّ بعد وعد. وما زال يعد ثم يماطل . وإذا هجرته يعود فيعد ثم يماطل حتى ضقت ذرعاً . وأخيراً قلت له هذا حال لا أرضى به . إما أن تتزوجني شرعاً، أو أن تدفع لي تعويضاً كافياً عن مساكنتك لي طوال هذه السنين . فأبى الأمرين معاً حتى اضطررت أن آتي اليك مستنجدة .

فقال يوسف محققاً . أما تزوج غيرك ؟

— كلاّ .

— هل هو غني يستطيع أن يدفع التعويض ؟

— نعم . يمكنه أن يدفع الفين أو ثلاثة أو أكثر ولكنه بخيل بعض البخل .

ففكر يوسف برهة ثم قال : سأستدعيه وأبحث معه وأرى ماذا يكون من أمره . سأكتب له الآن . وأعين له الميعاد بعد الغد بمثل هذا الوقت . ما اسم حضرتك واسمه وعنوانه ؟

— اسمي ليلى النعمانية . واسمه خليل العاطر وعنوانه .....

* * *

في الميعاد جاء خليل العاطر فاستقبله يوسف ببشاشة وتلطف وكان كلٌّ منهما ينظر في الآخر متبيناً . فهذا يرى أمامه فتى في أول الشباب وعلى محياه سمات المحامي المحنك وذاك يرى أمامه رجلاً في شرخ الشباب أنيق الهندام كأنه من الأعيان . وما تردد يوسف في شق الحديث

— أمس الأول كانت السيدة ليلى النعمانية زوجتك هنا ....

فقاطعه خليل قائلاً : ليست زوجتي يا أستاذ

فضحك يوسف وقال : لا أظنك تقبل على نفسك الشريفة أن يقال إنها خليلتك بعد عشرةَ عشرين سنة لئلاّ يقال إنها مومس . ولا أظنك ترضى أن تساكن مومساً .

— ولكن لا عقد زواج بيننا .

— لطالما قلت لها لا أهمية لعقد الزواج . إن المساكنة تعتبر عقد زواج وقد ساكنتها ما يقارب العشرين سنة فلم تبقَ قيمة لعقد الزواج . وأنت لم تجعل لعقد الزواج قيمة . فهل تريد أن تطلقها ؟

— هي لا تريد أن تطلقني . وأما أنا فلا بأس عندي أن نبقى كما نحن .

— لا بأس من هذا وهي لا تمانع، وانما تريد أن تضمن سنداً لمستقبلها . قد يأتي يوم

تكون فيه وحدها في الدنيا لا معين لها . فهل يوافق ضميرك أن تتركها للفقر والبؤس .

فتململ الرجل كأنه أمسِك بخناقه وحار فيما يجيب . ثم قال بعد تردد : ما دمت أنا في قيد الحياة فلا تخاف بؤساً .

— وإذا أفلتُّ من قيد الحياة ؟ هل بينك وبين عزرائيل عقود وعهود .

— ولكن ...

— لا لكن في الأمر . سواء عقدت زواجاً بها أو بقيت خليلة لك فعليك أن تعطيها مالاً يؤمنها على نفسها . وإذا كان في وسعها أن تأتي بشهود على مسا كنتك لها مدة عشرين سنة . فالمحكمة تحكم لها بربع ثروتك بحيث لا يقل الربع عن أربعة آلاف جنيه . فالأفضل ألاَّ تقع قضيتكما بين يدي القاضي العادل . وإذا منحتها هذا الحق فيصبح خيراً لك أن تتزوجها شرعاً .

فوقع خليل في حيص بيص وقال : وَالله ما أحب الى نفسي من أن تكون زوجتي شرعاً . وكنت قد وعدتها بالزواج اذا ولدت غلاماً . فولدت الغلام ثم دهورته . إذن فهي قد أضاعت حقها بسوء عملها .

حينئذٍ برزت ليلى من الباب لأنها كانت منتظرة وراءه تسمع الحديث بحسب تعليمات المحامي . وقالت حرام عليك أن تبرىء نفسك بالكذب . عرفت أني حامل ثم ولدت صبيّاً خِفوتَ وتركتني أمّاً لا عون لها ولا مال ولا رضى أهل . فماذا تنتظر أن أفعل غير اني أتخلص من الطفل لكي أسعى الى تحصيل رزقي .

— أما رجعت اليكِ ولمتك على دهورة الطفل وطلبت اليكِ أن تستردِيه ليكون لنا أقوى من عقد الزواج .

— وقد علمتَ جيداً اني بحثت عن الطفل حيث أودعته فعلمت انه صار بين ايدي أناس يربونه ويعنون به . ولكنهم لم يتركوا خبراً عنهم لأنهم لا يريدون أن يردوا الطفل. لقد غاب الطفل في عالم الغيب وأنت الملوم .

وكانت ليلى لا ترد بصرها عن السلسلة التي تتلاعب بها أنامل المحامي يوسف كل الوقت فطمحت أن تتناولها منه . ولكنها خشيت أن تفعل . وما لبثت أن تجرأت وقالت . ماذا في هذا القلب المعلق بالسلسلة يا أستاذ ؟ أرسم حبيبة لك ؟

فأجفل يوسف . ونظر في القلب وقال . حقّاً لا أدري ماذا فيه ، ولا خطر في بالي أن يكون فيه شيء . فقالت ليلى بصوتٍ متهدج : أما أنا فأؤكد لك أن فيه صورة عاشقة لك . أما هو هدية من حسناء . افتحه وانظر .

فتناول يوسف مدية واحتال على حرف القلب وشقه فخرجت منه وريقة صغيرة عليها صورة حسناء. فخفق قلبه. وخفق قلب ليلى.

وقالت: أما قلت لك ان فيه رسماً لحبيبة عاشقة

وتقدمت اليه وخطفت منه الصورة وقالت أتعرف صورة من هذه

— لا

أنا أعرف. هي صورة من تذوب شوقاً اليك. أنظر فيّ وفيها

فبهت يوسف وارتمت عليه تقبله: «ولدي ولدي». فصدها بلطف قائلاً: مهلاً يا سيدتي. بيننا حساب يجب أن نصفيه

— ويحي. انك من لحمي ودمي

— ولكني لست من روحك. أظن انكِ والدتي ولكنك لست أمي.

ومدَّ خليل يده ليصافحه قائلاً، لقد تمَّ العقد الشرعي بيننا الآن يا ليلى. انتِ زوجتي الشرعية منذ الساعة. إليَّ يا ولدي.

فامتنع يوسف أن يمد له يداً وقال: قد تكون والدي ولكنك لست أبي. كنتما والديّ في شهوة ساعة وانقضت. ثم صار لي أبوان في حب عشرين سنة. فليست بنوّتي لكما بل لحاضنين غمراني بالحب والحنو واللهفة.

فقالت ليلى: ويلي لقد ذبنا شوقاً اليك وبقوة الحب كنا نطلبك فلا نجدك. رحمة يا بنيّ

— ممن طلبتماني؟ أمن القدر النائم. كان يجب أن تطلباني من الطبيعة اليقظة. اني ابن الطبيعة. الطبيعة كالراديوم تشع الحب الى الابد. وأما القدر الأعمى فهو قبر الحب.

فقال خليل: لقد بُعث حبنا الآن يابني وانفجر شوقنا وسطع شعاعه كضوء الشمس واحتدمت حرارته كحرارتها.

فضحك يوسف وقال: أين كان خابياً في العشرين سنة الغابرة فلم ينفجر؟ تكاد جمراته تنطفىء. فلم يبقَ بيننا حبٌّ يا والديَّ. وانما بقي بيننا احترام واكرام.

قالها بغصة وجنح الى غرفة أخرى كي يخفي تأثره فيما كانت ليلى تقول له ذارفة دموع الحنو الوالدي: لا أطيق يا بني أن تكون قاسياً علينا الى حد الجفاء المطلق بل تسمح لنا ببعض أويقات نتمتع فيها بلقائك.

— لكما ذلك.

وبقبلات تشفي الغليل ودّعاه.

نقولا الحداد

باب الأخبار العلمية

المدخرات الشخصية
في الولايات المتحدة

أخذ الأمريكيون يعودون إلى ما يسميه أصحاب البنوك « عادات الإدخار في وقت السلم » . ولكن ارتفاع تكاليف المعيشة وانتشار تجارة السيارات والثلاجات وأجهزة التليفزيون ، تقضي بصرف جانب كبير من الدخل الشخصي . ويستطيع الأمريكي متوسط الحال أن يشتري ما يحتاج إليه بأثمان مرتفعة ونتيجة لذلك يقلّ ما يدّخره عما كان يدخره في اثناء الحرب عندما كاد يوقف انتاج البضائع المستديمة التي يحتاج إليها المستهلكون . وعلى ذلك أصبحت المبالغ التي تسحب من بنوك الإدخار أكثر من المبالغ التي تودع فيها نظراً لأن النقود تستغل الآن في الأعمال التجارية وبناء المساكن وغير ذلك من الأعمال التي تدر دخلاً مستمراً ، بدلاً من ادخارها . ومن الأمثلة على ذلك أن المبالغ المسحوبة من بنوك الإدخار في خلال الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٤٨ زادت بنسبة ١٠ ٪ في مثل هذه المدة من السنة الماضية بينما زادت المدخرات بنسبة ١ ½ ٪ فقط .

وحالة الإدخار في الوقت الحاضر على عكس ما كانت عليه فيما قبل الحرب . ففي النصف الثاني من المدّة الواقعة بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ بلغت نسبة المدّخرات الشخصية ٢ ر ٤ ٪ من صافي الدخل الشخصي الذي يمكن التصرف فيه بعد دفع الضرائب .

* * *

وفي سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ارتفعت النسبة الى ٤ ر ٥ ٪ وأدّت ندرة السلع التي يريد شراءها المستهلكون الى زيادة المدخرات حتى بلغت نسبتها ٢٠ ٪ من الدخل في اثناء الحرب .

وفي سنة ١٩٤٦ قلّت نسبة المدّخرات حتى بلغت ٤ر٧ ٪ وانخفضت الى ١ر٥ ٪ في سنة ١٩٤٧ أي الى المستوى الذي كانت عليه قبل الحرب تقريباً .

اختبار الطائرات النفاثة
في المناطق الحارة

دعا إلى بريطانيا أخيراً الضابط الطيار جورج فرانسيس بعد أن قام برحلة استغرقت عامين تقريباً على متن احدى طائرات دي هافيلاند النفاثة جاب في خلالها أقطار الشرقين الأوسط والأقصى . وكان الغرض من هذه الرحلة هو معرفة مدى تأثير اجواء المناطق الحارة على الطائرات النفاثة وادخال الاصلاحات اللازمة عليها لاستكمال نواحي النقص فيها .

* * *

واقترح فرانسيس وجوب تزويد مكان القيادة بآلة للتبريد باعتبار أن درجة الحرارة كانت تتراوح في بعض المناطق بين ١٤٠ و ١٥٠ درجة فهرنهيت وبلغت أقصاها في مناطق أخرى ١٦٤ درجة .

ومما يذكر أن جورج فرانسيس يعتبر أول طيار في العالم قام بأطول رحلة بواسطة طائرة نفاثة وهي المسافة بين سنغافورة والخرطوم . وزار خلال رحلته في المحيط الهادي سلاح الطيران في الفلبين وسلاح الطيران الأميركي

وكانت آخر رحلاته هي التي قام بها بين الخرطوم ومصانع دي هافيلاند بانجلترا ويبلغ طولها ٣٧٦ ميلاً حيث ستجري عليها مختلف التجارب لاختبار هيكلها ومعرفة أثر المناطق الحارة عليها .

حبوب من البلاستيك
تخفف من آلام قرح المعدة

قام كيمائيو الأبحاث بإنتاج مادّة جديدة وصفها مستر جيمس ونتر ، من شركة المنتجات الراتنجية والكيمائية بفيلادلفيا بأنها « حبوب من البلاستيك تطرد الآلام الناجمة عن قرح المعدة وتنقي العقاقير والفيتامينات وتبسط زراعة الأوركيد وغيرها من الزهور » .

وفي خطاب ألقاه ونتر أمام الجمعية الكيمائية الأمريكية في اجتماعها الجزئي قال :

« إن مكافحة زيادة الأحماض في المعدة عامل هام في شفاء القرح . فالمعاجين الجديدة المعروفة باسم الراتنجات « المبادلة للدالف » تمتص الأحماض وتوقف نشاط المادّة الكيمائية الهاضمة المسماة « بيسين » فتؤدي بذلك الى تخفيف وطأة الألم . . . ولا تحدث « ردّ فعل حمضي أي ازدياد افراز الأحماض الذي يصحب استخدام القلويات العادية .

كما قام ونتر بشرح أثر الراتنجات « المبادلة للدالف » ـ أو المعاجين ـ في تنقية الفيتامينات وزراعة الأزهار النادرة واستخراج قدر أكبر من السكر من قصب السكر ، وتسهيل استخلاص المعادن الثمينة من المحاليل المهملة

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الخامس عشر بعد المئة

بعض محتويات العدد القادم

تضخم الكون الاعظم

بحث علمي طريف

ماذا يعرف

بحث فلسفي

العزلة في رأس الجبل

نقاش صوفي مع ناسك

ضريح شهيدة الامانة

قصة عجماء

جدال : بين الحرية والعبودية

أدبي أفلاطوني

فلسفة الوجود : «ملحق»

لرئيس التحرير

مشاجرات أموات وأحياء : وتدخل ملاك بينهم